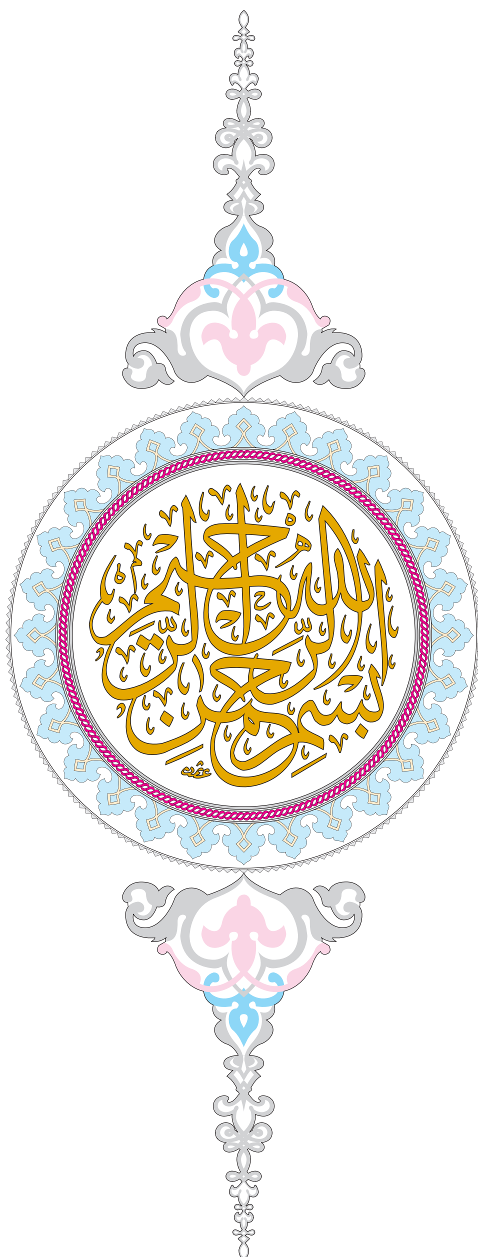
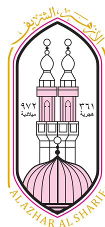




٢٢


بسم الله الرحمن الرحيم





مجلة الأزهر

مجلة شهرية جامعة

تصدر عن مشيخة الأزهر في أول كل شهر عربي

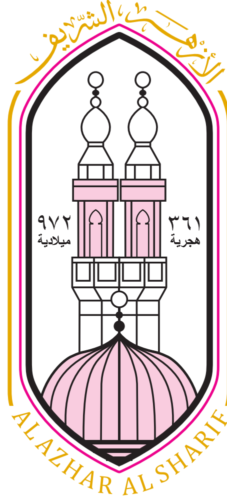
٢٢

المجلد الثاني والعشرون

السنة ١٣٧٠هـ

سقيفة الصفا العلمية

الأزهر الشريف



مشيخة الأزهر الشريف
تليفون : 25907497 / 25899823
فاكس : 25903974 / المحمول : 01114242123
www. azhar. eg

١٤٤٥هـ - ٢٠٢٣م

سقيفة الصفا العلمية
SAQIFAT AL-SAFA TRUST
لبوان ـ ماليزيا
www.saqifat-alsafa.org
E-mail : info@saqifat-alsafa.org

مجلة الأزهر

المجلد الثانى والعشرون

مدير المجلة
ورئيس تحريرها
محمد فريد وجدى بك

الاشتراك السنوى
٤٠ لمصر والسودان
٥٠ لخارج القطر المصرى

ثمن العدد ٤٠ مليما

ادارة المجلة : بديوان الإدارة العامة للأزهر والمعاهد الدينية بالقاهرة



مطبعة الأزهر
١٩٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مجلة الأزهر في عامها الثاني والعشرين

الحمد لله على ما وفقنا إليه من خدمة دينه القويم ، والصلاة والسلام على نبيه ورسوله الكريم محمد ، وعلى آله وصحبه وتابعيه إلى يوم الدين .

أما بعد ، فإننا قد شارفنا السنة الثانية والعشرين من حياة هذه المجلة ، اللسان الناطق للأزهر والأزهريين ، ولست بمبالغ إذا قلت إنها نالت في هذه السنوات القليلة ما لم ينله سواها في مثلها من الشهرة ، وبعد الصيت ، والثقة التي لا تحد ؛ وقد أدت في مدى هذه المدة من الخدم للعالم الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها ، مالا يتفق لغيرها ، لنسبتها إلى الأزهر المعمور . فترى المسلمين يتلقون أعدادها كلما ظهرت تلقي الظمآء للماء النمير ، فيكبون على قراءتها ، ومن لم يعرف العربية منهم يتريث حتى يترجم له قومه مايهم جماعتهم منها . وهذه المنزلة ترجع لحبهم للأزهر ، واعتقادهم الراسخ أنه كعبة العلوم الدينية ، ومورد الثقافة الإسلامية ، والذين يحررونها خيرة الأزهريين علما وعملا .

إن هذه المنزلة توجب علينا المزيد من التدقيق فيما ننقل من مقالات أصحاب الفضيلة العلماء الذين يتفضلون بتزويدها من محصولهم العلمي الثمين ، وتضطرنا لأن نزيدها تحسينا بقدر ما تمكننا منه الطاقة البشرية ، فإنه ليس وراء هذه الخدمة مجال تصرف الألمعية فيه ، ولا بعدها غاية تتوق الهمة البشرية أن تصل إليها .

وأننا في هذا المقام نرى لزاما علينا أن ننوه بالتشجيع الذي تترى شآبيبه علينا من حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول ، ونذكر ما يمنحنا إياه من عطفه الملكي الثمين ، فإن هذا كله من العوامل التي ثبتت وتثبت أركان هذه المجلة ، وتهبها قوة على مضاعفة جهودها في خدمة الإسلام والمسلمين .

كذلك لا يجوز أن نغفل ما يبذله شيوخ الأزهر الأكرمون من العناية بأمرها، والرعاية للقائمين بها، وخاصة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم، فإن فضيلته كان يمدها بفتاويه القيمة فى الشئون الدينية والدنيوية، مما كان لها أكبر الآثار فى كسب إكبار المسلمين لها، واعتزازهم بها.

أما وقد وفينا ببعض ما عاهدنا الله عليه من صادق الخدمة، وخالص الوفاء لهذه المجلة، فإننا نعد قراءها بأننا سنكون عند ظنهم بنا حماة مخلصين لعقائد الإسلام، ودعاة مروجين لفضائله بين الأنام، معتمدين على الله فى أداء واجبنا نحو دينه، راجين منه العون والكفاية، إنه ولى التوفيق، وهو أكرم مسئول؟

محمد فريد وجدى

الاستاذ الاكبر الجديد

حضرة صاحب الفضيلة العلامة الجليل الشيخ عبد المجيد سليم

صدر أمر حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم فاروق الأول ، فى اليوم السابع من شهر أكتوبر الجارى ، بتعيين حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخاً للجامع الأزهر ، خلفا للأستاذ الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخه السابق رحمه الله وتولاه برضوانه .

لقد وفق الله جلالة الملك توفيقا عظيما ، وسدد مرماه أكمل تسديد ، باختياره هذا الحبر النبيل لمشيخة الأزهر ، وهو البقية الصالحة من الأعلام الذين حفظوا تراث العلم جيلا بعد جيل ، وصانوا ثروته القيمة فى أحوال كانت تكفى لأن تبددها كما بددت سواها من مذخور آبائنا الأولين .

وفضيلته مع تحليه بهذه الدرجة العالية من العلم ، قدر له أن يكون مشرفاً على تيار التطور الاجتماعى الذى تقلبت الأمة فى أدواره فى عهدها الأخير ، بتوليه مهمة الإفتاء فى الشئون العامة سنين كثيرة ، فكانت وظيفته تستدعى منه أن يكشف عن مكنونات الشريعة الخالدة ، وأن يجلى سماحتها ، وسعة صدرها لكل جديد نافع ، ولكل طريف لابد منه ، فما كل بدعة ضلالة ، ولا كل محدث جهالة . فكان بفتاواه القيمة نعم العون للأمة فى دور نهوضها العقلى والمادى ؛ إذ جنبها موقف سوء الظن الذى وقفته أكثر الشعوب الإسلامية حيال التيار المدنى الحديث ، فلم تستفد منه شيئاً وجمدت حيث هى فأصبحت نهباً للمستعمرين .

وإن فى تولى فضيلته مشيخة الأزهر على سعة علمه بالعوامل التى تعمل فى الأمم الإسلامية من ناحية العلم وناحية الدين ، تحت تأثير المدنية الغربية ، وما تسلحت به هذه من علوم وفلسفات وفنون ، سيكون له إن شاء الله أثر بالغ فى هذا الدور من الانتقال الذى نحن فيه .

ولسنا نشك فى أن فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم رجل هذا العهد السعيد ، فلندع لفضيلته بالتوفيق ، ولجلالة الملك المعظم بدوام التأييد .

محمد فريد وجدى

إلى فضيلة الأستاذ الأكبر

الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر

تحية من فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ عبد الجواد رمضان
الأستاذ بكلية اللغة العربية

اعلُ ، وسد ، واهتز ، يا أزهر   هذا سليمٌ ، شيخك الأكبرُ
فى سَمته ، فى طىّ أبرادِه   تطابق المظهرُ والمخبرُ
السلفُ الصالح عادت به   أيامُه ، والطابعُ الأنخرُ
والأملُ البسّامُ لاحت لنا   فى وجهه ، أنوارُه تزهَرُ

* * *

يأيها الشيخ الجليل الذى   ينفح طيب المسك إذ يُذكَر
لا يعْوزُ الأزهر علم وما   للعلم إلا بابَه — مصدر
شجاعةُ الدين ، وإيمانه   أعز ما ينشده الأزهر
فانهض بروح الدين فى حصنه   يجلّك الأسود والأحمر
واهتف بشرع الله فى قدسه   ينكشف هذا الزمن الأغبر
لن يُخذل الحق ، وأنت الذى   يدعو به ، والأزهر المنبر

تهنئـــــــة

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم
شيخ الجامع الأزهر

———

يوم أغر على الزمان مخـــلد سطعت كواكبه ولاح الفرقد
وافتر ثغر الدهر عن بسماته والأزهر المعمور شكرا يسجد
والقـوم بين مهلل ومكبر بالبشر يشـدو هاتف ومردد
سبحانك اللهم فضلك سابغ تحمى الحنيفة أن تمد لها يد
والأزهر المعمور صنت عرينه وأعدت عهدا للأُولى قد شيدوا
وبعثت فيهم قائدا من بينهم يعلو بهم هام السحاب ويصعد
شيخ الشيوخ ولا أبالى قائـلا أنت المرجى والرئيس الأوحـد
ولـكم دعونا فاستجيب دعاؤنا وأتيت تعـلى ما بنوا وتشيـــد
الأزهرى سليقة وطبيعـــة أدرى بطبع الأزهرى وأرشـد
وهـو البصير بدائهم ودوائهم يأسو الجراح وللجراح يضمد
يأوحـــد العلماء أنت إمامهم فاسلك بهم سبل الهـداية يهتدوا
لك غـيرة فى الدين ذاعت شهرة ما العـــلوم فأنت فيها المفرد
والحـلم طبع والوفاء سجيـــة والعـدل تاج شع منه العسجد
ومنابع التقوى تفيض جـداولا من نور قلبك والدلائل تشهد
اخلع على المعمور منك مهابة وأعد إليـــه شبابه يتجدد
فى الشرق والإسـلام هزة نشوة هتفوا بحبك يا إمام ورددوا
دم للشريعة حاميا ومنافحـــا فى ظـــل فاروق تعيش وتسعد

السباعى الشناوى

المراقب بالأزهر

من فضيلة شيخ الجامع الأزهر

إلى إخوانه المسلمين وأبنائه الأزهريين

ننشر فيما يلى الكلمة التى وجهها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، شيخ الجامع الأزهر ، إلى المسلمين وأبنائه الأزهريين ، لمناسبة رأس السنة الهجرية :

نحمدك اللهم ونستعينك ، ونؤمن بك ، ونتوكل عليك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونعوذ بك من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، ونسألك العصمة من الزلل ، والتوفيق إلى صالح العمل ، ونصلى ونسلم على نبيك الذى بعثته رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب . ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ، ربنا إنك رءوف رحيم » .

أما بعد ، فإنى أهنىء إخوانى المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها بذكرى الهجرة النبوية المباركة ، وأسأل الله تعالى أن يجعل هذا العام مباركا عليهم ، وأن يوفقهم فيه إلى تبوىء مكانة العزة والقوة ، وأن يربط على قلوبهم برباط الإيمان والأخوة فى الإسلام حتى يكونوا فى سائر شعوبهم وبلادهم كالجسد الواحد ، يشعر قاصيهم بما يشعر به دانيهم ، ويرتفعوا بأنفسهم وأمتهم عن عوامل التفرق والتقطع ، وأسباب التنازع والتباغض .

وإنه ليسعدنى ويشرح صدرى أن يكون أول ما أطالع به إخوانى المسلمين بعد أن توليت منصبى هو هذا البيان الذى أتفاءل خيراً بمناسبته السعيدة وأجعل النصح فيه ، والدعاء شكراً لله على ما حبانى به من نعمة ، وولاء للمليك المعظم على ما تفضل به على من ثقة ، وعرفانا وتقديراً لعاطفة إخوانى المسلمين الذين رحبوا بمقدمى وهنأونى بمنصبى .

إذا كانت الذكريات فى تاريخ الأمم مثار فخر واعتزاز ، يثيرها الآخرون إعجابا وفخراً ، بما فعل الأولون ، فإن فيها لعبرا ينبغى أن تدرك ، ومثلا يجب أن تحتذى ، وإلا كانت مجرد أقوال تقال ، وخطب تذاع .

وإن تاريخ نبينا الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ، لهو تاريخ المثل العليا ، والأخلاق الفاضلة ، والبطولة التى أساسها الصبر على المكاره ، والثبات للمحن ، والتضحية بكل عزيز وغال فى سبيل الحق والخير والإصلاح ، وما الهجرة إلا فصل من فصول التاريخ العظيم .

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين هاجر من مكة إلى المدينة فوق الخمسين من عمره بثلاث سنين ، فلم يركن فى هذه السن إلى الهدوء والراحة ، ولم ينشد النعيم والدعة ، ولكنه احتمل عبء الجهاد فى سبيل الله راضياً مطمئناً صابراً على الأذى محتسباً أجره على الله ، واثقاً بالنصر والفوز ، وقد راودوه عن دينه ورسالته ، على أن يكون ملكا أو يملأوا عليه بيته فضة وذهباً ، فأبى واستمسك بما ندبه الله إليه ، وقال كلمته الخالدة التى يهتز لها قلب كل مؤمن : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه » .

وظل يصدع بكلمة الحق فى وجوه أساطين الباطل عالية تدوى بها أرجاء مكة وما حولها ، وتقض مضاجع مشركيها وطواغيتها ، فآذوه إيذاء شديداً وحاربوه حربا منكرة ، وألبوا عليه قوى الشر والفساد تأليبا ، فما لانت قناته ، ولا صدعت صفاته ، حتى إذا لجئوا إلى آخر وسيلة يلجأ إليها المبطلون حين يضيقون بأهل الحق ذرعا هـمّوا بقتله ، ودبروا تدبيرهم الخبيث للفتك به ، أمره الله أن يخرج من هذه القرية الظالم أهلها ، إلى بلد طيب ، صالح لاستقبال بذور الخير والصلاح ، ونباتها إنباتا حسنا « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » .

وهكذا ضرب المثل فى الصبر حين صابر ، وفى الهجرة حين هاجر ، وعلم المؤمنين وسائر المصلحين أن أول مراتب الجهاد هى الصبر كل الصبر والاحتمال كل الاحتمال ، فإذا لم تجد المثابرة والمصابرة فى بيئة من البيئات لفسادها والتوائها كان الرأى والحزم أن تتحول دعوة الحق إلى غيرها ، وأن تطرق أسماعا جديدة وعقولا

رشيدة ، فإن المبادىء والدعوات كما تحتاج فى نشرها وتثبيتها إلى قوة وشجاعة وصبر واحتمال ، تحتاج كذلك إلى سياسة وبصر وحسن تصرف وتجديد فى التماس وسائل النجاح .

إن هذه الذكرى تطالع المسلمين ، وقد تألبت عليهم فى شتى بلادهم قوى الشر ، وداخلتهم عوامل الفساد ودواعى الفشل والضياع ، فإذا لم ينتبهوا من غفلتهم ويستيقظوا من رقادهم ، ويعالجوا أسباب ضعفهم وخذلانهم ، فإن الأمر والله جلل ، وقد دلتنا عبر التاريخ وحوادث الدهر ، أن الأمم إذا انحلت أخلاقها ، وفسدت عقيدتها وخرجت على دينها والصالح من تقاليدها ، وتنكرت للفضائل ، وانغمست فى الرذائل ،كان ذلك من علامات ساعتها ودلائل آخرتها .

فإذا كنت موجها فى بيانى هذا إلى إخوانى المسلمين نصيحة ، فهى أن يفيئوا إلى رشدهم ، ويتوبوا إلى ربهم ، ويعودوا إلى دينهم ، ويخلعوا أنفسهم من المباذل والمنكرات وسائر ما نهى الله عنه ، ويتمسكوا بالفضائل وأخلاق الشرف والاستقامة التى قضت سنة الله فى خلقه ألا تنهض الأمم إلا بها ، ولا تقوم الحياة السعيدة إلا عليها « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا » .

أما أنتم أيها الإخوان والأبناء فى الأزهر من أساتذة وطلاب فنصيحتى إليكم أن تدركوا حق الإدراك أنكم مجندون فى سبيل الله ، تبينون للناس طريق الهدى وتدعونهم إلى الخير ، وتأمرونهم بالمعروف وتنهونهم عن المنكر ، وسبيلكم إلى ذلك أن تصلحوا أنفسكم أولا ، وأن تجعلوا منها مثلا عملية يراها الناس فيحتذونها ، فى الدين والعلم والخلق والمظهر والمخبر ، فأقبلوا على دراساتكم ناشطين مخلصين ، وابذلوا فى سبيل كمالكم العقلى غاية ما تستطيعون ، وتجمّلوا بالفضيلة فيما بينكم وفيما بين الناس ، فإن العلم سلاحكم والخلق صلاحكم ؛ وليستحضر الأستاذ وطلابه دائما أن العلاقة بينهم كالعلاقة بين الأب وأبنائه . له عليهم السمع والطاعة والتوقير والإجلال ، ولهم عليه الإخلاص والصدق والنصح والتوجيه إلى التى هى أقوم .

إنى أريد لكم الخير وأبغيكم سبيل الرشاد، وأرجو تحقيق آمال الأمة فيكم، وإعلاء كلمة الدين والعلم بكم، وتأييد الحجة القائمة على أنكم أعلام الحق ودعائم الخير. فأعينونى على إصلاح شأنكم، وارفعوا رأسى أرفع رءوسكم، واستوجبوا العدل والإنصاف بالجد والإخلاص، وكونوا على اختلاف بلادكم وشعوبكم ومذاهبكم إخوانا فى الله متحابين. «وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان».

أسأل الله لى ولكم الصلاح والرشاد.

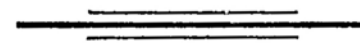
«يأيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون».

«والعصر، إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر».

اللهم إنى أتوجه إليك، توجه العبد الخاضع، لجلالك وعظمتك، الراجى لرحمتك ونعمتك، أن تنصر الإسلام والمسلمين، وأن تكلأ بعين رعايتك، وتمد بتوفيقك وهدايتك ملوكهم ورؤساءهم، ولا سيما ملك مصر وملاذها وموضع آمالها، ومناط مجدها وعزها، فاروقا الأول حفظه الله وأيده بنصره، ووفق رجال حكومته إلى ما فيه الخير والصلاح.

اللهم وارحم مليك مصر الراحل الطيب الذكر فؤادا الأول، وأسبغ عليه حلل غفرانك ورضوانك يا أرحم الراحمين.

والحمد لله رب العالمين، وسلام الله ورحمته وبركاته عليكم أجمعين.



احتفال الأزهر
بذكرى الهجرة النبوية

احتشدت ألوف مؤلفة من العلماء والوجهاء والطلاب يوم الجمعة أول العام الهجرى بعد صلاة العصر بالجامع الأزهر، لسماع كلمة الجامعة الأزهرية فى يوم الهجرة النبوية، وكان حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم فى مقدمة المحتفلين بهذا اليوم الكريم؛ فنهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمود أبو العيون سكرتير عام الأزهر فألقى كلمة أحسن فيها كل الإحسان، ووفى المقام حقه أكمل توفية، فقابلها المستمعون بالإعجاب والثناء. وها هى :

إذا ذكرت هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم رجع الذهن إلى سبعين عاما وثلاثة عشر قرنا مضت على حادث تمخض عنه التاريخ، لم يحدث مثله فى العصور القديمة قط؛ حادث تغير له وجه الزمان، وانقلبت به الأوضاع والشرائع؛ ذلك هو هجرة الرسول الأكرم صلى الله عليه وسلم؛ حادث تجلت فيه قوة العزيمة ونفاذ البصيرة، وكمال البطولة، وصدق الإرادة، وقوة الإيمان، وغاية التضحية والإيثار.

أنجر فجر النور المحمدى، وأشرق سناؤه، وتباج ضياؤه فى جزيرة العرب، وكان يسودها ظلام الشرك والجهالة، وتتناوشها أحابيل الشرور والبوائق، وعقابيل الاضطهاد والمظالم، والعالم كله كان يئن تحت أثقال الحياة وضراوتها.

ظهر المعصوم، صلى الله عليه وسلم، فى هذه البيئة يدعو الناس إلى الصراط المستقيم، فوعد وأوعد، وبشر وأنذر؛ فمنهم من آمن به وهم قل، ومنهم من صد عنه، وهم من لهاميم قومه وعشيرته من قريش، ومن لف لفهم من صناديد العرب المقاديم ذوى العصبيات والكثرة، فلم يلق منهم إلا تأبيا ونفورا، فما زال بهم يلاينهم ويصانعهم، ويفتل بهم فى الذروة والغارب، وما زالوا به يحاورونه

ويداورونه ، ويلفون حوله بالتهديد مرة ، وبالإغراء أخرى ، ويعدونه ويمنونه بالمال والجاه والملك والشرف ، وهو عن ذلك متأبٍّ ، معرض أشد الإعراض ، فعدلوا عن الإغراء إلى مطاردته والتضييق عليه ، وتعذيب أصحابه أشد العذاب . كان يصلي بالكعبة فأتوه وهو ساجد ، ووضعوا سلا البهائم على رأسه ورقبته ، فجاءت فاطمة باكية وأماطت هذا الأذى عنه . وكان يصلى مرة أخرى فيجيء أحد أعمامه ويخنقه ، وجعل يعتصر رقبته حتى جحظت عيناه فيأتى أبو بكر ، ويمنع عنه . ويقول : « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله » ومع ذلك التضييق والتعذيب يثبت فى دعوته ، ويحتمل الأذى فى سبيلها ، ماضياً لا يصده صاد ، مقداماً لا يرهب الردى . ويؤخذ بلال ، وهو أحد الموالى المؤمنين بالدعوة ، ويجلد بالسياط وهو يقول : « أحد أحد » . وعمار بن ياسر توضع الصخرة محماة فوق بطنه ، ويعذب هو وأهله بالنار ، وهم صابرون ثابتون على إيمانهم .

ولقد تفنَّن المشركون فى ضروب الإيذاء للصادق المصدوق ، صلى الله عليه وسلم ، وهو فى غضون ذلك ينتهز الفرص فى المواسم ، ويدعو الوافدين على أسواق مكة ، والبيت الحرام ، ويعقد البيعة سراً على الهدم والدم مع رهط من الخزرج من أهل المدينة ، فكانوا أعضاداً له وأنصاراً فى مستقبل الأحداث الجسام .

ولقد مُنى المسلمون بأعظم المحن والبلايا فى أنفسهم وفى أموالهم ، ففر كثير منهم رجالا ونساء إلى الحبشة ، وإلى غير الحبشة من الأصقاع النائية ، وبقى البعض بمكة يعانى من الشدة والضيق ما لا يحتمل ، ولا يستطاع الصبر عليه ، وفى آخر الأمر رأى أعداء الحق أن يقضوا على الدعوة قضاء مبرما ، وأن يغتالوا صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام ، فاشتوروا وترادُّوا الأمر بينهم ، واتفقوا على أن يقوم بالأمر فى ذلك فتيان أشداء من قبائل العرب ، ويضربوه ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبد المطلب على الثأر له ؛ فأطلعه الله على مكرهم ، وتأذن له بالهجرة إلى المدينة « وإذ يمكر بك الذين

كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين » .

مضى النبي قدما إلى الغاية التي رسمها الله له ، ومعه صاحبه أبو بكر ، وضربا في الصحراء في ليل أليل حتى بلغا غار ثور ، فلما بلغاه تقدم أبو بكر فاستبرأه ، ودخله الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه صاحبه الصديق رضي الله عنه ؛ ويصبح المتآمرون وقد دخلوا دار الرسول شاهرين أسلحتهم ، لتنفيذ ائتمارهم ، فيجدون عليا نائما في موضعه ، مسجى ببردائه صلى الله عليه وسلم، فيرتدون خائبين . ثم تجدُّ قريش في طلبه واللحاق به ، ويمرون بغار ثور ، ولو أنهم نظروا تحت أرجلهم لرأوه صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله أعمى أبصارهم كما أعمى بصائرهم ، وأنجاه من كيدهم .

« إلا تنصروه فقد نصره الله ، إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمةُ الله هي العليا ، والله عزيز حكيم » .

وبعد ثلاثة أيام مضاها الرسول صلى الله عليه وسلم في غار ثور ، اتخذ سبيله إلى المدينة فاستقبله أهلها مكبرين مهللين . قال البراء : « ما رأيت الناس فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله يوم جاء المدينة » . وبذلك تمت هجرته صلى الله عليه وسلم ، وسمى المسلمين بالمدينة الأنصار .

وعلى أثر ذلك هاجر كثير من أصحابه إلى المدينة ، فآخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهم وبين الأنصار ، وجعلهم أمة متراصة متماسكة قوية ، ثم وحد بين الأوس والخزرج ، وقد دخلوا في الإسلام أفواجا أفواجا ، فكانوا إخوة متحدى الأفئدة والغاية والآمل ، وزال ما كان بينهم من جفاوة وعداوة قديمة مستحكمة .

وبعد أن استقر الأمر للرسول صلى الله عليه وسلم عبأ الجيوش ، وعقد

لها الألوية ، وبعث البعوث ، وأخذ من ذلك الحين يحمى الدعوة الإسلامية ويذود عنها ، ويقاتل من يصد عن سبيلها .

« ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول ، وهم بدءوكم أول مرة ، أتخشونهم ، فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين ، قاتلوهم يعذبْهم الله بأيديكم ، ويُخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » .

ومن ذلك قويت شوكة المسلمين ، وتأمنت الدعوة الإسلامية ، وجعل الناس يدخلون فى دين الله آمنين مطمئنين ، وعم الإسلام ربوع الجزيرة ، ثم أخذ يزحف إلى جوارها ، وما انتقل رسول الله إلى الرفيق الأعلى حتى كان الإسلام قد شرّق وغرّب ، وكانت له الكلمة العليا .

والعبرة فى الهجرة :

١ — أن القادة والأحرار إذا سيموا الضيم فى أوطانهم ، ولم يستطيعوا تأدية رسالتهم فى قومهم ، هاجروا إلى بلاد يتهيأ لهم فيها العمل أحراراً ، ويتمكنون من إسماع صوتهم الى مواطنيهم .

٢ — أن الأحرار بهجرتهم يستطيعون بحيلتهم ، وحسن سياستهم أن يجمعوا حولهم أنصاراً يساندونهم فى بلوغ غايتهم ، ومعقد آمالهم ، وبذلك يرجعون إلى أوطانهم منتصرين فاتحين .

ويقول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كنتم ؟ قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ؟ » .

« ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مُراغَما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » .

وفى هذه الهجرة بالذات تحققت تلك العبرة ؛ وكانت فرقا بين الحق والباطل ، والظلام والنور ، والخير والشر ، وكان فيها هداية الناس ، وسعادة البشر .

وإن الأزهر إذ يحتفل بالهجرة النبوية ، إنما يحتفل بحادث إسلامى عظيم له خطره فى حفز الجماعة الإسلامية إلى أقدس الغايات ، وأسمى المقاصد ؛ وتذكيرهم بأيام البطولة الخالدة للمسلمين الذين كانوا يعيشون للحق ويتسابقون الى سُوح الموت والشهادة ؛ للذياد عن الراية الإسلامية ، وإعلاء كلمة التوحيد .

أما بعد : فإن الأزهر ليأسف أشد الأسف لفقد شيخه السابق المغفور له فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مأمون الشناوى ، فقد كان عضداً للدين ، وأباً رحيما للأساتذة والطلبة ، وكان ميمون النقيبة ، عظيم النفع .

وللإسلام والمسلمين خير عوض فى شيخ الأزهر الحالى ، فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، ولقد فرحنا بتوليه كرسى المشيخة فرحاً عظيما ، ففضيلته معروف بالورع والتقوى ، والغيرة على الدين والكرامة ، والتضلع من علوم أصول الدين ، والفقه الإسلامى على الأخص .

حفظه الله نصيراً للدين ، وأبقاه عضداً للعلم والعلماء ، وأعانه على عمل الخير للأزهر والأزهريين .

ونصلى ونسلم عليك يا رسول الله صلاة وسلاما دائمين دوام ملك الله .

وندعوك اللهم أن تهدينا بهديه ، وأن تيسر لنا السير فى سبيله ، وأن تبصرنا بحالنا ، وأن توفقنا الى خدمة الوطن الإسلامى ، وأن تسدد خطوات ولاة الأمور فينا ، فى ظل حضرة صاحب الجلالة المتوكل على الله الملك فاروق الأول ، ناصر الدين ، وحامى حمى الإسلام والمسلمين .

اللهم احمه بحمايتك ، وارعه برعايتك ، واكفل له حياة مديدة مقرونة بالعز والتأييد .

وأن توفق رجال حكومته الرشيدة لعمل ما فيه خير العباد والبلاد .

ليس من هنا نبدأ

صدر كتاب تحت عنوان (من هنا نبدأ) أحيط بلغط شديد ، ثم صودر ، ووكل أمره إلى محكمة القاهرة الابتدائية ، فحكمت بأن ليس للقانون مسوغ فى مصادرته ومنع انتشاره ، فأقبل الناس على قراءته ليروا مثار الضجة التى أوجبت محاكمته ، حتى طبعت منه عدة طبعات فى مدى نحو ثلاثة أشهر ؛ وهو إقبال لم يصادفه كتاب قبله فى هذه البلاد . ولذلك عنينا بأمره وقرأناه بعناية ، فوجدنا مؤلفه الفاضل فضيلة الأستاذ خالد محمد خالد خريج كلية أصول الدين ، قد خاض بحراً لا ساحل له من فلسفة الدين ، وفلسفة الاجتماع ، أداه إلى وجهات نظر تحتاج لتمحيص دقيق ، وتحليل محكم ؛ لأنه بعد أن منحته المصادرة هذه الدرجة من الذيوع يجب أن ينال حقه من النقد ، لاسيما وقد عالج أعظم المسائل خطورة ، وهى الدين ، والاجتماع ، وتوزيع الثروة العامة ، ولا توجد مجلة من اختصاصها هذه المسائل أجدر من مجلة الأزهر بنقده .

* * *

كتاب (من هنا نبدأ) يشتمل على أربعة أبواب ، أولها (الدين لا الكهانة) ، وقد شغل منه ثمانية وأربعين صفحة ؛ ثانيها (الخبز هو السلام) ؛ وقد استدعى منه ثمانية وأربعين صفحة أيضاً ؛ ثالثها (قومية الحكم) وقد أخذ منه خمسة وستين صفحة ؛ رابعها (الرئة المعطلة) وقد استوعب منه تسعة وخمسين صفحة . وقد وضعنا كتابا ناقشنا فيه فضيلة الأستاذ مناقشة علمية ، الغرض منها الوصول إلى الحقيقة لا إثارة المهاترة ، وعرقلة المساعى التى تبذل للإصلاح والتكمل ، وقد سلمناه المطبعة على أن لا تذيعه إلا بعد أن يتم نشره فى هذه المجلة .

قال فضيلة الأستاذ فى أول فصل من كتابه :

« كل ما نود أن ننصح به ، هو أن نبارك هـذا (الوعى) وندعه ينمو ويتسلق ، وأن لا نحاول قط كبحه وزجره ، فإن ذلك هو السبيل كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل ، الذى نريد أن نكوّنه . قد تصيب مرة وتخطىء مرات (يريد الأمة) ، وتهتدى تارة وتضل تارات ، ولكنها أخيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب » .

« إننا لن نقدم لمجتمعنا فى هـذه الفترة الحاضرة خيرا من (الحرية) ، كى يستطيع فى ضوئها وسناها أن يرى ، ويفكر ، ويختار الطريق القويم » .

« والتحرر من (الخوف) هو نقطة البدء فى طريقنا الطويل ورحلتنا الشاقة » .

« ومن أجل ذلك يجىء هذا الكتاب فى أوانه ، ليقول للمجتمع (لا تخف) ، وليزيح من طريقه تلك الأشباح التى تخيفه وتخذله وتملؤه روعا ورعباً - كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعباً وأفراداً ، أن يتحملوا تبعات الرشد فى شجاعة وغبطة ، وأن يتقبلوا الواجبات الجديدة التى تفرضها علينا الحياة وظروفها ، وأن يكون كل مواطن أداة حية تساهم فى التحول الاجتماعى الرشيد الذى تتوق إليه ، والذى يجب أن يبدأ فورا ويتم سريعاً » .

ثم فسر حضرته ما يريده من قوله التحول الاجتماعى ، أنه : « إلى قومية شاملة لا تنافر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج سليم لا سلطان للرجعية ولا للكهانة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حباً ... وتربصه ولاء وأمناً ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة » .

ونحن نعلق على هذا الكلام بقولنا :

إن وعى الجماعات كوعى الأفراد يكون عادة مقدمة لبلوغها جميع مقدمات الحياة ، وأسباب البقاء ؛ ولكنه كما هو لدى الأفراد يحتاج لتوجيهات من الآباء والمعلمين ، هو كذلك لدى الجماعات فى حاجة ماسة إلى هـداة ومرشدين ؛ فإن أعوزوا ارتد هـذا الوعى كارثة عليهم ، وانقلب بحكم التطور إلى اندفاع لا يقف فى عنفه عند حد ، وهو ما نعانيه اليوم من تدهور الأخلاق ، وانحلال الرُّبُط الأدبية

وتدافع الجماهير إلى مايبيدها ويبددها . ومن العجيب أن المؤلف ينصح - والحال كما ترى - بمنحها (الحرية) ويعظها بالتحرر من (الخوف) أيضاً ! .

إن الخروج على الآداب المتفق عليها فى هذا الدور الذى نحن فيه ، ويسميه الأستاذ ، وعيا ، ويطلب له المزيد من الحرية ، قد بلغ إلى حد لا يمكن أن تقبله وتطيقه أمة لها أمل فى البقاء ، فقد عق الأبناء الآباء والأمهات ، واستخفوا بالآداب والمعتقدات ، ولولا أن القوانين تحد قليلا من هذه الإباحة الجنونية ، لأصبحت الطرقات والمتنزهات بؤرا لأحقر ضروب الموبقات .

أفيظن مؤلفنا أن هذا الضرب من الوعى المتروك لسلطان الشهوات ، يؤدى إلى ما يتخيله من نهوض ، وخاصة بعد أن يهبه الناس قسطاً من الحرية أوفى مما كان سببا فى هذه المنكرات ؟ لم يقل بهذا الرأى عالم اجتماعى فى العالم ، لأنه مما لا يعقل ؛ فإن الشعوب إذا تمادت فى ركوب أهوائها ، جرفتها انحرافاتها فى متاثه من الضلال ليس وراءها إلا التفكك والانحلال .

إن الشعب الذى يترك له الزمام ، وخاصة فى دور شبيبته ، لا يزال يهيم فى متاهات طيشه حتى يصاب بالإعياء الذى يسلمه إلى اليأس ، وإذ ذاك إما أن يفنى فى جثمان شعب آخر ، أو أن تحتله دولة مستعمرة تستغل الدّماء الذى بقى له من الحياة . أما البقاء فلا والله ، إلا إذا وعى الحياة على ما يفهم المصلحون ، وحد من شهواته وحريته ، واحترم الوصايا التى أجمع العالم كله على أنها أصول الرقى ، وينابيع الفلاح .

ومن عجب أن الأستاذ يتيح للشعوب أن تؤتى كل هذه (الحرية) ، وينصح بعدم الحد لها منها ، ويوصيها أيضا بأن تنزع (الخوف) من قلبها ، أى أن لا تحسب لمغبة تهورها حسابا ! فليسمح لى أن أقول : إنه لا يوجد شعب يدخل فى هذا الدور ملقى حبله على غاربه ثم يخرج منه وله وجود بين الشعوب ! بل أن أقول : لم يوجد شعب كتب له البقاء وجد فى الشروط التى يوصى بها الأستاذ منذ عرف التاريخ ؛ فقد جرت سنة الله على أن الشعوب التى كتب لها الوعى

والارتقاء ، ينشأ من صميمها أفراد يتولونها بالنصح والإرشاد ، ويعدلون من عوجها كلما انحرفت عن الطريق ، ويرشدونها إلى سواء الصراط ، تارة بالوعظ والتذكير ، وطوراً بالزجر والعقاب ، حتى تبلغ أشدها ؛ ولا تحرم فى دور من أدوارها من المرشدين والهداة . فعلى أى أساس علمى يدعو الأستاذ القادة والقائمين على الأخلاق والآداب أن يلزموا الصمت والاستكانة ، تاركين شعبهم يهيم على غير هدى حتى يتنزل عليه الرشد من نفسه فيستقيم ؟ هذا طلب ما لا يمكن ولا يكون ، وما لم تجر سنة الله به فى أمة من الأمم من يوم خلقها إلى هذا اليوم .

* * *

وبعد ، فإلى أى هدف يرمى الأستاذ بعد إسدائه هذه النصائح : « إلى قومية شاملة لا تنافر فيها ، وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال ولا ظلم فيها ، وإلى وعى ناضج لا سلطان للرجعية ولا للكهانة عليه ، وإلى سلام غامر يبدل حقد المجتمع حباً ... وتربصه ولاء وأمنا ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة » .

نقول : أما الاشتراكية فهى لا تزال فى الميزان ، فقد قال بها أفلاطون قبل نحو ألفين وأربعمائة سنة ، فاعتبر قوله الناس من الأمور الخيالية . ولكن التفكير فيها بقى حياً يظهر حيناً ويختفى أجيالا . ففى القرن الخامس عشر دعا إليها الفيلسوف (توماس مور) الإنجليزى . فشرع الناس يؤسسون مدناً على النظام الاشتراكى البحت ، فلم تقم لها قائمة ، وعلل الاشتراكيون فشلها بأنها لم يراع فى إنشائها ما يحيط بها من المؤثرات .

فلما نبغ (كارل ماركس) ، وكان من يهود ألمانيا ، وضع للاشتراكية أساساً علميا ، فدعا إلى الاشتراكية العالمية لتتوحد الأنظمة فى سائر الممالك ، ويكون ذلك داعيا لبقائها ، فاعتبر أبا للاشتراكية . وهى تقوم على أصلين رئيسيين : إلغاء الملكية الفردية إلى حد ما ، وإلغاء الوراثة إلغاء تاما ، لتكون الأرض ملكا لجميع العائشين عليها . فهى كما ترى تصطدم بعقبتين كأداوين : إلغاء الملكية والوراثة ، وهما أعلق بقلب الإنسان من أعز شىء عنده ، ولكنهما يسهلان على من لا يملك شيئاً .

نعم لا توجد مملكة تخلو من دعوة اشتراكية واشتراكيين ، ولكنهم فى كل بلد ، ما عدا روسيا ، قلة لا تستطيع أن تنفرد بالحكم فيه ، ومع ذلك يقول الأستاذ فى صفحة (١٢٨) من كتابه : « لقد انعقد (إجماع العالم المتحضر كله) على أن النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى فى الوقت الحاضر هو الاشتراكية ، ويتجلى هذا (الإجماع العالمى الرشيد) فى أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقا قد تختلف وسائله . ولكنه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة . وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قمم الاشتراكية العليا » .

نقول : إننا نعجب من قول الأستاذ بانعقاد إجماع العالم المتمدن على أن الاشتراكية خير نظام تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى ، وأن الدول الناهضة تأخذ بها وتطبقها الخ ، وأنت ترى وتقرأ فى الجرائد كل يوم أن الاشتراكية حزب من الأحزاب لا أكثر ولا أقل ؛ وأنها لم تل الحكم فيها منفردة بالسلطان إلا فى انجلترا ، ولكن اشتراكيى الإنجليز معتدلون لا يقولون بإلغاء الملكية الفردية ولا الوراثة ، بل لهم مطالب يتقاضونها من أصحاب رؤوس الأموال طلبا لتحقيق التوازن الاقتصادى ، ودفع كابوس البؤس عن الطبقة العاملة ، وقد رضخ لهم أصحاب رؤوس الأموال بكثير مما يطلبون . وقد فازوا فى الانتخابات مراراً وتولوا الحكم ، فلم يصدر منهم أقل تطرف يثير ثائرة المحافظين . ووزارتهم اليوم فى انجلترا على وشك السقوط ، فلا تزيد أغلبيتها عن نحو ستة أصوات .

ولم يَلِ الاشتراكيون الحكم منفردين قط لا فى فرنسا ولا فى إيطاليا ولا فى أية مملكة أوربية ، ورغما عما يحدثونه من المشاغبات والإضرابات عن العمل هناك ، فإن تلك الممالك لا تهبهم فى الانتخابات العامة إلا عددا محدودا من المقاعد لا تبلغ ربع ما لبقية الأحزاب . وذلك لا لأنهم يكرهون العمال ويرونهم أجدر بالكد والإرهاق ، ولكنهم يكرهون التنازل عن الملكية الخاصة

والوارثة ، ويتسامحون بكل ما دونهما ، فأصبح ما سمحوا به من مطالب العمال الحقة حدا يشكرون عليه .

فالدول الأوربية لم تأخذ بالنظام الاشتراكى كما يقول الأستاذ ، ولم ينعقد إجماع العالم المتحضر كله على أن الاشتراكية هى النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى فى الوقت الحاضر . ألا ترى أنه لو كان الأمر كذلك لاندمجت جميع الأحزاب فى الاشتراكيـة ، ولانتخب الناس لمجالسهم النيابية الاشتراكيين دون سواهم !.

يجوز أن تصبح الاشتراكية فى عهد من العهود المستقبلة مذهب الناس أجمعين ، ولكن ذلك لن يكون إلا إذا بلغ الناس حداً من التعاطف الإنسانى ، والترابط الأخوى ، ومن عدم الأنانيـة ، والتنزه عن الذاتية ، بحيث تنعدم فى نظرهم الفوارق الشخصية ، وهذا ، إن لم يكن محالا ، فلن يكون إلا بعد أدوار عديدة من التطور العقلى والنفسى لا يمكن أن نتخيله تخيلا ، لأنه لا يوجد فى العالم بعد بلوغ الثقافة إلى الحد الذى وصلت إليه اليوم ما يدل عليه . فلا تزال الأمم تميل للتناحر ، والآحاد فى أرقاها كعبا فى المدنية دائبين على التزاحم ، ولا تزال الطبيعة البشرية يشينهـا حب الذات ، والميل إلى التفوق ، ويزيدها شينا الكبر والحسد والضغينة والطمع والشره ، وتلوثها بشرور كثيرة من حب العدوان والثأر والسرقة والغش والتدليس والتحايل وغيرها مما لا يحصى ، أفلا ترى معى أنه قبل أن يعيش الناس إخوانا مشتركين فى الحياة ، يجب أن تزول كل هذه الآثام والأرجاس من الطباع ، وأن تطهر النفوس من أدرانهـا ، وما تؤدى إليه من مآسيها ، وأن يحل محلها أضدادها من الصفات النبيلة ، والميول السامية ، والنوايا السليمة ، ليمكن أن يعيش الناس جميعا كأنهم أفراد أسرة واحدة ؟

فإن أردت ـ مع تلوث بنى آدم بكل هذه الشرور ـ أن تسود الاشتراكية الأمم ، فذلك لن يكون إلا بإكراهها عليها ، ومن ذا الذى يكرهها وهى حرة تعطى بلادها من ضروب الحكم ما تشاء ؟ .

محمد فريد وجدى

من ذخائر السنة

التأريخ

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى يس

أخرج البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد قال : « ما عَدُّوا من مَبْعث النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا من متوفّاه ، وإنما عَدُّوا من مَقْدمه المدينة » .

* * *

ينبئنا هذا الأثرُ الجليل أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يجعلوا وقت مبعثه صلى الله عليه وسلم ، ولا وقت وفاته مبدأ لعدد السنين والأعوام ، وحساب الشهور والأيام ، وتاريخ الحوادث والأحوال ، وإنما جعلوا وقت خروجه من مكة إلى المدينة مهاجراً هو المبدأ لذلك ، فقد اتفقت له صلى الله عليه وسلم أربع حوادث جسام ، وقضايا عظام ، كل منها يصح أن يؤرخ به ، ويصلح أن يكون مبدأ للتاريخ ، وهى : مولده ، ومبعثه ، وهجرته ، ووفاته ، ولكنهم رجّحوا الهجرة على غيرها ، لأن المولد والمبعث لا يخلو كل منهما من الخلاف والنزاع حول تعيين وقته بالضبط والتحديد ، ولأن الوفاة يُوقع تذكّرها واستحضارها فى كثير من الأسف والألم على فراقه صلى الله عليه وسلم ، فاختاروا الهجرة ، لأنها لا ينجم عنها شىء من ذلك .

والتأريخ بالهمز ، ثم ترك تخفيفا ، وهو تعريف الوقت من حيث هو وقت ، ومثله التوريخ بالواو ، وهو قليل الاستعمال ، يقال : أرّخت وورّخت : وقّت ، وقيل : تاريخ كل شىء غايته ووقته الذى ينتهى إليه ، ومنه قيل : فلان تاريخ قومه ، أى ينتهى إليه شرفهم ورياستهم .

والتأريخ فى الاصطلاح : توقيت الفعل بالزمان ، ليعلم مقدار ما بين ابتدائه ، وبين أية غاية فُرضت له ، فإذا قلت : كتبته فى يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا ، وقرىء بعد ما كتبته بسنة مثلا ، عُلم أن ما بين الكتابة وبين قراءتها سنة ، وقيل : هو أول مدة الشهر ، ليعلم به مقدار ما مضى .

وكان التأريخ يستعمل أولا فى نفس الوقت الذى يحدث فيه الشىء، ثم توسع فيه حتى صار يستعمل فيما يعرض لهذا الشىء من أحوال .

وهناك خلاف مشهور فى أن لفظة « تأريخ » هل هى عربيـة أو أعجمية ؟ ، فمن يرى أنها عربية يقول : إنها مشتقة من الأرخ — بفتح الهمزة وكسرها — وهو ولد البقرة الوحشية ، كأنه شىء حـدث كما يحدث الولد ، وقيل : الأرخ : الوقت ، والتأريخ التوقيت ، وقيل : التأريخ قلب التأخير .

ومن يرى أنها أعجمية يقول : إنهـا معرب « ماه روز » ، ومعناه حساب الشهور والأيام .

وقال بعض الباحثين : إن كلمة « تأريخ » فى اللغـة العربية مولّدة من كلمة « ياروخ » فى اللغة العبرية ، ومعناها فيها هو القمر ، والقمر فى اللغة التركية اسمه « ياروق » ، ومعنى الاسم هو المنير المضىء ، استعارته اليهود من الأتراك ، كما استعارت اسم « التوراة » من « توره » ، ولذا لم ترد كلمة « تأريخ » فى القرآن ، ولا فى لسان النبى صلى الله عليه وسلم .

والتأريخ معروف عنـد الناس من قديم الزمان ، فإنه لمّا كثر بنو آدم ، أرّخوا بهبوط آدم من الجنة ، فلما بعث الله نوحا ، أرخوا من الطوفان ، فلما كان تحريق إبراهيم ، أرخوا من ذلك إلى زمان يوسف ، ثم إلى خروج موسى من مصر ببنى إسرائيل ، ثم إلى زمن داود ، ثم إلى زمن سليمان ، ثم إلى زمان عيسى ، وقيل : أرخت اليهود بخراب بيت المقدس ، والنصارى برفع المسيح ، وقيل : كان بنو إسماعيل يؤرخون من بنيان البيت ، حتى مات كعب بن لؤى ، فأرخوا من موته ، فلما كان عام الفيل أرخوا منه ، وقيل : كان فى اليمن والحجاز تواريخ كثيرة ، يتوارثونها خلفا عن سلف ، وأنها كانت باعتبار حوادث وقعت فى الأيام الخالية ، فلما هاجر النبى صلى الله عليه وسلم ، اتخذ المسلمون هجرته مبدأ للتأريخ ، وتناسوا ما قبله .

وذكر بعض العلماء أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بالتأريخ يوم قدم المدينة مهاجرا فى شهر ربيع الأول ، ويعضد هذا ما رُوى من أن النبى صلى الله عليه وسلم أرخ بالهجرة حين كتب الكتاب لنصارى نجران ، وأمر عليًّا أن يكتب فيه : إنه كتب لخمس من الهجرة ، فيكون أول مؤرخ بالهجرة — على هذا — هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن المحفوظ المشهور أن أول من وضع التأريخ الهجرى هو عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقد ذكروا فى سبب ذلك عدّة روايات :

منها إنهم كانوا قبل خلافة عمر يسمون كل سنة باسم حادثة وقعت فيها ، كسنة الإذن ، وسنة الأمر ، وسنة الابتلاء ، فلما كانت خلافته رضى الله عنه سأله بعض الصحابة فى ذلك ، وقالوا : هذا أمر يطول ، وربما يقع فى بعض السنين اختلاف وغلط ، فاختار رضى الله عنه عام الهجرة مبدأ من غير تسمية السنين بما وقع فيها ، فاستحسن الصحابة رأيه فى ذلك .

ومنها أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر أنه يأتينا من أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، ولا ندرى بأيّها نعمل ، فجمع عمر الناس ، فقال بعضهم : أرخ بالبعث ، وقال بعضهم : أرخ بالهجرة ، فقال عمر : الهجرة فرّقت بين الحق والباطل ، فأرخوا بها ، وذلك سنة سبع عشرة ، فلما اتفقوا على التأريخ بالهجرة ، قال بعضهم : ابدأوا برمضان ، فقال عمر : بل بالمحرم ، فإنه منصرف الناس من حجهم ، فاتفقوا عليه .

ومنها أنه رُفع لعمر صكّ محلّه شعبان ، فقال : أى شعبان هو ؟ ، الماضى ، أو الذى نحن فيه ، أو الآتى ؟ ، ثم قال : إن الأموال قد كثرت فينا ، وما قسمناه غير مؤقت ، فكيف التوصل إلى ضبطه ؟ ، فقال له ملك الأهواز — وكان قد أسر وأسلم على يده — : إن للعجم حسابا ، يسمونه « ماه روز » ويسندونه إلى من غلب من الأكاسرة ، ثم شرحه له ، وبيّن كيفيته ، فقال رضى الله عنه : ضعوا للناس شيئاً من ذلك يتعاملون عليه ، ويضبطون به أوقاتهم ، فذكروا له تأريخ الفرس ، فلم يوافق عليه ، فاستحسنوا الهجرة تأريخا .

ومنها أنه قدم رجل من اليمن فقال : رأيت باليمن شيئا يسمونه « التأريخ » يكتبون من عام كذا ، وشهر كذا ، فقال عمر : هذا حسن ، فأرخوا ، فلما أجمعوا على جعله من الهجرة ، قال عمر : بأى شهر نبدأ ؟ ، فقال قوم : من رجب ، وقال آخرون : من رمضان ، فقال عثمان : أرخوا المحرم ، فإنه شهر حرام ، وهو أول السنة ، ومنصرف الناس من الحج ، وكان ذلك سنة سبع عشرة ، أو ست عشرة فى منتصف ربيع الأول .

ومنها أن عمر جمع الناس ، فسألهم عن أول يوم يكتب التأريخ ، فقال على : من يوم هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وترك أرض الشرك ، ففعله عمر .

هذا هو المحفوظ المشهور فى وضع التأريخ الهجرى ، ويرى بعض العلماء أنه لا تنافى بينه وبين الأول ، فإنه لا مانع من أن يكون النبى صلى الله عليه وسلم قد أمر بالتأريخ من الهجرة ، وأن عمر قد تبعه فى ذلك .

وذكر السهيلى أن الصحابة أخذوا التأريخ بالهجرة من قوله تعالى : « لمسجد أسس على التقوى من أول يوم » ، لأنه من المعلوم أنه ليس أول الأيام مطلقا ، فتعيّن أنه أضيف إلى شىء مضمر ، وهو أول الزمن الذى عزّ فيه الإسلام ، وعبد فيه النبى صلى الله عليه وسلم ربّه آمنا مطمئنا ، وابتدأ بناء المسجد ، فوافق رأى الصحابة ابتداء التأريخ من ذلك اليوم ، وفهم من فعلهم أن قوله تعالى : « من أول يوم » أنه أول أيام التاريخ الإسلامى ، أى أول يوم دَخل فيه النبى وأصحابه المدينة .

وإذا كانت الهجرة قد وقعت فى شهر ربيع الأول ، فما هى الحكمة فى تأخير التأريخ منه إلى التأريخ من المحرم ؟ .

وقد بينوا الحكمة فى ذلك من عدة وجوه :

أحدها : أن ابتداء العزم على الهجرة كان فى المحرم ، إذ البيعة وقعت فى أثناء ذى الحجة ، وهى مقدمة الهجرة ، فكان أول هلال استهل بعد البيعة ، والعزم على الهجرة هلال المحرم ، فناسب أن يجعل مبدأ للسنة الهجرية .

ثانيها : أن المحرم أول شهور السنة عند العرب ، وكانوا يعظمونه ، ويستأنفون فيه أعمالهم بعد انصرافهم من الحج ، أخرج البخارى فى تاريخه عن عبيد بن عمير قال : المحرم شهر الله ، رأس السنة ، فيه يكسى البيت ، ويؤرخ التأريخ ، ويضرب الورق .

ثالثها : أن أول يوم من المحرم هو اليوم الذى تنفجر منه السنة وتبتدىء ، كما يشير إلى ذلك تفسير ابن عباس وقتادة من أن الفجر الذى أقسم به الله تعالى فى أول سورة الفجر ، هو أول يوم من شهر المحرم فجر السنة .

وعلى كل حال ، فالذى يستفاد من مجموع الآثار والروايات الكثيرة الصحيحة أن الذى أشار بجعل المحرم مبدأ للسنة الهجرية هم عمر وعثمان وعلى ، والصحابة وافقوهم على ذلك .

وأما ما قيل من أنهم كانوا فى صدر الإسلام يؤرخون بربيع الأول ، فالمراد منه أن ذلك كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كانوا يؤرخون بسنة القدوم ، وبأول شهر منها ، وهو ربيع الأول ، وأما ما حدث فى زمن عمر ، فهو التأريخ بالهجرة وبالمحرم .

ويقول أهل الصناعة فى الكتابة والتحرير : إنه لابد من تأريخ الرسائل والمكاتيب ، لأنه لا يُدَل على تحقق الأخبار ، ووقوع الحوادث ، ولا يُعرَف قربُ عهد الكتابة وبعدُه ، وتقدمه وتأخره إلا بالتأريخ .

ومن أصحاب هذه الصناعة من ينظر فى التأريخ إلى ما مضى من الشهر ، وما بقى منه ، فإن كان ما بقى أكثر من نصف الشهر ، كتب لكذا وكذا ليلة مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف ، جعل مكان مضت . . . بقيت .

ومنهم من لا يؤرخ إلا بما مضى من الشهر ، لأنه واقع معروف ، وما بقى مغيّب مجهول ، وأكثر العمل جار على هذه الطريقة .

والليل فى تأريخ العرب مقدم على النهار ، فإن السنين عندهم مبنية على الشهور القمرية ، فالليالى سابقة على الأيام ، لأن القمر إنما يطلع ليلا ، ولأن أول الشهر ليلة ، وآخره يوم ، ولهذا يقال فى التأريخ بأول ليلة : كتب لأول ليلة من الشهر ، أو لغرته ، أو لمهله ، أو لمستهله ، وفى الليلة الثانية : كتب للّيلة الثانية من كذا ، وعلى هذا القياس إلى آخر الشهر ، ويكتب فى الخامس عشر : للنصف من كذا ، لأنه أخصر ، وفى الليلة الأخيرة يكتب : لآخر ليلة منه ، أو سلخه ، أو انسلاخه ، وكذلك يكتب فى اليوم الأخير ، وإذا كتب لآخر ليلة ، أو لآخر يوم ، علم أن الشهر كان تاما .

وكانوا فى مبدأ التأريخ بالهجرة ، لا ينعتون السنة بكونها هجرية ، ولهذا لا يكاد يوجد أثر لذلك فى الكتب العربية القديمة ، ويظهر أنهم لم يحدثوا هذا النعت إلا بعد استعمال التأريخ بغير الهجرة ، فاحتيج إليه للاحتراز ؟

المنتفعون بهدى القرآن

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى
المفتش بالأزهر

سأل سائل عما ورد فى وصف القرآن الكريم من مثل قوله تعالى : « هدى للمتقين » ، « وذكرى للمؤمنين » ، « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » مما يفيد أن القرآن ليس له تأثير إلا على صنف خاص من الناس : هم المؤمنون أو المتقون ، أما غيرهم فلا تأثير له عليهم ، ولا ينتفعون بهديه ، ولا تشرق على قلوبهم أنواره ؛ وإذا كان القرآن كذلك فهو كتاب خاص لقوم مخصوصين ، ولا يصلح أن يكون « عالمياً » قادراً على هداية الناس أجمعين .

وقبل أن نجيب على هذا السؤال تتبعنا ما ورد فى القرآن الكريم من مثل ذلك ، فوجدناه على ما قرر السائل ، فإن كلمة « هدى » أو « موعظة » أو « ذكرى » أو « شفاء » لم يوصف بها كتاب الله إلا مضافة « للمتقين » أو « المؤمنين » أو « المحسنين » أو ما إليها من الأوصاف الخاصة ، وإذن فما بنى عليه السؤال صحيح ، وعلينا أن ننظر فى الجواب :

إن هذا الوصف للقرآن الكريم وصف متفق مع الواقع وحقيقة الأمر فى الناس ، فليس كل إنسان مستعداً لقبول الهداية الإلهية والانتفاع بها ، فإن النفوس تختلف ، فمنها نفوس غلبت عليها المادية المظلمة ، فصار أصحابها أجساداً ليس للروح سلطان عليها ، وليس للمعنويات حظ فيها ، ومنها نفوس صافية راقية تعلم أن الحياة ليست مُحَسَّات فحسب ، وتثق فيما وراء هذه المادة أكثر من وثوقها بالمادة ، وتتقبل فى اطمئنان حكم الشعور القلبى ، والإحساس الداخلى ، كما تتقبل المرئيات أو المسموعات أو الملموسات .

والصنف الأول من الناس أقرب إلى البهائم ، بل فيهم شبه من الجماد الذى لا يعى ولا يعقل ، أما الصنف الثانى فهو مثال الإنسانية ، وكلما ارتقى فيه هذا

الشعور الروحى ، والإحساس المعنوى ؛ اقترب إلى الكمال ، حتى يصل إلى « المثل الأعلى » فى الإنسانية ، والقرآن الكريم يصف لنا الصنف الأول فى كثير من الآيات فيقول : « أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون ، إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا » ، « لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » ويقول « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة ، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله » .

وهو يبنى على هذه الطبيعة التى يقررها عنهم ، ما يذكره من انصرافهم عن الذكر ، والتوائهم عن الحق ، وإعراضهم عما فيه صلاحهم ، فيقول : « إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين ، وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » ، « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » ، « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون » .

وقد صور الله لنا هذه الطبيعة الجامدة فى عدة آيات تصويراً رائعاً يبين لنا أمرها أتم بيان ، فمن ذلك قوله جل وعلا : « إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، ولا شك أن صورة المغلول الذى أحاطت الأغلال بعنقه ، ووصلت بعرضها إلى ذقنه ، فأقمحته ـ أى تركت رأسه مرفوعا لضيقها فلا يستطيع له حراكا ـ وقد حشر فى مكان ضيق قد سدت من دونه المنافذ فليس له عنه متقدم ولا متأخر ، وغشى على بصره فهو غير قادر على رؤية ما حوله ؛ لا شك أن صورة كهذه الصورة البيانية البليغة تدل على مقدار فساد الفطرة ، وجمود الطبيعة ، ومن ذلك قوله تعالى على لسان رسوله نوح عليه السلام : « قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا فلم يزدهم دعائى إلا فرارا ، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم ، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا ، ثم إنى دعوتهم جهارا ، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا » ، فهذه أيضا صورة واضحة فى بيان معنى الإعراض والالتواء ، يصور فيها قوما فسدت طبائعهم ، فلم

يتقبلوا الهدى على أى نحو جاءهم ، فإذا أسمعهم الداعى وضعوا أصابعهم فى آذانهم وإذا تعرض لهم استغشوا ثيابهم ، وإذا حاول أن يعالجهم من نواحيهم النفسية بالجهر لهم تارة ، والإعلان تارة ، والإسرار تارة ، أفسدوا عليه سائر محاولاته إصراراً واستكبارا ، فهم كالوحوش الكاسرة ، أو القردة العاصية ، أو النمور الشرسة ، ومن ذلك قوله تعالى ، وقد صرح فيه بطبيعتهم الوحشية النافرة : « فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة » إلى غير ذلك من الآيات .

أما الصنف الثانى من الناس فهو صنف طيع حساس مرهف الشعور ، فيه صفات الإنسانية : يخاف ويرجو ، ويسمع ، ويعقل ، ويتدبر ويدرك ، وتهزه الذكرى ، وتنفعه الموعظة ، ويتفتح قلبه للهدى ، ويهوى فؤاده للإيمان ، وينشرح به صدرا ، ويطمئن إليه نفسا ، ولا تزيده حوادث الخير والشر إلا ثباتا ، هذا الصنف هو الذى يعده القرآن حيا ، ويوجه إليه الدعوة ، ويخاطب فيه ضميره وقلبه « إنما يستجيب الذين يسمعون » . « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب » « إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب » . « إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون » . « إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وكما صور الله الصنف الأول بما ذكرنا ، صور الصنف الثانى فى كثير من الآيات ، فمن ذلك قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » فهذه صورة المتنقل فى رياض الذكر ، تمر به آية تخويف فيقف عندها خائفا وجلا يقشعر لها بدنه ، ويرتجف من هول وعيدها فؤاده ، ثم تمر به آية ترجية فيلين ويرجو ويقبل على الله « لا يخاف ظلماً ولا هضما » .

ومن ذلك قوله جل علاه « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين » وهذه الآية فى وصف بعض النصارى وبيان استعدادهم لتقبل الحق ، والإيمان به ، لما فى قلوبهم من الرقة والخشوع ، ويقول الله تعالى فى وصف

قوم آخرين من أهل الكتاب : « ليسوا سواء ، من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ، يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين » وكل ذلك تصوير للطبيعة الصافية المواتية من أى ملة كان صاحبها ، فليس الأمر فى ذلك خاصا بدين ، ولا مقصورا على طائفة بعينها من الناس ، وإنما هو أمر الطبيعة البشرية حيثما كانت ، وفى أى زمان وجدت .

* * *

تبين بهذا موافقة التعبير القرآنى للواقع الطبيعى ، وأن القرآن حين يقول « هدى للمتقين » ، « وذكرى للمؤمنين » وما إلى ذلك ، يصف الناس على حقيقتهم ، ويشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار إلى تلك الطبيعة فيهم ، حتى لا يضيعوا أوقاتهم ، ولا يشتتوا جهودهم فى تطلب الماء إلا من ينابيعه ، وفى استنبات الخطىِّ إلا من وشيجه :

وهل ينبت الخطىَّ إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل

وهذه حقيقة إذا فهمت وتقررت فى نفوس الدعاة والمصلحين كان لها فى رسالتهم أعظم الجدوى ، وكانت لأشخاصهم نعم السلوى ، أما جدواها ففى أن تسير القافلة قدما لا تلوى على من ندَّ أو شذَّ ، ولا تنظر من تخلف أو كلَّ ، فإنه من الخير كل الخير للإنسانية أن تخطو فى سبيل الإصلاح خطواتها غير عابئة بمن يحاولون تعويقها ، ويعملون على إثقالها وتكبيلها ، فلتدعهم فيما هم فيه ، ولتمض لطيتها راشدة قوية فسوف تحملهم بذلك على مجاراتها ، وتجذبهم ، ولو على الرغم منهم ، إليها ، وأما سلواها ففى أنها تطرد عن العاملين دواعى الحزن والأسف ، فإن صاحب الفكرة إذا جوبه بالعداوة فى سبيلها ، وعوند فيها ؛ ران على قلبه رَيْنٌ من الحزن والأسى ، فإذا علم أن الذين يعادونه ويعاندونه هم أصحاب الطبائع الملتوية ، والنفوس الفاسدة ، سُرِّى عنه وذهب ما يلاقى من الأسف والحزن .

وقد أرشد القرآن الكريم إلى الجدوى والسلوى جميعاً ، ذلك أنه أمر النبى صلى الله عليه وسلم بالسير فى سبيله دون اكتراث بمن حقت عليهم الكلمة

« إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم » ، « قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » ، « فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون » ، « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى » ، كما أنه سلاه واستل ما فى نفسه من اللوعة بمثل قوله « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، « إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء » ، « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » .

* * *

أما بعد فإن القرآن الكريم آية من آيات الله الكبرى ، فيه للعقول تبصرة ، وللقلوب موعظة ، ولكن لمن أراد أن يذكر : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

سعة الصدر

هجا أبو عاصم محمد بن حمزة الأسلمى المدنى الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، وهو من هو علماً وعملا وشرفاً ، فقال فيه :

له حق وليس عليه حق ومهما قال فالحسن الجميل
وقد كان الرسول يرى حقوقاً عليه لغيره وهو الرسول

فاتفق أن تولى الحسن المدينة ، فأتاه أبو عاصم الأسلمى المذكور ، متنكراً فى زى الأعراب ، وأنشده قوله فيه :

ستأتى مدحتى الحسن بن زيد وتشهد لى بصفين القبور
قبور لم تزل مذ غاب عنها أبو حسن تعاديها الدهور
هما أبواك من وضعا فضعه وأنت برفع من رفعا جدير

فقال له الحسن : من أنت ؟ فأجابه : أنا الأسلمى .

فقال له الحسن : إذن حياك الله ، وبسط له رداء ، وأجلسه عليه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم ، ولم يلمه بكلمة عما قال فيه .

الحج من الناحية الفلسفية

للدكتور محمد يوسف موسى
الأستاذ بكلية أصـــول الدين

الحج ، كما نعلم جميعا ، ركن من أركان الإسلام ، وشعيرة يتطلب القيام بها البذل من المال والنفس ، وعبادة لا يتم للقادر عليها دينه إلا بالاضطلاع بها ، حتى ليُروى عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه أنه قال : « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا » . وليس من همِّى الآن بيان ما للحج من مقدمات ومعالم وشروط لا يتم إلا بها ، بل موضوع الحديث هو الحج باعتباره عملا اجتماعيا تدعو إليه الفكرة الفلسفية ، لو لم يدع إليه الدين .

* * *

الإنسان مركب من عنصرين : أرضى وهو الجسد ؛ وسماوى وهو الروح . وقديما قام النزاع الحاد بينهما كما يكون بين الشيئين أحدهما للآخر ضد وعدو . والناس فى ميلهم لهذا العنصر أو ذاك بين مفرِّط ومُفْرط ، إلا من كان حكيما فعرف لكل حقه وأرضاه بقدر . ولم ترتطم الإنسانية فى هذه الغمرة التى نلمسها هذه الأيام إلا بسبب انحيازها للناحية المادية وانغماسها فيها .

لهذا ، كان لابد من عمل يلفتنا بقوة عن هذه الحياة بما يستلزمه من إعراض عن زينة الدنيا وطيباتها ، وبما يوجبه من مساواة تشعر الغنى منا بأنه أخ لمن يعيش بينهم من عبيد الله لا يتميز عنهم فى ملبسه ومظهره وعامة أحواله .

هذا العمل هو الحج الذى ، كما يقول الغزالى ، يعتبر فى الشريعة الإسلامية عوضا عن الرهبانية فى المسيحية ، إذ فيه ما فيه من كبت الشهوات والبعد عن الدنيا والإقبال على الله والسمو بالروح ، وقد سلم مما يلازم الرهبانية من عنت وإرهاق دائمين .

ثم ، فى الحج مع هـذا ، زيارة البيت العتيق الذى أضافه الله تعالى إلى نفسه لشرفه ، وجمعٌ لأكبر عدد من المسلمين فى صعيد واحـد يؤمون غرضا واحدا ، ولـكل من هذين حكمته وأثره البعيد فى حياة الأمة أفرادا وجماعات . إنما تشقى الأمة إذا تناكدت وتفرقت بها السبل ؛ والإسلام ، الذى حث المسلمين على أن يأتمروا بينهم بمعروف ، جعل لهم مؤتمرات : بعضها يومى وهو الصلاة جماعة ، وبعضها أسبوعى ، أوسع وأعم من سابقه ، وهو صلاة الجمعة ، وبعضها كل عام على نحو أشمل وهو صلاة العيدين ، وأخـيرا المؤتمر الأكبر وهـو الحج الذى يجب أن يشهده كل مسلم قادر ، مرة واحدة على الأقل فى حياته .

ومن الناس من لا يفهم الحقائق إلا ممثلة ، أو مرموزا لها بمُثل محسة ، فكان من الحكمة أن يكون من شعائر الحج الطواف بالبيت واستلام الحجر الأسود ، رمزا لما يجب أن يكون عليه المسلمون من وحدة فى الهدف واتحاد فى التوجه لله . إن البيت الذى أمرنا بالطواف حوله ، هو بيت الله ، الذى جعله مثابة للناس وأمْناً ، وفى الطواف به تشبه بالملائكة الحافين بالعرش ، الطائفين به قانتين مسبحين لا يفتُرون ، وفى ذلك ما فيه من سمو للروح وعروج بها إلى السموات العلى . ونفس الحلول بالبيت ورحابه ، تمهيد طيب لرؤية صاحبه جل وعلا ، متى صفت النفس ، فصارت أهلا لهذه السعادة القصوى ، وفى استلام الحجر من المسلمين كافة بيعة منهم جميعاً لله عز وجل على كل ما هو حق وجميل وخير وفضيلة .

أليس هذا الحجر المقدس ، كما جاء فى الحديث الشريف « يمين الله يصافح بها خلقه ؟ » إن فى استلام هذا الحجر ، وهذا ما يرمز له ، حافزا قويا على وفاء الحاج بما يعاهد الله عليه من بُعد عن الشر ، وحب للفضيلة ، وحرص على عمل الخير .

وفى الحج مع هذا كله ، دلالة قوية على الثقة بالله واستجلاب لعونه . تعزم على الحج المرأة الضعيفة بطبيعتها والرجل الضعيف لمرضه وسنه الكبيرة ، فما هو إلا أن يبدأ مَن هذه حالته السعى له حتى يجد من نفسه القوة ومن غيره المساعدة ، وحتى يعود صعب الأمر ذلولا ، فتتهيأ له السبل ويمضى لما أراد دون عقبات

أو صعاب . ذلك بأنه نزع عنه رداء الغرور بنفسه وحوله ، وألقى نفسه فى سبيل الله واثقاً به ، متكلا عليه ، معتمدا به وحده ، فكان له ما أراد .

والحج ، بعد ما نعرف من الأعمال الظاهرة ، له حقائق باطنة يجب النفوذ إليها ، وأحوال نفسية يشعر بها الحاج وينعم بها . إنه ليعجبنى فى هذا حديث جرى بين الشِّبلىّ رضوان الله عليه ، وبين صاحب له . كان من هذا الحديث أن الشبلى — وهو متصوف حرىّ بهذا الوصف ، وليس كأدعياء التصوف فى هذه الأيام — يرى أن من عقد الحج لله ، ولم يفسخ بهذا العقد كل عقد يخالفه ، كان كأنه ما عقد الحج ونواه ؛ وأن من تجرد من ثيابه للإحرام ، ولم يتجرد مع هذا من المعاصى ، يكون كأنه ما تجرد من ثيابه ؛ وأن من لبى ، ولم يذق عن الله جواب تلبيته ، يكون كأنه ما لبّى ؛ وأن من أشرف على مكة ، فلم يشرف عليه حال من الله تعالى ، يكون كأنه ما دخلها ؛ وأن من صافح الحجر الأسود ، فلم يجد أثر الأمن ، كان كأنه ما صافحه أو لمسه ، لأن من صافح الحجر فقد صافح الحق سبحانه وتعالى ، ومن صافح الله صار فى أمن وسلام منه ؛ وأن من رمى الجمار ، فلم يرم بهذا جهله ولم يزدد به علماً يظهر عليه ، كان كأنه ما رمى ؛ وأن من مضى من مكة إلى المدينة فزار الروضة الشريفة ، ثم لم يكاشف بشىء من الحقائق ، ولم ير زيادة فى الكرامات عليه ، كان كأنه ما زار ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم يقول : « الحجاج والعمار زوار الله ، وحق على المزور أن يكرم زُوّاره » . وهكذا ، نجد من الشبلى ، رحمة الله عليه ، تحليلا دقيقا طريفا للحج وأعماله ومشاعره ، تفهم منه كثيراً من أسراره وفلسفته .

ومن الحق أن نوافق الشبلى وأمثاله فى نظرهم للحج وحكمه وأسراره ، هذه النظرة الفلسفية العالية . إن منا من يبذل فى سبيل السفر للحجاز كثيراً من المال ، ويتعب نفسه بكثير من المشقات ، وذلك فى سبيل أن يظفر بلقب « حاج » ينال به من عروض الحياة الدنيا ! ومنا من يعيش أيام الحج فى تلك البلاد المقدسة والأجواء الروحية السامية ، ثم لا يتذوق شيئاً منها ، فيعود أغلظ قلبا مما ذهب ! ومنا أخيرا من عرف يقيناً خطر ما هو مقبل عليه ، وعلم

أنه يهجر الأهل والوطن والشهوات واللذات فى سبيل الله وزيارة بيته الحرام ، وإذاً فهو يقدر البيت قدره ويرى لربه عظمته وجلاله ، فيخلص النية له ويرعاه فى كل خطوة له وعمل ، ويجاهد نفسه وهواه حتى يرجع لبلده خيراً مما ذهب ، ويعود لأهله وقد تقبل الله حجه ورضيه وأرضاه .

ذلك ، والحج للكعبة وإن كان من خصائص أمتنا الإسلامية ، فإنه باعتباره قصدا إلى مكان مقدس ، عرفته الأمم المتمدنة فى العصور المختلفة : عرفه اليونان فكانوا يحجون قبل المسيح عليه السلام إلى معابد مقدسة لديهم ، وعرفه الهنود والصينيون القدامى ، ثم عرفه اليهود والمسيحيون الذين لا يزالون يحجون إلى بيت المقدس .

ومما يجدر ملاحظته أن الحجاج من هذه الأمم المختلفة وغيرها ، يلتزمون أثناء الحج التقشف والزهد فى هذه الدنيا كما نلتزم ، ليشعروا أنفسهم شيئاً من الروحية العالية ، وطلباً لمرضاة معبوداتهم وطمعاً فى ثوابها . وليس هذا التوافق من الأمم المختلفة بعجيب ؛ فالإنسان هو الإنسان فى كل زمن ، وإنه ليحس فى قرارة نفسه : الحاجة للسمو الروحى والتقرب من المعبود أو من الرمز الذى اتخذه لهذا المعبود . وهذا السمو وهذا التقرب لهما سبل عدة ، من أهمها تجشم التعب وبذل المال فى سبيل الحج للمكان المقدس الذى يراه ألصق البقاع بما اتخذه من إله .

هذا هو خطر الحج عند الأمم المختلفة لما يعتبرونه مقدساً من مكان ، فكيف عندنا وهو تلبية لنداء أبينا إبراهيم الخليل عليه السلام وإجابة لرجائه ربه إذ يقول : « رب إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة ، فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم ، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » ! وهو مع ذلك استجابة لأمر نبينا محمد صلى الله عليه وسلم حين أمره الله بقوله : « وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ، ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات » . فقد روى أنه عليه الصلاة والسلام لما نزلت هذه الآيات صعد أبا قبيس فقال : « يا أيها الناس حُجّوا بيت ربكم » ، فأسمعه الله تعالى من فى أصلاب الرجال

وأرحام النساء فيما بين المشرق والمغرب ممن سبق فى علمه تعالى أنه يحج ، من الطائفين والقائمين والرُّكَّع السجود .

إنى أحاول أن أتصور ديناً خلا من الحج لمشهد مقدس وبقاع طاهرة ، فلا أكاد أظفر إلا بصورة باهتة لدين ميت لا حياة فيه ، وقاصر عن بلوغ الكمال بمتبعيه . إنه من النافع كل النفع أن يصلى المرء ، فى هذا رياضة للجسم والروح ؛ وحسن وجميل أن يصوم ، ففيه تعويد على الصبر وترقيق للنفس وفائدة للجسم ؛ ومن الخير للمجتمع أن يؤدى أفراده الزكاة على اختلاف ألوانها ، فى هذا اقتلاع للحسد والحقد من قلوب المعوزين على القادرين ، وعون للفقراء على متاعب الحياة ، وإغلاق لكثير من السجون ، وفتح لغير قليل من المنشآت الاجتماعية . ولكن ، هذه العبادات كلها لا تغنى عن التزام الأمة للحج لمكان واحد وقصد غرض واحد ، والعيش فترة من الزمن فى تجرد عن الحياة ومفاتنها ، وإقبال على الله وحده ، واستعداد لتلقى فيضه ورحمته ما دمنا قد سعينا إلى بيته مخلصين النية له .

من ذلك كله ، نعرف أن الحج عمل يأمر به العقل قبل أن يوحى به الدين ، وأن لكل عمل من أعماله وشعيرة من شعائره حكمته وفلسفته ، وأن ديناً صحيحاً لا يمكن أن يقوم بدونه ، وأن أمة من الأمم لا يسعها أن تستغنى عنه . وحسبنا دلالة على هذا ، ما أشرنا إليه من أن الأمم التى خلت عرفته وعرفت له خطره ، وأن الأمم التى تعمر العالم اليوم — على اختلاف مللها ونحلها — تعدّ الحج لمكان ما ، أمراً مقدساً فيه رياضة للجسم وسمو للنفس وخير للأمة عامة . وإن أمراً تجمع عليه الأمم فى العصور الخالية والأيام الحاضرة ، رغم ما يفرق بينها من اختلاف فى الجنس والدين والتقاليد ، لهو أمر لا يقادر قدره ولا يكاد يُدرك كل ما فيه من جمال وخير وفضيلة .

من أجل هذا ، أدعو الله أن يوفقنا لهذا الخير مرة بعد مرة ، وأن يجعل حج من يحج من المسلمين عامة حجاً مبروراً ليس له جزاء إلا الجنة كما جاء فى حديث المصطفى صلوات الله وسلامه عليه ؟

المهاجرون والأنصار

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الدين الإسلامى يطلب إلى المسلم الفرار بدينه عن الفتن ، والنأى بعرضه عن الشبهات ، والبعد بنفسه عن مواطن الأذى ، خصوصاً إذا كان ذلك لا يجر إلى عقبى طيبة ، ونهاية محمودة ، وخاتمة مشكورة .

ولو أن النبى صلى الله عليه وسلم ظل بمكة يتحمل هو وأصحابه العنت ، ويتعرض للمهالك ، ويقدم نفسه بنفسه للموت الرخيص ، والقتل الحقير ، الذى كان يستهدف له هنالك ، لما قامت لدعوته قائمة ، ولظلت الفوضى ضاربة أطنابها فى ربوع الجزيرة كلها حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا .

على أنه ليس من حصافة العقل ، وحزامة الرأى ، ونضج التفكير ، أن يقف الأعزل لشاكى السلاح ، أو ينازل الضعيف القوى ، أو يصاول أفراد قليلون أمة بأسرها لا تزال فيها جاهلية السفهاء ، وطيش المأفونين .

ولهذا ، فقد كان الانتقال من مكة إلى المدينة بمثابة الهدوء الذى يسبق العاصفة - كما يقولون - أو الخطط الموضوعة فى نظام الحرب ، وأساليب الهجوم ، والذى يعرف أن المسلمين تكتلوا بعدها للغزو ، وتجمعوا للجهاد ، وباعوا أنفسهم لله ، يدرك إلى أى مدى غيروا وجه الزمن ، وحولوا معالم الدنيا ورسموا حدود الحياة وأبعادها ، واقترحوا على الدهر ما يجب أن تكون عليه نظمه وتقاليده .

ولولا أن المهاجرين تسللوا خلسة ، وخرجوا مباغتين ، لضرب عليهم المشركون الحصار ، وحالوا بينهم وبين الخروج إلى يثرب ، لأنهم لا يشكون فى أن العدو الذى يفارق ميدان القتال ، ربما كان فراره خداعاً أو تحفزا للوثوب .

وفى التاريخ ما يدل على أنهم لم يهنأ لهم صفو ، أو تهدأ لهم عاصفة ، أو تخمد لهم جذوة ، حتى إذ علموا أن محمداً قادم إلى مكة بعد تسع سنوات يفتحها ، ويبسط سلطانه عليها ، تقدموا إليه بعنوان « أخ كريم وابن أخ كريم » وأبى أدبه - حينئذ - إلا أن يقول لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء .

هذا تلخيص ذلك الحادث الذى يردد الناس الكلام عنه طويلا ، والتعليق عليه مستفيضاً ، وفى خلال هذا وهذا يفوتهم أن يهتدوا إلى الصواب ، أو يصيبوا أكباد الحقيقة .

والطريف الجديد فى هذا الحادث أنه تمخض عن لون من ألوان التنافس الدينى ، والعصبية غير المرذولة . جعل الأذهان تتفتح إلى نغمة لم يكن لهم بها عهد سابق ، تلك هى كلمة « المهاجرون والأنصار » .

ففى المدينة لقيت هذه الرسالة مرتعاً خصيباً ، وجوا مناسباً ، وبيئة صالحة ، ونفوساً تفتديها بدمائها وأموالها . ولقى هؤلاء الذين تركوا ديارهم وزروعهم وثمارهم « أهلا بأهل وجيرانا بجيران » وتسابق الأوس والخزرج فى الإحسان إلى « اللاجئين » ، وامتدحهم القرآن بقوله : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وتمكنت منزلتهم عند النبى صلى الله عليه وسلم ، وزادت محبته لهم ، وثقته بهم ، واطمئنانه إليهم ، إلى درجة أنه كان يحرمهم من الفىء ويقول : « إنى لأعطى الرجل ، وغيره أحب إلى ! » .

على أن أهل مكة لا يقلون فى الفضل ، ولا ينقصون فى المزية ، فإنهم احتضنوا الدعوة فى مهدها ؛ وتعهدوها فى بادىء أمرها ، وجعلوا شمسها تسطع ونورها يضىء ، وكلمتها تدوى ، وصوتها ينبعث ، ومنهم السابقون الأولون .

ورجالاتهم المرموقون أمثال الخلفاء الأربعة دعموا البناء ، ورفعوا اللواء ، وفنى العرب على آثارهم ، ومضوا على سننهم ، خصوصاً عمر الذى استجاب الله به دعوة الرسول : « اللهم انصر الإسلام بأحب الرجلين إليك » .

وإذا كان فى الحديث « الأنصار كرشى وعيبتى ، واستوصوا بالأنصار خيرا ، والله الله فى الأنصار ، ولا يحبهم إلا مؤمن » وغير ذلك مما يدل على أنهم بلغوا شأوا عظيما ، فإن القرآن — كذلك — يذكر المهاجرين أولا ، ويعدهم بالثواب الجزيل ، والمنزلة الرفيعة ، والنعيم المقيم ، ويجعل للهجرة أجر الجهاد والاستشهاد .

وقد أغرى ذلك كله فريقاً من أولئك جميعاً أن يشغلوا زمنا طويلا بالمفاضلة بين « المهاجرين والأنصار » مفاضلة فيها شىء من المبالغة ، وكأنه صلى الله عليه وسلم كان يتنبأ بما يكون وراء هذا الجدل من الخطل فى الرأى ، والخطأ فى التقدير حين يقول « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم ، وإذا ذكرتم أصحابى فأمسكوا ! » :

وما كان يدور بخلد إنسان أن المسلمين الذين عاصروا الوحى وأدركوا نزول الآيات ، وتشرفوا بنور وجهه الكريم تكون فيهم نزعة المكاثرة بالفضل ، والمفاخرة بالطاعة ، إلا أن الذى يدرى قرب عهدهم بما كان عليه أسلافهم من هذا الخلق الذى كانوا يقيمون له الأسواق ، ويختارون المحكمين ، يقول « شنشنة أعرفها من أخزم » .

وفى اليوم الذى اختار الله فيه محمدا صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، واجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة يتحدثون فى انتخاب الخليفة الذى يرعى شؤنهم ، ويقضى بينهم ، ويرد عدوانهم ، ويكبح جماحهم ، ويقيم عليهم الحدود ضربوا على هذه النغمة « المهاجرون والأنصار » ، وأخذ أبو بكر رضى الله عنه يكيل الثناء للفريقين ، ويغدق فى المديح للطرفين ، عساه أن يخمد نيران الفتنة ، ولولا ما كان له من الصحبة للرسول ، وأنه خصه بالنيابة عنه فى الصلاة بالمسلمين فى مرض موته ، وأن عمر بن الخطاب سارع إلى مبايعته فبايعه كثيرون لكانت الحال غير الحال : كفانا الله شر الخلاف ، ورحم الأنصار والمهاجرين والذين اتبعوهم بإحسان إلى يوم الدين ؟

من توجيهات الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

« ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد »

بنفسى وأهلى أولئك الذين تجردوا من أنفسهم ولذاتهم ، ومن أموالهم وأبنائهم ، فباعوا كل ذلك لله ، وبذلوه فى سبيل الله ، إنهم لجديرون بأن نطأطىء الرءوس إذا ذكروا ، وأن تلين لعظمة نفوسهم الجلود والقلوب « أولئك الذين هداهم الله . وأولئك هم أولو الألباب » .

قد عرف الإسلام كثيرا من هؤلاء المجاهدين الصابرين وعلى رأسهم سيد الأمة وأستاذها « سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم » الذى كانت فيه الأسوة الصالحة الكريمة لكل من يجاهد فى سبيل الله ، ويشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، لقد كان يؤذى فى ذات مولاه . ومن أخلص أهليه وذوى قرباه ؛ فى غدوه ورواحه ، وفى مسائه وصباحه .

ولقد تضافرت عليه قريش ، وتألبت عليه العرب ، فما وهن لما أصابه فى سبيل الله وما ضعف وما استكان ، ولا زاد على أن قال كلمته الخالدة المدوية فى فضاء هذا الوجود ، الناصعة المشرقة فى صفحات البشرية والخلود : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه ، ما تركته » .

ولقد كان لأستاذيته العظيمة فى العزة الإسلامية والكرامة الأدبية ، والتمسك بالحق أثرها الخالد العظيم فى نفوس أصحابه وأتباعه ، منذ قام الصراع بدعوته الكريمة بين الحق والباطل ، ومنذ شمرت قريش عن ساعدها تتفنن فى أذى من عرف السبيل إلى الدين الحق ، ووثبت كل قبيلة على من فيها من

المسلمين ، يعذبونهم بشتى الألوان وصنوف الهوان . فهذا يلاقى عبده الحبشى « بلالا » على الرمل فى الهجير تحت الشمس المحرقة ، ويضع على صدره الحجر ويسلمه للموت وهو يقول « أحد أحد » ، ثم يمر به ورقة بن نوفل فيرثى لحاله ، ويبكى له ويقول : « والله لئن قتلته قريش لا تخذنه حنانا » ، ثم يشتريه أبوبكر فيعتقه كما عتق كثيرا من الموالى قبله وبعده ، منهم جارية لعمر بن الخطاب قبل إسلامه ، وهذه امرأة أخرى عذبت أشد العذاب حتى ماتت ، لا تنصرف عن دينها الحق ، ولا تتحول عن مبدئها الصدق ، وهذه وهذا ، ومن إليهم من المعذبين فى ذات الله وفى سبيل مرضاته ، وابتغاء وجهه الكريم .

وعزز الإسلام مواقفهم . ووجه الناس جميعا وجهتهم إذ يقول : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم : مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله . ألا إن نصر الله قريب » بنفسى وأهلى أولئك الذين اشترى الله سبحانه أنفسهم وأموالهم « بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم » .

كل تضحية يضحى بها المؤمن فى سبيل الله فهى سعادة له ، وإعتاق لنفسه ، وبرهان على أن الإيمان الصحيح خالط قلبه ، وكذلك الإسلام حين تخالط بشاشته القلوب .

التمسك بالحق ، والبقاء على المبدأ القويم ، والكلمة الصادقة العادلة عند السلطان الجائر ، وعدم الرضا بالضيم ، ولا المبالاة بما يصيب المؤمن فى الثبات على مبدئه ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والصبر على ما يصيب فى سبيله وما يقع من تضحيات لأجله ؛ كل ذلك شراء للنفس ابتغاء مرضاة الله « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله . ولا يطأون موطئا يغيظ به الكفار . ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يضيع أجر المحسنين » .

ليت شعرى متى نرى فى أمتنا هذه ، أولئك الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه

هم الذين تعمر بهم الأرض ويستقر السلام والأمن وترضى السماء ، وتتم السعادة والرخاء .

أما أولئك المنافقون ، الذين يلقون هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه ، ويتجملون لكل من يلقون ، فيعاملون الجائر المقيم على جوره معاملة المعاونة والصفاء ، ويقابلون التقى المغرق فى نسكه مقابلة المجاملة والرياء ، ويلبسون الحق بالباطل ، ويكتمون الحق وهم يعلمون ، فانهم شر وبلاء على هذه الأمة أكثر من أعدائها ، وهم الشؤم على الحياة والمجتمع ، وهم الذين يغلُّون شركة الجماعة ، ويغلُّون أيدى أهل الحق والطاعة ، غثاء كغثاء السيل ، ما يبالى الله فى أى واد هلكوا ، ولا من أى أبواب الجحيم ولجوا .

إن شراء النفس ابتغاء مرضاة الله فريضة محكمة ، وسنة قائمة ، وعزيمة صادقة ، يجليها الجهاد الصادق لإعلاء كلمة الحق ، وإصلاح المجتمع الذى يعيش فيه المرء ، ولن يكون ذلك إلا بعد أن يجاهد المؤمن نفسه أولا ، ليحصن إيمانه وليحفظ قلبه ولسانه ، وليستعمل جوارحه فى الخير وللخير ، فيجعلها كلها لله وبالله ، لا يضن بصالحة ، ولا يدخر وسعاً فى منفعة ، ولن يكون ذلك أيضاً إلا بعد جهاد الشيطان والانتصار عليه ، حتى يسلم المجاهد من عبثه به ، فيعصى أمره ، ويكذب وعده ، فأنه متربص ببنى آدم « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا » .

« الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم » .

وإن فى مجاهدة الشيطان لأكبر قوة للنفس ، ومناعة للقلب من الأمراض الفتاكة التى تعميه عن إبصار الحق ، وتفتره عن توجيه الجوارح فى الخير . .

« ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين ، وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون ، حتى إذا جاءنا قال يا ليت بينى وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » .

وإذا تم جهاد النفس والشيطان « وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » فقد سهل

جهاد الكفار والمنافقين وأهل الزيغ والمارقين ، واستطاع المؤمن أن يعيش كريما عظيما ، ويدعى بذلك فى ملكوت السماء . .

ولقد ذكر الإمام العالم الصوفى ابن قيم الجوزية فى كتاب « زاد المعاد » أن جهاد النفس على أربع مراتب :

١ — جهادها على تعلم الهدى ، ودين الحق الذى لا فلاح بدونه ولا سعادة إلا به .

٢ — جهادها على العمل به ، فإن العلم وحده إن لم يضرها لم ينفعها .

٣ — جهادها على الدعوة إليه وتعليمه ، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى .

٤ — جهادها لتصبر على مشاق الدعوة إلى الله ، وأذى الخلق فى سبيلها .

فمن استكمل هذه المراتب فهو من الربانيين .

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان :

الأولى : دفع ما يلقى إليه من الشبهات والشكوك فى الإيمان ، وذلك يثمر اليقين .

الثانية : دفع ما يلقى من الإرادة والشهوات ، وذلك يثمر الصبر .

واليقين والصبر هما اللذان رفع الله بهما من رفع من عباده ، كما يشير إليه قوله . « وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا ، وكانوا بآياتنا يوقنون » .

فمن استطاع أن يقوم نفسه ، وأن يزع شيطانه فقد اعتز بالله ، وارتفع عن كل من سواه ، يقول الحق ولو على والديه والأقربين ، ولا يكتم الشهادة ، وينصر أولياء الله مهما تخل عنهم سواه ؛ ويخذل أولياء الشيطان مهما تنافس الناس فى القرب منهم ، الضعيف قوى عنده حتى يأخذ له حقه ، والقوى ضعيف عنده حتى يأخذ الحق منه . يتعهد جاره وعشيره وصديقه بإخلاص وطيب نفس ،

ويجد فى مصالح المحتاجين . وإغاثة الملهوفين . نفسه منه فى عناء ، والناس جميعاً منه فى راحة .

ويعجبنى من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام فى كلمة لأخيه عقيل : « وأما ما سألت عنه من رأيى فى القتال فإن رأيى قتال المحلين حتى ألقى الله ، لا يزيدنى كثرة الناس حولى عزة ، ولا تفرقهم عنى وحشة ، ولا تحسبن ابن أبيك ، ولو أسلمه الناس ، متضرعا متخشعا . ولا مقرا للضيم واهنا ، ولا سلس الزمام للقائد ، ولا وطىء الظهر للراكب ؛ ولكن كما قال أخو سليم :

فإن تسألينى كيف أنت فأننى ... صبور على ريب الزمان صليب
يعز على أن ترى بى كآبة ... فيشمت عاد أو يساء حبيب

العفـــو

لما دخل المأمون بغداد أحضر (دِعْبِلا) الشاعر بعد أن أعطاه الأمان ، وكان قد هجاه وهجا أباه ، فقال له : يا دعبل (من الحضيض الأوهد) يشير المأمون إلى ما قاله فيه من قصيدة هجاه بها .

فقال دعبل : يا أمير المؤمنين قد عفوت عمن هو أشد جرما منى . وقد أراد المأمون من اللفظين اللذين واجه الشاعر بهما أن يذكره بالقصيدة التى هجاه بها ومنها قوله يخاطب المأمون :

إنى من القوم الذين سيوفهم ... قتلت أخاك وشرفتك بمقعد
شادوا بذكرك بعد طول خموله ... واستنقذوك من الحضيض الأوهد

نوه له فى هذا البيت بما قام به طاهر بن الحسين من قتل أخيه محمد بن الرشيد وتوليته المأمون مكانه واستنشده هذه القصيدة . فاستعفاه ، فقال : لابأس عليك وقد رويتها ، وإنما أحببت أن أسمعها منك . فلما أنشده إياها وانتهى إلى قوله منها :

بنات زياد فى القصور مصونة ... وبنت رسول الله فى الفلوات

بكى المأمون وجدد له الأمان ، وأحسن له الصلة .

دعاء مستجاب

لفضيلة الأستاذ حسن جاد
المدرس بكلية اللغة العربية

ليس فى تاريخ الإسلام كله صفحة أبلغ فى الأسى والأسف ، وأدعى إلى الشجن والألم ، من تاريخ الأندلس . ففى الأندلس وحدها طُوى للإسلام بساط ممدود ، ودالت دولة كبيرة ، وبادت أمة عظيمة ، ومُحيت حضارة زاهرة . ولم تبق ثمة من تلك الصفحة الباهرة سوى أطلال دارسة ، وذكريات حزينة ، تثير فى أغوار النفس بالغ الحسرات ، وتحفر فى قلب كل مسلم أعمق الجراحات .

فمنذ انفرط عقد الخلافة ، وشت شمل الوحدة ، ودبّ دبيب العصبية والفرقة ، واستبدت بكل فرد شهوات الحكم ونزوات السلطان ، وزال عن الكبراء ذلك السلطان القاهر الذى خضعوا له منذ عهد عبد الرحمن الناصر ، اضطرب أمر الدولة وتخاذلت سواعدها ، ومادت أركانها . وصارت بعد ابن أبى عامر نهبا مشاعاً يتجاذبه الخلائف من ملوك الطوائف ، فحاز كل ما استطاع من البلاد ، وأخذت المدن الكبرى تستقل عن قرطبة منذ سنة ٤٠٠ هـ ؛ تغلب قواد البربر فى الجنوب ، وكبراء الصقالبة فى الشرق ، واستقل بالنواحى الأخرى أسر كبيرة من العرب . وكان أول المتغلبين بنو ذى النون فى طليطلة ، ثم كان بنو هود فى سرقسطة ؛ وبنو عباد فى إشبيلية ، وبنو الأفطس فى بطليوس ، وبنو جهور فى قرطبة .

وهكذا وثب المتغلبون على أشلاء الأندلس يقتسمونها ، وقامت الدويلات فى المقاطعات والمدن ينافس بعضها بعضا ، وتحاول كل واحدة أن تنتزع ما بيد الأخرى ، ووجد عدو الأندلس الخالد — أسبانيا النصرانية — فرصته السانحة ،

فأخذ يؤلب بعض الدويلات على بعض ، وملوكها يرتمون فى أحضان النصارى ، ويلتمس كل محالفتهم على خصمه ، حتى انتقص النصارى البلاد من أطرافها ، وتوغلوا فيها إمارة بعد إمارة ، إلى أن طووا صفحة الإسلام بعد ثمانية قرون ، وخرج آخر جماعة إسلامية جلت عن الأندلس سنة ١٠١٧ هـ بعد ما رأوا مصارع إخوانهم ونفيهم وتشريدهم . وتوالت السنون ، ومرت الأيام ، والمأساة تحز فى نفس كل مسلم ، وتتجدد فى صدر كل عربى ، وكأنه فى موقف أبى الحزم ابن جهور حين وقف على قصور الأمويين وقد تقوضت أبنيتها ، وعُوّضت من أنيسها بالوحوش أفنيتها ، فقال :

قلت يوما لدار قوم تفانوا أين سكانك العزاز علينا ؟
فأجابت : هنا أقاموا قليلا ثم ساروا ولست أعلم أينا (١)

تولى أبو الوليد بن جهور أمر قرطبة بعد أبيه فيمن تولوا الأمر واستقلوا بالمدن الكبرى من ملوك الطوائف ، فلما أدركه الإعياء وألحت عليه الشيخوخة ، ترك الأمر لابنه عبد الملك ، وأسلمه الزمام . فلما طمع يحي بن ذى النون فى قرطبة ، على عادة هؤلاء الملوك ، وقد توفرت دواعى الطمع من الانحلال والفرقة ، وأرقته الرغبة فى الاستيلاء عليها فيمن تؤرقه من المتربصين ، أنشب مخالبه فيها فاستجار عبد الملك بالمعتمد بن عباد المتغلب على إشبيلية ، فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، حيث كان هو الآخر متيما بقرطبة حتى جلا عنها ابن ذى النون يأسا . ولكن ما انقشعت سدفة الليل حتى هتك العباديون الحريم . خرج عبد الملك لكى يشيعهم ويشكرهم على حمايته فلم يرعهم إلا إحداقهم بقصره وارتفاع أصواتهم بالبراءة من أمره . وقُبض عليه وعلى سائر أهله ، وأخرج أبوه الشيخ أبو الوليد مفلوج الشدق ، مائل الشق ؛ فلما وُسط به قنطرة قرطبة خارجاً منها على هجين رفع يديه إلى السماء وأخذ يبتهل : « اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا » (٢) .

---

(١) مطمح الأنفس ص ١٧ والنفح حـ ١ ص ٢٤٩ .

(٢) عن الذخيرة لابن بسام حـ ٢ ص ١١٤ وما بعدها .

ترى هل استجاب الله هذا الدعاء ؟

كان المعتمد هذا أكبر ملوك الطوائف وأنداهم راحة ، وأرحبهم ساحة ، وكانت دولته كما يقول أبو بكر الدانى أشبه شيء بالدولة العباسية ببغداد ، سعة مكارم ، وجمع فضائل ؛ وكانت حضرته ملتقى الرجال وموسم الشعراء ، وكان ذكىّ النفس ، غزير الأدب رقيق الشعر ، اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله [١] . أما ترفه وإسرافه وبذخه فشيء يسمو على الخيال ، ويتقاصر دونه افتنان القصاص . قالوا إن جاريته « اعتماد » رأت يوما نساء البادية يبعن اللبن فى القرب وهن رافعات عن سوقهن فى الطين ، فاشتهت أن تفعل هى وجواريها مثل هؤلاء النسوة ، فأمر المعتمد بالمسك والكافور وماء الورد ، وصير الجميع طينا فى القصر ، وجعل لها قربا وحبالا من إبريسم وخرجت هى وجواريها تخوض فى ذلك الطين [٢] .

أما نهايته فكانت من أفجع النهايات ، وكانت ظروفها على هذا النحو الذى سلكه هؤلاء الملوك من الرغبة فى الاستبداد بالملك ، وحوك الدسائس ، وتحين الفرص ، والاستعانة بالأجنبى .

طمع الأذفونش فى بلاد المعتمد ، فأرسل إليه يتهدده ، فضرب المعتمد الرسول وقتل من معه ، فتأهب له الأذفونش ، فاستعان المعتمد بالأمير يوسف ابن تاشفين ، فتم له النصر . ولكن دعاء أبى الوليد لا يزال يتردد فى أطباق السماء ، فكما كان المعتمد نارا حين استجار به أبو الوليد من رمضاء ابن ذى النون ، كان يوسف بن تاشفين نارا على المعتمد من رمضاء الأذفونش ، فقد غدر بالمعتمد وانتزع البلاد من أبنائه ، وقتل ابنه الظافر المتولى زمام قرطبة المغصوبة ، فى حالة مؤثرة وصفها صاحب القلائد ، ثم ابنه المأمون كذلك . وحوصر المعتمد بأشبيلية وقبض عليه واعتقل بمدينة « أغمات » ، وأودع ذل قيدها وظلام سجنها ، وشُرِّد أبناؤه ، وذلت بناته ، وتحطم ملكه الشامخ ، وانطوى بساط عزه ومجده .

دخلت عليه بناته فى سجنه يوم عيد وكن يغزلن للناس بالأجرة فى أغمات ،

---

(١) نفح الطيب حـ ٢ ص ١١٣٤ .

(٢) المعجب ـ للمراكشى .

حتى إن إحداهن غزلت لبيت صاحب الشرطة الذى كان فى خدمة أبيها وهو فى سلطانه ، فرآهن المعتمد فى أطمار بالية وحالة رثة ، فصدع قلبه فقال :

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورا ... فساءك العيد فى أغمات مأسورا
ترى بناتك فى الأطمار جائعة ... يغزلن للناس لا يملكن قطميرا
برزن نحوك للتسليم خاشعة ... أبصارهن حسيرات مكاسيرا
يطأن فى الترب والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا
من بات بعدك فى مُلك يسر به ... فإنما بات بالأحلام مغرورا

وكأن القدر كان يسخر من عبثه مع جاريته (اعتماد) فردّ بناته إلى الطين الحقيقى : طين الريفيات حاملات الجرار ، لا طين المسك والعنبر والكافور :

يطأن فى الطين والأقدام حافية ... كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

أجل :

أأرغب أن أعيش أرى بناتى ... عوارى قد أضر بها الحفاء
خوادم بنت مَن قد كان أعلى ... مراتبه إذا يبدو النداء
ولكن الدعاء إذا دعاه ... ضمير مخلص نفع الدعاء

ويدخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود ، وهو لا يطيق إعمال قدم ، فلما رآه بكى وقال :

قيدى أما تعلمنى مسلما ... أبيت أن تشفق أو ترحما
يبصرنى فيك أبو هاشم ... فينثنى والقلب قد هشما
ارحم طفيلا طائشا لبه ... لم يخش أن يأتيك مسترحما
وارحم أخيات له مثله ... جرعتهن السم والعلقما

وما زال يرسل من زفراته ، ويسكب من عبراته حتى مات بالسجن سنة ٤٨٨ هـ ، بعد أن صدع القلوب بأناته الكسيرة ، وهزّ النفوس بمواجعه الأليمة ، فما أمر الذلة بعد العز ، وما أقسى الشقاء بعد النعيم ! . ووقف ابن اللبانة فى جماعة من الشعراء على قبره فى يوم عيد ، والناس عند قبور أهليهم ، فأنشد بصوت عال :

أهل النار يختصمون

لفضيلة الأستاذ على محمد حسن العمارى
مبعوث الأزهر فى السودان

نعوذ بالله من النار ومن خصوماتها ، وإنها لخصومات عنيفة لا عهد لأهل الدنيا بمثلها ؛ فهى خصومات بين السادة والمسودين ، بين الأتباع والمتبوعين ، ظلم الجميع أنفسهم فرأوا العذاب ، فتبرأ المتبوعون ، وندم التابعون .

وهذه قصة عرض لها القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، فبين فى وضوح وجلاء حال أولئك الكبراء الذين حملوا أوزارهم ، وأوزار الذين أضلوهم بغير علم ، وحال أولئك الضعفاء الذين صغرت نفوسهم ، وسخفت عقولهم ، وذلت أراداتهم ، فانقادوا لكبرائهم ، يؤمنون بهم ، ويحبونهم كحب الله أو أشد حبا ، ويعتقدون أنهم سيحملونهم على أجنحتهم يوم يحشر الناس حفاة عراة ، فالمؤمن محبوب

ملك الملوك أسامع فأنادى ... أم قد عدتك عن السماع عواد
لما نقلت عن القصور ولم تكن ... فيها كما قد كنتَ فى الأعياد
أقبلت فى هذا الثرى لك خاضعا ... وجعلت قبرك موضع الأنشاد

واستمر فى القصيدة يبكى والناس يجتمعون عليه ويبكون .

تُرى هل استجاب الله دعاء أبى الوليد حين أخرجه المعتمد مفلوج الشدق مائل الشق ؟ نعم . ولعلها عظة لمن يصول بالقوة ، ويدل بالبأس ، ويعميه الغرور فيكيد للضعيف ، ويستبد بالمغلوب ، ويستعمر الشعوب ، ويستعبد الممالك ، ويدبر فى الخفاء . وإن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ، كما يقول الرسول صلوات الله عليه ، وإنها لدعاء نافع مستجاب ، كما يقول المعتمد نفسه :

ولكن الدعاء إذا دعاه ... ضمير مخلص نفع الدعاء .

واحد — هو الله تعالى — يعتقد أنه كل شيء ، وبيده ملكوت كل شيء ، وله القدرة والسلطان على جميع الأكوان ، فما ناله من خير فهو بهدايته وتوفيقه ، وما تعذر عليه من أمر فهو يكله إليه ، ويعول فيه عليه ، وللمشرك أرباب متفرقون ، فإذا تعذر عليه أمر ، لجأ إلى بشر أو صخر ، أو توسل بحيوان أو قبر ، أو استشفع بزيد أو عمرو ، فهو دائما مضطرب البال ، لا يستقر من القلق على حال [1] » .

هكذا يزين السادة للضعفاء ، وهكذا يذل الضعفاء للسادة ، ولكنهم ما يكادون يفارقون هذه الحياة حتى يتبين لهم ، فإذا بلغت الروح الحلقوم ، وحضرت الملائكة تتوفى أولئك الضعفاء ، سألتهم : أين الذين كنتم تعتمدون عليهم ، وتتوسلون بهم ، وتعتقدون أنهم شركاء لله ، فيلتفت الضعفاء يمنة ويسرة ، فلا يرون من يرد عنهم الموت ، أو يخفف من سكراته ، فيعرفون - لأول مرة - أنها كانت خدعة « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم قالوا أين ما كنتم تدعون من دون الله ، قالوا ضلوا عنا » . وينفخ فى الصور فيخرجون من قبورهم ناكسى رؤوسهم ، خشعا أبصارهم ، يهولهم الموقف ، ويشتد عليهم الحساب ، فيلتفتون لعلهم يجدون من يأخذ بأيديهم ، فإذا سادتهم يبرزهم الملائكة لهم ، لكن لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه ، ولا يسأل حميم حميما ، فهم يتراءون ، ويبصر بعضهم بعضا ، ولكن يفر المرء من أخيه وصاحبه ، فيسمعون الصوت ساخرا منهم ، هازئا بهم : « ما لكم لا تناصرون » فيتعاتبون عتابا خفيفا هادئا ، يقول الاتباع : إنكم كنتم توسوسون لنا ، وتزينون لنا الشرك والكفر ، فيجيبهم المتبوعون فى حسرة لاذعة ، وألم بالغ ، : ما كان لنا عليكم من سلطان ، بل أنتم الذين آثرتم الشرك . « احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم ، وقفوهم إنهم مسئولون ، ما لكم لا تناصرون ، بل هم اليوم مستسلمون ، وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون ، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين ، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين » . ولكن يشتد عليهم العذاب ، ويطول بهم

---

(١) من تفسير المنار بتصرف

الموقف، فترتفع أصواتهم وينفجر غيظهم، وحنقهم على رؤسائهم، فيتراجعون القول، ويتقاذفون التهم، الضعفاء يتهمون سادتهم بأنهم أضلوهم، ومنعوهم من الهدى، وحادوا بهم عن طريق الحق، وأوهموهم أن الخير فى اتباعهم، والرشاد فى السير وراءهم، والمستكبرون يتهمون الضعفاء بأنهم كانوا راغبين فى الشهوات، طامعين فى الملذات، محبين للفساد فى الأرض، متهاونين فى حق أنفسهم «ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا: أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين، قال الذين استضعفوا للذين استكبروا: بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا، وأسروا الندامة لما رأوا العذاب».

ثم يساق المستكبرون إلى النار يجدون فيها جزاء ما اكتسبوا، فى سموم، وحميم، وظل من يحموم، لا بارد ولا كريم، ويلتفتون فى ساعة من ساعات الضيق والقلق - وكل ساعاتهم كذلك - إلى أبواب الجحيم، فإذا الزبانية يسوقون فوجاً فى السلاسل والأغلال، فيتأملونهم فإذا هم أتباعهم فى الدنيا، فيتقربون منهم، وينادونهم، لا مرحباً بكم، ولا سهلا لكم، كنا ظنناكم نجوتم من العذاب، وبعدتم عن النار، ولكنكم تدخلونها كما دخلناها، فلا حياكم الله، فيرد عليهم الاتباع حانقين ثائرين: «بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار». وهكذا كلما دخل فوج لعن الأول الآخر، ولعن الآخر الأول، فإذا اجتمعت الأفواج كلها، جعلوا يتصايحون ويتسابون، ويظلون كذلك يتسابون ويتلاعنون حتى يأذن الله: «قال ادخلوا فى أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس فى النار، كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم: ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار، قال: لكل ضعف ولكن لا تعلمون، وقالت أولاهم لأخراهم: فما كان لنا عليكم من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون». فإذا لم يجدوا من هذا التلاعن فائدة لجأ الضعفاء - كعادتهم فى الدنيا - إلى سادتهم - ولعلهم يرجعون هذه المرة ساخرين - رجعوا إليهم يرجونهم أن يخففوا عنهم شيئاً من العذاب، ولكن كيف! وكل فيها: «وإذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم

مغنون عنا نصيباً من النار ، قال الذين استكبروا إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد » ، وتبرأوا منهم - وهم منذ بعيد يتبرأون - « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله ، ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا، وأن الله شديد العذاب ، إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب ، وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرأوا منا ، كذلك يريهم الله أعمالهم ، حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار » نعم ، لا رجعة ولا عودة ، ولا أمل فى رجعة أو عودة ، فلم يبق إلا اليأس ، اليأس من المتبوعين ، واليأس من العودة إلى الدنيا ، فيندمون على ما فعلوا ، ويلجأون إلى الله يطلبون منه أن يضاعف لسادتهم العذاب : « يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا ، وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً » .

حكم الله بين العباد ، وجازى كلا بما قدم ، جازى المتكبر بضلاله وإضلاله ، ولم يرحم الضعيف العقل ، السخيف الرأى ، فجازاه على ضلاله ، واستخفافه بعقله ، واتباعه لغيره على غير هدى ولا بصيرة ، ولم ينتفع الأتباع بمتبوعيهم ، ولا خفف عن المتبوعين أن الأتباع معهم فى النار ، والقرآن الكريم يخاطب هؤلاء وهؤلاء : « ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم فى العذاب مشتركون » .

أهل النار يختصمون : « إن ذلك لحق تخاصم أهل النار » ويتحاجون ويتلاعنون ، ويتبرأ الكبار من الصغار ، ويشترك الجميع فى العذاب .

هذه هى القصة التى ذكرها القرآن الكريم فى مواضع غير قليلة ، وبينها واضحة جلية ، فهل لنا أن نطمع فى أن يلتفت إليها أولئك الذين يعبدون الله على حرف ، ويتعلقون بآمال كاذبة ، وهل لهم أن يعلموا أن كل علاقة تقوم بين اثنين على غير رضا الله ومحبته هى وبال على الاثنين معاً ، يوم لا تنفع خلة ولا شفاعة ، ولا يغنى مولى عن مولى شيئاً ، و « الإخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين » ؟

لا يستوي الخبيث والطيب

لفضيلة الشيخ محمود جميلة
المدرس بكلية اللغـة العربية

أجناس المخلوقات متنوعة ، وأنواعها متفاوتة وأعمال الإنسان متعددة ، وأقواله متكاثرة ، وقد اختار الله من كل جنس أطيبه ومن كل نوع أحسنه ومن كل عمل أصدقه ومن كل قول أوفاه .

فطيب كل شيء هو مختاره تعالى وموضع قبوله ورضاه ، وأن تناول خلقه ما سواه ، ففضل النورانية اللطيفة على البشرية الكثيفة ، ورفع الطين على النار ، وميز الناطق على الأعجم والحيوان على الجماد ، وجعل فى كل ذلك ما به نأتلف ونختلف ، ونتحد ونفترق ، وتقبل وترد ، وتعلو وترسب .

والإحسان فى كل شيء هو طلبته وموضع محبته وإليه دعوته ومنه اسمه وإليه مرده وعنده جزاؤه والزيادة منه وثوابه والفضل عليه .

والمحسن يحب الحسن والمحسنين ، ويكره الخبيث والخبيثين ، كما أن الطيب يحب الطيب والطيبين ، ويكره الخبث والخبيثين فأعمال الإنسان وأقواله خاضعة لهذا الوضع تابعة لهذا القانون : « من أحسن فلنفسه ، ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » .

والقول الحسن أو الكلام الطيب الذى إليه يصعد وبه يرضى وعنده يقبل هو المنزه عن الفحش والتفحش ، والكذب والبهتان ، والخبث والزور ، والباطل والضلال . فكان نصحاً للمسلمين أو صلحاً بين المتخاصمين أو شهادة تظهر الحق أو قولة تبطل العدوان أو سفارة مخلصة أو شفاعة حسنة أو ذكرا يرطب القلوب أو استغفاراً يمحو الذنوب أو صلاة ناهية أو حكمة شافية أو دعوة للإصلاح أو صرخة فى الحق أو نداء فى سبيل الله .

والعمل الصالح الذى إليه يرفع ولديه ينزل وعنده يقع موقعه من الرضى والقبول هو ما حسنته الفطر السليمة والشرائع المنزلة والعقول الصحيحة. كتوحيد المبدع وإيثار رضاه على هـــدى النفس وتخصيصه بالطاعة والعبادة والإحسان إلى خلقه بنصحهم وانصافهم وتحمل أذاهم، والكف عن أعراضهم ومعاملتهم بالحسنى والأخذ بيدهم إلى طريق النجاة وامتثال أوامره واجتناب نواهيه، كما أنه تعالى اختار من الأخلاق أذكاها وأطهرها كالوفاء والرحمة، والتواضع والعزة، والحلم والشجاعة، والحق والصبر، والمروءة والسخاء، وصيانة الوجه، ونقاء القلب من الغل والحسد والحقد إلى غير ذلك من خلال الخير وصفات الرحمة التى أيدها النظر ودعت إليها الأديان، ووافقت عليها الطباع وقضت بها العقول.

ويحب الله لعباده من الغذاء أو النساء أو الرائحة أو العشراء ـ الحلال الجلى، والسليم الهنى، والمرى الشهى، والطيب الذكى، والخل الوفى، والناصح الأبى، والصاحب النقى.

فسبحانه وتعالى يحب الطيب لعباده ومن عباده، ويكره لهم الخبث فأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث ودعاهم بما أودع فيهم من قوة التمييز وقدرة التفكير وبعد النظر وصحة التأمل والاعتبار ـ إلى النافع الناصع والصالح الظاهر والحق المبين والطريق المستقيم؛ حتى إذا ما استقاموا على الطريقة وطابت نفوسهم بالطيبات ونفرت من الخبائث توفتهم الملائكة طيبين، وقال لهم خزنة الجنة سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين.

فالجنة طيبة، غرسها طيب، وماؤها طيب، وريحها طيب، أعدها الله للطيبين واختارها للمتقين، كما أن النار خبيثة، ريحها خبيث، وطلعها خبيث، أعدها الله للخبيثين، وجعلها دارا للمسرفين؛ فهما داران لكل منهما جزء مقسوم ونصيب معلوم وعدد مرسوم.

أما الدنيا فقد جمعت بين الأمرين، واتسعت للنقيضين واشتملت على الضدين ففيها: شر وخير، وعدل وظلم، ونور وظلمة، وهدى وضلال، وعلم وجهل، وحكمة ونزق، وذنب وتوبة، وإصلاح وإفساد، وطيب وخبث، كل ذلك وما وراءه لا تتردد النفوس فيه ولا يتطرق الشك إليه، فالحلال بين والحرام بين ولكن للعقول المميزة بين هذه المتخالفات وتلك المتباينات قد يغطيها صدأ يعكر

صفوها أو سحاب يستر ضوءها أو حجاب يمنع نفوذها فتتردى فى الباطل باسم الحق وتؤمن بالزور والضلال خضوعا لغلبة الشهوة وسيطرة الشيطان .

وما كان الله ليدع عباده فى ظلمة الدنيا حيارى بين حق مستور، وباطل مشهور، وهو دون أن يبين لهم الطريق ويوضح لهم السبيل ويفتح لهم باب الرشاد والقبول - وكيف يجعل لهم موعدا، ويضع لهم ميزانا ويعد لهم صراطا ويقفهم وقفة السؤال والحساب، ويزف المحسن إلى الجنة، ويسوق المجرم إلى النار وهو عدل فى قضائه ورؤوف بعباده، وقد بقيت الحجة للمأخوذ، والمعذرة للمطلوب، تعالى الله عن ذلك، وتنزه عما هناك، فقضت كلمته وشاءت إرادته أن تكون الحجة له والمعذرة إليه، فله الحجة البالغة على خلقه، وليس لمخلوق عليه حجة، فاصطفى من عباده من شاء أن يصطفى، واختار منهم من شاء أن يختار، اصطفى رسلا من الناس للناس ليتم التفاهم، وتقطع الأعذار، وتبطل العلل، ويزول اللبس وتقوم الحجة ويحصل الإلزام .

أرسلهم لتمييز ما اختلط، وكشف ما استتر وتوضيح ما اشتبه، ونشر الحق واقامة العدل وفتح مسالك الجنة وسد مسالك النار .

أرسلهم مبشرين ومنذرين وهادين وناصحين وداعين ومرشدين . صنعهم بيده وعلمهم من كلمته وأسبغ عليهم من نعمته وجعلهم مصابيح مضيئة تهدى إليه، وتدل عليه وتحيا لأجله وتموت لأمره وتدعو لجنته وتنفر من ناره؛ أمدهم بنصره وأيدهم بعنايته وأنزل معهم الكتب والحجج فاستبان الأمر ووضح السبيل وسلك كل طريقة وصوت الحق يناديه : هذا حلال وهذا حرام، ليهلك من هلك ويحيا من سلك .

وقد شاءت حكمة الحكيم بعد دعوة المرسلين أن يبقى فى الناس من الناس أمثلة من أمثلة الخير ودعاة من دعاة المعروف وهداة من هداة الأمة، تهذبت نفوسهم وسمت عقولهم وصدقت نياتهم وتولاهم ربهم، فطهر قلوبهم وعرفهم بنفسه فباعوا من أجلها نفوسهم فلا يردون ولا يصدرون إلا متقين مؤمنين ممتثلين موقنين، وهؤلاء هم الأنبياء قبل حكم النبوة والأولياء والعلماء بعد البعثة المحمدية، أولئك دعوا الناس بافعالهم وأقوالهم وصمتهم ونطقهم فكانوا قدوة تحتذى وعصبة ترتجى، رحمة من ربك وفضلا من خالقك، وفقنا الله لمتابعتهم والسير على سنتهم ؟

الأفضل بن بدر الجمالى

الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

كان بدر الجمالى ، والد الأفضل ، أرمنى الجنس ، اشتراه جمال الدولة بن عمار ورباه عنده ، ولصائب رأيه ، وقوة عزمه ، وشهامته ، استنابه المستنصر الفاطمى على مدينة صور ، وقيل عكا . ثم أخذ يتدرج فى المناصب الكبرى لما أصابه من نجاح فى الحروب السورية ، وحرب الأتراك ، حتى أضحى أشد الحكام قوة فى سوريا . ولما أطبقت المصائب على الدولة الفاطمية فى عهد المستنصر استجار به الخليفة ، ليرأب الصدع ، ويقوم المعوج ، فقدم مصر على رأس جيوشه السورية المسماة « الشرقيين Easterns » تمييزا لهم عن الترك ، والبرابرة ، والعناصر الموجودة بالبلاد ، وذلك بعد أن فتكت المجاعة بأهل البلاد ثمانى سنوات (٤٤٦ — ٥٤٤ هـ) . وبعد أن عاث الترك فيها فساداً . وبعد مجيئه فوض له الخليفة كل شيء ، فسميت الوزارة باسم « وزارة التفويض » ومن ثم علا نجم الوزارة وهوى نجم الخلافة ، وذاك طابع التاريخ الفاطمى ، فى عهده الأخير . والحق يقال إن البلاد تدين لبدر وابنه الافضل مدى نصف قرن بما سادها من هدوء ورخاء .

ولما مرض بدر الجمالى ، أوصى بتدبير المملكة من بعده ، لولده الثانى ، « شاهين شاه » ، وذلك لطول ما لازمه ، وتدرب على يده ، واكتسب من سيرته . ولما تولى « شاهين شاه » الوزارة ، لقب بالأفضل ، وبجميع الألقاب ، والامتيازات ، التى كانت لأبيه ولقد كان للأفضل ، أخ ، يكبره ، يدعى « الأوحد » ، لم يعهد إليه أبوه ، بالوزارة ، لأنه خرج عليه ، وتحصن فى الاسكندرية ، فمضى إليه أبوه ونازله حتى هزمه ، ودخل الاسكندرية ، وبنى بها مسجد العطارين . أضف إلى ذلك ما تحلى به الأفضل من أخلاق وميزات ، لم تكن لأخيه الأوحد .

ولم يخلص الأمر للأفضل بسهولة ، فإن « أمين الدولة لاوون » ، وهو من فتيان بدر ، تنكر لماضيه مع سيده ، وحاول فى ساعات بدر الأخيرة ، أن يقفز الى الوزارة ، عن طريق رشوة الأمراء ، واسترضاء الخليفة الفاطمى ، فأبى المستنصر الوفى ذلك عليه ، ودس له منافسه « ناصر الدولة أفتكين » ، حتى اجتمع الأمراء ، على مناصرة الأفضل . فركب الأفضل ، بعد فشل « لاوون » ، إلى باب العيد ، فأكرم الخليفة وفادته ، وأقامه مقام أبيه ، وسد به مسده ، وأتبع ذلك بزيارة لبدر ، وهو على فراش الموت ، مقراً أمر ابنه من بعده ، مجاملة له ، وطمأنه على مصير ابنه . وبذلك أضحى الأفضل وزيراً مكان أبيه ، واجتمع له من الرتب والألقاب والأدعية ما كان لأبيه . أما « لاوون » فقد عفا عنه الأفضل ، وأبقى عليه ، ثم اعتقله أثناء حركة « نزار » بالأسكندرية ، مخافة خيانته ، وظل كذلك حتى مات فى معتقله .

وقد كان الأفضل يلقب « بالسيد الأجل ، الأفضل ، سيف الأمام ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، ناصر الدين ، خليل أمير المؤمنين ، أبو القاسم شاهين شاه ، ابن السيد الأجل ، أمير الجيوش المستنصرى » وفى الحقيقة أن لقب الأفضل ، يسترعى انتباهنا . وبقدر المستطاع تلمست علة هذه التسمية أثناء قراءتى فى الخطط المقريزية إذ يقول المقريزى ما نصه : « فلما قام شاهين شاه أمير الجيوش من بعد أبيه ، ومات الخليفة المستنصر ، وأجلس ابن بدر فى الخلافة أحمد بن المستنصر ولقبه بالمستعلى ، صار يقال له الأفضل ، ومن بعده صار من يتولى هذه الرتبة يتلقب بها أيضا » . فمن حديث المقريزى يمكن أن نستنتج أن لقب الأفضل صار له عند ما فضل خلافة المستعلى على نزار ، وأقامه بدل أخيه . منذ ذلك الحين صار يقال له الأفضل ، أما الوزراء الذين حملوا هذا اللقب من بعده ، فقد حملوه تقليداً وتشبهاً .

قضى المستنصر عام ٤٨٧ ﻫ (٢٩ ديسمبر ١٠٩٤ م) ، وخلف من بعده ، سبعة أولاد ، كان أصغرهم المستعلى ، الذى اعتلى العرش ، بمساعدة الأفضل ، وأكبرهم نزار ، الذى أقصى عن العرش . وتضطرب الرواية الإسلامية فى هل عهد الخليفة الراحل من بعده بالخلافة الى ولده نزار أم لا ؟ ويقال إن الخليفة

قد نص صراحة فى حياته على أن يخلفه ولده « أبو المنصور نزار » فلما مرض أراد أخذ البيعة له ، فتقاعد الأفضل ، ودافع المستنصر من يوم الى يوم حتى مات . ولقد عمد الأفضل بشتى الوسائل الى إبعاد نزار عن الخلافة ، فأخذ يدس له ، عند العوام والخواص ، وخوفهم منه ، حتى انفضوا من حوله ، ثم فاوض عمه نزار فى ولاية أبى القاسم على أن يلقب بالمستعلى على أن تكون لها كفالة الدولة فشهدت بأن المستنصر عهد له بمحضر القاضى والداعى . جد الأفضل بعد ذلك فى أخذ البيعة للمستعلى ، وتم ذلك بحضور قاضى القضاة المؤيد بنصر الأنام « على بن نافع بن الكحال » على مقدمى الدولة ورؤسائها وأعيانها ، واستجاب لهذه البيعة كل من اسماعيل وعبد الله ابنى المستنصر ، وكتب بذلك محضرا قرأه على الأمراء « الشريف سناء الملك محمد بن محمد الحسينى » الكاتب بديوان الإنشاء .

لم يترك نزار الأمر يمضى على هذا النحو سهلا ليناً ، وهو فيما يرى صاحب حق مغتصب ، وقال للأفضل يوم طلب منه مبايعة المستعلى « لو قطعت ما بايعت من هو أصغر منى سناً ، وخط والدى عندى بأنى ولى عهده ، وأنا أحضره » . وخرج مسرعاً حيث مضى هو وأخوه عبد الله ـ ناقضاً البيعة ـ وابن « مصال السلكى » إلى الإسكندرية ، وهناك استمال نزار واليها المدعو « ناصر الدولة أفتكين التركى » ، إذ وعده بالوزارة ، وكذا بايع أهل الإسكندرية نزاراً ولقب « بالمصطفى لدين الله » وساعده على ذلك « ابن عمار » قاضى الاسكندرية ، فكأن البيعة التى تمت بالقاهرة على يد قاضى القضاة « على بن نافع بن الكحال » ، قد تم مثلها بالاسكندرية على يد قاضى الاسكندرية « جلال الدولة على بن أحمد بن عمار » . وذلك ما أزعج الأفضل كثيراً ، فأخذ يعد العدة لملاقاة نزار .

وفى آخر المحرم ٤٨٨ هـ (فبراير ١٠٩٥ م) ، أعد الأفضل حملة سار بها متجهاً إلى الاسكندرية ، غير أنه انكسر فى جولته الأولى ، وتمكن نزار من الاستيلاء على الوجه البحرى بما توافر لديه من الأنصار العديدين من أعراب الدلتا ، وبذا أصبح نزار خطراً حقيقياً يهدد سلامة الدولة . رجع الأفضل إلى القاهرة منكسراً ، وليس خائب الرجاء ، فجمع على عجل جيشاً آخر ، وتوسل

بوسائل الدس والرشوة لدى أعوان نزار وأفتكين ، وأخذ يعدهم الوعود الطيبة ، فانفض أعوان نزار من حوله ، وأقدم على محاصرة الاسكندرية ، وضيق عليها الخناق ، ففر « ابن مصال » إلى المغرب ، وضعفت بذلك شوكة نزار وأفتكين ، وطلبا الأمان فأمنهما ، ثم قبض عليهما وعلى « ابن عمار » وأرسلهم مخفورين إلى القاهرة ، فأما نزار فإنه قتل فى القصر بأن أقيم بين حائطين بنيا عليه ، وأما أفتكين فقد قتله الأفضل بعد قدومه ، ويقول ابن خلدون [ج ٤ ص ٦٦] إنه قتل بالضرب بالعصى لأن الأفضل أحضره يوماً ووبخه فهم بالرد عليه .

وعلى هذا نرى أن الأفضل أخل بالأمان الذى أعطاه لنزار وأفتكين وابن عمار ، لأنه كان حانقاً حنقاً كبيراً على نزار وأفتكين ، ولأن الأخير كان يلعن المستعلى والأفضل على المنابر . كذا قتل الأفضل عبد الله أخ نزار ، وولى « أبا الحسن بن حديد » قاضياً على الاسكندرية بدل ابن عمار .

وتردد بعض المصادر سبباً طريفاً تعلل به فرار « ابن مصال » إلى بلاد المغرب ، وذلك أن ابن مصال رأى فى منامه أنه راكب فرساً والأفضل يسير فى ركابه فقال المعبِّر : الماشى على الأرض أملك لها ، فلما سمع ذلك جمع ماله وفر إلى بلاد المغرب ، ويقال إن الأفضل أمّن ابن مصال واستقدمه وأبقى عليه . وهكذا استطاع الأفضل القضاء على هذه الفتنة فى مهدها ، التى لو قدر لها النجاح لأطاحت بوزارته وبخلافة المستعلى .

ويجدر بنا أن نتساءل : ما هى الأسباب التى حملت الأفضل على إقصاء نزار عن الخلافة ؟ تردد غالبية المصادر وخاصة العربية منها أن نزاراً خرج ذات يوم فى حياة أبيه فإذا الأفضل راكب وقد دخل من أحد أبواب القصر ، وكان الممر مظلماً فلم يره الأفضل ولم يترجل ، فصاح به نزار « انزل يا أرمنى الجنس »

وفى رواية أخرى «إنزل يا أرمنى يا كلب» وفى ثالثة «انزل يا أرمنى يا نجس»، وعلى هذا أضمر كل لصاحبه الكراهية، ومن دواعى هذه الكراهية أيضاً، أن كان لنزار حاشية وأعوان يعملون على إقصاء الأفضل عن الوزارة.

وبالإضافة إلى ذلك فقد كان الأفضل يعارض نزاراً فى أيام أبيه ويستخف به ويضع من حواشيه وأسبابه ويبطش بغلمانه... فلما مات المستنصر خاف الأفضل على نفسه فعمل على إقصائه عن العرش. أما المصادر الأجنبية فتورد جملة تعليلات لهذا الإقصاء، من أهمها أن الأفضل كان يرغب فى الاحتفاظ لنفسه بالقوة التى كانت لأبيه أيام المستنصر، فعمل على إقصاء نزار عن الخلافة وكان عمره إذ ذاك خمسين عاماً، أما المستعلى فكان عمره فى ذلك الحين ثمانى عشرة عاما، فيكون ولا شك فى يده أطوع أمراً وأسلس مقادة من أخيه المسن، فكأن الأفضل بإبعاده نزارا عن العرش، كان مدفوعا بعوامل شخصية قوامها الكراهية والطمع فى تركيز السلطة فى يده، ولم تذكر المصادر عربية كانت أو أفرنجية عيوبا خُلقية أو خَلقية تحول دون تولى نزار الخلافة.

ويجدر بنا أن نلم فى ختام هذا المقام بالنتائج التى ترتبت على حركة نزار وهزيمته، وأهمها نتيجتان: الأولى ازدياد قوة الأفضل بالطبع، إذ ظل المستعلى مسلوب السلطة معه طيلة خلافته. والثانيه أن هذه الحركة سببت الانقسام فى صفوف الفاطميين، فأصبح الفاطميون وأعوانهم بمصر قسما، وأتباعهم خارج مصر قسما آخر، وهؤلاء هم النزاريون الذين كانوا يدعون مبدئيا للمذهب الفاطمى عامة، ثم أصبحوا بعد مقتل نزار سنه ٤٨٨ هـ حزباً قائماً بذاته يعمل على مناوءة الفاطميين بمصر ويقول بإمامة نزار، ولقد سببت هذه الطائفة كثيرا من المتاعب للدولة الفاطمية، ولقد دخل بعضهم مصر ولا يبعد مطلقا أن يكونوا هم الذين دسوا السم للإمام المستعلى.

وإلى مقال قادم نعرض فيه لفرقة النزارية، ونتم فيه الحديث عن وزير جليل خطير من أهم وزراء العهد الفاطمى هو الأفضل بن بدر الجمالى.

دراسات فى التصوف :

العقل والنقل والذوق

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

نشأت بين الفقهاء والصوفية خصومة عنيفة دامية ، بدأت مع بدء التصوف كعلم ، واستمرت تشتد وتضطرم كلما تقدم بها الزمن . فالصوفية قد اتبعوا مذهبا ، واصطنعوا آراء ، هى على طرف نقيض مع آراء الفقهاء ، فكان النضال بين الفريقين نضال مذاهب :

طريق التصوف ، كما نعرف ، هو التخلص من ربقة البدن ، وهو تنقية النفس وتصفية الروح ، والصعود بها إلى السماك الأعلى ، هناك حيث تتحد بالحق ، وحيث تنكشف لها أنوار اليقين ، فالروح إن تخلصت من البدن ، سمت وارتفعت عن أدران الأرض وأحقادها ، إلى عالم الله ، إلى عالم الحقيقة . هنالك تجد الروح لذة لا تعادلها لذة . أما السبيل إلى ذلك فهو كما قلنا التخلص من ربقة البدن : بالرياضة والمجاهدة والزهد والحرمان والتقشف .

تلك جميعا هى وسائل فى سبيل غاية أولى ، ومقصد أسمى وأنبل ، لا بل فى سبيل شىء أعظم من ذلك وأقدس ، إنما هى وسائل نصل بوساطتها إلى عين الحق . يريد هؤلاء القوم أن تتلاشى عن أبصارهم حجب الماديات ، فيأخذون أبدانهم بالمجاهدات والرياضات ، حتى يتخلصوا — إن أمكنهم ذلك — من مظهر الوجود الشخصى المحدود : يريدون الفناء عن أنفسهم فى الله ، والتخلص من أبدانهم ليتصلوا بالله .

ولكن الفقهاء أبوا أن يسيروا مع الصوفية فى نفس الطريق ، فأصموا آذانهم دون هذا الحديث ، فإنه لحديث مشكل ، وطريق غير معبد ، لا يستطيع السير

فيه إلا من يسلك طرق الصوفية ويتبع خلتهم ، فإنهم وقد بنوا علمهم على أصول كشفية ، وعلوم ذوقية ، فإن علينا أن نحكم الأصول حتى نعرف الفروع ، وأن نتجرد عن الدنيا والآخرة حتى نذوق ، وعلينا قبل أن نبدأ فهم كلامهم أن نكون منهم ، وأن نعلم ماهية النفس على طريقتهم .

وهنا نجد الفقهاء يخالفونهم فى السير ، ويباينونهم فى الفهم ؛ إن الروح عندهم من أمر ربهم ، لا يقبلون فيها نقاشا أو جدالا ، إنها حقيقة مسلمة أمرهم الله ألا يبحثوها ، ولذا عجز الفقهاء عن فهم الصوفية ، فرماهم هؤلاء بأنهم لا يعلمون من الحكمة إلا الحشف والقشر ، وحاصل ما حصلوه إنما كان معرفة الجسم وبعض أعراضها ، وبعض عوارض الوجود ، بل وليت ذلك سلم من الأخطاء ، فإن به الكثير من الخطأ .

رأى الفقهاء أن الصوفية يتزهدون ، ويعرضون عن الدنيا ، لا يبغون منها مأربا ، وإنما هم يبغون وجه الله ذى الجلال والإكرام ، لا يسعون إلى منفعة إن عاجلة أو آجلة فى عالم الفناء ، ولكنهم يرغبون فى عالم الحقيقة ، يرغبون الاتحاد بالله والفناء فيه . ولكن الفقهاء يرون أن الزهد مخالف للشريعة السمحاء ، نهى الله عنه بآياته البينات ، أفلم يقل عز وجل : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ، ولكن ليت الأمر وقف عند الزهد ، فإن أمره سهل ميسور ، ولكنه تعداه إلى ما هو أكثر من ذلك خطراً وأقوى أثراً ، فنادى الصوفية بالسكر والغيبة ، قد سكروا وغابوا ، يقولون إن أرواحهم فى العالم القدسى ، فى حضرة الربوبية ، فهم إن نطقوا فإنما ينطقون بلسان الله ، وإن تكلموا فإنما يتكلمون عن الله ، فإن قال الحلاج : أنا الحق ، أو إن قال : ما فى الجبة إلا الله ؛ أو إن قال ابن عربى :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

نظر الاشراقيون إليهم نظرة إكبار وإجلال ، ولم لا ، وهم الواصلون إلى درجة العرفان ، المتحدون بالله قلبا وقالبا ، الناطقون عن لسان الحق ، المتكلمون عن إله الخلق ، إذن فليس فى حديثهم هذا غرابة ، ولا يحق لنا أن ندهش إن سمعناه ، أو أن نعجب منه ، أو أن نستنكره ؛ أما الفقهاء فيرون فيه كفراً

وإلحاداً : فمن هو ذلك الإنسان ، ذلك العبد الذى يرتقى فيصل إلى الله ، من هو هـذا المخلوق من طين وماء مهين ، أين هو من الله : نور السموات والأرض ، النور على النور ، الذى يـكاد نوره أن يخطف الأبصار ، الله الذى إذا تجلى لجبل لخرَّ الجبل من هيبته تعالى ؛ أين هذا الإنسان إذن من عظمة الله وجبروته وقوته ، وأنى له أن يتصل به ، إن هو إلا إفك وبهتان ، وإن هو إلا تضليل للعقول :

فدع الذين إذا أتوك تنسكوا وإذا خلوا ، فهم ذئاب خفاف

فالتصوف عند الفقهاء كان حقا فى عهد واحد وحقبة من الزمن واحدة ، أما ذلك العهد وتلك الحقبة ، فهو عهد الصحابة والتابعين ، عهد السلف الصالح ، أما بعد ذلك فقد خلط التصوف بالفلسفة الإشراقية ، وكسى بلون من الزهد الفارسى ، فأخذ التصوف هيأة غير الهيأة التى عرف بها الزهاد والوعاظ فى صدر الإسلام ، وشاع يومئذ الغلو فى الزهد ، وراج ما توهموه فى معنى التوكل من أنه نزع اليد من الأسباب جملة .

ووحدة الوجود هى أهم المسائل التى أحنقت الفقهاء على الصوفية ، وأثارتهم ضدهم ، فنظروا إليهم نظرتهم إلى الملاحدة أو الـكفار .

ولعل هذه النظرية فى أصلها هندية أو فارسية ، متأثرة ببعض الأفلوطينية ، ولـكن الصوفية قـد صبغوها بصبغتهم الخـاصة ، وأسبغوا عليها من روحهم ما أحالها إسلامية إشراقية خالصة : فالـكائنات كلها مظهر لعـلم الله وإرادته ، وفيض صـدر عنه مباشرة أو بالواسطة ؛ فوجودها مستمد منه جل شأنه ، ولا موجود بذاته ولذاته إلا الله الواجب الوجود ، المستغنى عن كل ما سواه ، وعنه صدرت الـكائنات الأخرى ، وأفادت الوجود والحياة فوجودها عرضى وبالتبع ، ومن هنا يظهر لنا أنه ليس ثمت إلا كائن واحد ، موجود حقيقة وضرورة بل هو الوجود كله . أما الـكائنات الأخرى ، فلا تسمى موجودات إلا مجازا . وإذا كان الله هو الموجود الحق ، فـكل ماعداه ظواهر وأوهام . فليس ما ثمَّ وجود قـديم خالق ، ووجود حادث مخلوق ، بل وجود هـذا العـالم هو عين وجود الله .

ولابن تيمية نقد مشهور لهذه النظرية ، يقول : لو صح هذا الذى يقولون لكان الله هو عين الخنازير والكلاب وسائر المخلوقات الدنيا ؛ وهذا كفر وبطلان ليس بعدهما كفر وبطلان . وثمت نتيجة تتفرع منها : لو أننا كنا نحن عين الله ، نحن بضعة منه وجزء ، فأفعالنا إن أحسنا هى أفعال الله ، وأفعالنا إن أسأنا هى أفعال الله ، فكأن الله إن أثاب إنما يثيب نفسه ، وإن عاقب فإنما يعاقب نفسه ، وهذا هدم للشرع والدين .

ونادى الفقهاء بتكفير من يقول بهذه النظرية ، وكأنما أحس الصوفية بما ينتج عن نظريتهم هذه فقالوا قولهم المشهور : إن العلم علمان : علم مكتسب ، وعلم موحى به . أما الأول فلندعه لهؤلاء المنقبين بين الصفحات ، الباحثين بين الكلمات الساهرين الليل الطويل ، القارئين المؤلفين ؛ أما العلم الثانى فسبيله الله ، والله وحده هو الذى يصطفى عبده ، ويجتبيه ، ثم يشرق على قلبه نورا ليس بعده نور ، وعلما أكثر من العلم المكتسب ، بل وليس بينهما سبيل للمقارنة . وعلى الفريق الأول أن يكتفى بعلم الدنيا ، وألا يحاول أن ينفذ الى علم الله الذى لا يعرفه إلا هو ، والراسخون فى العلم المقربون منه المصطفون . [يتبع]

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام رجل :

يكفى قليل كلامه وكثيره   ثبت إذا طال النضال مصيب

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقص توليده من حظ القديم شيئا :

طبيب بداء فنون الكلام   فلم يَعْيَ يوما ولم يهذر
فإن هو أطنب فى خطبة   قضى للمطيل على المنذر
وإن هو أوجز فى خطبة   قضى للمقل على المكثر

وقال شاعر آخر يصف خطيبا :

فإذا تكلم خلته متكلما   بجميع عدة ألسن الخطباء
فكأن آدم كان علمه الذى   قد كان عُلم من الأسماء

العلاقة بين الإسلام والنصرانية

لحضرة الأستاذ سالم أحمد الرشيدى
أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعوه بابا روما إلى اعتناق النصرانية ويعده بالشهرة والمجد]

أخذت الدولة العثمانية بعد قيامها واستقرارها فى آسيا الصغرى ، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى تمد فتوحاتها شرقاً وغرباً ، وعبرت مضيق الدردنيل إلى أوربا واستولت على كثير من ممالكها حتى بسطت سيطرتها على معظم البلقان . وقد أثار هـذا التقدم السريع الباهر الذى أحرزته الدولة العثمانية الفزع والرعب بين دول أوربا ، وطالما دعت البابوية فى روما إلى شن الحروب الصليبية على هذه الدولة الإسلامية الفتية والقضاء عليها .

وعند ما تولى محمد الفاتح عرش السلطنة سنة ٨٥٥ هـ (١٥٤١ م) كانت لا تزال فى آسيا الصغرى بعض قلاع وإمارات إسلامية ونصرانية لم تدخل بعد فى نطاق الدولة العثمانية ، وكانت كلها تضمر لهـذه الدولة أشد العداء والكراهية التى يمازجها شىء من التخوف والخشية . وما لبثت هذه القوى المختلفة أن أخذت تتآمر وتنظم الخطط للقضاء على الدولة العثمانية التى تزداد كل يوم قوة وخطراً ، ولا سيما بعد استيلاء السلطان الفاتح على القسطنطينية . وتولت زعامة هذه الحركات والمؤامرات طرابزون [1] .

---

(١) إمارة نصرانية صغيرة تقع فى شمال شرقى آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود ، وكانت تعرف باسم : « إمبراطورية طرابزون » .

وكان يوحنا انبراطورها [١] وقتذاك كغيره من الروم ، كبير الاعتداد والعجب بنفسه ، يعتقد أنه لا يدانيه أحد فى المهارة السياسية ومعرفة دخائلها وحبائلها ، فكان يستخف بأعدائه ويستهين شأنهم وقوتهم . ولما بلغته وفاة السلطان مراد الثانى وقيام السلطان محمد الفاتح مكانه ـ وهو فتى شاب ـ استطار فرحا وغبطة ، إذ ليس أيسر عليه ـ فى اعتقاده ـ من أن يتغلب بحنكته ودهائه على هذا الشاب الغر ، ويخضعه لأمره ، وأن فى قدرته أن يستميل إليه من حوله من الأمراء فى آسيا الصغرى وفيما وراءها من آسيا ، بل وفى أوربا أيضاً ، يشد بهم أزره ويسخرهم لأغراضه ، ويؤلبهم جميعاً على العثمانيين .

وقد وجد يوحنا فى الأمير الطموح أوزون حسن [٢] خير حليف ونصير يعينه على تحقيق هذا الأمر ؛ إذ كان مثل يوحنا ينفس على الدولة العثمانية ما تحرزه من مجد وانتصارات ، ويكن لها أشد الكراهية والعداوة . غير أنه اشترط على يوحنا لمساعدته أن يزوجه ابنته كاترينه التى شغفته حباً من كثرة ما سمع عن جمالها وحسنها ، وقبل الامبراطور يوحنا ما طلبه أوزون حسن ، وسره أن يكسب هذا الحليف العظيم بهذا الثمن البخس ، وبعث إليه ابنته مع أخيه داود يصحبها عدد من الوصيفات النصرانيات وجماعة من الرهبان والقسس لمعاونتها على أداء شعائر دينها . ونجح يوحنا إلى جانب ذلك فى توحيد صفوف الأمراء المجاورين له ـ أمراء سينوب والقرمان والكرج وأرمينيا الصغرى ـ الذين جمعهم على اختلاف أجناسهم وعقائدهم الحقد على الدولة العثمانية ، وتعاهدوا فيما بينهم على القيام بهجوم واحد عليها . وجاش فى نفوس هؤلاء المتحالفين أو المتآمرين أمل قوى فى قهر السلطان الفاتح وإخراجه من آسيا .

---

(١) يقول اللغوى العلامة الأب انستاس مارى الكرملى « أن كتابة الامبراطور بهذا الرسم ، كما يرسمه المعاصرون لا يوافق القواعد العربيه ، لأنه لا يرى فى الكلم الضادية من عربية ومعربة فيها الميم ساكنة ويليها باء متحركة . فاذا وقع مثل ذلك رسمت الميم نونا ، ولهذا يجب أن تكتب « الانبراطور » بنون »

(٢) أمير تركمانى كان يحكم آمد وديار بكر .

وحاول الانبراطور يوحنا أن يضم إلى هـذه القوى الشرقية المجتمعة قوة الأوربيين فى الغرب ، فتزلف إلى البابوية بالعمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وإزالة أسباب الخلاف بينهما على الرغم من أنه فى قرارة نفسه كان شديد التمسك بأرثوذوكسيته ، شديد التعصب لها ، لا يؤمن بالاتحاد ولا يعتقد صحته .

وفيما كان الانبراطور يوحنا يحرك هذه المؤامرة ويرسم الخطط ويعد العدة للقضاء على الدولة العثمانية ، يدفعه إلى ذلك أعظم الآمال ، ويرنو إلى المستقبل بنظرة واثقة باسمة إذ بغتته الموت فى سنة ١٤٥٨ م قبل أن يشهد شيئاً مما كان أعد ودبر ، وقبل أن يشهد العاصفة التى كان يعمل على إثارتها وترك وراءه طفلا صغيراً فى الرابعة من عمره يدعى الكسيوس ، ولم يجد عمه داود صعوبة فى تنحيته وأن يستبد بالحكم دونه .

وواصل الانبراطور داود ما قد بدأه أخوه فى تكوين تلك الجبهة المتحدة ضد العثمانيين ، وصرف كل جهده وقواه فى التأهب للحرب المقبلة ، ولم يكن داود أقل من أخيه يوحنا عجبا وغرورا بنفسه ، يستخف قوة الدولة العثمانية وقوة الجيش العثمانى ، ويعتقد أن أسوار مدينته طرابزون لا تقتحم ، سيرتد عنها السلطان الفاتح إن هاجمها ، كما ارتد عنها غزاة من قبله ، كيف وقد اجتمعت حوله قوات أمراء الشرق ، وستناصره بعد ذلك قوات أمراء الغرب !

وكانت شؤون الروم فى بلاد المورة تشغل بال الفاتح إذ ذاك ، فرأى أن ينهى أمره هناك ويقر فيها السلام ، قبل أن ينقل جيشه إلى أسيا . وبذلك تهيأت لداود فسحة من الوقت امتدت سنتين قبل بدء القتال يحكم فيها أمره واستعداده ، فأتم زواج ابنة أخيه كاترين بأوزون حسن ، فقد توفى الانبراطور يوحنا قبل إتمامه . واستطاعت هذه العروس الحسناء الذكية أن تخلب لب الأمير التركمانى وتسيطر على نفسه ، وأخذت تؤجج نيران الحقد الذى كان يتقد فى صدره على السلطان العثمانى وما آتاه الله من مجد وسلطان . وجدد داود المحالفات السابقة التى عقدت مع من حوله من الأمراء .

وكان البابا كاليكست الثالث Calixte III - وهو الذى أخذ منه الكرادلة ميثاقا غليظا عندما انتخبوه للبابوية فى سنة ١٤٥٥ ليبذل أعظم الجهد فى قتال الأتراك العثمانيين - قد أرسل لوى دى بولونى Louis de Bologne - من رجال الفرنسسكان وكان يجيد كثيرا من لغات الشرق - إلى امبراطور طرابزون وأوزون حسن وغيرهما من أمراء الشرق يدعوهم إلى الائتلاف والتضافر على قتال الأتراك . ثم عاد الرسول الفرنسسكانى إلى الغرب يصحبه رسل آخرون بعثهم إلى الغرب هؤلاء الأمراء الشرقيون وفى مقدمتهم ميخائيل اليجرى Michael Aligeri رسول امبراطور طرابزون ، وكان يحمل رسالة خاصة من سيده للبابا عدد له فيها الجيوش الجرارة التى أعدها هو وأمراء الشرق لقتال العثمانيين ، ورسالة أخرى لفيليب لبون Philippe le Bon دوق بورغنديا أشد أمراء أوربا تحمسا لقتال الأتراك .

سلك هؤلاء الرسل فى رحلتهم إلى الغرب طريق البر وعرجوا على المجر والنمسا ، وعندما وصلوا البندقيه استقبلهم الناس بحماس عظيم وحفاوة بالغة ، وهم يحدقون بأبصارهم فى تطلع واستغراب إلى ملابسهم الشرقية الفضفاضة . ومن البندقية شخصوا إلى روما ، وكان البابا كاليكست الثالث قد توفى وخلفه البابا باى الثانى Pie II ، وكان يفوق سلفه فى الحماس إلى قتال الأتراك ، فاحتفى بهؤلاء الرسل وأكرمهم وقدم لهم رسائل توصية لملوك أوربا . وبعث برسالة خاصة إلى دوق بورغنديا يوصيه فيها أن يحسن لقاء أولئك الرسل ويكرم وفادتهم ويستحثه على التعجيل فى القيام بالحملة الصليبية ، وأن لا يكون أقل همة وبلاء فى هذا السبيل من أمراء الشرق .

وفى شهر مايو من سنة ١٤٦١ كان هؤلاء الرسل الشرقيون فى باريس لدى بلاط الملك شارل السابع ، وذكروا له أن أمراء الشرق قد استجابوا دعوة أهل الصليب ، وأنهم قد عقدوا العزم على قتال العثمانيين ، وطلبوا منه أن تشترك فرنسا

بجنودها فى هذه الحملة . ومن هناك ذهب هؤلاء الرسل إلى سان أومير Saint Omer (فى شمال فرنسا) حيث التقوا بفيليب لوبون دوق بورغنديا . ولم يكن هذا الدوق فى حاجة إلى من يثير حماسه ويحثه على قتال العثمانيين ، فقد كان فى مقدمة من دعا إلى طردهم من أوربا قبل استيلائهم على القسطنطينية ، فكيف بعد استيلائهم عليها ؟ وسلم إليه ميخائيل اليجرى رسالة سيده الانبراطور داود وفيها يحضه على الائتلاف والتحالف بين أمراء الشرق وأمراء الغرب والتألب على العدو المشترك ، ووعده داود بأن يعاونه — بعد إحراز النصر على الأتراك — على تتويجه ملكا على بيت المقدس .

وكانت الخطة المرسومة بين المتآمرين هى أن يهجم أمراء الغرب من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ، ويزحفون إلى الشرق ، ويهجم أمراء الشرق من ناحيتهم على حدود الدولة العثمانية ويزحفون إلى الغرب . ويقع العثمانيون بذلك بين فكى « كماشه » واسعة تضغط عليهم من هنا وهناك وتعصرهم عصراً لا تبقى منهم على أحد إلا أن ينفلت إلى البحر ! وعاد هؤلاء الرسل بعد تطوافهم بأوربا إلى روما .

وكانت جنوا تملك فيما تملك من مستعمرات فى الشرق مدينة « إماصرة » فى آسيا الصغرى على شاطىء البحر الأسود و « كفه » بشبه جزيرة القرم .

وتعد هاتان المستعمرتان وبخاصة الأخيرة منهما ، من أهم المراكز التجارية لجنوا فى الشرق . ولم تكن البابوية من جانبها أقل اهتماما بمصير هذه المستعمرات الشرقية إذ كانت تنظر إليها على أنها مواقع أمامية للنصرانية ، فأخذت تمد الجنويين بالأموال عونا لهم على الدفاع عن هذه المواقع . وأخذت من جهة أخرى تعمل على إنجاح تلك المؤامرة الكبرى التى لا نعرف لها نظيراً فى التاريخ والتى ائتلفت فيها الروح الصليبية بالمصلحة التجارية والأحقاد الشخصية على الدولة العثمانية .

من وحي بدر

لفضيلة الاستاذ الشيخ أحمد حسن كحيل

مبعوث الأزهر بالمدينة المنورة

[قمنا برحلة دراسية من المدينة المنورة إلى بدر ، ثم ينبع ، فرأيت أن أرسم صورة صحيحة لبدر ، وأتتبع الطريق النبوى إليها ، وأصور ما شاهدت فيها لحضرات القراء ، وأسجل ما جال فى قلبى من آلام وآمال] .

قد كانت بدر المعركة الفاصلة بين الحق والباطل ، والموقعة الحاسمة بين الإيمان والشرك ، ضرب فيها الكفر على هامه ضربة خفت لها صوته ، وتقطعت أنفاسه ولم تقم له قائمة بعدها ، وقويت شوكة الإسلام وتألق سناه وامتد لواؤه ، ومن يومئذ وهو يزداد عزا وقوة وتأييدا ؛ حتى تكونت الامبراطورية الإسلامية ، فعلى أكتاف أبطال بدر وبظبى سيوفهم وأسلات رماحهم قامت الدولة الإسلامية وانتشر الإسلام من الصين شرقا الى الأطلس غربا ، ولو قدر لهذه الفئة المؤمنة أن تنهزم يومئذ لخبا ضوء الإسلام ، وأفل نجمه وقتلت الدعوة المحمدية وهى لا تزال فى المهد . وهذا ما كان يحسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ويؤمن به وقت أن حمى وطيس القتال فوقف فى العريش يناجى ربه ويضرع إليه فيقول : « اللهم فنصرك الذى وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة المؤمنة اليوم لا تعبد فى الأرض أبدا » . ولهذا المعنى تجلى الله على أهل بدر فقال أعملوا ما شئتم . فمن ذا الذى يذكر بدرا ولا يتلفت الى هذا التاريخ الحافل والعز الغابر والمجد الداثر أيام كانت القلوب مؤتلفة والشمل مجتمعا ؟ ؟ من ذا الذى يذكر بدرا ولا يذكر تلك القلوب العامرة بالإيمان ، الفياضة بالإخلاص ، وتلك النفوس الزكية التى ضربت أروع المثل فى التضحية والبذل ؟

من ذا الذى يذكر بدرا ولا يذكر كيف يفعل الإيمان بالنفوس ، فيخلق

من الضعف قوة ، ومن القلة كثرة ، ومن الخور شجاعة وعزما ، وإقداما وحزما ؟؟.. من الذى يذكر بدرا فلا يهفو إليها قلبه ، ولا يهوى إليها فؤاده طلبا للذكر ، وشوقا إلى تلك السهول والربا التى طالما هبطت عليها الملائكة ، وسالت على بطاحها دماء المسلمين ، ورفرفت فى أجوائها أرواح الشهداء ؟؟..

* * *

خرجنا إلى بدر - وقلوبنا تسبقنا - نلتمس العظة والذكرى ، ونبتغى غذاء الروح والعقل ، ففيها عظات بالغات ، وحياة للعقول ومتعة الأرواح وجلاء للقلوب ، وما أحوجنا فى هذا العصر لتلمس العظات بين أطلال الماضى وفى زوايا التاريخ علنا نجد قبسا يهدى الأمة الإسلامية وينقذها من ضلالتها . ويبدد تلك الغياهب التى اكتنفتها ، ويجنبها المطامع والشهوات التى فرقتها !! ولحكمة عالية أمرنا الله أن نضرب الأرض نتتبع تاريخ الأولين وآثار الغابرين .

ولقد كنا فى رحلتنا حريصين على أن نتتبع الطريق النبوى الى بدر لنعرف مقدار ما عاناه الصحابة من جهد وما تحملوا من نصب . فبعد أن خرجنا من المضينة إلى وادى العقيق سرنا فى طريق الحاج الى مكة فمررنا بذى الحليفة وعرق الظبية وهى جبل قبل المسيجيد بأربعين ميلا تقريبا ، وفى هذا المكان قتل الرسول أحد الأسرى واسمه عقبة بن معيط ، ثم مررنا بالروحاء وهى قبل المسيجيد بعشرة أميال تقريبا يقال لها بئر الراحة ، وقد نزل بها الرسول .

ثم واصلنا السير الى المسيجيد ، والسهل الفسيح الذى تقع فيه المسيجيد ، هو الذى كان يقال له المنصرف . وفى هذا المكان قسم الرسول الغنائم ثم تركنا طريق مكة الى يسارنا وملنا ذات اليمين فقطعنا وادى رحقان عرضا ، ثم دخلنا فى وادى الصفراء وسرنا فيه مسافات مررنا خلالها ببعض الخيوف ومنها خيف الخزامى ، فلما وصلنا الى خيف الحمراء وجدنا أن الطريق النبوى اتجه الى وادى ذفران ، وهو واد يتصل بالصفراء ولا يصلح لمرور السيارات ، فاضطررنا إلى أن نواصل السير فى وادى الصفراء وهو طريق عودة النبى صلى الله عليه وسلم .

ولقد وقفنا فى هذا المكان ، حيث يتصل وادى ذفران بوادى الصفراء ، نستوحيه العبرة ، ونستلهمه العظة ، فقد جرت فيه أروع حوادث التاريخ وتجلت

فوقه أعظم مظاهر الإيمان وآيات البطولة الخالدة ، إذ بلغ المسلمين فى هذا المكان أن قريشاً خرجت فى جيش جرار لتحمى تجارتها ، وتدافع عن هيبتها ، والرسول مع أصحابه قلة لم يخرجوا لقتال ولا لحرب فماذا هم فاعلون ؟ !

عقد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى وادى ذفران مؤتمراً يجمع المسلمين يستشيرهم فى الأمر إذ أن محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن طاغية مستبدا برأيه بل كان قائداً حكيما . فقال عليه السلام : أشيروا على . فقام أبو بكر فتكلم فحمس وقام عمر فتكلم فحمس ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ! إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ؛ وسكت . ثم التفت الرسول ناحية الأنصار وقال : اشيروا على وكان يريد رأى الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة ، فقام سعد بن معاذ صاحب راية الأنصار فقال يا رسول الله : لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . ؛ فامض لما أردت فنحن معك ، فوالذى بعثك ، لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً . إنا لصبر فى الحرب ، صدق فى اللقاء ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ، فسر بنا على بركة الله ؛ فما انتهى سعد من كلامه ، حتى أشرق وجه رسول الله بالسرور ، وقال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ! ! لله تلك النفوس المؤمنة !!! ثلاثمائة رجل يخرجون للاستيلاء على تجارة قريش التى أخرجتهم من ديارهم ، واستلبت أموالهم ، وفتنتهم عن دينهم ، ولم يخرجوا لحرب ولا لقتال ، ثم يعلمون أن قريشاً خرجت إليهم فى جيش كثيف العدد ، سابغ الدروع وافر العدة ، فلا تزلزل قلوبهم ولا ينثنون عن قصدهم بل يصمدون للعدو ويحرصون على نزاله !! .

إن هذا فى لغة عصرنا تهور وانتحار ، ولكنه فى لغة العصر الاول تضحية وإيمان .

قلنا إن الرسول صلى الله عليه وسلم سلك فى عودته من بدر وادى الصفراء ولم يرجع من وادى ذفران وفى هذا الوادى — الصفراء — دفن عبيدة بن الحارث

ابن عبد المطلب أحد الأبطال الثلاثة — على وحمزة وعبيدة — الذين خرجوا لمبارزة عتبة وشيبة أبى ربيعة والوليد بن عتبة . فأصيب عبيدة بجراح ظلت تنز فدما ، واستشهد فى الطريق وهم عائدون الى المدينة متأثراً بجراحه ولا يعلم على وجه التحقيق الموضع الذى دفن به ، وكل ما يقال عنه إنما حدس ورجم بالغيب لا يعتمد على شاهد ثبت ولا تحقيق تاريخى صحيح .

واصلنا السير فى وادى الصفراء متجهين غربا ، وقد يميل بنا الوادى ذات اليمين وذات الشمال ، وقد ينفرج ويتسع حتى يعظم اتساعه وقد يضيق حتى يشتد ضيقه .

وفى هذا الوادى الى بدر تكثر العيون التى يجرى منها الماء ويتدفق غزيراً فيروى ماحولها من نخيل ويطلق على كل عين وماحولها من نخيل « خيف » وأهم خيوف هذا الوادى خيف الحزامى وخيف الحمراء وخيف أم ديام وخيف الواسطة .

ومن الغريب أنه لا يروى من ماء هذه العيون إلا النخيل ، مع أن كثيراً من أرض الوادى صالحة لزراعة الفاكهة والخضر !! ويبدولنا أن هذا الوادى غزير المياه ، طيب التربة : لو عنى به ، وغرست فيه أشجار الفاكهة ، وزرعت به بعض الخضر ، لدر الخير على أهل البادية ، ولأطعمهم من جوع ، وكفاهم من عوز ، وأغناهم من فقر - بل لقام بكفاية المدن ، فعسى أن يظفر هذا الوادى بحظ من عناية الحكومة السعودية واهتمام رجال الزراعة ، كما ظفر التعليم فيه بعناية المعارف ، فأنشئت فيه المدارس القروية والابتدائية لمحاربة الجهل ، فليست محاربة الفقر ومكافحة الجوع بأهون قدراً وأقل خطراً من محاربة الجهل !!

ولقد سرّنا ما رأيناه من إقبال أهل البادية على التعليم ، وكم كان جميلا أن نرى أبناء البادية وهم يخترقون الأودية ، ويتسلقون الجبال ، وينحدرون فوق الهضاب عند انصرافهم من المدرسة .

وفى الواحدة مساء قبل العشاء ، كنا نندفع من مضيق الصفراء إلى سهل بدر فنطرق أبواب هذه القرية الهادئة النائمة الغارقة فى ذكريات التاريخ ! فكم سجل لها

التاريخ فخرا ، ورفع لها بين المدن والأمصار ذكرا ! ! لا يذكر حق منتصر ، ولا باطل منكسر ، إلا وذكرت بدر ! ولا يذكر تعاون واتحاد إلا كانت بدر مثلا ! ولا يذكر تضحية وإيمان إلا كانت رمزا وعلماً ! !

وكان أول من استقبلنا فيها مدير مدرستها ، وهو شاب يفيض نشاطاً وأريحية وكرما ، فوضعنا رحالنا فى المدرسة وقضينا صدر ليلتنا نسمر ونتجاذب أطراف الحديث حول بدر وما فيها من آيات وعبر بالغات ! ! وكانت أكبر عبرة تمثلناها وأحسسناها أننا وصلنا بدرا بعد رحلة دامت سبع ساعات ، وقد أجهدنا السفر وبلغ منا النصب مداه ونال الكلال غايته ومنتهاه ! — مع فخامة المركب ولين الفراش وغدوبة الماء ونوفر أسباب المتعة والراحة ، هذا ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يسلكون هذا الطريق وهو وعر لم يمهد وصعب لم يذلل ، ويقطعون معظمه سيراً على أقدامهم ! أى والله سيراً على أقدامهم ! إذ لم يكن إلا سبعون بعيراً تحمل زادهم ومتاعهم فكانوا يعتقبونها كل ثلاثة أو أربعة أو خمسة يتناوبون بعيراً حتى رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن أسعد حظاً من أصحابه فقد قطع ثلثى الطريق سيراً على قدميه ، كان يتناوب بعيره مع على بن أبى طالب ومرقد الغنوى ، ويقطعون هذه المرحلة القاسية فى ثمانية أيام ثم لا يجدون فى انتظارهم — كما وجدنا فراشاً وثيراً ولا طعاما شهياً ! ! بل يجدون عدواً صعب المراس شديد الشماس متقد الحماس شاكى السلاح لا يمهلهم حتى يستريحوا من وعثاء السفر ووعورة الطريق ، بل يصبحهم فى اليوم التالى فيخوضون معه المعركة ذابين عن دين الله مجاهدين فى سبيل الحق يلتقون شبا الاسنة وظبات السيوف بنحورهم ويستقبلون شائك السهام بوجوههم وصدورهم لا يشكون ظلعاً ولا يبدون تعباً .

فمن أين لهم هذه القوة التى بهرت العدو وفرقت شمله وفلت حده ؟ ! ! إنها قوة اليقين وحرارة الإيمان وسلطان الحق وروح من عند الله أمد بها جنده ، ونصر بها عبده وصدق بها وعده ! سيهزم الجمع ويولون الدبر ! .

« لها بقية »

عظة الهجرة

لفضيلة الأستاذ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

تعنى الأمم بذكر الحوادث الجسام ، لما لها من التوجيه الحازم فى حياتها والأساس القويم فى تكوين نهضتها والأثر الخالد فى عزها وإسعادها . وإذا نظرنا إلى موضوع الهجرة ، وجدناه حادثاً فذاً فى تاريخ الإنسانية ، يجمع من السمو والعظمة ما تتضاءل أمامه قوة الحوادث وتتلاشى روعتها . فهو أرفعها شأناً ، وأنبلها قصداً ، وأوسعها يمناً وإقبالا ، لذا كان أولى بالتقدير والإكبار ، وأحق بالتقديس والإعجاب .

وقد تضمّن هذا الحادث الخطير أموراً جليلة يصح كل منهما أن يكون مثلا كريماً للمبدأ القيم ، والهدى الرشيد ، والعظة النافذة ، والحكمة البالغة .

فقد نشأ سيدنا ومولانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بقعة من بقاع الأرض حُجبت عنها أنوار المعرفة ، وغابت شمس الهداية ، وأظلت الناس سحب قاتمة من الباطل الأثيم ، والضلال البعيد . وطبعت على الشر نفوسهم ، فعكفوا على عبادة الأوثان ، وتدنسوا برجسها ، وارتكسوا فى حضيض الشهوات ، وخف فى العلم وزنهم ، وطاش فى تقدير الأمور سهامهم فحسبوا الشرك ديناً ، وسفك الدماء شجاعة وانتهاك الحرمات إقداماً ووأد البنات عفافاً وشرفاً . وخيل إليهم أن هذا نهاية ما تصل إليه الإنسانية من رفعة وكمال . فمن تنكب سبيلهم أجمعوا على محاربته والكيد له حتى يتخبط فى أهوائهم ويخوض باطلهم ويركض فى ضلالتهم .

لكن الإله جلت قدرته جعل نبيه خلقاً آخر فاصطفاه طيب العنصر ، نقى الجوهر ، وفطره على الإيمان الكامل ، والخلق الماجد ، ورضيه أن يكون أمين وحيه ، ومبلغ شريعته .

وإنما اختار الله نبيه من تلك البيئة التى هى أبعد البيئات عن المدنية والحضارة ليكون ذلك معجزة كبرى ، وآية عظمى تدفع إلى الإيمان به والتصديق برسالته .

صدع الرسول بأمر ربه ، وهانت عليه نفسه فى سبيل طاعته ، ودعا قومه إلى التشرف بعبادة الله وحده ، والتخلص من أدران الوثنية . وأقام على ذلك من الدلائل ما يتفق هو والفطرة البشرية ، وأحالهم إلى ما ركز فى نفوسهم ، وما تدركه حواسهم ، فاستجاب لندائه نزرٌ يسيرٌ فتحوا أعينهم لنوره فاستضاءت به وقلوبهم لهديه فملأها حكمة وأمنا ، وسداداً ورشدا . لكن الأغلبية الساحقة أخلدوا إلى الأرض ، وصرفوا أبصارهم ولووا رؤوسهم ، وأصموا آذانهم ، واستغشوا ثيابهم ، وأصروا على عنادهم ، واستكبروا استكبارا .

كل هذا لم يهيّج عاطفة الرسول ضدهم ولم يمنعه من الحدب عليهم . والاهتمام بأمرهم . والحرص الفائق على هدايتهم ، فالتزم معهم ما يسديه الطبيب إلى المريض من كريم العناية . وصادق المواساة حتى لقد نزل عليه قولُ ربه (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا) .

وليت أمرهم وقف عند هذا الحد . بل أمعنوا فى الكيد له ، وسلطوا عليه من أنواع الإيذاء ما سولته له نفوسهم ، ووسعته قدرتهم ، وجدّوا فى إيقاظ الفتن حوله ، وتأليب العرب عليه ، وتنفير الناس من دعوته ، ووضع العقبات فى سبيلها ، وعاملوه مع أقاربه معاملة المنبوذين ، وحاصروهم حصاراً اقتصاديا كما يفعل اليوم فى عصر هذه المدنية العاتية الطائشة ، وقسوا فى الانتقام من أصحابه ، وتربصوا بهم الدوائر ، وقعدوا لهم كل مرصد ، ولم يتحصن هؤلاء الضعفاء إلا بقوة الإيمان ، وكأن برد اليقين يطفىء نار الألم .

ولست أبالى حين أقتل مسلما على أى جنب كان فى الله مصرعى

أيقن الرسول بعد هذا أن جذور الشر تغلغلت فى نفوسهم فأوصدت دونهم أبواب الخير وسدت مسالك الهداية ، فليس من الحكمة إذن أن يستمر على قرع آذانهم بحقه بعد أن جرف سيل الباطل حواسهم وأهدر آدميتهم (لهم قلوب

لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) حقا لقد كانوا أخس من الأنعام فإنها لا تحمل ضغنا لمن أحسن إليها . أما هم فكان جزاء إرشاده لهم أن أجمعوا على المنكر فى ناديهم ودبروا مؤامرة لاغتياله والقضاء عليه قبل أن يعظم أمره فتستعصى عليهم معالجته ، لكن عين ربه تكلؤه وعنايته ترعاه ، وقد أعطاه أمانا موثقا بقوله (والله يعصمك من الناس) ، لا شك أن الرسول يثق بجودة تعاليمه وصلاحيتها إلى حد تقصر عنه سوابق الأوهام ، غير أنه قد ظهر لديه أن قلوبهم قيعان لا تمسك ماءً ولا تنبت كلأً ، فتشوقت نفسه إلى أفئدة خصبة يودعها بذوره الطاهرة لتنبت أصلا قويما ، وغرسا كريما ، وتؤتى أكلا مضاعفا .

وهذا أقوم إرشاد لكل مصلح يؤمن بقيمة مبادئه ويبتلى بأناس لا يرفعون لها رأساً ولا يقيمون لها وزنا .

لذا كان من رحمة الله بنبيه أن أذن له فى الهجرة إلى بلد يتفيّأ فيه ظلال الأمن ويستنشق نسيم الحرية ، ويستمتع بجلال الإيمان وعزته ، وصفائه وروعته ، ويجد بيئة صالحة متسعة الأفق ينشر فيها وحيه المقدس ، وهديه الحكيم .

هكذا أمر الرسول بالارتحال عن قراره المكين ، وحب الوطن لاصق بنفس كل إنسان فقد أظلته سماؤه وأرواه ماؤه ، وهو مثوى الأهل والعشيرة ومدرج الطفولة ، ومرتع الحداثة ، ومسرح الأحبة والخلان .

لكن محمداً عليه السلام قد أنساه شرف الغاية كل هذه الأمور واستأنس بلذة الطاعة ، وتجرد من جميع حظوظه ، وأسلم وجهه لله محسناً فى تنفيذ أمره .

والهجرة ملجأ أمين لكل مضطهد فى رأيه ، محارب فى عقيدته . ربما يخطر على بعض الأذهان أنه ما دام النبى يؤدى رسالة ربه . ويبلغ دينه فلم لم يُسعِفهُ بالمعونة فيجعل له من قومه ظهيرا وسندا ؟

ولا يخفى أنه لو حصل هذا لارتاب الناس فى أمره وقالوا فكرة أدعاها محمد واتفق عليها مع أهله وأحاطها بسياج من الهيبة والجلال .

أما وقد وقع أن حاربه أقرب الناس إليه ، ونصره أبعدهم عنه . فإن شمس الإيمان به تبيد ظل الشكوك والأوهام .

وجد الإسلام فى المدينة ملاذا حصينا . وركنا رشيدا . فرسخت قوائمه . وامتدت فروعه فصار يغزو القلوب متحكما فيها والضمائر مهيمنا عليها وظلت حرارته تصهر غيوم الشبهات وتكسر أشواك الشك حتى ظفر الناس بروض اليقين ، ونعموا بعزة الملوك وطهارة الملائكة ، من هذا يتبين أن حادث الهجرة فيصل التفرقة بين الضعف والقوة والذلة والعزة ، كما تمثل صراعا عنيفاً ، دار بين الحق والباطل وأن الأخير مهما كان أمضى سلاحا وأعز نفرا ، لا بد أن يكتسحه طوفان الحق عملا بسنة الله الخالدة (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض) .

أيها المسلمون : ليس المقصود من ذكرى الهجرة أن تنشد القصائد وترتل الكلمات مع الغفلة عن موضع العبرة منها ، فإنى أخشى إن صنعنا ذلك أن ندخل فى قول الله سبحانه : (وكأى من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون) إنما الواجب أن يأخذ كل منا نفسه بسيرة صاحب الهجرة ، فقد نجحت دعوته بعقيدته الراسخة ، وسياسته البارعه ، وعزيمته الماضية ، وصبره الذى اقتحم به المحن وقهر الأهوال ، فخرج منها ظافراً منتصراً كالسبيكة الخالصة لا يجد الناقد الألمعى فيها مغمزا .

والهجرة ، وإن انقضت بصورتها وشكلها ، إلا أنها باقية لجميع المسلمين بروحها وجوهرها ، فلزام عليهم أن يهجروا أسباب غضب الله وموجبات سخطه حتى لا ينزل بهم ما حل بغيرهم من الأمم التى انحرفت عن الهدى الإلهى فتردت فى هاوية الشقاء وعوقبت بحرب ضروس تحصد الناس حصدا ، وتستأصلهم إستئصالا ، تركت الأطفال يتامى والنساء أرامل ، فجعت النفوس ، وأدمت القلوب ، وسلبتها لذة الطمأنينة والأمن ، وأكلت الأخضر واليابس ، وأصلت المدن الزاهرة التى تأخذ زينتها بالأبصار ، وتستهوى الألباب ليلا بهيما ، وحطاما بالياً ، وهشيما تذروه الرياح (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد) .

شواهد البلاغة

والإعجاز فى القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ؛ فقضت على الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء ، والشقاء سعادة ، واليأس أملا ، والضلال هدى ، والجهل علما ومعرفة وثقافة ، نهل من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير ، وطمح إلى النور والهدى والأمن والسلام ؛ ونُقلت البشرية من الفوضى والطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض ، إلى حياة فيها رضا وطمأنينة ، وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة ، وعمران ومدنية ، وحدود ، وشرائع ، ونظم وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق ، وأكرم الرسل ، محمد صلوات الله عليه ، فبلغه الناس ، وبشر به العرب والبشر كافة ، وهدى به الدنيا كلها ، وفتح به صفحة جديدة فى تاريخ العالم كله ، وأنقذ الناس من ضلال الجاهلية الأولى :

تصوروا الشعر ماتصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته الباهرة ، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير ، وشدة التأثير ، قالوا : إى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، وكذبوا وأيم الله ، فما هو إلا وحى يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى على مر العصور .

إن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة ، وجلالة الروح ، وإشراق البيان ، وجمال الديباجة ، وقوة المنطق ، وعبقرية التصوير والتعبير .

أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة ، والقوة والعذوبة ، وحرارة الإيمان ، وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم فى أسلوب لا يضارعه أسلوب ؛ فلا هو شعر ولا هو سجع ، ولا هو مزاوجة ، ولا هو نثر مرسل ولا خطابة . إنما هو نظم رائع ، وألفاظ عذبة ، وجلال وروعة ؛ جمع بلاغة جميع أساليب البيان ، وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز .

تحدى الله به العرب فعجزوا ، فتحداهم بسورة منه فبهروا ، فتحداهم بأقصر سورة فخرسوا ؛ ولما سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا له خاشعين .

وما إيمان عمر حين سمع « طه » ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا سحر ولا كهانة » [1] حين سمع « فصلت » ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التى يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، وما عجزهم بعد التحدى ؛ ما كل ذلك إلا مظهر الإعجاز الذى شهد به العلماء والبلغاء على مر الأجيال . يقول الباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن :

« إن نظم القرآن على تصرف وجوهه ، واختلاف مذاهبه ، خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ؛ وله أسلوب يختص به ، ويتميز فى تصرفه ، عن أساليب الكلام المعتاد ؛ وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة ، والتصرف البديع ، والمعانى اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب فى البلاغة ، والتشابه فى البراعة ؛ على هذا الطول ، وعلى هذا القدر ؛ فهو على ما وصفه الله تعالى به : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ،

---

(١) ٣٨٧ / ٣ الكشاف للزمخشرى ط ١٣٥٤ هـ

ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

ذلك إلى أن عجيب نظمه ، وبديع تأليفه ، لا يتفاوت ولا يتباين ، على ما يتصرف إليه من الوجوه التى يتصرف إليها .

وهناك شيء آخر ، وهو ورود تلك المعانى التى يتضمنها فى أصل الشريعة والأحكام ، والاحتجاجات فى أصل الدين ، والرد على الملحدين ، بهذه الأساليب البليغة ، وموافقة بعضها بعضاً فى اللطف والبراعة ، مما يتعذر على البشر ، وقد علم أن تخير الألفاظ للمعانى المتداولة المألوفة أسهل وأقرب من تخير الألفاظ لمعان مبتكرة ، وأسباب مستحدثة ؛ وبراعة اللفظ فى المعنى البارع أعجب من براعته فى المعنى المتداول .

وبعد فإنك تجد فى كتاب الله الحكمة وفصل الخطاب ، مجلوة عليك فى منظر بهيج ، ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا مستكره فى اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، ويضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، كالروح فى البدن ، والنور فى الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، والصبح المبين .

وخصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ، وبليغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والكناية ، وساحر الطباق والجناس ، ومحكم الإيجاز والأطناب المفيد ؛ كل ذلك كثير جدا ، إلى حد يصعب بيانه إلا فى مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال فى كل غرض فى الاجتماع والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعد والوعيد ، وفى الدين والتشريع والتوجيه ، وهو فى كل ذلك كتاب الله الحكيم المعجز الصادق .

وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ، وهى من غير معين العرب الذى ينهلون منه ، لاطمئنان النفوس إليها ، وارتياح

القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحجة الباهرة ، والأدلة الساطعة والأحكام الصائبة ؛ وبحق إنه معجزة البيان وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزالتها وقوتها ، مع السلاسة والعذوبة ، ومع البعد عن الوحشى والغريب النافر والسوقى المبتذل والبعيد المعقد ؛ فوق ما تتحلى به من سحر وجمال ، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة وخصائص البيان والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهى حديث الدنيا ، والقضية التى سلم بها أساطين البيان ، وفحول البلاغة ؛ أرأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الخزى الأليم ؟ وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع منه ثم قال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئا من هذا ، ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . ثم أرأيت هذا الأعرابى وقد سمع قوله تعالى : « فاصدع بما تؤمر » فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟ .

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتجيدها ، ويهزها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا لها ، وبلاغة الكلام إلا وقفاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ؛ وقد دعاهم فعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا فى وصف بيانه وإعجازه ، وخروا لحكمته ساجدين .

أفليس ذلك كله مع ما قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهده ، وحجته وبرهانه ؟

ألست إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبى خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه الإنسانية هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدها وسعادتها ؛ لا تجد أمامك إلا القرآن الكريم ، والذكر الحكيم ؟

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه فى غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس فى وجودها إلى برهان ؟ وسر بلاغته وإعجازه يستعصى على البيان ، ويدق على الفهم ، ويعلو على العقول ، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التى اختص بها رسوله الأعظم محمداً صلوات الله عليه ؟

منابع التصوف الإسلامي

للدكتور ينولد ا . نيكلسون
تعريب الأستاذ نور الدين شريبة
خريج كلية اللغة العربية

برهن البحث الحديث على أن أصل الصوفية لا يمكن أن يرد إلى سبب واحد محدود . ومن هنا لم يرتض باحث منصف ، هذه التعميمات الجارفة ؛ من أمثال : أنها رد فعل العقل الآرى تجاه الدين السامى الفاتح ؛ أو أنها ليست إلا نتاجا خالصا للفكر الفارسى أو الهندى .

وأمثال هذه الأحكام — وإن يكن لها نصيب من الصحة — تغفل البديهية التى تحتم لإقامة رابطة تاريخية بين (ا) وبين (ب) أنه لا يكفى أن تستدل بشبه أحدهما للآخر ، من غير أن تبين فى الوقت عينه :

١ — أن صلة (ب) الفعلية مع (ا) بحيث تجعل النسبة المدعاة جائزة .
٢ — أن الغرض المحتمل متفق مع جميع الحقائق المؤكدة المدعمة .

وهذه الآراء ، التى ذكرت ، لا تقوم لهذه الشروط . فإن لم تكن الصوفية شيئاً غير أنها ثورة الروح الآرية ، فكيف نفسر الحقيقة ، التى لا سبيل إلى الطعن فيها ، من أن بعض كبار رواد التصوف الإسلامى من أهل سوريا ومصر ؟ وأنهم عرب الجنس ؟

وكذلك يغفل المتحمسون للأصل البوذى ، أو الفيدى ؛ عن أن التيار الرئيسى ، للتأثير الهندى على الحضارة الإسلامية ، ينتمى إلى عهد متأخر ؛ مع أن علم الكلام ، والفلسفة ، والعلم فى الإسلام ، قد آتت بواكيرها الغضة ، فوق تربة تشربت الحضارة الإغريقية .

والحق أن الصوفية شىء معقد . ومن هنا لم يكن فى الطوق أن يقدم جواب بسيط فى السؤال عن أصلها . ولعلنا أن نقترب من الجواب إذا حددنا القوى

والحركات المختلفة ، التى صاغت الصوفية ، وحددت الاتجاه الذى صارت إليه ، فى عهود نموها الباكرة .

ولنعتبر أولا أهم التأثيرات الخارجية ، تلك التأثيرات غير الإسلامية ، وأهمها :

١ — المسيحية

من الجلى أن ميول الزهد والتأمل ، التى أشرت إليها ، كانت على وفاق مع النظرية المسيحية ، ومنها استمدت أسباب قوتها . فكثير من نصوص الإنجيل ، ومن الأقوال المنسوبة إلى المسيح ، مقتبس فى أقدم تراجم الصوفية . والرهابنة المسيحيون كثيراً ما يظهرون فى مقام المعلمين ، يولون النصح والتشديد لزهاد مسلمين متنقلين . وقد رأينا أن ثوب الصوف — الذى منه جاء الصوفى — مسيحى الأصل ، ونذور الصوم عن الكلام ، والذكر ، ورياضات الزهد الأخرى ، لعلها أن ترد إلى هـذا الأصل نفسه . وفيما يتصل بمذهب « الحب الإلهى » ، ندع هذه المقتطفات تترجم عن نفسها :

« روى أن المسيح مر على طائفة من العباد ، وقد احترقوا من العبادة ، كأنهم الشنان البالية ، فقال : « ما أنتم ؟ » قالوا : « نحن عباد » ؛ قال : « لأى شىء تعبدتم ؟ » ؛ قالوا : « خوفنا من النار فخفنا منها » ؛ فقال : « حق على الله أن يؤمنكم ما خفتم . » ثم جاوزهم ، فمر بآخرين أشد عبادة ، فقال : لأى شىء تعبدتم ؟ » فقالوا : « شوقنا إلى الجنان ، وما أعد فيها لأوليائه ، فنحن نرجو ذلك » ؛ فقال : « حق على الله أن يعطيكم ما رجوتم » . ثم جاوزهم فمر بآخرين يتعبدون ، فقال : «ما أنتم ؟ » ؛ قالوا : « نحن المحبون لله ، لم نعبده خوفا من ناره ، ولا شوقا إلى جنته ، ولـكن حباله وتعظيما لجلاله » . فقال : « أنتم أولياء الله حقا ، معكم أمرت أن أقيم ، فأقام بين أظهرهم . وفى لفظ آخر أنه قال للأولين : « مخلوقا خفتم ، ومخلوقا أحببتم » . وقال لهؤلاء : « أنتم المقربون »[١] .

(١) أبو طالب المكى : قوت القلوب . حـ ٢ ص ٨٢ س ١٣ - ١٩ المطبعة المصرية .

حدث أحمد بن أبى الحوارى [١] قال : « قلت لراهب : « أى شىء أقوى ما تجدونه فى كتبكم ؟ » . قال : « ما نجد شيئاً أقوى من أن تجعل حيلك وقوتك كلها فى محبة الخالق » [٢] .

وسأل بعض الزهاد راهبا آخر : « متى يكون الرجل أكثر إمعانا فى العبادة ؟ » فأجابه : « حين يملك الحب قلبه ، فليس له عندئذ من مسرة ولا رغبة : إلا فى العبادة المتصلة » .

وتأثير المسيحية — من خلال أحبارها ، ورهبانها ، وفرقها الخوارج ، من أمثال فرقة « المصلين [٤] Euchitae » — ذو وجهين . زهدى ، وصوفى .

والتصوف الشرقى المسيحى : كان - على أى وجه - يحوى عنصراً وثنيا . فقد تشرب منذ بعيد أفكار أفلوطين ، واصطنع لغة المدرسة الأفلاطونية الحديثة .

---

(١) أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبى الحوارى الدمشقى ، من أهل دمشق ، يروى عن وكيع ابن الجراح الكتب ، وعن الولد بن مسلم . . . . وصحب أبا سليمان الدرانى وحفظ عنه الرقائق . انظر الأنساب للسمعانى ص ١٨٠ طبع ليدن سنة ١٩١١ فى سلسلة « جب Gibb » التذكارية .

(٢) أبو نعيم : حلية الأولياء حـ ١٠ ص ٨ س ٧ - ٩ مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٣٨ .

(٣) « المصلون Euchitae » فرقة مسيحية غالية ، من الهراطقة ، يقوم مذهبها على أن الصلاة المتصلة يمكن أن تجتث أصل الخطيئة وتبلغ بالانسان حد الكمال الروحى والتحقق . وقد قاموا بنشر مذهبهم ابتداء من النصف الثانى للقرن الرابع الميلادى حتى القرن السادس، بل إن تأثيرهم ليمتد إلى ما بعد ذلك . وهم يعتقدون أن كل إنسان قد وكل به شيطان يقويه على الوقوع فى الاثم ؛ وليس التعميد بكاف فى طرد هذا الشيطان ، إنما يجتث التعميد هذا الأثم من ظاهره ويدع جذوره غائرة فى أعماق النفس . والدواء الشافى لذلك هو الصلاة المتصلة ، حتى يحس الانسان إحساساً قويا أن شيطانه قد فارقه . وقد تشاهد حينئذ الروح القدس داخلة إلى جسم الانسان على هيئة نار غير مؤذية ، بينا تشاهد روح الشر عندئذ خارجة من فمه على صورة حية فى أكمامها . ثم يتبع ذلك وقت السعادة حين تحس الروح اتحادها مع عريسها ، كما تحس الزوج نشوة العناق مع زوجها حين يدخل بها ، وإذا فالمصلى يعتقد انه مشارك فى الطبيعة الالهية ، وهم يدعون أن لهم انكشافات وكرامات لا تتيسر لعامة الناس . وكانوا يرقصون ليطئوا بأقدامهم شياطينهم التى كانت تتراءى لهم . وكانو يدعون لأنفسهم علم الغيب ، والكشف عما فى نفوس الناس . كما كانوا ينظرون نظرة عدم اكتراث إلى وسائل الكنيسة العادية فى مقاومة الخطيئة من نحو رياضة الرهبنة و « والعشاء الربانى Eucharist » وقد قصروا أوقاتهم كلها على الصلاة وجعلوا يتكففون الناس حتى يشدوا رمقهم . كما أنه كان من بينهم طوافون فى الأرض من الرجال والنساء قد تخلوا عن الدنيا ومتاعها . وفى الصيف كانوا ينامون على قارعة الطريق . على أن مناهضيهم يرمونهم بالفساد وانتشار الانحلال بينهم . . أنظر: Encyclopaedia of religion and Ethics المجلد الخامس ص ٥١٠ .

رســـــــالة الازهر
وكيف يؤديها ... ؟

للشيخ أحمد محمد صقر

ليس فى رسالة الأزهر قولان . . ولا اعتراض على تلك الرسالة فى موضوعها . ولكن الخلاف يقع فى الوسيلة التى يمكن بها أداء ذلك الواجب كاملا ...

فلو أراد باحث دقيق أن يطنب فى تحديد هدف الأزهر لما خرج عما نوجزه فى كلمات قصار هى أن غاية الأزهر « المحافظة — على الدين الإسلامى واللغة العربية ونشرهما . . . » ذلك أن الأزهر حصن الإسلام . وهو القائم على درسه ونشره وحفظ أصوله وفروعه ما بقيت السموات والأرض ... ولا سبيل إلى ذلك الحفظ إلا بإتقان الفصحى وحفظ موادها وتذوق أدبها ورعاية طرق الأداء فيها . . . وقد يظن إنسان ذلك أمراً سهل المنال قريب المتناول . . ولكن من يدرك معنى الإسلام ومعنى اللغة العربية لا يسيغ لنفسه الحكم على مهمة الأزهر الناهض بهما بأنها مهمة سهلة ميسورة . .

فلو كان الإسلام دين رهبانية وصوامع ... أو دين عصر معين ومكان محدود فقط لهان الأمر وخفَّتْ المئونة . . ولكنه دين مجتمع ودين سياسة . دين نظام ودين اقتصاد . . . دين حكومة وإدارة وقانون . . . وفوق ذلك فهو دين الغد كما كان دين الأمس ، وكما هو دين اليوم . . ليس محدود السلطان ولا موقوت العمل . . ولا مقصورا على بلد من بلاد الله . . .

فحينما تقرر أن رسالة الأزهر هى المحافظة على هـذا الدين العظيم ونشره يجب علينا أن نتصور مشقة الواجب وعبء الأداء . . وطول الطريق . . . وفى الوقت نفسه ننظر فنرى الأزهر لا يملك إلا رجالا يشتغلون بالعلم والتعليم بمعنى أنه ليس هيئة سياسية ترسم الخطط وتحتال على الوصول إلى أهدافها ، وليس جماعة مالية تنثر الذهب فى طريقها لتبلغ ما تريد . . .

وبالرغم من ذلك لا يستطيع أحد أن يدعى عيباً على الأزهر ، الذى يتخذ الحسنى وسيلته ، ونشر الثقافة جهده المستطاع .

فقد غزا العالم نوره ، وملأ مسامع الدنيا صوته ، فتقاطر المبعوثون إليه يغترفون من معينه ، وتتابع المتخرجون فيه صوب النفوس الظماء ، يبلون أوامها ، ويروون غليلها ، ويرفقون بالأفئدة الصادية ، والأنفاس اللاهثة .

وأصبح الأزهر قبلة العالم الإسلامى يحج إليها طلباً للنور والمعرفة ، وما كان ذلك بقيادة عبقرى مغوار ، بل كان بفضل الرسالة نفسها ، فإن ديناً أراد له الله الخلود ، ولغة حق لها البقاء ، لابد أن ينتصرا على أحداث الزمن وصروف الدهر . ولابد أن تسرى قوة الرسالة فى أوصال حامليها فتخلق منهم بشراً لا كالبشر ، وشبانا يسمون الشيوخ ، لأنهم جمعوا حكمة الشيخوخة وعزمة الشباب . حملوا مشعل النور منذ ألف عام رغم الأعاصير الهوج ، والريح الرعزع والعاصفة النكباء ، فما ضعفوا ولا انقادوا طوع الهوى .

وفى الحق أنى ما تأملت تلك المأثرة التى تمت على يد الأزهر ، إلا تملكنى شعور بالحب نحو هذا المعهد القديم العتيق .

وسرى فى نفس تيار من العرفان بالجميل والاعتراف بالواجب على العالم الإسلامى إزاء ذلك الحصن المنيع ، حقاً ما كان القرآن أن يضيع فالله تعالى ضمن له الحفظ والبقاء ، ولكن لو لم يكن الأزهر لاستعجمت الألسن وماتت القريحة العربية ، ولو ظل الأمر العربى سائراً فى طريق الشوك منحدراً إلى الهاوية بعد أن ذبلت زهرته فى بغداد لكنا اليوم فى ظلمات من الجهالة لا يعلم كنهها غير الله تعالى ؛ فاقتضت عناية الله أن يتلقف الأزهر مشعل الحياة ، ويحتضن الثقافة الإسلامية وتصبح أروقته مثابة الدارسين من كل بقعة وأمة ، وقد تخرج فى صحن الأزهر القديم رجال دافعوا عن الدين وحفظوا اللغة العربية وتدرج الأزهر فى أطوار متعاقبة فبعث العلم والأدب وكان محط أنظار الشعوب بمثابة معقل ترفرف عليه راية الزعامة الشعبية وليس غلوا أن نقرر : أن الأزهر هو الذى خطا بمصر نحو الحياة الدستورية وهيأها لسبق أخواتها فى الشرق .

وصارت الأمور إلى الأزهر الجديد ، فقد مضى الأزهر القديم محمودا مشكوراً ، وتجددت الحياة فى العالم الإسلامى وفى مصر زعيمة هذا العالم .. وكان لزاما أن يتجدد الأزهر كعبة العلوم الإسلامية .

وقد كان ..!! ولم يشمل التجديد ذلك الطابع الأزهرى ، وظلت الفكرة الأصلية واضحة ، وتمشياً مع مقتضيات العصر اتبع نظام التخصص فى المراحل العالية فأنشىء فيه كليات ثلاث وحددت لكل كلية مهمتها ونوع المواد التى تدرس فيها ، وكل ذلك جميل وعظيم ، غير أننا نحس فى الأزهر الجديد فتورا لعله نتيجة حتمية للبيئة والعصر ، وهى ظاهرة تتجلى فى كل أنواع التعليم على اختلاف أهدافه . وهناك شىء آخر نلمسه فى الأزهر الجديد ولا ندرى أنسميه قصوراً أم تقصيراً .. ؟

ذلك أن الطالب لا ينال اهتماما مذكورا ولا يُراعَى حقه فى الثقافة العصرية كأنه مضطر أن ينسلخ كل الانسلاخ من بيئته ولا سيما فى مرحلتى التعليم الابتدائى والثانوى ، فيشب الطالب غريبا بين قومه كسير الفؤاد عاجزا عن مسايرة إخوانه متهما فى ذوقه وتفكيره ، فإذا تكلم فى الأمور العادة أعرض الناس عنه كأنهم يقولون : ما للأزهرى والحياة العامة ، وماله ولثقافة العصر ، ؟ إن هو إلا منقطع للعلوم القديمة ، والخلافات الميتة العديمة الفائدة ! ولذلك كله أثر فى نفسية الطالب لا ينمحى وطابع يسمه بميسم الانزواء والبعد عن مشاكل العالم .

ولعل تلك الضجة التى أثارها الكتاب على صفحات الجرائد منذ قريب .

حول الكتب الأزهرية ، والبرامج التعليمية فى الأزهر تعتبر نتيجة للشعور بهذا النقص ... وإنى مع ذلك لا أوافق على كل تلك النقدات ... فالأزهر صلة بين الماضى والحاضر ... ولا بد من الابقاء على ما يربطنا بهذا الماضى ، وإن كنا نطلب التخفيف وإضافة مواد تتصل بالاجتماع والاقتصاد يستعين بها الطالب على تبليغ رسالته إلى قوم يعجبون بعصرهم ويقدسون جديدهم ، حتى لا ينفروا كل النفور من الدعاة والمصلحين ، وخير الناس من لبس لكل حال لباسها ، وطابق بين مقتضى الحال وما يقول ، أما فى مرحلة التعليم العالى فإنى أحس السطحية غالبة على دراستها ونحن فى حاجة إلى الغوص وإلى الدراسة بعمق ، كما يقول

النقاد المحدثون ، أما الدراسة السطحية العرضية فإنها عقيم لا تنتج ولا تفيد ، نريد دراسة مستفيضة وتوسعاً فى البحوث .

نريد أن تكلفونا تكليفاً بالغرض واستخلاص المعلومات من المراجع الشتيتة ، نريد أن تدفعونا دفعاً إلى الاعتماد على النفس ، وتتبع العروق العلمية فى مناجمها ! ! نحن نعترف بأننا ننال قسطاً كبيراً من الحرية فى المناقشة ولكن هذه الحرية مقصورة على كتب معينة وآراء لقوم سبقونا ولم يدعوا لأنفسهم العصمة ، فنحن نداور ونحاور ثم نعود إلى رأى فلان من المجتهدين ، ولو كان ضعيفاً اعتمادا على ما له من المكانة ، فإذا سئل أحدنا عن أمر يتعلق بالدين أو اللغة ، نجد أنفسنا مسوقين إلى ترديد تلك الخلافات فيمل السائل ، وينصرف عنا معتقداً ألا نفع فينا ولا خير عندنا ، وليس هذا الكلام بعيداً عن رسالة الأزهر بل إن ذلك جوهرها ، فإن التقارب بين المصلح والناس أول خطوة فى نجاح الفكرة ، فنحن لا نتعلم لأنفسنا فقط ، ولا للناس فقط ، بل نقصد للثقافة لعقولنا وأفكارنا حتى نستطيع التأثير فى غيرنا .

وقد أصبح التجديد فى وسائل الأداء جزءاً من الرسالة نفسها . . . فإذا تم للأزهر ذلك استطاع طلابه تبليغ الرسالة وأداءها . . . فكل فرد يعتبر داعية حيثما حل . . فى قريته وبين أهله . . . والأزهر هو المسئول عن تسليحه ليكون صورة قوية واضحة من صور الأزهر . . وليكون عنواناً صحيحاً للإسلام . . . أما أداء الرسالة العالمية التى وقف الأزهر نفسه عليها فإنه محتاج فى أدائها إلى التجديد فى العرض والابتكار فى التبليغ كما هو الشأن فى الجامعات العلمية الحديثة وذلك بأن يخرج مطبوعات بانتظام تقوم مقام المشافهة والخطاب . . . وتلك هى الطريقة الجماعية . . فيعيد طبع الكتب النافعة وتوضيحها وتحليل أفكارها وتبسيطها لتكون فى متناول الناس فى عصرنا .

ويعيد الكتابة فى تاريخ الإسلام كتابة منصفة مليئة بالتحقيق والتحليل والنقد النافع والتمحتص المثمر ، وليكن للأزهر دائرة معارف إسلامية كبرى تعيين المتتبعين للثقافة العربية الدينية ولتكن له رسائل تبحث فى مشاكل العالم من الوجهة الإسلامية ليشعر الناس أننا قوم نخدم البشرية ونتابع أطوارها .

أسلوب التمثيل

فى القرآن الكريم

لحضرة الأستاذ عز الدين اسماعيل

قال الأصبهانى : لضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء النظائر شان ليس بالخفى فى إبراز خفيات الدقائق ، ورفع الاستار عن الحقائق ، تريك المتخيل فى صورة المتحقق ، والمتوهم فى معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ؛ وفى ضرب الأمثال تبكيت للخصم الشديد الخصومة ، وقمع لضراوة الجامح الأبى ، فإنه يؤثر فى القلوب مالا يؤثر وصف الشىء فى نفسه ، ولذلك أكثر الله تعالى فى كتابه وفى سائر كتبه الأمثال ، ومن سور الإنجيل سورة تسمى سورة الامثال وفشت فى كلام النبى وكلام الأنبياء والحكماء (١) . وقال تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون » وقال أيضا « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » . وأخرج البيهقى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن القرآن نزل على خمسة أوجه : حلال وحرام ، ومحكم ومتشابه ، وأمثال ؛ فاعملوا بالحلال واجتنبوا الحرام ، واتبعوا المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال (٢) . وإذن فأسلوب التمثيل من الأساليب العربية البليغة ، عرفه العرب وكثر فى القرآن والحديث ، فكانت له بذلك أهمية خاصة . وفيما يلى نستعرض تمثيلا من التمثيلات القرآنية لنعرف قيمته ونطلع على سر بلاغته وأدلة إعجازه .

قال تعالى « وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء

---

(١) الاتقان للسيوطى ، حـ ٢ ص ٢٢٣ ط ٣ - ١٩٤١ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٢ .

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون . الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون . أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون . أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق ، يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين . يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ، ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير » .

قال الزمخشرى فى الكشاف : « لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالهدى عقب ذلك بهذا التمثيل ليمثل هداهم الذى باعوه بالنار المضيئة ما حول المستوقد ، والضلالة التى اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب الله بنورهم ، وتركهم فى الظلمات . كانت حواسهم سليمة ، ولكن لما سدوا عن الإصاخة إلى الحق مسامعهم وأبوا أن ينطقوا به ألسنتهم ، وأن ينظروا ويتبصروا بعيونهم ، جعلوا كأنما ألغيت مشاعرهم . . . ثم ثنى سبحانه فى شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفا لحالهم بعد كشف وإيضاحا غب إيضاح . وكما يجب على البليغ فى مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع . وقد شبه المنافق فى التمثيل الأول بالمستوقد ناراً ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فماذا شبه فى التمثيل الثانى بالصيب وبالظلمات وبالرعد والبرق وبالصواعق ؟ لقائل أن يقول : شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيى به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفرة من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق . والمعنى أو كمثل ذى صيب . والمراد كمثل أخذتهم السماء على هذه الصفة فلقوا منها ما لقوا . ثم كيف يصنعون فى تارتى خفوق البرق وخفيته ؟ وهذا تمثيل لشدة الأمر على المنافقين بشدته على أصحاب الصيب وماهم فيه من غاية التحير والجهل

بما يأتون وما يذرون ، إذا صادفوا من البرق خفقة مع خوف أن يخطف أبصارهم انتهزوا تلك الخفقة فرصة فخطوا خطوات يسيرة ، فإذا خفى وفتر لمعانه بقوا واقفين متقيدين ، ولو شاء الله لزاد فى قصيف الرعد فأصمهم وفى ضوء البرق فأعماهم .

وقد أغفلنا فى نقل هذا الشرح للزمخشرى — وهو من أقوم الشروح — ما يتعرض له بين الفينة والفينة من مشكلات لغوية وبلاغية . والآن نبين رأيه فى بلاغة هذا التمثيل فنراه يقول فى مستهل كلامه : لما جاء بحقيقة صفتهم أعقبها بضرب المثل زيادة فى الكشف وتتميما للبيان . ثم ينقل عبارة الأصبهانى التى صدرنا بها هذا المقال ، إلى أن يقول : والمثل فى أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظير . يقال مثل ومثل ومثيل كشبه وشبه وشبيه . ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل . وإذا سأل سائل هل ما فى الآية استعارة أجاب بأنه مختلف فيه ، وأن المحققين على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور وهم المنافقون . ونجده يورد آخر الأمر رأيا لعله أدنى إلى الصواب والفهم السليم فيخلص إلى أن الصحيح الذى عليه علماء البيان لا يتخطونه هو أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفرقة ، لا يتكلف الواحد واحد شىء يقدر شبهه به . وبيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها عن بعض ، لم يأخذ هذا بحجزة ذاك فتشبهها بنظائرها كما فعل امرؤ القيس وجاء فى القرآن ، وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت وتلاصقت حتى عادت شيئا واحدا بأخرى كقوله تعالى « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح وكان الله على كل شىء مقتدرا » . فالمراد قلة بقاء زهرة الدنيا كقلة بقاء الخضر . فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير منوط بعضها ببعض ومصيره شيئا واحدا فلا . فكذلك لما وصف وقوع المنافقين فى ضلالتهم وما ضبطوا فيه من الحيرة والدهشة شبهت حيرتهم وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفئت ناره بعض إيقادها فى ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء فى الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق .

هذا الرأى الأخير الذى انتهى إليه الزمخشرى رأى طيب لو أحسنا استخدامه؛ فالذى لا شك فيه أن التمثيل فى الآية لا يمكن أن يفصل كل جزء من أجزائه ليشبه به ذلك الجزء من المشبه الذى لم يظهر فى الكلام، لأن جوامع الشبه بذلك ستختلف وتتعدد دون أن يُقصد إلى شىء من هذا الاختلاف والتعدد، وإنما الذى قصد من التمثيل فى الآية هو إكساب المشبه الصفة الحاصلة من الصورة التى ترسمها جميع أجزاء المشبه به مجتمعة متضامة. ونحن الآن بسبيل الإشراف على جوهر الفكرة ورسم الخطوط الواضحة للعملية الفنية التى يقوم عليها التمثيل فى الآية وفى غيرها من الآى. فالملاحظ أنه فى كل أساليب التمثيل لا يكون لدينا إلا مشبه واحد. هذا المشبه فى الأغلب الأعم يكون أمراً معنوياً لأنه يكون صفة، والصفة على العموم تفهم ولا تحس؛ ففى قوله تعالى « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف » إنما يصف أعمال الكفار، فإذا الصفة أمر معنوى فينقله بالتمثيل فى قوله كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف إلى شىء محسوس. ولكن يجب أن نتنبه هنا إلى أنه لا يقصد أن أعمال الكفار تشبه الرماد الذى اشتد به الريح فى اليوم العاصف وإلا لما كان ذلك مفهوما، وإنما المقصود هو أن الصفة التى يمكن أن توصف بها أعمال الكفار تلتقى أخيراً بالنتيجة التى يستنبطها العقل من صورة الرماد حين تعصف به الريح. فصفة أعمال الكفار، ومفهوم الصورة المادية التى رسمها الله لها هما اللذان يلتقيان ويتشابهان، وهما فى الوقت نفسه أمران معنويان، وغاية ما فى الأمر أن للصورة أو التمثيل المادى لصفة أعمال الكفار بهذه الصورة المادية، صورة الرماد تذروه الرياح إنما هو أسلوب لا يقصد لذاته ولا يؤخذ فتفصل أجزاؤه لاكتناه معناه والوقوف على مرماه، وإنما هو وسيلة إلى غيره، هو وسيلة إلى تصوير معنوى لصفة معنوية هى صفة أعمال الكفار. وهذا التصوير المعنوى يتحصل بالضرورة من مجموع تلك الصورة المادية التى اتخذت معداة أو قنطرة إلى تلك الصورة المعنوية. فتجسيم القرآن وتشخيصه للمعنويات بهذه الصورة ينتج عملا فنياً هو من الأعمال الفنية فى الذروة، كما يؤدى غرضه الأصيل المقصود من التصوير وما يمكن أن ينقله إلى النفس من إحساس بالمعنى المفهوم وإدراك له.

رثـــــــاء

انتقل الى الدار الآخرة فى اليوم الرابع من شهر سبتمبر سنة ١٩٥٠ العالم الجليل الشيخ محمد مأمون الشناوى شيخ الجامع الأزهر متأثرا بداء عضال ألم به نحو ثلاثة أشهر ، فكان لنعيه أسف عميق لدى كل من عرفه ، وغشى مجالسه ، لما كان عليه ، رحمه الله ، من محاسن الشيم ، والتواضع ، وحسن الإصغاء لذوى الحاجات .

تلقى رحمه الله العلم فى الأزهر ، ونال درجة العالمية فى سنة (١٩٠٦) ، وعين مدرسا فى معهد الاسكندرية ، ثم تولى القضاء بالمحاكم الشرعية ، وتقلب فى وظائفها واشتهر فيها بإيثار العدل والإنصاف .

وفى سنة (١٩٢٦) اختير ليكون إماما خاصا المغفور له الملك فؤاد ، فشغل هذا المنصب نحو خمس سنين ، كان فيها حاصلا على رضاء صاحب الجلالة وعطفه .

وفى سنة (١٩٣١) ، حين وضع للتدريس بالأزهر نظام جديد ، وقسمت الدراسة العالية فيه الى ثلاثة فروع ، وأنشئت لها كليات ثلاث : واحدة للشريعة وأخرى لأصول الدين ، وثالثة للغة ، اختير الشيخ رحمه الله شيخا لكلية الشريعة ، فمكث يشغل منصبه فيها بكفاية محمودة ، وعمل مشكور قرابة ثلاث عشرة سنة .

وفى سنة (١٩٤٤) أسندت إليه وكالة الجامع الأزهر ، وكان المرحوم الشيخ مصطفى المراغى شيخا له ، فلبث فى هذا المنصب حتى توفى الأستاذ المذكور ، وترددت الحكومة فى تخير رجل كفء لشغل منصب المشيخة ، فوقع الاختيار على المرحوم الأستاذ مصطفى عبد الرازق ، فرئى أن قانون الأزهر يشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة أن يكون من هيئة كبار العلماء ، ولم يكن الأستاذ المذكور منها ، فاستحسن أن ينقح هذا القانون حتى يتسع لتعيين من يصلح ممن لا تنطبق عليه شروطه من أجلاء العلماء ، مادامت تتوافر فيه المؤهلات العلمية والأدبية . فلما عرض هذا الحل على المرحوم الشيخ محمد مأمون الشناوى أبى ورأى أن يستقيل من منصبه ، وأن يتولى هذا الأمر غيره . فقبلت استقالته . ومضت الحكومة فى إصلاح ذلك القانون ، وعين المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخا للأزهر . فلما كانت سنة (١٩٤٨) وتوفى الأستاذ المذكور ، أسندت الحكومة مشيخة الأزهر إلى

الشيخ محمد مأمون الشناوى فى الشهر الأول من تلك السنة . فلبث فيها إلى أن وافاه أجله فى الحين الذى ذكرناه آنفا .

ومما يجب تسجيله للأستاذ المرحوم حالة الاستقرار الذى شمل جميع طلبة الكليات والمعاهد الأزهرية ، وفاء منها بشكر ما أداه إليهم من الخدم فى مساواة خريجيهم بخريجى الجامعة المصرية فى المرتبات ، وفيما كان عاملا عليه من تحقيق أمانيهم .

محمد فريد وجدى

مرشد الأنام

لمعرفة الحلال والحرام

هذا كتاب قيم ، جليل القيمة ، عظيم النفع ، وضعه الأستاذ النابه على فكرى بك ليكون لمقتنيه مرشدا أمينا لكل ما يهمه معرفته من الحلال والحرام ، فهو ذخر دينى لمن يستشيره فى أموره الدينية ، لا يستغنى عنه المسلم الذى يهمه أن يترسم فى حياته الطريق المستقيم .

كتبنا مقدمة لهذا الكتاب قلنا فيها :

« وقد تعقب مؤلفنا الفاضل المحرمات الى أبعد وأخفى مظانها ، كما يتعقب (البكتريولوجى) الميكروبات الضارة فى أدق وأعضل مظاهرها . فقد أتى على المحرمات الصادرة عن هواجس القلوب ، ومسارح العيون ، واصغاءآت الآذان وفضول الألسنة ، كأضمار الشرور ، والنظر الى المحرمات ، وسماع البهتان والغيبة والنميمة الخ ... فهذه كلها محرمات يتجاهلها أكثر الناس ، ويتخيلون أنهم ما داموا بعيدين عن مشهورات المحارم ، كالخمر والميسر والفسق ، فهم فى حل لأن يقعوا فى أعراض الناس بالظنون السيئة ، وأن يغتابوهم بغير تثبت ، وأن يشهروا بهم ، لا كراهية فيما يرتكبون ، ولكن تشفيا منهم ، ونشرا لمساوئهم ، ليحملوا الناس على تحقيرهم وكراهتهم ، وما دروا أنهم يسيئون الى أنفسهم قبل أن يلحقوا الأذى بخصومهم » .

بسم الله الرحمن الرحيم

بيـــــان

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم شيخ الجامع الأزهر

في اليوم الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٥٠ دعا حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم جمهورا من حضرات العلماء ورجال الصحافة، وألقى فيهم بيانا مفصلا، لما انتوى إحداثه من الإصلاحات في الأزهر، وفضيلته في سمو تفكيره، ومضاء عزيمته، وحبه للاصلاح، جدير أن يرى ضرورة إحداث هذه الاصلاحات الجليلة، وما يتجدد منها في الناحيتين الدراسية والنظامية، حتى تصير الجامعة الأزهرية أجمع جامعة لتشتيت المعارف، كما هي أقدمها جميعاً في الوجود، وأنها لمهمة جد خطيرة، نرجو أن يمده الحق بروح من عنده ليوفيها حقها.

اخواني وأبنائي الصحفيين

أحمد الله تعالى اليكم، وأصلي وأسلم على نبيه وصفوته من خلقه سيدنا محمد الذي بعثه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأسأله تعالى أن يجعلني وإياكم من الداعين إلى الخير، الآمرين بالمعروف، الناهين عن المنكر، الحافظين لحدود الله، وأن يؤيد بعنايته وتوفيقه حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول، صاحب اليد الطولى، والفضل المشكور في كل توجيه سديد إلى ما فيه مصلحة الأمة، وتركيز الحق والعدل، وإعلاء شأن الدين والعلم، كما أسأله تعالى أن يوفق رجال حكومته الجليلة وسائر أفـــراد رعيته المخلصين إلى ما يرفع شأن الأمة، ويحيي مجدها، ويثبت دعائمها، وأن ينشر على العالم في مشارق الأرض ومغاربها، لواء رحمته، وظل سكينته، ويهديهم صراطه المستقيم.

لقد دعوت إلى هذا المؤتمر اعتداداً بالصحافة الرشيدة ، وإدراكا لمكانتها وأثرها في توجيه الأمة إلى مواطن الخير والاستقامة والرشاد في شتى نواحي الحياة ، وإن بين الصحافة الموفقة والأزهر الشريف لاتفاقا في الغاية ، وتلاقياً على الهدف ، ذلك بأنهما يرميان كلاهما إلى الإصلاح والتقويم ، ويرشدان إلى أهدى السبل لتحقيق الخير ، وتثبيت دعائم الحق ، لذلك لا أراني في حاجة إلى مناشدتهم أن يكونوا عونا لدعوة الإصلاح والفضيلة في الأمة ، وأن يحببوا إليها أخلاق الشرف والاستقامة التي تنهض بها الأمم ، وتقوم عليها الشعوب ، ويُكَرِّهوا إليها أخلاق الضعف والانحلال التي ما تفشت في أمة إلا أخذها الله بالعذاب ، وأتى بنيانها من القواعد ، صان الله أمتنا ووقاها ، وأعاذها من كل سوء .

لقد تشرفت في العاشر من المحرم سنة ١٣٧٠ هـ الموافق (٢٢ من أكتوبر سنة ١٩٥٠) بمقابلة حضرة صاحب الجلالة مولاي الملك المعظم ، لرفع فروض الولاء والشكر لجلالته على ما تفضل به من إسناد منصب المشيخة إليّ ، وأصارحكم بأني كنت قبل أن أتشرف بهذه المقابلة محسا بثقل التبعة ، مشفقا على نفسي من تحمل هذه الأمانة الكبرى ، فلما تشرفت بمقابلة جلالته ، ولقيت من عطفه السامي ما لقيت ، وشعرت وأنا في حضرته بشدة رغبته في الإصلاح ، وعظيم حرصه على أن ينهض الأزهر برسالته ، وكريم استعداده لتأييد العاملين المخلصين : شرح الله صدري ، وأقر عيني ، وأحسست أن روحا من القوة والعزيمة يسري في نفسي .

لقد وجدت جلالته حفظه الله محيطا بشئون هذا المعهد دقيقها وجليلها ، حريصاً على أن يحفظ أمانته الغالية التي ائتمنه الله عليها ، وكان من ذلك أن جلالته - أدام الله توفيقه - بادرني بتوجيهات وإرشادات سامية ، أضاءت لي السبيل إلى تحقيق ما أبتغيه من ضروب الإصلاح ، وإني إذ ألخص لحضراتكم خطتي ومناهجي في الاضطلاع بشئون الأزهر : إنما أصدر عن هذه التوجيهات الكريمة ، والإرشادات السامية .

* * *

إن مهمة الأزهر ، ذات شقين عظيمين :

أحدهما : تعليم أبناء الأمة الإسلامية دينهم ولغة كتابهم تعليما قويا مثمرا يجعلهم حملة للشريعة ، أئمة فى الدين واللغة ، حفاظا حراسا لكتاب الله وسنة رسوله وتراث السلف الصالح .

الثانى : القيام بما أوجبه الله على الأمة من تبليغ دعوته ، وإقامة حجته ، ونشر دينه ، فإن هذا الدين عام خالد إلى يوم القيامة ، وقد شرعه الله للناس جميعاً ، وأنبأنا أن فيه صلاح العالم واستقامته على الصراط السوى ، وأنه سبيل الأمن والسلم والحياة الطيبة ، وأوجب على المؤمنين فى كل زمان ومكان أن يقوموا بالدعوة إليه ، وإظهار نوره ، وأن يسلكوا لذلك سبله ، ويأخذوا بأسبابه .

وإذا كان تبليغ الدين ، ونشر أحكامه ، وبث تعاليمه واجباً على المؤمنين فى كل الأوقات ، فإنه على أهل الأزهر أوجب ، وفى هذا الزمان ألزم ، فإن العالم ينوء اليوم تحت أعباء الدعوات الفاسدة ، والمبادىء الخطرة ، ولا يقوم من كارثة إلا إلى كارثة ، وأهل الأزهر بما لهم من الصدارة الدينية ، والتاريخ المجيد ، أقدر الناس على بيان ما فى الإسلام من مزايا تكفل للعالم الحياة السعيدة والأمن والسلام ، وتوطد فيه دعائم الحرية الصحيحة والمساواة الحقيقية لا فرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ، إلا بما يقدمه العاملون من أعمال صالحة ، وجهود نافعة « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

على رعاية هذين الجانبين يجب أن تقوم خطة الإصلاح فى الأزهر ، وأن يعمل العاملون على تحقيق آمال الأمة فيه .

* * *

وسبيلى إلى ذلك فى الأمر الأول ، التى آخذ بها نفسى ، وأدعو إليها إخوانى وأبنائى الأزهريين ، أن نستحضر دائماً هذه المبادىء ، وأن نصدر عنها فى كل شئوننا التعليمية .

فأول ذلك ، أن يكون همنا الأكبر التفرغ لتكميل أنفسنا ، والتزود من العلم بزاد طيب يعيننا على أداء حقوق الله وحقوق أمتنا العزيزة ، ويجعل لنا فى الناس

منزلة وشأناً ، فإن العلم هو غـــذاء العقول ، وكمال النفوس ، وأساس التقدم ، وما من خير يناله الأفراد ، وتحصل عليه الأمم والجماعات ، إلا والعلم أصله والمعرفة أساسه ، وما من شر أو ضعف أو فقر ، أو اضطراب أو اختلال أو انحلال ، إلا ومصـــدره الجهل ، وخطأ التصور والقصور أو التقصير فى المعرفة والإدراك .

وإذا قلت العلم ، فإنما أريد العلم الذى يطبع أصحابه بطابع الفضيلة والخلق الكريم ، وتظهر آثاره فى أشخاصهم وأعمالهم قبل أن تظهر فى أقوالهم وكتاباتهم وخطبهم .

إذا استحضرنا هذا المبدأ دائماً ، فجعلنا العلم غايتنا ، والتجمل بالمعرفة والفضيلة شعارنا ، أمكننا أن نتغلب على المشاق ، وأن نقهر الصعاب ، وأن نعتصم بالصبر فى جميع شئوننا ، وأن نطمئن إلى أن أمورنا ستتيسر ، وأن آمالنا ستتحقق ، وأن الأمة ستقدرنا حق قدرنا ، وأن الدولة ستوفر لنا أسباب المعونة والإنصاف ، ولا تبخل علينا بما تجود به على غيرنا .

إن الأزهريين كغيرهم من طوائف الأمة ، للأمة عليهم حقوق ، ولهم عليها حقوق ، والمساواة بينهم وبين أمثالهم فى حقوقهم ، كالحرص على قيامهم بواجباتهم ، جزء من برنامجى ، وموضع من مواضع اهتمامى وعنايتى ، وإنى لواثق أنهم بالعمل الدائب ، والجهاد الخالص ، رافعون إن شاء الله صوتى ، ومؤيدون حجتى . أسأل الله أن يحقق آمالى فيهم ، وآمالهم فى ، وأن يحقق فينا جميعاً آمال الأمة التى هى أعز آمال المليك المعظم .

المبدأ الثانى : أن نعنى بالأهم من العلوم بالنسبة إلينا ، فنبذل أكبر جهودنا لدراسة الدين واللغة وما يتصل بهما ، ويعين عليهما ، وألا نتخلى فى الوقت نفسه عن العلوم التى تفيدنا فى حياتنا العامة ، والتى لا يسعنا ولا يجمل بنا أن نجهلها .

إن الأمة تريد من الأزهر أن يخرج لها علماء فى الدين والشريعة واللغة وسائر العلوم العقلية والاجتماعية المتصلة بها ، على أن يكون هؤلاء العلماء مزودين مع هذا بقدر صالح من العلوم الأخرى التى تفيدهم فى مجتمعهم ثقافة عامة .

المبدأ الثالث : أن المقصود الأول من التعليم هو تحصيل الملكة الصحيحة فى العلم ، والتزود من قواعده ومسائله بما يفيد وينفع ، فكل تعليم لا يؤدى إلى غايته ، ولا يفيد الفائدة المقصودة من العلم إنما هو تضييع للأوقات والجهود وإنفاق للأموال والمواهب فيما لا طائل تحته .

فإذا استحضرنا هذا المبدأ كان لزاما علينا أن نعمل على مراجعة ما لدينا من الكتب ، فنقر منها ما ثبتت صلاحيته لتحقيق الغاية من العلم ، ونبعد منها ما لم تتوافر فيه أسباب تلك الصلاحية .

إن الكتب التى ورثناها نوعان :

أحدهما : تلك الكتب الأولى التى ألفت والعلم صاف ، والمؤلفون يكتبون على سجيتهم ، ويمضون فى البحث على فطرهم ، لا يقصدون إلا تجلية ما يبحثون والوصول إلى الفائدة من أقرب الطرق .

وهذا النوع من الكتب فيه علم غزير ، ومادة صالحة طيبة ، وغذاء للعقول وتخريج لها على طابع استقلال مثمر ، فليس من الرأى أن نحرم أنفسنا ما فيها من المزايا ، وأن نظل عنها مبعدين .

النوع الثانى : ما كتبه المتأخرون حين كانت تسودهم الرغبة فى الإيجاز وجمع المعلومات الكثيرة فى الألفاظ القليلة ، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى حد الإلغاز .

وهذه الكتب من شأنها أن تضيع أوقات المشتغلين بها ، وتبعث فى نفوسهم الكراهية لها ، والنفور منها ، والطالب لا يصلحه إلا أن يحب كتابه كما يحب أستاذه ، فإذا كره هذا أو ذاك كان غذاؤه كرها ، وهضمه كرها ، ورب غذاء تضوى به الأجسام .

لكنها مع ذلك تحوى كثيرا من الفوائد العلمية ، التى قد تخلو منها كتب النوع الأول ، وتمثل فى الوقت نفسه عصرا من عصور التفكير العلمى لا يسع الأزهر أن يجهله ، وأن يعجز عن مزاولته ، وإدراك ما فيه من خير .

والرأى عندى أن يراعى الأزهر المصلحتين ، وأن يوفق بين هاتين الغايتين المحمودتين .

وسيكون من أهم ما أعنى به إن شاء الله تأليف لجان من جماعة كبار العلماء وأساتذة الكليات والمعاهد والمختصين فى شئون التعليم لمراجعة الكتب الدراسية وإبقاء الصالح منها ، واختيار لون جديد يوجه الطلاب توجيها حسنا إلى العلم النافع من أقرب طريق وأيسره .

ولا يفوتنى أن أشجع - إن شاء الله - مع هذا حركة التأليف والتجديد عن طريق الجوائز وغيرها حتى يتصل حبل العلم ويمتد ، وتأخذ العقول والأفكار سبيلها إلى غايات قد يكون فيها خير وبركة على العلم والدين .

* * *

أما الشق الثانى من مهمة الأزهر ، وهو القيام بتبليغ الدعوة ، ونشر دين الله فسبيل الأزهر إليه أن ينظم اتصاله بالعالم اتصالا فكريا وعمليا .

وقد تشرفت فى هذا الشأن أيضاً بتوجيهات سامية حكيمة من لدن جلالة الملك :

منها العمل على ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية ، نشراً لكتاب الله الكريم فى بيئات ومواطن يجب علينا أن ننشره فيها ، ولا ينبغى أن نتجاهل ما يعود على ديننا وأمتنا من الفوائد الجليلة فى ذلك .

وقد كان هذا المشروع موضع تفكير الأزهر من قبل ، وأقرته جماعة كبار العلماء بعد دراسته وتبين حكم الله فيه ، ويسرنى الآن أن أعلن ما اعتزمته من اعداد العدة للشروع فيه على بركة الله ، وأسأله جل شأنه المعونة والتوفيق والسداد .

ومنها توجيه العلماء - أولا - إلى وضع أبحاث فى الفقه والتشريع تساير الروح العلمى الحاضر ، وتكفل إبراز ما فى الفقه الإسلامى من قواعد العدل والرحمة والمصلحة التى تشهد بها الفطر السليمة ، والعقول الراجحة ، وتبين للناس أن ما جاء فى التشريعات الحديثة القائمة على أسس سليمة ؛ موجود فى الفقه الإسلامى مع بيان أدلته وحججه ، ودفع الشبه عنه .

و - ثانياً - إلى إصدار نشرات ووضع مؤلفات باللغات الأجنبية لبيان حقيقة الإسلام ، والتعريف بمزاياه . حتى يعلم المنصفون من الأمم أن الإسلام هو الكفيل وحده بالحياة الطيبة للفرد والأسرة والجماعة .

ومنها العمل على النهوض بالبعوث الإسلامية وتنظيم الاتصال بالبلاد المحتاجة إلى معونة الأزهر ، ولا سيما البلاد التى تربطها بمصر روابط وثيقة ، حتى يؤدى الأزهر واجبه فى نشر الثقافة الدينية بين المسلمين ، ويجعل ممن يتلقاهم أو يبعثهم مُثُلا صالحة تكون خير عنوان له .

ومنها العناية بمجلة الأزهر حتى تكون فى طليعة المجلات الكبرى ، وتتمكن من أداء مهمتها على الوجه الأكمل .

ومنها العمل على إنشاء مطبعة خاصة تعين على إخراج ما يرى الأزهر إخراجه من الكتب ، وعلى طبع مؤلفات علمائه .

ومنها العمل على تنفيذ الرغبة السامية بشأن كتب الحديث الشريف .

* * *

هذه هى الخطوط الرئيسية فى برنامجى للنهوض بالأزهر ، والسير به فى طريق التقدم والكمال .

ولست أشك فى أن أهل الأزهر سيتلقون هذه التوجيهات الملكية السامية بعزائم صادقة ، وهمم وثابة ، معتزين بها ، عاملين على تحقيقها ، وأن حكومة جلالة الملك ستعيننى عليها ، وتؤيدنى فيها ، فإن ما أعلمه عن صاحب المقام الرفيع رئيسها ، وأصحاب المعالى زملائه الكرام من حرص على كل ما يثبت دعائم الدين والعلم والخلق ، ويحقق آمال الأزهر وآمال الأمة فيه ، ليبعث الاطمئنان كل الاطمئنان إلى قلبى وقلب كل مؤمن .

وفقنا الله جميعاً إلى ما يحبه ويرضاه ، ويسر لنا سبيل العمل الصالح لخير الإسلام والمسلمين بل لخير العالم أجمع ، وأظل بالرعاية والتوفيق جلالة مليكنا المعظم ورجال حكومته ، إنه سميع مجيب ؟

ليس من هنا نبدأ

من هم الذين يوصمون بالكهانة ويصح أن يطلق عليهم لفظ الكهنة ؟

تابعنا قراءة كتاب (من هنا نبدأ) لحضرة مؤلفه الأستاذ خالد محمد خالد فألفيناه يقول :

« هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ... وهي ذات تعاليم ومبادىء ضارة وقاتلة . . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتخالط بعض تعاليمه ، ثم راحت تنفث سمومها المبيدة فى دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض ! ! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التى تحترم دينها ، وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له ، وإعجابهم به » .

نقول لم يذكر الأستاذ مؤلف الكتاب الطائفة التى تمثل هذه الكهانة ، واكتفى بقوله : أنه يقصد بها جماعة تزيوا بزى رجال الدين ، وانتدبوا لبث تعاليمه فى الناس ، وهم ليسوا منه فى شيء . وقد أعملنا الفكر لنصل إلى تعيينهم ، فلم نهتد إلا الى رجال من جهلة الناس تزيوا بزى رجال الدين ، واندسوا بين العامة يفتونهم بما لا يعلمون ، ويصورون لهم الدين على ما يهوون ، تصورا يخرجه عن حقيقته . وهم شر على الدين من أعدائه ، ويجب على أولى الأمر منعهم من تسميم عقول السذج بضلالاتهم الضارة .

ولكننا رجعنا فقلنا لو كان يريد بهم هؤلاء فإن أمرهم أهون من أن يكتب

فيهم فصلا يقع فى نحو تسعين صفحة من الكتاب ، ومن أن ينزعج هذا الانزعاج الذى يتمثل فى هذه السطور من كتابه وهى :

« وهكذا تظل الكهانة تزحف وتمتزج بتعاليم الدين ، وتحتل عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يذعنوا له ولا يناقشوه ! وهنا ينجم ضرران خطيران : (الأول) استماع الناس لها ، واقتداؤهم بها حيث تسير بهم الى الهاوية ، بعد أن تسكرهم بتعاليمها التى تريحهم مما يتعب الكرام ، وحيث يظلون عبيد نصوص مميتة ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب . (الثانى) أنه على مر الزمن لا بد من ظهور طبقة مثقفة فى المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتهن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق الى الموت والظلام ... فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذى يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين ، ثم أخذت تنمو فيه حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسماته وملامحه . عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس الى الشك فيه ، والتمرد عليه . هذا هو الذى حدث فى أوربا والغرب ، وهو الذى نخشى أن يحدث فى الشرق إذا لم نبادر بعزل الكهانة عن الدين ، وتنقيته من شوائبها ، ونقدمه للناس وضيئا متألقا كيوم نزل من لدن حكيم عليم » .

قرأنا فى الكتاب هذه العبارات ، فازددنا حيرة فى تعيين الطائفة التى يَسِمُها بالكهانة ، ويهبها من التأثير بحيث تحتل كهانتها عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يذعنوا له ولا يناقشوه الخ ! نعم ازددنا حيرة ، لأننا لم نجرؤ أن نفهم منها أنه يريد بها علماء الدين ، فليس للعلماء دعوة غير ما ينشرونه فى مجلتهم من المقالات ، وما ينادى به وعاظهم فى الأقاليم ، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ ولهؤلاء أيضاً مجلة خاصة ينشرون فيها ما يعن لهم من البحوث ، وكلها من خير ما تثمره الثقافة الفاضلة والمذهب القويم ؛ فكان بحسب الأستاذ خالد أن ينقل عنهما بعض ماتنشرانه من الأضاليل ، ليرى قراءه بدليل محسوس كيف تسمم هذه الكهانة عقول إخوانه فى الدين !

أعدنا نظرنا فيما كتبه الأستاذ فى (الكهانة) لعلنا نعرف أى الطوائف فى مصر يريد . فرأيناه يقول أيضاً :

« هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ، وهى ذات تعاليم ومبادىء ضارة وقاتلة . . ! أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتخالط بعض تعاليمه ، ثم راحت تنفث سمومها المبيدة فى دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض ! ! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التى تحترم دينها وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها » .

ثم قال :

« فالى أى شيء تدعو الكهانة ؟ نستطيع أن نعرف الجواب من مناوأتها الحادة لرغبات المجتمع وطموحه ، فعند ما اشتد احساس الشعب ببؤسه وخصاصته ، وتضرم شوقا إلى عدالة اجتماعية يستجم فيها من وعثاء لغوبه الطويل ، وبدا كأن الفرص تستجيب له ، وقام جلالة الفاروق يمهد بنفسه طريق اليقظة الشعبية الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء فى إحدى جلساته ، وخاطب الوزراء بنبرات حازمة مؤثرة تحمل آلام عشرين مليوناً من البشر : « جئت أطالب بحق الفقير والمحروم والمريض » ! عندما حدث ذلك . . . رأينا الكهانة المصرية تختط مذهباً عجيبا . . إذ راحت تمطر الناس بخرافاتها ، وسال جشاؤها سيل العرم حاملا مبادئها الحزينة المدبرة ، داعية الناس إلى القناعة المقدسة ، بيد أن الكهنة أنفسهم ألد أعداء القناعة ، وأسبق الناس إلى اقتناص المغانم ، والبحث عن المال والجاه ! » انتهى .

لما طالعنا هذه الفقرات رجعنا نشك فيما ظنناه من أن المراد بالكهانة مذهب علماء الدين ، فمتى عهد الناس أن واحدا منهم دعا إلى الرجعية الاقتصادية أو دافع عن مزايا الفقر والجهل والمرض ؟ أما كان يجدر بحضرة الكاتب أن يأتى بعبارة من خطابة منبرية لأحدهم ، أو كتاب وضعه بعضهم ، يثبت هذه التهمة عليهم ؟ وإذا كان الدينيون يستبطنون مذهب الرجعية ويعملون على ترويجه ، فكيف يعقل أنهم مع ذلك يقررون تدريس علم الاقتصاد السياسى فى كلياتهم ، وهو يثبت بأدلة لا تقبل النقض أن المال ضرورى للجماعات ضرورة الدم

للجسم الحى ، وأن لكل منهما دورة حيوية لابد منها لحفظ الحياة الفردية والاجتماعية .

ثم إذا كان الدينيون المعاصرون رجعيين ، فكيف يعقل أن يخطوا فى سبيل التجديد هذه الخطوات الجديدة الجريئة ، فيقرروا تدريس العلوم الطبيعية والرياضية والمذاهب الفلسفية الحديثة فى كلياتهم ، ليتخرج الطالب آخذاً من كل علم بطرف ؟ .

إن المدارس والكليات المسيحية تدرس هذه العلوم فى العصور الحديثة ، ولكن لا تدرس منها إلا ما هو مؤلف بأقلام أعلامهم ، ولا تسمح بأن يلقيها إلا رجال منهم ، على خلاف كليات الأزهر فإنها تعين أساتذة هذه العلوم من الحاصلين على إجازات فيها من المدارس الأميرية ، وممن لا علاقة لهم بالدين أصلا ، بل زادوا على ذلك فقرروا تدريس اللغات الأجنبية فى تلك الكليات ، وبالغوا فى هذا التسامح فأرسلوا بأنجب طلبتهم إلى انجلترة وفرنسا والمانيا لدراسة هذه اللغات وإتقانها ، ودراسة بعض الفروع العلمية بها . فهل يظن بل هل يعقل أن يصدر مثل هذا التسامح كله من طائفة تدين بالرجعية ، وتتلمس مثلها العليا من الجهل ، والمرض والفقر ؟ ؟ ؟

لست أريد بهذا أن أقول إن الدينيين وصلوا بتسامحهم هذا ، الذى أصبح مضرب الأمثال ، إلى المثل العليا التى ينشدونها ويعملون للوصول إليها ، ولكنى أريد أن أقول إن اتهام أولى الحل والعقد منهم بالرجعية ، وتشبيههم بالكهنة ، وعملهم فى سبيل بلوغ المثل العليا ما رأيت ، يعتبر تجنيا يحار العقل فى فهم مداه وفى تعليله !

إن الأزهر لم يبلغ هذا التطور الجديد من حياته إلا منذ سنين معدودة ، وهو ماض فى سبيل الوصول إلى ما يقتضيه هذا التطور من التجديدات بكل ما يملكه من وسيلة ، ولكن أمثال هذه الانتقالات تقتضى المصلحين وقتاً كافيا لتثمر فيه ثمراتها المنتظرة منها ، بل لتتكمل وتصلح للإنتاج والإثمار . ولو كان الناقدون يشاركون العاملين فى أحداث هذا الانقلاب ، ويعانون بعض مشقاته والتواءاته ، لادركوا أن كل جديد لابد له من وقت لينضج فيه ، ووقت آخر

ليؤتى ثمراته . فلو أمهل الأزهريون جامعتهم ملاوة من الدهر مع مشاطرة كبار شيوخها جهودهم على النهوض بها ، لبلغوا الغاية فى مدة وجيزة ، لاسيما وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم ، من أشد الناس شغفا بجعل الأزهر مثلا أعلى للجامعات الدينية ؛ أما لو تعجلنا الثمرة قبل نضجها ، وعملنا على الإسراع بها قبل استيفائها أدوار إيناعها ، اضطررنا بحكم الظروف لانتظار زمن أطول للحصول على ما نتخيله لمرضاتنا .

يقول مؤلفنا الفاضل :

« وما دمنا بحاجة الى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة ، فلا بد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد ، والأزهريون اليوم على أتم الاستعداد النفسى والذهنى للقيام بهذه الرسالة الجديدة . وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ، ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك أو عجزوا عنه ، كان حقاً لزاما على الدولة أن تنشىء فى كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتى ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادىء الصحيحة التى تهدى الى حياة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء ، ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد . كوعاظ الكنيسة فى أوروبا . ولا بد من الإهابة بالعلماء الراشدين كى يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضا وافيا خالقا ، وإذا كنا نقدر خطر تعاليم الكهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الأفكار أقوى من الجيوش ، فان الدولة ستهتم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على الكهانة ومكافحتها ، فتؤلف مجمع العلماء ليقوم بالمهمة التى ذكرناها . وهى عرض التعاليم الدينية صحيحة عرضا جديداً ، ويؤلف الكتب فى ذلك ويشترك فيه علماء الدين واسعو الأفق مع صفوة تختار من رجال الفكر والأدب والاجتماع » انتهى .

ونحن نقول :

إن الحالة التى وسمها الأستاذ المؤلف بالكهانة ليس لها وجود فى مصر ، وإن وجدت ففى طبقة من الجهلة لاتخلو منها أمة فى الأرض ، مهما بلغت من السمو العلمى والمدنى ، وإن كل ما تمناه حضرته لهذه الأمة من الرشد فى الدين ، والفهم

الصحيح له ، لمواجهة فتنة عهدنا العلمى المدنى الراهن ، حدث منذ أكثر من سبعين عاما بنبوغ الفيلسوف الإسلامى الجليل جمال الدين الأفغانى . وقد عاونه على نشر تعاليمه ، وبث أصوله وفلسفته ، جمهرة من نبغاء الأزهريين على رأسهم العلامة الجليل الشيخ محمد عبده ، فى مجلة تدعى العروة الوثقى أذاعوها فى الخافقين ، فتيقظ نبهاء المسلمين من سباتهم الذى كان قد طال عليهم الأمد فيه ، وشرعوا يوقظون من حولهم ممن لا بصر لهم بما هم عليه ، ولا بما سيتأدون إليه تحت ضغط شبهات علمية لاقدرة لهم على فهمها ، ولا على اتقاء آثارها ؛ مهيبين بهم إلى تدارك ماهم منتهون إليه من التدهور المادى والأدبى ، ثم منه إلى الفناء فى أمم ليس بينها وبينهم أية صلة من الصلات الروحية والاجتماعية ، ولكن كيف تصل هذه الدعوة الى قلوبهم ، بل الى أسماعهم ، وهم فى درجة من الأمية لا تسمح لهم بفهم شىء مما يشغل بال هؤلاء المصلحين الذين يهيبون بهم الى طريق النجاة ؟ ومع هذا فان هذه الصيحات الإصلاحية التى بدأت ضعيفة متخاذلة ، أخذت تقوى وتشتد رويدا رويدا حتى أصبح صوتها الآن مدويا فى الخافقين .

واليوم وقد زال خطر هذه الأمية ، ونبغ عندنا ألوف وألوف من رجال العلم والقلم ، وصدرت ألوف من المؤلفات تنشر أصول الإسلام الصحيحة ، وتدلل على أن هذه الأصول أحكم وأكمل ما تأخذ به الأمم لبناء وجودها ، وفى العالم الإسلامى اليوم مئات من المجلات تبين ماهية الإسلام ، وتبرهن بالدلائل المحسوسة على أن تعاليمه تبز فى مراميها الأدبية والاجتماعية والعلمية جميع التعاليم الموجهة الى الأمم عامتها وخاصتها ، لتأخذ فى أسباب بناء مدنية فاضلة تناسب مواهب الإنسان وغاياته البعيدة ، وتنتشر فى جميع البلاد التى يسكنها أبناء هذا الدين جرائد ومجلات تردد هذه الدعوة . وتنقل عن فلاسفة الأوروبيين وعلمائهم ، إعجابهم بالدين الإسلامى وشهاداتهم له بأنه الدين الوحيد الذى يأخذ بيد الإنسانية إلى الغايات القصية ، والمثل العليا البعيدة ؛ قلنا اليوم وقد بلغ العلم بماهية الإسلام الى هذا الحد من الذيوع والانتشار ، هل يخطر على بال أحد أبنائه أن يكتب ما كتبه الأستاذ خالد فى كتابه وهو قوله :

« انه على مر الزمن لا بد من ظهور طبقة فى المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتهن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق إلى الموت والظلام فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذى يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين .... عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه .. » انتهى .

فهل يعقل ان يبلغ العالم بأجمعه صيت الاسلام فى الحكمة ، وفى اسلوبه الفذ فى إحياء الامم والشعوب ، وترقيتها أدبيا وماديا ، وفى ايتائها خلافة الله فى الارض ، ولا يصل خبره الى طبقتنا المثقفة فيصبوا جام غضبهم عليه ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ؟ لا أظن ذلك ... !

محمد فريد وجدى

المنتفعون بهدى القرآن

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدنى

كتبت فى العدد الماضى من مجلة الأزهر الغراء بعض ما أسعف به الخاطر فيما يدل عليه مثل قوله تعالى فى وصف القرآن الكريم « هدى للمتقين » « وذكرى للمؤمنين » « وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » إلى غير ذلك من الآيات التى تشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار ، إلى أنه لا يكفى فى سيادة الحق وتقبله من الداعين إليه أنه حق ثابت تبدو معالمه ، ويعرف بسيماه ، ولكن يجب أن يكون المدعوون إليه ذوى قلوب حية ، ونفوس غير ملتوية ، حتى يكونوا مستعدين لتلقيه ، وتقبله ، والانتفاع به .

وقد ظلت دعوة الإيمان تتردد فى أرجاء مكة ثلاثة عشر عاما ، يصدع بها رجل منهم ، عرفوه بالصدق والأمانة ، وشهدوا له بالفطانة والزكاة ، واختبروه بألوان الابتلاء ، فما تزلزل ولا تحول ، ومع ذلك لم تشرق على قلوب أهلها شمس الحقيقة ، ولم يتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المقام بينهم آمنا على نفسه ودعوته وأصحابه ، فهاجر إلى بيئة صالحة مستعدة ، هداه الله إليها ، فهدى به ، وأظهر دينه على الدين كله .

هذا المعنى الذى تناولته فى مقالى السابق يثير فى نفسى معنى طالما رددته ورويت فيه ، هو أن هذا القرآن يعطى كل ذى اختصاص فى ناحية من النواحى العقلية دليلا يناسبه على إعجازه وسموه وكونه من عند الله جل جلاله ، ومن ذلك أنه يتحدث عن النفوس البشرية فى كثير من آياته حديث الخبير بها ، العارف بدقائقها وما تنطوى عليه ، وكثيراً ما أمر ببعض هذه المواطن فيه فأقف

عندها موقف المـأخوذ بمالها من روعة وجلال ، إذ أرى فيها تحليلات نفسية قوية لا يطمع المشتغلون بالفلسفة وعلم النفس أن يصلوا إلى مداها مهما توغلوا فى البحث ، وصوبوا وصعَّدوا فى آفاق النظر .

ولنضرب لذلك مثلا من الآية التى جرَّت إلى هـذا الحديث وما اتصل بها من الآيات فى أول سورة البقرة : « ذلك الـكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » فقد قررت أولا منزلة الـكتاب الـكريم بهـذه العبارة الموجزة التى يضرب بها البلغاء المثل فى القوة ، ويتخذونها مثالا لما تفيده الإشارة والتعريف باللام من التعظيم والتفخيم والقصر ، ثم نفت عنه الريب بهذا الأسلوب المفيد للعموم حيث أتت بالنـكرة فى سياق النفى ؛ ثم أثبتت بعـد تعظيمه وتفخيمه ونفى جميع ألوان الريب والشك عنه هـــذه الحقيقة التى كانت موضع بحثنا فى المقال السابق ، ثم جاءت بعد هذا الإجمال بالصفات التى تنطوى عليها كلمة « المتقين » فقالت « الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ومما رزقناهم ينفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالآخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » .

أفادتنا هذه الآيات فى وصف المتقين خمس صفات :

الوصف الأول : الإيمان بالغيب ، والناس فى هـذه الناحية ليسوا سواء ، فمنهم من قر فى نفسه أن الحياة هى ما يراه ويشاهده ويعرض كل حين من المحسات والمبصرات ، فتراه لا يؤمن إلا بما يحسه أو يصل إليه عن طريق من طرق العلم المادى ، ومنهم من يعلم أنه وما يبصر وما يفعل ذرة من ذرات هذا الـكون العظيم الذى غاب عنه أكثره ، وأن وراء هذا الـكون ما لا يعلم إلا الله ، فهو يقف عند حده ولا يغتر بما يعلمه ، ولا يتأبى على الاقرار بضعفه وعجزه وقصوره وحاجته إلى اللجوء إلى القوة القاهرة الخفية التى تسيطر عليه وعلى كل ما فى العالم ، والتى تجرى فى أحكامها وتصاريفها على سنن يَعلم بعضها ويجهل أكثرها .

فأما الصنف الأول ، فإنه بمنأى عن هداية القرآن ، لا ينتفع بها ، ولا تعمل فيه ، لأن هداية القرآن تستلزم الإيمان برب القرآن ، وبأنه أوحى إلى عبده ما أوحى ، وبأن هذا الوحى كان صلة خاصة بين ملك سماوى وبشر أرضى

بإذن الله ، وعلى سنة منه ، وكل هذا غيب ، وهو لا يؤمن بالغيب ، وأما الصنف الثانى فهو إنسان الفطرة الذى يرى نفسه فى كل حال موضعاً لتأثيرات خارجة عنه ، فلا هى من نفسه ، ولا هى من بنى جنسه ، تأثيرات خفية تخيفه أحياناً ، وترجيه أحياناً ، وتضعفه أحياناً ، وتقويه أحياناً ، ويرى نفسه يأخذ بكل ما يقع عليه فكره من أسباب فى ناحية من النواحى ، ومع ذلك لا يصل إلى الغاية التى تطلّع إليها وابتغاها ، إما لأن أسباباً أخرى غابت عنه ، وإما لأن مانعاً منع وليس فى حسابه ، فهو إذن قاصر ، ووسائله قاصرة ، وعلمه محدود ، وقدرته محدودة ، وهو لهذا مؤمن بالغيب ، واثق بأن قوة وراء القوى الظاهرة لا بد أن تكون ، ولا بد أن يؤمن بها ، وذلك هو مبدأ الإيمان بالغيب ، وذلك هو أول شروط الانتفاع بالقرآن ، والنزول على حكم القرآن .

الوصف الثانى : إقامة الصلاة ، والإيمان بالغيب لا يستلزم إقامة الصلاة ، فإن الأول علم ، والثانى عمل ، وكثيراً ما نجد مؤمنين بالله معترفين بالغيب لا يقيمون الصلاة ، وإقامة الصلاة شرط من شروط الانتفاع بهَدْى القرآن ، ذلك أن طبيعة الإنسان هى النسيان والصلاة تذكير ، فالمداومة عليها من شأنها أن تقطع الجفوة ، وتفتح القلب فى الحين بعد الحين إلى وافدات الهداية ، وخواطر العرفان عن الله كما يقول المتصوفة ، وقد جربنا أن المرء إذا واظب على الاتصال بكبير ذى منزلة فى نفسه ، وهيبة فى قلبه ، فهم عنه ، وعرف إشاراته ومراميه ، وكان على بينة من روحه ، وما له من توجهات أو توجيهات ، وأن على العكس من ذلك المنقطع عنه ، البعيد عن مجلسه ، الذى لا يناجيه ولا يلاقيه ، فالعبد المواظب على حضرة مولاه ، الحريص على الوقوف بين يديه كل يوم خمس مرات مقيما لصلاته ، مؤدياً لها على وجهها ، كما يفهم من التعبير بمادة « الإقامة » لا بد أن يكسب من هذه الإقامة ، وتلك المواظبة على الحضرة ، روحاً يجعله أهلا لأن يفهم وينتفع ويهتدى .

الوصف الثالث : الإنفاق من الرزق ، وهو لازم لسماحة النفس وما تنطوى عليه من الجود ومحبة البذل .

إن البخل والكزازة والحرص على المال والضن به عن مواضعه أمارة على فساد الطبع ، وضعف الإيمان ، فأما كون ذلك أمارة على فساد الطبع ؛ فلأن المال وسيلة لا غاية ، فإذا انقلب غاية ، وصار جمعه والاحتفاظ به مقصوداً لذاته ، فقد خرج صاحبه بذلك على الفطرة ، وجانب الوضع السليم ، وأما كونه أمارة على ضعف الإيمان ؛ فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يكون بما فى يد الله أوثق منه بما فى يده ، وليس كذلك البخيل .

وكثيراً ما ترى أناساً يصلون ويصومون ويقومون حتى إذا امتحنوا ولو بالقليل فى أموالهم ، ليسدوا معروفاً ، أو يؤدوا حقاً ؛ رأيتهم ينفضون رءوسهم ، وينظرون إلى من يدعوهم إلى ذلك نظر المغشى عليه من الموت .

فهؤلاء لست أقول قد خرج الإيمان من قلوبهم فإنهم لمؤمنون ، وقد يبخل المؤمن ، ولكن أحداً منهم لن يكون مرآة صافية ينعكس عليها نور القرآن ولن يتفتح قلبه لتلقى هدايته كما تتفتح قلوب ذوى السماحة والصفاء ومن هانت عليهم الدنيا .

الوصف الرابع : الإيمان بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، ولا يصل إلى ذلك إلا من خلا قلبه من التعصب والتحيز ، فإن الذى يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعض كالذى يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والدين عند الله واحد هو الإسلام ، فإما أن يؤمن المرء بالجميع وإما أن يكون كافراً ، وفى هذا بلاغ للذين يزعمون أنهم يجدون فى القرآن أو فى الكتب السماوية بعض أحكام صالحة للعصر ، موافقة للحضارة والرقى ، وبعض أحكام يزعمونها رجعية عتيقة كالحدود أو تحريم الربا أو ما إلى ذلك مما فتنوا فى شأنه بما عندهم ، وهم عن أسراره غافلون ، فمثل هؤلاء لا تتجلى لهم هداية القرآن ، ولا ينتفعون بها ، لأنهم يحكمون فيها ما عندهم ، ولا يحكمونها هى فيما عندهم ، فهم بما عندهم مؤمنون ، وبما جاءهم من الله كافرون ، فكيف يرجى لهم النفع ، وينتظر منهم الاهتداء ؟ « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون » .

الوصف الخامس : الإيمان بالآخرة ، وهذه العقيدة هي أجدى شيء على الإنسان من حيث تصفيته وتهيئته للانتفاع بهدى القرآن ، فإن المؤمن بأن وراء هذه الدار داراً يحاسب فيها كل امرىء على ما قدمت يداه « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » تكون نفسه دائماً مستعدة لتقبل هداية القرآن ، التي كثيرا ما تعتمد على الترغيب والترهيب ، أما الكافر بذلك فإنه يسخر مما يسمع ، ويعتقد أنه غير مسئول عما يفعل ، ويقول : « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » فيحمله ذلك على أن يركب رأسه ، ويتمادى في غلوائه ، ويعرض عن كل نصح ، ويخرج على كل هدى ، ولذلك يصفهم الله تعالى بمثل قوله : « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » .

أما بعد . فهذا مثال من حديث القرآن عن النفوس ، ووصفه للطبائع البشرية ، ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله ؟

بين رؤبة وأبي مسلم

قال الأصمعي : حدثني رؤبة قال : دخلت على أبي موسى صاحب الدعوة للعباسيين ، فلما أبصرني نادى يارؤبة ، فأجبته :

لبيك إذا دعوتني لبيكا أحمد ربا ساقني إليكا
الحمد والنعمة في يديكا

قال : بل في يدي الله تعالى ، ثم قلت : يأذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد ؟

قال : نعم ، فأنشدته :

مازال يأتي الملك في أقطاره وعن يمينه وعن يساره
مستعراً لا يصطلي بناره حتى أقر الملك في قراره

فقال : يارؤبة إنك أتيتنا وقد شف المال ، واستنفده الإنفاق ، وقد أمرنا لك بجائزة ، وهي تافهة يسيرة ، ومنك العود وعلينا المعول .

من ذخائر السنة

القرآن كتاب جامع شامل

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى ياسين

أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : « أُنْزِل فى هذا القرآن كلّ علم ، و بيّن فيه كلّ شيء ، ولكن علمنا يقصر عن إدراك ما بيّن لنا فى القرآن » .

* * *

مهما كتب الكاتبون ، وأجاد المنشئون ، وأبدع المؤلفون ، وأحسن الباحثون ، وأكثروا من الحديث عن القرآن ، وبيان أسراره ومقاصده ، واستنباط أحكامه وحكمه ، وإظهار مبادئه وتعاليمه ، والكشف عن فضائله ومحاسنه ، فإنهم لن يبلغوا شأو السنة فى هذا المضمار ، ولن يصلوا ماجاءت به من فرائد وآيات ، أو على الأقل لن يخرجوا عما رسمته من مناهج ، وأوضحته من معالم ، وعبّدته من طرق ، وأوحت به من توجيهات ، وأرشدت إليه من موضوعات .

أجل ، فلقد تناولت الكلام عليه من كل نواحيه ، وعالجته من جميع أطرافه ، ولم تترك دقيقة ولا جليلة إلا ألمت بها ، أو دلت عليها ، أو أشارت إليها .

ومن أول ماتحدثت به السنة عن القرآن تبيان أنه كتاب سماوى جامع ، وسفر إلهى شامل ، « وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع سراً ولا حكما إلا صرّح به ، أو رمز إليه .

نعم وإن كان هذا كله قد يكون معلوما من مثل قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شيء » ، وقوله : « ما فرطنا فى الكتاب من شيء » ،

ومن الأمر بالسؤال عما لا نعلم فى قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » إلا أن السنة قد زادت ذلك بيانا ، وأوسعته إيضاحا ، ووفته حقه من الشرح والتفسير .

ومن أجمع ما جاء فى السنة مقررا لذلك ، وناطقا به ، ما أخرجه الترمذى وغيره عن علىّ رضى الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ ، قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهُدَى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تتشعّب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا تملّه الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذا سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، مَن عَلِم عِلْمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أُجر ، ومن دعا إليه هُدِى إلى صراط مستقيم »[1] .

وما أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم » ، وذلك أن المآدب العامرة الفاخرة ، تجمع فى العادة شتى أنواع الأطعمة ، ومختلف الألوان والأصناف ، ويجد فيها الآكل ما يريد ويشتهى ، فشبّه الحديث الشريف القرآن الكريم بصنيع صنعه الله عزّ وجلّ للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ومصالح وفوائد ، ثم دعاهم إليه .

وقد ورد غير هذا كثير من الأحاديث والآثار ، وكلها تؤيد ما ذكرناه ،

---

(١) فى سند هذا الحديث الحارث بن عبد الله ، وقد قال عنه القرطبى : « رماه الشعبى بالكذب ، وليس بشىء ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما نقم عليه إفراطه فى حب على ، وتفضيله له على غيره ، ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبى ، لأن الشعبى يذهب إلى تفضيل أبى بكر » وإلى أنه أول من أسلم » ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « وأظن الشعبى عوقب لقوله فى الحارث الهمدانى : حدثنى الحارث ، وكان أحد الكذابين » .

وتشهد له ، ومن ثم كثرت عبارات العلماء فى هذا المعنى ، وتعددت أقوالهم عنه ، وإن اختلفت صيغها باختلافهم فى المشارب والمنازع ، فقد قال الشافعى : « جميع ما حكم به النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن » .

وقال غيرُه : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة رضى الله عنهم وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما ، حتى لقد قال : لو ضاع لى عقال بعير ، لوجدته فى كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه » .

وقال آخر : « ما من شىء إلا يمكن استخراجه من القرآن ، لمن فهّمه الله تعالى ، حتى إن البعض قد استنبط أن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله سبحانه فى سورة المنافقين : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ، فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن فى فقده بنفس ذلك النبى صلى الله عليه وسلم » .

فهذا كله يدل على مقدار ما يشتمل عليه القرآن الكريم من علوم وفنون ، وغايات وأهداف ، وينبىء بأن عجزنا عن الإحاطة بها ، والوقوف على تفصيلاتها ، واستخراجها من مواطنها ، إنما يرجع إلى تقصيرنا فى الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إلى معرفتها ، وإلى الفتور فى الهمم والعزائم ، والقصور فى المدارك والأفهام ، لا إلى خلوّ القرآن الكريم ، وتجرّده من تلك المعانى والأغراض .

* * *

ومما تحدثت به السنة عن القرآن أيضاً ، إخبارها بأنه مؤيد للكتب السالفة ، ومصدق لما جاء فيها ، أورد بن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى : « ومهيمنا عليه » ، قال : « القرآن أمين على كل كتاب كان قبله » .

فإن توجيه هذا الكلام أن القرآن قد تضمن تصديق جميع ما أنزل قبله ، لأن الأحكام التى فيه ، إما مقررة لما سبق ، وإما ناسخة ـ وذلك يستدعى إثبات المنسوخ ـ وإما مجددة ، وكل ذلك دال على تفضيل المجدد .

ويؤيد هذا ما جاء فى سورة المائدة من قوله تعالى « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمنا عليه » ، فقد قالوا فى بيان معنى تصديقه للكتب السابقة عليه : إنه نزل حسبما نعت فيها ، أو نزل مطابقا لها فى أصل الملة والدين ، أو مطابقا لما لم ينسخ ، كالقصص والمواعظ ، وبعض المحرمات ، كالكذب والزنا والربا ، أو نزل موافقا لجميع ما فيها ، والمخالفة فى بعض جزئيات الأحكام ليست بمخالفة فى الحقيقة ، بل هى موافقة لها من حيث إن كلا منها حق فى عصره ، متضمن للحكمة التى يدور عليها فلك التشريع ، وليس فى الكتب السابقة ما يدل على أبدية أحكامها المنسوخة ، حتى يخالفها ماينسخها ، بل إن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، وانتهاء وقتها الذى شرعت للمصلحة فيه .

وليس هذا من البداء فى شىء ، فإن المخالفة فى تلك الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف عصر وزمان ، حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتقدم ، ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم ، وإلى ذلك يشير ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال ، حين قرأ بين يديه عمر بن الخطاب رضى الله عنه شيئاً من التوراة ، : « لو كان موسى حيّاً لما وسعه إلا اتباعى » ، وجاء فى رواية الدارمى : « والذى نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتمونى لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حيّا ، وأدرك نبوتى لاتبعنى » .

وقالوا فى بيان معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب : إنه رقيب على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويبين أحكامها المنسوخة ، وقيل : إنه شاهد عليها بأنه الحق ، أو إنه حافظ لها ، ومؤتمن عليها ، كما قال سعيد ابن جبير : « القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب » .

وعلى أى حال ، فخلاصة ما قيل فى بيان هذين المعنيين : أن الذى يؤخذ منهما فى الجملة هو موافقة ما أفادته السنة فى أخبارها الكثيرة من تأييد القرآن للكتب السابقة ، وتصديقه لها ، وتقريره أو تعديله ، أو تجديده لأحكامها ، كما سلفت الإشارة إليه .

* * *

ومن حديث السنة عن القرآن كذلك ما جاء فيها شرحا لمعناه ، وتفسيراً لنصوصه ، وتأكيداً لمحكمه ، وتوضيحا لمشكله ، وبسطا لمختصره ، وتخصيصا لعامه ، وتقييداً لخاصه ، وتبيينا لما أجمل فيه من الأحكام ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم والطهارات والذبائح والأنكحة ، وما يتعلق بها من الطلاق والرجعة والظهار واللعان وغير ذلك ، وهذا كبيان مواقيت الصلاة وركوعها وسجودها ، وسائر أحكامها ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها ، ونُصب الأموال المزكاة ، وتعيين ما يزكى وما لا يزكى منها ، وكبيان انتهاء أمد الحكم الأول ، وهو النسخ ، وكالبيان بطريق الإلحاق والقياس ، والتفريع على القواعد العامة ، وبيان الحكم الزائد على الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، والحكم بالشاهد واليمين ، وغير ذلك مما لو رحنا نستوعبه ونستوفيه ، ونستعرض قضاياه ومسائله ، ونستكمل نصوصه وأمثلته ، لطال بنا القول ، وأعيانا الاستقصاء ، ومما نتركه هنا للكلام عليه فى مواضعه إن شاء الله تعالى .

وعلى الجملة ، فقد توافرت أحاديث السنة عن الكتاب ، وامتدت إلى موضوعات كثيرة غير هذا ، كنزول القرآن وكيفية إنزاله ، وأول وآخر ما نزل منه ، واللسان الذى نزل به ، والأحرف التى نزل عليها ، وجمعه وترتيبه ، وكتّابه وقرّائه ، وتعليمه وتعلمه ، وفضله على سائر الكلام ، وحفظه واستظهاره ، وتعاهده واستذكاره ، وترتيله وترجيعه ، وتحسين الصوت بتلاوته ، وخشية الله عند قراءته ، والرياء فيها ، والتأكّل بها ، وما إلى ذلك مما هو موضوع لكثير من العلوم والفنون ، ومادة لطائفة من البحوث والدراسات ، ومما سيكون محلاً لمحاولاتنا المقبلة فى الفصول الآتية بعون الله وتوفيقه ؟

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار

« احتاج محمد كتابا »

يشيع هذا الاستعمال ، ولا يرى مستعملوه ضيقا ولا حرجا ، ولا يخالج بعضهم شك فى صحته فى العربية . وهو مجانب لما درج عليه الاستعمال العربى منابذ له . فقد جرى العرب على أن يعدى ما صيغ من الحاجة بالحرف ، فيقال : احتاج محمد إلى كتاب ، وبى حاجة إلى كتاب . وفى الأساس : « لا أحوجنى الله إلى فلان . وهذه حاجتى ، أى ما أحتاج إليه وأطلبه » .

وهذا الخطأ قديم ، فقد قال[1] ابن عنين ، وهو من شعراء الدولة الأيوبية ، وقد توفى سنة ٦٣٠ :

أنظر إلى بعين مولى لم يزل   يولى الندى ، وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى : أحتاج ما يحتاجه   فاغنم ثوابى والثناء الوافى

وقوله : « ثوابى » أى الثواب من الله الذى يلحقك بإغاثتى . وفى بعض روايات الديوان :

فاغنم ثنائى والدعاء الوافى

وقوله : « تلافى » يريد تلفى ؛ ولم أقف على التلاف، فى التلف فيما رأيت من المعاجم ، وكأنما مد ابن عنين لام التلف وأشبع حركتها ، فجاء التلاف ؛ ويشفع له فى ذلك موقف الشعر ، ورغبته فى التجنيس الذى كان كغيره من البديع يصبو إليه كل شاعر وكاتب فى ذلك العصر . ولم يأت ابن عنين فى ذلك بدعا من الأمر ؛ فقد قال ابن هرمة من قبله :

وأنت من الغوائل حين ترمى   ومن ذم الرجال بمنتزاح

---

(١) أنظر ديوانه ٩٢ ، ووفيات ابن خلكان فى ترجمة الملك المعظم عيسى فى أواخر حرف العين .

يريد بمنتزج ؛ وقال الراجز القديم :

قلت ـ وقد خرت على الـكلـكال : يا ناقتى أما جلت من مجال

يريد الـكلـكل ، وهو صدر الدابة .

ولبيتى ابن عنين قصة طريفة أحببت إيرادها . فقد كان أثيراً عند الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل من ملوك الدولة الأيوبية ، وكان ملازما له ، فانقطع عنه مدة لمرضه ، وكتب إليه بهذين البيتين ، وكان الجواب على هذا أن عاده الملك المعظم ، وأعطاه صرّة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأنا العائد . قال ابن خلكان ، وقد أورد هذه القصة فى ترجمة الملك المعظم عيسى : « وهـذه لو وقعت، لأكابر النحاة ومن هـو فى ممارسته طول عمره لاستعظم ذلك منه ، لا سيما هـذا الملك » . وكان من شنشنة ابن عنين أن يدخل فى شعره الاصطلاح النحوى ويستعمل معانيـه ، وقال ابن هشام فى شرح القطر فى مبحث وجوب تأخر إنّ وأخواتها على اسمها : « وما أحسن قول ابن عنين يشكو تأخره :

كأنى من أخبـار إنّ ، ولم يجز له أحـد فى النحو أن يتقـدما

وأعود لما كنت فيه من بحث ، فأقول : إن لابن عنـين سلفاً قريباً منه هو يوسف بن محمد البلوىّ صاحب كتاب « ألف باء » وقد طبع هذا الـكتاب . وهذا البلوىّ أخذ عن السهيلىّ المتوفى سنة ٥٨١ ، وعن ابن الفـخّار ، ورحـل إلى المشرق وأخذ عن علمائه ؛ فأخذ عن الحافظ السلفى بسـكندرية ، وغزا مع صلاح الدين الأيوبى فى الشام ، وتوفى فى رمضان سـنة ٦٠٤ ، وترجم له ابن الأبار فى التـكملة . وترجمته فى النسخة المطبوعة تحت الرقم ٢٠٨٩ . وقد عنيت بإيراد تاريخ وفاته إذ خلا منه مظانّ هذا التاريخ ؛ كـكشف الظنون .

فقد تحدث عن كتابه « ألف باء » وذكر محتوياته ، ولم يعرض لتاريخ وفاته وكذلك فهرس دار الـكتب المصرية . وفى معجم المطبوعات العربية لسركيس : « قيل : توفى سنة ٥٧٦ » وتراه يأتى بهذا القول على جهة الشك والتردد ولا يذكر المراجع على عادته .

وأعود فأقول : إن البلوى قال فى « ألف باء [١] » :

خرجت من شىء إلى غيره وكله علم وقول سديد
يحتاجه القارىء والسامعو ن : الكل منهم راغب فى المزيد

وتراه يستعمل « الكل » بأل ، وفى هذا الاستعمال مجال للقول والنقد ؛ فإن « كلا » مما يلازم الإضافة إن لم يكن فى اللفظ ففى التقدير . وبعد ، فقد يذهب ذاهب الى التضمين فى هذه المادة ، وحديثى عن المنهج العربى ، وللتضمين بحث آخر .

(المستقيمون يحيون حيوات شريفة)

هكذا يستعمل العصريون جمع الحياة . وما وقفت على جمعها فى القديم . وقد تكرر ذكر الحياة فى الكتاب العزيز فى صيغة الإفراد ، ولم تجاوزه ألبتة . وذلك أنها مصدر ، وسنة العرب الغالبة تجنب جمع المصدر ؛ إذ كان كاسم الجنس يقع على القليل والكثير من الأحداث ، تقول : قام محمد ، أى حدث منه قيام ، وهذا يشمل القومة والقومتين ، وما جاوز ذلك ، كما تشاء . قال ابن جنى فى اللمع : «المصدر لا يثنى ولا يجمع ؛ من قبل أنه بلفظه يدل على قليله وكثيره ، فأشبه من هذا أسماء الأجناس ؛ كالماء والزيت . فكما لا يثنى ولا يجمع أسماء الأجناس فكذلك المصدر . فإن اختلفت أنواعه جاز تثنيته وجمعه ، بأن يكون ضرب أشد من ضرب .

على أنه قد ورد عن العرب جمع المصدر ؛ فمن ذلك قول الأعشى :

قد جربوه فما زادت تجاربهم أبا قدامة إلا المجد والفنعا

فتراه قد جمع التجربة ، ومنه قول الله تعالى : فى سورة الأحزاب : وتظنون بالله الظنونا . وقد سوغ جمع الظن تعدد متعلقاته ؛ قال أبو حيان [٢] فى البحر : « والظنون جمع لما اختلفت متعلقاته ، وإن كان لا ينقاس عند سيبويه جمع المصدر

---

(١) ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) ج ٧ ص ٢١٦ .

إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعا فى أشعارهم ؛ أنشد أبو عمرو فى كتاب الألحان :

إذا الجوزاء أردفت الثريّا ظننت بآل فاطمة الظنونا

وقد ذكر فى اللسان أن الظن يكون اسما ومصدرا ، وأن الذى جمع فى الآية الاسم . والفرق بين الاسم والمصدر فيما اتحدت صيغته عسير .

وأيّا ما كان الأمر فقد يدعو الحال إلى جمع الحياة لتعدد أنواعها ، وهناك وراء هذا ما يدعو لجمع « حياة » ، وهو أن تجعل علماء وهذا جار الآن ، يستعمل اسما للأنثى . وهذا يجوز جمعه من غير نكير من أحد من النحاة .

وقد جرى البحث فى صيغتها فى الجمع ، فهل يقال : الحيوات كما جرى به الاستعمال العصرى ؟ أو يقال الحييات بياءين ؟

إن تركيب الحياة هو « ح ى ى » أى إن العين واللام ياء . فالألف فى الحياة مبدلة من الياء ، ومقتضى هذا أن ترد إلى أصلها فى الجمع ، فيقال : الحييات ؛ كما يقال : االفتيات والحصيات . ومن هذا مسّت الحاجة إلى النظر فى الصيغة العصرية : « الحيوات » .

وأقدم بين يدى البحث فى هذا الأمر أن العرب قالت : « الحيوان » فى الحياة وذى الحياة ؛ فيرى الخليل وسيبويه أن الواو بدل من الياء استكراها لتوالى الياءين ؛ ويقول سيبويه فى الكتاب [1] : « وأما قولهم حيوان فإنهم كرهوا أن تكون الياء الأولى ساكنة ، ولم يكونوا ليلزموها الحركة ههنا والأخرى غير معتلة من موضعها ، فأبدلوا الواو ليختلف الحرفان ؛ كما أبدلوها فى رحوى حيث كرهوا الياءات ، فصارت الأولى على الأصل » يريد سيبويه أن « الحيوان » لو سكنت الياء الأولى لنطق بالحرفين على الإدغام : « حيان » ، وكان ذلك عذباً فى النطق ، مستساغا ، ولكن لا يدين لنا بهذا التسكين ؛ فإن الحيوان مصدر قصد به الدلالة على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والخفقان ، وقصد أن تظهر الحركة

---

(١) ج ٢ ص ٣٩٤ .

فى اللفظ ، ولما لم يكن سبيل إلى الإدغام كان النطق بالياءين متحركين فيه استثقال ما ، فتجنب العرب هذا بقلب الياء الثانية وأوا فراراً من توالى مثلين ، كما قيل رحوى وأصله رحيي ، ولما جرى الإبدال فى الثانية بقيت الأولى على الأصل . وهذا تعليل من سيبويه للشذوذ الذى وقع من العرب فى هذه الكلمة . ولم تطب نفس المازنى بهذا الشذوذ والتكلف له ، فهو يرى أن الحيوان ليس من تركيب «ح ى ى» بل هو من تركيب «ح ى و» ، قالوا وفى الحيوان أصيلة غير مبدلة . وقد رد عليه مذهبه بأن التركيب «ح ى و» لم يأت منه فـعَـلٌ ، فيقول فى رد هذا : كم من لفظ لم يرد له فعل ؛ ألا ترى أنهم يقولون : فاظ الميت ، يفيظ ، فيظاً ، وقالوا أيضاً : فوظا ، ولم يرد فعل لهذا الأخير ، فلم يقولوا : فاظ ، يفوظ .

وأقول بعد هـذا : إن الاختلاف فى «الحيوان» لم نعهده فى «الحياة» ، فـكأنهم مجمعون على أن لامه ياء . وإذا دعا الأمر إلى تحريك هـذه الألف فى «الحياة» فهل لنـا أن نأتى بالواو فرارا من توالى المثلين كما قيل فى الحيوان ، فيقال : الحيوات .

هذا ، وقد علمت أن إبدال الياء واوا فى الحيوان عند الخليل وسيبويه شاذّ لا ينقاس . ولقائل أن يقول : إن الشذوذ يُؤنس بالشذوذ ، فالشذوذ فى الحيوان يقرب الشذوذ فى الحيوات . والناظر فى اللسان تعترضه هذه العبارة : «الحياة : نقيض الموت ؛ كتبت فى المصحف بالواو ، ليعلم أن الواو بعد الياء فى حدّ الجمع» فماذا يفهم القارىء من هذا الـكلام ؟ أليس يحق له أن يفهم أن الحياة إذا جمعت كانت الواو فيها بعد الياء أى يقال فيها الحيوات ، وأن اللغويين لم يضعوا هـذا إلا بعد أن وقفوا فى كلام العرب على هذا الجمع للحياة .

ونرى فى اللسان أيضا النص الآتى : «وحكى ابن جنى عن قطرب أن أهل اليمن يقولون : الحيَـوة ، بواو قبلها فتحة» ، أنـكون مخطئين وجه الحقّ إذا أخـذنا من هـذا أن لام الحياة واو عند هؤلاء اليمانيين ، وإذا فالجمع عندهمُ «حيَـوات» ألبتّة .

وهذا يصحح الحيوات فى الاستعمال العصرى .

وورد فى شعر مالك بن الحارث الهذلى قوله :[1]

إذا خلّفت باطنتى سَرار وبطن هضاض حيث غدا صباح
تركت صديقنا ، وبلغت أرضاً بها عذر لنفسى أو نجاح
فلا ينجو نجائى ثم حى من الحيوات ، ليس له جناح

فترى فيه الحيوات ، وظاهر أمرها أنها جمع الحياة ، وكأن الكلام على حذف المضاف ، أى من ذوى الحيوات ، والنجاء : الإسراع فى السير والعدو ، يريد أنه لا يبلغ مبلغه فى العدو حى من ذوى الحياة ليس له جناح ، يستثنى بذلك الطائر ذا الجناح ، فهو لا يزعم أنه يسبقه . ولكن السكرى فى شرحه يقول : « من الحيوات والحيوان ، أى لا ينجو نجائى حى فيه الروح ليس له جناح ، أى ليس يطير . ومن الأحياء : أى لا يعدو عدوى شىء فيه روح يومئذ .

والحيوات : جمع الحية أى ليسوا بأموات ، فهو يرى أن الحيوات جمع حية وكأنه يريد نفساً حية . فيشمل المذكر . على أن هذا الجمع لم يأت على لفظ واحده ، ولو أتى على لفظه لقيل : حيِّيات . ولا أرى حرجا فى حمل « الحيوات » فى البيت على أن يكون جمعاً للحياة على ما أسلفت . وعلى هذا يصح لنا الحيوات .

ومما يؤنس لهذا ما جاء فى القاموس أن جمع الحية للثعبان : حيات وحيوات فتراهم قلبوا ياء حية الثانية فى الجمع واواً حين أرادوا تحريك الياءين ، وهذا يرشدنا إلى أن العرب ترفض فى هذه المادة اجتماع الياءين متحركين .

ويخرج القارىء من هذا ، وكأنى به قد اقتنع بصحة الجمع : « الحيوات »

---

(١) أنظر شرح أشعار الهذليين المطبوع فى أوربة فى أول الجزء الأول .

العلاقة بين الإسلام والنصرانية

للأستاذ سالم أحمد الرشيدى
أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعوه بابا روما إلى اعتناق النصرانية]

— ٢ —

لم تخف على السلطان الفاتح هذه الحركات والمؤامرات وما يدبره أعداؤه فى الشرق والغرب للقضاء عليه وعلى دولته ، وأدرك ضرورة الإسراع فى العمل قبل أن يطبق عليه أعداؤه من هنا وهناك ، فما أن انتهى من فتح بلاد المورة حتى أعد فى ربيع سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) جيشاً جديداً فى القسطنطينية وجيشاً آخر فى بروسه وأسطولا قوياً يتألف من نحو مئتى سفينة ، وزحف لتوه إلى « أماحره » وأطبق عليها من البر والبحر ، وأخذت هذه المدينة على غرة فلم تجد مناصاً من الاستسلام لم تغن عنها قلاعها وعددها شيئاً ، وواصل الفاتح سيره بعد ذلك إلى سينوب ، ولم يحاول أميرها اسماعيل اسفنديا مدافعة العثمانيين ومقاتلتهم ، فقد استيقظ فى نفسه ضميره الإسلامى وكبر عليه أن يمالىء الاجانب على سلطان مسلم لا ينى عن الغزو والجهاد فى سبيل الله ، فآثر الاستسلام للفاتح وسلم له بلاده بغير قتال ، وأسرع السلطان الفاتح إلى ديار بكر وأخذ أميرها أوزون حسن على غرة ، فاستحوذ عليه الفزع والذعر ورأى أن لا قبل له بمفرده بمقاتلة السلطان الفاتح ، فبعث إليه أمه ساره خاتون مع بعض كبار رجال دولته يطلب الصلح ، وقبل الفاتح ما عرضه أوزون حسن على أن يكف عن مناصرة أنبراطور طرابزون ، وعن الاغارة على الحدود العثمانية . ولم يسع الانبراطور

داوود بعد أن قضى على حلفائه الأقربين إلا أن يستسلم صاغراً للسلطان الفاتح الذى نفاه وأهله إلى أدرنه .

وهكذا قضى السلطان الفاتح بما أظهر من نفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة ، على تلك المحالفة الكبرى التى دبرت للقضاء عليه وعلى دولته ، وقد كانت هذه المحالفة معقد آمال واسعة عريضة للمشتركين فيها لاسيما انبراطور طرابزون واوزون حسن والبابا . أما انبراطور طرابزون رأس هذه المؤامرة فقد كان يؤمل أن يبنى على انقاض الدولة العثمانية دولة بوزنطية عظيمة كتلك التى كانت فى عهد جستنيان ؛ واوزون حسن ذلك الأمير التركمانى الطموح كان يستهدف ـ بعد القضاء على الدولة العثمانية ـ أن يقيم مكانها انبراطورية إسلامية كبرى فى الشرق تدخل فى حدودها مصر والجزيرة العربية وينفرد هو بزعامتها ، أما البابا فقد كان يرمى إلى القضاء على هذه الدولة الاسلامية الفتية التى وصلت فتوحاتها إلى شواطىء بحر الادرياتيك وأصبحت تتحفز للوثوب على إيطاليا نفسها ويوطد أقدام الكاثوليكية فى هذه البلاد الشاسعة .

هـذه هى الآمال ، أو بعض الآمال التى كانت تخالج رؤوس بعض هؤلاء المتآمرين فأين هم الآن مما قدروا وأملوا ؟

أما الإنبرطور داود فقد سيق أسيرا إلى أدرنه ليعيش فيها مع أهله وذوى قرباه ، وأن كانت نفسه لا تزال تجيش ببعض الآمال وترقب الفرصة المواتية .

أما أوزون حسن فقد أكره على قبول ذلك الصلح إكراها وقبله على مضض ومرارة وأن تظاهر بعكس ذلك ، ولم يلبث بعد ذلك أن اشترك فى حلف نصرانى جديد ضد الدولة العثمانية .

أما البابوية فقد كان لها موقف آخر بعد هذه الهزيمة . وكان على كرسى البابوية حينذاك البابا « باى » الثانى ، وكان إلى جانب حماسه الدينى الشديد رجلا واسع المعرفة والاطلاع ، واسع الخبرة والتجربة ، قد جاب كثيراً من بلدان أوربا قبل توليه البابوية ، وشغل كثيراً من المناصب المدنية والدينية ، وقد آلمه فشل الحملات

الصليبية العديدة التى شنتها البابوية على الدولة العثمانية ، وآلمه تخاذل ملوك النصارى فى كثير من الأحيان واشتغالهم بمصالحهم الخاصة ، ثم بدا له ، رأى فريد لم يخطر ببال أحد من البابوات قبله :

لقد سمع « باى » الثانى كثيراً عن تسامح السلطان محمد بن الفاتح فى الدين فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، وسمع كثيراً عن مجالسه مع بطريرك القسطنطينية ومناظراته معه فى شؤون النصرانية ، فلم لا يحاول البابا أن يطرق قلب هذا السلطان وَيدعوه بالحسنى إلى اعتناق النصرانية ويرضى فى نفس الوقت طموحه إلى المجد والملك بعد أن فشلت جميع وسائل العنف والحرب لقهره ويكسب بتنصره — وهو ما كان يتوقعه البابا — قوة عظيمة ، بل أعظم قوة فى العالم كانت فى ذلك الوقت ؟

ونفذ البابا «باى» الثانى رأيه فبعث إلى السلطان محمد الفاتح فى سنة ١٤٦٣ م . كتابا طويلا يدعوه به إلى اعتناق النصرانية قال له فيه : « إذا أردت أن تبسط سيادتك وسلطانك بين النصارى وتضفى على اسمك المجد فإن ذلك فى وسعك دون ماحاجة إلى مال ولاسلاح ولا جند ولا أسطول ، بل إن شيئاً هيناً جداً يستطيع أن يجعل منك أعظم رجل بين العالمين وأشدهم قوة وأوسعهم صيتاً وشهرة .

« ستسألنى ما هذا الشيء ؟ إنه لا صعوبة فى وجدانه ولا حاجة إلى الذهاب بعيداً للبحث عنه ، إنه فى متناول كل الناس ، إنه قليل من الماء تعمد به ، فيجعلك نصرانيا خادما للإنجيل . فإن فعلت ذلك فلن يكون على وجه الأرض أمير يستطيع أن يفوقك فى المجد ولا أن يضارعك فى القوة . إننا سننصبك إنبراطوراً للروم وللشرق وسيصبح ما فتحته من البلاد بالقوة وتمتلكها الآن ظلما وعدوانا — سيصبح حينئذ حقا وملكا شرعيا لك ، وسيجلك جميع النصارى ويختارونك حكما لهم فيما يشجر بينهم من خلاف ، ويقصد إليك جميع المظلومين كما يقصدون إلى حاميهم المشترك » .

ولا ندرى هل أجاب السلطان الفاتح على رسالة البابا هذه ، أو بماذا أجاب ؟ والأمر الذى لا شك فيه أنه مضى فى طريقه يجاهد فى سبيل الله وإعلاء كلمة

الإسلام . ولم يجد البابا «باى» الثانى بعد فشل محاولته بدا من أن يعود إلى الطريقة الأولى ، التى درجت عليها البابوية من قبل ، وهى طريقة الحملات الصليبية .

وكانت الحرب قد اندلعت نيرانها حينذاك بين جمهورية البندقية والدولة العثمانية ، فوجد كل من البابا والبندقية فى الآخر الحليف الطبيعى فى كفاح العدو المشترك . وجدّ البابا فى إعداد حملة صليبية جديدة إلى الشرق ، وقد أرادها هذه المرة أن تكون حملة فريدة فى تاريخ الحملات الصليبية فى القوة والروعة والمهابة ، تتحدث عنها الأجيال القادمة إلى آخر الزمن ، فكتب إلى رئيس جمهورية البندقية ، ودوق بورغنديا ، يعلمهما أنه سيخرج بنفسه فى هذه الحملة وطلب إليهما أن يخرجا معه ، لأن وجودهم على رأس الجيش الصليبى سيكسبه روعة وفخامة ، ويلقى فى نفوس المسلمين الروع والرهبة ، ثم اجتمع بالكرادلة وخطبهم خطبة حماسية ، طلب إليهم فيها أن يصحبوه فى الحملة القادمة ، فإن ذلك وحده هو الكفيل بأن يحمل ملوك أوربا على الخروج والاشتراك فيها ، إذ سيخجلون من التخلف والقبوع فى ديارهم حينما يرون البابا - وقد هدّته الشيخوخة - وكرادلته الموقرين ، قد خرجوا بأنفسهم إلى القتال .

وفى ٢٢ اكتوبر سنة ١٤٦٣ أذاع الباب «باى» الثانى منشوراً حماسياً بليغاً على جميع النصارى دعاهم فيه إلى الحرب المقدسة ضد الأتراك العثمانيين وأعلن إن احتشاد الجيوش سيكون فى انكون[1] Ancone وأنذر بأن صواعق الكنيسة ستنزل على المتخاذلين والذين يعكرون صفو السلام فى الداخل بمحاربة بعضهم بعضا . ولكى يجمع البابا أ كبر قدر ممكن من المال أمر ببيع صكوك الغفران فى جميع أرجاء القارة الأوربية ، وجعل لكل ذنب ثمناً محدداً . والصك الكامل لغفران جميع الذنوب كان ثمنه عشرين الف فلورن ، ثم كتب مرة أخرى إلى رئيس البندقية يؤكد له عزمه على الخروج إلى الحرب الصليبية يصحبه الكرادلة والجنود المغاوير الأشداء ، وسينفق فى ذلك كل مايملك من مال وثروة وسيرافقه فى هذه الحملة دوق بورغنديا مع جنوده البواسل الذين يناط بهم النصر ،

---

(١) مدينة فى منتصف ايطاليا على ساحل بحر الادرياتيك .

بيد أن هذا النصر سيكون أبهى وأتم إذا خرج رئيس البندقية بنفسه مع الجيش النصرانى، فان ما للأمراء والملوك من الجلالة والمجد والنفوذ تأثيراً كبيراً فى نفوس الجند، كما ان الأسماء الضخمة العظيمة ستلقى الرعب والفزع فى نفس العدو الذى سيستخذى ويتطامن أمام شخص دوق بورغنديا ومهابة الكرسى الرسولى فكيف إذا ظهر معهما رئيس البندقية على سفينته الفخمة « بوسنتور » وهو فى ثيابه الفاخرة ؟ ان آسيا كلها بل الشرق كله سيرتعد خوفا ورعبا .

وفى ١١ يونيو ١٤٦٤ م أدى البابا « باى » الثانى آخر صلواته فى كنيسة الرسل بروما ثم بدأ سيره إلى انكون ليبحر منها إلى الشرق . وهذه أول مرة فى تاريخ البابوية والنصرانية، وآخر مرة أيضاً، يخرج فيها البابا من روما ليتولى قيادة حملة صليبية بنفسه . وقد انتابت البابا عند بدء سفره من روما حمى خفيفة ولكنه لم يحفل بها وطلب إلى أطبائه أن لا يذكروا عن ذلك لأحد شيئا .

بيد أن هذه الحملة الصليبية برغم ما أحيطت به من الأسماء اللامعة وما أعد لها من الاستعدادات الضخمة لم تؤت الثمرة التى كان يتوقعها البابا « باى » الثانى فقد تفشت روح الفوضى والتقاعس بين صفوف الصليبيين، وما لبث أن تشتتت جموعهم وانتهى أمرهم بمأساة فاجعة أليمة، واغتم البابا لذلك غما شديداً، وثارت به العلل والاسقام ورزحت تحت وطأتها القاتلة شيخوخته الذابلة، وأحس الوهن يسرى فى جسمه، وشعر بدنو أجله، فدعا إليه جميع الكرادلة لتوديعهم وطلب منهم أن يصلوا لأجله . ومات البابا « باى » الثانى بين أيديهم فى ١٤ أغسطس ١٤٦٤ .

على أن أثر هذه الحملة لم يقف عند هذا الفشل وهذه المأساة المحزنة، فانها فوق ذلك قد أشاعت فى نفوس النصارى نوعا من القنوط واليأس فى نجاح أعداد أية حملة صليبية أخرى ضد العثمانيين .

ولم يفت البابا « باى » الثانى قبيل موته ، بعد أن تحقق من فشل الحملة التى أعدها أن يعود إلى محاولته الأولى فوجه نداء آخر إلى السلطان محمد الفاتح دعاه فيه إلى التنصر .

وكان ذلك آخر عمل قام به البابا « باى » الثانى فى سبيل النصرانية .

الحج

المؤتمر الاسلامى الأكبر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

هذا الحج الذى تكلمنا عنه فى العدد الماضى من الناحية الفلسفية ، وبيّنا أنه المؤتمر الذى يجب أن يشهده المسلم مرة واحدة على الأقل فى عمره ، ليتذاكر فيه المسلمون أمورهم العامة ، ويعالجوا بعض ما يحسون به من مشاكل — نقول : هذا الحج بالوضع الحاضر للبلاد الإسلامية ، أيصلح حقا أن يكون مؤتمرا عاما للمسلمين ينعقد كل عام فى البلاد المقدسة ؟ وهنا أجدنى ، بعد أن رأيت هناك ما رأيت وتحققت ما تحققت ، مضطرا للقول بأنه لا يمكن أن يكون المؤتمر المطلوب .

إن لكل بلد من بلاد الأمة الإسلامية مشاكله الخاصة التى قد لا يستطيع حلها وحده لو ترك لنفسه ، فهو فى حاجة - لهذا - للاستعانة بغيره من البلاد الإسلامية ؛ وإن للعالم الإسلامى كله مشاكله العامة التى لا يكفى فى حلها ، كلها أو بعضها ، الأساليب التى يتبعها الرجال الرسميون فى الحكومات أو الجامعة العربية . لهذا وذاك ، لابد من مؤتمر عام يعمل لعلاج هذه المشاكل على نحو آخر غير ما عرفنا حتى اليوم ، ويشارك فيه ضرب آخر من رجالات الإسلام .

إلا أن ذلك يتطلب منا :

١ — أن تنتشر اللغة العربية وتعم جميع العالم الإسلامى .

٢ — أن ينشأ مكتب دائم لهذا المؤتمر فى مكة والمدينة .

٣ — أن تتوفر ، لدى من يقوم على هذا المكتب ، النية الطيبة والإرادة الحازمة لعلاج هذه المشاكل .

١ — إنه من الواضح والبديهى وجوب تعميم اللغة العربية ، حتى تكون اللغة الأولى لكل مسلم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق . وبدون هذا لا يمكن التفاهم بين المسلمين والتشاور فى كل ما ينوبهم من أمور ومشاكل تستحق النظر والعلاج من المسلمين جميعا . وقد كان مؤلما لى أشد الألم أن أرى بجوارى بالحرم المقدس الأخ المسلم من تركيا أو إيران أو الهند أو الأفغان مثلا ، وأن يحس كلانا العاطفة الطيبة لأخيه والحاجة للتحدث معه ، ثم لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، لجهله العربية .

وهناك فى أمثال هذه المناسبات ، تذكر مع الأسف المؤلم والحزن العميق أن الأستاذ الشيخ محمد حسن الأعظمى الباكستانى لم ينجح فيما حاوله وبذل فيه كثيراً من جهده ونشاطه الكبيرين ؛ أعنى الاستعانة بمصر لتعليم العربية ونشرها بالباكستان ، الدولة التى كان ميلادها أعظم فرح أحسَّ به العالم الإسلامى فى هذه السنوات . لقد اجتمعت لهذا المهم الجليل لجنة عامة كبيرة بدار المجمع اللغوى بالقاهرة ، وكنت أحد الأعضاء الذين دعوا لهذا الاجتماع الذى ضم كثيراً من رجالات مصر المعنيين بالشئون الاسلامية العامة ، وكان فى مقدمتهم الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، وكنت أنتظر الخير الكثير من هذه اللجنة ، ولكن ــ وما أمرَّ لكن ــ كان هذا الاجتماع الأول والأخير !

وفى مكة التقيت بأحد رجالات سوريا ، هو الوزير المفوض بالباكستان ، وهو يكاد يحترق لما يحسه من تخاذل المسلمين العرب وعدم عنايتهم بتعليم العربية ونشرها بالباكستان . لقد ذكر لى أن الباكستانيين يقولون فى مؤتمر عقد فى كراتشى هذا العام : لقد سئمنا من مد يدنا سنوات طويلة للمسلمين بشأن نشر اللغة العربية عندنا ، وآن لنا الآن أن نستجيب للجهة الأخرى التى تحاول بكل ما لها من قوة أن تجعلنا نتجه للاقتصار على الأوردية أو الانجليزية !

إذاً ، على الجامعة العربية ، على الحكومات الإسلامية ، على العرب المسلمين

على هؤلاء جميعاً واجب مفروض ، هو نشر اللغة العربية فى البلاد الاسلامية بكل وسيلة ، وأن يكون ذلك عاجلا ، وإلا كان من المستحيل أن يتفاهم المسلمون فى أمورهم ، وأن يكون الحج مؤتمراً عاما لهم يعالج شئونهم ومشاكلهم العامة .

٢ — ثم يجب أن يحدد كل عام المشاكل المهمة أو العاجلة التى تتطلب الحل ، وأن يقوم كل قادر من رجالات الاسلام بنصيبه فى علاجها ووضع حلول لها ؛ وهذا يستلزم طبعاً أن يكون للمؤتمر مكتب دائم بمكة والمدينة ، وبخاصة بالأولى ، لطول إقامة المسلمين بها ، ولأن من المسلمين من يرى أحيانا أن يقتصر على الحج لهذا السبب أو ذاك .

ولعل من أول هذه المشاكل استحقاقا للبحث والعلاج ، إن أمكن أن يقوم هذا المؤتمر ، مشكلة كيف يتم الحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة الحرم النبوى الشريف بالمدينة المنورة بأقل ما يمكن من المتاعب والمشاق والتكاليف المالية ؛ فقد والله عانينا من كل هذا هناك ما جعل البعض منا يفتون بأن الحج أصبح غير واجب فى هذه الأيام وفى هذه الظروف على كثير جداً من المسلمين . هذه المشكلة التى تتطلب البحث العميق والحل السريع ، تتناول كل مايتصل بالحج من جميع النواحى : وسائل السفر ؛ ورسم الإذن بدخول الحجاز لأداء هذه الفريضة المقدسة ، هذا الرسم الفاحش غير المعقول الذى فرض على الحجاج أداؤه ؛ أماكن الإقامة بمكة والمدينة ؛ وسائل الانتقال وبخاصة من جدة للمدينة ، هذا الطريق الذى يساهم - بما فيه من عربات لا تصلح لنقل الأناسى - فى استشهاد كثير من الحجاج والزوار ! ثم المرافق الصحية التى لا تعرف تلك البلاد لها وجودا ، أو على الأقل لا نعرف لها وجوداً على وجه يرضى - فى أدنى الدرجات - الكرامة الإنسانية .

٣ — وأخيراً ، يجب أن تتوفر لدى حكومات الإسلام ورجالات العرب والمسلمين ، الذين يقوم هذا المكتب والمؤتمر عليهم ، النية الطيبة فى الإصلاح والإرادة الصادقة لنجاح هذا المؤتمر فى معالجة مشاكل العالم الإسلامى .

بدون هذا يكون الحج فريضة تسقط عن المسلم بأدائها ، ولكن لا نكون

قد اتخذناه وسيلة لغايات من أرقى الغايات ، وأعظمها أثراً فى حياة الإسلام والمسلمين .

وقد يكون من الخير أن أشير هنا إلى أن الأزهريين أنفسهم الذين يحجون كل عام لا يجدون من القائمين على الأمر هناك ما يجب أن يجدوه من تيسير أداء رسالتهم الدينية التى يجب عليهم أداؤها فى هذه البقاع المقدسة وفى تلك المناسبة الجليلة . بل إن وسائل التعارف بينهم وبين أمثالهم ممن يعنون بالتوجيه الدينى فى موسم الحج تكاد تكون معدومة ، وفى رأيى أنه يساعد فى علاج هذه الناحية أن يكون هناك اتفاق سابق قبل موسم الحج بين هذه البعثات الدينية ، وبين الرجال الدينيين المشرفين على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، على نواحى التوجيه ، ووسائله .

هذا ، والله يقول الحق ، وهو يهدى السبيل .

عظمة

كان أهل المدينة قد ثاروا على المنصور الخليفة العباسى تحت قيادة محمد بن عبد الله بن الحسن من أهل البيت النبوى ، فقاتلهم المنصور ، وقبض على قائدهم فقتله ، ثم أحضر جعفر بن محمد بن على بن الحسين فقال : « قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربى ، وقد رأيت أن أبعث إليهم من يغور عيونهم ، ويجمر نخلهم .

فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف قدر فغفر ، فاقتد بأيهم شئت ، وقد جعلك الله من نسل الذين يعفون ويصفحون .

فقال له المنصور : « إن أحدا لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلت هممت ولم ترنى فعلت ؛ وإنك لتعلم أن قدرتى عليهم تمنعنى من الإساءة إليهم » .

تقي الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغى
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

التاريخ الإسلامى فى العلوم والفنون زاخر زاهر ، عظيم الفوائد ، جليل العوائد ، ومن أجلّ الظواهر التى نلفت إليها وننبه الباحثين عليها : تخصص بعض الأسر من المسلمين فى الاشتغال بالعلم والعناية به والنبوغ فيه ؛ تلك ظاهرة خليقة بالتسجيل والتكريم لما تدل عليه من شوق أصيل عند المسلمين إلى العلم وإقبالهم عليه وخدمتهم له ، حتى بلغوا فيه القدح المعلى والمقام الكريم ، وحسبى أن أشير هنا إلى أن علوم الدين بفروعها المختلفة من أصول وحديث وتفسير ، قد عرفت ثلاثة من أسرة واحدة ، كلهم يسمى ابن تيمية ، وهم جد وابنه وحفيده ، قد تتابعوا فى نسق ، ومضوا على سبيل واحدة من التحصيل والفضل والتبريز .

فأولهم مجد الدين بن تيمية ، وهو عبد السلام بن عبد الله ، المولود بحران سنة ٥٩٠ ﻫ ، وابنه شهاب الدين بن تيمية وهو عبدة الحليم بن عبد السلام المولود بحران سنة ٦٢٧ ﻫ ، وحفيده تقى الدين بن تيميه وهو أحمد بن عبد الحليم المولود بحران ٦٦١ ﻫ ، ويجدر بالدارسين لآثارهم المطلعين على أبحاثهم ، أن يلاحظوا ذلك كى يدركوا ما بين آرائهم من فروق ، وما لكل منهم من اتجاه . وكذلك عرف الأسلام بالأندلس مثل ذلك من تعدد العلماء من أسرة واحدة ، فنحن نعرف ابن رشد الجد وهو فقيه مالكى مقتدر مؤلف ، كثيرا ما يصادف القارىء فى كتب المالكية الإشارة إلى كتابه المسمى بمقدمات ابن رشد ، ثم جاء بعده ابن رشد الفقيه المجتهد والفيلسوف النابغة مفخرة المسلمين وأبو الفلسفة الحديثة باعتراف الأوربيين ، وهو معروف عند المؤرخين بابن رشد الحفيد تمييزا له عن جده المذكور آنفا .

ومن تتبع هذه الظاهرة الكريمة استطاع أن يحصى من أمثالها البارزة كثيرا .

ولكني معنى هنا بأن أتحدث عن أسرة السبكيين المصرية الأزهرية فإني أرى لهم من الفضل مايستوجب نشر ذكرهم وتفصيل أخبارهم وسيقتضيني ذلك بضع مقالات .

أما إنهم قد دارسوا العلم وخدموا الأزهر وألفوا فى علوم الدين واللغة ، فذلك ماتشهد به مؤلفاتهم الجليلة الكثيرة التى أمضى الأزهر قرونا وهو دارس لها ، مهتم بها، يرجع إليها كل أزهرى محقق ، وكل عالم باحث فى الفنون التى ألفت فيها ، واعتبرت بحق مقياس البراعة وآية التحصيل لدارسيها . والنابغون من هذه الأسرة أربعة علماء أجلاء سأترجمهم لك تباعا مبتدئاً اليوم بأولهم تاريخا الإمام تقى الدين السبكى والآخرون أبناه وقريب له .

أما تقى الدين فهو : على بن عبد الكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى السبكى المكنى بأبى الحسن الملقب بتقى الدين الفقيه الشافعى المفسر الحافظ الأصولى النحوى اللغوى المقرىء البيانى الجدلى ، ولد سنة ٦٨٣ هجرية بسبك إحدى قرى مديرية المنوفية بالقطر المصرى، وقد أظفره بما سلف من أوصاف عديدة مجيدة سجلها مترجموه نشاطه العجيب فى الدراسة ، وطموحه إلى مختلف العلوم وشعب المعرفة ، وملازمته لشيوخ عصره ، ورحلته إلى دانى البلاد وقاصيها فى سبيل التلقى والتحصيل ، فقد تلقى علم القراءات على التقى بن الصائغ ، وأخذ التفسير عن العالم الواقى ، وتفقه على ابن الرفعة ، وحذق الأصول على العلاء الباجى ، وتثقف فى النحو على أبى حيان ، وسمع الحديث على الشرف الدمياطى ، ثم شاقه أن يضم إلى ثقافته الواسعة علم التصوف فرحل إلى الإسكندرية وتلقاه على تاج الدين بن عطاء الله السكندرى .

ومن العلماء الذين عرفهم ودارسهم ، أبو الحسن يحى بن عبد العزيز الصواف : وعبد الرحمن بن مخلوف بن جماعة ، ويحى بن محمد بن عبد السلام . ولم يزل به تحصيل العلم وابتغاؤه حتى كاتب علماء بغداد وكاتبوه وقدروا علمه ، وأجاز له منهم الرشيد بن أبى القاسم وإسماعيل بن الطبال ، وكذلك احتمل وعثاء السفر ومشقته البالغة فى تلك الأيام فى سبيل العلم والتحقق به ، فرحل إلى الشام وسمع من ابن الموازينى ، وهناك ذاعت شهرته وعلا بين العلماء قدره ، فتولى قضاء الشام وكان قاضياً عادلا عفيفا نزيهاً لا يخشى فى الله لومة لائم ، وتولى مشيخة دار الحديث الشامية البرانية ، ثم هوى فؤاده إلى بيت الله الحرام وزيارة الروضة النبوية ، على

سا كنها أفضل الصلاة والسلام، ولقى فى الحجاز الإمام ابن مشرف وسمع منه، ثم عاد إلى القاهرة وقد عرف بالتبحر فى العلوم واشتهر فى الفقه بالاستنباطات الجليلة، والدقائق اللطيفة، والقواعد المحررة التى لم يسبقه إليها أحد فأقبل عليه الدارسون والمحصلون يقتبسون من علمه ويستبصرون بتحقيقه ومن أشهرهم: الحافظ أبو الحجاج المزى وأبو عبد الله الذهبى. ولقد كان رحمه الله، على علو قدره وعظيم تمكنه، منصفاً فى البحث رجاعا إلى الحق، فلا جرم أن جمعت هذه الصفات القلوب حوله، وبثت فى القلوب حبه وحملت الناس على اتباعه وتوقيره، ولم تمنعه كثرة أسفاره واشتغاله بالتدريس لتلامذته من التأليف، بل قد بلغت مؤلفاته مبلغاً عجيباً فى كثرتها ودقتها وشمولها للمباحث التى يتناولها ويحررها.

فأصحاب التراجم يعدون من مؤلفاته نحو مائة وخمسين كتابا، منها: تفسير القرآن، وشرح المنهاج فى الفقه، ونيل العلا فى العطف بلا، وشفاء السقام فى زيارة خير الأنام رد به على ابن تيمية (ط)، والعلم المنشور فى إثبات الشهور (ط)، والاقتناص فى الفرق بين الحصر والاختصاص. ومن مؤلفاته القيمة التى لها شأن فى الأزهر جليل، ويتنافس فى دراستها أهل البراعة والتحصيل، شرح منهاج البيضاوى فى الأصول، فقد ابتدأ شيخنا تقى الدين هذا الشرح، ومضى فيه إلى قول البيضاوى رحمهما الله «الواجب إن تناول كل واحد فهو فرض عين» ثم أتم شرحه إلى آخر الكتاب ابنه العالم الجليل، تاج الدين السبكى صاحب جمع الجوامع.

والدارسون لهذين الكتابين من الأزهريين، يشهدون على علم ويقين، بما للمترجم فى علم الأصول من تمكن وإحاطة، يجعلانه فارس ميدانه، وواحد أقرانه. فكتاب جمع الجوامع ـ وإن كان من تأليف ابنه تاج الدين ـ يحتوى على أبحاث جليلة، وتحقيقات فريدة لأبيه، تجعله يشارك فى فضله ويساهم فى مجده، وسنفصل القول عن هذا الكتاب حين نترجم لمؤلفه، ونتوج هذه الترجمة بشهادة هؤلاء العلماء الأعلام للإمام السبكى بالفضل فى علمه ومقدرته ودينه وسيرته. فالسيوطى عده من المجتهدين، وقال الصلاح الصفدى: ما جاء بعد الغزالى مثله، وقال السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعسانى: هو عندى مثل سفيان الثورى.

وليس لى بعد ذلك إلا أن أقول: إنما يعرف الفضل من الناس ذووه، رحمهم الله أجمعين، ونفع بسيرتهم وآثارهم المسلمين؟

بشرية النبى

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

لما نال المسلمون من المشركين ببدر منالهم ، وانتصروا عليهم ذلك الانتصار الرائع الذى حول مجرى التاريخ ، ولفت أذن الدنيا ، وأرهف سمع الدهر ، حفز الكفار جهودهم ، وشحذوا عزائمهم ، واستنهضوا هممهم ، وجمعوا جمعهم ، للمبارزة من جديد ، فخرجوا بأحد ليقاتلوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه : فقتال المتشفى الحانق ، المتغيظ الغاضب ، راجين أن يضعوا بذلك حدا لما بينهم وبينه ، حتى لا يرتفع صوته ، ولا تدوى كلمته ، أو تسرى إلى النفوس دعوته ، وخرج معهم نساؤهم ، ليلهبن فيهم الثورة ، ويؤججن نيران الحماسة ، وكان فى النساء هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان بن حرب المسماة آكلة الكبود ، وكان فى الرجال جبير ابن مطعم ، وكلاهما موتور يتمنى أن تتاح له الفرصة التى يأخذ فيها بوتره ، ويقتص لنفسه ، وكان لجبير عبد حبشى يدعى وحشى ، ممتلىء الجسم ، مفرط الشجاعة ، موفور القوة ، يخيف بشكله وبأسه ، طلب إليه أن يخرج لقتال المسلمين ، ومناه أن يعتقه إذا هو أردى الحمزة بن عبد المطلب ، وكانت هند قبل ذلك عرضت عليه مالا كثيراً ليقتل الحمزة . ولم يكن التآمر على قتل هذا الرجل تبريدا لغلة ، وإرواء لظمأ ، وإنما كان كذلك لمكانة الحمزة فى المسلمين من البسالة والإقدام ، والعزم والقوة . وقد كان الرسول رضوان الله عليه يعتز بالحمزة ويحبه ، ويقدره ويحترمه ، لا لأنه عمه ، ولا لأنه منحاز إلى جانبه ، ولكن لأنه مع ذلك ، يغنى عن جيش محارب ، وجماعة مقاتلة ، والقضاء عليه هدم لركن متين ، وحصن حصين . وإذا كان الحمزة توافرت له معانى الشجاعة والإقدام ، والمغامرة والتضحية ، والعزم والمضاء ، والهمة وعدم المبالاة ، فإنه لم يعدم الى جانب ذلك الحذر والحيطة ، واليقظة والانتباه ، والرأى والتدبير ، والفكر والنظر ، والاتعاظ بالحوادث ، إلا أن الحين الذى يسبق جهد الحريص ، كان يخبئه له

المقدار فى ضربة صوبها له وحشى . نخيم الوجوم ، وسادت السكينة ، من عظم ما أصاب المسلمين من ذهول ، واعتراهم من هموم ، وربما كان هذا القاتل يعلم مبلغ ما أصاب النبى نفسه صلوات الله عليه من جراء هذه الفاجعة ، ولذلك فإنه بعد أن عتق وأطلق سيده صراحة أسلم وحسن إسلامه ، واطمأن خاطره لتوفيق الله إياه ، واتجاهه الى سبيل المؤمنين ، لكن شيئا واحدا لا يزال يحز فى قلبه ، ويعتقد أن الله لا يغفره له مهما صام وصلى ، وافنى جهده فى الطاعة ، وعمره فى العبادة ، ذلك أنه أهاج حفيظة الرسول بهذا القتل، ولهذا لم يجرؤ على أن يلاقيه وجها لوجه ، أو يضع يده فى يده . وما زال هكذا يفر ويبالغ فى الفرار ، ويهرب ويمعن فى الهرب ، حتى قيل للنبى ها هو ذا . فقال له أأنت ؟ ! قال : نعم أنا يا رسول الله وأرجو أن يكون الإسلام عفى على ما قبله ، فقال حول وجهك عنى يا وحشى ، فإنى لا أطيق أن أرى بعينى رجلا قتل الحمزة بن عبد المطلب .

ويروى الرواة أن وحشيا قال ما زالت هذه تقلق مضجعى ، و تُؤَرِّقُ جفنى ، وتُتعِبُ خاطرى ، وأنا أرجو أن يوفقنى الله لعمل أرضى به رسوله ، وأكفِّر ما عساى أن أكون قد اقترفته ، فلم أجد إلا أن أقتل مسيلمة الكذاب حينما حمل راية الفتنة ، وشقَّ عصا الطاعة ، وادَّعى النبوة فى خلافة أبى بكر الصديق هدانا الله بهديه . . ولعل كثيراً ممن يمرون بهذه القصة أن يقولوا ماذنب رجل لا ذنب له . . ولعلهم يذهبون إلى أبعد من هذا كله ، فيقولون ما كان من اللائق أن يقف النبى هذا الموقف من مسلمٍ راسِخ القدم ، قَوِىِّ العقيدة ، صحيح الإيمان . وهذه الدعوى إنما يدَّعيها من يُجَرِّد الرسل من بشريتهم ، وعلماء النفس يقولون إن الألم الذى تفعله الذكريات المُمِضَّة ، والصور البغيضة ، والمناظر المكروهة ، قد يقتل صاحبه بغير سكين ، ولا سيما إذا كان من هؤلاء المرضى بما يسمى « ضغط الدم » والعياذ بالله ، فإنه يعتريه الشلل ، ثم يقضى لوقته . والمتنبى كان أدرى الناس بهذه الظاهرة البشرية على الرغم من أنه لم يدرس الطب ، ولم يزاول الفلسفة ، لأنه يقول :

واحتمال الأذى ورؤية جانيــــه غذاء تضوى به الأجسام !!

والحواس تتغذّى كما يتغذى الجسد ، ويعتريها الضنى والضعف ، والنحافة والهزال ، والتهدم والمرض ، حين تتناول طعاما لا تستسيغه ولا تحبه ... ويقول الأدباء فيما يزعمونه من هذا القبيل « اكتحلت عيني لمرآك ، وطاب قلبي بلقياك » .

والحديث في هذا يطول ويَسْتَرْسِلُ .. ونحن نود أن يفهم المؤمنون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن الكريم ينادى بأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ينام ويصحو ، ويكره ويحب ، ويغضب ويرضى .. وكان مثار العجب في قريش أن تكون هذه المهمة الشاقة ، والمسئولية العظمى ، في عنق إنسان ، قد تستهويه الشهوات ، وتملكه النزوات ، وتصرفه الأهواء ، وتوجّهه المآرب ، وهم لم يألفوا رَجلاً تسمو به روحه إلى هذا الأفق الطاهر وتحلق ذاته في تلك الأجواء البريئة ، بحيث لا يظلم ولا يطغى ، فاقترحوا أن يكون من الملائكة المقربين ، ورد الله جل جلاله عليهم بقوله « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » لأنهم لا يأتنسون به ، ولا يفهمون منه ، ولا يتلقون عنه ، إلا إذا تحول إلى جنسهم ، وعاد إلى نوعهم .. وكان هو يُصرِّح بهذا إذا احتكم إليه خصمان ، وحاول أحدهما بسحر بيانه ، وطلاقة لسانه ، وعذوبة منطقه ، أن يصور الباطل على شكل الحق ، فينهاهم عن الاتجاه إلى هذا الأسلوب في التقاضي خوفاً من أن يلتبس عليه الأمر ، وتشتبه المعالم ، فإذا هو يحكم بالشيء لغير صاحبه معلناً لهم أنه « بشر يخطىء ويصيب » ... وإذا كان سبحانه بعث به إلى العرب أمياً لا يقرأ ولا يكتب ليتأتى التحدّي ، ويَتبيَّن الإعجاز ، فهو كذلك لم يجرده من خصائص البشر ليرينا أن النبوة لا تكتسب بالتحصيل ، ولا تجيء بالاجتهاد ، بل هي سر إلهي يضعه الله فيمن يختاره من عباده الصالحين ؟

رضى الناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ على حسن العمارى

مبعوث الأزهر فى السودان

من الأمثال السائرة على ألسنة الخاصة والعامة (رضا الناس غاية لا تدرك). وهذا المثل من أصدق الكلم، وأحكم الحكم التى تعبر عن واقع محسوس، ومشاهد ملموس، فقد خلق الناس مختلفين فى الطبائع والغرائز والأخلاق، ولا يزالون مختلفين، وموازينهم التى يزنون بها الرجال والأعمال مختلفة أشد الاختلاف، ومقاييسهم مضطربة فى أكثر الأحايين، فما ظفر برضاهم خالق ولا مخلوق.

اختلفوا فى ذات الأله، واختلفوا فى الأنبياء، فقال المسلمون عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه رسول الله وخاتم النبيين، وقال المشركون إنه ساحر كذاب، وقالت النصارى: المسيح بن الله، وقالت اليهود: أنه ولد من غير أب شرعى، وقال المسلمون — كما نطق كتابهم الكريم — ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام. واختلفوا فى الخلفاء من بعد الرسل فقد أحب عليا قوم حتى كفروا بحبه، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببغضه، وسمى جمهور المسلمين أبا بكر وعمر شيخى المسلمين وكفرهما بعض الناس بل كفروا من يقول إن لهما نصيبا فى الإسلام، واختلفوا فى العلماء والشعراء، والولاة والقضاة، وفى شأن كل نابه حتى قال بعض الكتاب: إن العظيم من الرجال من اختلف فيه الناس فرفعه قوم إلى السماء ونزل به آخرون إلى الحضيض، وذكر العالم الكبير أبو عثمان الجاحظ أنه كان يقال: يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتباين الناس فيه، ثم قال: ألا ترى عليا

رضى الله عنه قال يهلك فىّ فتيان : محب مفرط ، وهذه صفة أنبه الناس ، وأبعدهم غاية فى مراتب الدين وشرف الدنيا .

بل إن التقدير عند الشخص الواحد ليختلف فى آن عنه فى آخر ، فهو يزن رجلا فيرفعه ثم يعود بعد طويل أو قصير من الزمن فيخفضه ، وما حدث التاريخ ولا سمعنا أن إنسانا اتفق عليه الناس . وكيف وفى الناس قوم مولعون بالنقد ، مغرمون بتنقص ذوى الفضل والمواهب الخالدة ؟ فكلما رأوا رجلا نابها تلمسوا له المثالب والعيوب ، فإن قاتل قالوا متهور وإن قعد قالوا جبان ، وإن أنفق قالوا مسرف ، وإن أمسك قالوا بخيل . . . وهكذا

ويروون فى القصص الشعبى أن رجلا أراد أن يرى ابنه طبائع الناس ، فأخذ دابة وركبها وأردف ابنه خلفه ، ومرا بجماعة من الناس فقالوا : ما أقسى قلبه ! يركبان معاً على هذا الحيوان المسكين . فقال الرجل : يابنى نتعاقب ، فركب الرجل وسار ابنه خلفه ، فلما مرا بجماعة أخرى قالوا : ما أضعف تفكير هذا الرجل ، يشفق على الحيوان ، ولا يشفق على ابنه ، وهو فلذة كبده ! فترجل الرجل وأركب ابنه فقال من لقيهما من الناس : ما أسوأ أدب هذا الولد ، يركب ويترك أباه المسن الضعيف يمشى خلفه ؟ فقال الرجل : لم يبق يابنى إلا أن نسير معاً ، ونترك الدابة خفيفة الظهر ، حتى نسلم من انتقاد الناس ، ولكنهما ما سلما ، فما هو إلا أن مرا بجماعة من الناس حتى قالوا : ما أحمقهما ، يمشيان ، ومعهما دابة موثقة الخلق ، قوية البنيان . فلم خلقت ؟

وهنا أخذ الرجل يعلم ابنه ويضع يده على موضع العبرة من حيلته وتدبيره فقال : يا بنى : ركبنا معاً فرمانى الناس بقسوة القلب ، وركبت أنا فرمونى بضعف التفكير ، وركبت أنت فرموك بسوء الأدب ، وسرنا معاً فرمونا بالحمق . فما أحد من ألسن الناس يسلم !

وأنت مع الناس شديد الشبه بهذا الشاعر مع صاحبته : شكا فلامته على شكواه ، وكتم حبه فأنكرت عليه صبره ، ودنا فأبعدته ، وتباعد فجزعت من بعده فحار فى أمره وجعل يصيح :

شكوت فقالت كل هذا تبرما بحبي أراح الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشدّ ما صبرت . وما هذا بفعل شجى القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالباً رضاها فتعتقد التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوؤها وتجزع من بعدي وتنفر من قربي
فيا قوم هل من حيلة تعرفونها أجيبوا بها واستوجبوا الشكر من ربي

ونحن نقول : غفر الله لك أيها الشاعر ، وعفا عن أمثالك . فما نعلم ، ولا كان الذين يعاصرونك يعلمون لك حيلة ، فهكذا شأن القوافي ، وهكذا شأن الناس ، وأي كذا خلقت ، كما يقول النحويون . والإنسان مهما عامل الناس بالحسنى ، وأخذهم باللين واللطف ، فلا بد أن يجد فيهم من يلتوى عليه .

عذيرى من الإنسان ما إن جفوته صفا لى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

ولذلك قال المأمون حين سمع هذا البيت . . . وإنى لمحتاج . الخ . أين من يأخذ نصف ملكى ويعطينى هذا الصاحب ، ثم جاء البديع الهمذانى فى القرن الرابع فكتب إلى بعض معارفه يقول : فأما الإنصاف فى الصداقة فهو ضالتى عند الأصدقاء ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن العشرة سلطان ، ولكنى أقول وإنى لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهداً يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالت مودته مع الرجحان

وقد كنا نقترح الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

وسئل شريح القاضى : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت ونصف الناس على غضبان . هذا شأن شريح ، وهو بعد قاض عادل نزيه ، لا يميل به غرض النفس عن قصد السبيل ، ولا يعدل به هوى الرأى عن جادة الصواب ،

ومع هذا فمثل شريح من كل رجل يحكم بالعدل ، ولا يقول إلا الحق يجب أن يغتبط بهذه الحال أشد الاغتباط ، فحسب امرىء حر الرأى ، قويم الدين ، نظيف السلوك أن يرضى عنه نصف من يعاشرهم من الناس ، وقديما قال خطيب العرب وحكيمها أكثم بن صيفى : أن قول الحق لم يترك لى صديقا .

حتى بعد أن ينتقل الإنسان عن هذه الدنيا لايعدم من يستنزل عليه الرحمات ومن يصب عليه اللعنات ، وقد يسلم روحه بين ابتسامة الشامت فيه ، ودموع الباكى عليه ، والشاعر يقول :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسوؤه الأيام حتى ما يرى شيئا يسره
كم شامت بى إن هلكت وقائل لله دره

والأديب الأريب ينبغى له أن يطلب رضا الناس فإن رضاهم يقيه من شرور كثيرة ، وليس أصعب من عداوات الرجال ، ولكن لا ينبغى أن يطلب رضاهم بما يسخط الله عز وجل فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من أرضى الله بإسخاط الناس كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أرضى الناس باسخاط الله وكله الله الى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

فاذا لم يكن بد فليؤثر الإنسان رضا الله مهما كلفه ذلك من عنت ومشقة ، ولكن كما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، وهى تناجى ربها :

فليت الذى بينى وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب

« وبعد ، فرضا الناس غاية لا تدرك ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله »

على هامش المولد والهجرة

ميلاد محمد صلى الله عليه وسلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود جميلة
المدرس بكلية اللغة العربية

سلام عليك يا رسول الله مولوداً ومبعوثاً ، ومقيماً ومهاجراً ، ومبشراً ومنذراً ، وحياً وميتاً ، وروحاً فى عليين . سلام عليك ما تعاقبت السنون ، وتوالت الأيام تردد دعوتك ، وتنشر صفحتك ، وتظهر مجدك ، وتتلو على الوجود آياتك البينات ، وعظاتك البالغات ، فلقد كنت سلاماً على الوجود منذ تعلقت الإرادة بوجودك ، والمشيئة بخلقك ، فأنت حق من الحق ، ورحمة من الرحمة ، ونور من النور ، ولدت فكنت خير مولود عرفته الأرض نقاءاً وطهراً ، وصفاء وكرماً ، ونسباً وحسباً ، ونشأت فكنت خير ناشىء خَلْقاً وخُلُقاً ، وعز ومجداً ، وأمانة وصدقاً ، وبعثت فكنت خير مبعوث لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

قدمتك العناية للناس رحمة بهم ، ومنقذاً لهم لما ضرب الفساد بجرانه فى الأرض ، وشاع الضلال وذاع ، وتلاشت الحضارات الصحيحة ، والمدنيات السليمة ، وأنهك الأمم الراقية المبالغة فى الترف والأمعان فى المجون ، وأصبحت الأرض تنتظر النجدة من السماء ليكشف ما بها من ضر ، وما أصابها من انحلال . وهيهات لأمة انفصمت عراها ، وفقدت أخلاقها ، ونفدت طاقتها أن تقوم ببناء أو تعمير ، أو بهدى أو إصلاح . لهذا لم تتجه الدعوة للإصلاح فى الأرض إلى أصحاب الحضارات المشوهة ، والمدنيات الممسوخة ، وإنما ولت وجهها شطر الأمة الأمية التى أكسبتها العزلة مناعة ، حفظتها من أدوار المستهترين ، وامراض المسرفين ، فبقيت طاقتها البشرية صحيحة سليمة ، وتوفر لديها كل ما يصلح لتكوين أمة حية تقود الوجود ، وتنشر السلام . ذلك أن الأميين عاشوا فى جزيرتهم

عيشة شظف وجدب ، لا يعلمون شيئاً من مفاتن الدنيا ، ومباهج الحياة ، وبهرج الحضارة ، إلا بقدر لا يفتُّ من سواعدهم الفاتحة ، وطبائعهم السليمة ، فهم أهل جاهلية بما عند متاخميهم — الفرس والروم — من خلاعة طغت على المعارف والحكمة ، وظلم جعل من الناس عجماوات مسخرة لتشبع بطوناً نهمة ، وسيادة كاذبة ، وألوهية ضالة . فالعرب قد لازمتهم الفطرة البريئة ، والبساطة المخففة من أثقال العيش ، وأعباء الحياة ، فصحت أجسامهم ، وصحت معها عقولهم ، ولم يكن إسرافهم فى الجهل والضلال إلا على وزان إسرافهم فى لذائذ العيش ومتع الحياة ، وأنَّى للفقر والإقلال أن يتسعا للأسراف أو يهيئا للفساد ، فكل ما عندهم تزاحم على الكسرة ، وتناكب على القطرة ، وما وراء ذلك فهو على هامش حياتهم ، وليس من صميم وجودهم . لذلك كانت الأمة العربية أولى أمم الأرض بحمل الدعوة ونشرها ، وإقامة الحجة وإنقاذ البشرية من ضلالها .

وأمعن المترفون فى الفسوق وأسرفوا فى استيفاء الشهوات واللذائذ ، وانصرفوا عن كل خير فى الأرض . فأفسدوا ولم يصلحوا وعطلوا ولم ينشئوا واختفت فيهم الفضيلة ، وتبجحت منهم الرذيلة ، وتطاير الشرر من مواقدهم مواقد الضلال والفجور ، وحملته الرياح الهوجاء إلى مواضع الطهر والقداسة . ومراطن السذاجة والفطر السليمة ، فتغيرت النفوس الطاهرة ، وتغلب الهوى ، وتحفز الشيطان ، واتخذ العرب من أول بيت وضع للناس للتوحيد والتنزيه ، والمثوبة والأمن ، مكاناً للشركاء والأنداد ، ومباءة للضلال ، ومرتعاً للفساد .

عند ذلك تجلت رحمة الله بخلقه ، واختار خاتم رسله لخاتم دعوته ، ليجبر ما انصدع وينظم ما انفرط ، ويمسح ما علق بالفطر ، حتى تعود سيرتها الأولى ليرد بهم الناس إلى الحق البين ، والطريق المستقيم ، ولكن الضلال قد صادف قلوبا خالية فتمكن منها ، ووجد الشيطان نفوسا بريئة فنفث فيها الشر ، فوجد الرسول الكريم مشقة وجهداً فى تخليص العرب من الأدواء التى أصابتها والأمراض التى نزلت بها فأسر بالدعوة إسراراً نحواً من ثلاث سنين ، ثم دعا جهاراً نحواً من عشرين لما قيل « اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين » ، وهيىء الرسول تهيئة خاصة ، فكان مثال النبل والخير ، عرف بين آله وقومه بالطهارة والنزاهة ، والصدق والأمانة على الرغم مما كان عليه من قلة فى المال ، ونقص فى الولد ، لا ينتطح فى ذلك عنزان

ولا يختلف فيه اثنان ، ولكن الشر قد تأصل فى نفوس القوم ، فصمت الأذان عن سماع الحق ، وأقفلت القلوب عن قبول الهدى وعميت الابصار عن رؤية آيات الله ، وتنكر للدعوة الإلهية القريب والبعيد والمحب والمبغض إلا من عصم الله وقليل ماهم .

وسلك الرسول الكريم فى تبليغ خبر ربه طريقاً منطقياً ، فتحدث إلى الأصدقاء والإخوان فى خلوات وفترات معلناً أمره موضحاً خبره ، وتحدث إلى الناس فى المجالس والأسواق عن الفضيلة والأخلاق ، واخذ يلمز من طرف خفى ما عليه القوم من بعد عن الحق ومجافاة للمعقول والمقبول ، وجوهر الدعوة سر فى نفسه لا يجاهر به حتى تتهيأ النفوس لقبوله .

وبدأ بإنذار العشيرة والأقربين ، وهم أولى باتباعه والاستجابة له ، إبقاء على وشيجة القربى ووفاء بحق الرحم فإن الرحم ، يوصل من وصله ، وأى صلة تدانى ديناً يهدى إلى الحق ، وإيماناً يورث الجنة ويبعد من النار ، ثم أعلن إلى قومه فدعاهم ليلا ونهاراً فلم يزدهم دعاؤه إلا فراراً ، فألح وألحف حرصاً على قومه أن يتعرضوا لسخط ربه ، فيحل عليهم غضبه أو ينزل عليهم عذابه ، وهو بهم رءوف رحيم .

وكم ضاق صدره من خلاقهم حتى كاد يهلك نفسه دونهم « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا » ، ولا طفهم الرسول وفتل بالذروة منهم والغارب ، وتجاوز عن مسيئهم ، عله يظفر منهم بلفتة إلى الحق أو نظرة إلى ماجاء به من دين تناول الذكور والإناث ، والأحرار والعبيد ، والبيض والسود ، قوامه التوحيد ، ودعامته الفضيلة ، وفى التوحيد تسفيه للشرك والشركاء والمشركين ، وفى الفضيلة طهارة وصفاء وتثبيت لدعامة الحق وانصاف للعقل على الهوى وتقرير للعدالة والمساواة وتنديد بالرذيلة واحتقار للشر ومحو للباطل .

فكبر على القوم أن يكون من بينهم داعياً ولأحلامهم مسفها ، وفى القريتين من هو أولى بالشرف وأجدر بالسيادة ، وقالوا فيما قالوا « لو أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » فكان الرد عليهم « أهم يقسمون رحمة ربك » وبالغوا فى إيذائه وأسرفوا فى الكيد له ، وقالوا فيه « ساحر أو مجنون ، بل قالوا شاعر نتربص به ريب المنون ، أتواصوا به بل هم قوم طاغون » وتلك سنة الله فى المرسلين ، ف « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » « قد مستهم البأساء والضراء » فصبروا حتى جاءهم النصر ، وتحقق وعد الله « لأغلبن أنا ورسلى » .

ثقافة الأديب :

الأدب والأديب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الحميد محمود المسلوت
المدرس بكلية اللغة العربية

نحب أن نعرض هنا لمشكلة يحار فيها الناشئون ، وقد يختلف فيها العلماء والمتأدبون ، هى مشكلة نختلف فيها قولا وجدلا ، لا ينتهى عند حد ، ولا يقف لدى غاية ، نختلف فيها بيننا وبين أنفسنا حين تنازعنا البواعث المختلفة ، والعوامل المتباينة إلى القراءة ، فنقف مترددين حائرين .

هذه المشكلة ماذا نقرأ ؟ أنقرأ للقدماء أم للمحدثين . أم لهما معا ؟

وأنقصر قراءتنا على ما تنضح به العربية من ألوان الثقافة وصور المعرفة أم لابد من إحاطة واستيعاب ، أو على الأقل وقوف على نتاج الأفكار ، وثمرات القرائح ، ومطارح الأخيلة فى كل لسان ؟

إذا التمسنا حلا لهذه المشكلة مما نسمعه من أفواه المثقفين ، تنازعتنا تيارات مختلفة وعوامل متباينة ، ففى بعض المجتمعات الأدبية تتردد صيحات وتنبعث صرخات تقول : مالنا وللقدماء وآداب القدماء ، وقد عاشوا فى بيئات وسعتهم وانطوت عليهم ومنحتهم من المظاهر والأوضاع مالاءم حياتهم ووافق أوضاعهم ، ثم لم تعد ألوان تفكيرهم ولا مطارح أخيلتهم ولا مأثور آدابهم تتسق مع ما نفكر فيه أو نتخيله ، ؟ نسى هؤلاء الناعبون أن الحياة إن اختلفت بعض ألوانها وتباينت بعض صورها ، فهى فى سماتها العامة ومظاهرها المشتركة لا تختلف فى قليل ولا كثير ، هؤلاء الذين ينفرون من القديم ، ويتنكرون للقدماء ، قد خانهم الصبر وخذلهم الجلد ، فلم تعد عقولهم تقبل إلا أخف ألوان الأدب وأبسط مظاهر الثقافة ، ونسوا أن الأساس الذى نبنى عليه ، والمصدر الذى نقتبس منه والذخر

الذى نمنح من معينه هو الأدب القديم ، فأن أغضينا عنه وأغفلنا شأنه بنينا حياتنا على شفا جرف هار ، وأقمنا مجدنا الأدبى على غير أساس .

وهناك أناس يسيئون الظن بكل جديد ، ويتهمونه أشنع اتهام ، ويصفونه بالضعف والهزال ، ويؤمنون أعمق الإيمان أن هذا الأدب الذى تهدر به طبائع المحدثين لا يصلح للبقاء ، ولا يستحق العناية والاهتمام . يستخفون فيه كل فكرة ويستهجنون كل أسلوب ، ويلتمسون العيب فى كل صورة ، ويخترعون المساءة لكل ما يختلج به الفكر أو تنبض به القلوب . ولو سألتهم عن حقيقة ما يخترعون من شبه لأعوزهم الدليل واستعصت عليهم الحجة .

لا عيب فى الجديد لأنه جديد ، ولا مزية للقديم لأنه قديم . أنما السمو والابداع أو التخلف والقصور فى القيم الفنية للأثر من ذات نفسه ، فهو الذى يدل على مكانه من الرفعة أو الانحطاط . والتقدم أو الانتكاس لاقدمه ولا حداثته .

وقديما ملك أقواما التعصب ، واستولى عليهم الهوى مع جلال أقدارهم وعظم منازلهم ، وأصالة رأيهم فى دولة الأدب ، حتى إن بعض هؤلاء المتعصبين للقديم أملى شعرا لبعض المحدثين على أنه قديم فامتدحه وأطراه وأثنى عليه أجزل ثناء . فلما أنبىء بعد ذلك أنه لمحدث غضب ، ومزق أوراقه وصار يقول خرق خرق .

يقول القاضى الجرجانى فى كتابه الوساطة صفحة ٤٩ فى هذا الصدد (إن خصم المتنبى فريقان : أحدهما يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهلى وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقة الشعراء رؤبة وابن هرمه وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وأبى نواس وطبقتهم ، سمى شعرهم ملحا وظرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة وأجراه مجرى الفكاهة ، فإذا نزلت به إلى أبى تمام وأضرابه نفض يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يقعوا من الشعر إلا بالبعد وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلهج بعيب المتأخرين ـ أن أحدهم يُنْشَد البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض

قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملا وأقل مرزأة من تسليم فضيلة لمحدث والاقرار بالاحسان لمولد .

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلي أنه قال أنشدت الأصمعي :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيبل الصدى ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسرواني : لمن تنشدني ؟ فقلت إنهما لليلتهما فقال لا جرم والله إن أثر الصنعة فيهما لظاهر .

ولكن إسحاق هذا جوزى جحودا بجحود ونكرانا بنكران ، فقد كان كما يقول المرزباني ينصر الأوائل في كل أحواله وكان يتعصب على المحدثين ، وممن كان يتعصب عليهم أبا نواس وكان يقول هو يخطىء . قال يحي بن على فكنت أنشده جيد قوله فلا يحفل به لما في نفسه فأنشدته قوله :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رامها بزليل

إلى قوله .

إذا ما أتت دون اللهاة من الفتى دعا همه من صدره برحيل

فكان على أمره . فقلت والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجعلتها أفضل شيء سمعته قط .

وكان من تعصبه على أبي نواس يقول ما ظننت أني أعيش إلى زمان أرى شعر أبي نواس ينفق فيه هذا النفاق ، وكان ابن الأعرابي يقول (ص ٢٤٦ الموشح (إنما أشعار هؤلاء المحدثين من مثل أبي نواس وغيره ، مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا) .

وهذا تعبير يحمل في طياته ما كانوا يضمرون من حقد واضطغان على المحدثين : ويظهر أن المعاصرة غالباً تكون من أقوى أسباب التحاسد وأشد عوامل التنافر والتحاقد ، حتى إن كلمة الحق في مثل هذه المواطن تجعل الفحول يشرقون بريقهم ويغصون بها اذا ضيق عليهم الخناق : ومهما أوتى بعض الناس من قوة الحجة وسعة العقل ودقة الفهم فقد لا يملكون الغلبة على ما وقر في طباعهم من حقد ولا ما استكن في نفوسهم من هوى أو موجدة .

يقول أبو عبد الله التميمى : كنا عند ابن الأعرابى ، فأنشده رجل شعرا لأبى نواس أحسن فيه فسكت ، فقال له الرجل أليس هذا من أحسن الشعر . فقال بلى ولكن القديم أحب الى .

وقال أبو الحسن الطوسى : كنا عند ابن الأعرابى فقال : أيما أحسن عندكم قول أبى نواس :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء

أو الذى أخذ منه وهو يقول الأعشى :

وكأس شربت على لذة ... وأخرى تداويت منها بها

فسكتنا فقال ! السابق أجود :

وإن هذا لمما يدعو إلى الغرابة والعجب ، فإن عصبية الرجل وحقده وغصته بقول الحق لمما يثير الدهشة حقاً . مع أن أبا النواس فيما أرى فاقه بالاختصار وعذوبة الشعر وسلامته مما ينفر منه الطبع ويستكرهه السمع والنص الصريح على أن الخمر داء ودواء ، أما الأعشى فأنه يجهد السامع فى تعرف مواطن الضمائر المتتابعة ويجعل صدره ضيقاً بها أشد الضيق .

قال ابن قتيبة (وكان الناس يستجيدون قول الأعشى الى أن قال أبو نواس بيته ، فزاد فيه معنى اجتمع له به الحسن فى صدره وعجزه ، فللأعشى فضل السبق عليه ، ولأبى نواس فضل الزيادة عليه) .

وكان الأخفش ينقد بشارا لأنه محدث ويطعن على شعره ، فلما بلغ ذلك بشارا تهدده بالهجاء ، فبكى الأخفش وقال وقعت فى لسان الأعمى ثم أخذ بعد ذلك يحتج فى كتبه بشعره ليبلغه ذلك ، فكف عنه .

فهذا عالم جليل وإمام كبير نقد الشاعر عصبية وأنفة ، ثم استرضاه فرقا ورهبا ، فلم يتحر قولة الحق ولا منهج الصواب .

وهذا ابن قتيبة الأديب الكبير يدلنا على ما كان يشيع من خلائق بعض العلماء وتحيز بعض الدارسين فى عصره من تفضيل السابقين والعصبية على المحدثين ويعلن أنه لا يسير على سنتهم ولا يرضى بطريقتهم إذ يقول فى مقدمة

كتابه : الشعر والشعراء : ما يأتى ، ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه — فأنى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه مواضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل فى زمانه ورأى قائله . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم . بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده ، وجعل كل قديم منهم حديثا فى عصره . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأثنينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما أن الردىء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه » .

ولقد أطلت فى عرض كثير من الصور التى تدل على تحكم الهوى فى كثير من النفوس . ولكن لأدل على أن الناس فى كل عصر هم الناس والعقول هى العقول والقياس هو القياس وإن اختلفت المظاهر وتباينت السمات .

وكما يختلف الناس فى هذا الزمن فى تفضيل القديم على المحدث أو المحدث على القديم كذلك كان الناس فيما مضى يختلفون ويتمارون .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لما نطالعه أو نحتاجه من ثمرات القرائح ونتاج العقول فى الآداب الأجنبية . فكثير من الناس يدعون بسلوكهم وسمتهم إلى العزلة ويزعمون أن هذه الآداب تفسد الأذواق وتحيل الأخيلة وتشكك الناس فى قيمة آدابهم .

وبعض الأدباء يتعامون عن تراثنا ويغضون عن نتاجنا ويرون أنه ليس هناك أدب إلا ما جاء عن العرب ونطق به أدباء الغرب .

وأولئك وهؤلاء غالون فيما يرون من رأى ويلتزمون من عقيدة . فأن الأديب الفطن والمفكر النابه لا ينبغى أن يلتفت إلى هذه الترهات والسفاسف بل يجب أن يلتهم ما يسنح له من ألوان المعارف وصور البيان مهما كان الزمن الذى تمخض عنها ومهما كان اللسان الذى جاءت فيه .

ولا يفوتنى وأنا أعالج هذه الناحية أن أعرض هنا صورتين تكادان تتقاربان

فى الموضوع : إحداهما لشاعر قديم والأخرى لشاعر محدث . وسنجد فى كل منهما من روعة البيان وخلابة المنطق ، وتحليق الخيال ما يبعث على الإعجاب والإكبار ، فلم يعق المحدث حداثته من الإجادة والإحسان ومساماة المتقدم على بعد عصره وترامى زمنه .

قال ابن الرومى فى وصف مغنيات :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوانى
مطغلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

وقال فى هذا المعنى أو ما يشبهه ، فأبدع أيما إبداع وأجاد أبرع إجادة الأستاذ الشاعر المرحوم الشيخ أحمد الزين :

لامست فى النفس أوتار هواها غادة بالسحر تغزو من غزاها
كلما مست يداها وترا حسد الآخر ما مست يداها
تمنح الأوتار كفا رخصة أشجت الأوتار من قبل شجاها
ويكاد العود يدمى كفها قبلا لو أن للعود شفاها
لحنها يبعث فى ميت المنى نضرة العهد ومعسول صباها
خفقات يخفق القلب لها هى أنات فؤادى أو صداها
وحنين كاد من رقته أن يذيب اللحن فى العود مياها
وشجون طالما أخفيتها نفذ العود إليها فحكاها

إلى أن قال :

كل هذا نطق العود به وتناجى هو والنفس شفاها

فلننظر فى شعر المحدثين إلى هذه الدقة العميقة ، وهذا الاستقصاء البارع وذلك الخيال البديع الطريف وتلك المعانى التى أنسابت من قريب ومن بعيد فى ألفة عجيبة حتى ليحسب المرء أن له بها عهداً وما هى فى الواقع مما تجتمع للفكر وتنقاد للخيال ، إلا بعد كد ومطاولة وشدة احتيال ؟

دراسات فى التصوف

العقل والنقل والذوق

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

— ٢ —

وإن قال الجنيد : مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة [١] ، فقد كان يؤمن دون شك بأنه وراء الكتاب ووراء السنة أمر آخر ، هو الله ، هو المقصد الأخير ، والغاية التى ليست بعدها غاية ، فالمتصوف لا يعمل لدنياه ، ولا يسعى لآخرته ، وإنما هو محب يرجو حبيبه فى إلحاح ، لا يريد عنه بديلا ، ولا يبغ به غيره ، ليكن فى الأرض ما بها من خيرات ، ولتكن فى الجحيم نيران متأججات ، وفى النعيم أنهر من لجين ، ولكنه لا يريد هذا ، ولا يرغب فى ذاك ، لا بل هو راغب عن ذلك جميعه ، راغب فى الله ، والله وحده . راغب فى الاتحاد بالله الذى هو أعلى مقامات النفس وأسمى مراتبها ، يحس معه الواصل كأنه والبارىء شىء واحد ، فيرى مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ويشعر بغبطة وسرور لا نظير لها . ويخترق الحجب ، ويصعد إلى عالم النور والملائكة ، فتنكشف له المغيبات والأمور الخفية ، فيخيل لجلسائه أنه حاضر والواقع أنه غائب ، وأنه قريب والحقيقة أنه بعيد : قد انصرف عن كل شئون الدنيا وفنى فى الله . وأول من نادى بهذه الفكرة هو البسطامى [٢] ، ولعله قد

(١) الرسالة القشيرية .

(٢) هو أبو يزيد البسطامى عاش فى بسطام قرب شاهرود فى خراسان من أعمال فارس فى القرن الثالث الهجرى ، وهو من أئمة التصوف .

استمدها من تعاليم هندية كانت سائدة فى بلاد الفرس مسقط رأسه . وحاول الصوفية تدعيم نظريتهم إن نثرا وإن شعرا ، وبحثوا لها عن آيات وأحاديث تؤيدها ، فوجدوا فى هذا الحديث القدسى : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبنى وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصرا ، فبى يبصر وبى يسمع » أقول وجد الصوفية فى هذا الحديث القدسى بعض ما يؤيد ما يذهبون إليه .

تلك هى أهم أفكار الصوفية التى عارضهم فيها الفقهاء ، ولكن ثمت فكرة أخرى زادت الهوة بين الفريقين اتساعا ، ألا وهى قول الصوفية بتوحيد الأديان : إن الدين عند الله الإسلام ، قول لاشك فيه ولا ريب ، صريح فى دلالته ، صريح فى عبارته ، ليس له باطن أو ظاهر ، ولكن جاء قوم ونادوا بأن الكل إنما يعبد الله ، وأن الإسلام والنصرانية وغير هذه أو تلك من الأديان إنما هى وسيلة لعبادة الله ، التعصب الدينى ممقوت عندهم مكروه : لا تكن مسلماً ولا نصرانيا ، ولا تكن صابئاً ولا وثنيا ، ولكن كن من شئت ، على أى دين أردت [١] ، ولكن اعبد الله : اعبد الله إن على صورة الوثن الحجرى ، أو متجلياً لك فى الشمس أو فى القمر ، واعبد الله إن متجردا عن كل شىء ، أو متحداً بأشياء . لترمز لإلهك بأى رمز تريد ، فما دمت مخلصا فى نيتك ، موفيا عبادتك ، كان ما تفعل حقا : « فالأديان كلها لله ، شغل كل طائفة منهم بدين ، اختيار اعليهم ، لا اختيارا منهم » أخذ بهذه الفكرة الحلاج وابن عربى وابن الفارض والجيلى والرومى وغيرهم كثيرون ، ونادوا بها جميعاً إن نظما وإن نثرا ، ولعل من أجمل ما قيل فيها أبيات ابن عربى إذ يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دان
وقد صار قلبي قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لأوثان ، وكعبة طائف ، ... وألواح توراة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت ... ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

---

(١) اتخذت البابية البهائية ـ فيما بعد ـ هذه الفكرة ، فكانت أهم دعامة لدعاياتهم .

أو قوله :

عقد الخلائق في الإله عقائداً   وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

أو قول بعضهم :

إن خرَّ للأحجار في البيد عاكف   ... ...
وإن عبد النارَ المجوسُ وما انطفت   ... ...
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم   سواي ، وإن لم يظهروا عقد نيتي

* * *

ويقول السعد التفتازاني[1] معارضاً الآراء الصوفية ومتحدثاً عن مذهب وحدة الوجود : الحلول والاتحاد مستحيلان على الله ، والمخالفون في هذا منهم نصارى ومنهم منتمون إلى الإسلام ، ومنهم بعض المتصوفة القائلون بأن السالك إذا أمعن في السلوك ، وخاض لجة الوصول ، فربما يحل الله تعالى فيه ، كالنار في الفحم بحيث لا يتمايز به ، ويتحد بحيث لا اثنينية ولا تغاير ، وصح أن يقول هو أنا وأنا هو ، وحينئذ يرتفع الأمر والنهي .

ومن هنا نادى الصوفية أن مسألة الإلهام ليس بحجة كما يقول ابن السبكي ، فجعلوا دلالة الذوق فوق دلالة النص ، وقالوا : إذا ما تعارض الأمر والذوق ، قدمنا الذوق على الأمر ، ويقول بعضهم :

يا صاحبي أنت تنهاني وتأمرني   والوجد أصدق نهاء وأمار
فإن أطعك وأعصى الوجد رحت عم   عن اليقين إلى أوهام أخبار

ومن هنا أيضاً قالوا بأن الصوفي يتلقى من السماء أحكامه ، التي قد تخالف أحكام الشريعة ، فالصوفية أباحت لهم أشياء هي محظورة على غيرهم .

---

(١) سعد الدين التفتازاني من كبار العلماء الأحناف له كتب كثيرة مشهورة ، كان يعيش في عصر تيمورلنك ، وروى لي الأستاذ أحمد ترجاني أنه قرأ أن شرف الدين الدرجزيني المتصوف سأله مرة : هل جاء ذكر المتصوفة في القرآن ؟ ، قال نعم ، جاء ذكرهم بعد العلماء ، قال في أي آية ، فأجابه في قوله تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون » يريد وصف المتصوفة « بالذين لا يعلمون » .

وإن كان لهذه الآراء أثر ، فإنما كان عند الفقهاء ، الذين ، ولا شك ، حكموا بكفر هذا ، لأن دليلهم وطريقهم إنما هما الكتاب والسنة ، وهل بعد الكتاب والسنة دليل ! ؟ ، ومن خالف الكتاب والسنة فقد كفر ، فما بالك بهؤلاء القوم ، زعموا أن أحكامهم من السماء ، بل وزاد البعض منهم ، فادعى أنه وقد اتحد بالله ، وبلغ منزلة عليا ، فقد سقطت عنه التكاليف ، وزعم أن التكليف خاص بالعوام ، ساقط عن الخواص فإنه :

يطالب بالأوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وهذه ولا شك دعوى باطلة ، اصطنعها قوم لرغبة فى نفوسهم وغاية لهم ، وإنا لنرى الفقهاء محقين فى هذه الناحية فى نقدهم لهذا الفريق من الصوفية ، بل ومحقين فى تجريحهم لهم ، فقد يقبل المفكر أن يناقش فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول ، ولكنى لا أتصور أبداً مسألة سقوط التكاليف . إن زعم هؤلاء أنه وحى من الله ، فلعل الأرجح أنه وحى من الشيطان .

وثمت مسألة أخيرة أثيرت بين الفريقين الفقهاء والصوفية ، هى مسألة السماع . نادى الفقهاء بأن لا ضير فى السماع ، سماع الجيد الصالح من الأقوال فإن النبى (ص) كان يستمع ويدعو إلى السمع ، ويحدثنا أبو حامد الخلفانى أنه قال لأحمد بن حنبل : يا أبا عبدالله ، القصائد الرقاق التى فى ذكر الجنة والنار أى شىء فيها ؟ فقال : مثل أى شىء ؟ قلت :

يقولون .

إذا ما قال لى ربى أما استحييت تعصينى
وتخفى الذنب من خلقى وبالعصيان تأتينى

فقال أعد ، فأعدت عليه ، فقام ودخل بيته ، ورد الباب ، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يردد البيتين . وليس فى مثل هذه الأناشيد من بأس ، فقد يكون فيها تذكرة لبعض النفوس الغافلة ؛ وإنما تدخل فى قبيل اللهو إذا كانت توضع فى ألحان الغناء ، حتى تكون اللذة فى طيب انغامها لا فيما إحتوته من حكمة وموعظة .

هذه هى وجهة نظر الفقهاء كما يوضحها أحدهم ، ولكننا نرى الصوفية قد اتخذوا مجالس الأذكار ، يرددون فيها اسم الله آلاف المرات ، حتى إذا ما أخذتهم الجلالة - كما يقولون - خروا مغشيا عليهم ، إن تعبا أو خشية من الله . ونرى الغزالى يقول فى الإحياء : متصوفة أهل هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغتروا بالزى والمنطق والهيأة من السماع والرقص ، ولم يتعبوا أنفسهم فى المجاهدة والرياضة .

ولكننا نجد الصوفية يغنون قصائدهم التى يتغنون فيها بحب الله وبالإعراض عن الدنيا ، إنهم فيها لا يتشببون بغادة حسناء ، ولا يتغزلون بكاعب ناهد لعوب ، ولكنهم يحدثون الله ، يبينون عن عشقهم لذاته ، ويظهرون حبهم له ، تلك القصائد التى نجدها فى ديوان ابن الفارض وفى شعر ابن عربى والسهروردى المقتول :

أبداً تحن اليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

* * *

هذه خلاصة للصلة بين النقل والتصوف تظهر لنا النضال الطويل بين الصوفية والفقهاء ، وهو نضال دافع فيه الصوفية عن عقائدهم ، دافعوا بالروح وبالبدن ، وكلفتهم آراؤهم ثمناً فادحا ، فقد قتل منهم الحلاج والسهروردى ، ونكل بغير هذين .

ومن الحق أن نقول إن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداً هم السبب فى هذا الاضطهاد ، وإنما هى فئة قليلة ، توجد دائماً فى كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتتعداهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ودعاة التقدم أعداء الجمود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهاداً ويقاسون عسفا ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكراهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

الأساطير عند مختلف الشعوب

للأستاذ حمزه محمد الشيخ
ليسانسيه فى الآدب الانجليزى

لا نستطيع أن نلحق الأساطير Mythology بفروع المعرفة النافعة التى تزداد بها مقدرة الإنسان ، وتربو ثروته ، ويرتفع ذكره ، ويذيع صيته فى المجتمع الذى يعيش بين ظهرانيه . ولكنها مع ذلك من المعارف التى لا غناء لنا عنها إذا جعلنا السعادة النفسية والمتعة الروحيـة هدفا لنا نتمناه فى حياتنا ، فالأساطير مصدر لكثير من الثقافات الشعبية والعقائد الدينية التى إذا أجدنا فهم أسرارها وتوصلنا إلى المعين الذى صدرت عنه جداولها الأصلية ، أمكننا أن نحيى حياة هادئة مستنيرة راسخة ، تعرف ماضيهـا ونستمد من بين رماده ومضات وهاجة تصلها بحاضرها ، وتبرق على أضوائها أحلام المستقبل .

وقد كان العربى قليل الحظ من الأساطير ، ومن ثم نشأت دياناته الأولى تافهة سطحية . لا يمكن أن تجرى مجرى الديانات الهندية أو الإغريقيـة أو الرومانية ذوات الفلسفات العميقة ، والآلهة العديدة الجبارة ، فهى نتاج أساطير رائعة استلهمتها تلك الشعوب من بيئاتها الزاخرة بشتى الكائنات الحافلة بكثير من الأعاجيب . بل إن العرب قد عزفوا عن آداب الأمم الأخرى وولوا عنها مدبرين ، حين لمسوا فيها ما يتهدد عقيدتهم الدينية ويعدو على شعائرهم التى عكفوا عليها طويلا ، وأمعنوا فى الحذر والخوف فتجافوا عن كثير من الفنون الجميلة كالتصوير والتمثيل والنحت حين جاء الإسلام وقضى على عبادة الأصنام .

ولا جدال فى أن للأقاليم تأثيراً قوياً فى النازلين به ، وفى مدى انفساح خيالهم وعمقه ، بل إن الإقليم هو المرجع الأول الذى نعزو إليـه وفرة الأساطير وتعددها فى أمة من الأمم أو ندرتها وتفرقهـا ، ولذلك رأينا العربى فى صحرائه الجرداء يعيش عيشة بدوية ، لا مأوى له غير مساكن متنقلة يصطنعها من شعر

عنزته أو وبر ناقته ، ولا تكتنفها غير رمال شاسعة لايحدها البصر فاصطبغ خياله بتلك المسحة السطحية المنبسطة ، وعجزت ملكة الابتكار فيه عن اختراع الموضوعات ، وخلق الشخصيات .

فأما ديانات الأغريق والرومان القدماء فقد انطفأت شعلتها منذ زمان طويل ، ولم نعد نرى لها بين الأحياء فرداً واحداً يتخذها عقيدة لنفسه ، فقد أصبحت لا تمت إلى العقائد الروحية بصلة ، بينما أضحت وثيقة الارتباط بفرعين من فروع المعرفة الإنسانية هما الآداب والفنون ، حيث مازالت تلقى ظلالها فى صفوة النتاج الأدبى والفنى قديمه وحديثه ، حتى أننا يندر اليوم ألا نجد أشارة اليها فى قصائد الشعراء ومقالات الكتاب وخطب الخطباء . فلا بد لمن يبغى تذوق آداب عصره وانتهالها من الينابيع التى أمدتها بالجمال الآسر والسحر الحلال الأخاذ ، أن يسبح بخياله فى أجواء مفعمة بالأساطير الأغريقية والرومانية التى جادت بها ملكة الابتكار عند شعوب نشأت فى بيئات نابضة بالحياة ثائرة بالحركة والنشاط .

ولا بد لنا لكى ندرك مغزى أساطير الأغريق أن نعرف شيئاً عن مدى ما وصل إليه علمهم بتركيب العلم جميعاً ، فقد تناقل الرومان وغيرهم من الشعوب عن الأغريق تلك المعرفة ، كما اقتبسوا منهم كثيراً من العلوم والدين .

وكان الأغريق يعتقدون أن الارض منبسطة دائرية وأن بلادهم تشغل جزءها الأوسط حيث يحتل جبل أولمبس Mount Olympus ، مهبط الآلهة ، المنطقة المركزية منها . وبدا ذلك القرص الدائرى لأعينهم تخترقه من الغرب إلى الشرق مياه البحر الأبيض التى تشطره شطرين متساويين ، وتحف به مياه المحيط التى تجرى من الجنوب إلى الشمال فى الجانب الغربى وفى اتجاه عكس ذلك فى الجانب الشرقى ؛ تلك المياه التى يفيض تيارها ثابتاً هادئا لا تهيجه عاصفة أو تعبث به ريح .

واعتقدوا لذلك أن الجانب الشمالى من الأرض يسكنه قوم تغمرهم السعادة ويحوطهم النعيم الدائم ، لا يعانون مرضاً ولا يشكون عوزاً ولا يجهدون كداً ولا يفنون حرباً . أما فى الجانب الجنوبى فيعيش قوم يدعون الأيثيوبيين Æthiopians تحبوهم الآلهة عطفها وتسبغ عليهم كرمها . وفى الشريط الغربى يقيم

أناس فى سهل الفردوس Elgsian Plain لا تمتد إليهم يد الموت العاتية ، فهم فى متعة أبدية وفى رخاء مقيم .

وهكذا نرى قدماء الأغريق يكادون يجهلون أمر الشعوب الأخرى جميعاً فينهض خيالهم حثيثاً يعمر مجاهل الأرض — كما تخيلوها — بأشباح ووحوش وسحرة ، أو بأقوام تؤازرهم الآلهة وتسبغ عليهم ودها وفيضها .

أما الشمس والقمر فقد حسبوهما يطلعان ويغيبان من المحيط ، وتخيلوا لإله الشمس زورقا مجنحاً يذرع به الأرض جيئة وذهوبا ، لينقله من غربها عبر مياه المحيط إلى مشارق الأرض ، حيث يطلع بنوره على الآلهة والناس . بل إن خيالهم مدّهم كثيراً فى تصوراتهم ، فزعموا أن الآلهة تتقابل جميعاً فى ردهة فسيحة بأحد القصور الملكية ، لتتناول طعامها وشرابها الذى توزعه عليها آلهة مفرطة الجمال تدعى « هيب » Hebe . وهناك يتناولون أمور السماء والأرض بالعرض والنقد حيث تصل إلى أسماعهم الموسيقى العذبة منسابة من أوتار آلة يحملها إله الموسيقى .

وكذلك اعتقد المصريون القدماء أن أول من حكم الأرض هم الآلهة ، ثم انحدر منهم ملوكهم الأول الذين يرجعون إلى أصل سماوى ، وكانت تلك الآلهة — ككل الآلهة الوثنية — تتصف بكافة صفات البشر من التحاسد والتباغض ، والتآزر والتنافر ، فمن الأساطير المصرية الذائعة حول حكم الآلهة قصة أوزيريس وما جرى له مع منافسة أخيه « ست » وما انتهى إليه الأمر من قتل أوزيريس ، ثم عودته للحياة مرة أخرى ، واتخاذ المصريين بعد ذلك لهذين الإلهين رمزاً للبعث بعد الموت .

وصفوة القول فى الاسطورة أنها ليست سوى قصة خرافية صاغها الإنسان البدائى وأنتجها خياله ، واتخذ لها مسرحا الأفق الذى تمتد إليه ناظرتاه ، فإن ضاق به ، فإلى ميدان أرحب وأفسح يكون فيه أقدر على التحليق وافتراض الفروض ، يفسر بها ما حير ذهنه وأعجز عقله بألغازه وأحاجيه . وبالرغم مما حوته تلك القصص من عقائد قد تبدو لنا اليوم سخيفة عابثة ، فهى صورة العهود التى كتبت فيها ، ومرآة تنعكس عليها عقليات الشعوب المختلفة فى بداية نشأتها وما كانت تموج به نفسيات تلك الأمم من آمال وآلام .

مجالات فى الأدب العربى :

جراحات القلم

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان
مدرس الأدب بالأزهر

فيما ألقى إلينا التراث الأدبى العربى بقايا كثيرة غزيرة جديرة بالتقصى والدرس ، ومنها مخلفات الطعنات القاسية من القلم واللسان ، والرميات المدمية من الصرامة والبيان . وقديما جَفَّت الصحراء العربية من المرَوَّحات ، إلا فى جوانب قليلة ، فسيطرت عليها عواصف العصبية وأخذتها نشوة الصرعات القبلية ، فسخرت الشاعرية فى مسالك الهجو والتفاخر ، وأرسلت عنان القول فى الجموح العادى والقول المُصْمِى ، وفى حقل الهجاء ، ونظم الشعراء الجاهليين مياسم طائشة ومواسم سوداء قائمةً ، حتى إذا أشرقت دعوة الإسلام ، وإذا طلع الرسول على العالم بأدب القول والإحسان فى الخصومة ، توارت نار العداوة القاسية فى الصورة الفنية البيانية شيئاً ولم تخرج على الناس فى ثوبها البشع .

ولما اتسعت وطنيات الإسلام ، وتوزعت الأقلمَةَ الادبية ، وقامت الدولات وتداخلت العناصر العربية وغير العربية ، وتلونت القرائح ، ومصرت الأمصار وتباعدت الأقطار ، وغلت مراجل الخصومات السياسية ، وتناطحت الآراء واختلفت المذاهب ، وعرفت الأقلام طريقها فى مزق الرقاع ووجوه الصحف وأطواء الكتب وأجنحة القراطيس : انتقضت الأقلام وتمردت ، وانغمست فى محابر من الدماء ، وولغت فى مسايل أجرتها بياناً قاسيا ، وفنّا قاتلا كاد يغطى على ما جاء فى شعر الهجاء ، وما روى من نقائض الشعراء .

وساعد على هذا اللون صراع الدولة الأموية مع دعاة العباسية، ثم قوى هذا الفن ما جدّ فى صحوة الدولة العباسية من سطوة الموالى وتمكنهم من قُنَّة الحكم والحجابة والسبق فى ميادين العلوم والفنون. وإلى جانب هذا ما نشأت الحضارة من عبقريات نستشهد فيها بابن المقفع، والجاحظ، والصابى، والحريرى، وابن أبى الحديدى، والقاضى الفاضل، وكتاب مدرسته الصناع والمتصنعين.

* * *

ولست من الذين يضيقون بالتراث الذى خلفته المعارك البيانية، لأنى أجد فيه قوة - إن سودها الغضيب - فقد يشفع لها عندى متانة الأداء، وصرامة الجلاد وأصابة الهدف، وتسديد الضربة، وصدق القول أحيانا، ومن وراء ذلك رسم معالم لنفس المتخاصمين والمتطاحنين قد لانجده عند المداحين والمطرين بالحق والباطل.

فالقارئ فى رسائل المدح والشكر، يجد مع البيان ملقا يزداد ثم يزداد حتى ليكاد يصرفك عن التمزز بمتعة الإجادة الفنية، ولكن الجاحظ مثلا حين يصور البخلاء، والصابى حين يصف من يغدر بعد وفاء، والحريرى حين يرصع فى الأشحاء تلمس من وراء حرارة الصدق ما مُنيَتْ به الإنسانية - ولا تزال - فى نفوس تعرفها بسيماها من شر قابع فى طواياها، وغدر نابت فى حناياها.

ولولا شَكِيَّةُ الأدباء، وشكّات أقلامهم. ولولا صحائفهم المصورة لتلك الطباع لضاعت معالم نجد لها فى حياتنا المحدثة أشباها وأمثالا حية تجرى بيننا ولا توصف إلا بسحر البيان الماضى. فى مثله، وفى قصته، وفى جملته البليغه، وسجعته الموفقة، ولذعته الساخرة، وتعريضته المفصحة، ووصمته السارية، وملحته التالدة ودعابته الشاقة.

وإنك أيها القارئ لواجد فى كتب الرسائل والمحاضرات، ومفردات النقد ومجاميع المحاسن والمساوئ والمكافآت والمقامات، حيوات كاشفة عن الاتجاه الذى نذهب إليه ونرتضيه من الأدباء الذين عاشوا فى حرب قلمية، وأفنوا أعمارهم فى ميادين الصراع السياسى والأدبى، وصدقونا ما وجدوا من متاعب ومصاعب وصارحونا حين لم يسكتهم سلطان الحاكم عن أناس تحكمت فيهم شهوة الطغيان وأطربهم خَمَارُ الأنانية، وأعماهم بريق المال، وتحكم فيهم مارد البخل، وشيطان

الشُّحِّ ، والذى يمتع فى هذا الفن البيانى ما صورت الأقلام فى كتب الرحلات وما وصفت فى طبائع بعض البلدان . وما كشفت من خصائص الأقاليم ، وما قارنت به بين العواصم ، وما فاخرت به على ألسنة المدن كبغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وَغَرْنَاطة . وأمتع ما يمتع ما جاء فى كتب الأندلسيين من مفاخرات بين مدائنها . وقد تعرض فن القلم فى هذا الميدان للأفراد والجماعات وتعدى الطبيعة إلى الحيوانات فضلا عن الدويلات وخلائفها ، والممالك وساستها . وإنى لذاكر مثلا موجزها ، ونتفا تشير إلى الخصائص والطرائف ويكفى منها الإيناس . روت كتب الأدب فيما أجمع الناس عليه من بخل أهل (مرو) : إن ثمامة ابن أشرس . قال :

« ما رأيت الديك قط فى بلدة إلا وهو يدعو الدجاج وينثر الحب اليها ويلطف بها ، إلا فى (مرو) فإنى رأيته يأكل وحده ، فعلمت أن لؤمهم فى المأكل » .

ومن رسالة « للبديع الهمذانى » يذم والياً فاشلا فى عمله : « إنما جر له الحبل ليصفع كما صفع من قبل ، وستعود تلك الحالة إحالة ، وتنقلب تلك الحبل حبالة ، الى أن يقول : (ماذا ؟ أليس ما سلب أكثر مما أعطى ، وما حرم أفضل مما أولى وما عدم أوفر مما غنم) ، ومما كتبه (بشر البلوى) فى تصوير بعض الناس :

« أما بعد ، فإن من الناس من تحمل حاجته أهون من فحش طلبه ، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته ، ومنهم من إفراط لائمته أحسن من قذر مدحته ، وإن الله خلق (فلانا) ليغم الدنيا ويقذر به أهلها . . . فاسأل الذى فتن الأرض بحياته ، وغم أهلها ببقائه ، أن يديل بطنها من ظهرها » .

* * *

ولا أريد أن أطيل فى الاستشهاد ، فإن للشعراء والبلغاء فى الذم والهجاء نظما ونثراً ما تضيق به الصحائف ، ولكننا لا نشك فى أن فى الناس من يستحق الإرهاق بالوسمات الأدبية القاسية ، ومن هؤلاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأراذل والأنذال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطاءه ودثاره .

ومن أوجز ما قاله أديب أعرابى فى وصف أقوام « هم أقل الناس ذنوبا

الى أعدائهم ، وأكثرهم تجرما على أصدقائهم ، يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء » .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب فى بنى سعيد بن مسلم بن قتيبة : « محاسنهم مساوىء السفل ، ومساوئهم فضائح الأمم ، والسنتهم معقودة بالعى ، وأيديهم معقولة بالبخل ، وأعراضهم أعراض الذم ، فهم كما قيل .

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولا تبيد مخازيهم وإن بادوا »

وقد لا يكون الكاتب صادقا فى حملته ، ولكنه فيما يصور لا يعدم أن تكون ضرباته قيما توجه واجدة من تنزل عليهم صادقة واصفة مفصحة .

وانى لمنه الاستشهاد بصنيع الجاحظ فى بخلائه حين وصف صد يقاله فقال . ولا تقولوا الآن : « قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه وأى الرجال المهذب .

هذا والله الشيوع ، والتبوع ، والبذاء وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم ألتمس بهذه الأحاديث عنه الا موافقته ، وطلب رضاه ومحبته ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكمينا من كمائه وذلك أن أحب الأصحاب اليه أبلغهم قولا فى أياس الناس مما قبله ، وأجودهم حسما لأسباب الطمع فى ماله ... الى أن يقول : لأن شهرته بالقبيح عند نفسه فى هذا الأقليم قد أغنته عن التنويه والتنبيه على مذهبه . وكيف وهو يرى أن سهل بن هرون واسماعيل بن غزوان كانا من المسرفين ، وأن الثورى والكندى يستوجبان الحجر ؛ وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يبتلهم النفقة ، ولا بقول العيال : هات ، لعرفتم حالتهم ومنزلتهم) .

ومهما يكن ، فإن الأدب الذى حمل أثر تلك الجراحات القلمية يستحق الدراسة النفسية ، والصيرفة البلاغية ، والمقارنات التاريخية ، والاستقصاءات لا العجالات المسرعة ، والخطرات الطائرة ، والنغبات الخاطفة

وإنها لجراحات لا ينضب لها معين :

جراحات السنان لها التئام ولا يلتام ما جرح اللسان

آراء فى إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالتأليف فى إعجاز القرآن الكريم . ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبى عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ ﻫ ولعل الذى دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ ﻫ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وبيانه الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه لأبى عبد الله محمد بن يزيد الواسطى المتوفى عام ٣٠٦ ﻫ ؛ وقد شرحه عبد القاهر الجرجانى شرحا كبيراً سماه المعتضد وشرحا آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبى داود م ٣١٦ ﻫ

٥ — كتاب إعجاز القرآن للرمانى م ٣٨٣ ﻫ ، وكذلك للإمام الخطابى م ٣٨٨ ﻫ ، وكذلك للإمام القاضى أبى بكر محمد بن الطيب الباقلانى م ٤٠٣ ﻫ .

٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ ﻫ .

٧ — كما ألف فى الإعجاز فخر الدين الرازى م ٦٠٦ ﻫ ، وابن أبى الاصبع م ٦٥٤ ﻫ ، والزملكانى م ٧٢٧ ﻫ ، والرافعى المتوفى عام ١٩٣٦ م

— ٢ —

كان الجعد بن درهم فى عصر بنى أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة [1] ، وجاء بعده أبو إسحاق ابراهيم النظام المعتزلى المشهور فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويُرْوَى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلة .

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة وخصائصه البيانية الرائعة ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ؛ فالقرآن فى الذروة من البلاغة ، وفى القمة من الإعجاز ، وقد تُحدُّوا به فلم يقدروا ، وسُجِّل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه » .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجانى صاحب دلائل الإعجاز الذى دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، وأرجعه إلى خصائص النظم العربى ودقائقه ، وما « تجدد [2] بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمكان وكما يقول عبد القاهر أيضاً : « [3] أعجزتهم مزايا ظهرت لهم فى نظمه ، وخصائص صادفوها فى سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادى آيه ومقاطعها ، ومجارى ألفاظها ومواقعها ، وفى مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرهم أنهم تأملوه

---

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأى بالبحث والنقد وإقامة الأدلة على بطلانه .

(٢) ص ٦ المدخل الى دلائل الاعجاز من الطبقة الثانية .

(٣) ص ٣٢ دلائل الاعجاز .

سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية ، فلم يجدوا فى الجميع كلمة ينبو مكانها بل وجدوا اتساقا بهر العقول ، وأعجز الجمهور » .

أما القاضى الباقلانى فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن فى ثلاثة : ما فى القرآن من الأخبار عن الغيب مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ؛ ومافيه من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول الظاهرة ؛ ونظم القرآن الكريم وعجيب تأليفه ، وتباهيه فى البلاغة إلى الحد الذى يعلم عجز الخلق عنه . وقد شرح الباقلانى وجوه الإعجاز فى نظم القرآن الكريم : وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، فى كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذى قال فيه ابن العربى : لم يصنف كتاب مثله :

وتحدث القاضى عياض فى كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم وأرجعه إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتآم كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ما انطوى عليه من الأخبار بالمغيبات ، ورابعها : ماأنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الداثرة [1] » .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعراف لم يحط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشاكلة بعض أجزائه بعضا ، وحسن إئتلاف أنواعها والتئام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره . ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقص واشتماله على المعانى الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدائع الرائقة فى الفواتح والمقاصد والخواتيم فى كل سورة وفى مبادىء الآيات وفواصلها .

---

(١) ص ٢١٧ الشفاء طبعة ١٣١٢ .

وقد عرض السيوطى فى كتابه « الإتقان » لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضاً من آراء العلماء فيه [١] .

وأرجع الإمام الرازى الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . وأرجعه الإمام الزملكانى إلى تأليفه الخاص به .

وقال ابن حازم فى « منهاج البلغاء » : « وجه الإعجاز فى القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها فى جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ، لا يقدر عليه أحد من البشر » .

وقال الإمام الخطابى : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز فى القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ثم قال : حتى لا ترى شيئاً من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما معانيه فكل ذى لب يشهد له بالتقدم فى أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته .

إلى ما سوى ذلك من الآراء فى إعجاز القرآن الكريم ، والتى تشعبت كلها ، ثم تلاقت فى موجة ، فى بحر لجى زاخر ، هو دون القرآن الكريم فى روعته وجلاله ، ودون إعجازه العظيم فى سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء فى بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ؛ وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بطائل : فبعض جعل وجوه الإعجاز فى ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ، ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطقى والأسلوب العلمى . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أى حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم فى فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه .

ونحن نعود بالقارىء إلى فطرته الأدبية وحدها ، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم فى قضية الإعجاز .

---

(١) ص ١١٨ ج ٢ الاتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف فى شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثِرَ فى تاريخ البلاغة الأدبية : ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو فى ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم فى فن البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الأجيال ، والعلماء والأدباء والبلغاء والنقاد والمؤلفون فى كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته فى البلاغة والفصاحة والبيان . ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سوره . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة ، لبعد ما بينه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض ؛ فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة ؛ ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

— ٤ —

وبعد . فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم تتجلى فيما يلى :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التى لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ؛ ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ؛ ثم هى للآن ، وبعد مضى أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال فى أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكناياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإيجازه ومجازه ، فهى تشمل كل خصائص الفن الأدبى والبيانى فى القرآن الكريم .

٢ — روعة القرآن وجـدته ، وأخذه بالأفئدة والأسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الإنسانية فى ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية فى سلمها وحربها ، ولهوها وجدها ، وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، وللمثل العليا فى الحياة المهذبة الكريمة التى يعمل لها الإنسان وتسير لشاطئها الأمين الإنسانية .

٤ — سمو الروح فى القرآن الكريم : فهو ليس كتاب قصص أو تسلية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع . وإنما هو خلاصة لكل ما فى الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجدرنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبى فى لغة العرب وأدبهم . وفى حياتهم ، وفى حياة المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والأمكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته وعمق منزعه ، وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة مراميه ومناحيه ، وعبقرية غاياته ورسالته ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء والحق والعدالة ، والحرية والمساواة بين الناس ؛ وصدق الله العظيم حين يقول : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا » .

ولنا عودة إلى هذا الموضوع إن شاء الله ، وما توفيقى إلا بالله ؟

الشعر

للأستاذ ابراهيم عمار
مراقب بالأزهر

من يوم أن اختفى من الوجود صوت حافظ وشوقى ، والشعرُ العربى يُعانى أزمة عاتية ، قد بُح لها صوتُه ، وخبا ضوءه ، ولم يعد يُسمع الا كأنة المصدور .

وقد كان العهدُ به أنه الصوت المدوى الذى يسجل الأحداث ، ويسبق الزمن فى رسم الخطط ، وتحديد الأهداف ، ويحفز الأمة إلى نيل حقها المغصوب وينير لها طريق الخلود ، ويدفعها إلى حياطة أخلاقها وعاداتها ونهضاتها بسياج من الخلق والطموح والدين . كل ذلك وغيره فى أدب تهفو له النفس ، وأسلوب تصبو إليه القلوب والعقول .

ومن عجب أن يكون هذا فى وقت لم يتم للأمة نُضجها . ولم يتكامل وعيُها ، ولم ينتشر التعليم فى بنيها ، ولم تَعُم ثقافةُ الغرب ولم تتعدد البعثات ، ولم ترج الصحف ، ولم ترق وسائل المدنية ولم يرتبط العالم برباط المؤسسات ، وعقد المؤتمرات .

أجل ولم تكن الفتاة إلا كما مهملا ، لم تدخل مدرسة ، ولم تقرأ كتابا ، ولم تغش النوادى ، وكان دون دخولها الجامعة خرط القتاد . . . ولم تَسُد فى الناس حالةُ الشك فى كل شىء ولأى شىء : شك فى العقائد والعادات ، وشك فى الهدوء والاستقرار ، وشك فى الأمن وفى السلام ، وشك فى أى النظم خير لبنى الإنسان .

فما بالنا اليوم نتفقد الشاعر فلا نجده ؟ وإذا وُجد فلغته متخاذلة ، وخياله ذابل ، ومعانيه متداعية من الأعياء والانحطاط .

يقول أولو الرأى الثقات : إن سبب رقى الأدب بنوعيه « الشعر والنثر » ينحصر فى ثلاثة :

١ — صلاحية البيئة .
٢ — انتشار الثقافة .
٣ — الحكم الديمقراطى .

وقد اكتملت لأمتنا بفضل الله هذه الخلال ، ومع ذلك فقد هزل الشعر ، أو هو على وشك الزوال .

فهل من سبب لذلك ؟ .

قد يكون سببهُ أن ناشئتنا لا يجدون فى برامج التعليم المنهلَ العذب الذى يروى ظمأهم ويحببهم فى الشعر .

فليس هناك درس لانشاده ، ولا جائزة للتفوق فيه ، ولا عقاب ينال من لم يحفظ منه شيئاً ، ولا تقدير لمن يمارسه أو يحاول التبريز فيه .

وقد يكون أن الصحف والمجلات ـ وما أكثرها ـ لا تفرد صفحة واحدة لانشاد الشعر والتغنى به ، فكانت نتيجة ذلك أن تبورى فى النثر حتى بلغ الذروة أو قارب ، وطُرح الشعر جانباً .

وقد يكون أن الأدباء أرادوا أن يسدوا النقص فى الأدب العربى ، ويدرؤا عنه ما علق به ، فأقبلوا على « القصة » يتنافسون ويتبارون فيها ، وانتصر لهم أصحاب الصحف والمجلات وصادف ذلك هوى لدى كبار الكتاب ، فعالجوها فى بيان محكم واتقان بديع .

وقد يكون أن المجتمع المصرى لا يُعنى به فى قليل ولا كثير : فلغة المحاضرات

والحوار فى المنتديات ، والخطب فى المناسبات ، تنثر كلها ، حتى فى حفلات الرثاء والتأبين لا تكون نسبة الشعر لما يُلقى فيها إلا كنسبة الواحد للمئات .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، عاملا قويا من عوامل نفور المتعلمين من الشعر ، ورغبتهم عنه ، وانصرافهم إلى النثر يؤدونه كأحكم ما يكون الأداء ، ويتقنونه كأحسن ما يكون الاتقان .

وهكذا خلا مكان الشعر أو كاد ، وأصبحنا نعيش على الماضى وذكراه ، اللهم إلا من نفر يدعونه ويصطنعونه .

أنا لا أنكر أن الشاعرية هبة من عند الله ، ولكنها موهبة تذكو بالعمل ، وتنمو بالتعهد ، وتؤتى ثمارها فى ظل الرعاية والتشجيع .

والآن وقد أتاح الله للغة العربيـة وللأزهر المعمور شيخاً ضليعاً ومصلحاً فذا خبيرا بشؤننا العلمية والعقلية ومقوماتهـا فأنا نرتقب علاجه لهذه الحالة فى لهفة واطمئنان ، ولا سيما وقد وثق نفسه بعهد أذاعه على رجال الصحف والمجلات ، فى أوائل هذا الشهر ، بأنه سيعمل على تهذيب الكتب ، وتنقيح البرامج ؛ ويعد بأنه سيمنح جائزة للمتفوقين فى اللغة العربية .

فلعل ناشئة الأزهر تقدر هـذه الرغبة ، وتقبل على رياض الشعر فتجنى أطيب ثماره ، وتستوحيه ألوان القول فتمضى به قدما إلى أبعد غاياته ، وتسمو به إلى أرفع درجاته ، مضمنة اياه معانى تغذى العقول وتؤثر فى النفوس .

ولعل معالى وزير المعارف وهو عميد الأدب وزعيم المتأدبين يهب تدهور الشعر قبساً من تفكيره العميق الدقيق ، وخبرته الطويلة واقتداره على التنفيذ فإذا المتروك مألوف، وإذا المكروه محبوب ، وإذا شباب الأمة مقبلون على الشعر يتذوقونه ، وعلى قوله يجيدونه .

لفتة من لفتاتك يا معالى الوزير الجريئة الخيرة تعيد للشعر مكانه ، وتزيل عن الأدب عابه ، وترفع اللغـــة رأسها ، والأمةُ صوتها ، وتجعلك فى عداد المجددين الخالدين .

الأفضل بن بدر الجمالي

للأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ
مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

رأينا فى مقالنا السابق ، كيف استطاع الأفضل ، أن يرفع المستعلى ، إلى عرش الخلافة ، بعد أن قضى على نزار وحركته ، وقد كانت فرقة النزارية ، إحدى النتائج التى تمخضت عنها هذه الحركة . وسأعرض لهذه الفرقة فى إيجاز .

قدم مصر عام ٤٧٩ هـ « حسن بن الصباح » رئيس الاسماعيلية ، واجتمع بالخليفة « المستنصر الفاطمى » ، وتكفل بنشر الدعوة له فى خراسان ، فأمده الخليفة بالمال ، وسأله « ابن الصباح » عن الخليفة من بعده فقال : ولدى نزار . وأقام « ابن الصباح » بمصر ثمانية عشر شهراً ، رحل بعدها إلى بلاد العجم ، حيث جد فى نشر دعوته ، وبث تعاليمه ، حتى كثر أشياعه ، وأخذ يجمع السلاح سراً ، ولما قويت شوكته ، استولى على قلعة الموت Castle of almut ، من ملوك الديلم ، وجعلها مركزاً لبث دعوته الاسماعيلية ، ثم استولى بعد ذلك ، على قلعتى الدر وخان ، ومن قلعة الموت أرسل دعاته ورسله إلى مختلف الجهات ، وأخذ يلقى على العلماء مسائل ، منها : لم كانت الأيام سبعة ؟ والبروج اثنى عشر ؟ ، وادعى أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم ، وكثر اغتياله للملوك والرؤساء ، وجاء الامام « أبو حامد الغزالى » إلى نيسابور ، حيث ناظر أتباع ابن الصباح ، وألف كتابه ، « المستظهرى » ، وأجاب عن مسائلهم . وسميت فرقة ابن الصباح هذه ، بادىء الأمر ، بالاسماعيلية نسبة إلى « اسماعيل بن جعفر الصادق » ، جد الفاطميين الأكبر ، وتحت هذه التسمية خدمت طائفة الاسماعيلية الفاطميين خارج مصر ، ودعوا إليهم . وبعد مقتل نزار على النحو الذى أشرنا إليه ، سميت هذه الطائفة باسم النزارية ، نسبة الى نزار ، الذى نص الامام المستنصر على خلافته ، من بعده ، وهم يعتقدون أن نزاراً لا محالة ظاهر على وجه الأرض مرة

أخرى وتحت هذه التسمية ، خدم النزاريون حزبهم ، وانفصلوا عن الفاطميين بمصر ، بل وعملوا على مناوءتهم على نحو ما ذكرناه . وسميت هذه الطائفة أخيراً « بالحشاشين » ، إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش consommateurs de hachich ، أو لأنهم كانوا يقومون بأعمال لا يأتيها الا الحشاشون ، فأطلق عليهم هذا الاسم تجوزا ، وكانت لهذه الطائفة نظم تشبه نظم الطائفة الاسماعيلية عامة ، ولكنها تختلف عنها فى التفاصيل . وهكذا كان نشوء فرقة النزارية ، من الظواهر العامة التى يتميز بها عهد الأفضل .

قضى المستعلى فى ١٦ صفر سنة ٤٩٥ ﻫ (١١٠١ م) ، وتولى الأفضل أخذ البيعة الآمرية ، وخلف المستعلى ثلاثة أولاد هم : أبو على ، ونعت بالآمر ، وجعفر وعبد الصمد ، وكان عمر الآمر يوم تولى الخلافة ، خمس سنوات وشهراً وأربعة أيام ، ولم يستطع الخليفة الطفل أن يعتدل على فرسه يومذاك ، فأجلسه الأفضل أمامه ، على فرسه ، وطاف به القاهرة على هذه الحال .

وللقارئ أن يتصور مدى السلطة التى كانت للأفضل أيام هـذا الخليفة ، فلما كبر ، واشتد ساعده ، أحس بثقل يد الأفضل عليه ، ففكر فى التخلص منه ، وفعلاً تم له ما أراد على نحو ما سنذكره .

وكان للأفضل سياسة داخلية واضحة ، فقـد بنى « دار الوزارة الكبرى » ، التى يقول « ابن عبد الظاهر » إنها من بناء أبيه بدر ، ولكن كتب ابتاعيات الأملاك القديمة التى بتلك الخطة تدل على أنها من عمارة الأفضل ، وكانت هذه الدار طوال العهد الفاطمى ، مقر الوزراء ، ثم أصبحت بعـد ذلك مقر الملوك ، وصار يطلق عليها « الدار السلطانية » . كذلك بنى الأفضل « مرصداً » بسبب الاختلاف بين التقاويم الشامية والمصرية كل عام ، كما أمر ببناء خليج تسميه العامة « بحر أبى المنجا » نسبة إلى « أبى المنجا بن شعيا » اليهودى الذى قام بحفره . كما بنى فى عهده كثير من الجوامع والمساجد ، منها جامع الفيلة والمسجد الجيوشى ، وبنى المئذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص ، والمئذنة السعيدية المستجدة به أيضاً ، وبنى جامع الجيزة كذلك . وجدد الأفضل عام ٥٠١ ﻫ ديواناً أسماه « ديوان التحقيق » أقام عليه « أبا البركات بن الليث النصرانى » .

وأنشأ الأفضل كثيراً من البساتين والحدائق . وكان من أهم التنظيمات التى أحدثها الأفضل نظام خيالة أطلق عليه Squires of the chamber .

وكان على هؤلاء الفرسان تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فهم يشبهون عندنا اليوم ما نسميه بالفرق الفدائية . ويقص علينا الأستاذ Hanotaux فى كتابه Histoire de la Nation Egyptienme ، جزء ٤ ص ٢٦٧ طائفة أخرى من اصلاحات الأفضل . فيقول إنه بظهور الأفضل على مسرح التاريخ الفاطمى ، ابتدأت سلسلة متصلة من الاصلاحات المالية ، فقد غير من قيمة القطع النقدية ، كما وضع نظاماً لتولى الخلافة فى حالة عدم وجود وريث ، كما أنشأ مجلساً للعدادين ، ونتج عن اصلاحات الأفضل ، رخاء شامل ، وأضحى ناتج الضرائب ضعف ما كان عليه أيام أبيه ، وليس هذا نتيجة لتعسف أو نحوه ، وإنما بسبب الإصلاح الذى عم مرافق البلاد جميعاً . كذلك يجب أن نقرر أن ازدهار البلاط الفاطمى لم يكن مرجعه إلى الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً إلى وزرائهم الأكفاء الأقوياء الأثرياء .

أما عن سياسة الأفضل الخارجية ، فتتلخص فى استرداد الممتلكات الفاطمية التى التهمتها دولة الأرتقيين ، وهى بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربى سوريا ، وكانت دولة السلاجقة إذ ذاك بالقسم الشرقى من سوريا . كما كانت هذه القوى التى تنتظم الشرق الأدنى على شىء كثير من التفكك والانحلال ، مما مهد السبيل أمام الصليبيين إلى لقمة سائغة . ويجب أن نقرر هنا أن حملة الأفضل التى شنها على « سكمان » الأرتقى سنة ٤٩٠ هـ ، وانتزع بها بيت المقدس من يديه ، كانت فى الواقع خطوة خطاها فى صالح الصليبيين ، إذ بها أزال عقبة كؤودا من سبيلهم ، ولقد تحمل السلاجقة الدقة الصليبية الأولى ، فذهبت امبراطوريتهم مع الريح ، وأضحى الشرق الأدنى كله تحت رحمة الصليبيين ، لما شاع بين دوله من التفكك والانحلال . ولقد عقد الأفضل مع الصليبيين معاهدة ذهبت المصادر فى تعليلها مذاهب شتى ، فابن الأثير يقول إن الأفضل عمد إلى محالفة الصليبيين خوفاً من قوة السلاجقة ، ويقول الأستاذ Hanotaux إن الأفضل قد توخى بذلك وجه الحكمة . » أما الأستاذ ستانلى ل . بول Stanley L. Poole « فينقل عن كتاب Cp. Aist. Occ. der Croisades Iv. 48,78 تعليلا ،

لا أراه من العقل فى شىء ، إذ يقول : إن الأفضل ربما يكون قد انتوى التحول إلى المسيحية ، وذلك ينقضه ما نعرف عن عقيدة الأفضل ، ومواقفه الدينية المشهورة ويقولون كذلك إن الفظائع التى اقترفها الصليبيون قد خوفت الوزير المصرى .

غير أن هذه المعاهدة الوهمية ، لم توقف الصليبيين عند حد ، إذ لم تمس الدافع الذى حرك الفرنجة من بلادهم ، وهو التعصب الدينى الأعمى . والمهم هو أن الصليبيين اكتسحوا الشرق الأدنى ، وأشبعوا أهله تقتيلا ، ودياره نهباً وتخريباً ، وكانت السياسة الدفاعية هى المسيطرة على الموقف حتى آخر الخلافة الفاطمية ، ويميل مؤرخو العرب إلى انتقاد سياسة الأفضل الخارجية من هذه الناحية .

ويحسن فى ختام حديثنا عن الأفضل ، أن نلم بشىء من أخلاقه وصفاته ، كان الأفضل مكرماً لأهل العلم والأدب ، وكان هو نفسه شاعراً وأديباً ، وخلف مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد ، وصارت مصر مقصد الطامعين فى جوده من الشعراء والأدباء . وكان شديد الغيرة على نسائه .

وكان الأفضل يميل ميل السنيين ، فألغى الاحتفال بالموالد الأربعة : مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة رضى الله عنها ، ومولد سيدنا على رضى الله عنه ، ومولد الامام الخليفة القائم بالأمر ، وكان ذلك فى الواقع كافياً لتقويض دعائم الحكم الفاطمى ، كما كان ذلك أيضاً سبباً فى كراهية النزاريين له ، وقد يكون ميله السنى أحد العوامل التى أطاحت بحياته . كان الأفضل ثابت العقيدة راسخ الايمان ، عادلا ، حسن السيرة : حكى أنه لما قتل ، وظهر الظلم بعده ، اجتمع جماعة من الناس ، واستغاثوا بالخليفة ، ولعنوا الأفضل ، فسألهم الخليفة عن سبب لعنهم إياه فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، فغادرنا بلادنا وأوطاننا ، وقصدنا بلده لعدله وأصابنا بعده هذا الظلم ، فهو كان السبب فى ظلمنا ، فأحسن الخليفة إليهم . وكان الأفضل كذلك فحل الرأى حسن التدبير ، معتزاً بنفسه .

وقد ترك الأفضل ثروة ، أفاضت المصادر فى عدها وحصرها ، حتى بالغت إلى حد كبير ، ولكنها تنبئنا على أى حال ، بما كان لذلك الوزير ، من سلطة مطلقة لا تحد .

قضى الأفضل مقتولا : قيل بتدبير من الطائفة البديعية التى ضيق عليها الأفضل فى حياته ، وقيل - وهو الراجح - بتدبير من الخليفة الآمر ، لتضييقه عليه ، وتدخله فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة .

الخلافة العباسية في القاهرة

للأستاذ هاشم محمد ابراهيم
مدرس الآداب بمعهد القاهرة

المعروف أن الظاهر بيبرس هو الذى فكر فى اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد أن نزلت بها كارثة المغول ببغداد ، والمعروف أيضاً أن نجاحه فى ذلك المشروع قد أقال الخلافة من عثرتها ، غير أنه من الحق أن يعلم أن بيبرس ليس أول من فكر فى ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر الإسلامية ، وإنما هو الذى تولى تحقيقه بنجاح ، فقد حاول احمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر كأنما أراد بذلك أن يلبس دولته الجديدة ثوبا شرعياً أو أنه كان يفكر فى وسيلة ينتقم بها من الموفق ، فجاءت هذه الوسيلة خبط عشواء فى إقامة الخلافة بمصر .

ولقد فكر محمد بن الإخشيد فى ذلك حينما ذهب إلى الشام سنة ٩٩٤ ميلادية لإغاثة الخليفة المتقى .

ثم إنه لما وجد أمراء المماليك البحرية أن السلطة أصبحت فى أيديهم بعد قتل المعظم توران شاه رأوا أن يوطدوا أركان دولتهم بموافقة الخليفة العباسى .

ولقد فعل ذلك أمراء المماليك عندما أعلنوا سلطة شجرة الدر ، وأرسلوا إلى بغداد يلتمسون الموافقة من الخليفة على ذلك السلطان ثم خلعوا السلطانة الماهرة تحت تأثير ما وصلهم من عدم رضاء الخليفة .

ثم إن المعز أيبك لجأ للخلافة العباسية فى الشهور الأولى من سلطنته ، ثم حدث أن تمزقت الخلافة العباسية بسقوط بغداد فى يد هولاكو وقتل الخليفة وولده وأكابر بغداد .

ومن المحتمل أن معظم أبناء البيت العباسى قد قتلوا أثناء تلك الكارثة ، وقد فر من أبناء البيت العباسى ومن رجاله كل من استطاع إلى الفرار سبيلا

وربما كان معظم أولئك الذين استطاعوا الفرار من الأبعدين فى البيت العباسى وليسوا من القريبين فى سلسلة الخلفاء .

ومهما يكن ، فقد غيرت هذه الحادثة من سياسة المماليك نحو الخلافة ، فعملوا بعد سقوط بغداد على اجتذاب الفارين من أبناء البيت العباسى وغيرهم إلى القاهرة .

والراجح أن السلطان قطز كان يفكر فى أكثر من هذا ، وهو إمكان إعادة الخلافة إلى بغداد ، والدليل على ذلك أنه استدعى إلى دمشق بعد نصرة العظيم فى واقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ميلادية أحد أبناء البيت العباسى بالشام ، واسمه أبو العباس أحمد ، وبايعه بالخلافة وزوده بالجند ، ورجع هذا الخليفة من عند قطز إلى العراق وانتصر فيها على شرذمة من التتر وافتتح الأنبار وغيرها - ثم حدث أن اغتيل قطز فأرسل السلطان الجديد وهو بيبرس إلى أبى العباس أحمد يستدعيه إلى القاهرة ، غير أن أبا العباس كان قليل الحظ تلك المرة إذ أن سليلا آخر من أبناء البيت العباسى واسمه أبو القاسم كان قد سبقه إلى بيبرس - ولابد أنه أعلن أولويته وجدارته لمنصب الخلافة .

إزاء هذا السباق بين هذين العباسيَّيْن فضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها شمس الدين أقوش ، وكان خارجاً عن طاعة بيبرس ، وقد بايع الخليفة أيضاً كثير من زعماء حلب - ثم أخذ أبو العباس يعد مشروع العودة إلى العراق وقصد بما اجتمع إليه من أمداد زوده بها أمير حلب إلى مناوشة التتر مرة أخرى ، وأقام هناك .

أما أبو القاسم فقد وصل إلى القاهرة ، وتلقاه بيبرس وأنزله بقلعة الجبل ، وبالغ فى إكرامه وأحضر العربان للتعرف عليه وإعلان تسلسله من العباسيين وعقد مجلس عام أعلن فيه أن الأمير أبو القاسم ابن الخليفة الظاهر العباسى وبويع أبو القاسم بالخلافة ، كما بايع أبو القاسم السلطان بيبرس ، بأن يكون سلطاناً على البلاد الإسلامية وما يضاف إليها . ثم كتب بيبرس فى نفس اليوم إلى الملوك والنواب فى سائر الممالك ، بأن يأخذوا البيعة على أنفسهم وعلى من قبلهم للخليفة

الجديد ، وأن يدعى للسلطان بعد الخليفة ، وأن تنقش النقود باسمهما - وأخذ بيبرس يجهز الخليفة بالجيوش لاسترجاع الخلافة إليه .

ويقال إن ما أنفقه بيبرس لا يقل عن مليون دينار . وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق ، وفى عزمه أن يكون عدد الجيش الخليفى ١٠ آلاف فارس من عنده - غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان بدمشق أن الخليفة إذا استقر ببغداد نازع دولة المماليك وأخرجهم من مصر ، فأوجس بيبرس خيفة ولم يجهز الخليفة بأكثر من ٣٠٠ فارس ، وسار الخليفة بهذا العدد إلى العراق حيث انضم إليه ٤٠٠ فارس من عرب العراق الذين كان قد لجأ إليهم فى أول أمره ، كما لحق به أعداد من حماة والموصل ، وتقدم الخليفة بهذا العدد القليل إلى مشهد على بأطراف العراق حيث وجد منافسه أبا العباس أحمد فى ٧٠٠ فارس من التركمان ، فاتفقا على اجتماع الكلمة لإقامة الدولة العباسية ، وتقدما معاً شطر بغداد يريدان محاربة التتر ، وبالقرب من بلدة هيت إلتقى التتر بالعباسيين ، وكان أمراً مقضياً إذ غُـلب ذلك الجيش ، وفنى معظمه ، ولم يفلت سوى أبى العباس ، أما الخليفة المنكود فلم يعرف عنه خبر .

وسواء أأرسل الظاهر بيبرس يستدعى أبا العباس إلى القاهرة أم لم يرسل ، فإن المعروف أن هذا الأمير العباسى وصل إلى دمشق بعد واقعة هيت بشهور فقط ، وخرج منها إلى مصر ، واحتفل به بيبرس وأنزله فى قلعة الجبل ، كما فعل مع الخليفة أبى القاسم .

على أن السلطان بدأ يفكر فى إقامة الخلافة العباسية فى مصر وأنه ترك فكرة إقامتها ببغداد — ثم أخذ بيبرس يعمل لمبايعة أبى العباس بالخلافة كما فعل مع منافسه السابق ، فقرىء نسب أبى العباس على الناس بعد ما ثبت عند قاضى القضاة ولقب بالحاكم بأمر الله وبايعه السلطان بذلك ، ثم أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد الإسلامية وخطب للخليفة الثانى على منابر القاهرة ودمشق ومكة والمدينة .

وهكذا أحييَت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، وأراد بيبرس هذه المرة أن يكون الخليفة تحت عينه بالقاهرة — ولم يرد بيبرس بذلك أن يخلق

فى عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته، بل أراد أن يكون الخليفة سلطة نافعة فحسب يستمد منها ما يحتاج إليه من الحماية الروحية والمركز الشرعى، ويدل على ذلك أن السلطان لم يأمر تلك المرة أن يكتب اسم الخليفة على السكة وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة الذى عرف فيما بعد ببرج الخليفة — ولم يترك له غير الدعاء فى الخطبة.

على ذلك لم تكسب الخلافة العباسية إلا كسباً زائفاً، إذ كان سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت يفرضون لأنفسهم — حتى الفتح العثمانى — مركزاً ممتازاً بحجة أنهم حماة الخلافة، وصارت القاهرة مركز العالم الإسلامى وذلك فوق مركزها التجارى.

واستمرت الخلافة العباسية فى دولة المماليك قانعة بذلك القسط الطفيف من السلطان والنفوذ، ولم يفكر أحد من الخلفاء فى توسيع نفوذه، بل قنعوا بالتضييقات التى أحدثها قلاوون حين حوّلت الخلافة إلى قلعة ثانوية بعيدة عن القلعة وهى قلعة الكبش بالبغالة الحالية، غير أن الخلافة العباسية بدأت تتحرك فعلا للانتقام من بيت قلاوون فى أيام الناصر محمد، حينما مالت إلى أحد السلاطين الذين تخللت عهودهم أيام هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون، وعوقبت الخلافة فى شخص القائم بها بعد عودة الناصر إلى السلطة مرة ثانية فى أوائل القرن ١٤ م.

وبقيت الخلافة على هذا الضعف تحت رقابة دائمة حتى انتهى عصر الناصر محمد فى أواسط القرن ١٤ م، وتولى الدولة المملوكية سلسلة أبناء البيت، القلاوونى وعملت الخلافة العباسية جهدها للانتقام من أبناء هــذا البيت، وكان آخرها ما استطاعته من خلع آخر أبناء ذلك البيت من السلطة المملوكية فى أواخر القرن ١٤ م مما أدى إلى انتهاء دولة المماليك الأولى سنة ١٣٨٢ م وقيام الدولة الثانية (المماليك البرجية).

وحاولت الخلافة فى عهد الدولة الثانية أن تجمع بين السلطة والخلافة معا لكنها فشلت فى ذلك، وبقيت هكذا على حالها من الضيق حتى حدثت لها النقلة الثانية من القاهرة إلى اسطنبول بعد فتح الأتراك العثمانيين لمصر وإزالة الدولة المملوكية بها.

أسلوب الجدل فى القرآن

للأستاذ الشيخ عز الدين اسماعيل

يلاحظ كل من قرأ القرآن الكريم وتدبره ، وعاش معه بعقله وقلبه فترة متطاولة ، أن قواعد الإيمان وأصوله التى هى لباب الدين الحنيف وجوهر الدعوة ، لم تعرض فى القرآن بشكل تعقيدى جامد ، يأخذ الناس بالشدة ، ويقسرهم على قبول تلك المبادىء أو الأصول قسراً دون ما إجالة للفكر ، وإعمال للذهن ، بل على العكس من ذلك تماما ، إذ هو ينزل بتلك الأصول المقدسة إلى منزلة الأخذ والرد ، أو قل إلى منزلة الجدل والمناقشة .

فوجود الله سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، والحياة الآخرة ، والبعث ، وما شاكل ذلك من تلك الأصول ، نجدها جميعاً تعرض لا بصورة إلزامية وحسب ، ولكنها تعرض فى صورة جدلية وأسلوب حجاج لا نقرر جديداً إذا قلنا إنه مفحم ومقنع وبالتالى يكون ملزما ؛ ولكن الإلزام هنا عن بينة وبعد أقناع واقتناع .

ولا نقرر من صفات القرآن جديداً إذا قلنا إن هذا الجدل يعرض على ذهن كل إنسان ـ مهما اختلف الناس فى ثقافتهم بين السذاجة والعمق ـ فيجد فيه مقنعاً أى مقنع ؛ بل أكثر من هذا ، فظنى أن هذا الجدل لم يكن فى صوره المختلفة ليحدث فى العقول الاقتناع فحسب ، بل كان يصحبه ـ وما زال ـ لون من الإيمان عميق ، نتيجة رضى وارتياح نفسى تحدثهما الحجة وأسلوب الحجة جميعاً . وما وقع لجبير بن مطعم من أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور . فقال : لما بلغ الرسول هذه الآيات : « أم خلقوا من غير شىء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض ، بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك ، أم هم المصيطرون . . » ، قال : كاد قلبى أن يطير ؛ وذلك أول ما وقر الإسلام

فى قلبى [١] - فهذا مثل ملموس لما كان يتركه هذا الأسلوب الجدلى فى النفوس من أثر، وما كان يحدثه من تعميق الإيمان فى القلوب . وإذا كنا لا نستطيع أن نقرر أن عقلية العرب إبان الدعوة كانت آخذة بأسباب الفلسفة والكلام مثلما صارت إليه فى العصر العباسى مثلا، فإن صور الجدل التى نزل بها القرآن هى الصور التى كانت توائم عقلية العرب التى لم توغل بعد فى الفلسفة أو الكلام وإن صلحت فيما بعد لأن تكون مادة طيبة عند ما تفلسفت العقول وأخذت بأسباب الكلام . وهنا لا يملك الإنسان إلا أن يشهد ويسجل لوناً من ألوان الإعجاز من رب القوى والقدر . والسيوطى لا يبعد عن هذا حينما يذكر لنزول الجدل بهذه الصورة هذين السببين :

أولا : بسبب ما قاله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .

ثانياً : إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن مَنْ إستطاع أن يفهم بالأوضح الذى يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الأغمض الذى لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً ، فأخرج تعالى مخاطباته فى محاجة خلقه فى أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يقنعهم وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أنبائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء .

والآيات الجدلية فى القرآن معنية بجوانب ثلاثة هامة وبارزة، اولها وجود الله ومعرفته، وثانيها وحدانيته، وثالثها الخلق أو الإنشاء والإعادة أو البعث وهذه الجوانب — كما سبقت الإشارة — أصول جوهرية فى العقيدة نعرض لها فيما يلى .

أولا . فيما يختص بمعرفة الله اثبات وجوده تصادفنا تلك الصورة الرمزية الرائعة المتمثلة فى قصة ابراهيم عليه السلام « وإذ قال إبراهيم لأبيه آذر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل ، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما

---

(١) السيوطى : الاتقان جـ ٢ ص ٢٠٧ ، ط ٣ .

أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال ياقوم إني برىء مما تشركون . إني وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين » فبهذه الطريقة يرتقى العقل إلى معرفة الله الحق ؛ فلا هو الكوكب ، ولا هو القمر ولا هو الشمس الاكبر ، ولكنه هو الذى فطرهن جميعاً وفطر السماوات والارض . وفى ذلك تصوير دقيق لاستنباط العقل وجود « الثابت » الدائم من « المتغير » الحائل ، وإننا لنقرأ هذه الآيات « إن فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » فنقرأ فيها الادلة المادية والبراهين الملموسة على وجود الخالق المبدع ، وهذا من باب معرفة العلة بطريق المعلول ، « أفى الله شك فاطر السماوات والأرض .

ويهمنا أن هذا الأسلوب السهل البسيط الواضح فى التدليل قد انطوى على مادة فلسفية أشبعت عقلية كعقلية ابن رشد بعد ذلك ببضعة قرون ، فاستنبط منها ما سماه دليل الاختراع والخلق ، أى إبداع الأشياء ، ودليل العناية Providence أى خدمة هذه المخلوقات لتحقيق غاية . وعلى هذا الأساس تدبر قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شئ ... » الآية ، وقوله . «راجع س ٣١ آية ٢٠ ، ٢١ » .

ثانيا : وبالمبدأ العلى البسيط يعرف كل إنسان أن لكل موجود موجدا ، ولكن لم لا يشترك أكثر من موحد فى إيجاد الشىء ؟

الجواب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام ، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما . وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزىء الفعل إن فرض الاتفاق ، أولا متناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لاتنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، والإله لا يكون

عاجزا (١) « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من أله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض » .

ثالثا : ثم لننظر أخيرا كيف قدم الحجج الباهرة لمن أنكر البعث كالدهر بين القائلين « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » س ٢٣ آية ٣٧ . لقد دلل سبحانه وتعالى على إعادتهم وبعثهم من جديد بأن الذى يبدأ الخلق فى قدرته أن يعيده ، فهنا تقاس الاعادة على الابتداء كما صور ذلك تعالى فى أول سورة الحج « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور » ففى هذه الآيات دليلان ، الأول نجده فى أنفسنا حيث كنا ترابا ثم نصير إلى الموت ، والثانى فى تلك الأرض الهامدة الميتة حتى إذا نزل عليها الماء دبت فيها الحياة وأنبتت نباتا حسنا . وهكذا فى الأرض أدلة وآيات ، وفى أنفسنا أدلة وآيات لا تترك مسربا للشك ، ولا مجالا للمكابرة . وانظر إلى هذه المقدمات فى سورة ق : « ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، » فهل يخالج نفسك شك فى هذا ؟ فإذا آمنت — وإنك لا تملك إلا أن تؤمن — بهذا ، فكذلك يكون البعث ، أو « كذلك الخروج »

وعلى هذا النحو تستطيع أن تتدبر فى قوله تعالى : « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . . . الخ » الآيات ، آخر يس .

هذه هى النواحى الثلاث البارزة فى الجدل القرآنى . ولا أحسبك وقد أمررت عليها ذهنك ، ولبثت معها قليلا ، إلا قد أدركت مغزى قول جبير بن مطعم « كاد قلبي أن يطير » . وأى رفق بالعقول ذلك الذى طالعه فى قوله تعالى :

(١) الاتقان س ٢٣٠ ج ٢

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون » ! لقد أخذ بهذه البساطة فى الحجة وقوتها مع ذلك ونصاعتها . ولو استطاع الإنسان أن يقرب ذلك بصورة من الصور لتمثلت له صورة مرب كبير يأخذ الأطفال باللين والرفق ، وإذا اختلفوا معه قال : « يا أبنائى الأعزاء رويدكم ! وهيا نتفاهم » - وجل الله تعالى عن المثيل : وألست تحس بتلك الشفافية فى قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، إن الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » يقول ابن الأثير معقباً ، ألا ما أحسن مأخذ هذا الكلام وألطفه ، فإنه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقا يصيبكم بعض الذى يعدكم إن تعرضتم له . هذا وفى الكلام من حسن الأدب والإنصاف [1] ، وأين إذن يكون حسن الأدب فى المجادلة ، والإنصاف فى الحكم ، إن لم يكن فى كتاب الله الكريم ؟

ولنتبين مع ابن الأثير قوله تعالى : « واذكر فى الكتاب ابراهيم إنه كان صديقا نبيا . إذا قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك ، فاتبعنى أهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا » . يقول ابن الأثير : هذا كلام يهز أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ؛ وهو أنه لما أراد أبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذى عصى به أمر العقل ، رتب الكلام معه فى أحسن نظام ، مع استعمال المجاملة واللطف والأدب الحميد والخلق الحسن مستنصحا فى ذلك بنصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولا العلة فى خطيئته منبه على تماديه موقظ من غفلته ، لأن المعبود لو كان حيا مميزا سميعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب ، وأنه بعض الخلق يستخف عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق

---

(١) ابن الأثير . المثل السائر ص ٢٩٥ .

كالملائكة والنبيين ، فكيف بمن جعل المعبود جماداً لا يسمع ولا يبصر ، يعنى به الصنم ؛ ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترفقا به فلم يَسِـمْ أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن معى لطائفة من العلم وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بهداية الطريق دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل . ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال : إن الشيطان الذى استعصى على ربك ، وهو عدوك وعدو أبيك آدم ، هو الذى ورطك فى هذه الورطة ، وألقاك فى هذه الضلالة . . ثم ربع ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ، ولكنه قال إنى (أخاف) أن يمسك (عذاب) فنكر العذاب ملاطفة لأبيه . وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله . يا أبت توسلا إليه واستعطافا [٢] .

وأخيراً ، فعله لم يعد خافيا أنه من أراد أن يتعلم أسلوب المجادلة وآدابها وطرقها المنطقية والفنية ، فعليه أن يقرأ القرآن ، ويتدبر ، ويديم النظر ، ليستخلص العبر وليجد غذاءه العقلى والنفسى موفورين .

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام رجل :

يكفى قليل كلامه وكثيره ثبت اذا طال النضال مصيب

وأنشد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيأ :

طبيب بداء فنون الكلام فلم يعى يوما ولم يهذر
فان هو أطنب فى خطبة قضى للمطيل على المنذر
وان هو أوجز فى خطبة قضى للمقل على المكثر

---

(١) ابن الأثير . المثل السائر ص ٢٩٥ .

في عالم المؤلفات الجديدة

مؤلفات ابن سينا

ابن سينا من أشهر فلاسفة الإسلام إن لم يكن أشهرهم جميعاً . فقد وعى كل ما يمكن أن يعيه محب للعلوم من المعارف التى كانت رائجة فى زمنه ، وألف فيها كتاباً أو أكثر ، وهو معدود واحداً من الأفراد القلائل الذين جمعوا الثروة العلمية للعالم الإسلامى ، وتركوها أثراً قيما لمن بعدهم . فلا غرو بعد هذا أن يبقى اسمه حياً فى أفواه المتعلمين ، وقد يتعداهم إلى الأميين أيضاً ؛ فإنه كما ألف فى الأفلاك وحركات النجوم والكواكب ، ألف فى الفلسفة والطب والعلاج ، وتناقل الناس ما كتبه ، وعنوا به عناية خاصة لما كان عليه من الشهرة والتفوق. وقد لقبه العلماء بالشيخ الرئيس لفضله وغزارة علمه . كان تركى الأصل ولد ببلخ وانتقل إلى بخارى ومنها أخذ يتنقل فى المدن طلباً للعلوم ، وتصيداً للمعارف . وقد عد له المحصون نحو مائة مؤلف فى جميع العلوم. وقد اهتم العالم بتلك الكتب وتناسخوها لما حوت من نفائس المعارف ، وقد شغل العارفون بذلك فى جميع مراكز العلم بعد وفاته إلى يومنا هذا . وقد نسب إليه بعض مروجى الكتب مؤلفات ليست له لتروج بين الناس ، وتنبه العلماء لهذا التدليس فتتبعوه فى كل زمان وفى كل بلد بعد وفاته ، لتخليص مؤلفاته من الدخيل ، وقد وفقوا إلى ذلك بما بذلوه من جهد ومثابرة . وقل من أتعب عشاق العلم بعد وفاته ، كما أتعبهم ابن سينا ، ولكن ذلك يرجع إلى سمو مؤلفاته ، واستحقاقها لتجريدها مما ليس منها إبقاء على الثقة بها ، والتعويل عليها .

فلما أزف وقت إقامة مهرجان لابن سينا فى هذا العام أو ربيع الذى يليه ، انتهزت الإدارة الثقافية من جامعة الدول العربية هذه الفرصة لأجل أن تجمع أكثر ما تستطيع جمعه من مظانه فى أقطار الأرض ؛ فبعثت بعوثاً إلى تركيا وإيران وأسبانيا ليمكنوا مندوبيها من أخذ صور ماعساه أن يكون لديها من مؤلفات هذا الفيلسوف الإسلامى الفذ ، وقد ألفت فى مصر لجنة لجمع المؤلفات التى تطبعها الأمم المهتمة بذلك لابن سينا ، وترتيب البحوث والخطب التى تلقى فى المهرجان المنوى إقامته احتفالا بذكرى ابن سينا فى ذلك المهرجان . فكان أول ما يجب على لجنة المهرجان عمله هو أن تحصى مؤلفات ابن سينا وتدل على أماكن وجودها . وقد وكلت عمل هذا الاحصاء إلى الأستاذ المستشرق الضليع الأب جورج شحاتة قنواتى ، وكلفته حصر هذه الكتب فى جميع المكتبات المشهورة ، وخاصة مكاتب استانبول التى جمعت من مؤلفات ابن سينا أكثر مما جمع غيرها ، وكلفته فوق هذا أن يصف هذه الكتب ويقسمها إلى موضوعاتها ، وأن يرتبها بحسب تواريخ ظهورها . وهذا تكليف تنوء به الجماعة فما بالك بفرد . ولكنه رغماً عن المشاق التى تعترض سبيله ، والمتاعب التى يجب تحملها للوصول إلى غرضه ، فانه قد وفى بما عهد إليه . وإنى أدعه يحدد مدى عمله بقلمه فقد كتب فى كتابه الذى بين يدى يقول :

« إنى لم أتوخ بعملى هذا أن أصل إلى موسوعة جامعة تحوى كل ما يخص ابن سينا ، ولا أدعى أن ما أقوله هنا هو الكلمة القاطعة فى المشاكل العديدة التى تواجه الباحث المهتم بإنتاج ابن سينا . فعملى أكثر تواضعا من هذا وذاك . إنى أريد فقط أن أضع بين يدى الباحثين بعض الوثائق الخاصة بإنتاج ابن سينا ليستطيعوا على ضوئها أن يتابعوا أبحاثهم . وبمعنى أدق أن أحصر جميع مؤلفات ابن سينا ، مطبوعها ومخطوطها ، وأن أشير الى محتوياتها ومظانها ، وإلى المواضع التى بها هذه المخطوطات ، مع وصفها على قدر ما تتسع له طاقتى .

« ومما يجعل هذا العمل ذا أهمية إنى رجعت فيه الى مخطوطات الآستانة التى أتيح لى أن أراها فى زيارتى الى تركيا سنة ١٩٤٩ . ففى الآستانة من مؤلفات ابن سينا القسط الأوفر ، إذ هناك ما يربو على الألف والخمسمائة مخطوطا لابن سينا ولا يخفى أن الاطلاع عليها أمر أساسى لعمل كهذا ، . ولقد كان شعورى منذ

البدء أن يكون محور مجهودى مخطوطات الأستانة ، ولقد قلت هـذا فى لجنة ابن سينا فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، فرحبت اللجنة بهذه الفكرة ، وكلفتنى أن أقوم بحصر مخطوطات الآستانة حين إقامتى مع البعثة العلمية للمخطوطات التى أرسلت إلى هناك . »

ثم أخذ يبين ما مهد سبيل البحث له وأفاض فى ذلك ، والمطالع على العمل الذى قام به ، والتدقيقات التى استخدمها لضبط أرقامها ، وتعيين موضوعاتها ، يدرك لأول وهلة المشقات التى كابدها ، والمجهودات التى بذلها ، ويجد نفسه مدفوعا إلى شكره عليها ، والثناء عليه من أجلها . فهى والحق يقال خدمة للعلم والحكمة قل من يكابد مثلها فى سبيل خدمة العلم والحكمة فى زماننا الراهن . فنرجو الله أن يثيبه عليها ثواب العاملين المخلصين ، وأن ينفع بها طلاب المعرفة ، وهو الغرض الذى توخاه من القيام بحقها ، والجزاء الذى يرجوه عليها .

تاريخ داريا

هو مؤلف تاريخى نفيس للقاضى عبد الجبار الخولانى رحمه الله ، عنى بنشره المجمع العلمى العربى بدمشق بعناية الاستاذ اللغوى النابه سعيد الافغانى .

أما داريا فهى أكبر قرى الغوطة الجنوبيـة لدمشق تبعـد عن دمشق نحو ثمانية كيلو مترات جنوبا إلى غرب ، ويبلغ عدد اهلها خمسة عشر الفا وقدكانت فى أكثر العصور حاضرة العلم والادب . لذلك عنى بافراد كتاب لتاريخها القاضى عبد الجبار الخولانى فى نحو سنة (٣٦٥) وترجم فيه لسبعة وأربعين من أهل الحديث فى داريا ، وهو عدد قليل لم يستوف ، فأين هو مما كتبه عنها ابن عساكر وهو يقع فى ستة اجزاء ؟ وهو كتاب يحتوى على فوائد مركزة ومزايا علمية لا توجد فى غيره ولذلك رأى المجمع العلمى العربى ان يأمر بطبعه فكان ما اراد وله الشكر . ولا يجـوز أن ننسى فضل الذى عنى به وهـو الاستاذ الجليل سعيد الافغانى فقد انفق من الجهود المشكورة ما يجعل كل قارىء يعجب بما خدمه به من التحقيقات .

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس من هنا نبدأ

الكهانة أيضا

نعود اليوم لمناقشة ما كتبه حضرة الأستاذ خالد محمد فى كتابه (من هنا نبدأ) فنقول :

قال حضرته : « والآن .. نتقدم بهذه الأسئلة : « ماذا تريد الكهانة بدعوتها الناس إلى الفقر ؟ ولماذا تسخر نفسها الدفاع عن مصالح الكبار ؟ ولماذا تكافح كل محاولة لتحول اجتماعى يريده المجتمع ، ويتضرم شوقاً إليه ؟ » .

نقول : لم نر نحن ولم نسمع ولم ير غيرنا ولم يسمع أن واحداً من العلماء تصدى يوما من الأيام لدعوة الناس إلى الفقر ، أفلم يكن من الحكمة فى مثل هذا المقام الخطير أن ينقل عنه بعض ما قال حتى لا يتهم بأنه يكيل التهم جزافا ، ليرد عليها ، توسلا لقول ما يريد أن ينشره من المبادىء ، كما يفعل القصاصون . إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه ، كره الفقر واستعاذ منه فى حديث مشهور ، نقله أئمة الحديث ، فهل يجرؤ عالم إسلامى أن يمدحه ويتخذ ذلك مذهباً له ينشره بين الناس ، وفى عهدنا هذا ؟

وأى عالم دينى سخر نفسه للدفاع عن مصالح الكبار ، وفى أى مجلة أو جريدة أو كتاب نشر هذا الدفاع ؟

وما هو التحول الاجتماعى ... الذى يريده المجتمع ويحول رجال الدين دونه ؟

كل هذا كان يجب بيانه للناس ليكون لكلامه وقع فى نفوسهم وتأثير فى عقولهم . أما ما نقله عن (ولز) وحاول الأستاذ أن يجعله مثالا للأمة الإسلامية فى العصر الحاضر ، فمطلب بعيد المنال ؛ فإن الفرق بين ما عليه المسلمون ، حتى عامتهم ، من العقائد الدينية ، ونظمهم الحكومية ، وروابطهم الاجتماعية ،

ووجهاتهم الأدبية ، وخاصة فى هذا العصر ، لا يمكن أن يقارن بما ذكره (ولز) عن سلطان الكهان قبل آلاف السنين !

يقول الأستاذ خالد مستهزئا :

« ليس من الإنصاف أن نظلم الكهانة فننعتها بالجمود المطلق ، فإن لها مرونة خارقة تمدها دائماً بإمكانيات التفاعل مع التطور ، وتلبى بها حاجات المجتمع . ماذا يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى الكهنة اشتراكية جاهزة ، وهم مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا فى ظلها أعزة شامخين كرماء ! تلك هى اشتراكية الصدقات ! فالصدقة فى نظر الكهانة نظام اقتصادى واف الخ . الخ »

يقول الأستاذ : يريد الناس اشتراكية وعدالة ، ونحن نقول : أما العدالة فلسنا نتكلم فيها فهى الغاية السامية لجميع الخلق ، ونحن هنا كغيرنا نعظم شأنها ونطلبها ؛ ولكن الناس عندنا لا يطلبون الاشتراكية . نعم لدينا حزب اشتراكى وله جريدة تنشر مبادئه ، ولكن لم ينتخب من أعضائه أحد للبرلمان ، وقد رشح حضرة زعيمه نفسه لمجلس النواب مرات ، فلم يحصل على الأصوات الكافية ، لا نقول هذا تحقيراً له فهو محام فاضل ، ولا للمبادىء التى يدعو إليها ، ولكنا نقوله تدليلا على أن هذه الأمة لا تروج فيها الدعوة إلى الاشتراكيّة . وليس فى مجلسى البرلمان عضو واحد يمت إلى الاشتراكية بسبب ، فكيف بعد هذا يستطيع أن يقول الأستاذ خالد : إن الأمة تريد الاشتراكية ؟ بل ليس فى العالم المتمدن كله غير الروسيا والأمم الواقعة فى دائرة نفوذها هى التى يسود فيها هذا المذهب ، ولكن بقية العالم المتمدن ليس للاشتراكية فيها شأن خاص ، فهى هنالك تعتبر حزباً من الأحزاب عدد أعضاء نوابه فى مجالسها النيابية أقل من ربع مجموعهم . فإذا كان هذا شأن أوروبا فى تقدير الاشتراكية ، فهل يتصور أن تكون البلاد الإسلامية أكثر تقديراً لها منها ؟

أما قول الأستاذ خالد مستهزئاً : « فالصدقة فى نظر الكهانة نظام اقتصادى واف ، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر ، وإسعاد الشعب ، ومطاردة متاعبه وشقائه ، وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان فى كل مناسبة حتى تكاد تشك هل أنت فى مجتمع أو ملجأ ! » . ونحن نذكر المقصود من كلمة الصدقة هنا ونبين وجه اعتماد المصلحين الاجتماعيين من المسلمين عليها فنقول :

المقصود بكلمة الصدقة هنا (الزكاة) المفروضة على الأغنياء لتنفق فى حفظ اتزان الطبقات الاجتماعية ودرء عللها ؛ وأشد هذه العلل وقوع طائفة كبيرة منها فى إقلال لا يمكنها من توفية حاجات حياتها ، ولا حماية وجودها من شرورها ؛ فيكون حقا على الموسرين من إخوانهم أن ينزلوا عن جزء من أموالهم لتلك الطبقات لتتفادى غوائلها ، فهو حق طبيعى لهم باعتبار أنهم جزء من الهيئة الاجتماعية ، التى لا يتأتى لها أن تقوم برسالتها إلا بتضامن طوائفها ، وتكافل جماعاتها .

وقد فطن الأوربيون لهذا الأمر الجلل فى القرنين الآخيرين ، فعملوا جاهدين على القيام به ، فبدأوا بزيادة أجور العمال ، لحماية أسرهم من الغوائل الطبيعية ؛ وما زالوا يترقون فيه تحت حافز من مطالبات الطبقات الدنيا بالانصاف ، حتى بلغوا فيها شأوا بعيدا ، من أظهر آثاره ما قرروه من الإتاوات على رؤس الأموال وسموه بضريبة الضمان الاجتماعى ، وحقوق أخرى فرضوها على أصحاب الإيرادات الضخمة بلغت فى بعض الأمم نحو تسعين فى المائة من تلك الإيرادت. ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن ، ولاندلعت ألسنة نيرانها من ناحية الطبقات المحرومة من المال .

ومن يتأمل بعلم يجد أن ما استخدمه الأوربيون من هذه الوسائل القيمة من الضرائب المختلفة ، سبقهم إليها الاسلام بتكليفه الأغنياء بدفع (الزكاة) عن أموالهم . وقد سماها بالصدقات تحبيبا لأدائها إلى نفوسهم ، ومما يدل على أنها ليست من نوع الصدقات التى تمنح للفقراء والمعوزين أنها إجبارية ، والصدقة اختيارية ، وأنها لا تجبي كما تجبى الزكاة بواسطة عمال الدولة ، فهذه ضريبة حكومية واجبة التحصيل ، ولوادى تحصيلها إلى اراقة الدماء . حتى إنه لما انتقل النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الخلافة ، أضربت بعض القبائل عن دفع الزكاة . فعزم أبو بكر على أن يجبرهم على دفعها ، وأخذ فى إعداد العدة لذلك . فكلمه عمر بن الخطاب فى الأمر ، ورجاه أن يتئد فى تنفيذ ماأجمع عليه خشية أن تثور القبائل وتصبأ عن الإسلام وهى قريبة عهد به ، فقال له خليفة رسول الله . والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه للنبى صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ؛ وما عتم حتى أرسل إليهم بالجنود تترى ، وقاتلهم وأراق دماءهم فى سبيل تحصيل الزكاة ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الزكاة ركنا من أركان إقامة الدولة . مثلها كمثل الضرائب التى تتقاضاها الدول عن الأراضى الزراعية وعوائد الأملاك الخ .

وعلى هذا فيكون الإسلام قد سبق العالم أجمع إلى وضع ضرائب على الأثرياء تجبى منهم لسد مفاقر الاجتماع ، ورأب صدوعه ، بتفاوت الناس فى درجات الكسب . والحكمة فى ذلك هى أن الأموال تجر الأموال ، فلو ترك الأغنياء وشأنهم ، امتصوا بقوة وسائلهم معين الثروة الاجتماعية ، ولم يتركوا للفقراء إلا الأوشال ، فتسوء حالهم ويتأخرون عن شأو غيرهم من الموسرين ؛ ولا يزال يتسع الفرق بين الفريقين حتى يصبح الفقراء مستعبدين للأغنياء ، فتسوء حالهم ، وكثيرا ما يحملهم الإملاق على الثورات ، فيختل نظام الجماعة ، ويعتل وجود الأمة ؛ ثم ما هى إلا بضع مصادمات يتخللها ضروب شتى من النهب والسلب ، حتى يعم الجميع الخراب .

من هنا ترى أن (الزكاة) نظام اجتماعى ثمرته حفظ التوازن بين طبقات الجماعة ، كان الإسلام أول واضع له ، وهو من أقوى الأدلة على أن الشرع الإسلامى وحى إلهى ، وضع لكل موطن من مواطن الضعف فى الجماعات الآخذة به علاجا يتقى به شرور الانحلال والتلاشى ، فما نحن بصدده من أمر الصدقات وهى الزكاة يجب أن يعتبر آية موجبة لإكباره ، وباعثة على تأييده وإجلاله .

ولو عملت الحكومات الإسلامية بما شرعه الإسلام من تحصيل ضريبة الزكاة ، لبلغ إيرادها منه ملايين كثيرة من الجنيهات تسد خلة الفاقة فى الطبقات الدنيا من الجماعات ، وتؤدى ما تؤديه الضرائب التى عمدت إليها فى العهد الأخير الحكومات الأوربية لاتقاء شرور الإقلال ، الذى تتعرض له الطبقات المحرومة من المال فى الجماعات ، ولأمكن بواسطته أحداث التعادل بينها على نسبة لا تدع للفقراء عذرا فى زعزعة أركان الاجتماع ، والتألب على قلب نظمه التقليدية ، وتفكيك عرى وحدته العمرانية .

ومن العجب العاجب أن الأستاذ مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) يتجاهل هذا كله ، ويمضى كأنه يعتبر أن الزكاة التى عبر عنها الشارع فى بعض المواطن بالصدقات ، من النوع الذى يرضخ به الأغنياء للفقراء ، وهو يعلم أنه ليس كذلك أصلا ولا موضوعا ؛ فإن هذا مما يتفضل به المحسنون على المستجدين طواعية بغير إجبار ، وقد يمتنعون عنه بتاتا فلا يطالبهم به أحد ؛ أما ما نحن بصدده فهو

(حق معلوم) يجبى بواسطة عمال الحكومة ، ويعاقب الممتنعون عنه . فإن دافعوا عن أنفسهم أجبروا عليه وأخذ منهم قسراً ؛ وله مصارف يوجه إليها ، وقاية للمجتمع من غوائل عدم التوازن بين الطبقات ، فأين هذا من ذاك ؟ ذاك شائع بين جميع الشعوب ، فإن في جميعها محسنين يعطفون على المعوزين ؛ ولكن هذا من موارد الحكومة الإسلامية ، تجنيه بواسطة عمالها ، وتنفقه في صيانة الاتزان بين طبقات الهيئة الاجتماعية ، حتى لا تميل كفة الميزان بواحدة منها فيختل نظامها ، وتصبح حربا على الموسرين .

ولكن الأستاذ المؤلف يستغل هذه المغالطة إلى أقصى حد فيقول :

« معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والهوان . إن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي ، لم تكن الصدقة (ولا يقول الزكاة) في حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . . بل هي شيء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرمق ، ولكنها لا تعالج مستوى الهبوط المعيشي للأمم والجماعات » .

تشدد الأستاذ صاحب (من هنا نبدأ) تشددا كبيرا في تحقير الصدقة ، وأطال في تحقيرها حتى قال متابعاً طريقته : « إنها أوساخ الناس ، إنها غسالة ذنوب الناس . فكيف نتصور أن يرفع الإسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ إننا نلقي على الأمة أعظم درس في الهوان والضعة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هي الصدقات » .

وبعد هذه الثورة الشعواء التي لا موجب لها على الصدقة ، ولم يقل أحد بأنها مصدر كسب شريف ، أو وسيلة أريستوقراطية للمعيشة ، بل هي محتقرة حتى لدى الفقراء أنفسهم ، تدارك موقفه فقال :

« وكانت الصدقة في عصر الرسول ، وفي لغة القرآن ، تعني (ضريبة مفروضة) هي ضريبة الزكاة ، التي نزل فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » ، وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات ، فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة في مجتمعه الذي لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم والمفصلات » .

ثم قال : « إن الزكاة وإن سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل

الاختلاف لأنها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والإحسان ، .

بعد ما اعترف الأستاذ خالد أخيرا بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) وأنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف ، عاد فقال :

« فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ » .

فهل من المنطق السليم أن الأستاذ بعد ما يفرق بين الصدقة والزكاة ، ويعترف بأن مراد القرآن منها فى موضوع الزكاة أنها (ضريبة مفروضة) ، وبعد ما يصرح المصلحون المعاصرون أنهم إنما يقصدون بما يكتبون هذه الضريبة المفروضة ، يعود فيقول : « فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ إننا نلقى على الأمة أعظم درس فى الهوان والضعة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها وشيوع العدالة فيها هى الصدقات ، ثم يمضى فيملأ نحو صفحتين من كتابه فى تحقير الصدقات وفى أنها أوساخ وأقذار ! ! .

ألا يعلم الأستاذ أن واحدا من الذين كتبوا فى موضوع رفع مستوى الحياة فى هذه الأمة وخاصة فى العهد الأخير لم يقصد بذلك الاعتماد على الصدقات ، بل على تلك الضريبة المفروضة وهى الزكاة ؟ وإذا كان يعلم ذلك فهل عثر على قول لأحد العلماء أو طلبة العلم أو الشحاذين أنفسهم ، يعتبر التصدق بالقرش والقرشين وسيلة لإصلاح المجتمعات ؟

إذا كان يقول لا ، فما حكمة إسهابه فى هذا الموضوع ، ونقل كل ما ورد فى تحقيره عن الرسول والأئمة وخاصة المسلمين وعامتهم حتى ملأ به صحفا من كتابه ؟

وإذا كان يعترف بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) على المسلمين ، فهل تعتمد الدول الأوربية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وانجلترة وفرنسا وإيطاليا وغيرها على غير (الضرائب) التى تفرضها على الناس لوقاية الاجتماع من شرور الثورات والانقلابات ، ولتحسين حال أهل الإقلال فى الجماعات ؟

محمد فريد وجدى

القرآن وقواعد النحو

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

قرأت فى جريدة البلاغ كلمة فى مقال للدكتور زكى مبارك ، يذكر فيها أن القرآن الكريم ربما تخطى قواعد النحو لغرض موسيقى ، ومثل لذلك بقوله تعالى « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت ، فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » . والشاهد فى قوله : « وأكن » بالجزم مع أنه معطوف على منصوب هو قوله : « فأصدق » ، كما مثل بقوله تعالى « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر » حيث كان القياس أن تكون « والليل إذا يسرى » بإثبات الياء .

وهذا الموضوع : موضوع الزعم بأن القرآن قد يتخطى القواعد النحوية ليس بالجديد ، فكثيراً ما نجد بعض المفسرين يخوض فيه مقرراً ما يراه إثباتاً أو نفياً ، وقد مر بى قريباً الاشتغال بذلك حينما كنت مكلفاً بالنظر فى كتاب « الفرقان » الذى صودر ، وقد جاء صاحبه بكثير من الآيات التى زعم أن فيها مخالفة للقواعد فى معرض الإزراء بالقراءات ، أو التهجين لما فعله الأصحاب فى رسم المصحف ، والحمد لله الذى وفق لإظهار شأن هذا الكتاب ، وضعف ما جاء به ، حتى حكم مجلس الدولة برفض طلب التعويض ، وإلغاء المصادرة ، بعد دفاع طويل ومذكرات مختلفة . وقد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل فلا أعود إليه . وإنما أريد أن أقول : إن مَثَل من يقرر أن القرآن قد تخطى قواعد النحو كمَثَل من يقرر أنه تخطى قواعد الأصول ، وكلاهما مخطىء ، لأن الأصولى حين يقرر قاعدة ، فإنما يقررها بعد تتبع ما يدل عليها من كتاب الله وسنة رسوله ، وما يقضى به الفهم فيها ، فإما أن يكون تتبعه صحيحاً كاملا فلا نجد خلافاً بين القاعدة التى قررها ، وآيةٍ ما من الكتاب الكريم ، وإما أن يكون تتبعه ناقصاً

فنجد خلافاً بين القاعدة وبعض ما جاء فى القرآن ، وحينئذ لا يقال إن القرآن خرج على قواعد الأصول ، ولكن يقال إن هذه القواعد قصرت فى التتبع أو قصر أصحابها ، وكان عليهم أن يكونوا أدق فى وضع القاعدة .

وربما كان الأمر بالنسبة للقواعد النحوية أوضح ، فإن النحو هو القواعد المستنبطة من كلام العرب للأحوال الإعرابية والبنائية التى يكون عليها الكلام ، ولا شك أن القرآن الكريم هو أول حجة فى جواز شىء أو عدم جوازه ، وإذا كان بعض القواعد النحوية ليس له شاهد إلا كلمة أو بيت من الشعر نطق به أعرابى ، فما بالك بشىء يجىء به القرآن الكريم .

وأذكر على سبيل الاستطراف ما قرأته قديماً فى بعض كتب الأدب من أن الفرزدق كان يمزح مع عبد الله بن إسحق النحوى ـ فيما أظن ـ فقال له :

ولو كان عبد الله مولى هجوته ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له عبد الله : لقد أخطأت فأصلح خطأك . إنما هى « مولى موالٍ » لا « مولى مواليا » فأجابه الفرزدق على الفور : إن علىَّ أن أقول ، وإن عليك أن تضع القاعدة .

يشير بذلك إلى أن الشاعر المحتج بقوله يقول ما شاء على فطرته وسجيته ، ولا يعد قوله خطأ ولا لحنا ، ولو خالف قاعدة مشهورة عند النحاة .

ولذلك يقتصد بعض المتحدثين فى هذا فيقولون : جاء كذا على الكثير ، وخالف كذا القاعدة المشهورة ، إلى غير ذلك من العبارات التى لا يفهم منها التخطئة من قريب أو من بعيد .

* * *

بعد هذا ننظر فى الآيتين اللتين استشهد بهما الدكتور زكى مبارك لنعلم هل خالفتا القواعد حقاً ؟

قال الطبرسى فى تفسير مجمع البيان ، وهو بصدد الكلام عن قوله تعالى «فأصدق وأكن من الصالحين» : قرأ أبو عمرو : وأكونَ ، بالنصب ، والباقون : وأكن ، بالجزم . . والحجة — أى حجة القراءتين — أن من قرأ وأكن عطفه

على موضع قوله فأصدق ، لأنه فى موضع فعل مجزوم ، ألا ترى أنك إذا قلت : أخرنى أصدق ، كان جزما بأنه جواب الجزاء ، وقد أغنى السؤال عن ذكر الشرط ، والتقدير : أخرنى فإنك أن تؤخرنى أصدق ، فلما كان الفعل المنتصب بعد الفاء فى موضع فعل مجزوم بأنه جواب الشرط ، حُمِل قوله « وأكن » عليه ، ومثل ذلك قوله تعالى « ومن يضلل الله فلا هادى له ، ويذرْهم » لما كان فلا هادى له فى موضع فعل مجزوم ، حمل « ويذرْهم » عليه .. ومثل ذلك قول الشاعر :

أيّاً سلكت فإننى لك كاشح ... وعلى انتقاصك فى الحياة وأزدد

حُمل «وأزدد» على موضع الفاء وما بعدها ، وأما قول أبى عمرو « وأكون » فإنما حمله على اللفظ دون الموضع ، وكان الحمل على اللفظ أولى لظهوره فى اللفظ وقربه » .

فمن هذا الذى ذكره الطبرسى فى توجيه قراءة الجزم يتبين أن لاخطأ ولا تخطى وأزيد ما ذكره إيضاحا فى ناحية ما يشير اليه بقوله إن « أكن » فى موضع الجزم فأقول : إن إيراد ما قبل هـذه الجملة يعين على فهم المراد ، فالله تعالى يقول فى سورة المنافقين :

« يأيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون ، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها والله خبير بما تعملون » .

فهذه الآيات تتحدث عن شأن الإنفاق والتصدق وما يجب على المؤمنين فيه ، مقابلة بذلك ما جاء قبلها فى قوله تعالى عن المنافقين : « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون » فهى تبنى الصلاح وعدمه فى هذا المقام على التصدق والبذل ، والضن والبخل ، فمن تصدق وبذل فهو الصالح ، ومن بخل وأبى فهو المنافق الخادع ، فإذا قال امرؤ حين يأتيه الموت « رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » كان المعنى الذى يوحى به السياق ، والذى يأتى فى ذهن قائل هـذا الكلام : وإنْ أصدقْ أكنْ من الصالحين ، وتقدير

الكلام بحسب ترتيب المعنى المفهوم من جو الآيات : أخرنى فإنك إن أخرتنى سأتصدق ، وإن أتصدق أكن من الصالحين ، فالمراد الربط بين الصدقة والكون من الصالحين ، وليس المراد حصول الصدقة والكون من الصالحين بعد التأخير ، وإنما يقال ذلك فى قراءة « وأكون » .

أما قوله تعالى « والليل إذا يسر » فيقول فيه الطبرسى أيضا :

« قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائى « والليل إذا يسرى » بإثبات الياء فى الوصل وحذفها فى الوقف ، وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء فى الوصل والوقف ، والباقون بالحذف فيهما .

ثم وجَّه هذه القراءات ، فذكر أن قراءة حذف الياء ترجع إلى قاعدة ذكرها سيبويه من أن مالا يحذف فى الكلام وما يختار فيه ألا يحذف نحو القاضى بالألف واللام ؛ يحذف إذا كان فى قافية أو فاصلة ، قال سيبويه : والفاصلة نحو « والليل إذا يسر » و « يوم التناد » و « الكبير المتعال » فإذا كان شىء من ذلك فى كلام تام شبه بالفاصلة ، فحسن حذفها ، نحو قوله تعالى « ذلك ما كنا نبغ » .

بهذا يتبين أن القاعدة لا تضيق عن حذف الياء كما زعم من زعم ، والله المستعان على ما يصفون ؟

السيادة

نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إنى أظن أن هذا الغلام سيسود قومه ، فسمعته أمه هند فقالت : ثكلته إذا لم يسد غير قومه .

ودخل ضمرة بن أبى ضمرة على النعمان بن المنذر وكانت به دمامة شديدة ، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه .

فقال ضمرة : أيها الملك إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإن قال قال ببيان ، وان قاتل قاتل بجنان .

قال النعمان : صدقت ، وبحق سودك قومك .

من ذخائر السنة

نزول القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى ياسين

جاء فى الصحيحين من حديث عائشة رضى الله عنها فى بدء الوحى قالت : « فجاءه الملك ، فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء ، قال . فأخذنى فغطّنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، وكرّر ذلك معه ثلاث مرات ، وفى الأخيرة قال له : « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم » .

* * *

النزول فى الأصل . انحطاط من عُلو ، يقال : نزل عن دابته : إذا حطّ عنها ، ونزل بكذا وأنزله بمعنى ، وإنزال الله تعالى نعمه ونقمه على الخلق : إعطاؤهم إياها ، وذلك إما بإنزال الشىء نفسه ، كإنزال القرآن ، وإما بإنزال أسبابه ، والهداية إليه ، كانزال الحديد واللباس ، ونحو ذلك ، والفرق بين الإنزال والتنزيل فى وصف القرآن ، أن التنزيل يختص بالموضع الذى يشير إليه إنزاله مفرقا ، والإنزال عام ، وأما التنزّل ، فهو كالنزول به ، يقال : نزل الملك بكذا وتنزّل ، ولا يقال : نزل الله بكذا ، ولا تنزّل .

ويطلق النزول أيضاً ويراد به الحلول فى المكان ، يقال : نزل فى مكان كذا : إذا حلّ فيه ، وأوى إليه .

غير أن النزول بمعنى انحدار الشىء من عُلوْ إلى سفل ، وبمعنى الحلول فى المكان ، والأوِىّ به ، لا تليق إرادته فى نزول القرآن من الله تعالى ،

ولا فى إنزاله إياه ، لما يلزم هذين المعنيين من صفات الحدوث ، فلا بدّ إذن من استعمال النزول فى معنى مجازى ، وقال البعض : إن المراد بإنزال القرآن إظهاره فى مكان عال ، ثم إنزال الملك به من ذلك المكان ، وقال آخرون : إن المراد بإنزاله إعلام الملك به ، وإفهامه إياه ، ثم إنزاله بما فهمه ، وقيل غير ذلك ، ويرى بعض الباحثين أن الأولى والأحسن جعل المعنى المجازى لإنزال القرآن هو الإعلام فى جميع إطلاقاته .

ولما كان نزول القرآن يتصل اتصالا وثيقا بالوحى ، لمجيئه من طريقه ، ووصوله فى بريده ، كان من الضرورى أن نشير إشارة عابرة إلى معنى الوحى وأقسامه وكيفياته وصوره ، حتى يتسنى لنا أن نعرف حقيقة النزول فى وضعها الصحيح الأكمل

فالوحى عند أهل اللغة يطلق على الإعلام فى خفاء ، وعلى الكتابة والمكتوب والبعث ، والتصويت شيئاً بعد شىء ، وقد يجىء بمعنى الأمر نحو : « وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى » ، وبمعنى التسخير نحو : « وأوحى ربك الى النحل » ، أى سخّرها لهذا الفعل ، وهو اتخاذها من الجبال بيوتا الخ ؛ وقد يعبر عن ذلك بالإلهام ، لكن المراد به هدايتها لذلك ، والا فالإلهام حقيقة إنما يكون لعاقل ، نحو : « وأوحينا إلى أم موسى » ، وقد يجىء الوحى بمعنى الإشارة نحو : « فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا » وقيل : أصل الوحى التفهيم ، فكل ما دللت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة أو ايماءة فهو وحى .

والوحى فى اصطلاح الشرع : إعلام الله تعالى أنبياءه الشىء إما بكتاب أو برسالة ملك ، أو منام ، أو إلهام ، وقد يطلق على الموحى كالقرآن والسنة من إطلاق المصدر على المفعول ، قال تعالى : « إن هو إلا وحى يوحى » .

وأما صور الوحى فى كيفية نزوله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد ذكروا له سبعة أحوال : أحدها : أن يكون ذلك فى المنام ، كما فى حديث عائشة : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة . ثانيها :

أن ينفث الكلام فى روعه نفثا ، كما فى حديث : إن روح القدس ينفث فى روعى. ثالثها : أن يأتيه فى مثل صلصلة الجرس ، كما فى حديث : كيف يأتيك الوحى ؟ رابعها : أن يتمثل له الملك فى صورة رجل ، كما فى حديث كيفية الوحى أيضاً. خامسها : أن يتراءى له الملك فى الصورة التى خلقه الله عليها ، سادسها : أن يكلمه الله من وراء حجاب ، إما فى اليقظة ، كما كلمه فى ليلة الإسراء ، وإما فى المنام ، كما فى حديث الترمذى : « أتانى ربى فى أحسن صورة » الحديث . سابعها : وحى إسرافيل ، فقد ثبت بالطرق الصحاح كما فى مسند أحمد : « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نزلت عليه النبوة ، وهو ابن أربعين سنة ، فقرن بنبوته إسرافيل عليه السلام ثلاث سنين ، فكان يعلمه الكلمة والشىء ولم ينزل القرآن ، فلما مضت ثلاث سنين ، قرن بنبوته جبريل عليه السلام ، فنزل القرآن على لسانه عشرين سنة : عشراً بمكة ، وعشراً بالمدينة ، فمات وهو ابن ثلاث وستين سنة » .

وذكر الحليمى أن الوحى كان يأتيه على ستة وأربعين نوعا ، وغالبها من صفات حامل الوحى ، ومجموعها يدخل فيما ذكر من الصور السابقة .

ووحى القرآن كله ، كان بوساطة أمين الوحى جبريل عليه السلام الذى تواترت الأخبار من لدن النبى عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا أنه الملك الذى كان يحمل الوحى ، وينزل بالقرآن على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأغلب ما كان يأتيه به على ضربين : أحدهما أنه كان يأتيه به ، فيلقيه عليه كما يلقى الرجل على الرجل ، والثانى أنه كان يأتيه به فى مثل صوت الجرس ؛ فأما وحى إسرافيل ، فإنه لم ينزل عليه فيه شىء من القرآن ، والإلقاء فى الروع راجع إلى الصلصلة ؛ والتكليم ليلة الإسراء ، كان بلا واسطة ؛ ورؤيته له فى صورته التى خلق عليها لم تقع إلا مرتين : مرة عند ما طلب منه ذلك ، والأخرى عند المعراج .

وأما فى النوم ، فإن القرآن كله قد نزل فى اليقظة ، ولم ينزل منه فى النوم شىء ، وذهب بعضهم إلى أن فيه ما نزل فى النوم ، واستدل على ذلك بما روى مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذات يوم بين أظهرنا

فى المسجد ، إذ أغفى إغفاءة ، ثم رفع رأسه مبتسما ، فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ ، فقال : أنزلت على آنفا سورة ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك هو الأبتر » ، وقد رد على ذلك الرافعى فى أماليه ، فقال : « هم فاهمون من الحديث أن السورة نزلت فى تلك الإغفاءة ، وقالوا : من الوحى ما يأتيه فى النوم ، لأن رؤيا الأنبياء وحى ، قال : وهذا صحيح ، ولكن الأشبه أن يقال : إن القرآن كله نزل فى اليقظة ، وكأنه خطر له فى النوم سورة الكوثر المنزلة فى اليقظة ، أو عرض عليه الكوثر الذى وردت فيه السورة ، أو تكون تلك الإغفاءة ليست إغفاءة نوم ، بل الحالة التى كانت تعتريه عند نزول الوحى ، وتسمى برحاء الوحى » ، قال السيوطى : « الذى قاله الرافعى فى غاية الاتجاه ، وهو الذى كنت أميل إليه قبل الوقوف عليه » .

فمن هذا كله تتبين الحالة التى كان ينزل فيها جبريل بالقرآن على النبى صلى الله عليه وسلم ، ومنه يعلم أنها تكاد تنحصر فى كيفيتين : فى الإتيان له فى مثل صلصلة الجرس ، وهذه يدخل فيها دوى النحل وغيره مما يقاربه من الكيفيات ، وفى التمثل له بصورة رجل كدحية بن خليفة الكلبى ، والأعرابى وغيرهما .

وهذا كله فى نزول جبريل بالقرآن على النبى عليه السلام ، وأما نزول القرآن على جبريل ، وتلقيه له ، فهذا من أنباء الغيب التى لم ترد فيها نصوص ، ولم تعرف لها كيفية ، وكل ما هنالك أقوال للعلماء والباحثين يصح الاستئناس بها ، والاسترشاد بما فيها .

قال الطيبى : « لعل نزول القرآن على الملك أن يتلقفه تلقفا روحانيا ، أو يحفظه من اللوح المحفوظ ، فينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم ، فيلقيه إليه » .

وقال البيهقى فى معنى قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » : يريد - والله أعلم - إنا أسمعنا الملك ، وأفهمناه إياه ، وأنزلناه بما سمع » .

وقال الغزالى : « وسماع الملك وغيره الوحى من الله تعالى بغير واسطة ، يستحيل أن يكون بحرف أو صوت ، لكن يكون بخلق الله تعالى للسامع علما

ضروريا بثلاثة أمور : بالمتكلم ، وبأن ما سمعه كلامه ، وبمراده من كلامه ، والقدرة الأزلية لا تقصر عن اضطرار الملك وغيره إلى العلم بذلك ، وكما أن كلامه تعالى ليس من جنس كلام البشر ، فسماعه الذى يخلقه لعبده ، ليس من جنس سماع الأصوات » .

وحكى القرافى خلافاً للعلماء فى ابتداء الوحى ، وهل كان جبريل ينقل له ملك عن الله عز وجل ، أو يخلق له علم ضرورى بأن الله تعالى طلب منه أن يأتى محمداً أو غيره من الأنبياء بسورة كذا ، أو خلق له علماً ضرورياً بأن يأتى اللوح المحفوظ ، فينقل منه كذا .

وللقرآن نزول آخر غير هذا ، وهو نزوله إلى اللوح المحفوظ ، ونزوله من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا ؛ فأما الأول ، فيشير إليه قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » ، ولكن طريقة نزوله إلى اللوح ، وكيفية وجوده فيه ، ووقته ، كل هذا لا يعلمه إلا الله تعالى .

وأما الثانى ، فقد اختلف فيه على أقوال كثيرة ، أشهرها وأصحها أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى عشرين سنة ، أو فى ثلاث وعشرين ، أو فى خمس وعشرين على حسب الاختلاف فى مدة إقامته صلى الله عليه وسلم بمكة بعد البعثة ، ويشير إلى هذا القول قوله تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة مباركة » ، وقوله « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وقوله : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وتؤيده الأخبار الصحيحة الواردة فى ذلك ، والمنقولة عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : « فصل القرآن فوضع فى بيت العزة من السماء الدنيا ، فجعل جبريل ينزل به على النبى صلى الله عليه وسلم » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا فى ليلة القدر ، وكان بمواقع النجوم ، وكان الله ينزله على رسوله صلى الله عليه وسلم بعضه فى إثر بعض » ، وقال : « أنزل القرآن جملة واحدة حتى وضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، ونزّله جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم بجواب كلام العباد وأعمالهم » ، إلى غير ذلك من الآثار الكثيرة ، والأخبار الصحيحة .

وقيل : إنه نزل إلى سماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر من عشرين سنة ، أو فى ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة ، أو فى خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة فى كل ليلة ما يقدر الله تعالى إنزاله فى كل السنة ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة .

وقيل : إنه ابتدىء نزوله فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات .

والذى يدل عليه استقراء الأحاديث أن القرآن كان ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم مفرقا بحسب الحاجة ، وأنه كان ينزل بعض آية ، وآية ، وآيتين ، وثلاثا وأربعا ، وخمسا ، وعشراً ، وأكثر من ذلك . والسر فى نزوله منجما تثبيت فؤاده صلى الله عليه وسلم ، وتقوية قلبه بكثرة نزول الملك اليه ، وتجدد العهد به ، أو تيسير حفظه عليه ، لأنه عليه السلام كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ففرق نزوله عليه ، ليسهل حفظه ، بخلاف غيره من الأنبياء ، فإنهم كانوا قارئين وكاتبين ، فيسهل عليهم حفظ الجميع إذا نزل عليهم جملة ، أو لأن القرآن منه الناسخ والمنسوخ ، ومنه ما هو جواب لسؤال ، ومنه ما هو إنكار على قول قيل ، أو فعل فعل ، وكل هذا يقتضى أن ينزل مفرقا لا جملة .

واختلف فى حقيقة المنزّل على النبى صلى الله عليه وسلم ، والحق أنه اللفظ والمعنى جميعا ، وأن جبريل وعى القرآن من اللوح المحفوظ ، ثم نزل به على النبى صلى الله عليه وسلم .

وزعم بعض الناس أن جبريل إنما نزل بالمعانى خاصة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم عبر عنها بلغة العرب ، وزعم آخرون أن الله تعالى أوحى إلى جبريل بالمعنى فقط ، وأنه هو قد صاغه بلغة العرب فى تلك الألفاظ المخصوصة ، ثم نزل به كذلك بعد ذلك . والظاهر أن هذين الزعمين بعيدان عن الحقيقة ، لأنهما يفتحان باب التقول على القرآن الكريم ، ويسهلان إثارة الشكوك حوله ، وينافيان إعجازه الذى يقوم على اتحاد اللفظ والمعنى فى نزولهما معا من عند الله تعالى .

وقد قسم العلامة الجوينى كلام الله المنزل إلى قسمين : قسم يجوز أداؤه بالمعنى ، وقسم لا يجوز أن يغير منه كلمة ولا حرف ، وقال السيوطى تعليقا على تقسيم الجوينى : القرآن هو القسم الثانى ، والقسم الاول هو السنة ، فقد ورد أن جبريل كان ينزل بالسنة كما ينزل بالقرآن ، ومن هنا جازت رواية السنة بالمعنى ، لأن جبريل أداها بالمعنى ، ولم تجز رواية القرآن بالمعنى ، لأن جبريل أداه باللفظ ، ولم يبح له أداؤه بالمعنى ، والسر فى ذلك راجع إلى أن المقصود منه التعبد بلفظه ، والإعجاز به ، فلا يقدر أحد أن يأتى بلفظ يقوم مقامه ، وأن تحت كل حرف منه معانى لا يحاط بها كثرة ، فلا يقدر أحد أن يأتى بدله بما يشتمل عليه — الى أن قال : وقد رأيت عن السلف ما يعضد كلام الجوينى .

ولا خلاف فى أن الليلة التى ابتدأ فيها نزول القرآن هى ليلة القدر ، كما قال تعالى : « إنا أنزلناه فى ليلة القدر » ، وفى أن هذه الليلة كانت فى شهر رمضان كما قال تعالى : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » ، وهو الشهر الذى كان النبى صلى الله عليه وسلم يعتكف فيه بغار حراء ويصومه ، حيث جاءه جبريل وعرض عليه أن يقرأ ، فقال له : ما أنا بقارئ ، فأخذه وضمه إليه ضما شديدا ، حتى كان له غطيط يشبه صوته صوت المختنق ، فلما بلغ ذلك منه غاية التعب والمشقة أطلقه ثم فعل ذلك معه ثلاث مرات ، وفى الثالثة قال له : « اقرأ باسم ربك » الآيات .

وأما تعيين الليلة التى ابتدأ فيها نزول القرآن ، فقد وقع فيها اختلاف كثير ، والجمهور من العلماء على أنها فى أوتار العشر الأخير من رمضان ، وروى ابن سعد وغيره أن نزول الملك عليه بحراء ، كان يوم الاثنين لسبع عشرة ليلة خلت من رمضان سنة إحدى وأربعين من ميلاده صلى الله عليه وسلم ، ويميل إلى هذا الأخير بعض أصحاب السير والمؤرخين ؟

كلمتان

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أخلاق

صدق الشاعر إذ يقول : « وإنما الأمم الأخلاق . . . » ، فإنه مما لا يجوز أن يشك فيه أن قوام الأمم الأخلاق ، فإن تخلّت عنها أصبحت ولا عاصم لها من الضياع والتهدم . وهل أدلّ على هذا مما وقع ويقع تحت أسماعنا وأبصارنا من أمم تنهار ، وأخرى لا يزيدها الزمن وما يجيء به من بلاء إلا قوة ، ولا الشدائد التى يطير لها قلب الشجعان إلا استمساكا ومنعة ! ومرجع هذا ضياع الأخلاق فى الأولى ، وتأصلها وقوتها فى الأخرى . هذا حق لا يحتاج لدليل فوق دليل الواقع ، وهو يصدق على الأفراد والجماعات الصغيرة ، كما يصدق على الجماعات الكبيرة والأمم ، وكما يصدق كذلك على دور العلم وما اليها من المعاهد والمؤسسات المختلفة . إن نقيصة خلقية واحدة قد تكون سبباً قويا فى فساد الأمر وشقاء كثير من الناس .

ولنمثل لذلك بالكذب ، وبالكذب يقترفه كبير ممن يجب عليهم بحكم عملهم وتربيتهم وثقافتهم أن يتنزهوا عنه ، ويصدر عنه بسهولة ويُسْر كما يصدر الصدق عن الصادق ، بل ربما وجد ذلك سائغا لذيذا !

تجتمع وبعض الإخوان والزملاء لأمر من الأمور العامة ، ويكون الغرض من هذا الاجتماع الصالح العام ، ويتحدث بعض المجتمعين فى إخلاص وصدق مبينين هذا الصالح ومشيرين للوسائل الطيبة التى توصل إليه ، ثم ينتهى الاجتماع والكل مستبشر بما تم وواثق من نجاح القصد . وما هو إلا قليل حتى يتبين

للقائمين بهذا الاجتماع أن ما كان فيه قد تبرع بعض الإخوان بنقله محرفا مبدّلا تقربا منه إلى الرؤساء، دون أن يدرى كبر ما تولى وإثم ما اقترف! ودون أن يعلم أن ما نقل كاذبا سيتبين سريعاً كذبه، وأن العاقبة ستكون حتما سيئة له وللصالح العام الذى كان يقصده الجميع!

ومثال آخر: يكون لك عند هذا الموظف الكبير أمر هو من عمله بحكم منصبه، فتذهب إليه معتقدا أن الأمر سهل لا عسر فيه، وأنك بين أمرين فى كل منهما رضى: إما «نعم» مثمرة، وإما «لا» مريحة. يتلقاك هذا الرجل بأهلا وسهلا، ويعدك ويسرف فى الوعد بإجابة ما ترجو، حتى تخرج معتقدا أن ما ترجو صار على طرف الثمام أو حبل الذراع كما يقولون، وتمر الأيام وأنت دائب السعى وهو دائب التوكيد لما وعد، ملتمسا كل مرة تعلّة من الإنجاز تقبلها وأنت راض معتقداً أنه صادق كما يكون الرجال. حتى إذا جدّ الجد، وحان آخر أجل ضربه لقضاء ما ألحفت فيه من أمر، فرّ منك وأنكر ما وعد؛ فإذا بما كنت تعتقد من أمر مقضى صار معضلا، وإذا بمصالح تضيع عليك كان من الواجب ألا تضيع!

أيها الكاذب، أيها الإنسان صورة لاحقيقة! ليس الكذب إلا جرأة على الله وخوفا من العبد. إنما يكذب المجرم خوف العقوبة، ويكذب الخادم خوف السيد، وقد يكون لهذين وأمثالهما من الجهل عذر فى الجرأة على الله مالك الأمر كله، والخوف من العبد الذى لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً. ولكن ما عذرك أنت فى نقل ما لم يكن، وفى تحريف الكلم عن مواضعه، وفى استسهال الكذب واستعذابه! أتقوم أمة وأمثال هذا الرجل، تجوزا، كثيرون فيها، بل وممن يسمع لهم!

رحم الله ابن السماك إذ كان يرى أن الكذب مما لا يتفق مع الأنفة والمروءة حتى ليخشى ألا يؤجر على تركه. ولعمرى لقد صدق ابن السماك؛ فالكذب يجب أن يترك أنفة لأنه لا يلائم الفطرة التى لم يلحقها لؤم ولا دنس، ولذلك حرمته الأديان كلها، بل حرمه الحكماء وإن كانوا وثنيين لم يأتهم نبى أو رسول.

من الرجولة :

الرجولة وأعنى بها احترام المرء لنفسه وتقدير ما منحه الله له من نعمة الحرية فى الإرادة ، فلا يسخر نفسه لغيره تسخيراً يذهب بالكرامة والخلق ويجانب المروءة ، ولا يجعل نفسه عبداً لهـذا ، وظلا لذاك يزول بزواله ، حتى كأنه لا يعرف لنفسه وجودا مستقلا كإنسان ورجل ! الرجولة بهذا الفهم أمر يسير كل اليسر تارة ، وعسير كل العسر تارة أخرى . يسير على من يرى أن الناس ولدتهم أمهاتهم أحراراً فلا يصح ولا يجمل أن يعودوا عبيداً ، ومن يعتقد أن الله مالك الأمر كله ، فهو يعطى ويمنع متى شاء وحده دون أن يكون لأحد من خلقه أمر من الأمور معـه . وهى أمر عسير إلى أقصى حدود العسر على من عدمت ثقتـه بالله أو ضعفت ، فهو يرى أن الرزق والنعمة أمور يملكها ذوو الجاه وأصحاب السلطان وحدهم ، يتصرفون فيها كما يريدون بالبسط والإمساك فهو لهذا يبحث عن سيد يملكه نفسه ويتنازل له عن رجولته فى سبيل ماينال منه .

والأمة لا تعظم بالملايين التى تضمها من الناس الذين يغدون ويروحون ، بل بما تضم من الرجال وإن كانوا قلة من الناحية العددية .

ليس برجل من لا يستطيع أن يقول : « لا » إذا سيم خطة خسف ! ليس برجل من إذا ضمه مجلس لكبير من الناس قعد منه مزجر الكلب وجعل نفسه بوقا له يردد ما يقول ويؤمن بما يحدث ويتابع ما يرى ! ليس برجل من يكون مصداق الشاعر الذى يقول :

يوما يمان إذا لاقيت ذا يمن وإن لقيت معديا فعدنانى

ليس برجل من يقبل عليك مع الدنيـا حين تقبل ويدبر عنك معها حين تدبر ، ويناوئك لأن الرئيس تحدى عليك غضبانا !

إنما الرجل من آمن بالله وأنه الضار والنافع ، وخالط هذا الإيمان قلبه وروحه ، فهو يصدع بالحق وإن هدد بالويل والثبور . إنما الرجل من عرف حقاً أن الدنيا عرض زائل فاحتفظ برجولته وكرامته ، ولم يرض لنفسه أن تثلم هذه

الكرامة ولو كان البدل الدنيا بأسرها . إنما الرجل من ينصح لأمته وأولى الأمر فيها إن تملق لهم أشباه الرجال الذين يدورون مع الريح ويغيرون ما سبق أن اعتقدوا من آراء كما يغير المرء قميصه وجلبابه إن غدا لا يتفق مع البدع !

مثل الرجولة كثيرة يزخر بها التاريخ أيام عز الإسلام ومجده . ومن فضول القول أن نذكر من هذه المثل ما كان من عمر الفاروق وقد أزمع الهجرة بدينه من مكة ، ومراجعته للرسول الذى لا ينطق عن الهوى فى أمور نزل القرآن فى بعضها مؤيداً لرأيه ، ونحو هذا مما حفظ التاريخ لكثير من الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم ، ولكنى أكتفى من ذلك بمثال واحد فيه رجولة مكتملة .

هذا المثال تراه فى محاولة الهادى الخليفة العباسى خلع هارون الرشيد من ولاية العهد ومبايعة ابنه جعفر ، لقد جلس الهادى ، لما صحت منه العزيمة على هذه الفعلة للناس ، وشرع فى أخذ البيعة لابنه جعفر وخلع الرشيد ، فبايع مشيخة العرب والقواد ، ثم جيء بالقائد هرثمة بن أعين ليبايع فأبى وقال : « إن يمينى مشغولة ببيعة أمير المؤمنين ، وشمالى مشغولة ببيعة هارون ، فأبايع بماذا ؟ » فأجاب الهادى بقوله : « تخلع هارون وتبايع جعفراً » ، فقال : يا أمير المؤمنين ! أنا رجل أدين بنصيحتك ونصيحة الأئمة منكم أهل البيت ، وبالله لو تخوفت أن تحرقنى على صدقى إياك بالنار لما حجزنى ذلك عن صدقك ! إن البيعة يا أمير المؤمنين إنما هى إيمان ، وقد حلفت لهارون بمثل ما تستحلفنى به لجعفر ، وإن خلعت اليوم هارون خلعت جعفراً غداً ! » .

هنا استشاط الهادى غضباً ، وأمر بوجيء عنق هرثمة ، ثم ثاب لرشده واكتفى بإسقاطه من قيادته وإخراجه ملوما مدحوراً . وأخيراً ، وجم الهادى ساعة لا يأمر ولا ينهى ، ثم رفع رأسه وأمر برده وقال له : « يا حائك ! يبايع أهل بيت أمير المؤمنين وفيهم عم جده وعم أبيه وعمومته وإخوته وسائر لحمته ، ويبايع وجوه العرب والموالى والقواد ، وتمسك أنت عن البيعة ! » فقال هرثمة : « يا أمير المؤمنين ! وما حاجتك إلى بيعة الحائك بعد بيعة من ذكرت من أعيان

الناس ! ألا إن الأمر على ما بايعت لك ، إنه لا يخلع اليوم أحد هارون ويبقى في غد لجعفر ! » .

قال الدينوري راوي هذا الحديث : فالتفت الهادي إلى من حضر مجلسه ، وقال لهم : « شاهت الوجوه ! صدق والله هرثمة ، وبر وغدرتم ! » ثم أمر لهرثمة بخمسين ألف درهم وأقطعه أرضاً واسعة .

أرأيت هذه الرجولة الكاملة واعتزاز هرثمة ! يرفض في عزم ثابت إرادة الخليفة وهو الحاكم المطلق حين ذاك في أمر أجمع عليه كبار الدولة ، ويحاج في قوة عن رأيه رغم تهديده بالقتل ، ويصمم على ما يرى حتى يظفر بالغلبة والنصر ويعرف الخليفة له سداد الرأي وصدق الرجولة وكامل الوفاء ، فلا يخرج من حضرته إلا عزيزاً كريماً منصوراً مثابا ! .

أين هذا مما عليه كثير من كبرائنا وسادتنا بحكم مناصبهم ومراكزهم الذين فتنوا الناس في أخلاقهم ودينهم وأضلوهم السبيل ، إذ قلدوهم في شعارهم وهو الميل مع الريح حيث تميل !

مثل هذا الموقف العظيم لا يقفه إلا رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ، ويؤمن برجولته نعمة من الله يجب رعايتها ، ويؤمن بأن الخلق جميعا لا يستطيعون أن ينفعوا أو يضروا أحدا بما لم يرده الله وإن كان بعضهم لبعض ظهيرا . وبهذا الخلق وأمثاله تعتز الأمة ويشيع الخير فيها ، بتقليد الصغير للكبير والعامة للسادة .

أما نحن فوا أسفاه ، لا يحتاج الرئيس بله الحاكم ، لإعداد بعض من تحت رياسته أو تهديده ليطيع فيما يريد ، بل يكفي أن يستشف بعض هؤلاء الذين لهم صور الرجال دون حقائقها رغبة الرئيس ، فيسارع إلى تحقيق ما يريد ، لا يرعى في ذلك إلا ولا ذمة ولا كرامة !

وبعد ، فإننا نتوجه إلى الله الذي لا حد لقدرته أن يغير ما بأنفسنا ، وأن يجعلنا رجالا تعتز بهم الأمة العربية والإسلام ؟

ذكرى المولد الشريف

موشحة

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يا خجلتا من بياض شيبي   شوّه وجهي لدى الغواني ؛
فلا دموعي ، ولا نسيبي   ولا ولوعي ، ولا هواني

* * *

أُف لهذا المشيب يمحو   أجمل ماخطه الشبابُ
يغفي الفتى غفوة ويصحو   إذا زمانُ الصبا سراب
روضٌ زها نبته ، وصبح   يعقبه الجدب والضباب

* * *

يالك من طارق غريب   عن الهوى والصفا لواني
أحيابه عيشة الحريب   بلا خيال ، ولا أماني

* * *

يالهف نفسي على شباب   من المنى والحياة أحلى
الظرف ، والقصف ، والتصابي   يوم تولى الشباب ولى
عوجوا على ربعه ركابي   أُحطّ من ذي الهموم ثِقلا

* * *

أُسَبِّحُ فى أفقه الرحيب وأنشق التُّرْبَ فى المغانى
وأملأ الجو بالنحيب أسى وحزنا على زمانى

* * *

من لى بأن استردّ عهداً شربتُه فى الكؤوس خمراً ؟
مضى ، وأهدى إلىّ وجداً حسبته فى الفؤاد جمراً
كان زمان الشباب سعدا فعاد بعد المشيب ذكرى !

* * *

يانفس ، قدآن أن تؤوبى عجلى ، إلى شاطىء الأمان
وفى حمى المصطفى الحبيب تلقين ما شئت من ضمان

* * *

ميلاده الباهر المجيد نال به الكون ما تمنى
بنوره أشرق الوجود وهز أعطافه ، فغنى !
أقر عينَ العلا وَليد قر به الكون واطمأنا !

* * *

تهفو مجاليه بالقلوب كما هفت بالنهى المثانى
تضم ذكراه فى وجيب وفى جلال ، وفى حنان

* * *

يا قوم ، من شام مثل طه قد أنبت العلم فى الصحارى ؟
أمية عِيش فى هداها وشرعة أنقذت حيارى
لاقى بها خصمه وجاها لخار فى أمره ومارى

* * *

من أين للكفر والصليب بواهر الوحى والقرآن ؟
أولاك يروون عن غيوب وذا يلقاه عن عيان

* * *

دعا ، فأحيا القلوب غلفاً وسار والسعد فى الركاب

وأوسع العالمين عطفاً في الحكم والسلم والغلاب
لم يملأ الخافقين خوفا فتلك في شرعة الذئاب

* * *

من كل خوانة مريب يختص بالعطف كل جان
أو غادر فاجر لعوب يكسب بالعرض كالزواني !

* * *

قولوا لصهيون : ما لموسى يروع الآنسات قتلا ؟ !
وللصليبي : ما لعيسى يملأ هذا الوجود ختلا ؟ !
تعساً لأعلامكم ، ونكسا أما نبياكما ، فجلا
لم يدعوا في الورى لحوب ولا لغدر ، ولا اختيان
ولا أغارا على الشعوب بكل مسترزق جبان

* * *

سنعمر الكون من جديد بدين خير الأنام طه
بالجند ، خفاقة البنود تدك أعلام من رماها
البدء في المشرق السعيد ينبع ، والغرب منتهاها

* * *

ونحن في أمسنا القريب سرنا على هامة الزمان
في الهدى ، في السلم ، في الحروب في الحكم ، في العلم ، في البيان

* * *

مجدٌ مضى في الزمان حراً وعزّ في ظله الأنامُ
عهدٌ ، لياليه كنّ غُراً قد ساد من بعده الظلام
ياسيد المصلحين طراً — عليك من ربك السلام —

* * *

اعطف على بائس أديب مُرَوّع في الحياة عانِ
قل لي — إذا خفتَ من ذنوبي — : لا تبتئس ، أنت في ضماني !

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار

زرتك أمس الأول ، وقدم محمد أوّل أمس

يتردّد مثل هذا كثيراً ، ويعنى بأمس الأول وأوّل أمس اليوم الذى قبل أمس ، وهو اليوم الذى قبل يومك . فتقول : حدث هذا الأمر أمس الأوّل أو أوّل أمس إذا حدث ليومين خلوا من اليوم الذى تتحدث فيه . وفى صحيفة المصرى الصادرة فى يوم ١٩٥٠/١١/٢٧ : « وكنا قد أشرنا أوّل أمس إلى عزم الولايات المتحدة على التوسّط لتسوية الخلاف القائم بينهما » .

والاستعمال العربى الفصيح فى هذا أن يقال : زرتك أوّل من أمس ، أى فى يوم أسبق من أمس ، وهو اليوم الذى يسبق اليوم الذى قبل يومك ، وفى مثال صحيفة المصرى السابق ، وكنا قد أشرنا أول من أمس ، وهكذا . فهذا الذى ينبغى أن يجرى عليه الناس وفقا لما أثر عن العرب . فقد جاء فى اللسان فى (أمس) : « ابن السكيت : تقول : ما رأيته مذ أمس ؛ فإن لم تره يوما قبل ذلك قلت : ما رأيته مذ أول من أمس » .

وإذا رأيت محمداً لثلاثة أيام خلون قلت : رأيت محمداً مذ أوّل من أول من أمس ، ولا تتجاوز العرب فى أمس ذلك ؛ قال فى اللسان فى (وأل) : « تقول : ما رأيته مذ أمس ؛ فإن لم تره يوما قبل أمس قلت : ما رأيته مذ أول من أمس ؛ فإن لم تره مذ يومين قبل أمس قلت : ما رأيته مذ أوّل من أوّل من أمس ، ولم تجاوز ذلك » .

وفى فصيح ثعلب (باب حروف منفردة) : « وتقول : ما رأيته مذ أوّل من أمس ؛ فإن أردت يومين قبل ذلك قلت : مارأيته مذ أوّل من أول من أمس ، ولا تجاوز ذلك » ، وقال شارحه الهروىّ : « أى لا يقال إلا ليومين قبل أمس . وأمس هو اسم لليوم الذى قبل يومك » .

ولم أر عبارة « أمس الأول » فيما وقفت عليه ، فأما « أول أمس » فقد جاءت فى سينيّة البحترى ، ويعنى به بدء أمس وبكرته . قال البحترىّ :

وكأن الوفود ضاحين حسرى ... من وقوف خلف الزحام وخنس
وكأن القيان وسط المقاصير يرجّعن بين حُوٍّ ولعس
وكأن اللقاء أول من أمس ووشك الفراق أول أمس

فهو يقول : كأن اللقاء كان فى اليوم السابق أمس ، وتراه قال فيه : أول من أمس لا أمس الأول ، ويقول : كأن الفراق كان بعد يوم اللقاء فكان أمس فما أسرع الفراق بعد التلاق ، وقد جعل الفراق فى غدوة أمس ليكون أقرب إلى يوم التلاق إذ لم يكن فى آخر أمس . وحسبك بكلام البحترى هذا مقنعا فى أن تعدل عن استعمال « أول أمس » حيث يجب أن يوضع « أول من أمس » .

المـاجريات

تجرى هذه اللفظة « المـاجريات » كثيراً ؛ ويراد بها الحوادث الجارية ، وهى من الألفاظ المولدة التى دخلت فى عداد ما يتكلم به الناس ، وجاوزت لغة العامة إلى لغة الخاصة . ففى صبح الأعشى ج ١٤ ص ٢٥١ العنوان الآتى : « الباب السادس ما يكتب فى الحوادث والمـاجريات » وأصل تأليف هذه الكلمة هو الموصول وصلته « ماجرى » أى الذى جرى وحدث ، فتوهم أن ذلك كلمة مفردة فعوملت معاملة الكلمات المفردة ، وأدخلت عليها أداة التعريفات وجمعت فقيل : الماجريات ، ومثلها فى هذا مثل الماصدقات فى اصطلاح المناطقة ، ومعنى الماصدقات الجزئيات والأفراد التى يصدق عليها الكلى ويتحقق فيها ، فماصدقات الإنسان زيد وعمرو وخالد ومن جرى هذا المجرى فى تحقق حد الإنسان فيه ، وقد قال الصبان فى حواشيه على شرح الملوى للسلم فى المنطق فى مبحث الذاتى والعرضى (فصل فى مباحث دلالة الألفاظ) . « ما صدق الشىء : أفراده التى يصدق هو عليها أى يحمل ، وهو اسم مركب من ما الموصولة وصلتها .

وترى من هذا أن واحد المـاجريات هو «ماجرى» على حد ما قيل فى واحد المـاصدقات ، وإن كادوا لا ينطقون بواحد المـاجريات .

على أن صاحب صبح الأعشى يجعل واحد الماجريات « ماجرية » ، فقد قال تحت الترجمة السابقة : « ويختلف الحال فيها باختلاف الوقائع ، فاذا وقعت للأديب ماجرية وأراد الكتابة بها إلى بعض إخوانه حكى له تلك الماجرية فى كلامه ؛ مع تنميق الكلام فى ذلك إما ابتداء ، وإما جوابا » .

وقد رأيت أن هذا لا يتفق مع أصل تأليفها . ولو صح ما قاله صاحب صبح الأعشى فى واحدها وأنه « ماجرية » لما صح تصحيح الياء وإقرارها ؛ إذ أن القانون الصرفى يوجب قلبها ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فكان يجب يقال فيها : « الماجراة » .

وصاحب صبح الأعشى هو أبو العباس أحمد بن على القلقشندى ، وكان يعيش فى مصر فى القرن الثامن الهجرى ، وتولى ديوان الإنشاء ، وكانت وفاته سنة ٨٢١ كما فى الضوء اللامع للسخاوى . وقد سقت تاريخ وفاته ليعلم أولية الكلمة التى هى موضوع البحث ، وهى « الماجريات » ، وأنها تضرب بعرق فى القدم .

ومن الجلى بعد هذا أنى لا أريد إقرار الكلمة التى أبحث فيها ولا تصويبها ؛ إذ كانت نابية عن منهاج تأليف الكلمات العربية ، فمن الخير تنكبها والعدول عنها . والله الموفق للصواب .

زينب الصباغ ــ الذرة الشامى

١ ــ يجرى الأسلوب الأول : « زينب الصباغ » فى هذه الأيام : يجعلون « الصباغ » ، وما جرى مجراه لقباً للأسرة لا يتغير ويلزم حالة واحدة ، فيقال : خالد البنّاء ، وفاطمة البناء ، وهكذا دون تفريق فى ذلك بين حالتى التذكير والتأنيث وقد أخبرنى ذو علم باللغات الغربية الحية أن القوم فى اسم الأسرة فريقان : فريق يرى جمود هذا الاسم فلا يختلف فى تذكير ولا تأنيث ؛ وهم الذين يتكلمون اللغات الجرمانية (الانكليزية والألمانيه) ، والذين يتكلمون اللغات اللاتينية (الفرنسيه والايطاليه والاسبانيه) . وفريق يرى التفريق فيه بين حالتى التذكير والتأنيث فيلحق اللقب إذا كان جاريا على المؤنت علم التأنيث عندهم ، وهم الذين يتكلمون اللغات السلافية ، ومنهم أمم الروس .

وسنة العرب فى ذلك أن الصباغ مثلا يكون لمن يتعاطى هذه الحرفة ، فإذا شهر بها كان ذلك لقباً له ، وقيل : فلان الصباغ ليتميز عمن يشاركه فى اسمه وليس بصباغ .

فإذا كان له ولد مثلا وأريد نسبته إليه قيل : خالد الصباغى وفاطمة الصباغية بأداة النسب . وقد كان فى الأنصار قطان مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام بنو عدى بن النجار ، فكان يقال لمن ينسب إليهم النجارى النجارية ؛ وفى الروض[1] الأنف للسهيلى فى حديث زواج هاشم بن عبد المطلب جد الرسول عليه الصلاة والسلام « وذكر نكاح هاشم سلمى بنت عمرو النجارية » .

فترى أن أهل عصرنا استنوا سنة فريق من الغربيين فى لقب الأسرة ، فلا يفرقون فيه بين تذكير وتأنيث ، وتنكبوا سنة العرب .

وقد جاء فى صحيفة الرسالة العدد (٦٨٦) مقال عز وردة اليازجية ، جعل الكاتب عنوانه « وردة اليازجى » ، واليازجى كلمة تركية معناها الكاتب ، وقد جرت حينا من الدهر على ألسنة الناس لاسيما فى بلاد الشام على عهد الحكم التركى ، وعوملت معاملة المفردات العربية ، وصارت لقبا لأسرة اشتغل أهلها بالأدب ، وكان لهم عليه فضل عظيم ، منهم ناصيف اليازجى وابراهيم اليازجى . والمتبادر فى العبارة السابقة أن يكون « اليازجى » وصفا لوردة فيكون مما نتحدث فيه ، ويكون هذا من الكاتب جريا على المألوف فى هذه الأيام . وقد يجوز أن يقرأ « وردة اليازجى » بجر « اليازجى » بالإضافة ، أى وردة المنسوبة إلى اليازجى فلا يكون مما نحن فيه ، ولكن هذا خلاف المتبادر .

٢ ـ وتجرى العبارة الثانية : « الذرة الشامى » كثيرا على ألسنة الناس ، والذرة فيها علم التأنيث ، فالواجب أن يقال : الذرة الشامية ، ولست أدرى مأتى هذا الزيغ عن الصواب ولا مرده . وقد يخرج هذا على تأويل الذرة بالنبت ، ولكن مثل هذا التخريج يلجأ إليه فيما سمع من العرب ، كما قال بعضهم « إن فلانا رجل لغوب أتته كتابى فاحتقرها » ، فأنث الكتاب لما ذهب به مذهب الرسالة .

كيف تتقارب الشعوب

منهج الاسلام فى ذلك

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

يحاول الساسة وقادة الفكر فى الأمم التقريب بين الشعوب وإزالة الحواجز السياسية التى أقامتها الأطماع والأهواء ، على مدى الأجيال بعد أن تكفلت الحضارة المادية بإزالة الحواجز الطبيعية من بحار وأنهار وجبال وصحارى ووديان ، وأعنى بالحواجز السياسية هذه الحدود الوهمية من خطوط الطول وخطوط العرض وهذه الفروق الاعتبارية من جنسية وقومية وعصبية للألوان والثقافات .

وهدف هؤلاء القضاء على أسباب الحروب والتطاحن فى ميادين السياسة والاقتصاد والثقافة ، ثم الوصول بالشعوب إلى حياة ناعمة فى ظلال الأمن والسلام ولا يسع كل محب للسلام إلا أن يبارك هذه الجهود ويبذل من نفسه وماله ما يفضى إلى هذه الغاية ، كما لا يسع كل منصف إلا أن يقدر لهؤلاء جهودهم فيها .

غير أنه رغم ما يبذل فى هذا السبيل من جهود وما يجمع لها من جموع فان التقدم لا يزال بطيئا ولا يزال الهدف بعيداً والطريق وعراً ، وأكبر الظن أنهم لن يبلغوا الهدف ، وأن جهودهم ستبوء بالفشل .

ذلك أن الدعوة إلى هذه الغاية يعوزها الوسائل الصحيحة والعناصر القوية لانجاح الدعوات والبلوغ إلى الأهداف ، ومن أهم هذه العناصر الاخلاص لها والتطبيق العملى من القائمين عليها ، وإنا نشك كل الشك فى توافر هذين العنصرين فى الدعاة اليها ، ودعواتهم فى الواقع ما هى إلا سلسلة من الأحاديع السياسية

تبعث عليها مناسبات خاصة مداهنة للجماعات والأمم الصغيرة تخديراً لوعيها الانسانى واحتفاظا بها أن تسير فى الطريق التى رسم لها ، وآية ذلك أنه إذا قيل لهؤلاء الدعاة تعالوا إلى تطبيق مبادئكم وأعطوا الشعوب حقوقها السياسية والاجتماعية وامنحوها حرياتها وأشعروها بهذه المساواة ، لتسكن نفوسها إلى ماتدعونها إليه وتطمئن قلوبها إلى صدق نياتكم فيها ، لم تحل منهم بطائل وأجابوك بمعسول من القول لا يغنى عن الواقع شيئا .

ولو أنهم أخلصوا فى القصد وصدقوا فى العزم لصدقت أقوالهم أفعالهم وكانت القدوة بأعمالهم أبعد أثراً وأعمق نجاحا ، وشاهدنا التاريخى على ما نقول محمد صلى الله عليه وسلم الداعى الإسلامى الأول والمصلح الانسانى الفذ ، فلقد كان مثلا أعلى فى صدق عزيمته وإخلاص دعوته ، فأصاب هدفه وبلغ غايته وربط بين الأمة الإسلامية بروابط جعلتها أمة واحدة متماسكة الأجزاء وثيقة البنيان موحدة المقاصد بعد أن كانت أوزاعا متنافرة من القبائل والشعوب وغدا المؤمن الأسيوى أخا للمؤمن الأفريقى والأوربى والمؤمن الحبشى أخا للمؤمن العربى أخوة صادقة عميقة لا تشوبها مظاهر النفاق والرياء ، نحا صلى الله عليه وسلم منحى غريباً ووضع نظاما رائعاً فى جملته وتفصيله وسن للجماعات والأفراد حقوقا وواجبات على أساس من الشورى والعدل والمساواة والتعاطف والمحبة والتناصح فى عمل الخير وتجنب الأذى ، وعلى أساس من الرضا والقناعة واحترام حقوق الغير فألغى الفوارق بين الطبقات أمام القانون وحرم التنابذ بالعصبيات والتباهى بالأنساب وأوصى بالمرأة والضعيف ، والمسكين واللهيف وحرم الشفاعة فى حدود الله وحذر من سوء الظن والتجسس وتتبع العورات ، ومن وصاياه العامة فى القرآن :

وأمرهم شورى بينهم « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » ، « إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم » . « وتعاونو على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » ، « يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا

بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان »، « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً »، « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ».

ومن الوصايا العامة فى السنة : « الناس سواسية كأسنان المشط »، « لافضل لعربى ولاعجمى إلا بالتقوى »، « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه »، « المؤمنون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم »، « كل المؤمن على المؤمن حرام دمه وماله وعرضه . لا شفاعة فى حد من حدود الله . من نفس من مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ».

وإن تعجب لشيء فاعجب لهذا التفصيل الذى تناولت به التعاليم المحمدية ، حياة الإنسان كفرد فى سائر أحواله فقد تناولته عزباً وزوجاً ، وقريباً وبعيداً ، وحاكماً ومحكوماً ، وغنياً وفقيراً ، وعاملا وعاطلا ، وعالماً وجاهلا ، وتناولت شئونه فى مطعمه وملبسه ، وحديثه ومجلسه ، وزيارته وساسته فى جميع أحواله ورسمت له طرائق العمل فى صور أحكام ذات ألوان ، ففرضت بعضها وسنت بعضاً ، وندبت إلى بعض ، وأرشدت إلى أخلاق وآداب هى الغاية فيما وصلت إليه المدنية من خلق وذوق وأدب ، ووضعت بهذا أمتن الأسس فى بناء المجتمع الإنسانى تجهد عقول الفلاسفة ، وتقف منها فى أول الطريق .

وكانت أفعاله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً عملياً لأقواله وتعاليمه ، فإذا دعا إلى الشورى ضرب المثل بنفسه ، فقد استشار بعض أصحابه فى حوادث ونزل على رأيهم حيث بدا له وجه الخير فيها ، وإذا دعا إلى المساواة كان كذلك ، روى عنه أنه أقبل على بعض أصحابه يوماً فقاموا له إجلالا فقال عليه السلام : لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضاً ، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس ، وإذا دعا إلى التعاون فهو فى تعاونه المثل الأسمى ، روى أنه كان ذات يوم فى سفر فأمر أصحابه بإصلاح شاة ، فقال رجل على ذبحها ، وقال ثان على

سلخها ، وقال ثالث على طبخها ، فقال الرسول صلى الله عليه : وعلى جمع الحطب فقالوا يا رسول الله : تكفيك العمل ، فقال تعلمت أنكم تكفونى إياه ، ولكننى أكره أن أتميّز عليكم .

وإذا دعا إلى العدل صدق فعله قوله ، شفع إليه بعض أصحابه فى جريمة فاشتد به الغضب وقال ، والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

وقد نهج أصحابه نهجه ، خطب أبو بكر رضى الله عنه أثر مبايعته بالخلافة فقال أيها الناس ، أنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن صدفت فقومونى ، الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ له حقه ، والقوى فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم .

وكان عمر رضى الله عنه يتفقد أحوال رعيته ليلا ليطمئن على أداء واجبه فيها وجهز عثمان ثلث الجيش من ماله فى غزوة العسرة حين دعت مصلحة الأمة إلى البذل والتضحية .

بهذا الأسلوب من التطبيق العملى لمبادىء الدعوة دعا محمد صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الى التقارب بين الشعوب والتضامن بين الأفراد ، فأفلحت دعوته ، وكان نجاحه فيها مثلا تاريخيا فذا فى قوة التأثير وسرعة الاستجابة ، وكان موضع الدهش لدى المؤرخين من العرب والأوربيين ، وما نجحت دعوته إلا بأنها قامت على أساس من الأخلاق والعزم والتطبيق العملى لمبادئها ، فهل سلك الداعون للتقريب بين الشعوب الآن ذلك السبيل ، وهل صدقت أقوالهم أفعالهم أم كانت أقوالهم صيحات تبعثها المناسبات ، وهى مزيج من الدهاء والسخرية وألهيات يلهون بها الشعوب كلما حزبهم كرب أو نزلت بهم نازلة ألجأتهم إليها ، يلتمسون لديها تفريج هذه الكروب وتلطيف تلك النوازل ؟

الجواب هو فى واقع أحوال تلك الشعوب وموقفها من هؤلاء الدعاة وشعوبهم وفيما يسود العالم من قلق وفزع وسوء ظن ؟

سيدي إبراهيم الدسوقي

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوي
المفتش بالأزهر

فكرت في هذا الموضوع بعد زيارتي لمدينة دسوق منذ العاشر من المحرم هذا العام. فقد جالت بذهني معان نحو التصوف، وضممت إليها بعض حقائق عن هذا الشيخ المعتقد فيه كثيراً من المسلمين، وأرجو ألا تخلو من فوائد توجه الناس وجهة وسطى صالحة، في نواح كثر الحديث حولها بين غلو وإسراف، وتحامل وإسفاف، وبالله التوفيق.

التصوف من العلوم الإسلامية، وفرع من فروعها، كالفقه والأصول، وغيرهما؛ فإذا كان الفقه يبحث في صحة العمل وفساده، وحله وحرمته، لتنظيم أحوال المعاش، فإن التصوف يبحث فيما هو أساس لإصلاح العمل وجريه على أكمل الوجوه وأتمها؛ فهو يعالج رياضة النفس وإصلاح القلب، وحسن رعايته؛ والقلب هو المهيمن على كل عمل يصدر، والمحرك للأعضاء على وفق ما يبصر؛ فإذا استقام استقام اللسان، واستقامت الجوارح وسلمت الصلاة، والصوم، والزكاة، وأمثالها، من آفات الرياء، وما إليه من كل ما يجعل العمل خاليا من الروح التي قصد إليها الشارع الحكيم.

والقلب هو مصدر لفيوضات العلم الجمة، وهو المرآة التي تبصر فيها حقائق الكون، وأسرار الوجود، وتنطبع فيها المعارف والحكم التي لا حد لها؛ وهذه المرآة لا تعطيك الصور صادقة سالمة إلا إذا كانت مجلوة مشرقة؛ وفي هذا العلم والعمل به يتعرف الطريق إلى جلاء تلك المرآة، وتصحيح الإدراك بها للحقائق والمعارف؛ وكل ما في هذا العلم من مدارك مؤسسة على التقوى فمن الشرع الشريف استمدادها، ومن الكتاب والسنة منهاجها: فالدين الإسلامي مهيمن على وضع الأعمال وضعا صالحا يقرب إلى الله، ويشرح الصدر للإسلام، ولجميع

شعب الخير ، ويوجه إلى أقرب الطرق فى سعادة الوجود ؛ فإذا كان فى قوله تعالى مثلا « أقيموا الصلاة » دلالة على فرضيتها كما يقول الفقهاء ، فإن فيه دلالة على ناحية لا تحصل الغاية التى نبه إليها الدين ، وهى النهى عن الفحشاء والمنكر ، بدونها ؛ ذلك أن الإقامة هى التعديل ، من أقام العود إذا عدله ، فكل صلاة ليست على هذا الوجه لا خير فيها ، وهى لا تنهى عن الفحشاء والمنكر ، بل لصاحبها الويل ، كما نطقت به آية أخرى من القرآن الكريم . . .

وهكذا تجد الكتاب الكريم ، والسنة النبوية الصحيحة مشتملة على أسس التصوف ، وقواعده السليمة ، بما يجعل لكل عمل روحا مثمرة ، ويخلق منه أذواقا ونفوسا قيمة .

ولذلك يكون للمتوفرين على هذه النواحى الصالحة مواجيد وحالات ، وتقع من بعضهم خوارق عادات ، ولا سيما أن سيرهم وسلوكهم مؤسس على تغليب جانب الروح على جانب الجسد ، وإيثارها بالخدمة ، وفى الروح ثروة عظيمة ، ولدنها معارف وأسرار كريمة ، ولكن الناس يدسونها بالمادة والانهماك فى الملاذ ؛ وفى القرآن الكريم : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » .

وهنا نشير إلى أن بعض صور الكشف التى تصل إليها تلك النفوس قد لا يفهمها العقل ؛ لأن الروح فوق طور العقل ، وقد لا تتفق مع ظاهر الشرع الشريف ؛ لأن الشرع فى الأعم الأكثر يخاطب العقول ، ويجارى جميع استعدادات البشر ، وأحيانا يتدخل الشيطان مع بعض السالكين فى هذه الطرق ، فيلبس عليهم ، ويزل بهم ؛ وتلك هى أسباب الخلافات التى تقوم كثيرا بين المتصوفة وغيرهم . ومن الحق على الصوفى ألا يظهر شيئاً من إدراكاته التى لا تتفق مع ظاهر الشرع ، وإلا كان عرضة للفتنة وإيقاع الخلاف بين طوائف الأمة ؛ وإذا أظهر شيئا من ذلك فمن حق القائم على الشرع إنكاره ، ولا يكلفه الإسلام قبوله مهما كان صاحبه إلا أن يؤول كلامه بما يتفق مع الدين . ومبنى طريق هذه الطائفة على الرياضة ، وتذليل النفس ، ودفع رعونتها ، ومقاومة ما يدفعها إليه الشيطان ، ويحسنه لها من أبواب الشر والفساد ؛ وخير سبيل إلى ذلك الإغراق فى ذكر الله بالصور المختلفة ، ومعاشرة الصالحين ، والبعد عن أوساط المفسدين ؛

وبقدر ما ينال المرء من الذكر والطاعة السليمة من الآفات ، يكون حظه من التصرف ؛ ولهذا عرف الصوفية باتخاذ الأوراد التى هى ذكر مرتب فى مواعيد معينة بصور وأحوال لا تختلف مع ما جاء به الكتاب والسنة من حث ومن توجيه ، وهى من الورد بمعنى الماء الذى يرده الظماء ، فيروون ظمأهم .

ولابن خلدون فى هذا المقام بحث طويل فى مقدمته ، يشير فى بعضه إلى أن أصل طريقهم محاسبة النفس على الأفعال والتروك ، والكلام فى هذه الأذواق والمواجد التى تحصل من المجاهدات ، ثم تستقر للمريد مقاما ، ويترقى منها الى غيرها ؛ ثم لهم مع ذلك آداب مخصوصة بهم ، واصطلاحات فى ألفاظ تدور بينهم ؛ فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذى ليس لواحد من أهل الشريعة الكلام فيه ، وصار علم الشريعة على صنفين : صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وهى الأحكام العامة فى العبادات والعادات والمعاملات ؛ وصنف مخصوص بالقوم فى القيام بهذه المجاهدة ، ومحاسبة النفس ، والكلام فى الأذواق ، والمواجد العارضة فى طريقها ، وكيفية الترقى منها من ذوق إلى ذوق ، وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم فى ذلك ؛ ولما كتبت العلوم ودونت ، كتب رجال من أهل هذه الطريقة فى طريقهم ، وكتب كثير منهم فى عدة نواح ، كالورع والمحاسبة على الأخذ والترك ؛ وجمع الغزالى معارفهم الشرعية فى كتاب الإحياء ، وشرح اصطلاحاتهم فى عباراتهم ... ثم أشار ابن خلدون إلى أن الطريقة كانت أولا عبادة فقط تتلقى أحكامها من صدور الرجال ، ثم صارت علما مدونا يطلق عليه اسم التصوف ، كما وقع فى سائر العلوم التى دونت بالكتاب ، من التفسير ، والحديث ، والفقه ، والأصول . وتكلم ابن خلدون فى الكشف والاطلاع على عوالم من أمر الله بسبب الخلوة والذكر ، وفصل سبب ذلك ، ثم بين أن الكشف لا يكون صحيحاً عندهم إلا إذا كان ناشئاً عن الاستقامة .

وتنقل ابن خلدون فى أحكام كثيرة تتصل بالتصوف ، وبما اشتهر من مذهب الحلول والوحدة ، وما إلى ذلك مما لا يعنينا الخوض فى تفاصيله الآن ، وقد نعرض للحديث عنه فى مقام آخر ؛ إنما الذى يعنينا أن نشير إلى أن هذه الطريقة لأمرٍ ما انتشرت فى القرن السابع الهجرى ، وظهر رجال حلقوا فى

آفاقها ، وربما فتن بهم كثير من الناس ، من أمثال السيد البدوى ، والدسوقى ، والرفاعى ؛ وللناس فى طباعهم افتتان بهذه الخوارق التى تسمى كرامات ، وبما يظهر على أيدى بعض الناس من كشف يخبرون فيه عن الغيب الماضى أو المستقبل ؛ ولهذا كان يرجع الناس إلى الكهان فيعظمونهم ويحكمونهم فى أمورهم ؛ وفى عوام المسلمين كثرة تغلو فى تقدير هؤلاء غلوا تخرج به عن الدين ، وتتورط فى كثير من الزيغ الذى قد يفسد عقيدتهم ، ويخرجهم إلى حد الإلحاد أو الشرك ، نعوذ بالله من الضلال .

وليس فى شرعة الإسلام أكثر من إنزال الناس منازلهم ، مع الحيطة ، حتى لا يتخذ بعضهم بعضاً أربابا من دون الله ، ولا يطرى بعضهم بعضاً مهما كان ، كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم ، إنما الكل عبد الله وبشر ممن خلق ، لا يملك لنفسه نفعاً ، ولا ضرا ، ولا موتا ، ولا حياة ، ولا نشوراً . . .

والإمام الدسوقى من أولئك العلماء المتصوفة الذين نشئوا بمدينة دسوق فى القرن السابع الهجرى الذى أشرنا إلى أنه ظهر فيه التصوف ظهوراً قويا ، وتغلغل فيه رجاله إلى حدود قد تسىء إلى بعض الناس فى بعض عقائدهم مما تسربت عدواه إلى من بعدهم ودرجوا عليه . . .

ولد الدسوقى بالمدينة المذكورة سنة ٦٤٣ ه ، وتوفى بها سنة ٦٨٦ ه ، فعمره نحو ثلاث وأربعين سنة ، قضى شطراً منها فى طلب العلم ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ، ووضع فيه بعض كتبه ، ثم اقتفى آثار الصوفية ، كما حدث عنه الشعرانى فى طبقاته ، فكان من أجلاء مشايخ الفقراء أصحاب الخرق ، وكان من صدور المقربين صاحب كرامات ظاهرة ، ومقامات فاخرة ، وسرائر طاهرة ، وبصائر باهرة ، وأحوال خارقة ، وأنفاس صادقة ، وهمم عالية ، ورتب سنية ، ومناظر بهية ، وإشارات نورانية ، ونفحات روحانية ، وأسرار ملكوتية ، ومحاضرات قدسية ، وما إلى ذلك من عبارات خلعها عليه الإمام الشعرانى ، قد تلقى ضوءاً على ما نحاول الوصول إليه من تجلية الرجل للقارئين ، شخصية حقيقية عرفها المتحققون من رجال الفن ، ونوهوا بشأنها ، وأعلوا من قدرها ؛ ونحن والقراء الكرام ، نرى فيما ينقلون عن الرجل من عجائب وكرامات يجب أن

تقرأ بغاية التحفظ ، وتؤخذ على أنها أخبار لم يتحر فى نقلها ما يجب أن يراعى فى صحة الأسانيد التى تلقى على الأخبار المنقولة ضوء العلم والإيمان الصحيح ، يستوى فى ذلك ما ينقل عن الدسوقى وعن غيره ، مهما علت رتبته إلى سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه . فهم يذكرون أنه كان يتكلم فى المهد ، وأنه صام أول رمضان صادفه فى حياته ، وأن ذلك كان بعد ولادته بيوم واحد ؛ ويقولون إنه يخاطب جبريل ، وإنه يقرأ اللوح المحفوظ ؛ ويذكرون عنه قصصاً كثيرة ، فيها كثير من العجائب والغرائب ؛ ففى بعضها أنّ نقيبه دفع سبعة من القضاة جاءوا يمتحنونه إلى ما خلف جبل قاف ، فمكثوا سنة ، ثم عفا عنهم بعد توبتهم ؛ وفى بعضها أنه أمر التمساح أن يلفظ صبياً كان ابتلعه ، فلفظ حياً ، ثم قال للتمساح مت بإذن الله فمات ؛ وكثير وكثير جداً من أمثال تلك الأشياء التى قلنا إنه يجب التحفظ فى الإيمان بها ، مع الاعتقاد بأن الله قدير على خرق العادات لا يقف أمام قدرته شىء . على أننا نشير بوجوب المبادرة بتكذيب ما يدل الشرع على عدم وقوعه ، ونمسك القلم عن الخوض فى تفصيل ذلك ، لندع المجال فيه لحضرات أصحاب الفضيلة أرباب الفتيا ، والمختصين من أهل الصناعة ؛ ثم يشير إلى أنهم نقلوا عن الإمام الدسوقى من النثر والنظم ، ما يدل على أنه كان من المتحققين والصوفية الذين بلغوا شأواً بعيداً فى معرفة الله ، والاطلاع على كثير من الأسرار واللطائف ، والامتياز فى معرفة دخائل النفوس وأسقامها ، وعللها وطرق علاجها .

من ذلك : قوله : « من عامل الله بالسرائر ، جعله على الاسرة والحظائر ، ومن خلص نظره من الاعتكاس ، سلم من الالتباس ، لا يكمل الفقير حتى يكون محبا لجميع الناس ، مشفقا عليهم ، ساتراً لعوراتهم ، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ذلك فهو كاذب ؛ من غفل عن مناقشة نفسه تلف ، وإن لم يسارع إلى المناقشة كشف . إن كنت ولدى حقاً ، ومتبعى صدقا ، فأخلص الرق لله تعالى ، واجعل واعظك من قلبك ، وكن عمالا ، ولا تلتمس من أحد درهما ؛ فإن هذه طريقى ، ومن أحبنى سلك معى فيها ؛ فإن الفقير الصادق هو الذى يُطعِمُ ولا يُطْعَم ، ويُعْطِى ولا يُعْطَى ، ولا يلتمس الدنيا ولا شيئا من عروضها ، فإن الرشا فى

الطريق ؛ حرام وشيخكم قد بايع الله تعالى ألا يأخذ لأحد فلساً ، ولا درهما » وأطال (رحمه الله) فى هذه الوصاة القيمة التى تدل على حال ما يقع فيه مدعو التصوف فى أزمنتنا هذه ممن يجعلون طريق الله شباكا لجميع الدنيا ، واحتيالا للتكاثر فى الأموال ، والتمتع بطيبات الحياة الدنيا التى هى أبعد ما يكون عن ساحة هذه الطائفة الكريمة .

وقد نقلوا عنه كثيراً من النظم الذى يفيد مقدار منزلته فى نواحى التصوف ، ويدل على أنه كان على جانب من البصر باللغة العربية وآدابها . ومن ذلك قوله :

سهام الليل صائبة المرامى إذا وترت بأوتار الخشوع
يصوبها إلى المرمى رجال يطيلون السجود مع الركوع
بألسنة تهمهم فى دعاء بأجفان تفيض من الدموع
إذا أوترن ، ثم رمين سهما فما يغنى التحصن بالدروع

ومن نظمه أيضاً :

سقانى محبوبى بكأس المحبة فتهت على العشاق سكراً بخلوتى
ولاح لنا نور الجلالة لو أضا لصم الجبال الراسيات لدكت
وكنت أنا الساقى لمن كان حاضراً أطوف عليهم كرة بعد كرة

هذه هى الصورة التى أردت أن أجليها للقراء موجها بها الكثير منهم إلى ميزان الاعتدال بقدر ما وسعه علمى واطمأن إليه قلبى ، ولا أحب أن أختم هذه العجالة قبل أن ألفت النظر إلى ما اعتاد الناس للدسوقى وأمثاله من شد الرحال ، ونذر النذور ، وإقامة الموالد فى هذه الصور التى نشاهدها جميعاً ، وما إلى ذلك من شئون كثر خوض الناس فيها لهؤلاء الأولياء ؛ وهو أيضاً مما أدع المجال فيه لحضرات السادة الفقهاء من أهل التوجيه والقائمين بالإصلاح والإرشاد ، مع حرصى البالغ ووصاتى الصادقة الخالصة أن يساس الناس فى التوجيه بلطف ودقة ، ورفق وحكمة ، وتوجيه إلى الحسنى بالحسنى ، والله ولى التوفيق ؟

متاعب الرسول

لفضيلة الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

الرُّسل صلوات الله وسلامه عليهم صفوته سبحانه وتعالى من خلقه ما فى ذلك شك . . . ولكن حياتهم مليئة بالمتاعب ، حافلة بالأذى ، محفوفة بالكدر ، محوطة بالشدائد ، وقد دلّ التاريخ على أنه لم يَخْلُ واحد منهم من الهموم والمشاق ، والنَّصَب والتنغيص . . . وإذا صح أن الامتحان مقياسُ لرضا والقبول ، والدرجات والمنازل ، فإن هؤلاء وصلوا بما تحملوه ، وحصلوا بما صادفوه ، على مالا يُتَصَورُ أن تناله البشريةُ كلها من مكانة مرموقة ، وعلى قدر أهل العزم تأتى العزائم . . . إلا أن نبيَّنا ـ جزاه الله عن الإنسانية أفضلَ الجزاء ـ كان أكثرهم تعرضا للعنف ، وأوفرهم نصيبا من المكروه ، لأن مهمته أخطر ، ورسالته أعظم ، وَقَوْمَه أبعد ما يكونون عن اللين والهوادة ، والرحمة والرفق . . . ومنذ أول يوم نزل عليه جبريل وضمّه إلى صدره فبلغ منه الجهد قائلاً له « اقرأ باسم ربك الذى خلق » وذهب إلى خديجة يرجف فؤاده ، وهو يُهَمْهِمُ بقوله « والله لقد خشيت على نفسى » وقال له ورقة بن نوفل ليتنى كنت حيًّا إذ يخرجك قومك . . . قرأ عُنْوَانَ كتابه وعَلِم أنه يخوض غمار الغيب الغامض ، والمستقبل المجهول ، وكان كوقع الصاعقة عليه أن يقول له ورقة ـ على ضوء ما قرأ بالعبرانية فى كتب الأديان السالفة ـ نعم ، فإنه لم يأت رجل بمثل ما أَتَيْتَ به إلا عودى ! ! ولم يكد بعد ذلك يصعد الصفا والمروة وينادى بطون قريش ليعلن إليهم أنه نذير لهم بين يدى عذاب شديد ، حتى قال له أبو لهب تبت يدك ، ألهذا جمعتنا ، وكان يرجو أن يأخذوا على يديه قبل أن تجتمع عليه العرب ، ونزلت فيه السورة المعروفة باسمه ، وكان ذلك إشعالاً

لنيران عداوته ، وإذكاءً لأتون حقده ، فأخذ يكبد له صلى الله عليه وسلم ، ويفتح له صفحات أخرى من الإيلام والأذى ، والقسوة والعنف ، وقد كان يسكن إلى جواره هو وزوجته حمالة الحطب ، دون مراعات لحرمة الجوار ، ولا لزمام القرابة .

أما الجار الثاني : فإنه عقبة بن أبي معيط ، وكان لا يقل فى العداوة والبغض والإضرار والأذى عن أبي لهب . .

وقد أغراه أبو جهل ذات يوم أن يلقى الأقـــذار على رأس الرسول وهو ساجد ، وصنع وليمة دعا إليها الوجوه والأعيان ، ودعاه صلى الله عليه وسلم فيمن دعى ، فلما حضر الطعام ، قال له : أنا لا آكل طعام مشرك كافر ، فشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فلما علم بذلك أبيُّ بن خلف تهدده إن لم يرجع إلى دين الأشياخ ، وهو الذى تقصد إليه الآية : « ويوم يعض الظالم على يديه يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ، ياويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا ، لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى ، وكان الشيطان للانسان خذولا » وهؤلاء كلهم من المستهزئين الذين كفاه الله شرهم ، وأراه مصارعهم فى بدر وغيرها من الغزوات .

ولو أن تلك المتاعب كانت فى أول عهده بالدعوة ، لقلنا ـ هكذا ـ تكون الامور فى الابتداء شاقة ، لأن المصلح الاجتماعى لا يحتاج إلى الجلد والاحتمال بعد هذه المرحلة ، حيث تكون القلوب قد تفتحت ، والأذهان قد تهيأت ، والطباع قد تحولت ، ثم لا يكون بعد ذلك إلا الاستقرار والسكون .

إلا أنه صلى الله عليه وسلم ظل عمره الطويل ، وحياته المديدة ، فى جو ملبد بالغيوم ، متخم بالرياح والأعاصير .

ونحن إذا استثنينا فقد والديه ، وموت جده عبد المطلب ، وعمه أبي طالب ، ونشأته فى أحضان الفقر والمتربة ، وغضون العوز والحاجة ، وجدنا أن أيامه كلها فى سبيل الدعوة لم يهنأ له فيها صفو ، ولم يصادفه لذة ولا سرور .

وهاهى ذى عائشة رضى الله عنها تقول له : « هل أتى عليك يوم كان أشد

من أُحد ؟ قال : لقد لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى إلى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى ، فاذا أنا بسحابة قد أظلتنى ، فنظرت ، فاذا فيها جبريل ، فنادانى . فقال إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك . وقد بعث إليك ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يامحمد . فقال ذلك ، فما شئت ، إن شئت ان أطبق عليهم الأخشبين . فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده لا يشرك به شيئا ، وصدق الله العظيم « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤف رحيم » . أما أحد الذى تسأل عنه رضى الله عنها فى الحديث ، فإنها الغزوة المعروفة بهذا الاسم ، إذ ترك بعض المسلمين أماكنهم من صفوف الجيش ، حين لاح لهم النصر ، طمعاً فى أسلاب العدو ، وكان هذا الخلل سبباً فى الهزيمة المنكرة ، التى حملت كثيراً منهم على الفرار ، ولا سيا بعد أن سمعوا مناديا ينادى « إن محمدا قدمات » ، وفى هذه الغزوة شجت رأسه وكسرت رباعيته ، واحتمل من صنوف الأذى ، وألوان العذاب . مالا يحتمله إلا صناديد الرجال ، ولما عاتب هؤلاء الفارين والمتسببين فى تلك الهزيمة أجابوه بذلك العذر الواهى ، وهنالك نزلت فيهم الآيات « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا ، وسيجزى الله الشاكرين ، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ، ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزى الشاكرين ، وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا ، والله يحب الصابرين » .

ونحن نعلم أنه لم تكن تلك الغزوة فقط من الساعات الرهيبة ، واللحظات الحرجة التى لاقى فيها الشدائد ، وتحمل الأهوال ، فقد مرت بالمسلمين « تبوك » التى سماها القرآن ساعة العسرة ، لأنها صادفت حمارة القيظ ، ووافقت أيام الجدب والجوع ، وكانت محكا للإيمان الصادق ، والجهاد الخالص ، وهتك الله فيها أستارا كانت تغطى على النفاق .

مولد النور

لفضيلة الشيخ على رفاعى

مفتش الوعظ والارشاد بالأزهر

بميلاد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم انتشر نور الحياة فى جزيرة العرب ، وأضاء الله به المشارق والمغارب ، وأحيا به أمة خيّم على ربوعها الفناء ، وأطبق على أهلها ظلام الجهل ، فهى والأنعام سواء . ومن أراد أن يعرف ذلك تمام المعرفة فلينظر إلى ما كان عليه شبه جزيرة العرب قبل بعثة من أرسله الله سراجا

و تقدُّمُهُ صلّى الله عليه وسلم صفوف المسلمين فى هذا الوقت كان مثالا على فدائية القائد الذى يسبق جنوده إلى الهلاك ، ويتقدمهم إلى الموت ، ويبيع قبلهم روحه رخيصةً فى سبيل الله ، من غير نظر إلى ما يعرض له من العقبات والصّعاب ... وقد عرفنا من حديث غزوة الخندق أنه كان يحفر بنفسه مع أصحابه ، فلما دَمِيَتْ أصبعه لم يَعُقْه ذلك عن متابعة العمل ، ولم يصدفه عن مواصلة السير فيه ، ولم يزد على قوله « وفى سبيل الله ما لقيت » ، وكان الذين يعملون معه كلما رأوا منه هذا التواضع ، وأحَسُّوا فيه هذا الإيمان ، وشاهدوا استهانته بما يلاقى تأججت عزائمهم ، واشتعلت هِمَمُهُمْ ، وضاعفوا جهودهم ...

وربما كان الذى لاقاه من خصومه بعضا مما كان يلقاه من بعض أنصاره الذين كانت فيهم جفوة طباع ، وفظاظة قلب ، وخشونة معاملة ، وإذا كان العرب على العموم قساة الأكباد ، غلاظ العادات ، فقد كان قومه على الخصوص أكثر فى ذلك كله من سواهم ... وفى الحديث أن رجلا أعرابيا جاء إليه فقال له بأسلوب العنف والشدة ، يا محمد ، ثم جذبه من حاشية ردائه جذبة تأثرت بها رقبته ، وطلب منه أن يَأْمُرَ له بشىء من مال الله ، فلم يزد على أن التفت إليه ضاحكا ، وأمر له بالعطاء ، وبهذا الديدن ، وذلك الخيم يسود الرجل ، ويستحق ثناء الله « وإنك لعلى خلق عظيم » .

يضىء وقمراً ينير ، يرى أن القوم كانوا فى عماء ليس بعده عماء ، وجهالة ليس بعدها جهالة ، عقول كليلة ، ونفوس مريضة امتطت الشر وركبت الفساد . الجفاء فيهم طبيعة ، والغلظة فى أحوالهم غريزة . يرون الشجاعة فى السفك والسلب واعتداء الأقوياء على الضعاف . لا تربطهم وحدة سياسية ، ولا تجمعهم رابطة دينية ، ولا يردعهم عن فعل القبيح قانون ، ولا يعصمهم عن الوقوع فى الدنايا خلق . فهم كما قال الله فيهم : « أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » .

حرموا نعمة النظر فى مصنوعات الله ليؤمنوا بصانعها ، فالدين عندهم هواء . ينحتون الأصنام بأيديهم ، ويتخذونها أرباباً تعبد من دون الله ، يعتقدون فيها النفع والضر ويقدمون لها القرابين ويخلصون لها التقديس والتعظيم . وليست الأصنام عندهم واحدة بل لكل قبيلة صنمها ومعبودها . وبلغ من تعلقهم بها أن الرجل منهم كان إذا رغب فى السفر حرص على أن يصحب معه صنما صغيرا يماثل صنم قبيلته يضرع إليه فى حاجاته ، ويستمد منه المعونة فى تحقيق رغباته وعجب ما يروى من سفاهة عقولهم وانحطاط تفكيرهم أن بعضهم كان يتخذ إلهه من الحلوى فإذا جاع أكله ! فعل يدل على طمس البصيرة وانعدام التفكير ، وركوب الأهواء وتقليد الآباء « وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل » .

وكانوا مع ذلك فى عقائدهم أصنافا شتى ، فمنهم من أنكر وجود الخالق وجحد البعث والإعادة ، وقالوا : « ماهى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، ومنهم من اعترف بالخالق وابتداء الخلق وأنكر البعث والإعادة ، وفرقا أنكروا الرسل واستبعدوا أن يبعث الله بشراً رسولا وعبدوا الأوثان والأصنام وزعموا أنها تقربهم من الله زلفى .

وجمهرة العرب كانوا من هذا الصنف . وقليل منهم كان يميل إلى اليهودية والنصرانية ، وبعضهم كان يعبد الملائكة ويعتقد أنهم بنات الله ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ذلك موجز حالتهم الدينية ، أما حالتهم السياسية فلا تحزن عدوا ولا تسر صديقا ، فقد كانوا أذلاء مستضعفين لدولتى الروم والفرس . وكانت قوانينهم ما اصطلحت عليه كل قبيلة ، أو ما رآه زعيمها من حسن وقبح ، فالحسن مايحسنه

والقبيح ما يقبحه ، لا يرون جريمة فى وأد البنات وقتل الأولاد ، ولا يأنف المرء منهم أن ينكح زوجة أبيه أو يجمع بين أختين على فراشه .

فى هذا الظلام الحالك والليل البهيم بعث الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، فأضاء ببعثته القلوب وأشرق عليها نور الهداية ، فبدل جفاءها مودة ، وغلظتها رقة ورحمة ، وجهلها علما وحكمة ، وذلها عزا ومجداً .

لقد جاء ميلاده وسط هذه الغياهب بما سبقه من إرهاصات إيذانا بعهد جديد تتغير على صفحته تيارات الخلق برسوم من العزة والعظمة ، عُصمت بها العقيدة وانتقل بها الفكر من الأحجار إلى بارئها وارتفع البصر من الأرض إلى السماء يتلقف منها حل قضيته ، لئن كتب المؤرخون وأكثروا وأطالوا البحث عن عظيم يكشفون للعالم ما استسرّ من نواحى عظمته . عظيم فى قيادته لشعبه وتغلبه على سيء عاداته . أو عظيم فى فلسفته يشق بالناس طريقا إلى ما وراء المشاهدات ، أو عظيم فى شخصيته التى تقهر من بعد وتغلب على العقول والقلوب من قرب . أو عظيم فى نشأته وتكوينه ، تحوطه العجائب إلى غير ذلك مما يعنى به النقّاد الوازنون للأشخاص والأعمال . فأنى لهم أن يكتبوا عن هذه الشخصية التى طالما وضعها الباحثون من أهل الشرق والغرب أمام مناظيرهم حتى إذا وصلوا إلى ناحية زعموها محدّدة لعظمته أشرق شعاع آخر من ناحية أخرى ليست فى حسابهم ، فأرجعتهم القهقرى وقد أحسوا بأنهم لم يصلوا إلى الغاية مما ينشدون .

قائد جمع الشتات ورسم الهدف ووضحه لكل ذى بصيرة . إنه أستاذ البشرية على اختلاف طبقاتها وتنوع مذاهبها عن طريق إحياء الفضيلة التى وضعها العالم قبله تحت الأقدام (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) .

ولم ينل هذا بكلمة واعظة أو صدقة مبذولة بل ناله ببذل الوقت وتكريس الجهد ، واستطاع بهذا الثمن أن يجمع من حوله هؤلاء النفر من صناديد الكفر إلى هداة وغزاة فى سبيل الله .

تدرج بهم على هدى القرآن فى الأدب العالى (فبما رحمة من الله لنت لهم . ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . .) (إنما المؤمنون إخوة)

(ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) . حتى فاجأوا كسرى على عرش عظمته وهم فى خشونة الملبس وزهادة العيش بكلمة الحق جريئة حكيمة (أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين) فعبدوا الله مخلصين له الدين ، وعاملوا الخلق غير عادين ولا غاشين ، فملكوا الدنيا زاهدين فيها والآخرة عن طريق الدنيا وتركوا لنا من بعدهم ميراثا يفنى الزمان ولا يفنى (فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة) فمن كمولانا الكريم أصلا ونشأة ومن مثله حياة تزخر بالخير وسط شرور قاصمة . ومن يدانيه فى يتم توجه الاتزان وزانه الأدب وعهدنا بالأيتام الإهمال والضياع أو الدلال وفساد الحال . من كيتيم عبد الله رزانة وعقلا حتى لم تؤخذ عليه هفوة يعير بها أو زلة لسان أو عثرة قدم تنقص مكانته (الله أعلم حيث يجعل رسالته) .

أسعدوا أفكاركم أيها الكاتبون وأقلامكم ، حين تُزجون بها فى حياة هذا المولود الذى سعد به العالم . إذ أطلق العقول بعد ما قيدتها الأديان الباطلة بالأوهام والأضاليل (إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) .

وحرر الطغام من قيود الاستعباد فى الأموال والرقاب ، فأعطى كل امرىء حقه فى حياته يرسم لنفسه ما يشاء من مسالك بحيث لا يضر غيره (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا -) (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) (يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل . . .) حتى خلع عن نفسه الحول والقوة ونزل إلى الناس واحدا منهم يقول (إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ إنما إلٰهكم إلٰه واحد . فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) .

لقد كان مولد النور والهدى لمن أراد النور والهدى . ولنرجع قبل ألف وثلاثمائة وثلاث وثمانين سنة ، كى نقف معه وسط العالم المتخبط لنجعله أستاذاً مرشدا فى ظروف شاه فيها وجه الحق وأصبح الزور والطغيان عند الأمم قانونا بل ودينا . إننا إن فعلنا وحاولنا الخلاص فلابد واصلون (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين) فإن من حمله الرسالة وسلمه القيادة قال (يا أيها النبىُّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا) .

أعلام الأزهر

حمزة فتح الله

المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ (١٩١٨ م)

لفضيلة الشيخ محمد كامل الفقى
المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

ينحدر من سلالة مغربية ، ولكنه ولد « بثغر الاسكندرية » سنة ١٢٦٦ هـ (١٨٤٩ م) وشب بها ، فحفظ القرآن فى إحدى مكاتبها ، ودرس العلوم الشرعية واللغوية بجامع « الشيخ ابراهيم باشا » ، ثم ألحق بالأزهر ، فأتم به دراسته ، وتوفر على الآداب واللغة فتمكن منهما وأصاب حظا كبيرا ، ودبج الرسائل الأدبية ، ونظم الشعر ، ثم عاد إلى الاسكندرية ، ورحل إلى « تونس » ، فلبث فيها بضع سنين تولى فى أثنائها تحرير جريدة « الرائد التونسى » ، فأكسبه ذلك مرانة ودربة على معالجة الكتابة الصحفية والسياسية . ثم عاد إلى «مصر» فألفى نار الثورة العرابية مشبوبة ، فاتصل بالخديو ، وكان من أعوانه ومناصريه ، فأوحى إليه أن يحرر جريدة « البرهان » لمنشئها « معوض فريد » وقد كانت أسبوعية تصدر فى الاسكندرية وتعلن أنها صحيفة الخديو ، وتفاخر بأنها « حلت من أعتابه العليا محل القبول » .

كانت الصحف المصرية تحبذ الشورى وتدعو لها ، والكتاب يعضدون هذا المسلك ويجهدون فى سبيله ، ولكن « الشيخ حمزة » رحمه الله دعا دعوة رجعية تنافى ما أجمعت عليه الصحف فى ذلك الحين ، ولم يقتصر فى مناصرته للخديو على تحرير جريدة البرهان ، بل أصدر جريدة « الاعتدال » عام الثورة العرابية ذيادا عن العرش ، وكثيراً ما كان يخطب معضداً هـذه السياسة .

وفى سنة ١٨٦٦ م ندبته الحكومة المصرية لتمثيلها فى المؤتمر العلمى الشرقى الذى عقد فى « فينا » كما ندبته مرة أخرى لتمثيلها فى مؤتمر العلوم الشرقية الذى اجتمع فى « استكهلم » سنة ١٨٨٩ م .

ثم رأى أن يزاول التعليم فعين فى سنة ١٨٨٨ م مدرسا بمدرسة الألسن ، ثم مدرسا بمدرسة دار العلوم العليا ، وتخرج عليه طائفة من المُضْطلعين (١) فى اللغة والأدب .

وفى سنة ١٩١٠ م عين مفتشا أول للغة العربية ، وظل كذلك إلى أن خرج بحكم الستين ، فى سنة ١٩١٢ م ، فعكف على البحث والاطلاع والتقليب فى كتب اللغة والأدب ، حتى وافته المنية فى ابريل سنة ١٩١٨ م بعد أن كان كف بصره .

أثره فى اللغة والأدب :

كان رحمه الله حجة فى اللغة ، متمكنا من أصولها وفروعها ، ملما بأسرارها ودقائقها ، غيورا عليها ، شديد الحفاظ لها ، يلتزمها فى حديثه مع جميع الناس حتى مع خادمه ، ولم ينزل عن غريبها فى جميع ما كتبه من شعر أو نثر أو حديث أو مراسلة أو تقرير ، حتى كان بعض الأدباء يضع بعض النوادر فى أسلوب غريب ، وينسبها إليه لتلصق به .

وكان شديد الحفظ قوى الذاكرة ، ملما بطائفة عظيمة من شعر الفحول وقصصهم ، وأحاديث السلف وما يتعلق بهم ، فما تذكر له حادثة إلا ويفيض فى تقريرها وبيانها والتعليق عليها والانتقال منها إلى أخرى مشابهة لها .

هذا إلى عذوبة حديثه ، وصحة عبارته ، وحلاوة محاضرته ، وجمال دعابته ، وما يتدفق منه من بيان وعلم غزيرين .

وكانت له على المدرسين هيمنة واسعة ، وإشراف دقيق فى أثناء تفتيشه بوزارة المعارف ، فقد كان يحاسبهم حسابا عسيرا على هفواتهم ، ويرشدهم إلى زلاتهم ،

أَضْلَعَ بالأمر : قدر عليه .

وينبههم إلى مواطن الخطأ والصواب ، حتى اضطرهم إلى مراجعة معاجم اللغة ، والبحث فى مجفواتها ، وما طال هجره من الألفاظ ، فأخرج كنوزها ، ورد إليها بهجتها ، ونفى عنها ما يداخلها من الأغلاط ، وخلصها من أدران العامية والدخيل ونقاها من عجمة الأساليب وفساد التراكيب .

ويحدث الأستاذ « عبد العزيز البشرى » رحمه الله عن أثره فى اللغة فيقول :

« وفى أعقاب نهضة « المرصفى » يقبل العالمان الأديبان « الشيخ حمزة فتح الله » و « الشيخ ابراهيم اليازجى » فيكشفان عن مجفو العربية ، ويستظهران من أوضاعها وصيغها ما يدل على الكثير من الأسباب الدائرة ، ويتعقبان الأخطاء الشائعة ، ويدلان على الصحيح الناصح [١] من كلام العرب فيأخذ الكتاب والشعراء أنفسهم بالتحرى فى التماس الصحيح حذر النقد والتشهير ، وكذلك تصفو اللغة وتشرق ديباجتها [٢] » .

كان من أثر هذه العناية وما أخذ به المدرسين من شدة المراقبة وعسر الحساب أن طبع كثير منهم بطابعه ، فتشددوا تشدده ، ونسجوا على منواله ، ووقفوا عند السماع وعكفوا عليه ، « بل تغالى بعض المفتونين منهم ، وتعدوا طورهم ، فجعلوا يقولون : لا توجد هذه الكلمة فى اللغة ، ولو وجدت فى شعر فحول الأدباء من أهل القرون الأولى [٣] » .

والحق أن هذه طريقة خدمت اللغة ، وكان لها أثر طيب فى سلامتها ، ولكن الإمعان فى التشدد ، وهجر ما سهل من الألفاظ إلى الغريب المتوعر ربما أورث الكتابة تعقيدا وغموضا .

وكثيرا ما كانت تعرض عليه وزارة المعارف ما تطبعه من كتب العربية فيقوم بتصحيحها ويخرجها سليمة من الأخطاء اللغوية والعربية .

مؤلفاته :

ترك الشيخ «حمزة فتح الله» آثارا دالة على غزارة علمه ، ودقة بحثه ، وتمكنه

---

(١) نصح : خلص ، والناصح الخالص (٢) المختار ج ١ ص ٤١
(٣) الوسيط فى الأدب العربى ص ٣٤٠ .

من أسرار العربية وإلمامه بدقائقها ، وقد اتسمت هذه المؤلفات بالبحث المنظم ، والنسج المحكم ، والاستيعاب الدال على سعة العلم .

ومن هذه المؤلفات :

(المواهب الفتحية فى علوم اللغة العربية) التى أحيا بها ما اندثر من آثار السابقين ، وجرى فيها على طريقة الجاحظ والمبرد والقالى والمرتضى فى أماليهم ، وهى فنون من اللغة والأدب والعلم ، دالة على سعة اطلاعه ، وطول باعه فى علوم مختلفة من أدب ونحو وصرف وبلاغة وتاريخ وفقه ومنطق وغير ذلك فهى أخذ من كل فن بطرف ، وجمع لما يوسع المدارك ويثقف الأذهان ، وهو إذ يعرض خطبة من خطب العرب أو قصيدة من قصائدهم أو رسالة من رسائلهم يترجم للخطيب أو الشاعر أو الأديب ويذكر شيئا من خبرهم ، ثم يشرح أثره الشعرى أو النثرى شرحا لغويا دقيقا ، ويستطرد إلى إعراب الشعر ، ويعرج بذكر طرف من النحو أو الصرف أو البيان مقابلا بين هذا المعنى وما ذهب إليه غيره ، وهكذا لا يزال يتهم فى الأدب والعلم وينجد ، ويطوف بك بين رياضه ويهدى إليك من ثماره ، وأنت مفتون بما أهدى إليك ، معجب بطريقته فى البحث ومنحاه فى الدراسة ، وحسن تنظيمه وترتيبه . « والمواهب » جزآن حافلان بالنكت الأدبية والبحوث المختلفة التى تقوم الألسنة وتمد الأقلام ، وتنفح الأديب بما لا غنية له عنه ، والكتاب مطبوع متداول .

ومن مؤلفاته رسالة فى المفردات الأعجمية التى وردت فى القرآن الكريم ، وهى بحث طريف أعان عليه سعة علمه ، وله رسالة أخرى فى الوسم سماها « هداية الفهم إلى بعض أنواع الوسم ، تحدث فيها عن وسم الخيل والغنم وغيرهما وأسماء ذلك عند العرب مما عثر عليه فى كتاب المخصص لابن سيدة وغيره من كتب اللغة ، وفى أول الرسالة فهرس بأسماء السمات مرتب على حروف الهجاء ، والرسالة محلاة بصور بعض الإبل الموسومة ، طبعت فى بولاق سنة ١٣١٣ هـ ، وله رسالة فى التوحيد نهج فيها منهجاً عقلياً فى البحث والاستدلال ، وله رسالة « سماها باكورة السلام ، فى حقوق النساء فى الإسلام ، وهى مطبوعة أيضاً .

كتابته :

كانت له فى الكتابة طريقتان : طريقة وعرة متكلفة ، وأخرى سهلة مرسلة ، فهو يلتزم السجع أحيانا ، ويفتن فى استعمال الغريب ، ويعمد إلى الزخرف والصنعة ، فتجىء كتابة ثقيلة متوعرة غامضة ، تنفر النفس من طول ما بذل فيها من التعمل والتكلف .

ولكنه يعمد أحيانا إلى السلاسة والسهولة ، ويتجنب السجع فلا يرد فى كلامه إلا عفوا غير مطلوب ، ويتضح معناه ، ويشرق تعبيره .

وهو فى كلتا الحالتين فصيح العبارة محكم النسج ، شديد السطوة .

ويغلب أن يكون النوع الأول فى رسائله ومعاطاته الوصف ، ومجاراته أساليب القدماء ، وأشد ذلك فى توقيعاته .

ويغلب أن تكون السهولة والوضوح فى كتابته الصحفية وما يتناول به الشئون الاجتماعية .

شعره :

أما شعره فهو غريب مسدود ، لا يجرى مجرى الطبع والارتياح ، بل يتناوله على استكراه وتكلف ، ويعنى فيه بالزخرف والصنعة ولا تتنسم منه روح الشعر المطبوع ، ولم نعثر على شىء من شعره إلا قليلا .

نماذج من كتابته

كتب إلى بعض الفضلاء يطلب وده ، وهو من نثره المتكلف الجارى مجرى الصنعة والتعمل :

« كما أن شغف (١) الجنان (٢) ، بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار فى محيا (٣) الكمال ، ومجتلى (٤) الجمال ، فترى العين من تلك

---

(١) الشغف : شدة الحب . (٢) الجنان بالفتح : القلب .

(٣) المحيا بضم الميم وتشديد الياء : الوجه . (٤) مجتلاه : منظره .

الغرة (١) ما يملؤها قرة (٢) ، فكذلك السماع يستدعى هذا الشغف فيتأثر الفؤاد بما يشنف (٣) الأذن مما تهد به إليه طرائف (٤) الأخبار حتى كأن حاستى السمع والبصر فى ذلك صنوان (٥) ، بل أخوان ، فى هيكل هذا الجثمان (٦) .

« ألا وإن محاسن السيد الأجل لمما سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كل لسان ، مابين أخلاق أبهى من الروض النضير (٧) ، وأعراق (٨) أشهى من عَذْب النّمير (٩) ، قد احتلت من فؤادى لا أقول منزلا رحيباً ، ولا وادياً خصيباً ، بل منزلة شمّاء (١٠) ، ودارة (١١) علياء ، وأوْجاً (١٢) بطوالعها السعيدة يسعد ، ويلوح بها من ذكراه كل حين فرقد (١٣) ، فلم أُنشَب (١٤) أن قدمت كتابى هذا لمولاى بين يدى اللقاء ، علّه أن يسمح به الزمان . وتشعر (١٥) عنه الليالى والأيام ، ليتاح لى ريّ الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل الذى سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : ماوصف لى أحد فرأيته إلا وجدته دون ماوصف لى سواك ، وإن فيك خصلتين يحبهما الله : «الحلم والأناة» (١٦) مقتدياً بالإمام محمود جار الله (١٦) فى تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه الشريف ابن الشجرى أول ما لقيه ، وكانا قد تحابّا بالسماع :

كانت مُساءلة الركبان تخبرنا عن جابر بن رَباح أطيبَ الخبر
حتى اجتمعنا فلا والله ما سمعت أذنى بأحسن مما قد رأى بصرى»

---

(١) الغرة : الوجه .
(٢) قرت العين : جف دمعها وبردت من السرور والاسم منه القرة بضم القاف
(٣) يشنف الأذن : يطربها ، وأصله من لبس الشنف وهو القرط .
(٤) الطرائف : الأحاديث المستملحة . (٥) الصنوان : الأخوان الشقيقان
(٦) النضير : الحسن . (٧) الأعراق هنا : بمعنى الطباع والصفات .
(٨) النمير : الكثير من الماء . (٩) شماء : عالية .
(١٠) دارة : دار ، ويراد بها المكانة (١١) الأوج : العلو .
(١٢) الفرقد : نجم قريب من القطب الشمالى .
(١٣) لم أنشب : لم ألبث . (١٤) تشعر : تكشف .
(١٥) يتاح لى : يتهيأ لى . (١٦) الأناة : الوقار والحلم .

ومن كتابته السهلة الواضحة التى لا التواء فيها ولا تعقيد ، ما كتبه بعنوان « الشورى ومجلس النواب المصرى » فمما قاله :

« نحن وإن كنا نعلم ما يترتب على الشورى من الفوائد العميمة ، والمنافع الجسيمة ، وما ينجم عن التفرد بالرأى من سوء العاقبة ، غير أن ذلك لم يمنعنا من إبداء ما نراه من الملاحظات فى الأمرين كليهما ، أعنى الشورى والتفرد بالرأى المعروف بالاستبداد ؛ فأما الشورى ، فإنها وإن كانت ممدوحة عقلا وشرعاً بما ورد فى الكتاب العزيز ، والسنة المطهرة فى غير موضع ، إلا أن ذلك ليس على معنى أنها واجبة حتما على أولى الأمر بحيث لا تمضى بدونها بيعتهم ، ولا تنفذ أحكامهم ، لأن هذا ما لا يقول به أحد ، بل إن مبلغ العلم فيها أنها من الامور التى ندبت إليها الشريعة المطهرة من قبيل إتمام مكارم الأخلاق .

« وأما الاستئناس بأن الخليفة الثانى عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد ترك الأمور شورية فهو غلط ظاهر .

« ألا وإن الملوك ظل الله تعالى فى أرضه ، لا يجوز الخروج عن طاعتهم ، ولا البغى عليهم ، ولا تخفر ذمتهم ولا ننكث بيعتهم ، ولا ينقض عهدهم فى حال من الأحوال ، اللهم إلا بكفر صريح لا يحتمل التأويل »(١) .

نموذج من توقيعاته .

وقع لبعض المدرسين على قطع المحفوظات التى أرسلت إليه ليقرأها ، وكان قد ضرب على بعضها ، فقال وهو غاية فى الغموض والإغراب :

« لم أرد بذلك الترميج (٢) إلا الرعوى (٣) على النشء ، فإن قُلا مع حفظ المبنى خير من كثر يطوح (٤) به فى موامى (٥) المنبت (٦) » .

---

(١) نشرت بجريدة البرهان الصادرة فى أول ديسمبر سنة ١٨٨١ م.

(٢) الترميج : إفساد السطور بعد كتابتها .

(٣) الرَّعوى ويضم النزوع عن الجهل وحسن الرجوع عنه .

(٤) يطوِّح به : يرمى به (٥) الموامى : جمع موماة وهى الصحراء

(٦) المنبتّ : المنقطع عن السفر (٧) العَوْد : البعير المسن .

نموذج من شعره .

قال فى مؤتمر العلوم باستكهلم :

حمد السرى يا أخىّ العود[1] والناب[2] أنساك وعثاء[2] إغباب وإخباب[4]
ولو شهدت عبابا خضت لجته على سفين[5] بجنح الليل خباب[6]
يطفو إذا خفقت فيه بأجنحة من تحتها كل غواص ورساب
تجــر فى اليم أذيالا مصبغة كالخود[7] تختال فى أذيال جلباب[8]

ومنهـا :

طفقت أختلها[9] شزرا[10] وقد سفرت عنها اللثام ونضت[11] فضل أثواب
تقـول ما للنوى بى مولعاً دنفـا يا ليتما بعـذولى فى الهـوى ما بى

ومنهـا :

وهو الذى كان أغرانى بنظرته فاعجب له كيف أغرانى وأغرى بى
فهو الذى إن كتمت الحب باح به وهو الذى فى مهاوى الحب ألقى بى

ومنها فى الحـكم :

---

(١) الناب : الناقة المسنة (٢) الوعثاء : المشقة .

(٣) إغباب : أغب الإبل صاحبها إذا ترك سقيها يوما وليلتين .

(٤) الإخباب : الإسراع (٥) سفين : جمع سفينة .

(٦) خباب : مضطرب .

(٧) (ا) الخود : الحسنة الخلق الشابة أو الناعمة ، ج : خودات وخود .

(٨) الجلبـاب كسرداب : القميص ، وثوب واسع للمرأة دون الملحفة أو ما تغطى به ثيابها من فوق كالملحفة ، أو هو الخمار .

(٩) أختلها : أخدعهـا .

(١٠) شزرا : شزره وإليه يشزره نظر منه فى أحـد شقيه أو هو نظر فيه إعراض ، أو نظر الغضبان بمؤخر العين أو النظر عن يمين وشمال (قاموس) .

(١١) نضت : خلعت .

كم جامح بالثريا راضه [١] سفر فوق الثرى بين أكوار [٢] وأقتاب [٣]
إن الثواء ثواء [٤] والقصور قبو ر العاجزين ولا إيراء [٥] للخابى [٦]
ومن بغى نيل مجـــد وهو فى دعة فقد بغى من صفاة [٧] در أحلاب [٨]
والمرء فى موطن كالدر فى صدف والتبر فى معدن والنبع فى غاب

وقال يمدح الوزير خير الدين باشا بقصيدة مطلعها :

آلاؤك [٩] الغر وآناؤك [١٠] الغرر زهابها فى الزمان الجيد والطرر [١١]
الله ملجؤنا إذ ليس يفجؤنا شر الخطوب وخير الدين لى وزر

---

(١) راضه : ذلله .

(٢) الأكوار : الرحال أو بأداتها : جمع كور .

(٣) الأقتاب : الأكف التى توضع على نقالة الأحمال ، جمع قتب .

(٤) الثواء : ثوى المكان وبه يثوى ثواء وثويا نزل ، وأثوى به أطال الإقامة به أو نزل .

(٥) الإيراء : أورى الزند إذا أخرج ناره .

(٦) الخابى : خبت النار سكنت أو طفئت .

(٧) الصفاة : الحجر الصلد الضخم لا يثبت .

(٨) أحلاب : الحلب ويحرك استخراج ما فى الضرع من اللبن ، والحلب محركة والحليب ، اللبن المحلوب .

(٩) الآلاء : النعم .

(١٠) الآناء : الوهن والساعة من الليل أو ساعة ما منه .

(١١) الطرر : جمع طرة (جانب الثوب الذى لا هدب له وشفير الوادى والنهر وطرق كل شىء وحرفه ، والناصية) وأن تقطع للجارية فى تقدم ناصيتها كالعلم تحت التاج .

دراسات فى التصوف :

السهروردى المقتول

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

[بالسر إن باحوا تباح دماؤهم   وكذا دماء العاشقين تباح]

إذا مر مار بحلب ، فقد يرى غرفة مظلمة باردة لا ينفذ إليها ضوء ، ولا تسرى إليها شمس ، ولا يتخللها هواء ، كأن الضوء والشمس والهواء ، تبخل على القبر الذى بها ، أو كأنها لا تعلم أن بها قبراً يضم رفات عقل حر ، وصوفى لقى من جمود عصره ، وصادف من تعنت قومه ، مالم يصادفه رجل آخر ؛ هو رفات لرجل كان مثلا للشجاعة ، رجل لم يحفل بالموت واستقبله باسما هازئا ، كأنما يستقبل نعيما أو سعادة حقة .

فإن كان سقراط مثل الفيلسوف الحر الذى آثر الموت ، ولم يحفل به ، الذى « أعطى الكأس وهى منية شفتى محب يشتهى التقبيلا » ، فإن هناك لصورة أروع ، ومأساة أفجع ، هى صورة هذا الشاب ، ومأساة ذلك المفكر الذى مات ميتة من أفذع الميتات وأعنفها ؛ مات فتفرق عنه صحبه ، ثم نسى على مر الزمان ؛ وسواء أبكى بالدموع الغزار ، أو رثى بالدر من الأقوال ، فكل هذا قد ذهب ، كما ذهب مفكرنا ومات ، ذهب بعد أن ترك صفحة خطتها له يد الأقدار ، وبعد أن كتب فى سجل الخلود اسمه ، وضمن البقاء لذكره .

هذا هو شهاب الدين السهروردى .

ومن عرفوا بهذا الاسم فى تاريخ الإسلام كثيرون ، اشتهر كل منهم بالعلم والفضل والأدب ، ولكن من يعنينا من بينهم هو هـــذا الذى قتل بحلب بعد

أن حرر الفقهاء وثيقة كفره ، وسجلوا زندقته ، واتهموه بالتعطيل وإفساد عقول الشباب .

وليس السهروردى هو أول ضحايا الفكر ، ولن يكون آخرهم ، فكم غيره قد قتل أو سجن ، وكم غيره نفى أو شرد ، ولا ذنب لهذا أو لذاك إلا سعة الأفق وحرية الرأى ، وهى سعة وحرية تأبى الاتفاق دائما مع العقليات العتيقة الرجعية الجامدة .

من هؤلاء فى تاريخ الفكر الإسلامى كثيرون ، منهم البسطامى الذى نفى ، وسهل بن عبد الله التسترى الذى أخرج من بلده متهما بالقبح والكفر .

وكفر الجنيد والشبلى ، ورُمِى أبو مدين بالزندقة ، وقتل الحلاج ، وأخرج أبو حسن الشاذلى من مصر بعد أن حكم عليه بالزندقة .

ولكن هؤلاء جميعاً اليوم يعدون من أساطين العلم وصناديد الفكر ، صفحتهم بيضاء نقية ، وسيرتهم عطرة زكية ، كانوا شهداء ، وغدوا مخلدين .

ولولا هذا الاضطهاد لازدهرت عقول كثيرة ونبغت ، وسطعت نجوم فى سماء الفكر ، خبا نورها واحتجب ، بفعل الاضطهاد .

* * *

اشتغل السهروردى بالفقه ، وراض نفسه على التصوف ؛ نظم الشعر ، وأملى فى الفلسفة ، ودوّن فى العلم ، وطوف فى البلدان وهو شاب فى ريعان العمر ، وما لبث أن قذفت به الأقدار إلى حلب ، فاتخذها له مقراً ، ولنشاطه العلمى مسرحا . جادل فيها وناظر ، فأعجب به الشباب فأحبوه ، وخافه الفقهاء فحسدوه ، وما زالت فئة منهم تدس له المرة إثر المرة ، حتى ظفروا بهدر دمه . ذلكم الرجل الذى يتغنى الصوفية فى أروقتهم بقصيدته :

أبدا تحن اليكم الأرواح ووصالكم ريحانها والراح

هو يحيى بن حبش السهروردى ، شهيد من شهداء الفكر ، عالم مفكر ، ذكى حاد الذكاء ، حر النزعة ، فيلسوف متصوف ، شاعر رقيق ، زاهد ازدرى الحياة وزخرفها الفانى ، وطمع فى الله والقرب منه ، أراد بالحياة الدنيا حياة خيراً وأبقى ،

فأعرض عن الزائل من ملذات الحياة ، ولم يحاول أن يتقرب للناس أو للملوك ، فسعى هؤلاء اليه ، مع ما كان عليه من هيئة زرية ، وثياب رثة ، لم يهتم بالشئون العرضية ، ولكنه سعى إلى جواهر الأمور وحقائقها العليا .

ذلك هو السهروردى كما اتفق عليه كل المؤرخين ، يقول عنه ياقوت الرومى : « شهاب الدين أبو الفتوح السهروردى ، كان ، فقيها : شافعى المذهب ، أصوليا ، أديبا ، شاعرا ، حكيما ، متفننا ، نظّاراً ، لم يناظره مناظر إلا خصمه وأفحمه ؛ قرأ بالمراغة على الشيخ الإمام مجد الدين الجيلى الفقيه الأصولى المتكلم ، ولازمه مدة ، ثم تنقّل فى البلاد على قدم التجرد ، ولقى بماردين الشيخ فخر الدين المارديني ، وصحبه ، وكان يثنى عليه كثيراً ، ويقول : لم أر فى زمانى أحدا مثله ، ولكنى أخشى عليه من شدة حدته ، وقلة تحفظه . ثم رحل أبو الفتوح إلى حلب فدخلها فى زمن الظاهر غازى بن أيوب سنة ٥٧٩ ﻫ ، ونزل فى المدرسة الحلاوية ، وحضر درس شيخها الشريف افتخار الدين ، وبحث مع الفقهاء من تلاميذه وغيرهم ، وناظرهم فى عدة مسائل ، فلم يجاره أحد منهم ، وظهر عليهم . وظهر فضله للشيخ افتخار الدين ؛ فقرب مجلسه وأدناه ، وعرف مكانه فى الناس . ومن ذلك الحين تألب عليه الفقهاء ، وكثر تشنيعهم عليه » .

أما صاحب النجوم الزاهرة ، فيورد لنا : « أن السهروردى كان يعانى علوم الأوائل والمنطق والسيمياء وأبواب النيرنجيات ، فاستمال بذلك خلقا كثيرا وتبعوه ، وله تصانيف فى هذه العلوم » .

ويراه « ابن أبى أصيبعة » فى طبقات الأطباء : « أوحد أهل زمانه فى العلوم الحكمية جامعا للعلوم الفلسفية ، بارعاً فى الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله » .

وكان « صاحب العبر » يراه : « أحد أذكياء بنى آدم ، وأنه كان رأسا فى معرفة علوم الأوائل ، بارعا فى علوم الكلام ، مناظرا محجاجا ، متزهدا ، مزدريا للعلماء مستهزئا » ، ولعل هذا هو السبب الذى حمل « ابن خلدون » على أن يعد « السهروردى » « رقيق الدين » وإن لم يذهب إلى اتهامه بالزندقة .

* * *

كان عصر السهروردى وبيئته ، عجيبين حقا ، فقد كان عصر اضطراب بالغ ، وحروب وحشية ، بلغت من الشدة مبلغا عظيما ، كانت حروب يدفعها دافعان ، ولها هدفان : الدين ، والوطن . قام المسلمون يذودون عن بلادهم عادية الصليبيين ، ويدفعون علامتهم ؛ ليحموا حمى دينهم ، فكان القوم فى هوس وجنون ، فى خوف وقلق : فى اضطراب . نشأ عن ذلك كله أن طبع العصر بطابع دينى عنيف ، فكان للفقهاء فيه مكان مرموق ومرتبة سامية ، وكان كل ما يشتم منه رائحة الزندقة ، أو يظن فيه الخروج على الدين ، يمس الناس فى أرق إحساساتهم وأكثرها تأثراً .

* * *

بالقرب من زنجان من أعمال أذربيجان ، توجد بلدة ليست بالكبيرة الجميلة ، وليست بالصغيرة الخاملة ، وفيها كان يعيش صاحبنا ، لا يشغله إلا التفكير والغوص وراء درر المعانى وجواهر الوجود ، وكأنما ضاق شهاب الدين ببلدته ، أو ضاقت به بيئته ، فنزح عنها يجوب بلاد الله إلى أن ألقى عصى ترحاله فى حلب ، وكانت آنئذ من أشهر مدن الإسلام ، يحكمها الملك الظاهر بن صلاح الدين ، الرجل الذى أنهض المشرق فهز المغرب ، والذى دافع ضد غزاة الشرق الآتين من الغرب ، يرجون محق الإسلام ، ويريدون بيت المقدس .

شد « شهاب الدين » رحاله إلى سورية ، يحمل فى وفاضه الحكمة ، ويطوى فى ثنايا عقله العلم والمعرفة ، وما إن وصل حتى الف حوله العلماء يناقشونه ، وكأنما سبقته شهرته إلى تلك البلاد ؛ وكأنما خيل اليه أنه فى أرض الحرية والنور ، الأرض التى بزغ فى جنباتها المسيح ، والتى اليها سرى نبى الإسلام ، فدخل حلب يحدوه الرجاء ويدفعه الشوق إلى أن ينادى بمذاهب جديدة ، وأن يبنى آراء جديدة ، وأن يكتب ويؤلف ويملى ، وأن يبدأ من جديد حياة جديدة .

ودخل « السهروردى » حلب ، وله من العمر ثلاثون عاما ، وله من الشهرة حينذاك ما طغى على كل شهرة خاصة ، وإن كان ما زال شابا . عرف فضله الشيخ « افتخار الدين » فقربه منه ونقل إلى السلطان أمره ، فأحب أن يعرفه ، ولكن الخصوم نقلوا إلى السلطان صورة قبيحة عنه ووصفوه وصفاً تقشعر منه النفوس :

زرى الخلقة ، دنس الثياب ، وسخ البدن ، لا يغسل له جسما أو ثوبا أو يداً ، لا يقص ظفراً ولا شعراً ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فقالوا : إن القمل كان يتناثر على وجهه ويسعى على ثيابه فيهرب منه كل من يراد .

وهذه صورة بشعة تنفر النفس من صاحبها ، وتحمل الإنسان على البعد عنه ، ولكن إذا عرفنا أن السلطان قد قابله ، وما أن فاض السهروردى فى حديثه ، وتكلم فى أدق الشئون العقلية والدينية ، حتى قربه وأقبل عليه وتخصص به ، ؛ إذا عرفنا هذا ، علمنا مقدار المبالغة فى الصورة التى رسموها للسهروردى . وهكذا ذهبت دسائس الخصوم أدراج الرياح .

تحدث السهروردى مع الملك الظاهر ، فرأى هذا منه : صفاء العقيدة ، وقوة الإيمان ، وحرية الرأى ، ونقاء الطوية ؛ فازداد عليه عطفاً ، وله تقريباً وإحسانا . وبالتالى ازداد خصومه منه حسداً وكمداً ، فإذا بالسهروردى عندهم : زنديق كافر معطل ، والأدهى من ذلك والأمر أن السلطان قد قربه ، إذن فعليهم بصلاح الدين .

كان صلاح الدين فى مصر ، وكان الطابع الذى يطبع العصر كما سبق القول هو حدة العاطفة الدينية ، نتيجة للحروب الصليبية .

اجتمعت كلمة بعض الفقهاء على السهروردى ، فتألبت معهم جموع الجهل ، واجتمع شعث الجامدين ، ولم يكن تآمرهم إذ ذاك على السهروردى ، وإنما كان على الفكر وعلى العلم وعلى الحرية .

خطبوا على المنابر فأثاروا ثائرة الجماهير ، إذ استفزوا شعورها الدينى ، وهى أدق ناحية وأكثرها حساسية عند الشعوب .

هى التى ساقت الأوربيين لفتح بيت المقدس ، وهى قبل ذلك التى دفعت بجموع العرب نحو مجدهم الرائع .

قال المتآمرون : إنهم إنما يريدون إنقاذ الدين ، بمحو زنديق كافر متمرد على الدين ، وذهبوا إلى السلطان والشعب من ورائهم ، ولكن السلطان كان يعرف السهروردى معرفة اليقين ، وكان يعرف مقدار ما فى دعاويهم من صدق ؛ ناهيك بحبه للعلم ، وصلته الوثيقة بالعالم . [يتبع]

حول عروج الجسم إلى السماء

لحضرة الأستاذ أحمد ترجانى

أستاذ الأدب العربى بجامعة تبريز
والأستاذ الزائر بجامعة فؤاد الآن

[أصدر مجلس الكرادلة برئاسة بابا روما قراراً فحواه أن السيدة مريم قد رفعت إلى السماء ، فكتب هذا المقال على هامش الموضوع]

كم فى عصرنا من العجائب والغرائب فى كل ناحية من النواحى : فى الاختراعات والاكتشافات ، وفى الأفكار والآراء ، وفى الأقوال والأفعال ، وفى إبداء الحقائق وقلب موضوعها ، وفى بيان المصالح الاجتماعية البشرية ، ثم فى نقض الغرض منها وتطبيقها على الفوائد الخاصة بأمة أو هيئة أو فرد ، ولو كان مترتبا على هذا النقض والتطبيق هلاك أمم أو آلاف من النفوس أو خراب للعالم أجمع .

هذا ما فى العالم من رذائل وشرور ومفاسد ومحن ، قد تعد أقل منها شأناً ، وإن غدت كالجراثيم تنخر جسم المجتمع ، حتى نجد الناس فى هذا العصر أحوج ما يكونون إلى دعوة تربط بعضهم ببعض ، وتقرب بين عقولهم وأفكارهم وعقائدهم وآرائهم ، لكى يحصل التفاهم والتعارف بين الشعوب والقبائل والأمم والأفراد ، فتخفف من آلامهم وأسقامهم الروحية التى منوا بها ، من جراء التعصبات الواهية القديمة فى الأزمنة الغابرة ، ثم بما انضم إليها من الأهواء والأطماع الحديثة ، والنزوع إلى الاستعمار والاستثمار ، بسبب عبادة المادة وأتباع

الأغراض وإعراض الناس عن الله ، وجعلهم إلههم هواهم ، فزادهم ذلك ضغثا على إبالة .

نعم فى هـذا العصر يقلب الناس وجوههم فى السماء ليجدوا فى الأرض من يخلصهم من هذه الظلمات التى بعضها فوق بعض ، فـلا يجدون فى ساستهم وقادتهم الا مصداق قول الشاعر :

أملتهم ثم تأملتهم فلاح لى أن ليس فيهم فـلاح

أو قول الآخر :

انى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير . ولـكن لا أرى رجلا

وبعد اليأس والقنوط من رجال الدنيا ونسائها لمعالجة هـذه المشكلات ، أو التخفيف من أثقال شؤمها التى تنوء بالعصبة أولى القوة [عصبة الأمم وما فى بابهـا من لجان كبيرة أو صغيرة] ، كنت أود أن يكون فى رسالات الأديان ما يكون شفاء للناس من أمراضهم الروحية ، وكنت أود اتحاد الأديان ، أو تقاربها وتفاهمها على أصول بشرية لإسعاد الأمم والأفراد مادة وروحا ، حتى تخرج ما فى صدورهم من غل ، ويصبحوا بنعمة الله إخوانا .

وكنت ولا أزال أرى أن هذا لا كان ولن يكون ، مادام الناس يرون أن الأديان كالأحزاب والمسالك السياسية قائمة على النقاش والجدال والتعصب والأهواء ، وكنت أود أن يـكون من زعماء الأديان ورؤساء المذاهب رجال علماء — ولا أعنى بالعلم العـلم الدراسى القابل للغش والتزوير ، أو المتغير بالمظاهر والأزياء ، أو المتأثر بالظروف والبيئات ، بل العـلم الذى هو وحى وإلهـام ، باعث للخيرات والفضائل ، دافع للشرور والرذائل ، مهذب للنفوس ومطهر لهـا ممـا غشيها من لواحق المـادة وغواشيها ، ومصقل لمرايا القلوب من صدأ الأوهام ؛ أو العـلم الذى هو نور ، ونور يقذفه الله فى قلب من يشاء من عباده ، والعالم الربانى فى عصرنا هو الطبيب النطاسى الذى جس نبض النفوس ، وعرف داءها ودواءها ، وشق القلوب وكشف غطاءها واكتشف ميولها

وأهواءها ، ويسعى لنشر الخير والفضيلة بين الناس ، ويعيذهم بالله من شر الوسواس الخناس ، حتى يتغلب النور على الظلام ، ويسود بينهم الصلح والسلام .

ولا يخفى على من له دربة وقلب سليم ، أنه كلما كثرت مثارات الخلاف ، كثر الشقاق والنفاق ، وكلما زادت نغمة فى الطنبور ، رقص عليها الراقصون من هواة الجدل فى مسارح شهواتهم ، ويزيدون عليها كل ما يوحى إليهم شياطينهم فى خلواتهم ، وهكذا كان الفساد بذرة بذورها فى حبات القلوب ، وتلاحقت الأحقاب ، وتوارثها الأبناء عن الآباء ، ونمت وانبسقت بأمطار من غمام الأوهام ، حتى صارت اليوم ظلاما فى ظلام ، ويحق للحجر أن يرق للبشر . نوع الإنسان ، على الرغم من انتشار العلوم والمعارف ، واكتشاف شىء كثير من أسرار الطبائع ، أسوأ حالا فى هذا العصر منهم فى كل زمان ، لأنهم قد تعروا عن الفضائل المعنوية ، التى هى نتيجة العلم الحقيقى ، الذى يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى . وصار أصدق تعريف يميز الإنسان عن الحيوان ، فى طرف الرجحان ، هو : مستوى القامة ، عريض الأظفار ، ماش على القدمين ، وأما من طرف النقصان :

فقد وجدت مكان القول ذا سعة   فإن وجـــدت لساناً قائلا فقل

وفى هذا الزمان الذى طوى الفكر الإنسانى فيه مراحل ما كان يخطر ببال الإنسان فى القرون الأولى ، وكأنما سار على جناح البرق والبخار ، وتغير مجرى الفكر بمسافات بعيدة عما كان فى القرون الوسطى وما قبلها ، وصارت عقول الناس لا تقبل إلا ما يقع تحت الحواس ، ولا اهتمام لأكثرهم بما وراء الطبيعة وحل غوامضها ، وكشف رموزها ، ومفتاح الرمز ـ وهو الإشراق والتجريد والصفاء ـ ليس فى متناول أيديهم الآن .

فإن الناس اليوم ، فى مختلف أصقاع العالم ، لا يقبلون عقيدة جديدة إلا ببرهان كالحس ، أو دليل كالشمس . وأصبح وقتهم كالذهب ، لكسب الذهب ،

ولا يصرفونه فى المذهب ، ولا سيا فى أمثال العقائد الروحية العويصة ، التى إن فرضنا إمكان إثباتها ، فيختص برجال منعزلين عن الدنيا وزخارفها ، والمادة وسفاسفها ، الذين قد جردوا أنفسهم للعروج إلى السماء ، والاتصال بالملأ الأعلى ، ولا يخوض هذه الغمار إلا واحد بعد واحد . أفلا يحسن برجال اللاهوت أن يقللوا من المباحث الفلسفية العميقة المثيرة للمشاغبات والشبهات ، الموجبة لتشكيك الناس فى عقائدهم ، المؤيدة لذبذبتهم ورجرجتهم ، فيما قبلوه بإقناعات من التوارث والتقليد ، وأن ينفذوا إلى قلوب الناس من طريق العواطف والوجدان ، ليقربوهم إلى الله زلفى ، وأن يدعوا إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة ، ويجادلوهم بالتى هى أحسن ، وأن يردعوهم عن الغوص فى مثارات الاختلاف ، ومعتركات العقول والألباب ، وأن ينظروا بعيونهم إلى الأمام لا إلى الوراء ، فإن العيون إنما خلقت لأجل هذا .

وكم أعجبنى وسرنى ما قاله الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر فى بيانه الأخير من لزوم طرد الزوائد والحواشى ، وما يكتنفها من الغواشى ، والرجوع إلى أصول الدين ومبادئه ، والأخذ بثمراته ونتائجه ، وحذف القشور ، والاكتفاء باللباب ، ليكون نبراساً يهتدى به أولو الألباب ، ويخلص الناس من ظلمات الوسواس ، حتى يكون فيه خير العالم أجمع ، والحق أحق أن يتبع .

وكم فى مشارق الأرض ومغاربها من ابتلاءات عجيبة من ناحية الأخلاق والأعمال نشأت من الخرافات والأوهام ، ومن الاختلاف فى المذاهب والأديان ، ومن تفاوت اللغات والأجناس ، إن لم يتداركها زعماء الأديان - والدين أمتن حصن وآخر معقل للإنسانية - بالسعى فى تلطيف العواطف البشرية وتوحيد طرق الدعوة إلى الحق ، ومحو آثار الحمية الجاهلية ، ونشر مبادىء الإخاء الإنسانى ، إن لم يتداركوها فعلى الدنيا السلام ، وعلى الدين ألف . . .

والسلام على من اتبع الهدى .

مصر والسودان

وحـــــــدة لا انفصام لها

للأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

إن المتتبع للقضية المصرية يروعه أن كان السودان دائماً ، هو الصخرة العاتية التي تتحطم عندها سفينة المحادثات المصرية البريطانية ، ذلك لأن اتحاد شقي الوادي ، أمر حيوي ، لا يمكن للمفاوض المصري ، أن يتجاهله ، ويسقطه من الحساب .

وسأعرض في بحثي هـذا إلى العلاقات التاريخية والجغرافية والاقتصادية والثقافية والقومية والجنسية واللغوية والدينية والسياسية بين الشطرين ، وحينئذ سيتضح أن الوحدة بينهما أمر محتوم ، رضي بذلك المستعمرون أم غضبوا .

العلاقات التاريخية بين مصر والسودان قديمة جـداً ، وهي ترجع إلى عهد الأسرة الثالثة ، كما جاءت بذلك نقوش حجر « بالرمو » أي إلى حوالي ٢٩٠٠ ق . م ، وفي عهد الأسرة الثانية عشرة امتدت حدود مصر الجنوبية إلى الشلال الثاني ، وأقيمت القلاع والمعسكرات إلى ما وراء الشلال الرابع ، وأضحت الأراضي السودانية إلى النيل الأزرق ، في عهد الأسرة الثامنـة عشرة جزءاً من مصر ، تسود فيه النظم الإدارية والسياسية المصرية ، ودلت الآثار على أن « بلاد الصومال والواوات » كانت تدفع الجزية إلى « تحتمس الثالث » كما شيد « أمنحتب الثاني » معبداً في « وادي باع النجا » عند النيل الأزرق ، وشيد « أمنحتب الثالث » كذلك معبداً له في جهة « صلب » التي تبعد ١٥٠ ميلا جنوب وادي حلفا . ولقد استتب الأمر للمصريين مدى مائة وخمسين عاماً ، كان السودانيون خلالها يدينون بالدين

المصرى القديم ، ويتكلمون أو يتكلم البارزون فيهم اللغة المصرية ، ودرجوا على الكثير من العادات المصرية .

وظلت العلاقة بين مصر والسودان قائمة طوال عهد الفراعنة ، تضعف أحياناً ، وتقوى أحياناً أخرى ، ولكنها تثبت على أى حال مدى تقدير العقلية المصرية القديمة لفكرة الربط بين الشطرين ، وما وراء هذه الفكرة من خير عميم لكليهما [1] . وفى عهد الأسرة العشرين ، ضعفت صلات مصر بالسودان ، وانفصمت عرى الرابطة بينهما فترة من الزمن ، حتى جاء « قمبيز » وغزا مصر ثم السودان عام ٥٢٥ ق . م . ولكنه لم يستطع إقامة أية علاقات معه .

وفى عهد البطالسة ، ازدهرت التجارة ، بين « بطليموس الثانى » و« أركمين » ملك النوبة ، ازدهاراً عظيما . وقد ولى بطليموس وجهه شطر المرافىء البحرية ، القريبة من جنوبى السودان ، ليتخذها قواعد للتجارة مع تلك البلاد ، وهذه المرافىء هى بعينها الملحقات التى يطالب بها الحزب الوطنى اليوم ، وشيد بطليموس مدينة إبيثيراس Epitheras التى كان موقعها غير بعيد من سواكن ، واتخذها قاعدة اتصال وتجارة مع جنوب السودان وشرقه .

وقد نسج جميع حكام البطالسة على هذا النحو من الاهتمام بالسودان وتجارته وخيراته ، ويهمنا أن نعرف أن « أركمين » ملك النوبة ومعاصر « بطليموس الرابع » ، وقد لقب نفسه « طناتح آمن تع رع » نسبة إلى « آمن رع » وسمى نفسه « ابن رع وحبيب إيزيس » .

وظلت العلاقة قائمة بين مصر والسودان فى عهد الرومان أيضاً منذ أيام « كورنليوس جاليوس » أول حكامهم على مصر ، وأخذوا يرسلون الحملات المتعاقبة لتثبيت حقوقهم فى السودان وتأديب القبائل المغيرة على حدود مصر الجنوبية ، وما الآثار والمعاقل المنتشرة فى جنوب الوادى إلا دليل هذه العناية بشئون الجنوب .

هذا عرض سريع للاتصال الوثيق بين مصر الفرعونية والبطلمية والرومانية وبلاد النوبة فى الجنوب ، ولقد أطلق عليها فى التاريخ أسماء كثيرة ، فهى فى التوراة

---

(١) كما جاء وقت كان للنوبيين فيه دولة قوية حكمت مصر والسودان وامتد نفوذها إلى بابل .

« بلاد الكوش » وكوش هذا ، فيما تقول التوراة ، هو جد النوبيين وأخو « مصرايم » جد المصريين ، وكلاهما من سلالة « حام بن نوح » ، وتقول بعض الروايات ، إن المصريين ، جالية نوبية نزحت إلى الشمال ، وتقول أخرى ، إن النوبيين جالية مصرية ، هاجرت إلى الجنوب ، وسواء أكان هذا أم ذاك ، فانه مما لا شك فيه ، أنهما من عنصر واحد ، وقد أثبتت الأبحاث العلمية التى أجراها العلامة « إليوت سميث .Eliot Smith » فى مقابر مصر والنوبة أنه لا فرق بين المصرى والنوبى فى التكوين الجسمانى ، حتى ليتعذر من هذه الوجهة تعيين حد فاصل يميز أحدهما عن الآخر ! ! وقد وقعت فى بدء الأسرات المالكية فى مصر غزوات جاءت بكثير من الدماء الزنجية لقحت بها الدم المصرى والنوبى .

ولما جاء الفتح الإسلامى ، تدفقت سيول القبائل العربية الى تلك البلاد انتجاعاً للرزق ، وبحثاً وراء مناجم الذهب ، فاختلطت دماء النوبيين والبجه بالدماء العربية ، ونزلت هنالك بعض قبائل البربر ، ثم جاء الفتح التركى بعنصر آخر حتى صار النوبيون خليطاً من عدة عناصر أهمها العربى فالتركى فالبربرى فالنوبى ، ولقد أسفر الاتصال التاريخى بين مصر والنوبة عن إيجاد رابطة قوية بينهما ، فإن مملكة « نبته » لم تقم إلا على أساس الحضارة المصرية ، التى أخذت تنمو وتزدهر وتصطبغ بالصبغة الفرعونية .

وبقيت العلاقات بين مصر والسودان قائمة فى عهد الحكومات العربية الإسلامية التى وليت حكم مصر ، والتى ما فتئت ترسل الحملات الى تلك الجهات لتأديب المغيرين على حدود مصر الجنوبية وفرض الجزية عليهم . ولقد قال المتنبى يمدح كافوراً الأخشيدى :

يصرف الأمر من مصر الى عدن   الى الحجاز فأرض الزنج فالنوب

وجرد محمد على الكبير ، رأس الأسرة العلوية الكريمة ، حملة لفتح السودان كان يرمى من ورائها ، إلى تأمين حدود مصر الجنوبية ، وقطع خط الرجعة على المماليك ، ولما أشار به عليه مستشاروه الفرنسيون ، من أهمية السودان الاقتصادية ، ووجود مناجم للذهب به ، ولحاجته إلى الجند . والمهم أن حدود مصر السودانية وصلت جنوباً إلى جزيرة « دنكا » أمام غندكرو وإلى كردفان غرباً

وذلك بمقتضى الفرمان الذى صدر فى ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ ، والذى وافقت عليه الدول . وأدخل المصريون بالسودان حينئذ زراعة القمح والخضر ، وأنشأوا البساتين وزرعوا أشجار الفاكهة من رمان وعنب وبرتقال وليمون . وأسس محمد على بالسودان عدة مدن منها الخرطوم وكسلا ، التى أصبحت عاصمة إقليم «التاكا» والسودان الشرقى ، وكثرت هجرة المصريين إلى السودان ، واتخذه كثير منهم مقاما ، وتزوجوا بالسودانيات . كذلك أنشأ محمد على مدينة « فامكا » على النيل الأزرق سنة ١٨٤٢ ، وجعلها عاصمة مديرية « فازوغلى » وأقام على بعد منها قصراً ومعملا للتنقيب عن الذهب مازالت آثارهما باقية إلى اليوم . ونظم محمد على الحكم فى السودان وعين له حاكماً يدعى « حاكمدار السودان » يتبع ديوان الداخلية بمصر ، وجعل الخرطوم عاصمة للسودان ، ومقر حاكمداره ، الذى خوله سلطات عسكرية ومدنية مطلقة .

وقسم السودان إلى سبع مديريات هى : دنقله وبربر والخرطوم وكردفان وكسلا وسنار وفازوغلى ، وعين لكل منها مديراً ، وقسم المديريات إلى أقسام لكل قسم « ناظر » ، وللمدير وكيل ومعاونون وكتبة وقاض ومفت ، ثم كون « مجلساً أهلياً » و « ضبطية » . . وهكذا كان الحكم فى السودان صورةً من النظام الإدارى بمصر . . واستتب الأمن فى ربوع السودان نتيجة لهذا النظام الدقيق وقال مستر « بورنج » أحد السائحين الانجليز فى عهد محمد على : « إن استتباب الأمن شمل كل بلد حكمه محمد على ، فحيثما بسط نفوذه وحكمه ، وطد دعائم الأمن ورعاه ، وحيثما ضاع نفوذه ضاع الأمن » وقال قنصل فرنسا فى مصر « إن الأهالى والأجانب على السواء ، يستطيعون السير فى أى بلد من البلاد التى يحكمها محمد على فى وادى النيل إلى أقاصى السودان ، وفى سوريا وجزيرة العرب ، فقد أقام العدل صارماً فى حزم وفى غير ضعف ، فالسودان قد ساده الأمن كما ساد غيره » .

وبقى السودان فى عهد ابراهيم ، كما كان فى عهد أبيه ، بحدوده وإدارته ، أما فى عهد عباس الأول فقد عُدَّ السودان منفى للمغضوب عليهم . وفى عهد سعيد باشا ، أجار صديقه نابليون الثالث إمبراطور فرنسا ، بفرقة سودانية ،

أبلت بلاءً حسناً فى الحرب المكسيكية ، ولقد بلغ الثناء والمديح منتهاه على هـذه الفرقة ، فى كل التقارير التى كتبت عن هذه الحرب .

أما فى عهد إسماعيل باشا ، فلم تشهد مصر فى تاريخها القديم والحديث مثلما شهدته فى عهد إسماعيل من توسع منتظم وطيد فى السودان ، فاحتلت الجيوش المصرية فاشودة سنة ١٨٦٥ م ، وهى نقطة الاتصال بين السودان وأقاليم خط الاستواء ، وحصل إسماعيل بفرمان سلطانى فى ٢٧ مايو سنة ١٨٦٠ على ضم قائمقامتى « سواكن » و « مصوع » إلى حكمه . وفى عهده تم فتح أقاليم « خط الاستواء » و « مملكة أونيوره » . وبسطت مصر حمايتها على « مملكة أوغنده » وفتحت « مديرية بحر الغزال » و « سلطنة دارفور » ، وعند حدود الحبشة والبحر الأحمر ، امتدت الحدود وضمت « سنهيت » و « بلاد البوغوص » حتى « بوغاز باب المندب » ، وضمت كذلك محافظتى « زيلع وبربره » على خليج عدن ، وفتحت « سلطنة هرر » فى الجنوب الشرقى للحبشة ، ودخلت سواحل الصومال الشمالية فى ممتلكات مصر السودانية ، إلى « رأس جوردفون » على المحيط الهندى ثم إلى « رأس خافون » .

وبهذا امتدت حدود السودان تحت الحكم المصرى جنوباً إلى بحيرة البرت وبحيرة فكتوريا ، وشرقاً إلى البحر الأحمر وخليج عدن ، وغرباً إلى حدود « وداى » ، وحصل إسماعيل من السلطان على لقب « خديو مصر والنوبة ودارفور وكردفان وسنار » ، ومد بالسودان فى سنة ١٨٧٧ حوالى ٥٠ ميلا من السكك الحديدية تبدأ من حلفا ، كلفته حوالى ٤٠٠ ألف جنيه .

هـذا عرض سريع للرباط التاريخى بين مصر والسودان منذ عهد الفراعنة إلى عهد إسماعيل ، ومنه يتضح مدى اهتمام كل من ولى مصر بأمر السودان . وإلى مقال قادم نتابع فيه الحديث عن بقية العلاقات التى تربط بين جزئى الوطن الواحد مصر والسودان .

على هامش المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة

المدرس فى كلية اللغة العربية

ومن أطاع الرسول عاداه أعداؤه، وأحبه أحباؤه، والباطل أليف الشهوة وحبيب الشيطان، والحق يعرفه العقل ويقره الوجدان، ولكن الهوى متيقظ والعقل وسنان، والشيطان متحفز والإنسان غُفْلاَن.

نادى الرسول الكريم قومه فلم يستجب له غير قلة قليلة تحملت معه لأواء دعوته وخلاف أمته، وشقاق قومه وعشيرته، فلما خشيت الفتنة تركت مكة الى الحبشة مهاجرة بدينها وفارة بإيمانها، غير مبالية مفارقة الأهل والعشيرة والوطن والمال؛ وتلك أول هجرة فى الإسلام كان فيها عثمان بن عفان وزوجه وأصحابه، وقد لقيت من النجاشى إجلالا وإكبارا وإكراما وتقديرا برغم ما بذله عبد الله بن أبى ربيعة وعمرو بن العاص فى تهوين أمرها وتقليل شأنها. وليت شعرى ماذا خشى ابن أبى ربيعة وابن العاص من هجرة المهاجرين وخروج المضطهدين حتى يلحقا بهم ويعملا على إفساد أمرهم واحباط عملهم؟ إن القوم قد فهموا أن الحق فى جانب المخرجين، وعرفوا أنهم أخرجوا من ديارهم بغير حق، وأن بذرتهم قوية شديدة إذا صادفتها التربة الخصبة أفرعت وأينعت وآتت أكلها وثمرها، وعند ذلك تخر الآلهة الكاذبة أمام إله واحد، ويصرع الباطل من صرخة الحق، ويتساوى السيد والمسود، وتختلف بين الناس موازين التقدير، فلا قوة ولا مال ولا حسب ولا نسب، كلهم لآدم وآدم من تراب، لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى.

وبقى من بقى بمكة يصلى نار العذاب فيكوى بعيدان محمية أو يصفد ويرمى به فى حمّارة القيظ، حتى فتن من فتن، ولم يبق إلا من استمرأ العذاب فى سبيل الحق

والألم فى سبيل الله . وها هى ذى حادثة مروعة ترينا صورة اضطهاد الباطل للحق والكفر للإيمان والجحود للمعرفة ، والنكران للإحسان ؛ أسرة وادعة عاشت فى كنف قريش عيشة هادئة متواضعة تسمع وتبصر كل ماحولها من آثام وضلال ثم تسمع بعد صرخة الحق تدوى فى الأفق ، ودعوة المختار يصدع بها فى ربوع مكة ، وكلها خير وإصلاح وعدالة وسماحة ، فتسرع إليها مجيبة ملبية موقنة مخلصة ، فيعترض لها السادة المترفون ليصدوها عن دينها ، ويردوها عن إيمانها .

ولكن الحق قد انطبع فى قلوبها ، والإيمان قد ملأ نفوسها ، فلم يقدروا على محوه أو تحويله عن وجهته ، برغم مابذلوا من تخويف وتأليف ، وتعذيب وإغراء. وعظم الأمر أمام غطرسة المتغطرسين وكبر المتكبرين ، فتفننوا فى إرهاقها وأمعنوا فى عذابها ، وغالوا فى إيلامها ، وهى رابطة الجأش ثابتة الجنان محتسبة صابرة فى سبيل عقيدتها وإيمانها ، وليتهم حين عذبوها أحسنوا عذابها . أو قتلوها أحسنوا قِتلتها . لا بل تجاوزوا مع هؤلاء المستضعفين حدود الإنسانية فى أبسط معانيها وأقل مراميها .

هذا أبوجهل عميد الضلال ورأس الكفر وأليف الظلام وعدو النور ، يقتل سمية أم عمار وزوج ياسر بطعنات يصوبها إلى مكان عفتها وموضع طهرها ، فلم يظفر منها إلا بتوحيد يذل شركه ، وإيمان يحقر جحوده .

لقد عذبوا فلذة الكبد على مرأى ومسمع من الحب والعطف والرأفة والرحمة ، وتجرأوا على العفة أمام حارسها وحاميها وحافظها وصائنها ، وبالغوا فى إذلال الشيخ أمام كرامته وعزته وصاحبته وولده ، وهذا نوع من العذاب له لون ينفرد به وصورة يختص بها ، والأسرة عن بكرة أبيها تستعذب ما يقدم لها من مر الاضطهاد فى سبيل طاعة رسولها ومرضاة ربها ، فصبرت على عذاب الناس وخافت من عذاب الله ، إلى أن أسلمت أرواحها الذكية راضية مرضية ، وتركت دنيا العدوان والظلم إلى جنة الخلد والعدل ، وتلك فدائية نستطلع فى ثناياها الصراع العنيف بين الضلال والهدى والإيمان والكفر والظلم والعدل ، لقد أسرف أعداء الله فى الكيد لأوليائه ليصدوا عن سبيله وماهم ببالغى غايتهم ولا مصيبى

هدفهم ، فالنصر العزيز قد كتب للمؤمنين فى الدنيا والخلد النعيم قد كتب لهم فى للآخرة فهم بين حسنيين ومرجعهما إلى جنتين .

وألح الرسول فى دعوته وألح القوم فى مطاردته ورد قولته ، وضاقت قريش به كما ضاقت بأهله وعشيرته ، فائتمرت على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد مناف لا يبايعون ولا يناكحون ، تنفيذا لعهد بغيض كتبه بغيض بن عامر للقوم وعلق على الكعبة تعظيما لشأنه وتوكيدا لأثره ، وحبس محمد وعشيرته فى شعب أبى طالب وضيق عليهم فمنعوا الميرة والمادة نحو ثلاث سنين ، حتى ضجت أطفالهم من الجهد ورق لما أصابهم بعض القرشيين ، ومنهم هشام بن عمرو بن الحارث والمطعم ابن عدى ، فسعوا فى نقض الصحيفة وإبطالها بعد أن أتت عليها القرضة ، ونجحوا فى ذلك وخرج رسول الله كما خرج من معه ، وتجهمت له الحياة ورأى من أهل مكة ما كان يراه منهم قبل عزلته .

وزاد فى كربه مفاجأته بموت حاميه ومحاميه أبى طالب ، ثم موت الرقيقة المؤيدة والشريكة المؤازرة خديجة بنت خويلد أم العطرة وزوج الحضرة وأول مؤمنة وخير صاحبة .

هنا اشتد البلاء وقل العون وتجرأ على الرسول الكريم سفهاء قومه وكاشفوه بالعداء ، وظهروا له بوجوه طالما قنعوها خشية من أبى طالب ، وصرحوا بالشر وأمعنوا فى الإيذاء وضيقوا على الدعوة حتى لا تجد سبيلا إلى الناس وتعطلت أعمال الرسالة ، وتلفت الرسول إلى ما حوله ومن حوله فوجد الطائف أرق نسيما وأطيب هواء وأكثر زرعا وماء ، ورضى أن يكون من سكانها من رق طبعه وطابت نفسه وتفتحت مسالك قلبه لقبول الحق .

فقصدها ومعه زيد بن حارثة وهو مؤمل فى قبول دعوته حريص على تبليغ رسالته ، ولكن طاش سهمه وخاب رجاؤه ، فقد عرض أمره على أشرافهم فى عشرة أيام لا يدع أحدا إلا جاءه ، فلم يجن من القوم إلا ما جناه من مكة وأهلها وكان معهم كالمستجير بعمرو والمستجير من الرمضاء بالنار ، وكره القوم إقامته فيهم فأمروه بالخروج من بينهم وأغروا به سفهاءهم فجعلوا يرمونه بالحجارة كفاء لعمله وجزاء لهديه ، وياله من بحث مرير وظلم عليل ، نور تطفئوه الظلمة وحق ينهره

الضلال وإيمان يطارده الكفر، لقد أدمت الحجارة قدم الرسول وها هو ذا زيد ابن حارثة يقيه بنفسه ويتوقى عنه بجسمه، فيشج رأسه وفاء وفداء، وانصرف الرسول راضيا من الغنيمة بالإياب وتجمعت نفسه أمامه ونظر الى عظيم ما يحمل وكريم مايدعو اليه، ثم نظر الى ازدراء الناس له وهوانه عليهم فتوجه لسيده المعز واهب القوة ومالك النواصي بكلمات ما كاد يتمها حتى فوض فى إهلاكهم وخير فى عذابهم.

وهيهات لمن ملئت نفسه بالخير وبعث رحمة للناس أن يذكر ألمه وغضبه عند ما يرجع القضاء له والفصل إليه والمستقبل كفيل بصد المسرفين ورد المبطلين ؟

احتفال الأمة الاسلامية

بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم

احتفلت الأمة الإسلامية فى جميع أقطار العالم على اختلاف أجناسها ولغاتها فى يوم الجمعة الثانى عشر من شهر ربيع الأول من هذه السنة، وهو يوافق الثانى والعشرين من شهر ديسمبر الحالى، بمولد خاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم. وقد قامت هذه الأمة بنصيبها من هذا الاحتفال على أكمل وجه، وأمثل حال فتلا علماؤها سيرته الشريفة، وتاريخه المجيد فى المساجد والمجتمعات، وأذاع ملخصها بلسان الراديو حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس وزراء مصر، فدوى صوت رفعته داخل الدور، فكان ذلك داعيا لزيادة العناية بسماعها، كما كان تطوعه لإلقائها بنفسه حافزاً الناس إلى تفهمها، وهى عناية نشكره عليها، ونرجو أن يحذو حذو رفعته فى هذه الطريقة كبار الرجالات فى جميع الشعوب الإسلامية.

ولا يجوز فى هذا المقام أن تغفل ذكر النشاط العظيم الذى قامت به دار الإذاعة المصرية من تخصيص ساعات كثيرة من برنامجها لإحياء يوم ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم وليلته بقراءة القرآن والابتهالات المختلفة. أعاد الله هذه الذكرى الشريفة على الأمة الإسلامية وهى مهيبة الجانب، مرفوعة الرأس بين الأمم، ما بقى الزمان، وتعاقب الملوان.

حول إعجاز القرآن الكريم :

الرسول الأعظم

يتحدى الناس بالقرآن معجزته الخالدة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى
المدرس فى كلية اللغة العربية

— ١ —

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر : تحبها وتعشقها وتجيدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوّه بهما ؛ وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ فى القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح ، استبشرت وافتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشىء العظيم ، وأتت القبائل الأخرى فهنأتها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .

كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال فى الصحراء ، وللفراغ الكثير الذى كانوا فيه ، ولحياة البادية التى تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ؛ وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون ...

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسيرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم . يضعون الشريف النابه ،

ويرفعون الخامل الوضيع ؛ فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيما ؛ وكان النابغة سفيراً للعرب فى قصور المناذرة والغساسنة ، وحكما بين الشعراء فى سوق عكاظ ؛ وكان الأعشى يخير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ، ويسافر إلى الحبشة ؛ وكان قس بن ساعدة الأيادى الخطيب يفد على قيصر والغسانيين . . إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء . . وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب ، ويضع الهدنة ، فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

— ٢ —

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالته إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء ، هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد ، والطهر والخير والحق ؛ وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة ، وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ؛ وفيه كل ما يسعد الناس فى دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع ، وعبادات ، وأخلاق ، وفضائل ، وآداب ، وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحى الصادق ، والدستور العظيم ؛ فكان فى أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ، ومحاورات ، ومفاخرات ، ومنافرات ، ووصايا ، ومثل ، وحكمة ، وكهانة .

وسمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم ، فخروا ساجدين لفصاحته ، مذعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد فى طبقته فى البيان . . . بهر الشعراء منهم ، فخرست ألسنتهم ، وسكتت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب فى الصحراء ؛ وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم ، وفقدوا مواهب البلاغة والقول . . وذهبت كل بلاغة فى تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الأذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين . فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على داعية الإسلام . . فقالوا فى القرآن : هو شعر ، وهو سحر ، وهى أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمداً بالجنون .

فتحداهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه : بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربى المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة ، أعدت للكافرين [1] » ، وقال تعالى : « أم يقولون : افتراه ، قل : فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ؛ فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ »[2] . وقال تعالى : «أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون ، فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين »[3] . وقال تعالى : « قل : لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا »[4] ، فسجل عجز البشر كافة ، وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن - ولو تظاهروا - على الوُقوف أمام هذا التحدِّى ، ولا يقدرون على مثل هذه البلاغة ، التى هى فوق طاقتهم ؛ لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور الإنس والجن ، الملك القادر ، والمدبر الحكيم : الله جلَّ جلاله ، وعلت قدرته ، وعظمت حكمته . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن يكون شاعرا وساحرا ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، «والنجم إذا هوى ، ما ضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ؛ إن هو إلا وحى يوحى »[5] . وقال تعالى : « إنه لقول رسول كريم ؛ وما هو بقول شاعر ، قليلا ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلا ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ؛ ولو

---

[١] البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهى مدنية
[٢] هود : آية ١٣ و ١٤ - وهى مكية
[٣] الطور : « ٣٣ و ٣٤ - وهى مكية
[٤] الاسراء : « ٨٨ - وهى مكية
[٥] النجم : « ٢ و ٤ - وهى مكية

تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين »[1] .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد بن عبد الله الخالدة ؛ وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة .

فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزى والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقدارهم ، فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن فى آية أو آيات أو سورة أو سور.. واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبليغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

— ٣ —

ثم امتدت الأجيال ، وتوالت العصور ، والقرآن يتردد صداه فى المشارق والمغارب ، فلم نر رجلا وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ؛ ولم نر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقى خطبة ، أو كاتباً يحبر رسائل ومقالات ؛ ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنو هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر .

وفى تاريخ العربية فحول وفحول : كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع ، وكجرير والفرزدق وبشار وأبى نواس وأبى تمام والمتنبى والمعرى وشوقى - ولكن أين بلاغاتهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة ؟ وهل منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . وفيها كتب ومؤلفات فى أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ، ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع الخ .

---

[1] الحاقة : « ٤٠ و ٥١ - وهى مكية

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ؟ وما مكانتها وما قيمتها ؟ وما أثرها وما خطرها فى البلاغة الأدبية ؛ أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم ؟

بل أمامك الحديث النبوى الشريف ، وهو فى الدرجة العليا من الفصاحة ، ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان ؟

واقرأ إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر — بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل — فى ذلك ، فسيقع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن يخالف نظم كلام الآدميين [1] .

وأراد مسيلمة الكذاب — فيما يروى — أن يقول كلاما ، فخزى وعجز ، وبان عليه العى والحصر ، وباء بالخسران وسوء المنقلب : وأين يقع قوله «والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت ، أسيد ، من رطب ولا يابس » ، وقوله والمبديات زرعا ، والحاصدات حصداً ، والذاريات قمحاً ، والطاحنات طحناً والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً ، واللاقمات لقما ، إهالة وسمناً ؛ لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، وغير ذلك من كلامه [2] ، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز ، الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد [3] ؟

— ٤ —

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون ، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء . ولكل منهم كتب وآثار أدبية .

---

[١] ١٢٦ إعجاز القرآن للباقلانى طبعة ٩٤٨ .

[٢] راجع طرفا منه فى المرجع نفسه ص ١٢٨ .

[٣] آية ٤٢ سورة فصلت .

ولكن هل هناك من هذه الآثار ، ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم ، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة ، وتحديد واضح للمثل الإنسانية العليا ، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ، ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والأخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان ؟ . وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدسونه ، ويعدونه دستورهم فى الحياة ، ويقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية ؟ . وهل من بينها أثر قام به دين ، ونشأت عليه دولة وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم ، والكتاب الحكيم ؟ .

وهل للقرآن — بربك — شبيه من الكتب : وحد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم ، ورفع شأنها وهذب ألفاظها ، وأساليبها ، وأحيا فنونا جديدة من الأدب ، وتأثر الناس بلاغته وعذوبته وسحره ، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة . . . كالقرآن الكريم ، وما أحدثه من آثار أدبية وبيانية وفكرية فى لغة العرب ؛ فوق آثاره فى حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفى حياة العالم والانسانية كافة ؟



ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ؛ يؤمنون ، إيماناً صادقاً ، بأن لا سبيل إلى الوقوف فى تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ؛ وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين الذى عجز الانس والجن عن أن يأتوا بمثله .

وستمضى الأيام ، وتتوالى الأجيال ؛ وهو يضيء كما يضيء الفجر ، ويزخر كما يزخر البحر ، ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم : « الله نزّل أحسن الحديث ، كتابا متشابها مثانى : تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ؛ ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد » ؟

الخلافة بعد فتح الأتراك لمصر

للأستاذ هاشم محمد ابراهيم
مدرس الآداب بمعهد القاهرة

تكلمنا فى العدد الماضى من هذه المجلة عن الخلافة العباسية فى القاهرة، ونريد أن نتابع فى هـذا البحث موضوع الخلافة العباسية، وموقف سلاطين آل عثمان منها بعد فتح سليم الأول لمصر سنة ١٥١٧م :

لم يهتم العالم الإسلامى بهـذه الخلافة اهتماما كبيراً خارج مصر، فالإمارات الإسلامية لم تسع فى الحصول على تفويض للحـكم من العباسيين بالقاهرة إذا استثنينا من ذلك محمد بن طهلق حاكم دلهى : وذلك أنه بعـد أن حكم مدة ثمانية عشر عاما حكما استبداديا أراد أن يكون حكمه شرعياً، فتمكن من الحصول على تفويض للحكم من الخليفة العباسى بالقاهرة .

كذلك بلاد الحجاز مع أنها كانت خاضعة لحـكم المماليك بمصر، فإنه لم يدع للخلفاء العباسيين فى خطبة الجمعـة من على منابرها إلا مرة واحدة زمن الخليفة المستعين بالله أبى الفضل، الذى بويع بالسلطنـة والخلافة معا على أثر قتل الناصر فرج .

ولقد اتخذ معظم أمراء المسلمين خارج مصر — بعد أن شعر كل منهم بقوته فى بلده — لقب خليفة، مثال ذلك ما حدث فى تونس عنـدما تلقب أميرها أبو عبد الله الحفصى بهذا اللقب — كذلك تلقب تيمورلنك بلقب الخلافة — وكان السلطان محمد الفاتح العثمانى يخاطب سلطان خراسان بلقب خليفة .

إذن يمـكن القول بأن هذا اللقب قد اتخذه أكثر من حاكم إسلامى فى وقت واحد، كل يحـكم قطرا إسلاميا .

على هذا النحو اتخذ سلاطين آل عثمان هذا اللقب قبل فتح مصر سنة ١٥١٧ بمدة قرن ونصف — فاستيلاء السلطان سليم على مصر إذن لم يقدم أو يؤخر فى اتخاذ هذا اللقب للسلطان .

أما ما تتداوله الكتب التاريخية من تنازل الخليفة المتوكل العباسى رسميا للسلطان سليم الأول عن الخلافة ، فإنه لم يرد فى ذلك نص صريح يؤيد هذا التنازل : فمثلا المؤرخ المصرى المعاصر بن إياس ، الذى عاصر الفتح العثمانى ووصفه بالتفصيل يقول :

« إن المتوكل سلم إليه مخلفات الرسول وهى : البردة التى كان يلبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبعض من شعر لحيته صلى الله عليه وسلم ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

من هذا يتضح أنه لم يوجد ما يؤيد صراحة التنازل عن الخلافة ، أما الدليل الوحيد الذى يستند إليه المؤرخون الأتراك والأوربيون بخصوص هذا التنازل الرسمى فهو ما ذكره موراجى دوسون Mowrajei D, Hosson سنة ١٧٨٧ فى كتابه « سلسلة عامة لنسب آل عثمان » وحتى هذا المؤرخ الذى أشار إلى تنازل الخليفة المتوكل العباسى لسليم الأول عن الخلافة رسميا لم يذكر المصدر الذى اعتمد عليه حتى يؤيد هذا الزعم ـ ولم يحاول أحد من المؤرخين الذين نقلوا عنه الكشف عن حقيقة هذا القول ، ومن ثم انتقلت هذه الفكرة غير المستندة الى سند يؤيدها من كتاب الى آخر من الكتب التاريخية شرقية كانت أو غربية وأصبحت أمرا متفقا عليه غير منازع فيه من حيث الدعاية الأوربية التى انتشرت فى العالم الإسلامى لتأييد دعوى العثمانيين للخلافة .

ولو اعتبر السلطان سليم نفسه خليفة للخلفاء العباسيين لاستعمل ألقاب الخلافة بالأسلوب القديم ، ومما يؤيد هذا أن سليما بعد فتحه لمصر لم يذكر فى مراسلاته مع ابنه سليمان ، أو حتى مع كبار الموظفين هذا اللقب أو أى لقب آخر يتصل به ـ أما الألقاب التى وردت فى هذه المراسلات فهى : الخاقان ـ السلطان خادم الحرمين ، وغيرها من ألقاب العثمانيين .

ومما هو جدير بالذكر أن لقب خادم الحرمين كان يعتز به سليم الأول ويفخر به عن غيره من الألقاب ، ثم توارثه عنه بقية سلاطين الدولة العثمانية — وكان هذا اللقب من ألقاب سلاطين دولة المماليك وليس من ألقاب الخليفة العباسي .

على ذلك يمكن القول بأن سلاطين آل عثمان قبل فتح مصر وحتى بعد الفتح لم يحفلوا بألقاب : الخليفة والإمام وأمير المؤمنين ، حتى إنه لم يرد لها ذكر فى المكاتبات الرسمية — وربما كان ذلك راجعاً إلى تأثر العثمانيين بمذهب أبى حنيفة الذى يدينون بمبادئه ، والذى كان يرى أن الخلافة الحقة لم تدم إلا ثلاثين سنة كما أنه لم توجد هذه الألقاب فيما كتبه الفقيه التركى إبراهيم الحلبى فى كتابه « ملتقى الأبحر » الذى أصبح مرجعاً هاما فى التاريخ العثمانى ، كذلك ما دونه فريدون بك فى رسائله السياسية التى قدمها إلى السلطان مراد الثالث سنة ١٥٧٥م لم يعثر فيها على هذه الألقاب .

ولم يتلقب سلاطين آل عثمان بهذا اللقب إلا فى القرن الثامن عشر الميلادى إذ أصبحوا يستعملون لقب الخلافة بشكل جديد فى معاملاتهم الدولية مع المسيحيين ، وكان ذلك لأغراض سياسية ، غايتها أن يكون لهم شىء من النفوذ الدينى على العالم الإسلامى الذى كان كثير منه تحت سلطان الدول المسيحية — ففى معاهدة كتشك كينارجى Kuchuch Kainarji التى أبرمت بين السلطان عبدالحميد الأول وكثرين الثانية ملكة الروسيا سنه ١٧٧٤ اقترن اسم عبد الحميد بلقب إمام وخليفة ، وأعطت هذه المعاهدة السلطان العثمانى السلطة الروحية على المسلمين فى شبه جزيرة القرم ، كما منحته حق تفويض والى هذه البلاد بالحكم ، وتعيين القضاة ورجال الإفتاء — ولقد فطن الروس إلى أن هذه المادة تمهد السبيل لتدخل العثمانيين السياسيين فى هذه البلاد ، فألغوها سنة ١٧٨٣ .

وفى القرن ١٩ أصبح للقب الخلافة المعنى القديم الذى يقصد به السيطرة على كافة المسلمين - وقد ظهر ذلك جليا فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى فى دستور مدحت باشا فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٨٣٦ ، حيث نصت الفقرة الثالثة منه على أن السلطنة العثمانية العظمى آلت إليها الخلافة الإسلامية العظمى ، وسوف تؤول

إلى أبناء البيت المالك - وتنص الفقرة الرابعة على أن حضرة صاحب العظمة السلطان بصفته خليفة المسلمين قد أصبح حامى الدين الإسلامى .

ومن أهم العوامل التى جعلت الخلافة تظهر بهذا المعنى القديم ضعف العالم الإسلامى ووقوعه تحت سيطرة الدول الأوربية الإستعمارية ، كوقوع الهند تحت الحكم البريطانى - وتقدم روسيا إلى أواسط آسيا فبسطت نفوذها على شعوب إسلامية ، واقتطعت فرنسا جزءاً من أملاك العثمانيين فى شمال أفريقيا - فكل هذه العناصر الإسلامية المشتتة فى أنحاء العالم كانت تطمع فى أن يكون بينها ارتباط بأقوى دولة إسلامية وهى الدولة العثمانية .

ومن هذه العوامل أيضاً : أن السلطان عبد الحميد حكم الدولة العثمانية فى ظروف حرجة ، فالولايات المسيحية الباقية فى البلقان تحت حكم العثمانيين مثل الصرب والجبل الأسود واليونان .... كانت تتفاقم فيها الثورات بقصد الانفصال عن الدولة العثمانية ، أضف إلى ذلك إعلان روسيا الحرب على الدولة وتهديدها للقسطنطينية سنة ١٨٧٣ ، فذلك كله جعل العالم الإسلامى الذى خضع للنفوذ الأوربى يتجه شطر الدولة العثمانية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى أخذت الدولة العثمانية تتجه أيضاً إلى العالم الإسلامى الخارجى لتكسب عطفه الأدبى فى صراعها ضد المسيحيين . .

وقد جد عامل آخر جعل السلطان عبد الحميد يهتم بالخلافة ، وهو مقاومة الحركة الدستورية التى ظهرت فى تركيا بقيادة مدحت باشا ، فقضى عليها وعلى قائدها وحاول أن يحكم بطريقة استبدادية رجعية ، فعنى بإحياء الخلافة بمعناها القديم لكى يؤكد الصبغة الدينية ، فتلقب بلقب خليفة الله فى الأرض ، ولقب أمير المؤمنين .

وقد نجح السلطان فى ذلك نجاحا مؤقتاً حيث ثار عليه رجال حزب الاتحاد والترقى ، وخلعوه لعمله على تأييد حكمه الاستبدادى فى بلاده بإلغائه الدستور ووقوفه فى سبيل الإصلاح .

ودخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى ، وهزمت فيها ، وفر مصطفى كمال إلى الأناضول ، وتمكن من إيجاد جيش بصعوبة دافع به عن الوطن التركى

وأحبطت المشروعات التى كانت ترمى إلى تقسيم الأناضول - وأعلن المجلس الوطنى الكبير إلغاء السلطنة العثمانية ، وأعلنت الجمهورية التركية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٣ وانتخب مصطفى كمال رئيساً لها ، ورأى الأتراك أن بقاء الخلافة لم يعد له مبرر ويرجع ذلك إلى عدة عوامل من أهمها :

أن بقاء الخلافة قد يثير حوله حركات رجعية ودسائس ترمى إلى معارضة الحكم الكمالى ، وقد حدث هذا فعلا فى داخل تركيا ، وحتى فى الخارج تزعم هذه الحركة أمراء الهند مثل أغاخان وأمير على .

ومن هـــذه العوامل أيضاً أن فكرة الخلافة ترتبط بحركة الجامعة الإسلامية ، أى جمع المسلمين تحت لواء واحد ، وهذه الفكرة المرتبطة بالخلافة تخالف فكرة الدولة القومية الحديثة التى أخذت بها الجمهورية التركية الجديدة ، إذ أن أغلب سكانها أتراك لا يريدون أن يكون لهم شأن بمشاكل العالم الإسلامى المشتت فى أنحاء مختلفة .

ومن هذه العوامل أيضاً رغبة مصطفى كمال فى أن يجعل الوطن التركى وحدة واحدة متجانسة لا تفريق فيها بين الأفراد أو الرعية بسبب المسائل الدينية .

وهناك عامل آخر ، وهو أن فصل السلطة الدينية عن السلطة السياسية فى الإسلام لا يتفق ونظام الخلافة .

والعامل الأخير ، هو أن وجود الخلافة فى تركيا ، يؤثر فى علاقة تركيا الحديثة بالدول الأوروبية - ولم يشأ مصطفى كمال أن تتزعم تركيا العالم الإسلامى وهى فى حالة من الضعف والتفرقة ضد الدول الأوروبية المنتصرة ، التى استولت على معظم أملاك الدولة العثمانية القديمة - لذلك لم يرغب فى أن يزج ببلاده ، فى مشكلات لا حل لها ، وفضل إلغاء الخلافة فى ٢ مارس سنة ١٩٢٤ . وكان لا مانع عنده من أن تقوم فى أى مكان آخر .

وفى سنة ١٩٢٦ عقد مؤتمر للخلافة فى القاهرة ، وحضر مندوب عن تركيا وأعلن أن لا مانع من إقامة الخلافة فى أى مكان ، ولكن ظروف العالم الإسلامى لم يهيىء له قيام الخلافة منذ ذلك الوقت .

نجيعة الشرق فى مهاتما الغرب

للأستاذ حمزة محمد الشيخ
ليسانسيه فى الأدب الانجليزى
من جامعة فؤاد الأول

بالأمس القريب تجاوبت أسلاك البرق فى العالم كله تذيع أن حياة برناردشو قد انتهت ! مات بعد حياة دامت أربعة وتسعين عاماً . فقال صديق له ، وهو يغادر منزله « هذه نهاية حلقة من حلقات التاريخ » ، وتلقى أندريه موروا ، الأديب الفرنسى ، النبأ بقوله « إن (شو) استطاع أن يقدم للمسرح الانجليزى ما قدمه إبسن للمسرح السكنديناوى ، ووفاة (شو) سيكون لها صداها الكبير فى العالم كله ، ذلك أن (شو) كان أحب الكتاب جميعاً لدى الرأى العام ، لا لما كان يقول ، ولكن للاتجاه الذى يمثله » ، وقال ييتس « Yeats » الشاعر الايرلندى عن (شو) — « إنه أحد أبناء النور الذين نشأوا بين أبناء الدنيا . إنه ينطق بلغتهم ، ويفكر مثلهم ، ولكنه مأخوذ بطبيعة أرفع وأسمى » ، وقال ماسفيلد الشاعر يحييه فى عامه التسعين ، من قصيدة شعرية : « أيتها الرءوس النيرة على هذا الكوكب . كرميه وهو بقيد الحياة ، ولبأت ولاة الفن الجميل بعد قرون فليأمروا له بالنصب والتماثيل » .

أما « شو » نفسه فكان يقول « إننى لا أحب الحياة لذاتها ، وليست الحياة مصباحاً صغيراً أحمله ، وإنما هى مشعل هائل أمسك به الآن فى يدى ، وأريد أن يشتعل وأن يزداد توهجه قبل أن أسلمه للأجيال المقبلة » ، ولعل ذلك ما كان يراه من فرق بينه وبين شكسبير ، إذ كان يرى نفسه صاحب رسالة لجيله والأجيال التالية ، وأن شكسبير لم تكن له رسالة يحملها لجيل من الأجيال .

فما هى تلك الرسالة التى أداها « شو » ، والتى جعلت أبناء عصره يحيطونه بفيض من الشهرة والاعجاب كانا حقاً له ، بل دون حقه بكثير ؟ .

وقبل أن نخوض فى جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجلٍ بنشأة الأديب التى كان لها أثر عميق فى توجيهه ... فقــد نشأ فى ايرلندا ، والايرلنديون قوم أرهقهم الحكم الأجنبى ، وعضهم الفقر ، فرحلوا من وطنهم يطلبون الرزق ويكدحون فى سبيله ، ووجدوا فى الفكاهة المستقرة فى أعماق نفوسهم خير معين على فقرهم وسلطانهم المسلوب ، ومن هذه البيئة استمد « شو » سخريته وتمرده وإيمانه بجدوى المال فى حياة الناس . وورث برنارد شو عن أمه الذوق الموسيقى المرهف ، وحاكاها فى تمردها على التقاليد ، كما أخذ عنها الدعوة الصوفية النباتية فأصبح من النباتيين ، حتى إنه كان يدعو نفسه مهاتما الغرب ، كما كان ـ فيما بعد ـ يقول عن غاندى « إنه من العظماء الذين لا يجود التاريخ بأمثالهم إلا مرة فى كل ألف سنة » .

وأتاحت الإيرلندية لبرناردشو أن يتجه تفكيره اتجاها عالمياً ، فنزع إلى الثورة على الاستعمار والاستغلال ، وحاول تحطيم الأغلال التى تستعين بها الأمم القوية فى تقرير مصير الشعوب المستضعفة . وفى الحق إنه إذا كان العالم بأسره حريا بأن يذكر ذلك الفكر الحر الطليق ، فى وقت طغت فيه ذاتية الشعوب وقادتها على آرائها واتجاهاتها ، فإن مصر خاصة خليقة بأن تعتز بصداقة مفكر هذا شأنه ، وبأن تقوم اليوم بتمجيده وإحياء ذكراه .

كان برناردشو يعطف على مصر، ويقرأ عنها كثيراً ، ويتقصى أنباءها المتقلبة تقلب الدهر ، بل إنه ساهم بنصيب كبير فى عرض قضيتنا الحائرة أمام الرأى العام الإنجليزى ، ودافع عن المصريين أمجد دفاع أيام محنة دنشواى ، فكتب فصلا طويلا ، لم يكتب أحد مثله ، فى مقدمة روايته «جزيرة جون بول الأخرى» يدافع عن المصريين ، وقت أن كان لورد كرومر يعامل المصريين معاملة السيد لعبيده وإمائه ، وفى حقبة حالكة من تاريخ مصر ، عز فيها الصديق الذى ينتصر للحق ، ويقاوم الطغيان أنى كان . وقد لاقى « شو » فى سبيل دفاعه عن مصر كثيراً من تهكم بعض الكتاب الاستعماريين ، الذين اشتقوا من اسمه واسم

دنشواى نسبة واحدة فقالوا « شاقيان » Shacrian ، غير أن « شو » واصل اهتمامه بالقضية المصرية ، فراح يعرض على قرائه تاريخ المحكمة المخصوصة ، التى أنشأها الإنجليز لمحاكمة المصريين ، وأثبت بقلمه الصريح العادل وبسخريته اللاذعة ما لاقاه المصريون من جور وعسف واضطهاد . ولم يقر لكاتبنا العظيم قرار ولم تخب نيران حملته على مواطنيه ، حتى عفى عن المصريين الذين سجنوا ، وعادت المياه إلى مجاريها .

ولسنا نستطيع أن نفى الرسالة الشوئية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به « شو » اتجاهاً واقعياً ، أخذ أساسه عن هنريك إبسن النرويجى ، الذى استكشف الرجل العادى ، وأزاح الحجب عن حياته وسجل بطولته ، وعلى إبسن العظيم تتلمذ « شو » العظيم . ومن هنا كانت المشكلات التى يعالجها « شو » ليست مشكلات خاصة بأصحابها ، ولكنها مشكلات اجتماعية تتناول العام قبل الخاص ، كالزواج وقدسيته التقليدية (مهنة مسز وارن) والدين ونفاق المتدينين (الميجر باربارا) والاستعمار وتعميره الكاذب (جزيرة جون بول الأخرى) وفصل الطبقات ومظاهره الزائفة (بيجماليون) . ويقوم ذلك المسرح الذى دعمه « شو » على ما يسمونه بنظرية الحائط الرابع ، فليس يفصل المشاهد غير الحائط الرابع ، الذى نعرفه بالستار ، لكى يرى ما يجرى فى بيوت الناس .

أما فلسفة « شو » الاجتماعية فهى : « الاشتراكية الغابية » التى نادت بها « الجماعة الغابية » منذ تأسست فى سنة ١٨٨٤ ، وهى ليست سوى حركة تهدف إلى إصلاح المجتمع والحكومة بتوفير المال للجميع على اعتباره الوسيلة المجدية لتخليص الناس من الرذائل المادية والمعنوية .

ولا يؤمن « شو » بالديمقراطية كمذهب سياسى ، بل على عكس ذلك نراه يعجب بالدكتاتورية بمعسكريها الفاشى والشيوعى . ولعل السبب فى ذلك أن « الجماعة الفابية » نفسها كانت تنتمى إلى حاكم بأمره قديم ، ثم إننا رأينا « شو » يبشر بالسوبرمان فى مسرحيته « الإنسان والإنسان الأعلى » فلعله كذلك كان

يرى الدكتاتورية أقرب السبل التى تؤدى إلى تحقيق الحلم الذى راوده طويلا ، وظل حياته كلها يرنو إليه ويوصى العالم بانتظاره .

هذه إلمامة بالأديب الغربى الاشتراكى برناردشو ، الذى له دين فى أعناقنا نحن الشرقيين - ثقيل ، فقد امتزجت الثقافة الشوئية الفنية بكافة الثقافات ، حتى لقد شهد منتصف القرن العشرين نقلة بعيدة فى ذلك الميدان ، كان فضل « شو » فيها لا يدانيه فضل كاتب ولا أديب .

وحسب الراحل الكبير فخراً ، وكفى فنه تكريماً ، أن انتقل أدبه الأنيق الرائع إلى كل لغة حية ، واحتل فيها مكانا مرموقاً . . و « شو » فنان ايرلندى بموطنه الأصلى ، بيد أن له فى كل بلد وطن ، ومدرسة ، وتلاميذ ، وسوف يظل حياً آلاف السنين ، لا بنفسه ، فقد خبت قوتها الملهمة إلى الأبد ، ولا بجسده ، فقد همد منذ بعيد ، ولكن فى التاريخ ، وتلك هى الحياة .

عشرة آلاف لبيتين

دخل شاعر من أهل الرى يقال له أبو زيد على عبد الله بن طاهر صاحب خراسان ، فأنشده هذين البيتين وهما :

اشرب هنيئاً عليك التاج مرتفعا   من شاد مهر ودع غمدان لليمن
فأنت أولى بتاج الملك تلبسه   من هوذة بن على وابن ذى يزن

فأمر بعشرة آلاف درهم جائزة على هذين البيتين . ودخلت ليلى الأخيلية على الحجاج فأنشدته :

إذا ورد الحجاج أرضا مريضة   تتبع أقصى دائها فشفاها
شفاها من الداء العضال الذى بها   غلام إذا هز القناة سقاها

فقال لها لا تقولى غلام ولكن قولى همام ، وقال يا غلام أعطها خمسمائة . قالت احسبها إبلا . فرد عليها قائل بقوله : إنما أمر لك الأمير بشاء . قالت الأمير أكرم من ذلك . فاضطر الحجاج أن يوافقها على ظنها فجعلها إبلا على استحياء وإنما كان أمر لها بشاء .

مجالات الأدب العربى :

ظل الرياحين فى البيان

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

مدرس بالأزهر

إذا صعدت النظر وأمعنت التنخل فى منظوم الأدب العربى ومنثوره ، وجدت القرائح فى نتاجها تتدرج مع البيئة ، وسعة الحضارة ، وفسحة الصناعة الفنية والأداة البيانية .

* * *

وأصدق ما يسعف القارىء - حتى لا يخالف ما نذهب إليه فى مجالتنا - معارض الرياحين وملاعب المورقات وفتّان الزهر ومياس الغصون وملامح الورود وظلال الحدائق وجداولها ، مما أثر فى أحاسيس الشعراء وأخيلتهم ، ولون نثر الأدباء وبيانهم .

ذلك لأن القرائح العربية ما إن تفتحت لها زهرة المفاتن وسخت الحضارة واخضوضرت « الأقاليم » وازدانت بالحدائق وتوزعت المواهب بين فراديس « الأندلس » وشواطىء « النيل » ومسايل « الأبلّة » وسندسيات « غوطة دمشق » وجمال « شعب بوان » وسحر « صغد سمرقند » ، حتى لف الشعراء والكتاب فتون وجنون بالجمال المورد والخلاية المنداة والطيوب الشذية . ماء وظل وروح وريحان . و « شقائق نعمان » .

وهنا لهج الشعراء وأجاد الكتاب وطيروا أوصاف السوسن والأذريون والشقيق والبهار والأقحوان والخيرى والنسرين والخلاف والنيلوفر .

وأبدعوا فى وصفهم للبنفسج والنرجس والياسمين والآس والزعفران .

وبعد أن كانت طاقاتهم مقطعات أو أبيات تعبر فى خمرياتهم أو مدائحهم أو تشبيهاتهم حملهم الشعور بالجمال على أن يخصوا الرياحين بقصائد ورسائل بل زادوا على هذا وتخصص بعض الشاعرين والناثرين والكاتبين فى حسان الطبيعة فى لدات الحدائق وناشرات الطيب ومضمخات النسيم.

وفوق هذا تفننت القرائح وتناوحت وأمعنت فى الإخلاص بعرائس الروض ، فجعلت منها شعبا وفرقا تشتبك الاهواء حوالها وتتعلق بمحاسنها ، هذا ينتصر للورد وذاك بفضل الياسمين والآخر يروج للنرجس ويمدح طريفه .

وفى كتب « المحاضرات » عقدت مناظرات ومخاصمات كانت بطولاتها للرياحين ، ومحور الصراع والمفاخرة للآس أو الورد أو الياسمين .

وكأنى بالشعراء والكتاب - حين وجدوا أفنية الملوك والأمراء قد بخلت على فنهم - انصرفوا إلى مملكة الرياحين يتوجون منها ما يحبون وينتضرون لمن يجدون فى وجنتاته وميساته ما يرضى إحساسهم ويريح جوانحهم ويمتع أبصارهم ويمسح عنهم عناء الحياة وجهامة الجد فى كسب العيش ولاعجات الضيق بالحياة والاحياء .

* * *

وزاد شغف الشعراء والكتاب ، واضطردتها لكهم فى سوق الرياض وظلال الحدائق ، حتى ليخيل لمن ينقب فى نتاجهم ، أن الشعراء والكتاب أقاموا من الرياحين أحياء يخاطبونها ويشكون إليها فتحن ويمدحونها فتخجل ويناجونها فتسمع ويطربون لها فتطرب . ويخافون رقبتها ويحذرون عيونها ويخشعون لطلعتها .

ولقد أسرف الشعراء والكتاب بعد العصر العباسى الأول وبالغوا وصنعوا وتكلفوا وأرهقوا قرائحهم ، حتى ضيعت الصناعة على بعضهم كثيرا من جمال الوصف ودقة التعبير والتشبيه والتصوير ، وحظ البيان المنثور من طاقات الرياحين لا يقل عن البيان المنظوم .

ويكفى أن نذكر (ابن برد الأصغر) ثم نشير إلى رسالة له أجرى فيها التفاوض والتحاور ، ثم قدم فيها الورد على الرياحين فى مجلس عقده لرؤساء النوار والأزهار ، منها النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيرى .

ثم انتهى بأن عقد الرياسة للورد ، بعد أن أجرى على السنة الأبطال وجه التفضيل ، ويضيق المقام عن نقل رسالة المولى الفاضل تاج الدين اليمانى المتوفى سنة ٧٠٦ فى المفاخرة بين النرجس والورد .

وكذلك ما جاء فى الخريدة للعماد الأصفهانى من رسالة تفضيل الورد .

وإنا لنقبس بعض ما جاء على السنة الشعراء لندل على صناعة بيانية تأثرت بنفاثن الطبيعة الشذية لأبى العلاء صاعد الأندلسى فى وردة .

وردتك يا سيدى وردة　　يذكرك المسك أنفاسها
كعذراء أبصرها مبصر　　فغطت بأكمامها رأسها

ولأبى طالب الرقى :

وردة فى بنان معطار　　حيث بها فى بديع أسرار
كأنها وجنة الحبيب وقد　　نقطها عاشق بدينار

* * *

ولشاعر :

كأنما الوردة لما بدت　　فى كف من أهوى ويهوانى
حمرة خديه وفى وسطها　　صفرة لونى حين يلقانى

* * *

ويقول العسكرى :

أفضل الورد على النرجس لا أجعل الأنجم كالأشمس

* * *

ويقول أبو دلف :

أرى ودكم كالورد ليس بدائم ولا خير فيمن لا يدوم له عهد

ومن الأمثلة التى تشهد باستئثار الروض واستيلاء الرياحين على عواطف الشعراء ما قاله التنوخى .

أما ترى الروض قد وافاك مبتسما ومد نحو الندامى للسلام يداً
فاخضر ناضر فى أبيض يقق واصفر فاقع فى أحمر نضداً
مثل الرقيب بدا للعاشقين ضحى فاحمر ذا خجلا واصفر ذا كمدا

ومن شعر كشاجم فى قصيدة جيدة :

وروض عن صنيع الغيث راض كما رضى الصديق عن الصديق
كأن غصونه سقيت رحيقا فماست ميس شراب الرحيق
كأن شقائق النعمان فيه مداهن من لجين للخلوق
يذكرنى بنفسجه بقايا صنيع اللطم فى الخد الرقيق

* * *

وفى النرجس لصفى الدين الحلى :

أقول وطرف النرجس الغض شاخص إلى وللنمام حولى المام
أيارب حتى فى الحدائق أعين علينا وحتى فى الرياحين نمام

وإنى حين أوثر فى استشهادى ذلك الضرب من الوصافين الصناع لا أغفل إعجابى بلفتات العباقرة من أمثال البحترى .

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا من الحسن حتى كاد أن يتكلما

وما ضحكاة الربيع إلا بسمات « النوار » .

ولست بناس عثرات « النواسى » ولا نفحات « ابن الرومى » أو وصفيات « ابن المعتز » أو طاقات « ابن خفاجة » ويكفى فى عجالتى هذه الإشارة ، فليس لدى من عدة البحث غير المعلق فى الذاكرة ، وفراغ الصحيفة يضيق بالمزيد .

كيف ندرس الأدب

للأستاذ أحمد محمد صقر
الطالب بكلية اللغة العربية

هذا رأى فى دراسة الأدب للكاتب

تلك الآثار من نتاج الأدباء هى التى أعنيها من كلمة « الأدب » ، فنحن فى عصر أصبح فيه تحديد منهج البحث لازمة للكتاب والباحثين ، ولم يعد مُساغا ذلك الشيوع فى الفكرة والاتساع فى دوائر الدلالات والتسامح فى إطلاق الاسم على المسمى وما يجاوره ، وما يمت إليه بصلة واهية ، وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ليمكن الإنتاج وليتهيأ التوافر على العمل ويصير الدرس أكثر نفعاً وأقرب متناولا ؟

وبدهىّ أن تتولد من المادة الواحدة مواد متعددة ، فبعد أن كان التاريخ شاملا لكل ما يتصل به من سياسة واجتماع وأفكار ومذاهب وعلوم وآداب ، أصبح التاريخ مقيداً بكونه تاريخ سياسة أو تاريخ فرق أو تاريخ علوم أو تاريخ آداب ، فهذه كلها فروع كانوا يطلقون عليها اسم التاريخ . وكفى .!

وهذا العمل نفسه قد حدث للأدب ، إذ كان يطلق على كل العلوم العربية بما فيها من نحو وعروض وبلاغة ، وكانوا يقولون عن الادب : « هو الأخذ من كل فن بطرف » ، ولكن الدقة العلمية جعلت هذه المواد تنفرط من حول الأدب ، فضاق معنى هذه الكلمة ، وأصبحت تطلق إطلاقاً فنياً على تلك الآثار والنصوص الأدبية فقط ، سواء أكانت شعراً أم نثراً ، رسائل أم خُطباً ، أم محاورات .

فدراسة الأدب هى دراسة تلك النصوص . . والقصد من هـذه الدراسة تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبى والسمو بالعواطف النبيلة بعد فهم هذه النصوص ليسهل الصب على قالبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيبها : ولـكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حسرات عند ما ينظر إلى طرق دراسة الأدب فى معاهدنا على اختلاف أنواعها . وإن كل ذى حدب على تلك الآثار ليتلوى ألماً على مصير هذا الفن الرفيع حينما يتخيل الظلام المخيم على هذا الركن من التراث العربى .

وما أحسب الناس إلا قانعين بما هم فيه من خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية . . . ويزيدنى إشفاقاً أنى أسمع عن محاولات لإصلاح الدراسة فى كل المواد ، ما عدا الأدب ، فـكأن هـذه المادة بلغت حد الكمال ، ولم تعد فى حاجة إلى النظر والتنظيم . . والله يعـلم أن تلك هى المـادة فى كل شىء . . بل أستطيع أن أقول : إن الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شىء فى دور التعليم . . إذ أن الذى يدرس الآن هو تاريخ الأدب ممزوجاً بفقه اللغة . . ولم يقف الأمر عند هذا ، بل قـطـّعت أوصاله ، ومزّق شر ممزق بتقسيمه إلى عصور ومراحل تتبع الانقلابات السياسية وتغييرات الدول . .

هذان هما منبع النقص فى دراسة الأدب العربى . . :

أولا : غلبة التاريخ على مذكرات الأدب .

ثانياً : تقسيم الدرس تبعاً للعصور والانقلابات السياسية . .

وبذلك يضيع الأدب باعتباره مادة مستقلة بين هذه الأخطاء التى ارتـكبت ولا تزال ترتـكب فى كل كتاب يدرس على أنه فى مادة الأدب . . ولا شك أن هناك مدافعين عن ذلك الوضع يقولون : إن التاريخ يبين لنا مراحل الآداب وأطوارها . . ودراسة البيئة تعيننا على دراسة الأدباء وفهم كلا منهم . . ومعرفة الحالة السياسية تساعدنا على معرفة الحالة الأدبية . . ثم تقسيم الدرس باعتبار الانقلابات والدول يساعدنا على التحليل والتعمق ، إذ أن لكل عصر ميزة وطابعاً . . ولكل دولة تقاليد . . والأدب صورة من هـذه الميزات والطوابع والتقاليد . . وهذا الدفاع لا يغنى شيئاً ولا يفيد فائدة ، فنحن لا نطلب وضع

حجاب على التاريخ وطمساً لحقائقه .. كلا .. ولا نطلب الاكتفاء بهذا القدر المختصر .. بل نريد التوسع فى التاريخ التحليلى ، فهو خير معين على دراسة الأدب كما نطلب فصل المعلومات التاريخية عن كتب الأدب فصلا تاماً ، فيدرس تاريخ الأدب على أنه مادة مستقلة .

وأما الأدب ، فإنه النصوص الأدبية ، وهى الكنز الباقى لنا من مخلفات السابقين ، فحرام أن تضيع درره فى أطلال التاريخ ، وتنثر جواهره فى الطرق والسراديب ، تطؤها الأقدام وتمر عليها الأعين من الكرام ـ إنك حينما تقلب كتاباً من كتب الأدب التى فى أيدى الطلاب تأخذك الشفقة ، ويستولى عليك اليأس حينما ترى شجرة القبائل العربية وتاريخ اللهجات .. وأمثلة من العجعجة والكسكسة والطمطمانية ، ونشأة اللغة .. والخلاف الطويل بين العلماء فى هذا الموضوع .. وهكذا . ثم تجد فى ذيل الكتاب نتفاً من الشعر وقطعاً من النثر مقتضبة مجتثة ، يحفظها الطلاب للاستشهاد بها عند ترجمة الأدباء .. أو يرتلونها أمام اللجان فى الامتحانات الشفوية .. دون فهم ودون بحث عن ناحية الجمال فيها .

هذه جناية خلط التاريخ بالأدب .. وسأعرض عليك الجناية الفنية الأخرى التى تجنيها الدراسة الحالية على تلك الآثار بتقطيع أوصالها ، وتجزئة الأغراض : إلى جاهلية وأموية وعباسية وغير ذلك .

وما أعتقد أن هناك نفعاً ولا فائدة فى هذا النوع من الدرس ، لأن عنصر المقارنة والموازنة مفقود .

وسبيل البحث فى الأخذ والنقل والسرقة غير ميسرة . فإن المنهج يفرض فى كل عام عصرا من العصور بآدابه القليلة وتاريخه الكثير . فتجد المنهج مشحونا بالمباحث التى لا تمت إلى الأدب بقرابة ، والمادة الأدبية نفسها ضئيلة ومقصومة الظهر ، فكأنك تطلع على عضو من جسم ، وذلك تشويه لعرض الأدب ، وإفساد لثمرته المرجوة ، وإملال للناظر فيه ، إذ هو مجبور على مطالعة آثار الجاهليين مثلا فيرى جزءاً من كل غرض ، فإذا انتقل إلى العصر الثانى نسى العصر الأول واطلع على على عضو آخر منه هذا الجسم . فما ينتهى من العصور كلها ، إلا وفى ذهنه صورة

شوهاء غير متماسكة الأجزاء، ولا متشابهة الأطراف، لأنها لم ترتسم على المخيلة إلا مبعثرة لا تقل لى : إن أدب كل عصر يكون مجموعة تدرس على حـــده لأنى ما رأيت روضا من الرياض يطلب منه أن ينبت نوعا متشابها من الأزهار، فقد يجمع الزهر المختلف اللون والعبير والحجم والشكل، ومع ذلك يستمد بهجته من هـذا الاختلاف وتطمع النفوس فى الأنس به لهـذا السبب . وهل الآداب إلا إزدهار اللغات تفوح وتنفح وتسر وتبهج ؟ خذ غرضا كالغزل مثلا واجمع كل ما قيل فيه منذ أول العصور إلى عصرنا هذا، وادرسه دراسة وافية ووازن بين المعانى المتقاربة، وأرجع الفرع للأصل، وتأمل كل تعبير، وأكشف اللثام عن مناحي الجمال . وأنقد الفكرة واللفظ والمعنى، وأظهر العيب والنقص . وخبرنى أذلك خير وأجدى، أم دراسة قصيدة من كل غرض . فما أشبه الغرض الواحد بالخيط الممتد، ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط . فيكون بعضه أحمر والبعض الآخر أصفر ؛ لأن جماله فى تماسكه وتجانسه وفى جوهره، أما أعراضه فليست حائلا يمنع من تكملة الصورة واستقلالها . ! فإذا انتهيت من دراسة هذا الغرض فانتقل إلى غرض آخر لتأخذ عنه فكرة كاملة لا مهوشة ولا مجزأة، وبذلك يمكننا أن ندرس الأدب دراسة فنية تؤدى بنا إلى الغاية المنشودة، إذ أن الأدب هو ثقة القلوب حينما تهز أوتارها الأشجان، وهو صوت الشعور يناجى به الجمال، وغناء الوجدان تحركه أنفاس الفجر ونغمات الزهر، وهو مع ذلك أنة الثاكل ودمعة المحزون، ودم الأعصاب التى عصرها الألم، وشفها العذاب ؛ فهو صورة من النفس البشرية تبين آلامها وآمالها فلا بد من دراسته دراسة نافعة مثمرة مفيدة، وذلك لا يتحقق إلا بتخليصه من هـذه الشوائب، ودراسة كل غرض كامل دراسة وافية .

فإذا فعلنا ذلك خرّجنا أجيالا أكثر نفعاً وأعظم فائدة لا يدورون حول أنفسهم ولا ينتهون حيث بدأوا، بل يتقدمون، ثم يتقدمون ؟

[مجلة الأزهر] نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها .

(١)

رسالة الأستاذ الأكبر

إلى شعوب العالم الاسلامى

هـذه الرسالة خير ما يوجه إلى الشعوب الإسلامية فى العالم أجمع فى الحالة الحاضرة جمعاً لصفوفها ، وصونا لوحدتها .

إننى ، وقد توليت منصبى هذا ، أعد نفسى قد حملت أمانة غالية دقيقة لا شك أنى مسئول عنها أمام ربى ، وأسأله تعالى أن يهبنى من لدنه عوناً ييسر صعابها ، ويذلل عتابها ، إن ربى لطيف لما يشاء ، إنه هو العليم الحكيم .

لقد عشت طول حياتى معنيا بأمر المسلمين ، مفكراً فيما يصلحهم ، وينقذهم مما تورطوا فيه من الضعف والتخاذل والانحراف عن الصراط السوى فى العلم والعمل ، فوجدت أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأمرين :

أولهما : أن يؤمنوا إيماناً عن بينة وبصيرة بأنه لا صلاح لهم إلا بهذا الدين الذى صلح به أولهم ، وأنهم على حسب ما ينحرفون عن تعاليمه ومبادئه يصابون فى بلادهم وأنفسهم وسائر أحوالهم بالضراء وألوان الشقاء .

وثانيهما : أن ينسوا أحقادهم وميراث عداوتهم الذى أورثتهم إياه عوامل الضعف ، وعهود الذلة والخوف وتسلط الأعداء ، فيعودوا كما تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمة واحدة عزيزة كريمة تشعر بعزتها وكرامتها ، ولا غرض لها إلا إعلاء كلمة الله ، ونشر دينه ، والدفاع عن الحق حيثما وجدت لذلك سبيلا .

* * *

إن المسلمين إذا آمنوا حق الإيمان بالأمر الأول ، استقر فى قلوبهم حب دينهم ، وحرصوا على أن يسلكوا سبيله فى حياتهم ، وأن يسيروا على خطته

ومنهاجه السديد فى كل شئونهم ، فإن الإيمان بشىء ما هو أساس حبه وتوجه الرغبة إليه ، والحب الصادق يملك على صاحبه جوارحه وأعماله كما يملك قلبه وعواطفه ، وعلى هذا الأساس انتصر الإسلام فى أوله ، فقد شرى المؤمنون أنفسهم وأموالهم لله ، وكان الله ورسوله أحب إليهم مما سواهما من المال والولد والنعمة والمتاع ولولا ذلك ما استقام لهم أمر ولا تمكنوا ـ وهم القلة الضئيلة الهزيلة المستضعفة ـ من السيطرة على أكبر الأمم فى أقصر زمن عرفه التاريخ لأمة ناشئة ناهضة .

وقد سجل الله تعالى هذه الحقيقة فى قوله جل شأنه : « قل إن كان آباؤكم وإخوانكم وأبناؤكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين » .

فبين بهذا القول الصريح ، أن أساس الإيمان هو إيثار الله ورسوله على كل ما سواهما بالمحبة الخالصه الصادقة ، وأن إيثار شىء عليهما فسق وخروج على أمر الله ، لا يهدى الله أصحابه ، بل يجعلهم فى موضع المتربص المتوقع للبلاء حتى ينزل به ويأتى عليه .

والمسلمون — مع الأسف الشديد — فى هذا الموضع منذ زمن طويل ، فقلما نجد منهم من يؤثر الله ورسوله على شىء من متاعه الفانى ولو كان زهيدا ، ولذلك كانت حالهم هى تلك الحال التى تسر العدو ، وتسوء الصديق .

والسبيل إلى إصلاح هذه الحال ، أن يتعاون أهل العلم والرأى فى كل شعب على تعليم المسلمين دينهم تعليما نافعاً ، وأن يظهروهم على مافى الدين من محاسن ، ويقنعوهم بما يكفله لأهله من سعادة وقوة ، وينفوا عنهم ما أدخل عليهم من خرافات وأوهام ، كان الركون إليها سبب ضعفهم واستكانتهم .

ولا شك أن على الأزهر فى ذلك أكبر قسط ، فإنه الجامعة الدينية التى تهوى إليها أفئدة المسلمين من كل صوب ، والتى تضم طلابا من مختلف أجناسهم نفروا إليها ليتفقهوا فى الدين ، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم . وقد أخذت على عاتق وشرعت — والله المستعان — فى توجيه هذه الجامعة الكبرى الى ذلك توجيها عمليا صالحا ، أرجو أن يكون مبارك الثمرات على الإسلام والمسلمين إن شاء الله .

وسوف لا أدخر وسعا فى إمداد المسلمين داخل الأزهر وخارجه بعلماء صالحين مصلحين يكونون رسل الثقافة الإسلامية الصحيحة حيثما حلوا ، وأساة الأرواح والقلوب أينما سلكوا ، حتى نربى أمة جديدة شبيهة بالأمة الأولى التى فتح الله بها مشارق الأرض ومغاربها .

وإذا كنت أعلن ما اعتزمته وبدأته فى ذلك ، وأدعو إليه أبنائى الأزهريين أن يأخذوه بقوة فانى أدعو كذلك سائر أهل العلم فى مختلف الشعوب والطوائف الإسلامية أن يقوموا بما عليهم فى ذلك ، وأن يبثوا الدعوة للدين والعلم به فى أقطارهم ويحثوا على الأخذ بها أبناء وطنهم ، حتى يكون الإصلاح عاما ، والتوجيه كاملا .

أما الأمر الثانى ، وهو أمر الاتحاد وائتلاف القلوب ، والغض عن كل ما يثير الأحقاد ، وينكأ الجروح ، فذلك أمر له فائدته الكبرى فى التعجيل بالقضاء على الضعف ، والتفرغ لما ينفع المسلمين ويصلح شأنهم .

إن مثل المسلمين ، إذا احتفظوا بخلافاتهم ، وأنصتوا لداعى الفرقة والقطيعة ، كمثل شعب قامت فيه حرب أهلية طاحنة ، فهى تشغل ابناءه . وتستنفد قواهم ، وتضيع جهودهم ، وتلهيهم عن إصلاح أحوالهم ، وتقويم معوجهم ، وتعين عليهم أعداؤهم ، وتكون سببا دائما فى اثقال كواهلهم بما لا يحتملون من الأعباء ، وفى إلباسهم لباس الذل والخوف والشقاء .

لقد ألحت هذه الحروب الأهلية الضروس على الأمة الإسلامية منذ قرون ، فقطعت ذات بينها ، وأفسدت كثيراً من خطط الإصلاح على واضعيها والداعين إليها ، وما علمت حربا كهذه نيرانها حامية ، وأسبابها واهية .

فليتدبر المسلمون موقفهم ، ولا سيما فى هـذا الوقت العصيب ، الذى فغرت فيه المطامع أفواهها لابتلاعهم ، والذى أصبحت القوة فيه والتكتل هى لغة التخاطب السائدة ، وأسلوب التفاهم المفيد . ولينسوا ما بينهم من الخلافات التى أوهنتهم ، وثبطت من عزائمهم . وليقفوا صفاً واحداً لإنقاذ أنفسهم ودينهم ، بل لإنقاذ العالم من المطامع الفاسدة ، والمبادىء الخطرة . فإنهم أهل فكرة ، ووارثو رسالة ، وإن الله سائلهم عما أورثهم .

إنى لأعلم أن أحسن ما تطفأ به هذه الحرب الأهلية التى ظلت مستعرة بين المسلمين قروناً طويلة ، هو التفاهم . وأن يدرك كل شعب ما عند الآخر . ويومئذ يظهر للجميع أن أمة الإسلام متفاهمة على كل ما يكون به المسلم مسلماً ، وأن ما وراء ذلك لا يضر بالدين . ولا ينبغى أن يكون سبباً فى قطع حبل الأخوة والائتلاف . وسأنظر إن شاء الله تعالى فى كل ما يعين المسلمين على إدراك هذه الحقيقة ، والعمل بمقتضاها . وإن رسالة جماعة التقريب فى ذلك لتلتقى مع رسالة الأزهر ، الذى يرى حقاً عليه أن يبصر الأمة الإسلامية بأمرها ، ويرشدها إلى ما يجب أن يقوم عليه شأنها من المودة والتراحم والألفة ، وتبادل العلم والمعرفة .

أسأل الله أن يهيء للمسلمين من أمرهم رشدا ، وأن يوفق قادتهم وزعماءهم إلى النجاة بهم من العواصف والأنواء إنه سميع مجيب .

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس من هنا نبدأ

« المغفلون النافعون »

شغل الأستاذ خالد محمد مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) عشر صفحات منه تحت عنوان (المغفلون النافعون) وقصد بهم الذين يدعون الأمة إلى طريق قد انحرفوا هم عنه ، أو إلى إصلاح قد خرجوا به عن حقيقته ، وعلل تسميته إياهم بالنافعين بأنهم ينفعون أعداء الأمة ، فقال :

« فالعالم الذى ينحرف بالدين عن غايته التى هى إنهاض البشرية ، وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار . والرجعى الذى يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الشعب ، كالمومياء المحنطة ، لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى فى عروقها دم جديد ، مغفل نافع للاستعمار والجهل .

إلى أن قال : « ولكن شر سبط فى سلالة المغفلين النافعين ، وأبعدهم أثراً فى مصير الأمة ومستقبلها ، أولئك المبشرون بالروحانية ، والداعون لها ، فلنتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التى تطل علينا بوجهها الضامر كلما أذن بيننا مؤذن : حى على الحياء . . وأود أن يكون مفهوماً ، إننا لا نسوق الحديث عن هؤلاء سخرية وتفكهاً ، وإنما هم وباء ، نريد أن نلفت الأنظار إلى مكافحته ، وتطهير البيئة منه . فإن هذه الفكرة البلهاء ، التى تزعم أن الروحانية هى علاج الشرق الوقائى ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار المادية المنظمة ، المنعمة بالرغد والرفاهية . هذه الفكرة الساذجة تجد لها أنصاراً كثيرين ، وتخدع حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعقولهم عاصماً » .

يقول مؤلفنا إن القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، فكرة بلهاء فقد « أثبت العلم بتجاربه التى لا ريب فيها ، أن

أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته ، وتركيبه وأجهزته ، وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة ، وليست شيئاً يهبط من السماء ، فيصيب أقواماً ويخطىء آخرين ، وما السلوك البشرى كله : خيره وشره ، صالحه وفاسده ، ألا وليد حالتنا الصحية ، وحالتنا العقلية » .

يقول الأستاذ أن من البلاهة القول بأن الروحانية شيء مستقل بذاته وليست أثرا من آثار المادية المنظمة ، وأنها فكرة ساذجة وجدت أنصارا كثيرين !

نقول نعم وجدت أنصارا كثيرين فى الرعيل الأول منهم الأنبياء والمرسلون ، ويليهم الفلاسفة الأولون ثم الحكماء الإسلاميون ، ثم خلفاؤهم الأوربيون تغص بهم جامعاتهم ، وأنديتهم ووراءهم جميع عقلاء الأمم فى جميع أقطار العالم ؛ وأنه ليصعب على الإنسان أن يتصور أن جميع هذه العقول تستهويها فكرة بلهاء ، وأولى بالعاقل وخاصة إذا كان قريب عهد بالعلم والفلسفة أن يتهم نفسه بالبله قبل أن يتهم هؤلاء الأساطين به .

وهل مما يفهم قول الأستاذ بأن الروحانية أثر من آثار المادية المنظمة ، المفعمة بالرغد والرفاهية ؟

إن الروحانية عقيدة أولية يصادفها الإنسان عند أحط القبائل المتوحشة التى لا تحصل على غذائها إلا ما تنبته الأرض من أعشاب ، وما تتصيده هى من بعض الحيوانات ، وما يلقيه إليها البحر من جثث الأسماك الكبيرة الميتة ، وهم أشد تمسكا بالاعتقاد فى الروحانية من سكان القصور المشيدة المحاطة بالحدائق الغناء ؛ فأية مادية منظمة ولدت لهم فكرة الروحانية وغرستها فى قلوبهم الى الحد الذى هم عليه ؟ وأى رغد من العيش ورفاهية من الحياة لديهم توصلهم الى هذه التخيلات الراقية من العقائد المجردة ؟

وهل من الحكمة أن عقيدة يتخيل أنها خدعت العالم كله عالمه وجاهله ، متمدنه ومتوحشه ، عشرات لا تحصى من القرون تعامل هذه المعاملة من الاحتقار ، وتمحى من سجل الحقائق بجرة قلم فى رسالة كتبت لتؤثر فى العقول ، وتفتح طريقا الى عهد جديد ؟

ثم قال :

« فالمجتمع المتمتع بعافية اقتصادية ، هو الذى تزدهر فيه الفضائل ، أما المجتمع السغبان المضنى ، فلا وجود فيه للفضيلة ، ولا للروح . إن الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد ، وهو الخلايا التى تحيا بها الشعوب » .

نقول هذا كلام أشبه بالنثر الشعرى منه بالتحقيق العلمى ، والمشاهد المحسوس

من حالات الناس غير هذا ، فان الذى لا يجد ما يكفيه الحاجات الأولية لا يتوسع فى الموبقات إلا بقدر محدود ، خلافا « للمتمتعين بعافية اقتصادية » فانهم يغرقون الى أعناقهم ، ولا يبالون بسبب احتقارهم لمن دونهم أن يكونوا أمثلة سوء لغيرهم .

وكل الجماعات التى جاهدت لترقية الأوضاع الحكومية والاجتماعية كانت من طبقة الفقراء تحت زعامة رجال من درجتهم . ناهيك أن الذين بادروا الى قبول هداية الأنبياء ، ووقفوا نفوسهم على نصرتهم كانوا من هذه الطبقة ، على حين أن الذين كانوا يتمتعون « بالعافية الاقتصادية » كانوا يعملون على إبطال هذه الدعايات الإصلاحية بكل الوسائل الإفسادية .

وهل ينسى أحد أن السواد الأعظم من مكتشفى أسرار العلوم ، ومخترعى أنفع الآلات والأدوات ، كانوا ولا يزالون من المحرومين من الأموال الذين يكادون لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة ؟

يقول الأستاذ : « إن الكلمة الأخيرة التى سنقولها للشعب دائماً هى أن طاقته الروحية وليدة طاقته الاقتصادية ، وأنه ما لم تطاوعه الفرص ، ويحيى فى غير حرج ولا فاقة ، فلن تكون له روح » .

ويقول : « هكذا نقول ، وبه نؤمن ... ولكن الطريق إلى هذا الإشراق الروحى ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة : ما هو ؟ أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا السياسية وتترق) فهيهات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته . . . ثم قال :

« إن الروحانية التى ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هى تبدأ من المعدة الممتلئة فاذكروا هذا جيداً ؟»

نقول : ذكرناه جيداً كما أراد المؤلف ، ولكنه ليس بحق ، فأمامنا جميع صاغة الأمم من رسل وطلاب ملك ، فما قالها منهم واحد ، بل قال خاتم المرسلين محمد بن عبد الله وهو صانع أعظم أمة ظهرت فى الأرض : « حسب أحدكم من الطعام لقيمات يقمن صلبه » .

ويقول الأستاذ خالد : « إن من البله الزعم بأن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وأن المادية ستفسدنا كما أفسدت الغرب ، وأن العلم قد أثبت أن أخلاق الإنسان ليست شيئا بعيداً عن ذاته وتركيبه ، فليس السلوك البشرى كله إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية » .

ونحن نقول : لو كان الأمر كما يقرره الأستاذ ، لكان كل صحيح الجسم سليم العقل على أكمل ما يكون من سمو الأخلاق ، ولكن قد يكون المشاهد المحسوس غير ذلك ، فكم من صحيح الجسم عبقرى العقل ، وهو على أخس ما يشاهد من انحطاط الأخلاق ؛ وكم من سقيم الجسم محدود العقل ، وهو على أرقى ما تتخيل من سمو الخلال ، وكرم الطباع . وبين ذلك حالات شتى يحار فيها الفكر ، ويعجز عن تعليلها العلم ، ذهب فيها العلماء مذاهب متضاربة .

ذلك لأن الروحانية مستقلة عن الجسم ، لا تمت إليه بسبب ، كيف لا وهى من طبيعة أرقى من طبيعة المادة فلا ينطبق عليها ما ينطبق على هذه . وقد لفتت مسألة وجود الروح بعد اكتشاف التنويم المغناطيسى منذ قرن أنظار العلماء فآمنوا بوجودها مستقلة عن الجسم ، وزاد عديدهم فى جميع البلاد المتمدنة ، وألف الباحثون فى ذلك مئات من الكتب ، وأنشىء لمتابعة البحث فيها ، ونشر أدلة وجودها بالأساليب الحسية الجديدة مئات أخرى من المجلات ، ومنها ما مضى عليه قرابة قرن من الزمان . فلا يجوز جهل أو تجاهل كل هذا الانقلاب ، وخاصة للمنتسبين إلى الدين ، وإصلاح النفوس . فإن هذا الإغفال فضلا عن أنه يوهم القارىء بأن المؤلف لم يصل إليه خبر عن هذه الثورة العلمية الكبرى ، أو أنه يتجاهلها ترويجا لمبدأ المذهب المادى ، وكلا الأمرين شائنان لمن يتصدى لمفاجأة الجماهير بمثل ما يذهب إليه فى أخص ما يتعلق بالحياة الإنسانية .

ولكن الأستاذ خالد يفهم من كلمة الروحانية شيئا غير العقيدة وهو السلام والإخاء والمحبة التى يفيضها على الإنسان تيسر العيش ، وهدوء النفس ، وما يحيط به من أمن وطمأنينة ، على النحو الذى تكون عليه الحال فى الجماعات النشطة الحرة ، وهو فهم لم يسبق إليه ، ولن ينازعه أحد فيه ، لا لأنه صادف محله ، ولكن لأن المقام لا يسمح بإضاعة الوقت فى الصغريات اللفظية .

ولكن الذى يهم القارىء أن يدركه هو الغرض الحامل للأستاذ على التوسل بكل هذه المقدمات للوصول إليه ، وقد أحفينا فى البحث عنه فوجدناه مكنيا به ، ثاويا فى اطواء قوله : « أما فى رأينا فهو الرخاء الاقتصادى الشامل ، ثم بعد ذلك أو معه ، التربية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير (أوضاعنا الاقتصادية وتترق) فهيهات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تطهر طبيعته » .

فتبين أن الأستاذ يرمى بعد كل ماذكره إلى وجوب تغيير (أوضاعنا الاقتصادية) ولم يزد ، وبدلا من أن يسرع بشرح ما أجمل ، أخذ يجول بالقارىء ، وهو يتلهف على معرفة النتيجة ، فى شئون شتى من مساوىء الكهانة فى مختلف العصور ، وما جنته على الإنسانية من تعطيل تطورها ، ومن معاملتها مخالفيها بالعسف والاضطهاد ، ومن توسلها بالمسجد والمنبر لتقويض المجتمع . و توسع فى اتهامها بكل ما يصيب الناس من شر ، ونمثل فى ذلك ما أثر من أعمالها فى العالم الغربى من تعطيل كل المحاولات التى بذلت لترقية الجماعات ، أليس كان يجب عليه بدل كل هذا ، وقد استوعب ثلاثة وعشرين صفحة ، أن يسرع بالقارىء إلى شرح ما أجمله فى عبارة (تغيير الأوضاع الاقتصادية) التى ظهر أنه يقصد بها إبطال الرأسمالية الفردية ، أى إبطال أن يكون لأحد رأس مال خاص ، وأن يكون مال الأمة كله تحت يد الحكومة يشترك جميع الأفراد فى الانتفاع به تحت إشرافها .

وهنا أخطأ الأستاذ خطأ كبيراً حين ظن أن حكومة العمال فى انجلترا ألغت الرأسمالية الفردية فقد قال :

« إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولابد أن يكون هذا هو الذى حدث ، وإن السياسة التى سلكتها حكومة العمال لتشهد بذلك . فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى ، وتتبعت أسباب ذلك فوجدتها تكن فى (الرأسمالية الفردية) التى تسخر كل امكانيات المجتمع لمطامعها ! ولم تفكر حكومة العمال طويلا ، وقررت (فوراً) الانتقال بالمجتمع الانجليزى ـ لأول مرة فى تاريخه ـ من اليمين المتطرف إلى اليسار المعتدل ، أى من الرأسمالية الكنود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المتسامحة ، ولم نعد نسمع صيحات الجوع التى أزعجت بريطانيا العالم بها عقيب النصر ، كما لم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للعمارات ومصالح الحكومة واحتلالها لينام فيها ويسكنها ، لأن النظام الاشتراكى التى طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبدا ، وللمشردين مأوى » .

نقول إن حكومة العمال لم تلغ الرأسمالية الفردية ، ولو فعلت لاضطربت أسواق العالم كله ، وكان له صدى لا يسكن حتى تنتظم العلاقات التجارية بين انجلترا والبلاد التى تعاملها وليس ذلك بالأمر الهين ، بل هو حادث اجتماعى يشعر بأثره جميع الناس حتى البعيدون منهم عن التجارة . فهل أحس أحد بشىء من ذلك هنا ونحن من أخص

المتعاملين معها وخاصة فى محصولاتنا القطنية . وكل الذى حدث أن حكومة العمال أممت بعض الصناعات المعدنية ، أى جعلتها تابعة للحكومة دون الأفراد ، ولو كان مكانهم المحافظون لأمموها كما فعلوا لأن المصالح العامة تقتضى ذلك .

أما (الرأسمالية الفردية) فهى لا تزال أساس النظام المالى فى انجلترة وليس لها من خصوم غير حفنة من الشعب الإنجليزى تمذهبوا بالشيوعية منذ سنين ، كان يمثلهم عضوان سقط أحدهما فى الانتخابات التى جرت منذ نحو خمس سنين ثم سقط الثانى فى الانتخابات التى تلتها ؛ فخلا المجلس من أنصار الشيوعية ، ولم يبق غير حزب العمال ، وهو ليس بشيوعى بل ولا باشتراكى تام الاشتراكية . فهو اشتراكى من ناحية النزاع بين قيمة العمل ورأس المال ، ولكنه كغيره من سائر الأحزاب يقر الوراثة والملكية الفردية .

أما حزب العمال فلم يأت به للحكم الأميل الشعب الانجليزى لحكومة تمثل الطبقات الفقيرة ، لشعوره بأن الحالة الاقتصادية بعد الحرب تستدعى وجود حكومة تعطف على تلك الطبقات لمكافحة الغلاء من جهة ، وتدارك حاجة العمال بزيادة أجورهم من جهة أخرى . والشعب الانجليزى شعب حكيم ، ليس كغيره من الشعوب يشوب طبقاته تناكر ، ولكنه شعب متعاطف الطبقات يحس بعضها بحاجات بعض وتعمل على توفيتها ، اعتقادا من الجميع بأن القلق الاجتماعى لا يقتصر على ناحية دون أخرى ، ولكنه يعمها جميعا ؛ وهو لم يصل الى هذه الدرجة من الآداب الاجتماعية عفوا ، ولكن بعد أن ذاق مرارة ذلك القلق الاجتماعى فى أدوار شتى .

فالأمر الذى نعجب منه ظن الأستاذ المؤلف أن المبالغة فى تعظيم مبدأ من المبادىء ، وتجاوز الحدود فى بيان آثاره ، يغرى الناس على الأخذ به دون أن تعدهم الحوادث لقبوله ؛ وهو خطأ كبير ، لأن الأمم فى سيرها نحو المثل الأعلى من الاجتماع تمر بأدوار شتى لها شؤن خاصة لو استبدلت بها أرقى منها مما لم يدفعها التطور الطبيعى اليه ، لم تستفد منه شيئا ، بل قد يفسد عليها ما هى فيه من النظام النسبى . وعليه فإن سوق المبادىء والأصول سوق البضائع ، وعرضها عرض السلع دون أن تدعو إليها ضرورة حيوية ، أو تطور جديد ، فليس من الحكمة فى شىء ؟

محمد فريد وجدى

دفاع عن التعصب

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

الناس يكرهون التعصب ، ويصفون المتعصبين بضيق الأفق ، ويقيسون تقدم الأمة فكريا بمقياس يرجع إليه ، فاذا كانت الأمة متعصبة شديدة التمسك بمبدأ أو فكرة معينة فى العلم أو العقيدة دل ذلك على أنها لم تزل ذات عقلية « بدائية » وأنها تعيش فى طرف من الحياة وحدها منعزلة عن روح التجدد التى طبع الله عليها العالم ، وجعلها سنة الدنيا ، أما إذا كانت الأمة أو الجماعة متسامحة متقبلة للأفكار والآراء دون تشدد أو تزمت ، فانهم يصفونها بأنها أمة أو جماعة راشدة صالحة للحياة .

وإطلاق القول على هذا النحو مجافاة للصواب ، وذلك أن التعصب للآراء والمذاهب الفكرية إما أن يكون نتيجة الإيمان العميق بها بعد تأملها وإدراكها إدراكا صحيحاً ، وإما أن يكون نتيجة تقليد وأخذ دون فهم وإدراك لما انبنى عليه الرأى ، أو نظر إليه القائل به .

فالأول محمود ، بل هو واجب ، بل هو قضية العقل ، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن صاحبا لا يستطيع أن ينفك عنه ، أو يتخلى عن لوازمه ، فان المعارف التى يصل إليها الإنسان بالنظر والفكر إما أن تكون متعينة فى نظره فيكون القول بها واجباً عقلياً لا مناص منه ، وإما أن تكون راجحة وغيرها مرجوح فلا يخلو أمر الناظر فيها إما أن يأخذ بالراجح ويترك المرجوح أو يأخذ بالمرجوح ويترك الراجح ، ولا شك أن العقل يقضى بالأول دون الثانى .

ولهذا تعتبر القاعدة القائلة « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب » قاعدة منصفة عادلة إذا صدرت من مجتهد ذى قوة تفكيرية ، يتحدث عن مذهب وصل إليه بطريق النظر وإعمال الفكر والاستنباط .

منصفة لأن القائل بها أنصف نفسه ، وأنصف غيره ، فأما إنصافه لنفسه فانه لا يسعه وقد رأى ما رأى بعد النظر والتأمل أن ينحاز إلى غيره ، ويناقض نفسه ، فهو متعصب لما رأى عن دليل وبرهان ونظر ، فلا لوم عليه فى تعصبه وإنما يلام على تسامحه لو فعل ، لأنه مطالب بتكريم عقله ، وألا ينافق فى حكمه . وأما إنصافه لغيره مع تعصبه لنفسه فلأنه احتاط فى حكمه فقال : قد أكون مخطئاً برؤيتى غير الحق حقاً ، لقصور فى لم أتبينه ، أو لتقصير لم أقصده ، وقد يكون غيرى تبين ما غاب عنى ، وعرف ما لم أعرف .

وهذا هو المعنى الذى حمل مالك بن أنس على أن يرفض ما عرضه عليه أبو جعفر المنصور من حمل الناس على ما فى الموطأ ، فمالك رضى الله عنه معتد بالموطأ ، مطمئن إلى ما فيه ، ولكنه ينصف غيره كما ينصف نفسه ، ويترك الفرصة للآراء والمذاهب فلعل شيئاً قد وصل إليه فيه ضعف لم يتبينه ، ولعل شيئاً قد وصل إلى غيره يبدل حكما حكم به .

أما الثانى ، وهو التعصب الذى يكون نتيجة ميراث وتقليد فهو مذموم ، لأن صاحبه متجاوز حقه ، خارج عن طوره ، إذ معنى تعصبه أنه يرى كذا هو الحق بعينه ، وأن غيره هو الباطل ، مع أنه لم يتصور الأمر تصوراً يمكنه من الحكم .

ولهذا تعتبر القاعدة التى أسلفناها غير منصفة إذا صدرت من مقلد : لم ينصف فيها نفسه فيقف عند حده ، ويعرف قدره ، ولم ينصف فيها غيره ، بل حكم فى الأمرين بما لم يعرف ، وقضيه الإنصاف أن يكون الأمرين لديه سواء .

ولو أردنا توضيحاً لذلك لمثلنا الأمر برجل أعمى معه ثوب فقال له أحد الناس هذا الثوب أبيض ، وقال له آخر هو أحمر ، وهو غير مستطيع أن يحكم بصحة هذا القول أو ذاك لأنه فاقد وسيلة الحكم وهى البصر .

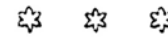
نعم قد يثق بأحدهما ثقة خاصة ، فيقدر حكمه ، ويرجحه على حكم الآخر ، وهذا هو ما يعتمد عليه المقلدون للمذاهب إذ يثقون بأئمتهم ما لا يثقون بغيرهم ، كما يثق هذا الأعمى بأن فلانا هو الصادق بعينه .

ولكن هناك فارقاً : ذلك أن الأئمة الذين يتردد العامة بينهم كلهم موثوق بهم ، وإلا لما قلدهم المقلد ، وهم مختلفون فى درجة الفهم أو طريقته ، والمقلد لا يستطيع

أن يحكم ، هل طريقة هذا فى النظر أو درجة فهمه هى المثلى أو الأقوى ، لأن هذا أيضاً نظر ، وهو غير قادر عليه ، فأقصى ما يزعمه أن يقول سمعت كثيراً من أهل القدرة أو الشهرة يقررون أن فلاناً مبرز فى فقهه ، دقيق فى نظره ، وهذا تقليد فى التقليد .

هذان هما نوعا التعصب ممدوحة ومذمومة ، والمتعصب من النوع الأول يسهل إقناعه وإرجاعه إلى مذهب غيره بالدليل والبرهان ، لأنه لم يتعصب إلا لما أدرك وفهم ، فاذا أدرك ما يحوله ويغير فهمه تقبله ورجع إليه ، لأنه متصف بعلم أن الرجوع إلى الحق خير من التمادى فى الباطل .

أما المتعصب من النوع الثانى فلا سبيل إلى التفاهم معه ، لأنه لم يعتنق ما اعتنق عن دليل فيرجعه الدليل ، وإنما اعتنقه ثقة بقائله ، فهو لا يكف عنه ما دامت هذه الثقة قائمة فى نفسه .



وفقدان التعصب يكون فى حالتين :

الحالة الأولى : فقدان حرارة الإيمان بالرأى للانصراف عن موضوعه ، والاشتغال عنه بغيره ظاهراً أو باطناً ، فالاقتصاديون وأهل السياسة وأمثالهم من المشتغلين بأمور الدنيا ، لا يعنيهم أمر الفقه أو الآراء الكلامية مثلا ، فتراهم لا يكترثون بهذا الشأن ، ولا يتعصبون لرأى من الآراء فيه ، ولو كانوا من أرقى الناس عقولا ، وأدقهم فهماً وإدراكا ، وذلك لأنهم لا يجدون فى أنفسهم رغبة فى دراسة هذه الموضوعات ، فقد انصرفوا عنها إلى غيرها انصرافاً ظاهراً ، وقد يكون الانصراف باطناً غير ظاهر ، كما نراه فى محترفى العلم والتدين ، فظاهر أمرهم أنهم متحمسون للحقيقة فى أمثال هذه القضايا ، لهم غيرة عليها ، وعناية بها ، والواقع أنهم عن ذلك مشغولون بأنفسهم وأموالهم وأحوالهم ، فهم لا يقيمون وزناً لما يشتغلون به ظاهراً ، ولا يتحمسون لهذا الرأى أو ذاك مع علمهم بوجهة الحق ، فتراهم يتظاهرون بأنهم تاركون للتعصب ، مترفعون عن التزمت والتشدد ، والله يعلم أنهم عن الحق لمشغولون .

وهذا أخطر ما تصاب به أمة فى علمائها وأصحاب الرأى فيها ، وقد عبرنا عنهم « بالمحترفين » لأن الظروف قضت عليهم وعلى الناس أن يكون أهل شأن من الشئون ، بينما هم لا يقصدون إلا غايتهم وما يبتغون من عرض الدنيا ، متخذين ما هم فيه شعاراً يخفى حقيقتهم .

الحالة الثانية : حالة الجاهلين بشىء فهم لا يعرفون منه قليلا ولا كثيراً ، وليس لهم قدرة على تتبع أصوله وأسسه التى أقيم عليها ، فهم لذلك لا يتعصبون له ، ولا يشتركون فى نصرة طائفة على طائفة فى شأنه ، وقد أنصفوا أنفسهم ؛ وكانوا منطقيين مع قصورهم وعدم استعدادهم ، فسكتوا عما لا يعلمون ، وكفوا عما لا يحسنون .

* * *

من هذا يتبين أن التعصب ليس كله مذموما ، وأن التسامح ليس دائما أمارة على الرقى الفكرى واتساع الأفق العلمى . والله المستعان ؟

من طرف الادب

قال دعبل فى طاهر بن الحسين :

أيا ذا اليمينين والدعوتين ومن عنده العرف والنائل
أترضى لمثلى فتى أن يقيم ببابك مطرح خامل
رضيت من الود والعائدات ومن كل ما أمل الآمل
بتسليمة بين خمس وست إذا ضمك المجلس الحافل
وما كنت أرضى بذا من سواك أيرضى بذا رجل عاقل
وإن ناب شغل ففى دون ما تدبره شغل شاغل
عليك السلام فإنى امرؤ إذا ضاق بى بلد راحل

أول القرآن نزولا وآخره

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكرى ياسين

أخرج الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى الدلائل ، وصححاه عن عائشة رضى الله عنها قالت : أول ما نزل من القرآن : « اقرأ باسم ربك » الآيات .

وأخرج النسائى وابن أبى حاتم : أن آخر ما نزل من القرآن : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله » الآية .

* * *

استغرقت المدة التى نزل فيها القرآن الكريم على النبى صلى الله عليه وسلم نحوا من ثلاث وعشرين سنة ، فقد بعث عليه السلام ، وهو ابن أربعين سنة ، وأقام بمكة بعد البعثة ما يقرب من ثلاث عشرة سنة ، وأقام بالمدينة بعد الهجرة بلا خلاف عشر سنين ، وتوفى وله من العمر ثلاث وستون سنة ، كما اتفق على ذلك جمهور المؤرخين من السلف والخلف ، وما جاء فى بعض الروايات مخالفا لهذا ، فانه مبنى على عادة العرب فى إلغاء الكسر ، والاكتفاء بذكر العدد الصحيح .

وأثبت الأقوال وأصحها وأشهرها أن أول ما نزل من القرآن إطلاقا هو صدر سورة « اقرأ باسم ربك » إلى قوله سبحانه : « علم الإنسان ما لم يعلم » ، ويدل على هذا الحديث الذى معنا ، وحديث الصحيحين فى بدء الوحى : أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة ، الحديث ، وحديث الطبرانى عن أبى رجاء العطاردى قال : « كان أبو موسى يقرئنا فيجلسنا حلقا ، وعليه ثوبان أبيضان ، فاذا تلا هذه السورة : اقرأ باسم ربك الذى خلق » ، قال : هذه أول سورة نزلت على محمد صلى الله عليه وسلم ، وكثير غير ذلك من الآثار والأخبار .

وأما القول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقا هو : « يا أيها المدثر » والاستدلال له بحديث جابر بن عبد الله ، وقد سئل عن أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : « يا أيها المدثر » فيمكن تأويله بأن سؤال جابر إنما كان عن أول سورة كاملة نزلت من القرآن بعد فترة الوحى ، فبين أنها سورة المدثر نزلت بكمالها قبل نزول تمام سورة أقرأ فان أول ما نزل من القرآن صدرها ، ويؤيد هذا ما جاء فى الصحيحين عن جابر نفسه ، وقد سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يتحدث عن فترة الوحى ، ويقول : « فاذا الملك الذى جاءنى بحراء » ، فان هـذا يدل على أن هذه القصة متأخرة عن قصة حراء التى نزل فيها : « اقرأ باسم ربك » ، أو يمكن تأويله بأن جابرا استند فى إجابته على اجتهاد منه ، لاعلى نص وارد فى ذلك ، فتقدم عليه الروايات السابقة ، لأن النص مقدم على الاجتهاد .

وكذلك القول بأن أول ما نزل من القرآن إطلاقا هو سـورة الفاتحة ، والاحتجاج له بما أخرجه البيهقى فى الدلائل من أن الملك ناداه : يا محمد ، قل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين » حتى بلغ « ولا الضالين — يمكن رده بأن هذا الحديث مرسل سقط منه الصحابى ، فلا يقوى على معارضة الحديث المرفوع ، كحديث عائشة فى بدء الوحى وغيره ، ويحتمل أن يكون حديث البيهقى المذكور خبراً عن نزول الفاتحة بعد نزول اقرأ والمدثر ، وبعد مجيئه إلى ورقة بن نوفل ، وتحديثه له بما سمعه غير مرة من نداء خلفه ، وبمشورة ورقة عليه أن يثبت عند ذلك النداء حتى يعى ما يلقى إليه .

وأما القول بأن البسملة هى أول ما نزل من القرآن إطلاقاً ، فذلك قول لا يصلح أن يكون مستقلا برأسه ، لأن البسملة ، كانت تنزل فى أول كل سورة ، فهى قد نزلت مع صدر سورة اقرأ ، ومع غيرها من السور ، فلا يستقيم انفرادها بالأولية فى النزول ، بل يشاركها فى ذلك صدر سورة اقرأ .

وقد أراد البعض أن يجمع بين هذه الأقوال فقال : إن أول ما نزل من الآيات : « اقرأ باسم ربك » ، وأول ما نزل من أوامر التبليغ : « يا أيها المدثر » وأول ما نزل من السور سورة الفاتحة .

وهناك بعض أوائل مخصوصة، نذكر لك طرفاً منها :

فأول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة : النجم ، وحكى البعض الاتفاق على أن أول سورة نزلت بالمدينة : البقرة ، وقيل : سورة المطففين ، وقيل : سورة القدر ، وأول ما نزل فى الأطعمة بمكة آية الأنعام : « قل لا أجد فيما أوحى إلى محرماً » ، وبالمدينة آية البقرة : « إنما حرم عليكم الميتة » ، وأول سورة نزلت فيها سجدة النجم ، وأول آية نزلت فى الخمر : « يسألونك عن الخمر والميسر ، قل فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس » ، وأول آية نزلت فى القتال : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » ، وقيل آية : « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم » ، وقيل آية : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم » .

* * *

كثر الاختلاف حول آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وتعددت الأقوال فى ذلك ، ولم يرد أثر مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم يمكن أن يكون هو الفيصل فى هذا الشأن ، والأمر فى الواقع لا يعدو أن يكون إلا كما صوّره القاضى أبو بكر حيث يقول فى الانتصار : « هذه الأقوال ليس فيها شىء مرفوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلٌّ قال بضربٍ من الاجتهاد ، وغلبة الظن ، ويحتمل أن كلاًّ منهم أخبر عن آخر ما سمعه من النبى صلى الله عليه وسلم فى اليوم الذى مات فيه ، أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو » .

ولكن الذى تدل عليه الشواهد الكثيرة ، والروايات المتعددة والقرائن المختلفة أن آخر ما نزل من القرآن إطلاقا هو قوله تعالى فى سورة البقرة : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ، ثم توفى كل نفس ما كسبت ، وهم لا يظلمون » ، فقد تكاثرت الآثار فى ذلك ، واشتمل بعضها على ما يؤكده ويقويه كقول ابن أبى حاتم عقب روايته السابقة : وعاش النبى صلى الله عليه وسلم بعد نزولها تسع ليال ، ثم مات لليلتين خلتا من ربيع الأول ، فهذا يؤيد أن هذه الآية كانت آخر قرآن نزل ، فضلا عما تضمنته الآية نفسها من الدلالة على قرب الرجوع

إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل فى الدار الآخرة ، ومن الإشارة بذلك إلى انتهاء مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وبلوغ الغاية من رسالته .

وأما ما قيل غير هذا فى آيات أخرى من أنها آخر ما نزل من القرآن ، فانه يصحّ حملها على أن المراد أنها أواخر مخصوصة مقيدة بما نزلت فيه من وقائع ومناسبات ، لا أنها آخر ما نزل من القرآن إطلاقا .

فآية : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ، وذروا ما بقى من الربا » ، وآية : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه » — إذا صح نزولهما مع آية : « واتقوا يوما » دفعة واحدة ، كترتيبهما فى المصحف ، فانهما يشاركانها فى الآخرية ، ويكون كل ما وقع من الرواة أنه أخبر كل راو عن بعض ما نزل من هذه الآيات الثلاث بأنه آخر ما نزل ، وهذا صحيح فى ذاته إذا نظرنا الى ذلك .

وآية : « فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى » مقيدة بأنها آخر الآيات التى نزلت فى النساء ، فهى آخر مقيد ، لا آخر مطلق .

وآية : « ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم » مقيدة بأنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمدا ، لا آخر ما نزل إطلاقا .

وآية : « يستفتونك ، قل : الله يفتيكم فى الكلالة » يمكن حملها على أنها آخر ما نزل فى المواريث ، لا آخر ما نزل مطلقا .

والقول بأن سورة المائدة هى آخر ما نزل من القرآن ، محجوج بأن المراد به أنها آخر سورة نزلت فى الحلال والحرام ، فهى آخر مقيد ، لا آخر مطلق .

وكذلك القول بآخرية خاتمة سورة براءة محمول على أنه آخر ما نزل من هذه السورة لا أنه آخر ما نزل مطلقاً ، وأيضاً آخر آية من سورة الكهف قالوا فيها : إنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ، ولا تغير حكمها ، بل هى مثبتة محكمة ، فهى آخر مقيد لا مطلق .

وسورة : « إذا جاء نصر الله والفتح » محمولة على أنها آخر سورة نزلت من القرآن جميعاً كما قال ابن عباس ، أو على أنها آخر ما نزل مشعراً بوفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقد روى أنه قال حين نزلت « نعيت إلى نفسى ، وأن عمر بكى حين سمعها وقال : « الكمال دليل الزوال » .

وأما آية : « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » ، فانها وإن كانت قد نزلت فى حجة الوداع ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم لم يعش بعد نزولها أكثر من إحدى وثمانين ليلة ، إلا أنه قد علم أن هناك قرآناً نزل بعدها بأكثر من شهرين ، وأن آية : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » قد نزلت قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بتسع ليال فقط ، فتكون آية : « اليوم أكملت لكم دينكم » آخر ما نزل من القرآن خاصاً باكمال الدين وإنجاحه ، وإظهاره على الدين كله ، وإقراره فى البلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، فهى آخر مقيد لا مطلق ، ويشير إلى ذلك قول ابن جرير فى تفسير هذه الآية : « الأولى أن يتناول على أنه أكمل لهم دينهم باقرارهم بالبلد الحرام ، وإجلاء المشركين عنه ، حتى حجه المسلمون لا يخالطهم المشركون .

ويؤيده أيضاً قول ابن عباس : كان المشركون والمسلمون يحجون جميعاً ، فلما نزلت براءة نفى المشركون عن البيت ، وحج المسلمون لا يشاركهم فى البيت الحرام أحد من المشركين ، فكان ذلك من تمام النعمة ـ وأتممت عليكم نعمتى » .

وإذا كنا قد عرفنا من هذا آخر آية نزلت بالمدينة فآخر سورة نزلت بها ، هى سورة براءة ، وآخر سورة نزلت بمكة هى المؤمنون ، ويقال : العنكبوت ، وقد عرف فيما سبق أول ما نزل بهما من القرآن الكريم .

من الحكم

أنشد أحمد بن عبيد الله لشاعر قديم من قصيدة حماسية :

ولا خير فى حسن الجسوم وطولها ... إذا لم تزن حسن الجسوم عقول
فكائن رأينا من فرع طويلة ... تموت إذا لم تحيهن أصول
فإن لا يكن جسمى طويلا فإننى ... له بالفعال الصالحات وصول
ولم أر كالمعروف أما مذاقه ... فحلو وأما وجهه فجميل

تاج الدين السبكى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

يطيب لى أن أوفى بما وعدت فى مقالتى السابقة فأتابع الترجمة لهذه الأسرة المباركة من شيوخنا السبكيين الذين أسلفت لك الحديث عن أول أئمتهم ، وأصل دوحتهم تقى الدين السبكى . واليوم أترجم لابنه الفقيه العليم والإمام العظيم تاج الدين السبكى وهو من كبار قضاة المسلمين ونوابغ علمائهم تعده مصر فى مفاخرها اللامعة ويذكره الشرق كله بين كواكبه الساطعة بما نشر من العلم وأكثر من التأليف وهو عبد الوهاب بن على بن عبد الكافى بن على بن تمام بن يوسف بن موسى ابن تمام السبكى الشافعى الملقب بقاضى القضاة تاج الدين المكنى بأبى نصر الفقيه الشافعى الأصولى المؤرخ ولد بالقاهرة سنة ٧٢٧ هجرية وتلقى دراسته الأولى عن أبيه لأنه كان من أفاضل العلماء ثم تلمذ لغيره من علماء مصر فمكنه استعداده الفطرى الممتاز من أن يحصل فى قليل الزمن من العلم ما يعسر على سواه تحصيله فى الزمن الطويل والسنين الكثيرة وقد أراد الله سبحانه للناشىء النابغة أن يزداد تقدما فى العلم وسبقا الى الفضل فرحل مع والده الى الشام فتهيأت له الفرصة الطيبة للأخذ عن علمائها والتخرج فى مجالس شيوخها ، ومن الشيوخ الذين أسعده الحظ بالتلقى عنهم والانتفاع بعلمهم الحافظ المزى والذهبى وشمس الدين بن النقيب وقد أجازوه بالتدريس والفتيا فأفتى ولم يتجاوز عمره ثمان عشرة سنة وأصبح نابغة فى الفقه والأصول وما زال يتألق فى سماء الشام نجمه ويذيع فى أرجائها صيته حتى ولى القضاء فى التاسعة والعشرين من عمره سنة ٧٥٦ ﻫ وتلك سن مبكرة شاهدة له بالفضل والتبريز فى العلم مما رشحه لمنصب القضاء الذى كان لا يتولاه إلا الشيوخ المتقدمون والعلماء المسنون .

ولقد كان فى منصبه آية عصره يملأ الأبصار والأسماع غزارة علم واستقامة رأى وصحة استنباط يزين ذلك كله قوة حجة وطلاقة لسان وثبات جنان وما يجتمع لرجل تلك الجوانب المتعددة من الفضل والصفات النادرة فى الحفظ والتحصيل والفهم والإحاطة إلا أوغرت عليه الصدور وأ كثرت له الخصوم ولذلك تألب على الإمام السبكى المتألبون وكاد له المبطلون فافتروا عليه فى دينه واتهموه فى عقيدته وشككوا فى استقامته فعزل من منصبه وجيء به إلى مصر مغلولا مقيداً فصبر الإمام العليم فى محنته وأدى زكاة نعمته بما احتمل من آلام وقاسى من اضطهاد وفى ذلك يقول ابن كثير « لقد جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض قبله وحصل له من المتاعب ما لم يحصل لسواه » وقد أعقبه الصبر الجميل ما وعد الله الصابرين من حسن عاقبة الدنيا وأجر الآخرة فبدله الله من الشدة فرجا ومن الآلام سلاما فبريء من التهمة وخرج من هذه المكيدة عزيزاً كريما وعاد سيرته الأولى فى القضاء بين الناس ونشر العلم بين المسلمين والظاهرة المحبوبة المشكورة فى سيرة إمامنا السبكى إنه لم يشغله منصبه وواجباته عن التأليف والتصنيف فكانت حياته قصيرة الزمن إذ توفى سنة ٧٧١ هجرية وهو فى الرابعة والأربعين من عمره كما هو معروف فى حياة النابغين ينبغون مبكرين ويموتون مبكرين ولكنها حياة مباركة طيبة عظيمة النفع جليلة الأثر حالية الثمر بما ترك من مؤلفات لا يزال بها إلى اليوم حياً ولا يدرى إلى الله كم تطول من أجلها حياته العلمية ويمتد به البقاء ولكى نظهرك على نواحى نبوغه وصنوف العلوم التى حصلها وأتقنها وصنف فيها نسوق هنا ما قاله الحافظ شهاب الدين بن حجى فى ذلك.

حصل تاج الدين فنوناً من العلم من فقه وأصول وكان ماهرا فيه وفى الحديث والأدب وبرع وشارك فى العربية وكانت له اليد الطولى فى النظم والنثر جيد البديهة صنف تصانيف عدة فى فنون كثيرة على صغر سنه قرئت عليه وانتشرت فى حياته وبعد موته وإليه انتهت رياسة القضاء والمناصب بالشام ومن المدارس التى درس فيها فى مصر والشام الشيخونية والجامع الطولونى والعزيزية والعادلية الكبرى والغزالية والعذراوية والشاميتين والناصرية والأمينية ومشيخة دار الحديث الأشرفية . ومن هذا نتبين أن شيخنا السبكى قد قضى أيامه كلها عاملا مجاهدا فى

إقامة العدل بين الناس وإذاعة العلم فيهم لم يشغله عن ذلك نعمة ولا محنة ولا إقبال دنيا ولا إدبارها وكذلك العلماء إذا شغفهم العلم حباً فاستأثر بهم وشغلهم عن مباهج الدنيا وشواغلها حتى يكون هو فى النعمة هناءهم وفى المحنة عزاءهم فتراهم قد أخلصوا وفنوا فيه وقد ترك لنا عمله الموصول وتأليفه المستمر مصنفات قيمة نبينها هنا تسجيلا لفضله وتنويهاً بجليل قدره وهى شرح مختصر ابن الحاجب فى مجلدين سماه (رفع الحاجب عن مختصر ابن الحاجب) وشرح منهاج البيضاوى فى الأصول الذى أتمه بعد والده كما بينا فى مقالنا السابق والقواعد المشتملة على الاشباه والنظائر وطبقات الفقهاء الكبرى فى ستة أجزاء والوسطى فى مجلد ضخم والصغرى فى مجلد صغير والترشيح فى اختيارات والده وجمع الجوامع فى أصول الفقه وشرحه بشرح سماه (منع الموانع) .

تلك مصنفات كثيرة العدد غزيرة العلم عظيمة النفع ، غير أنه يجدر بنا أن نشير من بينها إلى مصنف جمع الجوامع فى الأصول الذى يعرفه الأزهر معرفة أعلت ذكره وأجلت قدره وجعلته عمدة الدارسين لفن الأصول مدى عدة قرون من الزمان ، وجلة شيوخنا المحققين قد مارسوا هـذا الكتاب وتخرجوا عليه واستنبطوا أسراره واستخرجوا لبابه . ولقد كانت المقدرة على تفهم هذا الكتاب وادراك مراميه مقياس البراعة وآية التحقيق فى فن الأصول إلى عهد قريب بين الأزهريين . رحم الله شيخنا السبكى وأمثاله من أئمتنا المحققين ، وعلمائنا النابغين ورزقنا الأسوة بهم والاقتداء على آثارهم ، حتى يصل الأزهر فى مجده طارفا بتليد ويظل عزيزا بحاضره وقابله كما يعتز بماضيه المجيد ؟

حماسة

قال قيس بن عاصم المنقرى وكان مشهورا بالسيادة والحلم :

أنى امرؤ لا يطيء حسبى دنس يهجنه ولا أفن
من منقر فى بيت مكرمة والغصن ينبت حوله الغصن
خطباء حين يقول قائلهم بيض الوجوه أعفة لُسُنُ
لا يفطنون لعيب جارهم وهم لحفظ جواره فُطُن

كلمات

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

---

١ — العلم والعمل :

ما أكثر العلماء فينا وما أقل العاملين ! نعرف النحو دقيقه وجليله ، ولكننا لا نعرف أن نقيم ألسنتنا إذا تحدثنا ؛ ونعرف المنطق قديمه وحديثه ، وكيف يتركب الدليل من مقدمات تكون عنها نتائجها ، ولا نعرف مع هذا أن نكون منطقيين عملياً فى تفكيرنا ؛ ونحذق علوم البلاغة ، وأن لكل مقام مقالا ، وأن الكلام يكون بليغاً إذا توفر فيه كذا وكذا ، فاذا أخذنا فى الكلام جاء ما ننطق به سقيما عليلا ؛ وعرفنا الأخلاق وأصولها ، والفضائل وطرقها ، والغرائز والأمزجة والعواطف وعلاجها ، ولكن عجزنا عن تكوين الضمائر الحية المستقيمة فى نفوس طلابنا وقرائنا ؛ والفقه وعلم الحلال والحرام حفظنا الكثير من متونه ، وقتلنا بحثا الكثير من شروحه ، ولكننا فى سيرتنا ومعاملاتنا لا نتفق وما عرفنا من الشريعة ؛ ونعرف كيف تدار المعاهد والمدارس ، وكيف ينشأ التلميذ على الطاعة والنظام ، وكيف يجب أن تكون العلاقة بين المدرس والتلميذ والرئيس والمرءوس ، ولكن لم يتبع منا كثير يعتبرون بحق إداريين حازمين محبوبين ممن تحت أيديهم ؛ ونعرف أن صحراء مصر وتربتها غنية بالمعادن المختلفة ، ولكننا لا ننقب فى جد عنها ؛ وخزان أسوان نعلم علم اليقين ، منذ زمان وأزمان ، أنه يمكن الإفادة منه فى توليد الكهرباء ، فيكون مصدر رغد وسعادة وقوة للأمة ، ولكننا حتى الآن لم يتم لنا شىء فى هذا السبيل أو نحتفل كل عام بعيدى الهجرة والمولد ، ونذكر جاهدين فى هاتين المناسبتين العظيمتين كثيراً من مزايا الإسلام وأمجاده ، ولكن لا يستطيع أن يزعم الكثير منا أنه يحقق فى نفسه بعض هذه المزايا ويحاول أن يفيد حقاً من هذه الأمجاد ؛ ومنا الطبيب وهو بحكم عمله رسول رحمة ، وقد كان يسمى قديماً

باسم الحكيم وهو اسم من أسماء الله عز وجل ، والفيلسوف أو مدس الفلسفة التى تقوم على البحث عن الحكمة والتوفر عليها وطلب الحقيقة وحبها ، ولكن أصبح الكثير من الأطباء ودعاة الفلسفة بعيدين عن الرحمة والحكمة والحقيقة !

علام تدل كل هذه المثل ، التى انتزعناها من واقع الحياة الفردية والاجتماعية ، وسواها كثير ؟ إنها تدل على أننا أمة تقول ولا تفعل ، وكبر ذلك مقتا عند الله ما أكثر من يتكلم منا حتى الآن عن خطورة اختلاط البنات والبنين ، وبناته يملأن دور اللهو البرىء وغير البرىء ويجلسن مع الشبان جنبا لجنب فى المعاهد الأجنبية والجامعة ! ومن يتكلم فى الراديو حاثا على البر بالفقراء ومساعدة المكروبين بلهجة تلين الأفئدة الجامدة ، ولكنه يأبى أن ينزل عن بعض ما يأخذ من أجر على ما يذيع للغاية التى يدعو إليها !

يا قوم ! ليس بمثل هذا تتقدم الأمة ويسعد الشعب ! نحن فى حاجة الى من يؤمن بما يقول إيمانا يدفعه الى العمل به ، وإلا فليوفر على نفسه وعلينا عناء القول ! نحن فى حاجة الى علماء وخطباء ودعاة إصلاح مؤمنين بعلمهم ، ويكونون بأعمالهم قدى صالحة لغيرهم ، فينفعون وينفع الله بهم . نحن فى حاجة الى نفوس شريفة تعرف للعلم قيمته ، فتطهر به ، ثم تصدر عنه فى كل ما تعمل .

وقع نظرى منذ أيام على كتاب « فى أخلاق العلماء » للمغفور له الشيخ محمد سليمان ، فأعجبنى ما صدره به من كلمة يقدمها لابنه ، كلمة تتصل بموضوع ما نتحدث به الآن . لهذا أنقل بعضها ، ففيها عظة وتذكرة لمن يريد أن يتذكر ، وجمال وخير لمن يحب أن يرى ويسمع .

يقول رحمة الله له ورضوانه عليه : « واعلم يا بنى أن نور العلم أن تستقبله نفس مستعدة له ، فهى التى تستنير به ، وتشعه على الناس . إنه يصفيها فتصفى ، وتكون به نورانية من ومض الله نور السموات والأرض ، كالمنار يهدى الضال ، وينير الدلج فيسلخ الظلام ، وهذه وظيفة العلم . إنه يطهر النفوس كالبوتقة تصهر الذهب ، فيذهب ماله من خبث ، ثم يكرم حتى يتعامل به الناس ، وحتى يكون الثمن الذى يوازن به كل عرض فى الدنيا . أما العلم الذى تستقبله النفوس الصلدة

المظلمة ، فهو الذى لا يضر ولا ينفع ، ومثله يا بنى مثل ما ترى من لعب الصبيان بالمرآة إذا عكسوها على الشمس ، ألا ترى الشعاع المنعكس منها يعشى ويحرق ؟ ذلك أن وجه المرآة صلد لا ينفذ منه النور ، وقلبها أسود لا يتقبله ، فارتد بذلك على الآخرين ناراً ونقمة ، ليست الغاية من العلم أن تعلم فحسب ، بل الغاية أن تعمل بما تعلم من الخير ، وأن تكون بعلمك قدوة الخير لقومك ، القدوة التى تؤثر فى الناس بالتأسى. فكن كما تحب أن يعرف عنك ، بالحقيقة الواقعة ، لا بالقول الموضوع ولا بالعمل المصنوع ، بل بالإخلاص فى صفاء النفس وتربية الضمير » .

وهذا كلام جليل من رجل مجرب عرف الدنيا وعرفته ، وخالط الكثير من جميع طبقات الناس حاكمين ومحكومين ، فهو يجل عن التعليق ، بل لعل التعليق عليه ـ إن حاولناه ـ أن يفسده ، وعسى أن ينفع الله به بعض قارئيه .

٢ ــ الصلة بين العلم والعمل :

والكلام على العلم والعمل على النحو الذى قدمنا ، يجر إلى الحديث عما بينهما من علاقة وصلة ؛ أهى صلة المعلول بعلته ، فكلما وجدت هذه وجد ذاك ؛ أى كلما كان العلم بأن كذا خير ، حصل العمل وفق هذا العلم ، وذلك كما يرى سقراط مؤسس علم الأخلاق ؟ أم أن الأمر ليس كذلك ، كما يرى أرسطو المعلم الأول وأنصاره ؛ فقد يعلم الإنسان ولا يعمل ، وقد يعمل على ضد ما يعلم .

إن كان كلام سقراط هو الحق ، فلا تفسير لوقوعنا فى الإثم أخلاقياً ، أى لتقصيرنا فى العمل ، إلا أننا لا نؤمن بما نعلمه إيمانا يقينياً . وإن كان الحق فى جانب المعلم الأول ، وأن الخطأ الأخلاقى ليس مرجعه إلا إلى قوة الهوى وأسر الشهوة ، فقد عزب عنا العقل وغلبتنا الشهوات على أمرنا !

وأرى الخير والحيطة لأنفسنا أن نعمل على استكمال علمنا بالخير حتى يكون علماً لا يلابسه شك ، ويقيناً لا يخالطه ريب ، فيدفعنا ذلك للعمل على وفقه ؛ وأن نأخذ فى ذات الوقت فى العمل على إضعاف الهوى ودواعيه التى تصرفنا عن استلهام العقل واتباعه ، وتدفعنا لأسر الشهوات وفتنتها .

ومما يعين على درك الغاية التى نرجو ، إدمان المطالعة فى كتب التراجم إن هذه الأسفار عباب علم ، وصفحات مجد وفخار للإسلام وعلمائه ، هؤلاء العلماء الذين خالط الإيمان قلوبهم ، فعرفوا الله حق معرفته ، وتجلت لهم الدنيا على حقيقتها فرأوها شيئاً تافهاً لا يوازن بشىء من الكرامة والمروءة . إن هذه الأسفار مليئة بأخبار جلة العلماء ، ومواقفهم مع الأمراء والسلاطين والخلفاء حتى فى عصور الاستبداد ، وكيف كانوا لا يرعون إلا الله وحتمه والعلم وكرامته ، فعزت وعزت بهم البلاد ، وسعدوا وسعدت بهم الأمة .

إن فى كتب سيرة المصطفى وأبطال الإسلام ، وترجمات العلماء الأعلام ، لغذاء النفوس ، ومتعة للقلوب ، وحافزاً للاعتزاز بالإسلام والتشبه برجالاته . وكم يكون جميلا وخيراً إذا جلونا للناشئة بعض هذه السير ، واتخذنا من أصحابها مثلا علياً لنا ، وكنا لهم قُدًى طيبة عملية !

(٣) يشعر البعض منا بأنه غريب عن الناس، هين عليهم ؛ فاذا ضمه مجلس بآخرين ليسوا على لونه فى الثقافة رأيته يلم ثيابه ، ويتداخل فى نفسه ، ويرى السلامة منهم غنيمة ، والانصراف من المجلس نجاة وراحة ، لماذا هذا الإحساس ؟ وما عوامله ؟

لعل أهم عوامل هذا الإحساس لدى من يحسه ، هو شعوره بأنه يعيش فى دنيا غير دنيا الناس ، فهو فى واد وهم فى واد آخر ، وهو لهذا ثقيل عليهم برم بهم ، إذ يعلمون ما لا يعلم من المعارف المتعددة الألوان ، وربما أنكروا عليه أن ما يعلمه ذو غناء فى هذه الحياة .

ونعتقد أن فى هذه النظرة الثقيلة غير قليل من التجنى والمغالاة ، كما أنها كانت تصدق فى الماضى أكثر من الزمن الحاضر ، الذى صار فيه الأزهرى يشارك مشاركة طيبة فى درس ألوان المعارف التى لا بد منها للثقافة العامة ، فضلا عن دراسة ما تخصص فيه من علوم .

على أن هذا لا يمنع من أن نقول إننا لا زلنا ملومين من بعض النواحى ، إذ نبذل كثيراً من مجهودنا العملى وزمننا الدراسى فى تعلم وتعليم ما لا يجدى ، سواء من ناحية المادة نفسها موضوع التعليم ، أو من ناحية طريقة تعليمها .

ولنترك الآن أحد أعلام الأزهر وأفذاذه ، وهو المغفور له العلامة الشيخ حسين والى ، يضرب المثل لذلك من عناية الأزهريين بعلم الكلام عناية أعنتوا أنفسهم بها ، وأضاعوا بسببها كثيراً من الوقت والجهد كان من الخير أن ينفقا فى العلم الناجع المفيد . يقول السيد الأستاذ فى الجزء الأول من كتاب التوحيد :

« علم الكلام حادث فى الملة الإسلامية ، ومشى فيه الناس صوراً بعد صور ، وكل منهم يقرر صحة العقائد ويستنهض الحجج والأدلة ، وما فعلوا ذلك إلا لوجود خصوم من المبتدعة وغيرهم فكانوا معذورين فيما كتبوا . أما الآن فقد ذهبت تلك الخصوم وجاءت خصوم آخرون ، فلا يليق فرض الذاهب حاضرا وترك الحاضر الذى لا يرده إلا كتاب الله إذا بيَّنه الراد وكان له عقل ! أما تلك الكتب ، فان فيها حجبا كثيفة تمنع النور وتحدث الظلمة ، وربما قضت على اعتقاد صحيح ثابت .

أمن العقل والحزم أن يتوجه الإنسان إلى مباراة خصم موهوم ، ويترك الخصم الذى ضيق عليه المسالك وأوشك أن يميته موتا ؟ إن هذا لهو البلاء المبين ! أمن الحزم الرد على فرقة من فرق المسلمين ليس لها إسم أو وجود إلا فى الكتب ، وترك الرد على طاعن موجود الآن ؟ أمن الحزم أن يضيع الإنسان عمره فى الاشتغال بخصوم موهومة وإن كانوا ناجين لأنهم غير كافرين ؟ أمن الحزم أن يبحث الإنسان فى الجوهر والعرض ، ولا يبحث فى الكتاب والسنة ليستفيد علماً خيراً من هذا نافعاً فى كل وقت ؟ . . . إن الجوهر والعرض أصبحا فى نسيان بجانب الكهرباء وغيرها مما عرف اليوم ، فهل أخذوا فى معرفة ذلك حتى يفيدهم فى الكلام ما أفادهم ذاك ؟ حاش لله أن يأخذوا !

إن كانت معرفة ذلك نافعة فى علم الكلام ولها دخل فى منازع الاعتقاد ، ولا إخال ذلك صحيحاً ، فليصرف الحاكم أو جماعة المسلمين طائفة من الناس لدراسته ليقوموا بهذا العبء ، ولا يتركوا طلاب العلم فى شقاء وبلاء ، ولا فائدة لهم تعود إلا استهزاء الناس بهم والحط من شأنهم » .

وبعد ! فهذا كلام لا يحسن كثير من الناس أن يقولوا مثله ، وهذا رأى يعزّ على الكثيرين فى سداده وصراحته ، فلنجعله خاتمة الحديث اليوم .

شعراء الأزهر

محمد الأسمر – شاعر الأزهر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
الأستاذ بكلية اللغة العربية

— ٥ —

قطعت هذه السلسلة ، التى كنت أوافى بها مجلة الأزهر ، منذ حين ، لأننى إنسان فى طبيعته العزوف عن الزحام ، ولو أنه على الحياة ؛ وما أشد الزحام على مجلة الأزهر ! ولو أخذ برأيى ، لاقترحت أن يكون التحرير فيها هوى ، لا كسبا ؛ إذن ، لحييَّت ، وازدهرت ، ونفضتْ أكلافها ، التى يُعنىّ أولياءَ الأمور فى الأزهر الطبُّ لها ، على غير جدوى ، مهما أخلص الأساة ، واجتهد المعالجون .

بيد أن كثيراً ممن يتلقون كتابتى بشىء من القبول ، أطالوا ملامى على هذا الانقطاع ، وزينوا لى مراجعة الكتابة فى المجلة ، وفى هذه السلسلة ؛ ثم ألزمنى ذلك إلزاما لا فكاك منه ؛ رغبةُ الأستاذ العلامة مدير المجلة ، فى مواصلتها ؛ ورغبته أمر وتشريف وتكريم ، ولا يأبى الكرامة إلا لئيم .

رجع ما انقطع .

* * *

كما يغرد البلبل خلقة وطبعا ، وكما تسجع الحمامة خِلقة وطبعا ، وكما تأرجُ الزهرة خلقة وطبعا ؛ يشعر محمد الأسمر خلقة وطبعا ؛ فهو شاعر مطبوع ، موهوب ، قوىّ الموهبة الشعرية قوة طاغية ؛ يعترف بذلك من يبغض الأسمر ، كما يعترف به من يحبه ، ممن تمرسوا بالشعر ، وتذوقوه ، وعالجوه ، إنشاء ونقدا ؛ وليس فى هذه

الشهادة إسراف ؛ فان الموهبة شيء غير الشعر ، وإن كانت معدنه وفياضه ، فللنقاد أن يذهبوا فى الحكم على شعر الأسمر ، كل مذهب ؛ كما لهم أن يذهبوا فى الحكم على كل شاعر غير الأسمر كل مذهب ، ولكن ليس لناقد أن ينكر أن الأسمر شاعر موهوب ، إلا إذا أدخل التكلف على نفسه ، واصطنعه اصطناعا .

وقد أقام الأسمر على ذلك ، البرهان الذى لا يخامره ريب ؛ بإحرازه التفوق فى المباريات الأدبية غير مرة ، على حين أسف فحول الشعراء ؛ وبإجازة ديوانه من لجنة الخالدين ، رجال مجمع فؤاد الأول للغة العربية ، على حين بهرجت دواوين شعراء تحتك أنوفهم بالسماء تعالياً وزهواً وادعاء ؛ هذا مع أن الأسمر — كما عرفه الناس — رجل ملول ، فنان ؛ لا يطيق الكد ولا الجد فى طلب العلم ؛ ولا يصبر على معاناة الدرس والبحث ، ولا يحتمل السهر إلا فى بيت يبنيه ، أو قصيد ينشيه ؛ فهو شاعر شيطانى ، تسعة أعشار شعره من وحى الشياطين ؛ وهل يأتى هذا إلا من قوة الطبع ، وغزارة الموهبة ؟

لى صديق من رجالات وزارة المعارف ، كان يتتبع منظومات الأسمر فى الأهرام ، ثم يقول لى بعد أن يفرغ من قراءتها : يا أخى ، شعر أسمركم هذا ، يؤكل أكلا ! سبحان الوهاب !

ولفت نظرى مرة كلمة فى جريدة « الاخوان المسلمون » نصها : « هما اثنان فى الأزهر . . . فأما أحدهما فيلقاك ولسان حاله ينشر قول بشار :

إن فى بردىّ جسما ناحلا لو توكأت عليه لانهدم

وأما الأسمر ، فانه يلقاك كأنه قصيدة رائعة تمشى على الأرض ! » ولئن أخطأ صحة « المقارنة » لقد أصاب تشبيه الأسمر ؛ فان جميع مظاهره ومخايله شعر فى شعر اللهم إلا إنشاده ؛ فان أضعف نواحى الأسمر إنشاده ، وبخاصة حين يحتفل ، ويبرز صدره وكرشه ، وتنتفخ أوداجه ، ويخرج الكلام من أسفل بطنه ؛ وهو إذا أرسل نفسه على سجيتها — وقلما يفعل — يعجب ويطرب .

وقد رشح الأسمر لامارة الشعر ، خالد الذكر ، شاعر القطرين ، خليل مطران ، وناهيك بشهادة شاعر القطرين !

وللأسمر شعران : شعر ظاهر ، حواه ديوانه ، ونسب إليه ؛ وشعر خفى ينساب فى جداول كثير من دواوين الشعراء والمتشاعرين ؛ فى كلمات ، أو أشطار ، أو أبيات ، يعرفها أعضاء « مصطبة الشعراء » قديماً ، ويعرفها كثير ممن يعرفونه حديثاً .

والأسمر بين إخوانه ظريف كلُّ الظريف ؛ وكانت له « قفشات » مع المرحوم أحمد الزين تثير عواصف الضحك تزلزل أركان « النادى » : ينشد الزين شعرا له جديداً ، فيبادره الأسمر ـ فى خبث ـ : « أنت بتكح ليه يا زين ؟ » ويلتقفها الزين اللماح ! ويدرك أن الأسمر يريد أن يشبه شعر الزين بنفثات المصدور ؛ فيهتاج الزين ، ويصيح فى الأسمر : يا جاهل ، يا . . . ، يا غبى ! متى ارتقى ذوقك إلى حد أن ينقد كلام الزين . . . ويخرج الأسمر بالصمت عن لا ، ونعم ، عدا نبرات ضحك خفيف ، ضحك من ظفر باصابة شاكلة الرمى ، وفاز بإعجاب السامعين !

وبيت الأسمر العائلى ، بيت علم فى الجملة ، فلئن ضربه أبوه على إغرامه بالشعر ـ على ما روى هو عن نفسه فى فاتحة ديوانه ـ كما ضرب برد ولده بشاراً على الشعر ؛ ودافع الأسمر عن نفسه ، كما دافع بشار عن نفسه ، فدل ذلك على أن والده كان أمياً ؛ لقد روى المغفور له الأستاذ الهراوى : أن الست والدة الأسمر كانت عالمة جليلة ؛ وإن كان الأسمر يقابل رواية الهراوى ، ببسمة مبهمة ، لا تفيد نفياً ولا إثباتاً ؛ ولا تواضعاً ولا إنكاراً .

فأما سنه ، فلا تتجاوز الخامسة والأربعين . . .

وأما حظه فى الحياة ، فأنه حظ كان يكفى لصلاح حاله ، لولا هذا التاج الخيالى ، الذى امتحن أكثر الشعراء ، بأن يضيعوه على رءوسهم ، وإن كانت خاوية قرعاء .

وفى الأسمر وفاء ، يحمله على أن يكون الاعتراف بالجميل أعذب أحاديثه وأسماره ؛ وفيه إباء ، يجعله يأبى الضيم ، ويذكر السيئة ، ويثور للعدوان ؛ بيد أنه ليس هجاء ، ولا خبيث اللسان ؛ وإنما يلقى خصمه وجاها ، كما يلقى الشجاع الشجاع ، لا كما يلقى الشاعر الشاعر ؛ وعلى الجملة ؛ فنواحى الفضل فى الأسمر متعددة ، وخلال

الرجولة فيه متوافرة ؛ وإن قالوا فيه هنات ، وله خطايا ؛ فمن منا ليس له هنات ، ومن منا ليس ذا خطايا ؟ !

* * *

وإذا كان الحديث عن الأسمر ، لا يكمل إلا بذكر شيء من أشعاره ، شاهدا على ما أوردنا من أحكام ؛ فاسمعه ، حين يذكر المظاهرات الدامية لطلبة المدارس وطالباتها ، وانظر عن أية عاطفة شاعرة يصدر :

رعاك الله من شعب أبى ! ملاحم بالغداة وبالعشى
يردده ، كزمجرة الأتى مشى للحق أعزل ، غير صوت
شهيدا بالرصاص وبالعصى فوا أسفا عليه ، وهو يمضى
فويل للضعيف من القوى رماه الظالمون وما رماهم
أيشعر فى مراقده برى ؟ سلوه بعد ما ارتشف المنايا
سقى الأوطان من دمه الزكى وليس بظامىء أبدا شهيد

* * *

واقرأ فى قصيدته « عودة المجاهدين » قوله :

بواسل يخشى ظلمها فهو باطل تبينت أن الحق إن لم تتح له
هو الحق ، ما قام النبى يقاتل لعمرك لو أغنى عن الحق أنه
إذا ملت عنه ، فهو لا شك مائل فلا تحسبن الحق ينهض وحده
فليس على وجه البسيطة عادل من العقل ألا يطلب الحق عاجز
ولكنها دار الأذلاء « سيشل » وما « سيشل » عندى التى كنتم بها

ثم أخبرنى عن أثر هذه الحكم الروائع فى مشاعرك وأحاسيسك !

أو لا تحس نفحة من نفحات البهاء زهير ، حينما تقرأ للشاعر الأسمر ، قوله للمغفور له الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا ، شيخ الأزهر الأسبق :

يا أخا الزهر منظرا وأخا الزهر مخبرا
قلت يوما لصاحبى فى حديث لنا جرى
إنما الشيخ مصطفى وردة نفحها سرى

ذاك رأيي الذى أرى يا صديقى فما ترى ؟
قال : بل فوق ما أرى قلت : بل فوق ما ترى !

ولم أحسد الأسمر على قصيدة ، حسدنى له على نبويته الرائعة ، التى لا أعلم أن شاعرا — غير شوقى — وفق إلى مثلها ، فى العصر الحديث ، وأى حسن وراء قوله فيها :

إن الرسـول محمدا صبح بدا من راح يعثر فى سناه ، فلالعا !
وافى بها بيضاء ، عدل كلها لا تلفين بها الضعيف مضيعا
دخلت على الجبروت ، وهو مقطب صافا ، فأبصر وجهها فتفزعا
دين المساواة الصحيحة دينه يرعاهم فى الله أشفق من رعى
ما جر أثواب الحرير ولا مشى بالتاج من فوق الجبين مرصعا
من ألبس الدنيا السعادة حلة فضفاضة ، لبس القميص مرقعا
وهو الذى لو شاء نالت كفه كل الذى فوق البسيطة أجمعا
مسك به اختتم المهيمن رسله وأبان أمر الدين والدنيا معاً

* * *

أما بعد ، فإن وجوه الجمال الفنى فى شعر الأسمر ، تستطيع أن تعدّد منها ، ولن تستطيع أن تعدها ؛ فلأجتزىء بهذا التمليل المجمل ، وأحيل القراء الكرام ، على « ديوان الأسمر » الذى طبع حديثا ، فان فيه الكثير الطيب ، والمعجب المطرب ، والبديع الطريف ؛ وجمال المنظر والمخبر . وليس هذا إعلانا عن الديوان ، فأنه — صنع الله له ما كان يدعو له به صديقه المرحوم الهراوى — لم يهدِ إلىَّ نسخة منه ، وإنما رأيته فى يد بعض من أهدى إليهم ، ممن يستأثرون بحبه وإيثاره ، ولعله — إذا قرأ هذه الكلمة — يتلوم ، فيتكرم ، ولو تطبعا . . .

أيها الأدباء ، أيها العلماء :

عليكم بديوان الأسمر ، فأنه ديوان الأزهر . . .

المبشرون بالإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

ربما راع القارىء الكريم أن أجعل هذه الكلمة عنواناً لمقال تنشره مجلة رسمية تعنى باصدارها « مشيخة الأزهر » لتكون لسان صدق لها فى العالم العربى وغير العربى ممن يشهدون أن الإسلام لم يعد بحاجة إلى من يحمل للناس دعايته ، ويرفع رايته ، ويغزو به نفوساً انغمست فى زهرة الدنيا ، فلم تلتفت إلى تشريعاته وأحكامه ، ولم تؤمن بضرورة وجوده كنظام لابد منه لحياة هادئة هانئة تنشدها العقول السليمة ، والفطر المستقيمة ، والطبائع الوثابة إلى سعادة صحيحة ، وطمأنينة دائمة ، وبلهنية معقولة .

ونحن نكذب أنفسنا ، ونغالط ضمائرنا ، حين ندّعى أن الدين يشق — وحده — الطريق إلى القلوب ، دون تبشير به ، وأذان بصوته ، وإيقاظ لتلك البصائر التى ضلت وجهته ، وتنكبت سبيله ، وراحت تتلمس النور من غير سراجه ، وإلا لما صحت كلمة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم إذ يقول عن الخلف العدول من أبناء تلك الأمة ، أنهم يحملونه إلى المسترشدين « ينفون عنه زيغ المبطلين ، وتحريف الجاهلين » . ولما لاقى الرسول وهو بصدد تبليغه هذا الصنف المرهق ، والجهد الشاق ، والإيلام الصارخ ، والإيذاء المضنى .

وكان من حق أصحابه من بعده أن يناموا نومة أهل الكهف عن الجهاد له ، والذود عن حرماته ، والغضب للعدوان عليه ، مع أنهم عاشوا وماتوا لدعم أركانه ورفع بنيانه ، وإعلاء كلمته ، والتنويه بشأنه فى الأصقاع والبقاع إلى درجة أنهم لم يتركوا أعداءه « حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » .

وإذا كانت « الإرساليات » الأجنبية وقفت سبحها زمناً طويلا لمحاربته ، والغض من قيمته ، والتنديد بأتباعه ، تنديداً ينطوى على الكيد والبغضاء ، فانها ربما ضاعفت من نشاطها ، وبالغت فى عدوانها من جديد ، ولا سيما حينما تتجه الاتجاه الصحيح لطمس معالم الشيوعية وغيرها من المذاهب التى تقف بينهم وبين ما يهدفون إليه من مطامع ، ويطمحون له من نفوذ وسلطان ، لأنهم يعلمون تمام العلم أن للقرآن سحراً أخاذاً ، سوف لايذكر أحد معه شيئاً من تلك الشرائع ، ولا هاتيك المعتقدات ، إلى جانب أن دستوره فى العمران والإصلاح ، والسيادة والملك ، قد لا يتلاقى مع هذه كلها فى قليل ولا كثير ، لأنه اشتراكية محمودة ، تكفل الحيازة المعقولة ، والإنتاج المنظم ، والتعاون العام للفرد والجماعة ، بحيث يكون الشعب جميعه متمتعاً بالحرية وفق القانون ، مترابطاً فى حدود الشعور بالحياة المثالية المنشودة ، والعربى والعجمى ، والأبيض والأسود ، والغنى والفقير ، فى كل ذلك سواء .

ولا ينكر عاقل أن المسلمين — جميعاً — يعيشون الآن بعاطفة « عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل » مع أن تعاليم كتابهم تحتم عليهم ما يتصل بالجماعة أكثر مما يتصل بالواحد ، وتشدد النكير على المتهاون فى حقوق الإنسانية العامة أكثر من أى تهاون آخر .

وأبو بكر رضى الله عنه لما كان يشيع أسامة بن زيد على رأس الجيش المحارب ماشياً على رجليه وأقسم عليه أسامه أن يركب فأبى قائلا له « وماذا على أن تغبر قدمى ساعة فى سبيل الله » كان يعلم مدى ما يستأهله المسلم من رضوان إذا نصب نفسه لإعلاء كلمة رب العالمين جل جلاله .

إلا أن أمرا يجب علينا ألا نغفله ذلك أن تلك الرسالة النبيلة ، رسالة « التبشير بالاسلام » والدعاية له ، لا يقترن التوفيق بالمتحملين لها دائماً أبداً ، وعلى طول الخط — كما يقولون — لأن أصحابها ورثة الأنبياء يجب عليهم أن يوطنوا أنفسهم على أنهم سيلاقون مثل ما لقوا ، فى صبر الدارعين ، وحلم المؤمنين وصفح المتأدبين ، وعفو القادرين ، وكياسة العاقلين ، واحتيال الماهرين ، الذين نلحظ فيهم الحذق وحسن التأنى للأشياء .

على أننا وقد أصبحنا نرى الكرة الارضية تموج بالنظريات والفلسفة ، والعلوم والفنون ، والمذاهب والاتجاهات ، نقول إن العلم بالكتاب والسنة ، وفقه معناهما لا يكفى فى الإقناع ، ولا يصح الاقتصار عليه فى الوعظ — والمسلمون الذين درسوا المنطق اليونانى ، والعلوم الفارسية ، فى الدولة العباسية ، وجعلوا من ذلك كله لقاحا سائغا فى أدبهم وتفكيرهم وتآليفهم ، فاستفادوا منهم جم الفوائد ، لا يزالون بحاجة إلى أن يجاروا ركب الزمن ، وقافلة الايام ، ليعلموا ما تنطوى عليه الآفاق البعيدة ، والبوادى المجهولة ، لان الله سبحانه وتعالى لم يخلقهم لوطن ، ولم يرد منهم أن يموتوا بأرض ، ولا أن يعكفوا على بيئة واحدة — وهنالك ناحية مهمة يجب أن نهيّيء لها أنفسنا ، ونحسب لها الحساب العظيم .. وهذه هى حسن عرضنا للمسائل ، ليستطيع الآخذون عنا أن يستسيغوها ، وألا يتهمونا بالجهل ، ويتهموا ديننا بالعقم ، ويظنوا بنا ظنون السوء ، ولست أتعرّض لنماذج من قضايانا المغلقة التى ننقلها من الكتب كما هى بدون تصرف وأكتفى بمجرد الإشارة ، وأرجو من الله التوفيق .

أمثال سائرة

لابن عبد ربه مؤلف : العقد الفريد ، شعر جيد منه ما جعل فى كل بيت منه مثلا أو مثلين . مثل قوله :

قالوا شبابك قد ولى فقلت لهم ... هل من جديد على كر الجديدين
صل من هويت وإن أبدى معاتبة ... فأطيب العيش وصل بين إلفين
فاقطع حبائل خل لا تلائمه ... فربما ضاقت الدنيا باثنين
فكرت فيك أبحر أنت أم قمر ... فقد تحير فكرى بين هذين
إن قلت بحراً وجدت البحر منحسراً ... وبحر جودك ممتد العبابين
أو قلت بدراً رأيت البدر منتقصا ... فقلت شتان ما بين اليزيدين

العِلمُ والعَمَلْ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

أما أن العلم فى ذاته لا يستتبع العمل فذلك أمر مشهود جاء فى الشاهد والغائب وهو مما استفاضت به الأخبار ، وطفحت به الآداب والأشعار ، وهو شيء لا يأباه العقل والمنطق السليم ، فان العلم إنما يرفع ضده وهو الجهل ، ولا يرفع ضلالا ولا طغيانا ولا مأثما ، فما أكثر مآثم العالمين ، ومفاسد الثرثارين والمتفيهقين ، وإنما كان الشأن فى العلم أن يتطلب العمل من قِبل أن العاقل من حتمه إذا علم النفع فى شيء حرص عليه ، وإذا رأى الضرر فى شيء ، فرّ منه تمشيا مع غريزة الحرص على جلب المنافع للنفس بقدر الطاقة البشرية ، فاذا حمق العالم أو أخطأه التوفيق خلط فى سيره وعرض نفسه لكل مافيه عليه مقال ، نسأل الله السلامة والعصمة .

وفى الحق أن العلم كالماء ، يتلون بلون الإناء ويتبع المتصف به ، والله سبحانه قسم بين الناس العلم كما قسم الرزق ، ولكن عباده يتفاوتون فى تقدير العلم والانتفاع به ، كما يتفاوتون فى تقدير المال ووضعه فى مواضعه ، ولذلك قرنهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف الذى يرويه البخارى .

« لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس .

وفى حديث البخارى أيضا ، يقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلمين أصنافا ، فقد شبه ما بعثه الله من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب ، فأكل الناس وشربوا وملئوا أسقيتهم وكان منها أرض أمسكت الماء للوارد والمستقى .

وكان منها قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ فأهل العلم منهم النافع والمنتفع

كالأرض الطيبة المنبته ومنهم النافع غير المنتفع وهو الذى يعلم الخير ولايعمل به ومنهم من لاينفع ولا ينتفع كالقيعان .

ولهذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم إنما أنا قاسم والله المعطى فاذا وصل العلم والمعرفة إلى نفسى أفادت منها بقدر عنصرها واستعدادها واتجهت بها مع ظروفها وملابساتها ولهـذا يصرف كثير من الناس العلم عن اتجاهه ويؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض ويؤولون آيات الكتاب بما يوافق أهواءهم يزعمون فى أنفسهم أنهم لا يريدون أن يقطعوا علاقتهم بالعلم ونسبتهم اليه وفى الحق لقد أوجـد هؤلاء بينهم وبين العلم أكبر جفوة لأنهم فسروه على عكس اتجاهه والعلم لا يقبل ذلك لأنه نور فضاح يكشف كل من قرب منه وحام حول ضيائه وفى الحق أيضاً أن كل علم لا يوجه وجهته ففيه شائبة الجهل على أى اعتبار وفى أى وضع . قال بعض السلف ما عصى الله إلا جاهل وقرأ الآية الكريمة (إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) وفى حديث شريف لا يكون المرء عالمـا حتى يكون بعلمه عاملا بل إن فى بعض الآثار ما يدل على أن بعض المعاصى يرفع الإيمان وقت التلبس به ففى الحديث « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن الخ » ولهذا أكثر الناس من سلب الوصف عمن أنصف به إذا لم يحقق ثمرته المقصودة ولذلك عندى وجهان من التأويل .

أحدهما أن المراد نفى الانتفاع فكأن هذا الشىء الموجود فى ذاته مفقود لأنه لم يحقق الغاية .

(الثانى) أنه ناقص من بعض نواحيه لأنه لم يحقق الغاية ولو كان كاملا لحقق الغاية ولذلك تقسم المعارف فى بعض الاصطلاحات الى علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين ولهذا كان العلم مقولا بالتشكيك عند التحقيق .

ومهما يكن من شىء فان العلم فى ذاته لا يستلزم العمل ولا يقتضيه ولهذا أيضا تفاوتت أقدار العلماء فعالم فى السماك وهو الذى يشبه أنبياء بنى إسرائيل يعلم الحكمة ويعلمها ويكون كالأرض الطيبة التى تنبت الطيب وتفيد الطيب النافع المصلح .

وعالم آخر فى الحضيض تلعنه الملائكة والأنس والجن ممن قال فيهم الرسول

صلوات الله وسلامه عليه « يؤتى بالعالم يوم القيامة فتندلق أقتابه فى جهنم فيدور فيها كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون مالك وقد كنت تأمرنا بالخير وتنهانا عن الشر الحديث » وهؤلاء هم الذين يشترون الضلالة ولا يبالون ما فعلوا .

ولذلك فاننا ننبه أهل العلم ومن آتاهم الله الكتاب والحكمة وخصهم بمزية العلم الذى يرفع المملوك الى مجالس الملوك ويجعل صاحبه فى لذة لو عرفها الملوك لقاتلوه عليها ، هذا العالم الكريم ينبغى أن يحفظ علمه وكرامته وأن يحصن دينه وسمعته وأن يعز نفسه باعزازه وأن يكرر النظر فى مثل كلام القاضى الجرجانى الذى يقول فيه .

يقولون لى فيك إنقباض وإنما رأوا رجلا عن موقف الذل أحجما
أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة إذا فاتباع الجهل قد كان أحزما
ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس لعظما
ولكن أهانوه فهانوا ودنسوا محياه بالأطماع حتى تجهما

يريد الوضع الطبيعى من رجل العلم أن يكون أسوة حسنة وقدوة صالحة يستفيد الناس من عمله مثل ما يستفيدون من علمه أو ما يغنى عن الاستفادة بعلمه وفى الواقع إنه مسئول بما يصدر منه عن الناس كما أنه مسئول عن نفسه ولهذا قالوا « اذا زل العالم زل العالم » ، « وصنفان إذا صلحا صلح الناس وإذا فسدا فسد الناس الأمراء والعلماء » .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم نفسه من ثمرة هذا النور الكريم والإشراق السماوى العظيم فما أشد خسارة من يرى الضياء ولا يبصر فيه وما أسوأ حرمان من حرم التوفيق لما هو أقرب شىء إليه ومن أضل ممن ضل على علم وختم الله على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة .

يريد الوضع السليم من رجل العلم ألا يحرم الكياسة إلى حد أن يهمل عمل الخير وقد تعلم ما يتنافس الناس فى نيله ليصلوا إلى ذلك الخير . هذا والله حماقة تنادى على صاحبها بالثبور والويل « ويل لمن لا يعلم مرة ، وويل لمن يعلم ثم لا يعمل ألف مرة » . فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا .

إذا كان الناس يعظمون العلماء ويحسدونهم على ما هم فيه من الفضل العظيم وإذا كان الله سبحانه يرفع الذين أوتوا العلم درجات ، فذلك لأنهم يستطيعون أن يفعلوا الخير ويكونوا رحمة للإنسانية ومرهما لجراحها وطباً لأمراضها ، ولأن المفهوم فى أمثال العلماء أنهم أمنوا العثار والزلل فى القول والعمل ، ومن لم يكن كذلك فقد نزل عن رتبة الفضل والتقدير ، ووقع فى حفرة التحقير .

« واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب . ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه وهو ألد الخصام » .

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه » .

العلم فى ذاته فضيلة لأنه يزيل رذيلة الجهل . والجهل ظلمة والعلم نور ، والجهل عمى والعلم بصر والجهل موت والعلم حياة « أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها » .

العلم فضيلة جليلة ، مافى ذلك ريب ولا مرية ، ولكن فضل تلك الفضيلة فى استغلالها والانتفاع بها ، فعلى قدر نفاستها تكون نفاسة ما تؤدى إليه .

وبمقدار قيمتها كانت خسارة من لم ينتفع بها وآثامه وحسابه العسير .

ومن حق العلم على صاحبه أن يشعر الناس بمنزلة العلم الذى يحمله ، وذلك بتلبية داعيه الكريم ، والعمل بما يقضى به فى جميع الشئون وإلا استهان الناس بذلك العلم وحامله ونسبوه إلى الحمق أو الجنون ، ووضعوا نصحه وتوجيهه موضع سقط المتاع ومالا وزن له وتأمل فيما يقول الله سبحانه :

« كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون » . « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وبعد فما ظنك بشمعة تضىء للناس وتحرق نفسها ، وطبيب يداوى وهو سقيم أيأمنه الناس على شىء .

وغير تقى يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى الناس وهو سقيم

على هامش المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود حميدة
المدرس فى كلية اللغة العربية

اتجه الرسول الكريم نحو مكة ، وهو يعلم أنها كارهة للقائه وصادفة عنه ومعادية لدعوته ؛ وتجربة الطائف لم تكن مشجعة له على التنقل بين أحياء العرب ولا على التردد بين قبائلها ، فالثقة بقريش لا زالت تملأ نفوس الكثرة العربية وقريش واقفة له بالمرصاد مهونة لشأنه محقرة لأمره ترد قوله وتصد الناس عن متابعته ، وما تقول الناس فى رجل عاداه أهله وخذله قومه وعشيرته لقد استضعف من مكان قوته وروع من مكان أمنه وانتقص من مكان كماله فأنّى للناس أن تجيبه أو تجاريه أو تهادنه أو تواسيه .

إذن لا بد أن يرد بصره الكليل نحو القرية التى أخرجته والبلد الذى خذلته فإن ماضيه بها يهون على نفسه ظلم سكانها وألم المقام فيها . فأهلها أعلم به وإن كرهوه وأعرف بمكانته وإن أنكروه .

وقصد إلى مكة وهو شائع النفس محزون القلب منهوك القوى يجر رجلين لا تحملانه مصطحبا معه الحق المظلوم والقضية المضطهدة موقنا بالفتح مؤمنا بالنصر وسفهاء الطائف يقفون له سماطين يشيعونه بما يشيع به أهل البغى والعدوان والضلال والفساد ؛ ولو أنصفوه من أنفسهم لاحسنوا استقباله وأكرموا وفادته وودعوه وداع المحسن لشعبه المنتمذ لأمته فقد جاءهم بالمجد الخالد والسيادة العامة والهدى والإصلاح والنور والعلم رجاء أن يقرب بهم بين الارض والسماء .

ويتصور الرسول الكريم موقفه من أهل الطائف ويذكر ضعفه وهوانه فيناجى مولاه « يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب على فلا أبالى

غير أن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن يحل عليَّ غضبك أو ينزل بى سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك » .

وفى مرجعه نزل بنخلة وهى محلة تتمام بقربها سوق عكاظ ، المعروفة فى حياة العرب والأدب العربى ، وقام يصلى من الليل والصلاة قرة عينه وحبيبة نفسه ، والليل أنس المحبين وعرس الواصلين ومقام الحامدين وبينا هو فى موقفه صرف الله إليه « نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين . قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم . ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » .

وكان ذلك عن غير شعور منه ولا ترقب عنده وهل يطمع الرسول الكريم فى هداية هذا الجنس النافر المستخفى وقد استعصى عليه تذليل جنسه وتهذيب قومه ؟ ولكن الله قد جعل منه هادياً نافذاً فى الطبائع ومؤثراً فى الجبلات وجعل فى رسالته قوة تخترق الحجب فيستجيب لها كل سميع ويؤمن بها كل حى فهى رسالة تدعو لنفسها وتشع من جوانبها وإذا وصلت إلى القلب أبت أن تستقل به وتقفل عليه وإنما تخرج به داعية إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وأظهر الله رسوله على أمر الجن نحوه ، طمأنةً لقلبه وترضية لنفسه ، والجن خلق آخر استتروا وراء لطافتهم واختفوا تبعاً لطبيعتهم كما ظهر الإنسان أثراً لكثافته ، خلقهم الله من نار كما خلق الإنسان من طين ، وفى النار لطافة وحرارة ونور ، وفى الطين كثافة وغلظ وعتامة ، ولكن المبدع المختار يرفع ويضع لا معقب لحكمه فرفع الكثيف على اللطيف وقال اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين » معتذراً بأنه من نار وآدم من طين ونسى أنه فى حضرة ربه عبد مقهور ومخلوق مغلوب ، وجره كبره وغروره إلى الخروج من دار الحبور إلى دار الشرور ، ومن جنة وسعته إلى أرض لفظته .

والجن طرائق منهم الصالحون ومنهم دون ذلك ، وفى طبعهم النفور وفى خلقهم الغرور ، وقد استمعوا لدعوة محمـــد صلوات الله عليه وانصتوا للقرآن فلانت طباعهم للحق وجعلوا من أنفسهم دعاة للهدى وأنصاراً للدعوة ورسلا على الرسول يدعون لله ويصدقون بكتاب الله وينذرون بالعذاب من لا يجب داعى الله ويبشرون بالجنة من آمن بالله ، وهذا أكرام من كريم وتقدير من حكيم رفّه الله به عن مصطفاه وخفف عن مجتباه فأراه قوة دعوته وقدر رسالته وكيف أنها تذلل من الطباع النافرة وتقود النفوس المارقة وتجتذب لرحابها جبلة كان منها من عصى ربه تكبرا على البشرية واحتقارا للآدمية .

لقد سمعت الجن واستجابت وأذعنت وآمنت ودعت قومها للهدى فكان ذلك تسلية مجزئة وترضية مقنعة بأن خلالها أن حجود القرشين وأهل الطائف بالدين لم يكن لتقصير فى التبليغ ولا لوهن فى الدعوة ولا لقصور فى الحق وإنما كان عن حسد ملأ النفوس وحقد أكل الصدور ، فكفروا بعربى بعث من صميمهم وأرسل فيهم وأعزهم وعز عليه عنادهم وأحبهم وكره مخالفتهم ولم يدر أولئك أنه جاء بسعادتهم وسلطانهم .

وأقام بنخلة أياما يشكر ويفكر ويجمع نفسه لمواجهة قريش ويرى زيد بن ما يعانيه الرسول فيشفق على موقفه ويخشى عليه أن يتعرض لخطر يواجهه أو ظلم يستقبله فيقول كيف تدخل على قومك وقد أجرجوك ؟ فيجيبه مطمئنا مبشراً « إن الله جاعل لما ترى فرجا ومخرجا وإن الله ناصر دينه ومظهر نبيه » .

وانتهى إلى مكة ووقف بالحق على أبوابها ودار بخلده ما سيلقاه من قريش بعد أن رفض أهل الطائف متابعته ، والطائفيون والمكيون متنافسون فى الشرف متعادون فى الرياسة لكنهم متفقون على نصرة باطلهم وخذلان حقه ، ولا مناص له من دخول مكة مهما كلف من عنت وأرهاق فتصريف أمور رسالته يحمله مضطراً على جعلها دارا لإقامته ومركزاً لقيادته إلى أن يهيء الله له دارا تحبه ويحبها يأوى إليها فتؤويه ويستنصر بها فتنصره . والقوم لا يرضون دخوله ولا يمكنونه ولا يقرون إقامته بينهم وهو باق على عهده متمسك بأمره وقد مات أبو طالب فقل به النصير .

واستعرض رجال قريش فى لحظة يسيرة إلىأن وقف نظره عند المطعم بن عدى فان له معه لحمة وماضيا يطمعان فى نصرته ومؤازرته ، وأرسل إلى مطعم رجلا من خزاعة ليخبره بخبره ، فلما علم مطعم خرج إلى الرسول واستقبله بعد أن دعا بنيه أن يحملوا السلاح ويقفوا عند أركان البيت ، ودخل رسول الله فى صحبة مطعم ومعهما زيد بن حارثة حتى وصل المسجد الحرام وانتهى إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته ومطعم وولده محدقون بالسلاح .

وأصرت قريش على عنادها وأمعنت فى إيذائه والكيد له ، وعرضت عليه ألوانا متفرقة من العذاب ، قصدا لصده عن غايته ، فمن أشواك توضع فى طريقه إلى فضلات توضع على رأسه الكريم وهو قائم لربه إلى غير ذلك من صنوف الإيلام وضروب الاستخفاف ، وهو محتسب صابر يعتذر لهم عند ربه ويطلب لهم الهداية فيقول : « اللهم اهد قومى فانهم لا يعلمون » .

وضاقت مكة بالحق وأوصدت أبوابها دون ذلك النور ، واختلطت قلوبها بصخورها فلا سمع ولا استجابة ولا ارتداع ولا اتباع ، بل استحبوا العمى على الهدى ، وطاردوا الحق فى كل مكان ، ومدوا أفواههم ليطفئوا مشعل الدين ، « ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المشركون » وبقى الرسول فى مركز قيادته يتردد حول مكة فى المجامع والأسواق ، عله يجد من الوافدين من يصدق بدعوته ويؤمن برسالته ، وكان يتم له قصده لولا مطاردة قريش له بنقض ما يبرم وإفساد ما يصلح ، وتحرج أمر الرسول فى قومه وتلفت فيمن حوله فلم يجد فيهم رجاءً فى النصرة ولا أملا فى البيعة ، ولولا أن أهل الأوس والخزرج كانوا يعلمون من حلفائهم بيثرب من اليهود أن نبيا من صفته كذا أطل زمانه وجاء أوانه وأن اليهود ستتبعه لتقاتل معه العرب ما أسرعنا فى متابعته والاستماع إليه ، ولكنهم تأملوه فعرفوه ، واتجهوا اليه واستمعوا الحديثه ، ووافى الموسم منهم من آمن بالدعوة وبايع على النصرة ورجع إلى قومه داعيا وهاديا ؟

الإسلام يحقق السلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

شهد العالم قبل الإسلام ويلات وويلات ، وسادته ضلالات أفسدت على العقول اتجاهها إلى السمو وطلب الكمال ، وخضع لاستبداد طاغ فى توجيه أموره ، وكل مقدراته ، لصوالح حكام فى الشرق والغرب ، كل أهداف حكمهم . هى الجلوس فى أبراج السيادة ، والإشراف منها على استغلال المحكومين ، وإن شئت قل إن حكام الشرق والغرب قبل الإسلام ، كانوا فى صراع على السيادة فى أرض الله ، ألقوا فيه إلى الجحيم كتلا من المحكومين الذين أهدرت آدميتهم ، فى سبيل شهوات كسرى وقيصر ، ولقد غشى العالم فساد عام شامل ، استشرى فى كل ناحية من نواحيه . فى الدين ، فى السياسة ، فى الاجتماع ، فى كل شىء .

كذلك شهد العالم قبل الإسلام ألوانا مختلفة من الديانات والتشريعات ، السماوية والوضعية شهد اليهودية والنصرانية ، كما عرف الزرادشتية والمزدكية والمانوية والكنفشيوسية ، والبوذية ، ولم يجد العالم فى واحدة من هذه الديانات ، ما يهذب النفس ، أو يرقى بالروح معارج الجمال ، ولا ما ينظم مجتمعا سعيدا يقوم على الحب والسلام .

وجرب العالم منذ التقدم تشريعات الفراعنة . وقوانين حمورابى ، وجملة تشريعات أخرى إغريقية ، ورومانية ، وفارسية ، ولم يسعد العالم أى حكم قام على هذه التشريعات ، إذ لم تنظم مجتمعا ، أو تحقق عدلا ، ولم تجلب رخاء ولا أمنا ، بل لم تحفظ حرمة الإنسانية . لانها كانت تسير وفق قاعدة عامة تمثل الشرائع قبل الإسلام هى : من غلب على شىء أكله .

عالم عقلي أفسدته الوثنية ، وثنية ألزمت الناس بعبادة الحجر ، أو عبادة الشجر ، أو النيران أو البشر ، وديانات عطلت المواهب ، واعتقلت العقول ، وأججت سعير الحروب بين الشعوب . لا طلباً لكمال إنسانى ، ولا تحقيقاً لأخوة أو عدالة . بل لسيادة نوع من صنوف هذه الوثنيات .

وعالم اجتماعى أفسدته الطبقية . فأشراف هم سادة الناس ، وفى أيديهم الجاه والسلطان ، وعندهم ذهب الدنيا الوهاج ، وصنوف من الناس يتفاوتون فى العبودية والاستغلال ، ويمتعون بالفقر والحرمان ، ويكدحون لسادتهم فى سبيل الإبقاء على حق الحياة .

وعادات لا تدرى أهى عادات إنسان أو حيوان ، وجاهلية جاهلة ، قضت على التفكير الإنسانى ، فلم يتوجه لخدمة الإنسان ، ولم يسعف البشرية باصلاح ، وهى تلح فى طلب الإصلاح .

وصراع دائم مرير بين الشرق والغرب ، بين الفرس والروم ، على سيادة دنيا الله ، حروب فى إثرها حروب ، وكروب تتبعها كروب ، وغطرسة فى كسرى خربت الشرق ، وكبرياء فى قيصر خرب الغرب ، ومن غطرسة كسرى وكبرياء قيصر ، يتألف عالم سياسى يقوم على الظلم والفجور ، والإنسانية بين هذه العوالم المخربة المدمرة ، تنادى ربها ، وتستغيث باريها ، يارب تدارك عبادك بوسائل الإصلاح ؛

وأشرقت الأرض بنور ربها ، وانبلج صبح الإصلاح ، وبعث الله محمد بن عبد الله بالإسلام رحمة للعالمين ، ليخرج الإنسانية من الظلمات إلى النور باذن ربهم إلى صراط الله العزيز الحميد .

جاء الإسلام ليصحح الأوضاع السيئة ، ويصلح الفساد الذى يعانى العالم من جرائه ويلات الحروب . ويقيم مجتمع الإنسانية على أسس قويمة من العدالة والأخوة والمحبة والسلام .

ولقد بدأ الإسلام باصلاح العقيدة . عقيدة الناس فى رب الناس . فاستهجن الضلالات السائدة . وأنكر أن يكون هناك أدنى تصرف فى أمور الناس . الشئ

من اللات والعزى ومناة . ومثيلاتها من أحجار وأصنام . أو لشىء من نيران الفرس أو حيوان غيرهم . أو لشىء مما يعبد اليهود والنصارى.

وقرر أن الخالق واحد من كل وجه ، هو وحده المتصرف فى كل شىء ، وإليه يرجع الأمر فى كل شىء ليس كمثله شىء . من حجر أو شجر ، أو بشر ، كل الكون فى قبضته ، وكل العوالم عبيده ويرجون رحمته ، ودعى الإنسان إلى تحرير عقله من قيود الوراثة والوثنية ، فاذا حرر عقله فلينظر فيما يحيط به متأملا فيما خلق الله ، وليحكم عقله المتحرر ، فى قضية الألوهية . ولينظر « أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار » ؟ « أفمن يخلق كمن لا يخلق » ؟ « أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون » ؟ « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب . ماقدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز » . ولابد أن يصل العقل المتحرر من قيود الوراثة والوثنية فى هذه القضية إلى ما يدعو إليه الإسلام . لا إله إلا الله . فاذا استيقن بها الانسان . تفتحت له آفاق وآفاق . واستقام أمره على وجه من الإصلاح والصلاح لم يعهده من قبل !!!

* * *

خالق الكون واحد وهو المتصرف فيه . وهو وحده سيد لما خلق . وكل خلق الله عباد الله ونسبتهم إلى الله واحدة . فهم أحرار . لأن الله وحده هو خالقهم وهم عند الله سواسية لأنهم جميعاً عبيده وهم إخوة لأن ربهم واحد وأباهم واحد وأمهم واحدة خلقوا لغاية واحدة أفضلهم عند الله أحسنهم عملا وأنفعهم للناس « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فلا الأجناس والألوان ولا الأحساب والأنساب ولا الجاه والسلطان والأموال ولا القوميات ولا العنصريات . لا شىء من ذلك كله بمقياس ولا ميزان عند تقدير الصلاحية أو وزن القيم . فالاسلام قومية المسلمين وهو الجنس واللون والحسب والنسب والمسلمون إخوة فى الانسانية وإخوة فى الاسلام ومن واجب الاخوة أن تقوم بينهم المحبة ويسود بينهم السلام

ومن واجب الاخوة أن يتعاونوا على البر والتقوى . لا على الإثم والعدوان فاذا تعاونوا على هـــذا المنهج فلا بد أن يحلو مشكلة الغنى والفقر كما قضوا على الطبقية الجائرة بتوحيد الله الذى خلقهم أحراراً متساويين ولم يجعل للشرف مقياساً غير حسن العمل ومدى مايحققه الشخص من خدمات ومنافع للمؤمنين وللإنسانية ! وإذا كانت نفس الإنسان قد جبلت على الشح فقد أراد الله سبحانه ألا يخضع التعاون على البر واتقاء الشرور لهوى النفس الشحيحة بل نظم هـذا التعاون فى سبيل خير الجميع تنظيما عجبا كان موضع إطراء خصوم الإسلام أنفسهم وجعله إلزاما للأمة متضامنة ولكل فرد بوصفه الخاص . فالأمة متضامنة فى كفالة حياة الفرد حياة حرة كريمة وكل فرد مكلف برعاية مصالح الأمة . فالفرد والجماعة يتبادلان المعونة فى سبيل الخير العام .

للفقير حق معلوم فى مال الغنى ، ومال الغنى هو مال الله استخلفه فى استثماره وتنميته « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » والمؤمن الغنى جواد سمح ، لا يمسك مال الله عن الخير لعباد الله ، والمؤمن الفقير قانع عزيز ، يأخذ حقا جعله الله له فى مال أخيه ، غير ذليل ولا مستذل ، والغنى يعطى ما وجب عليه غير مانٍ ولا متكبر ، وهذا وذاك يقوم بأمر الدين ، ويستجيب لله رب العالمين ، ولقد عين الإسلام مقادير محددة بنسب معينة وبشروط خاصة يدفعها الغنى إلى بيت مال المسلمين ، لتنفق فى سبيل الصالح العام للأمة وسمى هـذا « زكاة » ثم أوجب على الأغنياء بعد ذلك الإنفاق فى سبيل الله ومصالح الأمة ، وترك التعيين والتحديد للمؤمن الغنى ، يقدر ويحدد بنفسه ما يجب عليه ، حسب ما يملى عليه إيمانه ، وحبه لخير المسلمين .

والزكاة . والانفاق الذى يسمى صدقة ، أريد بهما ، مواجهة حاجة الدولة ، ومقتضيات عملها على توازن القوى فى المجتمع ، حتى لا تتجمع مالية الأمة فى أيد قليلة قد تكون شحيحة ، فتتولد الأحقاد فى النفوس ، ويرجع المجتمع إلى نظام الطبقية الذى قوضه الإسلام بتعاليمه . ثم عاد إلى المجتمع الإسلامى لما تنكب صراط الإسلام كما أريد بهما . تربية النفوس وتمرينها على البذل عند دواعيه .

ومقاومة خلق الشح فى نفس الإنسان الذى يدفعه فى كثير من الأحيان إلى هجر الدين والفضائل فى سبيل المال . ولقد طبق هذا النظام ونجح نجاحا بعيداً فى صدر الإسلام . وقد لفت أنظار الغربيين . فجعلوه أساسا لما ظهر بينهم من نظم تعاونية وجماعية . حتى لتكاد التبرعات عندهم . تفى بحاجات شعوبهم الاجتماعية . وقد تصاب بعض النفوس بخديعة ثقافية . فيختلط عليها الأمر فترى فى هذا النظام استذلالا للفقير . وإهدارا لحرمته . وقد تصاب بلوثة . فترفض ما لا تفهم مما شرع الله . وهيهات أن يستقيم أمر الناس على غير ما شرع الله . ولن تحل مشكلة الفقر حلا جميلا . يحقق سلام المجتمع إلا على أساس ما شرعه العليم بالنفوس البشرية . فأقيموا الدين لله خالصا من شوائب الشهوات . وتجردوا من لوثة الثقافات الخادعة الوافدة . تحل مشاكلكم . ويصلح مجتمعكم .

وإذا أقام الإسلام مجتمعا صالحا على أساس من توحيد الله والاعتراف له وحده بالسيادة ، وتقرير الحرية والاخوة والمساواة بين الناس ، والتضامن بين الفرد والجماعة فى سبيل الصالح العام للجميع . فأنه يقيم حكم هذا المجتمع على أساس من الشورى الحرة . ويطلب أن يكون الحكم قيادة رشيدة للمحكومين . تسعى إلى تحقيق أكبر قسط من سعادتهم . وتوفر لهم أسباب الحياة الشريفة . وتقيم بينهم العدالة وتسوى بينهم فى توزيع الحقوق والواجبات . ويطلب من الحاكم أن يكون قدوة حسنة لرعيته . فى قوة إيمانه والتزامه لمبادىء الدين . وحبه للخير والإيثار . حتى يحمل بسلوكه المحكومين على الاقتداء به . ويتحقق الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وطلب من المحكومين أن يطيعوا الحاكم ما استقام على أمر الله . وأخلص فى رعاية مصالح الدولة . فاذا اعوج قوموه بالنصح والإرشاد . وإذا أشكل عليه أمر أرشدوه بالحكمة والموعظة الحسنة إلى وجه الخير فيه . وإذا جار وظلم عالجوه بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر . « وهو السلطة الكبرى التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم » فاذا لم يرعو لزاجر . ولم يقلع عن الظلم بعد نصحه . فلهم أن يستبدلوا به غيره . وجعل المحكومين مسئولين عن الحاكم وصلاحه . مثل مسئولية الحاكم نفسه عن مصالح المحكومين . وهكذا يخلق الإسلام دولة قوية يركزها على دعائم

قوية — اجتماعية وسياسية — تضمن لها العزة والكرامة ما سارت على منهجه الواضح المرسوم .

وإذا أقام الإسلام دولته فانه يجعل أساس العلاقات بين المسلمين وغيرهم هو السلام . فحرم على المسلمين أن يعتدوا على غيرهم . ولم يجعل الاختلاف فى الدين مبررا للعدوان . فاذا جنح غير المسلمين إلى السلم فليسالمهم المسلمون . كما نهى المسلمين عن الهجوم على عدوهم الذى استيقنوا من عداوته . وتوقعوا عدوانه . من دون إنذار يرسلونه إلى العدو . بل حتى يصل الإنذار إلى العدو . ثم أنكر الإسلام الحرب لمجرد التوسع والاستعمار أو لهوى النفس . ولم يبحها إلا لحماية الدعوة أو دفع عدوان . فمن اختار البقاء على دينه . وسالم المسلمين . سالمه المسلمون . ومن عاهد المسلمين على الأمان فقد وجب على المسلمين الوفاء بالعهد . ومن عاقدهم على تجارة وفوا له بالعقد . وهكذا فى الجملة يقيم الإسلام العلاقات بين الدولة الإسلامية . وغيرها . على أساس السلام . ويجب أن يكون السلام دائما هو رائد العلاقات الدولية . ولا يقر الإسلام البغى والعدوان فى أى مظهر من مظاهر الحياة للفرد أو الجماعة .

الإسلام منهج عام للسلام . للسلام الداخلى فى كل أمة . والسلام الدولى بين الدول . ولهذا المنهج تفصيلات كثيرة ودقيقة . أرجو أن يسعدنى الله بفرصة لتجليتها . وبيانها للناس . منهج للسلام يهدى للتى هى أقوم . فلو أنصفت الإنسانية نفسها بالإسلام لاسعدها الإسلام . ولو شاءت الإنسانية الأمن فى مجتمعاتها الداخلية . فعليها بالإسلام .

ولو أرادت السلام العام بين الدول فإن الإسلام هو منهاج السلام . « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق . » فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » وستنجلى الغمرة بعد غاشية تغشى الإنسانية — قريبا أو غير قريب — وسينظر العالم حائراً . وسيبحث عن مخلص يخلصه من ضلال العلم والإلحاد فى الله وفساد الدين والسياسة والاجتماع . وستكون حيرته هذه كحيرته الاولى عند ما بحث عن منقذ قبل الإسلام . فكان الإسلام وسوف لا يجد العالم ما يخلصه من كروبه وإلحاده وماديته . ويريحه من ويلات الحروب والخراب والدمار . سوى الإسلام .
« ولتعلمن نبأه بعد حين » .

فى ميدان علم النفس :

تعريف الحكم

لحضرة الدكتور سعيد زايد

من بين المشاكل العديدة التى تتأرجح بين العلوم المختلفة وبين وجهات النظر المتباينة ، مشكلة الحكم . فهى مشكلة يتجاذبها علم النفس وعلم المنطق كل يريد أن يضمها الى حظيرته ، وكل يريد أن يدرسها بمنهجه الخاص ويعتبرها ضمن أبحاثه الخاصة .

ولذلك لا تأخذنا الدهشة عندما يفاجئنا هولنجورث فى مستهل فصله بعنوان جزئى هو « تعقد المشكلة » يقول فيه إن المحاولات لتعريف طبيعة الحكم وتحديد مكانته فى علم النفس أو المنطق ، قد استنفدت أبحاثا كثيرة ، وقد حددت هذه الأبحاث بدافع الحكم بالنسبة لموضوعات أساسية وأولية فى علم النفس ، ولذلك إذا وصف الحكم بأنه حالة إثبات لعلاقة بين موضوعين أو حدين ، فهذا يتضمن معنى خاصا للأفكار التى تستعمل فى التعريف .

ولكن ما هى حالة الإثبات كحالة مميزة عن بحث مجرد ؟ ما هى طبيعة العلاقة التى يمكن أن توجد فقط فى حضور عضوين أو أكثر ؟ وما هى فى الحقيقة الأعضاء أو الوحدات (المعانى) التى توجد بينها العلاقات ؟ هل تدرك العلاقات بصفة واقعية ؟ هل يمكن تصنيفها بطريقة ما حسب موازين وألوان ونغمات ؟ هل هى أيضا « محتويات الشعور » أم هى فقط « أفعال نسبية » ؟ وهل تتصف بصفات تتعلق بالكيفية والشدة وديمومة الإحساسات ؟ هل هى فى الحقيقة مكتشفة أم هى

( ) ملخص الفصل ١٦ من كتاب Psychology of Thought للدكتور Hollingworth

مخترعة فحسب ؟ كل هذه الأسئلة يضعها الكاتب فى إبتداء الفصل وكلها — كما هو واضح — تنطق بتعقد المشكلة .

ولم يكتف الكاتب بهذا بل أراد أن يزيد فى تبيان مقدار التعقد والصعوبة فكتب تحت عنوانه الجزئى الثانى يقول : ويمكن الاعتراض بأن نظرية فى الحكم لا تحتاج ضمنيا إلى أى مؤيدات أوليه ، وبأن طبيعة الحكم يمكن التأكد منها مباشرة خلال التأمل كى تعطينا فكرة عما وجدته فى الوعى أثناء عملية الحكم ، ولكن هناك عدة عوائق هامة من أهمها أنه من المستحيل علينا أن نعطى فى أى وقت تقديراً تاما عما يحدث فى الشعور حتى ولو كان فى بضع ثوان ، وكل ما يستطيعه المتأمل هو أن ينتخب من التجربة الكلية تلك الحوادث التى تبدو له مؤيدة للعملية التى تفيد المجرب فيخبر عنها ويجهل الباقيات ، وإن أفكار الوعى التأمليه التى تحدث أثناء التفكير تبدو فى هذا المجال كأنها فطرية ونادراً ما تبين اختيار حوادث معينة على ضوء نظريات سابقة ، فهى فى الغالب لا تخبر عن الأصوات الخارجية وأصوات التنفس وحركات الحجاب الحاجز والنشاط الجثمانى عديم الغاية والحركات المستمرة للسان وإبهامات الأرجل وأصابع اليد . من ذلك يتضح أن الأحكام لا تكون إلا للحوادث التى تحصل بوضوح فى الوعى لا إلى تلك التى تنكشف حينا وتختفى حينا آخر ، وللحوادث الجزئية أكثر من الحوادث الكلية .

ولذلك إما أن تخبر الذات تحت تأثير انتباه اختيارى معين ؛ أو أن من يكتب التقرير يختار لتقريره تعبيرات توافق العملية ، ومن المؤكد أنه لا يمكن لمفهوم ما أن يلخص خصائص العملية التى حدثت تحت أى حالة من الحالتين السابقتين وخاصة بالنسبة إلى وظائف الألفاظ الرمزية . وقد ينشأ اعتراض مهم بالنسبة إلى التجارب الفنية وهو وجوب إلزام الذات بأن تحكم لتقرر أو تخبر عن مجرى الوعى ولكن هذا يتطلب معرفتنا الواضحة لماهية الحكم وإلا كيف يمكننا أن نلزمها بالحكم وكيف نتأكد أنها حكمت ؟ وبعبارة أوضح كيف نجزم بأن ما أخبرت عنه هو بالذات عملية الحكم ؟ وكذلك فى إحدى دراسات الأستاذ مارب فى الحكم المبكر على طريقة التأمل الباطنى يحاول المختبر أن يعرف ما هى التجارب التى يجب أن تتوفر فى عملية الوعى حتى نرفعها إلى درجة الحكم أى نضيع المجرب تحت

حالات يمكنه فيها أن يختبر أنواع العمليات العقلية للحكم وحينئذ نسأله أن يبسط لنا التجارب التى حدثت له أثناء تلك العمليات يتضح مما سبق أنه يمكننا — بصفة مؤقته — أن نعرف الحكم بأنه عملية الشعور الذى يمكن أن يحمل عليه فى معنى ما محمولا الصدق أو الكذب .

تعـريف مارب :

يبدأ مارب تعريفه بضرب مثال فيقول : إذا كان لدى ثقلان وطلب منى أن أختبر أى الثقلين يبدو أثقل . أفلا يكون إخبارى بتميزهما ، حكما ؟ ولـكن على أى أساس يقوم حكمى بالمـوازنة بين الثقلين وعلى أى حقيقة يقـوم ؟ وإذا ما تركت الاختبار جانبا وتقدمت قليلا لأبين مقدار الثقل إما بالكلام أو بالإيماء ، أفلا يمكن أن يقال إن هـذا الثقل يتفق أو لا يتفق مع حدث آخر وهـو الأثر الحسى الذى أحدثه الثقل بالفعل .

ويستطرد مارب قائلا : وإذا سألتنى مضيفتى مثلا رأيى فى قبعة جديدة وأى الألوان أنسب لها ، فانى سأخـبرها طبعا بلون ما . . فعلى أى أساس يقوم هـذا الحكم ؟ وبأى مقياس يكون خطأً أو صواباً ؟ إن مضيفتى لا يهمها أن تأخذ رأيى فى اللون الذى أحبه ، بل كل ما يهمها هو أن ترى هل سيتفق تخمينى أنا مع ماستفعل حقيقه أم لا .

وهناك أحكام لا تتفق مع نظرية مارب ، بالرغم من إشارة مِسر Messer وإثبات تتشنر Titchener أن النظرية تتفق مع تجارب كثيرة لم نتعود أن نعتبرها حكماً كالاستظهار الحقيقى لمقاطع عديمة المعنى فى تجارب الذاكرة . وكاستجابة اللاعب (فى صالة الجمنزيم) للتراكيب اللفظية التى يصدرها المدرب .

ويجب أن نلاحظ أن مارب كغيره ممن أتوا بعد سواء بسواء ، لم يكن يبحث عن النموذج الأولى الحقيقى الداخلى للأحكام . بل كان يبحث عما يمكن تسميته الظواهر الملازمة أو « التجارب الثانوية » التى يمكن اعتبار وجودها معياراً ثابتاً .

وهذه هى الطريقة التى يتبعها البستانى الذى يفرق بين نوعين من فاكهة معينة باكتشاف نوع الحشرة الضارة التى تعيش باستمرار على كل نوع ... ولـكن

لماذا نعتمد على الحشرات للتمييز بين نوعى فاكهة ما ؟ ولم لا نبحث الفاكهة ذاتها ؟ فالذى نريده أولا وقبل كل شىء بيانا وافيا يعتمد على الظواهر للحوادث أو التجارب أو العمليات التى تدل عليها لفظة حكم . ومثل هذا التعريف يدخل فى علم النفس أكثر منه فى المنطق وهو ما نريد أن نبحثه هنا .

ولن نحاول هنا أن نزن الآراء التى قيلت بصدد طبيعة الحكم عند مسز . روول . بهلر . وغيرهم والتى تنهج منهج الاستبطان ولكننا سنحاول أن نبين الحجج الرئيسية فى عدم كفايتها .

مقاييس الحكم :

من بين المسائل الهامة التى ترتبط بالحكم سنعنى أولا بما يسمى التعبير عن الحكم . ويقصد به إشارات أو ألفاظ تبين محتوياته وتستخدم لأغراض خاصة أهمها انتقال الأفكار والاتصال بالغير . ومما لا شك فيه أن التعبير عن الحكم قضايا تتكون من موضوع ومحمول ورابطة .

وقد قامت مناقشات حول هـذه المسائل اللغوية مراعاة للغة وأنها مرآة للحوادث الفكرية دون نظر إلى العوامل العرضية والعملية التى تحدد تطورها وتطور الكلام . ولكن اختلاف الطرق التى بها نعبر عن أحكامنا جدير بأن يمنع الخلط بين علم النفس وعلم اللغة . فالحكم كما قال مارب يمكن التعبير عنه بطرق مختلفة كالكلام والإيماء والتوافق العملى وتسلسل الخيال وتغير اتجاه التفكير . ومهما كانت طبيعة التعبير . فليس جزءاً جوهرياً من الحكم إلا ما أدركه على أنه حادثة نهائية ترتفع بالحكم ليصبح عملية إغلاق . وعلى ذلك تصبح القضية لا حكما فحسب بل نتيجة له .

وإذا أخذنا الفكرة الأخيرة فجدير بنا أن نبين العمليات المتضمنة فى المواقف العقلية وما يدل عليها يمكن أن نسميها فى مضمونها تفكيرا .

ويمكن الإشارة فى هـذا الصدد إلى أربعة أضرب هى : « الدالة على » ، « المدلول عليه » ، « المدلل به » ، « الدلالة » ، ويقصد بالأولى ، المنبه أو الرافع

أو الباعث أو الإشارة أو التلميح أو ما يقابل فى المنطق الموضوع فى القضية . ويقصد بالثانى ، التجارب الماضية التى يفصلها الباعث السابق الذكر وهو ما يقابل الحد الأوسط فى المنطق . ويقصد بالثالث حقيقة التميام بتنفيذ ما يطلبه العامل ، كنشوء الاستجابة والتوافق والصورة والشعور إلى غير ذلك من الحوادث النفسية التى تعبر أو تشير إلى اتجاه الوظيفة وهو ما يقابل الرابطة المنطقية أو قانون التداعى فى علم النفس . ويقصد بالأخير ، الحادثة النهائية أو التعبير فى ذاته كنتيجة للباعث على ضوء العلاقات الماضية وتقابل فى المنطق ما يسمى بالمحمول .

وواضح أن هـذا التفصيل يتفق مع ما قيل عن الحكم فى كتب المعاصرين ولذلك عرض هولنجورث لبعض آرائهم توضيحاً لهـذا التطابق ، فالى اللقاء فى العدد القادم إن شاء الله ؟ .

حكم نبوية

لعيسى عليه السلام فى كتبنا حكم كثيرة منها قوله للحواريين :

« اتخذوا المساجد بيوتا والبيوت منازل ، وكلوا بقل البرية ، واشربوا الماء القراح ، وانجوا من الدنيا سالمين » .

وقال عليه السلام : « لا تنظروا فى أعمال النـاس كأنكم أرباب ، وانظروا فى أعمالكم كأنكم عبيد ، فإنمـا الناس رجلان مبتلى ومعافى ، فارحموا أهل البلاء ، واحمدوا الله على العافية » .

وقال عليه السلام لحوارييه : « عجبا لـكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل » .

وقال عليه السلام : « ألا أخبركم بخيركم مجالسة ؟ قالوا بلى يا رسول الله قال من تذكركم بالله رؤيته ، ويزيد فى عملكم منطقه ، ويسوقكم إلى الجنة عمله » .

دراسات فى التصوف :

السهروردى المقتول

للأستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الآداب

— ٢ —

ومن هنا رأى المتآمرون أن يتجهوا إلى صلاح الدين نفسه ، فأرسلوا إليه مصورين السهروردى فى أقبح صورة ، ناعتيه بأبشع النعوت ، وأوصموه بكل صفة رديئة ، ثم ضربوا وتراً حساساً عند صلاح الدين ، فقالوا « أدرك ولدك وإلا تتلف عقيدته » .

وسارع صلاح الدين فأرسل إلى ابنه أن : ابعد عنك الرجل ، ولم ينفذ الظاهر وصية أبيه ، لعلمه بسر الأمر .

وهنا انقسم الرأى فى حلب قسمين : قسم يؤيد ، وقسم يناوىء : حماس ونقمة ، رأى الأولون فى السهروردى نبياً من أنبياء الفكر ، حكيما قد أوتى كل علم ، ورأى الآخرون فيه ملحداً كافراً ، أقل جزاء له الموت .

ويحدثنا القاضى شداد ، وقد عاصر هذه الحقبة من الزمن ، قال : « أقمت بحلب فرأيت أهلها مختلفين فيه ، منهم من يصدقه ، ومنهم من يزندقه ، والله أعلم » .

لم يرض بعض الفقهاء بمسلك الملك الظاهر ، واجتمع منهم اثنان : زين الدين ومجد الدين ابنا حميد ، وأثارا ثائرة العلماء ، وجمعوا جموعهم ، وتقدموا إلى الظاهر : أن نفذ وصية أبيك ، أن ابعد هذا الزنديق ، وأنقذ الدين من شره وخلص العقائد من خطره . وأحرج الظاهر أمام أبيه وأمام الشعب ، فرأى أن يخرج

من المأزق بحل وسط هو أن يعقد مناظرة لتسوية الخلاف ؛ فرضى الفقهاء بهذا الحل كما رضى به صلاح الدين .

كان الظاهر واثقا من قدرة السهروردى ومن بلاغته وفصاحة تعبيره ، ولكنه نسى أن السهروردى سيكون متهما فى مجلس قضاته هم أعداؤه . واجتمع المجلس ، وناظر السهروردى فيه وظهر عليهم ، وجاء بعض هذه المناظرة فى الكتب :

« قالوا : انك قلت فى بعض تصانيفك إن الله قادر على أن يخلق نبياً .. وهذا مستحيل .

« قال : وما وجه استحالته ؟ فإن الله القادر هو الذى لا يمتنع عليه شىء » .

ولم يذكر التاريخ هذه المناظرة كاملة ، فقد ضاعت مع ما ضاع من تراث المسلمين وأفكارهم وكتبهم .

وحكم المجلس بإدانة السهروردى ، وبعد مداولة قصيرة حكموا بكفره وجردوه من إيمانه . ثم كتبوا وثيقة كفره ، وأذاعوها سراعا بين الناس . وهكذا نجحت المؤامرة وحكم على السهروردى بالموت . ولم يجد الظاهر بدا من أن ينفذ الحكم فى صديقه ، واحتار القوم كيف يموت السهروردى : هل يمزقونه أم يصلبونه أم يقتلونه ، وكفاهم الملك الظاهر مؤونة التفكير فطلب إلى السهروردى أن يختار ميتته ، فاختارها .

لقد كان - حتى فى موته - زاهداً متصوفاً ، فاختار أن يحبس فى مكان ، وأن يمنع عنه الطعام والشراب حتى يموت جوعاً . كم من الآلام عانى وهو مضطجع يهرأ الجوع أحشاءه ، لقد أراد امتحان قوة صبره ، فكان له ما أراد . أو لعله كان سابحاً فى ملكوت الله ، فانياً فى بحار الحق ، متأملا فى إله الخلق ، فلم يشعر بجوع ولم يعرف العطش .

وثمت روايات أخرى عن موته ، فمن قائل إنه خنق ، ومن قائل إنه صلب ، ولكن الثابت أنه فى يوم جمعة من ذى الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، أخرج السهروردى ميتاً من الحبس .

ولم يعدم السهروردى من يدافع عنه ، فنرى الشهرزورى صاحب « روضات

الجنات » ينعته « بالشيخ المعظم والفيلسوف المكرم العالم الربانى والمتأله الروحانى » . وهو عنده جامع بين الحكمتين الذوقية والبحثية . « كان فى المكاشفات الربانية آية والمشاهدات الروحانية نهاية » .

ويستمر الشهرزورى : وصاحبنا كان الوحيد الذى تيسرت له الحكمتان ، فإنا لنرى البعض ، بل والغالبية العظمى لما يتيسر لها غير أحد الوجهين ، فأبو يزيد ، والحلاج ما تيسر لهم غير الكشف دون البحث ، والكثيرون من الحكماء تيسر لهم البحث دون الكشف .



مذهب السهروردى :

كنا نود أن نوفى مذهب السهروردى حقه من الكلام ، بعد أن أرخنا له ، ولكن ضيق المجال يضطرنا إلى أن نتحدث عن الخطوط العريضة لهذا المذهب فحسب ، وأن نتناوله تناولا عاماً فنعطى عنه فكرة عابرة .

خلف السهروردى الذى قتل ولما يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره - على أصح الروايات - كتباً عديدة ورسائل كثيرة ، بها حكمة وبها إشراق . ولكنا نجده على العموم ليس صاحب مذهب طريف ، بل إنه قد أخذ التليد من مذاهب السابقين ، وتأثر بالكثيرين ممن سبقوه وعلى الأخص « ابن سينا » ، الذى يحاكى مذهبه فى النفس محاكاة يكاد يذهب فيها إلى نفس كلمات الشيخ الرئيس فى قصيدته العينية :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنع

حاكاها بقصيدته التى يبدؤها :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى وصبت لمغناها القديم تشوقاً

كان السهروردى متديناً ، ولكن اعتقاده لم يكن اعتقاد العوام ، بل خاصة الخواص ، يقول فى آخر المطارحات » : « هو ذا قد بلغ سنى إلى قريب من ثلاثين سنة ، وأكثر عمرى فى الأسفار والاستخبار ، والتفحص عن مشارك مطلع العلوم ، ولم أجد من عنده خبر عن العلوم الشريفة ، ولا من يؤمن بها » .

أما قصيدته المشهورة التى يتغنى بها المتصوفون ، فوصف حالة من حالات تجرده ، وإظهار لحبة ولسكره ولشوقه :

أبدا تحن إليكم الأرواح ووصا لكم ريحانها والراح
وأحسرتا للعاشقين تحملوا ثقل المحبة والهوى فضاح

وهو يخاف أن يبوح بسره فإنهم :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء العاشقين تباح

ولكن :

إذا هم كتموا تحدث عنهم عند الوشاة المدمع السحاح

إنه حبيب برح به الشوق ، وطوح العشق ، ليس له صبر على البعاد ، يتوسل يرجو اللقاء :

جودوا على مسكينكم بلقائكم فالصب عند لقائكم يرتاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم للصب فى خفض الجناح ، جناح
جودوا بنور الوصل من غسق الدجى فالهجر ليل ، والوصال صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى كتمانهم ، فنمى الغرام ، فباحوا
حضروا فغابوا عن شهود ذواتهم وتهتكو لما رأوه وصاحوا
قم يا نديم الى المدام ، وهاتها فبحانها قد دارت الأرواح
هى خمرة الحب القديم ، ومنتهى غرض النديم ، فنعم ذاك الراح

هذه بعض أبيات من قصيدته ، تدل كل كلمة فيها عن خلجات نفسه ، وتعبر عن شواهد روحه ، كتبها بقلبه وخطها بذوقه ، لم تملها عليه أبدا روعة عقله ، أو يلهمه إياها صفاء بيانه ، وإنما هى حالة من حالات الغيب والغناء أنتجت تلك الأبيات التى نحس معها وكأن نفوسنا تتسامى مع معانيه ، فتسمو بعيدا بعيدا ، فى عالم الملكوت ، فى عالم الحضرة الربوبية . أو ليس هو القائل :

لأنوار نور الله فى القلب أنوار وللسر فى سر المحبين أسرار
ولما حضرنا للسرور بمجلس وحف بنا من عالم الغيب أسرار
ودارت علينا للمعارف قهوة يطوف بها من جوهر العقل خمار[1]

---

(١) لاحظ قول ابن سينا : أسقنيها قهوة كدم الطلا .

وهو يشرح لنا سبب ترحاله وكثرة أسفاره :

ذرينى أن أسير فلا تنوحى فإن الشهب أشرفها السوارى

ورأيه فى الاتحاد يتضح من قوله :

خليلى إن الأنس فى فرقـــة الإنس فكن أبداً ما عشت فى حضرة القدس
فأنت هو المغنى وفيك وجـــوده وفيك جميع الخلق والعرش والكرسى

وليس أصرح من هذا قوله فى وحدة الوجود ، فإنه يرى أن الإنسان يشمل فى ذاته كل شىء حتى العرش والكرسى ، وما أشبه فكرته بفكرة الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا

أليس ذلك هو المعنى الذى يريده حين يقول : «فأنت هو المغنى وفيك وجوده»

وهو كمتصوف ، يعرض عن لذات الدنيا ، يريد بها ما هو خير وأبقى : لذة القرب من الله :

نزلنا على حى كرام بيوتهم مقدسة ، لا هند فيها ولا علوى
ولاحت لنا نار على البعد أضرمت وجدنا عليها من نحب ومن نهوى
شفانا ، فحيانا وأحيـا نفوسنا وأسكرنا من راح إجلاله التقوى

كان السهروردى يتناسى ممن يرمونه بكل نقيصة ، فيتجاوز عن الإساءة إليه ، تجاوز القادر ، العالم ، الواصل إلى أسمى الدرجات :

الخلق رضوا بظلمة ذات حزن كم قلت ، وكم أقول ، لكن مع من ؟

يعرف السهروردى الصوفى بأنه هو الذى اجتمعت فيه الملكات الشريفة ، أما التصوف عنده فهو اصطلاح عن هذه .

ونجد فى مذهبه آثاراً مسيحية ، تبدو فيما استعمله من كلمات وما اصطنعه من أساليب .

ويحمل على المشائين الذين « اختصروا على أمور تشبه مقولة متى والملك ، فإن هذه الأقاويل لناقصة ، ستنطمس حتما إذا نادى المنادى الحق بظهور الحقائق ،

وإن بقيت فتبق فى المواقف الجدلية فى رياضة المبتدئين ، فإن صاحب الزروة ذات الألق إذا أنذر صدق ، وإذا وعد حقق » .

وقد قرأ كتب أفلاطون ، ودعا إلى التأمل فيهـا ، وهو ولا شك قد أخذ منها وتأثر بها .

ويدعونا إلى تفهم الدين ، وأن لا نتمبله على علاته : « فإن تعبد الله حبا ، خير من أن تعبده خوفا ، فإن التعبد بالتخويف دين اللئام » . وما أسمى رأيه : « إعمل لنفسك ، فلتمد ذل من أحوج إلى الشفيع » . ثقة متناهية بالله ، وإيمـان بعدله عميق هذا هو إيمـان السادة ، لا إيمـان العبيد .

وجدير بمن كان مثله أن يؤمن بالعقل ، ولم لا يؤمن به وقد درس الفلسفة ، والعقل هو آلة الفلاسفة ، اصطنعه السهروردى كما اصطنع الذوق ، والعقل عنده نور الله ، ولا يهدى إلى النور غـير النور ، إذ النفس مرآة الله ، ومرآة الله لا تشبهها مرآة الأجسام ، وإذا انحل التركيب رجع الواحد إلى الوحيد .

من هذا نرى أنه يفرق بين النفس وبين البدن ، ويرى فى النفس مرآة لله ، ولا تشبه النفس الأجسام ، فهذه غـير تلك ، ومذهبه فى النفس ، كما سبق هو مذهب ابن سينا ، على الأرجح ، وهو المذهب اليونانى القديم ، ولعله أقرب إلى تعريف أرسطو ، الذى ذكره وأخـذ به فلاسفة العرب : إن النفس هى كمال أول لجسم طبيعى آلى ذى وجود بالقوة .

ويدعو السهروردى إلى معرفة الله « بأعاجيب آياته بشواهد هيبة الحضور فإن الفـكرة لا تتسلط على إله الأرباب » .

وأكرر هنا ما سبق لنا قوله من أن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعـة السمحاء ، لم يكونوا أبداهم السبب فى مثل هذا الاضطهاد ، وإنمـا هى فئة قليله ، توجد دائمـا فى كل عصر ومصر وزمان ، تؤلب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتتعداهم إلى غيرهم من أحرار الفـكر ، ودعاة التقدم أعداء الجمود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهادا ، ويقاسون عسفا وجورا ، ثم لا يلبث التـاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكراهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

في أعجاز القرآن :

ابن سنان
و
مذهب الصرفة

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى

تحدثت فى مقالات سابقة عن نشأة مذهب الصرفة ، وفهم العلماء السابقين واللاحقين له ، ثم تحدثت عما يمكن أن نفهمه منه بعد أن استعرضت موقف النظام ، وموقف الجاحظ من الاسلام بعامة ومن القرآن بخاصة ، وخلصت من كل ذلك إلى أن الذى يمكن أن يفهم من كلام الجاحظ أنه لا يقصد الصرفة بالمعنى المفهوم عند العلماء ، وهو أن العرب كانوا قادرين على الاتيان بمثل القرآن فصاحة وبلاغة ، وإنما معنى الصرفة عنده أن الله صرف العرب عن أن يأتوا بأى معارضة للقرآن ، لئلا تشتبه القصة على الأعراب وأشباه الأعراب ، ويجدوا من يقول أن هذا كالقرآن فى علو الطبقة ، فيثور الجدل حول كتاب الله، ثم تمضى القرون ونجد عالمين كبيرين عاشا فى أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل الخامس ، أحدهما مشرقى والآخر مغربى ، وكلاهما كان رجل سياسة وعلم ، هما ابن حزم الظاهرى صاحب كتاب « الفصل فى الملل والنحل » والثانى ابن سنان الخفاجى صاحب « سر الفصاحة » وكلاهما يصرح بأن العرب كانوا قادرين على معارضة القرآن ، والإتيان بمثله ، لكن الله صرفهم عن ذلك ، وهذا عندهما هو وجه الإعجاز وسره ، ولا شى غيره ، فرأيت أن أخص كل واحد منهما بحديث مستقل .

ابن سنان هو أبو محمد عبد الله محمد بن سعيد الخفاجى الشاعر الأديب الشيعى

المتكلم تلميذ العالم الشاعر الفيلسوف أبى العلاء المعرى ، ولعل مما يدل على تشيعه وتفضيله علياً على أبى بكر كما يفهم من قوله :

وقالوا قد تغيرت الليالى وضيعت المنازل والحقوق
وأقسم ما استجد الدهر خلقاً ولا عدوانه إلا عتيق
أليس يرد عن فدك (على) ويملك أكثر الدنيا (عتيق)

وقد شهر الخفاجى بكتابه سر الفصاحة ، وهو من الكتب المعدودة فى البلاغة ، ألفه على طريقة الأدباء ولكن كتابه دون كتب عبد القاهر ، كما شهر بالشعر ، وإن كان شعره فى طبقة متوسطة ، وجيده قليل ، تولى بعض الولايات ، ثم غدر به أمير حلب ، فدس إليه من أصدقائه من سمه فتوفى سنة ٤٦٦ هـ [١] .

ابتدأ فى مقدمة كتابه فذكر أن العلماء مختلفون فى إعجاز القرآن على مذهبين اثنين ، أحدهما أنه خرق العادة بفصاحته ، وجرى ذلك مجرى قلب العصا حية ، والثانى صرف العرب عن المعارضة مع أن فصاحة القرآن كانت فى مقدورهم ، وهو هنا لا يذكر أن الصرف رأيه ، ولا يجادل عنه ، وإنما يمهد بذكر المذهبين ليبين مكان الحاجة على كلا المذهبين إلى معرفة الفصاحة والبلاغة ، ولكنه يبادر فينفى شبهة هى أول ما يتوجه إلى مذهب الصرفة ، ذلك أن المعارضة — فيما يرى[٢] — وقعت فعلا فيرد على ذلك بأن مسيلمة وغيره لم يأت بمعارضة على الحقيقة لأن الكلام الذى أورده خال من الفصاحة التى وقع التحدى بها فى الأسلوب المخصوص ، ويقول أن كتابه سيبين أن فصاحة القرآن كانت من جنس فصاحة العرب .

وعنده أن القرآن فى طبقة كلام العرب من حيث تلاؤم حروفه ، وتلاؤم ألفاظه ، قرر ذلك عندما عنى بالرد على الرمانى فيما ذهب إليه من أن التأليف على ثلاثة أضرب : متنافر ، ومتلائم فى الطبقة الوسطى ، ومتلائم فى الطبقة العليا ،

---

[١] ترجم له ترجمتين مستفيضتين الأستاذان الفاضلان الشيخ محمد كامل الفقى فى مجلة الازهر ، والشيخ عبد المنعم خفاجى فى كتيب خاص .

[٢] كتبت فى مجلة الرسالة بحثا نفيت فيه أن يكون وقع شىء من هذه المعارضات ، وإنما هى من تفكهات الأخباريين .

وأن القرآن كله من النوع الثالث ، ولا يشركه فى ذلك غيره ، فيقول فى الرد : « وهذا الذى ذكره غير صحيح ، والقسمة فاسدة ، وذلك أن التأليف على ضربين متنافر ومتلائم ، وقد يقع فى المتلائم ما بعضه أشد تلاؤما من بعض ، ولا فرق بين القرآن وبين فصيح الكلام فى هذه القضية ، ويصور حجته وجداله ورأيه فى الأمور الآتية :

(١) متى رجع الإنسان إلى نفسه ، وكان معه أدنى معرفة بالتأليف المختار ، وجد فى كلام العرب ما يضاهى القرآن فى تأليفه .

(٢) يحمل على قول الرمانى ، ويعتبره دعوى فاسدة ، ويرى أن الأمر لا يحتاج إلى هذا الابعاد الذى ينفر منه كل من علق من الأدب بشىء ، أو عرف من نقد الكلام طرفا ، وأنه لا يخفى إلا على الأعاجم وأشباه الأعاجم الذين لا يميزون بين جيد الكلام وبهرجه ، وأن هؤلاء يقولون بأذواقهم السقيمة ، ولا يلجأون لأهل الصناعة .

(٣) يصرح هنا برأيه فيقول : وإذا عدنا إلى التحقيق وجدنا وجه إعجاز القرآن صرف العرب عن معارضته بأن سلبوا العلوم التى بها كانوا يتمكنون من المعارضة فى وقت مرامهم ذلك .

(٤) وإذا كان الأمر على هذا فنحن بمعزل عن ادعاء ما ذهب اليه من أن بين تأليف حروف القرآن وبين تأليف غيره من كلام العرب كما بين المتنافر والمتلائم .

(٥) ثم لو ذهبنا إلى أن وجه إعجاز القرآن الفصاحة ، وادعينا أنه أفصح من جميع كلام العرب بدرجة ما بين المعجز والممكن لم نفتقر فى ذلك إلى ادعاء ما ادعاه من مخالفة تأليف حروفه لتأليف الحروف الواقعة فى الفصيح من كلام العرب ، وذلك أنه لم يكن بنفس هذا التأليف ـ فقط ـ فصيحاً ، وإنما الفصاحة لهذا ولغيره .

(٦) أليس التلاؤم معتبراً فى تأليف حروف الكلمة المفردة على ما ذكرناه فيما تقدم ؟ فلا بد من نعم . فيقال له فما عندك فى تأليف كل لفظة من ألفاظ

القرآن بانفرادها ، أهو متلائم فى الطبقة العليا أم فى الطبقة الوسطى ؟ فان قال فى الطبقة العليا ، قيل له : أو ليس هذه اللفظة قد تكلمت بها العرب قبل القرآن وبعده ، ولولا ذلك لم يكن عربيا ، ولا كانت العرب فهمته ، فقد أقررت ـ الآن ـ أن فى كلام العرب ما هو متلائم فى الطبقة العليا ، وهو الألفاظ المفردة ، وإن قال فى الطبقة الوسطى قيل له ، إن مشاركة القرآن لطبقة الفاظهم على هذا الوجه لا تزال أيضاً .

(٧) إذن لا مانع أن يقال إن فى كلامهم المؤلف من الألفاظ ما هو أيضاً مثل القرآن فى تأليفه ، فان علم الناظر بأحدهما كالعلم بالآخر .

(٨) وليس تنازعنا فى كلمة من كلم القرآن وتقول ليس هذا فى الطبقة العليا ، إلا قلنا مثله فى تأليف الألفاظ بعضها مع بعض لأن الدليل على الموضعين واحد .

وهكذا يخلص من هذا النقاش فى تلاؤم الحروف إلى أن أسلوب القرآن وأسلوب فصيح كلام العرب متحدان فى تلاؤم التأليف ، وكل منهما ـ فى هذا ـ فى الطبقة العليا ، وعلى هذا التقعيد يخلص فى نهاية المطاف إلى ما أراد من أن أسلوب القرآن لا يختلف عن أسلوب الفصحاء من العرب ، فمعارضتهم كانت ممكنة لولا الصرفة ، ومعناها عنده على ما نقلنا آنفا أنهم سلبوا العلوم ، ولكى يتضح هذا المعنى نذكر الاحتمالات التى فهمها العلماء من هذا المذهب ، على نحو ما فى كتاب الطراز لابن حمزة العلوى .

الاحتمال الأول : أن الله سلب دواعى العرب إلى المعارضة ، مع أن أسباب توفر الدواعى فى حقهم حاصلة من التقريع بالعجز ، والتكليف بالانقياد ، ومخالفة الأهواء .

الاحتمال الثانى : ان الله سلبهم العلوم التى لا بد منها فى الاتيان بما يشاكل القرآن ، أعم من أن تكون حاصلة لهم فأزيلت عنهم ، أو غير حاصلة لكن الله صرف دواعيهم عن تحصيلها .

الاحتمال الثالث : ان الله منعهم بالالجاء على جهة القسر من المعارضة مع كونهم

قادرين ، وسلب قواهم عن ذلك . والثالث هو المشهور ، والثانى مذهب ابن سنان ، ويظهر أنه مذهب القائلين بالصرفة من الشيعة .

وقد ردد ابن سنان مذهبه مرة أخرى حين جعل يرد على من زعم أن القرآن لا يتفاوت فى الفصاحة وذكر أن من يجعل الإعجاز هو بلوغ الدرجة العليا فى الفصاحة لا يعكر عليه أن يكون بعض القرآن أفصح من بعض ، ثم يقول :

لكن الصحيح أن وجه الإعجاز هو صرف العرب عن معارضته ، وعنده أن هذا هو المذهب المختار ، وعليه - زعم - أهل هذه الصناعة ، وأرباب هذا العلم ، ثم يقول : وقد سطر عليه من الأدلة ما ليس هذا موضع ذكره ، وكنا نتمنى أن نطلع على هذه الأدلة حتى نناقشها على بينة ، لكنه فيما يظهر أودعها كتابه الذى ألفه فى الصرفة ، والذى جاء ذكره فى معجم الأدباء فى ترجمة أبى العلاء المعرى (قرأت بخط عبد الله محمد بن سعيد بن سنان الخفاجى الشاعر فى كتاب له ألفه فى الصرفة زعم فيه أن القرآن لم يخرق العادة بالفصاحة حتى صار معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم ، وأن كل فصيح بليغ قادر على الإتيان بمثله ، ألا إنهم صرفوا عن ذلك . . قال فى تضاعيفه : وقد حمل جماعة من الأدباء قول (بالضم) أصحاب هذا الرأى أنه لا يمكن أحد من المعارضة بعد زمان التحدى ، على أن ينظموا على أسلوب القرآن ، وأظهر ذلك قوم ، وأخفاه آخرون ومما ظهر منه قول أبى العلاء فى بعض كلامه [1] الخ . ثم ساق قطعتين من كلام أبى العلاء .

ولسنا نرى فى كلام ابن سنان هنا ما يجعلنا نؤمن بهذا المذهب ، لأنها دعوى يعوزها الدليل ، وليس أمامنا من الأدلة إلا قوله أن تأليف القران من منهج تأليف كلام العرب فى تلاؤم الألفاظ ، لأن الكلمات المفردة هى كلماتهم ، فلا بد أن تكون الأساليب أساليبهم ، ولا ندرى كيف ذهب عليه أن الكلمات قد تكون واحدة ، ولكن الفصحاء يختلفون فى الصياغة ، ألا ترى قطعة الذهب تكون

---

[١] العبارة فى المعجم ج ٣ ص ١٤٠ ، وهى مغلوطة هناك أثبتناها على هذا الوجه السليم .

فى يد أحد الصاغة صورة رائعة جذابة ، وفى يد آخر بلدية ساذجة ، وهى هى . أما الرد على نفس المذهب ، فموعدنا به حين نفصل ردود العلماء السابقين عليه .

بقى أن نقول أن الخفاجى لم يتأثر بأستاذه فى هذا المذهب ، لأن أبا العلاء لا يقول به ، وبعض العلماء يذكرون أنه عارض القرآن بكتابه (الفصول والغايات) وينفى ذلك الرافعى فى إعجاز القرآن ، وناشر الكتاب فى المقدمة ، وقد ذكر ابن سنان — على ما أرجح — قطعتين ، وهو تلميذ يتحدث عن أستاذه ، فلا يبعد أن يكون أبو العلاء قصد بكتابه هذا أن يكون على نمط القرآن ، دون أن يقصد الاتيان بمثله ، ففهم الناس أنه يقصد المعارضة فقالوا ما قالوا ، وكيف يكون ذلك والكتاب كله فى تمجيد الله وتمديسه ، حتى الفقرات التى ذكروها له ، ونقلها الرافعى جاءت ناقصة ومبدلة ، ويظهر أن ما حذف منه تعمدوا حذفه ، لأنه يبطل دعواهم وهذه الكلمات مما حذف : (شعر النابغة وهذيل ، وغناء الطائر على الفيل ، شهادة بالعظمة لمقيم الميل [1]) . وإذا كان أبو العلاء قصد المعارضة على رأى ابن سنان وياقوت ، فلا يكون قائلا بالصرفة ، على أن موقف أبى العلاء من ابن الراوندى وكتبه شهادة على عقيدة الرجل فى القرآن ، تعرض لكتب ابن الراوندى فى رسالة الغفران ، وسخر منها سخرية بليغة ولم يتعرض لرأى من آراء ابن الراوندى ، ولكنه تناول كتبه جملة ، ألا كلمة قالها فى القرآن ، وقد تعرض له ابن الراوندى فى بعض كتبه فقال : إنه يجد فى كلام أكثم بن صيفى أحسن من إنا أعطيناك الكوثر ، فخصه أبو العلاء بكلمة قوية جاء فيها (وأجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، أن هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، كتاب بهر بالإعجاز ولقى عدوه بالأرجاز ، ما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة أولى الأرب) . والرجل مع ذلك قلق حائر مضطرب ، فلسنا نستبعد أن يكون خضع لبعض ذلك فى بعض أيامه ، أما الذى نجزم به ـ على مبلغ ما اطلعنا عليه من كتبه ـ أنه لا يقول بمذهب الصرفة ، والله الهادى الى سواء الطريق ؟

---

[١] الفصول والغايات جـ ١ ص ٢٥٤ .

على هامش الأخبار

عظة واعتبار ، وزجر وانذار

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير المكتبة الأزهرية

نشرت صحيفة الأهرام بعددها الصادر بتاريخ ١٩٥١/١/٥ خبراً ملخصه « أن فرقة الباليه الراقصة كانت تقوم باستعراض راقص بصالة جامعة فؤاد الأول بمشهد من بعض السفراء والعظماء والطلاب ، فأثارت مناظر الفرقة وحركاتها بعض الطلاب ، فتهجموا على العذارى يحاولون تقبيلهن ، وقد أغمى على بعضهن » ، ونشرت صحيفة أخرى « أن بعضهم قبل فعلا واحدة منهن ذكرت اسمها وصورتها ، وأن مدير الجامعة اعتذر إليها وإلى سفير دولتها » .

هذا هو الخبر بمختلف رواياته ، ولا شك أنه وصمة عار فى جبين مصر ، وفى جبين الجامعة المصرية ، كما لاشك أن السفراء سيقابلونه بما يستحقه من الاستنكار والاستهجان ، لما سيكون له من أثر فى الدوائر المصرية والأجنبية ، العلمية منها وغير العلمية ، وستجنى منه مصر عامة والهيئات الثقافية بوجه خاص أسوأ الثمرات ، وسيصور المصريون من جرائه بصورة البربر المتوحشين الذين لا يقدرون الفن ، ولا يرعون الخلق والتقاليد ، بله الكرامات والأعراض .

والحادث بذاته وبآثاره كارثة فادحة وشر مستطير ، إلا أنه برغم ذلك قد لا يعدم فيه رجل الدين ، والغيور على الحرمات الدينية ناحية من نواحى الخير ، بل قد يبدو له من التفحص فيه أكثر من ناحية من هذه النواحى .

ففى الحادث دلالة بالغة للغافلين والجاهلين على صحة الحكم ، وصواب الحكمة فيما جاء به الدين من تحريم اختلاط الجنسين ، وتحريم عرض مفاتن النساء على الرجال فى أية صورة ولأى غرض ، لخطورة ذلك على الفتاة والأسرة والأمة .

وفيه حجة دامغة على سخف الأحاديث التى طالما سود بها المستهترون وجه الصحف ، وسخروا فيها من أحكام الدين وحكمه فى هذه الناحية ، واتهموها زوراً وضلالا وجهلا بأنها من معوقات نهوض الأمة ، لحرمانها مما فى الاختلاط من تهذيب للأخلاق . . وسمو فى الوجدان والعواطف ، وما إلى ذلك من نظريات فاسدة وأقوال خاطئة ، ونادوا بوجوب التحلل منها لتفيد الأمة مما حرمت منه ، وجعلوا من ذلك قضية لا يملون من معاودة الحديث فيها ، والتغنى بمحاسنها .

أجل فى هـــذا الحادث أوضح دلالة على سمو الحكمة الدينية فى موضوع الاختلاط ، فهو الدليل السافر والبرهان القاطع الذى لا يحتمل شكا أو مماراة تسوقه الأقدار ، لمظاهرة رجال الدين فيما يتحدثون به ويدعون إليه ، وينفقون الوقت والجهد فى طرائق الإقناع به ، وتسوقه الأقدار لتخذل به قوما لدأ حالفوا الشيطان ، واتخذوا من الاستخفاف بالدين وأحكامه وسيلة إلى الشهرة ، وسلما إلى المطامع الدنيئة ، فضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وفى هذا الحادث دلالة على أن الإنسان مع أنه ناطق مفكر ، فهو بطبيعته حيوان يستجيب لداعى حيوانيته وغريزته لأول فرصة ، سيما فى عنفوان الشباب وفوران الغريزة ، وأن ما يدعيه المتحذلقون من أن التهذيب يسمو به عن حيوانيته ويكاد يجره عن طبيعته ويحيل نظرته إلى الوقائع والأمور ، ويلحقه بالملائكة الأطهار والأصفياء الأبرار ، ما هو إلا سفسطة ومغالطة يدحضها الحس والواقع حين تبدو طبيعته سافرة لا تحجبها الظلال والألوان .

وفى هذا الحادث زجر وتأديب لأولئك المسئولين الذين يسمحون لهذه المهازل أن تمثل باسم العلم والفن ويعرضون سمعة الأمة للتشويه والتشنيع ، ويصورونها

بل ويصورون خاصتها ومتعلميها والشبيبة المرجاة لمستقبلها فى صورة حمر الفلوات ووحوش الأدغال فى وقت كنا نرجى فيه لمصر من وراء الاحتفالات العامة دعاية طيبة وسمعة كريمة ، وتنفق فى سبيل ذلك ما لا يقدر من الجهد والمال .

ولعمر الحق ما ينبغى أن يكتفى فى تأديب أولئك بهذا الزجر الأدبى وما باءوا به من الخزى والعار ، ولكن وجه الصواب فى مؤاخذتهم ، وسبيل الحزم والصرامة معهم ، أن نقدمهم إلى المحاكمة بتهمة تعريض سمعة الأمة وكرامتها لمثل ما تعرضت له من تشويه وتشنيع وافتضاح .

وفى هذا الحادث أخيراً نذير لأولياء أمور الفتيات والقوامين عليهن ، بأن لا تخدعهم زخارف القول فى استحسان تحرر الفتيات وتحللهن من أحكام الدين وتماليد الشرق الكريمة باسم الرقى والتجديد ، وإباحة اختلاطهن بالرجال فى المنازل والملاهى .

ولا يخدعهم ما ينعب به المجددون من أن الحجاب أثر من آثار الاستبداد والأثرة وتحكم الرجل فى المرأة وحكم من أحكام الدين القاسية ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، فما هو إلا مرحمة من مراحم الدين ، وما هو إلا حكمة سامية فى أن تكون الفتيات كما أراد الله لهن من التصون والعفاف والبعد عن أعين الغرباء وقلوبهم ، والسمو بهن عن أحاديث السوء والبهتان ، ليكن كالجواهر الكريمة يزيدها الاغتراب حباً إلى النفوس وإغراء بالتطلع إليها والمغالاة فى المحافظة عليها :

وزاده كلفاً بالحب أن منعت ... وحب شىء إلى الإنسان ما منعا

هذه كلمات أوحى إلى هذا الخبر بكتابتها ، وفى النفس أشياء وأشياء ، وعسى أن يكون فى تلك الكلمات خير فيصدق ما يقال :

« يأتى الخير أحياناً من طريق الشر » .

مصر والسودان

لحضرة الأستاذ عبد المنعم الشيخ
مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

عرضنا فى العـدد السابق من هذه المجلة ، للرباط التاريخى الجامع بين مصر والسودان . والآن نتابع بسطنا لهذا الموضوع ، موضحين بقية الروابط التى تقوى دعائم الوحدة ، وتشد من أزر الداعين إليها ، العاملين على تحقيقها ، وتوهن دعوة الباطل ، وتسكت صوت الجور والطغيان .

فمن الوجهة الجغرافية ، تعتبر مصر والسودان ، وطناً واحداً ، ويقسم هـذا الوطن الواحد ، إلى عـدة أوطان محلية ، يمثل كل منها إقليما جغرافياً صغيراً ، كان له دوره الخاص فى نشأة المدنية وتطورها . ومن تلك الأقاليم جميعاً ، يتكون ذلك الوطن الواحد ، مصر والسودان ، الذى يربط نهر النيل بين أجزائه ، بحيث يتمم بعضها بعضاً . ويحسن أن نشير فى هذا الصدد ، إلى أنواع الحدود الكثيرة : فهناك الحدود السياسية بصورتها المعروفة ، ثم الحدود الحيوية ، التى تشمل المصالح الضرورية ، كتلك التى ترتبط بها حياة مصر ، وهذه تمتد إلى معظم جهات حوض النيل ، لا سيما السودان والحبشة ، اللتين يأتى عن طريقهما ماء الفيضان والغرين ، الذى يغذى الأرض ، ويجدد الخصب ، وكذلك الهضبة الاستوائية ، التى تمد مصر بالمياه فى انتظام طول العام ، فتعوض من ذبذبة الفيضان الحبشى ، الذى يقتصر على جزء محدد من السنة . وهناك الحدود الثقافية والبشرية العامة ، التى تشمل تلك الأراضى التى تربطها بمصر التاريخية ، روابط قوية من الثقافة المتبادلة ومن مختلف النواحى البشرية العامة ، وهذه تشمل السودان الشمالى ، وبقية شمال أفريقية وهناك كذلك الحدود العسكرية ، التى ترتبط بشئون الدفاع عن مصر ، وتشمل الصحارى المجاورة ، وتمتد إلى ما وراء الحدود السياسية من ناحية الجنوب ، على أننا إذا جمعنا بين الناحيتين الحيوية والبشرية العامة ، فإننا نصل إلى أن حوض

النيل الأوسط والأدنى فى شمال السودان ووسطه وفى مصر يكوّن وطناً واحداً متماسك الأجزاء.

أما من الناحية الثقافية، فإن مصر ترتبط بالسودان، بروابط ثقافية، تزيد الألفة بينهما، ولعل هذه الرابطة حالياً، وما نتمناه لها من الازدهار والنماء، تكون من أقوى العوامل، التى تؤازر فكرة التوحيد، وتعمل على إيقاظها، فى جو من نور العرفان، وتقدير حقائق الأمور.. وسآتى الآن على مختلف الوسائل الثقافية التى تنشرها مصر فى السودان، ولكن فى شىء من الايجاز: فهناك كلية الأقباط بالخرطوم، وطلبتها خليط من المصريين والسودانيين، وبها أقسام ثلاث، روضة وابتدائى وثانوى، وتعينها وزارة المعارف المصرية، بما تقدمه لها من مدرسين ومختلف المساعدات، كما أزمعت وزارة المعارف المصرية، إنشاء مدرسة ثانوية حكومية بالخرطوم، ولكن الاعتماد اللازم لها حذف من ميزانية ١٩٣٩/٤٠ بسبب نشوب الحرب.

وتعمل وزارة المعارف المصرية جاهدة على تيسير العلم لأبناء الجنوب، فخفضت لهم أجور السفر ليسهل انتقالهم إلى الشمال، ليعبوا من مناهله العذبة. كما أخذت ترسل إلى السودان بعض الأفلام التثقيفية المصرية، وعملت كذلك على إنشاء محطة للأذاعة المصرية هناك. ولوزارة الشئون الاجتماعية لجنة فرعية ضمن لجنة السودان الدائمة، وذلك لتنظيم الجهود الاجتماعية والخيرية، لمساعدة إخواننا السودانيين فى الملمات. ويحسن أن تعرف أن لنادى الصيد الملكى فرع بالسودان. وهناك وسائل كثيرة لزيادة الربط بين الشقين، أمرها هين ميسور معروف، لمن يريد أن يخطو خطوات موفقة فى هذا السبيل.

وترتبط مصر بالسودان، بروابط اقتصادية متينة، فمن السودان تستورد مصر الأغنام والمواشى وجلود الماشية غير المدبوغة، والسمن والأسماك المملحة، والذرة العويجة والفول السودانى، والسمسم والفاصولياء، والحمص والباذلاء، ولب البطيخ والبلح. أما مصر فتصدر إلى السودان السكر والمنسوجات، وخاصة المنسوجات القطنية المصبوغة بعد النسيج والمنسوجات القطنية المخلوطة بالحرير الصناعى، ومنسوجات الحرير الطبيعى، ومنسوجات الحرير الصناعى، وتصدر مصر كذلك

إلى السودان الدخان والسجاير والتمباك والسيجار ، والأسمنت والصابون ، والفواكه الطازجة ، والحلوى والمربات المحفوظة ، والأرز والأحذية الجلدية ، والمصنوعة من القماش والمطاط .

ولكن يجب أن نقرر أنه ما زالت هنالك بعض العقبات فى طريق صادرات مصر إلى السودان ومن ذلك ارتفاع أجور نقل المنتجات المصرية على السكك الحديدية السودانية ، كما انعدمت الدعاية المصرية للمنتجات فى أسواق السودان ، ويدخل فى ذلك أيضاً شدة المنافسة اليابانية للمنتجات المصرية ، وفساد النظام الجمركى فى السودان ، ذلك النظام الذى لا يحمى المنتجات المصرية من الواردات الأجنبية ، أضف على ذلك السمعة السيئة ، التى أوجدها الوسطاء بتصرفاتهم غير المشروعة .

وأما عن الرباط القومى والسياسى ، فيبدو أن فكرة التوحيد بين الشطرين ، قد نبتت أولا فى الوطن المصرى المتحضر ، الذى أدرك كنه هذه العلاقة ، فسير الجيوش لضم الشطر الشقيق ، أما فكرة الضم هذه فقد نبتت فى أذهان السودانيين لما مستهم الحضارة والمدنية ، وحل بواديهم نور العرفان ، واعتقدوا ، كما اعتقد أشقاؤهم ، فى الشمال ، أن لا حياة لمصر بدون السودان ، ولا حياة للسودان بدون مصر ، فتكونت عندهم الأحزاب السياسية التى تدعو إلى ذلك ، وتعمل جاهدة لبلوغ هذه الغاية المحببة .

ولكن لما طغت الموجة الاستعمارية على القارة الإفريقية ، ووقعت مصر والسودان فى أرجل الأخطبوط الإنجليزى ، ظهر فى الأفق ما يمكن أن نسميه بالمسألة السودانية المصرية ، لأن الذى كانت تستطيع مصر تحقيقه بقوة الجيش والعتاد ، أضحت تلجأ إليه سياسيا عن طريق المفاوضة والمحادثات . وهى إذا كانت مع الإنجليز دهاة السياسة ، وقراصنة الاستعمار ، أضحت الآمال من ورائها سرابا خداعا ، يقتل المغتر فيه !!

وسأتناول فى هذه العجالة أبرز مشكلة فى تاريخ علاقاتنا بالانجليز ، خاصة بالسودان ، وهى اتفاقية ١٨٩٩ ، والحكم الثنائى فى السودان ، وهى الاتفاقية ، التى بح صوتنا فى المطالبة بالغائها . وتبتدىء هذه الاتفاقية بعرض حيثياتها ومقتضياتها ، فتقول بما أن بعض الأقاليم السودانية قد خرجت عن طاعة الخديوى ،

وأعيد فتحها بالجهود الحربية والمالية المشتركة بين مصر وانجلترا ، فقد أصبح لزاماً ، أن تشترك الدولتان ، بحق الفتح ، فى وضع النظام الادارى والقانونى للسودان . ولست أبغى هنا سرداً لنصوص هذه الاتفاقية ، وإنما أكتفى بتفنيد دعوى الانجليز فى تمسكهم بها بحجة الفتح المشترك ، وفى ذلك يقول رجال القانون المصريون ، إن الحكومة المصرية قد أكرهت على إخلاء السودان ، وإن الخديو بمقتضى الفرامانات الشاهانية ، لايملك حق النزول عن أرض مصرية أو تابعة لمصر ، وفوق ذلك فالفرامانات التركية تحرم على الخديو إبرام اتفاقيات سياسية ، وانجلترا إحدى الدول المعترفة بهذه الفرامانات ، وكذلك لم يقترن الاتفاق بملكية السلطان العثمانى للسودان ، وهو ملك له ، كما أن مصر كانت تابعة للسيادة التركية .

وعليه فاتفاقية عام ١٨٨٩ ، لا تربط مصر ، من الوجهة القانونية الدولية ، أضف إلى ذلك ؛ أن عبء فتح السودان ، وقع أكثره على عاتق مصر ، حيث لم تشترك انجلترا فيه ، إلا ببضع مئين . ثم إن مساعدة الحامية الانجليزية لمصر فى هذا الفتح ، يعتبر من باب مساعدة الوصى لمحجوره فى رد جزء من أملاكه ، فقد بسبب سوء تصرفاته . وسوف لا أعرض لتاريخ النضال بين انجلترا ومصر ، من أجل السودان ، منذ بدء الحركة الوطنيـة وقبلها ، لأن ذلك يحتاج بحوثاً مستفيضة ، يضيق بها الوقت ، والمهم هو أن نعلم ، أن قادة الشعب المصرى ، لا يفتأون يقطعون المفاوضات ، ويتعرضون لوطأة النفى والحرمان ، ضناً منهم بالتفريط فى قضية ، هى الحياة لكلا الشطرين ، ويناصر قادة الشعب المصرى فى الشمال ، قادة الشعب السودانى وزعماؤه المستنيرون فى الجنوب ، ذلك لأنهم يدركون أن الاتحاد ، ليس فى أى صورة من صوره ، استعماراً أو تسلطاً ، وإنما هو اتحاد المصالح المشتركة والعواطف المتبادلة .

أما عن الرباط الجنسى واللغوى والدينى ، فنحن قد علمنا ، مما سلف فى العدد الفائت ، أن سكان السودان ينتمون إلى أصول كثيرة ، منها الزنوج ، والبجة ، والنوبة والمولدون ، والمهاجرون والعرب ، وجلهم يقطن إقليم النوبة ، ولغتهم هى العربية ، ودينهم هو الإسلام ، وعلى ذلك نرى أن السودانيين تربطهم بالمصريين ، رابطة الدم واللغة والدين .

وختاماً لموضوعنا هـذا يحسن أن نورد بعض التصريحات التى أجراها الحق

والعدل على ألسنة بعض ساسة الإنجليز ، ولكن هذه التصريحات ، لا تكاد تخرج من أفواههم ، حتى تذيبها حرارة جشعهم الاستعمارى ، وتتلاشى أمام الحقيقة المسيطرة المسيرة لسياسة الدول الاستعمارية ، وهى أن المبادىء الفلسفية ، والتوكيدات والمواثيق النظرية ، التى ينادى بها ، ساسة الدول ، إبان المحن والكروب ، لا يمكن أن تخرج إلى عالم الواقع ، إذا عاد السلام مرة أخرى ! ! قال اللورد « سالسبورى » لسفير فرنسا فى ١٢ أكتوبر سنة ١٨٩٦ « إنى متمسك على وجه العموم بهذا الرأى - ذلك أن وادى النيل ، كان وما زال ولن يزال ملكا لمصر ، وإن كل مانع أو انتقاص ألم بحقوق هذه الملكية ، ومن جراء فتح أو احتلال المهدى قد زال وتلاشى بحكم انتصار الجيش الإنجليزى المصرى » . وخطب اللورد « روسبرى » فى مدينة « أبسون » بتاريخ ١٢ أكتوبر عام ١٨٩٨ فقال « لكى نقرر حقوق مصر على فاشودة ، بطريقة حاسمة ، قد كفانا أن نذكر الحكومة الفرنسية بأقوالها فى السنين الأخيرة ، وذلك باستعارة أقوال « المسيو دكريه » و « كوريسل » و « هانوتو » « نحن على وشك أن نرد لمصر ، ما هو من أرضها ، وذلك حسب التصريحات التى فاهت بها الحكومة المصرية » وهذا أمر جلى واضح ، حتى إنه ليشق على أن أصدق ، أنه فى الإمكان العثور على شىء ينافيه » . وكتب « اللورد كرومر » ، فى تقريره عن عام ١٩٠١ « وليس الغرض من عقد اتفاقية عام ١٨٩٩ حرمان مصر من حقوقها فى السودان ، بل تزويده بحكومة صالحة ، والتخلص من العقبات التى تلقاها ، فى مسألة الامتيازات » . وكتب اللورد كمبرلى فى ٤ إبريل عام ١٨٩٥ إلى « اللورد دوفرين » « إذا كانت مصر تسترد السودان ، الذى كانت تحتله فى المدة السالفة ، فمن الواجب علينا ، أن نعترف بحقها فى امتلاكه » . واعترف « اللورد كرومر » فى تقريره عام ١٩٠١ ، بمشروعية الملاحظات ، التى أبداها فى مجلس الشورى ، عند الاقتراح على الميزانية الخاصة بالسودان ، فقد قرر فيها المجلس « أن السودان ، جزء متمم لمصر » .

تلك هى التصريحات والمكاتبات النظرية ، لكبار الانجليز فى المسألة المصرية السودانية . فأين نحن منها فى عالم الواقع ؟ ! ويمكن أن نلمح طابع الدهاء فى السياسة الانجليزية ، عندما نعلم ، أنه بعـــد أن أعيد فتح السودان ، عينت الحكومة

السودانية ، مرتبات لأبناء المهدى وخلفائه وزعماء المهدوية ، وعينتهم فى كثير من الوظائف ، وعملت أبناءهم بالمجان .

أما اهتمام ملوك مصر والزعماء فيها بأمر السودان فشىء غنى عن البيان ، وليست استقالة شريف باشا فى أواخر عام ١٨٨٣ ، من أجل السودان ، بالأمر الذى يغيب عن الأذهان ، وليست تغيب عن الأذهان كذلك ، مذكرة رياض باشا إلى السير « إفلن بارنج » فى ٩ ديسمبر عام ١٨٨٧ ، وهى بشأن السودان ، وقد جاء فيها « لا ينازع إنسان فى أن النيل ، هو حياة مصر ، وهذا أمر واضح جلى ، لا يختلف فيه إثنان . إذاً النيل هو السودان ، ولا يرتاب أحد ، فى أن العلائق التى تربطهما لا انفكاك لها ، وهى أشبه شىء بعلاقة الروح بالجسد ، فإذا استولت دولة ما على ضفاف النيل ، فعلى مصر العفاء ، ويعلم من ذلك أن حكومة سمو الخديو لا يمكن أن تقبل بمحض رضاها واختيارها ، وبدون أن تكره على ذلك تعدياً كهذا على وجودها وحياتها » وليس أدل على بالغ عنايتنا بشئون الجنوب ، من تشكيل محمود سامى باشا البارودى وزارة للسودان . وقد جاء فى مشروع الدستور الذى وضعته لجنة الدستور فى عهد وزارة عبد الخالق ثروت باشا عام ١٩٢٢ بشأن السودان : (مادة ٢٩) الملك يلقب بملك مصر (مادة ١٤٥) تجرى أحكام هذا الدستور على المملكة المصرية جميعها عدا السودان ، فمع أنه جزء متمم لها ، يقرر نظام الحكم فيه بقانون خاص .

ولقد استقالت وزارة ثروت باشا ومن بعدها وزارة نسيم باشا بسبب معارضة الحكومة الإنجليزية لهذين النصين ، وجاءت من بعدهما وزارة يحيى إبراهيم باشا فى ١٥ مارس عام ١٩٢٣ ، فرفعت كلمة السودان ، حتى يقرر أمره نهائيا بواسطة المفاوضات ، ثم عدلت أيضا فى المادة (١٤٥) بأن قالت « إن حذف كلمة : السودان جزء من مصر ، لا تمس ما لمصر من الحقوق فى السودان . وصدر الدستور على هذا الأساس فى ١٩ إبريل عام ١٩٢٣ .

وعلى هذا نرى أن فكرة إندماج شمال الوادى مع جنوبه ، فكرة مختلطة باللحم والدم ، وعقيدة راسخة فى قلوب المواطنين جميعاً ، سودانيين ومصريين ، وسوف لا يتحولون عنها ، ولو مزجوا ماء النيل ، بالدماء تتدفق مع تياره الى الشمال ، ويضوع عبيرها مع نسماته الى الجنوب ! !

ضبط النفس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ العام بالأزهر

كل بنى الإنسان فى هذه الحياة ، بين تصاريفها المختلفة ، وأوضاعها المتباينة ، متقلبون فى سراء وضراء ، تتقاذفهم منح ومحن ، وتتجاذبهم قوى الخير والشر ، والنعماء والبأساء .

والكيس الفطن هو الذى يلقى الأحداث على ما فيها من شدة وحدة بأناة ، وصبر ، وضبط للنفس ، واعتصام بالسكينة يهديه إليها عقله المتبصر ، وقلبه المستنير ، ويمسكه بها دينه الذى يبشره فى دنياه وأخراه بالحسنيين ، ويظفره بفضل الله ، وحمد الناس .

ضبط النفس حين تقرعها سفاهة السفهاء ، ارتفاع بها عن هذا الدرك البغيض ، وسمو لها فى حالق المجد ، وسماوات الجلال .

وضبط النفس فى ملاقاة أحداث الدهر ، جلادة تنشط العزيمة ، وتقوى الشكيمة ، وتنبىء عن الثقة بالله والرضا بقضاء الله .

وضبط النفس فى تحمل أعباء الحياة ، والقيام على شئونها فى تعامل واختلاط ، وتربية ، أجل أثراً ، وأعظم خطراً ، ففيه الأسوة الطيبة ، والعزة الغالبة ، والترويض الحكيم فى شئون الأسرة ، يلزمنا ضبط النفس ، فإذا اختلف الزوجان فى أمر صغير أو كبير ، وقام ضبط النفس ليسد على هذا الخلاف منفذه إلى الشر المستطير ، مرت العاصفة بسلام وهدأ الزوجان إلى حسن التفاهم ، وحكم العقل ، وسداد التفكير .

وإذا اختلف الولد مع أبيه ، أو الأخ مع أخيه ، وأخذت الروية تحيط المختلفين بسكينتها ، وبصيرتها ، واستمع كل مخالف إلى نذير الفرقة ، وتشتيت الأسرة ،

ينعق بين هـذا الخلاف ، فأقبل فى اشفاق ، وحب ، يمطع حبل هذا الشقاق ، ويصل ما كان من مودة ، وطاعة ، وألفة ، إذن : لكان لضبط النفس فى الأسرة سبيل إلى العزة ، والسعادة والائتلاف .

وفى شئون التربية والتعليم يلزمنا ضبط النفس فالأستاذ ـ لا ريب ـ يرى من جموح طلابه ـ فى شبابهم ـ ومن نزواتهم ، ونزغاتهم ، ما لو برم بهـا ، ويئس من علاجها ، لاستفحلت ، واستعظمت ، وهنا فى ضبط النفس ، وأخـذ الأمور بالحـكمة ، والحنكة وحسن التوجيـه ، ما يرجى معه ، فى حسن الاستـعداد من الطلاب ، استكمال غايتهم ، وارتقاب ظفرهم ، ودوام الحب ، والتقدير ، وحسن الرعاية .

وضبط النفس فى التعامل بين الناس ، تفويت للقصد السىء من المسىء ، وكسر من حدة الشر المعتدى ، وتضييق من هوة الخلاف ، حتى يرأب الصدع ، ويسكن الثائر ، ويهدأ الخاطر

ذكروا أن رجلا شتم الشعبى ، فقال الشعبى له : « ان كنت كما قلتَ فغفر الله لى وان لم أكن كما قلتَ فغفر الله لك » .

وقسم معاوية رضى الله عنه قُطُفا ، فأعطى شيخا من أهل دمشق قطيفة منها ، فلم تعجبه ، فحلف أن يضرب بها رأس معاوية ، فأتاه ، فأخبره . . فقال له معاوية : أوف بنذرك وليرفق الشيخ بالشيخ . . .

وما أجمل ما ينطق القرآن الحـكيم : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » .

ولقد جاء هذا الدين الحنيف ـــ دين الإسلام ـــ مبيناً شرف الغاية ، وجمال القصد ، فى ضبط النفس قال عز شأنه « ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور » .

كما جاء مبيناً للأثر السىء والخطر الجسيم ، فى ثورة النفس ، وانطلاق شيطانها يعيث فساداً ، ويقوض وداداً ، ويقطع الأمن والأمان .

روى الأمام مسلم عن جابر رضى الله عنـه قال : اقتتل غلامان ، غلام من المهاجرين ، وغلام من الأنصار ، فنادى المهاجر أو المهاجرون ياللمهاجرين ، ونادى

الأنصارى : ياللأنصار ؟ فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « ما هـذا ؟ ؟ دعوى أهل الجاهليه ... قالوا لا يا رسول الله ألا إن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر . قال . فلا بأس ، ولينصر الرجل أخاه ظالماً أو مظلوماً ، إن كان ظالماً فلينهه فإنه له نصر ، وإن كان مظلوماً فلينصره .

وروى البخارى ومسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » .

وقد حكى عن الأحنف بن قيس أنه قال ما عادانى أحـــد قط إلا أخذت فى أمره بإحدى ثلاث خصال ... إن كان أعلى منى عرفت له قدره ، وإن كان دونى رفعت قدرى عنه ، وإن كان نظيرى تفضلت عليه .

وقال الشاعر :

سألزم نفسى الصفح عن كل مذنب ... وإن كثرت منـــه إلى الجرائم
فما الناس إلا واحـــد من ثلاثة ... شريف ، ومشروف ، ومثل مقاوم
فأما الذى فوقى فأعرف قدره ... واتبع فيه الحق ، والحق لازم .
وأما الذى دونى فاحـــلم دائبا ... أصون به عرضى وإن لام لائم
وأما الذى مثلى فإن زل أو هفا ... تفضلت : إن الفضل بالفخر حاكم

* * *

وبعد : فإن نحن أهبنا بالناس جميعا ، على اختلاف أجناسهم ومراتبهم ، رجالهم ونسائهم ، شبابهم وشيوخهم ، صناعهم وزراعهم وتجارهم ، وأصحاب الأعمال ، وأرباب الوظائف ، والرؤساء والمرؤسين والحكام والمحكومين أن اضبطوا أنفسكم ، واكظموا غيظكم . وأيقظوا عاطفة الصفح والحلم والأناة ، فإن القرآن الكريم قد نادى بذلك المبدأ السامى النبيل « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » .

وأن السنة المطهرة قد أبرزته واضحا ناصعا فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« ليس الشديد بالصُّرَعة ، إنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب » .

الا : ولمثل هذا فليعمل العاملون ، والله الموفق .. والمستعان ؟

تعدد الزوجات

للأستاذ ابراهيم عمار
المراقب بالأزهر

هذه نثرات عما فى حياتنا من عيوب ، أردت من تصويرها أن أضع العلاج لها رجاء أن نقلع عنها ، إن لم يكن استجابة لنـــداء الدين ، فإجابة لداعى الوطنية ، وحرصا على النفوس من التدهور والسقوط .

يعتبر الدين الإسلامى الزوجة الدعامة الأولى فى بناء حياة الأسرة والخلية التى يتكون منها جسم الأمة ويقوم عليها صرح الدول ومجد الشعوب .

ويحرص على أن تكون هذه الخلية سليمة منيعة قوية لتنتج نسلا كثيراً منيعا قويا ، وبذلك يكثر سواد المسلمين ؛ وتتحقق فكرة الإسلام من عمارة الأرض ونماء الثروة ، وازدهار الحضارة ، وتقدم العلوم والفنون ، وأن يكون النـاس كلهم إخوانا متساوين يسودهم القانون ، وتخفق على الرءوس ألوية الحق والعدالة والحرية والمساواة .

فتراه قد تعهـــدها فى جميع مراحلها برعايته وعطفه وأحاطها بسياج من الضمانات القوية ، وطائفة من النظم القويمة ، ومكن لها فى بيتهـا ، وجعلها حفيظة على ما فيه من مال وبنين .

وحسبى فى التدليل على هذا سلوك النبى صلى الله عليه وسلم مع زوجه خديجة رضى الله عنها : فلم يعرف عنه أنه وقف منها موقفا لا ترضاه ، ولم يحفظ لنا التاريخ « على طول ما حفظ من مراحل حياته دقيقها وجليلها هينها وعظيمها » أنه آلمها او آذاها او تركها تبيت ليلة واحدة على غير تمجيده كزوج وكأب يرعى ابناءه ويتعهدهم ويكفل لهم الهناءة والإسعاد .

وغاية الإسلام من الزواج بينة واضحة صريحة كما جاء فى القرآن الكريم :

ومن آياته « أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعـــل بينكم مودة ورحمة » .

فأى تواد ورحمة عند قوم تتعدد فى بيوتهم الزوجة ، وكيف يسكن الزوج لزوجه والزوجة لزوجها وهم يبيتون على عداء ؟

إن البيت الذى يضم بين جدرانه أولاداً ليسوا أشقاء ، لهو بيتٌ يُضنيه الحقد ويُرديه الغل ، وتقضى عليه الأطماع ، وتهلكه المنازعات .

وإن الولد الذى ينشأ فى أحضان هذا البيت ، لهو ولدٌ قد قدّ قلبه من صخر وحِيك ضميرُه من قسوة ، لا يعرف حبا ولا رحمة ، يُنكر حق الأخوة ، ويجهل ما لها من قداسة ، ولا يكن فى نفسه غير الجشع والطمع ، واستلاب مال أخوته الباقين ، قد انطوت نفسه على الحقد ، فلا ينفع فيه نصح ولا إرشاد ، وتربى على الغل ، فلا يشفى ما بنفسه إلا أن يبتلعهم : حتى ومالهم ، وأحيانا حياتهم ، وبذلك يصبح البيتُ جحيما أو كالجحيم .

وإن المجتمع الذى يتكون من مثل هذا النشء ، لهو مجتمعٌ عليلٌ هزيل ، قد أصابه التفكك والانحلال ، ليس له غاية مرسومةٌ ، ولا مثل أعلى يسعى للوصول إليه ، بل لا هدف له من الحياة سوى أن يغتنى ، بأية طريقة يكون الغنى ، وأن يأكل كيف يكون الأكل ، لا يعتمد عليه فى حرب أو سلم ، لأنه فقد روحانية الحياة فى أيامه الأولى ، وليس بعائد إليها إلا بمعجزة ، ومن الأسف أن فات زمن المعجزات .

ومن العجب أن الدين ينادى ولا استماع ، والتاريخ يحدث ويطيل ، ولا وعى ولا اعتبار ، والعظات تقرع الأسماع كل يوم ، ولا ازدجار !

أما الدينُ ، فهذه غاية من الزواج قد عرفناها ، ولكن خالفناها ، ولم نصغ إلى قوله تعالى « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » ولا لقوله : « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم » . بل أطلقنا لنفوسنا وشهواتنا ونزعاتنا العقال ، وعددنا من الزوجات ، فلم نصل إلى النتيجة التى أرادها الله بقوله : « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

وأما التاريخ فيحدث أن أهم المعاول فى هدم الدولة العباسية ، وزوالها من

الوجود ، هو ذلك الصراعُ العنيف ، والحرب الدامية التى نشبت بين الأمين وأخيه المأمون . . . ولو أنهما كانا من أم واحدة ، لما كانت الحرب ، ولما انتهت إلى هذه النهاية المفجعة ، ولما وجدت نيرانُ المطامع ـ بعد ذلك ـ وقوداً لها تشعله كلما هيئت الفرص ، ومهد السبيل .

ومن الغريب المخجل أن يعلم الناس هذا ، ثم لا يتحاشونه ، بل يقبلون عليه ، ويأخذون بأسبابه ، فأولوا الأمر يعددون من زوجاتهم ، وتتعدد أولادهم تبعا لذلك ، ثم ينتهجون نفس الخطة التى أودت بمن سبقهم .

والناس أيضاً يقلدون ويكثرون من الزواج ويعددون ويلدون ، ويملأون البيت عيالا مختلفى الأجناس والألوان ، فينشأون ولا رابطة بينهم بل بالعكس كل منهم عدو لأخيه ، الآخر يتحين الفرص لاستلابه أو لاغتياله ، فيعيش كل منهم على حذر من أخيه لا تهدأ نفسه ، ولا يطمئن باله ، ولا يقر له قرار . . وكل واحد قد رضع من أمه كره أخيه وعدم حب الخير له ، فنفسه متوثبة على افتراس ماله أو شخصه أحيانا .

إذن فنفوسهم غير قارة ولا هادئه ولا مطمئنة : وأى نفس هذه حالها لا تنتج ، وإذا أنتجت فنتاجها مضطرب غير مرتكز على أساس من تفكير ومران واتزان .

أعرف أسرا كثيرة منيت بهذا المرض وأعرف فى نفس بنيها هذا الخلل والانحلال والانحطاط ؛ ومن الغريب أن هذا مضطرد لم يخطىء مرة .

ومن الناس من يفر من لوثة تعدد الزوجات ويطيع شهواته وهواه ونوازع الشر فيه فيلجأ إلى عش يسمى فى عرفهم « جرسونيرا » يزاول فيه إثمه ويهتك أعراض المجتمع .

ولو عرف هؤلاء الناس مقدار تأثير هذا فى نفوس زوجاتهم وأبنائهم وضرره على كرامة أوطانهم وسمعة أديانهم ما فعلوه .

نعم أباح الاسلام مبدأ تعـــدد الزوجات ولكنه لم يبحه مسايرة للشهوات البهيمية ولكن رأبا لصدوع الاجتماع من هذه الناحية ، فكثيراً ما تدعو إليه الحاجة وتستقيم به المصلحة وتحفظ به الكرامة .

فيجب على من يقدم عليه أن يلاحظ هذه الناحية من الشريعة السمحة وأن لا يتخذ من السماح به تكأة لاشباع شهواته والانقياد لأهوائه .

البريد في الإسلام

التنظيم الادارى فى الدولة الاسلامية

للأستاذ هاشم محمد ابراهيم
المدرس بمعهد القاهرة

نظام البريد نظام قديم يرجع إلى زمن الأمويين - بل إن الدولة العربية ورثت هذا النظام عن الدولة البيزنطية والفارسية .

فالبريد إذن ليست كلمة عربية إنما كلمة لاتينية مأخوذة من Veradus أى الدابة التى يركبها العامل ثم نقلت مجازاً إلى المسافة المقطوعة ثم استعملت إسماً للنظام كله .

وذهب آخرون إلى أنه فارسى معرب ، فأصله بالفارسية (بريده دم) ومعناه مقصوص الذنب وذلك لأن الفرس كانوا يقصون ذنب بغل البريد ليمتاز عن غيره من الدواب الأخرى وكان يطلق البريد على الرسول .

والبريد فى الاصطلاح : هو أن يجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل فى المكان الآخر حتى يصل بسرعة .

أما معناه اللغوى : فهو مسافة معلومة مقـــدرة باثنى عشر ميلا (الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠١) .

ويقال إن أول من وضع البريد فى الإسلام معاوية بن أبى سفيان الذى أخذه عن الروم أثناء حكمه فى الشام وقد اهتم عبد الملك بن مروان بهـذا النظام فأدخل عليه عدة تحسينات فأصبح أداة هامة فى إدارة شئون الدولة الأموية ، وقد أثر عن عبد الملك أنه قال لأحد رجاله : ولّيتك ما حضر بابى إلا أربعة : المؤذن ، فإنه

داعى الله تعالى فلا حجاب عليه . وطارق الليل ، فشر ما أتى به ولو وجد خيرا لنام ، والبريد فمتى جاء من ليل أو نهار فلا تحجبه فربما أفسد على القوم سنة حبسهم البريد ساعة . والطعام إذا أدرك ، فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول (القلقشندى ج ١٤ ص ٣٦٧) كذلك أنشأ عمر بن عبد العزيز حانات ينام فيها الناس وأحواض للشرب .

وفى عهد العباسيين ازدادت العناية بنظام البريد ، فبلغ هـــذا النظام غاية كماله أيام الرشيد والمهدى ، وكانت بغـداد — عاصمة العباسيين — تتشعب منها الطرق فى كل الجهات ، وبلغ عدد الطرق التى تخرج من بغـداد ٩٣٠ طريقا مثل الطرق الرومانية التى كانت قديماً متصلة بروما — فكل الطرق تؤدى إلى روما — وهذا الوصف أيضاً يصدق على بغداد ، فكانت هناك طرق رئيسية وطرق فرعية أيضا فالطريق الرئيسى الأعظم هو الذى يخرج من بغداد إلى خراسان ويسير إلى حدود الصين ، وهذا الطريق طويل جداً يشق الدولة الفارسية من الشرق والغرب ، ومن الغريب أن هذا الطريق لا يزال يسلك إيران ، وهناك طرق أخرى من بغداد إلى الأقاليم الشرقية والجنوبية والغربية : فمن بغـد د إلى الحجاز لتسهيل أداء فريضة الحج عن طريق الكوفة إلى الصحراء العربية إلى مكة والمدينة ، ثم طريق شمالى من بغداد إلى الموصل ، ثم طريق شمالى غربى من بغـداد إلى الأنبار ثم يعبر الشام والثغور — وطريق آخر من الشام إلى مصر إلى بلاد المغرب ، وهـــذه الطرق الرئيسية تتشعب منها طرق صغيرة لا حصر لها .

فنظام البريد إذن رغم أنه كان مشتقا من البريد البيزنطى والفارسى إلا أنه عنى به عناية شديدة ويرجع ذلك إلى عاملين اساسيين :

وهما : الحج ومراكب التجارة أو الاتصال البرى بين بغداد وأطراف الدولة العباسية ، لذلك كان هذا النظام مهما فى النواحى الدينية والاقتصادية والسياسية .

ويقال إن ميزانية البريد فى عهد العباسيين بلغت نحو ١٦٠ الف دينار ، وكان للبريد ديوان كبير فى بغداد وكان هـذا النظام نظاماً رسمياً خاصا بأعمال الدولة ، وليس لنقل مراسلات الجمهور ، فكانت الدواب لا ينتفع بهـا غير العمال خدم الدولة فقط وكانت البغال والإبل والحمام الزاجل وسائل نقل البريد .

وقد أصبح للبريد أهمية أخرى فيؤثر عن المنصور أنه قال : « ما كان أحوجنى إلى أن يكون على بابى أربعة نفر ، لا يكون على بابى أعف منهم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين من هم ؟ قال : هم أركان الملك ، لا يصلح الملك إلا بهم ، كما أن السرير لا يصلح إلا بأربعة قوائم ، إن نقصت واحدة وهى ، أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، فإنى عن ظلمها غنى ، والرابع ... ثم عض على أصبعه السبابة ثلاث مرات ، يقول فى كل مرة : آه آه قيل له : ومن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب إلى بخبر هؤلاء على الصحة » (الطبرى ج ١ ص ٢٩٧) .

فكأن ولاة البريد إذن عيونا للمنصور ، وبواسطتهم كان يقف على أعمال الولاة بل كان ولاة البريد يوافونه بالأسعار من قمح وحبوب وأدم ومأكولات وغيرها ـ وقد كان عمال البريد يوافونه بذلك مرتين فى اليوم ، فإذا صلى المغرب وافوه بما حدث طول النهار ، وإذا صلى الصبح وافوه بما حدث فى الليل .

وقد كتب إليه عامل البريد عن واليه فى حضرموت أنه يكثر الخروج فى طلب الصيد ، فكتب إلى هذا الوالى : ثكلتك أمك ، وعدمتك عشيرتك ! ما هذه العدة التى أعددتها للكتابة فى الوحش ؟ إنا إنما استكفيناك أمور المسلمين ولم تستكفك أمور الوحش . سلم ما كنت تلى من عملنا إلى فلان بن فلان ، وألحق بأهلك مذموماً مدحوراً » (الطبرى ج ٩ ص ٢٩٧) .

وهكذا كان فى كل إقليم عامل بريد إذا وجد أمراً هاماً يرسل إلى صاحب البريد فى بغداد وهذا يبلغ الخليفة ، فأصبح عمال البريد لهم صفة الجاسوسية على ما يجرى فى الدولة وإطلاع الخليفة فى الحال عما يحدث فى الأقاليم ، وكان نظام الجاسوسية موجوداً فى الدولة الفارسية القديمة وكان هذا مما ورثه العباسيون عن الفرس ، ودولة واسعة مستبدة الحكم محتاجه إلى هذا النظام من الجاسوسية وعهدنا بالدولة العثمانية قريب حينما انتشرت فيها الجاسوسية ، لذلك لم يكن البريد مجرد نقل رسائل ولكنه تجاوز ذلك الى الجاسوسية لمراقبة عمال الدولة على وجه خاص .

القصة بين الذاتية والموضوعية

لحضرة الأستاذ حمزه محمد الشيخ
ليسانسيه فى الأدب الانجليزى
من جامعة فؤاد الأول

يهدف القصصى ، مهما تشعب به الابتكار فى ميدان الفكرة ، إلى تصوير أحداث أو وصف أشياء ، ويمتاز النثر الذى يصور الأحداث بامتلائه بالحركة والسرعة ، وأما النثر الذى يتناول الأشياء بالوصف ، فيمعن صاحبه فى مراقبتها عن كثب ، حتى ينقل إلى القارىء حقيقتها الأصيلة ، فى غير تفريط أو إفراط ، ويتسم هذا النوع الأخير بسلبية الطابع وفتور الحركة . وسواء اتجه القصصى فى فنه الاتجاه الأول أو الثانى أو كليهما ، فانه إنما يرمى إلى صوغ ما يسمعه ومايراه ، وما يعتلج فى قلبه من مشاعر ، فى رموز تيسر له نقل التأثير الذى خلفته المرئيات فى نفسه إلى القارىء ... وتلك الرموز ، وهى الألفاظ التى تعين القصصى على تحقيق الوضوح العينى الذى ينشده ، قد يحسن القصصى استخدامها ، فيستطيع تصوير الأحداث فى سرعتها ، ووصف الأشياء فى حقائقها ، تصويراً تسوده الدقة ، ووصفا لا تنقصه الأمانة ، كما أنه قد يسيىء استخدام تلك الألفاظ ، فيتهافت عليها ، ويسرف فيها بقصد الزينة ، ومن ثم يجد زمام القصة قد أفلت من يده فأصبحت الأحداث تمضى فى بطء سقيم ، وتراخ ممل ، والأشياء شوهت معالمها ، فأضحت أدنى إلى الخيال منها إلى الواقع .

وهذه النزعة نحو التنميق elaboration ، والتوشية decoration فى الوصف القصصى ، إنما تعزى إلى نقص كامن فى النفس البشرية ، يدفعها دفعا نحو مزج الذات بكل أمر موضوعى ، ومن هنا كان تفاوت القصصيين فى طغيان شخصياتهم أو اعتدالها وتوازنها فى كتاباتهم .

ووجه الشبه كبير بين فنون كالموسيقى ، والرسم ، والتصوير ، وبين القصة الأدبية ، فللقصصى مدى يصل إليه ، وأفق يجول فيه ، بيد أن ذلك يختلف — إلى حد ما — عن مدى آلة التصوير ، إذ أن القصصى يختار من نماذجه ، وينتقى من شخصياته ، ما يشاء مما يقع تحت ناظريه من بساط الحياة الفسيح ... أما آلة التصوير ، فلا يملك صاحبها مثل هذه الحرية الإيجابية فى الاختيار ، إذ أن جهده الفنى ينتهى باختياره للمنظر الذى يروقه ، وتثبيته لآلة التصوير ، التى تأخذ فى نقل تفاصيل المنظر ، وإن كانت لا ترتاح إليها عين المصور ؛ ومن ثم كان القصصى أكثر حرية من المصور فى الاختيار ، وأقدر على تصفية نماذجه ، وتهذيب شخصياته وإننا لنجد القصصيين يتراوحون حول فن التصوير قرباً وبعداً ، فكلما قرب القصصى من المصور كان موضوعى النزعة ، وكلما بعد عن المصور فى فنه كان ذاتى النزعة .

وفى الحق إنه ليندر أن نجد قصصياً يعنى بفكرته theme ، ويهتم بها أكثر من عنايته بمشاعره وآرائه الخاصة . ولكننا لو علمنا أن القصة ، فى جوهرها ، ليست تعبيراً عن نفس صاحبها ، أو ابرازاً لميولها الذاتية ، وإنما هى تخاطب جمهوراً من القراء ... لو علمنا ذلك ، للمسنا حاجة القصة إلى دقة الوصف والتصوير ، وإلى خلوها من الشرح والتعليق .

ويتوقف جزء كبير من نجاح القصصى على انتقاء موضوعه ، وهذا هو الجانب الإيجابى للاختيار ، وكذلك من الأهمية بمكان ترك الموضوعات التى لا تتلاءم مع القصة ، وهذا هو الجانب السلبى للاختيار ، الذى لو عنى به كثير من القصصيين المعاصرين ، لكانوا اليوم فى الصف الأول من حماة القصة ، والقائمين عليها ، إذ قلما نرى اليوم قاصاً ، إلا وينفق من وقته وجهده ، الكثير على السطحيات externals ، بينما يهمل إهمالا مشيناً الجوهريات essentials ، فيصف شخصياته وصفاً سطحياً ، نعرف منه حياتهم معرفة يسيرة ، فأما أنفسهم وضمائرهم ، وما يضطرب فى الأولى من خلجات وآمال ، وما يكمن فى الثانية من نجوى وأسرار ، تنعكس على أسارير صاحبها ، فيخفيها فى ابتسامة مغتصبة ، أو فى ضحكة مريرة - فأما كل ذلك فإننا لا نجد إليه سبيلا ، أو نعثر منه على النذر اليسير ، الذى لا يشفى غلة ، ولا يسد فراغاً .

وليس حسن الاختيار للموضوع وحده كافياً لكى يستطيع القاص أن ينتج أثراً أدبياً قيما ، وإنما يكون ذلك نتيجة للتوافق بين الفكرة ومزاج الكاتب ، مما يمهد له طريق الابداع فى نتاجه الفكرى ، مهما بعدت خاتمته ؛ أما تجارب القاص ، فإنها مهما كانت واسعة المدى أو فسيحة المجال ، فلن يصل إلى أعماق شخصيته ، أو يشحذ قوته الخالقة ، غير القليل من تلك التجارب ، التى يجد فيها خياله مسرحه الخصيب وميدانه الرحيب ، وهذه المسارب الضيقة ، من تجارب القاص ، هى التى تعنيه كفنان ، لأنها قوام أفقه ، فأما ما خلا ذلك من تجارب ، فلايهمه من أمرها شىء ، إلا ككائن حى تعرض له شتى ألوانها . . . وما ذلك إلا لأن القاص لا يستقبل تجاربه استقبالا سلبياً ، وإنما يعمل فيها عمله اللماح وعينه الفاحصة . . . ومن ثم يمكن القول بأن شخصيات القصة إنما تنشأ عن نواة صغيرة تستقر فى تربة خصبة يرويها خيال القاص ويغذيها العقل وتجارب الصبا .

وقد عانى النثر القصصى فى انجلترا خلال القرن الثامن عشر الشىء الكثير من ذاتية الكتاب الطاغية ، التى ما برحت تبرز واضحة فى تعليق القصصى ، أو نظرة جانبية فرعية side-glance أو تأملات فلسفية تعترض سير القصة ، كما وجدنا لورنس ستيرن (١٧١٣ — ٦٨) sterne فى قصته (Tristram Shandy) ينتهز كل أمر جل أوهان لكى يحيد عن محور القصة ، ويقترب منه فى هذا المضمار صمويل بتلر Butler فى قصته (The Way of all Tlesh) . ومثل هذا الاتجاه فى كتابة القصة ، وإن كان يزيدها امتاعا ، نظرا لطرافة موضوعاتها وتنوعها ، بيد أنه يغض من قيمتها الفنية ، إذ أنها تفقد أحداثها وجدتها ، ويخلو أسلوبها من القصد فى التعبير ، والاستواء فى العبارة .

وقد تطغى الذاتيـــة على نفسية الأديب ، فيحاول أن يستجيب لها فى شتى صورها ، وربما بالغ الأديب فى ذلك ، فأفرط فى استخدام المحسنات البديعية من تورية pun ؛ وطباق antithesis ، وجناس alliteration حتى تغدو اللوحة الفنية ، التى يجهد نفسه فى رسمها ، شوهاء منفرة لما خالطها من صنعة وكلفة mannerism ، وهذه المحسنات البديعية كالنار ، فهى خادم صالح وسيد طالح ، فإن أحسن الفنان استخدامها ـ كما فعل وليم شكسبير ، عاهل الأدب الانجليزى ،

فى مقطوعاته الشعرية القصيرة sonnets ، التى زاوج فيهـــا بين المعنى والمبنى ، وجانس بين ظلال الصورة وإطارها - إن فعل الأديب ذلك ، أصبحت تلك المحسنات عينها إحدى مقومات البناء الفنى للنتاج الأدبى التى لا غناء عنها للأديب لـكى يعبر بها عن حالات شخصياته النفسية واتجاهاتهم الفكرية .

أما إن أساء الأديب استخدامها ، شأن الـكثيرين من الأدباء الناشئين ، فإنه سرعان ما يجد نفسه كالعجوز التى تحاول يائسة ، ستر جمالها الذاوى بشتى أصناف العطور ، وسائر ألوان المساحيق والأصباغ لـكى تثير فى النفوس الرغبة فيها والعجب بها . . . ولن يلقى الأديب هو الآخر من قرائه رغبة فى نتاجه أو اعجابا به ، فقد اصطلح الناس اليوم على بغض الزيف ، والمبالغة ، والصنعة الجارفة التى تجافى الذوق الأدبى السليم ، والتى لا نعثر عليها اليوم إلا فى تضاعيف فن الدعاية والإعلان . أما فى الأدب الرفيع ، فإن المذهب الذى لن يخبو نوره ، والذى أصدر عنـه كبار الفنانين ، مهما اختلف مصدر ثقافتهم أو تباين نوعها ، هو أن قوام الفن ستر بريقه المصنوع ، واخفاء وهجه الخاطف أو كما يقال فى اللغة اللاتينية ars est celare artem .

ولعل أسوء ما تلقاه القصة الأدبية على أيدى الفنان غير المطبوع ، هو استلهامه لذاتيته الطاغية - عن قصد أو غير قصد - حتى يجد نفسه يعلو ويهبط ، ويسير يمينا وشمالا ، حسبما يتجه به تياره الفكرى ، لا كما يوجهه موضوع القصة ، والمحور الذى تدور حوله أحداثها ومرئياتها . . . ونحن بعد ذلك كله قد نستطيع أن نغفر للقصصى أن يتراوح بين دفتى القصة ، قرباً من الموضوع ، وبعداً عنه ، لو أن القصة لم تكن شيئاً آخر غير الموضوع . . . أما والقصة صورة فنية للحياة حولنا ، فلذلك وجب أن تتوافر فيها عناصر أخرى إلى جانب المشابهة likenss ، كالبراعة فى رسم القالب أو الاطار frame ، والأناقة فى صوغ التصميم design ، والدقة فى إخراج الانشاء الفنى compostion . . .

وهذه العناصر جميعا لو توفرت للقصصى ، بعد نجاحه فى اختيار موضوعه ، وحرصه على توازن عنصرى الذاتية والموضوعية فى قصته ، لاستطاع أن يقـدم للقارىء الانشـائى creative reader نسيجاً متجانساً مؤتلفاً ، ويعرض أمام ناظريه ، موكبا حافلا متصلا ، ما يكاد يفرغ من استعراض صفحاته ، حتى يتمثله فى مخيلته صوراً مفعمة بالحياة والانسجام .

حول مقال :

سوف أعود إلى الأرض

لحضرة الأستاذ محمد اسماعيل الشلبي

تركت إدارة مجلة الهلال الغراء للقراء رأيهم فيما ذهب إليه حضرة صاحب العزة محمد توفيق دياب بك من عقيدة وآراء بثها عزته فى مقاله فى هلال ديسمبر الماضى تحت عنوان : (سوف أعود إلى الأرض) .

البحث العلمى والحقيقة الدينية الإسلامية :

من المقرر الثابت أنه سوف يأتى اليوم الذى فيه تكشف الفتوحات العلمية عن حقائق تجعل العقل والقلب معا يقران بما جاء به الإسلام من حقائق . وما جاء به المقال (سوف أعود إلى الأرض) لم يثبت علميا ولم يثبت دينيا .

لم يثبت دينيا إسلاميا :

قال الله تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) أى معنى نبيل تتركه هذه الآية وترسخه فى ساحة النفس المؤمنة ، إن صاحبها إذا ما رسخ هذا المعنى فى صدره فسوف يلقى الحياة بأكبر قسط من التفاؤل والأمل الفسيح الغلاب للصعاب وفى ذلك سر نجاح الفرد فى دنياه ، ودليل سعادته فى أخراه ، ولذا يقول على كرم الله وجهه : هذه أرجى آية للمؤمنين فى القرآن . لأن الكريم إذا عاقب مرة لا يعاقب مرة ثانية وإذا عفا لا يعود .

هذه العقيدة السليمة فى آلام الحياة وشدائدها ، وهى ذات أثر فى الفرد والجماعة والذود عن حمى الوطن . ولقد علمنا من هذا أن فى الشدائد دروسا وعظات ، وبها يظهر السر الدفين وتستيقظ الشجاعة الكمينة مرسلة ضوءها خارج النفس فتكون الشجاعة ، ويكون الإحسان ، ويكون الإنصاف والعطف ،

وهل تتقدم الفضائل إلا بزمام الحوادث والتجارب ، وهل قويت عزائمنا ومتنت إلا عن طريق المصائب .

قال أهل الرجعة أو التناسخ : لقد عرفتنا الآية أن المصائب أجزية على الذنوب فما بال الأطفال تتألم ولم تصبهم المصائب والفجائع ، وهل جنوا ذنبا ؟ لم هذا فقير جدا وهذا غنى جدا ؟

أما جواب السادة العلماء الذين تعلم منهم صاحب المقال (سوف أعود إلى الأرض) فكأنى بهم من شيوخ قرية متزمتين ، إذ كانوا يصيحون فى وجه السائل بقوله (لا يسأل عما يفعل) . وهو بحق لا يقتنع بما قالوا له . ولذا فتش عن العدالة الالهية فلم يجدها إلا فى الرجعة إلى الأرض ، ولعل المرء إذا كبرت سنه وقارب أجله ، اتخذ من هذه العقيدة ما يطمئنه بالرجعة إلى الأرض ، ولو علم أن فى العالم الآخر ما هو أبهى وأبهر لقال (والله لا أرجع إليها أبداً) .

نعم لا يسأل الله عما يفعل . لأن فعله بالغ الحكمة وفى منتهى الدقة . ليس فيه خلل وليس فيه ما يدعو إلى السؤال ، فهو لذلك (لا يسأل عما يفعل) وعلى العقل مستعينا بالله أن يتفهم هذه العدالة الالهية ، وهو يقررها فى آية أخرى ، فيقول فى التفاوت المالى الظاهر بين الناس : (ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء) ويقول فى أن الناس طبقات بعضها فوق بعض ، وما من يد إلا وفوقها يد الله (نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون) .

وهذه القصة بالغة الحكمة كاملة العدالة . ومثل ذلك يقال فى آلام الأطفال ولم يجنوا ذنباً . فما العدالة الإلهية فى ذلك . تلك هى الضريبة يؤديها الآباء والأمهات ومن يتصلون بأولئك الأطفال المتألمين يؤدونها لتكفر ذنوبهم (أى ذنوب الآباء) لتألمهم لمرض أبنائهم ، أو لحكم يعلمها الله ، وقد جعلها الله ميداناً للعقول ، تتنافس لفهم أسرارها . وربما صحت الأبدان بالعلل « والله بعباده خبير بصير » .

وإذا فرضنا أن الناس كان لهم وجود سابق وأذنبوا فيه ، فما الذنب إلا من النظر فى النفس ولو كانت كاملة ما أذنبت . فلو قيل أن نقصها نشأ من الذنب

السابق قلنا : إن ذلك يلزم التسلسل وهو مستحيل . ومذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا فرضنا أن عدداً من الأرواح تلبس ملايين الأجنة البشرية ، ومع دوارة صاعدة هابطة ، وهو ما لم يقل به أحد . وإلا فبماذا ترى فى الروح الإنسانى الكامل الذى يتنكر فى عهد المظلمات فى شخص كشخص سيدنا نوح عليه السلام أو نبى من الأنبياء — كم جسما خلعه وكم جسما لبسه ، وعلى أى جسم يقع العذاب . إن قلنا العذاب للروح فكيف يعذب نبى ، وإن قلنا للجسم فكيف لا تباركه روح نبى ، وإن قلنا لهما معاً فكيف بذلك جميعاً ، أنا لازلت طالب يقين فى عقيدة توفيق بك دياب . فما يقين عزته فى هذا الإشكال .

أسألك يا سيدى . ماذا تقول فى مسئولية الجزاء وتقرير التبعية الشخصية فى قوله تعالى (ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى لا تتحمل نفس مذنبه ذنب نفس أخرى وقد قلت سيدى ، إن ألوف الملايين من الأرواح تتقمص ألوف الملايين من الأجسام منذ بدء الخليقة البشرية إلى منتهاها ، وذلك يناقض عقيدة الإسلام فى البعث والنشور وإلا فكيف يحاسب الناس .

وإذا صح ما تقول سيدى فى عقيدة الرجعة . فإن لكل جسم اسما ينادى به فبأى اسم ينادى به الشخص . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول فى حديثه الصحيح (أحسنوا أسماءكم فإن الله يناديكم بها يوم القيامة) .

ما تقول سيدى فى قوله تعالى (إن الذين تتوفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم) (لأنهم استكانوا للعبودية ورضخوا لجبابرة العلم) فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - أى لتطلبوا حرماتكم وكرامتكم - فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

فهل جهنم هى الأرض إذا عادت إليها الروح مرة أخرى فى جسم آخر غير جسم الأول .

الحق يقال أن مذهب الرجعة لا يستقيم إلا إذا هدمنا جانباً كبيراً من أركان الإسلام . فليس بصحيح ما قلته (إن هذه العقيدة لا تناقض الدين الإسلامى الحنيف فى شىء . ولا تناقض المسيحية . . . الخ .

ثم أيمكن أن يدرك أساطين المؤمنين بعقيدتك هذه مالا تدركه العفيف الحصان مريم ابنة عمران عندما قالت (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسياً منسياً) فلو سبق وجودها موت ـ كما يقول أصحاب عزتك ما تمنت . وأنا أسألك ما رأى أخوتنا الأقباط فى عقيدة توفيق بك .

ما رأيك سيدى فى الآية (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) فهى موتة واحد وحياة واحـــدة نحياها فى الدنيا ، ثم ننتقل إلى العالم الآخر يذوق موتة واحدة .

أما عقيدة الرجعة فيقول أحد أساطينها فى مقاله (الجسد ثوب تلبسه الروح زمانا ثم تلقيه) وتعود (أى بعد موته) إلى أفقها ومصدرها ، ويقول انحدرت إلى الأرض مرة أخرى لتلبس ثوبا جديداً فى شخص جنين من ألوف الأجنة التى تولد فى جنبات الأرض فى الشرق والغرب ــ وهكذا رجعة بعد رجعة .

فكم رجعــة وكم موتة ، آلاف الرجعات وآلاف الموتات ، والآية تقرر (لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى) .

مصدر الإنسان ورجعاته ومصدره :

إن الله قد استأثر بعلم مصدر النفوس ومصيرها إذ يقول (ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم) فماذا فى علم الله المنزل فى كتاب الاسلام حتى يطمئن أستاذنا دياب بك .

إليك يا سيدى نبذة موجزة عن العقيدة التى قررها الإسلام عن « مصدر الإنسان ورجعاته ومصيره » .

— ١ —

الانسان يسمو إلى ربه بعد معارك جبارة عاتية ، قال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) . وهذا الكدح تفسره الآية فى نفس السورة والقرآن يفسر بعضه بعضا قال تعالى (لتركبن طبقا عن طبق) بمعنى أنكم يا بنى الإنسان تمرون فى دور بعد دور . وهذه الأدوار يذكرها الله مجملة فى قوله (وقد خلقكم أطوارا) فما تفصيلها .

(١) قل الروح من أمر ربى .
(٢) هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض .
(٣) وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم .

٤ — والدور الرابع . بعد التسوية فى تلك البطون من نطفة إلى علقة ـ الخ وفيه يقول الله تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) فكيف يعلم بعض من أمن بالرجعة (مولدهم وميتاتهم الماضية وفى أى بلد من البلدان عاشوا حياة بعد حياة وإلى أى الآباء انتسبوا وأى اللغات تكلموا وأى الصناعات أو الأعمال اتخذوا وهل ذكورا كانوا أو إناثا فى كل رجعة من رجعاتهم إلى الدنيا ليستأنفوا فيها الحياة) بالنص من مقال توفيق بك) والله يقول (أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا) هذا هو التناقض . . .

٥ — الدور الخامس هو ما يشير اليه تعالى بعد انتقال الروح (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون) فالأرواح تكون فى برازخها أو الصور أو الناقور كما قرر القرآن . حتى إذا قامت القيامة الكبرى تزاوجت الأرواح مع أبدانها بعد أن كانت مفردة كما قال تعالى (وإذا النفوس زوجت) وليس المقال متسع لتفصيل هذه المعانى .

٦ — الدور السادس يشير إلى قوله سبحانه (وجاءت كل نفس معها (من قبرها وبرزخها) سائق وشهيد . لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد) .

٧ — الدور الأكبر (فريق فى الجنة وفريق فى السعير) أما المحسنون فى رسالتهم فى حياتهم فإن الملائكة تستقبلهم أدخلوها بسلام ذلك يوم الخلود . لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد (فى مقعد صدق عند مليك مقتدر) .

هذه نبذة موجزة عن العقيدة التى أومن بها فى مصدر الإنسان ومصيره .

إلى الشباب : همسة فى آذانهم

قرأنا فى كتب التاريخ أن مذهب الرجعة أو التناسخ شاع فى المجتمعات المتحللة الأخلاق وأن ضرره أكثر من نفعه فهو مضيع لذاتية الشخص ميسر للعدو دوس أوطاننا .

إن مذهب الرجعة يرمى عن قوس أهل الأهواء والنحل . ونحن أحوج ما نكون فى الحاضر لمقاييس علمية صحيحة ومضابط خلقيـة صادقة لنرفع شأن الوطن .

وإذا كان (شوبنهور) من أساطين المؤمنين بعقيدة الرجعة فى العصر الحاضر فإن ذلك لا يخدعنا عما يراد بنا . فإن تيارات الغرب المستعمر ، ونظرياته الملحدة امتداد لسياستهم المحيطة لأعمالنا . تلك السياسات وهذه التيارات قد حولت أعناق خناذيذ وأفذاذ من كتابنا اليها ولكن من (أبدى صفحته للحق هلك) .

وإن الباحث المحقق ليعلم حق العلم موقف تلك العقائد الزائفة من آمالنا القومية . فإذا كان المعتقد بالرجعة أى بتناسخ الأرواح فقـد يعود إلى الأرض فى ثوب انجليزى أو صهيونى . . . وإذاً فلا ضرورة لجلاء ولا لزوم لمناداة بتهديم الصهيونية ونخرج من هـذا أنه لا بقاء لقوميتنا وذلك كله ناتج من التسليم للعقائد الهدامة لأركان وطنيتنا .

يا شباب العصر :

روح الجهاد فيكم أو جهاد الروح منكم أن تكوّنوا أنفسكم على عقيدة سليمة ذات أثر فعال . وتحموا وطنا حراً قويا ينقذ العالم من التردى فى سقطات الزائفين . وأن تنبعث انسانيتكم السامية واقفة عند أمر ربها (كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) .

يا شباب العصر : إن قيل لكم إنكم ستعودون إلى الأرض (كما زعم فيثاغورس أوسقراط قديماً وشوبنهور حديثاً) فقولوا أنتم : إننا سنعود إلى الله وعندكم دليلان قويان مقنعان ، ممتعان مشبعان ، (الأول) جاء ثوبان الفارسى إلى رسـول الله صلى الله عليه وسلم وقال : يا رسول الله أين أنا إذا مت . فنزلت الآيتان الكريمتان جواباً عن سؤاله « ومن يطع الله ورسوله فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما » سورة النساء .

مُشكلاتُ المدنيةِ الحديثة

لفضيلة الأستاذ سعد الدين موسى

عدت علينا مدنية الغرب بخيلها ورجلها ، ومركبتها الطائشة ، وسيولها الجوارف ، فأزعجتنا نحن الشرقيين من رخاء عيشنا وطيب أحلامنا ، وأذهبت عنا روح الطمأنينة والامتاع ، ونسائم الهدوء والاستقرار !. وبدلت بخضراء الحياة صحراءها ، فلم نعد نستمرىء طعم الراحة وأمنة النعاس ، ولا نحس روح الطبيعة ولا نستشعر لمسة النعيم !. وكأننا فى ليل كافر لا نهار معه ، أوشتاء دميع لا ابتسام له ! فما السر فى هذا جميعه ؟ هل المدنية الأوربية تتصادم مع مدنية الإسلام فتسير عكس اتجاهها ، وتسعى واياها على طرفى نقيض ؟ ذلك ما نريد أن نبحثه وندلل عليه .. إن الدين الإسلامى فى الواقع قد جمع كل ما تفرق فى المدنيات والديانات الأخرى من محاسن وروائع إن لم يكن قد أربى عليها .. فلم يأمر بالرهبنة والانقطاع إلى النسك بكهف أو دير أو رأس جبل ، ولم يحض على ترك الناحية الإيجابية لعمارة الدنيا ، واستغلال قوى الكون واستثمار أرحام الأرض ، وطرح المعاش جانبا كما قالت المسيحية ، ولم يفرض على معتنقيه أن يتكالبوا على موائد الرزق وحلبة القوت ، وحطام المتاع ، وزخرف الوجود ، كأنهم حيوانات سائمة لا هدف لها فى الحياة ولا مرمى إلا الطعام والسفاد والفراش والشراب والمرعى بل جاء وسطا معتدلا بين رغائب الروح والجسد ، وغذاء الفكر ومشتهيات المعدة ولكننا لو نظرنا نظرة فاحصة جدية إلى المدنية الحديثة اليوم وهى وليدة المعامل الأوربية لا الأفكار الروحية ولا المواريث السماوية ، لوجدناها تتجه صوب المادية الجسدية المتاعية اتجاها ملموسا فى ظواهر الأشياء وسطوحها ، بل تعدت إلى أسوار الباطن منها فخرّقتها عن مواضعها ، وزلزلتها عن مستقرها ، وكيّفتها بميولها وأهوائها ، وصبغتها بألوانها وظلالها .

وإلا فمن أين جاءتنا الأصباغ والمساحيق وأدوات التطرية والنعومة النسائية؟ ومن أين كثرت حوادث انتحار الشباب وتفاقم التفكير فيه؟

لقد نجمت من هنا مشاكل مستعصيات وعقد معقدات فى التعليم والسلوك والأخلاق، والغرائز والنفسيات.

كما حدثت مشاكل أخرى فى صميم الحيوات والنظريات وأمهات المسائل المعنوية والاقتصادية والعلمانية، كالمذاهب الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية، وكنظام الدكتاتورية والارستقراطية والديموقراطية الخ. وكتنظيم الأسرة ورعاية الأفراد وكفالة الجماعات، وتنشئة الأطفال وسياسة النساء وتأمين الحقوق، والحياة الزوجية! وهل غرس فى أرضنا بذرة الثالوث الأصفر «الجهل والفقر والمرض» إلا يد هذه المدنية ومحاكاتها دون تمييز النافع والضار منها. حتى قطعت على الشعراء أخيلتها الناعمة، وعلى الفلاسفة أحلامها السابحة، وعلى العلماء والباحثين طرائق علمهم ومناهج تفكيرهم، واصطدمت مع بعض الحقائق الكونية وسدت على الناس منافذ الآفاق الروحية ومناجم السعادة النفسية.. ألم يكن فى الديانة الإسلامية غنية وكفاية لحل هذه المشكلات التى خلفها لنا ركب المدنية المعاصر بعامل الالتصاق والمجاورة؟ ألم يكن فيها من الأنظمة القويمة والبلاسم الناجعة ما هو كفيل بسعادة المجتمع البشرى ورفاهة العالم جميعاً؟ لقد كان سلفنا فى ثروة روحية عظمى باتباعهم خطوات هذا الدين العالمى الخالد «الإسلام» ولم يكن فى عصورهم من هو أسعد منهم حالا كما لم يكونوا فقراء من المدنية والحضارة مثلما يحسب الجاهلون، بل كانوا أغنم منا حظاً وأهدى بصيرة وبصراً. وهل لمتفلسف متشكك أن يجادلنا فى مساوىء المدنية القائمة ومخازيها أو يجادل عنها؟! حتماً لقد ربطت المشارق بالمغارب.

ولقحت الأفكار وغزت مناطق الشعور فى الإنسان، وفتحت باب العلم المدنى والصراع الجدلى، والنظر المحلق على مصراعيـــة حتى كانت المدهشات الغرائب من الكشوف والابتكارات، والاختراع والتجديد فى كل مضمار وميدان، ولم نعد فى قرن السلحفاة أو الناقة والجمل، بل فى عصر الذرة والطائرة واللاسلكى والكهرباء، وحتماً إنها سخرت كل طاقة صغيرة وكبيرة عل سطح

الكرة أو فى ساريات الجو أو أجواف البحار فانتعشت الحضارة وانتفعت البشرية - وتغلغلت بمنظارها المكبر إلى خبيئات النفوس وأعماق السرائر فتعددت الفنون وأطردت الصناعات واستبحر العمران وتمدمت الأذهان .

ولكن أليس ذلك كله عن طريق المادة ودولابها الحديدى وعجلاتها الطاحنة وآلاتها الجوامد الصماء ؟ وهل كان ذلك إلا ابتغاء إطفاء سعار الجوع وإسكات صراخ الأمعاء وإشعال وقود الأوطار الترابية الأرضية ؟ فهل انطفأت الحرقة أو سكت الصراخ أو أقلت من طغيانها وبغيها الأنانية والنفعية ؟ كلا بل لمسنا فى سبيل هذه المدنية الآلية كبكبة وقلقاً ، واضطرابا وعتماً نفسانية ، ومشكلات قامت وقعدت ، وبسائط عميت وعتمت . . . فهذا شبح الطاغية البغيض ، وتيار الحسد والشحناء يحض على الجريمة النكراء ويغرى بالمنكر والفحشاء .

ويحبب الى المرء روح التذمر والثورة والتمرد والسخط على كل نظام . فكان بيننا البغاء والربا والخمر واليانصيب والميسر ، وكان الظلام المطبق والحيرة التامة المهلكة ، ونشأت شركات التأمين على الحياة والنفس لأن الإنسان لم يعد إنسانا بمدلوله الشرعى واللغوى ، بل وحشا من بنات الغاب فكيف يؤمن على الأموال والأعراض والأنساب ؟ ووضعت المحاكم والسجون والقضايا والمرافعات من جراء القتل والسرقات والخيانات والاتهامات ! وكسدت سوق الزواج وذاع الطلاق وفشت الإباحية الإلحادية ، والحرية الهوجاء المتحللة من قانون العرف والخلق والفضيلة ! . ومن ثم نشأت الحروب واندلعت ألسنة الفتنة ، وهبت الثورات والأحقاد كالعواصف الجامحة ، تزلزل غربال الأرض ، وتطفىء مصباح السلم ، . وتهصر غصن الزيتون ، وتميت بسمات الربيع ، وتلفع الشمس بعباءتها الدكناء ؟ ! ولماذا عبث الاحتلال بالحرمات والكرامات فأكلت الأمم القوية المستعبدة الأمم الضعيفة المغلوبة على أمرها لعمرى وعمر أبيك ماخلق هذه الأدواء جميعا ، وأضعاف أضعافها إلا هـــذه المدنية الزائفة . . المادية الخليعة . . وبقدر ما سعينا نحوها مأخوذين بلمعة سرابها ، وسحر بريقها ، بقدر ما خلت أفئدتنا من العقيدة الصحيحة والإيمان بقوى السماء وقدرة الصانع البديع ، والبحث عن كنوز التوحيد والمعرفة الإلهية والرحمة والحكمة والإيثار والتقوى .

وانصرفنا بكليتنا عن الروحانية الصافية العميقة والعبادة المشرقة الطليقة ، وما عدنا نتمم الشعائر والمناسك إلا فى كسل وفتور وارتخاء أعصاب !. وهى فى مجتمعنا اليوم عبارة عن ظلال ميتة وأشباح هزلى لا روح فيها ولا دماء نؤديها كمراسيم دولية أو شكليات عرفية ! . . ومن ذا الذى يفرغ من الجلبة والضوضاء آنات معدودة من سواد الليل أو بياض النهار للمناجاة والتفكر والصلاة والاعتصام بحبل السماء ؟ . ومن منا أمسى يفكر فى بر أو مرحمة أو تزكية وإحسان ؟. يخجلنى ويخجل القلم فى يدى أن أقول : إننا أصبحنا تحت تأثير هذه المدنيات الغربية الحمق نعد من مظاهر التأخر والرجعية والتخلف والجمود أن ننادى بتقنين الشريعة وعودة حدودها إلى الأرض بعد طول غربتها ، وكيف ونحن فى حمى القانون الفرنسى ننطلق أحرار الفكر والرأى والعقيدة بلا حسيب أو رقيب ؟ ! .

وهكذا أحسسنا فى هذا العصر بلهيب الحرمان ومجاعة الوجدان ودافع الحاجة ومرارة اللوعة والخزيان . . نعم أحسسنا الحاجة إلى الرجوع لمعين الإسلام وطرق مصراع السماء والتطلع إلى أعلى ! . ذلك لأن المدنية الحديثة قد ألهبت ظهورنا بسياط نارية إلى غير إشراق أو متاع أو استقرار إلى حيث الهاوية والتطاحن والأزمات المبيدات ! . . فظمئت أنفسنا من المعرفة الوجدانية ، وقحلت أرواحنا إلى النبع السماوى الدافق الفياض ، يبدل غُلتها ريّا ، ويأسو جراحها ويمسح آلامها ويتيم على أطلال خوفها واضطرابها صرح هناءتها وأمنها وسلامها !. أمّا هذه الحركة الدائبة المقعقعة ، والتسرع المجنون الأحمق الذى جعلنا نتندر ونسخر بالمتأنى المتمهل قائلين : نحن فى عصر السرعة . . . والذى صرفنا عن دين محمد وروحانية الشرق وتراث العروبة ، وميراث الحق وكتاب الخلود إلى الإسراف فى الشهوات والآمال والمطامع والرغاب فما لا يتمره حصيف ولا يرتضيه أريب ! ! فهل من عودة يا أمناء الإسلام ؟ . . وهل من بعث للشرق الميت من جديد ؟ ؟ !

جماعة التبشير الاسلامى والاصلاح

بأم درمان « السودان »

عبد الله شوقى الأسر

كاتم السر

بقى جنوب السودان منذ آماد سحيقة فى عزلة عن العالم ، لم تعرف الحضارة إليه سبيلا بعلومها ونورها ، وظل أهله على فطرتهم الأولى حفاة عراة ، دينهم الوثنية ، وعلمهم الجهل ، وصلتهم بالعالم الخارجى مقطوعة ، وبشمال السودان مبتورة ألا ما يتسرب إليهم من رسالات التبشير المسيحية .

وما كانت حالتهم تلك ، لا ترضى إخوانهم ومواطنيهم فى شمال السودان ، فوطنوا العزم على الاتصال بهم ، والقيام نحوهم بما يمليه الدين ، وتفرضه الوطنية ، فأهل شمال السودان وجنوبه ، مواطنون تجمعهم صلة الوطن التى لا انفصام لها . ولهم على بعضهم البعض حقوق وواجبات . ومن حق أهل الجنوب على أهل الشمال أن يأخذوا بأيديهم ، ويعملوا على إسعادهم عملا يفرضه الدين وتمليه الوطنية .

لهذا حقت كلمة جماعة من كرام السودانيين ، ممن لهم مكانة مرموقة بين مواطنيهم ، وممن عرفوا بالتقوى والصلاح على تأسيس جمعية أسموها « جماعة التبشير الإسلامى والاصلاح » مقرها مدينة أم درمان ، وغرضها : القيام بنشر الإسلام وتعاليمه فى جنوب السودان ، وفى كافة أرجائه التى لم يصلها نور الدين الحنيف ، وقد اختارت لها لجنة تنفيذية مكونة من خمسة عشر عضواً .

وعهدت برئاستها إلى صاحب الفضيلة الشيخ محمد أمين القرشى القاضى الشرعى سابقاً ، وأمانة سرها إلى حضرة الأستاذ عبد الله شوقى الأسد .

وتقدمت الهيئة بعد تكوينها إلى إدارة السودان طالبة التصريح لها بالقيام بمهمتها فصرحت لها بذلك ، وليس للهيئة أى غرض آخر غير هدفها الإسلامى الخالص ، تستوحى أعمالها بهدى القرآن ، وسنة السلف الصالح فى إعلاء كلمة الدين الحنيف متذرعة فى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة ، باذلة أقصى جهدها إلى نشر الوية الإسلام فى الجنوب .

بيد أن الوصول إلى الغايات الدينية الخالصة التى تزمع القيام بها ، ليست بالهينة الميسورة ، فأمام الهيئة عقبات تستوجب التذليل ، ووسائل يجب أن تتوفر ، وليس العمل فيها قاصراً على مسلمى السودان وحدهم ، ولكنه فرض عين على إخوانهم مسلمى شمال الوادى أيضاً ، بل والمسلمين فى كافة بقاع الأرض .

لهذا تتقدم الهيئة ، إلى كافة الهيئات والجماعات والأفراد فى وادى النيل طالبة التعاون معها ، وشد أزرها ، والمساهمة الشاملة فى نشر كلمة الله ، بما أمر الله وسار عليه رسوله الكريم .

والهيئة تستمد فى هذا العمل قوتها من عون الله ، ومن صدق نية العاملين فى سبيل الله ولله وحده ، وهى واثقة من أن عملها سيكلل بالنجاح ما خلصت النيات وصدقت الرغبات ، وهى مطمئنة إلى عون المسلمين فى وادى النيل عونا خالصاً مستمراً ، حتى تتحقق الغايات ويتم الله نوره ، ويخلص جنوب السودان من ظلمات الوثنية والجهل ، ويتذوق أهله حلاوة الإسلام وطعم الإيمان بإذن الله إنه سميع مجيب ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

احتفال الأزهر بعيد الميلاد الملكى

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر يحييه بخطبة

احتفلت البلاد المصرية يوم الإثنين الثانى عشر من شهر فبراير ، بعيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة المعظم « فاروق الأول » ، فلبست جميعها حلة فاخرة من الزينات والأنوار ، وأذاع الراديو خطبة لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا رئيس مجلس الوزراء فى تعداد مناقب جلالته ، وسرد فضائله ؛ وائتنست جميع البلاد المصرية بعاصمتها فكانت البلاد فى عيد وطنى تبادل أهلها فيه التهانى والمسرات .

واحتفل الأزهر المعمور به ، فاجتمع فيه ألوف من علية الطبقات فى مقدمتهم سعادة أحمد يوسف بك السكرتير المساعد الخاص موفداً من جلالة الملك ، فنهض حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ عبد المجيد سليم وألقى كلمة بليغة جامعة ، سرد فيها صفات جلالته ومواهبه وفضائله ، متمنياً لجلالته طول البقاء وأن يجعله الله ذخراً للبلاد ، وملاذاً لأهلها مدى الأيام .

وهذه خطبة حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر :

اللهم إنا نحمدك حمد المؤمنين بك ، الخاضعين لعظمتك ، الشاكرين لنعمتك ، الراجين لرحمتك ، اللهم إنا نرغب إليك أن تصلى وتسلم على عبدك ورسولك ، وأمينك على وحيك وخيرتك من خلقك ، وخاتم أنبيائك سيدنا محمد الذى أرسلته رحمة للعالمين ، وإماماً للمتقين ، ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيرا وعلى آله وأصحابه الذين عزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه وجاهدوا فى الله حق جهاده فاستخلفهم فى الأرض ومكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وبدلهم من بعد خوفهم أمناً ومن بعد ضعفهم قوة وعزا وسلطانا .

اللهم وفقنا إلى اتباعهم بإحسان ، واحيِ فينا سنتهم واجعلها يا رب زادنا ونورنا فى معاشنا ومعادنا عليها نحيا وعليها نموت .

حضرة صاحب السعادة مندوب جلالة الملك المعظم :

أيها الإخوان : تحتفل الأمة المصرية الكريمة اليوم بعيد من أعز أعيادها القومية ، وهو عيد ميلاد حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول أطال الله فى عمره وأيده بتوفيقه ونصره .

وقد أراد الله جلت نعمته أن يضاعف للأمة فى هذا اليوم السعيد سرورها ، ويزيد فى غبطتها واستبشارها ، فوفق جلالة الملك المعظم — أعزه الله — إلى هذه الخطبة السعيدة المباركة ، فكان العيد بذلك عيدين وكانت الغبطة غبطتين .

وحق للأمة المصرية الكريمة أن تحتفل بأعياد الفاروق العظيم ، وأن تشاركه الفرح بما آتاه الله من نعمة ، وأن تحمد الله تعالى وتشكر له على أن ربط عزها ومجدها بجلالة الملك السعيد الموفق .

إن أسعد الملوك من سعدت به رعيته ، وقد أسعد الله هذه الأمة بجلالة مليكها الفاروق ، حيث اقترنت بميلاده الميمون نهضتها وتدرجت مع تدرجه فى عمره المبارك أسباب مجدها وعزتها .

وجدت النهضة المصرية القوية قبيل مولده الميمون ، وقد كانت مصر من قبل أمة تتنازعها عوامل الضعف والفساد من داخلها ، وعوامل الطمع والجشع من خارجها ، فلما أذن الله لنهضتها الكبرى أن تنجح ، كان ذلك مقترنا بمطلع الفاروق أعزه الله ، فرأى العالم يومئذ أمة فتية أبية مصممة على أن تنال حقها فى الحياة العزيزة الكريمة ، مجمعة على الجهاد فى سبيل ذلك بكل ما منحها الله من حول وقوة لا فرق بين شبابها وشيوخها ، ولا بين فقرائها وأغنيائها ، ولا بين حكامها ومحكوميها . روح من الله سرى فيها فأحياها وقواها وأيدها بالنصر المبين ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

ولم تكن هذه النهضة فى الناحية السياسية فحسب ، ولكنها نهضة قامت على أساس وطيد من الشعور بالعز والحرص على الكرامة والتمتع بما تتمتع به الأمم الحية من الاستقلال والحرية ، يؤازر ذلك برنامج صالح شامل فى شتى نواحى الإصلاح والتجديد فى التربية والتعليم ، فى المال والتجارة ، فى الزراعة والصناعة فى الاتصال بالعالم الخارجى لتبادل المنافع والمصالح ، فى الانتفاع بكل ما جد من اختراعات ووسائل إلى غير ذلك مما تحيا عليه الأمم ويقوم به مجدها وعظمتها .

صاحبت هذه النهضة الإصلاحية مولانا الملك فاروقاً أعزه الله منذ كان فى المهد صبياً فاحتضنها المغفور له والده العظيم (طيب الله ثراه) كما احتضنه — فلقياً فى كنفه الرعاية كل الرعاية والحفاظ أعظم الحفاظ حتى أسداهما إلى الأمة المصرية الكريمة بل إلى الشرق كله هديتين كريمتين، هما أعز ما يهديه ملك كريم إلى شعب كريم.

وها هو ذا الفاروق العظيم يتلقى تلكم النهضة من أبيه باليمين فيرعاها ويواصل سعيه الحميد فى تنميتها وتقويتها ويقف فى شأنها موقف القائد الحكيم يوجه العاملين ويكافىء المخلصين ويثير الهمم.

ويحيى العزائم وأنه لواصل بها إن شاء الله تعالى إلى ما يبتغيه لأمته من المجد والقوة والعظمة والنصر المبين.

أيها الاخوان:

هذا هو يمن الفاروق على مصر وتلك هى رعايته لنهضتها وأسباب مجدها وعظمتها وقد فاز الأزهر الشريف مما ذكرنا بأفضل حظ وأوفر نصيب واستطاع أن يسجل فى صفحات مجده تاريخاً حديثا مجيداً.

كان من يمن الفاروق على الأزهر أن وجه الله قلب والده العظيم إلى إصلاحه وتمكينه من أداء رسالته على خير الوجوه وأفضلها فأصدر طيب الله ثراه قوانينه الإصلاحية وعدّل مناهجه وزاد معاهده وأنشأ كلياته وأمر ببناء مدينة جامعية حديثة تليق به ورعى أهله أفضل رعاية وأكرمها وحرص على تقوية نزعة الدين والعلم فيهم وعلى بث روحها فى الأمة حتى تقوم نهضتها على أساس متين من الخلق والفضيلة والاعتزاز بالدين فاستجاب بذلك — جزاه الله أحسن الجزاء — لآمال طالما ساورت نفوس المصلحين وسعى فى سبيله سعيه المحمود فأسدى إلى الدين والعلم صنيعا مشكوراً أرجو ان يجعله الله له نوراً يوم يأتى المؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم.

وكان من رعاية الفاروق للأزهر أن سار على سنة والده العظيم فى العناية به والحدب على أهله والاهتمام بكل ما يعلى شأنه ويرفع قدره ويمكنه من تحقيق رسالته السامية فى خدمة الإسلام والمسلمين بل فى خدمة الناس أجمعين

أيقن جلالة مولانا الملك المعظم حفظه الله أن تزكية النفوس بالدين وتثقيفها بتعاليمه القوية ومبادئه القويمة هما أساس يقوم عليه الإصلاح والعزة والكرامة

وخير عصمة من المبادىء الضارة والمذاهب الهدامة ، فحرص منذ تولى عرش آبائه الأكرمين على أن يكون الأزهر الشريف منبع الهداية الإسلامية ، ومصدر التعاليم الدينية الصحيحة لا فى مصر وحدها بل فى العالم كله .

ومن مظاهر ذلك فى مصر أنه أمر بأن تبث المعاهد الدينية فى الأقاليم فأنشىء منها فى عهده المبارك خمسة نظامية وأضيف الى بعض المعاهد الابتدائية أقسام ثانوية وشجعت المعاهد الحرة فجعل لها فى ميزانية الأزهر مبلغ كبير أعانها على أداء رسالتها فى التهذيب والتعليم وبذلك زاد عدد المعاهد الدينية فى البلاد حتى أربت على العشرين .

ومن مظاهر ذلك فى خارج مصر أن جلالته حفظه الله أمر بإيفاد كثير من البعوث التعليمية الى البلاد الإسلامية تثقيفا لأبنائها ونشرا لدين الله فيها ، كما أمر باستقدام بعوث كثيرة من البلاد المختلفة لتلقى العلم فى معاهده وكلياته الى جانب إخوانهم المصريين ، وهاهم أولاء قد أوفت عدتهم على ثلاثة آلاف من مختلف الأجناس يجدون فى كنف الفاروق من الرعاية والتكريم والتهذيب والتعليم ما يلهج ألسنتهم بصادق الشكر وخالص الدعاء للمليك المحبوب ، كما أمر حفظه الله بأن توفد وفود من علماء الأزهر الى جامعات أوروبا ليحيطوا علما بما عند أهلها من علوم نافعة ويعرفوا لغاتهم ويدرسوا أحوالهم وينشروا بينهم محاسن الإسلام وينفعوا قومهم إذا رجعوا إليهم.

وقد أنشىء بتوجيه جلالة الملك المعظم مركز ثقافى إسلامى فى انجلترا ، وسينشأ مثله إن شاء الله تعالى فى أمريكا ، ونرجو أن يتمكن الأزهر من تحقيق رغبة جلالته فى الإكثار من هذه المراكز .

ومولانا الفاروق أعزه الله لا يألو جهداً فى العمل على تقوية الأزهر ، وتوطيد دعائمه ، وتوفير أسباب الطمأنينة لأهله من علماء وطلاب حتى يتفرغوا للعلم ويعكفوا على خدمة دين الله القويم .

وإنى لأعلم من حدبه على الأزهر وعطفه على الأزهريين ما يجعلنى مستبشراً بالخير ، واثقاً من أن هذه الجامعة الكبرى سترقى فى عهده السعيد إن شاء الله تعالى إلى ذروة مجدها وتحقق آمال جلالته وآمال سائر المسلمين فيها .

وقد تلقيت من توجيهاته السامية فى شتى نواحى الإصلاح ما جعلته برنامجى وعهدى ، وأسأل الله تعالى المعونة عليه والتوفيق إلى تحقيقه .

أيها الأزهريون :

إنى لأعلم أن قلوبكم مفعمة بالولاء والحب والإخلاص لجلالة مولانا الملك المعظم ، وأعلم أنكم قادرون فضله عليكم وبره بكم حق قدرهما ، فما أحراكم بشكر هذا الفضل والاعتزاز بهذا البر ، وإنما يكون ذلك بقيامكم بواجبكم علماء وطلاباً حتى تحققوا آمال المليك فيكم ، وتؤكدوا للعالم ما عرف عنكم من أنكم جنود الله وحفظة دينه ، وحملة كتابه ، وتبعثوا فى الأمة الإسلامية على اختلاف شعوبها وأجناسها روحاً من الفتوة والصلاح تستعيد به مجدها وسالف عزها وكرامتها .

إنه لا صلاح لهذه الأمة إلا بكم ، ولا قيام لها إلا على أساس دعوتكم ، فإنها دعوة الحق فانهضوا بأعبائكم كراماً أولى قوة وابتغوا وجه الله تعالى فيما تعملون يصلح الله أموركم ، ويصلح بكم ، واعلموا أنكم جنود الله فجاهدوا فى الله حق جهاده واصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون .

اللهم إنا نسألك ونبتهل إليك أن تكلأ بعين رعايتك التى لا تنام جلالة مولانا الملك المحبوب فاروق الأول .

اللهم امنحه من لدنك نصراً مبينا ، وارزقه دوام العافية ، وتمام النعمة وحسن المزيد .

اللهم يا حى يا قيوم يا بديع السموات والأرض يا ذا الجلال والإكرام ، نسألك أن تجعل هذه الخطبة السعيدة فاتحة لخير عظيم تقر به عين جلالة الملك ، وتسعد به أمته وتتحقق به آماله ، إنك يا رب أكرم الأكرمين ، وأجود الأجودين وذو الفضل العظيم .

اللهم أعز به الاسلام وأرفع به راية القرآن ، واجعل عهده حافلا بالخير واليمن والاقبال وقوى به شوكة الإصلاح والمصلحين من عبادك الصادقين المخلصين .

اللهم أصلح فى عهده الميمون جميع شئوننا ، ويسر أمورنا ، واجمع ، شملنا وألف بين قلوبنا ، ونسألك اللهم أن توفق رجال حكومة جلالة مولانا الملك إلى ما فيه الخير العميم وأن تسهل لهم كل صعب وتيسر لهم أسباب رفعة شأن الأمة وسمو مكانتها إنك يا رب ولينا وكفى بك نصيراً وأنت يا رب مولانا ونعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

ليس من هنا نبدأ

تبين لنا من متابعة اطلاعنا على كتاب (من هنا نبدأ) أن المؤلف يروج للإشتراكية ، وهذا تطوع لا شية فيه ، فقد يكون مقتنعا بأن الأمة التى لا تأخذ بالاشتراكية لا تقوم لها قائمة ، فلا يؤاخذ على أن ينصب من نفسه داعية لها فى أمة دستورية ؛ ولكن الذى يؤاخذ عليه تصوير الدورة الاقتصادية للأمم تصويراً خاطئاً ، ورفع الاشتراكية العامة إلى مصاف العوامل الأولية فى ترقية الشعوب ، واعتبار الأشكال الأخرى من الاجتماع ، صوراً وقتية آيلة إلى الاشتراكية لا محالة سواء أسرعت فى تطوراتها أم أبطأت ؛ فأسرف لأجل ذلك فى المرغبات فيها ، وارتكب فى سبيل المبالغات ما لا يسمح به فى كتاب علمى من أخطاء ، وفاته أمر خطير وهو أن للتطورات الاجتماعية أدواراً لا بد للجماعات من الدخول فيها ، واستيفاء آمادها حتى تستعد الجماعة لقبول ما يليها ، وربما نشأت حوادث دفعتها للوراء درجات كثيرة بعد أن كانت على مقربة من آخر أطوارها .

قلنا إن المؤلف ارتكب فى سبيل تحضيضه مواطنيه على الدخول فى الاشتراكية ما لا يسمح به فى كتاب علمى ، ونحن نناقشه الحساب فى بعضها لأن فى تركها على حالها فى مؤلف كتب له الانتشار تضليلا للكثير من القراء . فلنتابع ملاحظاتنا عليها فنقول :

قال فى صفحة ٩٢ : « إن أفحش غلطة نقترفها خلال سعينا للسلام هى التماسنا له فى الخارج ، فنظن أن المعاهدات ودوراننا فى فلك دول أكبر سيملآن بلادنا سلاما وأمنا ، ولعل الدروس التى تعلمناها من معاهدة سنة ١٩٣٦ ومن منظمة هيئة الأمم ومجلس الأمن كفيلة بأن تلهمنا رشدنا » .

نقول : الواقع أن أحداً فى بلادنا لا يرغب فى عقد معاهدات مع أية دولة من الدول ، ولكننا نرغم على عقدها ارغاما . فانجلترا لم تنجل عن القاهرة والأسكندرية إلا بعد عقد معاهدة سنة ١٩٣٦ ، ولو كنا أبينا عقدها لما انجلت عنهما . ونحن الآن نريد أن تجلو عن قناة السويس فتأبى إلا بعد أن نعقد معها معاهدة تسمح لها باحتلالها إذا شبت حرب أوروبية . فنحن كما ترى لا نتطلع للمعاهدات ، ولا نصبو اليها ، ولكننا نتوسل بها لنكتسب خطوة جديدة نحو استقلالنا التام .

يريد المؤلف أن يثبت لقرائه أن وقوع طائفة من الأمة فى الفاقة المدقعة ، وتمتع أخرى بالرغد والسعة ، هو سبب كل بلاء يصيب الاجتماع ، ويدفع إلى الحروب . ونحن نوافقه على خطر هذا الوضع فى حدوده المعقولة ؛ ولكن خطر الإدقاع فى الفقر قد زال بسبب ما جد من نظم العمل ، وتحديد الأجور ، وقيام النقابات ، ومعونة الحكومات للعمال ، وبقى أشد عوامل الحروب خطراً ، وهى تسابق الدول على التحكم فى بعض الطرق البحرية ، أو احتلال بعض البقاع الأرضية لضمان تصريف محصولاتها ومصنوعاتها .

أما القول بأن الحروب تزول إذا وجد الناس الخبز والزبد ، فهو بعيد عن التحقيق ، لأن العوامل التى تدفع إلى الحروب من تزاحم الأمم على الاستعمار ، وعلى بسط السلطان الأدبى على الجماعات المستضعفة ، لا تزال موجودة ، بل أخذت شكلا مهدداً لمحق البشرية ، وخاصة بعد اكتشاف صنع القنابل الذرية ، وهل يفوت الأستاذ انقسام الأمم إلى معسكرين : أحدهما يؤيد الرأسمالية الفردية ، والآخر يعتبرها شر الشرور البشرية ، وما يبدو من كليهما من التحفز ، والتأهب لمجزرة عالمية ؟ فهلا حسب الأستاذ حساباً لهذا التطور الجهنمى الفظيع للعوامل المولدة للحروب ، فاكتفى بذكر أسبابها البدائية التى لم يبق لها وجود فى أية أمة متمدنة .

إن مشكلة أجور العمال قد حلت نهائياً فى أعظم الأمم الصناعية ، وهى أمريكا وانجلتره وفرنسا وجميع الممالك الأوربية ما عدا إيطاليا ، وهى هنالك أيضاً فى طريق الحل ، فلم نعد نسمع عن تلك الاعتصابات الدموية ، ولذلك لم تجد للاشتراكية صوتاً يسمع فيها ، ويمكن أن يكون هذا الهدوء بدء حياة طيبة يجد فيها كل عامل حقه موفوراً ، والعناية به وبأسرته بعد وفاته أصلا مرعياً .

أما ما نقله عن بعض الكتاب وأدعى أنه يحرض على الشيوعية من أن مجموع الضرائب المقررة على الأراضى الزراعية تبلغ ٤٧٠٠٠٠٠ جنيه فى حين أن مصلحة الرى التى تقوم على خدمة هذه الأراضى وتنظيم ريها تبلغ ٦٢٠٠٠٠٠ ، أى أن مصر تتبرع سنويا للسادة أصحاب الأملاك بمبلغ ١٥٠٠٠٠٠ جنيه ، فهو ليس بشىء لأن الحكومة بإقامتها مصلحة للرى لا ترمى الى مصلحة طائفة من الطوائف ، ولكنها ترمى لإيجاد نظام للرى فى أمة لا تقوم بدونه .

ثم قال : « ونظرة أخرى الى الميزانية ترينا أن قيمة عوائد الأملاك المبنية تبلغ ٩١٢٠٠٠ جنيه فى حين أن نفقات مصلحة التنظيم تبلغ ٢٠٠٠٠٠٠ جنيه . فكل رقم تقع عيناك عليه يصرخ فى وجهك بأن الثورة على النظام الإقتصادى حق ويؤكد لك أننا نعيش فى بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم الرسمى والجهل الحكومى » .

أما نحن فنقول ، وقبل أن نقول نسأل : ما هو ذلك النظام الاقتصادى الذى يلعنونه ؟ هل من مقرراته أنه يسمح لبعض طوائف الأمة أن تجد وتعمل وتكسب المال وتدخر ما يزيد عن حاجتها منه وتشترى به ضياعا ودورا ، وتحرم طوائف أخرى من ذلك وتحد أمامها مجال الإرتزاق ، وتحصره فى وجوه محدودة ؟

إن كانت على هذه الشاكلة فهى مقررات جائرة ، ويجب ليس لعنها فحسب بل والعمل على محقها ، والتسوية بين جميع طوائف الأمة فى الانتفاع بمواهبهم وجهودهم فى رفع مستوى حالتهم الاقتصادية . فإذا كانت الأرض تضيق عن سد مطامعهم فمجال التجارة يسعهم ، فإن ضاق عنهم ففى الصناعات ميادين لا تحد ، ووراء كل ذلك العلم الذى ليس له حد يقف عنده ، ولا لإمكانياته نهاية يتعذر تجاوزها .

ولكن يظهر أن أصحابنا يريدون أن يخولوا الحكومة فوق ما لها من حق حفظ النظام ، والسهر على الأمن العام ، والفصل فى الأحكام ، حقوقا جديدة تبلغ بها إلى حد التحكم فى توزيع الثروة العمومية للأمة ؛ فلا تدعها تدور مع الأمة حرة فى أدوار رقيها المدنى والتعاملى ، بل أن تقيد وتوكل إلى إرادة الحكومة تتصرف فيها كما تريد . والحكومة كما تعرف أفراد من الناس لا من الملائكة .

وهذا نظام ينافى ما عليه الأمم المتمدنة من جهة ، ويعطل حركة التجارة من جهة أخرى .

نعم الغرض منه أن لا يحرم الفقراء وهم السواد الأعظم فى الأمم من مقومات الحياة ، ولا يتعرضون معه للفاقة والإعواز ، وأن لا تتضخم ثروة الأغنياء فتبتلع ثروة الأمة وتحتكرها لعدد محصور من الأفراد . ولكن أطباء الاجتماع قبل أن يعمدوا فى علاج هذا المرض إلى البتر ، عمدوا إلى الحد من تضخم الثروات بفرض الضرائب . وهذا مجال يمكن التوسع فيه إلى حد بعيد يصل إلى أقصى ماتستدعيه الحال . وهو أفضل من الحل الأول ، لأنه يتماشى مع النظم الدستورية ، ولا يعتبر شذوذاً عن المألوف فى الجماعات ، ولا يفضى إلى تحكيم عدد يعد على الأصابع من الرجال فى أمة يبلغ عدد أفرادها عشرات الملايين .

يعطى الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) عن المجتمعات العربية صورة مزعجة قاتمة ، وهو لم يبالغ فيما كتبه عنها ، ولكنه عزا ما هى فيه إلى النظام المالى الذى هى عليه ، وفاته أنها مصابة بضروب من الأمراض الاجتماعية والأدبية تحول دون تطورها فى أدوار التقدم والارتقاء ، بحيث أنه لو طبق عليها أرقى نظام مالى لما غير من سوء حالتها التى هى عليها قيد أنملة ، بل ربما أسرع بها إلى الهاوية .

وإذا كان هذا النظام المالى أو كما يسميه بالرأسمالية الفردية ، وبالرجعية الاقتصادية ، هو علة كل بلاء يصيب الجماعات ، فما بال الدول الأوربية الكبرى لا تزال مبقية عليه ، ومحتفظة به ؟ نعم إن لدى كل منها حزبا يدعو إلى الاشتراكية ولكنه لا يبلغ عند واحدة منهن أكثر من خمس أعضاء مجالسها النيابية ، وهى قلة لا تؤثر فى وجهة سياستها العامة ، فكيف يسمح كاتب لنفسه أن يزعم أن الأمم لا يستقيم لها حال إلا إذا أخذت بالاشتراكية . وبأى سلطان يستسيغ كاتب أن يكتب مثل العبارة الآتية فيقول :

« هذه الرجعية هى التى توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتمزقها وتحرقها ..

ويقول :

« هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟ وهل نرغب فى تجنيبها

ويلات الفتن والاضطرابات ؟ إذن فلنكافح (الجريمة) . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل التى تيسر نشوء (الجريمة) . فالوقاية كما يقولون خير من العلاج . وإننا حين نتتبع سير الانتفاضات العنيفة التى وقعت فى التاريخ لا نكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد وحكومة تأبى » الخ .

نقرأ هذه العبارات ونعجب ولا ندرى كيف تكتب ، ولمن تكتب ؟ فاما لدينا فالأمة إن طلبت من حكومتها شيئا فلا تستطيع أية سلطة أن تأباه عليها ، لأنها أمة ذات نظام دستورى تستطيع أن توجد لنفسها كل ما ترجوه من النظم والتقاليد .

وأوروبا على أرقى مما نحن عليه من النظام الدستورى ، وهى أعرق منا فيه ، فلا يوجد فيها حكومة واحدة تحدث نفسها أن تأبى على شعبها شيئا يريده ، وكيف تتجارأ على شىء من ذلك ، أو تحدث نفسها به ، وهى وليدة إرادة الشعب ؟ فإن طلب الشعب إليها شيئا فإما أن تنفذه وإما أن تستقيل ؛ فإن استقالت قامت غيرها مكانها ونفذت رغبة الشعب ، لأنه المسئول وحده عن شئونه كلها .

وقد خولت الشعوب حكوماتها بعض السلطات حين ترى أن الحالة تستدعى استفتاء الجماعة فى مبلغ ثقتها بنوابها الحاليين أمام ما هى بصدده من الشئون ، فخولتها الحق فى أن تطلب من الملك أو من رئيس الجمهورية أن يستفتى الشعب فى الأمر الذى يثير الخلاف بين نوابها والحكومة ، فيحل المجلس ويدعو الشعب لانتخاب غيره . فإذا انتخب الشعب نوابه الجدد ، وأخذ رأيهم وجاء مؤيد لرغبة نوابه السابقين ، قامت الوزارة بتنفيذ ما يرغبون ، لا تجرؤ سلطة فى الأرض أن تردها أو تعطل من سيرها .

هذا مؤدى النظام الدستورى الذى تقوم عليه جميع حكومات العالم المتمدن فهل يمكن لمن يلم به أن يفهم المراد من قول الأستاذ المؤلف : (أمة تريد وحكومة تأبى) ؟ فهذه الحكومة لا توجد فى عهدنا الذى نعيش فيه إلا لدى الشعوب التى لا تزال فى عهد السذاجة الاجتماعية ، ولسنا وليست أمم أوروبا قاطبة منهم .

فإذا بدا لأهل الرأى من علماء الاجتماع أن تأخذ الأمة بمبدأ جديد ثبت نفعه ، فالطريقة الوحيدة للدعوة إليه أن يفضوا به إليها على صفحات الجرائد والمجلات ،

وأن يصدروا به كتباً ونشرات رجاء أن يذيع العلم به بين الناس ، فيصل من هذا الطريق إلى نواب الأمة ، فإذا اقتنع به عدد كاف منهم أسرعوا إلى جعله موضوع مناقشة برلمانية ، فيشتد النماش فيه ، وتتجلى جميع خوافيه . فإذا كان موضوعه ماليا تصدى له أعضاء مجلس الشيوخ وهم أقوى أنصار الرأسماليين ، فيشتدوا فى نقده ، وإظهار جهات ضعفه ، ونواحى خطره ، وقد يعملون على رفضه . فإن اقتنع أعضاء مجلس النواب بأدلتهم وافقوهم على دفعه ، وإلا أصروا على تأييده ، وتأخذ الإجراءات النيابية طريقها فى تقرير مصيره .

هذا هو الطريق الدستورى فى بث التعاليم والمذاهب فى الجماعات الدستورية ، لا أن تطالب من الحكومة مباشرة .

وقد قصد واضعو الدساتير هذا النظام فى بحث المطلوبات الجديدة لتتمكن الأمة من دراستها دراسة عميقة ، بتقليبها على كل وجه ، وإطلاق الحرية لكل ممالىء لها أو معترض عليها رجاء أن يجدوا الوقت الكافى والحرية المطلقة للاحفاء فى دراستها ، وإبداء آرائهم فيه غير متأثرين بشىء غير المصلحة العامة .

محمد فريد وجدى

إيمـــان

قال الحسن والحسين لعبد الله بن جعفر : إنك قد أسرفت فى بذل المال .

فأجابهما : بأبى وأمى أنتما إن الله قد عودنى أن يتفضل علىّ وعودته أن أتفضل على عباده ، فأخاف أن أقطع العادة فيقطع عنى .

وقال المأمون لمحمد بن عبادة المهلبى : أنت متلاف ، فأجابه : منع الجود سوء الظن بالمعبود . يقول الله عز وجل وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه وهو خير الرازقين .

وقال النبى صلى الله عليه وسلم : أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا .

وقال صلى الله عليه وسلم : الخلق عيال الله ، فأحب الخلق الى الله أنفعهم لعياله

في سبيل الله والأزهر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أما بعد :

فقد أردت نفسي جاهداً على أن تكون كلمة هذا العدد فى باب من الأبواب التى أكتب فيها المتصلة بالفلسفة والفكر عامة ، فابت إباء شديداً ، وحتمت عليّ أن تكون هذه الكلمة عن الأزهر خاصة ، ولا عجب ! فلئن كان الأزهر فى كل أدوار تاريخه الطويل الحافل ملء الزمان ، فهو هذه الأيام ملء الزمان والأسماع ، حتى استرعى انتباه البلد كله ، وأفردت له الصحافة الكريمة مكاناً كبيراً ، فنحن لا نعيش هذه الأيام إلا له ولا نفكر إلا فيه .

يتساءل كثير من الناس ممن لم يتبطنوا الأمر ، ولم يفقهوا ما يراد بالأزهر ، عن السر فى ثورة الأزهريين جميعاً ، طلاباً ومدرسين وأساتذة ، هذه الثورة الهادئة الجادة الحازمة ، وكيف أصبحوا يطلبون مطالب مادية كما يطلب الغير ، وقد عهدوهم زهاداً فى الدنيا حين يتكالب غيرهم عليها ؟ ولهؤلاء المتسائلين على هذا النحو أتوجه بهذه الكلمة :

ما كان الأزهر فى يوم ما طالب دنيا ، ولكنه صاحب رسالة يحرص على أدائها ، ويرجو أن يعان عليها ، بل ألا يُحال بينه وبينها . وهذه الرسالة هى حفظ كتاب الله وحراسة شريعته ، وإذاعة التعاليم الإسلامية فى مصر وغير مصر من أقطار الأمة الإسلامية ، والعمل على أن يكون هذا الكتاب الكريم ، وتلك الشريعة السمحاء هما الفيصل فى البلاد الإسلامية فى نواحى التشريع والأخلاق والتقاليد .

وهذه الرسالة، على خطرها وجلالها وثقل ما تقتضيه من تبعات، قام بها الأزهر فيما مضى من تاريخه الطويل، وعرفت له الأمة الإسلامية عظم الدور الذى يقوم به، فأحلته المحل اللائق، ورفعته مكاناً علياً. أما اليوم فقد وضح، حتى لمن كان أعمى أو لمن لا يحب أن يتعمق الأمور ويرد النتائج إلى مقدماتها وأسبابها الأولى، أن القائمين على شئون مصر فى هذه السنوات لا يريدون أن يقوم الأزهر برسالته من حراسة الدين وأخذ الأمة به، حتى يتم لهم ما عملوا له زمناً طويلا من فصل الدين عن الدولة فصلا تاما، ومن أن يكون مجتمعنا مجتمعاً لا يمت فى مجموع مظاهره وتقاليده للشريعة بسبب قوى أو صلة متينة. ومن ثم راحوا يتحيفون حقوق الأزهر وأهله فى عنت، ويتحدونه وأبناءه فى جبروت، ويحاولون صرف الناس عنه بطرق وأساليب شتى، ويجدون مما بين أيديهم من الحكم وأسبابه العون فى كل ما يريدون، بل ويجدون لهم أنصاراً ممن لا يريدون — فيما يزعمون — أن تتخلف مصر عن ركب الحضارة، كأن الإسلام الذى أوجد أكبر حضارة عرفها الإنسان، أصبح حجر عثرة فى سبيلها هذه الأيام!

هذا، وإنا نعتقد أن الحالة أو المحنة التى يمر بها الأزهر الآن، وسيخرج منها بفضل الله، وقد نفى عن نفسه الخبث، وذاد عن عينيه النوم الثقيل البغيض، هى نتيجة لسياسة، وضع أسسها المستعمر منذ قرابة قرن من الزمان، ولا تحمل الحكومة الحاضرة وحدها تبعتها.

إن الاستعمار على ضروب مختلفة لكل منها وسائله، ولكن مهما يختلف المستعمرون فى طريقهم وأساليبهم، فإنهم يتفقون على وجوب القضاء على قومية البلد المستعمر، وهذه القومية تقوم على الدين واللغة والتقاليد. وهذه الغاية قد يسير إليها المستعمر فى عجلة وعنفوان، كما فعلت فرنسا فى الجزائر، أو فى هون وتؤدة، كما حاولت انجلترا فى مصر ونجحت فيه نجاحاً غير قليل.

لقد بدأ الأمر عندنا منذ طويل بالتهوين من شأن الدين واللغة، أو تحيف حقوق القائمين بهما، وجعلهم لدى الأمة فى منزلة أدنى من نظرائهم فى الثقافة، والعمل والخدمات العامة للأمة. ومن ثم، كان خريجو دار العلوم دون خريجى

مدرسة المعلمين العليا منزلة وراتباً ، مع اشتراكهما فى العمل فى المدرسة الواحدة ؛ وكان القضاة الشرعيون ـ ولا يزالون ـ دون القضاة الأهليين فى المرتبة المادية والأدبية ، مع الاستواء فى الحكم بين الناس ، وما لذلك من تبعات جسام ؛ وكان خريجو الأزهر فى منزلة أدنى من هؤلاء جميعاً .

ثم انقضى الاستعمار بحمد الله ، ولكن بقى ـ لا أقول أذناباً وصنائع ـ من يخدمون بعض ما كان له من غايات ، من حيث يدرون أو لا يدرون ، فاحتطبوا فى جعله زمناً طويلا ، حتى انتهى بنا الأمر إلى كثير مما كان يريد .

ها هو ذا أحد المسلمين ، وله مكانة ملحوظة فى البلد ، يقول فى كلمة نشرتها له أوائل عام ١٩٤٩ صحيفة إسلامية واسعة الانتشار : ولا يخفى أننا فى مصر نجرى ، فى حكمة واعتدال ، على فصل الدين عن أمور الحكم وخلافات السياسة .

وها هو ذا آخر درس القانون ، وصار من المحامين ، يقول فى عريضة دعوى الآنسة المحامية أمينة مصطفى خليل التى دفعتها أمام محكمة القضاء الإدارى تشكو وزير العدل إن لم يعينها وكيلة نيابة أو محامية بقلم قضايا الحكومة بعد أن استشار فى الأمر رجال الدين ، يقول كما جاء بمجلة أخبار اليوم بتاريخ ٤ نوفمبر سنة ١٩٥٠ :

« وقد أخطأت وزارة العدل السبيل حين توجهت إلى رجال الدين تستفتيهم فى مسألة اجتماعية لا تتعلق بالدين — كما لو كانت مسألة ولاية المرأة القضاء أو شيئاً منه أمراً لا يتعلق بالدين والشريعة الإسلامية — فى كثير أو قليل . فكان حتما عليها ، حتى لا تتخلف عن السير فى ركب الحضارة ، أن تسائل نفسها : هل تقوم فى مصر حكومة دينية ؟ وهل الحكومة القائمة تطبق المبادىء الشرعية حتما وصدقا ؟ أو هل يعيش المصريون فى مجتمع شرعى تطبق فيه أحكام الدين الحنيف ؟ فإذا كانت الإجابة عن هذه الأسئلة بالسلب ، حق على وزارة العدل أن تتورع عن الزج بالدين فى الأمور الاجتماعية البحتة » ، إلى آخر ما قال ! ونحن نعتقد مع محامى المدعية أن الإجابة عن هذه الأسئلة كلها هى بالسلب ، وهذا مايكشف لنا عما وصل إليه من النجاح أنصار إقصاء الدين عن الدولة والمجتمع نفسه . وهم مع هذا يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، متجاهلين قوله تعالى فى سورة المائدة : « أفحكم الجاهلية يبغون ، ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون » ! مع أن الحافظ بن كثير

وهو من أجل علما والإسلام ، يقول فى أثناء تفسيره لهذه الآية : « فمن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله » .

وأخيراً ، من باب التمثيل ، لا من باب الاستقصاء ، نرى الأزهر يذاد عن القوامة على الشريعة فيما يفرض على البلد من قوانين ترجع إلى كثير من المصادر ماعدا شريعة الله ورسوله ! كما لا يسمع له فيما يجرى فى مصر من منكرات ومظالم وآثام ، وفيما يشيع فيه من تماليد تبعد عن أمر الله والخلق الطيب بعد المشرق عن المغرب ! .

أرأينا إذاً أن التهوين من الأزهر وأبنائه وعلمائه ورجاله عامة ، وانتقاص حقوقهم جميعا فى غير ورع أو حياء ، أمر يجرى على سنن مرسوم وسياسة وضع المستعمر أسسها ووسائلها منذ زمن طويل ! وأنه من عدم فهم الأمر على حقيقته ، ومن تجاهل العلل الأولى لهذه المحنة التى نمرّ بها ، أن يقال إن الأزهريين يثورون طلباً للمادة كما يفعل الأغيار ! .

ألا إن الأمر أخطر من هذا كله كما رأينا ؛ ألا وإن من يؤمن بالله ودينه ، والرسول وشريعته ، والأزهر ورسالته ، طلاباً وأساتذة ورؤساء ، ليس له أن يتزحزح خطوة واحدة عن هذا الموقف الذى نقفه الآن جميعاً فى سبيل الله والأزهر ، وإلا كان فاراً من الزحف ، وباء بسخط من الله ورسوله والمسلمين جميعاً فى مشارق الأرض ومغاربها .

إن الأمر أيها الناس ، لا يعدو إحدى اثنتين : إما ألا تكون مصر والعالم الإسلامى كله فى غير حاجة للأزهر ، أو أن تكون فى حاجة ماسة له .

فإن كانت الأولى فليغلق الأزهر ، ولينفق ما يرصد له فى الميزانية على غيره من مرافق البلد ، وليريحونا من هذه الحياة التى لا يرضاها حرٌّ أبى كريم .

وإن كانت الأخرى ، وهذا ما نعتقده صحيحاً ، فعلى الدولة أن تعرف للأزهر وأبنائه منزلتهم ، وأن توفر لهم الحياة الكريمة كفاء ما يقومون به من رسالة وما عليهم من تبعات ، وعلى الأمة الإسلامية كلها أن تطالب الدولة بذلك كله فى جدّ وإلحاح من يعرف أنه يطالب بحقه . وأقول : « على الأمة الإسلامية » ، لأن الأزهر وإن كان فى مصر ، ليس لمصر وحدها ، ولكنه لأمة الإسلام جميعا ،

والأمر فى هذا ثابت واضح لا يحتاج إلى دليل أو توضيح . وليس لأحد ممن بيدهم الأمر أن يتعلل لمحدثيه بإمكان الميزانية العامة للدولة أو عدم إمكانها ؛ وإلا فكيف تتسع هذه الميزانية للإغراق على جميع الطوائف ، بل وللإغراق على فرق التمثيل والرقص نستقدمها من أوربة للترفيه عن الأغنياء المترفين !

هذا ، ونقول أخيراً ما قاله فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ حسنين مخلوف عضو « جماعة كبار العلماء » ، لدى فضيلة أستاذنا الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، إن المسألة ليست اليوم مسألة مطالب عادلة فحسب ، وإنما هى مع ذلك مسألة كرامة وعزة . ويجب أن يكون للأزهر قيمته ومنزلته التى عرفها التاريخ وعرفها العالم الإسلامى ، فيعترف له بحقوقه ، ويقدّر أهله وما يؤدون للبلاد من خدمات التقدير اللائق . . . وإننا ، ثقة بلفتات جلالة المليك التى شملت الأزهر فى كل شئونه بمزيد من العطف والرعاية ، لنرجو أن يكشف الله بها هذه الغمة ، ويزيل بها هذه المحنة .

ونقول أيضاً : أحبب بهذه محنة جعلت الأزهريين ، طلابا ورؤساء ومرؤوسين ، جسما واحداً ورجلا واحداً فى سبيل الله ودينه ، ورسوله وشريعته ، والأزهر ورسالته ، والله المستعان ؟

عتاب

دخل أبو دُلَف أحد قواد جيوش الدولة العباسية على أمير المؤمنين المأمون ، وقد كان عتب عليه ثم أقاله ، فقال له وقد خلا مجلسه : قل أبا دلف وما عسيت أن تقول وقد رضى عنك أمير المؤمنين وغفر لك ما فعلت ؟ فقال أبو دلف : يا أمير المؤمنين :

ليالى تدنى منك بالبشر مجلسى ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فمن لى بالعين التى كنت مرة إلى بها فى سالف الدهر تنظر

فقال المأمون : لك بها رجوعك إلى مناصحتك ، وإقبالك على طاعتك ، ثم عاد له إلى ما كان عليه .

شرك العقيدة وشرك العمل

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

لا أظن أنه بقى على ظهر البسيطة من يعتقد أن هناك إلهاً مع الله يستحق العبادة والخضوع له كما يستحقها الله جل جلاله ، ولكن هناك نوعاً من الشرك ما يزال باقياً ، وهو أشد خطورة من الناحية العلمية وأكبر ضرراً على المجتمع من شرك الأوثان والكواكب والأحجار .

بيان ذلك أن الشرك بالله واتخاذ غيره إلهاً نوعان :

شرك فى العقيدة ، وشرك فى العمل .

فأما شرك العقيدة : فهو أن يعتقد الإنسان أن مع الله إلهاً آخر يستحق العبادة والطاعة ، كهؤلاء الذين كانوا يعبدون الشمس والقمر والأشجار والأحجار وغير ذلك من التماثيل ، التى كانوا يصنعونها بأيديهم ثم يخضعون لها ، ويقفون أمامها خاشعين ، ويتخيلون رضاها وغضبها ، وبركاتها ولعناتها ، فترعد فرائصهم منها خوفاً وفَرَقاً ، ولا شك أنه لا يوجد سفه وضلال يقع به الإنسان فى التخبط والعماية كهذه العقيدة ، ولم نجد أحداً فى التاريخ يعتقدها إلا ذوو الأحلام الضعيفة والعقول السخيفة ، ولذلك يسخر الله منهم دائماً ، ويصفهم بالجهل والعمى ، وأن لهم قلوباً لا يعقلون بها ، وآذاناً لا يسمعون بها ، وأعيناً لا يبصرون بها ، وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلا .

وهذه العقيدة مودية بصاحبها فى الدنيا قبل أن تودى به فى الآخرة ، وحسبنا أن نتصور رجلا يعيش فى مجتمع مفكر — ولا سيما فى عصرنا الحاضر —

وهو يؤمن فى قرارة نفسه بأن هذا الحجر أو ذاك إله يستحق منه العبادة ، ويملك له النفع والضرر ، إنه لا شك يكون فى سائر تصرفاته ذا عقلية ضئيلة ، وشخصية هزيلة ، ومثل هـذا لا يرجى منه أى خير ، بل هو دائماً عرضة لجميع الشرور وألوان الفساد ، ولذلك يصور الله تعالى حال الشرك به تصويراً رائعاً يمثل جميع معانى الحيرة والاضطراب والخوف والضعف والضلال فيقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » .

هذا هو شرك العقيدة ، وهو أول انحراف عن سواء السبيل ، وإليه يرجع كل اضطراب وكل شر وكل فساد فى هذه الحياة .

أما كونه أول انحراف عن سواء السبيل ، فذلك أن الفطر السليمة والعقول المستقيمة توحى بالإيمـان بالله إيمانا صحيحاً لا يخالجـه شك ، ولا يفسده شرك ، فإن الإنسان مفكر ، وتفكيره يهديه إلى أنه لم يوجـد إلا بمؤثر ، ولا يجد شيئاً أمامه يمكن أن يسند إليه هذا التأثير ، بل يجد كل ما حوله من الأشياء موجداً بعد عدم مثله تماما ، فيذعن فى قرارة نفسه لهـذه القوة الغيبية التى تأتى الرسل وتنزل الأديان فتسميها الإله الذى خلق الخلق ، وتفكيره يهديه أيضاً إلى قضية أخرى هى قضية الوحدانية ، فيؤمن بها إيمانا عقليا عن طريق النظر فى أدلتها المعروفة ، فإذا انحرف الإنسان عن حكم فطرته ، وعن حكم عقله وتفكيره فى هـذا الشأن الذى يتصل بالعلاقة بينه وبين خالقه وموجـده ، كان ذلك أول انحراف عن سواء السبيل .

وأما كون هـــذا الانحراف سبب كل اضطراب ، فإنه كما ذكرنا دليل على التياث العقل ، واعوجاج الفكر ، وباعث على سوء التصرف ، ولا يمكن أن يعيش امرؤ فاقد العقل سيء التصرف عيشة سعيدة صالحـة بين قوم عقلاء يعرفون ما يفعلون وما يتركون .

* * *

أما شرك العمل فهو إيثار ما سوى الله على الله ، وإن اعتقدت أن الله واحد ، وأن الأمر بيده ، فانه لا يكفى أن تؤمن النفس إيمانا سلبيا داخليا بأن الله هو مالك النواصى والأقدام ، ثم لا يظهر لهذا الإيمان أثر فى التصرف والعمل ، بل يظهر فى الأعمال والتصرفات عكس ذلك ، كأن الإيمان هو ذلك الزعم القلبى الخفى الذى لا روح له ، ولا حياة به ، إنما الإيمان الحق هو الذى يحول بين صاحبه وبين إثبات المنكرات واقتراف الآثام .

ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يقتل القاتل حين يقتل وهو مؤمن » ويقول فى حديث آخر : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قالوا من هو يا رسول الله ؟ قال الذى لا يأمن جاره بوائقه » إلى غير ذلك من الأحاديث التى تربط الإيمان الحق الذى يعبد الله به بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ، وقد وصف القرآن الكريم المائلين إلى الأهواء ، المتبعين للشهوات بأوصاف العبودية لغير الله ، واتخاذ غيره إلها إذ يقول : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه » « ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » « أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا » « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم ، فمن يهدى من أضل الله » .

ووصفت السنة أيضاً هؤلاء بمثل ذلك فقد جاء فى بعض الأحاديث النبوية الصحيحة « تعس عبد الدينار والدرهم ، تعس عبد الخميصة » .

فهؤلاء مشركون ، وإشراكهم أضر على المجتمع من إشراك عابد الوثن ، والمعتقد فى الحجر ، لأن عابد الوثن يضر نفسه ، ويفسد حياته ، أما هؤلاء فانهم يبثون الفساد والوهن فى صفوف المجتمع ، ويشيعون فيه الضعف والمنكر وسائر أصناف الرذيلة .

* * *

أقول هذا بمناسبة ما سرى فى مجتمعنا المصرى من فساد وأخلاق سيئة ، عمت الصغير والكبير ، وأصبح أمرها من التسليم والقبول فى المجتمع كأمر العقائد الثابتة ، ومن حاول التنفير عنها ، أو النصح بالتخلص منها ، عدّ فى قومه كالنافخ فى الرماد ، أو الضارب فى الحديد البارد ، ووجد من الناس من يلومه ، ويهجن فعله ، ويرميه بالتجاوز والاغترار .

وقد أصبحت مهمة العلماء ورجال الدين والإصلاح بذلك من المشقة والعسر بمكان ، وإلا فمن ذا الذى يستطيع أن يحول الناس عما ألفوه ، ودرجوا عليه من التعامل بغير ما شرع الله ، أو عن إباحة ما استباحوا من الحرمات باسم المدنية والحرية ، أو عن أخلاق الفجور التى منى بها الشباب ، وغض عنها الآباء والأمهات ، أو عن الفساد المتصل بالحاكمين فى الرشوة والمحسوبية ، والإهمال والتضييع ؟

إن الذى يريد أن يصلح شيئاً من ذلك ، أو يحاول خلع الناس منه ؛ يُنظر إليه نظرة تعجب ، ويتهم بأنه يعيش فى زمان غير زمانه ، ويفكر بعقل غير عقول أهله ، وهكذا انقلب المنكر معروفاً ، والمعروف منكراً ، واتبع الناس أهواءهم فاتخذوها آلهة ، وآثروها بالتقديم والطاعة على الله ، فليس ينفعهم أن يقولوا إنهم مؤمنون بالله رباً واحداً ، كما أنهم مؤمنون به خالقاً وموجداً .

* * *

إنى لأخشى أن يكون مجتمعنا قد آثر ما يسمونه الحرية أو المدنية على أمر الله وأحكام الله ، وإلا فقل لى بربك أيها القارىء : ما الذى يدعونا إلى التمسك بهذه الألوان الباهتة من المدنية الزائفة ، وقد أفضى بنا الأمر إلى كارثة الفضيلة والخلق ، حين هَمَّ بعض الفتيان فى حفلة أقامتها الدولة ببعض الفتيات المُجتَلَبات للرقص من أوربا ؟

أتغرينا المدنية والرقى الكاذبان بأخلاقنا وآدابنا إلى هذا الحد ، ثم نتمسك بأخطائنا فى شأنهما تمسك المرء بعقيدته ، ونؤثرهما على الدين ؟

هذا هو الشرك بالله فى أخطر صوره ، فإياه فحاربوا أيها المؤمنون .

العلم بأسباب نزول القرآن

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ فكرى يس

أخرج الواحدى بسنده عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم ، فإنه من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم ، فليتبوأ مقعده من النار » .

* * *

من القرآن ما نزل ابتداء للأغراض العامة التى جاء من أجلها ، كالهداية إلى الدين الحق ، والعقيدة الصحيحة ، والإرشاد إلى المعاملات المشروعة ، والأخلاق الفاضلة ، وما إلى ذلك من القواعد الأساسية الكبرى التى يقوم عليها النظام الكلى العام .

ومنه ما نزل مرتبطاً بسبب من الأسباب الخاصة ، كنزوله عقب حادثة معينة أو سؤال معلوم ، وذلك كالآيات التى نزلت عقب الخلاف الذى وقع بين جماعة من الأوس والخزرج بدسيسة من اليهود ، حتى تنادوا : السلاح السلاح ، فنزل قوله سبحانه : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » إلى آيات أخرى بعدها ، وكالآيات التى نزلن عقب السؤال عن ذى القرنين ، وعن الروح ، وعن الساعة .

وهذا النوع الثانى هو ما يعرف عند العلماء بسبب النزول ، وهو عبارة عن نزول الآية أو الآيات مبينة لحكم الحادثة التى وقعت ، أو لجواب السؤال الذى

رفع إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا طريق لمعرفة ذلك النوع إلا النقل الصحيح ، كما جاء فى الحديث الذى معنا ، فالقول فى أسباب النزول لا يحل إلا من طريق الرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عنها ، ولا يصح التعويل على غير ذلك من الأحاديث المرسلة إلا إذا صحت واعتضدت بمرسل آخر ، وإلا إذا كان الراوى من المعروفين بالتبريز فى التفسير ، ومن المشهود لهم بالتفوق فيه ، ومن الآخذين عن الصحابة رضوان الله عليهم .

وقد عنى العلماء بهذا المبحث عناية فائقة ، وأفردوه بالتأليف والتصنيف ، لأنه خير طريق لفهم معانى القرآن ، ومعرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، وتخصيص عامه ، وتقييد مطلقه ، وإزالة الإشكالات عنه ، وغير ذلك من الفوائد الكثيرة التى لها أهمية فى تفسير القرآن ، والتى تعين على فهم المقصود من آياته .

وقد تناول الأصوليون كثيرا من مباحث هذا النوع ومسائله وجزئياته بالدرس والتحليل ، والشرح والتفصيل ، وأشبعوه قولا وبحثا ، وأطالوا فى ذلك إطالة ليس وراءها زيادة لمستزيد .

ومن أدقّ ما استدل به الأصوليون على ضرورة معرفة أسباب نزول القرآن ، ولزومها لمن أراد فهم القرآن أمران :

الأول : إن الذى يعرف به إعجاز القرآن ، إنما مداره على معرفة مقتضيات الأحوال : حال الخطاب من جهة نفس المخاطَب أو المخاطِب ، أو الجميع ، إذ الكلام الواحد يختلف فهمه بحسب حالين ، وبحسب مخاطبين ، وبحسب غير ذلك ، كالاستفهام ، فهو لفظ واحد ، ويدخله معان أخر من تقرير وتوبيخ وغيرها ، وكالأمر ، يدخله معنى الإباحة والتهديد والتعجيز وأشباهها ، ولا دليل على معناها المراد إلا الأمور الخارجة ، وعمادهما مقتضيات الأحوال ، وليس كل حال ينقل ، ولا كل قرينة تقترن بنفس الكلام المنقول ، وإذا فات نقل بعض القرائن الدالة ، فات فهم الكلام جملة ، أو فهم شىء منه ، ومعرفة أسباب النزول رافعة لكل مشكل من هذا النمط .

الأمر الثانى : إن الجهل بأسباب النزول موقع فى الشبه والإشكالات ، ومورد للنصوص الظاهرة مورد الإجمال ، حتى يقع الاختلاف ، وذلك مظنة وجود النزاع ،

ويوضح ذلك ما روى أن عمر سأل ابن عباس : كيف تختلف هذه الأمة ، ونبيها واحد ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ، إنا أنزل علينا القرآن ، فقرأناه ، وعلمنا فيم نزل ، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرأون القرآن ، ولا يدرون فيم نزل ، فيكون لهم فيه رأى ، فإذا كان لهم رأى اختلفوا ، فإذا اختلفوا اقتتلوا وروى ابن وهب عن بكير أنه سأل نافعا : كيف كان رأى ابن عمر فى الحرورية ؟ فقال : يراهم شرار خلق الله ، إنهم انطلقوا إلى آيات أنزلت فى الكفار ، فجعلوها على المؤمنين .

وقد وقع من الحوادث بين الصحابة أنفسهم ما يدل على أن عدم معرفة بعضهم لأسباب النزول ، كان له أثر كبير عند بعضهم فى فهم الآيات على غير حقيقتها ، وتفسير القرآن على غير وجهه .

فمن ذلك ما أخرجه الشيخان من أن مروان بن الحكم أشكل عليه قوله تعالى : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ، ولهم عذاب أليم » ، فقال لئن كان كل امرىء فرح بما أتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا ، لنعذبن أجمعون ، وظل على فهمه هذا حتى بيّن له ابن عباس سبب نزول هذه الآية ، وأنها نزلت فى جماعة من أهل الكتاب سألوا النبى صلى الله عليه وسلم عن شىء فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، وأروه أنهم أخبروه بما سألهم عنه ، واستحمدوا إليه بذلك ، فلما بيّن ذلك ابن عباس لمروان ، زال عنه الإشكال ، وفهم المراد من الآية فهما صحيحاً .

وروى أن عمر بن الخطاب استعمل قدامة بن مظعون على البحرين ، فقدم الجارود على عمر ، وأخبره أن الجارود شرب فسكر ، فطلب عمر البينة فأقيمت ، فقال عمر لقدامة : إنى جالدك ، فقال : والله ، لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدنى ، فقال عمر : ولم ؟ فقال قدامة : لأن الله يقول : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا » ، فأنا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ، ثم اتقوا وأحسنوا ، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً ، وأحداً ، والخندق ، والمشاهد : فقال عمر : ألا تردون عليه قوله؟فقال ابن عباس :

إن هذه الآيات أنزلن عذراً للماضين ، وحجة على الباقين ، فعذر الماضين أنهم لقوا الله قبل أن تحرم عليهم الخمر ، وحجة على الباقين ، لأن الله يقول : « يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه » الآيتين ، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، فإن الله قد نهى أن تشرب الخمر . قال عمر : صدقت ، ونزل قدامة على رأى القوم عند ما تبين له سبب نزول الآية ، وعرف حقيقة المراد منها .

وجاء رجل إلى ابن مسعود ، وقال له : تركت رجلا فى المسجد ، يفسر القرآن برأيه ، إذ يفسر قوله تعالى : « فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين » ، بأن الناس يوم القيامة يأتيهم دخان ، فيأخذ بأنفاسهم ، حتى يأخذهم كهيئة الزكام ، فقال ابن مسعود : من علم علماً ، فليقل به ، ومن لا يعلم ، فليقل : الله أعلم ، ثم أخذ يشرح سبب نزول هذه الآية ، ويبين أصل معناها ، فقال : إنما كان ذلك ، لأن قريشاً ، استعصوا على النبى صلى الله عليه وسلم ، فدعا عليهم بسنين كسنى يوسف ، فأصابهم قحط وجهد ، حتى أكلوا العظام ، فجعل الرجل ينظر إلى السماء ، فيرى بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد .

وفى القرآن كثير من هذا النوع ، فليتتبعه من أراد ، وفى هذا القدر كفاية .

تحاسد الأقارب

قالت العرب : أزهد الناس فى عالم أهله .

ووقف أمية بن أبى الأشكر على ابن عم له فقال :

نشدتك بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من لؤى بن غالب
فإنك قد جربتنى فوجدتنى أعينك فى الجلى وأكفيك جانبى
وإن دب من قوم إليك عداوة عقاربهم دبت إليهم عقاربى

قال نعم كذلك أنت ، فما بال مثبرك لا يزال إلىّ دسيسا ؟ قال لا أعود . قال قد رضيت وعفا الله عما سلف .

وقال يحي بن سعيد : من أراد أن يبين عمله ويظهر علمه فليجلس فى غير مجلس رهطه .

كيف ندرس الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

بهذا العنوان ، نشرت مجلة الأزهر « عدد شهر ربيع الأول سنة ١٣٦٠ » . مقالا لأحد طلاب كلية اللغة العربية ؛ قدمت له بقولها : « هذا رأى فى دراسة الأدب للكاتب » . وأعقبته بقولها : « نشرنا هذا المقال لحضرة كاتبه الفاضل ، لما رأينا فيه من وجوه تقدر قدرها ، والمدار فى هذا الأمر على ما يتفق عليه آراء المشتغلين به ، وعلينا نحن أن نعرض الآراء عرضاً غير متحيزين لواحد منها »

ولما كنت أتشرف بأنى من أقدم مدرسى الأدب فى الكلية التى منها حضرة الكاتب الفاضل ، فأنه يحتم علىّ الكلام ، واجب العمل الذى آكل به خبزى ، وواجب الطالب ، الذى يعد شره فى مثالبنا ، وخيره فى مناقبنا .

* * *

أما بعد ، فيأيها الطالب الكريم ، الذى لم أتشرف بمعرفته بعد ؛ والذى أرجو له مستقبلا يضاهىء طاحه ، ويوائم ثقته بنفسه واعتداده برأيه ؛ وأخيراً ، يشبع غروره ، إشباعا يرده إلى تواضع العالم ، واتزان الناقد ، وهدوء الأديب ، إن شاء الله تعالى — إن أول شرط فى « هجائية » النقد الأدبى الذى حبّرت فيه مقالك ، سلامة الأسلوب وقوته ؛ ولا أكتمك أنه قد جرح شعورى « المعهدى » ما يشيع فى أسلوبك من تخاذل وتفكك واضطراب ، كان ينبغى أن تعنى بإصلاحه قبل أن تسمو إلى النقد الأدبى وتغرق نفسك فى آذيّه المتلاطم ؛ والناس يقولون : « الأساس ، فالبناء » .

فالناقد الأديب - يا بنى - لا يقول : مُساغا ، كما قلت ، وإنما يتهدى بالأسلوب القرآنى : وما يستوى البحران ، هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت التجزئة عنوان المباحث ؛ وإنما يقولها تاجر « التجزئة » .

والناقد الأديب لا يقول كما قلت : وأصبحت تطلق إطلاقا فينا الخ ، وإنما يقول : إطلاقا إصطلاحيا أو عرفيا وكذلك لا يصف الجناية بالفنية كما وصفتها ، إلا أن يكون ذلك تجديداً فى « الجنايات » ! .

والناقد الأديب ، لا يقول كما قلت : والسمو بالعواطف النبيلة ، فالعواطف النبيلة ليست فى حاجة إلى ما يسمو بها .

والناقد الأديب ، لا يحيل « يفسد » كما أحلت ، إذ تقول : « ولا مانع أن تتعدد ألوان هذا الخيط ، فيكون بعضه أحمر والبعص الآخر أصفر ، لأن جماله فى تماسكه وتجانسه وفى جوهره ، أما أعراضه فليست حائلا يمنع من تكملة الصورة واستقلالها » ؛ فهذا كلام يبصق بعضه فى وجه بعض ؛ واغفر لى هذا التعبير فإنه كلام . . .

إلى غير ذلك مما يخرجنا استقصاؤه إلى الإملال ؛ ومما هو من عمل معلم الإنشاء ، لا من عمل مدرس الأدب .

* * *

ثم أما بعد ، فإن الأدب الذى يدرس فى جميع المؤسسات الثقافية ، على اختلاف نظمها وطبقاتها ، نوعان :

١ — أدب وصفى ويسمى : النقد الأدبى ، كما يسمى : علم الأدب ؛ وموضوعه ، معرفة ما فى النصوص الأدبية نثرا ونظما ، من نواحى الجمال والقبح الفنيين . وفائدته ، فهم الأسرار البلاغية للقرآن الكريم للوصول إلى أصل من أصول الإعجاز ، لا ما قلت من أن : « القصد من هذه الدراسة ، تهذيب النفوس وترقيق المشاعر وتنمية الذوق الأدبى ، والسمو بالعواطف النبيلة ، بعد فهم هذه النصوص ، ليسهل الصب على قالبها والتوليد من معانيها والتشبث بجمال ألفاظها وتراكيبها » فكل أولئك فوائد دنيا ، بالنسبة إلى الغاية العليا من النقد الأدبى ، يابنى .

والأدب الوصفي هذا ، هو الذى استأثر بعناية العلماء والباحثين والنقاد قديماً وحديثاً ، واستبد بآفاق الدراسة الأدبية فى جميع العصور والمناهج ، مباشراً ، كما فى الوساطة والموازنة والعمدة ، وغيرها ، وغير مباشر كما فى كتب البلاغة . وما زال يدرس فى المعاهد العالية والعليا تحت عنوان النقد والنصوص ، وفى المدارس الثانوية تحت اسم : المحفوظات مرة ، والنصوص الأدبية مرة أخرى. وذلك أمر متعالم مشهور ؛ وليس كما قلت : « ان الأدب لم يدرس ولم يعرف عنه شيء فى دور التعليم » . ولا داعى أبدا أبدا ، لهذه العواطف التى يطفح بها قولك : « ولكن نفس الغيور على الأدب تتقطع حسرات عندما ينظر إلى طرق دراسة الأدب فى معاهدنا على اختلاف أنواعها . وإن كل ذى حدب على تلك الآثار ليتلوى ألما على مصير هذا الفن الرفيع ، حينما يتخيل الظلام المخيم « كذا كذا » على هذا الركن من التراث العربى » . وسَلِمَتْ نفسُك للأدب — يا بنى — وصحتك بالدنيا !

* * *

٢ — تاريخ أدب : وموضوعه معرفة الأطوار التى تقلب فيها الأدب ، وخصائص كل طور ، منذ ظهور الأدب الفنى « الأدب الإنشائى الذى هو قسيم الأدب الوصفى » إلى اليوم . والتاريخ مقدمة له ووسيلة إليه لا شطر من موضوعه.

ولقد ظلت الدراسات الأدبية منذ ظهورها ، مقصورة على النوع الأول « الأدب الوصفى » ، حتى سنة ١٨٩٢ ، حينما عاد المغفوو له المرحوم حسن توفيق العَدْل ، من بعثة إلى ألمانيا ، يحمل ـ فيما يحمل ـ مبادىء علم « تاريخ الأدب » وأخذ يدرسه فى مدرسة « المعلمين العليا » وجعل ذلك العلم ، يدرج فى مدارج الاكتمال والنضج ، وتشيع دراسته فى المعاهد الشرقية ، حتى وصل إلى التأصل والمقام الكريم الذى يتبوؤه اليوم من دراسة علم الأدب .

وقد تجلى تجلياً يقطع كل جدال ، أثر تاريخ الأدب ، فى فهم النصوص الأدبية ، منثورها ومنظومها ، فهما يجلى جمالها الفنى مسفراً وضاحاً ؛ فى أكمل مظهر ، وأجمل رواء ، لا يكاد يخفى ، إلا على أكمة لا يعرف القمرا !

يقول الدكتور طه حسين فى « الأدب الجاهلى » :

« فهل تزعم أنك تستطيع أن تفهم همزية أبى نواس : دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... دون أن تعرف النـّظام خاصة ، والمعتزلة عامة ، وما كان لهم من مذهب وقوة أيام أبى نواس ؟ وكيف تستطيع أن تفهم قوله :

فقل لمن يدّعى فى العـلم فلسفة حفظت شيئاً ، وغابت عنك أشياء

إذا لم تعرف أنه يريد النـّظام ؟ فإذا عرفت أنه يريد النـّظام ، فأنت فى حاجة إلى أن تعرف : من النـّظام ، ولم َعرَّض به أبو نواس ؟ فسترى أن النـّظام كان من المعتزلة الذين يقولون إنّ صاحب الكبيرة مخلد فى النار ؛ وإذ كان شرب الخمر كبيرة فصاحبها مخلد فى النار ؛ وإذن فأنت فى فلسفة النـّظام ، وأنت متعمق فى فلسفة المعتزلة ، وأنت مضطر إلى ذلك اضطراراً ، مضطر إلى أن تدرس التوحيد واختلاف أهل السنة والمعتزلة فيه ، لتفهم خمرية من خمريات أبى نواس » . اهـ .

وهل كان النقاد والعلماء ، منذ قال ابن هانىء الأندلسى فى أواسط القرن الرابع يمدح المعز الفاطمى :

ما شئت ، لا ما شاءت الأقـدار فاحكم ، فأنت الواحـد القهار

يرون فى ذلك غير أنه غلو غير مقبول ؟

ولكنك إذا عرفت ، أن المعز من الشيعة الإسماعيليين ، وأن من عقائد هذه الفرقة : أن الإمام قائم مقام الأمر والكلمة فى هذا العالم ، فجميع صفات البارى واقعة عليه ؛ وأن البارى تعالى عندهم ، منزه عن جميع النعوت والصفات ، كالقادر والصانع ، ولا يطلقون عليه شيئاً منها ؛ فإن إطلاقها عليه يوجب الكثرة فى ذاته تعالى ؛ فالصانع مثلا ، يقتضى صنعة ومصنوعا ، وهكذا حال جميع الصفات ، تجد الواحد منها ثلاثاً .

أقول إذا عرفت ذلك ، عرفت أن إطلاق «الواحدالقهار» على المعز لدين الله ، موافق لأصول عقائدهم . وليس فى ذلك الاطلاق شىء من الإسراف ولا من الغلو ؛ وأنّ رأى النقاد غلطة مزمنة ، لم يصححها إلا تاريخ الأدب .

على أن من المقررات المتعالمة المشهورة . أن الأدب ظل الحياة الاجتماعية ؛ فكيف يفهم هذا الظل على وجهه ، مقطوعا عن دراسة هذه الحياة ؟!.

وكان تاريخ الأدب لأول عهده بالظهور ، يدرس رأسيا : الخطابة فى جميع

العصور ؛ ثم الكتابة فى جميع العصور ؛ ثم الشعر بأغراضه المختلفة فى جميع العصور ؛ وعلى هذا الوجه ، ألف المغفور له محمد أفندى دياب ، كتابه « تاريخ الأدب » الذى كان يدرس فى المعاهد العليا فى عهد « نظارة المعارف » ويعتبر الكتاب الرسمى ؛ ثم جاء المتأخرون من أدباء العصر الحاضر ؛ فدرسوه وألفوا فيه أفقيا ؛ ولكل وجهة ؛ والخطب فى ذلك — فى مذهبى أنا — أيسر من أن يخرق خرقا فى الأدب ، أو يشرخ شرخا فى صرحه ، أو يهدم طوبة من بنائه . وحاجة كلتا الدراستين إلى معرفة أطوار الأدب ، وخصائص كل طور ، لا تتغير ، وليس فيها — كما قلت : « خلط لا يرضاه منصف لأدب لغة حية راقية » لأنه منهج طبقته جميع الأمم الحية ، ذوات اللغات الحية ، وعملت به ، وعنها نقلناه !

وأما بعد للمرة الثالثة ، فأنى أشكر لمجلة الأزهر ، تلطفها فى معاملتك ، وسخاءها فى مجاملتك ، واحترامها لرأيك ، « لما رأت فيه من وجوه تقدر قدرها كما قالت » . وعرضها له لتشتجر حوله الأقلام ، ثم وقوفها بأزاء ذلك على الحياد .

ثم أشكر لك أن أتحت لى فرصة مكنتنى من أن أضع الأمور فى نصابها ، وأن أقدم لك ولأمثالك من أبنائنا الأعزة ، وضحا من النور ، أرجو أن يصرفكم عن ضلال القصد إلى سواء السبيل .

بيد أنى أعتب عليك — يا ولدى الأستاذ أحمد محمد صقر — عتباً رفيقاً أبوياً ، لأنك تخطيت أساتذتك مدرسى الأدب فى كليتك الكريمة ؛ وإنما شفاؤك من البلبلة الفكرية التى جناها عليك ضعف دراساتك الأدبية ، على طريقهم ؛ لا على طريق مجلة الأزهر ، التى يشرف كل أزهرى ألا ينشر فيها إلا كل نافع مشرف ، وإن كان يخفف من خطئك هذا شدة الرغبة ، فى الشهرة وأن لك نظراء بين كتابها ؛ فكثير من مقالاتها يحسن أن يتوجه به إلى مجلات « الوعظ والإشاد » لا إلى مجلة علمية بحتة ينبغى أن تقتصد على البحوث المركزة ، فى المشكلات العويصة وليس ذلك عيب المجلة ، ولكنه فضيحة للناشرين .

وفتح الله عليك — يا ولدى — وسامحك ، إكراما لطموحك وغرورك ؛ فلقد أصبحت لا أحسد إلا المغرورين !

والسلا عليكم ورحمة الله وبركاته ؟ « أبوك وصديقك »

عهد المدنية

لحضرة صاحب السيادة «السيد»

حيّ أهلا بالهدى أو حيّنى — ذمّت الآداب إن لم تفتن
من لعهد يتلظى فطنة — ودّ للريبة إن لم يفطن
ثقفونا ثم قالوا ضلة — أنتم الدّنيا وإن لم تأذن !!!
غن بالجهل إن الجهل ازدهى — فابتنى للعلم ما لم يبتن !!!
سنّة العلم طماح وهوى — فتكة تجنى وكف تجتنى

عصر يا عصر الحجا لا مرحبا — بالعلوم الغيد إن لم تحسن
حلنى بالعلم رفّاف الحلى — يقتنى علياءه أو خلّنى
مهجة العلم دواهى ملحد — تثمر الكيد ونجوى مؤمن
رائد العلم نختّال المهى — يشتكى نقد المنى فى الثمن
نحن للفتنة نهب شدّ ما — قسمتنا فى الوغى والأعين
الوغى والحسن فتّان الهوى — أوقدا مذ نشآ من معدن
الحياة الطعن حتى حسنها — طاعن من كلّ قدّ ينثنى

قيل : حرب وجلاد والهدى — ليس يحيى والهوى فى موطن
إن فى رأس التحدّى فتكة — سوف توهى الكون إن لم تطحن
صاح فى الأفلاك ملق ذرة — يا علالات التقى لا تأمنى
قاتلى فى حربه أو حسنه — لست بالرحمن إن لم تحيينى

روّعت حرية السرب وما — قيمة الأصلاح إن لم يأمن
سل بحكم طيف تشهد سيّداً — يقتنى القانون فيما يقتنى
قاتل الشورى دهته وثناً — يتقى أو ساجداً للوثن
بورك الدستور فى أنصاره — جنة الحسنى وجند المحسن

لغويات

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ محمد على النجار

كتبت إليك لا لألومك . حضرت إليك لا لألومك بل لأشكرك . ما قرأت لا فقها ولا نحواً . هذه أساليب تجرى على ألسنة الناس ، وفى كتاباتهم ، وقد عن لى أن أبحث أمرها من وجهة النحو والعربية .

١ — فالأسلوب الأول — كتبت إليك لا لألومك — يجيزه النحاة ويسوغونه ، ولا يضيقون بتخريجه ، ويجعلون هذا من حذف المعطوف عليه ، والتقدير فى هذا المثال : كتبت إليك لأشكرك لا لألومك ، فلا عاطفة كما ترى والمعطوف عليه المحذوف هو المقابل للمذكور المضاد له ، ومن ثم جاءت لا غير مكررة .

وأقدم من عرض لهذا الأسلوب وتخريجه من النحاة — فيما علمت — الإمام أبو حيان المتوفى سنة ٧٤٥ ، فقد قال فى الارتشاف فى مبحث العطف بلا : « وقد يجوز حذف المعطوف عليه بلا ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم ، أى لتعدل لا لتظلم » ، وتبعه فى هذا تلميذه الحسن بن قاسم المرادى المعروف بابن أم قاسم شرحه للألفية فقال فى مبحث العطف : « قد يحذف المعطوف عليه بلا ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل » ، وقد جرى على سنن المرادى — وكانت وفاته سنة ٧٤٩ — أبو الحسن الأشمونى فى شرحه للألفية ، وقد أثر عن الأشمونى أنه يتقيل المرادى فى شرحه ، حتى إن تنبيهاته ونظامها أخذها عن المرادى ، وتتناقل الرواية عنه أنه قال : لولا المرادى ما بلغت مرادى . أقول إن الأشمونى ذكر هذا الحكم الذى أورده المرادى وممن عرض له بعد أبى حيان السيوطى المتوفى سنة ٩١١ فقال فى السهم[٢] : « وقد يحذف متبوعها ؛ نحو أعطيتك لا لتظلم أى لتعدل لا لتظلم » .

---

[١] الورقة ٣٠٨ ب من مخطوطة دار الكتب رقم ١١٠٦ نحو . [٢] ص ١٣٧ ج ٢ .

ولا أعلم سند أبي حيان فى هذا الحكم . فهل له فية إمام متبوع نقله عنه ؟ وقد كان أبو حيان واسع الاطلاع جداً ، اجتمع لديه من آراء النحاة ما لم يجتمع لغيره أم وقف فى هذا على شاهد اتخذه حجة وسلطانا ! وأيا ما كان الأمر فأبو حيان ثقة فى النحو وإمام ، وهو فيه الفحل لا يقرع أنفه ، وبحسبنا هـذا فى تصحيح الأسلوب الأول .

٢ ــ والأسلوب الثانى ــ كتبت إليك لا لألومك بل لأشكرك ــ أشهر وأفشى فى الاستعمال من الأول ، وتراه كثيراً فى عبارات المؤلفين ، حتى من يتحرى منهم الصحة ، ومن يأخذ من الفصاحة بسبب وثيق . فهـــذا الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١ ــ وهو من هو بلاغة وفصاحة ديباجة ــ يقول فى أسرار[١] البلاغة : « وإذ قد عرفت هذا فالحمل فى الآية من هذا التمثيل أيضا ؛ لأنه تضمن الشبه من اليهود لا لأمر يرجع إلى حقيقة الحمل بل لأمرين آخرين : أحدهما تعديه إلى الأسفار . . . » فقوله لا لأمر . . . يتعلق بقوله ، « يتضمن الشبه من اليهود » وترى أنه من الأسلوب الذى نتحدث عنه .

والقارىء يرى أن هذا الأسلوب يزيد على الأسلوب الأول الذى قررت صحته الإضراب (بل لأشكرك) وقد يؤتى بدله بالاستدراك فيقال : ولكن لأشكرك فهل هذه الزيادة تضر به ، وتقلبه مردوداً . منكراً ؟

وإذا تأمل المرء بعض تأمل رأى أن ما فى حيز الإضراب أو الاستدراك كان هو المعطوف عليـــه فى الأسلوب الأول ، وهنا يدرك لأول وهلة ما فى هذا الأسلوب من حرج وعسر فى التخريج .

فكيف تقدر المعطوف عليه فى هذا الأسلوب وقد ذكرته فى عجزه ! كان تقدير الكلام والنية به : جئتك لأشكرك لا لألومك ، فهل تقول : جئتك لأشكرك لا لألومك بل لأشكرك ولكن لأشكرك ، وهل هذا إلا هراء من القـول ولغو أشبه بهزيان المحموم .

إن الذى يبدو بعد هذا نبذ الأسلوب وأطراحه وهجره هجرا طويلا .

---

[١] ص ٨٣ .

على أن الباحث قـد يبدو له فى تخريجه ما يجعل له نصيبا من الصحة وقسطا من القبول .

فقد تستطيع أن تقـدر المعطوف عليه أمراً عاما غـير مافى حيز الاضراب أو الاستدراك . فتقول مثلا فى قولك : كتبت إليك لا لألومك بل لأشكرك : كتبت إليك لأمر تحمده لا لألومك بل لأشكرك . وقوله : بل لأشكرك إبانة عن هذا الأمر المحمود وإيضاح له .

وتستطيع أن تقدر المتبوع هو « لأشكرك » الذى هو فى حيز الإضراب ، على نسق ما قدر فى الأسلوب الأول . وهذا المتبوع إنما ينوى فى النفس ولا ينطق به ، حتى لا يكون فى النظم ضعف وتهافت . وربّ شىء يقدر ولا يخرج فى اللفظ ؛ ألا ترى الى قوله تعالى : « كتاب الله عليكم » فـكتاب معمول لمحذوف ، وتقدير الـكلام : كتب الله . فهذا تقدير العامل ، ولو قلت : كتب الله كتاب الله لوقعت فى سخيف من الـكلام ومهلهل من النسج ، وإنما هذا تقدير توجبه الصناعة النحوية ولا يتكلم به .

وبما أسلفت من تخريج هذا الأسلوب — على ما فيه من الإبعاد والتكلف — ترى أن لا بأس بهذا الأسلوب ، مع الوصية بأن يتجنب ويهجر .

وترانى التزمت فى هذين التخريجين أن تـكون لا عاطفة . وذلك أنها لو لم تـكن عاطفة لوجب تـكرارها . ولا يجوز مخالفة ذلك إلا فى ضرورة الشعر كما فى قول الشـاعر :

قهرت العدا لا مستعينا بعصبة ولـكن بأنواع الخدائع والمـكر

وثم مانع آخر ، وهو أن لا غير العاطفة وغير العاملة لا تدخـل إلا على نعت أو خبر أو حال أو معرفة . وسيأتى مزيد بحث لهذا فى الحديث عن الأسلوب الثالث .

٣ — والأسلوب الثالث — ما قرأت فقها ولا نحوا . ومثله : فلان لا ينفع لا فى حقير ولا فى جليل — أسلوب غير مرضى ولا مستساغ . وإنما الفصيح أن يقال : ما قرأت فقها ولا نحوا ، وفلان لا ينفع فى حقير ولا فى جليل . وذلك أن لا هذه إنما هى لتأكيد النفى ، ولا حاجة للتأكيد لقرب العهد بما النافية . وإنمـا تدخل لا هذه المؤكدة للنفى على المعطوف إذ كان فى حكم جملة ثانية ، على أن لا تزاد

فى العطف لمعنى زائد على التوكيد ، وهو النص على أن النفى تناول كلا من المتعاطفين ولم ينصب على اجتماعهما ، فإذا قلت : ما أكلت لحما وسمكا جاز أن يكون قصدك الى أنك لم تجمع بين هذين وإن أكلت أحدهما ، فأما إذا قلت : ما أكلت لحما ولا سمكا فقد نفيت أن تكون عرضت بالأكل لواحد منهما .

ولا هذه لا يصلح أن تكون عاطفة ؛ فإن لا العاطفة لا تدخل فى النفى ، وتدخل فى مواطن أخرى ذكرها ابن مالك فى قوله :

... ... ولا نداء أو أمرا أو إثباتا تلا

وإذا ثبت لديك ووقر فى صدرك ما ذكرته ، فإن لا هذه هى التى يجب تكرارها .

وينص النحويون على أنها تدخل فى غير التعريف على ثلاثة : الخبر والنعت والحال . ويقول ابن مالك فى الكافية :

ولازم فى سعة تكرير لا إذا بذى التعريف محضا وصلا
كذا إذا يتلوه نعت أو خبر أو حال إلا فى اضطرار من شعر

وقال فى شرحها [١] : « ومثال لزوم التكرار لكون المتصل بلا خبراً ونعتاً وحالا : لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون ، ويوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقيَّة ولا غربيَّة ، وجاء زيد لا خائفاً ولا آسفاً » .

وترى أنه حصر ما تدخل عليه ، لا غير العاطفة وغير العاملة فى الخبر والنعت والحال والمعرفة . وقد يرد على هذا الحصر ما أنشده أبو زيد فى نوادره [٢] من قول الراجز : فقام لأوان ولا رثّ القُوَى .

وقد يدفع هذا بأن مافى الرجز على تقدير حذف الموصوف ، أى فقام رجل لأوان ولا رثّ القوى ، فهو مما دخل فيه لا على النعت .

وروى الجهشيارى فى كتاب [٣] الوزراء لابن المقفّع :

إذا ما مات مثلى مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدرى بموتك لا الصغير ولا الكبير

---

[١] ص ١٧٠ ج ١ طبعة فاس . [٢] ص ١٢٨ . [٣] ص ١١٠ .

فكيف نقدّر الموصوف هنا ؟ هل يقال : ليس يدرى الإنسان ؟ إن المتبادر فى مثل هـذا أن يقال : لا يدرى أحد ، وحينئذ لا يكون « الصغير والكبير » ، وصفين له لاختلافهما بالتعريف والتنكير . والأقرب أن يحمل هـذا على الخطأ ، وابن المقفع قد يقع فى الخطأ ، وليس هو ممن يحتجّ به .

وأعود إلى ما كنت بصدده . وهو : ما قرأت لا فقهاً ولا نحواً ، فقد رأيت أن لا التى يجب تكريرها ، دخلت على ما لم يذكر النحاة دخولها عليه ، فليس منها المفعول والظرف . فالوجه الحكم فيه بالخطأ وإنكاره .

وقد وقع فى هذا الأسلوب ابن الرومى إذ يقول [1] فى معلم صبيان مغنّ :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا فى غناء ولا تعليم صبيان
له إذا جاوب الطنبور محتفلا ضرب بمصر وصوت فى خراسان

فتراه أدخل لا غير العاطفة وغير العاملة على غير الأنواع الأربعة . وعندى أن ابن الرومى أخطأ فى هـذا ، وهو متأخّـر عن عصر الاحتجاج الذى ينتهى بشار كما قيل . وإنى فى هذا أخالف الأستاذ العقّاد فى الحكم على ابن الرومى فهو يجعله بمفازة من الخطأ ، ويقول [2] : « أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربيّـة ولا سـيّما فى القرآن » . ويقول : « فلم يكن ابن الرومىّ ممن يسهل وقوعهم فى الخطأ النحوىّ ؛ وإلاّ لظهر منه ذلك فى مواضع شتى ، مع إطالته وإكثاره وجرأته على تذليل النحو لمن أراده » . ولا يعجبنى فى هذا المقام استدلال الأستاذ العقاد على سلامة ابن الرومى من اللحن بأنه جرى على منع « أشياء » الصرف كما وردت فى الكتاب الكريم ، ولم يتبع فى ذلك القياسيين من النحاة الذين يرون أن وزنها أفعال فهى مصروفة عندهم . وذلك أن أشياء لا يقول نحوى ـ فيما علمت ـ بصرفها ، وليسوا كلهم على أن وزنها أفعال : فجمهور البصريين أوزنها لفعاء . فجرى فيها القلب ، ومن يقول : إن وزنها أفعال يقول إنها منعت الصرف على توهم أن أشياء كحمراء فى الوزن ، والوهم يعمل كثيراً فى اللسان كما قيل : تمندل وتمدرع ، وكما جمع مسِـيل على أمسِـلة على توهم إصالة الميم .

---

[١] أنظر كتاب « ابن الرومى » للأستاذ العقاد ص ١٣٠ .

[٢] أنظر كتابه عن ابن الرومى ص ٣٢٢ وما بعدها .

أسباب العزة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ بالأزهر

قال الله تعالى فى محكم كتابه وهو أصدق القائلين : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا ، اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور » .

فى تعاليم هذا الكتاب العزيز ، وفى قوة بيانه ، وبالغ حجته ، وسلامة منطقه ، تتبين آيات من الهدى ، وتتفتح جنبات من الخير ، وتُدوّى هواتفُ بالحق ، معلنةً إشراقَه ، مُجَلِّيةً آفاقه ، ناطقةً بالحكمة وفصل الخطاب .

ينادى هذا القرآن العزيز طلاب العزة ، فيبصرهم بأسبابها ، ويسايرهم فى نواحيها ، ويضع على منافذ عقولهم وقلوبهم مناور الهدى والرشاد .

من كان يريد العزة فى الدنيا ، ومن كان يريد العزة فى الآخرة ، ومن كان يريد العزة فى الدنيا والآخرة جميعا ، فليطلبها عند الله ، فهو — وحده — صاحبها ، ومالكها ، وواهبها :

فأما عزة الدنيا ، من نباهة ذكر ، ووجاهة شأن ، ورجاحة رأى ، واجتماع الكلمة على حبه وحمده ، فمنشأ كل ذلك ومرده ، جمال الصلة بالله ، وجلال الطاعة فى تقواه .

فالعبادات كلها ، سرها وجهرها ، بدنية ، أو مالية ، أو بدنية ومالية ، أسباب تتوكد وتتوثق ، لتمكن للعابد ، وتمكن للمطيع ، فى عزة يتسع أفقها ، وتسمو غايتها .

فمقيم الصلاة عزيز : لأنه يطرح وراء ظهره عوامل الافتتان ومظاهر الاغراء ويستقبل بوجهه روحانية عالية ، يوجه إليها شعوره ووجدانه ، فما يكاد ينطق

لسانه : الله أكبر ، حتى يدخل فى هـذه الحظيرة القدسية إلى كنف هذا العلى الكبير ، ويحتمى فى جلال هذا القوى العزيز ، وينعم بالقرب من هذه العزة الغالبة التى تتغشاة وتتولاه ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا قام أحدكم إلى صلاته فإنما يناجى ربه فلينظر بم يناجيه » ؟ ويقول : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ، فما يكاد العبد يفرغ من صلاته حتى يكسب عزة من عزة الله ، وحتى يبلغ جلالا من جلال الله . أما المنفق فى سبيل الله — زكاة أو صدقة — فإنه لكذلك عزيز ، لأنه يقوم عن الله خليفة فى طعمة المحروم ، ووصلة المقطوع ، وغوثة الملهوف ، والله عز شأنه يقول : « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .

وعزيز لأنه يقرض الله قرضاً حسنا . فهو يتعامل مع ربه ، ومعاملة العزيز عزة .

وعزيز لأن يده العليا قد أعزها الله بالغنى ، ولأن اجماع الناس على حبه وحمده والدعاء له اعزاز له من أجل فضل الله الذى واتاهم به ، فهو عزيز فى نفسه ، وعزيز فى قومه ، وعزيز عند ربه .

يد المعروف غنم حيث كانت ... تحملها ، كفور أم شكور
فنى شكر الشكور لها جزاء ... وعند الله ما كفر الكفور

والصائم عزيز فى ترفعه عن الاستجابة لحاجة نفسه من طعام وشراب ، وعن الخضوع لمآثم الهوى ومآرب الشهوات ، فهو قد كف نفسه عن كل ما يفسد صومه ، وهو قد تسامى إلى مصاف الملائكة الذين لا يطعمون ولا يشربون ، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

كذلك من يحج بيت الله : ويغد ضيفاً على رسول الله ، ويبر حجه وزيارته بإخلاص التلبية ، وطهرة التزكية ، فيطوف بالبيت منيباً تائباً ، ويشهد المناسك فى غير تأثم ولا عصيان . . فهو العزيز بضيافة الله وتكريم الله ، روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه » .

وأما عزة الآخرة فهو ما ينتظر هؤلاء الأعزة الأكرمين ، يوم يقوم الأشهاد : فىءٌ إلى ظل الله يوم لا ظل إلا ظله ،

سمو ونخار يتيه به عملهم وأملهم : هاؤم اقرأوا كتابية ، إنى ظننت أنى ملاق حسابية ، سبقٌ إلى متعة النعيم الخالد فى دار أعدها الله لهم ، وتتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون . ثم تحييهم أطيب تحية بالأمان والسلام ، قال تعالى : « والملائكة يدخلون عليهم من كل باب، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

ثم ماذا لهؤلاء الأعزة الأكرمين ؟ ثم نداء الله لهم يا أهل الجنة ، فيقولون لبيك ربنا وسعديك والخير كله فى يديك ، فيقول هل رضيتم ؟ فيقولون : وما لنا لا نرضى يا ربنا وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك ، فيول : ألا أعطيكم أفضل من ذلك ؟ فيقولون وأى شئ أفضل من ذلك فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبداً . . . يا لله ؟ ؟أى عزة أسمى ، وأى كرامة أوفى ، وأى جلال أعظم من هذه السعادات المتعاقبات المتماسكات ؟ ؟

ألا تكون العزة لمن يطلبها من الله بعزة النفس المترفعة عن الدنس والنقص ، وبعزة العمل الصالح الخالص مما يشيبه ويشينه ، ألا يكون طلب العزة هذا قريب الاستجابة كريم المنال ؟ ؟

أى والله ، إن العزة لله جميعا ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ، وأى كلم أطيب من كلمة الإسلام ، وشهادة التوحيد ، تتعطر بها الألسنة ، وتصدقها القلوب ، وتذعن لها الجوارح ؟

وأى عمل أصلح من عبادة يسمو بها الناس ، وخلق يسعد به الناس .

يا معشر المسلمين . .

يهتف بكم كتاب الله : أن اطلبوا العزة من العزيز ، بصدق العقيدة ، وصالح العمل ، ويناديكم حديث رسول الله « إن ربكم يقول كل يوم : أنا العزيز ، فمن أراد عز الدارين فليطع العزيز » .

وصدق الله العظيم من قائل « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا » .

وبعد : فالمستعان هو الله ، أن يكتب للمسلمين العزة ، وأن يمكن لهم فى دينهم وفى ديارهم وأن يجمع كلمتهم على الخلق الكامل ، والعمل المبرور إنه أكرم مسئول

الشباب وكيف نعده

لفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى
مدير المكتبة الأزهرية

شباب اليوم رجال الغد وقادة الأمة وأولو الرأى فيها وبيدهم مقاليد سياستها وبمقدار توفيق الأمة فى اعداد شبابها يكون مستقبلها ودرجة النهوض فيها .

وقد مضى زمن كان من وسائل اعداد الشباب أنه يحسن القراءة والكتابة بل كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة ، أما فى هذا العصر فقد تشعبت الوسائل تبعا لتنوع فروع العلم والمعرفة وتقدمها ، وأصبحت مراحل التعليم بأنواعها والشهادات بأنواعها لا تفى بتكوين الشباب تكوينا يعده لحمل رسالته بل لابد له مع ذلك من دراسات شخصية عميقة يعتمد فيها على نفسه لا على مدرسه ومدرسته ولابد له من اختبارات عملية للحوادث وللأشخاص ليستطيع أن يزاحم فى الحياة على بصيرة بأحوالها وخبرة بشئونها :

حياة الورى حرب وأنت تريدها   سلاما وأسباب الكفاح كثير
أبت سنة العمران إلا تطاحنا   وكدحا ولو أن البقاء يسير

ولا بد للشباب مع ذلك الاعداد العلمى من تسلح دينى وخلقى يقيه السوء فى عقيدته ونفسه ويصونه من مصارع الهوى ومواطن الغواية ويجعله ذا شخصية متماسكة قادرة على تحمل الشدائد وتذليل الصعاب وعلى قول الحق والجهر به ووزن ما يعرض عليه من مذاهب وآراء ليعرف وجه الخير فيها لنفسه وأمته فيقبلها أو يرفضها عن معرفة واقتناع .

لابد للشباب من ذلك كله ليكون ركنا قويا فى كيان أمته وقدوة يقتدى به لا إمّعة يستجيب لكل ناعق وتتجاذبه التيارات هنا وهناك .

فمسئولية الشباب فى هذا العصر ثقيلة مرهقة لا ينجح فى حملها والاضطلاع بها إلا من وهب لها نفسه وجهده ووقته ، وأن من أهم العوامل فى تكوين شخصية الشاب هو التدين ، فالدين وأساسه الإيمان بالله والرضا بقضائه وقدره ، والاعتماد فى الشدائد عليه ، يجعل منه رجلا مطمئن القلب ساكن النفس ، يقبل على عمله فى ثقة ويعتمد فى نجاحه بعد إعداد الوسائل على معونة الله وتوفيقه ويرضى بنتيجته على أى حال ، والدين بعد ذلك يغرس فيه كثيراً من الفضائل الشخصية والاجتماعية التى تجعل منه مواطناً صالحاً يساهم فى بناء أمته وانهاضها ويدفع بها إلى منازل العز بين الأمم ، ويغرس فى نفسه فضيلة الشجاعة والصدق والإخلاص والبر بالضعيف وإغاثة اللهيف ، والإيمان بالفكرة الصحيحة والدفاع عنها بكل عزيز ، كما يغرس فى نفسه احترام حقوق الغير وأموالهم وأعراضهم .

وعلى حكمة الشيوخ وجهود الشباب تنهض الأمم وتنجح الدعوات ، ولقد لعب الشباب الإسلامى فتيانه وفتياته ، دوراً هاماً فى نجاح الدعوة الإسلامية ، وقاد كثير منهم الجيوش ، وفتحوا المدائن وساسوها بالعدل والإحسان ، فاجتمعت عليهم القلوب ورضيت عنهم الشعوب ، والمتصفح للتاريخ الإسلامى يقف على أمثلة رائعة لجهاد الشباب وإيمانهم بفكرتهم ، واستعذابهم الألم فى سبيل نجاحها .

وحسبنا أن نورد فى هذا الصدد مثلين ليكون فيهما لشبابنا ذكرى وقدوة :

١ — لما عزم النبى صلى الله عليه وسلم على الهجرة وعلمت قريش بعزمه اتفقت على قتله ليلة الهجرة فأمر علياً رضى الله عنه أنه ينام فى فراشه بدلا منه ليخادع قريشا عنه فقبل على وهو يعلم أن القتل قاب قوسين منه ، ولكنه قبل ذلك بنفس راضية مطمئنة فنجا النبى صلى الله عليه وسلم ونجحت الدعوة .

٢ — اسلمت فاطمة بنت الخطاب قبل إسلام أخيها عمر رضى الله عنهما وهى دون العشرين ، وكانت تكتم اسلامها منه لشدته فلما علم بذلك دخل عليها ، وقال : بلغنى عنك أنك صبأت « خرجت عن دينك » ثم ضربها ووثب على زوجها فضرب به الأرض وجلس على صدره فجاءت تمنعه منه فشج وجهها وسال دمها فلما رأت الدم بكت وقالت له : أتضربنى يا عدو الله على أن أوحد الله لقد

أسلمنا على رغم أنفك يا ابن الخطاب فما كنت فاعلا فافعل وفكر عمر فيما فعل وندم عليه وما زال به تفكيره حتى قاده إلى الإسلام وكان إسلامه عزا للاسلام وكان عمر كما روى عنه التاريخ .

هذان مثلان مما رواه التاريخ فى جهود الشباب ونضاله وهما حسبنا فى هذا السبيل .

تلك هى بعض العوامل فى تكوين الشباب أوصيهم بها ولا يفوتنى أن أتبههم إلى ضروة الأخذ ببعض النشاط الرياضى فهو من خير الوسائل فى إعدادهم عقليا وخلقيا وجسميا كما أنه ذو أهمية كبرى فى حياتهم لأنه يشغل فراغهم ويصرفهم عن مواطن اللهو ومواقف الخلاعة التى تسبب لهم كثيراً من العلل النفسية والجسمية وتضع لهم العقبات فى سبيل الحياة الكريمة .

أخو السوء

قال أيوب بن سليمان عن ابن القاسم قال : بينما سليمان بن داود عليهما السلام تحمله الريح إذ مر بنسر واقع على قصر ، فقال له كم لك منذ وقعت هنا ؟ قال سبعمائة سنة . قال فمن بنى هذا القصر ؟ قال النسر لا أدرى هكذا وجدته . ثم نظر سليمان فإذا فيه كتاب منقور بأبيات من الشعر وهى :

خرجنا من قرى اصطخر ... إلى القصر فقلناه
فمن يسأل عن القصر ... فمبنياً وجدناه
فلا تصحب أخا السوء ... وإياك وإياه
فكم من جاهل أردى ... حكيما حين آخاه
يقاس المرء بالمرء ... إذا ما المرء ماشاه
وفى الناس من الناس ... مقاييس وأشباه
وفى العين غنى للعيـ ... ـن أن تنطق أفواه

خداع الحياة

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

ليس فى استطاعة البليغ الماهر ، والمصور المبدع ، والأديب الألمعى ، والكاتب الصنع ، مهما أوتى من قدرة على الإجادة ، ودقة فى التعبير ، أن يحيط بوصف الحياة فى خداعها الكاذب ، وغرورها الخلاب ، وسرابها البراق ، ونفاقها المكشوف ، وتلونها المفضوح ، بأحسن من قول القرآن فيها « كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » .. ونحن قد قرأنا للشعراء فى هذا المعنى روائع الكلم وجوامعها ، ومررنا بأمثالهم فيها ، وتشبيهاتهم لها ، مرور الذى يسببه السحر ، ويأخذه البهر ، ويملك عليه حسّه الجمال الفاتن ، ورددنا ذلك كله ترديد الإكبار والإعجاب ، ولكنه لم يبلغ مبلغ الآية فى طنطنتها ودويّها ، وجلجلتها وهول تصويرها ، فإنها لا تكتفى بذكر الماء يخالط الأرض فيوقظ فيها النبت الى النماء والخضرة والازدهار والترعرع والإثمار والقطاف والحصاد دون أن تجعل ذلك رواية تمثيلية يقبل عليها المتفرجون بشغف وشوق ثم ينتهون الى إسدال الستار على نهاية لازمة ، ومصير محتوم ... وعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى لم يتركنا لأحلام اليقظة تلعب بعقولنا ، وتعبث بأفئدتنا ، وتصرف خيالنا — الواهم — كما تشاء . بل أقام لنا من عالم الإدراك ألف دليل ودليل على أنها وشيكة الزوال ، سريعة الانتهاء ، مطلية بالغرور ، محفوفة بالباطل ، مملوءة بالمحن ، موسومة بالدنيا ، لا نزال كلما أمكنتنا الفرصة من الترامى على أعتابها ، والتهافت على أبوابها ، والتعلق بأذيالها ، والتكالب عليها ، والتفانى فى حطامها الفانى ونرتكب فى سبيل الوصول الى أهدافنا أشنع الأساليب ، حتى إذا ما أخلدنا

الى خلوتنا ، وانقطعنا الى رويتنا ، ونغمنا بيننا وبين خلجات نفوسنا « قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا » لم يلبث ذلك الاتعاظ أن يتبخر فى الهواء ثم يتصاعد من رؤوسنا الى طبقات أخرى من السماء .

ومن الغريب أن هذا المقدار من الإيمان يستوى فيه المؤمنون والجاحدون ، ويذعن بصدقه العالم والجاهل ، ولا يشك فى حقيقته كبير ولا صغير ، وإذا كانت وسائل الإيمـان تختلف ، فإننا جميعنا نتهى إلى نهاية من المعرفة كان من شأنها أن تجعلنا لا ننظر إليها إلا بالمنظار « الأسود » فلا نطلبها إلا على قدر ما تمس إليه الحاجة القصوى ، وتقتضيه الضرورة الملحة .

وليس هنالك من ينكر أن الله سبحانه وتعالى أودع فينا من الطباع والغرائز ما يحملنا على تنازع البقاء ، وحب التملك والسلطان ، والسيطرة والسيادة ، ولـكن هذه كلها إنمـا تدفع إلى نشدان « المثل الأعلى » بحيث لا يذل الفرد للفرد ، ولا يخضع الإنسان لأخيه الإنسان خضوع الاستكانة ، وينقاد له انقياد العبودية التى هى لله وحده لا شريك له .

وفى الـكتاب الـكريم ما يدل على أن الله سخر الـكون لبنى آدم يستخدمونه لمصلحتهم ، ويصرفونه فى منافعهم ، ورسالة الواحد منا فى هذا الصخب لا تتجاوز الإصلاح الذى يعود عليه وعلى النـاس فى حدود العمران والنهوض ، والتقدم والرقى ، ونرى الدين الإسلامى - ولعل الأديان الأخرى كانت هكذا - يكبح ما عساه أن يكون من طغيان الغرائز ، وطيش المطـامع ، وثورة الشهوات ، فيأمرنا بالتقوى والورع ، والقناعة والزهد ، والإحسان والإيثـار ، والتآلف والمحبة ، لتنطفىء فينا تلك الحدة التى تدفعنا إلى الافتتان بهذا الزخرف الكاذب ، والمتـاع الخادع ، والظلال السريعة الانتقال ، فنكشف عن الشرور والآثام ، والتكالب والطمع ، بما تثيره الأفراد والجماعات ، من خصومات ظالمة ، وحروب غاشمة ، جعلت هذه « الحيـاة » مسرحاً من مسارح الجحيم ، تمثل عليه فصول العدوان ، ومناظر الدمار ، وأشباح الخراب والهلاك ، وصارهم القوى أن تتنافس فى جعلها « جهنم الحمراء » لا أكثر ولا أقل .

ولم تضق الحيـاة بنـا ولـكن زحام السـوء ضيقها مجالا
ولم تقتل براحتهـــا بنيها ولـكن سابقوا الموت اقتتالا

وربما قال قائل هذه سنة الله « ولولا دفع الله النـاس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » والدول فى تصارعها ، ووقوفها على هذه الشاكلة ، لصد التيار ، وكبح الظلم ، ورد المطامع ، هو الذى يحفظ التوازن ، ونحن مع تسليمنا بأن الآية تهدف إلى سنة من سنن الـكون ، وأسلوب من أساليب العمران ، لا نعتقد أن الحـال القائمة الآن يدفع إليها الرغبة فى الإصلاح ، والميل إلى العمران ، والحب فى الخير، والجنوح للسلم ، بل هى حال أشبه بمصارعة الثيران ، ومهارشـة الديكة ، وسعار الـكلاب ، وكنا نظن أن الأمم الـكبرى مدفوعة إلى ذلك كله بباعث التوسع فى السلطان ، والاستزادة من السيادة ، والبحث عن أسواق عالمية لتصريف محصولاتها الصناعية أو الزراعية . ولو صدق ذلك لقلنا ما يقول المثل العربى : « حر انتصف لنفسه » والتمسنا العذر لقوم تحملهم غرائز الأحياء أن يطلبوا حياة مثالية ، وينشدوا عيشاً رغيداً .

أما والدنيا تموج بتلك الشرور ، والعالم يعجُّ بهذا القلق ، كأن الميادين لا تزال تقذف بالنار ، يخر فيها ألوف الموتى ، فإننا لا نستطيع إلا أن نقول إن الحلوم قد طاشت ، والطباع قد فسدت ، والغرائز قد انتكست ، والنهاية قد آذنت بزوال وأن الرواية موشكة أن تتم فصولها ... ونحن الذين ورثنا الـكتاب والسُّنَّة ، ودرسنا الآيات والسور ، قد يبدو لنا فى بعض الأحايين أن نقول عن أصحاب هذا « الصراع » ، إنهم لم يجدوا من الوازع الدينى ما يستلهمونه الهداية ، ويرجون منه الصراط المستقيم ، وليس بعد الـكفر إلا الضلال ، فما الذى نقوله لأنفسنا فى تفكك جماعتنا ، وتفرق كلمتنا ، وتوزع وحدتنا ، وَوَهْى قوتنا . . وفى الوقت الذى يأمرنا ديننا أن تعلو إرادتنا ، ويسود سلطاننا ، ويعز جانبنا ، وتـكون المقادة بأيدينا ، تفرقنا أيادى سبأ ، ثم لم نـكتف بأننا سوقة نتـنَـصَّـف ـ كما يقول الشاعر ـ حتى أصبحنا لا يلوى الفرد منا على غير هواه يقوده ، وطمعه يتولى زمامه ، وشهوته تدفعه ، ثم لا ينظر فى ذلك إلا لإشباع نهمه ، دون نظر إلى حلال وحرام ، وشرف وخسه ، وسمو وإسفاف . . وما كان هـذا كله إلا لأنها فتنة العيش ،

وسراب الدنيا، وخداع الحياة، وزائف المجد، وباطل الآمال، وكاذب الأمانى. وفى كل يوم يسوق الموت لنا من الأنباء والنذر ما يصح معه أن نتعظ أو نفيق، ونعتبر أو نصحو، ويدهمنا القطار، أو تصدمنا السيارة، ولا يكون بيننا وبين أن نلفظ النفس الأخير، إلا أن تدركنا رحمة اللطيف الخبير، وهنالك وفى تلك اللحظات الخاطفة نتصور قول النبى صلى الله عليه وسلم: « الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا »، غير أننا لا نلبث أن نعود أشبه بالمخمور الذى يقول « وداونى بالتى كانت هى الداء » وصدق الله العظيم: « وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه »... فاللهم ألهمنا الرشد، وارزقنا الإفاقة، ولا تكلنا إلى سيئات أعمالنا، وشرور أنفسنا، واجعلنا لا ننظر إلى الحياة إلا لمنظارها.

الصديق

قال حكيم: الإخاء جوهرة رقيقة وهى ما لم ترقها وتحرسها معرضة للآفات، فـرُض الأبى بالحـُداء له حتى تصل إلى قربه، وبالكظم حتى يعتذر إليك من ظلمك، وبالرضا حتى لا تستكثر من نفسك بالفضل، ولا من اخيك بالتقصير.

قال عبد الصمد بن المعدل:

من لم يردك ولم ترده   لم يستفدك ولم تفده
قرب صديقك ما نأى   ورد التقارب واسترده
وإذا وهت أركانه   ومن أخى ثقة فسده

وقال أبى حازم:

إن ساءنى صاحبى احتملت وإن   سر فإنى أخوه شاكره
أصفح عن ذنبه وإن طلب العذ   ر فإنى عليه عاذره

مجدنا في ديننا

لفضيلة الشيخ محمود حميدة
المدرس فى كلية اللغة العربية

التدين فطرى فى الإنسان ، والفطر السليمة تدعو العبد إلى الإخبات لمن تولى خلقه وتعهد بقاءه ، وما انحرفت تلك العقيدة عن وضعها إلا نتيجة صدأ أصاب الفطر وعتامة رنت على القلوب فجعلت الأبصار قاصرة والبصائر حائرة وتغلب إلف المرء لحسه فاتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وقد أقام الله الحجة على العباد فأرسل فيهم رسله ليتم الإلزام ، وتقطع الأعذار فلما نضجت الإنسانية بعد عمليات عنيفة فى تطهيرها وتشذيبها ختم الله الرسالة بمحمد بن عبد الله ، وجعل دينه خالداً بما أودعه من تعاليم تكفل سعادة البشرية وتسمو بالحياة إلى ذروة ما يصبو له المصلحون .

لقد جاء الاسلام بمبادىء الإصلاح العام والأخوة الصادقة فدعا الناس جميعاً إلى الاجتماع بفنائه والانضواء تحت لوائه والوقوف عند حدوده والرمى بما وراء ذلك تحقيقاً لتوحيد الأمة فى كيانها وتوحيدها فى عقيدتها .

فإن ما جنته الإنسانيـة من صنوف العسف والعنت ألوانا كان نتيجة تفرق الكلمة ، وشق العصا وانفصام العرى وانقسام الجماعات .

وليس بدعاً أن نرى هـذا الاختلاف بين الأمم المتباعدة فى العقائد والمتباينة فى الأهداف ، ولكن العجب العاجب أن تختلف أمة التوحيد بعـــد أن ربط الاسلام بين قلوبها ووحد بين شعوبها وأقام بها دولة الدنيا والآخرة فى ظل كتاب « لا يأتيه الباطل بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » .

لقد شع نور هذا الدين فاستقرت به النظم واستقامت عليه الطريقة ، ووضع به ميزان العدالة فى الأرض ، وكان عجباً فى كل نواحيه وهديا فى كل مراميه . فما من شاردة ولا واردة إلا ولها فيه حكم معلوم وطريق مرسوم .

تناول الأفراد والجماعات والأحرار والعبيد والرجال والنساء والأحمر والأسود والعقيدة والسياسية والبيت والمدرسة والطريق والنادى فهو رابطة عامة بين الإنسان وأخيه وبين الإنسان وخالقه ، وهو رابطة تهدف إلى الكمال فى اسمى معانيه وأرفع مقاصده .

فما من غاية إصلاحية ولا فضيلة بشرية إلا ومصدرها منه ومرجعها إليه فهو رمز للوطن ورمز للعلم ورمز للسياسة ورمز للديمقراطية ورمز لغير ذلك من معان ابتكرها من فقدها وتشبث بها من سلبها ، وإذا كان من الأمم من أعوزته المبادىء السامية والنظم القويمة والأخلاق الفاضلة فأخذ يرنو ببصره إليها حتى أصاب منها ، وجعلها أساسا لحضارته ودعامة لمجده فإن من العجب أن تتخلى الأمة الإسلامية ذات المبادىء الرشيدة والأخلاق الفاضلة عن مقوماتها ومدعماتها حتى أصبحت مهداً للغاصبين وغرضاً للمغرضين .

لم يبن الإسلام حضارته على مادة محضة كما فعل الأوروبيون الحديثون ولا على روحانية محضة كما فعل الأقدمون ، وإنما جعل أساس دولته يرتكز على الأمرين ، ويعتمد على السببين فكانت نهضته مادية روحية ، وكانت سيطرته إصلاحية دينية فهو دين ودولة وعلم وعمل ودنياً وآخره ، ولن يجد المسلم غناء فى غيره مهما زينت له وساوسه وصورت له أو هامة .

وأمة اختصها الله بهذا الدين جدير بها أن تتخذ تعاليمه نبراساً تهتدى به فى ظلمات الوجود وتسير عليه فى شعاب الحياة ، فلا أضل ممن أطفأ مشعله فى ليل بهيم وهو يفتش عن ضالة منشودة ورغبة مقصودة ، إن مروق كثير من الشبان ووقوعهم فى غياهب الجهالة وظلمات الحيرة إنما هو نتيجة حتمية لهذا الانحلال الذى أصاب الدولة الإسلامية فى صميمها وهو لا بد سائر بهم إلى التحلل من العقيدة الصحيحة وواصل بهم إلى الزيغ والإلحاد .

وليس هناك ما يدفع هذا البلاء ويرد هذا الطغيان إلا أن يتغلب سلطان الدين

على النفوس ولا سبيل إلى هـذا التغلب إلا أن تتغلغل تعاليم الإسلام الصحيحة وتنشر مبادئه بين الأفراد والجماعات فنرى الفرد مسلماً والتاجر مسلماً والبيت مسلماً والمدرسة مسلمة والعامل مسلماً والأمة مسلمة والحكومة مسلمة .

عند ذلك يتبوأ الإسلام مكانته ويأخذ وضعه ويعيش المسلم عيشة الأحياء الناطقة لا البهائم الهائمة .

إن كل نهضة إصلاحية لا تبنى على أساس من الدين والأخلاق لا يقر لها قرار ، ولا يستقيم لها وجود ، فيجب أن نعتمد فى نهضتنا على ديننا وهو دين سلم وحرب وإيمان وعمل وصناعة وزراعة وحياة وموت وجنة ونار .

إن البيت المسلم يجب أن تظهر فى جوانبه تعاليم الدين الحنيف فترى الأبناء صورة الإسلام ممثلة فى آبائهم وأمهاتهم وذويهم وأن المدرسة الإسلامية يجب أن تدعم مناهجها بدراسة الدين فهو أجدر العلوم بالعناية وأولاها بالرعاية ، فمنه تكون الأخلاق ومن الأخلاق تكون الأمم .

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وإن الفرد المسلم أيا كان طريقه فى مسالك العيش ونظام الحياة يجب أن تظهر عليه دلائل الدين وعلامات الإيمان فنريد من الزارع المسلم أن يكون مسلما ومن الصانع المسلم أن يكون مسلما ومن الخصم المسلم أن يكون مسلما ومن القاضى أن يكون مسلما فان الاسلام جماع الفضائل وأساس العمران وهو وحده كفيل ببث الطمأنينة فى النفوس وتهذيب القلوب ونشر ألوية السلام فى ربوع الأرض فقد عم القلق وشاع الفساد وكثرت المطامع واتسع الظلم وتبرم الحق .

وإن الحكومة الإسلامية يجب أن تبرهن للناس على صدق إيمانها فتريهم من نفسها مثلا من أمثلة المسلمين الصادقين الذين ينشر الله بهم الدين ويرد بهم كيد الخائنين « وأن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن » ويرد بالسيف مالا ترده العبرة .

وإن الأمل ليملأ جوانبى ثقة بأن أمراء المسلمين وقادتهم قد اقتنعوا بضرورة رد الأمة إلى دينها حتى تمتلىء به القلوب ، فلا تتفتح لقبول الأفكار الهدامة ، والمبادىء الفتاكة من كل ما عكر صفو الوجود وكدر الحياة فى نظر العاملين .

ولقد خطت بعض الدول خطوات مباركة لتشجيع التعليم الدينى وإحياء المدرسة الإسلامية من جديد ، وها هو ذا الأزهر العتيد ، ثمرة القرون ومعهد المسلمين ، ومعقد آمالهم ، يرسل بعوثه إلى مختلف البلاد الإسلامية ، ويفتح أبوابه لمن يفد إليه من أبناء المسلمين تحقيقاً لهذه الغاية النبيلة ، ورغبة فى بث تعاليم الدين الحنيف مكن الله له حتى يؤدى رسالته ، ويبلغ دعوته ، فإن فى عنقه الآن الدعوة إلى الله ونشر كتاب الله .

وإنى أتمثل بالأثر الخالد متضرعاً متوجهاً لمن يملك النواصى فأقول :

اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد فى الأرض .

وفق الله ولاة أمور المسلمين أن يشدوا أزره ، ويردوا عليه هيبته ويقوموا بنصره وتأييده .

كرم

مدح ربيعة الرقى يزيد بن حاتم الأزدى وهو والى مصر ، فاستبطأه ربيعة فرحل عن مصر وقال :

أرانى ولا كفران لله راجعاً   بخفى حنين من نوال ابن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم الأزدى ، فأرسل فى طلبه فرد إليه ، فلما دخل عليه قال له أنت القائل : (أرانى ولا كفران لله راجعاً) ، قال نعم ، فقال له هل قلت غير هذا ؟ قال لا والله . قال لترجعن بخفى حنين مملوءة مالا . فأمر بخلع نعليه وملئتا له مالا . فقال فيه لما عزل عن مصر وولى بدله يزيد بن حاتم التميمى ، فقال ربيعة من أبيات :

فشتان ما بين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغر ابن حاتم
فهم الفتى الأزدى إنفاق ماله   وهم الفتى التميمى جمع الدراهم

أعلام الأزهر

الشيخ حسن قويدر الخليلي

المتوفى سنة ١٢٦٢ هـ — ١٨٤٥ م

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو « حسن » بن « على قويدر » . كان مولده « بمصر » سنة ١٢٠٤ هـ ، وأصل أسرته من المغرب ، استوطن أحد أفرادها « الخليل » من بلاد فلسطين ، واشتهرت ذريته بالمغاربة ، ثم نزح منها إلى « مصر » والده « على » فى تجارة وأقام بها ووهب المترجم ، فلما بلغ أشده ألحقه بالأزهر لطلب العلم فيه ، فتلقى العلوم والآداب على كبار شيوخه وجلة أساتذته من أمثال الشاعر الناثر العالم « الشيخ حسن العطار » و « الشيخ إبراهيم الباجورى » فتخرّج عليهم فى اللغة وعلومها والأدب وفنونه ، ولا سيما الأول الذى كان من ابنه الأزهريين فى الأدب شأناً ، وأبعدهم فى فنونه صيتاً ، وكان « لقويدر » رغبة فطرية فى الأدب وهوى للغة وعلومها ، ومعرفة خفاياها ، واكتناه دقائقها ، فبرع فى ذلك وجود ، وأنشأ الفصول ، ونظم الشعر وحرر الرسائل ، ودارت بينه وبين كتاب العصر محاورات ومراسلات ، وأمه الناشئون من عشاق الأدب والشعر فأفادوا منه ونشروا فضله .

ولم يعرف أن قويدرا شغل منصباً ، أو زاول عملا حكوميا ، ويظهر أنه كان عزوفا عن الوظائف وقيودها فلم يسع لها ، وربما واتته دون عناء لو انصرف لها ،

ولكنه كان يتجر فيما أورثه والده من المال شركة مع بعض السوريين الذين كانوا يرسلون إليه بضاعة سورية ، ويرسل إليهم أخرى مصرية .

ولم تكن التجارة لتشغله عن العلم والأدب ، فنال منهما حظاً وافراً ، وأعطاهما فراغ وقته فصنف الكتب ، وشرح المؤلفات .

وكان رحمه الله جواداً سخيا يبذل كثيراً مما يفد إليه من ربح تجارته الوارفة الظلال ، كما كان عفيفاً أميناً يرعى الود ، ويصون لسانه عن الخوض فيما يؤذى الناس ، اللهم إلا إذا استفزه الدفاع عن نفسه ، فإن له إذ ذاك لشأناً كما فعل مع « عاقل أفندى » فى رسالة « الأغلال والسلاسل » .

وقد كانت وفاته فى شهر رمضان سنة ١٢٦٢ ﻫ فرثاه الشعراء ، وبكاه الأدباء ومنهم تلميذه الشاعر المشهور « محمود صفوت الساعاتى » الذى زعموا أنه رأى «قويدر» فى منامه قبل وفاته بثلاث ليال ميتاً فانتبه قائلا : رحمة الله على حسن

حسن	على	الله	رحمة
١٠٨	١١٠	٦٦	٦٤٨

قويدر . فحسب جملها فكان تاريخاً لسنة وفاته (١) .
٣٢٠

والساعاتى هو الذى رثاه بقوله :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ... ومزقت شملها من بعدك الكتب
ونكست رأسها الأقلام باكية ... على القراطيس لما ناحت الخطب

ويقول فيه أيضاً :

قالوا قضى حسن المناقب فارثه ... فأجبتهم ومدامعى تتحدر
لا أستطيع رثاء من لمصابه ... أضحى لسانى فى فمى يتعثر

نـــثره :

نثر الشيخ حسن قويدر ، يجرى مجرى الصنعة ، ويبدو عليه أثر التعمل والتكلف ويلتزم الجناس فلا يفلت منه ، وليس بعجيب أن يكون أدبه كذلك ، وأن يكون

(١) أعيان البيان للسندوبى .

طابعه الزخرف والطلاء ، وقد كان ذلك أدب العصر ، وطريقته الملتزمة ، على أنه تلميذ «للشيخ حسن العطار» ، وثمرة من ثماره ، وكان «العطار» أستاذه ممن يلتزمون السجع فى رسائلهم ، ويولعون بالصنعة فى كتابتهم ، وكتاب «إنشاء العطار» على ذلك شهيد .

ولكن «قويدر» رغم متابعته للعصر ، ومسايرته لأستاذه ، غير ممعن فى التعقيد ولا مفرط فى الاستغلاق ، بل إن نثره أقرب — على قيوده وتكلفه — إلى الوضوح والرصانة .

نموذج من نثره :

ومن نثره ما قاله فى خطبة شرحه لكتاب

« ومن شغفى بتلك العرائس الخواطر ، حملتنى بواعث الخواطر ، على أن أكتب عليها شرحا وأبنى على دعائمها صرحا ، وأشد بنطاق البلاغة لها كشحا ، فوقفت على أقدامى ، متردداً فى تأخرى وإقدامى ... وشددت نطاق العزم ، وتقلدت بصارم الحزم ، وقومت سنان يراعى ، وبسطت فى حومة هذا الميدان باعى وانى لأرى التوفيق يئوم أمامى ، والعناية تقود زمامى » .

شــعره :

شعر «قويدر» يميل إلى الزخرف والطلاء ، ولكنه يتفاوت قوة وضعفاً ، حسب إغراقه فى التكلف ، أو لطفه فى تناوله ، وكلما كان أكثر تعملا كان أكثر تعقيداً ، وهو غير ملتزم طريقة واحدة ولا نهجا واحدا .

فمن شعره الذى يميل إلى السهولة ولا يفرق فى المحسن والصنعة ما قاله ناصحا :

يا طالب النصح خذ منى محبرة	تلقى إليها على الرغم المقاليد
عروسة من نبات الفكر قد كسيت	ملاحة ولها فى الخد توريد
كأنها وهى بالأمثال ناطقة	طير له فى صميم القلب تغريد
احفظ لسانك من لغط ومن غلط	كل البلاء بهذا العضو مرصود

واحذر من الناس لاتركن إلى أحد فالخل فى مثل هذا العصر مفقود
واطن الناس فى ذا الدهر قدفسدت فالشر طبع لهم والخـــير تقليد
هذا زمان لقـــد سادت أراذله قلنا لهم هـذه أيامكم (سودوا)

ويقول فى شرحه على منظومة «العطار» :

منظومة الفاضل العطار قد عبقت منها القلوب بريّا نكهة عطره
لو لم تكن روضة فى النحو يانعة لما جنى الفكر منها هـذه الثمره
فى ظلمة الجهل لو أبدت محاسنها والليل داج أرانا وجهـه قمره
قالوا جواهر لفظ قلت لا عجب بحر البلاغة قـد أهدى لنا درره

فأنت ترى أن تخفيفه من المحسنات البديعية أكسبت شعره طلاوة ، ولم ينفر الذوق منه ، أو تنصرف النفس عنه .

ومما قاله وأسرف فى الجناس فيه قوله :

فشمر الغصن عن الساق وقد جرد سيفاً لرقابهم وقـــد
وقال جمـــرى بكلامكم وقد انا الذى أشبه أعطافاً وقد
أحملكم وتجهلون قدرى

(فقد) دارت كلمة (وقد) فى هـذه الأشطر خمس مرات بالواو وبغيرها ، فكانت حرفاً مقروناً بالواو فى الشطر الأول ، أما قوله « وقد » فى الشطر الثانى فيحتمل أن يكون إسماً بمعنى النار واقعاً صفة « لسيفاً » أى سيفاً هو النار لرقابهم وأن يكون فعلا بمعنى اتقد أى سيفاً اتـقـدَ ، وقوله بكلامكم « وقد » محتمل أيضاً المعنيين أى جمرى نار ، أو اتقدَ وقوله فى الشطر الرابع أشبه أعطافاً وقد ، جاءت فيه هـذه الكلمة على معناها الحرفى مع الاقتران بالواو ، « وقد » الأخيرة ، جزء من قدر المضاف إلى ياء المتكلم .

فقد أرهق الشاعر نفسه وشعره بهذه الكلمة التى وضعها خمس مرات فى خمسة أشطر وضعاً مختلفاً فيه : تهافت عبث بالمعنى وعقّده ، وتكلف ذهب بجمال الشعر وأفسده .

ولقويدر مزدوجات أفْتَنَ فى صياغتها ، وبرع فى نظمها ، إلا أنها محتملة كثيراً من التكلّف ، موسومة بالنزعة العلمية فى غير موضع ومنها قوله :

رأيت بدراً فوق غصن مائس يخطر فى خضر من الملابس
ويسحر العقل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس
كأن ماء الحسن منه يجرى

خاطرت لما أن رأيته خطر وحار فكرى فى بهاذاك الحور
وقلت لا والله ما هذا بشر ومن بشمس قاسه أو بقمر
فليس عندى بالقياس يدرى

وكلمة القياس هنا من مصطلح علم المنطق الذى تأثر الشاعر به :

فلفظه العذب لقلبي قوت كأنه الدر أو الياقوت
وسحره إلى النهى (مثبوت) يعجز عن مثاله هاروت
وهو الحلال من صنوف السحر

الحسن شىء ما له مثيل وكل وجه حازه جميل
والنفس دائماً له تميل وصاحب العز له ذليل
فى قيد أسر نهيه والأمر

والنهى والأمر كلاهما من مصطلح علم النحو كما ترى ، وشعره متفرق لم يجمع فى ديوان .

آثاره العلمية والأدبية :

للشيخ « حسن قويد » آثار لغوية قيمة ، ومؤلفات أدبية جليلة ، غير أن كثيراً من هذه الثروة القيمة لا يزال مخطوطاً لم يطبع ، وكثيراً منها عبثت به الأيام فحرمت الانتفاع به الأفهام والأقلام .

ومن أهم هذه المؤلفات :

« نيل الأرب فى مثلثات العرب »

وهو كتاب جليل جمع فيه المؤلف ما يثلث من الألفاظ العربية بالحركات ، نظمه فى أرجوزة حسنة السبك محكمة النظم ، يقول فى مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن   لكن له ظن بمولاه حسن
فكم لمولاه عليه من منن   بالعد لا تدخل تحت الحصر

وهى سهلة الحفظ واضحة غير معقدة ، وبهامشها فوائد قيمة ، فيها غنية لكل أديب ، طبعت بمصر سنة ١٣٠٢ هـ وفى صدرها ترجمة للمؤلف بقلم الأستاذ محمد فنى

(وترجمت هذه المثلثات إلى اللغة الإيطالية بقلم « فيتو » المستعرب وطبعت الترجمة فى بيروت) [١] ويقول فى مقدمتها :

جمعت فيها الكلمات اللاتى   تكون فى الشكل مثلثات
أبدأ المفتوح ثم آتى   بالضم لكن بعد ذكر الكسر

ثم يقول :

رتبتها كمعجم على الولا   معتبراً للسباب حرفاً أولا
بذا أتت غريبة فى الوضع   يعشقها كل رقيق الطبع

وعدد أبياتها ٢٢١ بيتاً .

ومن مؤلفاته شرح منظومة العطار : وهى منظومة نظمها فى النحو أستاذه الشيخ « حسن العطار » ، وشرحها هو شرحاً دقيقاً قيما ، والمنظومة مشهورة يتداولها أبناء الأزهر .

وله كتاب يسمى « زهر النبات فى الإنشاء والمراسلات » غير مطبوع .

وشرح على مزدوجته البديعة غير مطبوع أيضاً ، ويقال إنه كان واقعاً فى مائة ونيف كراسة ذهبت به الأيام [٢] .

هذا عدا شعره المتفرق ، ومزدوجته المطبوعة المتداولة بين الأدباء .

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية زيدان جـ ٤ ص ٢٥٨ .

(٢) أعيان البيان للسندوبى ص ١٨ .

الفقه السياسي عند المسلمين

لفضيلة الشيخ محمود فياض
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

من المسلّمات العامة . أن الإسلام جاء غير مماثل لما سبقه من الأديان السماوية التى فصلت بين أمور العقيدة والعبادة ، ومسائل الحكم وتدبير المصالح الدنيوية لبنى الإنسان .

وإنما جاء الإسلام منظما للسلوك العام للإنسانية فى شتى نواحى نشاطها الحيوى ، فإصلاحه للعقيدة فى خالق الكون ، واختياره لنمط خاص فى عبادة الله ، ورسمه لمنهج الخلق الحسن ، وتنظيمه للمعاملات الإنسانية العامة ، وسياسة الدنيا ، ومنهج الحكم ومبادئ العدل ، ومواجهة حاجات الاجتماع الإنسانى ، وغير ذلك مما عرض له الإسلام بالانشاء أو التهذيب ، أخرويا كان أو دنيويا ماديا أو معنويا ، كل هذه المقررات يتألف منها الإسلام ، وبعبارة أخرى . كل ماقرره الإسلام من مبادىء وتشريعات تتعلق بالعقيدة والعبادة . أو تتعلق بالخلق ومنهج التربية . أو تتعلق بالمعاملات العامة . أو تتعلق بالحكم وسياسة الدنيا ، أو تتعلق بما يلزم حياة المسلمين الاجتماعية أو (المدنية) . كل ما قرره الاسلام فى ذلك كله (من مبادىء وتشريعات) فهو دين لازم ، ليس للإنسان بصدده حق الاختيار فى الفعل أو الترك . لأنه دين يجب أن يؤدى كما أراده المشرع سبحانه .

ولا تستطيع أن تفرق — فى الإسلام — بين ما يمكن أن يسمى دينا فقط أو سياسة فقط حتى يمكن الفصل بينهما ، ولهذا تجد علماء العقيدة (المتكلمين) يتحدثون عن الإله وصفاته ، كما يتحدثون على الخلافة والرياسة ، وقواعد الحكم ، وما يجب ، وما لا يجب ، أن يكون عليه الحكم . والحاكم ، والمحكوم ، وكذلك تجد

علماء الأصول يتحدثون عن مصادر الشريعة ، وأصول الأحكام ، ويتحدثون عن « الخلافة » والحكم ، وهل هى من الأصول أو من الفروع ، وإذا جئت إلى الفقهاء وجدتهم يتحدثون عن الطهارة والصلاة والحج ، أو البيوع والرهن والإجارة ، وإلى جانب ذلك تجد حديثهم أيضاً عن الحكم والقضاء والشهادة ، والسياسة الشرعية ومقتضياتها ، ثم يجرونك إلى الحديث عن تطبيق الأحكام على المسلمين وغيرهم ، ويفيضون الكلام عن العلاقات بين المسلمين أفرادا ودولة ، وغير المسلمين وهل الأصل فى العلاقة بين المسلمين وغيرهم ، السلم أو الحرب ، وغير ذلك من مسائل العلاقات الدولية (مما يعرف اليوم بالقانون الدولى بقسمية) ، وإنك لواجد فى هذه البحوث القيمة من الجدة والطرافته والانسجام مع مقتضيات السلم والحرب ، ما لا تجده فى أبحاث المعاصرين من علماء السياسة والدستور .

وهكذا يستطيع كل راغب فى البحث التعرف إلى بحوث علماء المسلمين السياسية والدستورية فى غير كبير عسر ولا مشقة ، فسيجد آراء فقهاء الإسلام الدستوريين واضحة جلية ، إذا توجه إلى البحث عنها فى كتب الفقه أو الأصول ، أو الكلام ، وكثيراً جداً ما تجد كل هذه الآراء ملخصة عند مظانها فى كتب التفسير والحديث .

بعد هذا الذى قدمت ، قد يدهش القارىء الكريم إذا قلت له : إن كثيراً من المستشرقين المغرضين يقولون : إن الإسلام جاء خلواً من المبادىء السياسية والدستورية ، اللازمة لسعادة الناس وتنظيم حياتهم ، فى كل أمة متمدنة ، بدليل أن علماء الإسلام لم يشتغلوا بالبحث السياسى وليست لهم فيه مؤلفات سياسية ؛ ويجارى هؤلاء بعض المستغربين من أبناء المسلمين ، وهذه المقالة تطوى أمرين : الأول : أن علماء المسلمين لم يشتغلوا بالبحث الدستورى والسياسى . والثانى أن الإسلام ليست له مبادىء سياسية ودستورية ، وسنفرد هذه الكلمة للأمر الأول .

لو لم يكن لدينا — نحن المسلمين — سوى بحوث المتكلمين والفقهاء فى السياسة وهم شراح الإسلام ، لكان ذلك وحده كافيا فى الجزم بظلم هذه المقالة الظالم أهلها ، ولكن لدينا بحوث سياسية ودستورية كاملة مستقلة عن بحوث المتكلمين والأصوليين والفقهاء ، لدينا مؤلفات سياسية لها قيمتها وخطورتها فى توجيه

السياسة الداخلية للدولة ، والسياسة الدولية على وجه العموم ، وإلى القارىء قائمة بهذه المؤلفات .

١ ــ مقدمة العلامة ابن خلدون . التي كتبها بين يدى كتابه « العبر وديوان المبتدأ والخبر » فى التاريخ ، وهو باعتراف المنصفين من علماء الشرق والغرب أول باحث اجتماعى وضع أصول علم الاجتماع ، وأفاض فى بيان سياسة الإسلام العامة ، وقد أشار فيها إلى أن علماء المسلمين فى العصر العباسى قد عرفوا كتاب « السياسة » لأفلاطون وأرسطو ، ومن الثابت أن حنين بن اسحاق قد ترجم السياسة لأفلاطون إلى العربية ، ونقل من هذه الترجمة أحمد بن يوسف فصولا نشرها فى العصر الحديث رفيق بك العظم ، وسواء تأثر البحث السياسى لعلماء الإسلام ، أو لم يتأثر بهذه الترجمات ، فهذا دليل اشتغالهم بالبحث السياسى ، وقد تتابعت مؤلفاتهم فيه بعد ذلك ، فظهر كتاب « السياسة » لقسطا بن لوقا بالعربية ، وقد تأثر فيه بفلاسفة الإغريق ، وألف الصابى كتابا سماه « المتوج فى العدل والسياسة » .

٢ ــ ألف الفيلسوف الكبير « الكندى » اثنى عشر كتابا فى السياسة . منها : الرسالة الكبرى ، وسياسة العامة ، والكندى مغروف غير مجهول وآثاره معلومة للباحثين ، وإن كان بعضها قد ضاع .

٣ ــ ألف أحمد بن الطيب تلميذ الكندى كتابين « السياسة الكبير » و « السياسة الصغير » .

٤ ــ ألف فيلسوف الإسلام الفارابى فى علم السياسة ثمانية كتب ، منها : كتاب « السياسة المدنية » وموضوعه أشبه بما يعرف اليوم بالاقتصاد السياسى ، وكتاب « المدنية الفاضلة » وهو مطبوع مشهور ، وقد نشر الأب شيخو فى مجلة المشرق سنة ١٩١١ م رسالة أخرى فى السياسة للفارابى غير هذين الأثرين .

٥ ــ ألف ابن أبى الربيع كتاباً سماه « سياسة المالك فى تدبير الممالك »

٦ ــ ألف أبو بكر الطرطوشى كتاباً سماه « سراج الملوك » .

٧ — ألف أبو المكارم أسعد بن الخطير كتابه « قوانين الدواوين فى نظام حكومة مصر وقوانينها » وينقل عنه كثيراً صبح الأعشى .

٨ — ألف الإمام الماوردى الشافعى كتابه « الأحكام السلطانية » وهو مطبوع متداول .

٩ — ألف الإمام أبو يعلى الفراء الحنبلى كتاباً سماه أيضا « الأحكام السلطانية » وقد أخرجه الشيخ حامد الفقى من أعوام .

١٠ — ألف الإمام بدر الدين بن جماعة كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » وقد نشرته سنة ١٩٣٤ مجلة ألمانية ثم نشرته مجلة انجليزية « Islamica » فى نفس السنة .

١١ — ثلاثة كتب بالفارسية هى كتاب « سياسة نامة » لنظام الدين ، وكتاب « حكمة الإشراق » للسهروردى ويظهر أنه قد تأثر فيه بأفلاطون وكتاب « أخلاق ناصرى » للطوسى .

١٢ — كتاب « الأخلاق الجلالية » لجلال الدين الدّوانى .

١٣ — التاج فى أخلاق الملوك للجاحظ ، وقد نشرته من مدة دار الكتب الملكية المصرية .

١٤ — « السياسة الشرعية لإصلاح الراعى والرعية » اسم كتاب ألفه أستاذ النهضة الإسلامية الإمام المحدث الناقد ابن تيمية ، وهو من الذيوع والانتشار بحيث لا يمكن أن يجهل .

١٥ — « الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية » للإمام مجدد الشريعة ابن قيم الجوزية . وهو كتاب خطير مطبوع معروف لأهل العلم فى كل مكان كسابقه تماما

١٦ — كتاب ألفه إمام الحرمين اسمه « غياث الأمم »

١٧ — وللصابى كتاب آخر غير المتوج اسمه « تحفة الأمراء » طبع فى بيروت سنة ١٩٠٤ .

١٨ – كتب الخراج التى ألفها أئمة أعلام ، وهى مطبوعة مشهورة عند العلماء ، وهى من أهم المراجع الدستورية الإسلامية . وهى :

كتاب الخراج للقاضى أبى يوسف يعقوب بن إبراهيم صاحب الإمام أبى حنيفة ، وكتاب الخراج ليحيى بن آدم ، وكتاب الخراج لقدامة بن جعفر .

١٩ – « كتاب الوزراء والكتاب » لأبى عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى

٢٠ – « كتاب الولاة والقضاة » للكندى وهى مشهور يرجع إليه العلماء دائما

٢١ – « كتاب الأموال » ألفه أبو عبيد القاسم بن سلام .

٢٢ – « كتاب الفخرى فى الأحكام السلطانية » لابن الطقطقى محمد بن على ابن طباطبا .

٢٣ – « مقالات الإسلاميين » للإمام أبى الحسن الأشعرى نشره ريتر الألمانى باسلامبول سنة ١٩٢٩ .

٢٤ – مراجع التاريخ الكبرى ، وهى تقص علينا عند المناسبات كثيراً من آراء الأولين عند اختلافهم على أمر من أمور الحكم وسياسة الدنيا ، وما يستند إليه كل رأى من حجج تقوم على توخى المصلحة .

٢٥ – هناك مخطوطات كثيرة اغتصبها المستعمرون عندما انتهبوا بلاد المسلمين ، وهى مسجونة فى مكاتب برلين ، ولندن ، وباريس ، واسبانيا ، وليدن وفينا وغيرها ، وطالما تحدث عنها أمير البيان المرحوم شكيب أرسلان ، ولم يتح لنا الاطلاع عليها .

فإذا نحن أضفنا هذا التراث القيم الذى قدمنا ، وهو خاص بالبحوث السياسية ، إلى ذلكم التراث السياسى الضخم فى كتب التوحيد ، والأصول والفقه فى جميع المذاهب الإسلامية السنية والشيعية ، وجدنا أنفسنا ملزمين بالحكم على مقالة هؤلاء المستشرقين وتلاميذهم المستغربين ، بأنها مقالة خاطئة ظالمة .

بقى أن يقول قائل : إن بعض هذه الكتب التى قدمتها ، كانت تعالج السياسة الواقعية لاسياسة الإسلام نفسه ، لأنها كتبت مثلا للخلفاء والسلاطين ، بقصد تبرير أوضاع خاصة قائمة ! ونحن نقول : هذا . وإن كان حقا فإن أبحاثهم كانت تعتمد على مقررات الإسلام العامة ، وإن يكن بعضهم قد تعسف مثلا فى تأويل بعض النصوص ، فإن هذا لا ينفى أن هذا الفريق قد اشتغل بالبحث السياسى ، والاشتغال بالبحث السياسى شىء ، وتقدير هذه البحوث – وبيان مدى عمقها ، ومبلغ قربها أو بعدها عن الإسلام ، ومقدار صلاحيتها للناس أو عدم صلاحيتها – شىء آخر سنجعله بإذن الله موضوع كلماتنا المقبلة ، والمهم الآن أن نعلن أن المسلمين القدامى ، لهم بحوث ومؤلفات كثيرة فى علم السياسة .

ولا يفوتنى فى ختام هذه الكلمة أن أشير إلى عظم المبادىء السياسية التى عرض لها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا أثناء تفسيرهما للقرآن الكريم ، كما أن السيد رشيد له كتاب عن «الخلافة» يعتبر ثمرة طيبة لغرس الإمام عبده ، ولا يقلل من قيمته تعسف السيد رشيد فى توجيه بعض النصوص ضد شرعية الخلافة العثمانية ، كما أن لأستاذنا الشيخ محمود شلتوت رسائل كثيرة لو جمعت كونت كتابا قيما عن « السياسة فى الإسلام » أذكر من هذه الرسائل القيمة : ١ – أسس الدولة فى نظر الإسلام ٢ – الإسلام والسلام ٣ – المعاهدات فى الإسلام ٤ – تنظيم العلاقات الدولية فى الإسلام ٥ – القرآن والقتال ، وله غير هذه الرسائل بحث دستورى ممتع عنوانه « المسئولية المدنية والجنائية فى الشريعة الإسلامية » ومما لا شك فيه أن هؤلاء العلماء الأعلام قد اعتمدوا على سلفهم الصالح وما أنتجه السلف فى البحث السياسى ، فهذه سلسلة متصلة الحلقات ، والله نسأل أن يوفقنا إلى متابعة الكلام عن مبادىء الإسلام السياسية ، والله يهدى لنوره من يشاء ، وعليه قصد السبيل .

« يتبع »

إلى أى طريق نحن مسوقون

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

لقد اضطرب نظام الخلق فعمت الفوضى وشكا الجميع من تحلل خلق أصاب الأمة ، وانهيار نفسى أدركها حتى فسدت معايير الرجال ، وأصبح الوعظ ثقيلا على النفوس لجوحها ، ومرد ذلك كله ذلك التيار المادى الذى ملك زمام الأمة كلها ، وصار الفرد يعمل على أن يكون مالياً ، ولو ضحى فى سبيل ذلك بكل خلق كريم ، ونفس أبية ، ونسى الجميع أن الدين الإسلامى لم يقتصر تعاليمه على الروحانيات البحتة ، بل دعا إلى كل ما يعود على الفرد والمجتمع بالخير والسعادة ، والعزة والكرامة ، فى الدين والدنيا فى قوله تعالى : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا » . ولقد كان سيدنا عثمان وعبد الرحمن بن عوف من خيرة الصحابة ومن المبشرين بالجنة فضلا عن أنهم كانوا من ثراة الأمة الإسلامية ، بل لقد بلغت ثروة عبد الرحمن بن عوف قرابة الأربعة ملايين ديناراً ومع ذلك حين رغب إليه مولانا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أن ينزل عن كل ماله للمسلمين لم يتوان عن التنفيذ حتى أرجعه المصطفى .

ونظرة واحدة إلى ما نحن عليه الآن تعطينا صورة صادقة على فساد تفكيرنا ، وعدم تفهمنا لحقيقة الدين ، وما يرمى إليه من مكارم لو اتبعناها لسدنا الأمم غنى وخلقاً ، وجاهاً وسياسة .

ولكننا شغلنا عن ذلك بالتقليد ، ويا ليته تقليد يعود على الأمة بالنفع والخير ،

بل تمليد مؤذ للخلق ، مذهب للكرامة مضيع للعزة ، ونظرة واحدة إلى عواقب حادث الجامعة تكفى لأن نقرر أننا نسبح فى عماية من تقليد مغبته وخيمه وعواقبه مشينة .

فالدين الإسلامى يأمر النساء بعدم التبذل والخروج إلى الطرقات ، بل تلك الملابس التى تكشف عن كل المفاتن الجسمية فى وسط شباب قد ملأ الغرور نفسه ، أنه وصل إلى حد عدم المؤاخذة على تصرفاته ، لأن الحرية المزعومة تكفل عدم توجيه أى نقد أو لوم عليه .

فما بال القائمين على شئون الجامعة ، وقد لمسوا بأنفسهم ورأوا بأعينهم ، أن شبابنا لم يعن بالخلق قدر عنايته بالمظهر الخارجى ، ولم يفكر فى الروح الجامعية قدر تفكيره بالعبث الصبيانى فى داخل الجامعة وخارجها ، يفكرون فى استحضار فرقة راقصات البالية ، لتحية علماء الغرب ، ومفكريه ليروا منظراً رغم إنكاره يذيب النفس خجلا ، ويملأ القلب حسرة ولوعة ، ولو فكر هؤلاء فى تعاليم الإسلام الصحيحة ، ونفذوا تعاليمه على الوجه الأكمل لرفع من شأن الأمة ، وأعلا من قدرها ، ولعلم الغربيون علماء وغيرهم أن حضارة الإسلام هى الحضارة الحقة التى يجب على العالم إذا أراد أن يستقر السلام فى ربوعه ، وأن ينتشر الأمن والاستقرار ، وأن تزول حالة التوتر التى عليها الأمم الآن ، وخوفهم من الحرب والاستعداد له ، وأن تعاليمه هى التعاليم الصحيحة . فإلى المسئولين أتوجه بقلب مخلص أن يعمل كل من ناحيته على أن يبرز محاسن الإسلام لنفسه وأهله وعشيرته ، وبين أفراد أسرته ، وأن يعتنقها عن يقين حتى يعود للأمة مجدها وعزها ، فلا عز لغير الإسلام ، ولا نصرة حقيقية لغير المسلمين ، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وكفانا جموحاً وإسفافاً ، فالحالة تتطلب علاجاً حاسماً وسريعاً ، ولا علاج بغير تعاليم الإسلام ، وإن الله القوى القاهر ، ينصر من انتصر لدينه ، ويعزه بإعزازه .

دراسات فى التصوف

فلسفة التصوف

لحضرة الاستاذ عمر طلعت زهران
أستاذ فى الأدب

[الزاهد بين المتصوفة والفلاسفة ، الكرامات وتفسيرها الفلسفى ، العلم بين المتصوفة والفلاسفة ، المعرفة — الله]

صلة التصوف بالفلسفة ، إنما تروى قصة من أروع القصص ، وتبين عن نضال من أعنف ما عرف العقل البشرى . فالصوفية — كما نعرف — إنما يتبعون منهاجا خاصا فريدا ، هو منهاج الروح والإلهام ، إن أتاهم العلم فإنما يأتيهم عن طريق الله ، والله وحده . ليسوا بمستدلين عن طريق العقل ، أو آخذين عن الكتب ، إنما العلم فى صدورهم ، جاءهم بنور من الله ، أفاضه عليهم من كرمه ، وأشرق به على قلوبهم من فيضه . أما الفلسفة فأداتها العقل ، والعقل وحده ، به يعرفون كل أمر ، وبه يحيطون بكل شىء ، يدلهم - فيما يرون - على وجود أنفسهم ، وعلى وجود الله ، وعلى وجود العالم .

* * *

وأروع صورة لهذا النضال - بين العقل والذوق - نجدها عند الغزالى ، ذلك الذى أحاط بعلم الفلاسفة ، ونهج سبيلهم حينا من الدهر ، حتى إذا ما عرف ذلك الذى يدعون ، قلب لهم ظهر المجن ، ولبث يناجزهم ، وينقض أدلتهم ، ويثبت :

ضعف العقل ، وقوة الروح . فإذا به في « إحياء علوم الدين » يوقفنا على أروع صراع بين العقل والذوق .

وسنعرض في هذه الكلمة لأهم المسائل التي احتدم فيها القول بين الفريقين ، فنتكلم عن الزهد لديهما ، ثم الكرامات وتفسيرها لدى الفريقين ، ثم نتناول نظرية المعرفة عندهما ، وأخيرا نتكلم عن « الله » جل جلاله ، كما يراه الصوفي ، وكما يراه الفيلسوف .



أما الزهد ، فقد أخذ الصوفية أنفسهم به ، وراضوها عليه ، وهم إنما فعلوا ذلك حتى تخلص أرواحهم من شوائب المادة ، وأدران البدن ؛ اتخذ الصوفية الزهد وسيلة للوصول لجناب الحق ، وطريقا لكشف الحجب عن أنفسهم ، حتى يجتلوا بطلعة الله ، ويصلوا الى حضرة الربوبية ، أما الفلاسفة فنراهم في هذا فريقين : إما آخذين بالزهد كمبدأ وغاية ، لا كوسيلة أو طريق ، وإما تاركين الزهد ، عازفين عنه ، آخذين باللذة المادية الفيزيائية ، مبالغين فيها مسرفين . وقد نجد بينهم فريقا ثالثا وسطا بين الإثنين فما راض نفسه على الزهد ، ولا أخذها بالإسراف في اللذة ، وإنما اعتدل بين هذا وذاك ، وسار على طريق مستقيم ، لا إفراط فيه ولا تفريط . ومن هنا نعرف الفرق بين الصوفية والفلاسفة : فبينما الأولون يرون في الزهد وسيلة وطريقا ، إذا بالفلاسفة يرون فيه غاية ومقصدا . ولعلنا نرى في الأبيقورية والرواقية خير مثلين على ما ذهبنا إليه .



ولما كان السبيل إلى الله هو رياضة ومجاهدة ، يصل بعدها السالك هذا الطريق ، إلى منزلة العرفان ، وهو مقام سام ، بل وقد يصل فيه السالك إلى أن يتحد بالله أو أن يحل فيه الله — حسبما تقول بعض المذاهب الصوفية ، وفيه تسامح كبير ، فإن كان ذلك كذلك ، رأينا له كرامات : كأن يظهر في أماكن متعددة في وقت واحد ، أو أن يأتي بفاكهة في غير أوانها ، أو أن يطعن نفسه بمدية ،

أو أن يقبض على الحديد المحمى دون أن يصيبه مكروه ، وبالجملة أن يأتى بخوارق الأمور مما هو فوق طاقه البشر ، ومما لا قدرة للرجل العادى على فعل مثله .

يوضح الصوفية ذلك بقولهم إن الروح فى حال « السكر والغيبة » تصعد فتفارق الجسم وتتحد بالله ؛ أو إن الله نفسه يحل بالبدن ، فإن فعل العبد شيئاً ، لم يكن هو الذى فعل ، وإنما الله هو الفاعل ، وفى كلتا الحالتين يستطيع الإنسان أن يقوم بالخوارق ، وأن يأتى بالكرامات .

أما الفلاسفة فيفسرون ذلك تفسيراً آخر : فالمعجزات عندهم تثبت فى ثلاثة أمور : أولها القوة المتخيلة ، فإنهم زعموا أنها إذا استولت وقويت ، ولم يستغرقها الحس والاشتغال ، اطلعت على اللوح المحفوظ وانطبعت فيها صور الكائنات الكائنة فى المستقبل ، وذلك فى اليقظة للأنبياء ، ولسائر الناس فى النوم .

وثانيها هى القوة العقلية النظرية ، ترجع إلى قوة الحدس ، وهو سرعة الانتقال من معلوم إلى معلوم ، والناس فى هذا منقسمون : فمنهم من يتنبه لنفسه أو بأدنى تنبيه ، ومنهم من يتنبه مع التعب الكثير ، ورب نفس مقدسة صافية ، يستمر حدسها فى جميع المعقولات وفى أسرع الأوقات ، والمثال على ذلك الأنبياء .

ثالثها القوة النفسية العملية ، وقد تنتهى إلى حد تتأثر بها الطبيعيات وتتسخر ، ومثله أن النفس إذا توهمت شيئاً خدمته الأعضاء والقوى التى فيها ، فحركت إلى الجهة المتخيلة المطلوبة . ويختلف ذلك باختلاف صفاء النفوس وقوتها ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه ، فلا يبعد أن تبلغ قوة النفس إلى حد تخدمه القوة الطبيعية فى غير بدنه ، فإذا جاز أن تطيعه أجزاء بدنه لم يمتنع أن يطيعه غيره ، فتتطلع نفسه إلى هبوب الريح أو نزول المطر أو هبوب عاصفة ، أو نزول صاعقة أو تزلزل الأرض لتخسف بقوم .

من هذا نرى مبلغ الفرق بين تفسير الفلاسفة للكرامات والمعجزات ، وبين تفسير المتصوفة لها ، الذين يرجعون الكرامة إلى الاتحاد بالله ، فإذا استولت لاهوتيته على الناسوت ، أصبح هذا قادراً على فعل أى شىء .

* * *

والعلم لدى الصوفية — كما أبنا — إما استبصار وطريقه العقل والكتب والتعلم وإما إلهام وله طريقان : الإشراق وباعثه الله ، وأهله هم أصحاب النفوس الصافية والقلوب العامرة بالإيمان وحب الله ، والوحى عن طريق الملك من لدن الله ، وأصحابه هم الأنبياء . أما لدى الفلاسفة فالأمر جد مختلف ، فسبيل العلم هو العقل ، والعقل وحده ، هو الذى يدلنا على النفس وعلى الله ، وهو الذى يقودنا إلى الحقيقة فى كل شىء . وينظر الصوفية إلى هذا العلم — العلم عن طريق العقل — على أنه أدنى درجة من علمهم ، وأنه قريب من علم العوام .

ولكن الصوفية والفلاسفة يختلفون فى فهمهم لـ « العقل » وفيما يعنون بهذا اللفظ . فهو عند الفلاسفة ما نعرف من أنه أداة للاستدلال وللنظر وللفهم وللمعرفة بينما هو عند الصوفية . النفس الناطقة ، أو هو محل المعقولات . فالعلم لدى الصوفية إذن هو كما يقول عليه السلام : « نور يقذفه الله تعالى فى القلب فيشرح به الصدر » أما علامته فهى « التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود » .

والنفس ، إما نفس مطمئنة ، إذا سكنت للأمر ، وحفظت التوازن بين شهوات الجسم ؛ وإما نفس لوامة ، إذا لم يتحقق سكونها فاصطرعت مع شهوات البدن ؛ وإما النفس الأمارة بالسوء إذا استسلمت للشهوات ، واسلست لها القياد ، وأفسحت المجال للشيطان . وما أشبه « الغزالى » فى تقسيمه هذا بـ « أفلاطون » الذى يقسم النفس إلى عاقلة وغضبية وشهوية . فالأولى تقابل النفس المطمئنة ، والثانية تقابل اللوامة ، والثالثة تقابل الأمارة بالسوء ، وذلك على الرغم من اختلاف أساس التقسيم عندهما .

* * *

وأهم من هذا وذاك هو الله ، وفرق شاسع بين معرفة الله عند الصوفية ، ومعرفته عند الفلاسفة . سئل « ذو النون المصرى » : كيف عرفت ربك ؟ فأجاب : « عرفت ربى بربى ، ولولا ربى ما عرفت ربى » ، فطريق معرفة الله هو الله نفسه » وسئل « النورى » : ما الدليل على الله ؟ فأجاب : « هو الله » ، قيل له : وما العقل ؟ قال : « العقل عاجز ، والعاجز لا يدل إلا على عاجز مثله » فلا العقل يؤدى بنا إلى الله ومعرفته ، ولا الاستدلال العلمى بكاف لكى نعرف الله ولكن « الله » ، إن كان ثمت طريق لمعرفته ، فهو عن طريقه « هو » . الله يشرق بنوره على قلب عبده ، ويجتلى بذاته ، ويظهر بجلاله . لا شك إذن فى تلك المعرفة عن الله ، التى تأتينا عن طريق الله نفسه . أما أن نعرف الله عن طريق العقل فذلك أمر كله شك وكله ريب ، وما أدل على ذلك من أنه إذا اصطنع فيلسوف براهين على وجود الله ، إذا بفيلسوف آخر يهدم له براهينه ، ويقول بأخرى (١) ، إذن فهذه وتلك محل شك ، وما دام فيها ظل من الشك ، فهى غير يقينية ، أى أنها لا تؤدى إلى يقين ، وهذا « الله » الذى لا يقين فيه ، ليس إلها ، ولسنا إذن نعرفه كما ينبغى أن نعرف الله .

فنحن إذا عرفنا النفس ، ثم أثبتنا عن طريق النفس معرفة الله ، ونحن إن دللنا على الله بمختلف الأدلة : سواء فى أنفسنا أو فى غيرها ، فإن هذه المعرفة لا تبلغ أبدا يقين المعرفة التى يتمذف الله بها فى قلوب عباده المصطفين . ويدلنا الأثر القائل : « من عرف نفسه ، فقد عرف ربه » يدلنا على أننا لا نعرف الله إلا إذا عرفنا أنفسنا ، ولن نعرف أنفسنا إلا إذا تجردت عما يشوبها من مادة ، وما يتعلق بها من أوشاب .

وبعبارة أخرى ، لن يعرف الله ، إلا من عرف نفسه ، ومن سلك طريق المعرفة الصحيح ، طريق الذوق والوجد .

(١) يلاحظ أن الفلاسفة رغم اختلافهم يتفقون جميعا على براهين معينة ، ومن هنا كان فى هذا الدليل مغالطة منطقية .

أسباب الفتنة في عهد عثمان

لحضرة الأستاذ عبد المنعم الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

للفتنة فى عهد عثمان أسبابها المباشرة وغير المباشرة ، وهى من هذه الوجهة أشبه الثورة الفرنسية ، كما تتشابهان كذلك فى أن حدوث كل منهما فى صفحة التاريخ كان أمراً لامفر منه ، وهذا لأنهما يرجعان لعوامل غير مباشرة ، لم تكن من خلق الزمن الذى حدثنا فيه . غير أننا نستطيع أن نقرر أنه كان من الممكن أن تحدثا فى تاريخ آخر لاحق ، لو لم توجد العوامل المباشرة التى أدت بهما إلى الحدوث زمن عثمان رضى الله عنه وزمن لويس السادس عشر .

ويمكن حصر الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة فى التطور الاجتماعى الجديد الذى طرأ على حياة المجتمع الإسلامى نتيجة الفتوحات الواسعة التى تمت زمنى أبى بكر وعمر ، كما يدحل فى ذلك أيضاً ، العصبية التى تميز بها العربى ، وتلك الروح العربية الثورية الجامحة أو ما يطلق عليه علماء الاجتماع اسم « روح الجنس » .

هذا عن الأسباب غير المباشرة للفتنة ، أما أسبابها المباشرة فيمكن ربطها بضعف سياسة الخليفة ، وسنعرض فى شىء من البسط والتحليل لكلا النوعين من أسباب هذه الفتنة الشنيعة . التى ذهب ضحيتها خليفة المسلمين الثالث عثمان رضى الله عنه .

يقول علماء الاجتماع إن الثورة دائماً حليفة التطور ، سواء أكان هذا التطور دينياً ، أم فكريا ، أم ماديا ، أم سياسيا . ثورة تطيح بالقديم التمائم من نظم الحكم أو الديانة المرعية أو الأفكار والمعتقدات السائدة أو نظم التجارة المتبعة أو أصول الفن المعروفة ، ثورة تطيح بكل ذلك ، وتفسح المجال لنظم جديدة ومعتقدات جديدة وقيم جديدة . فكلنا يعرف مدى فزع دولة الأوثان عند ماانبثق نور

الهداية الاسلامية يكتسح ظلمة شبه الجزيرة العربيه ، فجفلت دولة الباطل بمو بيقاتها وعلا صرح الحق كالطود لا يريم ، وكلنا يعرف كذلك مدى ما أزكت به آراء « فولتير » و « جان جاك روسو » و « منتسكيو » نيران الثورة الفرنسية ، التى راحت تلتهم القديم الجائر ، وتمهد لحياة أخرى أكرم ببنى الإنسان ، وما فزع أباطرة روما ، ذات التاريخ الوثنى العتيـــد ، يوم طرقت المسيحية أسوارها ، وجنوحهم إلى « بيزنطه » ، إلا دليل على هذا التطور الجديد .

ونحن لا يخفى علينا ، أن المجتمع الإسلامى ، أواخر عهد عمر ، كان قد تهيأ لاستقبال طور جديد ، من أطوار حياته ، وأنه بما تم له من الانتصار المؤزر على أكاسرة الفرس وقياصرة الروم ، وبما غمره من الغنائم والأموال والسبى ، وقد بدأ يودع طور البداوة وعيشها الناضب ، ويستقبل حياة التحضر ، وعيشها الخصيب ، غير أن العبقرية العمرية ، لم تفتها هذه الظاهرة الجديدة فى حياة المسلمين ومدى ما قد تحدثه من نكسات لو أرخى لها العنان ، فراح يضرب للناس من سيرته العادلة الزاهدة المقتصدة أروع الأمثال ، فبهرهم بذلك ، وحملهم على الطريق السوى ، كما دفعهم إلى الاقتداء والتشبه بسيرته .

وأهم مظاهر التطور الاجتماعى لذلك العهـد ، تضخم الثروات ، بما آل إلى المسلمين ، من خيرات الأمم المغلوبة . ولقد عددت المصادر الشىء الكثير من هذا الثراء العريض الذى استجد على الصحابة والمسلمين ، ومن هذه المصادر ، تاريخ الطبرى ، وطبقات ابن سعد ، ومروج الذهب للمسعودى ، وتاريخ ابن عساكر ، والكامل لابن الأثير . ومن هؤلاء الذين أفاضت المصادر فى عد ثروتهم ، سعد بن أبى وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف ، أحد الثمانية الذين سبقوا الخلق إلى الإسـلام ، وطلحة بن عبيد الله ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وكان يقال له ، طلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الخير ، وطلحة الطلحات ، ومن الأغنياء الذين ورد ذكرهم أيضاً ، خبّاب بن الأرت ، والزبير بن العوام ، والمقداد بن الأسود وغيرهم . والشىء الذى يسترعى الانتباه ، أنه قد وجدت طبقة جديدة أصابت من الثراء ما تشرد عنـد وصفه الألباب ، وقد جر هذا طبعاً ، إلى حياة البذخ والترف فى عهد عثمان ، الذى ترك لقريش وسواهم الحبل على الغارب ، يتأثلون القرى والضياع ، ويشيدون الدور والأبنية الفخمة ، وبذا بدا التطور

واضحاً جلياً ، حيث طرحت حياة البداوة الساذجة جانباً ، ومال الناس إلى التكاثر بالأموال ، وبجانب هؤلاء ، وجدت طائفة أخرى ، خاب مسعاها فى الحياة ، فنظروا إلى طبقة الأغنياء ، نظرة حقد وحسد ، ودب فى نفوسهم دبيب اليأس والتمرد ، ومثلُ هؤلاء ، هم الذين يمهدون للثورات ، وينفخون فى أبواقها . ولقد أدرك عمر ذلك قبل موته ، وقال مشفقاً على المسلمين ، لما رأى أسلاب فارس وما فيها من ياقوت وزبرجد وجوهر ، « بالله ما أعطى الله هذا قوماً إلا تحاسدوا وتباغضوا — إلا التى الله بأسهم بينهم » . ولقد كان عهد عثمان ، كما سلف ، دور انتقال من حياة العداوة الجافة إلى حياة التحضر المترفه ، فكثرت لديه الأموال كثرة هائلة ، اتخذ لها الخزائن ، فانتشر القيل والقال ، وأصبح الأغنياء ، بل والخليفة نفسه ، محل طعن ومؤاخذة ، لما كان يخص به أقاربه من جاه ومال ، فدبت فى البلاد روح السخط والتذمر ، وحب الشغب ، وكراهية قريش ، ولعل ذلك مصداق قوله صلى الله عليه وسلم « إن أخوف ما أخاف عليكم من بعدى ما يفتح الله عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ولقد صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان ذلك من الأسباب الممهدة للفتنة « ونبلوكم بالخير والشر فتنة والينا ترجعون » .

وليس من شك فى أن اندلاع لهيب الفتنة فى عهد عثمان ، مرده إلى مجاراة الخليفة نفسه للتطور الاجتماعى ، وهو ما لم يفعله عمر ، فقد أصبح لعثمان من الثروة ما لم يكن لأحد من سلفيه ، وإلى جانب ذلك ، مد الخليفة للصحابة والتابعين والأقربين فى هذا المضمار مداً ، وتلك حالة جديدة لم يشهدها عهد السلفين الكبيرين أبى بكر وعمر ، فحز ذلك فى نفوس الناس ، ووجدوا من ضعف الخليفة ولينه ، ما شجعهم على القيام بفتنتهم المشئومة .

وإلى جانب تضخم الثروات كمظهر من مظاهر التطور الاجتماعى فى ذلك الحين برز مظهر آخر من مظاهر هذا التطور ، وهو اختلاط الأجناس والعناصر المختلفة فقد أصبح المجتمع الإسلامى ، بعد حوادث الفتوح ، محيطاً زاخر العباب ، يموج بكثير من مختلف الأجناس والأديان ، وكان منهم الموتورون بسيوف المسلمين ، دخلوا الإسلام غير مخلصين ، يتحينون الفرص للإضرار بالمسلمين ، ومن هؤلاء « الهرمزان » و « جفينة » و « كعب الأحبار » و « عبد الله سبأ اليهودى » ، عماد

الفتنة الأكبر ، وداعيتها الأول . وفوق ذلك كان للسبي والاسترقاق والخلط بين العناصر ، أثر بعيد الفور ، فى إعداد المجتمع الإسلامى ، لهذه الفتنة ، وقد كان أبناء السبايا من شر ما منى به المجتمع العربى ، وقد قال عثمان رضى الله عنه : « إن أمر هذه الأمة صائر الى الابتداع بعد ثلاث فيكم ، تكامل النعم ، وبلوغ أولادكم من السبايا ، وقراءة الأعراب والأعاجم للقرآن » .

وهناك مظهر ثالث من مظاهر التطور الاجتماعى ، وهو الثقافة العامة لهذا العهد ، فقد كانت الثقافة زمن النبى الكريم ، ثقافة بسيطة موحدة ، إذ كانوا يقفون عند ما جاء به الله ، وما علمهم رسوله الأمين ، لا تكلف ولا ابتداع ولا أمت ولا عوج ، وكانوا لا يعرفون التأويل بما يوافق أهواءهم ، ولا اللعب بالنصوص لحساب منافعهم ، فلما كانت الفتوح وكثر اختلاط العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ، راح أهل الأقطار المختلفة يقرأون القرآن ، كل بالطريقة التى يراها ، وبالنغمة التى تعنيه ، ففزع لذلك « حذيفة بن اليمان » ووحد المصحف . وبالإضافة الى ذلك ، راح القوم ، وقد استنارت عقولهم فى المجتمعات والأندية والمؤتمرات ، ينظرون الى سياسة الخليفة ، نظرة الناقد ، ويتطلعون الى أعماله تطلع المدقق المحاسب وأحيانا كانوا ينظرون الى هذه السياسة نظرة السخرية والإزدراء ، ومن ثم كان هذا المظهر الثقافى الجديد ذا أثر فى التمهيد للفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة الشنعاء ، ما تميز به العربى من روح التعصب ، فلما جاء الإسلام ، حارب هذه النزعة « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وبذا اختفت هذه النزعة زمن النبى ، ثم برزت أيام الردة ، ثم اختفت بفضل أبى بكر ، إذ شغل المسلمين بأمر الفتوح ، وكان عمر يسعى جهده للقضاء على هذه النزعة ، وكانت قريش محل حسد وحقد القبائل العربية الأخرى ، لما لها من المكانة والصدارة ، ثم كان هناك التعصب أيضاً بين بيوت قريش وبطونها ، وأمر ذلك واضح فى الخلاف الذى شجر بينهم عند بيعة عثمان ، وقد كان لروح التعصب هذه ، أثرها البعيد المدى فى تعكير الجو حول الخليفة ، وفى إشعال نيران الفتنة .

ومن الأسباب غير المباشرة لهذه الفتنة أيضاً ، الطبيعة العربية ، أو ما يطلق

عليه علماء الاجتماع « روح الجنس » ، وقد تميزت الروح العربية بالجموح والعناد ، ولقد قال عمر فى أول خطبة له بعد توليه الخلافة « إنما العرب مثل جمل أنف ، اتبع قائده ، فلينظر قائده أين يقوده ، أما أنا ، فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق» ولقد استطاع عمر أن يحملهم على الطريق حقاً ، فلما آل الأمر لعثمان ، ولم تكن له عبقرية عمر ولا حزمه ، انفلتت من يده ، مقادة هـذه الأمة الجموح الأنوف ، وانفجر بركان الفتنة ليودى بالخليفة الطيب الورع عثمان .

بقى من أمر هـذه الفتنة أن نورد أسبابها المباشرة ، وتتلخص فيما أجمع عليه المؤرخون ، من ضعف سياسة الخليفة ، ولو وضعت الخلافـة آنئذ فى يد قوية ، كيد على بن أبى طالب ، لكان من المرجح أن تتأخر هذه الفتنة إلى وقت لاحق ، وقد كان عثمان أقل من أن يقود أمر أمة كالأمة العربية ، وخاصة فى هذا الطور الذى بلغت فيه درجة الغليان . وأول مظاهر هذا الضعف ، حياؤه ولينه ، وليس أدل على ذلك من رفضه تفتيش « كميل بن زياد » ، وخضوعه للمفتونين الثائرين من أهل الكوفة والبصرة ، والسير وفق أهوائهم الجامحة ، فكلما طلبوا منه عزل عامل وتولية آخر ، إستجاب لهم ، راجياً بذلك ، أن تسلس مقادتهم له ، ولكنه بتلك السياسة ، هون من شأن ولاته ، وأطمع أولئك الطغام الحاقدين فيهم .

ثم كان كبر سن الخليفة ، من العوامل المهيئة لهذه الفتنة ،إذ من طبائع النفس البشرية، هيبة القوى ، والطمع فى الضعيف ، وعلى قدر ما كانت قوة عمر ونشاطه وتوثبه ، كان ضعف عثمان وانكساره وعجزه وتردده ، فسهل على بطانته قطع الأمور دونه ، والعمل وفق مآربهم ، وبذلك تهيأت الأقطار الأخرى للثورة ورفع راية العصيان .

روى الطبرى أنه لما حوصر عثمان قال : « ومن كانت لى عليه طاعة فليمسك داره ، فإنما يريدنى القوم ، وسيندمون على قتلى ، والله لو تركونى ، لظننت أنى لا أحب الحياة ، ولقد تغيرت حالى ، وسقطت أسنانى ، ورق عظمى » ، ومن ذلك يتضح مدى فعل السنون بالخليفة عثمان ، حتى صيرته شيخاً فانياً عاجزاً ليس له من رهبة عمر شيئا .

ومن نمط الضعف فى سياسة عثمان : إيثاره الأقارب ، فى مجتمع عنيد أنوف ، يموج بالفتنة ، ويتطاير منه شرر الحقد والحسد ، فكم من لوم ، وكم من عتاب ،

وكم من شكوى وجهت إلى عثمان وعماله ، وكان قد اصطفاهم من ذوى قرباه . والمؤرخون ينقسمون تجاه هذه السياسة قسمين : قسم يحبذ ما ذهب إليه الخليفة من اصطفاء الأقارب ، بحجة أنهم كانوا أكفاء ، برهنوا على أنهم أهل للثقة التى وضعت فيهم ، ومن هؤلاء : معاوية بن أبى سفيان ، ونضيف فى هذا الصدد أن روح التمرد ، التى طبعت هذا العهد ، أخافت الخليفة ، فلم يعد يثق بغير أقاربه ، وقسم آخر ، يخطىء الخليفة فى هذه السياسة ، ويقول بأنه كان الأجدر به أن يضرب القدوة من نفسه ، وأن يحذوا حذو عمر فيما اتخذه من سياسة تجاه أقاربه .

ومما تقدم ترى أن سياسة عثمان هذه ، وقد مهدت لإشعال نيران الفتنة ، وقد كان عثمان فى حاجة إلى مثل عبقرية عمر ، إذ كان حاكما مثاليا ؛ بأدق معانى هذه الكلمة ، فما كان يمنعه أن يربت على كتف بدافع العطف من أن يتناولها بالدرة بدافع العدل ، قبل أن يقرم صاحبها من مجلسه ، أما عثمان فقد كان ينبوع رحمة ، ونسيم رقة ، له صفات من يعطى ولا يأخذ ، بسط للناس صدر خلافته ، حتى استطابوا المرعى ، فلما هم بزجرهم حرنوا وتمردوا ، ولم يستطع للفتنة قمعا ، فأكلته نيرانها .

ويجب أن نقرر فى ختام هذا البحث ، أن نظام الحكم ، ذلك النظام الذى لم يحدد سلطة الخليفة ، وموقفه من الأمة ، وموقف الأمة منه ، ولم ينص على طريق محددة للحكم ، كان من العوامل التى أفسحت مجال الفتنة ، فإن روح الشورى ، التى تشبع بها المسلمون زمن عمر وأبى بكر ، جعلتهم يتطلعون إلى التدخل فى كل شىء ، وكان مظهر الخلافة مظهر رعاية أبوية بعيدة عن العسف والقهر ، غير أن هذا التسامح قد جر الفوضى ، والافتيات على الحقوق ، والاختلاف على ما كان يقع من الأحداث ويجد من الوقائع ، فلم يكن القول لهيئة خاصة ، ولا لطائفة معينة ، وقد كان عمر يرمى من وراء ذلك إلى تدريب كل مسلم على معرفة نصيبه من الواجب العام والمصلحة المشتركة ، غير أن ذلك انقلب فى عهد عثمان إلى جرأة وتطاول عليه ، مما مهد الأمور للفتنة .

هذه هى الأسباب المباشرة وغير المباشرة التى انتهت بالفتنة الشنعاء حيث كان ضحيتها خليفة المسلمين الثالث « عثمان رضى الله عنه » .

إمام المفسرين ابن جرير الطبري

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

لعل فى ترداد النظر فى تاريخ هذا الإمام العظيم وأمثاله . ما يحفز نفوسا كريمة أو يرفع هما وخيمة . وإنما الناس من جهة التمثال أكفاء . ولا فضل للإنسان إلا بحياة يعمرها بعلوم يحصلها . أو آثار نافعة يخلدها فيخلد بها ، لهذا يعجبنى دائما أن أطالع القراء الكرام ، بسير هؤلاء الأئمة الأعلام .

* * *

نشأ الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير المشهور والتاريخ المعروف ، فى القرن الثالث الهجرى ، وهو عهد نهضة علمية ، وبخاصة فى التأليف والتدوين وهى نهضة ترجع إلى عهد المنصور العباسى وتبتدىء به . وكان المنصور العباسى قد شجع العلماء ، وأغرى بالتأليف الأئمة والفقهاء وأمره فى موطأ الإمام مالك وغيره مشهور بين الناس ، وناهيك بعصر المأمون الذهبى للغة العربية وآدابها ومعارف الدين والدنيا .

* * *

ولد الطبرى سنة ٢٢٥ هـ وتوفى سنة ٣١٠ هـ ،فهى خمس وثمانون سنة تقريبا قضاها فى جمع العلم والتصرف فيه . وقد عبدت سبله . وعذبت مناهله . مع ذكاء نادر وحفظ عجيب . وتفرغ وزهادة . وتوفر على العبادة . فطوف بالآفاق يرتاد المعارف ما بين الرى . وبغداد . ومصر ، والشام ، والبصرة ، والكوفة .

وقد طال مقامه ببغداد بدءا وعودا . حتى كانت وفاته بها .

وكانت بغداد كعبة القصاد ، وموئل الرواد ، ونجعة العالم والأديب ومجمع كل حسن وطيب ـ وهى التى يقول فيها ابن هانىء :

دخلناها كارهين لها فلما ألفناها خرجنا مكرهينا

* * *

بدأ يطلب الحديث بالري وما جاورها ، فأكثر عن الشيوخ ولا سيما محمد ابن حميد الرازى والمثنى بن ابراهيم الأبلى . وغيرهما . وحدث عن نفسه فى قصة يذكرها بعض المتصلين به . أنه دخل عليه هو وابنه فقال له فى حديث جرى . كم لهذا سنة؟ قال تسع سنين . قال لِمَ لَمْ تسمعه منى ، قال كرهت صغره وقلة أدبه فقال لى : حفظت القرآن ولى سبع سنين ، وصليت بالناس وأنا ابن ثمانى سنين [1] وكتبت الحديث ، وأنا ابن تسع سنين ، ورأى لى أبى فى النوم أننى بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان معى مخلاة مملوءة حجارة ، وأنا أرمى بين يديه ، فقال له المعبر إنه إن كبر نصح فى دينه ، وذب عن شريعته . فحرص أبى على معونتى على طلب العلم وأنا حينئذ صبى صغير .

وانتقل من الرى وما جاورها إلى مدينة السلام ، فأقام بها وكتب عن شيوخها فأكثر . ثم صار إلى الكوفة فكتب فيها عن محمد بن العلاء الهمذانى وإسماعيل ابن موسى وغيرهما . ثم عاد إلى مدينة السلام ، ولزم المقام بها مدة . وتفقه بها وأخذ فى علوم القرآن ، ثم غرب فخرج إلى مصر ، وكتب فى طريقه بأجناد الشام والسواحل والثغور وأكثر منها ، ثم صار إلى الفسطاط سنة ٢٥٣ . وكان بها بقية من أهل العلم فأكثر عنهم الكتبة من علوم مالك والشافعى وابن وهب وغيرهم .

وهكذا ظل يتنقل ويأخذ كل علم من أهله وأئمته ، حتى انتهى به المطاف إلى مدينة بغداد ، وأفاض على الناس من علمه فى شتى الفنون ، وكتب مؤلفاته ، وما زال بها سراجاً منيرا ، وشمساً مشرقة ، حتى قضى سنة ٣١٠ ﻫ . هذه هى حياته الحافلة بالتماس العلم والنهم فى جمعه من جميع منتجعاته ، والاستنتاج والإنتاج ، وإذاً فمنزلة ابن جرير جديرة بما وصف الخطيب البغدادى إذ يقول :

« وكان أحد أئمة العلماء يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره .

وكان حافظاً لكتاب الله ، عارفاً بالقراءات ، بصيراً بالمعانى ، فقيهاً فى أحكام

---

[١] من مذهبنا « الحنفى » أن البلوغ شرط فى صحة الامامة .

القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها ، ناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ، ومن بعدهم من الخالفين فى الأحكام وسائل الحلال والحرام ، عارفاً بأيام الناس وأخبارهم .

ولقد أعجب به العلماء والمؤرخون . وجميع أصحاب الفنون فى فنونهم ، وذكر الرواة عنه كثيراً من العجائب ، فقالوا إنه مكث أربعين سنة يكتب فى كل يوم منها أربعين ورقة . وقالوا إن قوما من تلامذته حصلوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفى وهو ابن ست وثمانين سنة ، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار منها على كل يوم أربع عشرة ورقة . وهم يذكرون لذلك نظائر حين يتكلمون عمن أكثروا التصنيف ، كأبى الفرج الجوزى ، وجـــلال الدين السيوطى . ولعل فى أحوال بعض المعاصرين . من أمثال الدكتور طه حسين باشا ، والأستاذ العقاد وغيرهما ما يقرب هذه الروايات ، فقد كان السابقون أفرغ بالا ، وأبعد عن شواغل المدنية . وأقل منا أخذاً فى حظوط الدنيا ومتعها .

ولعل ميزة للطبرى لم يشارك فيها هى أنه يزاحم رجال الاختصاص فى اختصاصاتهم فلا يتخلف عنهم . بل لقد سبق كثيراً منهم ولاسيما فى تفسيره الوحيد الذى جمع بين مسالك السلف فى الرواية . والخلف فى دقة الفهم والدراية .

فأبو جعفر مفسر بلغ مرتبة الامامة فى التفسير ، وفتن الناس بكتابه الذى انتشر منذ عهد ، وأكب الناس على قراءته ، يسرحون الطرف فى فسيح رياضه ، ويملأون العقول غذاء وكرعا من حياضه ، وهو تفسير خالد يتحدى كل عالم ومفسر حتى اليوم . وقد ذكره الإمام المجتهد أبو حامد الاسفرائنى فقال فى شأنه « لو سافر أحد إلى الصين حتى يحصل له كتاب تفسير ابن جرير لم يكن ذلك كثيراً » .

ونقل الخطيب بسنده إلى عبيد الله بن أحمد السمسار قال .

« إن أبا جعفر قال لأصحابه : أتنشطون للتفسير ، قالوا كم يكون قدره ، قال : ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا هذا مما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة . ثم قال هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ، قالوا كم يكون قدره فذكر نحواً مما قال فى تفسيره ، ثم قال : إنا لله ، ماتت الهمم .

وهذا إن صح أكبر دلالة على همة ونشاط تضل الأذهان فى إدراكهما ، وقد قالوا إنه أملاه من سنة ٢٨٣ إلى سنة ٢٩٠ .

ولعل لنا نظرة فى تفسيره بعد .

ثم ابن جرير محدث عالم بالسنن وطرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها كما وصفه الخطيب . وقد ذكروا فى تاريخه أنه كتب عن أبى كريب وحده أكثر من مائة ألف حديث . وهو عارف بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم وقد رأيت ما كتب بمصر من علوم مالك وابن وهب والشافعى .

ولهذا فهو فقيه مستقل ، وإمام مجتهد يذكر فى طبقات المجتهدين . وهو لم يقلد إلا فى صباه يوم ابتدأ الفقه بمدينة السلام على مذهب الشافعى ، على أن له أتباعا يقلدونه من العلماء . منهم أبو بكر المعافى المعروف بابن طراز .

وأبو جعفر المؤرخ المشهور الذى جمع تاريخ الدين فى كتابه مع تحر فى الرواية وقوة فى الأسلوب .

ثم هو فى علوم العربية إمام جليل ، دلت على ذلك كتابته فى التفسير وشهد له به أئمة العربية : كأبى العباس ثعلب الذى يقول فيه إنه من حذاق الكوفيين ، وكان قليل الشهادة لاحد بالحذق .

وسأحيلك على نبذة مما كتب عنه أبو محمد عبد العزيز بن محمد إذ يقول : كان أبو جعفر من الفضل والعلم والذكاء والحفظ على ما لا يجهله أحد عرفه لجمعه من علوم الإسلام ما لم يجتمع لأحد من هذه الأمة ولا ظهر من كتب المصنفين واشتهر من كتب المؤلفين ما ظهر له . كان عازفا عن الدنيا تاركا لها يرفع نفسه عن التماسها . وكان كالقارىء الذى لا يعرف غير القرآن ، وكالمحدث الذى لا يعرف إلا الحديث وكالنحوى الذى لا يعرف إلا النحو ، وكالحاسب الذى لا يعرف إلا الحساب ، وكان عالما بالعبادات جامعا للعلوم وإذا جمعت بين كتبه وغيرها وجدت لكتبه فضلا على غيرها . . إنتهى .

وقبل أن أختم هذه الكلمة ، أشير الى أنه روى عنه بعض منظومات تدل على ذوق فى الأدب . وبصر فاحص بأساليب العرب ، ومن ذلك قوله :

خلقان لا أرضى طريقهما ... بطر الغنى ومذلة الفقر
فإذا غنيت فلا تكن بطرا ... وإذا افتقرت فته على الدهر

رحمك الله يابن جرير . وجعل منك فى أمتنا أسوة صالحة كريمة ؟

وسائل النصر

لفضيلة الشيخ المنشاوى عبود الخولى
المدرس بمعهد القاهرة

من مظاهر حكمته تعالى أن أبدع خلق الإنسان وسوى نفسه وجعلها زاخرة بالأمانى العذبة حافلة بالآمال الباسمة تواقة إلى أن ترى تلك الآمال حقيقة سافرة. وواقعا مشرقا، وهى لذلك قد تسلك من الأسباب والوسائل ما تتخلف عنه النتائج فتفجع بالخيبة والحرمان، والهزيمة والاندحار وهى أشد ما تكون حاجة إلى النصر وشوقا إليه ولهفة عليه فكان من مزيد عنايته تعالى بعباده أن بين لهم أن النصر تابع لقانون محكم دقيق وسنة كونية خالدة فمن تنكب عنها تردى فى هاوية الذل والهوان ومن استوى على صراطها حالفه العون والإمداد والعز والإسعاد فقال جل شأنه (يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) ومن أوفى بعهده من الله؟ ومن أقدر منه على تنفيذ مراده فهو قيوم الأرض والسموات والمهيمن على شئون عباده، والقابض على ناصيتهم. فما من مخلوق إلا واقع فى قبضته وجل من سطوته. شملته إرادته ونفذت فيه قدرته وأحاط به قهره وسلطانه، ولا يتم من أموره إلا ما اقتضته حكمته وتعلقت به مشيئته. بيده ملكوت كل شىء لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه (وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو، وإن يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير، وهو القاهر فوق عباده، وهو الحكيم الخبير).

والنصر الذى طلبه تعالى من عباده يكون برعاية دينه ولذلك دعائم ثلاث — الأولى عقيدة قويمة — الثانية عبادة خالصة لله وحده — الثالثة إحسان فى معاملة خلقه: فسلامة العقيدة أن تخالط القلوب بشاشة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.

وأنه سبحانه صاحب العلم المحيط والسلطان القاهر، فلا يعلم الغيب سواه ولا

شركة معه لنبي ولا لولى ، ولا ينازعه منازع فى السيطرة على شئون خلقه فهو العظيم مجده ، الغالب جنده ، النافذ قضاؤه . السابغ عطاؤه (له مقاليد السموات والأرض يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه بكل شىء عليم) فليس من الإيمان فى شىء أن يتوكل الشخص على غير ربه ، أو يلتزم النذر لسواه ، أو يعتقد الضر والنفع فى مخلوق من مخلوقاته (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ، لقد أحصاهم وعدهم عدا ، وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) : ومن الكفر الصريح ما يفعله ضعاف العقول والسفهاء من اللجوء إلى هؤلاء الدجالين الفجار الذين يدعون علم الغيب وكشف المستقبل ، ويزعمون أن لهم قدرة على جمع القلوب وتفريقها وتيسير الزواج وإنجاز الحمل ، وإطالة أعمار الأولاد ، وأن لكتاباتهم وأحجبتهم تأثيرا فى الحفظ والإسعاد (كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا) . وما تلك الأساليب إلا شباك يصطادون بها الأموال من البله والمغفلين . ولو صح أن لهم طاقة على تحقيق ما يدعون ، لكان الأولى أن يسعدوا أنفسهم ولا يكدوا فى جلب دريهمات يسيرة يحتالون لسلبها ممن وقع فى شركهم . ولا ريب أن المسلم الذى يثق بهؤلاء قد انطفأ مصباح الإيمان فى قلبه وأحاطت به ظلمات من الكفر بعضها فوق بعض (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) وإذا أراد هذا المسلم أن يدرك حكم الرسول الكريم عليه فليستمع إلى ذلك بعد أن يزيل أكنة قلبه ووقر أذنه ، فقد قضى صلوات الله وسلامه عليه فى مثل هذا الشخص قضاء مبرما ، فقال (من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد) وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام فإن ما أنزل عليه هو قوله تعالى (قل لا أملك لنفسى نفعاً ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء) فإذا كان الرسول وهو أكرم الخلق على الله لا يملك النفع والضر لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره وتبرأ من علم الغيب ، أفيملك النفع والضر ويعلم الغيب هؤلاء الأرجاس الملوثون ؟ ولكن صدق الله حيث يقول (فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور)

الأمر الثانى : إخلاص العبادة له وحده بأن تملأ قلبك بجلاله وعظمته . عابداً له كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . ملتزما المنهاج الذى ارتضاه لتقديسه وتمجيده مسارعاً إلى إقامة العبادات مستوفية لشروطها وأركانها قريرة

بها عينك مبتهجة بها نفسك ، حريصاً على أن يظهر أثرها فى السلوك والحياة العملية معتقداً أن ثمرة ذلك ترجع إليك وحدك ، فهى تزكية لروحك ، وتطهير لقلبك ، وتكريم لشخصك وسمو بإنسانيتك ، وتشريف لها بمناجاة الله تعالى والاتصال به والحصول على عظيم امداده ووافر جزائه (ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغنى عن العالمين) فما عبد الله من حج رياء وسمعة ، أو قام إلى الصلاة متثاقلا متباطئا غافل القلب فى أدائها ، حتى أضحت صوراً وأشكالا لاحقيقة لها ، وجسما ميتا لاحياة فيه . وحقيق بمثل هذا ألا يكون عابداً لله ، وألا يصح انتسابه لرسول الله فقد روى أن حذيفة بن اليمان رضى الله عنه رأى رجلا يسرع فى صلاته فقال له : ما صليت ولو مت على ما أنت عليه مت على غير الفطرة التى فطر الله عليها محمداً .

الأمر الثالث : الإحسان فى المعاملة بمراقبة الله تعالى فى عباده بأن يشعر كل إنسان أنه لبنة فى بناء المجتمع فعليه أن يركز جهوده فى إسعاد بنى جنسه وتوفير هناءتهم ويتبادل معهم المودة والإخاء والأنس والصفاء وذلك قوام كل مجتمع صالح يتوثب أفراده للنهوض وبلوغ أوج العزة والكمال . وإلا فما قيمة مجتمع لا يرحم فيه الضعفاء ولا تمسح عبرات الأشقياء ولا يعطى السائل والمحروم حقه فى مال الأغنياء ولا يؤخذ على يد الظالم ولا ينتصف للمظلوم . وتهدر الكرامات . وتنتهك الحرمات عندئذ تكون الحياة جحيما مستعرا وعذابا وبيلا .

ومن الإحسان فى المعاملة إصلاح ذات البين وجمع الكلمة وتوحيد الصفوف لمحاربة العدو الغاشم والتسلح له بالسلاح الذى يخافه ليظل جانبنا عنده مهيبا وسلطاننا مرهوبا . ولننظر نظرة عابرة إلى قوله تعالى (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) فإنه سمت حكمته لم يحدد نوع القوة التى نعدها لتفسر فى كل زمام بما يرهب أعداء الإسلام : ـ والاستعداد على هذا النحو هو السلم المسلح الذى يمنع عدوان القوى على الضعيف ويفيض الأمن فى ربوع البلاد فيعيش العالم فى سلام دائم وصفاء شامل :

هذا هو هدى الله فى نشر الأمن بين الناس لا ما تزعمه تلك الدول العاتية من حماية السلام وأقامت لذلك مجلساً يسمى مجلس الأمن . وأحاطته بسياج براق من الدعاية الزائفة . وما هى إلا أساليب ماكرة خادعة تضمر وراءها ختل الثعالب وروغانها وشراسة الذئاب وغدرها واغتيال الأمم المستضعفة والتهام الشعوب المغلوب على أمرها . فخذوا حذركم منه أيها المسلمون فمثل هذا الصنيع

الأثيم صدر عن شخص تزاحمت عناصر الشر فى نفسه ولم يعدم طلاءَ خدّاعا فنزل فيه قول العليم الحكيم (أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به فى نار جهنم والله لا يهدى القوم الظالمين) .

أما : إذا أردتم أن يكون النصر حليفكم فى قضاياكم العامة والخاصة ، فلا يكفى لذلك وضوح القضية ، بحيث لا يرتاب أحد فى عدالتها ، أو إقامة الحجج التى ترفع شأن حقكم ، وتدفع باطل عدوكم . بل لا بد مع هذا كله من سلوك الأسباب التى هداكم الله إليها ، وأن تصلحوا ما بينكم وبينه ، وتستمسكوا بهديه ، وتجتمعوا على طاعته . والاعتصام بحبل مودته ، فقد روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من حاول أمراً بطاعة الله كان أقرب مما رجا وأبعد مما اتقى ، ومن حاول أمراً بمعصية الله كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى » . وفى هذه المدرسة القدسية تلقى تلك التعاليم الحكيمة أبطالُ الإسلام الذين نصروا بالرّعب ودانت لهم أعناق الجبابرة ، وكانوا رحمة مهداة إلى الإنسانية ، رفعوا عنها إصرها ، وأقالوها من عثرتها ، وأسدوا إليها الحياة الماجدة ، والمدنية الفاضلة . وما ظفروا بهذا التوفيق البارع ، إلا لأنهم اتخذوا طاعة ربهم معراجاً لكسب ولايته ، وجميل رعايته « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » .

كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى سعد ابن أبى وقاص وقد أمّره على حرب العراق .

(أما بعد فإنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو وأقوى المكيدة فى الحرب . وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم . فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم . وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله . ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة لأن عددنا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نفُلهم بقوتنا)

أيها المسلمون : هذا شعار أسلافكم فترسموا خطاهم واحملوا مشعل هدايتهم وجدوا السير فى طريقهم وعندئذ لا تكون يد عليكم إلا يد الله وهى معكم بالعون والإمداد أينما تتجهون . ولا تهولنكم قوة عدوكم فهى منهارة أمام تأييد الله لكم « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » ؟

حرف بثمانية ألف

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

لله در أبى منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى [1] حين قال فى فاتحة كتابه « فقه اللغة » :

« من أحب الله تعالى أحب رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب الرسول العربى أحب العرب ، ومن أحب العرب أحب العربية ، التى نزل بها أفضل الكتب ، على أفضل العجم والعرب ، ومن أحب العربية عنى بها ، وثابر عليها ، وصرف همته إليها ، ومن هداه الله للإسلام ، وشرح صدره للإيمان ، وآتاه حسن سريرة فيه ، اعتقد أن محمدا صلى الله عليه وسلم خير الرسل ، والإسلام خير الملل ، والعرب خير الأمم ، والعربية خير اللغات والألسنة ، والإقبال على تفهمها من الديانة ، إذ هى أداة للعلم ، ومفتاح التفقه فى الدين ، وسبب إصلاح المعاش والمعاد ، ثم هى لإحراز الفضائل ، والاحتواء على المروءة ، وسائر أنواع المناقب ، كالينبوع للماء ، والزند للنار ، ولو لم يكن فى الإحاطة بخصائصها ، والوقوف على مجاريها ومصارفها ، والتبحر فى جلائلها ودقائقها ، إلا قوة اليقين فى معرفة إعجاز القرآن ، وزيادة البصيرة فى إثبات النبوة ، التى هى عمدة الإيمان ، لكفى بهما فضلا يحسن فيهما أثره ، ويطيب فى الدارين ثمره ؛ فكيف وأيسر

---

[١] ولد فى نيسابور سنة خمسين وثلاثمائة ، وتوفى سنة تسع وعشرين أو ثلاثين وأربعمائة ، وكتبه كثيرة ، وتاريخه مبسوط .

ما خصها الله عز وجل به من ضروب الممادح ، يُكل أقلام الكتبة ، ويتعب أنامل الحسبة ؟ (١) » .

نعم فالعربية لغة آ ثرها الحق منذ القدم بتمجيده ، وهيأها لتكون لسان وحيه ، وصوت عبادته ومناجاته ، فكان من صنعه سبحانه لها أن برع أهلوها فى طرائفها وفنونها ، ومهروا فى تشقيقها وتصريفها ، وأبدعوا فى تضمينها الكثير من أسرارها ورموزها . ثم جاء قوم منهم فى ركاب الإسلام الساطع فتعبوا فى ضبط شواردها ووضع قواعدها وتنظيم أبوابها ، وحرضوا على تعلمها وتعليمها ؛ واتفقت كلمة هؤلاء وأولئك على وسم المهمل لها المخالف لأحكامها الجاهل لقواعدها بسمة الشين والعيب ، حتى كانت سبة « اللحن » من أقوى العوامل فى إسقاط مكانة الرجل والإزراء عليه !

ومن عجيب أمر هذه اللغة الشريفة العريقة أن لها من الدقائق والخفايا ما يستثير شغف اللبيب ، ويستحوذ على جهد القادر ، ولا تزال هذه الدقائق تبدى من أضوائها وتطوى حتى تبعث العجب والإعجاب ، وكم من دفائن وكنوز اشتملت عليها كتب العربية من قديم !

ومن بين أسرارها أن الكلمة الواحدة من كلماتها تدخل عليها الحركة الواحدة فتنال حرفا واحداً من حروفها فتكسب الكلمة بهذه الحركة معنى خاصا فإذا ارتفعت هذه الحركة عن هذا الحرف من تلك الكلمة وجاءته حركة أخرى زال المعنى الأول ، وجد للكلمة معنى آخر ، وهكذا لا تزال المعانى تتكاثر وتختلف بتتابع هذه الحركات واختلافها ، وكل هذا مما يحتاج أشد الاحتياج إلى الألباء من الرقباء الدارسين يعكفون باحثين وملاحظين ، ثم مقيدين وحافظين ، ثم ناشرين ومعلمين ، وبهم هؤلاء تظل العربية مرفوعة اللواء زاهية الرواء .

خذ على سبيل المثال كلمة « السداد » . . . وهى كلمة واحدة من جملة كلمات تشملها مادة السين والدال المشددة . . . إن هذه « السين » من كلمة « السداد » تلك تكون مفتوحة تارة فيكون معناها القصد والتقويم والتوفيق والصواب ؛ جاء

---

[١] أنظر الصفحة الأولى من « فقه اللغة » طبعة الحلبى ، سنة ١٩٣٨ م .

فى النهاية لابن الأثير ما ملخصه : « قاربوا وسددوا : أى اطلبوا بأعمالكم السداد والاستقامة ، وهو القصد فى الأمر والعدل فيه ؛ وقال الرسول العلى : سل الله السداد واذكر بالسداد تسديدك السهم ، أى إصابة القصد ، وسئل عن الإزار فقال : سدد وقارب ، أى اعمل شيئا لا تعاب على فعله ، فلا تفرط فى إرساله ولاتشميره ، وفى صفة متعلم القرآن : يغفر لأبويه إذا كانا مسددين (بكسر الدال وفتحها) أى لازمى الطريقة المستقيمة . . . وكان له قوس تسمى السداد ، سميت به تفاؤلا بما يرمى عنها » .

وفى أساس البلاغة للزمخشرى : « وهو على سداد من أمره وسدد ، وقلت له سداداً من القول وسدداً ، واللهم سددنى : وفقنى . . . وأتتنا الريح من سَداد أرضهم : من قصدها . قال :

إذا الريح جاءت من سداد بلادها أتانا بهـــا مسك ذكى وعنبر

وفى القاموس المحيط : « سدده تسديداً قومه ووفقه للسداد ، أى الصواب من القول والعمل ، وسد يسد صار سديدا ؛ وأسد أصاب السداد » .

وتارة تكون السين مكسورة ، فيتغير معنى الكلمة دون تغيير أو تبديل ، أو زيادة أو نقص فى حروفها أو بقية حركاتها . . . إن معناها حين الكسر يكون شيئاً آخر غير معناها عند الفتح :

فى النهاية لابن الأثير : « حتى يصيب سداداً من عيش أى يكفى حاجته . والسِّداد بالكسر ، كل شىء سددت به خللا ، وسمى به سِداد الثغر والقارورة والحاجة » . وفى الأساس : « سد الثلمة فانسدت واستدت وهذا سِدادها . . ومن المجاز : فيه سداد من عوز بكسر السين . يقال : ما به سِداد أى عيب يسدفاه فلا يتكلم » . وفى القاموس : « وأما سداد القارورة والثغر فبالكسر فقط ، وسداد من عوز وعيش ما يسد به الخلة [1] ، ويفتح ، أو لحن . . » . وفى فقه اللغة للثعالبي : « كل شىء سددت به شيئاً فهو سداد ، وذلك مثل سداد القارورة وسداد الثغر وسداد الخلة » [2] .

[١] الخلة بفتح الخاء الفقر والحاجة والخصاصة . [٢] صفحة ١٩ .

فإذا ضمت هـذه السين كان للكلمة معنى ثالث بعيد عن المعنيين السابقين ، إنه يصبح داءً غير مستطاب ، جاء فى القاموس المحيط : « والسُّداد (بضم السين) داء فى الأنف » [١] . ولمثل كلمة « السداد » فى ألفاظ اللغـة مئات ومئات من المثيلات والشبيهات ! . .

ومن لطيف ما يروى عن كلمة « السداد » تلك كشاهد من شـواهد عناية السابقين بالعربية ، وحرصهم على حفظها وتنقيتها ، وكلف القادرين من رجالاتها بإثابة حراسها وإجـزال العطاء لهم ، وعيبهم من لحن فيها أو أخطأ ؛ ما ذكره التاريخ عن النضر بن شميل [٢] الإمام الثقة فى العربية والحديث ، فقد كان من عادته أن يدخل على الخليفة المأمون فى سمره [٣] ، فدخل عليه ليلة وقـــد لبس قميصا مرقوعا ، فعجب منه المأمون وقال له : يا نضر ، ما هذا التقشف حتى تدخل على أمير المؤمنين فى مثل هذه الثياب ؟ . فأجاب النضر : يا أمير المؤمنين أنا شيخ ضعيف وحر « مرو » [٤] شـديد ، فأتبرد بهذه الخلقان [٥] . قال المأمون : لا ولـكنك متقشف . . ثم جرى الحديث بين الجمع ، والحديث ذو شجون ، فأجرى المأمون ذكر النساء فقال : حـدثنا هشيم عن مجالد عن الشعبي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيه سداد من عوز » ونطق كلمة « سداد » بفتح السين منها . فقال النضر :

---

[١] نحن نتكلم عن اختلاف المعنى باختلاف الحركة دون تعرض لتفصيل العلاقات المجازية التى قد تـكون هناك بين أحد المعانى وبقيتها .

(٢) ولد سنة ثلاث وعشرين ومائة ، وتوفى سنة أربع ومائتين . [٣] قال أبو سليمان الخطابى فى حديثه عن إعجاز القرآن مشيرا الى دخول النضر على المأمون : « وأما قـول القائل لصاحبه : اقعد واجلس ، فقد حكى لنا النضر بن شميل أنه دخل على المأمون عند مقدمه مرو ، فمثل بين يديه وسلم ، فقال له المأمون : اجلس . فقال : يا أمير المؤمنين لست بمضطجع فأجلس . قال : فـكيف تقول ؟ . قال : قل اقعد . فأمر له بجائزة . قلت : وبيان ما قاله النضر بن شميل إنما يصح إذا اعتبرت إحدى الصفتين بالأخرى عند المقابلة ، فتقول القيام والقعود ، كما تقول الحركة والسكون ، ولا نسمعهم يقولون القيام والجلوس ، وإنما يقال : قعد الرجل عن قيام وجلس عن ضجعة أو استلقاء » هـ .

[٤] مرو : بلد بفارس [القاموس] . [٥] الخلقان : بضم فسكون الثياب التى لبست حتى [بليت عن الأساس] .

« صدق (!) يا أمير المؤمنين هشيم ، حدثنا عوف بن أبى جميلة عن الحسن ابن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا تزوج الرجل المرأة لدينها وجمالها كان فيها سداد من عوز » . ونطق كلمة « سداد » بكسر السين كما يجب .

وكان المأمون متكئاً فاستوى جالساً ، وقال : يا نضر ، كيف قلت سِداد ؟ . قال : لأن السداد هنا لحن . فقال : وتلحننى ؟ . فأجاب النضر : إنما لحَن هشيم وكان لحّانة ، فتبع أمير المؤمنين لفظه . قال المأمون : فما الفرق بينهما ؟ . أجاب النضر : السداد بالفتح القصد فى الدين والسبيل ، والسداد بالكسر البلغة [١] وكل ما سددت به شيئاً فهو سداد . قال المأمون : وتعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم ، هذا العرجى يقول :

أضاعونى ، وأى فتى أضاعوا ... ليوم كريهة وسداد ثغر

فأطرق المأمون مليا ، ثم قال : قبح الله من لا أدب له ، ثم أخذ يسأل النضر عن أخلب بيت للعرب وأنصفه وأقنعه ، فأنشده أبياتا جزلة فيما سأل ، فقال له : أحسنت يا نضر . وسأله عن ماله وحاجته ، ثم كتب المأمون إلى الفضل بن سهل ليعطى النضر خمسين ألف درهم ، فمضى النضر إلى الفضل ، فلما قرأ الفضل التوقيع وفيه تلخيص القصة ضحك وقال : يا نضر ، أنت الملحن لأمير المؤمنين ؟ . قال : لا بل لهشيم . قال الفضل : فذاك إذاً . وأعطى النضر الخمسين ألفاً التى أمر بها المأمون ، ثم أعطاه فوقها ثلاثين ألف درهم من عنده ، فتمت للنضر ثمانون ألف درهم ثوابا لتصحيح حركة حرف فى كلمة [٢] !! .

* * *

وهذا البيت الأخير الذى استشهد به النضر ، وجاءت فيه كلمة « سداد » كان إنشاده سبباً فى رد الحرية على منشده السجين ، فعن عبد الله بن رجاء الغدانى قال :

---

[١] البلغة بضم فسكون : كل ما يتبلغ به من العيش . [٢] ذكرت القصة فى « تهذيب الأسماء واللغات » للنووى فى ترجمة النضر بن شميل ، كما ذكرت فى الأغانى ، وعنه نقلها صاحب كتاب « من أخلاق العلماء » .

كان لأبى حنيفة جار بالكوفة إسكاف [1] يعمل نهاره أجمع ، حتى إذا جنه [2] الليل رجع إلى منزله وقد حمل لحماً فطبخه ، أو سمكة فيشويها ، ثم لا يزال يشرب حتى إذا دب [3] الشراب فيه غنى بصوت ، وهو يقول :

أضاعونى ، وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

فلا يزال يشرب ويردد هذا البيت حتى يأخذه النوم ، وكان أبو حنيفة يسمع جلبته ، وأبو حنيفة كان يصلى الليل كله ، ففقد أبو حنيفة صوته فسأل عنه فقيل : أخذه العسس منذ ليال وهو محبوس . فصلى أبو حنيفة صلاة الفجر من غد وركب بغلته واستأذن على الأمير ، قال الأمير : إيذنوا له وأقبلوا به راكباً ، ولا تدعوه ينزل حتى يطأ البساط . ففعل ، فلم يزل الأمير يوسع له من مجلسه ؛ وقال : ما حاجتك ؟ قال : لى جار إسكاف أخذه العسس منذ ليال ، يأمر الأمير بتخليته فقال : نعم ، وكل من أخذ فى تلك الليلة إلى يومنا هذا . فأمر بتخليتهم أجمعين ، فركب أبو حنيفة والإسكاف يمشى وراءه ، فلما نزل أبو حنيفة مضى إليه . فقال : يافتى ، أضعناك ؟! قال : لا ، بل حفظت ورعيت ، جزاك الله خيراً عن حرمة الجوار ورعاية الحق . وتاب الرجل ولم يعد إلى ما كان ! [4]

وهكذا شهدت العربية فى عصورها الزاهرة ميادين بحث يستفيض حولها فيجدد إهابها ويحفظ شبابها ، وكانت هذه الميادين عامرة بالفرسان الذين يذودون عنها ويحمون ذمارها ، وبالقادة الذين يمجدون أولئك الذائدين ويجزونهم خير الجزاء ؛ والمأمول أن يقيض الله لهذه العربية المجيدة التليدة من أشبالها ورجالها من يصل سلسلة العكوف عليها والهيام بها والذب عنها ، حتى تظل لغة الكتاب والخطاب ! !

اللهم لا تجعل فى طرقنا إلى الخير « سِدادا » ؛ وهب لنا من لدنك فى ديننا ودنيانا « سَدادا » ! ...

---

[١] فى فقه اللغة : كل صانع عند العرب فهو إسكاف . [٢] جنه : ستره ، واستجن بجنة ة استتر بها : وجن عليه الليل ، وواراه جنان الليل أى ظلمته . « الأساس » ،

[٣] دب الشراب فى العروق : أى أثر وثار .

[٤] انظر كتاب « من أخلاق العلماء » ص ١٨٥ و قد نقل القصة عن تاريخ بغداد .

الشعر المسرحي

للأستاذ محمد حمزة الشيخ

ليسانسيه في الآدب

يتردد فى الميدان المسرحى بين آن وآخر سؤال ، لا يكاد يحظى بجواب شاف ، من القائمين على المسرح وشئونه ، أو من الأدباء الذين يحفلون بالنقد المسرحى ، ويعالجونه بأقلامهم بين الحين والحين ...

والسؤال الحائر يريد أن يستكشف المحــــور الذى يدور حوله الشعر فى المسرحيات ، والأفق الذى يمتد إليه بالبحث والدرس ، والدور الذى يقوم به فى التمثيليات . وهو سؤال ، وإن بدا للناظر العابر ، ذا صبغة فنية خالصة ، إلا أن ذلك لا يمثل فى الواقع ، غير جانب واحد من السؤال الذى نستطيع أن نصوغه صياغة أشمل وأعم لمعناه ومرماه ، فنقول : ما هى علاقة الفن بالظواهر التى تبدو لأعيننا ، أو بتجاربنا الحسية والعقلية والخيالية ؟

وفى الحق إن الرواية النثرية ، نظراً لبساطتها ، استطاعت اليوم أن تنتزع الغلبة من الرواية المنظومة ، حتى لقد أصبح النظم وسيلة تعبيرية شاقة ، لا يستجيب لهـا غـير النذر اليسير من الأدباء ، الذين يدركون أن التمثيليات النثرية ، فى جوهرها ، لا تخلو من الغرابة والشذوذ ، عمـا ألفه المسرح التمثيلى فى أزهر أيامه ، وأحفلها بالنتاج الفنى الرفيع ؛ بل إنهم ليرون المسرحيات النثرية جهداً ضائعاً ، وكفاحاً لا يثمر ، فى سبيل ابتناء قصور فوق الرمال .

ونحن إذا نظرنا إلى شخصيات المسرحيات المنظومة ، وجدنا الشعر هو البوق الوحيد الذى لا تستطيع أن تنطق إلا من خلاله ، لأن الشعر يعتبر قوامها ، الذى لا فكاك لهـا عنه ، ونسيجها الذى لا يمكنها الظهور إلا من بين ثناياه ؛ بل إننا لنحكم على تلك الشخصيات حكماً جائراً كل الجور إذا أردنا لهـا غير الشعر وسيلة من وسائل التعبير . فمثل هذه الشخصيات تفترق عن تلك التى تصادفنا فى حياتنا

اليومية ، لأنها قد انصهرت فى بوتقة التشذيب والتبسيط Simpli fication . ثم تعرضت بعد ذلك لتركيز ألوانها ، والمبالغة فى أصباغها ، حتى غدت الدوافع الأولية ، التى تحملها على أقوالها وأعمالها ، أكثر وضوحا وجلاء ، عنها فى الحياة الواقعية التى نضطرب فى موكبها ، وتختلط علينا ظواهرها ، وتتشابك أوضاعها ، وتتداخل ظلالها .

وهذه العملية التى تنهض على التشذيب ، وتقوم على التبسيط للقوى التى تتألف منها دوافع الحياة اليومية ، لا بد أن تسير فى ركابها عملية أخرى ، يستحيل بها ما تواضعنا عليه فى الحياة اليومية من أدوات تعبيرية سقيمة ، إلى صور بيانية رائعة كالاستعارة Metaphor والتشبيه Simile وغيرهما .

وإلى جانب ذلك فالشخصيات التى نستعرضها فوق المسرح ، تكون أقوى سحراً ، وأشد تأثيراً من الشخصيات التى نتقابلها فى الحياة اليومية . . . ويعزى ذلك لما تمتاز به الشخصيات المسرحية من طابع منتظم ، ومظهر رتيب exaggerates shapeliness ، يعوز ما تموج به الحياة الواقعية من شخصيات يسودها اختلاط الطبع ، وغموض الطابع ، ومثل هذه الشخصيات ، بما تمتاز به من نظام وانتظام ، لابد أن تفرغ حديثها فى أسلوب تمتاز به هو الآخر ، ويسير جنباً إلى جنب مع مظهرها وطابعها . ومن ثم تنطلق فى حديثها ، فإذا هو حديث يجرى طبيعياً ، كما تجرى الدماء فى الشرايين ، فيتوالى فى أوزان مضبوطة ، كما تتوالى الدماء فى ضربات منتظمة ، ولكننا نجد للنظم ، فوق ذلك كله ، وظائف أخرى فى التمثيليات الشعرية .

وسواء اتفق النقاد الأدبيون أم لم يتفقوا على أن انتظام الطابع فى الشخصيات المسرحية ، وتركيز ظلالها ، يستتبعان استنطاقها شعراً ، فإننا على أى حال ، لن نجد بينهم من ينكر إمكان صياغة الرواية الناجحة بأسرها ، فى قالب شعرى خالص ، يخلو من الصنعة ، التى تجافى الذوق الأدبى السليم ، وتتفق مع تيار الحياة نفسها ، ومن ثم تزداد مقاومة الشخصيات لذلك التيار ، كما يزداد توهجها ، وتزدهى ألوانها ولذلك فإن كل لفظة فى التمثيلية المنظومة ، لا بد أن يحقق غرضين إثنين فيزيد الشخصية إيضاحاً ، وينقل الأحداث خطوات الى الأمام .

أما الهدف الذى ترمى إليه التمثيلية ، فهو وصف أدواء الحياة ، والبحث فى وسائل علاجها . . . وهى تجسم هذه المشاكل ، وترسمها فى قالب واضح ، عميق الأثر . وهكذا تصبح التمثيلية وسيلة عميمة النفع فى تصوير الحياة ونقدها .

وليس التعبير الشعرى فى التمثيلية ، بالنسبة للتجارب التى تصورها ، إلا كالخمر بالنسبة للكرم . ولذا نستطيع أن ننظر الى استخدام الشعر فى التمثيليات كطريقة لتحقيق طبيعتها الأصيلة التى تكمن وراء الفكرة Conception ، والتعبير erpression .

والتعبير الشعرى ، لا يهىء للفكرة الشعرية مجالا فسيحاً فحسب ، بل إنه يتيح لها ، الى جانب ذلك ، أن تصل من نفوسنا الى أغوار لا يصل إليها النثر ، مهما كان حظه من البلاغة موفوراً .

ولعل السر الغامض الدقيق فى ذلك ، هو بعد ما بين الشعر والمظهر الخارجى للحياة ، وقرب ما بينه وبين الرغبات الروحية التى تعتمل بين جوانحنا ، والتى لا نستطيع أن نجد لها صدى حقيقياً فى الحياة الواقعية .

ونحن نستطيع بعد ما نقدم ، أن نجمل الهدف الذى يتجه الشعر التمثيلى نحو تحقيقه . . ذلك الشعر الذى يسرى فى أجسادنا ، وأرواحنا ، وعقولنا ، فيوقظ منا الحواس ، والعواطف ، والقوى المفكرة ، ويربط بينها جميعاً فى انسجام عجيب ، قوامه الشعور بالذات الذى يستحيل معه ذلك المصير الغامض ، الذى ينساق إليه الإنسان فى حياته ، إلى ضوء شامل غامر ، يستمد بريقه وبهاؤه من ذواتنا ، بل من رغباتنا العميقة التى تستقر فى أغوار نفوسنا .

فالتمثيلية الشعرية ، إنما ترمى إلى الكشف لسامعيها ، عن مواطن السرور فى الحياة ، وعن القوى الكامنة فى النفوس البشرية ، التى تيسر لها الحياة الرغيدة الصافية ، بل إنها لتجعل تلك القوى حقيقة واقعة ، ماثلة أمام أبصارنا ، يتردد صداها فى آذاننا كلما خلونا إلى أنفسنا بين الحين والحين . . وجماع ذلك كله أن الشخصيات التى نشاهدها فوق المسرح ، وهى تفرغ حديثها فى أشعار طبيعية ، لا صنعة فيها ولا اصطناع ، إنما هى شخصيات تحفل شتى جنباتها بالحياة العميقة المفعمة بالقوة والصدق فى أوجهما ، ومن ثم فإننا لا نعجب حين نراها تواجه المصير ، الذى يختاره لها الشاعر ، فى عزة وشمم وإباء نمجدها جمياً ، ونتمنى أن يكون لنا منها قدر يسير حتى نحاكيها حين تتلاطم أمامنا أمواج الحياة ، حتى لنكاد نضل فى مساريها المتشابكة ، وشعابها الفسيحة المتفرقة .

عجالات في الأدب

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان
مدرس بمعهد القاهرة

كلما خلوت إلى كتاب من تراثنا الخالد وأدبنا الذى تعمق فى القدم وجرى على أسلة الأقلام الفذة ، وتمخضت عنه القرائح التى يعتز بها تاريخ الأدب العربى والنتاج الإسلامى . أجدنى أمام مخلفات حية ولفتات مشرقة تزيد على مر الأجيال صدقا ، وكأنما ألهم صاحبها أو كأن الغيب طوى له . فعبر فى أسلوب أو شرح خالجة أو صرف فكرة ، أو ألقى تجربة ، أو رسم معلما فيه هداية اليراعات التى تزيد النسج فى معترك المجتمعات السادرة ، والسارية فى مهاب الحياة والأحياء وفى بيئات مترامية كما شاءت الأزمنة والأمكنة .

والأقلام القديمة المفتنة كان فى أكثرها ظلال الاستطراد وشاهدنا « قلم الجاحظ » وصناعته فى (كتاب الحيوان) أكبر دليل ... وحتى الأوائل من مؤرخى الحياة الاسلامية والعربية نجد عند كثير منهم مزج الطرفة بالفكرة بالحظ الذى يهدف إليه المؤرخ ، وعندما تطالع صفحات من (مروج الذهب) يداخلك العجب والدهش ما دمت فى صحبة (المسعودى) .

ولن أطيل ولن أرهق القارىء بنقل نصوص يضيق بها فراغ (الصحيفة) .

غير أنى بصدد التحدث عن (حوار) يلقانى وألقاه فى كتب الأدب القديم ويعجبنى ويحلو لى أن ينتفع كل مصاحب للقدامى من كتابنا به فإذا تدبرنا فن الحوار ووقفنا عنده طويلا وقارنا بينه وبين آثار من (يعاصرنا) من ضياع الحوار الذين نعدهم فى الطليعة المحدثة المجددة نجد ، بل نشهد ، بل نصفق إعجابا للسبق الموفق والاستعداد القوى والموهبة عند (صاحب الأغانى) مثلا .

فأنت أيها القارىء الكريم إذا صحبته حين يقص أخبار عمر بن أبى ربيعه فى الجزء الأول ، وإذا خضت فى مؤلفه وما جمعه عن امرىء القيس أو الفرزدق

ثم طويت الكتاب وعدت ثانية إلى قطع متجاورة أو متباعدة من (الصياغة) القلمية وجدت أبا الفرج الاصفهانى يكاد يبلغ القمة فى علاج الحادثة وإن صغرت والفكرة وإن بلغت من القصر والايجاز مبلغا قد يلفت بعض القراء ، فتمد يبلغ بها مبلغ السحر والإعجاز من فرط اليسر والاتقان والامعان فى التصوير الفنى البيانى وهو الذى لايبارى فى سبك الحوار وإلباس الفكرة ما يتملك فى خفه ويزفك فى إطراب ويحملك على جناح النشوة ، وهو نسيج وحــده حين يقص موقف أمير الشعر الجاهلى مع الفتيات اللاهيات فى « دارة جلجل » .

ولا يعنينى هنا مبلغ ما فيها من مطابقة ما وقع لامرىء القيس ، ولكن الذى لا مرية فيه ، أن صاحب الأغانى ابتكر علاجا جذابا وإخراجا محاوراً صادقا للحياة اللاهية اللاعبة حين يبغى أو تبغى الفتيان والفتيات الإقبال على الاستمتاع باللهو فى مفاتن المـاء بصحراء العرب .

حتى إذا جدت الحياة الإسلامية ولعب الفرزدق وأمثاله أدوارهم فى حمل راية الشعر فى عواصم النهضة الإسلامية ، ووجدوا سابقات لامرىء القيس وأضرابه فسولت لهم حياة الشعر والشعراء أن يظفروا بمـا لأمثالهم من السابقين فقلدوا أو كانوا على إصالة من وحى حياتهم .

ورأينا الفرزدق أو رأينا التاريخ يروى له كما روى لامرىء القيس .

ووجــدنا صاحب الأغانى يقص قصته ويقص ما تعرض له الفرزدق من قسوة الحسان .

ولكن الذى أريد الإشارة إليه هو التحايل والتحاور فى إخراج القصة إخراجا جميلا موفقا ممتعا حتما وخالداً حتما .

* * *

وكأنى بصاحب الأغانى قد راعى التناسق حين أراد أن يكتب (أخبـار) فتى قريش وشاعرها (عمر بن أبى ربيعة) الذى طعم شعره بالحوار الشاعرى .

كأنى به راعى التناسب فطعم أغلب ما كتبه عن ذلك الشاعر بتعابير حوارية كلما قص أقصوصة أو روى خبرا عن خروج الشاعر إلى الطـائف أو قفوله إلى مكة فى مصيفه أو مشتاه فى ملاعبه بين جواريه أو غادات السراة من قريش وأعتقد أن نقلى (الشواهد هنا) لا مكان له لأن كتاب الأغانى فى متناول كل قارىءٍ أدب أو دارس فن يؤرخ حياة الشعراء والأدباء .

وقد لا يروق القارىء الملم بالمكتبة العربية ، أن أعتمد مجالتى السارية المخفة التى أجعلها كنغبة الطائر العجلان .

قد لا يروقه أن أقف عند صاحب الأغانى ، ولذلك أبادر فأشير إلى قصص الأيام ـ وإن كان حوار من عالجها إذ بعض ما جاء فيها من حوار لا يرتفع إلى صناعة « الأغانى » ـ

أشير إلى ملاحم العرب وإلى القصص الذى جاء فى تلمس منبت المثل ومانسميه مضربه ثم مورده وشاهدى كتاب الأمثال للميدانى وغيره من مجاميع الأمثال للمؤلفين القدامى .

والذى لا خلاف عليه أن القرار أعلن بالقاص وأقرب إلى راوى الحادثة ، وإن كان لا يلزم فى السرد .

والذى شاع وذاع أن الأدب العربى القديم يخلو من القصة ولكن هنا أشير إلى أن أدبنا سبق بل هو سباق إلى وسيلة من وسائل التعبير الفنى .

وفى ذلك دفاع نلقى به فى وجه من يرمى أقلامنا القديمة بالعقم .

ولو انفتح باب القصة عند القدامى الأوائل لوجدنا الإجادة الكاملة عندهم غير متنازع عليها .

ولا نريد هنا أن نستدل بما جد فى أواخر الدولة العباسية أو بما زاوله الأندلسيون أخيرا من قصص ، فذلك ليس من همنا فى هذه العجالة .

وفن المقامة رغب الناس عنه لأنه خرج فى ثوب « لغوى » لا يروق إلا من تريد حصيلة من الألفاظ اللغوية .

وليس ذلك فحسب ، وإنما أغفل وفرة حظ المرأة فى صميم الحياة هنالك .

ولهذا فإنى أعذر من يشيح عن المقامة ، إذا أراد أن يجد فيها صدق ما يجده عند صاحب الأغانى وأمثاله من كل مؤرخ أو راصد لأحداث جدت فى معترك الحياة السياسية أو الأدبية أو الاجتماعية .

وهنالك فى المكتبة العربية كتب طريفة تعرضت لحياة الظرف والظرفاء ، وإلى مفارقات لازمت « الحمقى والمغفلين » ، ومضحكات من (البخلاء) و (المتماجنين) وغير ذلك من مضطربات الجوازى وكبار المفتنين من المغنين ، ولعلى أجد فسحة من الوقت فأعود إلى تفصيل واستشهاد فى مجالتى التالية .

أسلحة القتال عند المسلمين

للأستاذ هاشم محمد ابراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

كانت أسلحة القتال عند المسلمين على نوعين : السلاح البرى والسلاح البحرى وكانت العناية موجهة الى النوع الأول بصفة خاصة وإن لم يحرم النوع الثانى خلال معظم العهود من العناية الكاملة وكان السلاحان يسايران سنة التقدم والتطور ويخضعان لتقدم العلم والحضارة .

كان الخلفاء يسخون فى إمداد الجند وإعدادهم بالعتاد الحربى والمؤن الوفيرة ـ وكان الجيش البرى يتألف من الفرسان والمشاة وكان الفرسان يتسلحون بالسيوف والرماح والدروع ـ أما المشاة فكان عتادهم الحراب والأقواس والسهام والدروع .

وكانت هذه الأسلحة هى المستعملة عند العرب قبل الإسلام وعند غيرهم أيضاً من معظم شعوب العالم .

وقد استعمل المسلمون المنجنيقات وكان أول من رمى بها فى الإسلام الرسول عليه السلام عند ما طارد فلول ثقيف إلى الطائف حيث اعتصموا بالحصون ، ورموا المسلمين بالنبال من فوقها (والمنجنيق : أداة ترمى بها الحجارة إلى مسافات بعيدة وارتفاع كبير) .

كذلك سير الرسول إليهم الدبابات وهى من آلات الحرب ، وكان المحاربون يدخلون فى جوفها ويدفعونها إلى الحصن ، فيثقبونه وهم فى داخلها يحميهم سقفها وجوانبها من أسلحة العدو ـ كذلك استعمل الرسول الضَّبور وهى مثل الدبابة تقريباً ، تصنع من الخشب المغطى بالجلد ، ويكمن فيها المهاجمون ويقربونها للحصن لقتال أهله وهم فيها وهى تشبه إلى حد كبير السيارات المدرعة اليوم .

وقد لعبت هذه الآلات دوراً عظيما فى الفتوحات الإسلامية ، وكان الرماة أهم فرق الجيس البرى ــ فقد كانوا فى المقدمة لصد هجمات الفرسان بالرماح ،

وكانوا يرتدون أقبية قصيرة متدلية إلى تحت الركبة وسراويل ونعالا ومن خلفهم يقف المشاة فى صفوف متراصة ، وكان الفرسان يلبسون الدروع والخوذ المصنوعة من الصلب والمحلاة بريش النسور .

وقد أثر اختلاط العرب بالفرس والروم وغيرهم فى تحسين نوع الأسلحة وفى تنظيم الجيوش الإسلامية ، ولا يرجع تفوق العرب على أعدائهم إلى الأسلحة التى استعملوها فحسب بل إلى ما امتازوا به من النشاط والخفة وسرعة الحركة والصبر على تحمل الشدائد والحماس الدينى وبذل النفس .

وقد أورد المسعودى فى كتابه مروج الذهب ج ٢ ص٣٠٧ بعضا من الأسلحة الحربية التى استعملها جند المأمون العباسى عند حصارهم بغداد ، ومن هذا الوصف نتبين أن الجند كانوا يحاربون وفى أوساطهم التبابين (والتُبّان : سروال صغير مقدار شبر يستر العورة المغلظة) والمئازر (الإزار : كل ما يستر الجسم) ويغطون رؤوسهم بالخوذ ، واتخذوا الدَرق من الخوص (الدرقة : هى ترس من الجلد ليس به خشب) واتخذوا البوارى (البورى أو البورية : الحصير المنسوج من القصب وهو فارسى معرب) وقد طليت بالقار وحشيت بالرمل والحصى .. على كل عشرة من المقاتلين عريف ، وعلى كل عشرة عرفاء نقيب ، وعلى كل عشرة نقباء قائد ، وعلى كل عشرة قواد أمير ، ولكل مرتبته .

وكان عرض الجيش جزءاً من تدريب الجند فى أوائل عهد الدولة العباسية بخاصة فى عهد أبى جعفر المنصور الذى اهتم بالجيش اهتماما كبيرا وكان يحب أن يعرض جنده وهو جالس على عرشه لابساً خوذته ، ولما ولى المتوكل الخلافة العباسية أمر الجنود بتغيير زيهم القديم ، وألبسهم أكسية رمادية وأمرهم ألا يجعلوا السيوف على أعناقهم ، بل يضعونها فى مناطق حول وسطهم .

ولقد أنشأ العباسيون الحصون على تخوم الدولة الإسلامية وهى الثغور وهذا نوع من أنواع الشئون الحربية التى تدل على نشاط المسلمين ، وقد كانت حدود سوريا المتاخمة لآسيا الصغرى مصدراً للخطر بالنسبة للعباسيين من جيرانهم الروم لذلك أقيمت هذه الثغور وهى طرَسوس وأذنة والمصيصة ومرعش وملطية . وكانت هذه الثغور يتناولها العباسيون أحياناً والروم أحياناً أخرى أثناء الحرب .

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس من هنا نبدأ

نعود إلى نقد ما تصدينا له من كتاب الأستاذ خالد محمد (ليس من هنا نبدأ) فنقول بعد الاطلاع على ما كتبه فى الاشتراكية وفى تفصيل ما يجنيه الأجانب من ثرواتنا .

اطلع الأستاذ كما اطلع غيره على أعمال الأوربيين وتفانيهم فى الذهاب بعلومهم ومدنيتهم إلى الغايات البعيدة ، وإلى ما يحملهم ذلك على الاحتكاك بالشرق للاستفادة من ثرواته التى أهملها أهلها ، بل التى يجهلونها ، ودرس بعض أساليبهم فى الاستيلاء عليها ، رأى ذلك كله فأثر فى صميم قلبه ، كما يؤثر فى صميم قلب كل وطنى محب لبلده ، وفىّ لقومه ؛ فشرع يهيب بهم إلى الاستفادة من خيرات بلادهم ، وكف يد الأجانب عنها ، ولم يدع وجها من وجوه التأثير فى إيقاظ العزمات إلا أتى عليه فى عبارات بليغة ، وصراحة جريئة .

ونحن نحيّ فيه هذه النزعة الشرقية ، ولكننا نرى أن ما كتبه يضر أكثر مما ينفع ، فإن الأمم لا تنهض من سباتها بالكتابة ، ولكن بالعمل ، ولا تسير إلى أغراضها طفوراً ، ولكن تدرجا ، وفى أزمان مناسبة ، لا فى عشية وضحاها ؛ فهل يشب الطفل إن ذكرت له مزايا الشبيبة ، أو يُبل العليل إن سردت عليه مُتَع الصحة ؟ .

ان الأوربيين وصلوا من العلم إلى آفاق بعيدة ، واستحدثوا من الآلات ما يمهد أمامهم كل العقبات التى تصادفهم ، فيستطيعون أن يحفروا منجما يسع عشرات العمال لاستخراج معادنه الثمينة بواسطة آلاتهم الحديدية القوية ، قبل أن يستطيع غيرهم أن يحفروا ساقية صغيرة . أضف إلى ذلك أنهم درسوا أنواع المعادن المكنونة

فى باطن الأرض ، وعرفوا كيفية استخراجها واستخلاصها مما علق بها ، وعلموا مزاياها وفوائدها ، وطرق استخدامها ، واشتدت حاجتهم إليها ، وتحققوا أنها توجد فى بلاد غير بلادهم . فأى طريق يسلكونها غير استئذان الأمم التى تملك الأراضى التى توجد فى باطنها ، فى أن يتولوا استخراجها والانتفاع بها إزاء دفع قدر من المال يتفقون عليه بينهما ؟

فى هذه الحالة لا يسع الشعوب المستضعفة إلا قبول ما يعرض عليهم لشعورهم بعجزهم عن القيام بالاستفادة منها ، فيرون أن الانتفاع بمقابل استغلالها خير من تعطيلها . فإذا كان من حق أهل العلم من أبنائها التأثر من انتفاع الغير بها دون قومهم ، فمن واجبهم أيضاً أن يعرفوا أن الضن بها يعرض استقلالهم للخطر ، فإن الأمم القوية لا تعدم وسيلة لإخضاعهم لإرادتها ، وفى هـذا ما فيه من العدوان على وجودها . فينحصر الواجب والحالة هـذه على هؤلاء الغيورين أن ينصحوا أقوامهم بإنفاق ما يستفيدونه من إيجارها فى إنهاض أممهم من كبواتها بنشر التعليم فى جميع طبقاتها ، وبإرسال النبهاء منهم إلى البلاد الأوربية لتلقى العلم والتمهر فى الصناعات المختلفة ، حتى إذا آبوا إلى بلادهم نزعوا لتطبيق علومهم وصناعاتهم على العمل ، وعاونوا حكومتهم على الانتفاع بخيرات بلادهم ، واستغلال ثرواتهم الطبيعية .

ولكن مؤلفنا الأستاذ خالد محمد لم يسلك هـذه الطريقة ، وعمد إلى النعى على تلك الأمم التى تسمح للأجانب باستثمار خيرات بلادها ، وتقف هى مكتوفة الأيدى إزاءها . فهل كان يمكنها أن تقف هذا الموقف وهى تعرف الوسيلة لاستغلالها ؟

إن الأستاذ خالد أكثر فى كتابه من مثل قوله :

« نحن نعيش فى عصر ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب ، وإزاحة كل العوائق التى تعترضها ، وتصدها عن غايتها المقدسة .

« أما عندنا فمن الخير أن نعترف بأن جماعة من أصحاب المصالح الكبيرة . وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ، يتربصون بكل وعى حر ، وكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم ننس بعد ، الصراع الشاق الذى دار بين حكومة النقراشى باشا والجماعة المذكورة بشأن الضريبة التصاعدية .

« هؤلاء المواطنون ، وإنا لنرجو أن يقدروا جلال هـذا اللقب ، ويحققوا لأنفسهم معناه ـ يلعبون بالنار ، ويتحملون مسئولية مباشرة فى كل جريمة ترتكب ضد سلام المجتمع وسلامته ، وأن الشريعة الإسلامية التى يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتعتبرهم شركاء أصليين فى الجريمة » ونحن نقول :

ماذا تفيد هذه العبارات فى إصلاح عوج قائم على أسباب قوية ، وهى الجهالة المنتشرة ، والوطنية الضعيفة ، والعلل الاجتماعية التى لا تصادف علاجاً شافياً ؟

الأولى من كل هـذا أن يتولى الأستاذ الناس بالعطف ، وأن يدلهم على طريق الخير ، وأن يثبت لهم أن الطفرة محال ، وأن التدرج فى سبيل العمل لابد منه . ذلك لأنه حيال جماهير ولدت فى بيئات خالية من جميع عوامل التربية الشعبية . نعم ، كغيرهم من الأمم التى تزاحمهم ، ولكن هؤلاء لم يبلوا بما بلى الشرقيون من الجماعات المستعمرة ذات الوسائل السحرية فى تدويخ الشعوب ، وتعريتها من جميع مرافق الحياة .

فالوسيلة الوحيدة لحفظ حياة هـذه الشعوب هى أن تعمد إلى تثقيف أبنائها ، وتحليتهم بجميع ضروب المعارف لتكوين روح شعبية قوية . ومتى وجدت هـذه الروح اندفعت للعمل على إيجاد مطالبها ، فتدخل والمطامع الاستعمارية الخارجية فى تطاحن مستمر بجميع وسائله المعروفة . ويكون لها الفوز فى النهاية ، إن لم يكن بكل ما تريد ، فبأكثره ، ثم تكر كرة أخيرة فتحصل على الباقى منه خالصاً غير مشوب .

هذه هى الطريقة العملية لاسترداد الشعوب الضعيفة لاستقلالها ، ولإقصاء الشهوات الاستعمارية التى تزاحمها فى وجودها عنها .

فإذا ألقينا الآن نظرة فاحصة على الشعوب الضعيفة التى يستغل المستعمرون أراضيها ومعادنها ، وجدناها تنفق ما تحصله من إيراداتها ـ وقد تكون ضخمة ـ على شهوات قادتها ورؤسائها ، مهملة فى سبيل ذلك كل ما يتعلق بتثقيف أبنائها تثقيفاً عالياً يدفعهم للعمل بعلومهم ، فإن لم يوجد ، فإن ثقافتهم تدفعهم للعمل على إيجاده ، ولا تستطيع أن تقف فى وجوههم قوة . نعم إنهم قد يصادفون عقبات جمة ، ولكنهم لا يزالون بها حتى يجتازوها ، ويحصلوا على خيرات بلادهم كاملة غير منقوصة .

الاشتراكية : أرى أن مؤلفنا خالد أفندى محمد قد أولع بالاشتراكية ، فروى عن أبى ذر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته ، كيف لا يخرج على الناس شاهراً سيفه . ونحن نستبعد أن يكون أبو ذر الغفارى هو قائل هذا البيت ، لأنه من أبعد الأقوال عن التعاليم الإسلامية ، ومن أقربها إلى صميم الجاهلية ، وقد عقب خالد أفندى على هذا القول بقوله :

« إننى رغم إعجابى الشديد بأبى ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذى تمناه ، وهو أن يخرج الجياع شاهرين سيوفهم . وإنما أتمنى شيئاً آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجهزة بالإرادة والعزم ، وهو أن لا يوجد بيننا جوع ولا جياع ، وإنا على ذلك لقادرون إذا انتهجنا منهجاً اشتراكياً صحيحا شاملا » .

قرأنا هذا وعجبنا كيف يطالب قوما بأن يتمذهبوا فى شؤنهم المالية بمذهب لم تتأد إليه معضلاتهم التعاملية ، ولم تقتضه مشكلاتهم التعاوضية ، وهل هو يرى أن تقوم الحكومة بفرض الاشتراكية على الناس كما تفرض عليهم القوانين وتحملهم على العمل بها وتجازى من يشذ عنها منهم ؟

إن النظم الاشتراكية لم يفكر فيها القائمون بها إلا بعد أن اصطدمت أعمالهم المالية فى عقبات كأداء ، لا تحل إلا باحداث انقلابات أساسية فى موضوع توزيع الثروة العامة ، وهذا عرض لا يحدث إلا بعد أن تكون الشؤن المالية قد تعقدت بحيث لا يحلها إلا أن تدخل فى نظام جديد مبتكر ، فهى علاج لاشكالات طرأت لا ترقية لأساليب قدمت ووهنت .

ومن الغريب أن الأستاذ يقول بذلك فى بلد لم يرد على بال المشتغلين فيه بالأمور المالية أنه سيأتى يوم يكون فيه التبادل من أعقد المسائل ، ويحتاج إلى حلول من أعقد ما فكر فيه المفكرون فى الشئون الاجتماعية .

وهل يرى الأستاذ أن من الحكمة أن يحول نظامنا التعاملى إلى اشتراكى دون أن تشعرنا الأحوال الطارئة بوجوب التفكير فى إصلاحه ؟ وهل يصح أن نتوسل بالإهابة بالناس إليه ، ووجوب تعويلهم عليه ، وسوادهم الأعظم لا يعرف عنه شيئاً ؟

هذا ومن العجيب أن الأستاذ المؤلف يقول :

« والآن ، وقد استبان لنا أن الخبز هو السلام ، وأن مرد كل تأخر وانهيار

وتذمر إلى الفقر وما يعانيه الشعب من خصاصة وحرمان ، فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذى يفضى بنا إلى الغاية النبيلة التى يتحقق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنا ، فأين هذا الطريق . . ؟

« لا شىء سوى الاشتراكية » .

ثم يقول :

« لقد انعقد إجماع العالم المتحضر كله ، على أن النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى فى الوقت الحاضر هو الاشتراكية - ويتجلى هذا الإجماع العالمى الرشيد فى أخذ الدول الناهضة (جميعها) بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد تختلف وسائله ، ولكنه فى شتى مظاهره يفضى إلى غاية واحدة ، وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطف الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قمم الاشتراكية العليا دون أن تتهم نفسها ، أو يتهم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التى نملك منها رصيداً ضخما » .

نعم من العجيب أن يقول كاتب مسئول مثل هذا القول ، وكل الناس يعلمون أن أساس الاشتراكية أبطال الملكية الفردية والوراثة ، ولا يوجد شىء من ذلك فى أية أمة من الأمم الأوربية غير التى وقعت بعد الحرب داخل السور الحديدى وهى بولونيا ونحو نصف المانيا وبلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا والبانيا ، وهذه الأمم اضطرت الى ذلك بما جرت إليه الحرب العامة الأخيرة من أحداث . أما الدول الكبرى الأخرى فليس بينها وبين الاشتراكية أية صلة ، وكل ما حدث فيها من أحداث فهو اعتمادها على طريقة الضمان الاجتماعى فى ضرب الضرائب الكبيرة على ثروات المثرين ، وتدارك حاجات العمال والمحتاجين مما تحصله منها . فنجحت هذه الوسيلة نجاحا عظيما ولم تلق الدعوة إلى الاشتراكية فيها نجاحا يذكر ، إذ لم تصل نسبة عدد نوابهم فى المجالس النيابية إلى أكثر من الخمس ، وهى نسبة لا تقربهم من الحكم ولا تطمعهم فيه . وإذا كان الأمر كذلك ، وهو ظاهر مكشوف ، فلا يصح أن يبالغ مؤلفنا فى نجاح الاشتراكية إلى الحد الذى وصل إليه فى كتابه الذى بين أيدينا ؟

محمد فريد وجدى

التفسير

لحضرة صاحب الفضيلة الشيخ عبد المنعم أحمد النمر
المدرس بالأزهر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » .
« ١٠٥ » سورة النساء

أستعين بالله الذى أنزل الكتاب وهو يتولى الصالحين ، وأستمد منه التوفيق فيما عزمت عليه من موافاة هذه المجلة بما يتيسر لى من الكشف عن بعض معانى وأغراض القرآن الكريم ، متنقلا بين آياته مختاراً منها ما يكون أوفر اتصالا بحياتنا وأكثر مساسا بمشاكلنا ، معنيا بالمعنى والغرض العام للآية ، أكثر من عنايتى بمباحثها اللفظية ، ومكتفيا فى ذلك بما يفتح لنا الطريق إلى المعنى ، تاركا التفصيلات والأوجه البلاغية والنحوية وغيرها إلى كتب التفسير التى وجهت إليها جل عنايتها ، والله يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

المفـــردات :

« بالحق » متلبساً بالحق مشتملا عليه ، فهو نازل من عندالله حقيقة وليس سحراً ولا كهانة ولا من أساطير الأولين ، كما أنه مشتمل على الحق من حيث المبادىء والأحكام والقصص ، فهو كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير « متشابها مثانى » لم تزده الأيام ومكتشفات العقول إلا عظمة وروعة ، ولعل مما

يكشف لنا عن هاتين الناحيتين فى تفسيرنا « بالحق » قوله تعالى : « وبالحق أنزلناه وبالحق نزل » .

« بما أراك الله » بما عرفك الله إياه مما أوحى به إليك ووجهك إليه من نظر جار على سنن الوحى ، وليس منه الميل مع الهوى والعصبية .

« ولا تكن للخائنين خصيما » مخاصما ومجادلا ومدافعا عنهم .

نتناول هذه الآية من النواحى الآتية :

(١) صلتها بما قبلها . (٢) سبب نزولها . (٣) القرآن والحكم . (٤) الرسول والعمل بالرأى ، وهل يجوز عليه أن يخطىء . (٥) الدفاع عن الجناة وموقف القرآن منه .

* * *

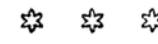
(١) ساق الله قبل هذه الآية ، آيات كثيرة تحض المؤمنين على قتال الكفار وترسم لهم الطريق إلى المحافظة على العقيدة بقوة الاستعداد ، وتوضح لهم ما ينتظر المؤمن المجاهد من ثواب الدنيا والآخرة ، ولقد كثر الحديث عن هذا كثرة ربما تدفع المؤمنين إلى الاستهانة بالحق إن كان فى جانب المخالفين ، وتجعلهم يفرطون فى إقامة العدل إن خرج نطاقه عن المسلمين ، وجاءت حادثة كشفت عن نفوس تدعو إلى عصبية إسلامية تطمس الحق وتجرف العدل وتظن أن اتفاقها فى الدين مع الحاكم ـ وهو الرسول ـ يخليها من إثمها ويحمل الرسول على التعصب لها ضد الآخرين الذين ليسوا على دينهم ، ولو كان فى جانبهم الحق ، فكان من المناسب إذن ـ بعد آيات الجهاد والقتال والضرب على يد الأعداء المخالفين ـ أن يذكر الله هذه الآية التى تجعل الحق والعدل هو الأساس الذى يبنى عليه كل حاكم حكمه وملكه ، حتى يضرب صفحا عن باقى الاعتبارات ، نعم ! ليس الحق هو المعبود الذى تتجه إليه القلوب ! وهل يمكن أن تقوم الدولة إلا على قوة السواعد وقوة النفوس ؟ !

* * *

وأما الحادثة التى كانت السبب فى نزول هذه الآية ، فقد ذكر المفسرون روايات

إن اختلفت فى بعض أشخاصها ، فإنها لم تخرج كلها عن موضوع متقارب : رجل من المسلمين سرق درعا من مسلم آخر ، ولما وجد أن أمره سيفتضح ، عمل على التخلص من جنايته ، وحاول أن يلصقها بغيره ، وهذا الغير على أكثر الروايات يهودى ، وتجمع المسلمون من أسرة السارق يحاولون نفى التهمة عنه عند رسول الله ، وإلصاقها بهذا اليهودى ، مستغلين فى ذلك العصبية الدينية ، فهم مسلمون يشهدون ببراءة صاحبهم وإدانة اليهودى الذى لا يدين بطاعة لله ولا لرسوله ! بل إن بعض الروايات تقرر أنهم ذهبوا إلى أبعد من هذا ، وأنهم صارحوا الرسول بنيتهم ، وكشفوا له عن عصبيتهم مع شهادتهم ، أى أنهم استعانوا على إخفاء الجانى بشهادتهم له ، وإثارة العصبية الدينية ضد اليهودى الذى ألصقوا به التهمة ، ولا ننسى أن الرسول بشر له الظاهر ، وأنه يميل بطبعه للمسلمين أتباعه وأنصاره ، ويفترض فيهم الصدق ، ويحب أن يكونوا بعيدين عن هذه الخيانة ، فربما تجمع ذلك كله أمامه ، ومال به إلى إصدار الحكم على اليهودى ، فأنزل الله هذه الآية الحكيمة التى تقرر مبدأ من أسمى المبادىء التى يقوم عليها صلاح الحاكم والمحكوم ، وهيبة الحكم وسلامة الدولة : العدل والحق يجب ألا يحجبهما غبار الأرض ، ولا يشوه من جمالها شهوة أو عصبية « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ما أسعد المجتمع حين يأخذ بهذا المبدأ ، ويرجع الحاكم إلى الكتاب ليحكم به بين الناس ! ! .



نعم ، فالقرآن لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعبد هو والمسلمون بتلاوته فقط ، ولم ينزل ليبث فى نفوسهم الصبر والسكينة والموعظة فقط حين يقص أخبار الماضين ، ولم ينزل ليأخذ المسلمين ببعض العبادات والفضائل فقط ، بل نزل بهذا كله ، وبتنظيم الحياة ووضعها على أسس فاضلة لخلق مجتمع سعيد ، ورسم خطوطاً عامة ، بل وخاصة لهذا المجتمع ، وجابه طبائع النفوس بما يصلحها ويقوّمها ، ووجه الرسول صلوات الله عليه والمسلمين توجيهات مفصلة ، استطاعوا على ضوئها أن يقيموا دولة الإسلام العادلة فوق أنقاض امبراطوريات شاخت ، وسرى فيها الفساد .

وهل كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكما ؟ سؤال تردد كثيراً وزاد ترداده فى هذه الأيام التى اشرأبت اليها أعناق كرام المسلمين يوجهون قافلتهم إلى النور الذى يشع من كتابهم ليعيشوا تحت ضوئه وفى رحابه .

لقد رأينا بعض العلماء يقولون ـ لهوى فى نفوسهم نعرفه ـ : ما كان الرسول صلى الله عليه وسلم حاكما ، ولئن باشر الحكم ، لقد كان ذلك من ضرورات المجتمع الذى وجد فيه . أى كما تحكم الضرورة على شيخ القبيلة أن يحكم بين أفراد قبيلته ، ولقد نسى هؤلاء أو تناسوا كثيراً من آيات القرآن الصريحة التى تلزم الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم بما أنزله الله عليه ، وتنبه المسلمين فى شدة إلى النزول عند حكمه والتسليم لأمره ، ولا أدرى كيف غفلوا أو جاز لهم أن يتغافلوا عن هذه الآية التى معنا ، وعن آيات كثيرة نذكر بعضها هنا :

« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك » (١) « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » (٢) وهذه الآيات التى نزلت تبين حكم السارق والزانى والقاتل وقاطع الطريق ، وتتعرض لشئون القتال من إعلان الحرب وتنظيمها ، والاستعداد لها ، وإعلان الهدنة ، ونقضها ، والتصرف فى المال ، وغير ذلك من شئون الحياة التفصيلية . هل تعرض لها القرآن وشغل بها الوحى والرسول صلى الله عليه وسلم عبثا ، ولنتلوها ونتغنى بها ؟! أو أنه أتى بها للتنفيذ والتطبيق ، وقام الرسول صلى الله عليه وسلم فعلا بتنفيذها وتطبيقها ؟!!

لقد باشر عليه الصلاة والسلام شئون الحكم فى الحرب والسلم ، فى الداخل وفى الخارج حينما راسل الملوك ، وكل هذا كان بتكليف من الله سبحانه وتعالى لاخضوعا للضرورة ، كما يقول بعض الأدعياء !!

إن أية حكومة تحترم نفسها لا ترضى أن تسن قانونا وتضع نظاماً ولا تنفذه

---

(١) «٤٩» سورة المائدة (٢) «٦٥» سورة النساء

ولا تطلب من الناس تنفيذه ، وهل يعقل أن تصدر حكومة رشيدة أو مستبدة أوامر لا تحب تنفيذها وطاعتها ؟ وهل يمكن أن تقوم هذه الأوامر وهذه النظم إلا على يد حكام يرعونها ؛ وهل يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ؟ إن من العبث بل والعته ، أن نقرأ هذه الأوامر القرآنية تنتظم شئون الحياة العملية فى كل ناحية ثم نقول : ما للقرآن والحياة ، والتحكم فى توجيهها ، وما للدين والسياسة ؟ ! فكرة خلقها ورعاها حكام سفهاء ظالمون ، كرهوا أن يعيشوا بمقاييس الإسلام الفاضلة ، وأن يأخذوا أنفسهم بها أمام رعيتهم ، وأحبوا أن يحيوا كما يريدون ، وكما تملى عليهم شهواتهم ، فعملوا على أن يقتلوا فى رعيتهم روح المراقبة الإسلامية الفاضلة التى تضع الحاكم والمحكوم تحت سلطانها ، فشطروا الدين شطرين : جعلوا لأنفسهم شطراً هو السياسة ، وللناس شطراً سموه الدين ، فللناس « دينهم » من عبادات وتهجدات فى المحاريب ، وللحكام شطرهم الذى لا يتدخل فيه أحد غيرهم ، ولا يخضع طبعاً ـ حسب منطقهم ـ لرقابة الإسلام ! وما للإسلام والسياسة ؟ ! ولقد استطاع أرباب الهوى والسلطان أن يركزوا هذه الفكرة فى نفوس الناس على مر الأزمان ، حتى أصبح رجل الشارع المؤمن بكتاب الله إيمان العوام يقول ما للدين والسياسة ؟ ولقد قوّى هذه الفكرة فى البلاد الإسلامية أخيراً أن المباشرين لأمورها ، والمسيِّرين لأعمالها تربوا تربية غربية ، وتثقفوا ثقافة أوربية تقوم هناك على فصل الدين عن الدولة ، وهم بالطبع متشبعون بهذه الفكرة ، كما تشبعوا بغيرها من الأفكار الغربية الاستعمارية ، وساعدهم على هذا بعدهم عن الثقافة الإسلامية الصحيحة .

إن شعوب المسلمين وحكامهم فى حاجة إلى أن يفهموا أن السياسة التى رسمها القرآن للحياة هى أفضل وأسمى سياسة ، وأن نهضتهم مرهونة بإحياء روح المراقبة الإسلامية فى نفوسهم التى جعلت واحداً من رعية عمر رضى الله عنه يقول له فى ملأ من المسلمين : لو أخطأت ياعمر لقوّمناك بحد سيوفنا .

ولم يغضب عمر ، بل حمد الله على هذه الروح الإسلامية العالية التى جعلت فى رعيته من يقول له هذا الكلام .

فهل ترانا فاعلين ؟ ! !

فهم في آية

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

يذكر المفسرون فى معنى قوله تعالى فى سورة الفرقان : « قل ما يعبأ بكم ربى لولا دعاؤكم فقد كذبتم فسوف يكون لزاما » عدة آراء ، بعضها فى معنى « ما » وهل هى استفهامية على معنى أى اعتداد يعتد بكم لولا دعاؤكم ، أو نافية على معنى لا يعبأ الله بكم لولا دعاؤكم ، وبعضها فى معنى « دعاؤكم » وهل المراد به العبادة أو الالتجاء إلى الله والطلب منه ، أو الشكر له ، أو الدعوة إلى الدين الحق ، وهو الإسلام ، وبعضها فى المراد بقوله « فسوف يكون لزاما » ؟ .

وأحسن ما تحمل عليه الآية فى رأيى أن « ما » نافية ، و « دعاؤكم » بمعنى دعوتكم إلى دين الحق ، والمعنى : أن الله لا يعبأ بكم وليس لكم أى شأن معه ، ولا أى تدبير فى ملكه ، ولكنه إنما يضرب لكم الأمثال ، ويبين لكم الآيات والبراهين من أجل دعائكم إلى الحق ، وبيانه لكم ، لتتم عليكم الحجة ، ويهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة ، وهأنتم أولاء قد كذبتم فسوف يكون أثر تكذيبكم لزاماً عليكم يوم القيامة ، فلا تستطيعون منه تخلصاً ، ولا تزعمون أنكم كنتم عما أنذرتم به غافلين .

* * *

إن من يشتغل بالقرآن الكريم ، ويتدبر معانيه الشريفة ، وأساليبه الحكيمة وأهدافه التى يرمى إليها ، يرى أنه شديد العناية ببيان الحق ، واجتذاب القلوب والعقول إليه ، وأنه يسلك إلى ذلك كل سبيل من شأنه أن يلفت الأنظار ، وينبه الغافلين ، فتارة يضرب الأمثال بما خلق الله من الكائنات ، وبما أودعها من قوى وبما سخرها للإنسان ، وتارة يذكر ما أمد الله به الناس من نعم ، وما أفاضه عليهم من فيوض الرحمة والإمداد ، وتارة يخوفهم من عذابه ، ويحذرهم من شديد حسابه وتارة يرغبهم فيما عنــــده من متاع دائم لا يزول ولا يحول ، إلى غير ذلك

من المعانى التى يتنقل القرآن بين معانيها ، ويفتن فى تصويرها ، واجتذاب الناس إليها .

قد يفهم من ذلك بعض ذوى العقول الضعيفة من أهل الكفران والعصيان ، أن الإنسان شىء له قيمة بجانب الألوهية ، وأن الله ـ جل وعلا ـ ما حفل به إلى هذا الحد ، فأفاض فى الحديث إليه ، وضرب الأمثال له ، إلا لأنه مفتقر إلى عبادته ، حريص على أن يطوّعه له لغرض يعود إليه ، فالله سبحانه وتعالى يبين لهؤلاء الذين لا تخلو البشرية من نظرتهم الخاطئة ، التى توسوس بها إليهم شياطينهم ، أنه إنما يحفل بهم ، ويعتد بشأنهم ، لمنفعتهم هم لا لمنفعته ، فإن حاجة الإنسان إلى هدى الله وبيانه وأخذه بيده إلى الصراط السوى فى المعرفة والعمل ؛ ليست أقل من حاجته إلى الطعام الذى يقيمه ، والشراب الذى يحييه ، والهواء الذى يتنسمه ، ولو أن الله سبحانه وتعالى ترك الإنسان ونفسه ، فلم يرسل إليه الرسل ، ولم ينزل له الكتب لاضطرب فى هذه الحياة أمره ، واختل ميزانه ، حتى ينتهى به هذا الاختلال وذلك الاضطراب إلى الفناء العاجل .

إن العقول تتفاوت ، والآراء تختلف ، وما يراه قوم من الناس حسناً قد يراه آخرون قبيحاً ، لاختلاف البيئات وما يحيط بالناس من أسباب ظاهرة أو خفية تؤثر فى آرائهم ، وتلعب بعقولهم ، بل إن الرجل الواحد قد يرى فى وقت ما رأيا ثم يرى فى وقت آخر خلافه ، فتتغير نظرته ، تبعاً لتغير الأسباب التى يعلمها أو لا يعلمها ، فاذا لم يكن للناس موازين وضوابط ينتهون اليها ، وينزلون على أحكامها فان الخلاف بينهم يشتد ، والآراء تكثر ، وتكثر تبعا لها عوامل النفرة والقطيعة .

ولو أردنا أن نتصور حال البشر دون أن تتنزل عليهم هداية الله ، فاننا نمثل ذلك بحال قوم نشأوا فى بادية منقطعة عن العالم لا يتصلون بأحد ولا يتصل بهم أحد ، وليس لديهم من أسباب العلم والحضارة شىء ، أليس هؤلاء يعيشون ما عاشوا همـلا لا يفقهون شيئاً ، ولا يدركون إلا ما يلمسونه بأيديهم ، ويرونه بأعينهم ، فإذا فرضنا أن الأمد طال بهم على هذا النحو فانهم لا ينتقلون فى أطوار المعرفة والادراك الصحيح إلا انتقالا بطيئا لا يكاد يدرك ، فالبشرية ـ لولا الهداية

الربانية ـ مثلها كمثل هؤلاء القوم ، تمر عليها الدهور والأزمان دون أن تتقدم فى مدارج الرقى والكمال ، ولو تقدمت لكان تقدمها بطيئاً بطيئاً ، ولعلنا نلمح هذا المعنى فى قوله تعالى « هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » .

فهذه الآيات الكريمة تشير إلى الأطوار التى مر بها الإنسان ، فالطور الأول هو الدهر الطويل الذى عاشت فيه الإنسانية عيشة الحيوان فى الغاب ، لا تعلم من أمرها شيئا فى حاضرها أو ماضيها أو مستقبلها ، وذلك قبل انفتاق العقل البشرى بسبب الهداية الإلهية عن الحقائق واستضاءته بنور المعارف ، والطور الأخير هو طور المعرفة والعلم الذى يصل ببعض الناس إلى الإيمان والشكر ، وببعضهم إلى الجحود والكفر ، ذلك بأنه لا يتصور شكر الشاكر ولا كفر الكافر إلا إذا صدر أحدهما عن عالم ذى تفكير ، فالحالة التى وصل فيها الإنسان إلى أن يكون منه شاكر ومنه كافر ، هى أحسن حالاته من الناحية العقلية التفكيرية ، ومن قبل كان الإنسان ساذجاً لا يعقل أن يشكر أو يكفر ، ويدل على هذا المعنى التعبيرُ فى هذه الآية بقوله « انا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفورا » حيث كان التفصيل بالشكران والكفران بيانا لإجمال يجمعهما فى المعنى وهو هداية السبيل ، التى يراد بها دخول الفكر الإنسانى ـ بالهداية الربانية ـ فى مرحلة النظر والتفكير .

وقد ذكر الله بين هذين الطورين الأول والأخير أمر الخلق والتكليف وإعداد الإنسان بالسمع والبصر ليكون عالماً مفكراً ، وذلك هو قوله عز وجل « انا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا » .

ولهذا الأسلوب دلالة ، فإن الله سبحانه وتعالى يشير به إلى أن نعمة الخالق على الإنسان بالخلق والإيجاد ، ونعمة الهادى بالتعليم والإرشاد ، كلتاهما نعمة كبرى بها يكون قوام الإنسان فى حياته ، وصلاحيته لعمارة هذا الكون ، والخلافة عن الله فيه .

ولعلنا نجد هذا المعنى أيضاً فى قوله تعالى « اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فإن هذه الآيات ـ وهى أول ما نزل من القرآن الكريم ـ تجمع بين الحديث عن الخلق ، والحديث عن العلم ، وفى ذلك إشارة واضحة إلى أن نعمة الله على الإنسان بتعليمه وإخراجه من الظلمات إلى النور ، لا تقل خطراً عن نعمته عليه بخلقه وإخراجه من ظلمات العدم إلى نور الوجود ، بل الآيات الكريمة تشعر بأن نعمة العلم أعظم ، حيث جاء ذكره بعد قوله : « اقرأ وربك الأكرم » والله أعلم .؟

سحر الكلام

كان عبد الله بن معاوية بن عبد الملك بن جعفر عالما جليلا ، وخطيباً مفوها ، وشاعراً مجيدا ، كتب إلى بعض إخوانه :

أما بعد ؛ فقد عاقنى الشك فى أمرك ، عن عزيمة الرأى فيك ؛ وذلك أنك ابتدأتنى بلطف عن غير خبرة ، ثم أعقبتنى جفاء من غير جريرة ، فأطمعنى أولك فى أخائك ، وأيأسنى أخرك عن وفائك ، فلا أنا فى غير الرجاء مجمع لك اطراحا ولا أنا فى عدم انتظاره منك على ثقة ، فسبحان من لو شاء لاجتمعنا على ائتلاف أو افترقنا على اختلاف .

السنة

بركة المسلم حياً وميتاً

لفضيلة الأستاذ الشيخ طه محمد الساكت
المدرس بالأزهر

عن عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وهى مثل المسلم ، حدثونى ما هى ؟ فوقع الناس فى شجر البادية ، ووقع فى نفسى أنها النخلة — قال عبد الله فاستحييت — فقالوا يا رسول الله أخبرنا بها ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هى النخلة . قال عبد الله : فحدثت أبى بما وقع فى نفسى ، فقال لأن تكون قلتها أحب إلى من أن يكون لى كذا وكذا . رواه الشيخان .

فى مجلس من مجالس النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد حفل بصفوة من أصحابه ، أراد أن يحدثهم عن المسلم الحق الذى يصلح أن يكون عضوا حيا فى الجامعة الإسلامية ، ولبنة قوية فى بنائها ، ومن أحق من النبى صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث ، وهو أول المسلمين بشهادة الله سبحانه ؟ « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين ، لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » .

والذى أثار الحديث عن المسلم مناسبة لطيفة . اتخذ منها إمام المربين صلوات الله وسلامه عليه سبيلا إلى امتحان أصحابه فى أسلوب مشوق لما يلقى عليهم من العلم والحكمة ، والتشويق فن من فنون التربية ، عنى به المربون وعلماء النفس كثيراً ، وأوسعوه بحثاً ودرساً لما له من عظيم الأثر فى تنبيه الفكر وجمع القوى . أهدى إليه صلى الله عليه وسلم جمَّار فأكل منه ، ثم سأل أصحابه أن يخبروه عن الشجرة التى لا يتساقط ورقها على غير المعهود فى الشجر ، والتى مثلها كمثل المسلم فى النفع والخير والبركة . . . فأخذ الحاضرون يذكرون من شجر البوادى ذاهلين

عن الشجرة التى أكلوا من جمّارها ، وكان فى الجمار تنبيه على الإجابة ، بيد أنهم لم يعرفوا النخلة باسم الشجرة من قبل هذا المجلس ، لكن عبد الله رضى الله عنه تنبه وألقى الله فى رُوعه أنها النخلة ، وللجمار الأثر الأول فى هذا التنبه ، ولقد هم عبد الله أن يجيب ، ولكنه نظر فإذا هو أصغر القوم ، وكان عاشر عشرة هو أحدثهم ، ورأى الشيخين : أبا بكر وعمر لا يتكلمان ، فسكت عن الإجابة حياء وأدبا .

فلما عجز القوم وأعيوا ، سألوا النبى صلى الله عليه وسلم فأجابهم بأنها النخلة . ولما انصرف المجلس حدث عبد الله أباه بما وقع فى نفسه ، فقال له لو قلتها يا بنى لكان ذلك أحب إلى من حمر النعم ، كما ثبت عند ابن حبان فى صحيحه ، والأحاديث يفسر بعضها بعضاً ، ومن ذلك حديث الصحيحين : لأن يهدى الله بك رجلا واحداً خير لك من حمر النعم ، والإبل الحمراء أعز أموال العرب وأنفسها .

* * *

ما أجمل تشبيه المسلم بالنخلة ، أو النخلة بالمسلم ، كما فعل صلى الله عليه وسلم .

إنها خفيفة المؤنة ، قليلة الكلفة : تنفع ولا تضر ، وتحسن ولا تسىء ، وتعطى كثيرا ولا تأخذ ـ إن أخذت ـ إلا قليلا ، وكذلك المسلم الحق ، يتعفف ولا يلحف ويتلطف ولا يتكلف ، مأمول نفعه وخيره ، مأمون شره وضره ؛ يحسن إلى الناس ويعفو عن إساءتهم ، ويعطيهم مخلصا ، ولا يريد منهم جزاء ولا شكورا .

وفى النخلة صلابة واستقامة ، وقوة ومتانة ، لا تحركها الرياح ولا تنال منها العواصف ، وكذلك المسلم الحق : قوى فى دينه ، ثابت فى يقينه ، فى الزلازل وقور ، وفى المكاره صبور ، وفى الرخاء شكور ، مهتد وهاد إلى الصراط المستقيم .

* * *

النخيل وارفة الظلال ، طيبة الثمار ، ممدودة الخير ، موصولة النفع منذ أن تغرس ، إلى أن تجف وتيبس ، بل بعد أن تقطع قطعاً وترسل فى مصالح الناس ومرافقهم . ولن ترى شيئاً من أصولها وفروعها وثمارها مهملا أبداً . ويدرك بركة النخيل وخيرها فى حياتها وبعد مماتها ، مَن يعلم أن كثيراً من الناس كانوا ـ ولا يزالون ـ يقيمون فى بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده ، ويعيشون

على التمر عمراً ، كما تعيش إبلهم على النوى دهراً . وفى السيرة النبوية عن عائشة رضى الله عنها : إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ما نوقد ناراً إن هما إلا الأسودان : التمر والماء .

وكذلك المسلم الحق ، كله خير وبركة ، حياً وميتاً ، لنفسه وعشيرته ، وأمته ووطنه ، والعالم أجمع :

أما فى حياته : فيما يعلمهم ويرشدهم ، ويؤدى حقوقهم ، ويسعى جاهداً فى مصالحهم ويعينهم على البر والتقوى .

وأما بعد مماته فيما يترك فيهم من علم نافع ، أو هَـدْى صالح ، أو أثر مبارك أو سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها بعده إلى يوم القيامة لا ينقص من أجورهم شىء .

وكل هذه الشعب الخيِّرة المتنوعة تدخل فيما رواه مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له .

هذا هو المسلم الحق ، الذى تتألف منه ومن أمثاله أمة رشيدة قوية ، متماسكة متآزرة « كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه » أمة صالحة لوراثة الأرض وعمارتها ، جديرة بما وعد الله عباده : من النصر فى قوله تعالى : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » والعز فى قوله سبحانه « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » والتمكين فى الأرض من بعد الاستخلاف فيها كما قال جل سلطانه : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا » .

فأين المسلم أو المسلمون اليوم من شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ! !

إنهم حفالة كحفالة الشعير أو التمر : أو غثاء كغثاء السيل ! لا تستطيع أن تحصيهم عدداً ، ولكن قلما ترى مع الأسى والأسف أحداً !

إنه لن يعود للمسلمين مجدهم الأول إلا إذا تخلقوا بأخلاق الرعيل الأول « أشداء على الكفار رحماء بينهم » تراهم فى توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، أو تراهم كالبنيان يشد بعضه بعضا .

واجب مصر نحو القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الباسط
المدرس بكلية الشريعة

قال تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » وروى البخارى ومسلم عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وأطراف النهار . ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وأطراف النهار » وروى البخارى بسنده إلى عثمان بن عفان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » .

منذ أسلمت مصر ، وملأ الإيمان قلوب بنيها أقبلت على كتاب الله تعالى تستظهر آياته ، وتستنبط معانيه وتطبق تعاليمه على ما يجد لها من أحداث ، فانتشر فى ربوعها ، حواضرها وقراها ، مكاتب جعلت تحفيظ القرآن الكريم غايتها ، وفى كل مدينة من مدنها مدارس ، جعلت من علوم القرآن مواد دراستها ، فكان التعليم فى مصر يدور كله حول كتاب الله وفهم أسراره ، وتذوق مافيه من بلاغة وأدب ، وفهم ما بين دفتيه من علوم كونية ، والتخلق بما فيه من أخلاق كريمة .

ولقد كانت مصر تتسابق مع البلدان الإسلامية الأخرى فى هذا المضمار الشريف ؛ ونالت قصب السبق فى أكثر الأحايين ، وأخرجت إلى العالم الإسلامى علماء رفعوا شأنها بمنافحتهم عن دين الله . ولقد ساهم فى هذا الميدان جميع طبقاتها : فأمراؤها ساهموا بجاههم وبما أفاء الله عليهم من نعم المال ، وأغنياؤها رصدوا العقار فى سبيل حفظ كتاب الله ، وفقراؤها أقبلوا على كتاب الله يحفظونه ويتدارسونه ، وكان لهم به جاه أى جاه ومكانة أى مكانة . وها نحن لا نزال نرى آثار هذه المكاتب التى أنشأها الأمراء و الأثرياء .

ولما ركدت ريح العلم فى البلاد الإسلامية ، كانت مصر وفية لكتاب الله حريصة على أن يكون من أبنائها من يحسن تلاوته ويستظهره عن ظهر قلب ،

وأن يتلقاه الخلف عن السلف ، وأن يورثه الآباء للأبناء . حرص على ذلك حكامها ، وتنافس فى هذا المضمار جميع طبقاتها كما كانت الحال أيام نهضة العلوم الإسلامية ، وقوة الدولة المحمدية ، لم تقصر مصر فى هذا الواجب فترة من تاريخها الإسلامى ، بل سارت فى هذا الطريق قدماً لا يثنيها عنه معوق مهما كان شديداً .

ولما هبت مصر تأخذ بأسباب الحضارة الأوربية ، عنى البيت العلوى الكريم بكتاب الله تعالى ، فحرص حكامها من هذه الدوحة المباركة على أن يكون تعليم القرآن الكريم فى الصدارة من برامج الثقافة ، فكثرت الكتاتيب التى تحفظ الأطفال كتاب الله ، وزاد عدد الحفاظ وحظوا بامتيازات شتى جعلت كثيراً من الطبقات تقبل على أن تعلم أبناءها كتاب الله ؛ وتثقفهم بثقافته ؛ حتى حق لكل مصرى أن يعتز بأن بلاده هى أحفظ بلاد الله لكتاب الله ؛ وأن مصر قد اصطفاها الله فأورثها هذا التراث العظيم ، وإذا كانت تفتخر الآن بأزهرها وجامعاتها ، فهى كذلك تفتخر بحملة كتاب الله من أبنائها ، ولها أن تباهى بأن تيار العلوم الدينية يسير جنباً إلى جنب مع تيار العلوم الدنيوية ، وما ذلك إلا لحرصها على تعاليم القرآن وتعلمه .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤادا العظيم ، كان أعظم أثر تركه ــ وما أكثر مآثره ــ أن أعاد طبع المصحف الشريف بشكل جميل وضبط دقيق .

ولا ينسى هذا الجيل أن الملك الراحل فؤادا العظيم ، رعى جمعيات المحافظة على القرآن الكريم التى انتشرت فى عهده فى المدن والقرى وأظلها بجناح رعايته وعطفه حتى أثمرت أطيب الثمار .

ولا ينسى هذا الجيل أن شبله فاروقا الأول ــ حفظه الله ــ استن سنة أبيه ونهج نهجه وسار على منواله فى رعاية كتاب الله والعمل على نشر حفظه ونشر تعاليمه .

واليوم ، وقد تقررت مجانية التعليم فى المرحلتين الابتدائية والثانوية ، وتيسرت سبل العلم فى الجامعات المدنية ، رأينا بعض الغيورين على الكتاب المجيد يتوجسون خيفة من انصراف الأمة عن تعليم القرآن الكريم وتعلمه بعد أن زالت أكبر ميزة كان يتمع بها حملة كتاب الله أو الراغبين فى حفظه ؛ ولا سيما أن المستقبل

أمام المتعلمين تعليما مدنيا أكثر ابتساماً منه أمام الذين يسلكون طريق التعليم الدينى الذى أساسه حفظ القرآن الكريم ، والتاريخ قديمه وحديثه شاهد على أن العلم يعيش ويترعرع فى ظلال رعاية أولى الأمر ، لا فرق فى ذلك بين العلوم الدينية والدنيوية .

يخشى الغيورون أن ينصرف الناس عن حفظ القرآن الكريم تحت عوامل الاغراء الكثيرة التى يتمتع بها طلاب التعليم المدنى بعد أن كانت إلى جانب التعليم الدينى أكثر وأعظم .

يخشى الغيورون أن تصبح مصر ولا يحسن فيها أحد تلاوة كتاب الله إلا من المصاحف كما وقع - مع الأسف الممض - لأكثر البلاد الإسلامية ، والقرآن ما بقى سليما من التحريف والتبديل إلا لأنه محفوظ فى الصدور لا فى السطور وفى القلوب لا فى الألواح والصحف ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث يقول « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا » .

فاذا قال قائل لهؤلاء الغيورين لا تجزعوا ولا تيأسوا فان الله وعد - ووعده الحق - أن يحفظ هذا الكتاب حتى يأتى أمر الله « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » إذا قال لهم قائل ذلك أجابوه نعم ، ولكن نخشى أن ينتقل هذا الفضل والسبق من مصر إلى غيرها من بلاد الإسلام ؛ إننا نريد أن ينتشر حفظ القرآن الكريم فى جميع الأقطار الإسلامية على أن يبقى لمصر فضل السبق والحرص على هذا التراث الجليل الذى اصطفاها الله لحفظه وورثها إياه ، وأقر لها بهذا الفضل جميع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها ، وبايعوها بهذه الزعامة راضين مطمئنين .

يتألم الغيورون من أن يروا العناية الفائقة بعلوم وفنون ليست الأمة فى حاجة اليها لصلاح دينها أو دنياها ، كالموسيقى والرقص ، والرسم للأجسام الحية العارية إلى آخر ماهنالك مما يسمونه بالفنون الجميلة ، ويقولون آسفين : لو رصد فى ميزانية وزارة المعارف لحفظ كتاب الله ما رصد لهذه الفنون التى لا تحتاج اليها الأمة

لرفع شأنها أو تثقيف عقولها لأمنا على هذا التراث الضخم من الضياع ولاطمأنت قلوبنا على زعامة مصر فى هذا المضمار .

ونحن نقول لهؤلاء الغيورين شكر الله لكم غيرتكم وأثابكم على حسن نيتكم ولكن لا تنسوا أن على رأس مصر ملكا يحرص على دينه حرصه على أعز شىء عنده ، وأنه لا يرى أقدس من كتاب الله وأولى برعايته السامية من المحافظة عليه . والأمل فى الله كبير أن يكون عهده كعهد أبيه ، فينتشر حفظ القرآن الكريم فى ربوع البلاد مدنها وقراها .

ونقول لهؤلاء الغيورين إن على رأس حكومة جلالته رجلا رأس ماله دينه ، وملاك أمره عقيدته ،

وعلى رأس الأزهر رجلا لايحابى أحداً فى دين الله ، ولا يتساهل فى حق الله .

وعلى رأس وزارة المعارف رجلا عرف القرآن ومكانته من الثقافة ومنزلته من التربية العلمية والخلقية ، وإذا وكلت أمانة القرآن فى أعناق هؤلاء ، فلا تخشوا بأساً ولا تظنوا سوءاً ، بل ادعوا الله مخلصين أن يرزقهم التوفيق إلى خير الوجوه ، وأنجع السبل لتحقيق هذا الأمل المنشود ؟

من محاسن الحكم

قال شاعر حكيم :

ما استقامت قناةُ رأيَ إلا   بعد أن عوّج المشيبُ قناتى

وقال الأشعث بن قيس يوماً لقومه :

« إنما أنا رجل منكم ، ليس لى فضل عليكم ، لكننى أبسط لكم وجهى ، وأبذل لكم مالى ، وأقضى حقوقكم ، وأحوط حريمكم ، فمن فعل مثل فعلى ، فهو مثلى ، ومن زاد علىّ فهو خير منى » .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

أستاذ بكلية أصول الدين

— ١ —

لكل زمن مشاكله التي تتنوع وتتعدد بحسب البلدان والأمم المختلفة ، وبحسب الأزمان أيضاً ، وهذه المشاكل أصناف وضروب ؛ فمنها ما يتعلق بالناحية السياسية لبيان أي النظم أصلح للحكم ؛ ومنها ما يتعلق بالناحية الاجتماعية وما تثيره من مسائل الضمير والمقاييس الخلقية والعادات والتقاليد ونحوها ؛ ومنها ما يرجع إلى غير هذه أو تلك من النواحي ، ولكل دولة أو أمة من الناس طرائقها في حل مشاكلها الخاصة بها ، وقد تستوحي في الحلول التي تراها غيرها من الأمم ، إذ لا تستغني أمة عن الإفادة من تجاريب غيرها ؛ سواء في مسائل العلم والفكر ، أو المسائل الأخرى التي تزخر بها الحياة .

إلا أنه ، هناك طائفة أخرى من المشاكل لها طابع خاص يجعلها تعلو على الزمان والمكان ، فهي مشاكل لا تخص أمة دون أخرى ، ولا عصراً دون عصر ؛ هي مشاكل أحسها الناس جميعاً في كل زمن على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم ودياناتهم ؛ ومن ثم ، نجد التاريخ قد عني عناية خاصة بتدوين ما كان من حلول لهذا الضرب من المشاكل المختلفة ، وذلك عسى أن يفيد الحاضر من جهود الغابر ، ومفكرو اليوم من تفكير رجال الأمس ، ومن هذه المشاكل التي لها هذا الطابع ، أي المشاكل العالمية ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل وما لها من حقوق وواجبات .

لهذا لم يكن عجيباً أن يتناول المفكرون ، وبخاصة رجال الفلسفة والاجتماع ، في كل زمن وفي كل أمة ، هذه النواحي وما تثيره من مسائل ومشاكل تتطلب الحل الذي يكون أدنى للحق وإلى طبائع الأشياء وحقائق الأمور ؛ الحل الذي يقوم به العالم وتصلح الحياة إن كان إلى ذلك من سبيل .

وابن سينا فيلسوف خالد من فلاسفة المسلمين ، ولم تمنعه الفلسفة من أن يكون رجل سياسة ورجل دولة ؛ فكان له من هـذا ما يكون لأمثاله من حظوة ومتعة ونعيم أحيانا ، كما كان له حظه أحيانا أخرى من المتاعب والاضطهاد . ذلك بأنه لم ير لنفسه أن يعيش فى عزلة عن الحيـاة العامة كما فعل سلفه العظيم الفارابى ، بل كان رجلا واقعيا يأخذ من الحياة ويعطى ، ولهـذا نجده أسهم فى الحياة العامة بنصيب كبير .

وهذه النزعة العملية جعلته لا يتقيد فى تفـكيره بمذهب خاص من مذاهب من سبقوه فى القـديم والحديث ، بل ـ بعد أن وعى واستوعب ما سبقه من فلسفات ـ فـكر لنفسه ، وأخذ يختار من آراء سابقيه ما يوافق ميوله وتفكيره ، لا يبالى أين يجد ذلك أو رأْىَ الناس فيه . ومن أجل هذا ، نجد فى تآليفه سمات وخصائص من المذاهب المختلفة التى عرفها تاريخ الفـكر والفلسفة ، وإن كانت عبقريته وقوة فـكره قد غطيا هـذه السمات حتى لا يكاد القارىء غير المتخصص يحـس بهـا ، ومن ثم يعتقد بأن كل تفـكير فيلسوفنا طريف لم يلتمس منه شيئاً لدى غيره من أسلافه المسلمين وغير المسلمين فى الشرق أو الغرب .

وقد ساعد على هـذا ، ما يلمسه القارىء فى كتابات الشيخ الرئيس من قوة الشخصية والنزعة إلى الاستقلال فى الرأى والتفكير ، حتى لقد أثر عنه أنه كان يقول : حسبنا ما كتب من شروح لمذاهب القدماء ، فقد آن لنا أن نضع فلسفة خاصة بنا .

وابن سينا ، بعد هذا ، شغل الباحثين من بعده ؛ هؤلاء الباحثون الذين عكفوا على كتاباته يحصونها ، وعلى آرائه يدرسونها ويصدرون الأحكام لها أو عليهـا ، بعد مقارنتها بآراء غيره من سابقيه ومعاصريه واللاحقين به ، وكانوا فى هذا التقدير والوزن لآرائه ، والحكم لها أو عليها ، بين المقصر فى حقه والغالى فى تقديره .

على أن هـذه الدراسات ، أو على الأقل الجانب الأكبر منهـا ، توجهت إليه وإلى تراثه الفـكرى كطبيب خلا ذكره فى عالم الطب بقانونه ، وكفيلسوف منطقى وطبيعى وإلهى له فى كل هذه النواحى آراء لها قدرها وخطرها . ومن الذين درسوه فى عمق وإطالة فى هذه النواحى الأخيرة ، ولـكن فى تجن أحيانا ، حجة الإسـلام الإمام أبو حامد الغزالى . وليس من همّنا الآن الحديث عن هـذه الدراسة القوية

التى نجدها فى كتاب [تهافت الفلاسفة] ، والتى نجد التعقيب القادر عليها فى كتاب [تهافت التهافت] لفيلسوف الأندلس الأشهر أبو الوليد بن راشد المتوفى عام ٥٩٥ ﻫ .

والذى نريد أن نشير إليه الآن هنا ، هو أن جمهرة الباحثين أغفلوا تماما أو كادوا ، دراسة الشيخ الرئيس كفيلسوف اجتماعى له فى هذه الناحية آراء لم تخلق جدتها مع تتابع القرون ، ومن ثم تضعه بحق فى مصاف المفكرين الاجتماعيين المحدثين فى أكثر من ناحية من النواحى الاجتماعية ، هذه النواحى التى تجعل موضوع دراساتها الفرد والمجتمع من مختلف الزوايا .

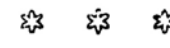
هذه الآراء رأيتها جديرة بالحديث عنها ونشرها ، لعل بعض الذين يعنون بالمشاكل الاجتماعية يفيدون منها ، ولعلها تلفتنا إلى وجوب دراسة مفكرينا والاعتزاز بهم والإفادة منهم ، بدلا من إهمال ماضينا وتراثنا الفكرى والتهافت على أوربا وما عند أوربا تهافتاً ينال من كرامتنا ، ويظهرنا عالة على غيرنا ؛ كأننا أمة لا ماضى لها تعتز به ، ولا تقاليد تفخر بها ! إنه يجب أن ننتفع بهذا التراث المجيد فى بناء حاضرنا ومستقبلنا ؛ فلقد كنا نألم أشد الألم عند ما كان إخواننا الطلاب الفرنسيون بباريس يلاحظون علينا ، معشر الشرقيين ، أننا نصطنع الحياة الغربية فى جميع مناحى الحياة العامة تقريباً ثم تضيق صدورنا بأن يكون لصانعى هذه الحضارة وسدنتها سيادة أو نفوذ فى الشرق !

لماذا لا نستلهم هذا التراث الإسلامى المجيد ، الذى أفاد الغربيون أنفسُهم كثيراً منه ، فى التشريع المدنى والجنائى والتجارى ؟ ولماذا لا نستلهمه أيضاً فى السياسة الاقتصادية ؟ ولماذا لا يكون الأمر كذلك فى ناحية سياسة الحكم ونظمه ؟ وهذا مع الإفادة من الحضارة الغربية والتفكير الغربى فيما نجد من الخير أخذه عنهما . لعل بعض السبب فى هذا يرجع إلى « ثنوية التعليم » عندنا والنظم التى يقوم عليها ، والتى كان منها أن صيغت عقول أبناء الأمة على طرائق مختلفة . وكان من ذلك أن القائمين على هذا التراث الإسلامى ليس إليهم من أمور الحكم شىء ، وأن الذين إليهم الحكم لا يعرفون شيئاً ذا غناء من هذا التراث ! ولعل الله يرزق مصر بمصلح قوى قادر ، لا تنقصه الإرادة الطيبة الحازمة ولا الكفاية والشجاعة ، فيغير من هذا الحال ؛ وبذلك نصل جميعاً إلى معرفة هذا التراث القيم

وتقديره حق قدره والإفادة منه ؛ وتكون النتيجة الطبيعية أن تنهض مصر ومعها سائر البلاد الإسلامية على أسس من روح الإسلام وعبقريته ومبادئه وأصوله .

هذا وأرجو ألا يثقل هـذا الحديث الذى نحن بصدد التقديم له ، وألا يظن أنه حديث فلسفى ممل ، ما دام محوره أحد الفلاسفة الكبار ! فقد تعودنا فى هذا الشرق أن نعد الفلسفة أمراً ثقيلا ، وأن نرى فيها تفكيراً يجافى الدين ، وكان ذلك ميراثا ثقيلا عن الماضى : على أن الحال الآن ، بحمد الله ، غير الحال فى ذلكم الزمن ، فقد أصبحنا نحاول أن نجد فى الفلسفة عونا على حل ما يعترينا من مشاكل ومعضلات ، ولا عجب فى هذا ، وكلا الفلسفة والدين يعملان على فهم العالم ومبدئه ومصيره ، ويعنيان بتبصر الفرد والمجتمع بما فيه خيره وسعادته، فى حاضره ومستقبله فى دنياه وآخرته ، وإن كان لكل من الفلسفة والدين طرقه الخاصة التى قد تتقارب حينا ، وتتباعد حيناً آخر .

على أن للقارىء أن يطمئن من ناحية أخرى ، فإنى لن أعرض من آراء الشيخ الرئيس إلا للقليل الذى يتعرض بصفة خاصة لبعض مشكلات العصر الحاضر ؛ وأعنى بذلك مشكلة العمل والبطالة ، أو بعبارة أخرى مشكلة الضمان الاجتماعى ؛ ثم مشكلة المرأة من ناحية مساواتها أو عدم مساواتها للرجل فى الطبيعة والحقوق والواجبات ، وناحية الزواج والطلاق وكيف يكون ولمن يكون .



يمهد ابن سينا لحـديثه عن هاتين المشكلتين ، ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات ، بأنه لا يمكن أن يحيا حياة طيبة لو انفرد وحـده بالمعيشة . ذلك ، بأنه لا بد من أن يكون المرء مكفيا بآخر من نوعه الإنسانى ، كل منهم يساعد الآخـر ويخدمه فى ناحية من نواحى الحياة . ومن أجل هذا كان الإنسان مضطرا الى بناء المدن وإنشاء المجتمعات ، حتى يكون البعض للبعض وإن لم يشعروا خدما ، ويشارك ابن سينا فى هذه الملاحظة كل الباحثين الاجتماعيين فى قديم الزمن وحديثه .

ويخلص من هذا ، بأن يستنتج أنه لا بد إذاً فى وجود الإنسان وبقائه وحياته حياة طيبة من مشاركة فى الحياة ، ومعاملة الناس بعضهم مع بعض ، والمعاملة تقتضى أساسا قويا من شريعة صحيحة وعدالة حقة ، وهذه الشريعة لا بد لها من شارع يجىء

بها ، كما لا بد للعدالة من عادل يقوم بها ويجريها كما يجب . وهذا كله يستلزم أن يرسل الله لخلقه رسلا منهم يبلغون عنه شريعته ، ويقومون بين الناس بالعدالة .

وهـــذا النبي والرسول عليه أن يبذل غاية وسعه لتأكيد سعادة الناس دنيا وأخرى ، وذلك بإرشادهم الى ما من شأنه تنزيه النفس عن الخبيث من الطباع والسيء من القول ، والرديء من العمل ، وهذا كله لا يحصل إلا بأخلاق تحصل ، وملكات تكتسب بأفعال طيبة من شأنها أن تصرف النفس عن البدن والحس ونزواته وهواه ، وتديم تذكرها للمعدن الطيب الشريف الذى لها ، ويجب أن تحن له دائما .

وبعد هذا التمهيد العام ، يأخذ شيخ الفلاسفة فى الكلام على أولى المشاكل التى أراد الكلام عليها ؟

« الحديث موصول »

من كلام ابن عباس رضى الله عنه

قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما :ــ

كتب إلى علىّ بن أبى طالب كرم وجه :ــ

أما بعد ـ فإن المرء يسره إدراك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليدركه ، فليكن سرورك بما نلت من أمر آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها ، وما نلتَ من أمر دينك فلا تكن به فرحا ، وما فاتك منها فلا تأس عليه جزعا ، وليكن همّك ما بعد الموتِ .

أبو حامد بهاء الدين السبكى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله المراغى
مدير المساجد بوزارة الأوقاف

بعد أن ترجمنا فى المقالتين السابقتين للامام تقى الدين السبكى ، ثم لابنه الشيخ الجليل تاج الدين ، وتحدثنا بما كان لهما من فضل وما خلَّفا فى أيدى العلماء والدارسين من مؤلفات لم تزل منهل الواردين ، ومقصد المحصلين ، مما كتب لهما على وجه الأيام الخلود ، وسجل باقى ذكرهما فى العالمين ، وجعل لهما لسان صدق فى الآخرين ، اليوم نترجم لثالث الأعلام المبرزين ممن نبغ من هذه الدوحة المباركة ، وتألق نجمه من أسرة السبكيين ، وهو أحمد بن على بن عبد الكافى بن على بن تمام السبكى ، المكنى بأبى حامد الملقب ببهاء الدين ، فهو ابن تقى الدين السبكى وأخو تاج الدين .

يختلف أصحاب التراجم فى سنة مولده اختلافا يسيرا ، فمنهم من يؤرخ مولده بسنة تسع عشرة وسبعمائة هجرية ، ومنهم من يجعل تاريخ مولده سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وهم متفقون على تاريخ وفاته بسنة ثلاث وسبعين وسبعمائة هجرية ، وينفرد كتاب شذرات الذهب بالنص على أن سنه حين وفاته كانت ست وخمسين سنة ، فلعل هذا النص يبيح لنا أن نرجح ، مع ملاحظة الاتفاق على تاريخ وفاته ، أن ميلاده كان سنة سبع عشرة وسبعمائة هجرية ، وتنوه كتب التراجم بنبوغه وتبريزه فى العلم وهو صغير ، ونحن نرى ذلك معقولا وسائغاً مقبولا ، إذ هو قد نشأ فى كنف أبيه العالم الجليل ، فلا شك أنه قد وجد فى بيته البيئة العلمية الساهرة على تقويم صباه وتسديد خطاه فى سبيل التربية والتثقيف ، وكان له فى أبيه الأستاذ الأول وحسبك به مربياً حانياً وأستاذاً عليما ، فلما اشتد ساعد أبى حامد وغشى حلقات الدرس أضاف إلى ما تلقاه عن أبيه ما يقتبسه من علماء عصره ، ويتلقاه عن أئمة زمانه فأخذ عن الأصبهانى وابن القماح وأبى حيان ، ويظهر أن صحبته لشيخه أبى حيان قد طالت وحسنت ، ويدلك على ذلك ما نظم فى مدح شيخه من شعر ، منه هذان البيتان :

فداكم فؤاد حان للبعد فقده   وصب قضى وجدا وما حال عهده

وقلب جريح بالغـــرام متيم وطرف قريح طال فى الليل سهـده

وقد كان شيخه يبادله المودة والتقدير لكريم خلاله والرضا عن سعيه فى الطلب ودأبه على تحصيل العلم . ومن أبيات قالها فيه شيخه تتبين أنه كان يراه فذا فى أقرانه نابغة بين إخوانه ، وهى :

أبو حامد حتم على الناس حمـــده لمـا حاز من علم به بان رشده
غذى علوما لم يزل منـــذ نشئه يلوح على أفق المعـــارف سعده
ذكى كأن قد جاحم النار ذهنه ذكاء ومن شمس الظهيرة وقده
ومن حاز فى سن البلوغ فضائلا زمان اغتذى بالعى والجهل ضده

وأنت ترى أن شيخه يسجل هنا ما قد بلغ تلميذه من فضل وتقدم وما جاوز سن البلوغ . وكما أخذ اللسان العربى عن أبى حيان كذلك قرأ القرآن على الشيخ التقى الصايغ ، وبذلك توفرت له الأسباب التى مكنته من إتقان علومه وإحكام ثقافته ، فلم يبلغ العشرين إلا وهو عالم يشار إليه بالبنان ، وأستاذ معدود فى المحققين حتى ذكر فى ترجمته أنه أفتى ودرّس وله عشرون سنة وولى وظائف أبيه بالقاهرة وله إحدى وعشرون سنة لمـا تحول والده إلى قضاء الشام . وفى نبوغه وفضله يقول ابن حبيب : إمام علم زاخر اليم مقرون بالوفاء الجم ، وفضله مبذول لمن قصد وأم . وقلم كم باب عدل فتح ، وكم شمل معروف منح . ولا يحدثك مثل أبيه عن تفوقه وسعة علمه وهو فى شهادته له شاهد عدل وحكم فصل ، لأنه يفضله على نفسه ، فالمحاباة إذاً مستبعدة والحيف مأمون . ذكروا أن أباه قد حضر درسه فحمده وقال فيه:

دروس أحمد خير من دروس على وذاك عنـــد على غاية الأمل

وعلى هو أبوه شيخ الإسلام الجليل .

وقد شهد له أبوه بالبراعة والسبق كرة أخرى لعلها أثبت وأقوى : ذكروا أنه أرسل من مصر بحثاً يتعلق بالعربية إلى والده حين كان بالشام فأجابه عنه ، فرد جواب أبيه بكراسة ، فلما وقف أبوه عليها كتب إليه كتابا صدره بقوله : وقفت على جوابك أيها الولد الذى هو أعظم من الوالد ، : ومما يؤيد ثناء أبيه عليه وتقريظه له كثرة المناصب العلمية العالية التى تولاها وتقلب فيها ، فقد نهض فوق ولايته لوظائف أبيه المذكورة آنفاً بتدريس مذهب الشافعى بالمشهد الشافعى وبجامع الحاكم والشيخونية أول مابنيت ، كما ولى قضاء الشام سنة نيابة عن أخيه ليحفظها له

ثم عهد إليه بقضاء مدينة العسكر والإفتاء بدار العدل والخطابة بالجامع الطولونى . وقد عرف شيخنا أبو حامد أن العلم أحد شتيين يتألف منهما السلوك الكامل ، وأنه لابد للعلم أن يستتم وجوده ويستكمل جماله بالخلق الفاضل ، لذلك جمل هذا الإمام الكريم علمه بالتقوى والورع والدين . قال مترجموه : كان كثير القراءة والعبادة ، معروفاً ، بالتقوى وزان نبوغه بالورع والوفاء الجم ، كثير الحج والمجاورة لبيت الله . ومما يشهد بقوة خلقه مارووا عنه حين ولى الخطابة بالجامع الطولونى ، أنه كان شديداً فى وعظه حتى غضب من شدته بعض الأمراء ، فأمر أن يستتيب عنه من يخطب بحضوره ، فكان لا يخطب إلا إذا غاب ذلك الأمير .

أما ما بقى لنا من غزير علمه وبارع أدبه وفائق تأليفه فيتمثل فى كتابين قيمين أحدهما شرح مطول على مختصر ابن الحاجب يعنى به الأصوليون ويتدارسه العالمون ، والآخر «عروس الأفراح» كتاب البلاغة النفيس الذى ما برح علماء البلاغة منذ تأليفه اليه يرجعون وعليه يعلقون ومنه يقتبسون . ولعلك تذكر هنا ما أسلفنا عليك فى صدر هذه الترجمة من صحبة أبى حامد لشيخه أبى حيان وتوثق العلاقة بينهما حتى نظم الشعر فى مدح أستاذه ونظم شيخه الشعر فى الثناء عليه والاعجاب به فقد كان لهذه الصحبة أثرها القوى المثمر فى إتقان شيخنا أبى حامد للغة العربية وعلومها ونبوغه فى ذلك .

وقد تحدث المترجمون فذكروا أنه كان فائق النظم فى الشعر رائق العبارة فى التأليف والمحاضرة ، وقد عرفت أن أباه حين قرأ بحثه المتعلق بالعربية كتب اليه معترفا بتفوقه عليه وسبقه له فى ذلك ، فمن حقنا إذاً أن نقرر أن العلوم التى كان أبو حامد أشد تبريزاً فيها وأبعد صيتاً هى اللغة العربية وعلومها ، وبذلك يشهد عروس الأفراح وهو شرح ممتع لتلخيص المفتاح دل به على سعة اطلاعه وغوصه فى العلوم العربية ، ولولا ما فيه من استطراد ممل وحشوه بمسائل خارجة من الفن لكان خير شروح التلخيص لنصاعة عبارته وسهولة أساليبه وذوقه الأدبى . وحسبه هذا الكتاب أثراً باقياً ونفعاً جارياً يضاعف حسناته ويستمطر على مثواه رضوان الله ورحماته ويذكر الدارسين بفضله ويدعوهم إلى اقتفاء أثره فى نفع المسلمين وخدمة العلم والمتعلمين .

الفقه السياسى عند المسلمين

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود فياض
أستاذ التاريخ بكلية أصول الدين

— ٢ —

تحدثت فى الكلمة السالفة عن بعض إنتاج المسلمين فى الفقه السياسى ، ورأينا التراث الضخم الذى خلفوه فى البحوث السياسية المستقلة عن علوم الفقه والأصول والكلام ، والآن نتحدث عن اتجاه هذه البحوث على وجه عام .

فى عصر العباسيين قامت حركة التأليف والترجمة والتدوين على قدم وساق ، وجميع ما خلفه المسلمون الأول ، يرجع تقريباً إلى هذا العصر ، أو إلى أصول وضعت فى هذا العصر ، وكان العباسيون يهتمون قبل كل شىء بتركيز دعائم ملكهم ، لهذا كانت حرية الرأى - على مبلغ احترامها وعظم مكانتها فى الإسلام - مستظلة إلى حد ما بلواء العباسيين ، وقد كان للعباسيين خصوم من العرب يمثلهم بنو أمية الذين استطاعوا ابتناء ملك واسع ومجد عريض فى الأندلس ، يماثل - إن لم يفق - ملك بنى عباس ومجدهم فى الشرق ، وخصوم من غير العرب يتزعمهم ويثيرهم أبناء عمومتهم العلويون ، وفى ظلال الحكم العباسى تنبهت القوميات الغافية ، وتحركت الأطماع فى نفوس كثيرين من أبناء الأمجاد الأول التى غلبها الإسلام ، ولهذا رأى العباسيون من حتمهم أن يشرفوا على توجيه البحوث ومراقبة « الإنتاج » الفكرى فى ملكهم ، ولعل هذا هو السر فى اتجاه البحوث السياسية فى كتب الأحكام السلطانية الاتجاه الواقعى ، بدليل أنها كانت استجابة لرغبة حاكم أو هدية إلى حاكم ، وبعبارة أخرى : إن كتب الأحكام السلطانية ، قصد بها تقرير الأوضاع التى تعورفت سياسيا بين المسلمين وتنزيلها على مبادىء الإسلام ، أو تنزيل مبادىء الإسلام عليها بتأويلها أو تلوينها بحيث لا تختلف مع العرف السياسى - تقريراً يتمشى مع وجهة نظر العباسيين وظروفهم الخاصة ، قد يكون هذا وقد يكون غيره أيضاً .

فعلماء الإسلام الأول وجدوا أنفسهم فى أمة حية تعيش فى دولة قائمة لها

دستورها وأحكامها وتعاليمها ، فى شتى نواحى الحياة : فى الدين ، والأخلاق ، والاقتصاد ، والاجتماع ، وأمور الحكم والقيادة ، فى كل شىء ، فلم يشغلوا أنفسهم ببحوث فرضية سياسية ، عن أصل الدولة ، وكيفية قيامها ، ومدى الارتباط بين سيادة الحاكم وحقوق المحكومين ، لأنهم وجدوا دولتهم قائمة بالفعل على أساس من القرآن والدعوة إلى مبادئه ، التى تجعل من الحاكم خادماً لا سيداً - وإن كانت له سيادة فعلية معترف بها - وعلى هذا لم يتحدث علماء الإسلام الأولون عن أصل الدولة ، وهل هو « زعامة العائلة » اعتماداً على طبيعة الإنسان الاجتماعية ، أو هو « الزعامة الدينية » التى قام عليها ملك بنى إسرائيل القديم ، لأن ملوكهم فى نظرهم خلفاء لأنبيائهم ، أو هو « حق ملكى مقدس » بمعنى أن الله اختار شخصاً وملكه على بقعة من أرضه ، وسلمه السلطة مباشرة فهو مسئول أمام الله وحده مباشرة لا أمام الشعب ، أو هو حق الفتح والغلبة ، يرتفع عن طريقه شخص أو عائلة إلى السيادة فى بقعة ما من الأرض ، أو هو نتيجة لخطيئة آدم الكبرى أوجدها الله لتكبيح جماح الأفراد ، وتحد من حرياتهم عقاباً لهم على هذه الخطيئة ، كما يرى ذلك آباء المسيحية الأول ؛ أم أن الأصل فيها هو قيام تعاقد بين الأفراد وحكامهم نتيجة لتصادم حريات الأفراد الأحرار المتساويين من كل وجه ؟ واتفاقهم على الخروج من حالة الطبيعة إلى حالة جديدة يتنازل فيها كل منهم عن شىء من حقوقه وحرياته فكانت الدولة ، وهل هذا التعاقد يقيم ملكية مطلقة مستبدة ، أو ملكية دستورية مقيدة ، أو يعطى للشعب السيادة المطلقة على حكامه ؟ كل هذا لم يشغل المسلمون أنفسهم به فى العصر الأول لتدوين الفكر الإسلامى ، لأن البحث عن حالة ما قبل الدولة يقوم على أسس خيالية يفترضها الباحثون لتبرير نظرية خاصة ، وليس بحثاً يقوم على حقائق علمية معترف بها عند العلماء ، وهذا النوع من البحث الفرضى ، إن جاز فى بيئة علمية لا يحكمها دستور قائم ، فإنه لا محل له ، أو هو مضيعة للوقت فى بيئة علمية يحكمها دستور قائم « القرآن والسنة » تناول كل شئون الحياة الإنسانية ، وحدد للأفراد وللحكام الحقوق والواجبات ، بما لا يدع مجالا لطغيان هؤلاء أو أولئك - عند العقلاء - وما كان لهم أن يفترضوا فروضاً ، وعندهم حقائق مقررة تصرفهم عن مثل هذه الفروض ، ومن هذه الحقائق الثابتة عندهم : الملك لله الواحد القهار ، الحكم لله أحكم الحاكمين ،

والأرض لله خالقها وخالق الكون ، والله هو المشرع وعلى هدى تشريعه قامت دولة المسلمين . وإذن فليتجه البحث إلى التشريع الذى أقام الدولة ، لا إلى حالة فطرية سبقت تحضُّر الإنسان ، وهو لا يعلم بالضبط متى تحضّر ! !

ولكن لا بد لنا من الحديث عن أصل الدولة فى نظر الإسلام ، ولدينا من النصوص الصحيحة ما يساعدنا على تجلية وجهة نظر الإسلام فى أصل الدولة ، ونحن نحاول قدر طاقتنا بيان ذلك فيما يلى :

أولا — الإسلام (القرآن) دستور عام خالد لا يتبدل ولا يتغير ، وهو هداية ربانية إلى أمثل منهج يحقق للإنسان السعادة فى الدنيا والآخرة ، فى شئون الدين والعبادة ، وفى تدبير مصالحه الدنيوية « ان هذا القرآن يهدى للتى هو أقوم » فهو يهدى الإنسان إلى المنهج الذى اختاره الخالق سبحانه لعبادته ، ويهديه إلى خير الوسائل التى تضمن له الحصول على ما قرره الله له من حقوق ، والقيام بما ألزمه به من تكاليف ، ومقررات القرآن الكريم ، وتوضيحات السنة الصحيحة لمبادئه ، مقررات ثابتة لا يجوز العدول عنها لهوى النفس ، وتبدل الأوضاع .

ثانياً — حرض الإسلام العقل على التحرر من قيود الجمود التى فرضتها الوراثة عن الجدود ، وكان تحريضه بالغاً عند ما فرض له تعدد الآلهة ، ورتب ما رتب على التعدد من فساد ، فتحرر العقل وتوصل مقتنعا إلى ما دعا الإسلام إليه من وحدانية الخالق وتفرده وحده بالخلق والإيجاد ، فاستبان للناس ـ أن الخالق واحد وهو المالك لكل ما خلق ، فالكون ملك لله ، والناس عبيد لله ، سواء فى ذلك آحاد الآدميين وخاصة الرسل والأنبياء، وبهذا المبدأ السامى ألغى الشرك فى العبادة (الشرك الدينى) وألغيت الفروق بين الناس (الشرك الاجتماعى) ، فكما أنه ليس من العقل عبادة غير الله مما خلق ، فليس كذلك من العقل التفرقة بين الناس الأحرار المتساويين فى الخلق والعبودية للخالق ، بدافع من جنس أو لون ، أو بدافع من حسب ونسب ، أو غنى وفقر ، فكل هذه الفروق لا اعتبار لها عند وزن القيم ، وفى ذلك يقول الله سبحانه : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة » ويقول الرسول الكريم (الناس سواسية كأسنان المشط لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، الناس لآدم وآدم من تراب)

وقد جعل الإسلام مقياس الفضل والكرامة ، هو حسن العمل ومقدار النفع الذى يقدمه الشخص للإسلام والمسلمين « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » فأفضل الناس أبعدهم عن الشرك وأنفعهم للناس ، وأشقى الناس من شقى به الناس ، « من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة » حرية تامة ، ومساواة مطلقة ، لا يقيدهما إلا صالح الإسلام والمسلمين ، والناس فى ذلك سواء ، ليس لأحد أن يبتغى عزة أو سيادة على أخيه ، فإنه من كان يريد العزة ، فلله العزة ولرسوله وللمؤمنين ، ومن ابتغى وراء ذلك فهم العادون . فالله سبحانه هو السيد وخلقه هم عبيده ونسبتهم إليه واحدة ، يعيشون فى ملكه الذى خلقه لهم ، وسخر لهم ما فيه .

ثالثاً — المجتمع المسلم . هو مجتمع يقوم على مبادىء الإسلام ، ويرتبط أفراده بجملة روابط قوية ، تتحكم فى قوته ، وتوجهه إلى الهدف المنشود . يربط بين أفراده اعترافهم بالسيادة المطلقة لله رب العالمين ، لأنه الصانع الذى يملك ما صنع ، وتربط بينهم أخوة إنسانية عامة : لأنهم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتربط بينهم أخوة فى الإيمان بالإسلام ، عقدها الله بينهم لتكون منهاجا لتحقيق الأخوة الإنسانية العامة فى محيطها الواسع ، إذا رغبت الإنسانية فى سعادتها بالإسلام ، وتربط بينهم وحدة الهدف ، وهو نشر الإسلام ، للبلوغ بالانسانية كلها ، إلى الكمال والسعادة والسلام ، وتربط بينهم وحدة التكاليف لبلوغ الهدف ، فلا اختيار ولا امتياز لأحد فى التكاليف الربانية ، يستوى فى ذلك المسلم الأول صلوات الله وسلامه عليه وأصغر المسلمين شأنا ، ويربط بينهم . مسئولية عامة مشتركة عن سلامة الدين وسلامة الفرد والجماعة ، وتوفير كل مستطاع من وسائل الحياة الحرة الكريمة للفرد والجماعة .

رابعاً — هذا المجتمع الذى يقوم نتيجة لمبادىء الإسلام ، ويرتبط أفراده بهذه الروابط ، هو مجتمع يقوم فى أرض الله ، ومجموعة أفراده (الأمة) مخاطبة رأساً بتكاليف الله (يا أيها الناس) ، (يا أيها الذين آمنوا) ، (افعلوا الخير) ، (واعبدوا الله ولا تشركوا) ، وخطاب الله للأمة شمل جميع التكاليف الفردية كالصلاة والزكاة والصوم ، والجماعية كالحكم ولوازمه من إقامة العدل وتنفيذ الحدود « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » ، « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ، والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة . . » الخ . وهذه المجموعة قد استخلفها الله فى أرضه لعمارتها واقامة أحكامه المكلفة بها ، فكل

ما تملكه فهو ملك لله ، « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، « وكلوا من رزقه » ،

وهذه الأمة المخاطبة المكلفة المسئولة ، هى الأمة الإسلامية ، فإن عاشت كلها تحت لواء واحد ، وحكم واحد ، وخضعت لمقدرات واحدة ، فى الأرض المحدودة التى تعيش فيها شعوبها ، والتى لا يسيطر عليها غير أبنائها ، ولا تخضع سيادتها لسيادة غيرها ـ كما كان الحال فى عصور الخلافة الإسلامية مثلا ـ إن كانت كذلك قامت الدولة الإسلامية . التى تظل الأمة الإسلامية ، وإن عاشت شعوبها مستقلة كل شعب فى أرضه ، يحكمه حاكم خاص ، غير حكام بقية شعوبها ، قامت فى أرض كل شعب دولة مسلمة ـ كما هو الحال اليوم ـ تتميز بكل مميزات الدولة ، ولكن هذا الاستقلال والامتياز يجب ألا يخرجها عن أن تكون حلقة قوية فى سلسلة الدولة الإسلامية الكبرى « كالبنيان يشد بعضه بعضا »

خامساً ــ كل دولة لها سيادة عامة على بنيها وأرضها وكل مقدراتها لا تخضع لسيادة دولة أخرى فى شىء من ذلك . والدولة الإسلامية ، لها شخصية معنوية ، هى مناط التكليف والمسئولية . وهى التى رد الله إليها العزة والسيادة فى أرضه التى تعيش فيها ، بعد الله ، والرسول الذى أبلغ إليها شرع الله ، ووكل الله إليه تنفيذ أوامره والإشراف على مقتضيات سيادته ، إماماً ، وقاضياً ، وقائداً ، وحاكماً عاماً للمؤمنين ، « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » ، « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ، ولا تكن للخائنين خصيما » . فالأمة لها على نفسها ـ بعد الله والرسول ـ السيادة المطلقة نيابةعن الله ، لا ينازعها فيها منازع . لها كلها كمجموعة ـ لا لفرد من أفرادها ، ومن حق هذه الأمة المكلفة المسئولة ، أن تختار من يباشر سلطتها نيابة عنها ـ فرداً أو جماعة ـ لأنها مجتمعة لا تستطيع مباشرة تكاليفها ، وهذا الاختيار من الأمة يقوم على الرضا ، وتوخى المصلحة العامة ، لا بقهر ولا جبر ، ولا خديعة ، ومن تختاره الأمة لقيادتها يخضع لرقابتها ، وليس له شىء من السيادة عليها ، لأنه وكيل يخضع لما يخضع له الوكيل فى سائر العقود ، من رقابة الأصيل الذى يحدد له تصرفاته ، ومن هنا جاء الشبه بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، فهناك حقيقة تعاقد بين الأمة ، ومن تختاره لقيادتها يتمثل فى البيعة على كتاب الله وسنة رسوله وصالح المؤمنين ، وتعهده هو بالعمل على ذلك ، ولكن شتان بين التعاقد فى نظريات غير المسلمين ، والتعاقد عند

المسلمين ، فالأول تعاقد يقوم على تنازل الأفراد عن شيء من حقوقهم لمن يختارونه وسلطانهم عليه بعد ذلك منعدم أو محدود ، أما تعاقد المسلمين ، فهو مجرد توكيل للحاكم يباشر بمقتضاه . وفق شروط خاصة ، سلطات الأمة . ويخضع فى جميع أموره لسلطان الأمة ورقابتها ، وليس له عليها سوى حق الطاعة إذا التزم الشروط التى تعاقدوا عليها معه ، وسنتحدث عن ذلك فيما بعد بشيء من التفصيل .

سادساً : الدولة التى تقوم وفق ما ذكرنا من القواعد السابقة هى : دولة الله ! ! بمعنى أن الله هو خالقها ومالكها والمشرع لها ، وصاحب السيادة المطلقة عليها ، لا ينازعه فى ذلك منازع مما خلق ، وأن الأصل فيها ، هو تكليف الله للأمة ، ومسئوليتها عن صالح الدين والأفراد أمامه سبحانه ، وإنابة الله للأمة عنه سبحانه ، فى مباشرة السيادة عليها ومقتضيات هذه السيادة ؛ ونحب أن نشير هنا إلى أن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم ، قد حرص تمام الحرص على أن يجلى هذا المعنى لأتباعه وخصومه على السواء ، حتى فى أيام المحنة الكبرى ، عند ما ثار كثير من القبائل على سلطانه ودينه ، وتنبأ كثير من الناس بدافع العصبية والحسد للرسول ولقريش فقد كتب مسيلمة الكذاب إلى الرسول الصادق عليه السلام ـ يقول : إن الله قد أشركنى معك ، فلنا نصف الأرض ولقريش نصفها . ولكن قريشاً قوم لا يعدلون يريد مسيلمة ـ وقد ظن الرسالة ملكا أو تهدى إلى الملك ـ أن يقتسم الملك والسلطان مع الرسول القرشى فى وقت تألبت عليه فيه قبائل كثيرة فى اليمن وفى نجد وفى اليمامة وفى بنى حنيفة وغيرهم ، وقدر أن الرسول فى محنته هذه ، لابد أن يجيبه ، ولو أن شيئاً من ذلك كان جائزاً فى نظر الرسول عليه السلام لأجابه وحل الأزمة ، وأراح الإسلام والمسلمين من شرور كثيرة متوقعة ، ولكنه عليه الصلاة والسلام رد عليه يقول : بعد الحمد لله والثناء عليه وإظهار كذب مسيلمة : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » وقد قال عليه السلام لواحد من أتباعه قد تلجلج أمامه فى الكلام « هون عليك فلست بملك فأستعبدكم ، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد بمكة » ، وهذا هو معنى قول الله سبحانه وتعالى للرسول : « لست عليهم بمسيطر » .

وفى الكلمة التالية إن شاء الله نناقش نظرية الإسلام معارضة بنظريات غير المسلمين ، والله يوفقنا إلى الحق ويهدينا سواء السبيل .

على هامش المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود جمعة
المدرس بكلية اللغة العربية

دخل المدينة أول نفر قبلوا الدعوة ، وأذعنوا للحق ، وبايعوا على النصرة والحماية والمتابعة ، وكانوا ستة من الخزرج هم : أبو أمامة أسعد بن زرارة ، وعوف ابن الحارث ، ورافع بن مالك ، وقطبة بن عامر ، وعقبة بن عامر ، وجابر بن عبد الله « رضى الله عنهم أجمعين » بعد أن سبقتهم إليها أخبار تطايرت من مكة ، وأوصاف تناقلها الوافدون ، وحكاها المعجبون ، أمثال « إياس بن معاذ » وأضرابه ممن صدوا عن قبولها وانتهروا فى سبيلها .

واستقبل السابقون الأولون من الأنصار بالفرح والقبول ، واتسع لهم من نفوس القوم ما جعلهم يجهرون بالدعوة وينادون بالإيمان ، ففشا الإسلام فى ربوع المدينة ، ودخل الإيمان إلى بيوتها ، حتى لم تبق دار إلا عمرت بالتوحيد ، وآمنت برسول الله .

واتجهت الأنظار نحو مكة ، واشتاقت كثرة من الأنصار لمشاهدة الداعى ، ومبايعة القائم على أمر الله ، وطلبوا لقاءه ليروا بأبصارهم ما أعجبهم الحديث فيه ، والسماع عنه .

وترقبوا الموسم القابل إلى أن حان حينه ، وحل أوانه فتهيأ للرحلة منهم عدد شاركت النساء فيه الرجال ، وشدوا الرحال إلى مكة ، يطلبون الهدى والإيمان ، وما إن وصلوا حتى تلفتوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فلم يعوزهم طلبه ، ولم يُشقهم نشدانه ، وبعثوا عرفاءهم يتوسمون وجهه الكريم ، ويتعرفون عليه ، فالتقوا به جالساً بجوار عمه العباس فى بيت الله المحجوج ينظر إلى الكعبة رمز التوحيد ، وقبلة الموحدين ، فلما وقعت أبصارهم عليه ، سارعوا إليه ، فأخبروه خبرهم ، وأعلموه أن وراءهم من جاء راغباً فى دينه ، محباً فى لقائه ، فوعدهم العقبة ليلا .

وفرح الرسول صلوات الله عليه بهم فرحاً شديدا ، فقد أصاب قوماً يبحثون عن الحق ، ويرحلون فى طلب الهدى ، بعد أن أعياه التعب ، وأكده النصب فى عرض الحق على من تنكروا له ، ورفضوا الاعتراف به ،

* * *

ويروى أبو الزبير عن جابر وهو يصور صنيع الناس مع الرسول ، وصنيع الأنصار خاصة معه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس فى منازلهم فى الموسم ومجنة وعكاظ يقول : « من يؤمنِّى ، ومن يؤوينى ، ومن ينصرنى حتى أبلغ رسالات ربى فله الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يأويه ، حتى إن الرجل ليرحل من مضر أو اليمن إلى ذى رحمه فيأتيه قومه فيقولون له « احذر غلام قريش لا يفتنك » ويمشى بين رجالهم يدعوهم إلى الله وهم يشيرون إليه بالأصابع . حتى بعثنا الله من يثرب ، فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرؤه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه . حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام ، وبعثنا الله إليه فائتمرنا واجتمعنا ، وقلنا « حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد فى جبال مكة ويخاف ، فرحلنا حتى قدمنا عليه وواعدنا العقبة » .

* * *

والتفت العباس إلى النبى وقال له يا ابن أخى : ما هؤلاء القوم الذين جاءوك إنى ذو معرفة بأهل يثرب ، وهؤلاء أحداث لا أعرفهم ؟ ! فأعلمه خبرهم . وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العقبة ، وتسلل إليه ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان خفية من قومهم ومن كفار مكة ، واجتمعوا عليه من رجل ورجلين وصحب الرسول إذ ذاك عمه العباس وابن عمه على بن أبى طالب ـ على مايقوله بعض الرواة ـ وتقدم إليه الوافدون . وقالوا يا رسول الله « علام نبايعك » ؟ قال : « على السمع والطاعة فى النشاط والكسل ، وعلى النفقة فى العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وعلى أن تقوموا فى الله ، لا تأخذكم لومة لائم ، وعلى أن تنصرونى إذا قدمت عليكم ، وتمنعونى مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة » . فقام القوم يبايعونه ، وأخذ بيده أصغر السبعين

« أسعد بن زرارة » فقال : « رويداً يا أهل يثرب ، إنا لم نضرب إليه أكباد المطى إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ، وإن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم ، وأن تعضكم السيوف ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله ، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه ، فهو أعذر لكم عند الله » فقالوا يا سعد أمط عنا يدك ، فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقيلها ، فقمنا إليه رجلا رجلا مبايعين ، وقامت المرأتان وهما « نسيبة بنت كعب بن عمرو » و « أسماء بنت عمرو بن عدى » فبايعهما الرسول صلى الله عليه وسلم من غير مصافحة ـ جرياً على عادته من التجافى عن مصافحة النساء .

وصرخ الشيطان على العقبة ، وانفض القوم إلى رحالهم ، وتطاير الخبر إلى قريش . فقدمت جِلَّة من أشرافهم حتى دخلوا شِعب الأنصار فقالوا : « يا معشر الخزرج إنه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة ، وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا ، وأيم الله ما حى من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم ، فانبعث إليهم من المشركين ما نفى الخبر وكبر الخطب ، وعظم على نفسه أن يكون من الأنصار ذلك دون أن يأمروه أو يشاوروه ، وعد ذلك افتياتاً من قومه لو أنهم فعلوه .

* * *

ورجعت قريش وهى تعلم أن إيمان الأنصار حقيقة واقعة ، وأنه لابد من تعويقهم وصدهم حتى لا يكون لرسول الله فى الجزيرة أرض تُعِزُّه ولا نفوس تؤمن به يشع منها نور الله على أرجاء الأرض .

وتلاحقَ المسلمون ، وجدوا فى الرحيل عن مكة وتبعتهم قريش ، وأدركوا منهم سعد بن عبادة فربطوا يديه إلى عنقه وضربوه وجروه إلى مكة ولولا « المطعم ابن عدى » و « الحارث بن حرب » ـ وهما أهل النجدة والإنقاذ ـ ما برح مكة ولا لحق بأصحابه ، وأرسل الرسول معهم « ابن أم مكتوم » و « مصعب بن عمير » ليعلمان من أسلم القرآن ، وجمع بهم مصعب أول جمعة فى الإسلام .

عند ذلك شعر صلى الله عليه وسلم أن الدعوة الإسلامية التى ظلت طويلا تبحث عن وطن تأمنه وشعب تركن إليه قد أصابت طلبتها ووقعت على غرضها ، وأن المدينة أصبحت أولى بلاد العرب باحتضان الدعوة ، وحماية الدين .

وإذن صلى الله عليه وسلم لأصحابه المضطهدين أن يخرجوا إليها بدينهم ويفروا لها بإيمانهم فتجهزوا وحملوا الزرارى والأطفال والأموال إلى المدينة ، وأزعج ذلك قريشاً ، فإن الأوس والخزرج أهل شوكة وبأس ، ودارهم دار منعة وقوة .

وضجت قريش لهذا النبأ الجديد فطالما قدروا فيما بينهم أن أمر محمد هين ، وأن استخفافهم به كاف فى رده عن قصده ، ودفعه عن غايته .

وها هم أن يجد بجانبه من ينصر دعوته ، وينشر دينه ، ويأوى إليه ويؤازره . ثم هو قد أزمع على الرحيل ، وبدأ بترحيل أصحابه ، وهو إن لحق بهم قامت دولته وانتشر دينه ، وفوّت على أصحاب الرياسات الكاذبة أغراضهم وآمالهم . واجتمعوا فى ناديهم اجتماعا حضره أهل الرأى والحجا ، وعرضوا قضية محمد عرضاً جديداً . وبحثوا أمره على ضوء ما جد من حوادث ، وأدلى كل برأيه ، وصرفهم الشيطان عن كل رأى يبقى أنفاس محمد على الأرض . لذلك أعجبهم وأعجب شيطانهم رأى أبى جهل بقتله ، واشتراك القبائل فى ذلك اشتراكا يوزع دمه حتى تنوء عبد مناف بثأره وترضى بديته ، وخرجوا من ناديهم ، وقد أحكموا المؤامرة وعقدوا النية على التنفيذ .

وأعلم الله رسوله بما بيت القوم ، كما أعلمه بما يتخذه حيال صنيعهم ، فأمره أن يفر بدينه إلى المدينة . فإن مكة لم تتهيأ بعد لقبول الدعوة ، وقد أعذر محمد لقومه وعشيرته ، فقد لبث فيهم ثلاث عشرة سنة من عمر نبوته يدعوهم فيها إلى الحق والنور والسيادة والعزة والدنيا والآخرة ، ولكن صادفته قلوب عليها أقفالها ؛ ونفوس أوصدت عن قبول الحق ، وانصرفت عن الهدى إلى متابعة الشيطان ، وأى شىء يلزمه بالبقاء فيهم ، وفى الأرض سعة لقبول الهدى ونشر الدين .

وما كان محمد صلوات الله عليه ليفر من مكة ناجياً بنفسه مما أصابه ولا متخلصاً من آلام جسمية أو معنويه تعرّض لها ، فكل ذلك هين أمام عزيمة أولى العزم ، ولكن الباعث الذى دفعه إلى ترك أحب البلاد إليه هو حرصه على تبليغ رسالة ربه ، بعد أن ضاقت مكة ذرعا بالحق ، وأوشكت الدعوى أن يقضى عليها فى مهدها ، ولم يبق من عمر الرسالة سوى مدة قصيرة لا تكفى لنشر دين الله وبث تعاليمه وإصلاحاته . فكان لابد من الالتجاء إلى مكان تدوى فيه كلمة الحق ، وتعز فيه الدعوة ، وقد كانت « طيبة » أرجى أرض الله لنشر كلمة الله ونصرة دينه .

أبو العيناء الضرير

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النوادى

المفتش بالأزهر

هذه شخصية طريفة عظيمة ، قد أوتيت من سعة الذرع فى الثقافة والأخذ بأطراف العلوم والمعارف الشيء الكثير ، فأبو العيناء يشبه من هذه الناحية ابن جرير الطبرى ، إلا أنه قد غلبت عليه نواحى الأدب ورواية أخبار العرب ، وهو غير متحفظ من الهزل ولا المجون ، ولا متقيد بقيود التزمت الدينى ، كابن جرير الطبرى .

ولا بد للقارىء أن ينتقل بين الجد والهزل ، وأن يستجم نفسه بشيء من اللهو ليستعين به على الحق ، وأن يسوسها بطرائف الأدب ، لينأى بها عن العطب :

لا يصلح النفس إن كانت مدبرة إلا التنقل من حال إلى حال

وأبو العيناء من هاته النواحى أقرب شبهاً لصديقه الجاحظ ، فكل منهما من ظرفاء العالم وأحدّهم ذكاء ، وأبرعهم نكتة ، وأغزرهم ثقافة ، وأجولهم فى شعاب الأدب العربى ، وأكثرهم رواية للأخبار ، وأبلغهم أسلوباً ، إلا أن الجاحظ كان من المؤلفين ، وكان له فى التأليف آثاره الطيبة الخالدة فى شتى العلوم والمعارف على اختلاف ضروبها .

ولعل هذا الضرير لو استدام له بصره ، لاستطاع أن ينافس الجاحظ فى ناحية التأليف أيضاً ، ولكنه عمى فى سن الأربعين تقريباً ، على أنه كتب قبل تلك السن ، وجمع كثيراً من الأخبار والآثار ، ثم لم يطرد له ذلك ، وإذا كان الشيء بالشيء يذكر ، فإن زمن كل من الجاحظ وهذا الأديب يسبق زمن الطبرى بقليل ، والجاحظ أسبق الثلاثة فى الولادة وفى الوفاة [1] .

---

[١] ولد الجاحظ سنة ١٦٠ وتوفى سنة ٢٥٥ هـ . وولد أبو العيناء سنة ١٧١ وتوفى سنة ٢٨٣ ، وولد الطبرى سنة ٢٢٤ وتوفى سنة ٣١٠ هـ كما فى تاريخ ابن خلكان .

كانت ولادة أبي عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر ، الذى نريد الحديث عنه ، فى سنة ١٧١ هـ ووفاته فى سنة ٢٨٣ هـ بالأهواز ، وتذكر بعض الروايات أن ولادته كانت سنة ١٩١هـ ، مع الاتفاق على سنة وفاته ، فقد شهد العهد الذهبي العباسى ، وعاصر ثلاثة عشر من الخلفاء العباسيين ، أولهم هرون الرشيد ، وآخرهم المكتفى بالله ، واتصل بالخليفة المتوكل اتصالا ظاهراً ذا أثر بين فى حياته ، وله معه أخبار يمر بك بعضها إن شاء الله .

كان إذاً فى عصر يشجع العلم ، ويرفع شأن رجاله ، وهو من الذكاء على ما أشرت لك سابقاً . ونشأ فى البصرة وهى لا تزال مجمع الفقهاء والرواة والمحدثين وأئمة اللغة والأدب ، فكرع من حياض العلم بها ، وكتب عن خيرة رجالها من أئمة الحديث والأدب ، وله روايات لبعض أحاديث يذكرها الرواة ، على أنه لم يكن بالحجة ولا الموثق ، وممن سمع منهم وأخذ عنهم الأصمعى ، وأبو زيد ، وأبو عاصم النبيل وغيرهم من عمد الأدب وأخيار العرب ومن ملأوا الدنيا معرفة ، وسطرت أخبارهم فى كتب الأدب واللغة ، خالدة مثمرة فياضة ، فما ظنك بمن يأخذ عنهم شفاها ويروى عن عدد منهم ، وهو فى مثل ذكاء أبي العيناء وحرصه ، وقد ارتحل من بلده لذلك الغرض ، وقد كف بصره كما قلت لك بعد أن بلغ الأربعين . ثم ارتحل إلى بغداد معلماً يزكى ما أخذ ، ويلقن ما جمع ، ويملى على الناس الأخبار ، والأدب والشعر ، وعاد إلى البصرة فى آخر حياته فتوفى بها .



أما أصله فمن بنى حنيفة ، من سبى اليمامة فى أيام الخليفة المنصور ، فلما صار ياسر فى قيد المنصور أعتقه . وأما ما أصابه من العمى فيذكر الناس له حديثاً طريفاً يفيد أنه وراثى ، ويقول صاحب معجم الأدباء ، وصاحب زهر الآداب : إن ذلك كان بدعوة من على بن أبي طالب على جده الأكبر الذى كان يلقى علياً ، فأساء مخاطبته ، فدعا عليه بالعمى ، فهم يتوارثونه فكل أعمى فيهم صحيح النسب ، ويقول الخطيب : إن الدعوة كانت من عبد الله بن حسن العلوى على جده الأدنى (خلاد) .

ويروى ذلك عن أبي العيناء نفسه ، فخلاد كان جاسوساً من قبل المنصور على مناوئه عبد الله بن حسن ، فى صورة المشايع له ، وقد زوده المنصور بالأموال

يبذلها لعبد الله بن حسن ويتعاون معه فى الظاهر ، ولكنه يكتب إلى المنصور بأنفاسه ، وأحوال أبنائه وشيعته ، وكان عبد الله بن حسن راضياً عنه معجباً به ، فلما اتصلت به حقيقة خبره ، دعا بالعمى عليه وعلى نسله ، فهم يتوارثون ذلك . أما نحن فسواء عندنا أصح الخبر الأول أم الثانى ، أم لم يصح واحد منهما ، مادمنا قد علمنا أنه عمى بعد الأربعين . وأن ذلك العمى كان له أثره فى بعض ما كان له من صفات تبدو فى أخباره ، وتتمثل فى آثاره الحسن منها والسيء . فقد أفاد منها كثيراً فى إلهاب جذوة النشاط الفكرى ، وقوة الحافظة والذاكرة ، وصرفته عن بعض نواحى اللهو التى لا مأرب فيها لأمثاله إذ ذاك ؛ على أنه قد أساء إليه فيما كان يلم به من بعض الضغن والحسد على خلق الله ، مما يتجلى فى السب والطعن الذى ترامت أخباره إلى الخليفة المتوكل ، وقد حاول أن يحوله عنه فكان يحتج له ويدافع عنه فيقول فى بعض دفاعه :

« يا أمير المؤمنين قد مدح الله وذم ، فقال (نعم العبد إنه أواب) ، وقال (هماز مشاء بنميم)

وقال الشاعر :

إذا أنا بالمعروف لم أثن صادقا ولم أشتم النكس اللئيم المذمما
ففيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والفما »

وقد رفع عنه شيئاً من برقع الحياء ، فكان يواجه بالمكروه ما يبالى شيئاً .

روى صاحب زهر الآداب عنه قال : « كان عيسى بن فرخان يتيه علىّ فى ولايته الوزارة ، فلما صرف عنها رهبنى ، فلقينى فسلم على فأحفى فقلت لغلامى : من هذا ؟ قال : أبو موسى ، فدنوت منه وقلت :

« أعزك الله ، والله لقد كنت أقنع بإيمانك دون بيانك . وبلحظك دون لفظك ، فالحمد لله على ما آلت إليه حالك ، فلئن كانت أخطأت فيك النعمة ، لقد أصابت فيك النقمة . ولئن كانت الدنيا أبدت مقابحها بالإقبال عليك ، لقد أبدت محاسنها بالإدبار عنك ، ولله المنة إذ أغنانا عن الكذب عليك ، ونزهنا عن قول الزور فيك ، فقد والله أسأت حمل النعم ، وما شكرت حق المنعم » .

فهذه مواجهة من أسوأ المواجهات ، ومهاجمة من أنزل المهاجمات ، لا ينتصب لها إلا مثله وكفى بها دلالة على مقدار ما صنعت به علته ، على أن لها دلالتها على بلاغة الرجل وطول نفسه فى البيان .

وقد سأله القاضى العظيم ابن أبى دؤاد : ما أشد ما أصابك فى ذهاب بصرك ؟ فقال له : أمران ، يبدؤنى قوم بالسلام وكنت أحب أن أبدأهم ، وأنى ربما حدثت المعرض عنى وكنت أحب أن أعرف ذلك فأقطع عنه حديثى . فآساه القاضى بقوله : أما من ابتدأك بالسلام فقد كافأته بحسن النية ، وأما من أعرض عنك فما أكسب نفسه من سوء الأدب أكثر مما وصل إليك من سوء اجتماعه .

وفى أخباره ما يدل على أنه كان قبل العمى أحول . روى الخطيب بسنده إليه ، قال مدحنى أبو العاليه بقوله :

كتبت لابن قاسم مأثرات فهو للمجد صاحب وقرين
أحول العين والمودة زين لا احولال بها ولا تلوين
ليس للمرء شائناً حول العين ، إذا كان فعله لا يشين

فلما سمع محمد بن المرزبانى الأبيات قال : يا أبا عبد الله وكنت قبل أن يذهب بصرك أحول ! من حول إلى عمى ، من سقم إلى بلا وانظر ما أجابه به أبو العيناء لتعلم ما أوتيه من السلاطة وما منى به من قلة التحفظ ، وما أكسبته تلك العاهة من غيظ . قال أبو العيناء لابن المرزبانى : هذا أظرف خبر تصعد به الملائكة إلى السماء اليوم . أيما أصلح ؟ من السقم إلى البلاء ، أم حال العجوز أصلحها الله من الزنا إلى القيادة . لقد رمى أم صاحبه بأفحش ما ترمى به النساء . وسترى أن ذلك العمى قد فوّت عليه فرصة منادمة المتوكل ، وأوجب له عقدة نفسية واضطراباً .

* * *

فأما كنيته (أبو العيناء) ، فإنها ترجع إلى عهد اتصاله بأستاذه فى العربية أبى زيد بن أوس الأنصارى قبل أن يكف بصره وهو يطلب العلم بالبصرة ، ولعله كان أعين واسع العين إذ ذاك . فقد عاد إلى البصرة من بغداد فى آخر حياته ، وكان محبو العلم والأدب يصيرون إليه فى داره يسمعون كلامه ، ويكتبون عنه ، فسأله

سائل : يا أبا عبد الله كيف كنيت أبا العيناء : قال : قلت لأبى زيد كيف تصغّر عيناً ، قال عيينا ، يا أبا العيناء .

كانت البصرة كما رأيت مستراد أبى عبد الله ومذهبه ، ومسعاه فى جمع العلم وتحصيله ، وأنا أستظهر أنه تعلم ببلدته الأولى (الأهواز) ، شيئاً من مبادىء العلم كما هو الشأن فى بدء تعليم العلماء حين يقوم آباؤهم بشئونهم . وإن ما يذكر الأدباء والأخباريون حوله ، يدل على أنه التمس بالبصرة الحديث والأخبار ، وكان همه أن يجمع الشعر والأدب والرواية ، ويقول الخطيب فى بعض أخباره : أنه أتى أبا عبد الله الخريبى من علماء السنة بالبصرة فجرى بينهما ذلك الحديث :

الخريبى — ما جاء بك ؟ أبو العيناء — الحديث .

الخريبى — اذهب فاحفظ القرآن . أبو العيناء — قد حفظت القرآن .

الخريبى — إقرأ واتل عليهم نبأ نوح . قال أبو العيناء : فقرآن العشر حتى أنفدته .

الخريبى — اذهب الآن فتعلم الفرائض . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخريبى — أيما أقرب إليك ابن أخيك أو ابن عمك ؟

أبو العيناء — ابن أخى الخريبى — ولم ؟

أبو العيناء — لأن أخى من أبى وعمى من جدى .

الخريبى — إذهب الآن فتعلم العربية . أبو العيناء — قد تعلمتها .

الخريبى — لم قال عمر بن الخطاب يالَ الله يالِ المسلمين ، لم فتح تلك وكسر هذه ؟

أبو العيناء — فتح تلك اللام على الدعاء ، وكسر هذه على الاستغاثة والاستنصار .

الخريبى — لو حدثت أحداً حدثتك .

وأقام أبو عبد الله بالبصرة حتى عظم شأنه ، فأفاد العلم والمال والجاه والمنزلة .

وفى كلام بعض الشعراء ما يدل على أنه أفاد بالعمى بعض المادة والثراء قال أبو على البصير :

قد كنت خفت يد الزما ن عليك إذ عمى البصر
لم أدر أنك بالعمى تغنى ، ويفتقر البشر

وفى البصرة جرى عليه ما وصله بالقاضى ابن أبى دؤاد رحمه الله ، فازداد رفعة ونباهة ، بعد محنة كادت تعصف به ولكن الفضل يعرفه ذووه .

روى الخطيب بسنده إلى أبى العيناء قال : كنت فى أيام الواثق مقيما بالبصرة ، فكنت يوما فى سوق الوراقين بها ، إذ رأيت مناديا ينادى على مصحف مخلق الأداة ، فقلت له : ناد عليه بالبراءة مما فيه ، وأنا أعنى به أداته ، فأقبل المنادى ينادى بالبراءة مما فى المصحف ، فاجتمع أهل السوق والمارة على المنادى ، وقالوا ياعدو الله تنادى على المصحف بالبراءة مما فيه وأوقعوا به . فقال لهم ذلك الرجل أمرنى فتركوه وأقبلوا إلى ، وتجمعوا علىّ ، ورفعونى إلى الوالى ، وعملوا لى محضراً ، وكتبوا إلى السلطان ، فحول أمرى إلى القاضى ابن أبى دؤاد فتكفل بالفحص عنه .

وتتابعت الكتابة فى شأنى فقلت لابن أبى دؤاد : قد كثر تجمع هؤلاء الهمج على وهم كثير ، فقال ـ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

فقلت : قد بالغوا فى التشنيع علىّ ، فقال : لا يحيق المكر السيىء إلا بأهله .

فقلت : إنى على غاية الخوف من شرهم ، ولن يخرج أمرى من يدك .

فقال : لاتحزن إن الله معنا ـ فقلت : القاضى أعزه الله كما قال الصموت الكلابى .

لله درك أى جنــة خائف ومتاع دنيـا أنت للحدثان
متخمط يطأ الرجال بنعـله وطء العتيق دوارج القردان [1]
ويكبهم حتى كأن رؤوسهم مأمومة تنحط للغربان
ويفرج الباب الشديد رتاجه حتى يصير كأنه بابان

فقال القاضى ـ يا غلام : الدواة والقرطاس ـ أكتب الأبيات .

ولم يزل يتلطف فى أمره حتى أخرجه . . . وقد طال بنا القول فحال دون أن نمتع القارىء بقصته الطريفة مع الغلام الذى أخرجه من البصرة ، ولا أن نتحفه بشىء من أدبه فى النثر والشعر ، غير ما مضت مناسبته ولا بشىء من نكته وملحه وأجوبته المسكتة ، فالى العدد التالى إن شاء الله .

---

(١) البيت كناية عن سطوته حتى إنه لا يبالى بالرجال كما لا يبالى الفحل إذ وطىء القردان

الإيمان بالله

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على ابو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

القرآن الكريم ، حينما يلفت أنظارنا إلى ملكوت السماوات والأرض ، ويدعونا إلى النظر فيه ، والتأمل فى صنع ، الله الذى خلق كل شىء ، لا يقصد بذلك كله أن نمتّع الخاطر بدقة نظامه ، وبديع هندسته ، وروائع تصديفه ، وغريب تسخيره ، الذى أذهل العقول ، وأدهش الأفكار ، وحير الأفئدة ، وهال البصائر ، فإن ذلك أبعد ما يكون عن قصده سبحانه ، لأنه غنى عن العالمين .

ولكنه لما خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، كرّمه عن الذلة ، ورفعه عن المهانة ، وسما به عن الضعة ، وباعد بينه وبين الإسفاف ، فجعل له العزة دون المخلوقات ، ولا يتم له ذلك على وجهه الصحيح ، ما لم يعمر قلبه بالإيمان بالله الذى خلق الماء والهواء ، وتحكم فى الوجود والفناء ، وقضى بالصحة والمرض ، والغنى والفقر ، ووزع الحظوظ والأرزاق ، ومن الغريب أن العبد إذا ما خضع للعبد ، ذهب ماء وجهه ، وضاع الكثير من آدميته ، وفقد مهابته واحترامه ، وصار أشبه بالدابة الذلول ، التى يستخدمها المستخدمون فى قطع المسافات ، ونقل المتاع ، وجرّ العربة ، وشق الأرض ، وسقى الزرع .

وعلى العكس من ذلك ، إذا ما ترامى على عتبات سيد الوجود ، وتفانى فى ذات المعبود ، وبالغ فى الزلفى من رب الأرباب ، ومسبّب الأسباب . والسر فى ذلك أنه جل جلاله لا يُعيّر عبده بهذا الخضوع ، ولا يزيده ذلك جبروتا ولا عظمة ، فقد تناهى مجده ، وامتد سلطانه ، وانبسط فى الملكوت كله جاهه ، فلم يعد بحاجة إلى طاعة الطائعين ؛ على أن ذلة المكلفين له ، أو نزولهم على إرادته ، وانقيادهم لأمره ، هو أصل الفطرة ، واستجابة الغريزة ، وتجاوب الطبع ، وحكم العادة . ولذلك يستشعر المسلم منه الكرامة والإباء ، والترفع والتعالى ، والتطاول والكبرياء والزهو والخيلاء .

وكلما أحس بدنوه من الله ، كلما أحس بأنه يحلق فى الدنيا ، ويشرف على البسيطة من علياء لا يتطلع اليها النظر ، ولا يصل إلى آفاقها الوهم ؛ وربما كان هذا هو السبب فى أن المرء حينما يدرك هذا الشأو ، وينتهى إلى تلك الغاية ، يحتقر الحياة والأحياء ،

ويزهد فيما يحتويه ذلك الكون الخادع الخلاب . وهذا هو العلّة في أن الله لا يغفر أن يُشرَك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، لأن الإشراك يتنافى مع الإيمان بالإله الحق ، والخالق المبدع ، والفرد الصمد . وإلى هنا نستطيع أن نفهم ثورة أسلافنا العلماء على المسَّلطين من أرباب الحكم والجاه ، والبطش والظلم ، والعسف والطغيان ، ونعلم تأويل قول « الجبائى » : ما فى الجبة إلا الله . . .

ولقد كان هذا هو الهدف الذى وقف النبى صلى الله عليه وسلم له سبحه فى بادىء الأمر بمكة زهاء عشر سنوات ، يحتمل من قومه من الأذى ، ويلاقى من الهوان ، ويتكبد من الشدائد ، ما لا يصبر عليه إلا الصناديد ، ولا يصمد له إلا الأبطال .

وجاء فى الكتاب العزيز الأمر به فى مواضع متنوعة ، ومواطن متعددة ، وأجمع العلماء على أنه الدعامة التى عليها تستند العقيدة ، أو يتركز الإسلام . وعلى الرغم من أن الدين المعاملة ـ كما يقولون ـ وإن الناس إنما يهتمون بما يتبادلونه من منافع ، وما يتناوبونه من معونة ، وما يبذلونه من بر ومعروف ، فإن الله لا يقيم لذلك وزنا ، إلا إذا كان قائما على الإيمان به « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً » ؛ والكفار مهما كان سلوكهم الطيب ، وخلقهم الحميد ، ويدهم على الإنسانية ، وأثرهم على الإصلاح والعمران ، لا يتقبل منهم صنعاً ، ولا يجزيهم على المعروف معروفاً ، ولا يخفف عنهم شيئاً من عذاب جهنم : « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار » . ولأن هذا الإيمان محله القلب ، فقد طلب منا أن نطهره بالصوم ، ونقويه بالصبر ، وكانت من سننه تعالى المحن يبتلى بها الأخيار من عباده ، لا ليعلم منهم ما لم يكن يعلم من الجلد للنوازل ، والرضا بما يقضى عليهم ، ولكن ليراقبوا ضمائرهم ، ويهيمنوا على هواجسهم ، ويتحكموا فى دخائل نفوسهم ، ويتصرفوا فى شؤونهم بالعقل لا بالهدى ، وبالتفكير والرأى ، لا بالنزق والطيش ، ونحن معرضون دائماً أبداً للسهو والغفلة والترك والنسيان .

وجاء الحديث الشريف فى أكثر من مناسبة ينوّه بشأن القلب ومكانته بين الجوارح : « إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، ألا وهى القلب » . « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » .

وكان من السنة وضع اليدين على القلب فى الصلاة إيقاظا له فلا يغفل ،

وحرصا عليه من أن ينصرف عن هذا الاتجاه الذى يتجه إليه المصلى بهذا الموقف الذى يقفه . ! ! ويرى بعض الباحثين أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ، لأنه من الاعتباريات التى لا وجود لها حتى يتوجه إليها النقصان والزيادة ، وليس يدخل فى مفهومه ، الذى هو إذعان القلب وانقياده ، زيادة أو نقص .

وإذا كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول فى أبى بكر رضى الله عنه : إنه لو وزن إيمانه بإيمان هذه الأمة لرجح ، فإنه يؤول بما يصرف اللفظ عن الظاهر ، على أن الزيادة والنقصان من الأمور المعنوية التى يدركها الإنسان بآثارها ، ويعرفها بمقدار بواعثها « فإن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مئتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا » .

والإيمان بالله هو الذى حمل الصدر الأول أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، وأن يبذلوا نفوسهم وأموالهم فى سبيله ، عن طيب خاطر ، وهدوء بال ، واطمئنان ضمير ، وكانت لهم العزة والمهابة ، والمجد والجاه ، والبأس والسلطان .

والإيمان بالله - إلى جانب كونه يربط المرء بربه - يباعد بين صاحبه وبين بعض الصفات الخلقية المرذولة ، كالنفاق والملق ، والتواضع الممقوت ، والكذب البغيض ، ومن هذه يدب الفساد ، وتشيع الفوضى ، وتتأصل فى المجتمع جراثيم من الشرور لا عداد لها ، ولا تخلص منها ، اللهم إلا الإقلاع عن هذا الصغار من السلوك ، وهذا التدلى فى الأدب ، وهذا الخلط فى المعاملة .

والذى يدرس البيئات المنحطة فى طباعها ، الواهية فى عاداتها ، المريضة فى أخلاقها ، لا يجد إلا أنها متحللة من صفة « الإيمان بالله » ، متفككة من هذا الرباط المقدس ، وعلى قدر ما تكون الأفراد أو الجماعات آخذة به ، عامرة قلوبها منه ، تكون قوتها المادية والمعنوية ، وقصة الرجل صاحب الدين على بعض العرب من قريش ، الذى حضر من البادية ليتقاضاه ، وكان يتلمس إنساناً ذا جاه يستعين بجاهه على قضائه من المدين ، وقد دلوه على النبى صلى الله عليه وسلم - استهزاء به ، وسخرية منه - فلم يسعه إلا أن يذهب معه إلى المدين يطالبه ، صورة من هذا الإيمان فإن الرجل المماطل لم يكد يرى وجهه المشرق ، وجبينه المضىء ، وطلعته الراهبة ، حتى اضطرب ، وأخذته رعدة من الخوف ، وبادر إلى المال يسلمه لصاحبه شاكراً له الصنيع الطيب ، والفعال الكريم .

فاللهم ارزقنا هذا الخلق فلا نؤمن إلا بك ، ولا نذل إلا لك ، ولا نرجو سواك ، ولا نخاف غيرك ، إنك أنت الخالق الرازق ، الضار النافع ، والناس كلهم عيال عليك !

من أهداف الاستغفار في الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر الشريف

هناك جانب من تعاليم الدين الحنيف لا يسهل على الفرد العادى أن يعرف حكمته بالنظر العاجل أو الهوى المائل ، بل لابد من التأنى والتحرى ، ومعرفة مداخل العلل والأسباب ، ودراسة منابع الحِكَم والثمرات ، وهنا يسهل عليه أن يحكم حكما صائباً ، وأن يدرك ما انطوت عليه هذه التعاليم من أسرار وثمار ؛ « ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » ، « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » .

يمر بالخاطر مثلا موضوع الاستغفار فى الإسلام ، فنرى عجباً ، ويبدو ما يستوجب النظر ويثير الفكر ، إن آيات الاستغفار ، وأحاديث الحض على التوبة ، كثيرة كثرة تستلفت البصيرة والبصر ، فالقرآن الكريم ، وهو هدى العلى الحكيم ، لا يكتفى بإباحة الاستغفار ، بل يطالب به ويحرض عليه فيقول : « واستغفروا الله إن الله غفور رحيم » ، ويأتى بعض الأحاديث النبوية الشريفة ، فيستفيض فى توسيع الباب قائلا : لو لم تذنبوا وتستغفروا لذهب الله بكم ، وأتى بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم ! .. ويعود القرآن المجيد فيذكر العباد : بأن الله هو البر الرحيم ، والرؤوف الكريم ، الذى يجب أن نقصده لغفران الذنوب مهما كانت كبائر ، وأن نلجأ إليه فى الأزمات مهما كانت شدائد ، فيقول : « ومن يغفر الذنوب إلا الله » ؟ .. ثم يصل الخاطئين بأسباب الرجاء والطمع ، مهما كان مقدار بعدهم عن رحاب الاستقامة فيقول : « إن الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء » ، ثم يعمم المغفرة والقبول لكل من تاب وأناب ، مهما سلف منه ، فيقول : « قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ، إن الله يغفر الذنوب جميعا ، إنه هو الغفور الرحيم » .. ويفسر هذا رسول الله عليه صلوات الله فيقول : « والذى نفسى بيده لو أخطأتم ، حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ، ثم استغفرتم لغفر الله لكم » .. إلى غير ذلك من عشرات الآيات والأحاديث التى تشرق بأضواء الأمل فى التوبة والغفران ! .

قد يضل ضال فى فهم هذه النصوص المقدسة ، فيخيل إليه أن الباب مفتوح له بترحيب وبلا نظام ، مهما فسق واستعصى على أمر ربه ، فيقال له : كلا ، ليس الأمر كما حسبت ، وليست المسألة مسألة كلمات ترددها الشفاه ، بلا ندم على ماسبق وبلا ارتداع عما يسوء ، وبلا عزم أكيد على الاستقامة ، وبلا إصلاح لما يمكن إصلاحه من فتوق ، فإن رب المغفرة والمتاب ، هو أيضاً رب المعاقبة والحساب ، والذى وسعت رحمته كل شىء هو نفسه الذى يقول : « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى » . ويقول : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ والله الذى قال لنبيه : « نبىء عبادى ، أنى أنا الغفور الرحيم » هو نفسه الذى قال عقيب ذلك مباشرة : « وأن عذابى هو العذاب الأليم » .

لعل اللاهى الضال سيعود إلى الاعتراض قائلا : إذن فهناك تناقض وتعارض بين بعض الآيات وبعض ، وستظل آيات المغفرة الكثيرة إذن بلا موضوع . فيقال لذلك الغافل : إن التناقض ليس موجوداً إلا فى ذهنك الضيق وتفكيرك المحدود ، لأنك تحكم شخصك فى أمر جامع عام ، وضعه رب العالمين للعالم وفيهم أصناف وأشكال وألوان ، وما هذا الحديث الطويل فى القرآن عن الاستغفار والحض عليه ، إلا أسلوب الحكيم العليم فى تربية الخلق ، وإحياء الضمير ، وإماتة السيئة ، والاستكثار من الحسنة ، فهو ينهض على كثير من الأسس القويمة العالية .

إن الإسلام الحنيف بأسلوبه هذا فى التحريض على الاستغفار يريد ألا يصادم الطبيعة البشرية ، بل يتمشى معها بما يلائمها ، إذ هو يعرف أن الإنسان خطاء ، قد كتب عليه حظه من النقص والعيب ، لإظهار الفرق بين المخلوق والخالق ، ولإيجاد ميدان المجاهدة والتنافس فى القربى ، فلو سد الإسلام فى وجهه باب الندم والتوبة والتخفف من أوزار الماضى للنهوض بطيبات الحاضر وحسنات المستقبل ، لأخلد إلى الأرض ، وأفلس من أول الطريق ؛ وإذن فليلتمس الإسلام للخاطىء عذرا ، وليبسر لتقويمه أمراً ، وهو أن يحرضه على الاستغفار المشتمل على قوى التذكار والاستحضار المؤدى إلى لون من المحاسبة والمراقبة التى تحيى موات الضمير فى الإنسان ، وينقله من بيداء الضلال إلى جادة الإيمان ، ويعده عند الإخلاص والصدق مغفرة ورضوانا ، ولعل الرسول الكريم عليه الصلاة والتسليم ، حينما كان

يحرض صحابته على الاستغفار ، ويخبرهم أنه يستغفر فى اليوم سبعين مرة ، لم يقصد نفع نفسه ، أو التخلص من ذنوب نسبت إليـه ، فهو المعصوم الذى غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ولـكنه قصد أن يعلم أتباعه كيف يفيئون بعد غفلة ، ويستقيمون بعد زلة ، ولا عجب ، فهو بالمؤمنين رءوف رحيم !.

ومن أهداف الاستغفار والمتاب فى الإسلام أيضاً ، إظهار فضل الله الرحمن الرحيم على عباده الحيارى الضعفاء ، فهو الذى برأهم ، وهو الذى أنعم عليهم ، وهو الذى حلم معهم ، وهو أيضاً الذى يقبل التوبة من عباده ويعفو عن السيئات ، فيالها من منة لا يقدر عليها إلا الخلاق العظيم الذى يفتح أمام الخطائين عن سهو أو نسيان أو زلزلة باب الأمل والرجاء ، حتى لا يعرف اليأس إلى قلوبهم سبيلا ، فإنه كما يقول القرآن : « لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » ، ويهيىء لهم دائما فرصة للارتداع والاسترجاع ، والله أفرح بعبده التائب من الذى فقد شيئاً نفيساً لديه ثم عثر عليه ، فيكون ذلك إشعاراً بعد إشعار بفضل الله الواسع ، ومننه الـكبرى وآلائه العظمى ، فإن لم يخضع العبد عن طريق الرهبـة والتخويف ، استجاب عن طريق التـكريم والإنعام ؛ وها هو ذا سبحانه يضاعف ألطافه فيجعل فرصـة التطهر والتخلص ممزوجة بالتزود من الخير والاقتراب من البر ، فيجعل عمل الخير تـكفيراً لسالف الإثم ، وإتيان الحسنة محواً للسيئة ، وفى ذلك ما فيه من الإغراء والتحريض على الدنو من حمى الخيرات ؛ فيقول : « إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين » . ويقول عن فريق من عباده الناجين بمشيئته : « خلطوا عملا صالحا وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم » . ويقول رسوله عليه الصلاة والسلام : « وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن » .

ومن أهداف الاستغفار الذى جعله الإسلام متكرراً كلما تكرر الذنب والخطأ ، تربيـة الحياء والخجل فى نفس الإنسان ، فإنه إذا أخطأ ثم استغفر فَغُفر له ، ثم عاد فأخطأ فاستغفر ، ثم عاد فأخطأ واستغفر ، حدثته نفسه ـ إن لم تكن قد ماتت ـ بأن هـذا لا يليق به كإنسان ، ولا يجدر به كرجل حر ذى ضمير ، فيخجل من نفسه ، ويستحيي من تكرار خطئه ، فيستشعر فى صدره قوة عزم على المقاومة للهوى والمغالبة للشيطان حتى يقهره ويستجيب لنداء الرحمن ، ولعل هذا هو المعنى الذى أراده علىٌّ رضى الله عنه حينما جاءه شخص فسأله قائلا : رجل أذنب

فماذا يفعل ؟ . قال على : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد . قال على : يتوب ويستغفر . قال الرجل : قد فعل ثم عاد !. قال على : يتوب ويستغفر ولو فعل ذلك مائة مرة حتى يخزى الشيطان ! .

ولو فرضنا هنا ما لا يليق بالمرء ، وهو أن يستمر فى غيه وبغيه بلا خجل أو ارعواء ، رغم انفتاح باب المتاب أمامه ، لحقق الإسلام شيئاً آخر هو الإعذار إلى مثل هذا الميت الخبيث كيلا يكون له على الله حجة ، بعد ما ساسه بكل أساليب الرحمة والتكريم .

ولعل الإكثار من الحديث عن الاستغفار فى الإسلام ، فيه إشعار للهداة وتذكير للمصلحين بأن الخطأ والزلل من طبيعة البشر ، فيجب على أولئك المرشدين أن تتسع صدورهم ، وأن تقوى عزائمهم ، وأن يجمل صبرهم ، فلا يتضايقوا ولا ييأسوا لرؤية الفشل أو تكرر الزلل ، بل يحتملون الصدمات ويعاودون الكرات والمحاولات ، إذ لو كان الخير عاما وطبيعة فى الناس، لما احتجنا إلى معلمين ومقومين ، ولكن الله يقول : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . ويقول : « وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك ، إن ذلك من عزم الأمور » .

ولا ننسى أيضاً ما فى الاستغفار والدعاء والمناجاة من لذة روحية وطمأنينة نفسية ، وتباعد عن صخب الحياة إلى رحاب المناجاة ، وانقطاع عن هواتف التراب واتصال بالملأ الأعلى ، وفى ذلك استعداد قوى وتهيؤ فعال لحسن التحول وكريم الاتجاه ، ولعل هذا هو مغزى الحديث النبوى الشريف : « من أكثر من الاستغفار جعل الله له من كل هم مخرجا ، ومن كل ضيق فرجا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ! .

أما بعد ، فإن الكمال المطلق للبشر محال ، والعصمة للأنبياء والمرسلين ، والخضوع للهوى الأثيم ضلال أى ضلال ، فلم يبق إلا أن نحاول الخير ما استطعنا ، وأن نتجنب السوء ما قدرنا ، ولا يضيرنا أن نعثر مرة ، ولكن يضيرنا أن نستمر على الخطأ أو نرضى به ، أو نسعى إليه مختارين مستحلين ، فلنرفع رؤوسنا من جديد ، ولنطو صفحات الماضى بما فيه ، ولنستغفر الله منه ، إنه هو الغفور الرحيم ! .

شعاع من فجر الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة
المدرس بمعهد القاهرة

إنه شعاع الإيمان المتلألىء ، انبثق فى ظلمات الحياة ، فقشع دياجيرها ، ومحا جاهليتها ، وشتت حمقها وضلالتها .

شعاع الإيمان الذى سكبه الله فى قلب محمد عليه السلام ، فغمر جانبيه هدى ونورا ، وجعل من نفسه البشرية ، نفساً ملائكية تفسر على ضوء إيمانها أسرار هذا الوجود .

الإيمان الذى شيد من نفس محمد عليه السلام أمة ، وبنى من أمة محمد عليه السلام قوة لا تثبت أمامها قوة .

الإيمان الذى خلق من حفاة الصحراء قادة ، ملكهم إيمانهم نواصى الحياة ، وأذرى بالشدائد .

الإيمان الذى انبعث من ذلك القلب فزعزع بطش الجبارين ، وزلزل صلف المتألهين ، وحطم غدر المتذئبين .

الإيمان الذى خلق من القلوب الصحراوية رحمة ، ومن جشعها قناعة ، ومن غلظتها وداعة ، حيث تحمد الوداعة ، وعفواً حيث تكون القدرة .

الإيمان الذى جعل من المرأة قوة تفتك بعنت العتاة ، وخلق من فاطمة بنت الخطاب سلاحاً يخضع جبروت عمر حين تصيح فيه : « طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، إلا تذكرة لمن يخشى ، تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلا ، الرحمن على العرش استوى ، له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى ، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى ، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى » ، فيستسلم عمر الجبار إلى ذلك الإيمان الدافق تتفجر ينابيعه من قلب المرأة الضعيفة .

ذلك الإيمان الذى جعل من المسلم الأول أمة يعيش للأمة ، ويعنى بالمجتمع ، لا فرداً تسيطر عليه الفردية ، وتتحكم فيه النفعية الشخصية ، ويعنى بالأسرة الصغيرة ، فيشيد لها ويدخر .

فأبو بكر ، رضوان الله عليه ، يدفعه إيمانه إلى الجود بكل ماله لله ولرسول الله ، ولنصرة دين الله ، ثم هو لا يترك لأولاده قوتاً ثقة منه بالله ، أنه بهذا البذل يبنى الأمة قبل الأسرة ، ويؤسس للدولة قبل الولد ، بهذا الإيمان من أبى بكر ، وبمثله من غير أبى بكر ، ساد العرب وعز الإسلام .

ذلك الإيمان هو الذى جعل للعرب الغلبة والسيادة ، فانطلقوا تحت رايته يدعون إلى المبادىء السامية ، مبادىء الإخاء والمساواة ، مبادىء الإنسانية ، فتفتحت الدول أمام دعوتهم قبل أن تفتح بسيوفهم ، وتطلعت الشعوب المظلومة إلى تلك المبادىء التى جاء بها الإسلام لتنقذها من ظلم القيصرية وجور الاستعمارية ، ذلك هو الإيمان الذى جعل بلالا وأمثال بلال يستمرئون مر العذاب فى سبيل إيمانهم ، فحر الرمضاء الذى يشوى الجسوم لم ينهنه إيمان الأرواح ، ولم يزعزع ثقة النفوس ، لأن إيمانها أعظم من أن يخضعه جبروت أو يذله عنت ، والإيمان وحده هو الذى نصر ثلاثمائة من المسلمين على ألف من المشركين فى بدر ، سلاح المؤمنين الإيمان وحده ، وللمشركين سلاح من عددهم ، وسلاح من مالهم ، وسلاح من خيلهم ، ولكن كل هذه الأسلحة لم تغن أمام الإيمان شيئاً .

لقد حمل المسلم الأول إيمانه بين جنبيه ، وألقى عزمه بين عينيه ، واندفع عاصفاً يقطع أعناق الجبال الآسيوية ، ويمرق فى وديانها ، حتى انتهى إلى إفريقية ، فأثار رمالها ، ومر على خصبها وجدبها ، ثم قطع البحر إلى أوروبا ، وهو يجلجل حيث سار ، ويؤذن حيث أقام :

الله أكبر الله أكبر ، أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله ؛ هتف الأذان ، ونادى الإيمان ، فصمتت الصوامع والبيع ، وأخرست النواقيس وراح الحق ينادى فى الناس : حى على الصلاة ، حى على الفلاح . فتجاوبت الأرواح فى أوروبا وإفريقيا وآسيا : لبيك لبيك .

وهكذا جرى الإيمان نوراً يهفو إلى القلوب فتتفتح له كما يتفتح الزهر لبسمات الصباح ، وتنتعش به النفوس كما تنتعش الورود ببسمات الربيع .

لقد آخى الإيمان بين المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها منذ بدا فجره ، فلا يئن مسلم فى اليمن ، حتى تسمع صدى أناته فى المدينة ودمشق وبغداد ومصر

وقرطبة ، ولا يستغيث عربى فى خيامه الضاربة فى حضن الجزيرة العربية ، حتى تجاوبه الأصوات فى مصر وقرطبة وبغداد ودمشق : لبيك لبيك ، وهكذا كانت أخوة الإيمان ، يجمع المسلمين إحساس واحد وإن اختلفت أقطارهم وتناءت بلدانهم .

فأين نحن الآن من هذا الإيمان ؟

الأمة العربية مضطربة ، والشعوب الإسلامية مفككة ، بل الأسرة الصغيرة متنافرة متناحرة .

يا رحمة السماء ، عودى فابعثى على هذا العالم الحائر شعاع الإيمان ، لعله يمحو ظلام المادية من النفوس ويوقظ سمو المبادىء التى جاء بها الإسلام .

يا رحمة السماء ، مدى إلى قلوبنا من فجر الإسلام ذلك الشعاع الذى بنى مدنية الإسلام ، فالإيمان وحده هو الذى يعيد للمسلمين مجدهم .

يا سلاح الإيمان ، فى مصنعك أنت وجدت المعجزة الأولى التى فتح بها العرب العالم ، فهلا فزعت الأمة العربية إلى مصنعك تأخذ منه قوتها فتعود اليها المعجزة .

ان كتاب الله هو مصنع الإيمان الذى تستمد منه القوى وتوجد المعجزات ، فمتى يهرع المسلمون إليه ليفتتحوا عهداً جديداً وليعبئوا جيلا جديداً وليخلقوا العالم خلقاً جديداً ينادى فى الوجود :

إلى كتاب الله ، إلى كتاب الله ، فهو سلاح من لا سلاح له .

ذم التنافس فيما يفنى

قال الفارابى :

ينافسُ هـذا لهذا على ‍ ‍ ‍ أقل من الكلم الموجز
محيط السموات أولى بنا ‍ ‍ ‍ فماذا التزاحمُ فى المركز

أى مجتمع نعيش فيه

لفضيلة الأستاذ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يهدف المجتمع فى هذه الحقبة من الزمن إلى الجرى وراء المادة ، لا يثنيه عنها ثان من تعاليم دينية أو مقاييس خلقية أو اعتبارات اجتماعية ، وكل ما وقف فى طريقه فى نظره إنما هى رجعية بغيضة إلى نفسه، وقوانين جائرة ليس لها من مبرر ، حتى التوى الطريق على الكل وضاعت معايير الأشياء ، وانتهكت تعاليم الدين وابتذلت الكرامة وتحللت الأخلاق ، وصار المجتمع يجرى وراء هذه المادية العاتية التى ستودى به إلى كوارث لا قبل له باحتمال عواقبها .

ولو رجعنا إلى الوراء قليلا ، ونظرنا إلى ما كان عليه المجتمع قبل عصر النبوة لتساوى العهدان . فالقوى اليوم هو الأمثل لدى الناس جميعاً ، يرهبون جانبه ، ويقضون حوائجه ، ويحسبون له ألف حساب وحساب ، من تقدير وتقديس ، لأن بيده عصب الحياة ، وإكسير الوجود ، والجالب للسعادة وهو المال .

أما الأخلاق ، أما الكرامة . فهى ألفاظ وضعها اللغويون لغير هذا العصر ، أو هى من التراث العتيق البالى، والذى يعد المتمسك به من الجامدين.فالإباحية المطلقة هى حضارة العصر وقوام الوجود ، وهى المدنية الحقة التى يسعى لها الكل ويهدف إليها الجميع ، ونظرة واحدة إلى حفلات السادة الكبار ترينا مبلغ ما وصل إليه المجتمع فى زيه ولبسه وتصرفه وابتكاراته ، فعقود الزهر يفخر بلبسها السيد السند وفى فمه زمارة وعلى رأسه طرطور وبجواره حواء تكشف عن مفاتنها يتقارعان كؤوس الطلا ، ثم يقومون إلى حلق الرقص ، كأن بهم مس من الجن من بكور الليل إلى انبثاق الصبح ، يهيمون فى خيالهم ويسبحون فى مجونهم ، وهذا هو مجتمعهم عليه يلتقون وعنه ينصرفون ، لا وازع من ضمير ولا دافع من خلق ، والويل كل الويل لمن ينقد أعمالهم أو يبدى ملاحظة على سيرهم وسلوكهم ، والأدهى من ذلك

أن تنشر صورهم وهم على هـذا الوضع المزرى بالأخلاق ، فأى مجتمع هذا الذى نعيش فيه ، وأى خلق يكون مقياساً لهذا العصر ؟

والله إنها للفوضى التى تدرك الأمم فى أخريات وجودها ، وعصر تحللها ، وانقراضها كما يحدثنا التاريخ .

وبدهى أن تلك الحروب الطاحنة التى تشنها الدول على بعضها، وتلك الاعتمادات الضخمة التى ترصدها ، لها أثر من آثار هذه الأنانية المادية ، ومن الغريب أن هذه كلها لو وجهت إلى التعمير والإصلاح لنال العالم كله منها الخير العميم .

ولكن أين التفكير السليم ، بل أين المجتمع المستقيم حتى يعمل الكل لما فيه إسعاد البشرية .

أيها المصلحون : إن الطريق السوى هو التدين الصحيح ،ولن يصلح هذا المجتمع إلا بما صلح به أوله .

تقوى واستقامة يعمل لها الجميع ، ويسعى لها الناس عن يقين ثابت وإيمان قوى وفكر متين . إن هذه الحياة التى نحياها مجون ما وراءه مجون،نهايتها الجنون ، وغضب يصيب الأفراد، وينصب على المجموع « واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

فإلى القادة والزعماء ، إلى السادة والرؤساء : أوجه حديثى : عليكم وزر ما وصلت إليه الحالة العامة من انهيار ، لأن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، فأفيقوا من سباتكم واصحوا من غفلتكم واتقوا الله فى دينكم وفى قدسيته ، فقد طمت البلوى وعمت الفوضى، وهذا التحلل الخلقى ستكونون فى النهاية أول ضحاياه .

واعلموا أنه لا عز لكم فى سيادة مشبوبة بدم الأبرياء ، ولا غنى لكم عن تعاليم السماء لكبح جماح المبادىء الهدامة التى نخشى أن تجتاح كل الحصون الخلقية ، والتعاليم السماوية .

أما المال : فهو ظل زائل لا يغنى إذا حزب الأمر واشتد الهول ، فحصنوا أنفسكم بالأخلاق ، وحاربوها بالبذل والإنفاق « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والله أكرم مسئول أن يوفق الجميع لما يعود على المجتمع بالنفع العميم والخير الكثير إنه ولى الهداية والتوفيق .

من نوادر المخطوطات

شرح ابن بطال على البخارى

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير المكتبة الأزهرية

من كتب الشريعة الإسلامية التى حظيت بالقبول ، ونالت من عناية العلماء واهتمامهم ، كتاب « الجامع الصحيح » للامام البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، فقد أقبل العلماء عليه بالدراسة والبحث ، والاستفادة والشرح والتعليق ، حتى بلغت المؤلفات فيه من نواحيه المختلفة بضع عشرات ، وشرح شروحاً موجزة ومطولة يبلغ بعضها نيفاً وعشرين مجلدا ، ومن أطول شروحه شرح العلامة العينى .

ولم يحظ « الجامع الصحيح » للبخارى بذلك لجلال موضوعه « وهو الأحاديث النبوية الصحيحة » فحسب ، ولكنه نال ذلك لثقة جامعه وأمانته ، وحسن ضبطه ، وشدة تحريه ، وتحرجه ، حتى أصبح فى مكان القداسة من نفوس المسلمين ، بعد كتاب الله تعالى .

وقد شرح جامع البخارى شروحاً كثيرة ، بعضها مشهور متداول ، وبعضها عفى عليه الزمن فيما عفى ، ومن أشهر شروحه وأقدمها ، شرح ابن بطال عليه ، وربما كان هذا الشرح أساس شروحه ، فكثيراً ما يعتمد عليه الشارحون وينقلون عنه .

وكان علماء الحديث مشوقين إلى معرفته والاطلاع عليه ، والوقوف على طريقة تأليفه ، ومنهاج البحث فيه ، وكان الظن أنه ضاع فيما ضاع من التراث الاسلامى ، ولكن الحظ السعيد قد أظفر به المكتبة الأزهرية ، فأهدى إليها أخيراً ضمن مكتبة المغفور له الشيخ محمد الأمير غفر الله له وأجزل مثوبته ، إلا أن سرورنا به لم يتم ، فقد تبين أنه ينقصه أواخر الجزء الأول والجزء الثانى .

وابن بطال هذا هو أبو الحسن على بن خلف بن عبد الملك بن بطال القرطبى يعرف باللجّام ، الامام العالم الحافظ المحدث الراوية الفقيه ، روى عن ابن أبى صفرة والشفناذى والقاضى يونس وغيرهم ، وأخذ عنه جماعة ، ألف شرحه المعروف على البخارى والاعتصام فى الحديث وتوفى سنة ٤٤٤ هـ أو سنة ٤٤٩ هـ .

وشرحه هذا يقع فى أربعة مجلدات بالمكتبة ، منها ثلاثة فقط ، الأول وبآخره نقص ، والمجلدان الثالث والرابع وهما بقلم معتاد وبخط واحد ، هو خط على ابن عمر عبد الله الامام ، فرغ منهما سنة ٧٨٠ ه لجامع الخطبة .

وعدد أوراق المجلد الأول ٣٥٣ ورقة ، والثالث ٣٨٧ ، والرابع ٣٧٨ ، ومسطرتها كلها ٢٥ سطراً ، وعدد كلمات كل سطر تتراوح بين ١٥ ، ١٨ كلمة ، ومقاسها ٢٧ × ٢٠ ، وعنوان كل جزء بأوله بالمداد الأزرق فى حلية ذهبية أنيقة ، وعناوين الكتب والأبواب فى الكتاب جميعه بالمداد الأحمر ، والكتاب بحالة حسنة تمكن من الانتفاع به ، وما به من هنات لا تمس موضوعه .

ويبتدىء الجزء الأول بأول الشرح وينتهى فى أثناء باب زيارة القبور ويبتدىء الثالث بكتاب الأضاحى ، وينتهى بباب الطلاق ، ويبتدىء الرابع بباب ما يكره من الاحتيال فى الفرار من الطاعون وينتهى بآخر الشرح .

وشرح ابن بطال هذا هو شرح موجز عنى فيه صاحبه بالتنبيه أولا على الصحابى راوى الحديث ، وباستنباط الأحكام الفقهية على مذهب الإمام مالك ، قال صاحب كشف الظنون : « وشرحه البخارى » الإمام أبو الحسن ... وغالبه فى فقه الإمام مالك من غير تعرض لموضوع الكتاب .

وأول الشرح : « باب كيف بدء الوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقول الله عز وجل « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده » فيه عمر بن الخطاب قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه) قال المؤلف قال لى أبو القاسم المهلب بن أبى صفرة رحمه الله معنى هذه الآية : « إن الله تعالى أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم كما أوحى إلى سائر الأنبياء عليهم السلام وحى رسالة لا وحى إلهام الخ .

وآخر الشرح : « وقول البخارى ويقال القسط مصدر المقسط فانما أراد المصدر المحذوف الزوائد كالقدر مصدر قدرت إذا حذفت زوائده ، قال الشاعر :

وإن يهلك فذلك كان قدرى

بمعنى تقديرى محذوف زوائده ورده إلى الأصل ، ومثله كثير ، وإنما تحذف العرب زوائد المصدر لترد الكلام إلى أصله ويدل عليه ، ومصدر القسط الجارى على فعله الأقساط اه .

عجالات فى الأدب العربى (١)

لفضيلة الأستاذ الشيخ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

جرى القلم فى عجالتى السابقة عن ملامح الحوار فى صناعة الأقلام العربية الخالدة .

والحوار فى الأدب الحديث ، عدة لها خطرها لمن يجيدونها ، إذا قدموا الزاد الفنى ، وراحوا من ورائه يرقبون مدى خطواته نحو أعتاب الخلود .

والقدامى من العرب نسجوا حوارهم عفو الخاطر ، وجرياً وراء فطرهم ، ولم تكن وراءهم مقاييس الصناعة ، ولا دوافع من (مسرح) ولا مقتضيات (الزمان والمكان) .

وإذا تركنا (الحوار) ، وتلمسنا بذور القصة وفتشنا فى طوايا المؤلفات ، وخبايا المراجع القديمة ، وجدنا العجب العجاب ، ووجدناه عند الأقلام المؤرخة أو الدارسة أو المستعرضة المتعرضة لحيوات الناس ، سواء منهم الشاعر والأديب ، والحاكم من خليفة أو سلطان أو والٍ ، لا فرق بين الرجل والمرأة .

ووجدنا كتب السيرة ، وكتب التراجم ، وكتب الأدب ، وكتب الأخبار ، تحفل بعلاج البوادر القصصية ، وتجنح إلى جانب الأقصوصة ، يقارب الكاتب من التوفيق ، إذا زحمته الوقائع والحقائق .

وفى أكثر الكتب اصابة عين التوفيق والاجادة بما ينال رضا من يلتمسون تطبيق منطق القاص المحدث ، وقواعد واضع الأقصوصة فى عصرنا الحاضر .

وظاهرة لا يفوتنى أن أقف عندها ، وهى الإمعان وراء المصارحة الخالصة والصدق الواقع ، والتحليل النفسى للأشخاص والجماعات ، وحتى التعابير الموجزة والتشابيه المكتنزة ، تطوف كالقوارير المحشودة العامرة بالنفحات النفسية ، والعواطف النابضة بالحيوية المعبرة دون أن تنقص شيئاً ، إذا تأمل القارىء وأنعم المتأمل .

وكثير من الناس يعيبون على بعض القدامى كثرة استطرادهم ، وعندى أن الاستطراد يعد ذخرا أدبيا ، لأن المؤرخ حين يتعرض لحياة خليفة مثلا ، ثم يتوقف فجأة عن السرد التاريخى ، ويبدأ فى طرفة أو رواية حديث أدبى ، ثم ينقل نصا أدبياً منظوماً أو منثوراً ، وبعد ذلك يعود إلى مزحمه التاريخى أو العلمى - حين يصنع هذا لا يبعد بالمؤرخ إلا بمقدار ما يمتع الأديب ، ولا يمتع الأديب إلا على أساس رسم المنائر الموضحة ، والمعالم الشارحة مما يُستخلَصُ منه روائح الأحداث السارة أو الضارة ، والمنابع التى روت القرائح ، وهزت العواطف فأثمرت العصارات التى حملت الينا فى بوتقات صهرت موادها ، فتماسكت سبائكها ، وراقت قلائدها ، وازّيّن بها جيد الأدب .

ومهما قيل فى استطراد المؤلف القديم ، فإن الذين تخصصوا وخلصوا فنون الأدب إلى مناهج متآخذة ، ووشائج متآخية ، لم يجدوا من المراجع . أوفى من الأقلام المستطردة ، وأخيراً أشهد أن فى بعض الإطنابات من القيم التى تعد مستقلة فى القصة أو الأقصوصة .

والضائقون بالكتب (المستطردة) لا أجدهم الآن على صواب ، لأن لذة التنقل لا تعوض عند من يريد أن يلون زاده وغذاء عقله وعاطفته .

ولعل الدليل المقنع : كتاب (الأغانى) إذا وضعناه بجانب مهذب الأغانى .

نعم ونعم ، إذا قضيت ساعة مع أبى الفرج ، ورحت تقلب عينيك بين أقاصيصه وطرفه ودعاباته ومقطوعاته ، ثم أخذ بيدك إلى مجلس شاعر أو مجلس خليفة ، ثم عدا بك إلى قصيد أو مقطوعة ، وكشف لك عن صوت يتعلق بأصدائه ، ويحلق مع شاعر آخر أو جارية أديبة أخرى ، رأيت معه نفسك وقد هزتها النشوة .

فإن أردت أن توجز الوقت والتمست مهذب الأغانى ، طالعتك الجهامة ، وبدهك الجفاف ، وفقدت الطرافة ، وعدت تقلب ناظريك بين عصف مجموع ، لا تلبث إلا ريثما تعود إلى متاع الأغانى ، كما صنع الأصفهانى .

* * *

ولا يشك قارىء فى أننى أعنى الاستطراد عند القرائح الخالدة قبل القرن الرابع الهجرى ، وسيدهم غير مدافع (الجاحظ) .

وبعد أن ظفرت المكتبة العربية (بألف ليلة) ، ثم بالقصص الشعبى فى العصور المتأخرة ، أجدنى أمام فن قصصى مستقل له خصائصه المتفرده ، وله ظلاله وآثاره فى الأقلام والقراء .

وحظى فى هذه العجالة ، أن أعود بالقارىء إلى أن مكتبتنا العربية بدأت تجمع على عواتقها مصنفات لأقلام زاولت وعالجت الأقصوصة ، ومنها من شقت بأسلاتها طريق القصة ، بل وضعت مستقلة أسسها على هدى من الفطرة والطبيعة العربية الخالصة .

وسوف أعود فى عجالة أخرى ، إلى المعالم الأولى ، والمدارج التى اهتزت فيها الباسقات ، وربت فى ربوعها وارفات الأقصوصة ثم القصة .

النحو يرثى

كان ابن مالك إمام النحو فى عصره ، وألفيته تعتبر صندوق النحو إلى اليوم . ولد سنة (٦٠٠) وتوفى سنة (٦٧٢) هـ فرثاه شرف الدين أحد المستفيدين منه بقصيدة طريفة ألفاظها مستمدة من قواعد النحو ، وهى :

يا شتات الأسماء والأفعال — بعد موت ابن مالك المفضال
وانحراف الحروف من بعد ضبط — منه فى الانفصال والاتصال
مصدراً كان للعلوم بإذن الله — من غير شبهة أو محال
عدم النعت والتعطف والتو — كيد مستبدلا من الأبدال
ألم اعتراه أسكن منه — حركات كانت بغير اعتلال
يا لها سكنة لهمز قضاء — ورثت طول مدة الانفعال
رفعوه فى نعشه وانتصبنا — نصب تمييز كيف سير الجبال
صرفوه بأعظم ما فعلوه — وهو عدل معرف بالجمال

إلى آخرها ، وكلها على هذا النمط من استخدام ألفاظ علم النحو ، فى رثاء إمام النحو .

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

فى إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الشيخ محمد عبد المنعم خفاجى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

فى هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : فى القرآن الكريم وإعجازه ؛ ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارىء كل ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الأعجاز ؛ معرفة تامة لا لبس فيها ولا خفاء .

رأى الوليد بن المغيرة :

١ — روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، فقرأ عليه القرآن ؛ فكأنه رقّ له ، فبلغ ذلك أبا جهل ، فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا ليعطوكه ؛ لئلا تأتى محمداً ، لتعرض لما قاله . قال : قد علمت قريش أنى من أكثرها مالا ؛ قال : فقل فيه قولا يبلغ قومك أنك كاره له ؛ قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا ؛ ووالله إن لقوله الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ؛ قال : فدعنى حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر ، يأثره عن غيره [١] .

٢ — وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبى صلى الله عليه وسلم :

---

[١] ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ، و١١٧ / ٢ الأتقان للسيوطى ، ٣٥٧ إعجاز القرآن للرافعى

« إن الله يأمر بالعدل والإحسان الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإن أعلاه لمثمر ؛ ما يقول هذا بشر [١] .

٣ — وجاء فى رواية أخرى أن الوليد قال لبنى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آنفا كلاماً ، ما هو من كلام الأنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ؛ فقالت قريش : صبأ والله الوليد ، والله لتصبأنّ قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ؛ فقعد إليه حزيناً ، وكلمه بما أحماه ، فقام فأتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخنق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعراً قط ؟ ؛ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ؟ فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر فقال : ما هو إلا ساحر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؛ وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلمة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله [٢] .

٤ — ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد ، فأجمعوا فيه - يعنى النبى صلى الله عليه وسلم - رأيا لايكذب بعضكم بعضا ؛ فقالوا : نقول كاهن ، قال : والله ما هو بكاهن ولا هو بزمزمته ولا سجعه ؛ قالوا : مجنون ، قال : ما هو بمجنون ولا بخنقه ولا وسوسته ؛ قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشعر ؛ قالوا : فنقول ساحر ، قال : ماهو بساحر ولا نفثه ولا عقده ؛ قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ؛ وإن أقرب القول إنه ساحر ، وإنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته . فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس [٣] فأنزل الله تعالى فيه : « ذرنى ومن خلقت وحيدا » الآيات [٤] .

٥ — وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة فى القرآن ماقال ، حين جاء إلى

---

[١] ص ٢٢٠ / ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ . [٢] ص ١٥٨ / ٤ الكشاف للزمخشرى .
[٣] ١/٢٢٣ الشفاء ، ٣٥٧و٣٥٨ إعجاز القرآن للرافعى [٤] آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر

الرسول ، وقال له : اتل علىَّ يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا فى الانقياد ، فقرأ « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته » إلى آخر السورة ؛ فقال: إن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة(١)

رأى عتبة بن ربيعة :

١ — وروى أن أبا جهل قال فى ملأ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى علىَّ ؛ فأتاه ، فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت ، فلما بلغ قوله : « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة على فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش . فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا قد صبأ ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبأت ؛ فغضب وأقسم لا يكلم محمداً أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابنى بشىء والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب(٢) .

٢ — وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمتم أنى لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولا ، والله ما سمعت مثله قط ؛ ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة (١) . . . ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .

الجن تشهد ببلاغة القرآن :

وفى القرآن الكريم : « قل أوحى إلىَّ أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا » إلى آخر سورة الجن . وقولهم «عجبا » يفسرها المفسرون ببليغ بديع معجز .

كلام لم ينزل إلا من السماء :

وروى أن أبا بكر سأل أقواما قدموا عليه من بنى حنيفة عن كلام مسيلمة وما كان يدعيه قرآنا ؛ فقصُّوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أى عن ربوبية - فأين كان يذهب بكم (٤)

[١] ٣/٢١٨ الطراز فى علوم البلاغة [٢] ٣/٣٨٧ الكشاف ، ٢٣١ و٢٣٢ /١ الشفاء
[٣] ١/٢٢٣ الشفاء [٤] الباقلانى وهامش ٢٦٩ و٢٧٠ الرافعى . وكلام مسيلمة تجده فى إعجاز القرآن للباقلانى ، ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلمة (٣/١٧٣)

زعم وافتراء :

ويقول السيوطى فى الاتقان : وكانوا مرة بجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ، مع علمهم أن صاحبهم أمى ، وليس بحضرته من يملى أو يكتب فى نحو ذلك من الأمور التى أوجبها العناد والجهل والعجز [١]

حسان يتحدث فى شعره عن القرآن :

ويقول حسان بن ثابت فى شعره فيما قال عن القرآن الكريم :

الله أكرمنا بنصر نبيه ... وبنا أقام دعائم الإسلام
وبنا أعزّ نبيَّه وكتابه ... وأعزّنا بالضرب والإقدام
ينتابنا جبريل فى أبياتنا ... بفرائض الإسلام والأحكام
يتلو علينا النور فيها محكما ... قسماً لعمرك ليس كالأقسام
فنكون أول مستحل حلاله ... ومحرم لله كل حرام [٢]

العرب تجل بلاغة القرآن عن الشعر :

١ — ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن ، إلا معلقة امرىء القيس ؛ فإن أخته أبت ذلك عنادا : فلما نزلت آية : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » قامت إلى الكعبة فأنزلت معلقة أخيها [٣] ، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء .

٢ — وفى حديث إسلام أبى ذر وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر من أخى أنيس ، لقد ناقض اثنى عشر شاعراً فى الجاهلية أنا أحدهم ، وأنه انطلق إلى مكة ، وجاءنى بخبر النبى ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال : يقولون : شاعر ، ساحر ؛ كاهن ، لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعته على أقراء الشعر فلم يلتئم ، وما يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ؛ وإنه لصادق . وإنهم لكاذبون [٤].

يسلمون حين سمعوا القرآن :

ويقول السيوطى فى كتاب الاتقان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن ؛

---

[١] ٢/١٢١ الاتقان طبعة ١٩٣٥ [٢] ٣١٨ الديوان [٣] هامش ٢٣٧ و ٢٣٨ الرافعى .
[٤] ١/٢٠٤ الشفاء .

كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب بالطور ، قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون » إلى قوله « المصيطرون » [١] ، كاد قلبي أن يطير ، قال : وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى [٢] .

أعرابى يسجد لفصاحة القرآن :

وروى أن أعرابا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته [٣] .

ومما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابياً سمع آخر يقرأ : « فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً » ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

أهل الكتاب يشهدون للقرآن :

١ — وروى أن عمر كان نائماً فى المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية ؛ فأسلم وقال : سمعت رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هى قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخشَ الله ويتقه » الآية [٤] .

٢ — وروى عن نصرانى أنه مر بقارىء ، فوقف يبكى ، فقيل له مم بكيت ؟ قال : للشجا والنظم [٥] .

٣ — وعن كعب ، وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة [٦] .

أعرابية تسحرها فصاحة القرآن :

وهى وإن كانت لم تشاهد عصر النبوة إلا أن ذوقها هو الذوق العربى المفطور وكفى ؛ روى عن الأصمعى أنه سمع كلام جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أو يُعد هذا فصاحة بعد قول الله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » الآية ، فجمع فى آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين [٧] ؟ يتبع

---

[١] آية ٣٥ - ٣٧ سورة الطور . [٢] ٢/١٢٣ الاتقان ، وراجعه فى ٢٣١ / ١ الشفاء .
[٣] ١/٢٢٠ الشفاء . [٤] ١/٢٢١ الشفا . [٥] ١/٢٣١ المرجع .
[٦] ١/٢٢٥ المجع . [٧] ١/٢٢١ المرجع .

أيهما البُرْدَة

قصيدة كعب بن زهير أم « قصيدة البوصيرى »

لفضيلة الأستاذ منصور على رجب

أستاذ فى كلية أصول الدين

كعب بن زهير والبوصيرى هما اثنان ، قد بلغا بقصيدتيهما الخالدتين فى مدح الرسول صلوات الله عليه من الحال والمنزلة فى الأدب العربى غاية ليس وراءها مُتجاوَز لآمل ، ولو كان على الجهد مزيد لبلغاه .

ولكل منهما فى قصيدته قصة مستفيضة ، تجعل له ما هو أجمل فى الأحدوثة وأطيب فى النشر . أما كعب فما إن بلغ صوت النصر أذنيه يوم أن فتحت مكة حتى خرج هو وأخوه بجير هاربا مع من هرب من العرب ، خرج خائفاً يترقب جزاءه من أشياع الحق وأنصار دين الله ، لما فرط منه من هجاء لهذا النبى العربى المنتصر ، فأخذا يعلوان أُطماً وهضابا ، ويقطعان فيافى وقفارا ، حتى ركنا إلى رملة لبنى سعد بالحجاز ، أو إلى ماء لبنى أسد بين مكة والمدينة ، فآويا إلى ظله ، وألقى كل منهما مراسيه ، وبجير يقول لأخيه كعب : اثبت فى الغنم حتى آتى هذا الرجل فأسمع كلامه ، واعرف ما عنده ، هل هو مما يستملح ، ويلوح صدقه فأتبعه ، أم لا فأتركه ؟ فيقيم كعب ، ويمضى بجير ، ثم يتساقط الخبر إلى كعب بإسلام بجير ، فيشق الأمر على كعب فيكتب إليه هذه الأبيات :

ألا بلغا عنى بجيرا رسالة ... فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا [١]
سقاك بها المأمون [٢] كأساً روية ... فأنهلك المأمون منها وعلكا
ففارقت أسباب الهدى وتبعته ... على أى شىء ويب [٣] غيرك دلكا

---

[١] أى هل لك إرادة فيما قلته من كلمة الشهادة .

[٢] المراد بالمأمون النبى فقد كانت قريش تسميه المأمون والأمين فهو كما قيل :

ومليحة شهدت لها ضراتها ... والفضل ما شهدت به الأعداء

[٣] ويب غيرك أى هلكت هلاك غيرك فالويب الهلاك وهو بالنصب على أضمار الفعل .

على مذهب لم تلف أماً ولا أباً عليه ولم نعرف عليه أخاً لكا
فإن أنت لم تفعل فلست بآسف ولا قائل إما عثرت لعا لكا [1]

يقف بجير على هذه الأبيات ، وفى استطاعته أن يخفيها عن النبى حتى لا يوقع كعباً فى حرج فوق ما فيه من حرج ، ولكن الرجل بعد أن أسلم أصبح لايعرف إلا الحق ، أما عاطفته نحو أخيه فبات لا يعرفها أمام الحق وفى سبيل الحق ، فيذهب بجير بها إلى النبى ، فلما سمع قوله : سقاك بها المأمون : قال : مأمون والله ثم قال : من لقى كعبا فليقتله ، ولكن على بجير أن ينصح أخاه « والدين النصيحة » فيكتب إليه : إن النبى قد أهدر دمك ، وأنه قتل رجالا ممن كانوا يهجونه ويؤذونه فإن كان لك فى نفسك حاجة فطر إليه ، فإنه لا يرد أحداً جاءه تائباً ، ولا يطالب بما تقدم قبل الإسلام ، ثم يكتب إليه بهذه الأبيات :

من مبلغ كعبا فهل لك فى التى تلوم عليها باطلا فهو أحزم
إلى الله لا العزى [2] ولا اللات [3] وحده فتنجو إذا كان النجاة فتسلم
لدى يوم لا ينجو وليس بمفلت من الناس إلا طاهر القلب مسلم
فدين زهير وهو لا دين دينه ودين أبى سلمى على محرم

---

[١] لعا لك أى لا أدعو لك بالسلامة من العثرة لغضبى عليك ، فإن لعا لك كلمة دعاء للعاثر بالسلامة من عثرته .

[٢] كانت العزى أعظم الأصنام عند قريش ، وكانوا يزورونها ، ويهدون لها ، ويتقربون عندها بالذبائح ، وكانت العرب وقريش تسمى بها فتقول : « عبد العزى » ، وكانت قريش تطوف بالكعبة ، وتقول : واللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . فإنهن الغرانيق العلا
وإن شفاعتهن لترتجى

وكان الذى اتخذها ظالم بن أسعد ، ومكانها بواد يقال له : حراض ، بأزاء الغمير عن يمين المصعد إلى العراق من مكة ، وذلك فوق ذات عرق إلى البستان بتسعة أميال فبنى عليها بيتاً ، وسدانتها كانت بنى مره ، فلما كان عام الفتح دعا النبى صلوات الله عليه خالد بن الوليد ، فقال له : « انطلق إلى شجره ببطن نخلة فاعضدها . فأتاها فعضدها .

[٣] كانت صخرة مربعة ، كان سدنتها من ثقيف ، وكانوا قد بنوا عليها بناء ، وكانت قريش وجميع العرب تعظمها ، وبها كانت العرب تسمى « زيد اللات » ، وتيم اللات » ، ويقول ابن الكلبى فى كتاب الأصنام : « كانت فى موضع منارة مسجد الطائف اليسرى اليوم » .

ويبلغه الكتاب، فيأتى إلى قبيلة مزينة لتجيره من رسول الله فتأبى عليه ذلك، فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، ويشفق على نفسه ، فيقول قصيدة يمدح بها رسول الله صلوات الله عليه ، ثم يخرج حتى يصل المدينة فينزل على رجل من جهينة كانت بينه وبينه معرفة ، فيأتى به إلى المسجد ، ثم يشير إلى رسول الله ، فيقول له ها هو ذا المأمون فقم إليه واستأمنه ، ورسول الله بين أصحابه مكان المائدة من القوم حلقة دون حلقة ، يقبل إلى هؤلاء مرة فيحدثهم ، وإلى هؤلاء مرة فيحدثهم ، فيتخطى كعب هذه الحلقات حتى يجلس بين يدى رسول الله ، ورسول الله لا يعرفه ، وأما هو فيعرفه بالصفة التى وصفه له بها صاحبه ، فيضع يده فى يده قائلا : يارسول الله . إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمنك تائباً مسلماً . فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ فيقول الأمين : نعم . فيقول أنا كعب بن زهير . فيثب عليه رجل من الأنصار وهو يقول : دعنى يا رسول الله وعدو الله أضرب عنقه ، فيمنعه الرسول قائلا : دعه عنك ، فقد جاءنا تائبا نازعا . ثم يأخذ كعب ينشد قصيدته بين يدى رسول الله وهو يسمع فيقول :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول
وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلا أغنّ غضيض الطرف مكحول

وما إن وصل كعب إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الهند مسلول

حتى قال رسول الله : من سيوف الله ، وألقى عليه بردته الشريفة التى كانت عليه ، ويقول الباجورى فى حاشيته على هذه القصيدة : قال أهل العلم : هذه القصيدة هى التى حقها أن تسمى بالبردة ، لأن المصطفى صلوات الله عليه أعطى كعبا بردته الشريفة ، وأما قصيدة البوصيرى فحقها أن تسمى بالبرءة ، لأنه قد أصابه داء الفالج فأبطل نصفه وأعيى الأطباء ، فلما نظمها رأى المصطفى فمسح بيده عليه فبرىء لوقته .

وهذا من باب التصحيف ، والتصحيف فى لغة العرب كثير . قال المعرى : أصل التصحيف أن يأخذ الرجل اللفظ من قراءته فى صحيفة ولم يكن سمعه من الرجال فيغيره عن الصواب . وقد وقع فيه جماعة من الأجلاء من أئمة اللغة وأئمة الحديث حتى قال الإمام أحمد بن حنبل : ومن يعرى من الخطأ والتصحيف ؟ ! ! !

قال ابن دريد : صحف الخليل بن أحمد فقال : يوم بغاث بالغين المعجمة وإنما هو بالمهملة .

وإذا كانت قصيدة البوصيري قد اشتهرت بالبردة واسمها البرءة ، فان البوصيري نفسه قد اشتهر بغير نسبته ، فنسبته « الدلاصيري » ذلك أن أباه من دلاص ، وأمه من بوصيري قرية بقرب دلاص بمديرية بنى سويف فركبت له نسبة منهما وقيل : الدلاصيري . ولكنه اشتهر بالبوصيري . والبوصيري هذا كان مديراً للشرقية يوم كانت قصبتها بلبيس ، وله قصيدة طويلة مشهورة فى مباشري الشرقية منها :

نقدت طوائف المستخدمينا فلم أر فيكم رجلا أمينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم مع التجريب من عمرى سنينا
فكتاب الشمال هم جميعا فلا صحبت شمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عرفنا بهم فكأنما سرقوا العيونا
ولولا ذاك ما لبسوا حريرا ولا شربوا خمور الأندرينا

إلى أن قال :

وقد طلعت لبعضهم ذقون ولكن بعد ما حلقوا ذقونا

وللبوصيري فى مدائح النبي قصائد طنانة ، منها الهمزية وأولها :

« كيف ترقى رقيك الأنبياء » . وقصيدة على وزن « بانت سعاد » وأولها :

إلى متى أنت باللذات مشغول وأنت عن كل ما قدمت مسئول

وهذا عدا البرءة التى أولها :

أمن تذكر جيران بذى سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

ويطيب لى أن أختم هذه الكلمة بقوله فى هذه القصيدة :

يا أكرم الخلق مالى من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

مراجع البحث :

١ - أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير
٢ - الأصنام لابن الكلبي
٣ - الخطط التوفيقية لعلى مبارك باشا
٤ - فوات الوفيات لابن شاكر
٥ - حاشية الباجورى على متن بانت سعاد
٦ - المزهر للسيوطى

فى ميدان علم النفس

تعريف الحكم

لحضرة الأستاذ الدكتور سعيد زايد

ويلخص العلامة « بينه » الحكم فى ثلاث صور تتبع كل واحدة منها الأخرى ، تنبه أولاها الثانية بالتشابه وتوحى ثانيتها إلى الثالثة بالتجاور ، فالصورة عنده تقابل الحادثة ، أو هى الحادثة ذاتها فى تعريف العلامة « مارب » ، وعلى ذلك فالحادثة الأولى هى الباعث ، والثانية هى التجارب الماضية ، والثالثة هى الحلقة النهائية . وهذا يقابل فى رأى « هو لنجورث » ، الدالة على ، والمدلول عليه ، والدلالة .

وعلى هذا النمط ، راح المؤلف يوفق بين النظرية الصحيحة ـ فى رأيه ـ وبين نظريات كل من « وارن وهوفدنج وتتشنر وكالكنز » .

وثمة شىء مهم فى هذا المضمار هو بيان الصلة بين الإدراك الحسى والحكم ، والاستدلال والاعتقاد ... ينبغى التمييز بين ملكة الإدراك الحسى والحكم ، فهما يمتان بصلة إلى عملية أخرى هى الاستدلال ، ويتلخص التمييز فى عقد مقارنة بينهما ، فالحكم كما رأينا قد عُرف بأنه إثبات علاقة ، ولكن هذا التعريف ليس نوعيا بل عام ، والعمومية فى علم النفس ليس لها مقام كبير كالنوعية ، فقوانين التداعى والتشابه والتجاور والتضاد مثلا ليس لها مجال فى علم النفس ، بل ينبغى النزول إلى اختبار الأفراد .

ويجب أن نعرف أن العلاقات موجودة فعلا فى العالم ، وليست من صنع إدراكنا الحسى ، فللعلاقات وجود موضوعى ، ويمكن اكتشافها بأكثر من طريقة واحدة ، وأبسط الطرق تلك التى تقتضى منا أن نقابل بينها مباشرة لنعرف وظيفتها .

وأول ما يجب أن نفهم هو العلاقة بين الأشياء التى تنظر إليها ، فإننا نستطيع أن نصل إلى العلاقة بمقابلة شيئين ، فأحد الطرفين يبدو كأن تغيراً حدث فيه ، وإن لم نستطع تمييز موضوعات العلاقة . وبنفس الطريقة نعرف لأول وهلة أن هناك تشابهاً فى اللون أو تساوياً فى الكمية أو تناسباً فى الجمال بين موضوع ما

وموضوع آخر . فق كل هذه الحالات توضح العلاقة وتتميز وتتأكد إلى حد كبير ويمكن التعبير عنها بوضوح .

وهناك عملية ثانية لإدراك العلاقات وتقريرها ، وهى عملية لها خصائص تمتاز بها ، وهذه العملية تسمى بالإدراك الحسى الوسيط ، فإنه من الممكن بمقارنة حركتين ، أن نعرف إذا كانت إحداها أطول من الأخرى أم لا ، ولا يتأتى ذلك بإدراكنا مباشرة علاقات المكانية ، بل بملاحظتنا الوقت الذى استغرقته كل منهما ، كما يمكننا أن نعرف هل سماء اليوم أصفى من سماء الأمس من مشاهدتنا للظل الذى يقع على الأرض ، ومقدار وضوحه وجلائه ، ويمكننا كذلك أن نقدر قيمة ثوب ما ونوع القماش الذى صنع منه وما إذا كان أجود من غيره ، لا بمقارنة النسيج مباشرة ، ولكن بمقارنة سعريهما أو اسمى منتجيهما . هذه العلاقات التى نستطيع أن نؤكدها بطريق غير مباشر فروق فى الدرجة ، كلاهما ثابت وكلاهما مضمون ، ولكن قيمتهما تختلف فى الدرجة .

وكذلك العلاقة المكانية يمكننا أن نتأكد منها عن طريق العلاقة الزمنية ، فبالنسبة لمسافتين مثلا يمكن التأكد من إدراكها بالزمن الذى تستغرقه فيهما سيارة ما تسير بسرعة ثابته ، هذا النوع غير المباشر من إدراك العلاقات يمكن أن نسميه حكما ، وحياتنا اليومية ملأى بما يحقق هذه النظرية ، فالشاهد الذى أدرك جريمة ما إدراكا مباشراً ، لا تعتمد المحكمة — رغم ذلك — على شهادته كل الاعتماد ، بل تقوم بدراسة مقارنة لعدة شهادات أخرى لتعرف الحقيقة .

وفى كل حالات الحكم تحدث مقارنة حقيقية بين الأشياء - وإن لم يحدث حكم على هذه الأشياء فى ذاتها - يتميز - باختلافها - الحكم عن الإدراك الحسى . وقيام المقارنة هو الذى يميز الحكم عن عملية أخرى يمكن تسميتها بالاستدلال ، ففى الاستدلال تدرك العلاقة كذلك بعمليات غير مباشرة ، لاخلال مقارنة ، فنحن نؤكد مثلا أن وزنا ما أثقل من الآخر لأننا عند رفعنا إياه شعرنا بخفته ، أو لأن إحدى كفتى الميزان رجحت عن الأخرى ، ونستدل أيضاً أن وقتا ما أطول من الآخر لأنى كنت فيه أكثر تضايقاً ، وتستنتج كذلك أن الشتاء الماضى كان أشد برداً لأن حركة المرور تعطلت فيه عدة أسابيع ، والمقارنات هنا غير مباشرة ، وتقوم على معرفة إضافية يمكن أن تؤخذ بكل بساطة ، كرمز لحالة علاقية معينة ، لأشياء أولية فى الفكر .

وثمت طريقة رابعة لتقرير العلاقات وإدراكها تضاف إلى الطرق الثلاث السابقة

تلك هى العملية التى نأخذ بها العلاقات عن آخرين ، فإذا أخبرنى مدرس مثلا ، بأن المطبوعات تقرأ بوضوح أكثر فى اللون الأحمر منه فى اللون الأزرق ، أو بأن من يحكم نفسه أعظم ممن يحكم مدينة ، أو أن الاستجابات السمعية أقصر من البصرية ، فإنى أومن بهذه العلاقات جميعها لثقتى فى المدرس .

وربما يقال إن الإيمان ليس إدراكا بالضبط ، ولكن هذه العمليات الأربعة تكون ، بشكل ما ، صيغ إدراكنا فى حالة غياب الأفكار الفطرية والحقائق الموحى بها .

وتعريف الاستدلال والحكم والإدراك الحسى ، توازى الفروق التى عمدناها سابقاً بين الإدراك الحسى والحكم والإيمان ، فالاستدلال عادة أقل ثقة من الحكم ، والحكم أقل تأكداً من الإدراك الحسى . وبمعنى آخر يكون الإدراك الحسى أكثرها ثقة ، ويليه الحكم ثم الإيمان .

والخلاصة أن الإدراك الحسى يقوم على تأثير الأشياء نفسها فينا ، فنستجيب نحن بالإحسان ، فى حين أن الحكم يقوم على إدراك علاقة بين الأشياء نفسها ، وليس لهذه الأشياء دخل فيه ، أما الاستدلال فإنه يقوم على إدراك العلاقة ، ولكن للأشياء دخل فى إدراك العلاقة ، بمعنى أننا نلاحظ الجزئيات ثم نرقى منها إلى معرفة العلاقة ، فكأن الحكم دائماً يعتمد على ناحية غير مباشرة .

ولكن ، كيف نستطيع أن نعرف ، بالنسبة لأية حالة من الحالات ، ما إذا كان تقرير العلاقة مباشراً (إدراكا حسياً) أو غير مباشر (حكما) أو مشتقا (استدلالياً) .

يبدو أن هناك ـ على الأقل ـ طريقتان للمعرفة :

إحداهما تكون خلال الملاحظة المباشرة لأنفسنا أو خلال شهادة غير المتعلقة بملاحظة أنفسهم .

والأخرى تكون بالاستدلال بناء على قاعدة مفروضة للعملية التى نحاول التعرف بها ما إذا كان الاستدلال سيتخطى عملية المعرفة ، أم هو عبارة عن القضية فى حالة صحتها ويقينها .

وثمة طريقة ثالثة ، هى معرفة ما إذا كانت الفتاوى أو القضايا تصبح أكثر اتفاقاً بالعلاقات الصادقة بين الأشياء المحكوم عليها ، أو أكثر اتفاقاً بعلاقات العمليات التى نثق فيها بطريق غير مباشر .

والخلاصة ، أنه يمكن القول بأن كل طريقة من هذه الطرق خاصة بنوع معين من اليقين ، وربما اقتضى يقين ما أن نجمع بينها جميعاً .

الإسلام في مدغشقر

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ فى الآداب

[رأى حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر أن يوفد بعوثا لبحث حال المسلمين فى مختلف البلدان الإسلامية . ونحن نهدى هـذا المقال إلى البعثة التى ستطوّف فى هذه الأرجاء]

مدغشقر جزيرة كبيرة تبعد عن ساحل أفريقيا الشرقى بنحو ١٤٠ ميلا ، وتبلغ نحو ٩٨٠ ميلا طولا ، ٣٥٠ ميلا عرضا ، دخلت هى وجزائر كومورو (وتقع شمالها) تحت الحكم الفرنسى الاستعمارى سنة ١٨٩٦ م ، أما سكانها فيزيدون عن الأربعة ملايين من الأنفس .

وسكانها الأصليون ، ينقسمون إلى عدة قبائل ، تختلف عاداتها وتتباين ، جاء معظمهم من أندونيسيا والملايو ، فى سفن ساقتها إلى شواطىء الجزيرة التيارات والرياح الاستوائية . وفى القرن التاسع الميلادى دخل فيهم العنصر العربى ، وتولوا أمور الجزيرة ، وغدوا حكامها ، وإن كان هذا العنصر الجديد قد انصهر فى بوتقة الشعب ، فجرت فى عروقهم جميعا دماء واحدة .

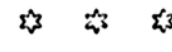
عرف العرب هـذه الأنحاء باسمين : أما الأول فهو بلاد « واق الواق » وهو اسم نقرؤه كثيراً فى كتب الرحلات الإسلامية والمؤرخين وألف ليلة . فيذكر القزوينى وابن الوردى أن جزائر واق الواق تحكمها امرأة تجلس على عرشها عارية وعلى رأسها تاج من الذهب ، تحف بها أربعة آلاف جارية . ولكن الإدريسى يرى هذه الملكة تلبس ثوبا غُزل من خيوط الذهب ، وفى قدميها نعلان صنعا من الذهب أيضا . ويروى الدمشقى أن أهل واق الواق مخلوقات تشبه

الكائنات الإنسانية ، ولكنهم ثمار أشجار عظيمة يتدلون منها من شعورهم ، وهم دائمو الصياح : واق واق [١] .

ونحن ان تركنا هذه الخرافات جانبا ، رأينا أن الاسم الثانى الذى عُرِّف به العرب هذه البلاد وهو « جزائر القمر » لا يزال باقيا يطلق على عدة جزائر تقع شمال مدغشقر هى « جزائر كومورو » والتحريف عن لفظنا العربى واضح . وقد أشار الجغرافيون العرب إلى هذه البلاد ومنهم الخوارزمى المتوفى سنة ٨٣٥ م ، كما أشار إليها غيره من الرحالة الأجانب ، فذكر ماركو بولو مثلا : أنها بلاد يعيش فيها المسلمون الذين « يعبدون » محمداً .

وينقسم سكان الجزيرة إلى أقسام ثلاثة ، وهم جميعا من المسلمين :ـ

يشمل القسم الأول جزائر القمر [كومورو] وسكان الساحل الشمالى الغربى من مدغشقر وهم « التاناكارانيون » و « التسمهيتيون » . أما القسم الثانى فهم « الصقالافيون » فى وسط الجزيرة وغربها . ويقيم القسم الثالث فى الجنوب الشرقى وهم « التايموريون » و « الطامباهوكا » و « الطيفسيون » و « الطيسكيون »



جاء العرب ـ فيما يروى « جبريل فيرّان » [٢] ـ على أربع موجات ، كانت الأولى بين القرنين السادس والتاسع الميلادى ، وحولوا بعض السكان ـ الوثنيين ـ إلى الإسلام . ويرجح أنهم قدموا من خليج فارس ، وأنهم كانوا من أهل السنة .

أما الموجة الإسلامية الثانية ، فقد جاءت من جزيرة سومطرة فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، وهم الذين أطلقوا على الجزيرة اسم واق الواق . وجاءت الموجة الثالثة من فارس ، أما الرابعة فكانت فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

(١) « تعنى كلمة واق واق باللغة الوطنية للجزيرة : الشعب أو الرعايا أو الوطن أو القبيلة ، ومن هنا يمكن القول إن مدغشقر هى واق الواق التى ذكرها اليعقوبى . أما فيما يختص بالثمار المتدلية من شعورها ، فانه توجد فى الجزيرة أشجار ضخمة ، لها ثمار تمت بسبب إلى ما ذكره الدمشقى » . [عن دائرة المعارف الاسلامية] ويمكننا أن نذكر أن « الرخ » قد يكون أحد طيور هذه الجزيرة ، وقد انقرض الآن ، وإن كان يذكر أن بيضه فى حجم كرة القدم .

(٢) Gabriel Ferrand كان الحاكم الفرنسى لجزيرة مدغشقر لسنين طويلة ، وكان عالما ترك عدة مقالات وكتب عن الجزيرة أهمها : Les Musulmans à Madagascar - Paris 1891 ومقالا فى دائرة المعارف الاسلامية بعنوان Madagascar and Wak - Wak.

والدليل على هذه الهجرات الإسلامية إلى الجزيرة يوجد فى مجموعة من المخطوطات وجدت بالجزيرة ، ومحفوظة الآن فى مكتبة باريس الأهلية .

وترك العرب والإسلام آثاراً واضحة فى حياة القوم ولغتهم وتقاليدهم ، وأول هذه الآثار هو الدين الحنيف الذى يعتنقه السكان ، ونجد بجانبه استعمال الحروف الأبجدية العربية ، أو العربية السواحلية ، وعدداً من الكلمات خاصة فيما يدل على أسماء الأيام والشهور ، واصطلاحات علم الفلك ، وألفاظ التحية وأسماء الملابس والنقود والآلات الموسيقية والكتابة ، وغيرها كثير . كما أنه ـ وإلى وقت قريب ـ كانت تصدر صحيفة إسلامية باللغتين العربية والملقية [اللغة الوطنية] فى تاناناريف عاصمة الجزيرة ، تلكم هى صحيفة « قمر الدين » . ولا يزال المسلمون يحتفظون بنسخ من القرآن الكريم ، ومن الكتب العربية الدينية ، وهى كتب يتوارثها الأبناء عن الآباء ، ويعدونها ـ كما يجب أن تكون ـ كتبا مقدسة لا يفرطون فيها [١] .

ومما يؤسف له أن الجهل والبدع يتفشيان بين أهل هذه البلاد فنجدهم شديدى الإيمان بالزار ، والسحر ، وعلم الرمل ، ومعرفة الطالع عن طريق يوم الميلاد وبروج الشمس والكواكب . كما تسود بين السكان خرافة هى عدم إكمال أى عمل يقوم به الإنسان ، ويقوم اعتقادهم هذا على سوء فهم معنى أن الله وحده هو « الكامل » [٢] .

* * *

وينتمى المسلمون فى مدغشقر إلى المذهب الشافعى ، ولغتهم الرئيسية هى اللغة السواحلية . وتتكون الجزيرة من أربعة سلطنات تحت الإشراف الفرنسى ، أولاها هى سلطنة « أنجازيشا » ومقرها مدينة « موروني » وبها جماعة شاذلية . والسلطنة الثانية هى سلطنة « أنجوان » وترجع إلى مدينة شيراز فى فارس ، جاء أهلها مدغشقر حوالى عام ١٥٠٦م ، ولهم مسجد كبير فى مقرهم « موسامودو » ، وانشقت عنهم السلطنة الثالثة ،

---

[١] لزيادة الايضاح انظر : Henri Rusillon : un Petit Continent - Paris 1933.
وكذلك كتب فيران السابقة

[٢] انظر : Robert Griffith : Madagascar - London 1919.
Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar - 1932.
والمصادر السابقة .

فيرجع ملوكها إلى أحد أبناء سلاطنة « أنجوان » . أما السلطنة الرابعة والأخيرة فهى سلطنة « موهللى » وهم شيرازيون أيضا ويرجع تاريخهم إلى عام ٨٣٠ م .

ويعتبر المسلمون الصقالاڤيون ، أقل مسلمى الجزيرة تمسكا بشعائر دينهم فهم مثلا يحتفلون برمضان ، وإن كانوا لا يصومونه ، كما أنهم يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير .

أما مسلمو الجنوب ، فهم حسب أساطيرهم قد قدموا من مكة المكرمة ، وما زالوا يحتفظون بالحروف الأبجدية العربية ، والعربية لغتهم المقدسة ، ولديهم مصاحفهم ، وكتبهم العربية فى الطب والفلك يتوارثونها جيلا عن جيل .

وحوالى سنة ١٩٢٤ رأى بعض الهنود ، وعلى الأخص « الأحمدية » منهم ، فى هذه البلاد أرضاً بكراً ، فأخذوا ينشرون تعاليمهم فيها بنجاح كبير ، وأخذ المسلمون من زنجبار وبلاد العرب يجوبون أنحاء الجزيرة يفقهون المسلمين أمور دينهم ، فإذا بالقوم يفيقون من سبات طويل ، وإذا بالإسلام يبدأ من جديد يدخل القلوب الغافلة عن ذكر الله ، وأهم مركز إسلامى فى الجزيرة يوجد الآن فى مدينة ماجمجا Majemga .



هذه خطوط رسمنا بها حال الإسلام والمسلمين بالجزيرة ، وبقى أن نبين أن هذه الأرض ، التى سكنها المسلمون ، وآمنوا فيها بالدين الحنيف ، كانت أبدا هدفا لحملات المبشرين المسيحيين ، يحاولون ثنى الناس عن دينهم ودين آبائهم القويم ، ويغرونهم بشتى الطرق والوسائل لترك الإسلام واعتناق النصرانية . وإن أمام البعثة الأزهرية التى ستجوب هذه البلاد ، لمشاكل جمة شائكة ، وإنى لأشفق عليها من الآن .

كتب « روبرت جريفيث » فى كتابه « مدغشقر »[1] . يقول : « علينا أن نعلم أن الإسلام ليس خطوة نحو المسيحية ، وإنما هو منافسها الأكبر والعقبة الكؤود فى سبيل انتشارها ، ولكنى أضيف أن الإسلام فى هذه الأنحاء دين شكلى فهو خليط من « المحمدية » والخرافات الوثنية » .

[١] انظر Robert Griffith : Madagasdar - London 1919.
Andrew Burgess : Zanhary in South Madagascar- 1932
والمصادر السابقة

وجاء فى تقرير إحدى البعثات المسيحية سنة ١٩١٣ . « إننا نجد أن معظم القرى يتكون نصفها من مسلمين والنصف الآخر من مسيحيين ، وإن نحن تذكرنا تجاربنا السابقة . لعرفنا أنه من الصعب أن ندخل المسيح فى قلوب هؤلاء القوم بعد أن سيطر عليهم الإسلام ، ولكن كان من حسن طالعنا ، أن قوات مسيحية تحتل هذه البلاد » [1] .

وتبذل هذه البعثات التبشيرية ما يسعها وبشتى الطرق لنشر النصرانية وإطفاء نور الله ، ولكن المسلمين هنالك « يغلقون مساجدهم عليهم ، ويحافظون على لغتهم ولهم مدارسهم الخاصة ، ويعملون ما فى استطاعتهم ليتجنبوا الاتصال بالمسيحيين » .

وهذا القول يكتبه هنرى روسيون سنة ١٩٢٢ [2]. فى حسرة ومرارة ، ولكن هذه الحسرة وهذه المرارة ، بل لنقول هذه الخيبة التى منى بها المبشرون المسيحيون هى التى يجب أن تدفعنا إلى الإسراع لإنقاذ هـــذا الشعب الإسلامى ، فإنهم لن يستطيعوا الصمود طويلا ، فالمستعمر يعمل على وأد لغتهم ونشر لغته ، وعلى غلق مدارسهم وفتح مدارسه ، وعلى هدم مساجدهم وإنشاء كنائسه ، ويتبع معهم كل سبيل لينسيهم ماضيهم المجيد ، ويحيلهم إلى أمة من العبيد لا ترى إلا بعين المستعمر ولا تسمع إلا بأذنه ، ولا تتصرف إلا بتفكيره .

* * *

والكلمة الأخيرة نقولها لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، فهو المسئول عن رسالة الأزهر ، وليست رسالته معهدا فى مصر يفتح ، ولا إشرافا على الدين فى مصر ، لا ، إنما رسالة الأزهر الحقيقية هى رعاية المسلمين فى خارج البلدان الإسلامية فى غرب أفريقيا وشرقها وجنوبها ، وفى جميع البلاد التى لا تتكلم العربيـة ، فإن الجهل بلغة القرآن مكن للمستعمر — المتعصب لدينه دائماً — أن يحول القوم عن عقيدتهم ، وأن ينشر فيهم الانحلال الخلقى والدينى ، حتى إذا تم له ما أراد ، سهل عليه نقلهم من دين إلى دين ، وأن يبقيهم تحت سلطانه إلى ما شاء الله .

---

[١] Report of Deputation to Madagascar - London Missionary Society - 1913.

[٢] هنرى روسيون فى مجلة العالم الاسلامى سنة ١٩٢٢

واقعة الجمل

لحضرة الأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

مدرس أول الآداب بالمعاهد الدينية

تعتبر هذه الواقعة ، استمراراً للثوران البركانى ، الذى أودى بحياة عثمان رضى الله عنه ، والذى يعتبر شيئاً جديداً فى صفحة التاريخ الإسلامى ، من حيث اصطراع القوم ، حول الخلافة والمناصب . فهذه الواقعة ثمرة فجة من ثمار هذه الفتنة الطائشة ، وهى بدورها ، ذات أثر بعيد فيما تمثل من الأحداث بعد ذلك ، على مسرح التاريخ الإسلامى .

برمت السيدة عائشة رضى الله عنها بالمدينة ، ساعة أن اشتد الحصار على الخليفة عثمان ، فتركتها تغلى مراجلها ، لتكون بمنأى عن أحداث الفتنة ومحتملاتها البغيضة وقصدت إلى مكة ، وبينا هى راجعة بعد ذلك إلى المدينة ، إذ « بعبيد الله بن أبى سلمة » وهو من أخوالها ، يخبرها بأن عثمان قد قتل ، وأن الناس قد بايعوا علياً ، فهالها الخبر ، وقالت : « ما أظن ذلك تاماً ، ردونى » ، وانصرفت عائدة إلى مكة وهى تقول « قتل عثمان مظلوماً ، والله لأطلبن بدمه » فقال لها « عبيد الله « ولم ؟ إن أول من أمال حرفه لأنت ، ولقد كنت تقولين ، اقتلوا نعثلا فقد كفر » قالت « إنهم استتابوه ثم قتلوه ، وقد قلت وقالوا ، وقولى الأخير خير من قولى الأول » فقال لها ابن أبى سلمة :

منك البداء ، ومنك الغير منك الرياح ، ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام وقلت لنا : أنه قد كفر
فهبنا أطعناك فى قتله وقاتله عندنا من أمر الخ .

دخلت السيدة عائشة رضى الله عنها مكة ، وهناك أخذت تستنفر الهمم للأخذ بثأر عثمان ، واجتمع حولها خلق كثير ، منهم « عبد الله بن عامر الحضرمى » أمير مكة من قبل عثمان و « سعيد بن العاص » و « الوليد بن عقبة » و « عبد الله بن عامر » و « يعلى بن أمية » و « طلحة » و « الزبير » . استقر رأى هذه الجماعة على المسير

إلى البصرة ، وأعدوا عدتهم لملاقاة جند على ، وأرادت حفصة متابعة عائشة ، فثناها عن ذلك أخوها « عبد الله بن عمر » .

ويجمل بنا فى هذا المقام ، أن نورد رسالة من « أم سلمة » زوجة النبي عليه السلام ، إلى السيدة عائشة تثنيها عن عزمها ، وذلك لقيمة هذه الرسالة من الناحية البلاغية ، قالت أم سلمة « من أم سلمة زوج النبى إلى عائشة أم المؤمنين ، فإنى أحمد الله إليك الذى لا إله إلا هو ، أما بعد فقد هتكت سدة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمته حجاب مضروب على حرمته ، قد جمع القرآن ذيولك فلا تسحبيها ، وسكر خفارتك فلا تبتذليها ، والله من وراء هذه الأمة ، لو علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النساء يحتملن الجهاد عهد إليك ، أما علمت أنه قد نهاك عن الفراطة فى الدين ، فإن عمود الدين لا يثبت بالنساء إن مال ، ولا يرأب بهن إن صدع ، جهاد النساء غض الأطراف ، وضم الذيول ، وقصر الموادة ، ما كنت قائلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو عارضك ببعض هذه الفلوات ناصَّة قعوداً من منهل إلى منهل ، وغداً تردين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقسم لو قيل لى : يا أم سلمة أدخلى الجنة ، لاستحييت أن ألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هاتكة حجاباً ضربه على ، فاجعلته سترك ، وقاعة البيت حصنك فانك أنصح ما تكونين لهذه الأمة ما قعدت عن نصحهم ، ولو أنى حدثتك بحديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنهشت نهش الرقشاء المطرقة والسلام » .

مضت السيدة عائشة إلى غايتها ، ولم تثنها هذه الرسالة عن عزمها ، وأعطى « يعلى بن أمية » عائشة الجمل المسمى « عسكر » ومضى القوم من ورائها قاصدين البصرة ، ومروا فى طريقهم بمكان يسمى « الحوأب » فنبحتهم كلابه ، فقالت عائشة : أى ماء ؟ فقيل : هذا الماء الحوأب ، فصرخت عائشة وقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وقالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، وعنده نساؤه« ليت شعرى ينبحكن كلاب الحوأب » ، ثم ضربت عضد بعيرها فأناخته وقالت : ردونى ، أنا والله صاحبة ماء الحوأب ، غيرأن القوم ما زالوا بها حتى مضت معهم إلى الغاية المقدورة ، ولما أشرف القوم على البصرة ، أرسلت رضى الله عنها تستميل بعض وجوهها ، ولما علم « عثمان بن حنيف » عامل البصرة من قبل على بمقدم القوم ، أرسل إليهم « أبا الأسود الدؤلى » و « عمران بن حصين » يسألانهم

فيما قدموا ؟ فسألا عائشة رضى الله عنها فأجابت أنها قادمة فى الطلب بدم عثمان ، والثأر من قاتليه ، الذين استحلوا حرمة البلد الحرام ، والشهر الحرام ، فسفكوا الدم الحرام ، واستباحوا المال الحرام . وكذلك سألا طلحة : ألم تبايع علياً ؟ فقال : بايعت واللج على عنقى ، وسألا الزبير فقال كما قال طلحة ، ورجع الرسولان إلى « عثمان بن حنيف » وابتدره « أبو الأسود الدؤلى » قائلا :

يا ابن حنيف قد أتيت فأنفـــر وطاعن القـــوم وجالد واصبر
وابرز لهم مستلئما ، وشمـــر

ودار قتال مبدئى بين الطرفين ، راح ضحيته « عثمان بن حنيف » و « حكيم بن جبلة » . ونزل « علىّ » « بذى قار » فى طريقه إلى البصرة ، وأرسل من يندب له أهل الكوفة ، فكانت الجنود توافيه بذى قار ، على أهبة الاستعداد للمسير إلى البصرة ، وبلغ ما اجتمع له من الجند ١٢٠٠٠ ، فجعلهم أسباعاً ، على كل سبع رئيس .

وأشفق على من هول ما قد يتمخض عنه لقاء الفريقين من مصائب وأهوال ، فأحب أن يبتدىء الأمر بالتفاهم مع الفريق الآخر ، لعل ذلك يحسم الخلف ويحقن الدماء ، فلما انتظم عقد رجاله بذى قار ، دعا على إليه « القعقاع بن عمرو » وكلفه بالذهاب إلى البصرة فى هذه المهمة ، فسار إليها ، وحذر القوم عاقبة الخلاف ، وأنه مطوح بالأمة إلى المهالك ، وقال لهم فيما قال : لقد قتلتم بثأر عثمان ستمائة رجل إلا رجلا ، فغضب لهم ستة آلاف من قومهم ، فماذا أنتم صانعون غداً إذا ناجزوكم وانتصروا عليكم ؟ إن الخير كل الخير فى أن تقنعوا بما أخذتم من ثأر عثمان ، وترجعوا إلى الجماعة ، وتبايعوا علياً ، فانه أصلح للأمر . رضى القوم بالصلح وكاد الخلاف أن ينحسم ، وكان أشياع طلحة والزبير بالفرضة من البصرة ، وكان أشياع على بالزاوية منها ، بعد أن رحلوا عن ذى قار ، أى أن الفريقين أصبحا قاب قوسين أو أدنى من الالتحام ؛ وخرج على ، كما خرج الزبير وطلحة ، كل يبغى لقاء صاحبه ، والتقوا عند مكان يقال له « الخريبة » ، ولما قيل لعلى أن ذاك هو الزبير قال : أما أنه أحرى الرجلين أن ذكّر بالله أن يذكر ، وسألهما على بأى حق يستحلان دمه وقتاله وهم جميعاً أخوة فى الإسلام ، فاتهمه طلحة بالتأليب على عثمان فقال على : لعن الله قتلة عثمان ، ثم قال للزبير ، أتذكر يا زبير يوم مررت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بنى غانم فقال لك:

« ولتقاتلنه وأنت له ظالم » فقال الزبير : اللهم نعم ، لو ذكرته ما سرت مسيرى هذا ، والله لا أقاتلك أبداً . غير أن « عبد الله بن الزبير » استطاع أن يحمل أباه على مقاتلة على .

ولما كان على رضى الله عنه حريصاً كل الحرص ، على بذل أكبر جهوده لتجنب القتال ، وانهاء الأمر بالحسنى ، فقد انتدب من لدنه « عبد الله بن عباس » كما انتدب طلحة والزبير من لدنهما « محمد بن طلحة » . وأخيراً قر قرار المندوبين على حسم الخلاف ، وانهاء الأمر بين الفريقين بالحسنى ، وطرب لذلك كل حريص على خير المسلمين ، ما عدا أولئك الذين سعوا فى قتل عثمان رضى الله عنه ، فقد خافوا مما عساه يحل بهم إذا ما هدأت الفتنة ، ولقد استطاع هؤلاء أن يوغروا صدر الفريقين على السواء ، فبات كل فريق يتربص بصاحبه ، ويتحفز للقائه .

تواقف الجمعان للقتال ، وخرجت عائشة رضى الله عنها ، فى هودج جلل بالحديد ، وثار المعسكران يقتتلان ، وحمى وطيس القتال ، ورحى الحرب تدور مرة على الكوفيين وأخرى على البصريين ، ولقد قيل إنه قد قتل يوم الجمل سبعون قرشياً ممن أخذوا بالخطام ، كما يروى أن « مروان بن الحكم » قد قطع فى دفاعه عن الجمل أكثر من عشرين يداً من أهل الكوفة ، وكان من بين ضحايا الجمل « محمد بن طلحة » من خير أبناء الصحابة ورعاً وتقوى وزهداً وعبادة ، كما كان « أبو طلحة بن عبيد الله » رضى الله عنه أحد ضحايا الخطام . ولما تزايد عدد الضحايا من الفريقين ، أشار على بعقر الجمل فتقدم إليه « بجير بن دلجة الضبى » واجتث ساقه ، فهوى ، وحمل أتباع على هودج عائشة ، إلى إحدى دور البصرة ، تحت رعاية على وأصحابه ، وانتهت المعركة بهزيمة أهل البصرة . ولقد عاجل « عمرو بن جرموز » الزبير بن العوام فقتله بوادى السباع وهو عائد بعد انتهاء القتال ، ولقد بشر على عمراً بالنار ساعة علم بمقتل الزبير على يديه .

ولقد نكب الإسلام ، فى هذه الواقعة ، نكبة كبرى إذ قتل فيها عدد كبير من أفاضل الصحابة والتابعين . وغداة الموقعة جاء على إلى عائشة وقال لها « غفر الله لك » فقالت « ولك ، ما أردت إلا الإصلاح » وظلت عائشة بالبصرة حتى موسم الحج . فجهزها على إلى المدينة فى ٢٠ أو ٤٠ امرأة من ذوات الشرف ، وجهز معها أخاها محمداً ، وشيعها هو وأولاده رضى الله عنهم أجمعين .

بقى من أمر هذه الواقعة ، أن نعلق عليها تعليقاً تاريخياً : فالمطالبة بدم عثمان تكون من حق الإمام لا من حق الأفراد ، فكان الأحرى بفريق عائشة أن يتريث حتى يرتضى المسلمون خليفة عليهم ، يقيم الحدود ويأخذ برقاب المجرمين ، وكان لوجود نفر ممن اشتركوا فى دم عثمان كابن سبأ فى جيش على ، أبلغ أثر فى استطارة الشر ، وعدم الانصياع لصوت الضمير والعقل ، وتعتبر هذه الواقعة فاتحة المعارك الكبرى بين الأحزاب السياسية ، وأكبر دليل على اتساع الفتق وتعاظم الداء ، إذ انقسم المسلمون فيها على أنفسهم : عرب البادية والكوفة ينصرون علياً ، وعرب الحجاز والبصرة ينصرون عائشة ، ولذا تعتبر الواقعة انتصاراً للفريق الأول على الفريق الثانى .

وإذا كانت نهاية الموقعة إنتصاراً حربياً لعلى ، فهى من الوجهة السياسية ليست كذلك ، فقد شغلته هذه الواقعة عن خصمه الأكبر « معاوية بن أبى سفيان » الذى انفرد بالشام وراح يحكمه بأمره ، ويدبره على أحكم وجه ، استعداداً للصراع المقبل بينه وبين على . ثم كان من نتائج هذه الواقعة أن سخط كثير من العرب على قريش ورجالها لأنهم أوردوا أبناءهم موارد التهلكة . هذا وإنى أعتقد أن التبعة الكبرى فى هذه المعركة الدامية ، التى ذهب ضحيتها نفر من جلة الصحابة والتابعين . تقع على عاتق عائشة ، فانى أقطع بأنه لولا وجود عائشة فى موقعة الجمل ، ما اجتمع لأعداء على شمل ولا قامت لهم قائمة ، إذ ألهبت النفوس بخطبها ، وحركت المشاعر بوجودها ، حتى بلغ القتال أشده ، وأنتج ما أنتج من المصائب والأهوال ، وكان الأولى بأم المؤمنين أن تقف من الفريقين موقف الناصح المرشد ، حتى تزيل ما فى النفوس من تحفز وتحمس للقتال ، وتسعى جهدها لتأليف القلوب حول الوحدة الإسلامية بالطرق السلمية ، لا باراقة الدماء ، والوقوف موقف المناصر لحزب والمناهض لآخر . والناظر لتطور الحوادث يرى أن هذه الواقعة قد قوت من حجة القائلين بالأخذ بثأر عثمان ، لأن علياً قد آوى قتلته فى جنده ، فأضعف بذلك مركزه ، وقوى بالتالى مركز معاوية ، ثم أن عاصمة الاسلام قد جافت من بعد هذه الواقعة « المدينة » مطلتما إلى غيرها من المدن ، وبالاضافة إلى كل ما سبق ، قد أتاحت هذه الواقعة للمنافقين جواً مناسباً لبذر بذور الخلاف بين المسلمين .

أسلحة القتال عند المسلمين

لحضرة الأستاذ هاشم محمد ابراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

— ٢ —

تكلمنا فى العدد الماضى عن بعض أسلحة المسلمين البرية المباشرة وسنحاول هنا الإشارة إلى بعض أسلحة أخرى غير مباشرة لا تقل فتكا وتدميراً عن الأسلحة الأخرى ، بل تمتاز عنها بسهولة الاستعمال وقلة ضحايا الجنود التى تستعملها ، ولو أن بعض هذه الأسلحة كان معروفا ، إلا أن المسلمين أدخلوا عليها من التحسينات ما جعل لها قيمة فى حروب العصور الوسطى لا يستهان بها :

فمثلا استعمل المسلمون القذائف الملتهبة التى كانت تسمى النار الاغريقية وهى عبارة عن مخلوط كيمائى به ملح البارود الذى يشتعل عند اصطدام القذيفة بأجسام صلبة ، وقد اخترع هذا السلاح مهندس سورى ، ثم باعه للدولة البيزنطية التى كافأته بسخاء ، وعندما هاجمت البحرية الإسلامية فى عهد معاوية بن أبى سفيان القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية لم ينقذها من السقوط فى يد العرب إلا النار الاغريقية التى مزقت الأساطيل الإسلامية ، فكان ذلك درساً قاسياً وسلاحا نافعاً أخذه العرب عن البيزنطيين ضمن أسلحة أخرى .

ومن الطريف أن نصف بعض الأسلحة الغير المباشرة التى ابتدعها المماليك بمصر خاصة أيام الظاهر بيبرس فى حربه مع المغول والصليبيين ، وقد كانت هذه الأسلحة الحربية الاقتصادية فتاكة ولا تحتاج إلى تضحيات جنود كثيرين ، وكان الغرض منها هو إحداث كل ما يمكن من تخريب ، وإشعال الحرائق فى أطراف بلاد الأعداء ، والثابت فى تاريخ دولة المماليك أنه كان بالجيش فئة من فئات المماليك تسمى بالمحرقات ، ويظهر أنها كانت هيئة منظمة كتنظيم البريد ، وربما كانت فرعا من البريد ، وكانت طريقة هذه الفئة أن تربط بذيول الثعالب خرقا مبللة بمواد ملتهبة ثم يشعلون تلك الخرق ويتركون الثعالب تنطلق نحو بلاد العدو ، ولدولة

المماليك أيضاً اختراعات أخرى كثيرة منها مثلا : اختراع خنق القلاع المحصورة بأنواع من الغازات ، وفكرة إحداث ثقوب بحوائط المدن الحصينة المستعصية الفتح ثم حشو هذه الثغوب بمواد ملتهبة ، وبهذه الوسائل وغيرها انتصر المسلمون على المغول كما انتصروا على الصليبيين فى عدة مواقع حاسمة ، وقد استخدم السلطان بيبرس وغيره من سلاطين المماليك فى حروبه الدبابات ذات العجل والزحافات والأبراج المتحركة والمطاطيع التى كانت تهدم بها أسوار القلاع .

أما أسلحة القتال البحرية عند المسلمين : قبل الإسلام وفى صدره ، فلم تكن موضع عناية . وقد علل ابن خلدون فى مقدمته [ص ٢٢٠] سبب امتناع العرب فى أول عهدهم عن ركوب البحر « أنهم لم يكونوا أول الأمر مهرة فى ثقافته وركوبه ، والروم والأفرنجة لممارستهم أحواله . . . ، مرّنوا عليه فأحكموا الدراية بثقافته . فلما استقر الملك للعرب ، وشمخ سلطانهم وصارت أمم البحر خوَلاً لهم وتحت أيديهم . . . . أنشأوا السفن والشوانى وشحنوا الأساطيل بالرجال . . »

ويرجع الفضل فى إنشاء الأسطول الإسلامى الأول إلى عثمان بن عفان ، عندما ألح عليه معاوية ، واليه بالشام ، بضرورة غزو بلاد الروم بحراً ، فجهز أول أسطول للمسلمين ، وقاده عبد الله بن سعد بن أبى سرح ، والى مصر من قبل عثمان ، وحارب به أمبراطور الروم قسطنطين فى عرض البحر الأبيض وانتصر عليه فى واقعة « ذات السوارى » ، مع أن عدد سفن المسلمين كان يقرب من المائتى سفينة وقفت أمام ألف سفينة للعدو .

وعنى معاوية مؤسس الدولة الأموية بإنشاء السفن الحربية ، فأعد لغزو الدولة البيزنطية - التى كثيراً ما أغارت على البلاد الإسلامية - ما يسمى بالشوانى والصوائف ،وقد بلغ عدد سفنه ألفاً وسبعمائة سفينة .

ولما كانت مصر من البلاد التى تعرضت للغزو البيزنطى ، فقد اهتم أمراؤها ببناء السفن ، وأنشئت دار لبنائها فى جزيرة الروضة (الخطط للمقريزى ج ٢ ص ١٩٠) واستمرت البحرية الإسلامية فى عظمتها طوال العصر الأموى وبداية العصر العباسى ، وقد وجه الفاطميون عنايتهم إلى الأسطول البحرى لصد غارات

البيزنطيين على الشام ، ومن ثم أنشأ المعز لدين الله داراً لصناعة السفن بنى فيها ستمائة مركب ، وكان على رأس الأسطول المصرى فى العصر الفاطمى عشرة قواد على رأسهم رئيس يسمى أمير الجيوش ، واشتهرت الروضة والإسكندرية بصناعه السفن الحربية .

ولما انتقل الحكم فى مصر إلى صلاح الدين الأيوبى ، اهتم بالأسطول اهتماماً كبيراً لمحاربة الصليبيين وصدهم عن الموانى الإسلامية ، وقد أنشأ ديواناً خاصاً عرف باسم « ديوان الأسطول » ، وكان القائد يسمى أمير الماء أو أمير البحر .

وازدادت العناية بالأساطيل البحرية أيام المماليك ، خاصة فى عهد السلطان بيبرس ، فى عهد الأشرف خليل بن قلاوون ، الذى أنشأ أسطولا قوياً مكوناً من ستين مركباً جهزها بالآلات الحربية والرجال ، وكانت هذه السفن مقسمة إلى أنواع منها الشوانى وهى المراكب المعدة للجهاد فى البحر ، والحراريق وهى سفن فيها قاذفات نيران يرمى بها العدو فى البحر ، والطرائد وهى سفن صغيرة سريعة ، وهى الألفاظ المستعمله اليوم للمدمرات والطرادات والبوارج .

ويدين العرب للبيزنطيين بفضل تعليمهم الفنون البحرية ، ولكن العرب نبغوا وأصبحوا سادة البحار بفضل شجاعتهم ، وقوة احتمالهم للشدائد والأهوال ، فأصبحوا أساتذة أوربا ، والدليل على ذلك أن بعض الألفاظ البحرية العربية لا تزال مستعملة فى الاصطلاحات البحرية الأوربية فمثلا :

كلمة Arsenal [وبالإيطالية Darsonal] أخذت عن لفظ « دار الصناعة » بالعربية .

وكلمة Admiral أخذت عن لفظ « أمير البحر » بالعربية ، وكلمة Cable المأخوذة عن لفظ « جبل » .

ويجب أن لا ننسى أن العرب اهتموا بنظام الجاسوسية فى الحروب ، خاصة أيام الدولة العباسية ، فقد استخدمت النساء والرجال على السواء ، لمعرفة أحوال الأعداء وقواتهم وأسلحتهم ، وكان هؤلاء يرحلون إلى البلاد المعادية ، متنكرين فى أزياء الأطباء والتجار وغيرهم لجمع الأخبار ، وكانت الجاسوسية العباسية على الأخص نشطة إلى حد كبير فى الدولة البيزنطية التى نافست الدولة العربية ، والتى كان الفن الحربى يخرج منها فى الماضى .

كيف نقرأ الشعر

بقلم الأستاذ حمزة محمد الشيخ

ليسانسيه فى الأدب الانجليزى

ما زال تعريف الشعر بأنه « حديث الذكريات » – لما فيه من إمعان فى البساطة ، وإغراق فى الوضوح – أبرز التعريفات جميعاً ، رغم تعددها وكثرتها . ويرمى ذلك التعريف إلى جعل العاطفة واستثارتها ، والفكر وشحذه ، مدار الشعر ، ومجال الشعراء ؛ إذ أن الإنسان قلما يذكر شيئاً لم يستثر شعوره ، أو ينبه خياله ، أو يستنهض عقله . والكلمة الشعرية لا بد أن تصل إلى أغوار الشعور ، لما لها من جرس وتفاعيل Cadence ، ولما يحيط بها دائماً ، من قدرة إيحائية واسعة ، تفتح أمام الفكر آفاقاً فسيحة من المعانى ، ولما تتسم به من جمال فريد وسحر أخاذ .

وفى الحق إن الجهد الفكرى ، الذى نحتاج إليه عند قراءة الشعر ، يناقض تماماً الجهد ، الذى يلزمنا لكى نصل إلى معانى التعبيرات الصوتية الأخرى ، التى لا يتسع مجالها الإيحائى Aura of Suggestion إلا لمعنى واحد ، من بين معانى القاموس اللغوى ، بينما تشغل اللفظة الشعرية مجالا أفسح وأرحب ، تشع فيه معانيها الإيحائية العديدة ، كما تشع الذرة خطوط القوى ، فتحتل الزمان والمكان حواليها . ولعلنا بذلك نستطيع أن نجلو السر الغامض ، الذى يجعل الأسلوب العلمى ، أقرب إلى الفهم والإدراك ، عند القراءة ، أكثر منه عند السماع ، كما يصبح الشعر هو الآخر – حين يسلس قياده ، وتواتى قوافيه – لغة الإنشاد ، التى تعتمد على الأذن إلى حد بعيد . وفى خلال ذلك يحتاج الشاعر فى تعبيره – كما يحتاج الناثر – إلى التموجات الموسيقية التى لا مفر من تعاقبها ، كلما تعاقبت مراحل الجهد والراحة ، واحدة إثر أخرى ، أو كلما دفعت المناسبة الشاعر إلى زيادة التأكيد لبعض المعانى ، التى تروقه وتهمه أكثر من سواها . ونحن نجد ، فى أنواع الشعر جميعاً ، رابطة قوية ، بين التوقيع الموسيقى ، الذى يخضع لهوى الشاعر فى تقدير

الأشياء ، وبين الأوزان الشعرية ، بتفاعيلها المختلفة ، التى استمدت أصولها من تقاليد لغوية قديمة ، خضع لها النظم خلال أزمان طويلة ، ونهج الشعراء على منوالها فى أشعارهم .

أما العلاقة بين الشعر والنثر مهما تغايرت ألوانه ، فهى تشبه ، إلى حد كبير ، العلاقة بين علمى الجبر والحساب ... فالشاعر إنما يعبر عن تجاريبه الشخصية أو الخيالية ، بيد أن هذه التجارب لا تستكمل قيمتها وأهميتها ، ما لم تتمثل فى مخيلة القارىء صوراً مفعمة بالحركة والنشاط ، وما لم تلق بأضوائها فوق تجارب القارىء نفسه ، ومعنى ذلك كله ، أن نجاح الشاعر أو فشله إنما يقاس بكثرة المناسبات التى نذكره ونذكر شعره فيها .

وما دمنا قد اصطلحنا على أن الشعر إنما هو « حديث الذكريات » فمن الطبيعى أن نجد سائلا يسأل : وعلام تدور تلك الذكريات ؟ أعلى الحياة تدور ، أم على الموت ؟ أم تعتمد على التعبير عن أغوار الكراهية والخوف ؟ أم تمتد بالوصف لتلك الرغبات العميقة ، التى تراود الناس فى يقظتهم ، وتهفو إليها نفوسهم فى أحلامهم فيتحقق بعضها طوراً ، ويصبح مصدر ابتهاج وإيناس ، ويفشل بعضها طوراً آخر ، فيظل ماثلا للعين ، رمزاً للبؤس والحرمان ؟ أم تصور الحق ، وقد استطال بعنقه فى يأس حارق ، وفى حرقة يائسة ؟ أم تصف الباطل ، ، وقد عم البسيطة فى جرأة طاغية ، وفى طغيان جارف ؟ أم تنتزع حديثها من الأطوار التى تعرض لنا جميعاً ، فتكشف عن الطفولة وبساطتها ، وعن الشباب وثورته ، وعن الكهولة واتزانها ؟

أجل إن « حديث الذكريات » يتناول ذلك كله ، بيد أنه لا يقتصر عليه ، وإنما يتعداه إلى غيره مما نذكره من الأشياء ، بين الفينة والفينة ، مهما كان تافهاً بسيطاً . . وفى الحق أننا نسىء إلى الشعر كثيراً ، ونعوقه عن السريان فى جداوله الأصيلة ، إذا نحن أردنا أن نحبسه على تجاربنا العميقة وحدها ، بحيث لا يتناول غيرها بالوصف والتصوير . . بل إن من أرادوا بالشعر ، من هذه السبيل ، أن يمجدوه ، ويحفظوا له مكانته السامية ، لم ينجحوا إلا فى صد الناس عن الشعر والشعراء ، الذين ملتهم آذانهم ، ومجتهم أسماعهم . . إذ ليس الشعر سوى صورة

ناطقة للطبيعة البشرية ، تعكسها بشرها وخيرها ، وتنقلها إلينا بعمقها وضحالتها ، وتعبر لنا عما فيها من ألوان البساطة الخالصة ، والصنعة الجارفة ، وعما يعرض أمام أعيننا من ضروب الذكاء والغباء ، وعما نشهد من صفوف الدنس والعفاف .

وثمة أمر آخر يجعل الشعر ذا مجال فسيح فى أغراضه ومراميه ، وينأى به عن الضيق والتضييق ، الذى يريده له بعض النقاد . . ذلك أنه بالرغم من انتشار التعليم اليوم ، وازدهار الطباعة وذيوعها ، وظهور وسائل التثقيف الجماعية الأخرى ، كالإذاعة اللاسلكية ، والشاشة البيضاء ، والمسرح ، إلا أن الهوة بين الذوق الأدبى الرفيع النابه Highbrow taste ، والذوق الأدبى الخفيض المنقاد Lowbrow taste ما زالت بعيدة ، بل أبعد مما كانت حتى اليوم .

ثم جاء بعد ذلك دور الانقلاب الصناعى ، الذى كان لسائر بلاد العالم فى العصر الحاضر منه نصيب ، فقضى على كثير من الجماعات الزراعية ، بما لها من ثقافات محلية تقليدية ، وأضحى الناس قسمين : فهناك العامل وصاحب العمل من ناحية ، وهناك المساهمون من ناحية أخرى . ولم يجد الأولون فسحة من الوقت ، أو متسعاً من الفراغ ، بعد أن وسعهم العمل ، وشغلهم السعى ، أما الفئة القليلة الأخرى ، فقد اتسع أمامها الفراغ تزجيه أنى شاءت . وجرى الأدب بطبعه كذلك فى شعبتين اثنتين ، تمد إحداهما الفئة الأولى بوسيلة تهرب بها من صخب الحياة ، وضجيج المصنع ، وتمد الأخرى الفئة الثانية ، بوسيلة تملأ بها فجاج الروح ، أو تنسى بها عالمها ، لتعيش فى عالم من نسج خيالها ، تعمره أشباح هائمة ، وتسوده أجواء مفعمة بجمال الخرافة وسحر الأسطورة .

والنتاج الفنى الرائع قد يكون من صنع أفراد ، وقلة الإقبال عليه لا يعنى بالضرورة أن ذلك النتاج تنقصه الروعة ، ويعوزه الإتقان . . أما النتاج الفنى العام universal art فلن يتحقق إلا فى المجتمع الذى تتحد مشاعره ، وتتفق معايير الأشياء عنده ، وتنسجم آماله وأهدافه . . وبعيد كل البعد أن يستطيع الأديب صوغ خير نتاجه وآنقه إلا فى مثل ذلك المجتمع .

فى النقد الأدبى

للأستاذ الشيخ أحمد محمد صقر

كلية اللغة العربية

يفهمون النقد فى عصرنا على أنه تناول الأمر بالعيب والبحث عن النقائص فقط . . . ولكن الحقيقة أن النقد يشمل الكشف عن المساوى وتجلية المحاسن . . والنقد الأدبى ـ بهذا المعنى ـ هو الفهم الصحيح والتحليل الدقيق للآثار الأدبية . . . وإظهار القيمة الفنية للأثر الأدبى . ارتفعت هذه القيمة أم انحطت . . . فإذا تناول الكاتب موضوعاً بالنقد فإنما يريد أن يوضحه ويكشف عن حقيقة كما ينقد « الصيرفى » الدراهم ليميز جيدها من زائفها . . !

فما عدة هذا النقد . . . وماوسائله ؟

أهى القواعد أم السليقة ؟

أهى المعايير والقوانين البلاغية أم الذوق السليم والحسّ المرهف ؟ وبعبارة أوضح : أهى الصناعة بقواعدها المعقدة . . . أم الطبيعة بأسلوبها السهل اليسير . . ؟

أسئلة تتدفق على أذهان المشتغلين بالأدب العربى فى هذا العصر . . . وتحتل حيزاً كبيراً من أفكارهم . . . ويختلفون فى الجواب فقريق يقول : إن الأدب فن . . . والفن يرجع إلى الذوق . . . فالحكم فى القضايا الأدبية مستمد من السليقة معتمد على الفطرة . . . وكذلك كان العرب القدماء ينقدون الأدب . . . يتذوقون معناه . . . ويهتزون لموسيقا الألفاظ هزة الشعور بالجمال والإحساس بالحسن . حتى إن الحذاق من النقد زيفوا قصة النابغة الذبيانى مع حسان بن ثابت والخنساء فى سوق عكاظ لأنهم وجدوا عليها مسحة الصنعة ، وهى قصة معروفة تتلخص فى أن الخنساء أنشدت النابغة ـ وهو قاضى الشعر فى عكاظ ـ قولها فى رثاء صخر أخيها .

قـــذى بعينيك أم بالعين عُوار	أم ذرفت إذ خلت من أهلها الدار

فلما قالت :

وإن صخرا لمولانا وسـيدنا وإن صخرا إذا نشتو لنحار
وإن صخراً لتأتم الهـداة به كأنه علم فى رأسـه نار . . .

قال لها : لولا أن أبا بصير - يريد الأعشى سبقك لقلت : إنك أشعر من فى السوق . . ؟ فغضب حسان لذلك وقال : بل أنا أشعر منها ومنك ، قال النابغة : حين تقول ماذا ؟ قال : حين أقول :

لنا الجفنات الغر يلمعن فى الضحا وأسيافنا يقطرن من نجدة دما
ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

فقال النابغة : قللت جفانك . . . وقلت « يلمعن » ولو قلت « يبرقن » لكان أجود . . . وقلت فى الضحى « ولو قلت « فى الدجى » لكان أقرب لأن الدجى منزل الضيفان وقلت « يقطرن » وكان « يجرين » أبلغ . . . وافتخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ! !

وقد زيف النقاد هذه القصة وشكوا فى ثبوتها على هذه الصورة لأنهم وجدوا النابغة يعلل لنقده بما يشبه كلام النحاة وأرباب الصناعة مع أنه العربى الصريح الذى كان يذوق الكلام ولا يعرف شيئاً من الاصطلاحات التى وجدت بعد ذلك ، وكان الناقد العربى قديماً يستحسن الكلام أو يستقبحه دون أن يقول لماذا حسنه . . . أو هجنه ؟

ويرى فريق آخر أن الذوق لا يقوم بالنقد ولا يكفى فى احتمال اعبائه ولا بد من الاستئناس بالقواعد العامة فى الكشف عن مزايا الأدب أو نقائصه . . . إذ لا يصح أن يترك موضوع خطير كالنقد تتلاعب به الأذواق وتتباين فيه المشاعر فيدمغ أثر جليل بحكم هزيل ورأى خطير . ! !

كما كان يحدث فى الجاهلية وصدر الإسلام إذ يسمع الرجل بيتاً من الشعر فيقسم على الفور بأن قائله أشعر الناس . . . وحين يسأل الرجل عن أشعر الناس يقول : أشعر الناس من يقول كذا . . . ويروى بيتاً أو بيتين فإذا سئل بعد ذلك ذكر شاعراً آخر . . وهكذا لو اقتصيت مقالاتهم لخرجت ، وليس فى الناس شاعر « ليس أشعر الناس ؟ ! !

ونحن إذا نظرنا حولنا اليوم لنقرر « أى الرأيين السابقين أصلح ؟ » لوجدنا قومنا فقدوا السليقة فلم يعودوا يفهمون الكلام إلا بواسطة المعاجم ولا يتميمون الألفاظ إلا بعد طول النظر فى كتب النحو . . . ولا يعرفون قيمة التعبيرات إلا بعد أن يستشيروا « السكاكى » وحواشيه فى فوائد « التقديم والتأخير » ، وتعريف « المجاز والحقيقة » . والتشبيه والاستعارة . ! ! فمن أين تأتينا السليقة والصناعة تكتنفنا من الجهات الأربع كما يقولون . . . وتحيط بنا فى كل مكان .

وحسبك أن « البلاغة » وهى المادة التى صار إليها النقد الأدبى فى شكله الممسوخ — تتنافر كتبها مع اسمها ويناقض أسلوبها وطرق البحث فيها المقصود من تأليفها . ومع ذلك يلقى حبل المتأدبين على الغارب يجوسون خلال كتب البلاغة الجافة الملتوية ليخرجوا منها بعشرات القواعد يحكمونها فى الآثار الأدبية ويدورون معها فى المجال الذى رسمه السابقون . فيكرهون الأثر الأدبى الرائع على الانحناء لقواعدهم الملتوية ، وهيهات أن يخضع الوجدان للقاعدة وأن يلبس الشعور ثوب القياس ، فإذا ضاقت الحيلة واستعصى الكلام على الدخول فى حظيرة القوانين المرسومة ارتكبوا فيه التأويلات البعيدة ليصححوا أخطاء مسالكهم وليحافظوا على قدسية « بلاغتهم » كأنها نظريات فلسفية تحتاج الى التمحيص والتحايل وليتهم يعلمون أن الأدب لا يتحمل كل هذا التقليب . ! !

هـــذه حال المثقفين فى عصرنا عامة . . . وهذه طريقة كتب النقد الأدبى أو « البلاغة » كما يسمونها ! طريقة علمية تتخذ الحصر والتعداد وسيلتها وهى طريقة لا تتفق مع المقصود منها لأنها بهذا الوضع لا تخرج نقادا . .

لذلك لم يكن غريبا أن نرى المقصورين على هذه الكتب وحدها قصار المرمى فى ميدان النقد الأدبى فهى تخرج علماء . لا أدباء » فالذوق الأدبى الصالح غير موجود اليوم . والكتب « النقدية » الملائمة مفقودة فى المحيط المدرسى . فهل نقنع من الغنيمة بالإياب ، ونكتفى بهذا القدر الذى يبلغه قراء الكتب الحالية ، ونترك البحث عن سلائق طال على فقدها الأمد ، واختلطت بها العجمة ، وغطتها رمال الزمن وتسلمها التاريخ فأصبحت من ودائعه . . ؟ لا هـذا . ولا ذاك لأن كتب النقد الأدبى التى ألفت فى القرنين الثالث والرابع الهجريين تتفوق على الكتب المتأخرة فى جمال

الأسلوب وتنمية الذوق وتبتعد عن التعقيد الفلسفى الذى منيت به كتب البلاغة المتأخرة ، فلو استطعنا أن نختار أصلحها وأجمعها لموضوعات النقد لسددنا ثغرة فى بناء الفكر الحديث .

ويا حبذا لو جمعنا أجوبة الأحرار من النقاد الأقدمين وتعليقهم على بعض الآثار الأدبية فى كتب يقرأها المتأدبون خالية من القواعد مليئة بالفوائد . وأما ما يتعلق بتربية الأذواق الأدبية والاتجاه نحو خلق جيل تتنبه عنده السليقة فذلك أمر ميسور ممكن ، وبانتشار الثقافة بين طبقات الشعوب تنقرض العامية وتدنو الأمة من السليقة ، ويساعد على ذلك تعهد الذين ينبغون فى الميدان الأدبى بما ينمى ذلك الروح فى نفوسهم ، وإحاطتهم بما يسهل عليهم طول الطريق وبعد الغاية ... ولا شك أن التوجيه مع الاستعداد أنجح من حشو الأذهان دون رغبة أو نتيجة مرضية . فإذا سار التوجيه مع الميل الفطرى كان ذلك خيرا للنقد الأدبى ، أما إذا كان كل همنا أن ندير رءوس الشباب فى الخلافات السكاكية فما أضيع الوقت وأقرب الهدف .

بقيت كلمة صغيرة لأدبائنا الكبار الذين لا يريدون أن يتركوا وراءهم سوى كتبهم ، ونحن نريد منهم أن يتركوا توجيهاتهم وتجربتهم فى حياتهم الأدبية فإن من حق الأدب عليهم أن يساهموا فى خلق نهضة أدبية مبنية على أفكار ناضجة حتى لا يخلو الميدان مرة واحدة بعدهم . وبذلك يقضون واجبا نحو بلادهم ولغتهم ؟

تصحيح أخطاء

عهد المدنية

وقع تحريف طباعى فى بيتين من القصيدة المنشورة فى العدد السابق ، صحته فيما يأتى :

البيت الأول :

رائِدُ العلم نختَّال المَنهَى يشتكى فَقْدَ المُنى فى الثمن

البيت الثانى :

سَلْ بحكم الحيْف تشهد سَيِّداً يَقتنى القانونَ فيما يَقتنى

وفاة عالم

توفى الى رحمة الله فضيلة الأستاذ الجليل الشيخ فكرى يس أحد علماء الأزهر الأجلاء ، والمدرس بكلية الشريعة ، وصاحب المقالات الممتعة فى مجلة الأزهر .

كان رحمه الله هينا لينا مهذب النفس ، بعيدا عن اللغو واللهو ، وكانت همته مصروفة الى زيادة مادته العلمية ، بمعالجة المسائل الاجتماعية الكبرى بالتحليل الدقيق تحت ضوء الدين والعلم ، فكان فى كل ما يكتبه مفيدا لقارئه بشىء جديد . وهذه ميزة علمية نادرة الوجود .

فنعزى الأزهر والأزهريين بوفاة هذا الألمعى الجليل ، ونعزى أيضا أنفسنا راجين له الدرجات العلا فى حياته الروحية التى آل إليها بعد طول جهاد فى هذا العالم المادى ، ونرجو الله أن يثيبه على ما قدم ثواب الصالحين ، ويجزيه بما جاهد وناضل عن الدين جزاء المجاهدين الصادقين .

ديوان الأسمر

فى نحو منتصف شهر فبراير ، وافتنى منه نسخة مهداة إلى من فضيلة الأستاذ الألمعى ، والشاعر المشهور ، الشيخ محمد الأسمر . فتناولته باهتمام ، واستقلت به فى وسط أعمالى فترة من الزمن ، ولم أدعه إلا لتزاحمها علىّ . ولا عجب فى ذلك ، فإن لشعر الأسمر فى قلوبنا مكانا ممتازا ، ووقعا عظيما ، وكنت أعود إليه كلما سنحت لى فرصة ، فعدت إليه وعدت إليه ، وكلما عدت ازددت به كلفا ، وتملأت به إعجابا .

إن ديوان الأسمر ذخيرة أدبية تعطيك إلى جانب سمو الخيال وجمال الأداء ، إبداعا فى التفكير ، وتنويعا فى التصوير ، يرتقى بك إلى درجة نشوة أدبية ، تحس معها كأنك فى بستان تحف بك فيه الأزاهير البديعة الأشكال ، المنسقة الطاقات ، ومن التوفيق أن هذا الإبداع الموضوعى يقابله إبداع شكلى من جمال الطبع وحسن

التنسيق ، وجودة التقسيم ، فأنت معه من إبداع الى إبداع ، حتى تقلع طلبا للاستجمام مع نزوع الى العودة فى أقرب فرصة . ولقد صدق الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق رحمه الله ، حيث كتب لشاعرنا ، وقد نشره فى أول صفحة من ديوانه :

« لشعرك تأثير فى نفسى ، أحسبه يفوق ما يفعل الشعر ، ذلك أنه فيض نفس أحبها . وقد يكون سحرا ذلك الذى ترسله نغما موسيقيا فى أسلوب سهل ، فيسرى فى الأرواح ، ويفجر العواطف خلالها تفجيرا » .

أول ما يطالعك فى ديوان الأستاذ الأسمر ، قصيدة عصماء له فى ميلاد النبى صلى الله عليه وسلم ، جاء منها :

فجر أطل على الوجود فأطلعا ... شمسين : شمس سنا وشمس هدى معا
ظلت مطالع كل شمس لا ترى ... من بعده شبأ لمكة مطلعا
قبس من الرحمن لاح فلم يدع ... لألاؤه فوق البسيطة موضعا
ما كان ميلاد الرسول المصطفى ... إلا الربيع نضارة وتضوعا
يوم أغر كفاك منه أنه ... يوم كأن الدهر فيه تجمعا
ويكاد غابر كل يوم قبله ... يثنى إليه جيده متطلعا
فلو استطاع لكر من أحقابه ... وثبا على هام السنين ليرجعا
ويكاد مقبل كل يوم بعده ... ينسل من خلف الزمان ليسرعا
فلو استطاع لجاء قبل أوانه ... وانساب يخترق السنين وأتلعا
تتنافس الأيام فى الشرف الذى ... ملأ الوجود فلم يغادر أصبعا
خير أفاض الله منه على الورى ... أنى جرى ترك الجناب الممرعا
وسنا جلاه لتعمر الدنيا به ... من بعد ما كانت خرابا بلقعا
وافى وليل الجاهلية مطبق ... فانجاب عن جنباتها وتقشعا
نادى الى الحسنى فلما أعرضوا ... واستكبروا شرع الرماح فأسمعا
والحق أعزل لا يروع فإن بدا ... مستلئما لاقى الطغاة فروعا
والحق أخفى ما يكون مجردا ... وتراه أوضح ما يكون مدرعا
بعض الأنام إذا رأى نور الهدى ... عرف الطريق ولم يضل المهيعا
ومن البرية معشر لا ينثنى ... عن غيه حتى يخاف ويفزعا

بسم الله الرحمن الرحيم

ليس من هنا نبدأ

اعتاد كتاب العربية الذين يعالجون إصلاح الشؤون الاجتماعية ، أن يعظموا من مظاهر الحياة الأوربية ، ويذهبوا فى تفخيم شأنها كل مذهب ، حتى التى يشكو منها أهلها أنفسهم مر الشكوى ؛ وإنا لنشاهد ذلك ونعجب منه ، ولكن لا سبيل لنا ولا لغيرنا إلى وقف تياره . كل هذا لأنهم يشاهدون تبريزهم فى كل مجال ، ونجاحهم فيما يحاولونه من الأعمال ، فيتخيلون أن الذين يكونون على هذه الشاكلة تكون جميع مدركاتهم قد قامت على أحكم النظم العلمية ، لا يأتيها الخلل من أية ناحية من نواحيها ؛ والباعث الذى يضطرهم إلى كثرة التنويه بالأوروبيين أن يأخذ إخوانهم إخذهم فى شئونهم فينهضون مثل نهضتهم ، ويصلون إلى مثل ما وصلوا إليه من مدنيتهم .

هذه النظرية تقوم على خطأ كبير ، لأنها تخفى الحوافز الحقيقية للنهوض ، وتظهر آثارها بمظهر عللها الأولية ، وهى ليست بها ، فتزداد خفاء على العقول ، ويزداد الجهل بها تغلغلا فى النفوس ، فتحق على الأمم الواقعة تحت آثارها صفة العجز فتبقى فيما هى فيه .

ولست أستطيع أن أفهم القارىء كنه الأسلوب الذى استخدمه الأستاذ خالد فى التأثير فى عقول قرائه ، إلا بنقل شىء منه على سبيل المثال ، مع الإشارة إلى ما ارتكبه فيه من الشطط والمبالغة ، ومن الخطأ أن يستخدم ذلك أحيانا فى سبيل بث محبة الاشتراكية فى النفوس ، وهى وسيلة ، إن أفادت مرتكبيها لأول وهلة ، فقد عادت بأشد المضار عليهم وعلى مبادئهم بعد هدوء العاصفة ، والرجوع الى التثبت والتحقيق فلننقل قطعة من ذلك الكتاب ليرى القارىء ما نقوله له بعينيه ، بل ويلمسه بيديه إن شاء ذلك . قال تحت عنوان : (هذه عوائقنا) : التفاوت البعيد :

« فى طليعة العوامل التى تحرم مجتمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التمايز البعيد الذى يشطره شطرين غير متكافئين .

« ولقد أصبحت هذه الفروق بين شطرى المجتمع من الموضوعات التى يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح ، والادراك السليم . . . .

« واتخذها الساخطون وقوداً يسعرون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد . . . . ونريد الآن قبل تفنيد مضار هذا التفاوت ؛ أن نفهمه على وجهه الصحيح . . . . فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لازالة كل حاجز وفارق بين الناس ، فذلك أمر مستحيل . . . . وإنا لنجد فى أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيداً ضخما من المال ، ومن لا يملك شيئاً . . . . بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما نضاربه ، وكما نرزح تحت كاهله . . وضراوته . . ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضروراتها ، وفى منتصف المسافة أو أكثر ، إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية . . . والمجتمع هناك غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بحاضره ، وهو لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لا يثير التفاوت بغضاءه ، لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ، ولكل فرد من أفراده الحق فى كافة الفرص التى يمكن أن تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً . فهو لذلك لا يجد من الوقت ما ينفقه فى الحقد والبغضاء ، لأنه متجه نحو الفرص المترعة ، بكل مقدرات النجاح والفوز يهتبلها وينتهزها .

« ثم ان التفاوت هناك نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس نتيجة استغلال جشع كالذى عندنا ! من أجل هذا نراهم مؤمنين ببلادهم وبأنفسهم إيمانا يحلق بهم فوق العواصف والأخطار . فهذه السيدة الامريكية التى وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال وتقول لهم : « إذا خامركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت رحلة جميلة سوف تلقون فى نهايتها أبا كم ! » وكان أبوهم قد قتل فى إحدى المعارك .

« والمرأة الروسية التى صمدت أمام جنود الألمان ، وقاتلتهم فى مطبخ دارها بسكين الثوم والبصل حتى فاض أخيراً روحها الباسل وهى تقول : « لا بأس أن أموت ! أما روسيا فلن تموت أبدا .

« وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى حومة الوغى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ! أى سحر ذلك الذى أنساهم رهبة الموت وقسوة المصير ؟

« إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذى يعيشون فيه إخوانا وسواسية ـ ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولا عبيد وأرباب ، المجتمع الذى منحهم كل أمكانياته وفرصه ، فمنحوه كل ولائهم وقلوبهم ، وبادلوه وفاء بوفاء ، وتقديراً بتقدير .

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أدناهما الأعلى ، ويتربص كل منهما بالآخر مضمراً له كل كراهية وسوء . . . ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق الأدنى برفع مرتبـــه وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ، ويرغدون أكثر مما ينبغى أن يرغدوا ، ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها ولغوبها . . ! !

« ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الأعلون لأمتهم ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . . . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى أتخمتهم نعمه وطيباته فعند ما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من مدارس الحكومة حتى لا يخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع ، ثم أدخلوهم مدارس أجنبية تليق بمجدهم ومجد آبائهم ، وإن وراء هذا التصرف الخجل لإيمانا عريقاً بالارسطوقراطية ، وحرصا شديداً على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نابية لا تقرها أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا » .

توهم هـذه القطعة التى آثرنا نشرها من كتاب الأستاذ خالد ، أنه أحاط بكل ما أشار اليه فيها من الموضوعات علماً ، وأنه يقررها عن معرفة بتفصيلاتها ودقائقها ، وعن فقه عميق بآثارها ونتائجها ، ويسوءنا أن ندلل على أن مناقشة سطحية لهـا ترى قارئها أنهـا تقريرات ألفت من غير تمحيص ، وكثير منها يخالف الواقع مخالفة صارخة .

فهو يقول فيها : إن الفروق أصبحت شاسعة لدينا بين طبقتى المجتمع ، وأن الساخطين جعلوها وقوداً يزيدون بها سخطهم تأججاً ، إلى آخر ما قاله . والحقيقة أن هذا التفاوت طبيعى وموجود فى كل أمة ، وما دام فى الأمة فريق يربَّى ويعلَّم حتى يبلغ آخر مراحل العلم ، وفريق يهمل أمره ويستبقى فى أمية القرون الأولى ، فلا بد من وجود هذه الفروق الهائلة فى الأمة ، وليس فى هذا الأمر ما يوجب الحيرة ، فهو أمر طبيعى وعلاجه تعميم التعليم ، ولا علاقة له بأرصدة فى البنوك ، ولا بعلل اجتماعية تجب معالجتها .

ويقول : وانا لنجد فى أمريكا وروسيا وانجلترا من يملك رصيداً ضخما من المال ومن لا يملك شيئاً ، والواقع أنه لا يوجد روسى واحد يملك رصيداً فى بنك بعد أخذهم بما هم عليه من البلشفية .

وبعد هذه المقدمة الخاطئة التى أثبت فيها وجود حزازات نفسية بين طبقاتنا الاجتماعية ، عاد للتوسع فى استغلال هذا التحاقد الشنيع بين طبقاتنا ، فقال :

« ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين ، يحقر أعلاهما الأدنى ، ويمقت أدناهما الأعلى — إلى أن قال — : لأن مشكلته لا تتمثل فقط فى حرمانه ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيش فيه الآخرون ، فيأكلون أكثر مما ينبغى أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغى أن يلبسوا ... ويجلسون فوق أهرام من الذهب ، بينما بقية المجتمع تقتات من آلامها وحرمانها ولغوبها . الخ الخ » .

نقول إن الأمة المصرية ، وأية أمة إسلامية فى العالم كله لم تنقسم على نفسها إلى معسكرين متباغضين بسبب الشؤن المالية ، فإن روح الوحدة سائدة فيها ، وكل ما تقتضيه هذه الوحدة من تحاب وتواصل موجود بينها إلى درجة محسوسة ، فقد يتفق وجود أسرة سرية تسكن داراً واسعة الرحاب تحيط بها حديقة غناء ، ولكنها فى بيئة متواضعة تسكنها أسر فقيرة ؛ فنشاهد عطفا عظيما واحتراما كبيراً من هذه الأسر لأهل تلك الدار الشماء ، فتحيطها بحبها ورعايتها ، ويتسابق آحادها رجالا ونساء إلى خدمتها غير منتظرين من أهلها غير شرف التعارف وكرامة الجوار . جرى الحال فى جميع أدوار تاريخنا على هذه الحال ، ولا يزال يجرى عليه ، حتى إننا لنرى إن اتفق لبعض تلك الأسر أن تنتقل إلى المواطن الراقية التى أعدت لأمثالها ببعض الضواحى ،

أن الأفراد الذين كانوا يبادلونها الود من سكان تلك الحارات الضيقة ، لا يزالون يوالونها ذلك الود ، لا يمنعهم منه مانع من بعد الديار . فالتعادى الذى يذكره الأستاذ لايوجد له أثر بين الطبقات فى بلاد المسلمين . وحاشانا أن نتهم الأستاذ بأنه يذكره لينبه إليه النفوس ، ولكننا نقول إنه يذكره ليمهد الطريق للدعوة إلى الاشتراكية .

ونحن نؤكد للأستاذ أن الاشتراكية ما دام من مقوماتها حذف الملكية ، وإبطال حقوق الوراثة ، فانها يبعد أن تسود العالم عن طواعية ، وهو فى عقليته وعواطفه التى هو عليها إلى هذا العهد .

نعم يجوز أن يحدث له تطور اجتماعى يرى معه أن حق التملك يجب أن يلغى وأن عادة توريث الأبناء والأقارب أملاك الشخص بعد موته يتحتم أن تبطل ، بسبب ما يكون قد جد من عادات وتقاليد تضمن حياة الناس دون الالتجاء الى الوسائل المعهودة ، ولكن هذا الوقت لم يحن بعد ، وقد لا يكون قط ، فالاشتراكية والحالة هذه إن لم تكن سابقة وقتها بضعة قرون أو بضعة آلاف من السنين ، فهى من المطالب التى لا تقرها الطبيعة البشرية لأول وهلة . والدليل المحسوس على ما نقول عدم إجماع العمال على الأخذ بها ، بل ليس يقول بها منهم إلا قلة قد تبلغ الخمس ؛ ولكن الأستاذ خالد يكتب عنهم كأنهم مجمعون عليها ، وفى بعض تعبيرات له كأن العالم كله قد آل إليها . كل هذه المحاولات منه تمهيد السبيل لنشرها ، ولا ندرى أى شىء يحفزه إليها وليس هو من طائفة العمال ، ولا هو ممن عاش فى عالم اشتراكى فذاق من حلاوته مايدفعه لأن يكون داعية إليه . هذه مسألة لا يعنينا حلها ، ولكننا أزاء نظرية اقتصادية اجتماعية من أشد المسائل العالمية تعقدا ، وأعصاها قيادا ، فإذا كنا نضطر لخوض غمراتها حينا بعد حين فلأن مهمتنا تقتضينا ذلك . أما هى فى ذاتها فليست من المسائل الوشيكة الحل ، ولو قلتَ إن بينها وبين الفصل فيها قرونا طويلة فلا تكون مبعدا فيما تقول .

والمسلمون فوق هذا لا يهمهم حل المسألة الاشتراكية ، لأن دينهم قد أدمج مسألة الثروة فى أمور الدين من ناحية الزكاة التى هى إحدى أصول الإسلام الخمس فأصبحت الناحية الاقتصادية متصلة بأمور الدين الأولية .

نعم إن المسلمين لا يعملون بدينهم الآن ، وقد أهملوا أمر الزكاة إهمالا يؤاخذون عليه ، لأن فى إهماله إهمالا لحقوق السواد الأعظم من الأمة وهم الفقراء ،

ولا بد من أن تثار هذه المسئلة فى يوم من الأيام وتحاسب الأمة نفسها على إغفالها حسابا عسيراً ، وإذ ذاك يفصل فى أمرها بنسبة ما تكون عليه حيال دينها . فإن كانت مستهدية بهديه أو عاملة على ذلك جهد طاقتها ، فإن مسألة الزكاة تحل حلا يحفظ حقوق الطبقة الفقيرة من الضياع ؛ وإن كانت منتسبة إلى الدين دون العمل به كما هو شأنها اليوم ، فإنها قد تخضع للظروف وتحل المسألة الاقتصادية على الوجه الذى حلتها به الأمم الغربية .

أما قوله إن التفاوت بين الأغنياء والفقراء جعل منهما معسكرين متباغضين يتربص كل منهما بالآخر السوء ، لأن المشكلة لا تتمثل فقط فى حرمان الفقراء من متع الأغنياء فى أكلهم ومقداره ونوعه ، وفى لبسهم ورغدهم وثرائهم ، بل وفى هذا الترف المسعور الذى يعيشون فيه ، الخ ، فهو استنتاج خاطىء ، لأن الإسلام نفسه قرر أن الله فضل بعض الناس على بعض فى الرزق ، فقضى بالغنى لطائفة وبالفقر على أخرى لمصلحة كل منهما ، وجعل مجال التسابق مباحاً للكافة فى كل زمان . لذلك لم تنقسم الأمة الإسلامية فى أى عهد من عهودها إلى شطرين : شطر الموسع له ، وشطر المضيق عليه لحكمة تقتضيها حاجة الاجتماع ، ولم يسد طريق الوصول إلى الثروة بالأسباب المشروعة فى وجه أى طالب من أية طبقة من الأمة .

هذه الحكمة الجليلة حمت المسلمين فى جميع عهودهم من تألب الطوائف بعضها على بعض كما حدث فى الغرب ، فجعلت ممالكه مسرحا للفتن والمؤامرات فى القرون الأخيرة ، ولا تزال على أشد ما يكون فى عهدنا هذا ، وقد تولدت منها مذاهب مختلفة تستخدم جميع ضروب التخريب للوصول إلى أغراضها ، ومنها الاشتراكية التى يدعو إليها الأستاذ ؛ فهل يريد حضرته الانتهاء بنا إلى هذه المآزق ؟

وعلى أية حال فنحن سائرون إلى الغاية التى انتهى إليها الغرب وهى ضرب الضرائب على أموال الموسرين وإسعاف المقلين بحاجاتهم منها ، وهو على أى حال شىء من الزكاة المفروضة على المسلمين وإن لم يكن بها من كل وجه . فليس علينا معشر المسلمين إلا الانتظار مع التنويه بالنظام الاقتصادى الإسلامى حتى لا يدثر فى الأذهان ، فهو أكمل وأوفى من النظام الأوروبى كما سنبينه هنا فى فرصة قد تتهيأ له فى بعض البحوث .

محمد فريد وجدى

التفسير

للأستاذ

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما » [١٠٥ : سورة النساء]

شرحنا في العدد الماضي مفردات هذه الآية الكريمة وبينا مناسبتها لما قبلها وسبب نزولها ، كما بينا موقف القرآن والإسلام من قضايا المسلمين وأحوالهم ووجوب الاحتكام إليه في كل أمورهم ، واتخاذه أساساً لحياتهم في جميع صورها ، وبقي في هذه الآية بحثان : أحدهما يتعلق بقوله تعالى « بما أراك الله » وثانيهما بقوله « ولا تكن للخائنين خصيما » .

والحق أن البحث الذي يثار حول النقطة الأولى بحث أثاره المفسرون الأصوليون ، وإن كان الفهم للآية قد يستغني عنه ، ولكن لم يعد لنا بد من التعرض لهذا البحث ، لا سيما والآية التي تلي هذه الآية وهي قوله تعالى « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما » تستدعي البحث عن دواعي الاستغفار : هل يستغفر الرسول من صغيرة ، أو من خلاف الأولى ، أو يستغفر لأمته ؟

إن الله سبحانه وجد أن رسوله صلى الله عليه وسلم قد هم - حسب طبعه البشري وعلمه الظاهري وحبه للمسلمين واعتقاده الصدق فيهم - بالحكم على اليهودي البريء ، فأرسل الله له الوحي بهذه الآية الكريمة ليوجهه إلى غير ما هم به ، ويبين له أن الله أنزل عليه القرآن ليحمي الحق ، ويصونه من الأهواء والعصبيات ، ويحكم به بين الناس ، ويترسم طريقه فيما يقول ويفعل ، وليس مما أنزل الله من قواعد الحق أنه يتبع الهوى والعصبية ، ويميل مع الغرض ، فإن الله سبحانه قد أحاط الحق والعدل في قرآنه بسياج قوي من الوصايا والأوامر تحميه من الاعتداء عليه أو المساس به ولو من بعيد لحب نفس أو قريب أو مال « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين

والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا [١] » .

« ولا يجر منكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا [٢] » وكرر الله الأوامر فى القرآن للحكم بالحق وعدم اتباع الهوى . وهنا فى هذه الآية يوجه الله نظر الرسول إلى هذه القواعد والأوامر ، ليحول بينه وبين الميل الطبعى والنفسى مع قوم أظهروا إسلامهم وتواطئوا على الشهادة لمصلحة قريبهم المسلم ، فالآية لا تزيد عن توجيه الرسول إلى الحق والحكم به « ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

ومع هذا ، فإن الباحثين اختلفوا حول قوله تعالى : « بما أراك الله » هل هو بمعنى أعلمك علماً يقنيا كالرؤية فى القوة ، ولا يكون ذلك إلا بالوحى الذى يحدد المراد على وجه قطعى . وعلى هذا فتوجته الرسول هنا إلى الحكم بالوحى فقط ولا يتعداه إلا إلى قياس يرجع إلى الحكم بالنص . وحينئذ لا يكون فى الآية دليل على جواز اجتهاد الرسول ، ولكنها مع ذلك لا تدل على منع الاجتهاد ، لأن الآية نزلت فى موضوع خاص .

ويحتمل أن يكون معنى « بما أراك الله » مما نزل به الوحى ، أو بما أدركته بواسطة نظرك واجتهادك فى أحكام الكتاب وأدلته ، فاتباع النص حين وجوده ، والاجتهاد حين لا يوجد النص ، والمراد على كل حال منع الرسول من الخضوع لأقوال الشاهدين وعصبتهم ، ومن الميل للمسلمين على اليهودى وحجزه عن الوقوع فى خطأ ينتج عن ذلك .

جاء فى تفسير المنار للأستاذ الإمام « ومن مباحث الأصول فى هذه الآية مسألة حكمه صلى الله عليه وسلم بالوحى فقط ، أو بالوحى تارة وبالاجتهاد أخرى » ثم نقل فى موضع آخر عن كتاب « الإشارات الإلهية إلى المباحث الأصولية » للإمام سليمان بن عبد القوى الطوفى الحنبلى قوله : « لتحكم بين الناس بما أراك الله » يحتمل أن المراد بما نصه لك فى الكتاب ، ويحتمل أن المراد بما أراكه بواسطة نظرك واجتهادك فى أحكام الكتاب وأدلته . وفيه على هذا دليل على أنه

---

[١] النساء « ١٣٥ » [٢] المائدة « ٢ »

عليه الصلاة والسلام كان يجتهد فيما لا نص عنده فيه من الحوادث ، وهى مسألة خلاف فى أصول الفقه . وفى موضع آخر قال : « ثم على القول الأول ـ وهو أن الاجتهاد جائز له ـ هل يقع منه الخطأ فيه أم لا ؟ قولان للأصوليين أحدهما : لا ؛ لعصمته ، والثانى : نعم ، بشرط ألا يقر عليه استدلالا بنحو « عفا الله عنك لم أذنت لهم ـ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض » ونحو ذلك . اهـ [1] .

فترى من هذا أن الأصوليين مختلفون فى الموضوع الذى أثاروه : فمنهم من أجاز للرسول أن يجتهد لأنه منصب كمال ، ولا ينبغى أن يفوته عليه السلام . وأن فيماروى عنه ما يدل على وقوعه منه ، ومن ذلك قوله عليه السلام : « لو قلت نعم لوجب » وقوله : « لو سمعت شعره قبل قتله لم أقتله » وقوله : « لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ما سقت الهدى » وأيضاً عتاب الله لرسوله فى الآيتين المتقدمتين يدل على أن الرأى الذى ذهب إليه كان باجتهاد منه لا بتوجيه الوحى له ، وإلا لما كان هناك محل للعتاب مطلقاً .

أما الذين ذهبوا إلى عدم جواز الاجتهاد منه صلى الله عليه وسلم فقد احتجوا بقوله تعالى : « ما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » وبأنه قادر على يقين الوحى ، والاجتهاد لا يفيد اليقين .

وقد جاء فى تفسير المنار أن قوله تعالى « ما ينطق عن الهوى » لا يدل على منع الاجتهاد « لأن هذا فى القرآن خاصة ، وإلا كان كل كلامه عليه الصلاة والسلام وحياً ، وقد ورد أن الوحى كان ينقطع أياماً متعددة ، وأنه كان يسأل عن الشىء فينتظر الوحى ، كما كان يسأل أحياناً فيجيب من غير انتظار للوحى » وليس بمعقول أن كل ما كان ينطق به عليه السلام فى كل الأمور كان بوحى . وأما قولهم : إنه كان قادراً على يقين الوحى فغير مسلم لهم على إطلاقه ، فشأن ذلك لله سبحانه .

والذى أميل إليه من خلال هذه الأدلة أنه كان للرسول صلى الله عليه وسلم مجال له أن يجتهد فيه ، وكان هذا المجال بعيداً عما كلفه الوحى بتبليغه ، إذ أن ذلك لا محل فيه للرأى مطلقا ، وكان الله سبحانه يوجه الرسول فى بعض الحالات إلى

---

[1] جزء خامس ص ٣٩٥ تفسير المنار .

غير ما أداه إليه اجتهاده ورأيه ويعاتبه ، والقرآن شاهد بذلك فى غير موضع .. وسواء كان العتاب على ترك الأولى أو على خطأ فى الرأى ، فإنه كان على كل حال دليل على أن الرسول ذهب إلى هذا الرأى باجتهاده لا بتوجيه الوحى ، ولا يغض هذا من مكانة الرسول . إذ أن ذلك من مقتضيات البشرية ، فليس معنى اختيارالله له لتبليغ رسالته أنه ارتفع فوق الطبيعة البشرية ، أو أنه صار مسيراً بالوحى فى كل ما يأتى وما يدع من أمور الدين والدنيا ، على أنه « لا يبعد أن يقال : ان فى جواز الخطأ فى اجتهاده صلى الله عليه وسلم إشارة إلى أن فكر البشر وإن كان فى أعلى الدرجات يحتمل الخطأ بخلاف الوحى[1] » . ثم إن الحادثة التى نزلت الآية من أجلها تشير إلىأن الرسول صلىالله عليه وسلم كاد يحكم على البرىء برأيه طبعا ، ولكن الله حرسه بالوحى « ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك » . «وكان فضل الله عليك عظيما» . ولوأن رأى الرسول وافق الصواب فى اتجاهه لما كان هناك حاجة لوحى .. ولكن ـ علم الله وله الأمر والتدبير ـ ما كنا نظفر فى القرآن بهذه الآيات البينات ذات المبادىء العظمى ، وأعتقد أن البحث حول هذه النقطة ، قد استوفى حقه . فلننتقل إلى النقطة الأخيرة وهىقوله تعالى« ولا تكن للخائنين خصيما » .

ذكر الله هذا النهى فى آخر الآية بعد توجيهها للرسول فى أولها ، ونلاحظ أن الله لشدة غيرته على الحق كرر تحذير الرسول من البعد عنه ، واحتضان الباطل والمبطلين « ولا تكن للخائنين خصيما » ، « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » والخائنون هم الذين سرقوا وأرادوا أن يبرئوا أنفسهم ويلصقوا التهمة بغيرهم ، وتجمعوا متعصبين لقريبهم السارق ، شاهدين ببراءته وإدانة اليهودى أمام الرسول حتى كاد يتأثر بالظاهر من أمرهم ، مع ميله الطبعى وحبه النفسى لأتباعه المسلمين ، ـ ولو أن هذه المؤامرة دلت على بعدهم عن الإسلام ـ فاتجه الرسول إلى الأخذ بالظاهر والحكم علىاليهودىالبرىء ، فقال له الله « ولا تكن للخائنين خصيما » وبذلك عرف الرسول أمر هؤلاء المتآمرين ، وعرف أنهم الجناة الخائنون الذين ارتكبوا وزرين : وزر السرقة ، ووزر اتهام البرىء . وحينما انكشف للرسول أمرهم تنحى عن الدفاع عنهم والانتصار لهم ، ولم يستطع الجانى إلا الهروب خوف الحكم عليه .

[1] كتاب التحرير للكمال ابن الهمام .

ما أعظم الحق !؛ يحرسه ذو الجلال ويغار عليه ، ويكره أن يضام رجل برىء - ولو كان يهودياً مخالفاً لله ورسوله - ويؤخذ بجريرة غيره ، وينزل فى ذلك قرآنا يتلى إلى أن تقوم الساعة يحمى الحق من المتآمرين عليه ، وينير طريقه للرسول حتى لا يتأثر بدسائسهم ، قد يحدث مثل هـذا فى كل يوم وفى كل بلد ، وينتصر الباطل على الحق ، ويقع البرىء تحت سياط العذاب ويفلت الجانى الأثيم ، ولكن ذلك لا يكون ، والوحى ينزل على الرسول ينبئه بالحقيقة التى يحيط بها علام الغيوب ، فكانت هذه الآيات التى تقرر مبدأ من أهم المبادىء وأسماها ، وهو عدم الانتصار للجناة والدفاع عنهم ، هو الاتجاه إلى الحق والعدل أينما كانا ، لا يفرق فى ذلك بين الناس لجنسهم أو دينهم أو جاههم وسلطانهم ، فالكل أمام الحق سواء « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى »[1] .

ما أحرانا بتدبر هـذا والعمل به !! ؛ فكثيراً ما نرى أناسا منا يحتضنون المجرمين ويحمونهم بجاههم وسلطانهم ، وهم يعلمون مقدار جرمهم ، وكثيراً مارأينا الحق تميد جوانبه تحت ضربات العصبية ، وتطمس معالمه بغبار الأهواء الشخصية كم رأينا عظيما يفلت من سلطان الحق والقانون ؛ لأنه عظيم ، ولو كان عظيما فى جرمه ! وكم رأينا صحفا تسخر قواها للدفاع عن المجرمين وإخفاء معالم الحقيقة ساخرة من الحق ومن عقول قرائها لحاجة فى نفسها !! وكم رأينا هيآت تتألب على الحق وتهوى عليه بقوة سلطانها !!

وكم رأينا محامين يدافعون عن الجناة الآثمين فى حق الله والوطن ، وهم يعلمون ذلك ، ومع هـذا يقلبون الحقائق ويسخرون ما آتاهم الله من مواهب لينتصروا بباطلهم على الحق ، وينتزعوا المجرم من يد القصاص ؛ ابتغاء المال الكثير والجاه الوفير !

ونسى هؤلاء وأولئك مقدار الجرم الذى يرتكبونه فى حق الله والوطن ، نسوا جميعاً قول الحق الأعلى سبحانه « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون[2] » نعم « يوم لا تملك نفس لنفس شيئا ، والأمر يومئذ لله[3] » .

فاللهم : لطفا بعبادك وهداية !! . .

---

[١] المائدة الآية ٨ [٢] ١١٣ سورة هود [٣] آخر الانفطار .

القرآن وعقيدة البعث

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

يهتم القرآن الكريم بشأن البعث والدار الآخرة اهتماماً عظيما ، فقلما نجد سورة من سوره ـ إذا استثنينا بعض قصار المفصل ـ ألا تذكر البعث وتقرر أمره على نحو ما ، وكثيراً ما نجد فيه سوراً تقوم بأسرها على هذا الشأن فتفيض فيه ، ما بين تذكير وبيان وضرب للأمثال ونفى للشبه وغير ذلك .

وإنما عنى القرآن الكريم بهذه العقيدة لأنها أصل عظيم من أصول الصلاح والإصلاح فى العالم ، فإن البشر مهما اختلفت ميولهم وأعمالهم لا يخرجون عن صنفين :

(١) صنف يعمل الخير ويركن إلى الصلاح حباً فى الخير والصلاح ، كما يترك الشر والفساد كراهية فى الشر والفساد ، فهو لا يلتمس جزاء ولا شكورا حين يفعل الخير ويركن إلى الصلاح ، ولا يخاف حساباً ولا عقاباً حين يترك الشر ويعزف عن الفساد ، وإنما يترك هذا ويفعل ذاك مجاراة لعاطفة فيه ونزعة تدفعه إلى الفعل والترك ليس إلا .

(٢) وصنف يعمل الخير ، ويترك الشر ، ناظراً إلى الجزاء مقدراً أن وراء الفعل أو الترك مصلحة له أو مضرة عليه ، فهو يقدر الأمر بمقدار ما يناله هو ، وينظر إلى العواقب التى تترتب على تصرفه من حيث ما يناله أو يصيبه .

والصنف الأول قليل لا يكاد يوجد ، أما الصنف الثانى فإنه الكثرة الغالبة والشأن فى الناس ، ذلك بأن طبيعة البشر طبيعة انتفاعية تبادلية ، كل منهم يريد أن يكون متمتعا بالخيرات والحسنات ، بعيداً عن الشرور والمصائب ، وأمثلهم هو الذى يرجو من وراء الاستقامة رضا الله ، أو رضا الناس ، دون نظر إلى نفع مادى اكتفاء بحسن الأحدوثة ، وطيب الذكر .

لهذا قضت حكمة الحكيم أن يجعل وراء هذه الدار داراً ، يرى فيها المرء جزاء

عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وجاء القرآن الكريم بإقناع الناس بأن هذه الدار حق ، لينظروا إليها ، ويقصدوا بما يأتون أو يدعون وجه الله وثوابه فيها . فلو أن الناس جميعاً قد استقرت فيهم هذه العقيدة ، وآمنوا بها إيماناً لا يخالجه شك ، لاستقامت أمورهم ، وكثر فيهم الخير والاحسان ، وقل بينهم الشر والفساد ، ولكن البشر فى كل عصر تغلب عليهم الحياة الدنيا ، وتخلبهم بزخارفها ومتاعها ، وكثير منهم يعتريه الشك فى البعث ودار الجزاء ، ويستنيم إلى الحاضر والواقع الذى يعيش فيه ، ولا يلمس سواه ، فلا يصدق أنه سيبعث بعد الموت ، وأنه سيعرض للحساب .

* * *

وإنكار البعث أو الشك فى أمره يرجع فى ذهن المنكر أو الشاك إلى أحد أمور .

(١) إما مخالفته لما ألف من السنن ، حيث لم يعهد الأحياء أن ميتا بعث من رمسه ، وعادت إليه الحياة كرة أخرى ، حتى يمكن قياس ما لم يشهدوا على ما شهدوا .

(٢) وإما استبعاده واستعظام أمره ، فإن الأحياء قد ألفوا أن يروا أجساد الأموات تتفرق وتتحلل وتفسد وتفنى فى الأرض وتختلط بالتراب ، فلا تكاد عقولهم تسلم فى سهولة ويسر أمر عودتها وتركبها وصيرورتها جسما حياً يسعى ويدرك .

(٣) وإما كونه أمراً لا تدعو إليه حاجة الناس ، وليس وراءه مصلحة ترجى .

(٤) وإما العناد فى أمره ، والمكابرة والإصرار على تكذيب الدعوى فيه بعد تبين الحجة وظهور البرهان .

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله ، ورد على كل فريق من هؤلاء بما يناسبهم .

(١) فقال للذين حسبوه مخالفا للسنن المألوفة : إنكم قد غفلتم عن كثير من آيات الله تشاهدونها بأعينكم ، وقد صارت لديكم أموراً مألوفة لكثرة حدوثها وتكرر رؤيتها .

فهذه الأرض تكون ميتة هامدة ، فينزل الله عليها الماء ، فتصبح مخضرة ناضرة بالزرع والنبات « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق ، وأنه يحي الموتى ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج » .

وهؤلاء الناس يناموں ويضرب الله على آذانهم مدة من الزمان يكونون فيها كالموتى ثم يبعثون ، وذلك هو المعنى الذى صح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نادى به قومه أول مبعثه إذ يقول « والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما يستيقظون » وقد جاء به القرآن الكريم فى قوله تعالى « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها ، فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

وهذه هى الحبة الجافة يحولها الله بالإنبات إلى زرع نضير ، والنواة المتحجرة يصيرها نخلة فارعة مشمرة ، « إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون » .

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التى تلفت إلى نظائر البعث والنشر فيما ألف الناس .

(٢) وقال للذين يستبعدون ذلك ، ويستعظمون أمره : إن الله لا يعجزه شىء ، وليس شىء عليه بمستبعد ، فهو القوى القادر الذى خلق الخلق ، وأنشأه من العدم : « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه ، وله المثل الأعلى فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ، « كما بدأنا أول خلق نعيده » ، « وقالوا أئذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ، قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر فى صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة » ، « وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون وهو الذى يحي ويميت وله اختلاف الليل والنهار أفلا تعقلون . بل قالوا مثل ما قال الأولون ، قالوا أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون . لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين . قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون سيقولون لله قل أفلا تذكرون » ، « وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحي العظام وهى رميم ، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة » ، « يأيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر قدرة الله ، وتذكر بنشأة الخلق ، وترد عليهم فى استبعادهم الأمر ، واستعظامهم إياه فى مثل قولهم « أيعدكم أنكم إذا متم

وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون ، هيهات هيهات لما توعدون إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » .

(٣) ويقول للذين يزعمون أنه أمر لا تدعو إليه حاجة ، ولا تقضى به حكمة « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » . « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون . وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعلمون » « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون » « يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تذكر حكمة البعث ، ورجوع الناس إلى الله ، فى يوم مشهود ليحاسبهم ويجزيهم بالسوء سوءا وبالإحسان إحساناً .

(٤) أما المعاندون المكابرون فيجابهم بالدعوى ويكررها عليهم ، ويقسم عليها فى مقابلة قسمهم ، ويصور لهم يوم القيامة وأهواله ، كما لو كانوا يشاهدونه إشعاراً لهم بأنهم يكابرون فيما يعلمون ، وأن الله لا يعوِّل على مكابرتهم ، بل يسوق لهم الكلام فى هذا الشأن حسب الواقع الذى يعلمه ويعلم أنهم يعلمونه : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ، بلى وعداً عليه حقاً ولكن أكثر الناس لا يعلمون » « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم » ، « وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق . قالوا بلى وربنا . قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » ، « وقالوا أئذا ضللنا فى الأرض أئنا لفى خلق جديد ، بل هم بلقاء ربهم كافرون ، قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ، ثم إلى ربكم ترجعون ، ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رءوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » .

إلى غير ذلك من الآيات التى تصور أحوال القيامة ، وحيرة الكافرين ، واعترافهم بعد رؤية العذاب .

* * *

هكذا يهتم القرآن الكريم بأمر البعث والدار الآخرة ، ويقرره على كل مؤمن عقيدة من عقائد الحق التى لا تقبل الشك ، ولا يقبل الله فيها تأويلا ولا شقاقاً ، ويستقصى كل ما يدل عليه ، ويثبته فى القلوب ، ويزيل عنه الشبهات .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

بعد الكلمة الأولى التي رأينا التمهيد بها للحديث عن رأى الشيخ الرئيس فى بعض مشاكل العصر الحاضر الذى نعيش فيه ؛ هذه المشاكل التى يأخذ بعضها منّا بالخناق ، ونذهب نتلمس لها حلولا من هنا أو هناك ، متناسين ما للإسلام من فكر وفقه فيهما غناء أى غناء فى كثير من مشاكلنا وأمورنا العامة ! نقول بعد هذه الكلمة ، نتكلم اليوم عن رأيه فى مشكلة العمل والبطالة ، أو مشكلة الضمان الاجتماعى . وسنرى هنا أنه أتى ، وهو بسبيل علاج هذه المشكلة ، بآراء لم تكد تُعرف إلا فى هذا العصر الحديث ، ومع هذا يحسبها العامة وأشباه العامة فى تاريخ الفكر من مخترعات فلاسفة أوربا ومفكريها .

وهو يبدأ الحديث فى هذه الناحية ببيان أن الإنسان يفارق سائر الحيوانات بأنه لا يمكن أن يعيش عيشة طيبة لو انفرد وحده ولم يشارك غيره من بنى جنسه فى حياتهم ومجتمعاتهم . ذلك بأنه لابد من أن يكون الإنسان مكفيا فى كثير من حاجاته وأموره بآخرين من نوعه ، كل منهم يخدم الآخر فى ناحية من نواحى الحياة المادية أو المعنوية . ومن أجل هذا ، كان الإنسان ـ من قديم الزمن حتى الآن ـ مضطراً إلى عقد المدن وتأسيس المجتمعات ، حتى يكون البعض للبعض وإن لم يشعروا خدم [1] .

---

[١] هذه الفكرة نجدها قبل ابن سينا لدى الفلاسفة والمفكرين الذين نظروا فى الاجتماع . فأفلاطون ، فى المقالة الثانية من الجمهورية ، يرى أن الاجتماع ظاهرة طبيعية سببها عجز الفرد عن القيام وحده بكل ما يحتاجه . وأرسطو ، فى المقالة الأولى من كتاب السياسة ، يقرر أن الذى لا يحتاج لغيره إما بهيمة أو إله . ويرى مسكويه فى كتابه الفوز الأصغر أن الانسان لم يخلق خلق من يعيش وحده ، ويتم له البقاء بنفسه . والفارابى يؤكد هذه الفكرة فى كتابه آراء أهل المدينة الفاضلة على ما هو معروف .

ويخلص من ذلك بتقرير أنه لابد إذاً فى وجود الإنسان وبقائه من مشاركة ، وأنه لا تتم هذه المشاركة إلا بمعاملة الناس بعضهم لبعض ، ولا بد فى المعاملة من أن تكون على أساس من سنة وعدل ، ولا بد للسنة من شارع يجيء بها من لدن الله جل وعلا ، وهذا لا بد أن يكون إنسانا ؛ والنتيجة لهذا كله بيان أنه من الضرورى أن يوجد نبي يرسله الله للناس بهذه السنة والشريعة ، وأن يكون هذا النبي إنسانا من الناس لا ملكا من الملائكة .

وعلى هذا النبي ، بعد ما يأتى به من شرائع للناس فى العقائد والعبادات والمعاملات ، أن ينظر فى ترتيب المدينة (يريد بها الدولة) فيقيمها على دعائم ثلاث : المديرون والحفظة والصناع ومن إليهم ، وهنا نلمح فى وضوح رأى أفلاطون فى هذه الناحية [١] ثم يذكر أن كل طبقة من هذه الطبقات يكون عليها رئيس ، وهذا الرئيس يكون تحت أمره رؤساء دونه مرتبة ، وهكذا حتى نصل إلى إفناء الناس ، وحينئذ يكون لكل فرد عمل معروف ومقام محدود ، وإذاً فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماماً ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل .

على أن الشيخ الرئيس لم يكن بالفيلسوف النظرى الذى يضع القواعد ولا يفكر فى الوسائل والتطبيق لما رأى ، نعم ، لم يكن بالمفكر الذى يتعامى عما حوله ، ويتجاهل واقع الحياة وأحداثها ، إنه برغم ماجعله لكل فرد من أبناء الأمة من عمل محدود معروف حتى لا يتعطل أحد عن العمل الذى به يكسب عيشه ، رأى أن هناك متعطلين بالفعل لهذا السبب أو ذاك من الأسباب التى تختلف من آن لآن .

---

[١] حقيقة لقد استلهم ابن سينا أفلاطون فى هذه الفكرة فى كتابه الجمهورية المقالة الثانية . وظاهر ان كليهما نظر فى هذا إلى الانسان وقواه الثلاث ، وإلى الترتيب الطبيعى الواقع فى أى مدينة من المدن .

إلاأن الشيخ الرئيس خالف أفلاطون فيما رآه من الشيوعية فى المال والنساء بالنسبة للحكام والجند ، ونعتقد أن ابن سينا وقد اتبع فى رأيه الشريعة الاسلامية ، تأثر بأفلاطون نفسه حين رجع عن هذه الشيوعية فى كتاب القوانين المقالة الخامسة ، وبأرسطو حين نقد رأى أستاذه مبيناً ما يكون من ضرر شديد فى التضحية بالملكية الخاصة والأسرة فى سبيل الدولة ، انظر فى هذا كله كتاب السياسة المقالة الثانية . إن المعلم الأول يرى بحق أن الشيوعية فى النساء وما ستتبعه من الشيوعية فى الأولاد تضر ضرراً كبيراً بهؤلاء وأولئك ، وكذلك الشيوعية فى المال تجلب هذا الضرر العام .

ولهذه نجده يقول إنه إن وجد فعلا جماعة متعطلون عن العمل ، وتمادى بهم الزمن ولو بعض الوقت على هذا الحال ، يجب أن ننظر فى أمرهم ، فإن كانوا قادرين على العمل ، وكان العمل موفوراً لمن يريد ، وكان الطريق إليه ميسوراً ، وإنما الامتناع عن العمل يرجع إلى الكسل ، كان من الضرورى على الدولة ردع هؤلاء الكسالى وتأديبهم وسجنهم إن لم ينفع فيهم الردع والتأديب ؛ ومن هنا ، نرى فى وضوح أن صاحب كتاب الشفاء كان يحرم التسول تحريما باتا ؛ التسول الذى صار داء من أدوائنا الاجتماعية ، بل صار مهنة تدر على من يمارسها أضعاف ما يدره العمل الشريف ، وبخاصة وجمهرة المتسولين قادرون على العمل ، ولكنهم لا يريدون ما دامت الحكومة غير جادة فى أخذهم بالحزم .

وإن كان السبب فى البطالة لا يرجع إلى الكسل ، بأن كان العمل غير ميسر لكل من يريد ، أو كان السبب فى البطالة المرض أو الشيخوخة أو ما إلى ذلك بسبيل ، كان الخالى من العمل معذوراً ، وكانت الدولة ملزمة بتوفير الحياة المناسبة له ؛ وسبيل هذا كما يرى الفيلسوف العملى ، أن يجمع هؤلاء الذى لا يستطيعون العمل فى مكان خاص ، وهو الملجأ بلغة العصر ، وأن يجعل عليهم قيِّم ينظر فى أمورهم ويدبر أحوالهم .

ولا بد فى هذه الحالة من مال ينفق عليهم منه ، وبه تصلح أمورهم ؛ هذا المال يجب ، فى رأى ابن سينا ، أن يجمع من ضرائب تفرض على الأرباح الطبيعية والمكتسبة ، يدفعها الأغنياء والقادرون على العمل ، والذين يربحون مما يعملون شكراً لله على ما حباهم به من نعمة وفضل ، كما يجمع هذا المال من عقوبات تفرض على الذين يخالفون أمر الله وشريعته ، ومن شىء من بيت المال العام .

وهنا أذكر أننى لست بالذى يسرف فى تمجيد الماضى ، لأن الزمن قد أكسبه جلالة وقداسة ، ولا بالذى يبخس التفكير الحاضر لأنه لم ينل بعد من الزمن بعض الجلال ، ولكنى اعتدت أن أنظر للقول لا للقائل ، ثم يكون بعد هذا الحكم والتقدير .

وعلى هذا الأساس نجد تفكير ابن سينا منذ أكثر من ألف عام أو يزيد لا يكاد ينقصه شىء مما وصل إليه المفكرون المحدثون المعاصرون فى هذه الناحية . فقد لاحظ أن الله ـ جلت حكمته ـ لم يُسوِّ بين الناس فى حظوظ المال والثروة ،

كما لم يسو بينهم فى حظوظ العقل والملكات والقدرة على العمل ؛ ومن ذلك كان لا بد أن يكون كل مجتمع على طبقات مختلفة . وهذا ليحس كل فرد من أفراد المجتمع الحاجة لأخيه ، ويعين بعضهم بعضا ، فيقوم المجتمع وتصلح الحياة . ومن ثم ، نرى فيلسوفنا يقرر أن لكل من أفراد المدينة عملا يناط به أداؤه ، ومنزلة يضع نفسه فيها ، وتكون النتيجة أن يعمل الجميع ويحيا الجميع حياة طيبة .

ولكن ، وهنا الناحية الواقعية فى هذا الجانب من فلسفة ابن سينا ، نراه يلاحظ أن أى مجتمع قد لا يخلو من أناس يضطرون للبطالة ، وأن هؤلاء الناس إخواننا فى الوطن والإنسانية ، وإذاً يجب عونهم وتوفير الحياة المناسبة الشريفة لهم فى مكان يعيشون فيه ، وتتولى الدولة الإنفاق عليهم على ما عرفنا .

ولعل من الطريف أن نلاحظ أن فيلسوفنا كان رجلا عمليا حقا ، بجانب كونه فيلسوفا نظريا ممتازا ؛ إذ فكر فى المشكلة وفى حلها أيضاً . وفى سبيل هذا الحل الموفق غاية التوفيق ، نراه يتحرر من بعض ما كان يسود أيامه من آراء بعض الفقهاء . إنه لم يقل معهم بأن المرء متى دفع ما عليه من زكاة خلص من جميع ما عليه من حقوق مالية لوطنه وإخوانه ؛ بل إن عليه بعد هذه الزكاة المفروضة أن يسهم بنصيب من أرباحه للمعوزين ، ليقوم التضامن الاجتماعى بين أبناء الوطن الواحد . ولم يقل أيضا مع هؤلاء الفقهاء بأن معصية الله لها عقابها فى الدار الأخرى فقط [1] ؛ بل رأى ، بجانب ما سيكون من هذا العقاب الأخروى ، فرض نوع من العقوبات المالية للإنفاق منها على من تقطعت بينهم وبين العمل الأسباب وكانوا معوزين .

ذلك بأن هذا الفيلسوف كان يعرف من الواقع والتجربة أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن ، وأن هناك من لا يتذوقون أول الأمر حلاوة الطاعة لأمر الله ونهيه ، ومن ثم يكون الخير أحيانا فى فرض عقوبات — بعضها مالى — على من لا يقف عندما أمر الله ونهى ، فليس — كما يقول — كل إنسان بنزجر لما يخشاه فى الآخرة ؟ (الحديث موصول)

---

(١) من المعروف أن بعض المعاصى لها جزاؤها الدنيوى المعروف فى كتب الفقه بجانب الجزاء الأخروى . ولكنى هنا أريد الاشارة لطرافة رأى ابن سينا فى فرض عقوبات مالية مع هذا كله .

القرآن الكريم واللغة
وأيهما يؤيد الآخر

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

يلتقي الباحثون فى القرآن الكريم ، ممّن يؤمنون به ، ومن غيرهم ، فى أنه نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم بالتواتر الذى يقطع كل ريبة فى اتصال سنده ، وصحة متنه ، حتى ما كان من قبيل الأداء ، كالمدّ وغيره من مقومات ترتيله وتلاوته .

ويفترقون ، فى أن الأولين ، يؤمنون – مع ذلك – بأنه كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم بطريق الوحى ، للتعبد بتلاوته ، وللتحدى بأقصر سورة منه ؛ وأنه نزل بلغة قريش ولغات بعض القبائل الأخرى من مضر ، وهى : كنانة ، وأسد وهذيل ، وضبة ، وبنو سعد ، وثقيف ؛ ولاختلاف لهجات هذه القبائل ، اختلفت صور أداء القرآن الكريم ، ونشأت القراءات ، التى هى اختلاف ألفاظ الوحى المذكور فى الحروف أو كيفيتها ، من تخفيف وتشديد ، وترقيق وتفخيم ، وإبدال ، وإمالة ، وغير ذلك ، ولما أمر عثمان رضى الله عنه : زيد بن ثابت ، وعبد الله بن الزبير ، وسعيد بن العاص ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ؛ بكتابة المصحف الامام ، قال للرهط القرشيين الثلاثة : إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت فى شىء من القرآن ، فاكتبوه بلغة قريش ، فإنه إنما نزل بلسانهم .

ويرى الآخرون ، وهم المستشرقون ، ومن أولع بمذاهبهم فى البحوث والدراسات : أن القرآن الكريم كلام محمد (صلى الله عليه وسلم) ؛ وأن تواتره المقطوع به ، يجعله أصدق نص عربى يمثل اللغة العربية الفصحى ، فى العصر الذى تُلى فيه ؛ ولما كانت ألفاظ اللغة ، التى دونت فى معاجمها المختلفة فى العصر العباسى وما بعده ، إنما رويت آحادا ، وفى نصوص قوى الشك فى أنها منحولة ؛ فأن النص القرآنى يجب أن يكون « الحكم » فى متن اللغة ، لا أن تكون اللغة « حكما » فى نصوص القرآن .

ونحن ـ وان كنا لا نزعم أن الفاظ اللغة قد رويت بالتواتر ـ نعلم أن حرص المسلمين فى العصر الأول، على فهم القرآن الكريم، كان أقوى من حرصهم على الحياة، وأن سبيلهم إلى هذا الفهم، ملكاتهم وتتبعهم للألفاظ الواردة فى كلام القبائل التى نزل القرآن بلغاتها؛ ومضى الأمر على ذلك، عصرَ بنى أمية، وصدرا من عصر بنى العباس؛ حتى إذا اشتد الاختلاط، وفشا اضطراب الملكات؛ وأراد علماء البصرة والكوفة ـ رئتا الاسلام، ومباءته ـ تدوين اللغة؛ عمدوا إلى أخلص العرب لسانا، وأنآهم عن العجمة دارا، فأخذوا عنهم: أخذوا أكثر اللغة من قيس وتميم وأسد، واتكلوا عليهم فى الغريب والإعراب والتصريف؛ ثم من هذيل وبعض كنانة، وبعض طيّ؛ ولم يأخذوا من لخم وجذام، لمجاورتهم أهل مصر القبط؛ ولا من قضاعة وغسان وإياد، لمجاورتهم أهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرية؛ ولا من تغلب والنمر، لأنهم كانوا بجزيرة ـ قُورَ ـ بين دجلة والفرات، مجاورين لليونان؛ ولا من بكر، لمجاورتهم النبط والفرس [١] ولا من عبد القيس وأزد عمان، لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين للهند والفرس؛ ولا عن أهل اليمن، لمخالطتهم الهند والحبشة، ولا من بنى حنيفة وسكان اليمامة وثقيف وأهل الطائف، لمخالطتهم تجار اليمن المقيمين عندهم؛ ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة، صادفوهم قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم.

وكان الرواة وعلماء اللغة، يرحلون فى طلبها إلى البادية، ليأخذوها عن مصادرها مشافهة وسماعا؛ وأقدم من فعل ذلك، يونس بن حبيب الضبى، المتوفى سنة ١٨٣، وخلف الأحمر، المتوفى سنة ١٨٠، والخليل بن احمد، المتوفى سنة ١٧٤، وأبو زيد الأنصارى، المتوفى سنة ٢١٥. وكانوا يطلبون جفاة الأعراب، وأهل الطبائع المتوقحة، ويأخذون عن القبائل التى بعدت عن أطراف الجزيرة، وبقيت فى سرتها وكان الأعراب كذلك، يطرءون على الحضر من البادية، فيتلقى الرواة، وعلماء اللغة عنهم نوادر اللغة وغريبها، ويحكمونهم فيما اختلفوا فيه؛ وينزلون على أحكامهم؛

---

[١] نبط، بفتحتين = جيل ينزلون البطائح بين العراقين، والواحد نبطى، سموا نبطا، لأنهم استنبطوا ما يخرج من الأرض، ولغتهم السريانية.

ذلك لأن الأعرابى القح ، لا ينطق بغير لحن قومه ، وان كان أفصح منه ، إلا إذا داخله الضعف ؛ والروايات فى ذلك متعالمة مشهورة .

وكانت الحرب الجدلية اللغوية بين الكوفة والبصرة دائمة الاستعار ، يزيدها اشتعالا ، أن أهل الكوفة شيعة ، وأهل البصرة نواصب ؛ وأجمع العلماء على أنه لا معول فى رواية اللغة على أهل الكوفة ، لتعلقهم بالشواذ ، ولوضعهم الأشعار ، من صنع حماد الراوية ، ومعه أبو البلاد ؛ أما أهل البصرة ، فقالوا : إن منهم أصحاب الأهواء إلا أربعة فإنهم كانوا أصحاب سنة ، وهم : أبو عمرو بن العلاء ، والخليل ابن أحمد ، ويونس بن حبيب ، والأصمعى ؛ وذكروا أئمة اللغة الذين امتازوا بحفظها ، فقالوا : إن الأصمعى يحفظ ثلث اللغة ، والخليل بن احمد يحفظ نصف اللغة ، وأبو فَيْد السدوسى ، تلميذ الخليل ، يحفظ الثلثين ، وأبو مالك بن كركرة الأعرابى يحفظ اللغة كلها ، وكان يحفظ الغريب والنوادر ، وهو المراد من اللغة .

أقول : إن هذا التحرى البالغ فى تدوين اللغة ، والتدقيق فى تحملها ونقلها ؛ وهذه اليقظة التى لا تنام ولا تغفل عن حياطتها وتنقيتها من الدخيل والمدسوس ، والموضوع إلى الملكات الطبيعية ، أو القريبة من الطبيعة ، التى كان يمتاز بها رواتها ؛ تعطى اللغة من القوة والصحة ، ما يقرب مما يعطيه التواتر ؛ والقرآن هو الذى طرأ على اللغة ، فكانت الحاجة إلى التواتر فى نقله ألزم ؛ ثم هو مع ذلك دين أو معجزة مقررة للدين ، بخلاف اللغة ، فإنها - وإن كانت وسيلة له ، واجبة بوجوبه - ثابتة متقررة ، لأنها لسان المتحدى والمتحدى ؛ على أن فى تواتر القرآن الذى نزل بلسان عربى مبين ، تواترا ضمنيا للغة ، يقطع كل جدل ، وكل شك فى صحتها ، ونهوض حجيتها .

فليشك المستشرقون وغير المستشرقين فى بعض الأشعار أو فى أكثر الأشعار وليتهموا بعض الرواة أو أكثر الرواة ؛ فإنهم جميعاً لن يأتونا بجديد لم يتنبه له رجال اللغة وعلماؤها ، وينبهوا غيرهم عليه ، ويقرروا بإزائه من ضروب الوقاية ، ما يصده وينفيه .

— ونحن معاشر الأزهريين — قد تواردنا على تقديم القرآن الكريم على

كل نص سواه تشريفاً وتكريماً ؛ ومن هذا الذى يقدم كلام المخلوق على كلام الخالق ؟ ! بيد أنى لا أتكلم الآن فى الكرامة والشرف ، وإنما أعرض للقرآن واللغة من ناحية دلالتهما على المنهج العربى ؛ أو بعبارة مشهورة : من ناحية الاستشهاد على قواعد النحو ، وهل النصوص العربيـــة أقوى فى تأييدها ، أو النصوص القرآنية ؟ !

يقول المستشرقون : النصوص القرآنية أقوى ، لروايتها بالتواتر ، ورواية اللغة آحادا ، ولأن المسلمين فى العصر الإسلامى وما بعده ، قد منعوا رواية كل ما ناهض الدين من معارضة وغير معارضة ، وأنا أرد الجزء الأخير بأن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن رواية قصيدة أمية بن أبى الصلت فى رثاء قتلى بدر .

هـــلا بكيت على الكرام بنى الكرام أولى الممادح

ونهى عن رواية قصيدة الأعشى فى مدح عامر بن الطفيل :

علقم ، ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار والواتر ؟

ومع ذلك رويت القصيدتان على وجهيهما .

بل لقد روى فى صحيح البخارى بيتاً عبد الله بن الزبعرى فى قتلى بدر .

وماذا بالقليب ، قليب بدر من الخيرات ، والنعم الجسام ؟ !
وماذا بالقليب ، قليب بدر من الشيزى تكلل بالسنام ؟ !

ويقول الأزهريون : النصوص القرآنية أقوى ، لشرف القرآن وجلاله ؛ ثم لوروده على أفصح اللغات العربية ؛ فهم يوافقون المستشرقين فى الحكم ، ويسخرون من مقدماته عندهم ، لما أسلفنا قريباً ، من أن النصوص العربية ليست مدخولة كلها ، وأشعارهم ليست منحولة كلها ؛ لأن تحرى الرواة ودقتهم ، وضعت لكل عقرب حجرها ، ورفعت لكل آية علمها ، ونصبت لكل درب صواه ، مما أقام منار الحق ، وهدى إلى قصد السبيل .

فأما الضعيف الذى هو أنا ، فإنى ـ مع استعدادى للرجوع إلى الحق ـ أرى أن النصوص اللغوية الصحيحة ، أقوى فى الاستشهاد على قواعد النحو ؛ والدليل على ذلك واضح ميسور ؛ فإن القرآن الكريم ، معجزة الرسول الكريم ، رسول

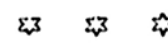
الإسلام : محمد بن عبد الله ، صلوات الله وسلامه عليه ، وبرهانه الذى قام ويقوم على صدق رسالته ، بتحديه للعرب أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه ، مما قالوه ، ومما تؤهلهم نحائزهم ، لأن يقولوه ، من منثور ومنظوم ؛ وهذا يوجب طبعاً ، أن يكون لهم كلام عرف وعرفت أسراره وخصائصه البلاغية ، وأساليبه فى الإفصاح والبيان ؛ حتى تكون الحجة أقوى ، والعجز أمامها أبلغ ؛ ولا يضيرنا فقدان بعض ذلك الكلام ، قل أو كثر ؛ ما دام الخصم لا يستطيع أن يدعى أن جميع كلام العرب قد فقد ، ولم يبق إلا القرآن ؛ هذا القليل أو الكثير الذى بقى من كلام العرب ، لا نزاع فى أنه الأصل الذى يقاس به القرآن ، حتى تصح الموازنة التى أوجبها التحدى ؛ وما كان أصلا ، يجب أن يكون الدليل المقدم .

ومما أستأنس به لذلك ، أن العلماء قد اتفقوا على أن القرآن فى أعلا درجات البلاغة ؛ ثم اختلفوا : أتتفاوت مراتبه فى البلاغة ، أم لا تتفاوت ؟

قال القاضى عياض : لا تتفاوت ، وكل كلمة فيه موصوفة بأنها فى الذروة العليا ، وإن كان بعض الناس أحس إحساساً من بعض .

وقال القشيرى وغيره : تتفاوت ، ولا ندعى أن كل ما فى القرآن على أرفع الدرجات فى الفصاحة .

وقال الجزرى : لو جاء القرآن كله بالأفصح . لكان على غير النمط المعتاد فى كلام العرب ، من الجمع بين الأفصح والفصيح ؛ فلا تتم الحجة فى الإعجاز ، إذ يقال - مثلا - إنه قد جاء بما لا قدرة للعرب على جنسه ؛ كما لا يصح أن يقول البصير للأعمى : قد غلبتك بنظرى ، لأن الأعمى يقول له : إنما تتم لك الغلبة ، لو كنت قادراً على النظر ، وكان نظرك أقوى من نظرى ، أما إذا فقد أصل النظر ، فكيف تصح منى المعارضة ؟



وإن المستشرقين ومن شايعهم - وإن طعنوا فى صحة ما روى عن العرب من الخطب ؛ ومن أشعار اليمن وربيعة - يقبلون شعر مضر ، ويعرفونه بخصائص ومميزات لا تشتبه ، ولا تخفى على نقاد الأدب ورواته فى الجاهلية والإسلام ؛

من ذخائر السنة

الخير باق في الناس

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد عبد التواب
مفتش الوعظ العام بالأزهر

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أكل طيباً ، وعمل فى سنة وأمن الناس بوائقه ، دخل الجنة ، قالوا : يا رسول الله ، إن هذا فى أمتك اليوم كثير ، قال : وسيكون فى قوم بعدى » . رواه الحاكم .

ولا يضيره أن تأخر تدوينه ؛ فإن النقل بطريق الرواية أصح وأفضل عند علماء الإخباريات ، من النقل بطريق الكتابة ، لضعفها وإشكالها ، بخلوها من الأعجام والشكل ، وغلبة الأمية على أهل البداوة بوجه أخص ؛ بل إن علماء اللغة كانوا إذا ارتابوا بفصاحة أعرابى ، ممن يطرءون على الحضر ، وظنوا أن جلده قد لان ، وذهب جفاؤه الذى يعدونه مادة الفصاحة ، وضعوا له قياساً غير صحيح ، فإن نطق به طرحوه ، وإذا وجدوا من أولئك الأعراب من يفهم اللحن وعلل الإعراب ، بَهرَجوه وزيفوا طبعه ، وطرحوا لغته ، كما يفعلون بمن لم يخلص منطقه . ذكروا أن أبا عمرو بن العلاء ، استضعف يوماً فصاحة أبى خَيْرةَ العَدَوى الأعرابى ، فسأله : كيف تقول : حفرت الإران ؟ فقال حفرت إراناً . فقال له أبو عمرو : ألان جلدك - يا أبا خيرة - حين تحضرت ؟ ! [١]

وأخيراً ، رحم الله أبا حفص الفاروق المحدث . عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ورضى الله عنه ، إذ يقول ما معناه :

عليكم بأشعار العرب ، ففيها تفسير كتابكم ، لأنه إنما نزل بلسانهم .

---

[١] أخطأ أبو خيرة ، لأن الحفرة التى يخبز فيها ، يقال لها : إرة وتجمع على إرين « كعزة وعزين » . وأما الأران فخشب النعش . وانظر الجزء الأول من الخصائص ، لأبى الفتح بن جنى .

صلاة الله وسلامه عليك يا سيدى يا رسول الله ، يا بشيراً بالخير ، ويا دليلا على الهدى ، ويا داعياً إلى اعتناق الفضائل والمكرمات .

صغت سعادة الدنيا والآخرة فى كلمات ، وجمعت جمال النفس ، وجلال البر ، وخالص العمل ، وحسن الأحدوثة ، فى حديثك العذب المذاق ، فوجهت أمتك إلى شمائل الفضل ، محكمات ، منسقات ، تزدان متماسكة متجاذبة ، وتزدان متناثرة متألقة ، فهى كعقود الكواكب المزدهرة فى زرقة السماء الصافية ، فى تجمعها جمال ، وفى تألقها جلال ، وفى نثارها بريق يزهو به المشرق ، ويعتز به المغرب ، ويتجاوب لمعانه ودورانه بين الجنوب والشمال .

تلكم هى الحكمة فى أسلوبها ، وهى العظمة من ينبوعها ، وذلكم هو المجد فى توجيه الرسول الحكيم .

من أكل طيباً حلالا ، من عمل يده ، أو مما ورثه ، فى غير حد يتجاوزه ، أو غش يخدع به ، أو غبن يدفع إليه ، فهو الأبى المترفع ، وهو الرحيم المتعفف يأبى أن يطعم مما لا يحل له ، ويترفع عن أن يسف إلى دنية يتبلغ بها ، ويشفق أن ينتزع اللقمة من فم المجهود حتى لا يبيت طاوياً ، ويعف عن كل شبهة تشوب الرزق الحلال حتى يصفو من كل كدورة تتغشاه ، فهو يقنع بالقليل . متمثلا بقول الشاعر :

إن القناعة والعفا ف ليغنيان عن الغنى
فإذا صبرت عن المنى فاصبر فقد نلت المنى

فأما الآثم الظالم ، وأما الشره الطامع ، وأما المتكالب المغرور ، فذلك إلى قسوة عنته ، له سعير من بغض من حوله ، وعليه وزر يبوء به من سوقه ، وبين يديه غضبة من الله تزلزل من ذات نفسه ، وتدك من حالق جبروته ، وتطوى ما جمع من مال ، فتضيعه عليه فى حسرة ، وفى نكال .

أيها الغاشون : الله ورسوله يبرآن منكم ، والظالمون : ويد الله فوق أيديكم ، ويا أيها الوالغون فى دماء الفقراء تمتصونها وتعتصرونها . أيها الرابحون فى السوق السوداء ، المتجرون فيما احتكرتم ، لتملأوا خزائنكم ، وتذهبوا بالكثير

والقليل ، رويداً ، فما أنتم بأشد قوة ، ولا أكثر جمعاً ، ممن نكس الله عتوهم ، وخسف بهم ، فاعتبروا ، وازدجروا ، وإلا حلت عليكم كلمة العذاب . فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة لحم ودم نبتاً على سحت ، النار أولى به » رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه ، وروى مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً ، وأن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين . فقال تعالى : (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً) وقال تعالى : يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب ، يا رب . ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب له » ؟؟

* * *

أما من عمل فى سنة ، فهو ذلك المهتدى بهـــدى رسول الله ، الآخذ عنه سمته وتقواه .

من شأنه : مراقبة فى العبادة ، وإحسان فى المعاملة ، وزهد عما فى أيدى الناس وثقة بالله ، واصطبار على الأحداث والنازلات ، وقناعة تسلم النفس إلى الطمأنينة والأمان ، وترفع عن الدنايا ، وبعد عن الريب ، وحلم لا يضيع حقاً ولا يغرى بمفسدة ، وحزم يضع الأمور فى موازينها ، ليقضى لها أو عليها ، وعزيمة لا تفتر ولا تهن حتى تبلغ هدفها ؛ كل ذلك فى حسن القدوة ، وجمال الأسوة ، « ومن يطع الرسول فقد أطاع الله » ، « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب » .

* * *

وأما من أمن الناس بوائقه « شره » فهو الأمين فى الغيب والشهادة ، الكريم صحبة ، والسليم طوية ، والكاف عن الأذى لسانه ويده ، وغمزته ولمزته ، الذى لا يقع فى عِرض ، ولا يتمرغ فى كذب ، ولا يستمرىء الطعن والكيد فى خفاء ، وفى نذالة ، وفى تبذل ... شأن اللص الجبان الرعديد ، لا يكاد يواجه النور ، ولا يسرق إلا من وراء ستار .

من أمن الناس بوائقه فاز بحبهم ، وزكا بحمدهم ، وظفر بتأييدهم ، وحب الناس آية حب الله ، وحب الله غاية كل مؤمن .

من أمن الناس بوائقه أمن هو فى سربه ، وأفسح لنفسه فى مكان العزة عندالله ـ الذى يعز المؤمنين ـ وبين الأعزة الأكرمين .

فمن تحلى بالخير ، وتجمل بالمكرمات ، وصبر ، وصابر ، كان من نفسه فى سمو وقوة ، وفى جمال وجلال .

قال الشاعر :

هى النفس ما حملتها تتحمل ... وللدهر أيام تجور وتعدل
وعاقبة الصبر الجميل جميلة ... وأحسن أخلاق الرجال التفضل
ولا عار إن زالت عن الحر نعمة ... ولكن عارا أن يزول التجمل

وبعـــد :

فهذه أوصاف ثلاثة ، من تحلى بها دخل الجنة ، مصداقا لهذا الحديث النبوى الكريم الذى لا ينطق عن الهوى .

طيب الطعمة ، وعمل بالسنة ، وكف عن الأذى .

ولقد كانت بشارة هذا الحديث على صاحبه أفضل الصلاة وأتم السلام ، أن مد الخير فى الناس ، فلم يقصر الاتصاف بتلك الشمائل على من كان فى عهده وبين صحابته ـ رضوان الله عليهم ـ حين قالوا : يا رسول الله إن هـذا فى أمتك اليوم كثير ، قال : « وسيكون فى قوم بعدى » .

سيكون الخير فى الناس ، ويكون البر ، وتكون القناعة ، ويكون الاعتصام بالكتاب والسنة ، فتكون الطعمة حلالا ، والكسب حلالا ، والقناعة موفورة ، والذمة مكفولة ، والناس فى أمن وأمان .

ولبيك يا رسول الله ، ثم لبيك ؟

المسلمون والتصوير

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى
ليسانس فى الآداب — دبلوم فى الآثار
وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

مقدمة :

إن موضوع التصوير فى المراجع العربية ، وأقصد بالذات كتب الفقه الإسلامى من الموضوعات غير الوافية . والمستعرض لتلك المراجع يتنقل من كتاب الى آخر دون أن يجد فرقا محسوسا أو تباينا ملموسا بين كتاب وكتاب . فالمتقدم أخذ عنه المتأخر وهذا الأخير لم يزد على ما نقل شيئا حتمته ظروف الحال ، ولا تغير الزمان والمكان . والمسألة تنحصر فى بعض تفسيرات بسيطة سطحية ، أو تأويلات نقلها الخلف عن السلف ، لذلك لا يجد الباحث فى موضوع التصوير شيئا له قيمته فى تلك الكتب القديمة ، كما لا يجد رأيا يمكن اعتباره فيصلا فى المشكلة .

على أنى لا أنشد استكمال هذا البحث فى تلك الكتب من الناحية الفنية وإنما أقصد الوصول الى رأى الفقهاء فى مسألة التصوير من ناحية تحليله أو تحريمه . وأقول رأى الفقهاء لأنى أعتقد أن الإسلام ترك هذا الموضوع لعدم أهميته ، وكل ما هنالك بعض أحاديث تناولها فقهاء المسلمين بالشرح والتعليق فحرموا أو كرهوا أو أجازوا عمل التصاوير أو اقتناءها أو النظر إليها .

لذلك أعتقد أنى أقرب الى الصواب إذا قلت : رأى الفقهاء فى التصوير ، أكثر من قولى : رأى الإسلام فى التصوير ، لأنى لا أجد فى القرآن ولا فى الحديث نصاً صريحاً يحرم التصوير ولا تفسيرا صحيحا يشرح الفرق بين التصوير والتمثيل (عمل التماثيل) ولا علة مقبولة لتحريم ما اتفق المسلمون على تسميته بالصور أو التصاوير .

القرآن والتصوير :

يهم الباحث فى موضوع التصوير أن يعرف ما ورد فى القرآن الكريم من

آيات تحرمه أو تحلله ، وسأعرض لتلك الآيات لأصل فى النهاية الى مشكلة التحريم أو الإباحة وهل وردت فى القرآن أم لم ترد .

لعل أغلب القائلين بتحريم التصوير من المستشرقين يجمعون على أن القرآن قد نص على ذلك فى سورة المائدة عند قوله تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان ، فاجتنبوه لعلكم تفلحون » . وقد فسر هؤلاء كلمة « الأنصاب » بالتصاوير ووصفوها بأنها رجس . وقال النسفى : « إن الأنصاب هى الأصنام ، وكونها رجس لأنها تنصب فتعبد » . وإذن يمكن أن نقول إن وصفها بأنها رجس وأمر المؤمنين باجتنابها راجع الى كونها تعبد من دون الله ، فإذا لم تعبد فإنها كما أعتقد لا تكون رجسا ويجوز للمسلمين أن يزاولوها . وقال النسفى أيضا فى تفسير قوله تعالى : « وما ذبح على النصب » . أن كانت لهم حجارة منصوبة حول البيت يذبحون عليها ، يعظمونها بذلك ويتقربون إليها » . ولعل فى ذلك ما يشير الى أن هذه الأنصاب كانت أحجارا ولم تكن صورا ولا تماثيل ، ويؤيد ذلك قول الزمخشرى فى أساس البلاغة مادة « نصب » : (ونصب حول الحوض نصائب وهى حجارة تجعل عضائد له . وكانوا يعبدون الأنصاب وهى حجارة تصب عليها دماء الذبائح فتعبد) .

وجاء فى تفسير القرطبى لتلك الآية ما يأتى : (وقيل « على » بمعنى اللام ، أى لأجلها . قال قطرب قال ابن زيد : ما ذبح على النصب وما أهل به لغير الله شيء واحد) . من هذا يمكن أن نقول إن الآية لا تتعرض للنصب بتحريم أو تحليل وإنما تعنى بالذات ما ذبح على تلك النصب وتحرمه لأنه قد أهل به لغير الله سبحانه وتعالى .

وقال القرطبى فى تفسير قوله تعالى : إنما الخمر والميسر .. الآية .. إن المقصود بالأنصاب : الأصنام . وقيل هى النرد والشطرنج . على أن القرطبى مع شهرته بالعناية بتفسير آيات الأحكام ، لم يتعرض لموضوع الأنصاب فى هذه الآية وإنما أخذ بالرأى الذى يفسرها بأنها النرد والشطرنج ، وأوضح ذلك فى تفسير قوله تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » [سورة يونس] .

وتتصل سورة سبأ بهذا الموضوع من ناحية أن التماثيل كانت فى شريعة سليمان عليه السلام ، مباحة لا حرمة فيها . قال تعالى : « يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب » .

قال النيسابورى فى شرح كلمة « تماثيل » : والتماثيل صور الملائكة والنبيين ، كان يأمر بأن تعمل فى المساجد من نحاس وزجاج ورخام ليراها الناس فيعبدوا نحو عبادتهم. وقال الألوسى : « وقيل كانت التماثيل صور شجر أو حيوانات محذوفة الرءوس مما جوز فى شرعنا ، ولا يحتاج إلى التزام هذا لأن حرمة تصوير الحيوان كاملا لم تكن فى ذلك الشرع . ثم قال : وحكى مكى فى الهداية أن قوماً أجازوا التصوير واحتجوا بهذه الآية » .

هذه خلاصة آراء المفسرين للآيات التى تمس عن قرب أو عن بعد موضوع التصوير ، ولا يستطيع أحد أن يقول إن القرآن قد نص صراحة أو ضمناً على تحريم التصوير . ولا يمكننا أن نقبل فى تساهل تأويلات المفسرين ، لأن التأويل « وجهة نظر » ووجهة النظر تختلف باختلاف الأفراد والأحوال . ولو أن لمشكلة التصوير ما لغيرها من الأهمية كمشكلة الخمر ومشاكل الزواج أو الطلاق أو الميراث ، لنص عليها القرآن صراحة كما نص على غيرها من مشاكل المعاملات والعبادات .

الحديث والتصوير :

أما فى كتب الحديث فإننا نجد بعض الأحاديث التى قد يشتم منها للنظرة الأولى ان الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم التصوير ونهى عنه . على أن فى هذه الأحاديث تعارضا وفى بعضها ما يفيد ان النبى قد أقر التصوير ولم ينكره .

والذى يمكن أن يخرج به من يمعن النظر فى هذه الأحاديث ـ على فرض صحتها ـ ان النبى كان يخشى أن يرجع الناس إلى الوثنية الأولى لو صرح أمامهم بإباحة الصور والتماثيل . بيد أنه حين وثق من ثبات العقيدة فى نفوسهم لم يأبه لتلك الصور بل أقرها . غير أن الشراح قد أخذوا بفكرة التحريم وبالغوا فيها وتناقلوها بعضهم عن بعض . وسأعرض فى اختصار هذه الأحاديث وتعليق الشراح عليها وما يمكن أن يرد به على هؤلاء الشراح .

الحديث الأول : . . . عن عائشة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه . وفى رواية إلا قضبه .

قال الشوكانى فى شرح كلمة « تصاليب » أى صورة صليب من نقش ثوب أو غيره ، ثم قال : « والحديث يدل على عدم جواز اتخاذ الثياب والستور والبسط

وغيرها التى فيها تصاوير ، وعلى جواز تغيير المنكر باليد من غير إذن مالكه ، زوجة كانت أو غيرها » . وهذا التفسير الذى ذهب إليه الشوكانى بعيد عن روح الحديث ونصه ، فالتصاليب ليس المقصود منها التصاوير وإنما ما كان على شكل صليب لأن ذلك قد يؤكد ، عند ضعاف العقول ، الرأى القائل بصلب عيسى عليه السلام ، فنقض التصليب لا لكونه صورة وإنما للفكرة التى يحملها الصليب .

ثم ذهب الشوكانى إلى جواز تغيير هذا المنكر عملا بالحديث مع أن الحديث لا ينص على هذا ولا يشير اليه . وعلى فرض أن الحديث فيه لفت نظر إلى ازالة المنكر فإنه لا يدل على ما قاله الشوكانى من جواز تغيير المنكر باليد ولو بغير إذن مالكه : زوجة كانت أو غيرها .

والذى أراه أن الشوكانى قد تشدد فى شرح الحديث وأغرب فى فهمه فحمله أكثر مما يحتمل .

الحديث الثانى : . . . عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : ان الملائكة لا يدخلون بيتاً فيه صورة أو كلب .

قال النووى فى شرح هذا الحديث (وهو شافعى المذهب) « قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم وهو من الكبائر لأنه متوعد عليه بهذا الوعيد الشديد المذكور فى الأحاديث . وسواء صنعه لما يمتهن أو لغيره فصنعته حرام بكل حال لأن فيه مضاهاة لخلق الله تعالى ، وسواء ما كان فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار وفلس وإناء وحائط وغيرها . أما تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان فليس بحرام . هذا حكم نقش التصوير . وأما اتخاذ ما فيه صورة حيوان ، فإن كان معلقا على حائط أو ثوب أو عمامة أو نحو ذلك مما لا يعد ممتهنا فهو حرام ، وإن كان فى بساط يداس ووسادة ونحوها مما يمتهن فليس بحرام . ولا فرق فى ذلك كله بين ما له ظل وما لا ظل له . هذا تلخيص مذهبنا فى المسألة ، وبمعناه قال جماهير العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ، وهو مذهب الثورى ومالك وأبى حنيفة وغيرهم . وقال بعض السلف : إنما ينهى عما كان له ظل ، ولا بأس

بالصور التى ليس لها ظل . وهذا مذهب باطل ، فإن الستر الذى أنكر النبى صلى الله عليه وسلم الصورة فيه لا يشك أحد أنه مذموم وليس لصورته ظل » .

ويظهر فى جلاء ان النووى تشدد إلى أبعد حد وانه ذهب مذهب الشوكانى فى الإغراب فى شرح تلك الأحاديث وفهمها . ويمكن فى اختصار أن نرد على مقالة النووى بما يأتى :

لقد حرم النووى تصوير صورة الحيوان على الاطلاق لأن فى ذلك مضاهاة لخلق الله تعالى ، واباح تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وهو يعلم أن هذا أيضا من خلق الله ، بل ان الله سبحانه وتعالى حينما تحدى الضالين من عباده ، طلب اليهم أن يخلقوا حبة أو ذرة أو شعيرة . فلو أن علة التحريم هى مضاهاة خلق الله تعالى لوجب على النووى أن يقول بتحريم كل ما كان من خلق الله تعالى حتى الشجر وجبال الأرض لأن ذلك صورة مما خلق الله . ولأن العينى يقول فى شرح « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقى (قالها النبى حكاية عن الله سبحانه وتعالى) ، ان التشبيه فى كلمة « كخلقى » لا عموم له ، يعنى كخلقى فى فعل الصورة لا من كل الوجوه » .

وإذن فالنووى بين أحد أمرين : اما أنه لم يصل تماما إلى معرفة علة تحريم التصوير (لو أن ذلك التحريم كان موجوداً) حين قال إنها مضاهاة خلق الله تعالى ، وإما أنه تساهل وتهاون حين أباح تصوير الشجر وغيره من النبات وجبال الأرض . . . . . والظاهر ان علة التحريم هى ما لم يذهب اليه النووى أصلا إذ ليس فى مضاهاة الخالق سبحانه وتعالى والتشبه به فى محاولة الاتقان والرغبة فى الكمال ما يوجب الكفر أو الحرمان ...

وظاهر أيضاً أن النووى لم يفرط ولم يتهاون حين رأى اباحة تصوير صورة الشجر وغيره لأن ذلك مما لا يعقل تحريمه وإنما التحريم منصب على ما يعبد من دون الله . [يتبع]

(مجلة الأزهر) فى هذا المقال دراسة أصولية للبحث عن حل أو حرمة التصوير فى الإسلام . ولكنها مع قوتها تحتمل التمحيص ، فنرجو ممن عنى من علمائنا المبرزين بمسألة التصوير ، أن يوافينا برأيه فى هذه المسألة .

النفاق الاجتماعي

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

النفاق فى اللغة الموت ، والمنافق هو الرجل يظهر خلاف ما يبطن ، وقد اشتهر على ألسنة المحققين من العلماء أن نفاق المنافق ملاحظ فى اشتقاقه « نافقاء اليربوع » وهو جحر تحفره فى داخل جحرها المعتاد تختفى فيه حين يراد طلبها ، أو السطو عليها ، وله باب سرى تغشيه طبقة رقيقة من التراب أو الحجارة تضربه برأسها لتخرج منه . والجحر العادى يسمى « القاصعاء » وعلى ذلك يقولون فى تحديد معنى المنافق ، يظهر غير الذى يبطن . . ونراهم تركوا فى ملاحظتهم ـ الأخذ أو الاشتقاق ـ المعنى الأول « الموت » مع أنه أولى بالملاحظة ، وأجدر بالرعاية ، لأن المنافق ميت وإن كان حيا ، وحقير وإن حاول نباهة الشأن ، وسمو المنزلة ، ولا ينكر ذلك جاحد ، ولا يكذبه مكابر ، وقديما قالوا « مهما تبطن تظهره الأيام » والتاريخ يحدثنا أن المنافقين لم تنطل على الناس حيلهم ، ولم ترج مفترياتهم ، بل كشف الله سترهم ، وأعمى بصائرهم ، وأحبط مكرهم ، وفضح ألاعيبهم ، وفى القرآن الكريم تعرض لشؤونهم ، وتفصيل لأخبارهم ، وسرد لما كان يبدر منهم من خزى ظاهر ، ونقص مزر ، وتخبط واضح ، وفشل ذريع « يخادعون الله والذين آمنوا ومايخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون ، الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين » . والتلون شيء آخر يخالف النفاق لأن صاحبه أشبه بالممثل أو « البهلوان » الذى يحذق لعب الأدوار ، وعرض الروايات ، فلا يعدم

أن يلاقى كل إنسان بوجه ، وأن يحدثه بنغم ، وأن يضرب له على الوتر الذى يرضيه صوته ، ويشجيه إيقاعه ، وهو ضرب من الملق ، ونوع من الرياء ، قلما يكون فى غير المنافقين . وواضح جد الوضوح جعل الله سبحانه المنافقين « فى الدرك الأسفل من النار » وتشديد العقوبة عليهم الى هذا الحد ، لأنهم غامضون فى سيرهم ملتوون فى سلوكهم ، لا تعلن وجوههم عن دخائلهم ، ولا تكشف ظواهرهم عن سرائرهم ، بخلاف الكافر فإنه واضح القصد ، بين الغاية ، معروف الاتجاه ، يقول بلسان حاله ، ما يقوله بلسان مقاله . . .

وإذا كان الدين الإسلامى ينعى على الفرد أن يكون منافقا ، ويرى أن وجوده أشبه بوجود الجراثيم التى تضر بالجسم السليم ، وتفتك بالعضو الصالح ، وتودى بما يعتز به من صحة ، أو يباهى به من قوة ، فإنه ينعى على الجماعة أكثر وأكثر ، ويرى أن الوزر الذى تحتمله متضامة متضامنة أشد وأنكى مما يحمله الواحد الدائر ، والإنسان المتكرر ، وكان من السنن الكونية القديمة ، إحلال السخط ، ونزول الصواعق . وقلب المدن ، ومسخ الأجيال ، وإشاعة الجدب ، واحتباس المطر ، « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ثم قطع عنا ذلك كله تكريماً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، واكتفى بتشديد النكير ، والتوعد بالعذاب يوم القيامة ، إذ يقول « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » وذلك لأن الجماعة متى تسرب اليها هذا الوهن ، ودب فيها هذا التخاذل أصبحت غير مرجوة الصلاح ، أو مأمولة النفع ، أو ميمونة النهوض ، وكيف يكون فيها شىء من ذلك والمرض قد استفحل فى أوصالها ، وتمشى فى مفاصلها . . .

وإذا كان الله سبحانه وتعالى يبتلى الأفراد بالشر والخير فتنة ، فإن أشد ما يبتلى به الرجل فى خلقه أن يكون منافقا ، له ظاهر طلى ، وباطن غير رضى ، يعيش بينهما مذبذبا ، ويقضى عمره فيهما مضطربا ، لا يثق أحد به ، ولا يأمن جانبه ، ولا يطمئن إلى معاشرته ، ولا يستريح لقربه منه ، ولكنه يطارده مطاردة الحشرات ، ويقاومه مقاومة الحيات . . . ولو صح ما يقول علماء الأخلاق من أن كل انحدار

ينحدره الإنسان مظهر لمرض يكمن فيه ، وعلة تعتريه ، وضعف يسيطر على نفسه ، وخلل يتحكم فى حسه ، هيهات أن ينفع فيه علاج ، أو يجدى معه طب ، فإن هذا المرض من الأمراض الخبيثة الملعونة ، لأنها لاتقف بصاحبها إلى حد أن تجلب له مصلحة ، وتدفع عنه مفسدة ، بل يسترسل بها « الميكروب » إلى درجة أوسع ، ومدى أبعد ، وتظل تعمل عملها ، وتؤدى رسالتها فى محيط لا نهاية له من الضرر والهلاك .

وقد يكون من الممكن أن يتلافى المجتمع ذلك الإيذاء الذى يناله من فرد شاذ أو أفراد شاذين ، كما نطالع فى المجلات والصحف عن بعض الشعوب المتمدينة ، والأمم الراقية من عزلهم المصابين وحرمانهم من الزواج والنسل ، وبهذا تتخلص من كيدهم وتنجو من خطرهم . . أما الجماعات نفسها فلا يمكن حين يعتريها هذا الفساد التخلص منها ، والقضاء عليها ، اللهم إلا إذا تداركتها عناية الله بالمعجزات ، وخوارق العادات ، وما أظن أن يكون شيء من ذلك . . لهذا فإن ما تعانيه البشرية الآن من جهل ومرض ، وفقر وخلاف لا ينتهى ، ونزاع لا ينقطع ، واضطراب شامل ، وقلق دائب ، وعدوان متكرر ، ليس إلا بعض سيئات النفاق الاجتماعى . ومع أن هذا النوع من النفاق ميؤوس من علاجه ، فى نظر علماء التربية ، فإن الدين يرى أن الولد باعتباره أمانة فى يد أبيه مطلوب منه أن يحفظها ويرعاها ، ويتعهدها بالتهذيب والأدب ، كما يتعهد الفلاح حقله بالرى والتسميد ، إذا صان خلقه من الانحدار ، ورعى طباعه من الفساد ، وأحاط سلوكه من الالتواء ، خلق منه رجلا كاملا ، وإنساناً فاضلا ، وبهذا يصبح فى البيئات المختلفة جماعات مثالية مرموقة ، يعتمد عليها الوطن ، ويحملها المسئولية ، ويلقى إليها بالزمام . . وفى الحديث « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولكن الوصولية حين طغت على الناس ، والعيش حين ألحّت مطالبه على الأفراد ، جعلتهم يتذبذبون بين الواجب والمصلحة ، والهوى والضمير ، والعقل والطيش ، ورضى الخالق وسخط المخلوق ، وداعى الإيمان ، وهواتف الشيطان ، فاللهم حقر الدنيا فى أعيننا ، وبغضها إلى نفوسنا ، ولا تجعلنا عبيدها ، ولا تفتنا بها ، وارزقنا فيها القناعة والزهد ، واجعلها تطلبنا دون أن نطلبها وترغبنا دون أن نرغبها . . فإننا شهدنا لها ضحايا منكرة مرذولة ، واستعذنا بك وحدك ، إنك أنت المولى وأنت النصير .

على هامش المولد والهجرة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود جميلة

المدرس بكلية اللغة العربية

نزل أمين الوحى ، وبلّغ الصادقَ الأمين ما بيته القوم له ، وأمره أن لا ينام فى مضجعه ، وأن ينقل مركز قيادته إلى طيبة التى قرر لها أن تكون رده الدعوة وسند الحق وقصبة الدولة الجديدة ، ومبعث الهدى والعرفان ، ومصدر النصر والعزة ومدينة النور والإسلام .

بعد أن فرطت مكة فى مكانتها وتهاونت فى مجدها وشرفها وضحت بسيادتها ، وباعت مستقبلها الباسم المنير بماضيها الخلب الخادع ، وأسرفت وأفرطت وحضنت الضلال ووكزت الحق واستحبت العمى على الهدى ، حتى نفر منها المخلصون وفر عنها المصلحون وقصد إلى غيرها أحباب الله وأعداء الشيطان ، ولم يُقم منهم بها سوى من ضيق عليه الخناق طلباً لفتنته ، وطمعاً فى صرفه عن عقيدته ، أو من بقى مع محمد صلى الله عليه وسلم رجاء الصحبة أو انتظاراً لأمر الله ، وبقى أبو بكر رضى الله عنه مع الباقين وكم ألح فى الهجرة وألح عليه الرسول فى البقاء ، على أن يحظى بالمرافقة ويفوز بالمصاحبة ، فلما جاء الإذن وقيل للرسول : « وقل رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً » قال لجبريل : من يهاجر معى ؟ قال : أبو بكر الصديق . فذهب إليه متقنعاً فى منتصف النهار فى ساعة لم يعتد الذهاب فيها ، وأخبره أنه قد أذن له فى الخروج ، فسأله أبو بكر الصحبة ، فأجابه بأنها قد وجبت . فقال أبو بكر : بأبى أنت وأمى خذ إحدى راحلتى هاتين . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : على أن تأخذ ثمنها . وهكذا نلمح جدية المعاملة ، وصدق الصحبة ، وإخلاص القلوب ، فلا تضليل ولا طمع ولا خدعة ولا رياء ، ولا ظلم ولا تورط .

وحقق الله أمنية أبى بكر وأمنية الرسول له ، ثم رجع الرسول إلى منزله

واصطحب معه من هو أولى بنصره ، وأحق بالدفاع عنه ، اصطحب علياً بن أبى طالب الرضى الوفى ، أخاه وابن عمه ودخل الحجرة الشريفة .

وما كانت حجرته عليه الصلاة والسلام حصناً يرد طالباً ، ولا قلعة محكمة البنيان ثابتة الأركان ، ولكنها حجرة متواضعة لا تعز على مقتحمها ولا تعجز متسلقيها .

* * *

لقد انبعث أشقياء قريش فى عتمة من الليل إلى بيت الرسول ليقتلوه ، وكان فيهم أبو جهل ، والحكم بن العاص ، وعقبة بن أبى معيط ، والنضر بن الحارث وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ، وطعمة بن عدى ، وأبو لهب ، إلى غير هؤلاء ممن رأى بعض الرواة أنهم كانوا مائة عدا . ياعجبا كل العجب ! كثرة من فتيان قريش تكون كتيبة حربية تقف على أبواب الرسول وتحيط بمنزله مدججة بالسلاح ، مؤيدة من قريش ؟ ماذا وقع فى خلدها ، وبماذا صورت محمدا فى هذا الوقت ، وبماذا تصورت حجرته ؟ أظنها قد تصورته ليثا هصورا أوعدوا غفيرا ، وتصورت حجرته مدينة محصنة ، لذا واجهته بهذه الجموع بعد تشاور وتحالف ، وهكذا كان رسول الله مرهوب الجانب عظيم القدر معجزة فى كل شىء .

* * *

وتطلع أشقى العصابة من ثقب الباب ليرصده ويكشف أمره ، وأمر الرسول عليا أن يرقد فى فراشه ، ويتشح بردائه الحضرمى ، وهم بالخروج على القوم الذين انطفأت أبصارهم كما انطفأت بصائرهم حينما طلعت عليهم شمس الوجود ، ونور الحق وخرج محمد وهو يحثو التراب على رؤوسهم يقرأ قرآنه : « وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون » .

وبقى القوم يترقبون النبى مطمئنين بأنهم سيفصلون فى قضيتهم فصلا يؤمنهم على ماضيهم ويبقى على آلهتهم وضلالهم .

وكم كانت دهشتهم عند ما نفض على من فراشه وعلموا أنهم أقاموا الليلة حراساً لعلى لا متربصين بمحمد ، وفسدت المؤامرة وسقط التدبير ، وعلموا أن الزمام

قد أفلت من أيديهم ، وأنه لا أمل لهم بعـد إلا إذا أدركوه فحبسوه أو قتلوه . وإذاً ؟!! لا بد من عيون تنشر ، وقصاص يتعقبون الأثر ، وجُعل يبذل بسخاء لمن يرشد إليه ويدل عليه ، وحمى الله رسوله ، ونصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم قريشاً وحده ، وأذل المشركين وأخزاهم بخروجه من بينهم وهم لا يشعرون .

* * *

وهنا أقف وقفة قصيرة أمام رجلين آخى الله بينهما فى الأرض كما آخى بين ملائكته فى السماء ؛ محمد وعلى علما بمؤامرة قريش وما بيتوه من شر بأعلام الله « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

ثم هذا على يصحب محمداً ويلزمه إلى بيته وهو يعلم أن الغدر محقق وأن محمدا مرمى السهام ، وهدف السيوف ، ثم يأبى على إلا أن يقدم نفسه فداء لأخيه ، وهذا وفاء تقتضيه الأخوة ، ويفعله المخلصون ، ولكن محمداً صلوات الله عليه يأمره أن يرقد فى مكانه وهو الهدف للرامين ، ثم يتلطف ويخرج ليبدأ رحلته إلى دار نصرته وعزته ، فيا ترى ماذا دار بخلد الرسول فى ذلك الوقت بالنسبة لأخيه ؟ لقد قال لعلى قبل : لا يخلص إليك شىء تكرهه منهم ، والحق أن محمداً كان مؤمناً بنصر حقه ، وأن سهام المبطلين لا تصل إلى صميمه ولما تحمله قدماه ، وعلى رضى الله عنه جُنة الحق . ومخيف الباطل ، ومذل الشرك ، ومواقفه فى الله لا زالت تنتظره والله لا يخزى النبى ولا يخذله ، فقد وعده نصره وتأييده ، ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أنه المقصود المتبوع دون على ، وأن القوم يريدون قتله على مشهد من بنى هاشم ، لتعلم أن قبائل قريش جميعها قـد اشتركت فى دمه ، إذن لن يقتلوه غيلة ، لأن ذلك مفوت لقصدهم مبعد عن غرضهم ، فلا بد من انتظار يقظته ، وعند ذلك يتبينوه ، ومتى تبينوه عرفوه ، ومتى عرفوه تركوه .

* * *

وما أشبه طاعة على والسيوف مصلتة ، بطاعة اسماعيل والمدية معدة ، فنى كلٍّ وفاء وابتلاء ، وفى على تضحية وفداء ؛ ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلى بيت أبي بكر ، فخرجا من داره بعـــد أن جهزا أخف الجهاز ، قالت عائشة رضى الله عنها ؛ « وجهزناهما أحث الجهاز ووضعنا لهما سفرة فى جراب فقطعت أسماء بنت أبى قطعة من نطاقها فأوكت به الجراب وقطعت الأخرى قصيرتها عصاما لفم القربة » . ولقبت لذلك بذات النطاقين ، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثى هاديا للطريق ومرشدا فى السفر ، وهو على دين قومه وأمناه على ذلك وسلما إليه راحلتيهما وواعداه غار ثور بعد ثلاث .

واتجه الرسول إلى غار ثور ومعه أبو بكر ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن له الرسول فسأله ، فقال يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك ، فقال : يا أبا بكر ، لو شىء أحببت أن يكون بك دونى ، قال نعم . والذى بعثك بالحق ، فلما انتهيا إلى الغار قال أبو بكر لرسول الله مكانك حتى استبرىء لك ، ويستبرىء ويرجع فيذكر أنه لم يستبرىء الحجرة فيسرع لاستبرائها ، ثم يدعو رسول الله للدخول فدخلا ، وجدت قريش فى طلبه ومعها القافة ووقفوا على الغار حتى قال أبو بكر لو أن أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا ، فقال الرسول « ما ظنك باثنين الله ثالثهما لا تحزن إن الله معنا » .

ويجتمع القوم ويتفرقون ويتناقشون ويتجادلون ، ومحمد وصاحبه يسمعان حديثهم ، ويدركان نعمة الله عليهما فى أن عمّ أمرهما على المشركين وصرف عن صفيه وصفى صفيه كيد الخائنين ، وكان عامر بن فهير يرعى عليهما غنما لأبى بكر ويستمع ما يدور بمكة بشأنهما ، ثم يأتيهما بالخبر ، فإذا كان السحر سرح مع الناس ، ومكثا فى الغار ثلاث ليال حتى خمدت نار الطلب ، وجاءهما ابن أريقط على ميعاده فارتحلا ، وأردف أبو بكر عامر بن فهير ، وسار الدليل أمامهما ، وعين الله تكلأهما وتأييده يصحبهما وأسعاده يرحلهما ويسعدهما ؟

(يتبع)

دعائم الدعوة إلى الحق

لفضيلة الأستاذ الشيخ حامد عونى

المدرس فى كلية اللغة العربية

لا يزال الناس بخير ما ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر : ذلك أن الأمر بالمعروف والنداء بالحق هما قطب الرحى للسعادة البشرية ، بل هما النخاع الشوكى لحياة الأمم ، ورائد الفلاح لكل شعب ، وإن المنكر داء وبيل فى البشر ، وسد منيع دون السعادة ، ما باض طائره فى أمة إلا أفرخ شرا ، ولا امتدت جذوره فى أرض إلا تفرعت بلاء وضرا .

وقديما علمنا أن الهداة الى الخير فى كل أمة هم قلبها النابض ، وروحها الخافق ما أقيم عليهما حارس من العظة والاعتبار ، حتى إذا ما أخذتهم سنة ، أو قعد بهم العجز عن أداء ما حملوا من أمانة لم تلبث الأمة أن تصاب بسكتة القلب ، وتفقد عنصر الحياة ، وبذلك نستطيع أن ندرك ما لأولئك الهداة من خطورة الموقف ، وفداحة العبء ، وما لهديهم - إن صدق - من عظيم الأثر فى حياة الأمم والأفراد .

وأخلق بالهداية أن تنفذ الى حبات القلوب نفاذ السهم فى الرمية ، وأن تقع من النفوس موقع الرحيق الحلال من ذى الغلة الصادى ، لو أنها وليدة أبى عذرها ، وناسج بردها ، فما كل فرس جواد ، ولا كل عارض ماطر .

وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا فى منابتها النخل ؟

وخليق بمن يؤمل لغراس هديه أطيب الثمر ، أن يكون هاديا بزيه وهندامه قبل أن يكون هاديا بجواهر لفظه وسحر بيانه ، ولست أريد أن يكون رث الهيئة زرى الطلعة يرتدى الأسمال البالية ، فتصدف عنه القلوب جموحا من حيث يريد اقتيادها ، بل أن يتخذ طريقا قصدا ، فلا هو خليع البزة يعثر فى فضل رياشه ، ولا هو بذ الهيئة يتعثر فى أسماله . . . « كلا طرفى قصد الأمور ذميم » .

ولا يعزب عن أذهاننا أن الداعى الى الحق بعرض أن يصطدم بقلوب غلف وآذان موقورة ، فإن لم يكن ذا لسان مشحوذ الغرار تثلمت مضاربه دون نفاذ ، فما أشد حاجته إذاً بمقول سحبان وبديهة عمرو ليكتسح ما عسى أن يستهدف له من حوائل ، فرب لسان أقطع من حسام ، وكلمة أنفذ من سهام .

ولن يكون المرء فى هديه كاملا حتى يكون بمختلف العلوم حافلا ، وبخاصة ذلك التنزيل المحكم ، وسنة من خص بجوامع الكلم ، وروائع الحكم ، فهما لعمرى البحر الخضم منه الصدر وإليه الورود ، وحتى يكون له سهم معرفة فى كل ماله مساس بالخلق والدين من مستحدثات الحضارة ، وولائد الترف ، فيكون أقدر على ضرب الأمثال ، وأعرف بإيراد الشواهد ، فيقع المعنى من النفس موقعه ممن لمس بيده وأبصر بعينه ، وإلا فماذا تجدى من اللسان ذرابته ، ومن الذهن تفتقه إذا تفه الغذاء وقلت البضاعة ؟

وإن يك أساة الأجسام قد تعوزهم الدربة والفراهة أن يأسوا قرحة هى بمرأى العين وفى متناول اللمس ، فما ظنك بأساة قوم هم بصدد أن يجتثوا أصول أدواء قد امتزجت بنفوس سقيمة ، فاستحالت فيها الى سلائق ، وتحولت الى طباع ، أنهم لعمرى أشد ما يكون حاجة الى حذق ومهارة يتلاءمان مع خطورة الداء ، وتعهده بناجع الدواء ولكن أنى لآسى النفوس أن يضع الهناء مواضع النقب إذا لم يك دارسا عناصر الداء ، مطلعا على خبيئة أمره ، ومداخل طبعه ، وهل يعرف بواطن الأدواء غير أساة الحى ، ويحسن نزع السهام غير براة القسى ؟ ؟ أجل :

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها

لهذا كان واجبا أن يكون ناصح القوم من سلالة البيئة التى نشأ منها وبعث فيها ، هنالك يقوى على اجتثاث جراثيم الفساد من مغارسها ، وعلى نزع بذور الشر من منابتها ، ومن هنا تتجلى حكمته جل شأنه فى جعل رسالته إلى الأمم على لسان رسل منهم ، ذلك أن وسائل الهداية ، ومناهج الرشاد أبقى ما تكون أثراً فى نفسك إذا جاءتك عن طريق إنسك وابن إنسك ، فإن النفس بابن بيئتها آنس ، وإلى نشء قبيلتها أميل ، وهذا هو سر توفيق الرسل عليهم السلام فى مهمتهم على خطورتها ، ونهوضهم بالعبء على فداحته ، وهاك ترجمة زياد ابن أبيه ، تنبئنا كيف كانت البصرة

جمرة مشتعلة وجذوة متقدة ، تعاقب عليها دهاة الولاة فما كانت تهدأ لها ثائرة إلا ريثما تعجم عودواليها . ثم لا تلبث أن تتوهج نارها ، وينلدع لهيبها رغم ما كان عليه الولاة من دهاء ، ذلك أنهم لم يهتدوا إلى بيت الداء ، ومضوا يعالجون عن غير خبرة :

وإن الجرح ينفر بعـــد حين إذا كانـــ البناء على فساد

حتى قدمها داهية دهاة العرب ، وباقعة بواقعهم ، زياد ابن أبيه فسل أحقادها ، وداوى أدواءها ، وألان قناة طغاتها ، وقمع نوازى أهوائهم حتى هدأت ثائرتها ، واستقامت الجماعات على لاحب السنن .

فهل تدرى رعاك الله ما السر فى توفيق زياد إلى ما لم يوفق إليه غيره ؟ إنه كان من قطان البصرة منذ الحداثة ، ومن السابقين الأولين إلى استيطانها ، فكان أهدى سبيلا إلى مواطن الداء ، وأصدق خبرة بناجع الدواء .

وإذا علمنا أن لسلطان الهوى هيمنة على النفوس من قديم ، وأنها بطبعها أسلس ما تكون قيادا لجناة الغواية وغواتها ، وأشد ما تكون نفورا من دعاة الفضيلة وحماتها ، كان لابد لكبح جماحها من خرط القتاد ، أو ازدراد الحسك ، وليس للداعى إلى الحق حصن ترتد دونه سهام غضب الطبيعة البشرية غير درعى الصبر والحلم ، فهما لعمرى القوة الكاسحة ، والحسام القاصم ، بهما تدرع الرسل عليهم السلام ، فكسحوا جيوش الجهالة ، وقصموا ظهور الصعاب ، حتى أشرفوا على الغاية وبخاصة نبى هذه الأمة ، لقد ذاق فى بث دعوته الأمرين ، واحتسى فى نشرها عصير الغضا ، وما كان يزيده عنت القوم وعنادهم إلا صبرا وحلما ، كعود زاده الإحراق طيباً ، وما ظنك بمن كان يتعقبه قساة القلوب ، وجفاة الطباع من مشركى العرب بأنواع الأذى ، ويتعاورونه بضروب العذاب ، غير وانين ولا متهاونين فما كان يزيد على أن يدعو لهم بالهداية والتوفيق قائلا : « اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون » ، ولم يثنه كل ذلك قيد أنملة عن المضاء فى عزمه حتى تم له الأمر ، وأونس الرشد من الملة ، وهكذا من سار على الدرب وصل .

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

وخليق بمن نصب نفسه لهداية الناس أن يكون سهل الخليقة لين العريكة رحب

الصدر ، لا تستفزه رعونة الجاهل ، ولا تستخفه عوراء البذىء ، يأخذ الناس باللين ، ويجادلهم بالحسنى ، فذلك أعون على إحقاق الحق ، والبلوغ به إلى أعماق النفوس ، وما عهدنا فى عالم الجدل أن العنف طريق من طرق المحاجة ، ولا وسيلة من وسائل الإقناع ، كيف ولن أراك تستطيع كبح جماح دابتك حتى تحرك لها حوارها ، ولا أن تسلس قيادها حتى تنزع لها قرارها ، وعلى هذه السنة جرى النبى صلى الله عليه وسلم فى نشر دعوته ، فكان يتحرج جهده أن تأخذه سوْرة الغضب فى محاجه خصومه ، فيتشعب الصدع من حيث يريد رأبه ، حتى فى أحرج المواقف يوم زعموه ضالا لم يأذن للغضب أن يفك له حبوة ، ولا أن تمس له أناة ، وأبى عليه حلمه إلا أن يخاطبهم بقوله : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » ، لم يشأ عليه السلام أن يعزوهم إلى الضلال فيثير حفائظهم ، وهو أحرص ما يكون على استمالتهم وتأليفهم سيما وأن الإسلام كان فى نشأته الأولى أحوج ما يكون إلى تكثير سواده ، وبهذه الملاينة وأخذ الأمور بالرفق استطاع هذا النبى الكريم أن يئد الخصومة فى مهدها ، وأن يقيمهم على السنن القويم ، ويسلك بهم جادة الطريق ، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله .

وهكذا ينال باللين والرفق ما لا ينال بالعنف والقسر ، فما كان زياد ليقمع فتنة البصرة ، ويضبط أمر العراق بحد السيف ، وقوة الكتائب ولكن بأن فتل لها مابين الذروة والغارب ، وعلى هذا المنوال نسج معاوية رضى الله عنه ، فعد أحد دهاة العرب . وهاك سياسته : إنى لا أضع سيفى حيث يكفينى سوطى ، ولا أضع سوطى حيث يكفينى لسانى ، ولو أن بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت .

وها هى ذى الدولة البريطانية على جبروتها ، جل اعتمادها فى بسط نفوذها على قوة اللين والهوادة ، ولهذا سمى ساستها دهاة العالم ، فأحر باللين من حسام هو فى طراوته أمضى شباتا من تلك الصمصامة فى يد الزبيدى ، أو القوس فى كف باريها .

وما كان غراس الدعوة إلى الله ليثمر فى تربة كائنة ما كانت ، حتى يكون فى البذر خاصية الإثمار ، فعلى مسدى النصيحة أن يبدأ بنفسه ، فيقوّم من أودها ، ويصقل ما صدأ من خلالها . هناك يثمر غرسه ، ويفيد درسه وإلا فمن العبث أن تنسج

لغيرك حلل النصح وأنت عارى السوءة ، وتنظم له قلائد الوعظ وأنت عاطل الجيد ومن البلية أن .

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنى   كيما يصح به وأنت سقيم
فابدأ بنفسك فانهها عن غيها   فاذا انتهت عنه فأنت حكيم
لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عار عليك إذا فعلت عظيم

فلتطبع الأسجاع بطوابع وعظك ما شئت ، ولتقرع الأسماع بجواهر لفظك ما أردت ، ولتأت بالمعجزات من لفظك المختار ، وأساليبك المصطفاة ، فلن تجد إلا وقراً فى الآذان ، وإلا قلوبا فى أكنة مما تدعو اليه ، ومن بينها وبينك حجاب ما لم تكن بفعالك أوعظ منك بمقالك .

أرأيتك لو انتظمك حفل من الناس قام يخطبهم واعظ خلبك سحر بيانه ، وأثملتك خمرة إحسانه ، ثم تتبعته فاذا هو عبد شهوته ، يسخره أبو مرة أنى شاء ، وحيثما أراد ، ثم رأيته وقد عاد يصوغ الفرائد وعظا ، وينظم القلائد نصحا ، أكنت تعير للفظه أذنا ، وتقيم لموعظته وزنا ؟ إنهم لشر أداة شر على المجتمع ، أولئك الذين يدعون إلى مكارم الأخلاق ولا خلاق لهم ، ويأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم ، وقانا الله شر ذلك السم فى الدسم ، والطلاء على الورم .

وأحر بالداعى إلى الله ألا يكون هدفا لسهام الأغراض . تكأة لعوامل الأهواء ، فما دخل الغرض أمراً إلا أفسده ، ولا عبث الهوى بشيء إلا أفقده ، وليكن له من العفاف ما يصون له عرض كرامته ، ويحفظ عليه حرمة نصحه وإرشاده فما انتهك لكرامة عرض تولى العفاف حراسته ، وما هتك لنصيحة ستر تذود عنه الكرامة ، ورحم الله امرءا عرف قدر نفسه فجنبها مصارع الفضول ، ونأى بها عن مظان الصغار .

وعلى الجملة إن من أوتى لسانا قادراً ، وبيانا ساحراً ، وذيلا نقياً ، وقلباً تقياً لايخاف فى الحق لومة لائم . ولا يخشى فى الله صولة ظالم ، لا تميله الرغبة عن الجادة ولا تقصيه الرهبة عن سنن الحق ، وكان حليف حزم وعزم ، خدين حلم وعلم ، فقد وفق أن يكون من الهداة المصلحين .

أبو العيناء الضرير

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

وأبو العيناء هو ذلك الأديب الممتع الذى قدمت للقارىء الكريم صورة عن نشأته وبعض أخباره . والآن أسوق طرفا من أخباره آخر فيه أدب وفيه فكاهة ، ثم أعرض لصورة من ملحه وأجوبته ومهاتراته ، وصورة أخرى عن بلاغته وما كان له من يد طولى فى كل من النثر والنظم .

وأبدأ بذكر قصة خروجه من البصرة ، وهى قصة تستضحكك وتحملك على روايتها والتحدث بها ـ حدث جماعة من المؤرخين عن أبى العيناء ، وحدث عن نفسه وسبب خروجه من البصرة بما ملخصه أن أبا العيناء مر بسوق النخاسين (بائعى العبيد) يوما ، فرأى غلاما ينادى عليه بثلاثين ديناراً ، وهو يساوى ثلثمائة ، فاشتراه وكان يبنى داراً فدفع اليه عشرين ديناراً ليوزعها على الصناع فوزع عشرة منها واشترى بالباقى ثوبا ، فجرى بينهما ذلك الحديث :

أبو العيناء ــ من أمرك بهذا ؟

الغــــلام ــ يا مولاى لا تعجل فان أهل المروءات والأقدار لا يعيبون على غلمانهم إذا فعلوا فعلا يعود بالدين على مواليهم .

قال أبو العيناء فقلت فى نفسى قد اشتريت الأصمعى ، ولم أعلم قال وكانت فى نفسى امرأة أردت أن أتزوجها سراً من ابنة عمى فقلت له يوما : أفيك خير ؟

فقال إى لعمرى ، فأطلعته على الخبر ، فقال أنا نعم العون لك فتزوجت المرأة ودفعت اليه ديناراً ليشترى أشياء فيها سمك هازبى [1] فاشترى سمكا (مارماهى) فقلت أليس قد أمرتك بشراء الهازبى ؟ قال : بلى ولكنى رأيت بقراط يقول إن الهازبى يولد الصفرا والمارماهى أقل غائلة . فقلت له : يا ابن الفاعلة . أنا لم أعلم أنى

---

[1] نوع من السمك والمارماهى نوع آخر .

اشتريت جالينوس ، وضربته عشر مقارع ، فلما فرغت أخذنى وضربنى سبع مقارع وقال : يا مولاى . الأدب ثلاث والسبع فضل وذلك قصاص فضربتك هذه السبع خوفا عليك من القصاص يوم القيامة . فغاظنى جداً فرميته فشججته فمضى من وقته إلى ابنة عمى وقال لها : يا مولاتى . الدين النصيحة ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم من غشنا فليس منا ، وأنا أعلمك يا مولاتى أن مولاى قد تزوج واستكتمنى ، فلما قلت له لا بد من تعريف مولاتى ضربنى بالمقارع وشجنى . فمنعتنى من دخول الدار والانتفاع بشىء مما فيها ووقعنا فى تخليط ، حتى طلقت امرأتى الثانية وصلح أمرى مع ابنة عمى وسمت الغلام الناصح . فلم يكن يتهيأ لى أن أكلمه ، فقلت أعتقه واستريح فلعله أن يمضى من عندى إلى النار . فلما أعتقته لزمنى ، وقال الآن وجب حقك على . ثم أراد الحج فجهزته وزودته فغاب عنى عشرين يوما ورجع فقلت : لم رجعت قال : قطع الطريق وفكرت فإذا الله يقول (ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا) فكنت غير مستطيع وفكرت فاذا حقك أوجب فرجعت . ثم أراد الغزو فجهزته أيضاً لذلك وشخص ، فلما غاب عنى بعت كل ما أملكه بالبصرة من عقار وغيره وخرجت منها خوفا أن يرجع . حكاية طريفة تصور لك ما كان من أمر غلام يساوى ثلثمائة فباعه أصحابه بثلاثين لأنه مختل التفكير ، كثير الخلاف على غزارة مادته وقوة حجته ، ولطف مأخذه ، وتصور لك ما يكون من أمر المرأة فى مختلف الأزمان وتحكمها فى أمر الرجال وسيطرتها إلى ذلك الحد الذى جعلها تخرج الرجل من بيتها فلا يملك إلا أن ينزل على طاعتها ، وتصور لك ضعف أبى العيناء أمام قوة ذلك الغلام الذى أخرجه من مستقره بعد أن أعيته الحيل فى أمره .

وانتقل أبو العيناء إلى بغداد ، فأخذ ينمى معارفه ويوسع مجال ثقافته . ويجمع الناس من حوله فيحدثهم بما فتح الله عليه من رواية بعيدة المدى وأدب جم وفير وكان ذلك بعد بلوغه سن الأربعين ، وقد تم نضجه وبلغ أشده واستوى ، ويظهر أنه مكث بها مدة لا تقل عن مدته بالبصرة ، وخرج منها فى آخر حياته ليموت بالبصرة ، وقد ذكر أنه كان فى سفينة تحمل ثمانين نفساً وأنها غرقت فما سلم غيره على عمى بصره وقلة حيلته ، فلما صار إلى البصرة مات . فسبحان مصرف الكائنات .

ولعل القارىء الكريم فى شوق أن يرى بعض ما اشتهر به ذلك الرجل

من ملح ونوادر وأجوبة مسكتة ، وفى كتب الأدب من ذلك الشىء الكثير بعضه فى معجم الأدباء وبعضه فى زهر الآداب وبعضه فى تاريخ بغداد وفى تاريخ ابن خلكان وغيرها .

وفى بعض ذلك الطريف المقبول وفى بعضه الماجن وفى بعضه الفاحش الممسوخ وسأحاول أن أصور للقارىء وضع هذا الرجل بما لا أخرج به عن حد الكمال .

وتستطيع أن ترد هـذا المعنى إلى جهات ثلاث : محادثاته مع المتوكل الخليفة ، الذى كان يحبه ويؤثره ، ومحادثاته مع الولاة والوزراء ، ومحادثاته مع غيرهم من الدهماء أو من أصحابه .

فأما محاوراته مع المتوكل فنذكر منها ما يأتى :

قال له المتوكل يوماً هل رأيت طالبياً (من آل على) حسن الوجه قط فقال متخلصاً من الورطة يا أمير المؤمنين . أرأيت أحداً قط سأل ضريراً عن هذا .

المتوكل — لم تكن ضريراً فيما تقدم وإنما سألتك فيما سلف .

أبو العيناء — نعم رأيت منهم ببغداد منذ ثلاثين سنة فتى ما رأيت أجمل منه .

المتوكل — تجده كان مؤاجراً وتجدك كنت قواداً عليه .

أبو العيناء — وفرغت لهذا يا أمير المؤمنين أترانى أدع موالى على كثرتهم وأقوم على الغرباء .

المتوكل — أسكت يامأبون — أبو العيناء — مولى القوم منهم .

قال المتوكل : أردت أن أشتفى منهم به فاشتفى لهم منى .

وهذه محادثة تدل على مبلغ استهتار المتوكل وتنزله ، وعلى غلوه فى التحامل على العترة الكريمة .

وقال له المتوكل يوماً : إن سعيد بن عبد الملك يضحك منك . فقال على البديهة « إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون » .

وقال له فى حديث جرى : إن إبراهيم بن نوح النصرانى واجد عليك فقال : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم » . وقال له إن جماعة من الكتاب يلومونك فقال :

إذا رضيت عنى كرام عشيرتى فلا زال غضباناً على لئامها

وقال له أكان أبوك فى البلاغة مثلك فقال : لو رأى أمير المؤمنين أبى لرأى عبداً له لا يرضانى عبداً له .

وكان فى عهده رجل اسمه نجاح بن سلمة ، وشرب نجاح هذا مع موسى بن عبد الملك فاغتاله موسى .

فلما اجتمع أبو العيناء بالمتوكل قال له المتوكل ما تقول فى نجاح بن سلمة ، قال ما قال الله تعالى : « فوكزه موسى فقضى عليه » . فعاتب بعض الوزراء أبا العيناء على ذلك الإغراء .

فقال له أبو العيناء والله ما استعذبت الوقيعة فيه حتى ذممت سريرته لك فأمسك عنه خوف لسانه .

قال له المتوكل من أسخى من رأيت ؟ قال ابن أبى دؤاد فقال المتوكل : تأتى إلى رجل رفضته فتنسبه إلى الكرم ، فانظر كيف تدارك الموقف على نفسه . وكيف دافع عن قوله قال : يا أمير المؤمنين إن الصدق لا يكون فى موضع من المواضع أنفق منه فى مجلسك . وإن الناس يغلطون فيمن ينسبونه إلى الجود ، لأن سخاء البرامكة منسوب إلى الرشيد . وسخاء الفضل والحسن ابنى سهل منسوب إلى المأمون وجود ابن أبى دؤاد منسوب إلى المعتصم . فإذا نسب الناس الفتح وعبيد الله إلى السخاء فذلك سخاؤك . قال صدقت فمن أبخل من رأيت . قال موسى بن عبد الملك قال : وما رأيت من بخله قال : رأيته يحرم القريب كما يحرم البعيد . ويعتذر من الإحسان كما يعتذر من الإساءة ! قال قد وقعت فيه عندى مرتين ، فالقه واعتذر إليه من غير أن يعلم أنى وجهتك . فصار إلى موسى واعتذر كل منهما إلى صاحبه ثم لقيه موسى فقال قد اصطلحنا فما لك لا تأتينا . قال « أتريد أن تقتلنى كما قتلت نفساً بالأمس » (يريد نجاحا السابق) فقال موسى ما أرانا إلا كما كنا .

ولما قيل له إن المتوكل قال لولا أنه ضرير لنادمناه . قال إن أعفانى من رؤية الأهلة وقراءة نقش الفصوص فأنا أصلح للمنادمة .

وأما أحاديثه وأجوبته مع الوزراء والكبراء فكثيرة ، نذكر منها أيضاً ما لم يشتد خروجه . قال له عبيد الله بن سليمان الوزير فى مرة : أعذرنى فإنى مشغول . فقال : إذا فرغت من شغلك لم نحتج إليك . وأنشده :

فلا تعتــــذر بالشغل عنا فإنما   تناط بك الآمال ما اتصل الشغل

ثم قال : يا سيدى قد عذرتك فإنه لا يصلح لشكرك من لا يصلح لعذرك .

ودخل عليه يوماً فشكا إليه حاله . فقال : أليس قد كتبنا لك إلى إبراهيم بن المدبر . قال : كتبت إلى رجل قصّر من همته طول الفقر ، وذل الأسر ، ومعاناة محن الدهر . قال : أأنت أخذته . قال : وما علىّ أعز الله الوزير فى ذلك قد اختار موسى قومه سبعين رجلا فما كان منهم رشيد . واختار النبى صلى الله عليه وسلم ابن أبى سرح كاتباً فرجع إلى المشركين مرتداً . واختار على بن أبى طالب أبا موسى حاكما فحكم عليه .

ولما استوزر صاعد عتب إسلامه صار إليه أبو العيناء فقيل له يصلى فعاد فقيل يصلى فقال معذور لكل جديد لذة .

ووعده ابن المدبر ببغلة ، ثم لقيه فى الطريق وقال له كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت بلا بغلة ، فضحك وبعث بها إليه - وسئل يوماً عن مالك بن طوق فقال : لو كان فى زمن بنى إسرائيل ونزل ذبح البقرة ما ذبح غيره ، قيل فأخوه عمر فقال : كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً - ومن ملحه مع سائر الناس أن رجلا زحمه بالجسر على حماره فضرب بيده على أذن الحمار وقال يا هذا قل للحمار الذى فوقك يقول : الطريق .

ومر يوماً على دار عدو له فقال : ما حال أبى محمد ، قيل على ما تحب قال : فما لى لا أسمع الرنة والصياح . وقيل له : إلى متى تهجو الناس وتمدحهم فقال ما دام المحسن يحسن والمسىء يسىء وأعوذ بالله أن أكون كالعقرب تلسب النبى والأمى . وقالت له قينة ، هب لى خاتمك وأذكرك به فقال أذكرى أنك طلبته منى ومنعتك وكان له صاحب يلقب بابن مكرم وله معه مهاترات كثيرة يحسن بالقارىء أن يرجع إليها فى كتب الأدب فقد كدت أخرج إلى حد الإملال على أن فيها مالا يليق .

وأما بلاغته فتتجلى لك فى بعض ما مر بك من محادثاته وله كتب طريفة أدبية تزيدك إيماناً بمبلغ فضله فى هاته الناحية ، قال صاحبه محمد بن مكرم الكاتب : من زعم أن عبد الحميد أكتب من أبى العيناء إذا أحس بكرم أو شرع فى طمع فقد ظلم . كتب إلى عبد الله بن سليمان يطلب غلاماً اسمه كافور . قد علمت أصلحك الله أن الكريم المنكوب أجرى على الأحرار من اللئيم الموفور ، لأن

اللئيم يزيد مع النعمة لؤماً ، والكريم لا يزيد مع المحنة إلا كرماً . هذا متكل على رازقه ، وهذا يسيء الظن بخالقه ، وعبدك إلى ملك كافور فقير ، وثمنه على ماااتصل بى يسير ، لأنه بخدمته السلطان يعرفنى الرؤساء والإخوان فإن سمحت به فتلك عادتك ، وإن أمرت بأخذ ثمنه فما لك مادتى أدام الله دولتك ، واستقبل بالنعمة نكبتك . فأمر له به .

وجدير لعمرى بمثل هذا الأسلوب أن يعطف النفوس الكريمة . وبين يدى الآن عدة من رسائله أخفها وأمتعها ، وأعذبها وأظرفها ، وأدلها على ما كان فيه من عبث ورقة ما كتب به إلى صديق له ولى ولاية يقول فيه : أما بعد ، فإنى لا أعظك بموعظة الله ، لأنك عنها غنى ، ولا أخوفك إياه لأنك أعلم به منى ولكنى أقول كما قال الأول :

أحار بن عمرو قد وليت ولاية فكن حذرا فيها تخون وتسرق
وكاثر تميما بالغنى إن للغنى لسانا به المرء الهيوبة ينطق

واعلم أن الخيانة فطنة والأمانة حرفة ، والجمع كيس . والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية . فاذكر أيام العطلة ، ولا تحقرن صغيراً . فإن من الدور إلى الدور وأيام الولاية رقده ، فتنبه قبل أن تنبه ، وأخو السلطان أعمى . عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التى وصى بها يعقوب بنيه ، ولكن رأيت الحزم فى أخذ العاجل وترك الآجل .

وأما شعره فقد ذكر صاحب زهر الآداب (ج ١٨ ص ٣٠٢ فما بعدها) طائفة صالحة دلت على أدب جم ، وذوق لطيف فى أسلوب مكتنز ليس فيه فضل عن معناه ، متماسك قوى ولا سبيل إلى الاستيعاب ، فقد ضاق المجال ، ولكنى أتعجل للقارىء الكريم بعض ما اختار منه . قال يهجو أسد به جوهر .

تعس الزمان فقد أتى بعجاب ومحا رسوم الفضل والآداب
وأتى بكتاب لو انطلقت يدى فيهم رددتهم إلى الكتاب
جيل من الأنعام إلا أنهم من بينها خلقوا بلا أذناب

إلى أن قال :

ثكلتك أمك هبك من بقر الفلا ما كنت تلفظ مرة بصواب

باب الأسئلة والفتاوى

حكم الله في المسلم يقاتل المسلم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية سابقاً وعضو جماعة كبار العلماء

تضافر الكتاب والسنة وإجماع الأمة على حرمة دماء المسلمين . وقد خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع فقال « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم وأبشاركم (جمع بشرة ؛ وهى ظاهر جلد الإنسان) عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ؟ » .

وروى البخارى فى صحيحه عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حمل علينا السلاح فليس منا » ، وفى رواية مسلم « من سل علينا السلاح فليس منا » . وفى رواية أحمد « من رمانا بالنبل فليس منا » . والمقصود من ذلك أن من حمل من المسلمين سلاحاً أو نبلا أو أى أداة للقتال يريد به قتال أخيه المسلم بغير حق مشروع فليس من الإسلام ولا من أهله فى شىء . ففيه دلالة - كما قال الحافظ ابن حجر فى الفتح وغيره - على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه ، لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله ، فضلا عن قتله . وهذه الحرمة وهذا الإثم العظيم والوعيد الشديد فيمن لا يستحل ذلك ، فأما من يستحله مكابراً للشارع فإنه يكفر باستحلال الحرام وفى البخارى من رواية أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « لا يُشر أحدكم على أخيه بالسلاح ، فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزغ فى يده (يغريه حتى يحمله على قتل أخيه) فيقع فى حفرة من النار ، فقد نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن مجرد الإشارة بالسلاح إلى الأخ المسلم خشية أن يضله الشيطان فيصيب أخاه فيقع فى النار وفى رواية عنه « الملائكة تلعن أحدكم إذا أشار إلى الآخر بحديدة » .

وقال أبو بكر بن العربى : إذا استحق الذى يشير بالحديدة هذا اللعن

فكيف بالذى يصيب بها ؟ وإنما يستحق اللعن إذا كانت إشارته تهديداً ، سواء أكان جاداً أم هازلا .

* * *

وعن عبد الله بن مسعود قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » . ولا يخفى ما فيه من المبالغة فى الزجر . والتحذير من الإقدام على قتال المسلم .

وفى حديث ابن عمر « لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » فسمى الرسول من يفعل ذلك كافراً مبالغة فى التحريم والتحذير .

* * *

وأعظم من هذا إثماً وأشد تحريماً فى دين الله وشرعة الإسلام من يقدم على قتال أخيه المسلم فى صفوف أعداء الإسلام الذين يحاربون الشعوب الإسلامية لاستلاب حرياتها ، والاستيلاء على أوطانها ، ويقتحمون بالحديد والنار منازل الأهلين الآمنين لاستعمار البلاد واستعباد العباد ، ويكيدون للإسلام وأهله بمختلف الوسائل الشريرة ، فإن موالاتهم ، وإسداء المعونة لهم فى هذه الحروب - ولو مع غير المسلمين - بأية صورة من الصور ، فضلا عن القتال فى صفوفهم من أشد المحرمات وأكبر الكبائر ، وقد يكون كفراً بواحاً إذا اعتقد المسلم حله . وذلك لما فيه من القوة لهم ، ومن تمكينهم من أعناق المسلمين ، ورقاب الأرضين ، وإذلال الموحدين ، والقضاء على دين رب العالمين .

* * *

هؤلاء الأعداء ، حرب على الإسلام والمسلمين فى كل زمان ومكان ، فتحرم موالاتهم والثقة بهم ، وتحرم إعانتهم ونصرتهم فى السلم والحرب ، وخاصة إذا أرادوا المسلم على أن يقاتل أخاه المسلم ، أو يكيد له أو يضعف من شأنه ويخرب فى دياره ، قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق) وقال تعالى : (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون) .

وقال تعالى : (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ،

ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير . قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبــدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى والأرض والله على كل شىء قدير) .

* * *

أما غير المسلمين الذين ليسوا حرباً علينا فيجوز محالفتهم وعقد المعاهدات معهم ما دام فى ذلك خير لنا ، كما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صلح الحديبية ، فإذا انقلب حرباً بعد ذلك فلا عهد ولا محالفة بل حرب ومناجزة .

واعلموا أن مع الصبر الظفر ، ومع الحذر السلامة ، وبالجهاد فى سبيل الله تنالون إحدى الحسنيين لا محالة .

وإن الذين يؤيدونكم وينصرونكم فى جهادكم من القبائل هم المؤمنون حقاً ، الصادقون قولا وفعلا ، الذين صلحت قلوبهم وسلمت ضمائرهم من فتنة الخيانة وموالاة الأعداء والخائنين .

أما أولئك الذين آزروا العدو وأيدوه وشهروا السلاح فى وجوه إخوانهم المسلمين فإن استحلوا ذلك كانوا مرتدين عن الإسلام ، خارجين عن حظيرته ، وأدنى حالهم الإثم العظيم ، والعذاب الشديد ، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

على المسلم أن يحمل السلاح للدفاع عن دينه وماله وعرضه ووطنه ، فإن مات دون ذلك فهو شهيد ، سواء أكان المعتدى عليه مسلماً أم غير مسلم ، والله حسبنا ونعم الوكيل .

أعلام الأزهر

السيد على ابو النصر المنفلوطى

المتوفى سنة (١٢٩٨ هـ — ١٨٨٠ م)

لحضرة الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقى

المدرس بكلية اللغة العربية

ولد بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط ، وقدم إلى القاهرة صبياً ، ثم التحق بالأزهر لطلب العلم فيه . وقد شب مفطوراً على حب الأدب ، والتزود من فنونه ، فبرع فى قرض الشعر يافعاً ، ونظم الأزجال حدثاً ، ولم يلبث أن ذاع صيته وتسامع الناس به ، وكان طيب المفاكهة والمجالسة ، لطيف المسامرة والمؤانسة . حاضر الذهن قوى الجدل ، لا يغلب فى حوار ، ولا ينهزم فى مناظرة ، وكانت له مطايبات حافلة بالنكت الأدبية مع الحشمة ، والحذر مما تأباه النفوس الأبية [1] . فكانت له مكانة عند أولى الأمر وذوى الجاه ، يجلون قدره ، ويلبون شفاعته ، اتصل بالبيت العلوى من عهد محمد على باشا إلى توفيق ، ورحل إلى القسطنطينية رحلتين أولاهما فى عهد محمد على باشا سنة ١٢٦٢ هـ حيت احتفل السلطان عبد المجيد بإعذار [2] أنجاله ، وطلب من محمد على باشا أن يوفد للحفل وفداً من العلماء والأمراء ، فكان الشاعر فى طليعة الذين أوفدهم محمد على باشا إلى القسطنطينية ، وقد مدح شيخ الإسلام بقصيدة استجادها إذ قدمها إليه ، وبكى متأثراً ببعض أبياتها ، ثم سأله هل قلت فى القسطنطينية شيئاً؟ فأجابه بأن له بيتين يستحى أن يعرضهما (لكونهما من زيف الكلام) فقال تسمعهما إن شئت ، فقال :

وكنا نرى مصر السعيدة جنة ... ونحسبها دون البلاد هى العليا
فلما رأت دار الخلافة عيننا ... علمنا يقيناً أنها هى الدنيا

---

[١] مقدمة الديوان للمرحوم أحمد باشا خيرى

[٢] أعذر الغلام ختنه كعذره يعذره . وللقوم عمل طعام الختان .

فتبسم شيخ الإسلام وقال له : إن البيتين جيدان من جهة الأدب ، ولكنك فى مدحك القسطنطينية فضلت مصر عليها ، لأنك جعلت مصر هى العليا ، والقسطنطينية هى الدنيا ، وفى علمك أن الدنيا تأنيث الأدون ، فيفيد النظم أن القسطنطينية دون مرتبة مصر ، فقال الشاعر مجيباً « حب الوطن من الإيمان » .

وأما رحلته الثانية إليها ، فكانت فى عهد الخديوى إسماعيل سنة ١٢٨٩ هـ حيث استصحبه إليها فى خلافة السلطان عبد العزيز ، وكان مقدمهما إلى القسطنطينية متفقاً مع الاحتفال بعيد الجلوس ، فأنشأ الشاعر قصيدة بليغة مطلعها :

تبسمت الآمال عن لؤلؤ القطر ففاح شذاها فى الحدائق كالعطر

وكان مصراع تاريخها (جلوسك عيد الدهر أم ليلة القدر) .

ومما اتسم به أنه كان راجح العقل ، نافذ الرأى ، عالماً بالأحوال السياسية ، خبيراً بشئون الأمم ، محباً لتربية الأمة ، داعياً لتثقيفها ونهضتها .

وكان شعره شتيتاً غير مجموع ، حتى قيض له المغفور لهما محمد باشا سلطان وحسين بك حسنى ناظر المطبعة الأميرية إذ ذاك ، فجمعا أشتاته ، وضما متفرقه ، وعهد إلى المرحوم محمد افندى الحسينى رئيس مصححى المطبعة بجمعه فى ديوان صدر بخطبة الأخير ، وبترجمة للشاعر بقلم المرحوم أحمد باشا خيرى ناظر المعارف العمومية فى ذلك الحين .

هذا عدا ما كان له من الطرف والملح والمواليا والأزجال وغير ذلك ، مما عبثت به يد التفريط والإهمال .

شعره :

أقيس شعره بشعر عصره ، فأراه شبيهاً به ، موافقاً له ، يتجه متجهه ، وينزع نزعته ، وهو يميل إلى الجناس لكن فى غير استكراه ، ويطلبه لكن فى غير تكلف شديد ، ويورى غير أنه لا يلحف فى رجاء التورية ، ولا يرتصد لطلبها ، وتدور الصنعة فى شعره غير مفتون بها ، وإن تهيأت له فبغير إفراط ولا إسراف ، أما التاريخ الشعرى . فهو مغرى به متهافت عليه ، ملتزم له فى الجمهرة العظمى من شعره ، فمن تجنيسه قوله :

فى الحان قد جس معسول اللمى وترا فانهض لتسمع ألحان الصبا وترى

فقد أوقع الجناس بين (الحان) وهو محل بيع الخمر ، و (ألحان) الصبا جمع لحن ، كما أوقعه بين الوتر الذى هو شرعة القوس ومعلقها الواقع مفعولا ، والفعل المضارع (ترى) مقرونا بواو العطف ، ويبدو لك تكلفه الجناسين ، إلا أنهما أقرب إلى القبول ، ومن تجنيسه أيضاً قوله :

أبدا تقلب فكرتى أيدى الأسى   طوعا لأمر الدهر أحسن أو أسا

فقد أوقع الجناس بين لفظ الأسى بمعنى الحزن ، والفعل الماضى (أساء) محذوف الهمزة ليتم الجناس بحذفها ، والجناس هنا مقصود للشاعر ، إلا أنه لم يبلغ من الثقل مداه . ومن تجنيسه أيضاً قوله :

كم ذا أحاول نصحا بالعظات وفى   ظنى وجود سميع بالعهود وفى

فالجناس بين حرف الجر (فى) مقرونا بالواو ولفظ (وفى) الصفة المحذوف إحدى يائيه ، وهو أقل ثقلا من صاحبه الماضى ، ومن جناسه المقبول قوله :

رياض المجد أهدت نفح طيب   فقلت مهنئا يا نفس طيبى

ويغلب أن يلتزم الجناس فى مطالع قصائده ، وهو فى هذا الموضع أكثر طلبا له ، واستشرافا إليه .

ومن التورية التى يستعملها فى شعره قوله :

على مضض صبرت وكم أدارى   بتاريخ الغرام وأنت دارى
يجاذبنى الهوى فأذوب وجدا   ويسلبنى النوى ثوب اصطبارى
وعذالى دروا ما بى فلاموا   كأن هوى الأحبة باختيارى
وإن سألوا عن اللامى ودمعى   أقول كلاهما لا شك جارى

فقد ورى بقوله (جارى) عن اسم الفاعل من جرى بمعنى سال ، والاسم الذى هو بمعنى مجاور مضافا لياء المتكلم .

ويقول فى رجل يدعى العلم يسمى (النخلى) :

بروض الفضل أغصان   خلت عن حلية الفضل
سألناها أجابتنا   دهتنا غلطة (النخلى)

فيحتمل أن يراد « الشجر » أو اسم الرجل ، ومما يورى به قوله :

حروف دمعى وسائل والدمع جار وسائل

أى أن قطرات دمعه الشبيهة بالحروف وسائل تترضى الحبيب ، فقد جانس بين (وسائل) الأولى جمع وسيلة و (وسائل) الثانيـة التى هى اسم فاعل من سال بمعنى جرى مقرونا بالواو ، ثم فى وسائل الثانية تورية إذ يحتمل أن تكون اسم فاعل بمعنى جار أو اسم فاعل من سأل بمعنى طلب .

ومن شعره التاريخى قوله :

يا من بطالعه الأسمى حوى شرفا يزين بدر علاه قبـة الفلك
أنت الذى بحلى الأخلاق زدت علا لا زلت ترقى بفضل المنعم الملك
إسعاد نجمك إذ لاحت بشائره أرخت أوليت بكباشى وأنت زكى

ولا شك أن هذا التاريخ أضعف الشعر وحال دون روعته وجماله ، ولـكنها سنة العصر الذى أغرق فيه وغالى ، وله فى تاريخ لحية :

لما اذدهى روض المحاسن والبها وبدا به الريحان وهو شريف
خط العـذار كما تحب صحيفة تاريخها صان الجمال نظيف

وهو شعر ضعيف متهافت كما ترى ، ومما لا أسيغه ، وصف الريحان بالشرف ولست أدرى متى يكون الريحان شريفاً أو غير شريف ، فلعله يقصد أن الريحان وهو أخضر الأغصان يبدو كالعمائم الخضر التى هى سمة الأشراف .

وقد يولع بالتاريخ ، فيجعل فى كل شطر تاريخا كما قال :

بشير الهنـا لاحت بيمن قدومه بدور بهـا نور البشائر قد صفا

وشعره أنذاك لا روعة فيه ، ولا تتنسم منه روح الشعر بحال .

غير أنه يتناول كثيراً من الأغراض فى شعره ، ويتسع أفقه لألوان مختلفة من الشعر فيمدح ويهنىء ، ويرثى ويعتب ، ويشكو ويشكر ، ويتغزل ويصف وينصح ، وتجد فى شعره الحـكم والمدائح النبوية ، والقصائد الوطنيـة ، والخمريات بغير اغراق ، كما تجد فيه الوداعة والحماسة ، ويتناول الإلغاز بل يكثر منها فيجىء شعره بها معمى مستغلقا ، ويطول نفسه فى بعض القصائد حتى لتبلغ مائة بيت

إلا أن شعره أقرب إلى شعر العلماء منه إلى شعر الفحول من الشعراء ، وشعره وسط بين الإجادة والغثاثة ، والضعف والقوة .

فمما قاله متغزلا :

إلى الأوطان يجذبنى الهيام ... ولى قلب يقلبـه الغرام
وفى دمعى غرقت ونار وجدى ... بتذكار الديار لها ضرام
ولى فى كل منتزه حديث ... إذا كررته ناح الحمام
وما عندى من الأشواق خاف ... ولو أبديته لبكى الغمام
ويوم وداعهم كانت حياتى ... مكابرة وللدمع انسجام
أراهم أينما كانوا بقلبى ... وفى نومى وهل يغنى المنام
وقائلة إلام تحن شوقا ... وتعلو جسمك المضنى السقام
أتحسب أن من تهواه باك ... عليك ولو أضر بك الهيام ؟
فقلت لها فديتك إن نومى ... على لبعدهم أبدا حرام
وهل يجدى أخا الوجد المعنى ... إذا ضنوا بزورته اعتصام ؟
دعينى فالنصيحة لو أفادت ... لضاع الحب وانقطع الملام
كلفت بحبهم فألفت سهدى ... ولم يخطر على جفنى المنام
أهيم بهم ولى فيهم شجون ... إذا ظعنوا بقلبى أو أقاموا
أخلائى احفظوا عنى حديثاً ... يسر به المقلد والإمام
قتيل الشوق يحييه التدانى ... وينعشه التواصل لا المدام
فان مر النسيم بكم سلوه ... فأخبار الهوى منه ترام
وساعات الوصال كلمح طرف ... لدى المضنى ويوم البعد عام

هذه أبيات ساقها الشاعر متغزلا ، فجاءت من أجود ما قال رقة معنى ، وخفة روح ، ووضوح أسلوب لم يسع الشاعر فيها وراء صنعة لفظية أو محسن من المحسنات البديعية ، ولم يمس طرفا من ذلك إلا الجناس الذى شكه شكا وتناوله برفق فى عجز البيت الأول بين قلب ويقلبه .

ومما قاله فى شكوى الزمان :

بشكوى الليالى كيف لا أتعلل ... وديمة دمعى دائمـاً تنهلل

رمانى زمانى فى مكايد مكره ... وفى وهمه أنى له أتذلل
أكابد ما لا يستطاع من الأسى ... وأحمل منه فوق ما يتحمل
وجربت أبناء الزمان بأسرهم ... فلم أر منهم من عليه يعول
وسالمت إخوانا بدالى أنهم ... على نقض بنيان الصداقة عولوا
فيادهر ماذا تبتغى من مجرب ... وقد شاع فى الآفاق أنك تجهل
تقدم من لايستحق وتزدرى ... بمن هو أولى بالجميل وتعجل
تبرأت من أهل المعارف والتقى ... وهم دولة الإسعاد إن كنت تعقل
وقربت أرباب الجهالة للعلا ... كأنك لاستظهارهم تتجمل

فهذه الأبيات من أجود ما قيل فى شكوى الزمان صدرت من الشاعر مصورة عبث الزمان به وتجهمه له ، وما يكابده من أساه الذى لا يستطاع ، وما يحمله مما يشق حمله ، وما لقيه من إخوان جربهم فلم يرفيهم من عليه المعول ، وإخوان سالمهم لما بداله من تعويلهم على نقض الصداقة ونكث العهد ، وكان جميلا من الشاعر ما بينه من جهل الزمان من تقديم من لا يستحق والزراية بمن هو أولى بالجميل ، وبراءة الزمان من أهل المعارف والتقى ، الذين هم دولة الإسعاد لو كان يعقل ذلك ، وتقريب أرباب الجهالة وإيثارهم بالعلا كأنه يتجمل لاستظهارهم ، فهى أبيات صادقة فى شكوى الليالى وصدق التجربة ، وغدر الإخوان ، وعبث الزمان ، كل ذلك مسوق بأسلوب غير نازل ، ورصف رصين لم يتهالك على محسن ولا زخرف .

ومما قاله يمدح به النبى صلى الله عليه وسلم :

إذا هتفت بمدحتك الموالى ... وأنشد شعره فيك البديع
وحدث عنك من يروى حديثاً ... وصاغ من الثنا ما يستطيع
فما بلغوا اليسير ولو أطالوا ... وكيف وأنت فى الأخرى شفيع ؟
إليك شكايتى من كل ذنب ... وحصن حماك لى حرز منيع
ومن يرجوك يسعف بالأمانى ... ومن قصد المشفع لا يضيع
ملأت سرادقات الكون فضلا ... وجاهك سيدى جاه رفيع
فمن للمذنبين سواك يرجى ... إذا ما استعظم الهول الفظيع ؟

وهو شعر سهل رصين نتمثل فيه روح الشاعر المؤمن الذى يلتمس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون له حرزاً منيعاً ، وشفيعاً يغفر به كل ذنب ، وإن كان فى نفسى شىء من اللفظ الأخير (الفظيع) . وقال يعاتب بعض أصحابه :

لعمرك ما البواتر كالعصى ولا الطِّرف المذلل كالعَصى (١)
ولا فلق الصباح إذا تبدى لذى بصر يقابل بالعشى
أراك رفعت أدنى الناس قدراً وآثرت الدنى على على
شققت عصا الوفاق وبعت غبنا صواب الرأى بالخطأ الجلى
وبدلت الأعزة من قريش وأبناء الأماجد بالدنى (٢)
ستعرف ما جهلت إذا التقينا وبان لك الجبان من الكمى (٣)

ولعل هذه الأبيات من أحسن شعره وأبلغه ، وأحفلها بالتشبيهات المحكمة ، وفيها جناس مقبول بين حرف الجر (على) و (علىّ) وتورية لطيفة فى لفظ « علىّ » الذى يحتمل أن يكون وصفا مقابلا (للدنى) وأن يكون مشيرا الى اسم الشاعر (السيد على) . ومن رثائه قوله :

أنظرى أعينى الدوامى دواما إن غيث الكرام يأتى ركاما (٤)
واستمدى من حبة القلب دمعا فلعل الدموع تروى أواما (٥)
ومن السهد للجفون اكتحالا ودعى عنك فى الدياجى المناما
واسكبى الدمع خفية وجهارا واستحلى من البكاء الحراما
واقرئى فى صحيفة الدهر سطرا نمقته يد القضا فاستقاما
واكتبى ما جنته أيدى المنايا حيث لم تبق للأنام إماما

فهذه من أصدق المرثيات وأرقها ، وأخصبها معنى ، وأحفلها تصويرا للجزع والأسى ، ولم يكن الشاعر منصرفا فيها الى الطلاء اللفظى اللهم إلا ما يكلف به من الجناس فى مطالع قصائده ، فإنه أوقع الجناس المتكلف بين (الدوامى) و (دواما) و (الكرام) و (ركاما) ، ولكنه لم يستنفد جمال الأبيات ، ولم يذهب بروعتها .؟

---

(١) البواتر السيوف القاطعة . الطرف الكريم من الخيل ـ المذلل السهل المنقاد .
(٢) الدنى : كرضى الرجل الفاحش . (٣) الكمى : كغنى الشجاع أو لابس السلاح .
(٤) الركام السحاب المتراكم . (٥) الأوام كغراب ، العطش أو حره .

تسمية الأشياء بغير أسمائها

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

روى البخارى ومسلم بسنديهما عن أبى حميد عبد الرحمن بن سعد الساعدى رضى الله عنهما قال : « استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلا من الأزد يقال له ابن اللتبية على الصدقة ، فلما قدم ، قال هذا لكم وهذا أهدى لى ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: « أما بعد : فإنى أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولانى الله ، فيأتى فيقول هذا لكم وهذا هدية أهديت إلى ؛ أفلا جلس فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هدية إن كان صادقا ، والله لا يأخذ أحد منكم شيئا بغير حقه ، إلا لقى الله تعالى يحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدا منكم لقى الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رئى بياض ابطيه ، فقال اللهم هل بلغت » .

شرح المفردات : الرغاء . صوت الإبل . الخوار صوت البقر . تيعر تصيح والعيار صوت الغنم .

هناك جم غفير من الناس يطيب لهم أن يضحكوا على الناس أو يضحكوا على أنفسهم ، فتراهم يسمون كثيراً من الأشياء بغير أسمائها ، فهم يسمون الذل تواضعا والكبر ترفعاً ، والإسراف جوداً ، والبخل اقتصاداً ، والكذب سياسة ، والغش حصافه وهؤلاء ، إن كانوا يؤمنون بما يقولون ، فقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه ، ولبس عليهم أمرهم من حيث لا يشعرون ، وأما إن كانوا لا يؤمنون بما يقولون ، ولكنهم يموهون على الناس فهؤلاء قوم منافقون ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، وهؤلاء جرءاء على الله ، وهذا الضرب من الناس بصنفيه عرفهم الإنسان قديماً وحديثاً ، ومن هؤلاء رجل ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاية الصدقة ، فاستغل نفوذه ، ومكانته ، وتقبل الرشوة ممن ولى أمرهم. وسماها لرسول

الله صلى الله عليه وسلم هدية ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الفرق بين الهدية التى لا تصدر إلا عن حب خالص وود قديم ، ولا يراد بها إلا توثيق العلاقات بين المتهادين ، وبين الرشوة التى هى أكل لأموال الناس بالباطل ، ولا دافع لها إلا الرغبة فى جاه المرتشى أو الرهبة من بطشه وجبروته ، وجعل الفرق بين الرشوة والهدية فرقاً واضحاً جلياً ، فكل ما يقدم إلى من يتولى عملا عاماً إن كان يقدم إليه قبل أن يتولى هذا العمل ، فهو هدية حتماً ، لم يرد بها صاحبها جلب مغنم أو دفع مغرم ، وأما أولئك الذين لا تساق إليهم الهدايا إلا إذا أسندت إليهم الوظائف العامة فإنما تساق إليهم الرشاوى مسماة باسم الهدية ، وإن استطاعوا فى الحياة أن يفلتوا من قبضة القانون ، فلن يستطيعوا النجاة من الله سبحانه يوم القيامة ، فسيعرضهم الله على ملأ من الأولين والآخرين ، وقد صور النبى صلوات الله عليه فضيحتهم بقوله « فلا أعرفن أحداً منكم لقى الله تعالى يحمل بعيراً له رغاء ، أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر » ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن الرشوة بأسلوب النفى (لا أعرفن) مع التأكيد وفيه من المبالغة ما فيه . كأن هذا الأمر لا ينبغى أن يقع ، لمنافاته لما يجب أن يكون عليه المسلم الصادق ، وتصوير النبى الأكرم لهذه الفضيحة الشنيعة هذا التصوير البليغ مما يبعث الخشية فى قلوب هؤلاء المتساهلين وليس هناك ما يمنع عقلا أو نقلا من أن هذا إخبار منه صلى الله عليه وسلم بحقيقة ما يلقاه هؤلاء المرتشون يوم القيامة . ولما كانت الرشوة من أخطر الأمراض الاجتماعية التى تصيب المجتمع ، فتقوض أركانه ، رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه الى السماء ، ثم قال تلك المقولة المشهورة التى لا يقولها ـ كما يعلم المتتبعون للسنة ـ إلا فى الأمور الهامة : « اللهم هل بلغت » .

وكيف لا تكون الرشوة من أخطر الأدواء التى تهد كيان المجتمع ، وهى متى انتشرت فى أمة فقد استحقت سخط الله ومقته ، وكتبت بيدها كتاب شقائها ، فهى تجعل الحق باطلا والباطل حقا ، وترفع قوماً حقهم أن يخفضوا ، وتخفض قوما حقهم أن يرتفعوا ، وعندئذ يوسد الأمر الى غير أهله ، ومتى وسد الأمر الى غير أهله فى أمة فقد حانت ساعتها وذهبت ريحها ، ولما كانت الرشوة فى أية صورة من صورها وبأى اسم من أسمائها ، خطرا على المجتمع الإسلامى ووبالا على الأمة المحمدية جميعها فقد لعن الله الراشى والمرتشى ، وطردهما من رحمته ، ووكلهما الى نفسهما ، فقد روى

أبو داود والترمذى بسنديهما عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما ، قال « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم الراشى والمرتشى » .

أما الراشى ، فإن لم يكن صاحب حق فقد جمع الى جريمة الظلم جريمة التعاون على الإثم والعدوان ، وإن كان صاحب حق ولا يصل الى حقه إلا بالرشوة فقد أعان هذا الظالم وهو المرتشى ، وأفسد خلقه وجعله يستمرئ الرشوة من كل من له عليهم نفوذ أو سلطان ، وفى هذا من الفساد مافيه . وأما المرتشى فإنه يأكل أموال الناس سحتا وينشر بين المجتمع فسادا ويعطل مصالح العامة ، هذا ، وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لكل موظف من موظفى الدولة ، ومالا يحل من الأموال فى كلمة جامعة ، فقال فيما رواه عنه عبد الله بن برمدة عن أبيه رضى الله عنهما : « من استعملناه على عمل ، فرزقناه رزقا فما أخذ بعد ذلك فهو غلول » والغلول الخيانة فى الأموال العامة ، وقد شدد الله فى أمر الغلول كثيراً ، فقال تعالى « وما كان لنبى ن يغل ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » وقى الله هذه الأمة داء الرشوة وزكى نفوس بنيها وطهر أخلاقهم حتى يكونوا أهلا لما هيأهم الله له من خلافة فى الأرض .

خفى حنين

كان يزيد بن حاتم الأزدى والى مصر مدحه ربيعة بن الراقى ، واستبطأ عطاءه فقال :

أرانى ولا كفران لله راجعاً   بخفى حنين من نوال بن حاتم

فبلغ قوله يزيد بن حاتم ، فأمر بإحضاره اليه ، فلما دخل على الأمير سأله هل قال غير هذا البيت ؟ فأقسم له بأنه لم يزد عليه شيئاً . فقال له الأمير : لترجعن بخفى حنين ملئتا مالا ، وعمل بما وعد . فقال فيه ربيعة الراقى :

بكى أهل مصر بالدموع السواجم   غداة غدا منها الأغر بن حاتم

ومنها :

وشتان مابين اليزيدين فى الندى   يزيد سليم والأغر بن حاتم

فهمّ الفتى الأزدى إنفاق ماله   وهمّ الفتى القيسى جمع الدراهم

فلا يحسب التمتام أنى هجوته   ولكننى فضلت أهل المكارم

كيف ينهض المسلمون

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعى

مفتش الوعظ والارشاد

النهضة كلمة رائعة تحمل كل عناصر الحياة . والنمو . والخلود . ومن عناصرها الحية الخالدة يكتب تاريخ الأمم التى تنتظم نفسها فى أمم التاريخ ! . فما هو إذن نصيب المسلمين من النهضة ، وإلى أى مدى بلغت بهم هممهم فيها ، وما هو حكم التاريخ العادل إذا أراد أن يقول فيهم كلمته .

أعتقد أن الإسلام إنما جاء ليحكم ويسود لأنه دين مشحون ببارود القوة الحافزة الملهبة ، والتى تدفع أتباعه ـ دائما ـ إلى الأمام . هذه هى الحقيقة الكبرى التى ضلت بين ركام الأحداث الجسام فى عصور المسلمين المظلمة ، وكادت تغيب فى جماجم الموتى الأولين ! . وإذا كان التاريخ شاهد عدل لا يزيغ رأيه ، ولا يضل حكمه ، فلنسأل التاريخ إذن كيف نهض المسلمون ليجيبنا التاريخ فى غير حذر ولا مواربة ولا مداجاة ، وليفتح أعيننا على القوة الكامنة فى طبيعة الإسلام حتى نعرف فى بساطة ويسر كيف ينهض المسلمون .

يقول التاريخ : أن أول باب يدخل منه الداخل إلى ساحات الإسلام الفساح هو التوحيد .. مبدأ ، وعقيدة ، وخلق . أما أنه مبدأ فذلك ما يشهد به واقع حياة المسلمين الأولين ، ويشهد له القرآن الكريم « وإن هذه أمتكم أمة واحدة ، وأنا ربكم فاتقون » وهو سر النواة التى أخرجت هذه الدوحة الكريمة المتشابكة لتتفيأ الدنيا ظلالها الوارفة ، وتتنفس فى جوها المعطر الشميم ، وناهيك بدين يقدس معنى وحدة المبدأ بين أتباعه ، فيعلن فى سمو بالغ أن الوحدة إيمان ، والفرقة كفر « يا أيها الذين آمنوا ان تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » أى بعد جماعتكم ووحدتكم متفرقين . « لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض » .

نعم إنه مبدأ كريم أشربته قلوب المؤمنين بهذا الدين ، حتى صرخ فى عروقهم النابضة بالقوة والحياة أن حطموا هذه الفرقة الطاغية المبددة . ثم انفذوا باسم الله إلى أقطار هذه الأرض الباغية ، لتصفوا أقدام الناس على الطريق المستقيم ، فإذا الكلمة واحدة ، والسبيل قاصدة ، والشمل جميع .

وأما أنه عقيدة فهذا هو السمو الذى ساد به المسلمون ، ليس فى الأرض آلهة ولا جبابرة ، وليس فى الناس سادة وعبيد . . وإنما هو إله واحد تعنوا له الجباه وتخبت له القلوب ، وتخضع له الرقاب « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » والناس - بعد - فى عبوديتهم له سواء . فأى دين يغرس فى عقول أتباعه ، وقلوبهم هذه البذرة المباركة النامية ويوجههم إلى (توحيد) عقيدتهم هذا التوجيه السديد ، إنه الإسلام الذى يضع لأتباعه أعظم ما عرفت الأرض من قواعد النهضات .

وأما أنه خلق فذلك لأنه يرسم للسلوك الإنسانى طريقه المعبد بين عقبات المجد الكاذب ، وشعابه الملتوية ، ليترسم المسلمون وحدهم مناهج العزة والكرامة والرجولة التى لا يستعبد بها بشر لبشر مثله (الناس سواسية كأسنان المشط » ، « كلكم لآدم وآدم من تراب » .

فلا تسل كيف نهض المسلمون . ولكن سل عن سر هذا النهوض .

يجب أن نواجه الحقائق لنكون - على الأقل - منطقيين مع أنفسنا ! إن هذه الغشاوات المعتمة التى تحجب عن العيون ضوء الإسلام الحنيف ، هى التى هوت بالمسلمين إلى الحضيض ، وكادت تعفى على آثار نهضاتهم التى وقف التاريخ فى محرابها خاشعاً يرتل ألحان العظمة والجلال . وأن هذه الحفائر العميقة التى ملئت بالقذر العفن من واردات الغرب ، ثم غطيت بالقش الرخيص لتكبوا فيها الأقدام ، هى علة ما يشكو منه المسلمون .

والإسلام دين يؤمن بالقوة ، ويحشد أجناده - دائما - على الثغور « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل » .

ويقدس أسبابها ووسائلها ، ويصورها فى معارضها الحافلة ، الحاشدة ، ويضفى عليها من المهابة ثوباً فضفاضا نخم الحواشى « والعاديات ضبحا ، فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا ، فأثرن به نقعا فوسطن به جمعا » .

والإسلام يدعو إلى الحرية ، ويحطم في عنف وقسوة قيود الذلة والعبودية والاستخذاء ، ويوجه نظر المسلمين دائماً جهة السماء «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين» .

والإسلام يهتف بالحق أبداً ، ويصوغ أغنيته العذبة من لحنه الأخاذ « وبالحق أنزلناه ، وبالحق نزل » . « ذلك بأن الله هو الحق وإنما يدعون من دونه الباطل » .

الحق ، القوة ، الحرية . هي تغاريد الحناجر المؤمنة بالعشي والأبكار .

وهي أنشودة الكتائب المجاهدة التي غيرت مجرى التاريخ .

وهي ألحان الفطرة النقية التي لم تعبث بها أيدي الشياطين .

وهي دعائم النهضة الزاكية التي لفتت أنظار الدنيا ، وهزت أرجاء العالم الكبير .

لقد كانت تعاليم الإسلام الخالد هي مبعث نهضة المسلمين بالأمس ، ولن يكون غيرها أبداً مبعث نهضتهم اليوم .. ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها .

رسالة

قدم جرير على عمر بن عبد العزيز ، فقال له : مالي وللشعر يا جرير إني لفي شغل عنه . فأجابه : يا أمير المؤمنين إنها رسالة من أهل الحجاز . قال : فهاتها إذن ، فقال :

كم من ضرير أمير المؤمنين لدى ... أهل الحجاز دهاه البؤس والضرر
أصابت السنة الشهباء ما ملكت ... يمينه فخناه الجهد والكبر
ومن قطيع الحشا عاشت مخبأة ... ما كانت الشمس تلقاها ولا القمر
لما اجتلتها صروف الدهر كارهة ... قامت تنادي بأعلى الصوت يا عمر

الفقه السياسي عند المسلمين

لفضيلة الشيخ محمود فياض

أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

يرى الإسلام أن الأرض لله ، والخلق لله ، فالدولة لذلك هى دولة الله ! فهو وحده سبحانه السيد المالك ، وليس لغيره أن يستعبد الناس ، أو يتعبدهم بشىء ما ، وقد جعل الله لنفسه العزة والسيادة على كل شعب فى أى بقعة من أرضه ثم جعل هذه السيادة للشعب نفسه بعد الله ورسوله ، فالشعب فى كل دولة هو خليفة الله ونائبه فى عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، وهو المسئول عن تصريف أمور الدولة نيابة عن مالكها سبحانه وتعالى ، ولما كان الشعب مجتمعاً لا يمكنه أن يقوم بالتكاليف المنوطة به ، فقد أبيح له أن يختار من يحمل عنه التبعة والمسئولية ، فى القيام بالتكاليف ، وتدبير أمر الجماعة ، وهذا المختار من الشعب هو حاكم الشعب ، ويراد منه ، قيادة المجموعة قيادة خيرة رشيدة تحقق الخير للجميع ، وتكفل لكل فرد أكبر قسط ممكن من حياة حرة كريمة سعيدة .

والحاكم الذى يختاره الشعب لهذه القيادة الرشيدة ، وكيل عن الأمة التى اختارته ، وتختاره الأمة بالبيعة ، وهى تعاقد بين طرفين هما : الأمة والحاكم ، أو بعبارة أدق بين كل فرد مبايع وبين الحاكم . وهذا التعاقد يلزم الحاكم والمبايع بالتزامات محددة ، معروفة ، مفهومة من الطرفين ، يتعهد الحاكم بمقتضاه بالسير فى حكمه على القواعد التى رسمها (القرآن والسنة) وهما دستور المتعاقدين المتفق على احترامه والتزام العمل به ، وهو دستور عام خالد ، ثابت دائم ، ليس لأحد المتعاقدين تصرف فيه بزيادة أو انتقاص ، لأن مشرعه هو السيد المالك العليم الخبير ، بما يصلح دولته ، وما لا يصلح لها ، وتتعهد الأمة (أو المبايع) للحاكم بالطاعة فى كل ما يصدره وفقاً لمبادىء هذا الدستور المحترم من الطرفين ، غير مستبد برأيه . بل عن ملأ وشورى بين المسلمين ، ولما كان كل فرد فى الأمة مسئولا عن الأمة وحكمها ، فإنه يتقدم للمبايعة ويقول : « أبايعك على كتاب الله وسنة

رسوله وصالح المؤمنين » وليس لذلك معنى غير أنه يوكله عن نفسه فى القيام بتدبير أمر الدولة الذى هو حق لكل فرد مسئول فيها ، وليس على الموكل « المبايع » سوى الطاعة فى حدود الدستور المتفق عليه ، وإذن فالبيعة هى عقد وكالة بين الأمة وحاكمها المنتخب ، من أفرادها المسئولين عنها ، وظاهر جدا أن عقد الوكالة ليس عقد تمليك للوكيل ، ولا يقتضى تمليكا ، وإنما هو عقد إذن بالتصرف باسم الموكل فى حدود ما رسمه للوكيل ، وأذنه بالتصرف فيه ، ثم هو عقد مؤقت مشروط . فهو خاضع لرقابة الأصيل ، فإن رأى الوكيل ملتزماً للشروط المحددة ورأى أن استمرار العقد فى صالحه ، أبقى الوكيل إن شاء ، فإن رأى الوكيل قد جانب الشرط وخرج من العهدة ، عزله إن شاء إذا لم ينعزل من نفسه ، كذلك لا ينطوى عقد الوكالة على تنازل من الأصيل عن شىء من حرياته أو سلطانه أو حقوقه كلها أو بعضها ، وإلا كان العقد عقد تمليك ، ولهذا اتفق فقهاء الإسلام على أن الحاكم وكيل عن الأمة خاضع لرقابتها ، ولها عليه سلطان التولية والعزل والتوجيه ، ولكل فرد من أفرادها حق أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، وهى السلطة الكبرى التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم كما يقول الأستاذ الإمام محمد عبده [1] .

وفى هذا يقول الإمام الكاسانى رحمه الله : « وكل ما يخرج به الوكيل عن الوكالة يخرج به القاضى عن القضاء ، لا يختلفان إلا فى شىء واحد ، وهو أن الموكل إذا مات ، أو خلع ، ينعزل الوكيل ، والخليفة إذا مات أو خلع ، لا تنعزل قضاته وولاته ، ووجه الفرق أن الوكيل يعمل بولاية الموكل ، وفى خالص حقه ، وقد بطلت أهلية الولاية (يعنى بموت الموكل أو خلفه) فينعزل الوكيل ، والقاضى لا يعمل بولاية الخليفة وفى « خالص ! » حقه ، بل بولاية المسلمين ، وفى حقوقهم وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ، لهذا لم تلحقه العهدة كالرسول فى سائر العقود والوكيل فى النكاح ، وإذا كان رسولا كان فعله (أى فعل الخليفة) بمنزلة فعل عامة المسلمين ، وولايتهم بعد موت الخليفة باقية فيبقى القاضى على ولايته ، وهذا

---

[١] الاسلام والنصرانية ص ٦٠ ـ ٦٦

بخلاف العزل . فإن الخليفة إذا عزل القاضى أو الوالى ينعزل بعزله ، ولا ينعزل بموته ، لأنه لا ينعزل بعزل الخليفة أيضاً فى الحقيقة بل بعزل العامة ، لما ذكرنا من أن توليته بتولية العامة ، والعامة ولوه الاستبدال دلالة لتعلق مصلحتهم بذلك فكانت ولايته منهم معنى فى العزل أيضاً [1] » .

ومما يقطع بصحة فكرة وكالة الحاكم عن الأمة وخضوعه لرقابتها وسلطانها ، أن جميع الفقهاء ، اعتبروه واحداً من أفراد الأمة فى كل تصرفاته ، وألزموه بمتالفه وجناياته ، فهو يؤخذ بالقصاص إذا قتل عامداً ظالماً ، ويلزم بالأموال التى يتلفها ، وتقطع يده إذا سرق ، ويجلد أو يرجم إذا زنى ، والأمة هى التى تحاسبه وتعاقبه ، يقول الإمام القفال من الشافعية : « إن الخليفة إذا زنى يقيم عليه الحد ، من ولى الحكم عنه . وهو الأمة [2] » .

ولدينا نصوص كثيرة فى هذا المعنى الجليل ، الذى جاء به الإسلام لأول مرة فى تاريخ البشرية والتى تشير إليه عبارة « الأمة مصدر السلطات » التى يجب أن تعدل هكذا « الأمة قيمة على الحكم ، ومصدر سلطات الحاكم » .

مما تقدم يرى القارىء أن عبارة « السلطان ظل الله فى أرضه » عبارة لا تستقيم فى ظاهرها مع روح الإسلام ونصوص العلماء ، كما فهم ذلك بعض الناس ، وجعلوا بمقتضاها للحاكم - فى نظر الإسلام ظلماً - حقا مقدساً . وقالوا لهذا : إن نظرية الحكم فى الإسلام تشبه نظريات الحق الملكى المقدس عند الفراعنة والفرس والروم ، مع تعديل يسير اقتضاه تقدم البشرية ، وتطور الزمن .

وفى اعتقادى أن هذه العبارة التى جاءت لأول مرة فى بعض كتب المنصور العباسى ، قد انتقلت إلى العباسيين عن التفكير الفارسى الذى كان يقدس الأكاسرة قديما ، أو عن الحكام الرومانيين فى العصر المسيحى الميروفنجى ، وهى فى الحقيقة تشير إلى النظرية الكنسية التى تزعم أن الله قال للقديس بطرس « إن ما حللته فى الأرض فأنا أحله فى السماء ، وما ربطته فى الأرض فأنا أربطه فى السماء » بمعنى

---

[1] البدائع لأبى بكر الكاسانى الحنفى المتوفى سنة ٥٨٧ هـ حـ ٧ ص ١٦ .

[2] مغنى المحتاج على المنهاج للخطيب حـ ٤ ص ١٤٠ . وتحفة المحتاج للهيثمى حـ ٩ ص ١١٥ .

أن البابا هو ظل الله فى أرضه ، وكل أوامره مقدسة لأنها وحى السماء ، وقد قامت الكنيسة بمساعدة شارلمان على إعلان الدولة الرومانية المقدسة ، بتتويجه ملكا للرومانيين سنة ٨٠٠م ، وأرادت من هذا التتويج أن يكون لها سلطان على الامبراطور المقدس الذى توجه البابا المقدس الذى له سلطة الحل والربط فى الأرض وفى السماء ، ولا نظن المنصور العباسى على كبر عقله ، وسعة علمه ، وقربه من مصدر النور الهادى . كان يقصد شيئا مما تعنيه نظريات الحق المقدس ، لأن ذلك يناقض مبادىء الإسلام ويجافى النصوص الصحيحة ، فالرسول عليه السلام يعلن أنه : « ليس ملكا ولا جباراً فى الأرض « إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر » وعمر بن الخطاب يخطب فى الناس قائلا : أيها الناس لست ملكا فأستعبدكم بملك أو جبرية ، إنما أنا واحد من الناس ، وإنما مثلى منكم ومن أموالكم كمثل ولى اليتيم منه ومن ماله » يعنى حسن الرعاية والارشاد إلى الخير ، لا سيادة له عليهم كما أن ولى اليتيم لا سيادة له عليه ولا يملك شيئاً من ماله ، فان احتاج أكل بالمعروف من مال اليتيم وكان ذلك كأجر على حسن الرعاية ، وغاية ما هنالك أن الحاكم وكيل عن الأمة النائبة عن الله فى عمارة أرضه وحفظها من الشرور ، فهو يأمر وينهى بسلطان الأمة الذى هو سلطان الله . وهو مع ذلك خاضع لرقابة الأمة فى كل تصرفاته ، وعلى هذا فلا صلة إطلاقا - بين نظرية الإسلام فى الحكم ، ونظريات الحق المقدس القديمة ولا نظريات الكنيسة المسيحية ، وإذا ثبت أن المنصور العباسى كان يعنى ما يشير إليه ظاهر العبارة ، فالمنصور فرد مسلم غير معصوم ، وليس حجة على الإسلام .

بقى أن نتحدث عما اعتبره الكتاب المحدثون شبها بين نظرية الإسلام ونظريات التعاقد ، هذه النظريات سواء منها الأغريقى القديم ، أو المسيحى الحديث تقوم على أساس تنازل من الأفراد الذين يؤلفون دولة فى أى مكان . عن بعض سلطاتهم وحرياتهم للحاكم . ليكون له من مجموع هذه « التنازلات » سلطة ممتازة تأمر فتطاع ، وقد رأى الفيلسوف الانجليزى « هوبز » أن هذا التنازل من الأفراد ، تنازل نهائى فى غير مقابل ، وليس لهم حق الرجعة فيه ، فالشخص الذى يملكونه هذه السلطة الممتازة ، هو حاكم دائم مالك لهذه السلطة ، وليس للشعب أن يسأله

عن تصرفاته ، وقد استخدم هوبز هذه النظرية لتأييد الملكية المطلقة المستبدة السائدة فى عصره ، وجاء بعده الفيلسوف الانجليزى « لوك » فقال : ان تنازل الأفراد عن بعض حرياتهم وسلطاتهم تنازل حقيق ، يقتضى أن يكون الحاكم مالكا للسلطة الممتازة ، ولكنهم إنما تنازلوا فى مقابل رعاية الحاكم لمصالحهم ، ومنع تصادم حريات الأفراد ، واستخدم هذه النظرية لتأييد فكرة الملكية الدستورية المستنيرة السائدة فى انجلترا إذ ذاك .

وفى القرن التاسع عشر الميلادى جاء الفيلسوف الفرنسى « روسو » فنحى بهذه النظرية نحواً جديداً ، فقال : إن تنازل الأفراد ليس تنازلا نهائياً ، وإنما هو تنازل مشروط بأن يكون الحكم لصالحهم ، ولهذا لهم حق الرجعة فى هذا التنازل ، إذا لم يحقق الحكم مصلحة الجماعة ، ومعنى هذا أن الحاكم خاضع لرقابتهم ، فاذا انحرف بالحكم عن صالح المحكومين ، فمن حقهم أن يخلعوه .

وقد استخدم روسو . هذه النظرية لتأييد سيطرة الشعوب على الحكومات ، فى الوقت الذى كان الشعب الفرنسى يتهيأ فيه للثورة على الملكية المطلقة ، على أن فكرة حق الأمة فى عزل الحاكم المعوج لم تأت صريحة فى نظريات التعاقد كما جاء بها الإسلام . هذا وأنت ترى أن فلاسفة التعاقد قد اتفقوا على أن الأفراد قد تنازلوا عن بعض حرياتهم وسلطاتهم ، فى مقابل أو فى غير مقابل ، تنازلا نهائيا أو غير نهائى ، والذين جنحوا منهم إلى تأييد سلطة الشعب على حكامه اضطروا إلى النص على توقيت مدة الرئيس المنتخب للجمهورية . حتى لا يرى نفسه ملكا ، أو يراه الناس ملكا ، فقرروا انتخاب الرئيس كلما انتهت مدة الرياسة ، وفى هذا ما فيه من إشاعة الاضطراب والقلاقل ، كلما تجدد انتخاب الرئيس . وكثيراً ما تسود الاحن والضغائن وتنقسم الأمة إلى شيع متحاربة . من جراء تنافس المرشحين للرياسة .

وأما نظرية الإسلام ، فليس فيها أفراد تنازلوا عن شىء من حرياتهم وسلطاتهم وإنما لدنيا أمة مكلفة وكلت عنها بعض أفرادها لرعاية صوالحها ، وليس فى الوكالة تمليك ولا مظنة تمليك ، والبيعة عقد يقيد الحاكم بدستور خاص ، ويحدد له حدود مهمته ، فإذا التزم شروط العقد فله حق الطاعة على المحكومين ، فإذا جاوز ما عين

له وخرج على الشرط ، انعزل من الوكالة وخرج ، من العهدة بنفسه أو بعزل الشعب الذى ولاه ، وفى هذا يقول الصديق رضى الله عنه للناس « أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم » وأساس هذا قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ولا شك أن عدم رعاية مصالح الدين وصوالح الدولة ، أكبر معصية لرب الدولة سبحانه وتعالى ، وبهذه النظرية يتحقق الاستقرار فى الدولة ، ويمكن الحاكم الصالح المصلح من خدمة شعبه ، وتحقيق منهج إصلاحه ، ويضع الحاكم فى مكان الخادم للأمة ، والأمة له بالمرصاد ، تراقبه وتحاسبه ، وتكبح جموحه إن جمح ، وترشده إلى الحق إن مال أو التبس عليه أمره وتعزله إن ظهر غشمه وظلم وفجر ولم يرعو لناصح أو زاجر .

بعد هذا يا أخى القارىء لا أظنك تقول : إن الحكم فى نظر الإسلام كالحكم فى نظريات التعاقد ! ! فإن كان لنا فى « التعاقد » هوى ، فالتعاقد فى الإسلام تعاقد خاص بالإسلام ، وهو أسمى وأجل من نظريات التعاقد التى عرفتها .

وإذا عرفت هذا ، فاعلم أن الإسلام هو أول من احترم الأمة ، وجعل لها « شخصية معنوية » وألزمها بالتكاليف العامة ، ووكل إليها القوامة على أمورها ، واعلم أيضاً أن المسلمين هم أول من عرف أن الأمة هى مصدر جميع السلطات ، وأن الحاكم خادم وقائد ورائد ، لا سيد مستبد والناس عبيده ، ولعلك يا قارئى تطلب منى البيان ! وأعدك به فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ؟ (يتبع)

الحكمة

مر عيسى عليه السلام بقوم فقالوا له شراً ، فقال هو خيراً . فقيل له : إنهم يقولون شراً وتقول لهم خيراً ؟ فقال : كل واحد ينفق مما عنده . وقال الشاعر :

وذى رحم قلمت أظفار جهله   بحلمى عنه حين ليس له حلم
إذا سمته وصل القرابة سامنى   قطيعتها تلك السفاهة والإثم
فداويته بالحلم والمرء قادر   على سهمه ما كان فى كفه السهم

الحياة الأخرى
عن سيد أمير علي *

للأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ في الآداب

[يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعي إلى ربك راضية]
[مرضية . فادخلي في عبادي . وادخلي جنتي]

نظرية الحياة الأخرى — بعد افتراق عنصر الحياة عن الجزء الفاني — نظرية تتقاسمها جماعات الناس عموماً ، وإن كانت تتميز عندهم الواحدة عن الأخرى ، حتى إنها لتنتهي بنا إلى الاعتقاد بأنها يجب أن تكون من الأوليات في مقومات وجودنا . ولو بحثنا الحقائق التي تتصل بطفولة الأجناس والقبائل بحثاً وافياً ، لعرفنا أن فكرة « الحياة الأخرى » هي نتيجة طبيعية لتقدم العقل البشري .

وليس للإنسان البدائي أية فكرة عن حياة منفصلة ، ومختلفة عن حياته تلك التي يحياها على الأرض ؛ فالموت عنده نهاية الوجود . ثم يجتاز الإنسان هذه المرحلة ، إلى مرحلة ثانية تكون له فيها آمال ورغبات ، لم تعد تنبني بعد على الموت الأرضي ، بل إنه ليتوقع « وجوداً آخر » بعد أن ينتهي وجوده الحاضر . ولكنه في هذه المرحلة لا يتعدى فهمه الخلود ، مجرى الحياة اليومية . فالحياة بعد الموت ، إنما هي مجرد استمرار للحياة على الأرض . ويبدو أن هذه الفكرة عن استمرار الحياة فيما وراء القبر ، قد نتجت عن شوق لا شعوري للروح الإنساني ، يرغب في أن ينتهي الفراق بين الأصدقاء - وهو فراق مر للإنسان البدائي والمتمدن على السواء - إلى لقاء .

وينتقل الإنسان - بسرعة - إلى مرحلة ثالثة ، فيعتقد أن السعادة الحالية

Sayed Ameer Ali : Tth Spirit of Islam - London; 1946 (*)

والشقاء الموجود ، ليسا ، ولا يمكن أن يكونا هما كل الوجود ، أو كل النهاية لوجوده ، بل إنه ستوجد حياة أخرى ، أو أنه توجد حياة أخرى بعد الموت ، يكون فيها سعيداً أو شقياً ، بالنظر إلى ما يستحقه .

ونجد أنفسنا ههنا أمام : مبدأ وقانون

ولم يتقدم العقل الإنسانى فى بحثه فى نظرية الحياة الأخرى ، ولم يستكشف فيلسوف الشك المطلق شيئاً ، أو يحقق وضعاً جديداً ، بل إنه سار الهوينا متأثراً خطى سلفه البدائى ، الذى كان مجال تفكيره متأثراً بحياته فحسب .

ومن الحقائق الثابتة أنا إذا نظرنا إلى كل هذه النظريات التى تمثل المراحل المختلفة من وجهة نظر موضوعية ، لرأيناها قد وجدت متعاصرة ، لا عند الأمم المختلفة فقط ، وإنما عند الأمة الواحدة ، على صور مختلفة ، تبعاً للتقدم الفردى .

* * *

ويقال : إن المصريين كانوا أول من عرف نظرية الحياة الثانية ، أو أنهم هم - على الأقل - أول من بنى مبادىء السلوك الإنسانى على مثل هذه النظرية . فقد ربطوا نظرية التناسخ بفكرة الثواب والعقاب المستقبلة : ينزل الإنسان إلى القبر ليقوم ثانية ، وبعد بعثه يدخل حياة جديدة ، فى صحبة الشمس ، عنصر الوجود ، العلة الموجودة بذاتها لكل شىء . واعتبر روح الإنسان خالداً مثل الشمس يقوم بنفس انتقالاتها Piligrimages . نزلت كل الأرواح إلى العالم الأدنى ، ولكنها ليست جميعاً مؤكدة البعث . وكان « أوزيريس » ومستشاروه الإثنان والأربعون يحاكمون الموتى ، والحرمان [من البعث] نصيب من يدان . أما من خفت موازينه فكان ينقى من آثام الحياة ، ويدخل « السعادة الكاملة » ، ويطعم - كرفاق « أوزيريس » - بأشهى طعام .

ومن الطبيعى أن نتوقع أن إقامة الإسرائيليين الطويلة فى مصر قد أوجدت بينهم فهما لفكرة الحياة الثانية وما يتبعها من ثواب أو عقاب . ولكن « الموسوية » الخالصة [أو التعاليم التى تحمل هذا الاسم] لا تعترف بحالة وجود تختلف عن حالة الوجود الحاضرة . والمحور الذى يدور حوله كل نظام التشريع الموسوى يقوم على أساس ثواب وعقاب أرضى محسوس . أما نظرية البعث ، وما نبع عنها

من أفكار ظهرت فيما بعد فى اليهودية ـ خاصة فى كتابات «دانيال وحزقيال» [١] ـ فقد كانت ثمرة لغرس أجنبى مستمد من أصول « زردشتية » حتى إن وصف الإقامة العامة للكائنات الراحلة ، سواء العادلة منها والظالمة ، التى تظهر فى الكتابات المتقدمة بعض الشىء ، لا يبدو أنها من أصل عبرى صحيح . فلا يستطيع الإنسان فيها أن يحمد ربه أو أن يذكر حبه ورحمته . إنها مملكة ظلال ، محاولة يهودية لمعارضة العالم الوثنى غير المرئى ؛ والموتى [فى هذه المملكة] لا يعلمون شيئا عمن كانوا أحبابهم على الأرض ، فلا ينوحون إلا على أحوالهم .

ولم تلبث اليهودية ، حتى ملئت ـ فيما بعد ـ بإيمان قوى بالحياة الأخرى ، فقد غنيت آثارها بوصف منازل المؤمنين ، أو ما يلقاه المشركون من عذاب . وأثرت الزردشتية على الجنس العبرى تأثيرا مزدوجا ، فلم تكن تزيد عنها فهما أكثر نقاء وروحية فحسب ، ولكننا نجد أن المجوسية الزردشتية فيما بعد ، ـ وهى ثمرة كالدانية ـ قد صبغت العقائد الربانية [٢] بآراء مادية عن الثواب والعقاب فى الحياة الأخرى . وعلى أية حال فإن شعوب الشرق الآرية هى التى عرفت نظرية الحياة الأخرى بعد الموت . ففى الفرع الأول من العائلة الآرية اتخذت النظرية إما شكل التناسخ الأبدى ، دائرة لا تنتهى من الميلاد والموت ، أو شكل فناء كلى بعد فترة اختبار طويلة فى اللانهائية المطلقة ، أو شكل لا نهائية فى زمن لا قياس له ، أو لا شىء [٣] واتخذت النظرية عند الفرع الآخر من العائلة الآرية شكل سلم متدرج للثواب والعقاب ، بالمعنى الذى يفهم به الآن المسلم أو المسيحى قيمة الإنسانية .

هل كان المجوس الزردشتيون يعتقدون من البدء فى البعث الجسمانى ؟ هذه مسألة اختلف فيها العلماء ، فيرى دولنجر Dollinger وبيرنوف Burnouf أن هذه النظرية لم تكن زردشتية حقيقة ، وأنها ظهرت متأخرة ، إن لم تكن مستمدة من العبريين [٢] ومهما كان الأمر فى هذه المسألة ، فإن الفرس ، فى زمن النبى

[١] نبيان من أنبياء بنى اسرائيل الأربعة العظام ، عاشا فى القرنين السابع والسادس ق . م .

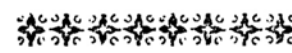
[٢] الربانيون هم كهنة اليهود وعلماؤهم .

[٣] صبغ البراهمة عذاب النار ومسرات النعيم صبغة خيالية حية . وعلى الباحث العربى أن يرجع إلى النظريات البوذية عند الشهرستانى .

[٢] يرى آلجر Alger أن الزردشتيين الأولين كانوا يؤمنون بالبعث الجسمانى .

العربى صلى الله عليه وسلم كانت لديهم نظرية قوية متقدمة عن الحياة الأخرى . وتبين بقايا الزند أفستا التى وصلت إلينا ، بوضوح ، الاعتقاد بثواب وعقاب مستقبلين . وترى زردشتية فنديداد وبوندهيش Vendidad & Bundehesh ـ زيادة على اعتقادات الأفستا ـ أنه بعد موت الإنسان تتملك الشياطين جسده ، ولكنه فى اليوم الثالث ، يرجع اليه الشعور . ولا تستطيع الأرواح التى استسلمت ـ فى الحياة ـ لاغراء الشيطان ، أن تمر على قنطرة شينفاد Chinevad المخيفة ، وهى القنطرة التى يجب أن تمر عليها فى اليوم التالى لليلة الوفاة الثالثة . أما الأرواح الطيبة فتنجح فى المرور ، يسدد خطاها « يا زاتاس Yazatas » [وهو فى الفارسية الحديثة « إزاد Izad »] ، ثم تدخل جنات النعيم حيث تصحب « أورمزد » وصحبه من « الأمشاسباند Amshaspand » فى مقرهم حيث يجلسون على عروش من ذهب ، ينعمون برفقة جنيات حسان Hoorân-i-Behisht ، وبجميع أنواع المسرات . وتسقط الأرواح الشريرة من فوق القنطرة ، أو تجر إلى خليج « دوزاخ » حيث يعذبها « دايفاس Daevsa » ويحدد « أورمزد » مدة العقوبة ، كما أن بعض الأرواح قد يخلصها صلاة ودعاء أصدقائها . ويظهر قبيل نهاية العالم ، نبى يخلص العالم من الجور والشر ، ويستمر حكمه السعيد ألف عام وهى مملكة « أورمزد » السماوية [1] . وبعد هـذا يبعث العالم أجمع ، ويتقابل الأهل والأصدقاء ، وبعد أن ينتهى سرور التعارف ، ينفصل الطيبون عن الأشرار ، ويكون عذاب غير الطيبين عظيما . ويذرع « أهريمان » قنطرة « شينفاد » جيئة وذهابا ، وهو يقاسى العـذاب الأكبر ، ثم يهوى على الأرض مذنب ملتهب يحرقها ، فتنصهر الجبال وتنساب كالمعادن الذائبة فتغمر الجنس البشرى كله ـ طيبه وخبيثه ـ ليخرج الناس بعدئذ جميعا من هذا الطوفان مطهرين . وبهـذا يمحى الشر ، ويعيش الناس جميعا فى سرور ولذة لا يعادلها سرور ولذة .

هذه هى خلاصة دين قد أثر على المعتقدات السامية إلى درجة كبيرة .



وكان اليهود قد فقدوا استقلالهم إلى الأبد ، واحتل عرش داود مدع بائس ،

[١] يسمى الشهرستانى هذا النبى « أوشيزربيكا » [ط كيورتن ص ١٨٨] وترى علماء الغرب أن اسمه « سوسيوش Sosiesch » يسبقه بيان آخران هما « أوشيدر بامى Oscheder Bami » ، وأوشيدر ماه ، ويسمى « دوساس » هذا النبى « باشوتان Pashoutan » .

وتمكنت قوة أعظم من قوة السلوقيين [١] أن تذكى فيهم روح الإذعان ، ومن هنا نشأ بين اليهود - مثلهم مثل أى أمة يتملكها حب عنيف للوطن والعقيدة والفردية - أمل قوى بأن يسترد « مبعوث سماوى » - مثل جيدون أو مكابيوس [٢] - مجدهم الأول ، ويمكنهم من وضع أقدامهم فوق أعناق مضطهديهم الكثيرين [٣] ، واتخذ ظهور « المسيح » عند الوطنيين منهم صورة حية ، وتركزت أناشيد اليهود وأغانيهم حول أمل واحد عظيم ، هو : استرجاع مملكة اسرائيل ، ولكن الإيمان بظهور « المسيح » كان إيمانا خافتاً غير متميز ، أو كان مجرد صدى لإيمان العوام بينهم ، وذلك بسبب الآثار المجوسية الزردشتية والكالدانية فى الشرق ، ومدارس الفلسفة الإغريقية فى الغرب .

أما يهود فلسطين ، فقد استخلصوا من عدة عناصر صورة فخمة ، وإن كانت مضطربة ، لظهور المسيح ، فتعود الأشياء جميعاً ، ويبعث الموتى ، ويحكم المسيح الأرض ، وهذه جميعاً حوادث إما أن تحدث معاً ، أو تترادف مسرعة ، الواحدة إثر الأخرى ، ويأتى المسيح من نسل داود ، فيجمع شمل القبائل المتفرقة شيعاً ، ويطرد ويهلك أعداءهم ، ثم يبعث الموتى ، ولكن هذا كله يحدث لمصلحة الجنس اليهودى فحسب [٤] .

ووسط كل هذا الحماس ، وهذه « الرؤى » الغامضة ، كانت الآمال فى الحياة الباقية ، والجنة المقبلة مختلطة متداخلة ، وكان اليأس والانتظار ، وهما حدان متطرفان ، يعملان دائماً على تهيئة عقول الشعب ، فأخذ قسم منه ينتظر مملكة غير أرضية ، يسود فيها الأمن والقانون تحت سلطان من لدن الله ، وهى محاولة للهروب من قسوة حكم الأعداء ؛ أما القسم الآخر فأخذ يتمنى نفس المملكة الإلهية ، وإنما على دماء الأعداء والكفرة !

هذه فكرة الحياة الأخرى عند طائفة من الشعوب ، وبقى أن نتحدث عنها عند المسيحيين ثم المسلمين ، فإلى العدد القادم .

[يتبع]

---

[١] أسرة حاكمة ، أسسها سلوقس الأول فى سوريا ، حكمت بين ٣١٢ و ٦٤ ق . م .

[٢] مكابيوس : اسم لسبعة إخوة استشهدوا وأمهم تحت حكم أنتيوكوس أبيفان سنة ١٦٨ ق . م .

[٣] يرى آلجر أنه ليس ضروريا أن يعتقد اليهود بالتناسخ لأنهم يفرطون فى ظهور « أليشع » أو غيره من أنبيائهم ، وأن ذلك لا يتعدى الأمانى الوطنية .

[٤] الشبه قوى بين اعتقاد اليهود والزردشتيين فى ظهور مخلص ، ويرى أن ذلك جاء نتيجة للاضطهاد الذى صادفه كل من الشعبين تحت حكم أجنبى .

فى مجلس القرآن

لفضيلة الأستاذ الشيخ السيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

تعود كثير من المستمعين إلى آى الذكر الحكيم فى حفلات المآتم والذكرى وبعض المناسبات ـ أن يجلس كل منهم إلى زميله يتحدث معه جهرة ، أو بين السر والجهر ، فى شئون متنوعة ، وقد يتطرق بهما الحديث إلى تناول آخرين بالقدح وتعداد المثالب ، وقد يبلغ بهما التعمق فيه إلى أمور أقل ما يقال فى الحديث عنها إن إثارتها عمل يجافى الذوق ، ولا يساوق الطبع ، ولا يتفق وما لمجلس القرآن من مهابة وكرامة ، وتوقير وتبجيل ، ورفعة وسمو .

وقد انتقلت هذه العدوى إلى المساجد ، إذ نرى فريقا كبيراً من المصلين ، إذا ما سمعوا قارئا ، يحزمون أمرهم باتفاق ، أو على سبيل المصادفة على أن يوجهوا إليه تحية ، ليست طيبة ولا مباركة عند كل وقف او قبله بأصوات صاخبة مدوية ، مدفوعين إلى ذلك بدافع التشجيع له ، أو التعصب لفنه ، لما بينهم من روابط وصلات ، على أن من القراء من يتخذ له بطانة تلازمه فى حله وترحاله ، تشيد بذكره ، وتنتزع الإعجاب والاستحسان من سامعيه ، حتى يعلو ذكره ، ويطير صيته ، وينبه شأنه .

وتلك حالة ، كيفما كان الباعث عليها ـ تدعو إلى الأسى والألم ، ولا تتفق مع ما يجب لهذه المجالس من قدسية وجلال ، ليتوفر للجالس فيها ما يطلب منه ، من تفكير واعتبار ، وتدبر وإمعان فى أسلوب القرآن ، للوقوف على ما فيه من روعة وجزالة وقوة ورصانة ، وما يفصح عنه ، من حكمة وعظة ، وترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد ، ودعوة حازمة إلى الطريق القويم ، وتوجيه حكيم إلى الصراط المستقيم .

وإن ما تقع عليه نواظرنا الآن فى المساجد وغيرها ، وتنقله إلينا الاذاعة ، ويسمعه العالم الإسلامى والعربى أيام الجمع من تهويش يثقل على السمع ، وتتبرم

به الذاكرة التى تود أن تعى ، وتضيق له النفس التى تبغى التدبر والتأمل ، هو حرام يأثم مقترفه ، والداعى إليه ، والمحبذ له ، لأنه فضلا عما فيه من مجافاة للذوق ، فيه مخالفة للنص الصريح ، فى قوله تعالى « وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » وللعلماء فى المراد من هذه الآية الكريمة أقوال أصحها قول الحسن وأهل الظاهر .

أن فحوى هذه الآية على العموم فى أى وقت وفى أى موضع ومن أى قارىء قرىء القرآن ، يجب على كل أحد الاستماع والسكوت ، لأن قوله فاستمعوا وأنصتوا أمر ، وظاهر الأمر الوجوب ، فمقتضاه أن يكون الاستماع والسكوت واجبين ، والمراد من الاستماع الإصغاء ، والمقصود من الإنصات السكوت للاستماع ، بحيث يحيط السامع بذلك الكلام المسموع على الوجه الكامل ، كما قال تعالى لموسى عليه السلام « وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى » .

وقد ذهب بعض العلماء إلى عدم الاكتفاء من سامع القرآن بالسكوت والإصغاء ، بل طلب منه الإجابة والقبول كما قال الزجاج ، ورأى أن هذا أوفق لتأليف النظم الكريم سابقا ولاحقا ، وأجمع للمعانى والأقوال ، فإنه تعالى لما ذكر قوله « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » تعريضاً بأن المشركين إنما استهزءوا بالقرآن ونبذوه وراءهم ظهريا ، لأنهم فقدوا البصائر وعدموا الهداية والرحمة وأن حالهم على خلاف المؤمنين ، لهذا ، أمر المؤمنين بما هو أزيد من مجرد السماع ، وهو قبوله ، والعمل بما فيه والتمسك به بألا يجاوزوه ، فيما يأتون وما يدعون ، وفى ذلك يقول تعالى « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وقال « أفلا يتدبرون القرآن » ، وصفة ذلك أن يشغل المؤمن قلبه بالتفكير والنظر إلى الأوامر والنواهى ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى ، اعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة ، استبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوذ ، أو دعاء تضرع وطلب .

على أن رفع الصوت فى المساجد بالعلم والذكر وفى غير حضرة القرآن كرهه مالك وجماعة من العلماء فكيف بهذه الأصوات ترتفع قوية مجلجلة بغير العلم

والذكر وفى حضرة القـرآن . إنه ـ لا شك ـ ذنب عظيم وإثم كبير . يعيد الى الذاكرة ما كان يقترفه أولئك الذين استهانوا بحرمة البيت حينما تقـربوا إليه بالمـكاء والتصدية . وفى ذلك يقول تعالى « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » أى صفيرا وتصفيقا .

وفى كنف هـذه الآداب حبب الدين الحنيف للسامع أن يطلب ذا الصـوت الندى الجميل . الذى يرسل الى الآذان لحنا عذبا جميلا . يلمس الإحساس فيملأ النفس نشوة وارتياحا ، والقلب إيمانا ويقينا ، وقد أخرج البزار وغيره « حسن الصوت زينة القرآن » وأيضا حمد من القارىء إن لم يكن حسن الصوت أن يحسنه ما استطاع الى ذلك سبيلا بحيث لا يخرج الى حد التمطيط الذى يتولد منه عن الفتحة ألف والضمة واو . والكسرة ياء . أو يدغم فى غير مواضع الإدغام . فإن وصل به التحسين الى هذا الحد ، كانت القراءة حراما ، يفسق بها القارىء ، ويأثم المستمع لأنه عدل بالقرآن عن نهجه القويم — كما رغب إليه أن يضع نصب عينيه ، الحفاظ الشديد ، والعناية التامة بالكتاب العزيز ، فيحافظ على سلامة لفظه ويرعى ترتيب آيه ، وأن يجلس إليه خاشعا ، يزينه الوقار ، ويحوطه الحياء ، متطهرا متجملا ، وأن يحذر قطع القراءة بمكالمة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغى أن يؤثر عليه كلام غيره ، وقد كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه ، وأن يأخذ نفسه على ترك الضحك والعبث والنظر الى ما يلهى .

هذه بعض الآداب التى يجب أن تتوفر لمجالس القرآن ، دستور الله القويم ، ومعجزة رسوله الخالدة ، ونهجه المشرق الواضح ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

وفق الله المسلمين الى رعاية قدره ، وهداهم الى الخير ، وجنبهم مواطن الزلل . إنه سميع مجيب ؟

آراء العرب

الذين عاصروا عهد النبوة

فى إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجى

المدرس بكلية اللغة العربية

— ٢ —

قدمنا طرفاً من آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول الأعظم ، فى القرآن الكريم ، وبلاغته ، وقضية إعجازه ، وعجزهم عن الوقوف أمام تحديه ، وإقرارهم بالعجز على أنفسهم .

ونتابع اليوم بقية هذا البحث الموجز الدقيق :

كان مسيلمة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفا منها الباقلانى فى كتابه « إعجاز القرآن » . وهى معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن فى سموه وجلال إعجازه بأى حال ؛ وقد أصيب مسيلمة بالخزى والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس .

ويقول صاحب الشفاء : وروى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه . فمر بصبي يقرأ : « وقيل يا أرض ابلعى ماءك » ، فرجع ، فمحى ما عمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ؛ وكان من أفصح أهل وقته ... وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الأندلس فى زمنه ، فحكى أنه رام شيئا من هذا ، فنظر فى سورة الإخلاص ، ليحذو على مثالها ، وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتنى منه خشية ورقة حملتنى على التوبة والإنابة [1] .

ويتهمون المتنبى والمعرى وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

---

[١] ص ٢٣٢ ج ١ الشفاء للقاضى عياض طبعة ١٣١٢ هـ .

وما روى من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق على وضعه فى كفة واحدة مع القرآن الكريم .

ويقول الدكتور طه حسين باشا : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلدا ، ولم يجد له تلميذا . هو واحد فى بابه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه [١] .

وسنعود إلى حديث المعارضة فى بحث مستقل إن شاء الله .

أمية بن أبى الصلت يعارض القرآن :

ويقولون إن أمية قد وقعت منه فى شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاشا لله أن يوزن شعر أمية الدينى الذى نظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم .

ولقد نظم أمية قصصا دينية كثيرة ، كقصة مريم ، وقصة موسى ، وقصة ابراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز ، وذلك السحر القرآنى العظيم ؟ والكونيات فى شعر أمية ، والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟ .

وفى شعر أمية يبدو تأثره الواضح أحيانا ببلاغة القرآن ومعانيه وأساليبه ، كما تجده فى هذه الأبيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه … يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم نأتيه وهو رب رحيم … إنه كان وعده مأتيا
يوم نأتيه مثل ما قال فرداً … لم يذر فيه راشداً وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو … أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد النا … ر كتابا حتمته مقضيا

الشعراء تبهرهم بلاغة القرآن فلا ينطقون :

وأنتم تعلمون أن الشعراء فى أول عهد النبوة كانوا طوائف ثلاثا :
فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله بن

[١] ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه .

الزبعرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن الخطاب ، وهؤلاء جميعا أسلموا بعد حين وبعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .

وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة : كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة . وهؤلاء إعجابهم ببلاغة القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش فى نجد بعيداً عن مكة والمدينة ومواطن نزول الوحى . ومن هؤلاء : الحطيئة ، وكعب بن زهير وغيرهما . وقد ظل شعرهم جاهلياً حتى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .

وأنتم تعلمون قوة شعر حسان فى الجاهلية ولينه فى الإسلام ، انبهارا بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبى الصلت فى الجاهلية واستخذاءه فى الإسلام ، عجزا أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ، والإعجاز العجيب

ويروون أن لبيدا لم يقل شعراً فى الإسلام إلا بيتاً واحداً :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتنى أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

وقال له عمر : أنشدنى من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت لأقول شعراً بعد إذ علمنى الله سورة البقرة ، فزاد عمر فى عطائه[1] .

ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لبيداً والأغلب ما أحدثا من الشعر فى الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا ؟ فقد سألت هيناً موجودا

وقال لبيد : قد أبدلنى الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران فزاد عمر فى عطائه[2] .

بلغاء العرب يتأثرون ببلاغة القرآن :

---

[1] ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

[2] طبقات الشعراء لابن سلام .

وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب والبلغاء فى عصر الرسول وبعده ؛ ويقول ابن خلدون فى مقدمته فى بيان السبب فى أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة فى البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية ، ومنثورهم ومنظومهم : السبب فى ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام فى القرآن والحديث ، والذين عجز البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت فى قلوبهم ، ونشأت على أساليبها نفوسهم ؛ فنهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم فى البلاغة عن ملكات من قبلهم من أهل الجاهلية ، ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ؛ فكان كلامهم فى نظمهم ونثرهم ، أحسن ديباجة ، وأصفى رونقا ، من أولئك ، وأرصف مبنى ، وأعدل تثقيفاً ؛ بما استفادوه من الكلام العالى الطبقة [1].

وقد ظل تأثر الأدب العربى واللغة بالقرآن الكريم واضحاً جلياً فى كل عصر ؛ من عهد النبوة حتى اليوم .

فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإعجاز ، وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافهم بقصور ملكاتهم ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا .

وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات الله وسلامه عليه :

« إن الله أنزل هذا القرآن آمرا وزاجرا ، وسنة خالية ، ومثلا مضروبا . فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ، ونبأ ما بعدكم ، وحكم ما بينكم . ولا يخلقه طول الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم ، وحبل الله المتين » .

وفى الحديث : قال الله تعالى لمحمد صلوات الله وسلامه عليه : إنى منزل عليك توراة حديثة ؛ تفتح بها أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا . فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وربيع القلوب ؟

---

[١] ص ٥٨٠ مقدمة ابن خلدون .

الإسلام الحق

بقلم الأستاذ الشيخ عبد الحليم محمود عبد الرازق

من علماء الأزهر

الإسلام دين يسمو بالروح المتمسكة به إلى مدارج السمو والارتقاء . ثم هو يعالج كل مشكلات الحياة أنجع العلاج ، فإن لم تكن هناك مشكلات فهو يرسم للإنسانية أسلم خطة تسعدها فى الدنيا والآخرة ، بل وينتظم كل سبب ينعطف بالناس نحو حياتهم أو مماتهم . . . هكذا جاء محمد صلوات الله عليه بالإسلام من عند ربه .

فماذا يا ترى كان شأن الإسلام بين أهله بعد محمد صلى الله عليه وسلم ؟ ذلك ما نرمى إليه من كلمتنا هذه .

سوف نتحدث عن إسلام جديد إذن ، ولا نعنى به إسلاما غير ما جاء به محمد صلوات الله عليه ، ولكن نعنى أن كثيراً من المسلمين فى مختلف العصور قد خلعوا على الإسلام نعوتا وأوصافا من عند أنفسهم ، وزادوا عليه أو انتقصوا منه بالقدر الذى يرضى أهواءهم . فمن ثم بدا لهم أن حدود الإسلام كما رسموا ، وأن حقائقه كما فهموا . ساعدهم على ذلك مرونة الإسلام وسعته ، ومجاراته لحاجات الحياة جميعها ـ على أنه للحكمة السامية كان فى الإسلام ذلك ـ لا للشطط والتأويل .

ولهذا اختلف المسلمون فى معنى الإسلام أكبر اختلاف ، وانطبعت فى نفوس الناس للإسلام صور غاية فى التباين والتمايز ، كلها إما قريب من تعاليمه أو بعيد عنها . وبعضها منطبق على الإسلام الحق الذى جاء به محمد صلوات الله عليه وذلك فيما نرى أقل من القليل .

رأت جماعة من المسلمين أن الإسلام ليس شيئاً إلا أن يكون عبادة ظاهرة ، لا هم لهذه الجماعة إلا أن ترى هذه العبادة مؤداة ليكون المسلم قد قام بواجبه نحو الناس ، ويكون الناس بهذا قد وصلوا إلى لب الإسلام وحبة فؤاده . ولعل هذا رأى عامة المسلمين اليوم .

وجماعة أخرى رأت أن الإسلام ما هو إلا خلق فاضل ، وفيضان من الروحانية

وغذاء دسم من الفلسفة للعقل ، ومانع قاهر جبار ينأى بالروح عن طغيان المادة وظلمها وجبروتها ومجافاتها لحقائق الأشياء .

وجماعة ثالثة ترى الإسلام دينا ينبغى أن نعجب به ونشيد بذكره ونسبح بحمده كلما ذكر شىء عن الإصلاح وطرقه لأن الإسلام فيه عند هذه الجماعة من المعانى الحيوية العملية ما يسعد المجتمع ويسمو به حتى لا مطمع فى مزيد وأكثر هذه الجماعة يقف عند ذلك فقط لا يتجاوزه إلى ما طلب الإسلام وأكد فى طلبه من مراعاة حقوق الله وحقوق العباد .

وجماعة ترى الإسلام نوعا من الديانات التى خلفها الآباء للأبناء فكانت فى عداد ما ورثوا وضمن ما يجب عليهم أن يقلدوا فيه آباءهم وأجدادهم ، فلا غناء فى الإسلام عند هؤلاء ، ولا نهضة للمجتمع عن طريقه . فهذه الجماعة متبرمة بالإسلام أشد ما يكون التبرم ، ترى فى التمسك به حبالا متينة تربطها بالرجعية والجمود - وهذه الطائفة جلها ممن تثقفوا ثقافة أجنبية بعدت بهم عن الفهم الصحيح للإسلام فكأنهم لم يعرفوا عنه شيئا أصلا أو عرفوا عنه ما غمره المسخ والتشويه والبهتان .

تلك صور متعددة لشىء واحد ، وأفهام مختلفة لمفهوم واحد . أما السبب فى ذلك الاختلاف والتباين ، فهو ما ألمعنا إليه من جرى الناس وراء شهواتهم ومن سوء استغلالهم لمرونة الإسلام الحنيف . بل من عدم إمعانهم فى تعرف أسراره والبحث عن كوامنه .

وبعد : فإسلام اليوم الجديد الذى يجب أن نتمسك به حتى النهاية هو ما جاء به محمد صلوات الله عليه من عند ربه ولم يحرفه المحرفون ولم يتأول فيه المتأولون هو الكتاب الكريم : « مافرطنا فى الكتاب من شىء » والسنة المطهرة : « وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى » .

فالإسلام إذن فى حقيقته التى تؤلم الكثيرين من عباد الشهوات هو عقيدة وعبادة وقومية ووطن ، ودين ودولة ، وروحانية وعمل ، حتى إن القرآن الكريم ليعتبر هذا من لب الإسلام وصميمه حين يوصى بالإحسان فيه فيقول « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك » والأدلة بعد ذلك والبراهين لا تدع مجالا لمحرف أو تعطى سانحة لمتأول فالآيات الآتية ناطقة أفصح ما يكون النطق ودالة أصدق ما يكون التدليل على حقيقة الإسلام التى قدمنا : ففى العبادة والعقيدة يقول تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله

مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة » وفى السياسة والقضاء والحكم بين الناس يقول تعالى : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما » وفى المعاملات يقول : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا ولا تسأموا أن تكتبوه صغيراً أو كبيراً إلى أجله ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها وأشهدوا إذا تبايعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ، وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم » .

وفى الحرب يقول : « وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ، ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهيناً » .

إلى كثير من الآيات التى تتناول كل مقومات الحياة قاصيها ودانيها .

هكذا يجب أن نفهم أن الإسلام دين ينتظم شئون الحياة جميعها لكل عصر ولكل جنس ، وإن لم نفهم فإن العاقبة جد وخيمة ، وإنها لتسير بنا إلى حيث نهلك ونذل ونخزى أكثر مما نحن فيه ، ونكون حينئذ والعياذ بالله كما قال تعالى : « أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » ونعوذ بالله من أن يحل بنا عذابه أو خزيه ونعوذ به من أن نظل هكذا نتخبط لا ندرى من أمرنا أين رشده .

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

مقـــدمة :

الاشتراكية مذهب اقتصادى حديث يبغى المساواة بين الناس فى الناحيتين المادية والأدبية، وكأى مذهب حديث يظهر فى الغرب انبرى له المسلمون بالدراسة والتحليل، لمعرفة مدى اتفاقه مع دينهم أو اختلافه معه، ولقد ظهر — مع الفخر — أن الإسلام قد طبق نظاما لا يصح لنا أن نسميها اشتراكية إلا بالتجوز، فهى تفوق الاشتراكية فى عدلها ومساواتها ومراعاتها للناحية الإسلامية.

ولقد عثرنا يوم أن كنا مهتمين بدراسة هذا الموضوع على كتاب وضعه أستاذ هندى [1] باللغة الإنجليزية بعنوان «الإسلام والاشتراكية» قدم له بمقدمة طويلة، فصل فيها منهج الإسلام فى السياسة والدولة. ولقد رأينا أن ننقل لقراء العربية تلك المقدمة الى لغة الضاد، علها تلفت الأنظار الى ما فى الإسـلام من إحاطة بدقائق النفس البشرية ومعاملة أفراد البشر معاملة كريمة تليق بآدميتهم.

قال الأستاذ مشير: اعتذر الى قرائى عن عرض هذا الموضوع الذى يبرز كل يوم عرضا سريعا، وبالرغم من أن التأليف الأوربى فى موضوع الاشتراكية ليس قليلا بأى حال، فإن القارىء العادى لا يألفه، ولا أعلم بوجود كتاب قـد بحث هذا الموضوع فى لغـة شرقية [2] كما أنى لا أعتمد كثيراً على التأليف الغـربى القيم فى هـذا الصدد نظرا لأن آرائى حول الاشتراكية تختلف الى حـد كبير عن آراء الكتاب الأوربيين. ولسوء الحظ ليس من اليسير القيام ببحث علمى فى الهند نظرا لقلة المكتبات القيمة وندرتها، اللهم إلا كتب قليلة مثل التى أعارنى إياها صديقاى

---

(١) الأستاذ مشير حسين كيدوى
S. Mushir Hosein Kidwai : Islam and Socialism.

(٢) يجب أن نلاحظ أن المؤلف وضع كتابه سنة ١٩١٢ م

مولوى نظام الدين صاحب ، والمستر ر . س . هوبرت وتلك المساعدة التى أسداها الى صديقى الحميم قوار مهراجا ، وأخى الفاضل الشيخ مقبول حسين صاحب ، وإذن فكان على أن أعود الى المصادر الضئيلة التى بين يدى ، ذلك هو السبب الرئيسى فى أن هذا الكتاب الصغير ليس كاملا على النحو الذى أردت .

وبعد أن بين المؤلف الصعوبات التى اعترضته فى تأليف الكتاب ونشره ، أشار إلى المصادر الإسلامية التى استمد منها البحث ، وأولها القرآن الكريم نفسه ، قال : لأننى على يقين من مدى جهل أوربا بفضائل الإسلام ، ورأيت أنى باستعراض أصول الإسلام ربما أنجح فى إقناع قرائى بأن فكرة الاشتراكية فى الإسلام ليس عمرها أقل من ثلاثة عشر قرناً ، وأنها لا يمكن أن تعزى إلى التأثير الأوربى ، فلست أقصد بهذا إلى القول بأن الدعاية الاشتراكية المنظمة كما تعرف اليوم ، كانت توجد حينئذ بل أريد أن أؤكد أن مبادىء الاشتراكية لم تكن مجهولة فى المجتمع الإسلامى فى عهد محمد نفسه . وأن هذه المبادىء طبقت فى كثير من الأحيان أكثر مما طبقت بأوربا فى أى وقت مضى بعد ذلك التاريخ . ولعل هناك بعض القراء الذين لا يودون أن يتأملوا كثيراً من النصوص التى كثيراً ما يبدو أنها تقطع سلسلة الأفكار ، ولهذا فلن أعرض فى هذا الكتاب إلا للنقط الأساسية .

للاشتراكية من وجهة النظر الحديثة مظهران :

الأول : اشتراكية الدولة وهى إما أن تكون مركزة أو ممثلة فى المجالس البلدية .

الثانى : الاشتراكية الصناعية .

والنوع الأول هو المظهر الأهم ، ذلك لأنه إن كانت الدولة اشتراكية فستصطبغ الصناعة بالاشتراكية إلى حد كبير ، والأرض نفسها هى منبع الإنتاج ومجال للصناعة العظمى ، وإذن فينبغى أن نعير اشتراكية الأراضى واشتراكية الدولة أعظم اهتمام ثم إن الإسلام قد قصر نفسه على هذا النوع من الاشتراكية فبمجرد أن أصبحت الدولة فى يدى الرسول صلى الله عليه وسلم اصطبغ دستورها بالصبغة الاشتراكية وأصبحت الأراضى ملكا للدولة ، وقد طبقت هذه السياسة عند ما بسط الإسلام رواقه على البلاد الأجنبية وحتى المغول فى الهند نهجوا هذه السياسة الاشتراكية فيما يختص بالأراضى ، كما أن خلفاءهم ظلوا ينسجون على منوالهم إلى يومنا هذا

على نحو مسرف لدرجة أنه لا ترد جميع المناجم إلى الدولة فحسب ، بل إذا اكتشف شخص منجما فعليه أن يرده إلى الدولة التى تعد المالك الحقيقى للأراضى ، وكل مايوجد تحتها ، وقد كانت الأراضى إبان الحكم الإسلامى تؤجرها الدولة للشعب ، وبذلك كانت تعتمد مالياً على الدخل الذى يأتيها من الأرض التى لا تزال حتى الآن المصدر الرئيسى لموارد الدولة ، ويقضى قانون الميراث فى الشريعة الإسلامية بأن تقسم ثروة المورث إلى حصص ضئيلة ، وبذلك تتناول ملكية الدولة عدداً كبيراً من الأفراد جيلا بعد جيل ، ولا شك أن هـذا القانون يسدد ضربة قاضية إلى الدوقيات الواسعة ، فالمالك الحقيقى للأرض هو الدولة ، ونظراً إلى أن الدولة اشتراكية فإن أهم وسائل الإنتاج ستكون خاضعة لملكية الشعب .

على أن هـذا النوع من اشتراكية الدولة ليس هو النظام الوحيد الذى سجل محمد فيه نظاماً تقدميا ، لأن نظـام الدولة نفسها كان قائما على أسس اشتراكية صرفة . ومما يجدر ذكره أن الاشتراكيين فى هـذا العصر ينادون بالاشتراكية الديموقراطية فهم يريدون أن تقوم الحكومة على أساس تطبيق نظام إيفاد مندوبين إلى المجالس أو الهيئات التمثيلية ، بيد أن الحكومة القائمة على النظـام النيابى أو التمثيلى ديموقراطية وليست اشتراكية بالمعنى الحقيقى ، فالنظام الاشتراكى يقضى بأن يكون للشعب نفسه صوت مباشر فى الدولة ، وقد بلغت الدولة على عهد الإسلام ذروة الاشتراكية فى هذا الصدد . فقد كان النـاس يعلمون أن التشريع ليس فى يد وزارة أو برلمـان ، وأنه لا يخضع قط لمصالح أية طبقة أو جنس أو دائرة انتخابية . فجميع قوانين الإسلام مقدسة ، صدرت عن مشرع لا يحابى أحـداً ، فهى ليست من صنع الإنسان وليست من صنع أية هيئة تمثل فريقا من أصحاب الامتيازات ؛ بل إن للإنسانية ـ كوحدة ـ امتيازاً مشتركا ، وليس فى وسع شخص أو جماعة متجنين أو مختارين تغيير تلك القوانين من أجل طائفة خاصة أو حزب أو طبقة . والجمعيات التشريعية اليوم كلها تعد هيئات نيابية ، والحكومات التى تقوم على أساس هذا النظام تتيح الفرصة لقيام الأحزاب ، ومن شأن الأحزاب أن تخلق روحا غير اجتماعية ، والتشريع الذى يرجع فيه إلى الشعب أقرب إلى الاشتراكية من التشريع القائم على النظـام النيابى ، ولـكن يجب أن يكون

المرجع هو الشعب كله دون إقصاء طائفة أو حزب ، ومن ناحية تفسير القانون المقدس (القرآن) للمسلمين فقد أعطى الإسلام امتياز هذا التفسير للرجل والمرأة على السواء وقد يكون التفسير الذى تذهب إليه امرأة عجوز فقيرة خيراً من تفسير الخليفة الذى يجب عليه فى هذه الحال أن يتبع الرأى الصائب .

ويقضى هذا القانون بأن تكون الحكومة فى أيدى الأفراد بحسب مقدرتهم واستحقاقهم عن طريق المندوبين . وكأن رؤساء الحكومة أدوات يقومون بحاجات ورغبات الشعب حتى يسود القانون الإلهى وفقا للتفسير الذى يذهب إليه الشعب .

هذا وتعد البيروقراطية فى الحكومة من أخطر النظم ، ولهذا فإن المسلمين كانوا يأخذون حذرهم منها ، ولم تكن حكومتهم بيروقراطية بأى معنى ، ولم تكن هناك أقسام حكومية أو وزارات ،إذ لم يكن رؤساء الحكومة مستقلين عن الرأى العام كما هو الشأن فى الوزارات القائمة فى حكومات العصر الحاضر الديموقراطية ، وكان على زعماء المسلمين أن يحترموا إرادة الشعب فى كل شأن من شئون الحياة ، اجتماعية كانت أوسياسية ، ولم يكن فى وسعهم أن يغفلوا مطالب الشعب فى شأن ، ويحتموا وراء الأغلبية البرلمانية فى شأن آخر كما يفعل اليوم الوزراء الديموقراطيون .

وتعرض الكاتب بعد هذا للصحافة الأوربية حين نددت بتصرف الطليان فى طرابلس ، قائلا إن هذا التنديد إنما يقع على الشعب نفسه ، بيد أن الوزراء الأوربيين أجمعوا على إهمال الرأى العام ، وأصموا آذانهم عن كتابات الصحف . وحتى أول البرلمانات [1] (الترجمة الحرفية أم البرلمانات The mother of Parliments) ليس ديموقراطيا ، إذ ظل إلى العام الماضى خاضعا للصوت الجائر الذى ينطلق من هيئة ليست ديموقراطية ولا ممثلة . أما الديموقراطية الصحيحة فيجب أن تضع الإدارة والتشريع فى يد الشعب ، وبصرف النظر عن النظام الاشتراكى فإن الغربيين لم يستطيعوا إنتاج نظام ديموقراطى كامل لدولهم ، فلا يزال الجيش فى كثير من دول أوربا أجيراً فى حين أن الإدارة المدنية فضلا عن الجيش كانت خاضعة للنظام

---

(١) لعله يقصد البرلمان الانجليزى .

الإسلامى القديم الذى يقضى بأن يكون القائمون عليها أبناء الأمة ، هذا وقد كان يوجد بحكم النظام الإسلامى جيش من المواطنين يخوض غمرات القتال دفاعا عن شرفه وبلاده كما هو الشأن مع أبطال الجيش الذى دافع عن طرابلس ، ولم يكن الجنود المسلمون ، والمدنيون المسلمون يقبضون رواتب على شكل أجور ، وكانت الدولة تتكفل بأبنائهم وأسرهم ، كما هو الشأن مع طلاب الكليات أو مع المسنين والأطفال الذين ليس فى وسعهم أن يستقلوا بالعمل لكسب قوتهم ، وكان الشجعان من الجنود والقواد يقبضون مكافأة جزاء لخدماتهم الوطنية ، وكانوا إذا تركوا أرامل أو يتامى تكفلت الدولة بمن تركوا ، وأما الذين يستطيعون أن يقوموا بنفقات طعامهم وحاجاتهم فلا تصرف لهم أية مساعدة مادية فى وقت الحرب ، بل عليهم أن يتولوا أمر أنفسهم كسائر الرعايا . ومن الأمثلة الحية لهذا الصنف ، المجاهدون العرب من أهل طرابلس .

ومجمل القول : أن التنظيم العسكرى والمدنى للدول الإسلامية كان اشتراكيا يكاد يبلغ حد التمام ، ولكن لا يمكن القول بأن هذا النظام كان مطبقا على الناحية الأخرى من الاشتراكية ، وهى الاشتراكية الصناعية . إذ لم يكن من الميسور إحداث تطور عظيم فى الاشتراكية الصناعية نظراً إلى أن الصناعة كانت حينئذ لا تزال فى طفولتها .

(يتبع)

الأجواد

أجواد الإسلام ثلاثة كانوا فى عصر واحد : عبيد الله بن عباس ، وعبد الله بن جعفر ، وسعيد بن العاص .

فمن جود عبيد الله أنه أول من فطر جيرانه ، وأول من وضع الموائد على الطرق ، وأول من حيا على طعامه ، وفيه يقول شاعر المدينة :

وأنت ربيع لليتامى وعصمة ... إذا المحل من جو السماء تطلعا
أبوك أبو الفضل الذى كان رحمة ... وغوثاً ونوراً للخلائق أجمعا

من مآسي الحياة

لحضرة الأستاذ ابراهيم عمار

مراقب بالأزهر

نشأت فى مصر . لا تعرف عن أهلها ولا بلدها شيئاً . فقد غادرت الريف فى سن مبكرة . لتخدم عند أسرة تقيم فى المدن .

وكان أبوها قد مات ، ولم يترك شيئاً يورث ، فالتوت سبل الحياة بأمها المعدمة ، واعتاصت عليها طرائق العيش الشريف ، ولم تجد فى حياة الناس متسعاً لها ، ولا فى مالهم بابا تستجديه .

فلجأت إلى التزوج ، ورماها الزمن بزوج فقير لا يكاد يجد ما يقيته ، ورضيت هى به لتتقى ألسنة الناس ، وتدفع غائلة العوز الشديد . . . ولكن حاجته الملحة ، وحالته الضيقة ضاقا بابنتها ، فاحتال للتخلص منها . فأخذ يزين لها حياة المدن ، ويحببها فى عيشها الرغيد ، ويرغبها فى دفع بنتها إليه . . . وما زال بها يلاطفها حينا ، ويقسو عليها حيناً ، حتى لانت آخر الأمر . . . وكان هذا آخر عهدها بابنتها ما بقى لها من حياة .

* * *

سافرت إلى مصر ، وزاولت مهنتها التى ساقتها إليها المقادير ، كما اعتادت مثيلاتها من الخدمة فى بيوت القادرين . فلقيت عنتاً ، وأصابها مكروه ، فهامت على وجهها تبحث عن بيت تجد فيه الرحمة والأمن ، وتصيب فيه الخير والدعة ، وتشعر بالهدوء والاطمئنان ، ولكن حظها العاثر قد آلى أن لا يهدأ لها بال ، أو يقر لها مضجع ، أو تسكن منها نفس . فرماها فى بيت لم يكن خيراً من سابقه ، وبأناس لم يعرفوا الإحسان ولم يقروه .

فظلت تجرب حظها ، وصارت يلفظها بيت فيتلقفها آخر بالشر والنكر ، حتى ضاقت بالحياة ، وثبت فى نفسها أن « السادة » كلهم سواء ، وأن قلوبهم جميعاً قد

تجردت من الخير ، فلم تدن منه ، وأن نفوسهم قد خلت من الإيمان فلم يراقبوا الله ، ولم يخشوه ، وكأنهم أمنوا مكر الله ، وغدر الزمن ، ومداولة الأيام ، فلم تهدهم عظة ، ولم يهدّ من سورتهم خوف من قانون ، أو جزاء من عقاب ، أو صوت — ولو خافت — من تقريع النفس وتأنيب الضمير .

وأى ضمير عند هؤلاء ، وقد أبطرتهم نعماء الحياة ولينها ، فأنكروا مرارة العيش وقسوة الأيام ، ولم يبالوا بطبقة « الخدم » ونسوا أنهم مثلهم كلهم من آدم وآدم من تراب ؟ ! !



ولما آدها الاحتمال ، وعيل الصبر ، أنكرت ماضيها وأقبلت على حياة جديدة فيها اللهو والإغراء ، وفيها الطهر والعفاف ، وتزوجت أخيرا من « عامل » فرضيت به ، وهدأت نفسها وقرت ، ووهبت بيتها وزوجها كل ما أوتيت من قوة وهمة ، فكانت تمضى نهارها فى إعداد البيت وتهيئته ، وتسعى ليلها فى إسعاد زوجها والتخفيف عنه ، لا تبالى بما تبذل من وقت وجهد ، لا تمتعض من شى ولا تضيق بشيء . . . سواء لديها أصابت طعاماً شهياً رغداً ، أم أصابته قديدا بغيضاً . . . وما زالت تلك خطتها حتى من الله عليها بمولود « ذكر » .

فرحت بوليدها كثيراً - واغتفرت للزمن - من أجله إساءته ، وطوت صفحة الماضى ، وفتحت صفحة جديدة أخذت تملؤها بالتفانى فى تربيته وتنشئته ، بقدر ما يتسع لها عيشها المحدود .

ورفهت عن زوجها فساهمت - بنصيب محمود - فى جلب القوت وخفض الرزق : فكانت تبيع أوراق « اليانصيب » حيناً ، وتتجر فى البضاعة التى تعرضها الفقيرات على أفواه الأزقة والحارات أكثر الأحيان ، ووضعت أملها كله فى وليدها ، وجعلت حياتها من حياته ، وسعادتها من سعادته . بل جعلت حياتها وسعادتها وقفاً عليه : لا تفكر إلا فيه ، ولا تعمل إلا له ، ولا تأتى أمرا أو تدع شيئاً إلا من أجله ، وفى ظل هذا الحدب ، وتحت تلك الرعاية والعناية ترعرع الولد ، وتدرج فى طفولته إلى أن اكتمل نموه فدفعت به إلى المدرسة .

وقد أوتى « محسن » ذكاء نادرا ، وعقلا حصيفاً ، وقوة وافرة ، وظهرت بوادر ذلك عند ما أتم تعليمه فى المدرسة الأولية ، فالمدرسة الابتدائية ، إذ بذ أقرانه ، وكان الأول ، وظفر بمجانية التعليم الثانوى لتفوقه ، وظل محافظاً على « الأولية » حتى نال « التوجيهية .

وعندئذ رغبت أمه فى أن ترتاح من الكدح وراء العيش ، فطلبت إليه أن يسعى لدى الحكومة أو لدى شركة ، عله يجد وظيفة ، وفى مرتبها الضئيل ما يسعها ويسعه .

أليست قد نشأت على الحرمان ! أو ليس هو قد ربى على الكفاف ؟ لذلك كان كل هناءتها وسعادتها فى أن يوظف لتباهى به لداتها وكثير عليهما الثمانية جنيهات .

ولكن « محسناً » قد تذوق لذة الظفر على الأقران ، وعرف « فيما عرف » حلاوة العلم وكرامة العلماء . فأبى ألا أن يتم تعليمه فى الجامعة ولو كلف أمه النصب والعناء .

وأخيرا رضخت أمه لرغبته ، ودخل كلية الطب ، وكان كعهدنا به مبرزا ظافرا ، وانتهى من دراسته كأكرم ما يكون طالب انتهى من دراسته .

وفى فترة انتظار النتيجة كانت أمه تعد الساعات والثوانى ، وتعلق عليها الآمال الطوال العراض .

وفى اليوم الذى ظهرت فيه نتيجة النجاح كان الموت قد اختطفه من يديها ، ففزعت وشدهت وفغرت فاها ولا زال فاغرا حتى الآن ؟ . . .

هذا من أقسى ما يعانيه النوع البشرى فى حياته الدنيا ، وهو ليس بالشاذ النادر ، فإن لم يكن المبتلى بمثله ردء من دين كان الموت عنده أفضل من الحياة ، وكثيرا ما قضى على حياته بيده !

نعم إن فى الدين لسلوى ، سلوى تشفى الصدور وتملؤها نورا . فلا تضق ذرعا بمآسى الحياة ، ولكن اركن فى شدائدك إلى الدين تجده ينجدك ، ويوصلك إلى مأمنك من حيث لا تحتسب ولا تتخيل ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

زواج حضرة صاحب الجلالة الملك

مهرجانات تفوق الوصف

تم فى أسعد الأوقات وأبركها عقد قران حضرة صاحب الجلالة الملك « **فاروق الأول** » ملك مصر والسودان ، وحضرة سليلة المجد والشرف العالى صاحبة الجلالة الملكة « **ناريمان** » فى يوم الأحد الثلاثين من شهر رجب لسنة ١٣٧٠ هـ ، الموافق لليوم السادس من شهر مايو لسنة ١٩٥١ ، فى سراى عابدين العامرة ، فى حفل جمع أصحاب السمو أمراء وأميرات البيت العلوى الكريم ، وكبار رجال الدولة من ملكيين وعسكريين ، وجمهوراً كبيراً من السراة والنزلاء المحترمين. فكان يوما مشهوداً لم يسبق له مثيل ، إذ اتفق وعيد جلوس جلالة الملك حيث يؤم السراى الملكية الألوف من الوجهاء وكبار الموظفين وسفراء الدول وقناصلها وأعيانها المبجلين لتهنئة جلالة « الفاروق » بعيد جلوسه السعيد ، كل هذا جعل ذلك اليوم من أحفل ما شهدته القاهرة من الأعياد الملكية .

وقد زادفى رونق هذا اليوم ، وعظم من شأنه ، أنه اجتمع فيه أمران عظيمان : زواج جلالة الملك ، وذكرى جلوسه السعيد ؛ وكلاهما يهتم له الشعب ويفرح به ، فلا غرو إذا بالغ فى إظهاره شعور الغبطة فيه إلى الحد الذى رأيناه ، مما يسجل فى تاريخ هذه البلاد ، ويبقى ذكره أبد الدهر .

ومجلة الأزهر : التى تمثل أرقى وأعرق جامعة فى الشرق بأسره ، يسرها أن تنشر هذه الكلمة عنه فى أولى صفحاتها ، وتذيعها فى الخافقين ، راجية للأمة المصرية الكرامة والجلال ، ولجلالة مليكها المعظم العمر المديد ، والعز والتأييد ؟

محمد فريد وجدى

خطبـــــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن
وكيل الأزهر

فى إحياء ذكرى المغفور له الملك فؤاد الأول

وتوزيع الجوائز على الناجحين

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب العزة مندوب حضرة صاحب الجلالة الملك ـ حضرات السادة

نحتفل اليوم بذكرى ساكن الجنان المغفور له الملك فؤاد الأول ، أحسن الله مثواه . وتمر السنون وتتعاقب الأيام وذكره يعمر القلوب ويملأ الأفئدة ويلهج الألسنة بالدعاء إلى الله أن يمطر جدثه شآبيب الرحمة والرضوان ، جزاء ما أدى لأمته من الخير وجليل الأعمال .

كرس الملك فؤاد حياته كلها فى مصر وخارج مصر ، لخدمة بلاده التى فطر على حبها منذ حداثته ، وكان هدفه فى جميع أعماله خير الأمة وتحقيق النفع العام لجميع أبنائها ، ولقد أثر عنه أحسن الله مثوبته قوله « ليس أمراً أن تكون أميراً ولكن الأمر كل الأمر أن تكون نافعاً » .

كان من أول ما اهتم به الملك فؤاد العناية بشبيبة البلاد وتنشئتهم تنشئة صالحة ، لأنه كان يرى أنهم عماد الوطن وعدته فى المستقبل ، وفى صلاحهم صلاح الوطن ، ولهذا حرص على أن يهيء لهم تقدما علميا ، ويوفر لهم ثقافة ممتازة متعددة النواحى ، تقوم على تمجيد ماضيهم العريق ، وتفتح أمامهم طريق البحوث العلمية الحديثة التى سبق اليها العالم لتكون لمصر ثروة علمية نافعة تتبوأ بها مكانتها المجيدة بين الأمم .

وكان أول مظهر لهذا الاهتمام إنشاء الجامعة المصرية بعد أن كانت أمنية وطنية وفكرة قومية ، تظهر حيناً ثم تخبو ، لما تلاقى من الصعوبات ، فقد عمل رحمه الله

على أن تكون حقيقة واقعة ، ثم وجه عنايته إلى النهوض بها والتمكين لها لتكون أداة فعالة فى إذكاء الروح العلمية بين الشباب ، وعاملا قويا فى بعث حركة البحث والتأليف على أحدث نظم الجامعات العالمية العريقة .

وقد بذل لها فى هذا المضمار من قوة نفسه ما قوى دعائمها ، ووسع مجالها وأعانها على النهوض حتى بلغت فى عهده الميمون الذروة ، وحققت ما عقد عليها من آمال ـ وها هى اليوم تحمل اسم فؤاد العظيم تياهة فخورة ، تسامى أعظم الجامعات جلالا ومجداً .

لم يفت فؤاد العظيم ما للأزهر الشريف من أثر بارز فى الحياة المصرية ، وتقويم الشباب وتنشئتهم على الفضائل الإسلامية والأخلاق القويمة ، ولا ماله من مكانة سامية فى البلاد الإسلامية ، فحرص على أن يبلغ من التقدم ما يحيى به أمجاده السالفة ويهيىء له فى المجتمع الإسلامى مكانه المرموق ، فأحاطه بعين رعايته حيث أشار رحمه الله بتعديل قوانينه وإصلاح مناهجه ، ليساير حركة النهضة العلمية التى انبعثت فى البلاد بفضل جهوده ، فكان أن صدرت عدة قوانين تدرج بها الأزهر فى حركته العلمية إلى أن توجت بقانون سنة ١٩٣٠ ، وهو القانون الشامل للإصلاح ، حيث أنشئت به الكليات ونظم به الأزهر تنظيما جامعيا ، وأدخلت فيه اللغات الأجنبية والشرقية وهو تنظيم ساير فيه الأزهر روح العصر مع الاحتفاظ بالتراث الفكرى الإسلامى والعناية بفهم ما فيه من كنوز وذخائر

وبتوجيهه الكريم ، أرسلت بعثة فؤاد الأول من أبناء الأزهر إلى الخارج ليتزودوا من العلم والمعرفة ، وليدرسوا أحسن النظم الجامعية فى البحث والتأليف . وأرسلت بعثتان من رجاله إلى الصين والحبشة لنشر الثقافة الإسلامية فى أرجاء هذه البلاد . فكانت هذه البعوث نواة لحركة التوسع العلمى التى نمت واتسع نطاقها فى عهد شبله العظيم ، الملك فاروق الأول أعزه الله

وقد عمل أحسن الله مثواه ، على تشجيع الطلاب على النبوغ والتفقه فى العلم فأرصد مكافآت سخية للنابغين والأوائل منهم فى الكليات ، وما هذه الجوائز التى تقدم اليوم لأوائل الناجحين فى امتحان الشهادات العالية للكليات إلا عارفة من عوارفه ، ويد من أياديه الغر الميامين على الأزهر وأبنائه .

وجملة القول أنه فى عهد الملك فؤاد العظيم قد انبعثت فى الأزهر كله نهضة علمية واسعة، فانتشرت معاهده فى الأقاليم، ونشطت حركة البحث والتأليف بين رجاله وأخرج أبناء الأزهر مئات البحوث القيمة فى شتى نواحى العلوم، وتبوأ الأزهر بفضل رعايته مكانة ملحوظة فى الحياة العامة فى مصر وخارجها، وهو فى عهد الملك فاروق، أعزه الله، قد خطا فى هذا السبيل خطوات موفقة، وهو يسير قدما فى نشر الدين والثقافة الإسلامية فى مصر وخارج مصر بما نرجو أن يحقق الله به الخير العام للإنسانية.

لم يقف فضل الملك فؤاد فى النهوض بشبيبة البلاد عند حد العناية بالأزهر والجامعة، بل امتد إلى التعليم العام فشمل جميع مراحله، من ابتدائية وثانوية وفنية حيث أشار بإصلاح نظم التعليم ومناهجه فى المراحل المختلفة بما يتفق ومصلحة الأمة.

وبحسن توجيهه انتشرت مدارس التعليم الإلزامى فى القرى والبلاد، وأنشئت مدارس ليلية لتعليم العمال وغيرهم، وكان هدفه فى كل ذلك النهوض بأبناء الأمة ومحو الأمية من صفوفهم؛ لتسامى مصر أمم العالم حضارة ومجداً.

كما وجه عنايته إلى رعاية البحوث العلمية التى تعود على الإنسانية بالخير، فشجع الجمعيات العلمية وأمدها بروحه، وأظلها برعايته، حتى استطاعت أن تؤدى رسالتها وأن ترفع اسم مصر ومكانتها، وفى مصر الآن كثير من الجمعيات ومعاهد العلم النافعة كلها من غرس يديه؛ كالجمعية الجغرافية ومعهد الأحياء المائية وجمعية الاقتصاد السياسى وجمعية فلاحة البساتين وجمعية الهلال الأحمر، وجمعية الإسعاف وغيرها.

واهتم جلالته باشتراك مصر فى المؤتمرات الدولية، لما فى ذلك من عظيم الفائدة من ناحية الدعوة إلى مصر بين أمم الأرض، ومن ناحية الاستفادة من تبادل البحوث فيما يهم مصر الاطلاع عليه من التقدم فى أساليب الزراعة والصناعة والاقتصاد وغير ذلك. وبفضله دعت مصر إلى عدة مؤتمرات كان لها أحسن الأثر فى الدعاية لمصر الحديثة التى أنشأها هذا الملك العظيم.

وكان جلالته شديد العناية بالأدب والفن، حريصاً على أن يوفر للشباب ذخيرة قومية من الكتب التى تعد مراجع فى الأدب واللغة، حيث أشار ـ أحسن الله ذكراه ـ بطبع أمهات الكتب الدينية والعربية التى تعد من ذخائر التراث الاسلامى.

وأمر فطبع المصحف الكريم طبعا متقنا تحت إشراف لجنة علمية ، ثم وزع على المعاهد والمدارس وكثير من البلاد الإسلامية ، وهو معد لكل من يطلبه من المسلمين فى جميع أقطار الأرض .

هذه لمحة من جهود الراحل العظيم فى النواحى الثقافية والعلمية ، أما جهوده فى النواحى الاجتماعية والعمرانية والسياسية فهى أعظم من أن ألم بها فى مثل هذه العجالة ، ويكفى أن أقول إن له فى كل بقعة من الوادى أثرا من آثار نهضته يحس به كل مصرى . ونظامنا الدستورى الحديث وهيئاتنا النيابية والتمثيلية فى الخارج ، كلها لبنات قوية وضعها طيب الله ثراه ، وبنت عليها مصر الحديثة مجدها وعظمتها . ولقد أتم الله نعمته عليه فشهد بنفسه الغرس الذى تعهده ، وأحس عظمة المجد الذى شاده .

وانتقل إلى الرفيق الأعلى راضياً مرضيا فى مثل هذا اليوم من سنة ١٩٣٦ ودوى صوت القدر فى أرجاء الكون « مات فؤاد العظيم وليحى الملك فاروق » .

رحم الله فؤاداً ، وجعله فى أعلى عليين مع الصديقين والشهداء والصالحين .

والسلام عليكم ورحمة الله ؟

كلمـــــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التى ألقـــــاها

فى احتفال « جمعية المحافظة » على القرآن الكريم

بتوزيع الجوائز على المتفوقين

بحضور مندوب من لدن حضرة صاحب الجلالة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على النبى الأمى الكريم ، الذى أنزل عليه القرآن ، هدى ورحمة ، وذكرى للمؤمنين ، وعلى آله وصحبه ، حفظوا كتاب الله واهتدوا بهدى الله ، ففازوا بالسعادة فى الدارين . .

دعوة الحق

حضرة صاحب العزة مندوب جلالة الملك

حضرات السادة :

إذا كانت جماعات البر والخير جديرة بالتشجيع والتقدير ، فإن واحدة من هذه الجماعات ، لا يمكن أن تقارن بجمعية المحافظة على القرآن ، فى سمو الغاية ، ونبل المسعى ، إذ ليست هناك غاية أسمى من حراسة القرآن ونشره ، لأنه الأساس الذى نحفظ به حياتنا ، ونصون به شرفنا ، ونحمى به فى هذه الحياة الدنيا كرامتنا السياسية والاجتماعية .

القرآن الذى ينفر من الذلة وينفـّر منها ، ويمكن للعزة فى نفوس أبنائه .

القرآن الذى أدرك بعض غلاة الاستعمار أنه سبب نهوض المسلمين فى الماضى ، وأنهم إذا عادوا إلى التمسك به عادوا من جديد إلى التماس المجد ، والتخلص من مظالم المستعمرين واستبدادهم ، فصاح فى قومه قائلا « إنه لا بقاء لنا فى الشرق إلا إذا انتزع هذا الكتاب من أيدى المسلمين » . ولقد صدق ، فإن عزة المؤمنين التى قررها القرآن لا يمكن أن تجتمع مع ذلة المستعبدين .. إن هذا الكتاب نبع فياض بأنبل المثل وأزكاها ، ولو أننا روينا ظمأنا الروحى والمادى منه ، لما شعرنا بهذه الذلة فى اتباع الغرب ، وارتقاب الغيث من سرابه الخادع .

حرية الرأى والعدالة والمساواة فى القرآن

يا حضرات السادة :

إن التجارب التى عانتها الإنسانية من حربين كبيرتين ، تتأهب بعدها لحرب أخرى ، أثبتت أن الأمم لا تنهض إلا على أسس الحرية والعدالة والمساواة فى الحقوق والفرص ، والمساواة فى الشدائد والمحن . والضمان الذى يرد عليها هذه المطالب إن عدا عليها جبار عنيد ، أو افتات عليها شعب مستكبر طاغ ، وللأمم جميعاً أن تسعى إلى هذه الأهداف ، وأن تبذل فى سبيلها أحرّ دمائها ، وأغلى أموالها ، فإن الحياة بدونها لا تساوى فتيلا ، ولو فقه المسلمون القرآن العظيم ، وأبصروا ما رسم للعالم من غايات ، وخط له من مناهج واضحات ، لعلموا أن ما يطمحون إليه فى متناول أيديهم ، ليس عليه غبار من شهوة ، أو ظل من ارتياب .

إن الإسلام مكن للحرية يوم غرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، ويوم علَّم المسلم أن لا يذل إلا لله ، وأن لا يستعين إلا بالله ، وأن لا يتوكل إلا على الله ، وأن لا يشعر بجلال أو كبرياء إلا لصاحب الجلال الكبير المتعال ، ويوم حارب كل تألـّه كاذب للأدعياء ، الذين ظهروا فى تاريخ الإنسانية ، متألهين متجبرين ، وتبعهم الناس جاهلين ، أو مخدوعين : « إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا . لقد أحصاهم وعدهم عدا . وكلهم آتيه يوم القيامة فردا » . ولقد كان

صاحب الرسالة صلى الله عليه وسلم أكبر معلم لحرية الفكر . يوم نادى فى عاصمة الوثنية بتوحيد الله ، ويوم صبر على الأذى فى سبيلها ، وتحمل العنت لإبلاغها ، وإزاحة العوائق من طريقها . وهل كانت هجرته إلا تقريراً لحرية العقيدة ؟ وهل كانت حروبه التى صحبت دعوته إلا دفاعاً عن حق من حقوق الإنسانية العالية ؟ هو حق كل امرىء أن يعتنق ما يطمئن إليه من آراء تتفق مع الفطرة السليمة ، ويعيش فى ظله ، من أجل ذلك شرع القتال ، وقال القرآن الكريم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين كله لله » . والفتنة معناها استخدام القوة فى مصادرة الآراء الصحيحة ، واضطهاد المبادىء السليمة ، وكما أقام الإسلام بناء المجتمع على الحرية الصحيحة ، جعل العدالة أساساً للشريعة ليطمئن إلى برها وسماحتها العدو والصديق ويصل إلى حقه فى ظلها القوى والضعيف ، ولقد شرحت فى موقف سابق من هذا المنبر ، كيف كان عامة الناس يقاضون الخلفاء أنفسهم أمام قضاة المسلمين ، فلا يستنكف الخلفاء أن يحضروا مجالس القضاء ، ولا يترددون فى تنفيذ ما يلزمون به من حقوق .

العدالة فى القرآن ، تتضاءل أمامها روابط النسب مهما قربت ، وفوارق الدين مهما بعدت « كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » « والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من وَلايتهم من شىء حتى يهاجروا وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » فانظر كيف سادت العدالة منطق القرآن وجعلت للعهود حرمة لا تضعفها وحدة الدين ، وقد كان النزاع يقع بين أهل الكتاب وحكام المسلمين ، فيقفون جميعا فى ساحة القضاء فلا تعلو إلا كلمة الحق ، وصوت الحجة ، ولو كان فى ذلك خذلان المسلم الحاكم وانتصار الكتابى الضعيف . . . والقرآن الكريم أول دستور أهدر التفاوت بين

الطبقات ، وجعل اختلاف الألسنة والألوان مجرد آية من آيات الله فى الخلق ، فليس هناك جنس أفضل من جنس ، ولا لون أكرم من لون .

وفى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، صهيب الرومى ، وبلال الحبشى ، وسلمان الفارسى ، وكان الرسول عليه السلام يقول « سلمان منا آل البيت » .

نعم . علم الإسلام أبناءه ، أن أصلهم واحد ، وأن الحقوق والواجبات موزعة بينهم على سواء ، وأن السوقة والعظماء أمام تعاليم الدين ، وموازين الحساب ، وفى ميادين العمل ، لا يفضل أحد منهم أحدا إلا بالتقوى والخلق الكريم ، فأين ذلك مما يحدث فى العالم اليوم تحت إشراف السياسة العالمية ، وبوحيها ، ورضاها من تقسيم خلق الله الى سادة وعبيد ، ومن تحويل المستعمرات الى حقول استغلال ، يمرح فيها البيض ، مفتاتين على جهود الكادحين ؟!

الحقوق التى قررها القرآن للمعوزين فى المال لا نظير لها فى النظم الحديثة

ومن أروع ما حفل به القرآن الكريم ، حفظ التوازن بين الطبقات تأكيدا للتضامن الاجتماعى الذى يشد بناء الأمة شدا محكما ، فلا تتساقط منه لبنة ، أو تحدث فيه ثغرة .

فالغنى فى نظر القرآن وظيفة اجتماعية ، وصاحب المال يحاسب على تصرفه فيه ، وتناط به حقوق يجب أن يؤديها ، ويجب على الدولة أن تسأله عنها ، وقد فرض الله الزكاة وجعلها من أركان الإسلام . « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » وهناك حقوق لا تقل فى خطرها عن الزكاة ، أوجبها الإسلام كما أوجب الزكاة ، وقد قرر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن فى المال حقا سوى الزكاة ، وأوضح القرآن الكريم هذا الحق مبينا حقيقة البر ، وعناصر التقوى ، ودلائل صدق الإيمان فقال « وآتى المال على حبه ذوى القربى ، واليتامى ،

والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب » . وأردف هذا بقوله « وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة » فإسعاف المنكوبين ، وإغاثة الملهوفين حق على من صادفهم فى أزمتهم ، ولو كان قد أدى زكاة ماله ، وهذا من أنواع الماعون ، الذى جعل الله الويل لمانعيه ، واعتبرهم مكذبين بالدين « الذين هم يراؤون ويمنعون الماعون » وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن إكرام الضعيف المنقطع عن أهله وماله ، حق على من نزل بهم ، وهذا الحكم من دعائم المروءة ، وروافد الخلق الفاضل فى المجتمع ، وقد بلغت حساسية الإسلام المرهفة بأوجاع الناس وأحزانهم أن رصد من مال الزكاة ، ما تسد به ديون الغارمين العاجزين ، وذلك ما لا نظير له فى شرائع البشر — وإذا عم البلاد قحط جارف ، لم يبق لصاحب مال حق فى الانفراد به ، بل تضع الدولة يدها على الطعام ليستفيد منه الجميع على السواء . (إن الأشعريين إذا أرملوا فى الغزو أو قل طعام عيالهم بالمدينة جمعوا ما كان عندهم فى ثوب ثم اقتسموه بينهم بالسوية ، فهم منى وأنا منهم) ، حدثونى إذاً بعد هذا الذى سمعتم ، ماهى الاشتراكية الحديثة التى ضمنت للناس ما ضمن الإسلام من سماحة ومرحمة ، وإنكم لتعلمون مما ذكرنا أن الحقوق التى قيدت بها الملكية ليست فى نظر الإسلام نافلة هينة ، ولكنها نظام مفروض ، يقاتل دونه الإسلام ، وعصمة الدماء والأموال ، مقرونة بأداء هذه الحقوق ، كما قرره عليه الصلاة والسلام . ؟ !

هذا أيها السادة هو القرآن الذى أخذت هذه الجمعية نفسها بتحفيظه للناشئة ، بعد أن حورب فى بلاده بكافة الوسائل وشتى الدسائس والحيل التى أحكمها الماكرون فماذا يمكن أن نبلغ من القول فى فضل هذه الجمعية ؟ إنا ندع شكرها لله الذى يجزى المحسنين .

وفقنا الله وإياكم للاهتداء بهدى القرآن ، والتأدب بآدابه فى ظل صاحب الجلالة الملك العظيم ، ملك وادى النيل ، فاروق الأول حفظه الله ؟

كلمـــــة

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

الشيخ محمد عبد اللطيف دراز

مدير الأزهر

التى ألقـــــــاها

فى الاحتفال بذكرى المجاهد العربى

السيد عبد القادر الحسينى « بدار جمعية الشبان المسلمين »

أيها السادة :

إن احتفالنا اليوم بتلك الذكرى المجيدة ، ذكرى أحد أبطال الجهاد المغفور له السيد عبد القادر الحسينى ، يبرز لنا أعظم ناحية من نواحى الجهاد لأشرف غاية من غاياته ، فى هذا المثل الحى الخالد ، رمز التضحية (عبد القادر) الذى جاهد فبذل أعز ما يملكه المجاهد ، وهو نفسه ودمه ، وجاهد فى أنبل هدف يهدف اليه الأبطال ، وهو حماية الدين ، والعقيدة ، والوطن ، فاستشهد عبد القادر بعد أن ضرب أروع الأمثال ، ولا غرو ، فإنه نبت طيب نما فى أرض خصبة طيبة فلا بد أن يكون لذكراه هذا الخلود .

إن جميع من عرفت من أسرة الحسينى ، كان له شرف اضطهاد الظالمين المعتدين بلون من ألوان الاضطهاد . وكبير هـذه الأسرة مثل مضروب فى قوة الإيمـان ، والثبات على العقيدة ، وتحمل جميع المكاره ، فى حكمة ، وعمل ، وثبات نفس ، وقوة جنان ، ونشـاط منقطع النظير ، واحتقار لأكاذيب الأعداء ، أو المأجورين ، أو بعض البسطاء المخدوعين .

لم يكن غريباً عندى إذاً أن يقوم عظيم من عظماء هذه الأسرة بذلك الجهاد المبرور ، الجهاد الحاسم ، القاهر ، فإما أن يحسم بقهر الأعداء ، أو يحسم بالاستشهاد .

فالجهاد فى نظر المؤمن طريق معبد إلى نصر محقق ، ان لم يكن فى دار الفناء ، ففى دار الخلد والبقاء . (قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون) .

ليست ذكريات الجهاد والاستشهاد كلاما يردد ، أو خطبا تعاد ، فذلك من مواطن الضعف بين العرب والمسلمين فى عهودهم الأخيرة ، حينما ألهبوا الأكف بالتصفيق ، وأتعبوا الحناجر بالهتاف ، وراحوا يعددون مناقب السلف وتخاذل الخلف ، وكيف فاز الأولون بالغلب ، وقنع الآخرون بالبكاء .

لا . أيها السادة . ذكريات الشهداء اقتناع بالحق وشعور بوجوب التضحية فى سبيله ، وتدافع إلى استعادته بالعمل لا بالقول ... ذكريات الشهداء قوة فى النضال ، وعزمة فى الجلاد ، وتسابق واعداد ، حتى يعلم الناس أن العرب والمسلمين أفاقوا من سباتهم ، وصمموا تصميما لا ينحل على استرداد مجدهم .

أعداؤنا أيها السادة هم أعداؤنا الأولون ، هم الصليبيون . هم الذين شنوا الغارة على المسلمين فى مدى مائتى عام ، فعمدوا إلى إذلال العباد ، وإفساد البلاد ، وهم ليسوا فى ثوبهم الجديد من الحضارة المكذوبة ، والمدنية المدعاة والزعم المردود بأن الحروب الآن سياسية لنصرة المظلوم ، والأخذ بيد الضعفاء ، وتوزيع العدالة فى الأرض . ليسوا فى هذه الحروب بالنسبة للمسلمين الأصليين يفرقون كلمتهم ويناهضون حقوقهم ، ويطمسون معالم حضارتهم وثقافاتهم . . فإذا كان هؤلاء الأعداء لا يزالون صليبيين فليكن المسلمون جميعاً أيوبيين ، وليكن كل ملك من ملوكهم وكل أمير من أمرائهم وكل زعيم من زعمائهم ، ليكن كل واحد من هؤلاء صلاح الدين الأيوبى فى قوة إيمانه وشكيمته ، ورباطة جأشه ، وسلامة رأيه ، وبعد نظره ، وليكن جهادنا فى أنفسنا بالرجوع إلى الدين ، واستجلاء نظمه ، والحفاظ على تعاليمه السامية ، التى ترسم للعالم كله طريق المجد والعظمة والإباء .

ثم يأتى بعد ذلك جهادنا فى أعدائنا الذين لا يتمطعون عن الكيد لنا ، وتمزيق صفوفنا ، وتفريق وحدتنا .

هذا سجل التاريخ ، شهادة ناطقة بما كان فى عهد الأيوبيين فى نفس الميدان الذى قضى فيه عبد القادر الحسينى ، من مقاومة صادقة ، وجهاد رائع ، ابتداء من عهد مؤسسها صلاح الدين ، إلى عهد توران شاه .

كللت حياة هذين البطلين بالانتصار الباهر فى معارك معروفة ، وكان بينهما ملوك لم يقصروا عنهما فى رد غارات الأعداء ، فكأن هذه الدولة وجدت لتكون عقبة فى سبيل تغلب أوروبا على المسلمين ، أو لتأخير ذلك أكثر من ستمائة سنة .

ولولا وقوف هذه الدولة فى وجه أوروبا المتعصبة لا نقرض الإسلام من الشام ، والجزيرة ، ومصر ، وشمال أفريقيا ، كما انقرض من الأندلس . والفضل فى ذلك للواقعتين الحاسمتين واقعة (حطين) وبطلها صلاح الدين ، وواقعة (المنصورة) وبطلها توران شاه .

ونحن الآن بصدد انتظار معركة جديدة يقودها بطل من طراز هذين الرجلين العظيمين لطرد الأوربيين من بلاد الإسلام ، وطرد أذنابهم من فلسطين ، قلب العالم الإسلامى .

وإنى الآن أيها السادة أسجل فى طمأنينة وثقة ، وقوة أمل ، أن المرحلة التالية ستنتهى إن شاء الله بانتصار العرب والمسلمين متى قيض الله هذا البطل الذى يقود المؤمنين إلى النصر الموعود ، والظفر المرجو ، ذلك وعد الله (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) .

كما إنى واثق من أن مصر ستظل كعادتها فى مقدمة الصفوف ، لدفع الأعداء وحمل اللواء ، وفق الله مصر والعرب ، وحفظ الله الملك .

ليس من هنا نبدأ

الملكيات الزراعية الكبرى

لحضرة صاحب العزة مدير المجلة

قال حضرة مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) تحت رقم ٢ من باب (هذه عوائقنا) بعنوان (الملكيات الزراعية الكبرى) :

« وثانى العوائق التى تحول بين المجتمع ونموه وسعادته ـ هذه الملكيات الزراعية الواسعة . . وإذا كانت مصر بلداً زراعياً ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكا لمائة أسرة أو مائتين ؛ فماذا يبقى للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟ »

« هذه ظاهرة محرجة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد فى مواجهتها مثل ما ننفقه فى مكافحة الضائقين بها ، لأفدنا كثيرا » .

ثم أتى حضرة المؤلف بإحصاء يبين أن فى مصر (١٦٨٩٤٠٨٣) من المواطنين لا يملكون شيئاً من أرض بلادهم ، أى إن الذين يملكون أجزاء منها لا يزيدون عن أربعة ملايين إلا قليلا .

وعقب حضرة المؤلف على هذا الإحصاء بقوله :

« ترى : هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها على هذه المحنة الطاغية ؟ ! فإنك لتجد الحياة كلها ضرباً متماثلا من الشذوذ والفوضى . . . ومثل ذلك فى سوريا ولبنان واليمن . . . وفى الحجاز حيث تنقطع أنفاس الحجازيين عدواً ووثباً وراء الحجاج وهم يصيحون : هلله يا حج . . هلله يا حاج . . !! بينما حفنة من المترفين تحصى على الأصابع . . . تسبح فى بحيرات من اللذة والشراب . . . والذهب المذاب .

« يا حسرة على العرب . . . وعلى الشعوب التى أوهنها الحرمان الأليم ! »

نقول : هذه اللهجة المقذعة التى يستخدمها المؤلف فى إيراد الموضوع الذى هو بصدده ، يوهم بأن عوامل من الاستبداد فى تصريف الشئون الاقتصادية تعمل على

إيجاده واستمرار وجوده ، وكان الأولى معالجة الموضوع الخطير معالجة علمية لتعلم الشعوب الممنوّة بهذا الضرب من الحرمان كنه العوامل العاملة على وجوده وعلى استمراره ، وتتأدى من ذلك إلى طرق الخلاص من آثاره .

والحقيقة العلمية هي أن الشعوب كلها على عهد الحكومات المطلقة السابقة على العهد الدستورى ، كانت على هذه الشاكلة ، فلم يكن لأحد من الفرنسيين أو الإيطاليين أو الألمانيين وغيرهم شبر من الأرض لأحد منهم حق التصرف فيها استغلالا أو بيعاً وشراء ، بل كان الحق كله على الأراضى ومن عليها للملوك وبطاناتهم وكان الشرق كله على تلك الشاكلة .

فلما تولى مصر محمد على الكبير مؤسس الأسرة المصرية المالكة عمل على تنشيط الفلاحين على الزراعة واستصلاح الأرضين ، فكان يفرض عليهم استغلال قطع من الأراضى فرضاً ، وكانوا هم لقصور هممهم ، وتقصير ذات يدهم يعجزون عن زراعتها ، ويلجأون إلى الهجرة إلى البلاد المجاورة . فكانوا يهربون إلى سورية ويقيمون فيها طول حياتهم هرباً من هذه التكاليف .

فى هذا العهد ، عمد كثير من كبار رجال الدولة إلى احتياز ألوف من الفدادين واستصلاحها والانفاق عليها ، واستخدام الفلاحين فيها بأقل الأجور ، واستطاعوا بذلك أن يعدوا مساحات واسعة للزراعة الأصولية ، واعتبار ما يحتازونه على هذا الوجه ملكا لهم . فلما هل عهد تحديد الملكيات الزراعية أقرت الحكومة ملكيتهم لتلك الأراضى ، وبقى معظم الفلاحين أجراء عندهم ، ليس لهم مما تعبوا فى استصلاحه غير حظ ضئيل .

على هذا الوجه أصبحت معظم الأراضى الزراعية لكبار رجال الدولة ، ثم لمن دونهم من الموظفين .

وقد فطنت الحكومات السابقة إلى أن حرمان الفلاحين من ملكية الأراضى يجر إلى مشكلات اقتصادية خطيرة ، فعملت على تسهيل حصولهم على ما يستطيعون الحصول عليه منها ببيع الأطيان البائرة إليهم بأثمان زهيدة ، وباعفاء بعض تلك الأطيان المملوكة من الضرائب . فأصبح لهم بهذه الوسائل بعض الأراضى ، وهى لا تزال تعمل على شاكلتها فى هذه الوجهة . وستضطر إلى تقوية هذه الوسائل حتى تبلغ حدها المعقول .

على هـــذه الشاكلة جرت الأمم الأوربية فى تمليك الفلاحين الأراضى التى يعيشون عليها ، وقد كان نشاطها أشد من نشاطنا فى هذه السبيل ، ولا نظن أنه يمر فرن حتى تصبح حصة الفلاحين من ملكية أراضيهم أكبر الحصص ، فتتزن الشئون الاقتصادية من هذه الناحية ، وتبلغ الحاجة الاجتماعية حدها الطبيعى ، ولا نظن أن ذلك يكون إلا بعد تحديد ملكية الأراضى .

أما فى أوروبا فقد بلغت أممها أقصى مرحلة من مراحل توزيع الأراضى على الفلاحين ، وحددت فيها الملكيات تحديداً دقيقاً ، فأصبح للذين يشتغلون بالزراعة حق ممتاز فى هذا المجال الحيوى .

ونريد أن نقول إن إحكام وضع قواعد ثابتة لتوزيع الأراضى على المشتغلين بزراعتها أمر بعيد التحقق ، ولكن السير إلى تحقيقه على مر الأيام أمر منتظر بعد أمد ليس بطويل .

فكان المنتظر من الأستاذ مؤلف (من هنا نبدأ) أن يلطف من شدته فى معالجة هذه المسألة الاقتصادية وهى تسير سيرها الطبيعى ، وأن لا يجعلها موضوع انقلاب تتقدمه النذر والصيحات ، وتلام عليه الجماعات والحكومات ، فهى ككل الأوضاع الاجتماعية لا تتولد إلا بتولد عواملها ومقتضياتها ، والدليل على ذلك أن أية حكومة لو أرادت إحداث مثل هذا التطور قبل استكمال مقتضياته ، وتوافر دواعيه ، لما استطاعت إلى ذلك سبيلا ، لعدم استعداد الشئون الاقتصادية لمواتاته ولا الأيدى العاملة للقيام بحقه . والأستاذ المؤلف يعرف هـذا جيداً ، ولكنه يرمى من وراء الدعوة إليه إلى الدعوة للاشتراكية المتطرفة فى وسط شعوب لم يتمذهبوا بعد بالاشتراكية المعتدلة . فهى دعوة تذهب مع الريح ككل دعوة ليس لها بواعث من الهيئة الاجتماعية ، ولا من حزب قوى الجاه متغلغل فى عدد وفير من المجتمع ، يرى أن لا حياة له إلا بإحداث ذلك الانقلاب الاقتصادى ، اعتقاداً راسخاً منه أنه أمثل المناهج لتحقيق اجتماع أفضل مما نحن عليه .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى إن الاشتراكية المتطرفة التى يدعو إليها الأستاذ لما يمض عليها مدى من الزمان أثبتت فيه أنها أولى من جميع النظم الاقتصادية لحياة الشعوب حياة طيبة . فهى لا تزال وليدة جماعات مفكرة فى بيئات

لم تستكمل وجودها الاقتصادى ، دفعتها إليه عوامل سياسية واجتماعية ليس لسائر الشعوب مثلها ، ولا احتوشتها من عوامل الانقلاب مثل التى احتوشتها . ومثل هذه الجماعات لا تندفع إلى تلك الانقلابات ، ولو أعطيت الاختيار لقبولها . ودليلنا على ذلك ، الشعوب الأوروبية ، فإنها بما أوتيته من الحرية تستطيع بمحض إرادتها أن تستقيم على السبيل الاقتصادى الأصلح لوجودها ، ولكن أكثريتها تحجم عنه ولا تريده ، وتمضى قدما فيما هى فيه ، ليس لها من أهداف سوى استيفاء حقوقها بالوصول إليه من الطريق الدستورى المقرر ، لا من طريق الثورة على النظام الاقتصادى القائم .

وبعد ، فلا يجوز أن يفوتنا أن المبالغة فى طلب التسوية فى مجال الحياة الاقتصادية لا يجوز أن توجد ، فليس ذلك فى قدرة أى مصلح . ولا يمكن أن يؤدى إليه أى نظام فى العالم . فإن الناس يتفاوتون فى المقدرة العلمية والخلقية ، وإذا أمكن أن يحصل رجل بجده واجتهاده على مقدار من الثروة فى مدة محدودة ، لا يمكن لغيره أن يصل إلى مثلها لوجود الموانع دون ذلك من ناحية قدرته العلمية والعملية ، وأخلاقه وقوة احتماله ، وسائر الصفات المؤهلة للإنتاج والاقتصاد ، ولو أوتى الأفراد بحصصهم من الثروة العامة كاملة ، فلا يستطيع الكثيرون منهم أن يحافظوا عليها ، فالتفاوت بين الناس أمر طبيعى لا بد منه ما دامت النفوس متفاوتة ، وما دامت الشهوات تدفع بأصحابها إلى تجاوز الحدود فى المتاع ، وإلى الانتهاء إلى الحرمان المطلق ، وبناء على هذه الأصول المقررة لا يمكن أن تصدق أحلام الاشتراكية الكاملة إلا إذا ساد المجتمع نظام استبدادى يجبر الأفراد على توحيد مطالبهم ، والاكتفاء بما لا يضر الحصول عليه بقية أفراد المجتمع . وهذا الاجبار يتنافى وأقدس عنصر يجب ترك المجال الاجتماعى مفتوحا أمامه ، ألا وهو الحرية .

نعم يمكن بتقييد حرية الناس تأليف مجتمع تتساوى فيه الأنصبة من مقدمات الحياة ، فيعيش الناس سواسية لا يزيد بعضهم على الآخرين ولا يقلون عنهم ، ولكن مثل هذا يصبح جحيما لكثير من النفوس يثورون عليها ، ويفضلون الموت على العيش فيها ؟

محمد فريد وجدى

التفسير

من

سور التسبيح فى القرآن الكريم

لحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدنى

— ١ —

أقصد بسور التسبيح تلك السور التى نزلت مبدوءة بلفظ «سبَّح» أو «يسبِّح» أو «سبح» أو «سبحان» وهى سور سبع، منها اثنتان مكيتان هما الإسراء والأعلى، وخمس مدنيات هن الحديد والحشر والصف والجمعة والتغابن.

وسننظر أولا فى هذه الخمس المدنيات.

* * *

تبدأ هذه السور كلها بتقرير الحقيقة الواقعة فى شأن الإله جل جلاله وماخلق، فتبين أن جميع الكائنات من سماوية وأرضية هى دلائل ناطقات، وآيات بينات، تدل على عظمة خالقها ومكوِّنها، وتنزهه عن كل صفة من صفات السوء والنقص، وقد عبر عن هذا تارة بلفظ الماضى: «سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض» وتارة بلفظ المضارع: «يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض» إشعاراً بأن هذه الحقيقة ثابتة من لدن وجدت الكائنات، باقية ما بقيت.

وتشترك هذه السور – بعد اتفاقها فى هذا الافتتاح – فى معنى واحد يبدو أنه غايتها ومقصدها وهدفها الذى ترمى إليه، كما تشترك كلها – بوجه إجمالى – فى الوسيلة التى تتوسل بها إلى هذه الغاية.

فأما المعنى الذى تشترك فى تقريره وإبرازه فهو غرس خلق التضحية فى قلوب المؤمنين، وحثهم فى قوة وصرامة على أن يبذلوا أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله.

وأما الوسيلة التى اتخذتها لذلك فهى بيان أن كل شىء فى هذا الوجود إنما هو لله تعالى ملكا وتصريفا وتدبيرا ، فليس يسوغ للمملوكين أن يتمردوا على أمر مالكهم ومدبر شئونهم والمتصرف فيهم ، ولا أن يبخلوا بشىء مما أفاضه عليهم سواء أكان هذا الشىء نفسا أم مالا أم متاعا .

على أن الأسلوب فى بيان هذه الوسيلة قد اختلف ، فكان لكل سورة طابعها الخاص ، وروحها المتميز .

ونرجو أن نتمكن من إبراز ذلك عند ما نعرض للكلام عليه بالتفصيل إن شاء الله تعالى .

* * *

١ — سورة الحديد :

بدأت أول سورة من سور التسبيح المدنيات ، وهى سورة الحديد بقوله تعالى « سبح لله مافى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » ثم أوردت بعد ذلك أوصافا لله جل جلاله ترجع إلى ذاته وأفعاله وتصريفه ، فبينت أن ملك السموات والأرض إنما هو الله ، وأنه تعالى يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، وأنه هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شىء عليم ، ثم ذكرت خلقه السموات والأرض فى ستة أيام واستواءه تعالى على العرش وإحاطة علمه بكل شىء ، ورجوع كل شىء إليه ، فتم لها بذلك التمهيدَ للمقصد ، وإعداد النفوس للمطلوب ، ومن ذا الذى يسمع هذا الوصف الذى يصف به الإله المالك الخالق القادر المتصرف نفسه ثم لا يكون متهيئاً بروحه وقلبه لتلقى أمر مولاه ومالك ناصيته ؟

هكذا تخلصت السورة إلى القلوب بهذا الوصف القوى الرهيب ، وهذا الحديث الجامع عن عظمة الله ، ثم جاءت بعد ذلك بالأمر المراد فقالت « آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » فجمعت بين طلب الإيمان بالله ورسوله ـ الذى هو الفريضة الأولى على الإنسان ـ وطلب الإنفاق ، وعبرت عن المال الذى أمرت بالبذل منه بعبارة تتفق وما مهدت به من أن كل ما فى الوجود مملوك لله تعالى حيث قالت « مما جعلكم مستخلفين فيه » لتفيدهم أن مركزهم بالنسبة

للمال هو مركز الخليفة عن الله ، كما أنهم خلفاء عنه فى الأرض ذاتها « إنى جاعل فى الأرض خليفة » .

ويفهم من التعبير بلفظ « الاستخلاف » أن الإنسان قد خُوّل المال ، وفوض له أن يتصرف فيه تصرف المالك الذى يفعل فى ملكه ما يشاء ، ولكن فى دائرة ما استخلف فيه ، وهو قد استخلف على أن يكون ما جعله الله فى يده قسما له وقسما فى سبيل الله وفى سد حاجة المحتاجين ، فليس له أن يحتجز ما لغيره فيبخل به عن مواضعه ، وإلا كان خارجا على دستور خلافته ، منحرفا عن شروط توليته وتخويله .

وفى التعبير بلفظ « الاستخلاف » أيضاً إشارة إلى معنى آخر ، وهو أن المال قد وصل إلى الحاضرين بعد أن كان فى أيدى السابقين ، وأنه سيصل إلى الآتين بعد أن يخرج من أيدى الحاضرين ، فإن الخلافة معناها أن يتتابع على الأمر خلفٌ بعد خلف ، فإذا نظرنا إلى المال هذه النظرة علمنا أنه غير باق لنا كما لم يبق لمن قبلنا ، وحرصنا على أن نستوفى منه حظنا قبل أن يصير لغيرنا .

ثم ذكرت السورة بعد هذا الأمر الجازم بالإيمان والإنفاق أن جزاء الذين استجابوا لربهم فآمنوا وأنفقوا جزاء كريم ، وأجرهم أجر كبير ، ثم ناقشت معنى التباطؤ عن الإيمان ، والتباطؤ عن الإنفاق مناقشة منطقية ، فاستنكرت الأول بقولها : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسولُ يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين ، هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرءوف رحيم » .

فهى تقول لهم : إن الرسول قائم بينكم يدعوكم دائباً إلى الإيمان بالله ، وقد أخذت عليكم المواثيق من قبل : لتؤمنن بالله ربكم ، مواثيق الفطرة والعقل والدلائل يوم « ألست بربكم » ، ووضح لكم أن الله هو الذى أرسل هذا الرسول وأنزل عليه الآيات البينات ، ليخرجكم من ظلمات الكفر والجهالة إلى نور الإيمان والمعرفة رأفة بكم ، ورحمة لكم ، فما الذى يحول بينكم وبين الإيمان ؟

واستنكرت الثانى بقولها : «وما لكم ألا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض » أى أن كل شىء فى هذه الدنيا صائر إلى الله ، ولا مناص من خروج

الإنسان عما يملك ، إما بالموت وإما بالإنفاق ، فإذا خرج عنه بالموت مع حرصه على اكتنازه وبخله به وعصيان الله فيه ، فقد خرج عنه بطريقة مذمومة يلحقه فيها العيب ، ويدركه اللوم والعقاب ، وإذا خرج عنه بطريق البذل والإنفاق والنزول على أمر الله فيه ، ومعرفة حتمه ، كان فى هذا الخروج كريماً نبيلا ، ولاشك أن العاقل يختار الثانية على الأولى .

وهكذا عالجت السورة أمر التباطؤ عن الإيمان والإنفاق بإثبات الدواعى ونفى الموانع كما يقول أهل البحث والمناظرة .

ثم وازنت السورة بين فريقين من الباذلين المضحين ، فريق الذين بذلوا أموالهم وأنفسهم ، فأنفقوا وقاتلوا قبل الفتح ، وقبل أن تبدو مظاهر النصر للدين ، وفريق الذين أنفقوا وقاتلوا بعد الفتح حين ظهر الإسلام ، وقويت شوكته ، وقد أثبت الله الحسنى لكل من الفريقين ولكنه جعل للأولين درجة على الآخرين .

وفى هذا عدل وإنصاف حيث لم يحرم أحداً جزاء فعله ، ولم يسوّ بين من كان إحسانه مستوفياً عناصر الثقة بالله دون تلبث ولا تردد ، ومن كان إحسانه بعد لأى وإن كان من الصادقين .

ثم جاءت السورة الكريمة بعد هذا بصورة رائعة من صور الحث على فعل الخير : صورة مقترض يناشد من يقرضه قرضاً حسناً ، ويعده على هذا القرض وعداً صادقاً أن يضاعفه له ، وأن يزيده فوق هذه المضاعفة أجراً كريماً فى يوم يكون للمؤمنين فيه شأن ، وللمنافقين شأن ، والمقترض الداعى فى هذه الصورة هو الله جل جلاله ، والمدعوون إلى هذا القرض هم المؤمنون والمؤمنات الذين وثقوا بربهم ، ولم يفتنوا ولم يتربصوا ولم يرتابوا ولم تغرهم الأمانى « من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له وله أجر كريم . يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم ، يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم قالوا بلى ولكنكم

فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى حتى جاء أمر الله وغركم بالله الغرور ، فاليوم لا يقبل منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم وبئس المصير » .

ثم تمضى السورة بعد هذه الدعوة القوية إلى البذل والإنفاق ، فتلمس منهم القلوب وعواطف الإيمان والرحمة ، وتحذرهم أن يكونوا كأهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم ، كما تحذرهم أن يقنطوا وييأسوا من أنفسهم فإن الله يحيي الأرض بعد موتها ، وتعود مسرعة مرة أخرى إلى حديث الإنفاق والصدقات فتقول : « إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » وتمضى فى هذا الحديث مبينة شأن المؤمنين بالله ورسوله ، وأجرهم عند ربهم ، وشأن الكافرين المكذبين وجزاءهم فى نار الجحيم ، وتضرب مثلا للحياة الدنيا فى لعبها ولهوها وزينتها وتكاثر الناس فيها وتفاخرهم بالأموال والأولاد « كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »

ثم تدعو المؤمنين إلى مسابقة جائزتها المغفرة من ربهم والجنة العريضة التى أعدها الله لمن آمن به ورسله ، « سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

ثم تنفى عن المؤمنين عاملا من عوامل الضعف النفسى حين يشغلون أنفسهم بالندم على ما فاتهم ، والفرح بما أوتوا ، وتعلمهم أن كل شيء يصيبهم إنما هو فى كتاب قد قدره الله وسبق به علمه فلا مناص منه ، ولا مفر من حصوله ، وإذن فليس الحرص على المال بنافع إذا أراد الله بالمرء فقرا ، وليس البذل بمانع من الغنى إذا أراد الله بالعبد غنى ، وإن الله ليكره هؤلاء المختالين الفخورين ، الذين يظنون أنهم قد اطلعوا بحصافتهم أو علمهم أو فراستهم على الغيب ، فيبخلون خوفا من الفقر : ويأمرون الناس بالبخل تخويفاً لهم منه ، ويتولون عن دعوة الله كأن لم يسمعوها ، والله هو الغنى الحميد .

ثم تتحدث عن شأن الله فى إرسال الرسل بالبينات ، وإنزاله الكتب للهداية والتعليم ، وربطه الكون على سنن ثابته وموازين متناسبة ليقوم الناس بالقسط ، وإنزاله الحديد ليكون زجرا لمن لا تنفع فيه الموعظة ، ولا تجدى معه أساليب الدعوة ، وتذكر رسالة نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من ذريتهما ، وتذكر عيسى ابن مريم ومتبعيه ، ثم تتجه فى ختامها إلى المؤمنين بهذا النداء القوى فتقول :

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم والله غفور رحيم لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شىء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

والكفلان اللذان وعدت بهما هذه الآية من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم هما الجزاءان اللذان ادخرهما الله للذين جمعوا بين الإيمان بالرسل السابقين والإيمان بخاتمهم عليه الصلاة والسلام ، وقد جاء ذلك أيضاً فى قوله تعالى من سورة القصص « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا » .

* * *

من هذا العرض السريع لسورة الحديد يتبين ما قلناه من أن المقصود الأول أو الأوحد لها ، هو غرس خلق البذل والتضحية فى نفوس المؤمنين ، وحثهم على محاربة الشح والضن بالمال ، وأنها التمست لهذا الغرض وسيلة معينة هى إفهام الناس أن الله جل جلاله هو مالك الملك ، وهو صاحب الخلق ، وكل شىء فى هذه الحياة فهو منه وإليه ، وكل ما وقع أو سيقع فبإذنه وعلمه ، فليس لأحد أن ينكص عن أمره ، أو يتباطأ فى تلبية دعوته .

وسنعرض فى مقالاتنا المقبلة — إن شاء الله — لما جاءت به سور التسبيح الأخرى ، ثم نعود إلى التفسير التفصيلى لهذه السور الكريمة ، والله المستعان .

التفسير

بقية التفسير الوارد فى العدد الماضى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المنعم النمر

قال الله تعالى : « واستغفر الله إن الله كان غفوراً رحيما ٭ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم إن الله لا يحب من كان خوانا أثيما ٭ »

سورة النساء

« واستغفر الله » الغفر : الستر والتغطية وغفر : غطى وستر . واستغفره لذنبه ومن ذنبه واستغفره إياه طلب منه غفره وستره بمعنى عدم ترتب العقوبة عليه .

ولم يذكر المستغفر منه هنا وتركه عاما كما تركه فى قوله . فسبح بحمد ربك واستغفره » وذكره فى آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين . . » . وهذا الأمر من الله لنبيه يستدعى البحث عن الذى يستغفر منه الرسول هنا وفى الآيات الأخرى ...

أما هنا فمفهوم من المقام ، إذ أن الرسول صلى الله عليه وسلم مال بطبعه وحسب الأدلة التى تجمعت لديه إلى مناصرة المسلمين السارقين دون علم بحالهم طبعا وهم أن يقضى على اليهودى البرىء ، لولا أن الله نبهه إلى الحق الذى خفى عليه . فيكون الاستغفار بسبب هذا الهم وهذا الميل المعذور فيه . وهذا وإن كان لاشىء فيه بالنسبة لعامة الناس إلا أن مقام الرسول وعلو مرتبته وشدة قربه من الله ومراقبته يجعل ذلك مما يدعو إلى المبادرة بالتطهر منه . ولكل إنسان مقام وتصرف يتناسب مع مقامه فما يعد مقبولا من الجاهل أو الخادم قد يلام بسببه العالم أو السيد « وحسنات الأبرار سيئات المقربين » كما قال الجنيد . وهذا هو الذى يمكن فهمه سبباً للاستغفار هنا يعيننا عليه سبب نزول هذه الآيات ، وأيضا هذه النواهى التى يشتم منها اتجاه الرسول إلى ما نهى عنه . فمجموع هذا يجعلنا نفهم أن المستغفر منه هنا إنما هو الميل والهم بالحكم فقط إذ لم يتعد الأمر غير هذا ولم تقع من الرسول فى هذا المقام مخالفة عملية ،

وكذلك يمكن أن نفهم قوله : « فسبح بحمد ربك واستغفره » ، فسبب الاستغفار هنا كما يفهم من كلام الإمام الشيخ محمد عبده راجع إلى ما كان يساور الرسول من القلق والحزن لتأخر النصر والفتح . وهذه هواجس للنفس لا سبيل إلى التغلب عليها لا سيما فى الشدائد ، فأمر الرسول بالاستغفار مما لا قدرة له على دفعه تطهيراً لمقام النبوة لأن ذلك هو المناسب لها .

أما آية محمد « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » فقدصرح فيها بالمستغفر منه وهو الذنب . وهذا يستدعى منا أن نبحث هل وقع من الرسول ذنوب حتى يؤمر بالاستغفار منها وحتى يقول الله فى آية الفتح له : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

هذه النقطة كانت مثار جدل قديم بين العلماء تفرعت عنه تأويلات شتى لهاتين الآتيين وما ماثلهما فى القرآن مثل : « فعصى آدم ربه فغوى » وقوله على لسان سيدنا إبراهيم » ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » وقوله تعالى عن سيدنا داود « فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب . . فغفرنا له ذلك » . .

ولا أحب أن أثقل عليك كثيرا برد هذه الخلافات ، ولهذا سأذكر هنا الرأى الذى أميل إليه مطمئنا إلى دلائله وإلى من قال به من الأئمة الأعلام .

لا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يقصدون فى أعمالهم إلى مخالفة الله فى سرهم أو جهرهم ، وهم لا يسيرون فى كل أمورهم بوحى بل يتركون فى كثير منها لفهمهم واجتهادهم فى الوصول إلى الخير وتطبيق ما عرفوه عن الله على الحوادث الجارية أمامهم متوخين رضا الله سبحانه ، ولكنهم قد لا يوافقون فى اجتهادهم وفهمهم مراد الله ، وهنا تحوطهم العناية الإلهية ويردهم الله إلى ما يريد من الصواب . وهذا هو الفرق بين الرسل وبين المجتهدين من العلماء .

قد يكون الرد إلى الصواب بعد تنفيذ الرأى وربما يصحبه عتاب كلامى كما حصل مع نبينا فى قصة الأسارى (١) والمستأذنين (٢) وفى قصة زينب (٣) وابن

---

(١) ما كان لنبى أن يكون له أسرى . الآيات ٦٧ وما بعدها سورة الأنفال .

(٢) « عفا الله عنك لم أذنت لهم .. » آية ٤٣ من التوبة .

(٣) وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه . . » آية ٣٧ من الأحزاب .

أم مكتوم [١] وقد يكون قبل التنفيذ كما معنا فى هذه الآية إذ أن الرسول لم يحكم بالفعل بل هم ومال فنبهه الله بالوحى إلى خلاف همه وميله وأمره بالاستغفار من أجله .

هذا الذى يحصل من الرسل من عدم موافقة فهمهم واجتهادهم لمراد الله مع إخلاصهم بالطبع فى قصدهم للخير هو ما يمكن أن يقال عنه إنه ذنوب كما عبر القرآن . وهى قطعا ليست ذنوباً من جنس ذنوبنا بل إنها تشبه خطأنا ـ الذى نثاب عليه ـ فى الاجتهاد . على أن بعض العلماء يسميها أخطاء وبعضهم يسميها خلاف الأولى .

والذى يسميها ذنوباً أو أخطاء يجد سنده فى تسمية القرآن لها بهذه التسمية . والذى يطلق عليها خلاف الأولى يقول إن الله الذى أرسل الرسل هو الذى له أن يصف بعض أعمالهم بأنها خطأ وأنها ذنب . أما نحن الأتباع ـ وكلنا أقل مرتبة من الرسل ـ فلا يليق بنا أن نقول عن هذه الأعمال إلا أنها خلاف الأولى تأدبا مع مقامهم عليهم الصلاة والسلام .

والرسل فى هذه الحالات التى خالفوا فيها مراد الله معذورون . . ولكنهم ليسوا كالناس بل هم من المصطفين الأخيار لا يتناسب مع مقامهم إلا أن يتطهروا بالندم على عدم التوفيق فى فهم مراد الله ـ وان كانوا معذورين ـ ولذلك وجههم ربهم ـ الذى أدبهم ورباهم إلى التطهر وطلب العفو والمغفرة فكانت أوامر الاستغفار الصادرة من الله إلى الرسل والتى معنا منها هذه الآية وكانت رغبة الرسل فى التطهر شديدة كذلك ، وكان إحساسهم بسمو مقامهم وشدة قربهم من الله يدفعهم إلى الاكثار من الاستغفار والدعاء والعبادة . . يدعون الله لهم أولا لأنهم فى حاجة إلى عفوه ورضاه ، ويدعون لأمتهم ، ويعلمونها كيف تستغفر وتدعو . .

وإذا وافقتنى على هذا الرأى الذى اخترته كنت معى فى أن هؤلاء الذين قالوا فى « واستغفر الله » أى لبعض أمتك الذين تواطئوا مع السارق وشهدوا معه ،

(١) « عبس وتولى أن جاءه الأعمى . . الآيات » من سورة عبس .

وقالوا فى « واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات » المراد ذنب أمته . كما قالوا فى « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » أى من ذنب أمتك . كنت معى فى أن هذا التأويل غلو لا معنى له ولا داعى اليه لا سيما وفهم الرسول والصحابة لآية « ليغفر لك الله . . . » وما دار بينهم وبين الرسول حولها حين نزلت كان على أساس أن المغفرة للرسول لا لهم ؛ فقد قالوا له حينما نزلت وقد عبد الله حتى تورمت قدماه : « لم هذا وقد غفر لك ؟ . فقال : «أفلا أكون عبداً شكوراً» وقالوا له هنيئاً مريئاً يانبى الله . . بين الله ما يفعل بك ، فما يفعل بنا ؟ - وكان ذلك عقب نزول « ليغفر لك الله . . » فنزلت « ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار الآية » .

« إن الله كان غفوراً رحيما » كان تقتضى ثبوت الخبر للمخبر عنه فى زمن مضى وانقطع . وهذا المعنى لا يستقيم فى هذه الآية ولا فيما يشبهها ؛ إذ أن الله قديم وباق بذاته وصفاته فلا بد أن نحملها على الدوام فى هذا التركيب وأمثاله ومعناه لم يزل ولا يزال موصوفا بذلك الوصف .

وغفور ورحيم جاءا على صيغتى المبالغة فعول وفعيل ومعناهما كثير الستر والتغطية للذنوب المستغفر منها ، بمعنى أنه كثير التجاوز عن العقاب عليها كما أنه كثير الرحمة لعباده والإنعام عليهم بنعمه التى لا تحصى ، والرحمة فيه من مقتضى ألوهيته وربوبيته .

« ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » هذا نهى للرسول صلى الله عليه وسلم ولكل فرد من أمته عن الدفاع عن الخونة الآثمين . والجدل : اللدد فى الخصومة والقدرة عليها « وكان الإنسان أكثر شىء جدلا » والمجادلة المخاصمة . من جدّله وجدّله فانجدل صرعه على الجدالة ، وهى الأرض كأن كلا من الخصمين يريد أن يفوز على خصمه ويلقيه على الأرض . والمعنى لا تنتصر لقوم خائنين ، وتدافع عنهم حتى تجعلهم يفوزون بباطلهم وينتصرون على غيرهم من الأبرياء .

« ويختانون أنفسهم » يخونونها إذ الاختيان والخيانة بمعنى . يقال خانه واختانه وإن كانت الأخيرة فيها معنى التكلف والتعمل كأنه يحمل نفسه ويقسرها قسراً

على الخروج عن الفطرة بالخيانة . والمراد بهم : السارق وقومه الذين آزروه ونصروه بالباطل .

وخيانتهم أنفسهم : جاءت من أن ضرر خيانة الغير يعود على النفس ، ولا شك أن إضرار النفس خيانة لها ، إذ أنه بالمعصية عرضها للعقاب وحرمها من الثواب . وقد اختار الله سبحانه هـذا التركيب هنا وفى آيات كثيرة مثل قوله : « ولا تقتلوا أنفسكم »(١) « ولا تلمزوا أنفسكم »(٢) « لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم »(٣) . إشعاراً للنفوس بأن الاعتداء على الغـير فى أية صورة كانت اعتداء على النفس ، وتربية لها على الإحساس الجماعى حتى يحب المرء لأخيه ما يحب لنفسه ، ويكره له ما يكرهه لنفسه ، وحتى يفهم معنى الترابط والتآخى العام ، ويحس بفداحة ما يقدم عليه من الاعتداء على الغير حتى ينفر منه .

« إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما » ورد فى القرآن ، « إن الله لا يحب المعتدين »(٤) « لا يحب الله الجهر بالسوء »(٥) « والله لا يحب كل مختال فخور »(٦) وعدم المحبة فى هذه الآيات كناية عن السخط والغضب من الله . إذ المحبة التى هى انفعال نفسانى يترتب عليه آثاره مستحيلة على الله ، وكذلك عدم المحبة ، ثم إن نفى المحبة فى حد ذاته لا يستدعى الغضب والكراهة والسخط ، لأنه يوجد معنى وسط بين المحبة وعدم المحبة ، فيقال أنا لا أحبه ولا أكرهه ، ولـكن هـذا لا يكون بجانب الله ، فهو سبحانه إما راض أو ساخط ، وليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار ، على أن محبة الله لما كانت منفية عن الخوان الأثيم ، والمختال الفخور ، والجاهر بالسوء والمعتدى ، كان لا بد من تأويل ذلك بالسخط والغضب ، فمعنى لا يحب أى يسخط ويعاقب .

و « من كان خواناً اثيما » جاءا على صيغتى المبالغة فعال وفعيل وانضم إلى ذلك ما تشعره كان فى مثل هـذا التركيب من معنى المداومة ، ومعنى ذلك كثير الإثم كثير الخيانة ، مداوم عليهما حتى صارا ديدنه . ولـكن هل معنى هذا أن غضب الله وسخطه لا يكون إلا على المتأصلين فى الخيانة والإثم ؛ لا . إن الله لا يرضى أبداً

---

(١) ٢٩ سورة النساء (٢) ١١ الحجرات (٣) ٨٤ البقرة (٤) ١٩٠ البقرة .
(٥) ١٤٨ سورة النساء (٦) ٢٣ الحديد .

عن الخائن الآثم ، ولا عن الخوان الأثيم ، فكلاهما مستحق للعقاب وإن تفاوتا . وإنما جاء هذا التركيب معبراً عن الواقع من أمر السارق وقومه ؛ فقد كان موغلا فى الخيانة والإجرام ، وكانت نفسه بطبيعتها لا تنفك عن ارتكاب الجرائم ، حتى إنه لما فضحه الله بهذه الآيات كفر وهرب إلى مكة ، واستمر فى جرمه حتى مات . هذا فوق أنه سارق ومتهم غيره ومحاول إضلال الرسول وانتزاع حكم منه لصالحه بغير الحق ، وقد اشترك قومه معه وعاونوه وآزروه ، فاستحقوا جميعاً هذا الوصف : الخوان الأثيم .

وهذا الواقع الذى سجلته الآية فى صيغتى المبالغة هو الذى روعى أيضاً فى الجمع بين الخوان والأثيم . فقد خان حين سرق ، وأثم فى اتهام البرىء . ويمكن أن يقال إن الخيانة حالة نفسية خبيثة ، تترتب عليها آثام عملية ، فجمع الله بين الطبيعة الشريرة ، والآثم الصادر عنها مما وافق حالة السارق وقومه . بخلاف ما يصدر من الإثم بحسن نية .

* * *

وبعد . فهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم تعرض أمامه حادثة من الحوادث وتتكون الأدلة لديه لاتخاذ رأى معين فيها ، ولكن لم يحكم به لأن الله حرسه من ألاعيب المنافقين ودسائسهم ، ونبهه إلى ما يجدر عمله حتى يوضع الحق فى نصابه ، ولم يكن فى هذا الميل الذى أداه إليه اجتهاده من شىء عليه ، فإنما يحكم بالظاهر ، ولكن الله سبحانه لم يرض لرسوله حتى هذا الميل وهذا الهم بالحكم ، ووجد أن ذلك شىء لا يتفق مع صفاء النبوة ولا سمو الرسالة ، فوجهه إلى استرضائه وطلب المغفرة منه ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم كثير الاستغفار والدعاء وهو الذى يقول عليه السلام « ما أصبحت غداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة [1] » ويقول ابن عمر رضى الله عنهما : إنا كنا لنعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى المجلس يقول « رب اغفر لى وتب على إنك أنت التواب الرحيم » مائة مرة ، ولا غرابة فى هذا ورسول الله أقرب المقربين إلى الله ، فاننا نعرف أن حرص

---

[١] أخرجه النسائى وابن ماجه عن أبى موسى .

المحب على رضاء حبيبه يجعله دائما يحاسب نفسه على هواجسها ويؤاخذها ويجتهد فى بذل كل ما يقربه أو يزيده قربا . والذين يعاشرون الملوك يخشون هفوات نفوسهم ، وتعد عليهم أنفاسهم ونظراتهم ويبادرون دائما بتصحيح كل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وإزالته حتى لا يطردوا من ساحة مليكهم ، أو يوصفوا بعدم الارتياح إليهم ، ويجتهدون أن يكونوا عند مليكهم تماثيل من الاخلاص تشع وفاء وولاء ، فما بالك بهؤلاء المصطفين الأخيار ، الذين اختارهم ملك الملوك واجتباهم وهذبهم وهداهم ، أفلا يكونون أحرص خلق الله على رضاه ، وأشدهم إحساسا وتقديرا لفضله ، وأسرعهم إلى إزالة كل ما يشتم منه رائحة مخالفة ولوصورية لربهم ! ثم ألسنا نحن أتباع الرسل نلوم أنفسنا كثيراً على هواجسها السيئة أو نستغفر الله ونندم من سيطرتها علينا فترة من الوقت ؟!.

فهل يمكن لإنسان بعد هذا أن يقول : إن هؤلاء المقربين أصبحوا فى غنى عن فضل الله وعفوه ورضاه ، أو أن مقامهم يجل عن ذلك حتى يجعل كل استغفار لهم استغفارا لأمتهم لا لهم ، بحجة أنهم ليسوا فى حاجة إلى استغفار ؟! لقد استغفروا لأنفسهم لأنهم فى حاجة إلى العفو والمغفرة ، واستغفروا لأمتهم لأنها فى حاجة إلى دعائهم واستغفارهم وشفاعتهم عند ربهم ، وعلموا الناس بذلك كيف يستغفرون ويتطهرون وهم أشد حاجة إلى الاستغفار والتطهر ، و « لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر »

ما أجدرنا أن نتأمل قليلا فى توجيه الله لرسوله أن يسترضيه ويستغفره !! إنه العطف الكامل والرعاية الشاملة التى تؤذن بقبول الاستغفار وشمول العفو والمغفرة . ثم ما أجدرنا بعد هذا أن نتأمل موقفنا من احتضان الباطل والمبطلين ومناصرة الظلم والظالمين بالقياس إلى موقف الرسول الذى كان يقصد الحق حين اجتهد فأمره الله أن يستغفر مما وقع فيه من الهم والميل . كم نحن فى حاجة إذن إلى الاستغفار ؟!!

إن فى هذا لفتاً شديدا لأنظارنا حتى نحفظ للحق كرامته ونصون أنفسنا من الخوض فى الباطل أو مناصرة الظالم ، كما أن فيه تحريضاً قويا على السعى إلى التطهر مما يتدنس به الإنسان من عمل لا يتفق والحق . والاستغفار ليس

إلا توبة خالصة ، فيها ندم ورجوع إلى الحق وعزم على الإخلاص . والله سبحانه كريم يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ، ومن كمال ربوبيته رحمته التى وسعت كل شىء « لو أن العباد لم يذنبوا لخلق الله خلقاً يذنبون ثم يغفر لهم وهو الغفور الرحيم » (١) . « والذى نفسى بيده لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض ثم استغفرتم لغفر لكم » (٢) . فلا محل إذن لليأس من رحمة الله « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » (٣) . فمن الواجب أن يبادر المؤمن بالتطهر وهو موقن أن الذى يرجوه يحب رجاءه ويفرح بتوسله « أنا عند حسن ظن عبدى بى وأنا معه حيث يذكرنى ، والله لله أفرح بتوبة عبده من أحدكم يجد ضالته بالفلاة . ومن تقرب إلى شبراً تقربت إليه ذراعاً ، ومن تقرب إلىّ ذراعاً تقربت إليه باعاً وإذا أقبل يمشى أقبلت إليه أهرول » (٤) .

وبعد أن أمر الله رسوله بالتطهر عاد إلى مخاطبته حيث ينهاه للمرة الثانية عن الوقوف فى صف الباطل والمبطلين ، فقد سبق قبل هذا بآية أن قال له : « ولا تكن للخائنين خصيما » فعوده هذا يحق لنا أن نقف عنده طويلا فإن خطاب الرسول هنا خطاب لأمته معه ، ولنحن أشد حاجة إلى أن يقرع سمعنا هذا النهى مرة بعد أخرى حتى يستقيم أمرنا ، ويقر قرار الحق بيننا ، وحتى لا يجد المفسدون فى الأرض من يحميهم من سطوة القانون وإن ختام الآية ليحمل إنذاراً شديداً للخائنين الذين يعيثون فى الأرض الفساد ، وهل هناك ما هو أشد على الإنسان من الطرد من رحمة الله حيث ينزل عليه غضبه ، وتحل عليه نقمته ؟ !

إن صاحب الأمر ومالك الملك يتوعد الخائنين وينذرهم غضبه فى يوم يجعل الولدان شيباً ، وبأس ربك شديد وعذابه أليم مهين ، وإن كان غفوراً رحيما « غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطول » .

ولقد جمعت الآيتان بين الترغيب والترهيب ، أطمعت الأولى عباد الله المقصرين فى عفوه ورحمته ليبادر إلى ساحتها كل تواب أواب ، أما السادرون فى آثامهم وضلالهم فقد كشفت الثانية عن مصيرهم ومآلهم : غضب وطرد من رحمة الله « ومن يهن الله فما له من مكرم ؛ إن الله يفعل ما يشاء » . يتبع

---

[١] رواه الحاكم [٢] رواه مسلم [٣] ٨٧ سورة يوسف [٤] رواه مسلم

السنة

عيد الدُّستور

لفضيلة الشيخ طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

عن طارق بن شهاب قال : جاء رجل من اليهود إلى عمر ، فقال يا أمير المؤمنين آيةٌ فى كتابكم تقرءونها ، لو علينا نزلت ـ معشرَ اليهود ـ لاتخذنا ذلك اليوم عيداً . قال : وأى آية ؟ قال : «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فقال عمر : إنى لأعلم اليوم الذى نزلت فيه ، والمكان الذى نزلت فيه ؛ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفاتٍ فى يوم جُمعة . رواه الشيخان .

* * *

تحتفل الأمم والحكومات الدستورية باليوم الذى ظفرت فيه بدُستورها الوضعى ، ويفخرون بأن لهم عيداً دستورياً مقدسا هو رمز جهاد طويل ، وعنوان حياة سعيدة ! .

فأحببنا أن ندلهم على عيد أعظم وأجل ، وهو عيد الدستور السماوى الذى احتفل فيه الإسلام احتفالا مدويا جامعا بإكمال الدين وإتمام النعمة وإعلان الإنسانية بأنه دين الله الذى لا يُبتغى غيره ولا يقبل من أحد سواه « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » .

نزل القرآن الكريم على الرسول الأمين صلوات الله وسلامه عليه فى مدة رسالته ، وهى ثلاث وعشرون سنة ؛ قضى منها ثلاث عشرة بمكة ، وعشراً بالمدينة .

وفى السنة العاشرة التى لحق فيها بالرفيق الأعلى حج حجة الوداع ، ولم يحج

بعد الهجرة غيرها [١] . ووقف معه بعرفة مائة ألف أو يزيدون ، وشهدوا جميعاً هذا الحفل الإسلامى الرائع الجامع الذى لايشهد التاريخ مثله أبدا ، ووافق الوقوف يوم العيد الأسبوعى خير يوم طلعت عليه الشمس بشهادة الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم .

وبعد عصر هذا اليوم الذى جمع الله فيه للمسلمين عيدين عظيمين : عيد الجمعة وعيد عرفة ـ وإن شئت فقل عيد الأضحى ـ نزلت هذه الآية الكريمة تبشر المسلمين ببشائر ثلاث ، هن جماع المجد والعز والخير كله : بلوغ دينهم مبلغ الكمال فى حدوده ومعالمه ، وفرائضه وأحكامه ، وحلاله وحرامه ؛ وإتمام نعمة الله عليهم بالنصر والعزة والتمكين فى الأرض، ودخولهم البلد الحرام آمنين مظفرين ؛ واختيار الإسلام من بين سائر الأديان ديناً لهم ، رضيه الله وأحبه وأظهره على الدين كله ، وجعل السعادة كل السعادة فى الاهتداء بهديه ، والشقاوة كل الشقاوة فى المخالفة عن أمره .

* * *

كان بين نزول هذه الآية وبين انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى أحد وثمانون يوما نزل فيها عليه آية الكلالة [٢] آخر سورة النساء ؛ وسورة النصر، وآيات الربا . وقد قيل فى كل من هذه الآية وما نزل بعدها إنه آخر ما نزل من القرآن ، وهذا على حسب علم القائل وفهمه . والحق أن آخر ما نزل باطلاق ولم ينزل بعده شىء من القرآن ألبتة ، قوله تعالى « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كلُّ نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » فقد توفى صلى الله عليه وسلم على إثر ليال بعدها ! .

وأياً ما كان الأمر ، فلن يعارض نزول هذه الآى من بشارة إكمال الدين شيئا ؛ فإن ما قارب الشىء يعطى حكمه ، ولا سيما إذا كان التمام موثوقا به ، لايحوم حوله شك ولا ريبة ، وذلك كما يقول الملك وهو على طرف التمام من الغلبة والنصر : تم لى ما أردت ، وكما يقول المعنى بالصلاة لأول وقتها ولما يدخل : دخل الوقت .

* * *

[١] وأما قبل الهجرة فكان يحج كل عام ، قبل الرسالة وبعدها .
[٢] الكلالة من مات ولم يترك أصلا ولا فرعا

بهرت اليهود هذه البشائر ، وهم أشد الناس عداوة وحسداً للإسلام والمسلمين فأرادوا أن يعنتوهم بما ظنوا أن لاجواب عنه ! ويغيظوهم بما حسبوا أن لا شفاء منه ! وغاب عنهم أن الله خاذلهم على يد الفاروق من أعز به الإسلام ، وجعل الحق على لسانه وقلبه ؛ قدموا أحدهم وهو كعب الأحبار [1] ولم يكن أسلم بعد ، فوجه لأمير المؤمنين مقالته فى لهجة المتعنت أو الفرح أو الشامخ ! فما كان من الفاروق إلا أن أفحمه بجواب لا يقال إنه مسكت فحسب ، بل يقال - ولا مبالغة - إنه قاصم الظهر ، يبهت منه الذى كفر !.

أجابه أمير المؤمنين بأن منزِّل القرآن - وقد أحاط بكل شىء علما - أنزل هذه الآية الكريمة فى عيدين عظيمين لا فى عيد واحد ، وفى أكرم مكان وأعظم حفل شهده التاريخ . فنحن لا نتخذ يوم نزولها عيداً من تلقاء أنفسنا ، ولا نبتدع فى دين الله ما ليس منه كما تصنعون ؛ ولكننا نتخذ يوم نزولها عيداً بشرع الحكيم العليم ، الذى هدانا إلى الحق وإلى طريق مستقيم .

✲ ✲ ✲

هذا هو عيد الدستور السماوى الذى ورثه الله المصطفين من عباده ، وكتب فيه سعادة الدارين لمن ينصفون أنفسهم ويستعملون عقولهم ولا يدنسون فطرة الله التى فطر الناس عليها .

ولكن ما الحيلة فى أقوام ركبوا رءوسهم ، واتبعوا أهواءهم ، وعموا أو تعاموا عن هذا النور المبين والهدى الحكيم ، فراحوا يطلبون حقوقهم فى دستور أرضى لا يغنى من الحق والسعادة شيئاً ؟!!.

إن الدستور الوضعى - كما يقول واضعوه - هو مجموع القواعد والقوانين التى تبين سلطة الحاكم وحقوق المحكوم وعلاقة كل منهما بالآخر ، وطرق توزيع السلطة واستعمالها ، وكل هذا تكفل به الدستور السماوى وبينه أتم بيان وأحسنه وقام بتطبيقه المسلمون الأولون ، رعاة ورعية على خير وجه وأكمله ، أيام كانوا

---

(١) لأنه أعلمهم بالشرائع وأدراهم بالتوراة ، ولما رضوا به نسب إليهم القول فيما جاء من الروايات « قالت اليهود لعمر » الخ وأسلم كعب فى عهد عمر رضى الله عنه ، وفى إسلامه مقال نفوض فيه الأمر إلى الله عز وجل .

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ بكلية أصول الدين

- ٣ -

تحدثنا فى الكلمة الماضية عن رأى ابن سينا فى مشكلة العمل والبطالة ، أو - بلغة أيامنا هذه - مشكلة الضمان الاجتماعى . وكان فى النية أن نسوق الحديث بعد هذا الى رأيه فى مسألة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع بصفة عامة . إلا أننا

ملوك الدنيا وسادة العالم ، وأيام كانت شعوب أوربا خاضعة لملوك وأمراء يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر ، اصطفاهم الله للحكم بين الناس ، فعليهم للملوك السمع والطاعة ، وليس على الملوك لهم حق ولا واجب !.

ولقد ناضلت هذه الشعوب نضالا عنيفاً جرت فيه الدماء وأزهقت فيه الأرواح ، حتى نالت حقوقها المسلوبة ، وحريتها المغصوبة ، بعد ثورات عواصف حطمت فيها الشعوب معاقل الظلم والاستعباد ، ودكت صروح العسف والاضطهاد !.. وكان آخر مغنم لهذا الكفاح الطويل المتواصل تلك الدساتير الوضعية التى اصطلحوا عليها . . ثم قدسوها تقديساً لو ظفر منهم ببعضه الدستور السماوى لعاشوا فى رغد من العيش لن ينالوه فى ظل تلك الدساتير أبدا !!!

* * *

أما بعد ، فإذا كانت الأمم الغربية قد ناضلت وقاتلت فى سبيل دستورها الوضعى حتى كتبته بدماء الثورة . فقد منحنا الله دستوراً أجل وأعظم نغنم به مغانم الخير والعز والظفر ، دون أن نخسر شيئا . وإذا كانت الأمم الغربية تبتهج بدستورها وتفرح ، فان المسلم الحق بدستوره الحق أعظم ابتهاجا وأشد فرحا .

« يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور . وهدى ورحمة للمؤمنين . قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » .

رأينا من الخير أن نعقب على البحث الماضى ببضع مقارنات وتعليقات فى كلمات محدودة موجزة .

١ — الشيخ الرئيس كان مسلما قبل أن يكون فيلسوفا ، وقد فهم الإسلام حق الفهم ، وعرف الغايات التى جاء من أجلها والوسائل التى رأى اتخاذها لبلوغ هذه الغايات ، فكان لا بد إذاً من أن يتأثر فى تفكيره وعلاجه للمشكلات الاجتماعية والسياسية والفلسفية بهذا الدين الذى نشأ عليه ، وهذا التأثر نجده واضحا فى كل كتاباته فى هذه النواحى وغيرها ؛ كما نجده قد تأثر فى ذلك بلا ريب بما درس من الفلسفات ، وكان له بعد هذا وذاك رأيه الخاص بعد التفكير والموازنة والتمحيص .

ولسنا نحاول أن ندخل فى الإسلام كل تفكير نراه طيبا ، وكل علاج نراه عادلا لبعض ما نحسه من مشكلات ، كأن نقول مع القائلين بأن الإسلام دين اشتراكى وديموقراطى وما الى ذلك ، إن الإسلام أسمى من ذلك كله ، إنه دين أصيل له أسسه الخاصة وطابعه الخاص ، وإن غايته إسعاد الفرد والمجتمع والإنسانية كلها فى كل زمان ومكان ، وذلك بتعميم العدل وإشاعة الرحمة والتعاطف بين الناس جميعا ، لا فرق بين دين ودين وجنس وجنس .

هذا عمر بن الخطاب يقرر فى بعض عهوده رفع الجزية عن كل من يضعف عن العمل من أهل الذمة ، وبأن يعطى من مال المسلمين ما يكفيه هو وعياله ما أقام بدار الإسلام . لقد رأى ذات يوم يهوديا يستجدى ، وعلم أنه ألجىء الى هذا بسبب الجزية والسن والحاجة ، فأمر برفع الجزية عنه وعن أمثاله وترتيب نفقة جارية له مدة حياته ، وقال : ما أنصفناه ، أكلنا شبيبته وضيعناه فى هرمه ؛ وفى سفره الى دمشق أمر بمثل هذا لقوم من النصارى ابتلوا بالجزام فلم يجدوا الى العمل سبيلا .

وكان من هذه السياسة العادلة ، التى شملت المسلمين واليهود والمسيحيين ، أنه لم يكن فى عهد عمر الفاروق من يشكو الحاجة ، ما دامت الدولة كانت تسارع لعون العاجز والمحتاج . وكان الأطفال يعتبرون عاجزين عن العمل ، ولهذا كان يفرض عمر لهم أيضا من بيت المال ما يكفيهم ، كما يفرض لولى كل طفل رزقا يعينه على تنشئته وتربيته .

وكذلك كان الأمر فى عهد الفاروق الثانى ، عمر بن عبد العزيز رضوان الله عليه ، حتى ليقول يحيى بن سعيد فيما يرويه الأستاذ سيد قطب فى كتابه « العدالة الإجتماعية فى الإسلام » : « بعثنى عمر بن عبد العزيز على صدقات إفريقية فاقتضيتها ، وطلبت فقراء نعطيها لهم ، فلم نجد بها فقيرا ولم نجد من يأخذها ، فقد أغنى عمر ابن عبد العزيز [أى بعد له] الناس ، فاشتريت بها رقابا فأعتقتهم » .

هذه الروح النبيلة ، من العدل والرحمة والتعاطف العام ، التى هى من لباب الإسلام ، قد فهمها ابن سينا وأمثاله ، فتأثروا بها دون ريب فى تفكيرهم الاجتماعى والسياسى ، وكان من الشيخ الرئيس رأيه الذى عرفنا فيما سبق عن مشكلة العمل والبطالة . ومن نافلة القول أن نلاحظ هنا أن أوروبا لم تفكر فى شىء من هذا الضمان الاجتماعى إلا فى هذا القرن ، أى بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا بعد ظهور الإسلام .

٢ — يقول ابن سينا : « ومن الناس من رأى قتل الميئوس من صلاحه منهم [أى من الذين حيل بينهم وبين الكسب بأمراض وزمانات] ، وذلك قبيح ، فإن قوتهم لا يجحف بالمدينة » . على أنه ، مع هذا ، يرى إلزام القادر من قرابات هؤلاء الذين لا يرجى صلاحهم ببعض نفقتهم فى غير إجحاف ولا إلحاح .

هؤلاء الذين رأوا هذا الرأى القاسى العنيف ، نرى منهم بعض مفكرى « اسبارطة » ، كما نرى منهم أفلاطون وأرسطو ، إن أفلاطون يرى فى المقالة الخامسة من الجمهورية ، قتل الطفل ناقص التركيب ، والضعيف عديم النفع ، والمريض لا يرجى له شفاء ؛ وكذلك يذهب إلى مثل هذا أرسطو فى كتابه (السياسة) . لكن الشيخ الرئيس رأى - بحق - أن فى ذلك انتهاكا لحرمة النفس الإنسانية بلا ذنب جناه هذا المريض ، أو ناقص التركيب ونحوهما ، وبخاصة - كما يقول بحق أيضا - وتكاليف حياتهم لا تعتبر عبئاً على الدولة بحال ما . ثم من يدرى بأن هذا النحو من الناس ضعاف الأجسام ، لا يكون من أحدهم خير كثير من الناحية العقلية ! والتاريخ مصداق هذا الذى نقول فى كثير من الحالات .

هذا فيما يتعلق بابن سينا وفلاسفة العصر القديم ؛ وفى هذا العصر الحديث نجد كذلك المجال واسعاً للمقارنات بين تفكير الشيخ الرئيس وتفكير بعض

فلاسفة أوربا فى هـذه المسألة ، نعنى مسألة العمل والعمال والعاجزين عن العمل وما يكون لهم على الدولة من حق توفير العيش الطيب لهم .

« عندنا مثـلا ، «آدم سميث » الفيلسوف الأسكتلندى المتوفى عام ١٧٩٠م إنه يعتبر العمل هو مصدر الثروة ؛ وأن قيمة الشىء لا ترجع إلى صفات ذاتية فيه ، بل إلى العرض والطلب . كما كان يرى أن الإنسان ينجح فى إفادة المجتمع وهو يعمل لصالح نفسه ، أكثر مما لو قصد تخصيص مجهوده لصالح المجتمع ، وفى هذا يقول : « لم أعرف أن خيراً كثيراً تم على أيدى أولئك الذين يتخذون من الصالح العام تجارة لهم » [١] .

هـذا الفيلسوف كان لا يرى فرض ضريبة على الأرباح ، لأنه من العسير تقدير قيمة رأس المـال تقديراً حقاً صادقاً ، وذلك بعكس الأراضى ، كما أنه من السهل الفرار برأس المـال إلى نواح أخرى عند ما يحس صاحبه ثقل عبء الضريبة عليه [٢] . ومن الواضح أن فى هذا الرأى خسارة على الدولة ، وتضييع جانب كبير من الضرائب التى يجب جبايتها لتنفق فى صالح الفقير والمحتاج من المواطنين ولهذا لا يذهب إلى هذا الرأى الاقتصاديون فى الوقت الحاضر .

وعلى كل ، فابن سينا كان أبعد نظرا ، وأرفق بالفقراء والمحتاجين لعون الدولة حين رأى - كما قدمنا من قبل - فرض ضريبة على الأرباح الطبيعية والأرباح المكتسبة لتصرف فى خير المعوزين . ولعل الضريبة على المـال تدخل فيما يسميه الأرباح المكتسبة .

٤ ــ قدمنا فى الكلمة الماضية أن ابن سينا كان يرى أنه يجب أن يكون لكل فرد من الأمة ، من أية طبقة اجتماعية يكون ، مقام محدود وعمل معروف وإذاً فالبطالة والتعطل عن العمل محرمان تماما ؛ إذ لا يصح أن يكون أحد عالة على أحد متى كان قادراً على العمل ، كما لا يصح ألا توفر الدولة لكل قادر على العمل عملا يكسب منه عيشه فى كرامة .

---

[١] ص ٧٧ من كتاب النظام الاشتراكى للدكتور أحمد نظمى عبد الحميد والدكتور راشد البراوى ، نشر مكتبة النهضة سنة ١٩٤٦ م

[٢] النظام الاشتراكى السابق ذكره ص ١٩٥

حق كل مواطن فى أن يعمل ، هـذا الحق أو الواجب الذى يقرره ابن سينا فى هدوء ، ولا يجد حاجة فى تقـريره إلى الثورة على شىء من النظم القـائمة ؛ وكذلك حق العاجز عن العمل ، لأنه لايجده أو لأنه عاجز عن القيام به ، وواجب الدولة فى ضمان العيش المقبول الكريم لكل فرد من المواطنين ـ نقول ، هذا الحق وذاكهما اللذان لم يجد ابن سينا أى عناء فى تقريرهما ، نرى أنهما لم يتقررا فى أوربا إلا بعد ثورات اجتماعية ، ثورات أريقت الدماء فى بعضها ، على أنهما مع هـذا من الحقوق الطبيعية للإنسان باعتباره إنسانا عضواً فى مجتمع أو مواطنا فى دولة .

ها هو ذا الفيلسوف الألمـانى فختة "Fiehte" (١٧٦٢ — ١٨١٤ م) ، يرى أنه على الدولة أن تكفل لكل فرد من أهلها عملا ، وهذا ما يسمى بمبدأ حق العمل الذى نادى به هذا الفيلسوف [١] .

ومن بعد « فختة » ، نجد « كارل ماركس » المتوفى عام ١٨٨٣ م ، يذكر فى البيان الذى ضمنه مطالب الحزب الشيوعى فى ألمانيا « أنه يجب أن تضمن الدولة المعيشة لجميع العمال ، وأن تتولى أمر العاجزين عن العمل » [٢] . يذكر هذا المبدأ ويعمل على تقريره وتنفيذه فعلا ، بعد أحداث وخطوب جسام ، ومع هذا لم يسعد برؤيته نافذا فى أوربا كما كان يتمنى .

* * *

وبعد ، من هذه التعليقات والمقارنات التى قدمنا ، نعـلم كيف كان تفـكير ابن سينا سليما وأصيلا فى هذه المشكلة ، مشكلة العمل والبطالة ، وأن أوروبا بصفة عامة ، لم تفـكر فى أن تصل الى مثل ما قرره الإسلام فى هذه الناحية إلا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرنا من ظهور الإسلام .

والآن ، إلى المشكلة الثانية ، نعنى مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، فى العدد الآتى إن شاء الله تعالى ؟ الحديث موصول

---

[١] النظام الاشتراكى ، ص ١٧

[٢] نفس المرجع ، ص ٦١ - ٦٢

شُعَراءُ الأَزهَرْ

٦ — الشيخ مصطفى عبد الرازق (باشا)

شيخ الأزهر الأسبق

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

ترجع معرفتى لآل عبد الرازق الكرام ، لقريب من أول عهدِى بالأزهر الشريف ؛ فقد حضرت القطر والشذور وابن عقيل والأشمونى ، فى جامع محمد بك أبى الذهب ، على المغفور له العلامة الثبت الحجة ، الشيخ محمد عليان ، طيب الله ثراه ! وكان أبرز الدرس — على كثرة البارزين فيه — شخصان نشيطان ، يلفتان النظر بخصائصهما المميزة ، وبمشاركتهما للشيخ فى مشكلات المسائل ، مشاركة تنبىء عن تعمق فى البحث ، وعن ذكاء ممتاز ؛ فأما أحدهما ، فهو أسن الطلاب ، وأجسمهم ، وأعلمهم ، المرحوم الشيخ حسين البيومى عضو جماعة كبار العلماء ؛ وقد نال شهادة العالمية ونحن فى مقدمة الأشمونى ، فكان انتقاله من صفوف الطلبة ، إلى صفوف العلماء سريعاً مبكراً سهلا ، بقى موضع عجبنا وإعجابنا زمناً طويلا . وأما الآخر ، فهو صاحب المعالى على عبد الرازق باشا وزير الأوقاف الأسبق ، ذو الطربوش الفريد فى الأزهر يتوج زياً عربياً ثميناً أنيقاً كل الأنيق ، كاملا كل الكامل ؛ وهو « سكرتير » شيخنا العظيم ؛ يكلفه — أبداً — بالكشف عما يعرض من الألفاظ الغامضة فى المعاجم اللغوية فيؤدى رسالته على خير الوجوه .

وصلتنا بالسادة القاياتية ، صلة ورثناها عن الآباء والأجداد ؛ لأنهم الشيوخ الروحيون لمصر الوسطى ؛ وكان لشباب هؤلاء ، وشباب آل عبد الرازق ، وشباب آل أبى العيون ، مصاطب ، وإن شئت فقل : صالونات : يجتمعون فيها على شراب الشاى البديع ، يتنقلون عليه بالأدب الرفيع رواية وإنشاء ، فى الأرياف لقرب بلادهم بعضها من بعض ؛ وفى القاهرة ، لأن الأزهر يجمعهم ؛ ولتقاربهم فى الأسنان وفى الدراسات .

وكان يختلف الى مجتمعاتهم كثيرون من الشباب المثقف من مختلف الأقاليم المصرية ، والأوطان العربية ؛ فيتباحثون ، ويتساجلون ، ويتناشدون . وعن طريق مشايخنا القاياتية تصل إلينا طرائف مما يدور فى مجالسهم ، فنتلقفها ، ونحرص على حفظها وروايتها ، كما نحرص على روائع النصوص الأدبية .

ومما بقى عالقاً بذهنى من تلك الطرائف ، أن الشيخ مصطفى عبد الرازق ـ وكان يعتبر رئيس الشلة ـ طرح البيتين المنسوبين لولادة بنت المستكفى بالله الأموى ، الخليفة بالأندلس :

أنا ـ والله ـ أصلح للمعالى وأمشى مشيتى ، وأتيه تيها
أجر على الورى ذيل التصابى وأعطى قبلتى من يشتهيها !

للتشطير ، وجعل جائزة المتفوق ، بيتين من شعر الرئيس ؛ وكان المتفوق المغفور له الشيخ إبراهيم القاياتى ؛ فقال الشيخ مصطفى عبد الرازق :

لله إبراهيم من شاعر ذى فطنة فى الشعر وقاده
ولد فى التشطير من لطفه ما لم تضعه قبل ولاده !

والتورية فى : تضعه قبل ولاده غنية بروعتها وجمالها عن أن يشار إليها . والذنب فى إغفال ذلك التشطير ، على خيانة الذاكرة ، لا على حساب الوفاء .

ومن تلك الطرائف فى « الشاى » وتروى للزعيم القاياتى المغفور له الشيخ عبد العظيم ، طيب الله ثراه :

وعسجد الشاى يجلى فى قالب من لجين
هـذا يروق لقلبى وذا يروق لعينى

وفى « شروط » حانة « الشاى » وفيه مجانة :

إذا ما جاوز الندمان خمساً مع السلطان والساقى الأديب
فـ . . . . أم فتى دعانا و . . . . أم فتى مجيب

إلى غير ذلك ، مما ذهبت به ـ مع الشباب ـ الأيام .



والشيخ مصطفى عبد الرازق ، أحد ثلاثة صرفتهم الكتابة عن الشعر ، بعد

أن كان و كدهم فى أول حيواتهم : السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، والشيخ عبدالعزيز البشرى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ؛ والمنفلوطى أشعرهم ، والبشرى أضعفهم ؛ وقد عاود هذا ، الحنين إلى الشعر ، فى عهده الأخير ، فنشر قصيدة له ، فى السياسة قدم لها بمقدمة قال فيها : إن له سبعة وعشرين عاما لم ينظم شعراً ؛ وكأنه يباهى بقصيدته ، التى كان الضعف والتكلف يشيعان فى أطرافها ؛ فكتب إليه أحد عشاق كتابته - كما أسر بذلك إلى - « قصيدتك المنشورة فى السياسة ، ردتك إلى الخلف سبعة وعشرين عاما ! » وفهم البشرى « النكتة » وهو سيد من يفهم . ! فلم يعد إلى الشعر أبدا ! .

وما زال المنفلوطى يقول الشعر فى الفينة بعد الفينة - على حد تعبيره - حتى لقى الله .

فأما الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فقد انصرف عنه انصرافا تاما منذ عهد بعيد ، لعله بعد أن نال شهادة العالمية . يقول المغفور له الشيخ رشيد رضا فى تاريخ الإمام الشيخ محمد عبده : « وممن تخرج عليه فى الكتابين «أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز» فكان كاتباً مجيداً ، وشاعراً بليغا ، المرحوم السيد لطفى المنفلوطى ، وله قصائد فى مدحه ؛ ومنهم الشيخ عبد الرحمن البرقوقى ، والشيخ مصطفى عبد الرازق ، والشيخ على عبد الرازق وكل منهم كاتب بليغ ؛ وكان الشيخ مصطفى يجيد نظم الشعر ، وقد مدح الأستاذ الإمام بشعره ، والظاهر أنه تركه بعد ذلك » اهـ بنصه [1] .

* * *

وانصراف هذا الثالوث عن الشعر إلى الكتابة ، كان توفيقا من الله عظيما ؛ فإننا لم نخسر كثيراً إذ لم نظفر من شعرهم بالكثير ؛ وكنا نخسر الكثير الذى لا يعتاض بمثله لو خسرناهم كتابا ؛ فقد انفرد كل واحد منهم بمذهب كتابى لا يشتبه ، ولا يشارك فيه .

فأما البشرى ، فقد أعاد الطريقة « الجاحظية » جذعة : ألفاظ بكر ، جذلة فخمة ، تحمل مشابه البداوة ؛ وأسلوب فحل قوى يظاهر فيه الحسن المجلوب ، حسنا غير مجلوب ؛ ومعنى شريف فى منطق دامغ عميق ؛ وسخرية بارعة لاذعة ؛ واستقصاء لا يدع فيما يعرض له من المعانى لغيره فضلا . وعلى الجملة : طريقة البشرى ،

(١) - ص ٧٥٧ ج ١ .

هى طريقة الجاحظ مجددة مجلوة فى مطرف قشيب ؛ تحس ذلك فى يسر ، إذا قرأت للبشرى ، ثم قرأت الجاحظ فى غير « البيان والتبيين » فإن الجمع يغلب على هذا الكتاب ، وإنما يلتمس أسلوب الجاحظ فى مثل « الحيوان » وغيره من رسائله وكتبه .

وأما المنفلوطى ، فهو إمام « السهل الممتنع » فى العصر الحديث غير مدافع ؛ والنقاد يعرفون السهل الممتنع ، بأنه الأسلوب الذى يقرؤه القارىء ، فيرى أنه يستطيع مثله ، ولو خدش أنفه بظفر كلب ما استطاعه . وكأنهم يريدون أن قلب الحقائق أيسر منه منالا ، فعاود قراءة المنفلوطى فى أى كتبه شئت ؛ ثم قل لى : ماذا ترى ؟!

وأما أسلوب الشيخ مصطفى عبد الرازق ، فذلك الطراز المنمنم ، الذى تقطر الرقة من أعطافه ؛ ويترقرق الحسن فى أطرافه ؛ ويجمع لك بين نفحات الزهر ونشوات الخمر . ونفثات السحر ؛ وهل رأيت الشيخ مصطفى عبد الرازق فى ذوقه العام : فى سمته ، فى لباسه ، فى حديثه . فى نقاشه ، فى خطابه ؟ ذلك هو مصطفى عبد الرازق فى كتابته : خيوط عربية متخيرة سدى ولحمة ، نسجتها بغداد ، وفصلتها باريس تفصيلا هندسيا محكم الضبط ، رائع الانسجام ؛ تزين معانيه ألفاظه ، وألفاظه زائنات المعانى .

ليس فيها ما يقال له كملت لو أن ذا كملا

* * *

أولئك رجال ، أسأل الله شططا ، لو سألته تعالى أن يعوضنا فيهم خيرا ! فرحمة الله عليهم . !

وأختم هذا البحث ، بما أمكننى الوصول إليه من أشعار المرحوم الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا . قال المغفور له الشيخ رشيد رضا فى « تاريخ الإمام » :

لما قدم الأستاذ الإمام من سياحته فى هذا العام سنة ١٩٠١ فى أوربة وتونس والجزائر هنأه بالقصائد الطنانة جماهير العلماء والأدباء فى الأزهر . . . ونذكر هذه الأبيات للشاب الذى زاحم فى بدايته أهل النهاية ، تنشيطا له على العناية بالأدب وهو الشيخ مصطفى نجل حسن بك (باشا) عبد الرازق . قال :

أقبل ، عليك تحية وسلام يا ساهرا والمسلمون نيام
تطوى البلاد ، وحيث جئت لأمة نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدر ، أنى سار يشرق نوره والحق ، أنى حل فهو إمام
إن يتمدروا فى الغرب علمك قدره فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لأمة لعبت بما يلهى الصغار ، وجدت الأيام
لا زلت غيظا للضلال وأهله والله يرضى عنك والإسلام

* * *

ورثاه بقوله :

رزىء العلم فيك والإسلام يا فقيد الهدى ، عليك السلام !
كنت طودا إذا الخطوب ادلهمت لم تنل همك الخطوب الجسام
رجل كان حين يسلك فجا تتحامى طريقه الأيام
يا دفين القلوب ، قد هابك الدهـر ، فكيف اعتدى عليك الحمام
إن فى قبرك السماحة والفضـل ، وفيه الثبات والإقدام
كان مغناك للعفاة رحيبا ثبتت فى رحابه الأيتام
لم تكن تحمل الضغينة والحقـد وإن نال من أذاك اللئام
طيب القلب لم تهم بشر طاهر الذيل لم يمسك ذام
كنت حى الفؤاد تصدع بالحق فتلوى عنانها الأوهام
كنت سِلم الطباع ، والدهر حرب ساهر العزم ، والقلوب نيام
كنت ترمى فى كل علم بسهم لا تباريه فى السداد سهام
أنت خلت فى الحياة ثناء تتغنى بذكره الأقلام
جئت هذى الحياة والدهر كهل وتوليت والزمان غلام
إن قلبا أصفاك بالود حيا صدعته بموتك الآلام
كان فى هذه الحياة رجاء فدفناه يوم مات الإمام
رحم الله منك نفس كريم وقليل من النفوس الكرام

ولا ريب أن معانى هذا الشعر وقوافيه على قوتها الواضحة ، كانت فى حاجة إلى التركيز والتمكين ، وعذره أنه كان فى طور المرانة ، لا فى إبان النضج .

رحمة الله عليه ؟

لغويات

ميــة —ماية

لفضيلة الشيخ محمد على النجار
مدرس بكلية اللغة العربية

هذان وجهان يجريان فى استعمال اسم العدد « مائة » .

فالاستعمال الأول « مية » يجرى على ألسنة العامة . وهو — كما لا يخفى — انحراف عن الصواب فى المنطق وتنكب للجادة . وهمّى هنا أن أخرج هذا الوجه من الاستعمال وأبين مأتاه ومبعثه فى ألسنة العامة . وسترى أنه ليس بعيدا عن النهج العربى .

فأصل ذلك تخفيف همزة « مئة » وإبدالها ياء ، وهو قانون تخفيف الهمزة المفتوحة المكسور ما قبلها ؛ إذ كان الكسر قبلها يجتذب الياء . وتخفيف الهمز سنة الحجازيين ومن صاحبهم وجاورهم . وذلك أنهم يرونها ثقيلة فى النطق فيفرون منها بتخفيفها وحذفها تارة ، وإبدالها حرفا آخر من حروف اللين تارة أخرى ، على منهج مدروس فى كتب العربية . ويبقى التميميون على الهمزة فلا يخففونها ، ويسميهم علماء العربية أهل التحقيق ، أى أنهم يحققون الهمز ، ولا يفعلون به كما يفعل الحجازيون ، ونرى العامة يجرون فى ألسنتهم فى الهمز على منهج الحجازيين فى التخفيف ، فيقولون : الراس فى الرأس ، والبير فى البئر ، والمرة فى المرأة .

وتخفيف همزة مئة بإبدالها ياء قرأ به القراء فى القرآن الكريم ، وذلك قراءة أبى جعفر يزيد بن القعقاع أحد القراء العشرة المتوفى سنة ١٣٠ . وفى النشر[1] : «الهمزة المفتوحة قبلها كسرة ، يبدلها أبو جعفر ياء . ومن ذلك مئة وفئة ، وتثنيتهما» ، وجاء هذا أيضا فى المأثور عن العرب ، ومما ينسب إلى زرقاء اليمامة فى قصة لها :

ليت الحمام ليــه ‍ ‍ ‍ إلى حمامتيــه
ونصفــه قديه ‍ ‍ ‍ تم الحام ميــه

[١] ١/٢٦٠ طبعة دمشق .

فترى أن النطق بالياء فى « مئة » بدل الهمزة عربى صحيح . وإنما زاد العامة تشديد الياء فى هذا اللفظ فقالوا : ميّة ، وهذا مالم يعرف عن العرب . ولكنه مع ذلك منهج مألوف لهم جروا عليه فى بعض ماحذفت لامه ، تعويضا عن المحذوف . فقد جاء عنهم الفم فى الفم ؛ قال العجاج .

ياليتها قد خرجت من فمه   حتى يعود الملك فى أسطمه[١]

وحكى اللحيانى أنه يقال فم وأفمام ، قال ابن مالك فى شرح التسهيل عقب سوق هذه الحكاية : « فعلم أن التشديد لغة صحيحة ؛ لثبوت الجمع على وفقها . فليس بمصيب من زعم أن التشديد لم يستعمل فى غير ضرورة » ، ومما شددوه من هذا الضرب الدم ، قالوا فيه : الدم ؛ قال[٢] أبو خراش الهذلى يرثى خالد بن زهير :

أرقت لهم ضافنى بعد هجعة   على خالد فالعين دائمة السجم
إذا ذكرته العين أغرقها البكى   وتشرق من تهما لها العين بالدم

وأنشد ابن مالك فى شرح التسهيل قول الشاعر :

أهان دمّك فِرْغا بعــد عزته   يا عمرو بغيك إصرارا على الحسد
فقــد شقيت شقاء لا انقضاء له   وسعد مرديك موفور على الأبد

وقول آخر : والدم يجرى بينهم كالجدول .

وأنكر الكسائى تشديد ميم الدم ، فهو[٣] يقول : « لا أعرف أحدا يثقل الدم » ، وقد مر بك من الشواهد ما يدفع حكمه هذا . وجاء تشديد الأب والأخ ، حكى ذلك الأزهرى ، وأنه يقال : استئب أبا أى اتخذ لك أبا ، وقد جعل التشديد فى أب تعويضاً عن المحذوف كما قالوا قن للعبد المملوك وأصله قنى من القنيــة . ويجرنا ذكر تشديد الأب إلى سوق قصة أوردها الشيخ يس فى حاشيته[٤] على التصريح ، وذلك أن بعض الرؤساء قال لشهاب الدين القوصى : أنت عندنا مثل الأب ، وشدد الباء ، فقال الشهاب : لا جرم أنكم تأكلوننى[٥] ! يريد الشهاب

[١] أسطم الشىء : وسطه ومعظمه ، والضمير فى « خرجت » كأنه يريد به كلمة يتكلم بها فى شأن من يتحدث عنه .   [٢] أنظر ديوان الهذليين طبع دار الكتب ٢/١٥١ .
[٣] اللسان [دمى] .   [٤] فى مبحث المعرب والمبنى [أعراب الأسماء الخمسة] .
[٥] فى حاشية الشيخ يس : تآكلون ، والوجه ما أثبته .

أن الأب مشددا متعارف فى العشب الذى تأكله البهائم ، وكأن الشهاب يرمى بذلك إلى أن هذا الرئيس لا يعرف له حقه ويتهضمه ، فهو يأكل كما يأتى الذئب فريسته ، وبذلك ترى أن مادة الأكل هنا لها لطف وماء ، ويقول الشيخ يس : « ولو قال القوصى : لا جرم أنكم ترعوننى كان ألطف كما لا يخفى على أهل الذوق » وقد عرفت ما فى هذا . ويزعم الشيخ يس أن لا وجه لإنكار القوصى التشديد هنا ، والقوصى — فيما يبدو — كان عاتبا على الرئيس فأظهر عتابه فى هذا الرد وقد بناه على المتعارف فى اللغة كما رأيت . ويقول الشيخ يس أيضا : « ولا وجه لقول بعضهم : من يشدد الباء من الأب الذى هو الوالد ما يكون إلا دابة » .

والاستعمال الآخر « ماية » نسمعه كثيرا من المثقفين . وسبب هذا الخطأ رسم مائة بالألف ، وقد كان هذا الرسم مبعثه دفع التباس « مائة » لو كتبت على وجهها « مئة » بعبارة « منه » مع ملاحظة أن الكتابة فى القديم كانت تخلو فى الأكثر من النقط اعتمادا على الفهم من القرائن والسياق .

وقد استرعى نظرى أن وجدت هذا الخطأ فى النطق من دهر غبر . فقد نبه عليه نحوى أندلسى زار مصر فى سنة ٨٢٥ من الهجرة . وأوطنها حتى مات بها سنة ٨٥٣ ، وصلى عليه بالأزهر . ذلك هو[1] محمد بن محمد الراعى صاحب التصانيف الكثيرة فى النحو . فله شرح الآجرومية وإعراب الألفية . وله الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية . وهذا الكتاب الأخير هو الذى وقفت عليه من كتبه ، وقد عنيت به عناية خاصة ، لأنه يسجل بعض ما كان فاشيا فى عصره من الأخطاء اللغوية فى مصر . وسأنقل عنه فى هذا المقام بعض ما أراه صالحا للنشر فى « لغويات » .

وكتاب « الأجوبة المرضية عن الأسئلة النحوية » من مخطوطات دار الكتب المصرية (٣٣٥ نحو) . وإنى أوثر أن أنقل لفظه من كتابه . قال : « سأل بعض الطلبة عن قراءة العامة المنتمين إلى الخاصة ـ وهم أكثر القضاة وأتباعهم من الموقعين والشهود ونحوهم ـ لفظ مائة فى تاريخ المكاتيب ونحوها بفتح الميم ومد الألف ، على صورة كتابتها فى صناعة الرسم ، فيقولون : ماية .

---

[1] انظر ترجمته فى الضوء اللامع للسخاوى ، وبغية الوعاة للسيوطى :

« فأجبت أن ذاك خطأ فاحش ولحن قبيح . وكأنهم لم يقرءوا كتاب الله عز وجل . قال الله - عز وجل - ولبثوا فى كهفهم ثلاثمائة سنين ، فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، فأماته الله مائة عام ، إلى غير ذلك من الآيات . والصواب أن يقرأ لفظ « مائة » بميم مكسورة بعدها همزة مفتوحة وتاء مربوطة هى محل الإعراب ولا يجوز مد الألف بوجه من الوجوه ، ويجوز تسهيلها بقلبها ياء؛ قال ابن مالك : وياء اقلب ألفا كسرا تلا ، ومنه قول زرقاء اليمامة :

ليت الحمام ليه إلى حمامتيه
ونصفه قديه تم الحمام ميه

« فإن قلت : فإذا كانت ألفها لا تمد فلم كتبت فى الخط بالألف بعد الكسرة؛ وما الحاجة لكتب هذه الألف ؟

قلت : قال أهل العلم : إنما كتبوها بالألف ليفرقوا بين « مائة » و « منه »؛ لأنك إذا قلت فى التاريخ مثلا :

وخمس مائة ، وكتبت « مئه » بغير ألف كانت تشبه لفظ « منه » فكان يلتبس فى الخط قولك :

وخمس مئة بقولك : وخمس منه ؛ لأن صورة « مئة » و « منه » بغير الألف فى الخط واحدة ، ففرقوا بينهما بالألف ؛ كما فرقوا بين عمرو وعمر بالواو » .

وفى بعض كلام الراعى مجال للتعقب . فقد استدل على تسهيل الهمزة بقلبها ياء فى نحو مئة بقول ابن مالك :

وياء اقلب ألفا كسرا تلا

وكلام ابن مالك فى الألف اللينة التى يعبر عنها بالألف اليابسة . وابن مالك يتكلم فى هذا على قاعدة إبدال الألف ياء فى مثل مصابيح ، والإبدال فى هذا واجب لا محيد عنه ، والإبدال فى مئة وفئة استحسانى غير واجب كما لا يخفى ، وإنما يذهب إليه بعض العرب وهم الحجازيون كما سلف لك .

هذا أمر خاص بفلان . النبل خاص بذى الخلق الحسن

يكثر هذا التعبير . وقد جرى بحث فى هذا إذ ورد فى كلام الشيخ عبد القاهر

فى أسرار البلاغة حيث يقول : « فمثاله أن يتعدى الفعل إلى شىء مخصوص يكون له من أجله حكم خاص » وقد كان من رأى من تحدث معى فى هذا الأمر أن الصواب أن يقال : « حكم مخصوص به » . ذلك أنه يقال : خص أن عليا بالنبل ، فالنبل مخصوص به على ، ولا يسوغ ذلك أن يقال : النبل خاص بعلى ؛ فإن الخاص فى هذا الأسلوب هو الفاعل ، وهو الله سبحانه فى هذا المثال . وذكر لى محدثى أنه لا يقال ـ على حسب ما جاء فى المعاجم اللغوية ـ خص الشىء بكذا ، أى إن المعاجم خلت من إيراد هذه المادة لازمة غير واقعة . ووجدت ما قاله صحيحاً فى بادى الرأى . فى القاموس : « خصه بالشىء ، خصا ، وخصوصاً ، وخصوصية ـ ويفتح ـ وخِصِّيصَى ـ ويمد ـ وخصّيه ، وتخصة : فضله ، وخصه بالود كذلك » . وفى اللسان : «خصه بالشىء ، يخصه ، خصا ، وخصوصا ، و خصوصية ، وخُصوصية ـ والفتح أفصح ـ ، وخصيصى ؛ وخصصه واختصه : أفرده به دون غيره ، فترى أن ما يقع به التفضيل أو الإفراد سبيله فى هذه المادة أن يوصل بباء الجر ، والوصف منه « مخصوص به ، فأما الخاص فهو المفضّل والمُفْرد ، وأن « خص » لا يأتى لازما . وفى اللسان أن « اختص » يأتى لازما كما يأتى متعديا فيقال : اختص فلان بالأمر .

ولكنى رأيت فى اللسان النص الآتى : « ويقال : فلان مُخص بفلان أى خاص به » وفيه أيضا : « ويقال : خاص بين الخصوصية » والاستشهاد بالنص الثانى ؛ إذ كان معزوا إلى العرب ومن قولهم ، فأما النص الأول فهو تفسير لغوى ، ففى الأخذ به مجال للقول والطعن . وأعود إلى هذا النص فأقول : إنه يفيد استعمال « خاص » لازما ، فيقال : النبل خاص بفلان ، وهو ما فى عبارة عبد القاهر ، وبهذا يكون هذا الإمام بمنجاة من اللوم والتقريع .

وبقى بعد هذا مسألة تبدو للباحث هكذا : هل يأتى الفعل لازما فيقال : خص النبل بفلان ؟ والجواب عن هذا أن من الأصول اللغوية أنه إذا ورد الوصف فى العربية سوغ ذلك إيراد الفعل على وفق الوصف . ذلك أن ورود الوصف دليل على استعمال الوصف ، وإن لم نقف عليه ولم يبلغنا . ويقول ابن جنى :

الفِقهُ السِّيَاسِى عِنْدَ المُسْلِمِينْ

التكاليف ـ المسئولية ـ الحريات ـ سيادة الأمة

الأستاذ الدكتور محمود فياض

المدرس بكلية أصول الدين

رأينا فيما سلف أن الإسلام يقيم دولته على أساس التكليف الإلهى للأمة ، وأن الأمة بهذا التكليف هى صاحبة السلطان المطلق على جميع أمورها ، وأنه لهذا التكليف الجماعى أضحت الأمة مسئولة مسئولية حقيقية عن صالح الدين وصوالح المسلمين ، أمام سيدها ومالكها سبحانه ، وإنك لتجد ذلك واضحاً فى الخطاب العام الموجه إلى الأمة فى القرآن الكريم ، فى جميع الأمور . إيجابية وسلبية ، فمثلا تجد الخالق سبحانه ينادى الأمة بـ « يا أيها الناس ... » و « يا أيها الذين آمنوا ... » كما تجد الأوامر والنواهى موجهة إلى الأمة أيضاً « أقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » « وافعلوا الخير » « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . وإذا حكمتم

« (١) قال لى أبو على بالشام : إذا صحت الصفة فالفعل فى الكف » ، وقال (٢) أيضاً : « وحكى أبو زيد : رجل مدرهم ، قال : ولم يقولوا منه : درهم . إلا أنه إذا جاء اسم المفعول فالفعل نفسه حاصل فى الكف » .

وقد ظفرت بنص صريح فى هذا يكفينا مئونة القياس والاستنباط . فقد جاء فى كتاب (٣) الأفعال لابن القوطية : « وخص الشيء ، خصوصاً : ضد عم » .

وأنبه هنا إلى عبرة نأخذها من هذا البحث . وهو أن المعاجم التى بأيدينا قد تخلو من بعض اللغة الواردة ، فعلينا أن نتريث فى إنكار ما ليس فيها ، فقد يكون فى غير ما هو مألوف لدينا . وعلينا بعد هذا أن نعنى بإخراج الأصول اللغوية بقدر ما يتيسر لنا حتى تتسع ثروتنا اللغوية ، ويكون حكمنا فى اللغة أقرب إلى السداد . والله الموفق للصواب .

---

(١) الخصائص ١/١٢٧ (٢) الخصائص ١/٣٦٣ (٣) ص ٢٠٧ طبعة ليدن

بين الناس أن تحكموا بالعدل » « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما » « الزانية والزانى فاجلدوا » وهكذا يتجه الخطاب إلى الأمة بالتكليف فى شتى النواحى ، فى أمور العبادة ، وفى المعاملات ، وفى الشئون العامة كالحكم والقضاء أو تنفيذ أحكام الشرع ، وبذلك يقرر الإسلام أن للأمة الإسلامية كياناً خاصاً وشخصية معنوية جعلها مناط التكليف فأمرها ونهاها ، وألزمها تبعة التكاليف ومقتضياتها ، وحملها المسئولية عن صالح دينها ، وصالح أفرادها ، وصالحها فى الجملة « صالح الدين والدولة » .

والتكاليف الجماعية أضمن تحققا ، وأشد إلزاما للفرد من التكليف الفردى ، لأن الفرد فى الواقع فى التكليف الجماعى يكون مكلفا باعتبارين ، باعتباره وحدة من وحدات الأمة المخاطبة بالتكليف . وباعتباره فرداً مخاطبا بشخصه ضمن الخطاب العام للأمة ، وبعبارة أخرى ، هو مخاطب بوصفه الجماعى باعتباره لبنة قوية فى بناء المجموعة يطلب إليه العمل على خيرها ، وبوصفه الفردى باعتباره إنسانا يجب أن يقوم بالتزاماته نحو سيده ونحو إخوانه ، ومن هنا نشأ ما نسميه التضامن الجماعى الفرد والجماعة ، وتقررت بهذا التضامن مسئولية الجماعة عن صالح الفرد الذى يعتبر مقوما من مقوماتها ، ومسئولية الفرد عن صالحه ، وصالح كل فرد من إخوانه ، وصالح الجماعة بصفة عامة ، بوصف الفرد مطالبا بالعمل على سلامة البناء والمحافظة على قوته وكرامته ، ولهذا جعل الإسلام لكل مسلم حق الإشراف العام على شئون الدولة ، ومراقبة تصرف الحكام ، ولفت نظرهم إلى الأخطاء التى يرتكبونها ، وتصحيح هذه الأخطاء ، بإرشادهم إلى الحق ، ونصحهم بالمعروف ومجابهتهم بما يجترحون من مظالم ، وحمل الإسلام كل فرد يغضى أو (يتستر) على جرائم الحكام وظلمهم ، مثل ما يحتمله المجرم أو الحاكم الظالم ، وفى هذا يقول عليه السلام : « من رأى منكم منكراً فليغيره ... » ويقول : « إذا كان فى أمتى من يهاب أن يقول للظالم : يا ظالم ! فقد تودع منهم » ويقول : « إذا وجدتم فى أمتى ظلما وفيهم من يستطيعون أن يغيروا فلم يغيروا ليوشكن الله أن يعمهم بعذاب » والنصوص فى ذلك كثيرة وهى تدور حول قوله سبحانه وتعالى : « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ؛ وهذه هى الرقابة الشعبية بلغة هذا

العصر ، التى جعلها المشرع سبحانه سيفا مصلتا على رقاب المخالفين ، حكاما كانوا أو محكومين ، وهذه الرقابة هى المعبر عنها فى لسان فقهاء الإسلام ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وهى سلطة كبيرة وضعها الله فى يد كل مسلم وطلب إليه أن يحسن استعمالها ، وعنها يقول الإمام محمد عبده فى كتابه (الإسلام والنصرانية) « وهى السلطة الوحيدة فى الإسلام ، التى جعلها الله لأدنى المسلمين يقرع بها أنف أعلاهم » .

وهذا أسمى ما أعطى للأفراد - فى كل التشريعات - من ضمان لحرية الرأى ، والتعبير عنه ، والدعوة إليه ، ولم تستطع أحدث الدساتير ديموقراطية ، أن تضمن للفرد بعض ما يمنحه له الإسلام فى هذا الشأن .

وهذا النمط من التكاليف الجماعية ينفرد به الإسلام عن غيره ، وإنك لن تجد هذه المعانى التى حدثتك عنها فى مثل هذا التكليف القائل : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » و « اعط ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر !! » فأى تضامن جماعى ، أو مسئولية مشتركة يوحى بها مثل هذا التكليف ؟ وزد على هذا أن قيصرا هذا لم يعد له فى الإسلام شىء أكثر مما لغيره من أفراد المسلمين ، بل إن عليه تبعة أعظم من تبعاتهم ، لأنه خادم للأمة صاحبة السيادة عليه ، ويعبر عن هذا عمر بن الخطاب بقوله للأشعرى أمير الكوفة : « يا أبا موسى إنما أنت واحد من الناس غير أن الله جعلك أثقلهم حملا » ثم يقول : « إنه من ولى أمر المسلمين يجب عليه لهم ما يجب على العبد لسيده » .

ونظرا لعظم التكاليف وثقل المسئولية عنها ، فقد قرر الإسلام : أن كل مكلف يجب أن يعطى من الوسائل كل ما يمكنه من القيام بتكاليفه ، وإلا كان هذا التكليف ظلما وتعسفا «لا يكلف الله نفسا إلا وسعها» و «لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها» فأنت إذا ألقيت شخصا فى اليم وقلت له إياك أن تبتل بالماء ، وأنت لم تعطه وسائل الوقاية من الماء فأنت ظالم متعنت يجب أن تخالف ! ولهذا يقرر الإسلام فى كل نصوصه ، وفى كل مناسبة ، أن كل مكلف يجب أن يكون فى يده وسائل تنفيذ ما كلف به ، وأن التكليف يتوقف ويتعطل ، إذا فقدت أو تعطلت وسائل تنفيذه فالمريض الذى لا يستطيع القيام بعمل ما مما كلف به ؛ والأسير فى يد عدو الإسلام

الذى عطل حرياته ، وأصبح لا يملك وسائل تنفيذ تكليفه ، والمجنون الذى لا يعقل أمرا ولا نهيا ، وكل شخص ـ ذكرا كان أو أنثى ـ أصبح فى حالة تنعدم فيها لديه وسائل تنفيذ التكاليف . هؤلاء جميعا تتوقف تكاليفهم وتتعطل، ولا تلحقهم مسئولية حتى يسترد المريض صحته ، وحتى يسترد الأسير حريته ، وحتى يعقل المجنون ، وحتى تذهب الموانع كيفما كانت ، ويصبح الشخص فى حالة يمكنه فيها تأدية واجباته .

وأهم هذه الوسائل التى يجب ضمانها للفرد ليقوم بتكاليفه . إقداره على التمتع بحقوقه الفطرية التى وهبها الله له ، وهى : الحرية الشخصية ، حرية العبادة ، حرية التفكير أو حرية الرأى والتعبير عنه والدعوة إليه ، وتحقيق مساواته بإخوانه الأحرار المتساوين من كل وجه ، فى كل المنح والفرص الاجتماعية ، وعلى الأمة (الدولة) أن تمكنه من كل ذلك حتى يقوم بتكاليفه ـ على الأقل نحوها ـ فإذا هى حرمته من التمتع بحقوقه كلها أو بعضها ، فقد أهدرت أهليته ، وأبطلت تكليفه ، وهو حينئذ يصبح غير ملزم بطاعتها وتنفيذ أوامرها ، ولا يحق لها مطالبته بشىء ما دامت هى التى عطلت تكاليفه ، ويتضح من ذلك أن تمكين الأمة (الدولة) الأفراد من التمتع بحرياتهم ، بعيدا عن الطغيان والعدوان . إنما هو أمر فى صالح الدولة نفسها قبل أن يكون من صالح الأفراد ؛ وما دام خالق الدولة هو رب الأفراد وهو واحد ، ثم هم بنو أب واحد وأم واحدة ، وتكاليفهم واحدة ، ونسبتهم إلى الله وإلى الدولة واحدة ، فهم أحرار متساوون من جميع الوجوه ، ليس بينهم فروق ولا امتيازات ، ومن الظلم أن تقيد الدولة حرياتهم ، أو تعطل تكاليفهم ، أو تمنعهم حقوقهم ، أو تقيم بينهم فروقا لم يأذن بها رب الدولة المشرع لها سبحانه «إن أكرمكم عند الله أتقاكم » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

وإذا كان الإسلام قد أطلق للإنسان جميع حرياته ، فإنه فى نفس الوقت ، وضع شروطاً يجب على الفرد التزامها عند مباشرته لحرياته ، حتى لا تصطدم الحريات ، ولا يطغى بعض الأحرار على بعض ، وجعل مراعاة هذه الشروط تكليفاً من التكاليف الواجب تنفيذها دون هوادة ، فليستعمل الفرد حرياته غير باغ ولا عاد ، فى حدود العدل والإحسان «لا تظلمون ولا تظلمون» «لا ضرر ولا ضرار « وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » . .

وهكذا أعطاك الإسلام حق التمتع بحرياتك للقيام بتكاليفك ، بشرط ألا تعتدى على حريات الآخرين ، وأباح لك الحصول على حقوقك بشرط ألا تعطل حقاً لأحد ، أو تغتصب حقاً لأحد ، وألزمك أن ترعى فى جميع أعمالك الصالح العام للدين والدولة ، وهذا هو معنى « ابتغاء وجه ربك الأعلى » « وابتغاء مرضاة الله » ومصلحة الجماعة (مصلحة الدين والدولة) تأتى فى المرتبة الأولى من الاعتبار فى نظر الإسلام ، ويجب أن تقدم مصلحة الجماعة على مصلحة الفرد عند التعارض ، وعلى الفرد أن يتوخى فى عمله وتمتعه بحرياته مصلحة الجماعة ، وأن يقدمها ـ بنفسه ـ على مصلحته الخاصة ، فإذا تعنت وآثر نفسه على الجماعة ، وجب على الجماعة أن تكبح جموحه ، وتؤخر مصلحته عن مصلحتها ، لأنه من المسلم به أن كل صالح للجماعة صالح للفرد ، ومن هذا ترى أن حريات الأفراد لا يقيدها إلا صالح الدين والدولة ، وهو أمر يتفق عليه المسلمون فيما بينهم ، ويقدرونه بالتشاور مع ذوى الرأى منهم ، أو بالشورى بين علمائهم وحكامهم ، والمسلمون عدول فيما بينهم . تأمل قوله عليه السلام : « إن قوما ركبوا فى سفينة . فصار لكل منهم موضع فجاء رجل فنقر موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال: هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن هم أخذوا على يده نجوا ونجا . وإن هم تركوه هلكوا وهلك » .

وليس من شك فى أن الأمة هى المكلفة برعاية ذلك وتنفيذه ، ولهذا يجب أن يكون سلطانها مطلقا وسيادتها على بنيها عامة غير مقيدة ولا محدودة إلا بما قيدها الله به وحده لها .

كذلك نجد الإسلام يقرر قواعد الحكم الصالح ، ومبادىء العدالة المطلقة ، ويضع دستوراً يمشى على هديه الحكام والقضاة والعلماء وأهل الرأى والنظر ، وهذا هو ألزم شىء لتحقيق العدل والسلام فى أمة تنشدهما ، ثم هو مع هذا يترك شكل الحكم ونوع الحكومة لا يقرر فيهما شيئاً ، فهل هى مثلا حكومة ملكية أو جمهورية ؟ لم يعن الإسلام بهذا لأنه من المظاهر المتغيرة بتغير الفكر والبيئة ، فى الأزمنة والأمكنة المختلفة ، فتركه للأمة تقدره هى حسب مصلحتها ، وتختار بنفسها شكل الحكم الذى يلائمها ويتفق مع صالحها ؛ غير أنه يوجب أن يكون الحكم

ـ كيفما كان شكله الذى اختارته الأمة ـ حكما شوريا بين الأمة بوساطة علمائها وذوى الخبرة والرأى فيها ، وبين حكامها تحت رقابة الأمة كلها ؛ ولم يشأ أن يعين شكل الشورى . وهل هى مطلقة أم مقيدة بطبقة خاصة لأن شكل الشورى أيضاً متغير ، يتطور بتطور الناس وتغير ظروفهم وثقافاتهم ، فتركه أيضاً للأمة ، تعينه حسب مصلحتها ، وبهذا كان التشريع السياسى للإسلام فى أسمى درجات الكمال ، لم يجبر الأمة على أمر يخضع للتغير بتطور الفكر ، ويختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وكان نظام الإسلام لهذا صالحاً للتطبيق فى كل زمان ومكان ، والإسلام بهذا يقرر لأول مرة فى تاريخ الإنسانية أن الأمة هى صاحبة السلطان الأكبر ، وهى التى تختار شكل الحكم ونوع الحكومة ، وهى بالتالى صاحبة السلطة فى تعيين حكامها ، ومدهم بما يحتاجونه من سلطان لضبط أمورها ، وتصريف أحوالها ، فإذا مال الحاكم أو اعوج قومته بالنصح والارشاد ، فإن ظلم وفجر ألزمته جادة الحق ، فان استكبر وطغى عزلته ، أو تخلصت من شره بما تراه فى مصلحتها ، وفى هذا يقول العضد فى كتابه المواقف : « وللأمة خلع الإمام ، وعزله بسبب يوجبه ، وإن أدى إلى الفتنة احتمل أدنى المضرتين » وعلق على ذلك شارحه السيد الجرجانى بقوله : « مثل أن يوجد منه ما يوجب اختلال أحوال المسلمين ، وانتكاس أمور الدين ، كما كان لهم تعيينه وإقامته لانتظامها وإعلائها [1] » ويقول إمام الحرمين : « إن الإمام إذا جار وظهر غشمه ولم يرعو لزاجر عن سوء صنيعة فلأهل الحل والعقد التواطؤ على ردعه ولو بشهر السلاح ونصب الحروب [2] » وهذا الذى قرره العلماء حق مسلم به للأمة فى الإسلام منذ أول أيامه ، وهو الذى سار عليه السلف الصالح حتى التوى بالمسلمين القصد وحكمهم غيرهم ، وحكموا هم بغير ما أنزل الله ، فهذا هو الصديق أبو بكر يقول للناس عندما وجد نفوراً من على وبنى هاشم : « أيها الناس . إنى أستقيلكم بيعتكم . . إن رأيتم أن تقيلونى بيعتكم فذلكم لكم ... » ثم يقول : « إن رأيتمونى على حق فأعينونى ، وإن رأيتمونى على باطل فسددونى . أطيعونى ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لى عليكم »

---

(١) المواقف ح ٨ الأمانة الكبرى .

(٢) شرح المقاصد ج ٢ ص ٣٧٢ .

يشير بذلك إلى قوله عليه السلام : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وهذا هو عمر بن الخطاب يقول لطلحة بن عبيد الله عندما لاحظ عمر أن النعمة أبطرت كثيراً من الناس : « وددت أنى فى سفينة ، وأنتم فى سفينة ، تذهب هذه شرقا وهذه غربا ، ولن يعجز الناس أن يولوا رجلا منهم ، فإن استقام اتبعوه ، وإن جنف قتلوه ، فقال طلحة : يا أمير المؤمنين . هلا قلت إن تعوّج عزلوه ! قال عمر : لا ، ألقتل أنكل لمن بعده ! » وجاء عمر بن عبد العزيز الأموى الذى ورث عرش الخلافة الأموية عن آبائه ، فقرر من جديد للأمة حقها بعد طول اغتصابه منها ، فخطب الناس أول جمعة تأمر على المسلمين فقال : « أيها الناس . إنى قد ابتليت بهذا الأمر عن غير رأى كان منى فيه ، ولا طلبة له ، ولا مشورة من المسلمين . وإنى قد خلعت ما فى أعناقكم من بيعتى . فاختاروا لأنفسكم » فقال الناس : يا أمير المؤمنين . قد اخترناك ، ورضيناك ، فل أمر المسلمين باليمن والبركة » وهكذا رد عمر بن عبد العزيز أمر المسلمين إليهم ، بعد أن اغتصبه من الأمة سابقوه وورثوه أبناءهم ، وهو بذلك يقرر . أن الحكم هو حق الأمة وحدها لا حق أفراد منها ، وأن حق الأمة لا يورث . لأن الأمة حية قائمة عليه لا تموت حتى تقوم الساعة ، ولعله سأل نفسه . بأى حق ورّثه الأمويون حكم الأمة ؟ ومتى تنازلت الأمة مختارة عن شخصيتها وحقوقها ، وجعلت نفسها متاعا يورثه الأمويون أبناءهم ؟ فلما لم يجد جوابا . ولا وثيقة تؤيد وراثته هذه . رد إلى الأمة حقها المغتصب ، وعاد الأمر كما قال الصديق أبو بكر لرجل سأله ، ألم يترك الرسول نصا ولا وصية لأحد ؟ فأجابه : إن النبى صلى الله عليه وسلم . خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم متفقين لا مختلفين » ونخلص مما تقدم إلى أن الإسلام قرر لأول مرة المبادىء السامية الآتية :

١ — للأمة شخصية معنوية هى مناط التكليف والمسئولية .

٢ — الأمة توجه الحكم وتسيطر على الحاكمين الذين يستمدون منها سلطانهم وقوتهم .

٣ — الأمة سيدة نفسها ، وهى صاحبة السيادة على نفسها وأبنائها جميعاً ولا سيادة عليها لغير الله .

المسلمون والتصوير

لحضرة الأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس فى الآداب — دبلوم فى الآثار

وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

انتهينا فى المقال الأول من هذا الموضوع عند الكلام على الحديث والتصوير ، وناقشنا رأى الشراح فى حديث : « إن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه » ، وحديث « إن الملائكة لا يدخلون بيتا فيه صورة أو كلب » . ونستمر فى مناقشة رأى الشراح فى الأحاديث الأخرى التى تناولت موضوع التصوير ، وهى :

الحديث الثالث : عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المصورون » .

قال الطبرى فى شرح هذا الحديث : إن المراد هنا ما يعبد من دون الله ، وهو عارف بذلك ، فإنه يكفر . وقال الخطابى : إن عقوبة المصورين إنما عظمت لأن

---

٤ — على الأمة أن ترعى صالح الفرد وتقدره على أداء تكاليفه ، بتمكينه من التمتع بحرياته .

٥ — الحاكم خادم مطاع ، تعطيه الأمة من السلطان ما يتناسب مع التكاليف التى كلفته بها ، وطاعته مشروطة بمدى التزامه للشرع الذى كلف بتنفيذه ، ولا زالت الدساتير البشرية حتى يومنا هـذا تتعثر فى طريق الوصول إلى الدرجة الدنيا من سلم هذه المبادىء السامية التى حكمت قرونا طويلة فحققت الحرية والأخوة ، والمساواة ، كما حققت الأمن والعدالة ، والرخاء والسلام .

وإلى العدد التمادم نحدثكم عن مركز الحاكم ونسبته إلى الأمة ، والله ولى التوفيق

الصور كانت تعبد من دون الله تعالى ، ولأن النظر إليها يفتن ، وبعض النفوس إليها تميل .

وإذن فلا سبيل إلى القول بأن علة التحريم هى مضاهاة خلق الله تعالى ، وإنما هى الخوف فقط من الرجوع إلى الوثنية التى كان العرب قريبى عهد بها .

الحديث الرابع : عن أبى طلحة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه الصورة » ، قال : ثم اشتكى زيد فعدناه (وزيد هو الذى روى عنه طلحة هذا الحديث) ، فإذا على بابه ستر فيه صورة ، فقلت لعبد الله ربيب ميمونة زوج النبى صلى الله عليه وسلم : ألم يخبرنا زيد عن الصورة يوم الأول ؟ ! فقال عبيد الله : ألم تسمعه حين قال : إلا رقما فى ثوب ! .

وتعليق العينى على هذا الحديث وجيه ومقبول وهذا نصه ؛ قال : « وإنما نهى الشارع أولا عن الصور كلها ، وإن كانت رقماً فى ثوب ، لأنهم كانوا حديثى عهد بعبادة الصور ، فنهى عن ذلك جملة ، ثم لما تقرر نهيه ، عندئذ أباح ما كان رقماً فى ثوب » .

ونقول إنا إذا كان النبى صلى الله عليه وسلم قد أباح الرقم على الثوب حين أمن زيغ العقيدة ونكسة الجاهلية والشرك بالله ، فلا ضرر - فيما يبدو - إذا اتخذنا الصور والتماثيل ، ما دمنا على بينة من ديننا ، وما دامت هذه الصور والتماثيل بعيدة عن فكرة التقديس والعبادة . على أنى أعتقد أن القول بتحريم التصوير دائما ، ولهذا السبب ، معناه الشك فى إخلاص المعتنقين للدين ، وأنه لم يتمكن بعد من نفوسهم وهذا ما لا يرضاه المسلمون ولا يرضى عنه الفقهاء بالطبع .

وتكملة للرد على كلام النووى ، أورد ما ذكره العينى خاصا بشرح حديث : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا تصاوير » ، فقد قال إن المقصود بالملائكة ملائكة الوحى مثل جبريل وإسرافيل ، وهؤلاء لا صلة لهم بسائر الناس طبعا . على أن العينى قد رد على امتناع دخول الملائكة البيت الذى فيه كلب لنجاسته ، أن ذلك غير مقبول لأن الخنزير وهو أشد نجاسة ، والسنور وهو أكثر أكلا للنجاسات لم يرد بشأنهما امتناع دخول الملائكة لبيت وجدا فيه . ونقول إنه ليس

من المعقول أن تدخل الملائكة بيتاً فيه خنزير بينما لا تدخل بيتاً فيه صورة مع الفارق الكبير بين الصورة والخنزير .

ويعجبني قول ابن حبان الذي أورده ابن حجر العسقلاني في شرحه على صحيح البخاري وهو « إن هذا الحكم (أي امتناع دخول الملائكة لبيت فيه كلب أو صورة) إنما هو خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام » . ولا غرابة في هـــذا ، فإن للنبي خصوصيات ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم لم يكن في حاجة إلى كلب يحرس داره أو تمثال يزين جداره . وإذن فالمسألة هي كما قال العيني : خاصة بالنبي وبملائكة الوحي الذين يحملون إليه رسالات ربه .

وذهب بعض العلماء مذهب النووي في تحريم ما له ظل وما لا ظل له ، معتمدين في ذلك على حديث للنبي عليه الصلاة والسلام روته السيدة عائشة قالت : « قدم النبي من سفر وقد سترت بقرام لي على سهوة لي فيها تماثيل ، فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم هتكه وقال : أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله . قالت : فجعلناه وسادة أو وسادتين » . ثم يستشهد القائلون بالتحريم أيضاً بحديث : « وعد النبي صلى الله عليه وسلم جبريل ، فراث عليه حتى اشتد على النبي صلى الله عليه وسلم ، فخرج النبي فلقيه فشكا إليه ما وجد ، فقال له جبريل إنا لا ندخل بيتاً فيه صورة ولا كلب » . وفي رواية أخرى أن جبريل خاطب النبي فقال : « أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت إلا أن كان على الباب تماثيل وكان بالبيت قرام ستر فيه تماثيل وكان في البيت كلب . فمر برأس التمثال الذي في البيت يقطع فيصير كهيئة الشجرة ، ومر بالكلب فليخرج ، ففعل النبي ذلك » .

وإذن فدليل القائلين بتحريم ما لا ظل له ، أمر النبي بهتك الستر وتقطيعه وعمل وسادتين منه . ونحن في حاجة إلى جواب من هؤلاء على سؤال هو : إن عمل وسادتين من الستر معناه أن الصورة لا زالت باقية في بيت النبي كما صرحت بذلك رواية ابن حنبل ، فهل امتنع الملائكة بعد ذلك من دخول البيت ؟ وهل اشترط الملائكة ألا يدخلوا بيتاً فيه صورة إلا إذا كانت ممتهنة ؟ وهل وسادة ينام عليها النبي صلى الله عليه وسلم تعد ممتهنة في نظر الملائكة ولا تمنعهم من دخول بيته ؟ .

تلك أسئلة أعتقد أن الاجابة عليها فى صالح إباحة التصوير ، ولعلها بالتالى تخفف من حدة الفقهاء وتشددهم عند الكلام عن هذا الموضوع .

على أن حديث « جبريل » بحاجة إلى إمعان نظر وإعمال فكر ، ذلك إنى أعتقد أن جبريل عليه السلام إنما نزل على النبى صلى الله عليه وسلم بكلمات الله وأصول التشريع والديانة ، ولم ينزل ليوحى إليه أن يقطع الستائر وأن يعمل من « الهلاهيل » وسائد ومرافق . ويمكن أن نرد على حديث « جبريل » بحديث آخر رواه البخارى عن أنس أنه قال : « كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها ، فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم : أميطى عنى فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى » .

ويفيدنا هذا الحديث من ناحيتين :

أولا : أنه يرد على حديث هتك الستر الذى تمسك به القائلون بالتحريم ، وعلى رأسهم النووى .

ثانيا : أن النبى قد أقر الستر ولم يقطعه ، وإنما نحاه فقط حتى لا يشغل به فى صلاته على الرغم من وجود تصاوير به .

من ذلك نرى أن شراح الأحاديث قد اختلفوا فى فهمها وشرحها ، وذهبوا فى ذلك مذاهب شتى . ولكنا وجدنا من بينهم أمثال ابن حبان الذى يقول : إن امتناع دخول الملائكة لبيت فيه صورة ، إنما هو خاص بالنبى لا بعامة المؤمنين . كذلك رأينا الطبرى يقول : إن المراد بالمصورين من يصورون ما يعبد من دون الله ...

بعد هذا ، يخيل إلينا أنه قد امتنع الدليل المنقول أو المعقول على من يقول بتحريم التصوير ، له ظل أولا ظل له ، امتهن أولم يمتهن ، ثم سواء أكان لحيوان أم غير حيوان .

سبب القول بالتحريم :

قد يرجع سبب قول الفقهاء بتحريم التصوير إلى تأثير الأفكار اليهودية التى

اختلطت بالدين الإسلامى عن طريق اليهود الذين تحولوا إلى الإسلام ، ولا سيما أن منهم من كان من رجال الحديث أمثال كعب الأحبار ، الذى أخذ عنه ابن عباس ، وكذا وهب بن منبه وغيرهما .

ولا يستطيع باحث أن ينكر تسرب كثير من الاسرائيليات إلى المعتقدات الإسلامية ، فإن القول مثلا بكراهية المحراب المحفور (الغائر أو المجوف) قد يرجع إلى ما ورد فى التوراة خاصا بالمذبح حيث يقول الرب : « وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة » . كذلك قد يرجع القول بكراهية المنبر فى أول الأمر إلى ما ورد فى التوراة فى نفس الإصحاح حيث يقول الرب :

« ولا تصعد بدرج إلى مذبحى كيلا تنكشف عورتك عليه » .

ويخيل إلى بعد هذا ، أن القائلين بتحريم التصوير من فقهاء المسلمين قد تأثروا — إلى حد ما — بالآراء اليهودية . على أن بعض المستشرقين يتهمون الأمم السامية عامة بخوف متأصل من الصور والتماثيل ، وأنهم ينسبون إليها قوى سحرية . وقال هؤلاء المستشرقون إن مظهر ذلك الخوف هو القول بتحريم التصوير . ومن طريف ما يروى فى باب الاستشهاد للتدليل على صحة ذلك الزعم الذى يذهب إليه المستشرقون ، أن أبا جعفر المنصور حين بنى قصره . وسط مدينته الجديدة « بغداد » ، جعل على قبة القصر فارسا ممسكا رمحا لمعرفة اتجاه الرياح — كما يقول المستشرق توماس آرنولد — ولكن سادت بين الناس خرافة مؤداها أن الفارس إذا اتجه برمحه إلى جهة ما ، فإن شرا منتظرا سيحدث بتلك الجهة . ومن الواضح أن هذا النوع من التفكير الخرافى يجعل الناس يتقبلون فى سهولة قول القائلين بتحريم التصوير .

اليهودية والتصوير :

أما تحريم التصوير فى الديانة الموسوية فإنه يعتمد على ما ورد فى التوراة فى الإصحاح العشرين من سفر الخروج وهذا نصه : « ثم تكلم الرب بهذه الكلمات قائلا : أنا الرب إلهك الذى أخرجك من مصر ، من أرض العبودية . لا تكن لك

آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولاصورة ما مما فى السماء من فوق ؛ وما فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض . لا تسجد لهن ولا تعبدهن » . . ونقرأ فى موضع آخر من سفر الخروج قول الرب : « لاتصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب » .

وهذا التحريم الذى نصت عليه الديانة الموسوية فى سفر الخروج من التوراة له ما يبرره إذا حاولنا أن نفهمه فى ضوء الظروف والملابسات التى أحاطت بتلك الديانة وقت ظهورها . فمن المعلوم أن مصر التى عرفها بنو إسرائيل حق المعرفة — كما عرفوا غيرها من البلاد المجاورة التى تعبد الأوثان — كانت حينذاك زاخرة بأرباب تعبد من دون الله ، وكانت تماثيل آلهتها الآدمية والحيوانية العديدة تحتل كل مكان . . وما نكسة بنى إسرائيل ورجوعهم عن الوحدانية السامية إلى عبادة العجل إلا لضعف إيمانهم بالدين الجديد ، وشدة تأثرهم بالأفكار القديمة التى وجدوا عليها آباءهم .

وأذن فمن الضرورى أن تلجأ الديانة الموسوية إلى النص على تحريم التصوير وعمل التماثيل ، حتى لا يفتن الناس بها فتفتنهم بالعجل ، وحتى لا تمهد لوسيلة تفسد عقول معتنقيها فى وجود إله واحد لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير .

أما الإسلام الذى مهدت له الديانة اليهودية والديانة المسيحية بإعداد عقلية الناس لقبول عقيدة سماوية واعتقاد فى وجود إله واحدمنزه ، فليس هناك مايدعو فقهاه على الصحيح — إلى القول بتحريم التصوير خوفا من الرجوع إلى الشرك بالله أو امتناعا عن مضاهاة خلق الله سبحانه وتعالى .

وإذا سلمنا أن ذلك المنع كان له ما يبرره عند ظهور الإسلام لقرب عهد الناس بعبادة الأوثان ، فلا ينبغى أن نسلم به اليوم ، ولا أن نظل على القول بالتحريم ، مع ما يرى من شدة الحاجة إلى التصاوير والتماثيل فى حياتنا اليومية وشئوننا الاجتماعية ، والشريعة — كما نؤمن — صالحة لكل زمان ومكان .

مجالات فى الأدب :

سوق السعاة

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد كامل عجلان
المدرس بالأزهر

فى مجتمعنا أسواق نافقة ، تعج بالتجار الكبار والصغار ، يمسون ويصبحون ولاهم لهم إلا السعى، وبين أشداقهم طحن معسول ، وفتات بغيض، وبين جوانحهم حسائك نماها الحسد ، ورواها الحقد ، وأرضعت عصارات مرة من صدىء الوراثة أو إسفاف البيئة ، أو تدنى التربية وانحطاط التمليد .

يمرون بالآمنين بجر الأضالع ، ويندسون بين الأصدقاء ، ويطوفون على الجماعات ويتمسحون بالرؤساء ، ويتعلقون بالأذناب .

لا تكل أقدامهم ، ولا تتراجع خطواتهم المشاءة ، ولا تسحبهم المنسل ، كأنما قدّ تقصيهم للعورات ، وتتبعهم للزلات ، من جبل لا تنفد أحجاره ، ولا تنتهى دفقات حممه ، ولا هبات عثيره .

وما رأيت كالسعاة ، يحملون أوزار أهوائهم ، ويمشون بها فى الأسواق ، يصبون فى كل مشرب صاف ما يكدره ، وفى كل منبت تام ما يصوحه وفى كل مجمع سار ما ينغص على آله ، حتى يفرق ما التأم ، ويشتت ما تماسك وترابط وتساند .

نعم ما رأيت كالسعاة ، يضربون بالمعول فى غفلة ، ويغمزون بالإبرة فى صحوة ويدفعون بالمهماز فى ثورة ، فإذا النار موقدة ، وإذا البغضاء تقوم بالناس وتقعد ، وإذا النمام قرير النفس ، يلمس حر النار فيكون برداً على كبده ، وماء ينزلق فوق صخرة فؤاده الكليل ، وضميره البليد ، وطواياه المظلمة ، وحناة التى باض فيها النفان . وتلك الأسواق المتفشية ، وتجارها المتكاثرون ، وسماسرتها الذين لا يهدأون وبضاعتها التى تتنقل على محفات الرواج ، لا نجد للخلاص منها طريقاً ، ولا نلوذ منها بعاصم حتى ليس لها من دون الله كاشفة . .

ولو أنصفنا مجتمعنا، وأردنا لأنفسنا الوقاية من شرها، لأقمنا الأموال ورصدنا الجهود لمحاربتها ومطاردة المدمنين، والعاكفين على استثمارها، والجرى وراء النفع الموقوت الذى لا يدوم، وإن دام لا يخرج إلا نكداً من الغاية، وخبثاً فى النهاية من لى بمقاومة الأسواق التى تبث القطيعة، وتمحق الترابط، وتربى الشحناء، وتوهن أسباب الصداقة، وعرى الأصدقاء، فإذا المودة ضائعة، وإذا القطيعة سائدة، وإذا الحياة جهمة عليها القتام، لقد حذر القرآن، وخوفت السنة، وجاهد السلف، وضج النثر، وصرخ الشعر بالويل والثبور على المشائين النمامين.

ومع هذا فالسوق هى هى، وقد تكاثرت، مروجوا هذه البضاعة هم هم، وقد نفشوا وأصبحوا أولى قوة تخطف أبصار الناس، وتخيل إليهم من سحر نفاقهم أنها على ركانة، وإن كانت أوهن من نسج العنكبوت، وخاط الهباء، وبنى الريح، وأسس الهشيم المأكول، وما أزعم أننى على بينة من علاج تلك الأسواق، غير أنى أضع أمام القارىء زفرات صادقات، ورميات قاصمات، قابل بها العقلاء والأدباء والكبراء من يحتطبون على موائد هذه الأسواق.

ولعلنا نجد فيما صرح به القدامى من المجربين، والمتحفظين والمتوقين علالات وصبابات، إذا تمززناها وتأملناها واعتبرنا بها، حالت بيننا وبين التسمم، وباعدت بيننا وبين العدوى، فإن السعاية داء دوى، وخطر لا يأتى على شىء إلا جعله جذاذا ثم هشيما ثم هباء.

* * *

وفى الأولين لنا بصائر ...

لما ولى عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك دمشق ولم يكن فى بنى أمية ألب منه مع حداثة سنه قال أهل دمشق: هذا غلام شاب ولا علم له بالأمور، وسيسمع منا، فقام إليه أحدهم فقال: أصلح الله الأمير، عندى نصيحة فقال له: ياليت شعرى. ما هذه النصيحة التى ابتدأتنى بها من غير يد سبقت منى إليك؟ فقال: جارٌ لِى عاصٍ متخلف عن ثغره، فقال له: ما اتقيت الله ولا أكرمت أميرك، ولا حفظت جِوارك، إن شئت نظرنا فيما تقول، فإن كنت صادقا لم ينفعك ذلك عندنا، وإن كنت كاذبا عاقبناك، وإن شئت أقلناك.

قال : أقلنى .

قال : اذهب حيث شئت ، لا صحبك الله .

ثم قال : يا أهل دمشق: أما أعظمتم ما جاء به الفاسق : إن السعاية أحسب منه سجية ، ولولا أنه لا ينبغى للوالى أن يعاقب قبل أن يعاتب ، كان لى فيه رأى ، فلا يأتى أحد منكم بسعاية على أحد ، فإن الصادق فيها فاسق والكاذب بهات .

* * *

ومن هذه المواجهات القاسية الرادة ما روى عن عمر بن عبد العزيز من أن رجلا سعى برجل عنده فقال : إن شئت نظرنا فى أمرك فإن كنت كاذبا فأنت من هذه الآية « إن جاءكم فاسق بنبأ . . » وإن كنت صادقا فأنت من هذه الآية « هماز مشاء بنميم » وإن شئت عفونا عنك .

قال : العفو يا أمير المؤمنين .

قال : على ألا تعود .

* * *

ومن خلال العقلاء كره السعاة وما ينبغى لهم إلا أن يقولوا فى وجهه : إن صدقتنا أبغضناك ، وإن كذبتنا عاقبناك ، وإن استقلتنا أقلناك .

ومن أمثلة الرجال قتيبة بن مسلم ، روى عنه أن رجلا اغتاب آخر عنده فقال له قتيبة : « أمسك عليك أيها الرجل ، والله لقد تلمظت بمضغة طالما لفظتها الكرام .

وإنى لأنهى عجالتى هربا من كرائه هذه السوق التى حرمت على صاحبها روائح الجنة من كل سماع ونقال للكذب بما جاء فى كتب المحاضرات الأولى عن السلف من أن رجلا قال للآخر إن (فلانا) لم يزل يذكرك ويقول : الضال ، فقال السامع العاقل المتوقى : يا هذا . والله ما راعيت حق مجالسته حين نقلت إلينا حديثه ولا راعيت حتى حين أبلغتنى عن أخى ما أكرهه ، اعلم أن الموت يعمنا والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا ، والله يحكم بيننا وهو خير الحاكمين ؟

في صحبة المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي
المدرس بالأزهر

هؤلاء قوم حرمتهم الأقدار نعمة الإبصار ، فحيل بينهم وبين نور الحياة وضياء الكون ، وصاروا سجناء الظلام الدامس ، وآثروا في الغالب زوايا البيوت ، أو منعطفات المعازل ، فأصبحوا رهناء محبس آخر . . ولو اقتصرت بليتهم على ذلك لاحتملوها راضين أو صابرين ، ولكن أهل الحياة جهلوا رسالتهم ، وهضموا حقوقهم ، فأخروا أولئك المكفوفين ولو كانوا أهل تقديم ، وأهملوا شئونهم ولو كانوا جديرين بالعناية والاهتمام ، وصدوهم عن احتلال أماكنهم العالية في المجتمع إذا ما توفرت فيهم مؤهلات ذلك الاحتلال المشروع ؛ بل وتطاول السفهاء ولا يزالون يتطاولون ـ على المكفوفين ، فسخروا منهم وتندروا بهم ، واتخذوهم مسلاة وتلهية ؛ ولعل هذا هو أهم الأسباب التي دفعتنا إلى تخصيص ذلك البحث عن المكفوفين ، ولسنا نريد أن تقتصر ثمرته على الفائدة العلمية التي تأتي عن طريق البحث والعرض ؛ بل نرجو أعمق الرجاء أن تكون صحبتنا هذه مع قرائنا للمكفوفين مدعاة إلى أن تتبدل الحال ، فيأخذ المكفوف مكانته الطبيعية في الحياة ، يتعلم ويتقوم ، ويعمل فيحترم ، ويجاهد فيصل ، ويشارك غيره من المبصرين مشاركة الأنداد .

والكفيف هو الشخص الذي ذهب بصره ، ويقال له أيضاً أعمى والعمى كما تحدثنا اللغة هو ذهاب البصر وعدم الرؤية ، ويقال : عمي عليه الأمر أي التبس وتعامى الرجل تظاهر بأنه أعمى ، ورجل عمي القلب أي جاهل ، والأعميان الليل والجمل الهائج ، وقيل : هما السيل والجمل الهائج ؛ والعماء السحاب ، وقيل هو الذي يشبه الدخان ويركب رءوس الجبال ، وفي المثل : ربما أصاب الأعمى رشده .

ويقال للأعمى أيضاً ضرير ، ويقال له أكمه ، وذلك إذا ولد أعمى . والعمش قريب من العمى ، والفرق بينهما أن العمش هو ضعف رؤية العين مع سيلان الدمعة منها ، كأن المرئيات تستتر عنها بستور الدمع .

وبلادنا ـ مع أشد الأسف ـ أكثر بلاد الأرض عمياناً ؛ وقد تعاونت على إيجاد هذه الكثرة فى المكفوفين بيننا عدة عوامل ، كل منها غول مخيف ، وشيطان رجيم ، فهناك الفقر الذى يمنع من النظافة ومن العلاج ، فينشأ من وراء ذلك العمى وهناك الجهل الذى يدفع بالجاهل إلى ارتكاب السيئات الكبائر فى صحته وفى عينيه على الأخص فيؤدى ذلك إلى العمى ، وهناك المرض المتمثل فى الرمد الشائع الذائع وهذا الرمد له ضحايا من المكفوفين أكثر من ضحايا سواه ، وهناك القذارة التى ابتليت بها بلادنا ، فلم يصدق فى الحملة عليها فرد ، ولم تتعاون فى محاربتها جماعة ، وهذه القذارة تتطاول متجارئة على البصر ، فتصيبه ثم تقضى عليه ؛ وهناك الغبار الذى يثور فى أغلب الأوقات فيحمل جراثيم العمش والعمى فى عجلة وإسراع : ومن السهل عليك أن تلاحظ عند مراجعة هذه الأسباب مجتمعة أن أغلبها ـ إن لم يكن جميعها ـ تتحمل إصره وتبعته الجماعة والدولة أكثر مما يتحملها الفرد الضعيف وذلك لأنها أسباب عامة طامة : ولا طاقة للفرد بالوقوف فى وجهها ، وإنما ينهض بذلك المجموع ، ومن تلك الملاحظة نستطيع أن ندرك فى سهولة عظم المسئولية التى تتحملها الجماعة فى كثرة المكفوفين ببلادنا العزيزة ! .

وعلى الرغم من أننا أكثر بلدان الأرض عمياناً ، فإنا أشد الناس إهمالا لشئون المكفوفين ، وأكثر الناس تفريطاً فى حقوقهم ، مع أن الواجب أن يكون الأمر بالعكس ، فما دمنا قد كثر فينا المكفوفون كثرة لا مثيل لها فى الأقطار الأخرى ، فقد كان لزاماً علينا أن نخصص جهوداً كبرى لنواجه هذه الكثرة بما ينبغى لها أو يجب من رعاية واهتمام ، ولكن هكذا كان الوضع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ، ولا زلنا بلاد العجائب والغرائب وإن كثرت منا الدعاوات . .

ولو أنك ألقيت نظرة على صنيع الأمم فى ميداننا هذا لوجدت المكفوفين فى الأمم الناهضة الواثبة أناسا عاملين مؤثرين ، متساوين مع الآخرين فى الحقوق وأغلب الواجبات ، فللمكفوفين هناك إنتاجهم ونشاطهم ، ومدارسهم ومعاهدهم ، وصحافتهم وكتبهم ، وآثارهم الصناعية والفكرية ؛ ولكنهم بيننا كالمنبوذين ، يعيشون على هامش الحياة وفى أبعد زاوية من زوايا المجتمع ، وبذلك تضيع عبقريات ، وتختفى كنوز رائعة بإهمال أولئك الناس ! . .

وليت أمرنا اقتصر مع إخواننا المكفوفين على النبذ والإهمال ، إذن لخف الأمر وهان ؛ وفي الشر خيار كما يقولون ، ولكن شاعت فينا السخرية بالأعمى ، وألفنا اتخاذ المكفوف موطنا للاستهزاء ، وذلك استخفاف بذيء بالكرامة الإنسانية والحرمة البشرية ، وكأنما الساخر من صاحب العاهة ، أو الهازىء بمن نالته آفة ، يريد أن يبدو في صورة المعترض على الله ، المتغطرس المتكبر على من سواه ، فيكون محطا لنقمة العزيز الجبار ، مستحقا للعنة وسوء القرار .

وطالما شاهدنا ذلك العتل الأثيم الذي يؤنب رجلا مكفوف البصر على خطأ ارتكبه وسمعناه يقول ثائراً وساخراً : « لا لوم عليك فإنك أعمى » ... وكأنما جمع الرجل في كلمة « أعمى » هذه كل صفات الإهانة والتحقير ، فنزلت على كاهل الرجل الكفيف صخرة لحطمته ، وكثيراً ما نسمع من لا خلاق لهم يقولون لمثل هذا الكفيف ساخرين : « حقا إن كل ذي عاهة جبار » إلى غير ذلك من عبارات السخرية والاستهزاء ! .

إن هذا أولا سوء أدب مع الخالق والمخلوق ، فلو أراد الله لجعل الساخر مكان المسخور منه ، فذلك إذن سابق القضاء وحكيم القدر ، والسخرية مما سبق في علم الله ، وجرى بحكمته وهداه محاربة له ، ومن يفعل ذلك فقد باء بسخط من الله وعذاب شديد ... وإن كان المكفوف قد فقد بصره في حادث أو جهاد أو كسب رزق أو تحصيل علم فذلك شرف له ، ومنزلة عليا تنتظره عند ربه ، ليسعد يوم لقائه برؤية جلاله ، والاقتباس من نوره الذي أشرقت له الظلمات [1] ؛ ولقد روى عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلوات الله عليه عن جبريل عن ربه قال : يا جبريل ، ما ثواب عبدي إذا أخذت كريمتيه (أي عينيه) إلا النظر إلى وجهي ، والجوار في داري ... قال أنس : فلقد رأيت أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يبكون حوله ، يريدون أن تذهب أبصارهم : « وذلك اشتياقا منهم إلى التمتع برؤية ربهم ، وهي نهاية النعيم في جنات الخلود » . وفي رواية : إذا أخذت كريمتي عبدي في الدنيا لم يكن له جزاء عندي إلا الجنة :

وحتى لو فقد الكفيف بصره في معصية لكان مستحقا للرحمة والرثاء ، بدل التطاول والاستهزاء ، فرب معصية أورثت ذلا وافتقاراً خير من طاعة أورثت

[١] ذكر ابن أبي الدنيا عن بعض السلف أن الأعمى يرى ملائكة ربه عند قبض روحه .

عزاً واستكباراً ، ورأفتك بالمفرط المكسور عون له على أن ينجبر ويستقيم ، وأما سخريتك منه فتحريض له على العناد والإبعاد فى مهاوى الفساد ؛ ولقد شرب رجل الخمر على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فضربوه حدا وتأديبا ، فقال له بعض الصحابة : أخزاك الله !. فغضب من ذلك وهتف : لا تقولوا هذا ، لا تعينوا عليه !.

وكثيراً ما يكون الكفيف البصر المزدرى فى أعين الناس كريما عند الله ، رفيع المكانة لديه ، قريب المنزلة إليه ، لتفتح قلبه وإن ذهب نور عينيه ، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور ؛ فها هو ذا الصحابى الجليل عمرو بن أم مكتوم يقبل على الرسول وهو مشغول بتذكير الزعماء الصناديد من قريش [٢] ؛ وهدايتهم إلى الله ، فلا يجد الرسول فرصة عاجلة لينفرد بهذا الكفيف الساعى ، فيمهله قليلا ، فينزل الله سورة فى كتابه ، يعاتب فيها نبيه ، ويقول عز من قائل معرضا ومواريا : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ، أما من استغنى فأنت له تصدى ، وما عليك أن لا يزكى ، وأما من جاءك يسعى وهو يخشى ، فأنت عنه تلهى ؛ كلا إنها تذكرة » ! . . .

ولا يصف القرآن الكريم ابن مكتوم هنا إلا بوصف « الأعمى » فى صراحة وجهر ، كأنه يريد أن يقول إن هذا الوصف الذى قوبل صاحبه بالإهمال أو الإمهال كان هو نفسه جديراً بأن يقابل بالرحمة والاحتفال ؛ وصلوات الله وسلامه على من أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه متمما لمكارم الأخلاق ؛ ولذلك كان الرسول إذا رآه بعد ذلك اهتم به وقال له : مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى ، هل لك حاجة ؟ . . . وجعله خليفة وراءه على المدينة عدة مرات مع أنه كفيف ، لأن العبرة بجمال النفوس وطهارة القلوب وسعة العقول . . .

ولقد أعجبت بأدب شاب جلس يقرأ علينا قصيدة يصف فيها صاحبها مدينة خربتها غارات الأعداء ، وكان فينا رجل كفيف حساس ، وكان فى وسط القصيدة هذا البيت :

مشى الموت فيها « ضرير » الخطا ينقل فى كل بيت قدم

---

[٢] من أمثال عتبة وشيبة ابنى ربيعة وأبى جهل وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة .

فلما وصل الشاب إلى هذا البيت تخطاه ولم يقرأه ، وكنت أعلم بوجوده فيها ، فلما انفردت به سألته عن سبب تخطيه له ، وأنا أريد أن أؤكد ظنا كريما جال بخاطرى عن تصرفه ؛ فقال : لقد لمحت كلمة (ضرير) فى البيت قبل أن أنطق به ، فخشيت أن يجرح إحساس فلان فتخطيته ! . . . فشكرت له صنيعه ، وتمنيت لو أن مثل هذا الشعور الرقيق سرى بين الجميع ! .

على أن ضياع البصر اليوم من الإنسان الغيور ، وبقاءه فى الحياة بين هؤلاء الأحياء بدون عينيه يعتبر منحة لا محنة ، إذ يستريح المرء بهذا من مطالعة كثير من المخازى ، ومشاهدة عديد من المآسى ، فهذا زمان تترامى صوره وحوادثه أقذاء فى عيون الناظرين فتعشيها وتدميها ، ولقد كان الشاعر القديم يتطلع إلى دنياه فلا يرى فيها من أناسها من يستحق التطلع إليه والاعتماد عليه . فهتف :

ما أكثر الناس ، لا بل ما أقلهم   الله يعلم أنى لم أقل فندا
إنى لأفتح عينى حين أفتحها   على كثير ، ولكن لا أرى أحدا

فليت شعرى ، كيف لو تأخر الزمن بشاعرنا حتى أدرك زمانا نعيش فيه بأبصارنا ، ونحن نتمنى أن نفقدها لنستريح من خزى ما نرى ونشاهد ؟ ! .

ألا إن سخرية القوى بنقص الضعيف ليست من شيم الرجل الأصيل ، والتذكير بالعورات أو التندر بالعاهات ليس من طبع الرفيع النبيل ، ورسول الإسلام عليه الصلاة والسلام يقول : « بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام ؛ دمه وماله وعرضه » . والمرء يفقد إنسانيته أول ما يفقد حين يسمح لنفسه الأمارة بالسوء أن تستطيل بالاستهزاء أو الاستخفاف على رجل امتحنه الله وابتلاه — لحكمة يعلمها ولا نعلمها — بعلة مزمنة أو عاهة دائمة ؛ وما كانت مكانات الرجال لتقاس يوما بالأجسام والأشكال ، ولكنها تقاس بالأخلاق والأعمال . . .

على أننا حين تنبسط أمامنا صفحات البحث فى صحبة المكفوفين سنرى أن كف البصر ليس عاهة تقبل الهزء والسخرية ، وليس نقصا يعاب عليه صاحبه ، وليس حائلا يحول بينه وبين مراقى المجد وذرا الرفعة ؛ وسنجد من شواهد التاريخ وسوائد الحوادث ومنطق العقل والتفكير أن المكفوفين كانوا عباقرة فى القديم ، وهم أهل لأن يكونوا عباقرة فى الحديث ، لو استقام أمامهم الطريق ! . . .

الاسلام أصل حضارة العالم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

المدرس بالأزهر

يقولون إن المدنية الحديثة أساسها الحرية والإخاء والمساواة، وإن هذه الأشياء لم تعرف أول ما عرفت إلا فى عهد الثورة الفرنسية التى قامت فى آخر القرن الثامن عشر، وإن أعظم أسس تلك الثورة كتاب العقد الاجتماعى الذى « نشره جان جاك روسو » والذى أوله (ولد الانسان حرا) .

ولم يدر هؤلاء المغالون الجهلة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قال من قبل ذلك بما يزيد عن اثنى عشر قرنا (إن الناس سواسية كأسنان المشط ، وأنه ليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى) وذكر ذلك عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بأقوال تكاد تكون أقوال جان « جاك روسو » حكاية لها ، حيث نصح أحد عماله بقوله (كيف تستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا) .

وبعد ، فلا أظن شمس الحرية أضاءت كما أشعلها الاسلام ، إذ أضاءت العالم من مشرقه إلى مغربه كلما انتشرت تعاليمه — أما أوربا صاحبة المدنية الحالية التى أثبتت الأيام أنها مدنية الحجارة والحديد والتشاحن على المادة والعرض وإزهاق النفوس لملء البطون وإشباع نهم الفجور والفسق والفتنة فى السلم ، هذه المدنية لم تعرف اسم الحرية إلا بعد أن احتكت بمدنية الإسلام ، وبعد أن أضاء قبس من نوره من العراق والأندلس ومصر والقسطنطينية .

حتى فى بلاد العرب لم تكن الحرية ذات معنى حقيقى قبل النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا أظن خافياً على أحد ما الذى كان يفعله المتنطعون من قريش والمتزمتون فيها حين كانوا يؤذون رسول الله وأصحابه بأشد أنواع الأذى ، ويذيقونهم أمر أصناف التنكيل مع أنهم لم يزاحموهم على عرض ولم ينافسوهم على جاه ولم يطالبوا بسلطة ولا بحكم ، وإنما كانوا يدعون لدينهم بالقول اللين والكلم الطيب وحده إلى نبذ عبادة الأصنام ، والتفكر فى المخلوقات ليعلموا أنها من صنع الله الواحد القهار .

ومع ذلك فقد أخذتهم حمية الجاهلية وطوحت برؤوسهم إلى العنت والسخف حتى اضطروا الرسول صلوات الله عليه للمهاجرة هو وأصحابه، واضطروهم إلى أن يشقوا بأسيافهم الطريق إلى الحرية، حتى أفاضت بنورها وحتى انكفأت أطباق الظلم، وإذا بالمسلمين يحملون شعلتها المقدسة وفى أولها هذه الحرية، يدعون إلى الله ويدعون إلى المساواة، ألى أن تكسرت أمام أسيافهم وتحت أقدام خيولهم ما عهدته ممالك فارس والروم والمغرب وأوربا من نظام الطبقات، ومن استعباد الناس بعضهم لبعض، مما كانوا يسمونه نظام الإقطاع، وحق السيد أو الشريف على عبيده، وحق الكهنة ورجال الكنائس على عموم الناس.

لم يعرف العالم إلغاء هذه النظم العجيبة قبل الإسلام، ولو قام إنسان فى أوربا فى القرون الوسطى، ودعا إلى المساواة بين الفلاح وصاحب الحقل، أو دعا رجال الكنائس أو المعابد إلى التنازل عما كانوا يدعون من حقوق لما كان له من جزاء أقل من التعذيب والتقتيل والتخريب.

ولقد ضلت المدنية الأوربية طريقها وحادت عن أصلها الأول فى الإسلام وجسموها نظربات فاسدة واتخذوا لها طرقاً لا تمت إلى الحق بسبب، فكانت النتيجة أن انقلبت الأعراض الزائفة، والصور الباطلة، نقمة عليهم وإذا هم يطغى بعضهم على بعض يتكالبون على ما يشبع النهم أو يطفىء ظمأ الشهوة، وما هم ببالغين من ذلك إلا دق الأعناق، ولا براجعين إلا عن طريق روح الإسلام - عند ذلك يتذوقون المساواة الحقة والإخاء الصحيح.

جاء الوحى من عند الله العزيز العليم إلى محمد صلى الله عليه وسلم معلم البشرية الأول، وكان أول بدئه قوله تعالى: « اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، إقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم »

أول الدعوة وأول الرسالة طالب المولى حبيبه بالعلم، يا لها من حضارة تبهر العقول وتستهوى الألباب وتشرح الصدور. يطالب جل شأنه بالعلم، فدين الإسلام إذاً أساسه العلم ووحيه الحق وروحه الحضارة فى أجلى صورها وأبهى معانيها؟ العلم بأوسع صوره وأدق معانيه، وإلا فيما نفسر انتقال العرب بعد إسلامهم من عدادا لأمم الجاهلة المشردة إلى مصاف الأمم الراقية السائدة؟ استغفر الله

بل إلى صف فوق الصفوف صارت فيه وحدها حافظة للعلم والحضارة والفنون دون سائر الأمم . وقد اعترف لها الكافة بالزعامة فى ذلك قروناً طويلة كانوا فيها يؤمون عواصمها يأخذون عنها العلم والحكمة وأسرار الصناعات والفنون ، ولا يزال المؤرخون من جميع الملل والنحل يرددون هذه الحقيقة - أليس هذا لأن الإسلام يفرض الرقى فرضاً ولا يسمح به سماحا .

تحدث القرآن عن ذلك بمنتهى القوة حيث يقول الله تعالى : (وما أوتيتم من العلم إلا قليلا) ويقول : (وقل رب زدنى علماً) ويقول : (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ويقول المصطفى صفوة خلقه (خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت) أى ولو خرجت من فم آثم أو كافر ، فإن الحكمة تلتقط حيث كانت ولا يؤثر على قدسها شيء

كل هذه الآيات وتلك الأحاديث فرضت على المسلمين العلم ودفعت بهم إلى مباحثه دفعا ، والعلم يؤدى إلى الترقى لا محالة بل هو طريقه الوحيد فى كل أدوار البشر . وأى علم هو ؟ العلم على إطلاقه بكل ما يحتمله لفظه ومعناه وبكل ما يؤدى إليه فى الحياة . فإن الدين الذى يفرض على ذويه النظر فى السموات والأرض والذى يقول إنه يضرب الأمثال للناس وما يعقلها إلا العالمون ، والذى يرفع من شأن أهل العلم بحيث يستشهد بهم فى حقه ، والذى يقول رسوله الأمين (فقيه واحد أفضل عند الله من ألف عابد) ويقول (فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة) الدين الذى يفعل هذا يدفع بأهله قهراً إلى طلب العلم ، وطلبه يدفع بهم إلى أطوار من الترقى لا تطوف بخيالهم قبل الدخول فيها .

وإلا فمن ذا الذى كان يتوهم أن العربى الذى يتخيل أن القمر له غلاف اسمه الساجور ، يدخل فيه كل شهر مرة ثم يخرج منه يسيراً يسيراً ليعلل بذلك أطواره المختلفة من هلال إلى بدر . يصبح بعد مائة وخمسين سنة يعرف من أحوال هذا الكوكب ما يعرفه أكبر الفلكيين إذ ذاك .

ومن ذلك الذى كان يتصور أن ذلك العربى الجاهل يصبح بعد تلك المدة القصيرة وبيده ذلك القبس من العلم يعشو إلى نوره العالم من جميع أرجاء الأرض يأخذون عنه ما جعله الله أمينا عليه دون خلقه - من ذا الذى يستطيع أن يتخيل

هذا لولا أن الإسلام قد أوجب على متبعيه الانقياد لقاموس الترقى إيجابا ، لا أنه قد أباحه لهم تخييرا .

لم يكتف الإسلام بالدعوة إلى العلم فحسب ، ولكنه تغلغل فى نظام الاجتماع ووضع من القواعد ما يعتبر المنار الوهاج لهداية الناس إلى ما يسمو بهم فرادى وجماعات ، وإلى ما يقر حالهم من حيث معاشهم ومعادهم ، فكان النظام الاقتصادى أبدع من النظم الاقتصادية التى عرفت من قبله والتى ولدت من بعده ، هذا النظام هو نظام توزيع الثروات توزيعاً عادلا مشبعاً بروح المودة والرحمة والاحترام بين الطبقات ، وذلك النظام هو نظام الزكاة وحسبنا لو طبق هذا النظام على وجهه الشرعى الصحيح أن تهرب الأشباح المخيفة التى تطغى على العالم الآن باسم الشيوعية والنازية والفاشية والرأسمالية ، وما إلى ذلك مما يسير فيه العالم متخبطا بين ظمأ الجشع وواجب الرحمة .

ثم كان تنظيمه للأسرة وعلاقة الرجل مع زوجه وأولاده وأقاربه فى حياته وبعد مماته نظام عجيب منشؤه التواصل والتراحل والتعاطف ، وإن برم به الغربيون وغيرهم ممن فى قلوبهم مرض ، وعابوا عليه بعض الشيء . فهم ولا بد راجعون إليه بطبيعتهم مندفعون إليه بغرائزهم ، هذا من ناحية وهناك ناحية أخرى اجتماعية لها دقتها ومكانتها وقد وقف منها الدين الاسلامى موقفاً عظيما يدل على منتهى السمو والعظمة إلا وهو الطلاق وإباحته مع بغضه وتقييده بتلك القيود البالغة منتهى الدقة حيث يقول جل شأنه (فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا) ثم بعد ذلك يقول (الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان) :

أين حضارة الغرب هنا ؟ بل أين مدنيته ؟ ها نحن نراهم يرجعون إلى ديننا فى هذه المسائل كلها ، وما ذلك إلا لصلاحيتها واستقامتها وتمشيها مع روح العصر وها هم يقتربون منا كل يوم .

ولو نظرنا قليلا فى تقاليد المجتمع وما يسميه الغربيون بنظام (الإتيكيت) والآداب الاجتماعية ، ونظرنا إلى نظام الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لنرى أيهما أقوى دعامة وأرقى مدنية وحضارة .

يقول الله تعالى فى آداب دخول البيوت والاستئذان لرجال ربوا على البداوة وعاشوا فى أحضان الطبيعة « يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون فإن لم تجدوا فيها أحداً فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أذكى لكم »

ويقول فى آداب الجلوس « يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا يفسح الله لكم » وغير ذلك من الآيات :

بل نظم العلاقة بين الأفراد والعائلة بالنسبة لبعضهم البعض داخل بيوتهم حتى يلزمهم حسن الأدب محافظة على الكرامة فقال (يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات : من قبل صلاة الفجر ، وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ، ومن بعد صلاة العشاء ، ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض)

تعليم إلهى وأدب سماوى وأخلاق قدسية تدل على الحضارة الحقة الكاملة ، حضارة لم تغير معالمها تلك الحضارة الزائفة التى وجدت فى هذا القرن والتى كان منتهاها هذا الدمار الذى نشاهده وتلك الحرب الضروس التى نراها اليوم والتى أطاحت بدول وأذهبت ممالك وثلت عروشاً كانت تفخر بأنها بلغت الذروة فى الحضارة حتى إن رئيس إحدى هاتيك الدول قد اعترف والقلب منه دام ، بأن الخلاعة والمجون كانا السبب المباشر فى انهيار دولته العظيمة والتى كانت تباهى الأمم كلها بحضارتها وتفخر عليهم بها

إن حضارة الإسلام مبناها النظام الروحى والإخاء الإنسانى الحق ، لذلك بقيت تعاليمه صحيحة لم تغير معالمها الأيام ، ولم تقوض صروحها السنون ، بل إنها تزداد على مر الأيام قوة وتمكناً

وها نحن ننتظر أن يثوب العالم إلى رشده ويرجع إلى عقله فينشد الأمن والسلام فى دين الإسلام ويفتش عن الحضارة فى هذا الدين ليعتنقها الجميع وعند ذلك تنقطع الثورات وتهدأ الحروب ويتركز العالم على سياسة واحدة حقة ، وهى سياسة الله العلى القدير . والله الموفق لأقوم طريق .

دعوة الإسلام إلى المساواة

لفضيلة الأستاذ الشيخ سيد شريف

المدرس بمعهد القاهرة

لرسول الإنسانية محمد بن عبد الله أياد بيضاء على المجتمع ما أجلها . وفضائل شماء اختص بها العلى القدير ذلك الذى توافرت فيه أكرم الصفات . فجعلت منه عبقريا فذا . وقائدا موفقا . وداعيا إلى الله بإذنه يثوب إلى هديه الحائر ، ويستضىء بنوره الضال ، ويؤمن بدعوته المنصف . ويخشى هيبته المتمادى . ويتضاءل لعظمته المتكبر . حتى خلق من عرب الجزيرة على تنافرهم . وتباغضهم . وتأصل أسباب الفرقة بينهم . أمة قوية الدعائم . شامخة البناء . تربط بينها أواصر الدين . وتؤلف بين قلوب أبنائها تعاليم الله . وتغرس فى نفوسهم رفيع السجايا . وجميل الخلال التى جعلت من العربى . الجاف الطبع . الغليظ اللفظ . الثائر المندفع . الشره الحاقد . إنسانا مرهف الحس . لين العريكة . مهذب القول . يكفيه من متاع الحياة ما يسد رمقه . ويقيم أوده ويحفظ عليه حياته . بل تسامت به القناعة ونكران الذات إلى أن يؤثر أخاه على نفسه . ويخرج له عن جل ماله . من طارف وتليد . وتلك مساواة إسلامية . يعبر عنها المحدثون بما يشاءون . دان بها السلف وأخلصوا فى تنفيذها حتى أصبحت خلقا لهم . ودستورا نافذا بينهم . يحببه إليهم ما تمتلىء به قلوبهم . من حب لله ورسوله . وإخلاص للدعوة الرشيدة . دعوة الإخاء والتراحم والتواد والتعاطف . ونبذ الفوارق التى تدعو إلى التخاصم والتناحر . والتفاخر بالأحساب . والتباهى بالأنساب . وتناسى ما وقر فى أذهانهم من عصبية جاهلية . جعلتهم ينكرون على الرسول الأمين فى مبدأ الدعوة . مجالسة الفقراء وأحاطته لهم بمزيد من رعايته وتقديره ، وقر رأيهم على أنهم لا يستطيعون أن يؤمنوا بدين يسوى بين الأشراف ذوى الجاه ، وبين الفقراء المنبوذين إذ ذاك ، حينما بصروا عند رسول الله بصهيب ، وخباب ، وبلال ، وغيرهم ممن ليسوا من ذوى العصبية .

وأبناء الأسر ، رغبوا إليه أن يبعدهم عن مجلسه . فلما أبى ضنا بهم . وإيثارا لهم ، وقال : (ما أنا بطارد المؤمنين) قالوا اجعل لنا مجلسا ليس لهم أن يحضروه . فإذا فرغنا مماقصدنا إليه هرعوا إليك كما أرادوا ، فقال نعم طمعا فى إيمانهم . وكان ذلك بحضرة عمر رضى الله عنه . ولكن الله آثر القضاء على الفوارق داء المجتمع العياء . على إيمانهم . فنزل قوله جل شأنه (ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شىء وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين) .

ثم شدد سبحانه النكير على دعاة التفرقة ، والتقريع لهم بأسلوب لا يدع مجالا للثقة فيهم ، والركون إليهم . والاطمئنان لهم ، ما داموا يتمسكون بهذه الطائفية المرذولة التى تدفعهم إلى أن يقولوا نحن سادات مضر وأشرافها إن أسلمنا تسلم الناس ، وإن وفود العرب تستحى أن ترانا قعودا مع هؤلاء الأعبد ، فقال تعالى : (واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى) إلى أن يقول : (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا) .

وبذلك تقرر هذا المبدأ القويم : مبدأ المساواة بصورة عملية قاطعة . سدت كل المنافذ أمام أولئك النفر من عظماء قريش ، الذين أملوا أن يبقى لهم فى ظل هذا الدين نظامهم الموروث عن آبائهم وأجدادهم . وكان من أجلى مظاهره . غطرسة وكبرياء . وعنجهية تدفعهم إلى حب الظلم . والتعلق بالاستبداد . فلما خاب ظنهم . وكذب حدسهم . حاربوا الدين . وخاصموا أتباعه . وأنزلوا بهم أنواعا من القسوة . وصنوفا من الاضطهاد . وألوانا من العذاب . اضطر معه المؤمنون أن يفروا حرصا على دينهم . وصونا لعقيدتهم . وييمموا وجههم شطر المدينة . فلما بلغوها . وجدوا أن الدعوة الجديدة التى تهدف إلى أنه لا فرق بين أبيض . وأسود . وقرشى وغيره إلا بالتقوى وأن المسلمين مهما تباعدت ديارهم . واختلفت ألوانهم . وتباينت ألسنتهم . هم فى الدين أخوة ويسعى بذمتهم أدناهم . وجدوها قد نمت . وأينعت فى مهجرهم . وليس أدل على ذلك مما قابلهم به الأنصار . من حفاوة بالغة . واستقبال عظيم . ورضى سابغ . عبروا عنه بقولهم للرسول صلى الله عليه وسلم

مدفوعين بأخوّة صادقة للقادمين عليهم . وحب أكيد لهم (أموالنا بينهم قطائع) حينما قال لهم (إن إخوانكم قد تركوا الأموال والأولاد وخرجوا إليكم) والقرآن الكريم يذكر هـذه المعاملة الطيبة فى قوله تعالى [والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون] وقد سادت بينهم جميعا صلات قوية على أسس من التعاون والمودة . فى ظل سلم يصونه ما يتذرعون به من غنى نفس . وإيمان صادق . يحفزهم إلى القضاء على الفتنة فى مهدها . قبل أن يبزغ قرنها . ويندلع لهيبها . وهم أعرف الناس بآثارها لأنهم قد طحنتهم حروب العصبية . ولفحت جباههم نيران العداوة والبغضاء . أيام جاهليتهم . وقد حرص الرسول أشد الحرص على أن تكون الوحدة فى كنف التسامح والمساواة حقيقة واقعة . تنتظم الأنصار والمهاجرين . ومن يجاورهم من اليهود . سيما وقد وضحت لهم محاولة المنافقين الوقيعة بين الأوس والخزرج من المسلمين . وبين الأنصار والمهاجرين . يؤيد هذا ما روى عن جابر بن عبد الله أن رجلا من المهاجرين كسع رجلا من الأنصار . فانتهزها ابن أبىٍّ فرصة مواتية . لأن ينفخ فى بوق الفتنة ويثيرها حربا شعواء . تبعث العصبية من جديد إذ قال فى رهط من قومه . قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا وهذا ما فعلتم بأنفسكم . أحللتموهم بلادكم . وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير بلادكم . فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك عند فراغه من غزوه فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب . فقال يا رسول الله مر به عباد بن بشر بن وقش فليقتله فقال رسول الله . فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه وإذاً ترعد له أنف كثيرة بيثرب . وقال لمن تدفعه الغيرة إلى أن يدلى دلوه فى الفتنة . دعوها فإنها منتنه .

لذلك كتب كتابا بين الأنصار والمهاجرين وادع فيه اليهود وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم . واشترط عليهم . وهذا الكتاب يعتبر بحق وثيقة إسلامية . تفيض تسامحاً لا يعرف العصبية . الظالمة ومساواة باعدت بينهم وبين

القبلية الغاشمة . وعدلا لا يصدر إلا عن نفس نقية طاهرة تجردت عن الغرض والهوى . ولم يتحكم فيها مأرب . أو تستخفها شهوة . تدعو إلى نكث العهود . ونقض المواثيق . بدافع من الأثرة وحب الذات . وابتغاء منفعة عاجلة . وانتهاز فرصة مواتية . كما نرى الآن ممن ينطقون بالألفاظ الجوفاء . والعبارات المعسولة التى تنادى بالحرية والنصفة . وإقامة نظام سلمى دائم . يحفظ للأمم الضعيفة كرامتها واستقلالها . ويهيب بالأمم القوية . أن تتبادل معها علاقات الحب والتعاون على قدم الإخلاص والوفاء . ومع ما يتصايحون به ويتسابقون فى سبيله من عقد المحالفات بأسمائها المتنوعة . تحس منهم الأمم خلاف ما يظهرون . إذ يشيع بينهم حقد تغلى مراجله . ونهم لا تخفى مظاهره . وإسفاف فى الخصومة بلغوا به الغاية . وإمعان فى العدوان بدّد الثقة فيهم . والركون إليهم . وتبلبلت الأفكار وتشعبت بينهم الآراء تتبع الأهواء .

أين هذا من قول الرسول فى عهده الذى لم يحد عنه قيد أنملة (إن من اتبعنا من يهود . فإن له النصر والأسوة . غير مظلومين . ولا متناصرين عليهم . وإن سلم المؤمنين واحدة ، وإن يهود بنى عوف أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم . وللمسلمين دينهم . مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوقع إلا نفسه وأهل بيته . إلى أن يقول . وإن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم . وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة . من حدث أو اشتجار يخاف فساده . فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد صلى الله عليه وسلم على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم . وإن يهود الأوس . مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع للبر المحض من أهل هذه الصحيفة) وقد واصل الرسول بذل الجهد لمحاربة الفوارق والعنصرية أينما وجدت وكيفما كانت . ولذلك عنى أشد العناية بمحاربة هذه النغمة البغيضة يوم الفتح حين أذن بلال على الكعبة فغضب الحارث بن هشام . وعتاب ابن أسير وقالا هذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة فنزل قوله تعالى يظاهر الرسول . ويعينه على المضى فى دعوته . (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقال صلى الله عليه وسلم رب اشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له ـ لو أقسم على الله لأبره .

بهذه الدعوة الإنسانية القويمة دعا الإسلام ، وقد استجاب لها المسلمون الأوائل ، وأخلصوا فى تنفيذها حتى جمع البلد الواحد بين المسلم والنصرانى واليهودى ، ينعمون فيه جميعاً بحياة مليئة بالهدوء والاستقرار فى جو من الثقة وحسن التفاهم ، وقد سارت تقفو أثره . ولا تنفك عن متابعته فى سرعة انتشاره . حتى أصبحت من متممات العقيدة . يدين بها المسلمون فى الحواضر والأمصار . فى الجزيرة وغيرها من بلدان المشرق والمغرب .

وحسب الباحث المنصف أن يرنو ببصره إلى بلاد الحضارة الآن التى قامت على أنقاض مجد الإسلام بعد أن حارب أهلها تعاليمه . وجعلوا معتنقيه شيعاً وأحزابا . فهان أمرهم ، وضاعت هيبتهم . وأسلموا تراثهم . ورضوا بالمظاهر المصطنعة . مما تخجل له نفس الأبى الحر . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . حسبه أن يلقى نظرة فاحصة ، ليتبين كيف غلبت المادة على الروح ، والحيوانية على الإنسانية ، والأنانية التى دفعت بها العنصرية إلى أن تظهر شيئاً فشيئاً حتى إذا كانت لها الغلبة والسلطان . طمست معالم التسامح والمساواة وغدا التفاضل بين الأجناس شرعة ومنهاجا . ليس من حرج على أحد أن يعمل له . ويجهر بالدعوة اليه ، وها هى ذى بلاد الدنيا الجديدة ، البيض فيها يفرون من الحمر . فرار السليم من الأجرب . يظلمونهم . ويحقرونهم ، ويقيدون حريتهم ، ويضربون حولهم نطاقا من المهانة والإذلال ، ولا يسمحون لهم بالسكنى فى أحيائهم أو الدنو منها ، وويل لمن تسول له نفسه هذا العمل . سيلقى حتفه . ويهدر دمه . وليس لأحدهم أن يغشى لهم مجتمعاً . أو أن يلج لهم نادياً من نواديهم ، فضلا عن أن تجمع بينهم وشائج المصاهرة . وقد قامت دنياهم وقعدت عند ما اقترنت بيضاء بزنجى . أليس ذلك وغيره أقوى دليل على أن الإسلام دين المساواة الحقة ، والحرية الوارفة ، وهو ملاذ الإنسانية . يحميها من العنت والتحكم ، ويدعو إلى العدالة الاجتماعية التى هى دعوة الحاضر ، وهيهات أن يتحقق منها بين مختلف الأمم والشعوب ما تحقق فى الماضى بفضل تعاليم الإسلام . وما سيتحقق فى المستقبل لو رجعوا إلى دستور الله القويم .

صفحة من المجد

لفضيلة الأستاذ محمد خليفة

المدرس بمعهد القاهرة

من ذلك الأسود الداكن الذى منحه الليل جنحه ، ونسج هو من جبينه لصفحات الليالى أجنحة ؟ ولدته الأحداث ، وارتضع من أهوال الليالى فتدفقت الأهوال فى دمه فهو وليد الأحداث وهو رضيع الأهوال وهو الذى يعيش لهما ، يحسبه الرائى أنه ليس من طينة هذا البشر ولكنه من طينة أخرى صهرتها عزيمة أمضى من عزائم الجن فكانت ذلك المخلوق الفدائى الذى عرفه تاريخ الإسلام جلداً راسخاً كالطود والأجسام تتساقط حواليه ، والرؤوس تتطاير ، والقلوب تتمزق ، والأشلاء تتناثر والدماء تتفجر، وهو هو الساخر من الموت البسام لعواصف الردى . لقد ركب البحر المائج وبين جنبيه قلب يموج ويهدر ، وفى رأسه أفكار تصطخب وترعد ، وخواطر ترغى وتزبد ، وفى نفسه آمال تجيش وتثب وليست الذهب أو الغيد أو العيش بين الزهر والكأس : لا : إنها الآمال الكبار ، إنها الفتح والنصر ، لقد عاش فى الصحراء يحمل قلبه من صخرها قوة وصلابة ، ويحمل من اتساعها أملا كاتساعها ، ومن آسادها عزائم أسادها ،وقد انطبع صفاء الصحراء فى نفسه فكانت أصفى من الصفاء فى مواطن الصفاء كما كان صورة لروعة الصحراء ورهبة الصحراء فى مواطن الدماء .

وجاءته شرعة الإسلام فرآها شريعة الحق فوهب نفسه ودمه للحق يناضل له ويموت فى سبيله .

إنه طارق بن زياد ، إنه البطولة ، إنه أول فدائى مست أقدامه تراب أوروبا واستهان بالموت فى سبيل تركيز راية الإسلام فوق صخور المضيق تخفق

فتنخلع فى خفقاتها قلوب المالكين الذين استعبدوا الناس ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

لقد مخرت السفن فى ذلك البحر الزاخر وفى طليعتها طارق يزخر قلبه بشكول من الآمال وألوان من الأفكار .

تطلع طارق إلى ذلك الصخر الداكن الذى تبدى من بعيد ، فرأى فيه صورة لوجهه ، ورأى فى أخاديده وأغواره صورة لأعماق نفسه .

ورأى فى ثباته وتوطد جوانبه أمام ثورة البحر الطاغية ، وأمواجه العاتية ، صورة لموقفه الذى يجب أن يكون أمام المستقبل الذى يرتقبه ، وما يحمل بين أيامه ولياليه مما يشبه طغيان البحر وعتو الأمواج

وما كادت السفن تقارب الشاطىء حتى وثب إلى الشاطىء ، ليثبت للدنيا أن الحياة وثبات ، وأن الذى يتحسس موطىء قدميه خوفا من أشواك الحياة أو رهبة من أغوارها وأعماقها خليق به أن يتدثر بخمار غانية لا أن يلبس لأمة الحرب ويدرع للأهوال وبين جنبيه قلب العذراء

لقد تواثب فى أثره الجند وكلهم كطارق فى سخريته من الموت واستهانته بما تعبئه الأندلس من عدة أو عتاد

وهنا تطلع طارق إلى تلك السفن الرابضة إلى جانب الشاطىء فرأى فيها باب الحياة لأولئك الذين قد يطلبون الحياة إذا عجزوا عن لقاء الموت ، فأشعل النار فيها وهو يبتسم ، والجند فى حيرة من هذا القائد يتساءلون عن السر ، فلا يجدون جوابا غير ألسنة النيران تصاعد إلى السماء ، حتى إذا صارت السفن حطاما تتقاذفه الأمواج ورأى أنه قد خلص جنده من عبودية الجبن الذى قد يكون حين تبدو نواجذ الموت وقف على الصخرة يصرخ فى جنوده ، فتنسيهم صيحاته كل شىء إلا الحق الذى يكافحون له والمجد الذى يجب أن يستشهدوا فى سبيله حتى تقوم صروحه من أشلائهم لقد وقف يقول :

أيها الناس أين المفر ، البحر من ورائكم والعدو أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر، واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدبة اللئام، وقد

استقبلكم عدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم إلا سيوفكم ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم ، وان امتدت بكم الأيام على افتقاركم ولم تنجزوا لكم أمرا ذهبت ريحكم وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة بمناجزة هـذا الطاغية ، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت

ونظر طارق وراء الأفق البعيد فاذا الأندلس تلقى اليه بخيلها ورجلها أمواجا من البشرية تتدفق وأعلاما تسد الأفق تخفق وتضطرب .

ما هذا ؟ إنه لذريق ملك الأندلس يزحف فى جيشه الجرار ليقذف بأولئك الحفاة الى البحر طعاما شهيا للأسماك والحيتان

انه لذريق يسير فى مائة ألف مقاتل يركب مركبه التى لم يحلم بها ملك من قبل ولا من بعد ، يحيط به من حرسه الخاص عشرة آلاف من الرجال الأشداء

انه لذريق أعجبته جنوده فانفجر ضاحكا يسخر من أولئك الجياع الذين جاءوا يطلبون عرشا عز على القياصر طلبه

وزحف طارق لا يريد الميمنـة ولا يبغى الميسرة ، ولـكنه يريد الخطر يريد القلب وحده فإما أن يناله فيكون النصر وإما أن يهلك قبله فتظل العاصفة جائحة ويكون قد شق الطريق لها إلى القلب لتعصف به وتأتى عليه وفيه لذريق وعندئذ يكون النصر .

ان أسبانيا وما عبأت أسبانيا لن تثنى طارقا أو ترده ، أنه يريد أن يضع قدمه على قمة جبال البرانس ويؤذن فى الوجود : الله أكبر الله أكبر .

ووثب طارق وثبتـه وانطلق كالرياح بل أسرع من نكب الرياح يزعزع الحراب والقنا ويحصد السيوف والرماح فزاغت أبصار الأسبان وبلغت قلوبهم الحناجر ولووا وجوههم يترقبون مخرجا من لقاء الموت فإذا العاصفة تزلزل الأرض

من تحتهم وإذا التكبير والتهليل يفجر رؤوسهم . لا . لا ليس هؤلاء المسلمون من طينة البشر وما من قوة فى الأرض تقف أمام قوة السماء .

إن هؤلاء خلقوا فى مصنع المعجزات السماوية فلا طاقة لأحد بهم .

وأدار الأسبان ظهورهم وأطلقوا للرياح سوقهم .

وأدار لذريق بصره فلم يجد حرسه الخاص الذى يبلغ عدده عدد جيش المسلمين.

ولم يسمع غير أصوات المنايا تقترب منه فقفز من مركبته وفر مع الفارين بل كان أسبق الفارين .

ولكنه ولى وللطعن سورة إذا ذكرتها نفسه لمس الجنبا

فأين لذريق ؟ وأين ضحكات السخرية التى كان يملأ بها شدقيه ؟ وأين نظرات الازدراء التى صعدها وحدرها فى أولئك المسلمين الذين لفظتهم الصحراء على معقل لذريق الشامخ ؟ إن التاريخ أثر بعد تلك الموقعة فى لذريق فغير أثوابه الملكية وتاجه العظيم على شاطىء النهر ولعلى النهر أبى ألا أن يكون بين قاعه قبر الطاغية .

وسار طارق يمد جناحيه على شرق الأندلس وغربها حتى وافاه سيده موسى ابن نصير فتقدما وزحفا حتى بلغا جبال البرانس ووقف طارق على قممها الشاهقة يحقق حلما من أحلامه الجميلة . وأمنية من أمانيه العذاب .

أنه أطلق صوته فوق هذه الجبال يؤذن فى الوجود : الله أكبر الله أكبر .

وخر ساجداً لله شكرا وحمل الصدى روعة الأذان يجلجل بها فى أوروبا فوضع الفرنسيون أيديهم على صدورهم يتحسسون موضع قلوبهم يخشون أن تكون قد فرت من جنوبهم فلم يحسوا بفرارها .

لقد أذهلهم الرعب عن كل شىء حين رأوا موسى بن نصير وقد وقف على قمة البرانس وأرسل طرفه إلى الشرق البعيد ثم صاح : سآخذ طريقى الى الشرق عن

طريق شمالى (بحر الروم) البحر الأبيض ولا بد أن أجعل منه بحيرة عربية ، حلم جميل ليته تحقق وقد كان فى قدرة المسلمين الذين أخضعوا الأكاسرة وأذلوا القياصرة أن يجعلوا أوروبا كلها مسلمة ولكن لم يرد الله الخير لشعوبها :

يا شباب الشرق : إن طارقا بنى للإسلام دولة وشاد للمسلمين مجداً فى بلاد الأندلس فهل عجز الشرق أن ينجب مثل طارق

يا شباب الشرق إن مصنع المعجزات الذى صنع طارقا هو كتاب الله وهو حى خالد فهل عجز الشرق أن يصنع فى مصنع المعجزات فى ألف طارق :

يا شباب الشرق لقد داس طارق وجند طارق بأرجلهم الذهب وما هو أغلى من الذهب فلم يشغلهم بريق المال ولم يذهل المال والجمال رجل الصحراء عن رسالته التى حملها وجاء من أجلها وهى الجهاد فى سبيل الله حتى يتم الله نوره .

يا شباب الشرق : إن المغاربة الذين فتحوا بالأمس الأندلس وروعوا فرنسا هيض جناح أحفادهم اليوم فتحكم فى الأحفاد عبيد الأجداد فهل يعيد التاريخ نفسه فيقوض حفات الصحراء بأيمانهم وأخلاقهم عروش الجبارين :

يا شباب مصر : أنظروا إلى أولئك الحفاة الجياع من جند طارق وقد عزت نفوسهم فى ميدان الجهاد فلم تعزهم الدنيا ولا زخارف الدنيا وهى بين أيديهم وتحت أرجلهم ثم انظروا إلينا اليوم ونحن متخمون وتأبى نفوسنا الضعيفة إلا أن نقدم حياة جنودنا ثمناً رخيصاً لقصور نبتنيها أو ضيعة نملكها فنهدم مجد أمة لنترك للأولاد والأحفاد ثروة ينعمون فى ظلالها :

أيها الشباب :

لا تكونوا عالة على التاريخ ولا تعيشوا على موائد الماضى بين ألوان الذكرى بل شيدوا لكم حاضراً تذكركم به الأجيال المقبلة واطلبوا الموت توهب لكم الحياة :

لمحات فى النظم التعبدية :

الرهبانية والديرية والتصوف

لحضرة الأستاذ عبد المنعم الشيخ

مدرس بالأزهر

تعشق النفس دواماً ، أن تحيا مع هؤلاء الذين وهبوا أنفسهم للخالق ، وحبسوها على طاعته ، ابتغاء مرضاته ، وتقرباً لذاته العلية ، وطمعا فى فيض نوره الذى يهدى الأرواح الحائرة ، وسط حياة مفعمة بالظلمة والآثام . . . أحببت أن أحيا مع هؤلاء ساعات من زمان عمرى ، فإلى قراء هذه المجلة أهدى هذه الساعات !

سأعرض فى بحثى هذا ، للرهبانية والديرية والتصوف ، مع عقد المقارنة بينهما ، كلما لاح لى وجه ملائم لهذه المقارنة . اشتقت كلمة « الرهبانية أو الديرية monastcism » من كلمة يونانية ، معناها الوحدة والانفراد ، ومن هذه الكلمة ، تولدت جميع المشتقات ، التى تعطى هذا المعنى . فكلمة « monk » معناها الرجل الراهب ، أو الرجل الديرى ، وكلمة « monastery » معناها الدير ، وهو المكان الذى تنتظم فيه جماعة العباد التى آثرت هذا النوع من الحياة . وهذه العزلة ، ليست فى عرف جميع قديسى هذه الحياة الانفرادية ، الانقطاع الكلى المطلق ، عن الحياة النابضة المتطورة فى الخارج ، وتجشيم النفس ما فوق طاقتها من المتاعب والمصاعب . وإلى هذا الانقطاع الكلى المطلق ، وإذلال النفس ، وحرمانها أنعم الله ، ومتع الحياة ، أشار النبى عليه الصلاة والسلام بقوله « لا رهبانية فى الاسلام » ويحسن أن نثبت فى مستهل هذا البحث ، أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية ، ليستا من أنظمة المسيحية الخاصة ، فإنه لم يتح لهما من النماء والتطور قدر ما أتيح لهما فى ظل المسيحية . أما عن أصل اشتقاق « صوفى وصوفية ومتصوف ومتصوفة وتصوف » فقد ورد فى ذلك كلام كثير ، ويعنينا من كل ما قيل ، ما رسخ لدى العلماء اليوم ، وهو أن الاسم مشتق من الصوف ، وأن القوم اختصوا بلبسه ، تمييزا لأنفسهم

عن الطبقات التى درجت على البذخ وانغمست فى الترف . ونظرة لكلا الاشتقاقين فى الرهبانية والديرية والتصوف ، ترينا أن القوم فى كل ، نظروا الى الحياة نظرة زهد ، وعزفوا عن مباهجها وملاذها ، وذلك يتفق مع ما نعرف من أن هذه الأنظمة التعبدية ، قد نشأت كلها عن الزهد .

وسأتناول الآن ماهية كل من هذه الأنظمة ، لنقف على ما بينها من أوجه اشتراك وأوجه افتراق : عرفت الوثنية الرهبانية والديرية ، ولكن المسيحية لم تعرفها قبل القرن الثالث الميلادى ، ولم تعم هذه الحياة الشرق وتنتشر فيه قبل القرن الرابع ، كما أن القرن الخامس شهدها متناثرة فى غربى أوربا ، ولم تعم وتنتشر هناك إلا فى القرن السادس . ولقد نبتت أولى بذور هذه الحياة فى الشرق ، وفى ذلك برهان قوى على التأثير الشرقى فى المسيحية . والأصل فى الرهبانية والديرية ، هو الانفراد والابتعاد عن المجتمع الغارق فى المنكرات ، السادر فى الموبيقات والفرار بعيداً عن صليل المادة المسكر ، هذا مع التقشف فى العيش ، والاكتفاء بما يقيم الأود ، بالقدر الذى يهىء للعبادة والتأمل فقط . وهناك فرق بين الانعزالية الرهبانية والانعزالية الديرية ، فالأولى هى حياة فرد من الأفراد ، ضاق ذرعاً بالحياة المضلة من حوله ، فراح يلتمس سعادة نفسه وهدوءها فى رحاب الله ، بالابتعاد عن الخلائق والتفرد للخالق .

أما الانعزالية الديرية ، فهى عيشة اجتماعية فى دير من الأديرة ، خارج نطاق الحياة البشرية العامة ، وهى عيشة منظمة كالية ، ليس فيها قسوة الرهبانيه وشدتها إذ هى حياة تعاونية ، فى ظلال التعبد والتقرب من الله . هذه هى الرهبانية ، وتلك هى الديرية ، أما التصوف فتبدو ماهيته من التعاريف الآتية :

قال رويم بن أحمد البغدادى « التصوف مبنى على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار والتحقق بالبذل وترك الغرض والاختيار » وقال الكرخى : (التصوف هو الأخذ بالحقائق واليأس مما فى أيدى الخلائق) وقال الجنيد : (أن تكون مع الله تعالى بلا علاقة) وقال ابن خلدون فى مقدمته : (الصوفية

من العلوم الشرعية الحادثة فى الملة . وأصلها العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله تعالى ، والإعراض عن زخرف الدنيا ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة . وقد كان ذلك فاشيا فى الصحابة والسلف . ولما عم الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المتمبلون على العبادة باسم الصوفية أو المتصوفة) يتضح لنا من العرض السالف لماهية هذه النظم التعبدية ، أن بينها أوجه العلاقة الآتية:

١ — أنها جميعا تتفق فى هجر المجتمع القائم الملىء بالشرور والآثام ، إلى مكان منعزل تمارس فيه طقوسها الدينية خالصة لوجه الله وحده ، وسنرى فيما بعد أن قيام هذه النظم كان رداً على موجات الفساد التى اجتاحت المجتمعات حينذاك .

٢ — هذه النظم جميعا يطبعها التقشف والزهد فى الحياة ، وهو طابع يضاد ما فى حياة المجتمعات حينذاك من إغراق فى البذخ والترف وإقبال على الدنيا ونسيان للخالق . ولذلك فكثير ممن انضووا تحت لواء هذه النظم آثروها لأنهم فشلوا فى مواجهة أحداث الحياة.

٣ — أن الإسلام قد رفض الرهبانية كنظام تعبدى من أنظمته ، وذلك لأن الإسلام دين اجتماعى يكره الانحلال الاجتماعى ، ويكرم النفس البشرية فلا يحملها فوق طاقتها ، ونحن إذا علمنا أن من بين جماعة الرهبان من يعيش فى أعماق الصحراء ، ومنهم من يعيش فى صومعات تتصل بالخارج بواسطة فتحات صغيرة ، ومنهم من يعيش فوق الأشجار ، ومنهم من يحمل نفسه السلاسل والأغلال ويترك لحيته وشعره يتدلى فى غير نظام ، ومنهم من يقضى حياته تضوراً . إذا علمنا ذلك أدركنا حكمة الإسلام فى قول النبي (لا رهبانية فى الإسلام) ونحن نعرف المثل القائل : (إن إنكار الجمال هو فى الحقيقة نغمة ضدية لمن يتشدقون بالقداسة) فنرى هؤلاء القوم وقد أعرضوا عن النظافة والراحة واللذة وفضلوا الفقر والذل الحيوى ، وكل هذا مما يأباه ديننا الحنيف ، وهناك وجه شبه بين الديرية والتصوف ، فللعباد فى الأولى ديرهم ولهم فى الثانية خلوتهم وتكيتهم .

وسأتناول الآن الظروف التى قامت فيها هذه الأنظمة ، وسنرى أنها جميعاً نشأت فى ظروف تكاد تكون متشابهة : لقد ثارت النفوس ضد الامبراطورية الرومانية التى لاحت وثنيتها محتملة الوقوع فى القرن الرابع الميلادى ، والواقع أن الخلاعة والفجور والإفراط فى المجون ، قد أثر فى الأرواح الحساسة الشاعرة . فراحت تلتمس فى العزلة منجاة لها من خداع الحياة البراق ، ولتصل عن طريق هذه العزلة إلى راحة العقل والقلب ، فنبذ هؤلاء القوم أملاكهم وأحبتهم وأصدقاءهم ، وجنحوا إلى حياة العزلة ، ولذا كان هذا النوع من الحياة عنواناً للتضحية وشرف الفقر ، كما كان من أسباب قيام هذه الحياة أيضاً ، تلك العبارات التى حث بها المسيح أتباعه على الانقطاع للعبادة ، وترك مظاهر الحياة الخداعة ، وكان لما لجأ اليه أباطرة الدولة الرومانية من الاضطهادات أثر فى نشوء هذه الحياة ، ويكفى للتدليل على ذلك ، تمشى حركة الرهبانية مع حوادث الاضطهاد المعروفة فى مصر ، منذ عهد الامبراطور (دسيوس Decius) إلى عهد الامبراطور (دقلديانوس) [٢٤٩ — ٣٠٥ م] ولقد وجدت بالأسكندرية فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين مدرسة ، كانت تعلم نوعا من إنكار الذات والتضحية ، وكان لوجود هذه المدرسة أثر فى نشوء الرهبانية .

هذا عن الرهبانية والديرية . أما عن التصوف ، فقد نشأ فى ظروف تشابه هذه الظروف : نشأ التصوف عن الزهد كما أشرنا سلفاً ، ولقد نما هذا الزهد إثر الحروب الأهلية ، ومقتل الخليفة عثمان رضى الله عنه ، إذ أثر ذلك تأثيراً بالغاً فى قلوب المتدينين ، كما كان للتطاحن الحزبى ، وفوضى الفرق فى عهد بنى أمية ، أثره فى فزع القلوب الحساسة الشاعرة التى راحت ترقب الخلاص من هذه الحياة فى ظهور (المهدى) وحملت فكرة ظهور المهدى كثيرين على اعتزال الحياة ريثما يعود اليها صفاؤها وطهارتها ؛ أثرت هذه العوامل ، كما أثرت نظائرها فى زهاد النصارى من قبل ، فاتجهوا إلى القوة الالهية ، وأيقنوا أن البذخ والترف بدعة ، وتحققوا أن الدائم الذى لا يفنى ، والحقيقة التى لا تبلى ، هى الاتصال بالله .

[يتبع]

الواقعية الحديثة
والادب المصرى المعاصر

للأستاذ أحمد عباس صالح

المذهب الواقعى (Realism) عرف فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وظل سائداً حتى نشوب الحرب العالمية الأولى . وقد جاء خلفاً للمذهب الطبيعى (Waturalism) الذى دعا له الكاتب الفرنسى « أميل زولا »[1] وأصحابه . وقد بشر بهذا المذهب (فلوبير)[2] ثم (موباسان)[3] فى فرنسا ، ولم يلبث أن شاع فى جميع الأقطار وأصبح الطابع الغالب على الفترة ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين .

على أنه بعد الحرب العالمية الأولى ، وهى النتيجة الطبيعية لانتشار المصانع الضخمة وتعميم (الآلة) وسيطرتها على المجتمعات الغربية ، ظهر كتاب ما زالوا حتى الآن مسيطرين على الأدب الغربى ينفرون من (الآلة) ويرجعون اليها سبب التدهور الخلقى والاجتماعى الذى ساد القارة الأوروبية ، متوهمين أن الانتاج الجماعى وتقسيم العمل قتل روح الاستقلال لدى الإنسان وجعله تابعاً للآلة . وأنه نتيجة لهذا صار المجتمع ماديا آليا تحتضر فيه القيم الروحية التى ظلت سائدة مذ كان العمل اليدوى والنظام الاقطاعى مسيطرين على العالم .

والواقع أن النظر السطحى إلى ما أدى اليه الانتاج بالجملة من نتائج يجعلنا

---

(١) أميل زولا ـ كاتب فرنسى ظهر فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن الانسان مدفوع إلى تصرفاته بغرائزه الثابتة والمتأصلة فيه ولذلك قد سمى مذهبه الفنى (بالطبيعة) نسبة إلى الغرائز الطبيعية فى الانسان .

(٢) جوستاف فلوبير ـ من أتباع أميل زولا وعاش بعده بقليل ، صاحب القصة الشهيرة « مدام بوفارى » ، وفيها أخذ عن الواقع مباشرة ويعتبر أول من بشر بالمدرسة الواقعية .

(٣) جردى موباسان ـ من أتباع أميل زولا وعاش بعده فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر وقد اتجه إلى تثبيت أركان المذهب الواقعى .

ننحى باللوم على التقدم الآلى الذى وصلنا اليه ؛ فإن البطالة والمنافسة والاحتكار واختفاء المحلات التجارية الصغيرة والكوارث التى حدثت قبل وخلال أزمة سنة ١٩٣٠ زعزعت الفكر الأوروبى وأطلقت أقلام كتابهم تضرب خبط عشواء فى مهاجمة ما توهموه عدوهم الألد ـ وهو الانتاج الجماعى .

على أن الإنتاج الوفير لا يمكن أن يكون ضاراً بالمجتمع الإنسانى ، ذلك أن المحاولات التاريخية التى بذلها الإنسان لتوفير حاجياته منذ العصر الحجرى حتى الآن لم تتوقف ؛ كما أن حاجاتنا الأولية لم تتحقق بعد . ولقد أرجع الاقتصاديون النابهون هذه الأخطاء إلى النظام الذى يرتب العلاقات بين المنتجين وبعضهم ثم بينهم وبين المستهلكين . ولكن هذه النظرة العلمية ، والحلول الاقتصادية التى قدمت حينذاك ، لم تصادف مستقراً فى نفوس الكتاب والفنانين الذين روعتهم تلك الكوارث التى حدثت من بداية القرن حتى الأزمة الكبرى فجعلوا يصبون جام غضبهم وثورتهم على ما يسمى بواقع الحياة إذ كان شائعا أن واقع الحياة هو التجرد من كل العواطف والأخلاق النبيلة واعتناق فكرة البقاء للأصلح ، وكان رجل الأعمال شخصاً صلباً .بارداً كالخزانة التى يضع فيها أمواله !

وتتقدم هذه الجملة من الكتاب ذوى الشهرة (د . ش . لورانس) (١) و (ت . س . اليوت) (٢) و (ألدوس هكسلى) (٣) وغيرهم ، وقد أطلق النقاد عليهم اسم كتاب الأزمة والانحلال ، ذلك أنهم لم يحاولوا أن يبثوا الأمل فى النفوس أو أن يدعوا إلى بناء اجتماعى جديد ، بل كانوا كالغربان ينعبون على أطلال حضارة ميتة .

---

(١) د . ش لورانس ـ كاتب انجليزى توفى قبل الحرب العالمية الثانية يرجع اختلال المجتمع إلى عدم التوازن بين الرجل المتحضر والمرأة .

(٢) ت . س . اليوت ـ شاعر وكاتب انجليزى معاصر يرجع اختلال المجتمع إلى سيطرة «الآلة» والانتاج بالجملة وينادى بنبذها .

(٣) ألدوس هكسلى ـ كاتب انجليزى معاصر ينحدر من أسرة عريقة فى العلم يرى أن التقدم العلمى سيودى بمستقبل الانسان ويحيله فى النهاية إلى شىء جامد متشابه كالسلع التى ينتجها .

هؤلاء الكتاب استحدثوا مذهباً جديداً فى الفن بل مذاهب اتخذت جميعاً — هروبا من الواقع — منطقة اللاوعى فى الإنسان وعكفت على الجانب النفسى فيه بعد أن انتشر مذهب « فرويد » واشتهر التحليل النفسى وعرف (اللاوعى) .

وفى الاستطاعة القول بأن معظم المدارس الفنية الحديثة تصدر عن هذ النبع ، ففى انجلترا عرفت « فرجينيا وولف » و « جيمس جويس » وفى أمريكا « ميلر » و « جنجداى » وغيرهما وأصبح من المألوف ظهور أدب غير مفهوم بحجة أنه يبحث فى أعماق النفس البشرية وبعث المذهب الرمزى الذى انتهجه « بو » [١] الأمريكى وورثة « بودلير » [٢] وآل إلى « بول فاليرى » [٣] الفرنسى .

وأصبح مألوفاً أن هذا الأدب يعيش فى عزلة عن معترك الحياة اليومية وتقلبات المجتمع وآلامه . ومن هنا ابتدأ النزاع القديم بين التزام الفنان واعتزاله يعود إلى الميدان . أيجب على الفنان أن يشارك فى نقد مجتمعه ؟ أيجب أن يشير إلى الاتجاهات السليمة ويحبذها ؟ أيجب أن ينقد الأوضاع الخاطئة ؟ أم يجب أن يعتزل ويعكف على فنه يجدده ويحسنه ؟ وأعيد من جديد النقاش حول مسألة الفن من أجل الفن أو الفن من أجل المجتمع ، وانقسم الفنانون - تبعاً لهذا - قسمين . الأول منهما يرى الاعتزال والآخر يرى الخوض فى المعارك السياسية والاجتماعية ومناقشة واقع الحياة .

ومهما يكن من أمر هذين الفريقين فن المرجح أن عصرنا هذا عصر قلق يقف عند مفترق الطرق . وأصبح من المعتقد أن النظام القائم فى أوروبا لا يفى

---

(١) أوجار آلن بو - كاتب أمريكى عاش فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية والتاسع عشر وكان ينحو منحى رمزيا فى كتاباته .

(٢) شارل بودلير - شاعر فرنسى عاش فى القرن التاسع عشر وكان فاجراً تدور كتاباته حول العربدة الحبشية ونحى فى كتاباته منحى رمزيا .

(٣) بول فاليرى - كاتب فرنسى توفى أثناء الحرب العالمية الأخيرة بفرنسا وكان يعتمد فى تأدية الفكرة على الموسيقى اللفظية .

بأغراض الإنسان فى الاستقرار والهدوء الروحى ، ولذلك فقد حاول كل من تصدى لنقده أن يقدم حلولا . فنادى (لورانس) بالرجوع إلى الفطرة وحياة أشبه بحياة القبائل فى أفريقيا واستراليا ولكنه لم يلبث أن تراجع عن هذه الدعوة فى أخريات أيامه ولم يقدم جديداً ، أما (اليوت) فنادى بمذهب يوشك أن يكون كالتصوف حيث يطبع المجتمع كله بطابع كنسى مترهب . إذ أصبح فى اعتقاده أن الاستقرار فى ظل وسائل المعيشة العصرية خرافة .

على أن الاتجاه لدى بعض كتاب الغرب لم يكن قاصراً على انجلترا أو فرنسا أو أمريكا ، بل ظهر فلاسفة فى العشرين سنة الماضية فى ألمانيا (كشبنجلر) يبشرون أو ينذرون بانهيار الحضارة الغربية ووشوك قيام حضارة عظيمة لدى الشرق لا لشىء إلا لأن القيم الروحية والأخلاقية والفطرية لم تزل باقية فى بلدان هذا الشرق وفى نفس الوقت يقول إنه يجب على المجتمع (الأبيض) أن يهىء نفسه لفاضلة هذا المارد (الملون) الذى ينبعث من الشرق ، والخطوة الأولى فى هذا السبيل هى الكراهية . وعلى هذه الفلسفة المقيتة يقع جزء كبير من التبعة فى سقوط ألمانيا وإيطاليا السقطة المعروفة .

وفى ظل هذه الأفكار المتشائمة والمريضة قام فريق من الكتاب الجدد ينفضون عنهم آثار المتاعب والكوارث التى صبغت نصف القرن ليؤسسوا لأنفسهم مذهباً جديدا على المذهب القديم المعروف بالمذهب الواقعى ، هذا هو الواقعية الحديثة .

ولقد كانت — حقا — أشبه بإفاقة الجريح بعد المعركة ؛ يجب أن يعاد النظر من جديد إلى الحياة بمنظار موضوعى سليم ، ما هى الأخطاء التى ارتكبت وأدت إلى هذه الحروب المدمرة وأشاعت القلق والخوف فى النفوس ؟

وعلى ذلك فكان أول أساس تتخذه هذه المدرسة هو الإيمان بالإنسانية أو بوجود العنصر الصالح فى الإنسان لمواصلة الحياة وبناء حضارة أعظم ، ومن هنا يظهر الجانب الإشراقى لهذا التفكير . وعكف أعلام هذه المدرسة — التى يمثلها

الآن « سيلونى [١] » الإيطالى و « ريتشارد رايت [٢] » الأمريكى وغيرهما — على دراسة الحياة كما هى وأصبح الفن لا يتخذ مداره حول الخرافة أو المبالغة بل الحقيقة البسيطة التى تحدث كل يوم فى النفوس والبيوت والمصانع ودراستها دراسة دقيقة.

وحيث أصبح مجتمعنا — فى جميع بقاع الأرض — يقوم على العلم وحده، وحيث اتخذ العلم صفته المحتومة القاهرة وهى الحقيقة الموضوعية المبينة على أساس تجريبى، صار المذهب الواقعى أيضا لا يعنى إلا بالتجربة. ومن هنا يفترق تماما عن سائر المذاهب الفنية الأخرى حيث يكون المجال كبيرا للتخيل والتوليف، ولم تعد للفن صفته الرخيصة وهى التسلية أو المتعة، بل أصبح ركنا ضخما للمشاركة فى بناء الحضارة الاقتصادية والاجتماعية والروحية بعد أن شاع أنه لا يمكن التفرقة بين هذه العناصر الثلاثة.

وإذ كان مجال هذا الفن هو دراسة (المجتمع) كما هو فى الواقع فقد اتخذ مادته من القوم الذين يمثلون غالبية المجتمع وجعل يستكشف فيهم مواطن القوة والضعف. ولكن المذهب الواقعى أيضاً لا يقتصر فى تناوله الفنى على فئة دون أخرى فى المجتمع بل على كل الفئات باعتبارها جميعاً مكونة له.

وعلى ذلك فقد أعلن فى صراحة أنه لا يفهم معنى لهذا الفن الذى لا ينتسب إلى واقع الحياة بحجة أنه يؤدى لوجه الفن وحده. وتراجعت تلك الشرذمة التى ظهرت من خلعاء فرنسا فى نهاية القرن الماضى وبداية هذا القرن واحتضنها أوسكار وايلد الإنجليزى وظلت ممتدة حتى وقتنا هذا، وأصبح من المعترف به — على الرغم من صرخات واهنة تطلق هنا وهناك — أن الفن لا بد من اتصاله بواقع الحياة ومشاكلها.

ولكن هذا المذهب وجد من يحاربه فى أوربا وأمريكا بل وفى كل مكان

---

[١] اينازيو سيلونى — كاتب إيطالى معاصر فر من إيطاليا أيام حكم موسولينى وظل يتنقل بين فرنسا وسويسرا وغيرها من دول أوروبا إلى أن رجع أخيرا إلى إيطاليا.

[٢] ريتشارد رايت — كاتب أمريكى زنجى معاصر يأخذ من الواقع مباشرة ويعالج مشكلة الزنوج فى أمريكا فى كتاباته.

الآن ، إذ ظهر فى فرنسا اتجاه جديد يمثله (جان بول سارتر[١]) (وألبير كاموا[٢] وغيرهما يروجون للعودة إلى رومانتيكية جديدة تختلف عن الرومانتيكية القديمة بأنها بشعة سوداء متشائمة ، وهب سارتر يدافع عن الأسلوب الرومانتى حيث العاطفة العنيفة والمبالغة هما اساس العمل الفنى . ومع أنه إلى ما قبل الحرب العالمية الثانية كان الدفاع عن الرومانتيكية يبدو شيئاً مضحكا باعثاً على السخرية فقد وجد سارتر فى ضجيج القلق النفسى الذى يحدث فى فرنسا الآن مجالا كبيراً لصراخه الرومانتى.

وإذا نظرنا إلى أدبنا المصرى المعاصر على ضوء هذا الكلام لوجدنا أننا لم ننخرط فى سلك مدرسة أدبية بعينها من هذه المدارس وإن كان الطابع الغالب علينا هو رومانتياكية هادئة كما يبدو فى أدب توفيق الحكيم القديم وبعض أعمال طه حسين والمازنى . ولكن حجتنا فى ذلك هى أننا فى بداية تشكيل فنى جديد نقيمه على تراثنا العربى الضخم ومتكئين على ما وصل إليه الغرب ، ونتيجة لهذا ظهر أدب القصة والمسرحية عندنا وأخذ الشعر العربى يتشكل أشكالا جديدة ولم يصبح التزام قافية واحدة فى القصيدة قدراً محتوما على الشاعر .

وفى ظل هذه المدرسة الواقعية يستطيع الأدب المصرى المعاصر أن يكون وثيق الصلة بمجتمعة مبتعداً عن الرخاوة الشائعة فى مجلاتنا المصورة وغير المصورة وتلك المخازى التى توضع لجذب جمهور خال من الثقافة والتقدير السليم . وليس شك أن القصص التى تنشر فى هذه المجلات والصحف لا تمت إلى الفن الحقيق بصلة . ولا يشك أحد أيضاً فى أن دراسة المذاهب الأدبية المختلفة من خلال النصوص ذاتها عمل ضرورى واجب تقوم عليه النهضة الأدبية الحالية سواء فى الجامعة الأزهرية أو الجامعات الأخرى .

---

[١] جان بول سارتى ـ كاتب فرنسى معاصر ومؤسس المذهب الوجودى الشائع فى فرنسا الآن

[٢] البير كاموا ـ كاتب فرنسى معاصر من الجزائر ينحى منحى المذهب الوجودى فى آثاره الفنية

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة التى ألقاها

حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن

وكيل الجامع الأزهر وإمام شرف صاحب الجلالة الملك

فى ليلة « نصف شعبان المبارك » من سنة ١٣٧٠ هجرية

فى مسجد « محمد على » بالقلعة

نحمدك اللهم حمداً يديم علينا شكرك ، ويفتح لنا أبواب رحمتك ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا ذا الطول ، لا إلـه إلا أنت ظهر اللاجين ، وجار المستجيرين ، ومأمن الخائفين . ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشدا . ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفّر عنا سيئاتنا ، وتوفنا مع الأبرار . وصل اللهم على سيدنا محمد عبدك ورسولك الذى أرسلته للناس هدى ورحمة ومرشداً وداعياً إلى صراطك المستقيم .

أما بعد : فهذه ليلة من الليالى المباركة ، التى يتجلى الله فيها على عباده المخلصين ، فيعطى من يشاء ويغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء بيده الخير ، والله ذو الفضل العظيم .

وقد ورد فى السنة أن النبى صلى الله عليه وسلم أحيا هذه الليلة بالصلاة والدعاء والاستغفار للمؤمنين والشهداء ، وبيّن أنها ليلة مباركة ، ينبغى للمؤمن أن يلتجىء فيها إلى الله تعالى عسى أن ينال من النفحات الإلـهية ما لا يشقى بعده أبداً ، فقد روى البيهقى عن عائشة رضى الله عنها قالت : قام رسول الله صلى الله عليه وسلم من الليل فصلى فأطال السجود حتى ظننت أنه قد قبض ، فلما رأيت ذلك قمت حتى حركت إبهامه فتحرك ، فرجعت فسمعته يقول فى سجوده : أعوذ بعفوك من عقابك ، وأعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بك منك إليك ، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك . ولما فرغ من صلاته قال لها : هـذه ليلة النصف من شعبان ، إن الله عز وجل يطلع على عباده فى ليلة النصف من شعبان فيغفر للمستغفرين ، ويرحم المسترحمين ، ويؤخر أهل الحقد كما هم .

وقالت : إنه خرج فى هذه الليلة ـ أى ليلة النصف من شعبان ـ إلى بقيع الغرقد ، فأدركته فوجدته يستغفر للمؤمنين والمؤمنات والشهداء .

وقد ورد فى فضل هذه الليلة عدة أحاديث رويت عن النبى صلى الله عليه وسلم خرَّجها من المحدثين الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه وابن حِبَّان والطبرانى والبيهقى عن جمع من الصحابة منهم : عائشة وأبو بكر ومعاذ وأبو موسى الأشعرى وعبد الله بن عمرو وعثمان بن أبى العاص وأبو ثعلبة الخشنى وهى فى مجموعها تدل على أن الله سبحانه وتعالى يتجلى على عباده فى هذه الليلة المباركة ، ويتولاهم بالمغفرة والرحمة وإجابة الدعاء [1] .

ولكن ناساً ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوصافهم وبيّن أنهم ليسوا أهلا للمغفرة وأنهم مبعدون من رحمة الله فى هذه الليلة إلا إذا طهروا نفوسهم من الآثام وكبائر الذنوب التى وصفهم بها .

فمن هؤلاء أهل الشحناء ، وقد ورد ذكرهم فى رواية أبى بكر رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ينزل الله إلى سماء الدنيا ليلة النصف من شعبان فيغفر لكل شىء إلا لرجل مشرك أو رجل فى قلبه شحناء » والشحناء هى العداوة والخصومة ، والمشاكسة وهى وصف لو وجد بين أفراد الأسرة لانحلت عصبيتها ، ولو سرى بين الجماعات فى أمة لانحل كيانها وتفرق شملها ، ولو وجد بين أمتين فقد ينتهى بينهما إلى الحرب ؛ فأهل الشحناء ليسوا أهلا لأن يتولاهم برحمته ومغفرته .

ومنهم الحاقدون وهم الذين انطوت نفوسهم على الغل والعداوة والبغضاء للفرد أو للجماعة ، وقد ورد ذكر الحاقدين فى رواية عائشة ـ السابقة ـ رضى الله عنها أن الله يغفر للمستغفرين ويرحم المسترحمين ويؤخر أهل الحقد كما هم .

---

[١] راجع فيما ذكر باب الترغيب فى صوم شعبان ٨٠ ، ٨١ من الجزء الثانى من كتاب الترغيب والترهيب للحافظ المنذرى والمجلد الثانى فى نصف شعبان من كتاب لطائف المعارف لابن رجب ص ١٤٢ والجزء السادس من كتاب زاد المسلم ص ٥٦٨ و ٥٧١ ورسالة هداية الرحمن .

والحاقد وإن لم يظهر بمظهر المشاكس إلا أن ما انطوت عليه نفسه يحمله على الكيد وخلق الخصومات للمحقود عليه والسعاية بينه وبين الناس بالعداوة والبغضاء، وقد وصف الله المؤمنين بقوله: «ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل فى قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم».

فالحقد صفة تَحرِمُ العبد مغفرة مولاه فى مواسم الرحمة والاستغفار.

ومنهم قاتلوا النفس التى حرمها الله، وقد ورد ذكرهم فى رواية عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يطلع الله عز وجل إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لعباده إلا اثنين: مشاحن، وقاتل نفس. ويكفى فى وصف قاتل النفس بغير حق ما توعده الله فى الكتاب العزيز من العذاب واللعنة والغضب، ففى سورة النساء «ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما» وفى سورة الفرقان «والذين لا يدعون مع الله إلـها آخر ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما، يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا، إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيما».

هذه بعض أمثلة مما جاء فى أحاديث فضائل هذه الليلة، وأنه مانع من المغفرة وقبول الدعاء.

والأحاديث لم تستوعب كل الذنوب التى تبعد بين العبد وبين الله تعالى فى هذه الليلة، وإنما أتت بأمثلة ألقصد منها التنبيه إلى أن كل من كان متلبساً بالمعصية وكبائر الذنوب، فهو مبعد ومطرود من رحمة الله ومغفرته، فقطّاع الطرق الذين يهددون الأمن والنظام، والذين يسعون فى الأرض فسادا، والذين يأكلون أموال الناس بالباطل، والغشاشون والخائنون وأرباب الأهواء والمنافقون وشاهدوا

الزور وأرباب الفتن ، كل أولئك وغيرهم من أصحاب الذنوب والمعاصى الذين ورد ذكرهم فى الكتاب أو فى السنة ليسوا أهلا لأن يشملهم الله برحمته ومغفرته حتى يتوبوا ويقلعوا عن الذنوب ويطهروا أنفسهم من الآثام ، وإلا فلا فائدة فى الدعاء والاستغفار ، وكما يقول ابن الجوزى : الثوب غير النظيف أولى به الصابون من البخور والتعطير .

فينبغى للمؤمنين أن يسارعوا بالتوبة وتطهير النفوس من الآثام والأوزار ، وأن يتفرغوا فى هذه الليلة لذكر الله والالتجاء إليه لغفران الذنوب وستر العيوب وتفريج الكروب ، فان لله فيها نفحات عسى أن تصيبهم نفحة منها ، يسعدون بها فى هذه الدنيا ويأمنون بعدها شر العذاب فى الآخرة ، فقد[١] روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم « اطلبوا الخير دهركم وتعرضوا لنفحات ربكم فإن لله نفحات من رحمته يصيب بها من يشاء من عباده وسلوا الله أن يستر عوراتكم ويؤمن روعاتكم » . وعن [٢] محمد بن مسلمة عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن لله فى أيام الدهر نفحات فتعرضوا لها فلعل أحدكم أن تصيبه نفحة فلا يشقى بعدها أبدا » .

كان الناس ولا يزالون منذ عصر التابعين [٣] يحيون هذه الليلة بالذكر والدعاء والاستغفار جماعة فى المساجد ، وكان التابعون من علماء الشام كخالد بن معدان الحمصى ، ومكحول الدمشقى ، ونعمان بن عامر الحمصى ، وغيرهم من أعلام العلماء لا يرون مانعا من إحياء هذه الليلة وتعظيمها جماعة ، ولهذا كانوا يلبسون فيها أحسن ثيابهم ويتبخرون ويكتحلون ويقومون فى المسجد ليلتهم ويجهرون فيها

---

[١] خرجه ابن أبى الدنيا والطبرانى وغيرهما مرفوعا ــ لطائف المعارف ص ٦ .

[٢] خرجه الطبرانى ص ٧ لطائف .

[٣] خالف فى جواز إحيائها أكثر علماء الحجاز ص ١٤٤ لطائف المعارف ، والصحيح ما ذكرناه .

بالدعاء والاستغفار ، ووافقهم على إحيائها إسحق بن إبراهيم الحنظلى ، المعروف بابن راهويه ، وهو من أشهر أئمة الحديث فى القرن الثالث ، قال عنه الإمام أحمد : إنه من أئمة المسلمين عندنا ، ولا أعلم له نظيرا .

وقال الأوزاعى إمام أهل الشام : إنه يكره الاجتماع فيها فى المساجد للصلاة والقصص والدعاء ، وإنما يصلى الإنسان فيها مفردا لخاصة نفسه .

وروى [١] عن عمر بن عبد العزيز أنه كتب إلى عامله بالبصرة : عليك بأربع ليال من السنة ، فإن الله يُفرغ فيهن الرحمة إفراغا ؛ أول ليلة من رجب ، وليلة النصف من شعبان ، وليلة الفطر ، وليلة الأضحى .

وقال الشافعى رضى الله عنه : بلغنا أن الدعاء يستجاب فى خمس ليال : ليلة الجمعة ، والعيدين ، وأول رجب ، ونصف شعبان ، قال : واستحب كل ماحكيت فى هذه الليالى .

والذى يترجح فى هذه المسألة جواز اجتماع الناس للدعاء والاستغفار فى هذه الليلة كما هو حاصل ، ولا كراهة فى ذلك . ففى صحيح مسلم [٢] عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يقعد قوم يذكرون الله عز وجل إلا حفتهم الملائكة ، وغشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده » . وظاهر أن الدعاء والاستغفار نوع من الذكر ، أما الصلاة فتكون بلا جماعة لأنها صلاة نافلة [٣] ولم يثبت فى السنة أنها صليت بجماعة .

---

[١] يعضده فى الجملة ما روى عن معاذ وعبادة بن الصامت ص ١٠٠ ، ١٠١ جزء ٢ الترغيب والترهيب .

[٢] كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار جزء ١٧ صحيح مسلم بشرح النووى .

[٣] صلاة النافلة جماعة جائز كما فى كتاب الصلاة من صحيح مسلم ، ولكن فى خصوص إحياء هذه الليلة كرهتها العلماء والنبى أحياها مفرداً ولم يثبت أنه صلاها جماعة .

أما ما ذكره الغزالى فى الإحياء من أن السلف كانوا يجتمعون فى هذه الليلة ويصلون جماعة أو فرادى مائة ركعة كل ركعتين بتسليمة يقرأ فى كل ركعة الفاتحة وقل هو الله أحد إحدى عشرة مرة ، ويسمونها صلاة الخير ، فلم يثبت فى السنة ، وكل ما روى فيها من الأحاديث رده العلماء .

ومما جرى عليه العمل فى مصر أن الناس عقب الصلاة يدعون بالدعاء المشهور وفيه : « إن كنت كتبتنى عندك فى أم الكتاب محروما مقترا على رزقى ، فامح حرمانى ويسر رزقى وأثبتنى عندك سعيدا موفقاً للخير فإنك قلت فى كتابك الذى أنزلت : « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » .

هذا الدعاء [1] مروى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه لا فى خصوص هذه الليلة ، وقال : مادعا عبد قط بهذه الدعوات إلا وسع الله له فى معيشته ، وابن مسعود لا يقول هذا إلا إذا كان قد تلقاه عن النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو دعاء مأثور يصح الدعاء به فى هذه الليلة وفى غيرها .

وقد اشتمل هذا الدعاء على أمر كان موضع نقاش بين العلماء ، وهو أن ما كتب على الإنسان من الشقاوة أو السعادة والأجل والرزق وغير ذلك يبقى بدون تغيير أو أن الله تعالى يمحو منه ما يشاء فيطيل العمر وييسر الرزق ، ويمحو الشقاوة ويثبت السعادة .

فريق يرى أن ما كتب على الإنسان لا يتغير ، وفريق آخر يرى أن الله يمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء ، وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن الله يمحو أمور عباده ويثبت ، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها .

---

[١] راجع زاد المسلم وهداية الرحمن من المحل السابق ذكره .

والذى يظهر من أحكام الشريعة فى مجموعها أن ما كتب على الإنسان من خير أو شر وأجل أو غير ذلك يبقى بدون تغيير ، إلا إذا غيره الله سبحانه وتعالى ، ففى الكتاب العزيز « يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » وكان النبى صلى الله عليـــه وسلم يدعو بطول العمر وكثرة الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة .

أخرج [١] البخارى فى الأدب المفرد عن أنس رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرة المال والولد وطول العمر فاستجاب الله دعاءه ، وقال أنس : فوالله إن مالى لكثير وإن ولدى وولد ولدى ليتعادون على نحو المائة اليوم ، وقد أطال الله حياته ، فقد كان فى الهجرة ابن تسع سنين ومات سنة ثلاث وتسعين من الهجرة ، وقد كان الصحابة والتابعون يدعون بالسعادة ومحو الشقاوة وتيسير الرزق وغير ذلك من أمور الدنيا والآخرة .

والأمم التى تعنى بالتربية الرياضية وتتقى الأمراض والأوبئة بالطرق العلمية السليمة ، وتعيش فى هناءة من العيش ، تطول حياتها وحياة أفرادها ، ويبارك الله لهم فى آجالهم . والأمم الجاهلة التى ترزح تحت أثقال المرض والأوبئة والجوع والفقر تموت بسرعة وتقصر آجال أفرادها .

هذه سنة الله فى خلقه ، والسعيد من وفقه الله .

هذا وإنا نرجو الله سبحانه وتعالى العلى القدير أن يطيل فى حياة حضرة صاحب الجلالة الملك ، وأن يجعلها حياة طيبة مباركة يعمل فيها لخير مصر ولخير العروبة والإسلام ، وأن يحفه الله بعنايته وتوفيقه ورشده وهديه ، كما نرجوه تعالى أن يوفق حكومة جلالته إلى خير العمل ، وما يرجى لمصر من عز وسؤدد .

والسلام عليكم ورحمة الله

---

[١] أول باب دعوة النبى صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر ج ١١ من فتح البارى .

أثر الصيام
فى تقويم الشخصية الانسانية

كان الناس إلى زمان قريب يحسبون أن الصيام من الشئون الخاصة بالأديان ، ولكن لم يكد ينتشر تاريخ الطب بين الناس حتى علموا أن الصيام اعتبر فى كثير من الأمراض من مقومات الصحة الجثمانية ، فقد علموا أنه عُد من عهد « ابقراط » عاملا قويا من العوامل المنقية للجسم من سموم الأغذية .

نعم سموم الأغذية ، فإن المواد الحيوانية التى نتناولها بشراهة ، تحتوى على مواد دهنية ، ومواد رباعية العناصر ، لا تطيق البنية البشرية أن تختزن مقداراً يزيد عن الحاجة منها ، وهذه الحاجة الضئيلة منها يمكن الحصول عليها من النباتات أنقى وأصح مما يمكن الحصول عليها من المواد الحيوانية .

ولا يوجد من ينكر أن البوذيين فى الهند والصين ، وهم يعدون بمئات الملايين لا يأكلون لحوم الحيوانات تدينا ، وهم على أكمل حال من الصحة ، بل يوجد غيرهم فى أوروبا ممن لا يؤمنون بالشرائع الدينية لا يأكلون المواد الحيوانية بتاتا .

لسنا هنا بصدد تفضيل الأغذية النباتية على الأغذية الحيوانية ، ولكننا بسبيل إثبات أن الصوم عمل ضرورى طبيا ، لإيجاد الاتزان الطبيعى بين مواد الأغذية البشرية ، إذا حدث ما أخل بذلك الاتزان ، أو اقتضت الدورة الحيوية للإنسان إحداث عمل مباشر لإعادة نظام التغذية ، تفاديا مما يحدث بسبب اختلالها من اختلال الوظائف الهضمية ، ولاختلال هذه الوظائف فى العالم الإنسانى آثار بعيدة الأثر على حياته المدنية .

هذا التأثير الغذائى خاص بالنوع البشرى ، لأنه الكائن الوحيد المطلق الحرية فى شئون تغذيته دون سائر الكائنات ، فإن لكل منها نوعاً من الأغذية صيغت على موجبه أعضاؤها الهضمية ، فكل نوع منها خصت به أنواع خاصة من المواد

لا يتعداها فى تغذيته ؛ وأطلقت الحرية للإنسان فهو يتناول منها كل ما يقع تحت يده ، وكثيراً ما يصاب بسبب هـذه الحرية بآفات مرضية تكون فى أول أمرها وبالا عليه ، ثم يعتادها فتصير مألوفة له مع بقاء أضرارها حائقة به من ضروب شتى ، حتى يتنبه إليها ويحاول التخلص منهـا ، وقد تمر الأجيال فلا يستطيع أن يتحول عنها . فهو من هذه الناحية معرض لانحرافات بعيدة . وقد كشف العلم هذه الانحرافات كلها ، وبحثها بحثاً عميقاً حتى لم يبق محل للمزيد .

كل ذلك لم يثن الإنسان عن المضى فيما هو عليه ، متجاهلا أحكام العلم ، شأنه فى جميع محاولاته المادية والأدبية ، حتى إنه ليجتمع الذين يعلمون والذين لايعلمون على مائدة واحدة ، فلا تستطيع أن تفرق بين الفريقين ، لتساويهما فى عدم المبالاة بالصنوف التى يتناولونها ، وهذا شأن الإنسان ، وأشد أدوائه تأثيراً عليه .

نعم ، إن العلم فى اقتباسـه الصوم من الدين لم يتقيد بمواعيده ، ولا بمدته ، ولا بأسلوبه ، فلم يأخذ منه إلا المبدأ : وهوأنه لكل مايلقى فى المعدة من المواد تأثيراً على الجسم والعقل والشعور معا ، ومن هنا يصح أن يكون ذا تأثير بالغ فى تخفيف الأعراض التى تنتاب الأعضاء الباطنة والظاهرة ، وتحويل محمود فى حالة المريض يتأدى منه إلى التخلص مما أصابه من الآلام والانحرافات .

وحصة الروح من هـذا التحويل لا تقل قيمة عن حصة الجسم ، فإنه يخلى الطريق أمامها لإيصال النفس الانسانية إلى مستوى من الشعور أرفع من مستواها وهى متورطة فيما هى فيه من الشؤون الحيوية .

وقد استفاد الطب من هذه الناحية مالم يستفده من ناحية العلاج بالعقاقير ، فجعل مناط علاجه للأمراض تخير المواد الغذائية التى يجب أن يعول عليها المريض فى التغذية . وقد أنشئت فى عواصم أوربا مصحات هى عبارة عن قصور فخمة فى وسط حدائق غناء ، ومياه جارية ، يقصدها المرضى من أرجاء الأرض ، ويمكثون بها أياما أو أسابيع يخرجون بعدها وقد تملأوا صحة وقوة ، لايشكون شيئاً مما كان يلازمهم ويؤلمهم ، ولم يتعاطوا فى مكافحته عقاراً ، ولم يشعروا بأنهم تحت سلطان

نظام صحى دقيق ، فلا يمر عليهم أكثر من أسبوعين حتى يروا أنهم قد انتقلوا من حال إلى حال لم يكونوا يحلمون بها من قبل . كل هذا ببركة اختيار الأطعمة ، والاقتصار على غير الضار منها .

وقد شرع الله الإسلام خاتما للأديان ، لأنه جمع كل ما كان لخير الإنسانية منها وجعل الصيام ركنا من أركانه ، وجعل عدة أيامه ما يتفق أن يكون عليه رمضان بين ٢٩ و٣٠ يوما ، مختارا له نظام الامتناع عن تناول شىء من الطعام أو الشراب ما بين أذان الفجر الى أذان المغرب ، وهى مدة تتراوح بين تسعة وعشرين وبين ثلاثين يوما . وقد آثر الله أن يجعله انقطاعا عن التغذى نصف ساعات اليوم دون أن يقصر ما يؤكل على صنوف من الأطعمة دون صنوف . وهذا فيما يظهر خير نوعيه ، لأن ما يحرم منه الصائم بالصوم يعوضه أضعافا مضاعفة فى شهور الإفطار فيضر نفسه ضررا بليغا . لذلك تركه الإسلام يختار لنفسه القدر الذى يكفيه من الأطعمة مع النصح له بالتخفف من الأغذية هربا من سوء مغبة الإفراط منها على الصحة .

ونزيد على ذلك ، أن لخلاء المعدة من العمل ساعات متوالية فى حالة راحة تامة ، تأثيراً فى إعادة قواها اليها لا يمكن الحصول عليه بأية وسيلة أخرى . مثلها فى ذلك مثل العامل المتعب الضعيف ، يستحيل أن تعود اليه قواه وهو مستمر فى العمل مهما كان ما يعمله هينا ؛ ولكن بالانقطاع عن العمل بتاتا يعود اليه كل ما فقده من قواه ، فإذا عاد للعمل عاد اليه وهو حاصل على قواه كاملة ؛ وفرق بعيد بين الحالتين فى حفظ هذا الجثمان بعيداً عن الوهن أطول مدة ممكنة .

فالصيام فى الإسلام إذن يكون له أثر بعيد جداً فى حفظ صحة أهله ، وسلامة جسومهم من العاهات ، ولكن أكثرهم لا يأبهون كثيراً بالمستقبل ، ولا يحسبون حسابا للشيخوخة ، ولا يعرفون للقوى حدوداً ، فيعيشون كما يجىء لا كما يجب ؟

محمد فريد وجدى

التفسير

من

سورة فاتحة الكتاب

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ حامد محيسن

عضو جماعة كبار العلماء

قال الله تعالى :

« الحمد لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم ، مالك يوم الدين ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وإنما سميت بذلك الاسم . لأنها قد افتتح بها كتاب الله المجيد ، وافتتحت الفاتحة بالحمدلله رب العالمين ، لأنه تعالى أول كل شيء وآخر كل شيء ، هو وحده الحقيق بالحمد ، ولقد كان مقتضى الواقع أن يجاء بصيغة الأمر فيقال : احمدوا الله . إذ أن العباد هم المنعم عليهم فهم المطالبون بالحمد . وهو تعالى مفيض النعم ومسبغها فله تعالى الحمد .

ولكن الآية قد سيقت بصيغة الخبر ، إذ أن الأمر مقتضاه تكليف ، وللنفوس عند مبادأة بالتكليف جمحة ونفرة ، وإن عاودها بعدها الانقياد والطاعة ، ولكنه تعالى ـ سمت حكمته ـ وهو يبادئهم بشرعة جديدة ، وتكاليف لم يعهدوها ، قد أراد أن يؤنس نفوسهم ، ويؤلف قلوبهم بالترفق فى الخطاب ، حتى يديموا الإصغاء لما سيلقيه عليهم ، وإنما بدأ كتابه العزيز بتلك الجملة ليكون فى ذلك تعليم لنا أن نبدأ كتبنا وخطبنا بالحمد والثناء عليه تعالى ، حتى نبدأ ونحن فى صلة بالله تكشف عن النفوس أغشيتها ، وتجلو عن القلوب أصداءها ، مما يلمع به للمفكر وجه الحق ، ويتبدى له وجه الصواب ، وهو من ناحية ثانية تنبيه لنا إلى ما يجب علينا لله تعالى ، وهو سبحانه المتعهد لنا فى جميع تطوراتنا منذ تكويننا من الطين حتى استوينا عقلاء مفكرين ، تحفنا فى كل تلك المراحل رحمته ، وتظلنا عنايته . وإلى ذلك فهو تصوير لتطورات الفطر السليمة ، إذ تتعرف ربها ، وإذ تنتقل من مرتبة

إلى مرتبة ، حتى تصل إلى مرتبة الإحسان فتدوم المراقبة ويقوى الاتصال ، وإن أول تلك المراحل هو حمد الله حين نلتفت إلى وافر نعمته ، ومحيط رحمته ، وملكه لأولى العبد وآخرته ، ثم تنتقل إلى مرحلة العبادة والتقديس ، تفرده به ، وتختصه دون سواه ، ثم تنتقل إلى أسمى العبادات وهو الدعاء وسؤاله تعالى ما أطمعها فيه قربها من ربها ، وأن ييسر لها سلوك سبيل المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، لتنال جزاءهم وتحظى بمرافقتهم .

ولما كان الشكر هو ثناء من المنعم عليه على المنعم ، يعلن به عن انفعال نفسه وتأثرها بالنعمة الواصلة إليه بالفعل . ولما كان المدح ثناء على الممدوح ، وتقديرا لما قام به من جميل خَلقٍ أو خُلقٌ مما لا يصل منه أثر للمادح ، كجمال فى وجهه أو كشجاعة فى قلبه ، أو مما يصل أثره إلى غير المادح ، كالمروءة والكرم . لما كان ذلك هو الشكر ، وذاك هو المدح ، وكان الحمد فى مقابلهما هو ثناء يعلن به الحامد عن تقديره لذات المحمود ، لكونها مرد كل خير ، ومصدر كل نعمة ، من كبيرها وصغيرها ، من أصولها وفروعها ، من عامها وخاصها ، من واصل إلى الحامد بالفعل أو غير الواصل إليه ، لما كان هذا هو الحمد ، وذاك هو المدح ، وذلك هو الشكر ، فقد أصبح واضحا لك ما بينها فى الاستعمال من فروق .

فالشكر لما كان فى مقابل ما يصل إلى الشاكر من نعمة بالفعل . رأيتهم يتجهون به إلى الخالق ، ويتجهون به إلى المخلوق ، فتقول لذى جميل عليك : أشكرك : وتقول أشكر ربى على ما أولانى من نعمة ، والمدح لما كان على ما يقوم بالممدوح نفسه من جمال خَلق ليس له أثر يتعدى ، أو خلقٌ يتعدى أثره أو لم يتعدَّ ، رأيتهم لا يتجهون به إلا إلى المخلوق ، وأما الحمد فلما كان إنما يكون لذات هى مصدر كل خير ، ومبدأ كل نعم ، ما جل منها وما دق ، ما ظهر منها وما بطن ، ما وقع وما لم يقع ، وما من ذات فى الوجود ذلك هو شأنها إلا الذات الأقدس ذات الله جلت ذاته ، وتقدست صفاته ، لما كان كذلك ، رأيتهم لا يتجهون بالحمد إلا إلى الله تعالى .

وإذا كان ذلك هو معنى الحمد ، كان أنسب المعانى التى تحمل عليها (أل) فى قوله : الحمد لله ، هو كونها للحقيقة ، فيكون المعنى : إن حقيقة الحمد مستحقة لله وحده ، فليس هناك موجود مهما سما فى معنويته ، أو مهما علا فى ماديته ، أن يكون فيه من الصفات ما يستحق بها أن يتجه له أحد من الناس بالحمد فهو وحده المحمود كما أنه وحده المعبود .

ثم إنك ترى أنه قد أجرى على لفظ الجلالة نعت الربوبية للعالمين (الحمد لله رب العالمين) أى مربيهم ومتعهدهم بالتنمية ، ومتوليهم بحفظه ورعايته ، منذ كانوا تراباً إلى أن بلغوا أشدهم فى أبدع صورة وأحسن تقويم ، وإنما أجرى ذلك الوصف على الذات بعد ما ناطها باستحقاق الحمد لحكم بالغة ومعان سامية .

أما أولا — فلأن طلب الحمد الذى سبق فى صورة الخبر ترفقاً منه تعالى بعباده بإعفائهم من المبادأة بالأمر التكليفى الذى قد ارتكز فى النفوس البشرية استثقاله كما أشرنا لذلك سابقا أقول :

فلأن طلب الحمد ككل طلب متى كان موجهاً ، كانت القلوب به أشد اقتناعاً فتكون النفوس له أسرع استجابة وأدوم طاعه . فإجراء وصف الربوبية على لفظ الجلالة توجيه لما طلبه تعالى من عباده من أن يحمدوه .

وأما ثانياً — فلأن تذكيرهم بنعمه وبعجيب التطور المحوط برعايته وحفظه إثارة لنفوسهم نحو المسارعة إلى الاستجابة والمبادرة فى قوة وإخلاص إلى الطاعة .

وأما ثالثاً — فلأن إجراء الوصف على ذلك الوجه جعله كالاستدلال على استحقاقه تعالى وحده للحمد ، وفى ذلك إشعار لعباده بأنهم مكرمون من ربهم . إذ الأمر بغير توجيه فيه إيماء إلى إهمال عقولهم، وحدّة فى استعبادهم ، وعلى العكس إذا كان الأمر موجهاً وكالمستدل عليه يكون فيه إشعار لهم برعاية ناحية العقل فيهم وفى تلك الرعاية تقدير وتكريم ، ولا شك أن هذه نعمة معنوية كبرى من شأنها أن تبعثهم فى قوة إلى الاستكثار من حمده تعالى .

ثم إنك تجد لفظ (رب) قد أضيف إلى صيغة الملحق بجمع المذكر السالم ، ذلك لأن صيغة جمع المذكر السالم من الصيغ الدالة على القلة وأقل الجمع ثلاثة . ذلك ليشير إلى أن المراد بالعالمين ، إنما هى الأجناس الثلاثة التى ينتفع بها الإنسان فى شئون حياته ، والتى هى ذات مدخلية كبرى فى نمائه وتربيته ، كما أن لها مدخلية قوية فى تنبيهه إلى نعم ربه ، ولفت نظره إلى موجبات حمده ، تلك الأجناس الثلاثة هى عالم الحيوان وعالم النبات وعالم الجماد ، ألا ترى أن له من الحيوان لحومه وألبانه وله منه أصوافه وأوباره ، وله منه أن يحمله ومتاعه إلى بلد لا يستطيع بلوغه بدونه أو يستطيع بالمشقة المعنتة .

وله من النبات حبه وعصفه ، وخشب الأشجار وثمارها ، وله من الجماد أنهار وبحار وجبال ، ولكل نفع هو فى حاجة أو قل فى ضرورة إليه .

فمن الجبال يبنى بيوتاً وفى البحار يجرى سفناً ، ويستخرج لحماً وحلياً ، ومن الأنهار يروى زرعه وحيوانه . وهكذا من كل ما هو من عوامل تربيته ووسائل نمائه وممدات حياته (الحمد لله رب العالمين)

ثم تراه قد أتبع هذا الوصف وصفاً آخر وهو « الرحمن الرحيم » وإنما أتبع الوصف السابق (رب العالمين) هذا الوصف (الرحمن الرحيم) لحكمة سامية ذلك أن المربى قد يكون خشناً جباراً معنتاً ، وذلك مما يخدش من جميل التربية وينقص فضل التعهد ، ويغير إشراق النفوس الحاصل عن الشعور بفضل التعهد والتربية فأتبع كونه مربياً كونه الرحمن الرحيم لينفى بذلك هذا الاحتمال ، فتبقى للقلوب طمأنتها ، وللنفوس بهجتها ، ويبقى الشعور بفضل الله على عباده غير مخدوش ولا ممسوس وتقدير النعمة كاملا غير منقوص ، مما يبعثهم فى قوة إلى حمد الله .

وقد جمع بين الوصفين (الرحمن الرحيم) مع كونهما معاً من مادة الرحمة ذلك لاختلاف معنييهما ، إذ أن كل صيغة تفيد غير ما تفيده الأخرى ، فمفاد صيغة (الرحمن) الإنعام بالفعل ، والإحسان الواقع المتكرر ، وأما صيغة (الرحيم) فإنها تفيد ثبوت الرحمة للموصوف ثبوتاً على سبيل اللزوم والدوام ، فلما كان الاقتصار على الأولى قد تمر معه فى النفس خواطر انقطاع الإنعام ، وهواجس منع الإحسان ، ضم إليه الوصف الثانى ليفيد أن إحسانه الفعلى وإنعامه الحاصل الواقع مصدرهما وصف ذاتى دائم الثبوت لذاته تعالى ، فمنبع الإحسان الفعلى ومصدر الإنعام الواقع دائم الثبوت له تعالى ، فلن ينقطع عن عباده إنعام ، ولن يفتر له عنهم إحسان وفى ذلك دوام تعلق النفوس بربها ، واستمرار رجائها فيه مما هو باعثها على حمده ودافعها إلى تقديسه (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) .

ولما بين لهم موجبات حمده ، وأنه الحقيق وحده بالحمد . بأنه المربى الرحيم والمنعم الكريم ، أتبع ذلك ببيان أن هيمنته فوقهم ، وولايته عليهم ، وسيطرته على شئونهم ليست مما ينتهى بانتهاء تلك الدار ، وينقضى بانقضاء هذه الحياة ، بل هو إلى ذلك ملك اليوم الآخر ، يوم الحساب والجزاء العادل . يوم لا تظلم نفس فيه شيئاً (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) .

وفى ذلك الإتباع استئصال لذلك الخيال الضال ، واجتثاث لتلك القضية الباطلة التى كثيراً ما اتخذ منها الشيطان حبائل لصيد الإنسان وصده عن سبيل الله ،

وكثيراً ما أثارت بها النفوس غبار الشكوك والريب فى أفق الحق والإيمان لتحيد عن سواء السبيل إلى مهاوى الغواية والضلال : تلك قولهم (أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون أو آباءنا الأولون) وإذن فلله الأولى والآخر ولا مفر منه إلا إليه، وفىهذا دفع لوساوس الشيطان ، وطرد لأحاديث النفس وأمانيها مما يحمل النفوس على الرجوع إلى الله وابتغاء مرضاته واتقاء عذابه بالإخلاص فى حمده والمداومة على ذكره والمحافظة على طاعته فيما نهى وأمر .

الآية قد قرئت (ملك ليوم الدين ـ ومالك يوم الدين) وعلى القراءة الأولى يكون اليوم ملكا لله بضم الميم وعلى الثانية يكون اليوم ملكا لله بكسر الميم فعلى القراءة الأولى يكون المعنى ، أن له تعالى على اليوم هيمنة الملوك فكل شأن يجرى فيه برسمه ، وكل تصرف فيه ينفذ باسمه ، ليس لغيره أمر ولا نهى ، ولا لسواه منع ولا منح ، ولا تصرف فى أى شأن صغر أو كبر ، بل كل ما فيه صاغر أمام عزته خاضع لجلال عظمته .

وعلى القراءة الثانية يكون المعنى : أن كل ما فى اليوم ملك له تعالى ينتظم جزئياته علماً وتقديراً ، شأن المالك الفرد فى جزئيات ملكه المحدود الذى لا يغيب عنه منه شيء جملة ولا تفضيلا ، حتى إن ما يجتمع فى ذلك اليوم من الأولين والآخرين ، من الإنس والجن ، من الملائكة وغيرهم ، مذنبهم وطائعهم ، من الناطق والأعجم مما يعيي العادين ، ويعجز الحاصرين ، كل ذلك قد أحاط به علماً جزءاً جزءاً وفرداً فرداً ، وكل ذلك محصور وزنا وعداً (وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين) فيعلم أن ما يحتويه اليوم وإن جل وعظم فهو إلى عظمة ملكه حقير ، وإلى جلاله قليل ، فكان سبحانه بإحاطة علمه بكل ما فى اليوم على وجه التفصيل مالكا ، وكان بشموله لما فى اليوم سيطرة واستيلاء ملكا ، وإذن فهو الملك وهو المالك : ولقد أضاف ملك ومالك على القراءتين إلى يوم الدين . لأنه ليس هناك عبارة تفيد إحاطة ملكه بما فى اليوم إلا أن يملك اليوم ، إذ أن اليوم ظرف فلا يعقل أن شيئاً له وجود وليس فيه بل كل ماله وجود فهو بالطبيعة حاصل فيه فإذا كان اليوم مملوكا لله كان كل ما فيه ملكا لله وذلك هو السر فى أن يسلك فى التعبير مسلك الكناية لا الحقيقة .

(الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين) يتبع .

النقد الفني

لمشروع ترتيب القرآن الكريم حسب نزوله

تقـــــرير

مرفوع إلى إدارة الجامع الأزهر

بقـــلم

فضيلة الأستاذ الجليل الدكتور محمد عبد الله دراز

عضو جماعة كبار العلماء

بسم الله الرحمن الرحيم :

تلبية لأمر حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الجليل مدير الجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، تصفحت الرسالة المعنونة : « رتبوا القرآن الكريم كما أنزله الله » بقلم (يوسف راشد بوزارة العدل) ، فوجدت الكاتب يدعو فيها المسلمين إلى ترتيب سور القرآن على حسب نزولها ، ابتداء بسورة العلق ، ثم القلم ، ثم المزمل ، ثم المدثر ، ثم الفاتحة ، وهكذا حتى يختم بسورة النصر .

ويقول الكاتب فى توجيه هذا الاقتراح : إن ترتيب القرآن فى وضعه الحالى يبلبل الأفكار ، ويضيع الفائدة المطلوبة من نزول القرآن ؛ لأنه يخالف منهج التدرج التشريعى الذى روعى فى النزول ، ويفسد نظام التسلسل الطبيعى للفكرة ؛ لأن القارىء إذا انتقل من سورة مكية إلى سورة مدنية اصطدم صدمة عنيفة ، وانتقل بدون تمهيد إلى جو غريب عن الجو الذى كان فيه ، وصار كالذى ينتقل من درس نحو ، إلى درس فى الحروف الأبجدية ، إلى درس فى البلاغة . الخ . الخ .

* * *

أول ما نلاحظه أن هذه المقدمات لو صحت كان يجب أن تؤدى إلى نتيجة غير التى يدعوا اليها الكاتب . ذلك أنه كان يلزم بمقتضى استدلاله ألا يعاد النظر فى ترتيب السور فحسب ، بل أن تنثر نجوم القرآن كلها ، وترتب ترتيباً جديداً على وفق نزولها : المكى منها قبل المدنى ، والمتقدم فى كل منهما على المتأخر منه ، حتى يصبح المصحف صورة تاريخية لمراحل نزول القرآن .

فهل عسى أن يكون الكاتب رأى فى الدعوة إلى تعديل ترتيب الآى جرأة خطيرة تثير عليه سخط العالم الإسلامى ، فأراد أن يمهد لها بخطوة أقل خطراً فى نظره ، فدعا مؤقتا إلى إعادة تأليف السور على حسب تواريخها ، دون مساس بنظم الآى فى سورها . . . حتى إذا تم له ما أراد أتبعه بالضربة الحاسمة التى تأتلف مع مقدماته ؟ .

إننا لا نريد أن نحاسب المؤلف على أهدافه ومراميه البعيدة ؛ فالله أعلم بما فى نفسه . ولكن الذى يعنينا هو أن نسجل هاهنا السبب الذى بنى عليه تورعه عن تغيير نظام الآى ، فقد قال فى بيان المانع من ذلك : إن الرسول كان ينزل عليه بعض الآيات فيأمر بإلحاقها بسورة مضت ، حتى إنه كان يلحق بعض آيات مدنية بسور مكية .

هذا تقرير صحيح ، وهو يتضمن اعترافين اثنين ، كل منهما يؤخذ حجة عليه .

الأول — اعترافه بأن ترتيب الآى قد روعى فيه وضع آخر غير منهج التسلسل التاريخى فى النزول . فإذا كان حضرته قد استساغ فى السورة الواحدة أن تشتمل على أجزاء مكية وأجزاء مدنية ، فكيف لا يستسيغ أن تكون سورتان متجاورتان إحداهما مكية والأخرى مدنية ؛ مع أن الأمر فى السور أهون ؛ لأن كل سورة وحدة مستقلة ، ولا شك أن تجاور جسمين غريبين أخف من دخول أعضاء غريبة فى جسم واحد ، على أن تجاور المكى والمدنى لا مفر منه على اقتراحه هو أيضا ؛ لأنه سيضطر آخر الأمر إلى الانتقال من سورة مكية إلى سورة مدنية ؛ فكيف يفسر الفجوة التى ستحدث بالانتقال من آخر السور المكية إلى أول السور المدنية مع بعد ما بين اللونين فى نظره ؟ .

الاعتراف الثانى — فى قوله ، إن المانع من تغيير نظام الآيات هو أن تأليفها فى سورها كان بتوقيف نبوى (بل نقول بتوقيف آلهى) ولم يكن بمجرد اجتهاد من الصحابة ، وإنه لذلك يجب أن تراعى لهذا الترتيب قدسيته ، فلا يلحقه تغيير ولا تبديل . ومقتضى هذا التعليل أن المؤلف لو علم أن ترتيب السور فى مواضعها كما هى الآن ترتيب توقيفى أيضا لحافظ عليه ، ولم يجرؤ على طلب تغييره . ألا فليعلم حضرته - إن لم يكن يعلم - أن الأمر كذلك فى السور ، وأن الأمة لم تختلف فى شأنها اختلافا يعتدُّ به إلا فى موضع واحد ، وهو جعل سورة التوبة بعد سورة الأنفال بغير بسملة ، فقال بعض العلماء إنه كان باجتهاد من عثمان رضى الله عنه ، حيث لم يصل إليه فى شأنه تعليم نبوى : أهما سورتان أم سورة واحدة ؟ فوضعهما متجاورتين من غير بسملة احتياطا . ولكن جمهور العلماء على أنه توقيفى كسائر السور ، هذا هو الموضع الوحيد الذى يمكن أن يكون للبحث فيه مجال . على أنه سواء أكان الترتيب فى هذا الموضع توقيفيا أم توفيقيا ، فانه لم يخالف سنى ولا شيعى فى التزام هذا الوضع الذى كان عليه المصحف من أول يوم .

وخلاصة القول فى هذه الملاحظة الإجمالية أن احترام قدسية الوضع المأثور يقضى بالمحافظة على النسق القائم الآن فى الآيات والسور جميعا ؛ وأن فكرة ترتيب المصحف على حسب النزول كانت تقضى بتغيير الوضع فى السور والآيات جميعا ؛ بل هى فى الآيات كانت أشد اقتضاء ، ومع ذلك قد خولفت وخضع المؤلف لهذه المخالفة فى أقوى مظاهرها . وكان مقتضى المنطق أن يقبل هذه المخالفة فى الأخف والأهون .

* * *

ونجىء الآن إلى فكرة ترتيب السور على وفق نزولها ، لنناقش الوجوه التى حاول المؤلف أن يبرر بها دعوته إلى هذا التعديل .

— ١ —

يقول حضرته : إن الانتقال من السورة المكية إلى السورة المدنية يصدم القارىء صدمة عنيفة ، ويدخله طفرة فى جو غريب منقطع عن السياق .

نقول : إن كلمات « الصدمة العنيفة » و « الجو الغريب » ونحوها من العبارات المألوفة والقوالب الجارية على أقلام الكتاب لا تمنع طالب الحق ما دامت تحلق فى سماء هذا العموم المطلق الذى لا يطبق على مثال معين ؛ لأنها ما دامت كذلك يخشى أن تكون مجرد ألفاظ لا مدلول لها فى الخارج ولا فى ذهن الكاتب .

ولقد شعر المؤلف بحاجة القارىء إلى هذا التطبيق ، فضرب لنا مثلا بوضع سورة محمد بعد سور الحواميم ، وكنا ننتظر منه أن يضع يدنا على موضع المفارقة ويبين لنا وجه الانقطاع ، بين سورة محمد والسورة التى قبلها ؛ ولكنه لم يفعل ، واكتفى بإعادة هذه الألقاب العامة قائلا : إن القائل يشعر بها ...

ونحن نقول : إن الذى يشعر به القارىء هو على عكس ذلك : كمال الانسجام ، وتمام الالتحام ، بين هاتين السورتين . وها نحن أولاء نضع يد المؤلف على حقيقة ما نقول :

فليقرأ حضرته أول سورة محمد : « الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم » وليقرأ صدر السورة التى قبلها إلى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة » وليقل لنا : أين المفارقة بين هذين الحديثين ؟ - ثم ليقرأ فى ختام سورة الأحقاف قوله تعالى : « بلاغ ! فهل يهلك إلا القوم الفاسقون » وفى ختام سورة محمد قوله تعالى : « وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم » . ثم لينظر هل يرى أحسن من هذا تقابلا بين البدايتين ، وتوازيا بين النهايتين ؛ وهل يرى فى إحكام هذا النسق إلا صورة أخرى من صنع الله الذى أتقن كل شىء ؟ لقد صدق الله : « ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ؛ ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير »

فإن ظن حضرته أن مجرد ذكر القتال فى سورة محمد وعدم ذكره فى سورة الأحقاف يباعد بين السورتين قلنا له : ألم تر كيف وضعت فى آخر الأحقاف قنطرة لطيفة للعبور منها إلى هذا المعنى الجديد ؟ فلقد كان الإنذار بإهلاك الفاسقين فى آخر السورة الأولى خير توطئة للأمر بنوع من أنواع هذا الاهلاك فى السورة التى تليها .

أما إن كان لا يسوغ فى ذوقه بوجه عام أن السور المكية بما فيها من أصول العقائد ، وأصول مكارم الأخلاق ، والترغيب والترهيب ، توضع فى ثنايا السور المدنية بما فيها من القوانين المدنية ، والقواعد الحربية ، وشعائر العبادة ، وسائر الشرائع التفصيلية ، فيقال له : كيف استسغت إذاً أنه لا تكاد تخلو سورة مدنية من آيات التوحيد أو الجزاء أو الوعظ أو غيرها من المقاصد المكية ؟ وإذا رضيت بهذا الأدراج فى السورة الواحدة فلماذا لا ترضى به بين سورة وسورة ؟

فإن كان هذا الجواب الإلزامى لا يشفى غلته فإليه الجواب الشافى :

إن هذا المنهج القرآنى فى تلوين البيان وتنويع العلوم ليس فقط من أهم المقاصد البلاغية : تشويقا الى الحديث ، وتطرية للنشاط ، وترويحا للنفس من عناء العلائق البشرية ، وصعوداً بها بين الفينة والفينة الى الملأ الأعلى وإلى الحياة الباقية ؛ بل هو كذلك من أحكم وسائل التربية العملية ؛ لأن رد الفروع الى أصولها ، وبناء القواعد العملية على دعائمها الأولى العقلية والوجدانية ، من شأنه أن يمكن العقول والقلوب من هضم القوانين وتمثلها ، وأن يحوّل النفوس الى قوى محركة تمد الإرادات بأقوى بواعثها .

وليس الانتقال من أحد النوعين الى الآخر كما ظن المؤلف انتقالا الى مقصد جديد أو الى جو غريب ؛ فإن مقاصد القرآن وأهدافه فى السور المكية والمدنية واحدة : وهى إصلاح العقائد ، وتنظيم مناهج السلوك للأفراد والجماعات ؛ وإنما يفترق المكى عن المدنى بالإجمال والتفصيل ، وكما لا غنى للقواعد الكلية عن رسم طرقها العملية ، كذلك لا غنى للفروع عن الاستناد الى قواعدها الكلية ، والاستمداد من ينابيعها النفسية العميقة . ولذلك بنى نظم القرآن فى آياته وفى سوره على وجه من التداخل والتعانق بين الاعتقاديات والعمليات والبواعث والزواجر بحيث يظاهر بعضها بعضا على تقرير كل واحدة منها وتثبيتها فى النفوس ، ومن هنا كان القرآن « أحسن الحديث » كما وصفه الله « كتابا متشابها مثانى ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله » .

– ٢ –

أما قول المؤلف إن الوضع الحالى للسور مخل بحكمة التدرج فى التشريع : فهو انتقال نظر يدل على غفلة عظيمة وخلط بين مقامين مختلفين : مقام التنزيل والتعليم، ومقام التدوين والترتيل . وهما مقامان قد وضعا من أول يوم لتحقيق غرضين متفاوتين، فكان أولها يعتمد حاجات التشريع ، وثانيها يرتبط بحاجات الوضع البيانى . وإن مراعاة إحدى الحاجتين فى موضع الأخرى ليس من الحكمة فى شىء بل هو وضع للأمور فى غير موضعها .

ولما كان حضرته يميل الى الأسلوب التصويرى ، ويحب ضرب الأمثال ، وقد ضرب لنا مثلا بالأبجدية والنحو والبلاغة ، حق علينا أن نضرب له المثل الحق الذى هو أحسن تفسيرا فى هذه القضية :

رجل يريد أن يبنى بيتا لسكناه ، فجعل يجتلب تباعا كل ما هو بسبيل من تحقيق غايته ، غير مبال بأن يشترى أجزاء العُرُش والسُّقف قبل الأسس والجدران ، أو يستورد أدوات الارتفاق قبل مواد البناء ؛ متتبعا فى كل ذلك فرصة توفر الثمن لديه ، ووجود المواد فى السوق ، وسهولة وسائل النقل ، الى غير ذلك من ظروف احتياجه . وضروب إمكانه ؛ فهل من الحكمة أن يضع البناء هذه الأجزاء فى البنيان على حسب تواريخ ورودها ؟ أم الواجب أن يضع كل جزء منها فى مكانه اللائق به ، وفقا لرسم هندسى معلوم ، مهما خالف ترتيبه الزمانى ؟

كذلك كان نزول القرآن منجما على حسب حاجات النفوس من الإصلاح والتعليم ، وروعيت فى ذلك حكمة التدرج والترقى فى التشريع على أحسن الوجوه وأكملها . ولكن هذه النجوم فى الوقت نفسه لم تترك مبعثرة منعزلا بعضها عن بعض ، بل أريد لها أن تكون فصولا من أبواب أسمها السور ، وأن تكون هذه الأبواب أجزاء من ديوان اسمه القرآن ، فكان لا بد أن يراعى فى مواقعها من هذا البنيان معنى آخر غير ترتيبها الزمانى ، بحيث يأتلف من كل مجموعة منها باب ، ويأتلف من جملة الأبواب كتاب ؛ ولا يكون ذلك إلا إذا ألفت على وجه هندسى منطق بليغ ، تبرز به وحدتها البيانية فى مظهر لا يقل جمالا وإحكاما عنها فى وضعها الأفرادى التعليمى .

وكانت الآية الكبرى فى أمر هذا التأليف القرآنى أنه كان يتم فى كل نجم فور نزوله ، فكان يوضع هـذا النجم توّاً فى سورة ما ، وفى مكان ما من تلك السورة ؛ وكذلك كان يفعل بسائر النجوم فتفرق فور نزولها على السور ، مما يدل قطعا على أنه كانت هناك خطة مرسومة ، ونظام سابق محدود ، لا لكل سورة وحدها ، بل لمجموعة السور كلها . وهـذا وحده ـ لو تأملناه ـ من أعظم الأدلة البرهانية على أن القرآن ليس من صنع هذا البشر الذى لا يدرى ما يكون فى الغد ، فضلا عن أن يعلم ما ستأتى به الحوادث فى مجرى حياته كلها ، فضلا عن أن يعرف النظام الذى سيجىء عليه البيان فى شأن هـذه الحوادث ليهىء له مكانه قبل مجيئه ، فضلا عن أن يعلم أنه سيعيش حتى تأخذ كل سورة وضعها الكامل ، ويأخذ القرآن نظامه الشامل ، وحتى يكون انتقاله إلى الرفيق الأعلى عقب اعلانه بأن مهمته قد انتهت . . . هكـذا يدل كل شىء على أن عناية الله الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ، كانت هى التى تهيمن على تنزيل هـذه النجوم القرآنية ، وعلى ترتيبها حتى بلغت تمامها ، وأن هذا الترتيب المكانى المستقل عن ترتيبها الزمانى قد كان مقصوداً لحكمة ألبتة ؛ عرف هذه الحكمة من عرفها ، وجهلها من جهلها .

ولقد اعترف المؤلف بأنه من أهل القسم الثانى ، حيث قال فى صدر رسالته : « ما الحكمة فى ترتيب السور على هذا النحو ؟ » ثم أجاب بقوله : « لست أدرى » فكان ذلك منه انصافاً محموداً ؛ وكان الوضع السليم الذى يقضى به منطق هـذا الاعتراف أن يسلك إحدى خطتين : فإما أن يتوقف عن البحث فى حكمة هـذا الترتيب ، ويقول كما يقول الراسخون فى العلم : « آمنا به كل من عنـد ربنا » وإما أن يلتمس من أهل الذكر بيانا يكشف عنه بعض هذه الغمة . . . ولكنه لم يصنع هذا ولا ذاك ، بل أسرع فاستنبط من الجهل علما ، ومن الشك يقينا ، ودعا إلى التغيير قبل أن يتثبت من صواب قصده ، فكان كالذين قال الله فيهم « بل كذبوا بمـا لم يحيطوا بعلمه ولمـا يأتهم تأويله » .

— ٣ —

وهنا لا يسعنا إلا أن نوجه لحضرته نصيحة رشيدة ، نمهد لها بمقدمة صغيرة .

أما المقدمة فهى : أن التفقه فى القرآن ينبغى أن يكون على ثلاث مراحل

متصاعدة لا تستقدم واحدة منها عن موضعها ولا تستأخر . (المرحلة الأولى) فهم مسائل القرآن مسألة مسألة ، والتفقه فى أمرها ونهيها ، وحلالها وحرامها ، ومواعظها وعبرها ، ثم التحلى بآدابها ، والوقوف عند حدودها . (المرحلة الثانية) النظر فى جملة مسائل السورة على أنها أجزاء من وحدة مستقلة يرتبط بعضها ببعض فى نظام واحد ، ويأخذ كل منها فى هذه الوحدة وضعاً معيناً يناسبه . (المرحلة الثالثة) النظر فى مجموع سور القرآن على أنها أبواب من ديوان واحد قد قصد إلى ترتيبها فيه على هذا النحو .

مثل ذلك مثل الناظر فى علم التشريح : لا يبحث فى العلاقة بين جهاز وجهاز حتى يعرف أعضاء كل جهاز على حدته . ولا يبحث فى الأربطة والوشائج التى بين هذه الأعضاء قبل أن يدرس تركيب العضو ويستبين أنسجته وخلاياه .

فكما أن الذى يسأل عن حكمة وضع العينين فى مقدم الوجه . ووضع الأذنين فى جانبيه ، قبل أن يعرف تشريح العين والأذن ، يعد مشتغلا بنوع من الترف العقلى قبل أن يحصل على جواهر العلم ولبابه ، كذلك الذى يسأل عن حكمة تقديم سورة وتأخير أخرى يقال له : اذهب فأتقن فهم الآية والسورة أولا ، ثم تعال فانظر فى حكمة ترتيب السور ؛ فهذا من زينة العلم وحليته ، وذاك من مبادئه وأولياته . وإن مخالفة المنهج فى هذه الدراسة يعد من عكس الوضع السليم ؛ كالجائع الذى لا يجد كسرة يسد بها رمقه ، يضيع وقته فى البحث عن الأزهار والرياحين ؛ أو كالمدين المستغرق الذى ينفق ماله على الفقراء قبل أن يؤدى حق الغرماء .

إذا تمهد هذا فلينظر صاحب هذه الدعوة الجديدة فى أى مرحلة هو من هذه المراحل ، وليضع نفسه حيث يحق له من مراتب أهل البحث والدرس .

فإن كان لا يزال بعد فى إحدى المرحلتين الأوليين ، وجب عليه أن يتريث فى السير إلى المرحلة الأخيرة ، وأن يكتفى فيها مؤقتاً بأن يعلم إجمالا أن الرسول صلوات الله عليه كان يرتل القرآن فى الصلوات ، وفى العرض فى رمضان وغيره ، على هذا الترتيب ، وأنه جعل « الحمد لله رب العالمين » أول القرآن ، وسماها فاتحة الكتاب فى الأحاديث الصحيحة الثابتة ، مع أنها ليست أول ما أنزل ، وأنه كان يبين

لأصحابه موضع السورة من الكتاب ، كما كان يبين لهم موضع الآية من السورة . فهو إذاً وضع مقصود لمغزى يعلمه واضعه ، ولا يضر أحداً الجهل به . ومن بداله أن يجوّز تبديل هذا الوضع لأنه لا يعرف حكمته كان كمن لم يفهم حكمة وضع العينين فى مقدم الرأس ، فظن أنه كان الأنسب أن توضع إحداهما فى الوجه والأخرى فى القفا ليرى الإنسان بهما من أمامه ومن خلفه على السواء. فإن هو حاول تحقيق هذه الفكرة عملياً عاكس الطباع ، وأفسد الأوضاع . « ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن » . ألا وإن الشأن فى التنزيل كالشأن فى التكوين ، كلاهما من صنع الحكيم الخبير الذى أحاط بكل شىء علماً . فكما أنه لا تبديل لخلق الله ، كذلك لا تبديل لكلماته « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم » .

— ٤ —

أما إن كان قد حذق مسائل القرآن مسألة مسألة ، ووقف على سر نظم الآيات فى سورها آية آية ، واشتهى بعد ذلك أن يعرف الوجه فى ترتيب السور ، فليعلم أن للناس فى ذلك مسالك من النظر بعضها أعمق وأدق من بعض .

ولعل أدنى هذه المسالك وأيسرها قول بعض المستشرقين : إنه روعى فى هذا الترتيب فى الجملة البدء بأطول السور ، ثم بأوسطها . ثم بأقصرها . فهذا وجه من النظر لا يخلو من الصواب ؛ لأن شأن المبتدىء فى التلاوة أن يكون أجم نشاطا ، وأوفر رغبة ، وأتم استعداداً لقراءة المقالات الضافية ، ثم تأخذ قوته فى التناقص تدريجا ، بسبب ما يعترى الطبع الإنسانى من الفتور والتراخى ، فقدرت السور على حسب الطاقة والنشاط : من المئين ، إلى العشرات ، إلى الآحاد . ولكن هذا التوجيه - كما ترى - سطحى يقيس السور بعدد كلماتها وجملها ، لا بالقرابة بين معانيها وأساليبها .

ولو أننا جاوزنا هذه القشرة السطحية ونفذنا منها إلى المعانى والأساليب لوجدنا ضروبا أخرى من التسلسل التعليمى والبيانى تلتحم فيه السورة مع ما قبلها وما بعدها فى أحسن وضع وأحكمه .

ولقد رأينا آنفا كيف أن سورتى الأحقاف ومحمد قد تجاوبت مطالعهما ، وتطابقت مقاطعهما ، مع أنهما من فصيلتين مختلفتين فى تواريخ النزول .

هذا ضرب من الاقتران على وجه التوازى والمحاذاة .

وضرب آخر من الانسجام يصح أن نسميه نظام السلاليم ، أو أسلوب الحالّ المرتحل . وهو أن يكون المعنى الذى انتهت اليه سورة من السور هو نفسه المعنى الذى يفتتح السورة التى تليها . انظر مثلا إلى سورة الواقعة المكية كيف ختمت بقوله تعالى : « فسبح باسم ربك العظيم » وكيف حسن مجىء سورة الحديد المدنية بعدها حيث تفتتح بقوله : « سبح لله ما فى السموات والأرض » . وهكذا كان قوله : « وإدبار النجوم » جسرا إلى قوله : « والنجم إذا هوى » ؛ وقوله : « أزفت الآزفة » سلما إلى قوله : « اقتربت الساعة وانشق القمر » ؛ وقوله : « فى مقعد صدق عند مليك مقتدر » سبباً ممدوداً إلى قوله : « الرحمن . . . »

وهناك وجوه أخر من التسلسل أعمق وأدق يهتدى إليها من جعل همه تدبر آيات الله .

وبحسبنا فى هذه العجالة أن نعالج الشبهة التى علقت بصدر المؤلف حين لم يفهم الحكمة فى وضع الفاتحة فى أول القرآن ووضع بعض السور القصار فى آخره ، وأن نلفت نظره إلى أن كلا من البدء والختام قد وقع موقعه الرصين ، ووضع فى قراره المكين ، وأن المؤلفين حتى يومنا هذا ما زالوا يترسمون فى مطالع كتبهم ومقاطعها هذا المنهج المثالى القرآنى .

فموقع سورة الفاتحة من القرآن كله موقع الفهرس الذى يعرض بإيجاز محتويات الكتاب قبل الدخول فى تفاصيله ؛ فكل شىء فى القرآن من الإلهيات ، والنبوات ، والمعاد ، والأعمال ، والأخلاق ، وعبر التاريخ ، قد وضعت مفاتيحه فى هذه الكلمات القليلة بأسلوب لا يبدو عليه طابع العد والسرد ، وإنما هو ماء الحياة ينساب فى جداوله غذاء للعقول والأرواح ، فلا يمل ولا يخلق على كثرة الترداد . ثم إن لهذه السورة ـ وراء موقعها من جملة القرآن ـ موقعا خاصا من السورة التى بعدها ، هو موقع الديباجة التى تبين وجه الحاجة إلى التعليم الذى يليها . ذلك أنها

صورت المؤمنين باسطى أيديهم ملتمسين الهداية من واهبها : « اهدنا الصراط المستقيم » ، فكان حتما على المسئول القريب الذى يجيب دعوة الداعى إذا دعاه ، أن يتلقى هذا الدعاء بالقبول ؟ وهكذا جاءت سورة البقرة معلنة فى بدايتها أنها ستسد هذه الحاجة وستحقق هذا الملتمس : « ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين » .

أرأيت لو أننا وضعنا الفاتحة على ترتيب نزولها كما يريد المؤلف بين سورتى المدثر وأبى لهب ، كيف كان ينبو بها موضعها ، وتنقطع صلتها بما قبلها وما بعدها ؛ وكيف كانت تفوت هذه المجاوبة الروحية بين الداعى والمدعو ؛ وكيف كان يصبح القرآن كتابا بغير فهرس ، بل جسما بلا رأس ؟

أما السور السبع القصار ، فإنها كلها تحمل طابع الختم والانهاء ، وإن النفَس الذى يجرى فيها لينادى بأنها كلها أشبه شىء بوصية المودع . فانظر إلى سورة (الكوثر) حين قضى الوحى مفصلا كيف التفتت إليه فى نظرة جامعة لتعرّف الرسول بمقدار ما انطوى عليه القرآن من النعمة الكبرى والخير العميم : « إنا أعطيناك الكوثر » فكان ذلك أحسن فذلكة يختم بها كتاب وينوّه بشأنه . ولما كان تعريف الرسول بنفاسة ما وصل إلى يديه ليس امتناناً عليه فحسب ، بل هو تحريض خفى له على الحرص على تلك الهدية ، لاجرم جاءت السورة التى تليها مقفية على هذا التقريظ بالأمر المؤكد بالاستمساك بهذا الدين ، وعدم التحول عنه مهما لج المعاندون : « قل يأيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ... » ؛ وكان طبيعياً بعد هذا الأمر والنهى ، وبعد تقسيم الناس هكذا إلى معسكرين منفصلين فى شأن الدين ، أن تقرر عاقبة كل منهما ؛ فأشارت إحدى السورتين التاليتين إلى عاقبة المتقين المستمسكين بما جاءهم : « إذا جاء نصر الله والفتح » وأشارت الأخرى إلى عاقبة أعدائهم وشانئيهم : « تبت يدا أبى لهب وتب » ولم يكن هذا الأخير إلا تطبيقاً لقاعدة كلية مهدت له آنفاً فى قوله تعالى : « إن شانئك هو الأبتر » . ثم كان مسك الختام أن بورك هذا الكتاب وحصن التحصين السماوى المنيع ؛ وذلك بطلب الالتجاء إلى الإله الأحد الصمد فى أن يحفظ للعالم هذه الهداية العظمى ، برغم حسد الحاسدين ، ووسوسة الموسوسين ، الذين يلقون الشبهات فى صدور الناس ليصدوهم عن سبيل الله .

هذا نموذج من نسق السور كما رتبها الله : طاب بدءاً وختاماً ، وحسن مرتحلا ومقاماً . ولا غرو فهو تنزيل الحكيم الحميد ، ومن أحسن من الله حديثا .

— ٥ —

ونعود الآن فنفترض جدلا أن ترتيب السور لم يكن بتوقيف إلـهى ، ولا بتوقيف نبوى ، وأنه كان من عمل الصحابة باجتهاد منهم ، ألا يكفينا فى حرمته وقداسته أنه استقر عليه إجماعهم وإجماع المسلمين من بعدهم ؟

إن اليهود والنصارى - وقد أصاب كتبهم ما أصابها من تعدد النسخ واختلافها - يحسدون المسلمين على أن لهم كتاباً موحداً لا يختلف فيه حرف واحد عند سنى ولا شيعى منذ أربعة عشر قرناً ، ولا يختلف فيه وضع سورة فى نسخة عن وضعها فى أخرى ، بل إن علماءهم يغبطوننا على وجود بعض ألـفات أو لامات زائدة فى رسم المصحف ، وعلى انفصال بعض كلمات شأنها أن توصل ، واتصال كلمات شأنها أن تفصل ، ونحو ذلك من الرسوم القرآنية المخالفة للرسم الإملائى المقرر فى كتب النحو والصرف ؛ ويستدلون ببقاء هذا كله فى المصاحف الإسلامية - برغم اختلاف العصور وتطور العلوم - على مبلغ القدسية التى أحاط المسلمون بها كتابهم من أول يوم ، وعلى أن النص الذى تلقوه من نبيهم بقى كما هو لم تنله يد قط بأدنى تغيير أو تبديل ، مع وجود الحاجة إلى بعض هذه التعديلات تسهيلا على المبتدئين. أفنجىء نحن اليوم - بغير ضرورة ولا فائدة ، بل إفساداً واتباعا للهوى - فنضيع بأيدينا هـذه الحجه القائمة ، ونفتح مجال الشبهة أمام العصور المقبلة ، فيقول قائل منهم . « إنه لم تبق لنا ثمة بأن هذا الكتاب بقى فى كل العصور بعيداً عن كل تبديل ؛ لأنه فى العصر الفلانى قد غيرت أوضاع السور فيه ، فلعله قد أصابته قبل ذلك تعديلات أخرى لم تصل إلينا أنباؤها » ؟

وجملة القول أن الدعوة إلى تغيير ترتيب السور دعوة لا يقرها عقل ولا نقل ؛ لأنها قبل كل شىء دعوة إلى بدعة خارقة لإجماع المسلمين يحرّف بها الكلم عن مواضعه التى وضعه الله فيها . ولأنها محاولة لن يكون من ورائها إلا إفساد النسق ، وتشويه جماله ، ونقض بنيانه المحكم الوثيق ، ثم لأنهـا فتح باب للشبهة فى حفظ الذكر الذى ضمن الله حفظه ، فهى إذاً دعوة لا يستجاب لها ، ولا يجوز أن يمكن أحد من تحقيقها .

— ٦ —

بقى أن نقول رأينا فيما ينبغى أن يتبع فى شأن المؤلف وتأليفه .

إننا لسنا من أنصار سياسة الكبت وتكميم الأفواه والأقلام ، والتسرع بمصادرة الكتب والآراء المنحرفة فى الدين ؛ لأنها سياسة قد أثبتت التجارب فشلها ، ولأنها بدل أن تطفىء نار الفتنة تشعل أوارها ، وتغرى أهل الفضول بتلمس هذه المؤلفات كما تتلمس المهربات ؛ ولأن ضعيف الحجة هو الذى يحاول إسكات خصمه بالقوة والعنف ، وليس الضعف من صفات الحقائق الإسلامية التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ؛ وأخيراً لأن هذه السياسة ليست سياسة قرآنية ؛ فإن الله تعالى أمرنا أن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتى هى أحسن ، ثم إنه سبحانه لم يترك شبهة ولا فكرة زائغة لأعداء الإسلام إلا سجلها وخلدها فى كتابه ، وقفى عليها بما يدحض باطلها . فكذلك ينبغى فيما نرى أن تقرع كتب المبطلين بالحق الذى يدمغها ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة .

ونرى فى موضوعنا بوجه خاص أن ترسل صورة من هذا البيان إلى المؤلف ، وأن نترك له الفرصة الكافية لقراءته وتدبر ما فيه :

فأما إن كان من طلاب الإصلاح بنصفة وحسن نية ، فسيكون هو أول من يرجع إلى الحق متى تبين له ، وأول من يحافظ على ترتيب القرآن كما رتبه الله . وإن بقيت فى نفسه بعض شبهة فسيسعى إلى حلها باستفتاء أهل الذكر فيها .

وأما إن أصر على رأيه لحاجة وهوى فى نفسه ، فلنترك دعوته تموت بعدم الإصغاء إليها . فإن نشط لنشرها وترويجها ، وتضليل السذج بمغالطاتها ، بعثنا عليه جنوداً من حجج الحق نتعقب بها فلول باطله ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة .

ونحن على كل حال واقفون بالمرصاد لكل من أراد تبديل شىء فى كتاب الله ، والله غالب على أمره ، والسلام على من اتبع الهدى .؟

الربا داء البشرية الوبيل

لفضيلة الأستاذ الشيخ بدر المتولى عبد الباسط

المدرس بكلية الشريعة

إن التشريع الجدير بالاحترام هو الذى يحارب الشر بين الأفراد والجماعات ، فيبيح كل ما رجح فيه جانب الخير على جانب الشر ، ويحرم كل ما رجح فيه جانب الشر على جانب الخير ، ولا يقيم وزناً لخير مرجوح إن كان يقابله شر راجح ، ولا وزناً لشر موهوم إن كان يقابله خير مؤكد ، وإن الإنسان لا ينظر إلى الأمور إلا من ناحية هواه ؛ وكثيراً ما ينقلب الهوى على العقل ، فيفسد تفكيره ، ويريه الحسن قبيحاً ، والقبيح حسناً وقديما قيل :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة   كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولا يعدم محب الزنا أن يجد له مندوحة فى زعمه ، ومحب الخمر مبرراً لها فى وهمه ؛ فقد قرأنا وسمعنا الكثير من هذه الترهات . لهذا كان التشريع الإنسانى ـ فى كل العصور ـ مجالا للخطأ المقصود وغير المقصود ؛ ولم يترك الله الناس إلى عقولهم وأهوائهم ، بل أرسل رسله مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب ، وشرع لهم الشرائع ، وكان تشريعه أو فى الشرائع بحاجة البشر ، فإنه ـ سبحانه ـ أعلم بمصالح عباده من أنفسهم ، وليس حكمه عن هوى أو غرض تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا .

ولقد راعى الشارع الحكيم فى تشريع المعاملات بث روح التعاون بين الأفراد والجماعات ، وتنمية عاطفة الخير فى القلوب ؛ فأباح من أنواع المعاملات كل ما يحقق هذا المبدأ النبيل ؛ وحرم كل ما من شأنه أن يقطع أواصر الألفة ؛ ويبذر بذور العداوة والبغضاء ، ومما حرمه الله ، سبحانه ـ الربا ، وشدد فى أمره ، وبالغ فى النكير على المتعاملين به ، وجعل المصممين على التعامل به من الخالدين فى النار ، وسلكهم فى سلك واحد مع الكفار الآثمين ؛ ثم توعد المرابين بحرب منه إن لم يتوبوا

ويردوا الأموال إلى أربابها .

إستمع إليه سبحانه إذ يقول : « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ؛ ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لايحب كل كفار أثيم » . ثم استمع إليه سبحانه إذ يقول : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين . فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » .

وقد سد الشارع الحكيم هذا الباب لما فيه من شر مستطير وفساد كبير فجعل شبهة الربا محرمة كالربا فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « كل قرض جر نفعاً فهو ربا » وهذه سنة من سننه تعالى إذا عظم شر أمر من الأمور حرمه وحرم مبادئه وكل ما يتصل به من قرب أو بعد كما حرم مبادىء الزنا من نظر وخلوة ومس ، وكما حرم قليل الخمر وكثيرها وحرم بيعها كما حرم تعاطيها . حتى يفطم النفوس عن أهوائها ؛ ويردها عما يهلكها .

والنفس كالطفل إن تتركه شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وتطبيقاً لهذا المبدأ القويم جعل الرسول الكريم المتعاملين به وشهوده وكتاب صكوكه شركاء فى الإثم ، ولعنهم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال « لعن الله آكل الربا ومؤكله وشاهديه وكاتبه » .

وعده الرسول الأكرم من الموبقات المهلكات فى الدنيا والآخرة وجعله فى مرتبة تلى القتل فى الإثم فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم أن قال « اجتنبوا السبع الموبقات . قالوا يا رسول الله وما هن : قال « الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » .

وكيف لايكون قرين القتل وقد خرب البيوت العامرة ، وشتت الأسر الكريمة وأورث القلوب غــلا وحقداً وحسداً ، وماذا وراء ذلك إلا سفك الدماء وإزهاق الأرواح ؟

ومهما عدد الاقتصاديون للربا من مزايا ، ونسبوا إليه من فوائد فهل يستطيعون أن ينكروا أن الربا يجعل العلاقة بين أفراد المجتمع علاقة مادية بحتة : لا ظل فيها للتعاون ولا قيمة فيها للأخلاق الكريمة ؟ والشرع قد نظم العلاقة بين الناس على أسس من التعاون على البر والتقوى ، وهل ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يجعل هناك طبقة من الناس تعيش على جهود الغير ، وتستنزف عرق جبينهم ، وتسعد بشقائهم ، وتشقى بسعادتهم شأن كل الطفيليات التى تمتص دماء الإنسان والحيوان ، ولا تقوى إلا فى ظلال الجهل ، ولا تنتشر إلا المرض والفقر ؟ ولا ينكر رجال الاقتصاد أن الربا يغرى أرباب الأموال أن لا يستغلوا أموالهم إلا فى هـذا الباب لأنه فى زعمهم أضمن فائدة وأبعد عن مظان الخسارة وحينئذ تموت المشاريع العمرانية والصناعية التى يعود خيرها على جميع الطبقات . فإن الله جل شأنه ، لم يجعل النقد سلعة مقصودة لذاتها فى التجارة ؛ وإنما جعله الله وسيلة للبيع والشراء . والربا يصيره مقصوداً لذاته فيحتكره أرباب الأموال فتتعطل مصالح العباد وتتولد الثورات وتتفشى النزعات الهدامة .

ولعل البشرية لم تصل فى تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت اليه اليوم من علوم ومعارف ـ ولكنها ـ مع ذلك ـ لم تصل فى تاريخها الطويل إلى مثل ما وصلت اليه اليوم من اضطراب الأحوال وتبلبل البال وسلب الطمأنينة عن النفوس لا فرق فى ذلك بين الأفراد والجماعات والأمم ؛ فلا تكاد البشرية تقوم من هوة حتى تتردى فى هوة أعمق منها ؛ ولا تحل مشكلة من المشاكل حتى تواجه بمشكلة أعقد منها مع كثرة الخبراء فى كل ناحية من نواحى الحياة .

أليست هذه نذر من الله ـ سبحانه ـ لعباده بتلك الحرب التى آذنهم بها لانتهاكهم حرماته وخروجهم على تعاليم دينه ، وجعلهم الربا أساساً من أسس معاملاتهم ؟ ! ! وويل للبشرية ، ثم ويل لها يوم أن تصبح فى حالة حرب مع الله الواحد القهار « قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض » .

ربما كان من المحتمل أن يقع فى جريمة الربا فرد أو أفراد فإن كل عصر من العصور لا يخلو من العصاة والمذنبين والخارجين على الشرائع والقوانين ولكنه ليس من المحتمل فى مجتمع يدين بالإسلام أن يصبح الربا فيه أساساً

من أسس المعاملات؛ تبيحه القوانين، وتقع فيه الأفراد والحكومات ويشيع بين الناس حتى كأنه ليس جريمة من الجرائم. وكأن الله ـ سبحانه ـ لم ينزل فيه قرآنا، ولم يبين فيه حكما، وكأننا نؤمن بآراء من نسميهم اقتصاديين أكثر مما نؤمن بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل.

وكأن هؤلاء المرابين لا يكفيهم زاجراً وواعظا ما يرونه من عواقب من سلف من أشياعهم وكيف أصبحت ديارهم خرابا وأبناؤهم فقراء مساكين يتكففون الناس «وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله»

ثم إن هؤلاء المقترضين بالربا لا يشفع لهم عند الله تلك الأعذار الواهية التى يتعللون بها فجلهم إن لم يكن كلهم لم يقترضوا بالربا ليسدوا جوعة أو يستروا عورة بل اقترضوا ليعيشوا عيشة المترفين أو ليزيدوا إلى ملكهم ملكا جديداً؛ ولو أنهم دبروا أمورهم فى حدود طاقتهم المالية ما فتحوا على أنفسهم وذريتهم بابا من الشر لن يستطيعوا له إغلاقا ولما وضعوا فى أعناقهم وأعناق أبنائهم غلا من الدين لن يستطيعوا منه فكاكا.

بقيت كلمة أخيرة فى هذا الموضوع وهى أن بعض من ينتقص أطراف الدين باسم الدين يتعللون بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة» فيتمسكون بمفهوم هذا اللفظ ويقولون بحله إن لم يكن كذلك. ونحن نقول لهؤلاء: لقد فهمتم فى كتاب الله ما لم يفهمه محمد بن عبد الله وصحابته الأكرمون وما لم يفهمه أحد من الأئمة المجتهدين؛ ولو كان ما تقولون مراداً لله لجاز أن يكون الربا ٩٩ ٪ أو دون ذلك، لأن هذا ليس ضعفا ولا ضعف الضعف؛ إن هذا الوصف لا مفهوم له بل هو بيان للواقع، فإن من شأن الربا أن يضاعف الدين حتى يتعذر على المدين السداد؛ والواقع والمشاهد شاهد على هذا الفهم.

فالحق الذى لا مرية فيه أن الربا قليله وكثيره ظاهره وخفيه محرم عند الله ورسوله والمسلمين أجمعين؛ فمن أحل منه صورة من صوره فإنما إثمه على نفسه وعلى الذين يتولونه. فإن الحلال بين وإن الحرام بين. ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه، بئس الشراب وساءت مرتفقا».

جعل الله للمسلمين من أمرهم رشداً، وهداهم إلى الصراط المستقيم، إنه على ما يشاء قدير.

ابن سينا ومشكلات العصر الحاضر

٤ — مشكلة المرأة

لحضرة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى
أستاذ بكلية أصول الدين

بعد أن تكلم الشيخ الرئيس عما يجب على الدولة من توفير عمل لكل فرد من أفراد الأمة ، ومن ضمان المعيشة المعقولة للعاجزين عن العمل أو المتعطلين الذين لا يجدون إليه سبيلا ، أخذ فى الحديث عن المرأة من ناحية الزواج والطلاق ومنزلتها من الرجل وما يناسب أن يكون لها من عمل . كل هذا ، قد تناوله بالبحث وإن كان موجزاً ، وأدلى فيه بالرأى الذى يرى حتى تقوم المدينة الفاضلة أو الدولة الصالحة على الأسس التى تجعل حظها وافراً من الاستقرار والسلام والسعادة .

وسنعلم من رأى ابن سينا فى هذه المشكلة من نواحيها المختلفة ، أن المغالين من أنصار المرأة يظلمون الحق والطبيعة وأنفسهم والمرأة نفسها حين يذهبون إلى مساواتها التامة بالرجل ، وحين يصفون خصومهم بالاستبداد والجمود على ما أورثهم الدين والتقاليد من أفكار . ذلك بأنهم سيرون فيما يلى أن الفلسفة ، لا الدين وحده ، بل وأن أرسطو المعلم الأول نفسه ، لا يريان ما يرون ، وأنهما يذهبان أحيانا إلى ضد ما يرون .

* * *

يشدد ابن سينا فى الزواج وضرورته ، لأن به كما يقول بقاء النوع الإنسانى الذى بقاؤه دليل وجود الله تعالى . ثم يذكر أن الزواج يجب أن يقع ظاهراً ، حتى لا يقع خلل فى نسب الأولاد وانتقال المواريث التى هى أصول الأموال ، وهو فى هذا كله على اتفاق مع الشريعة الإسلامية وآراء المفكرين الاجتماعيين .

ويرى بعد هذا ، على خلاف ما هو موجود فى المسيحية ، أنه يجب أن يكون هناك سبيل للفرقة بين الزوجين ، وألا يُسد هذا من كل وجه ، لأن فى منع الفرقة

أصلا بين الزوجين وجوها مختلفة من الضرر الشديد . ومن الأسباب التى يتعين معها الفرقة بين الزوجين ، فيما يرى ، اختلاف الطبائع إلى حد عدم الألفة ، وسوء الخلق فى العشرة ، مما يؤدى إلى شقاء الحياة بالمعيشة معا . ثم فيما يقول أيضا : ربما الزوجان لا يتعاونان على النسل ، وهذا مطلوب حتما من الزواج ، فإذا حصل الطلاق وبدِّلا بزوجين آخرين رزقهما الله ما شاء من النسل الصالح والأولادالنجباء

والذى يراه الشيخ الرئيس هنا من ضرورة إباحة الطلاق للأسباب المتقدمة ونحوها ، نراه فى كتب الفقه الإسلامى . ففى هذه الكتب ترى أن من الأسباب التى يكون معها الطلاق خيراً للزوجين معاً تباين الأخلاق ، وحدوث البغضاء بين الزوجين التى تجعل العشرة الطيبة بينهما متعذرة أو فيها عسر شديد ، وكذلك من هذه الأسباب ، حدوث الريبة والشكوك بين الزوجين ، أو أن تكون المرأة مؤذية للزوج أو غيره ، أو أن يكون فى عدم الطلاق فوات ما يوجبه القرآن من الإمساك بمعروف .

وهذا الطلاق يجب فى رأى فيلسوفنا ألا يكون بيد المرأة بحال ما ، مع أن الشريعة الإسلامية تجيز أن يكون الطلاق بيدها أحياناً . إن المرأة ـ فى رأيه ـ فى الحقيقة واهية العقل ، مبادرة إلى طاعة الهوى والغضب ، وهنا يمس الشيخ الرئيس مسألة هامة لها خطرها فى كل آن . وتثور من أجلها هذه الأيام المناقشات العنيفة من وقت لآخر ، بل قد بلغ الأمر أن الخلاف من أجلها وصل إلى أعلى هيئة قضائية فى البلد وهى مجلس الدولة ؛ ونعنى بهذه المسألة مشكلة مساواة المرأة للرجل أو أنها أدنى مرتبة منه لهذا السبب أو ذاك .

ولست هنا بالذى يتعرض لهذه المشكلة من الناحية الموضوعية ، ولكنى أحب فقط أن أشير إلى أن ابن سينا يتشدد فى أمر الطلاق أكثر من الشريعة الإسلامية إن الشريعة ـ على ما هو معروف ـ أباحت أن يكون الطلاق بيد المرأة أيضاً إن شرط لها هذا الحق فى عقد الزواج ، كما جعلت للقاضى أن يوقعه ويفرق بين الزوجين بشروط وفى حالات خاصة معروفة فى كتب الفقه الإسلامى ، وإذاً ، فليس للمرأة وأنصارها أن يتهموا الشريعة بالقسوة أو تجاهل وجودها وحقوقها وبخاصة وقد أباحت أيضاً ـــ على بعض المذاهب ـــ أن تلى المرأة بعض الشئون

العامة ، وإن كنت لا أقول بأن هذا هو الحق أو الرأى الراجح فى المسألة ، وحسبى فقط أن أشير كما قلت ، إلى سماحة الشريعة وعرفانها لكل من الرجل والمرأة منزلته وحقوقه وواجباته التى يصلح المجتمع برعايتها ، وأنها فى هذا كانت أشد سماحا من كثير من أساطين المفكرين والفلاسفة .

ها هو ذا أرسطو الفيلسوف الإغريقى الأشهر ، والمعلم الأول بحق ، يرى فى الكتاب الأول من كتابه « السياسة » أن المرأة أقل عقلا من الرجل ؛ وأقل لذلك بصراً بالأمور وإدراكا لطبيعة الأشياء ، ومن ثم يرى أن أمور المدينة - يريد الدولة - يجب أن تكون خالصة للرجل وحده ، وللمرأة أمور المنزل والأولاد تحت عناية الرجل وإشرافه ، إنه فى هذا يقول : « فالرجل ، ما عدا استثناءات مضادة للطبع ، هو الذى يأمر دون المرأة ، كما أن الكائن الأكبر هو الذى يتأمر على الأصغر والأنقص » ؛ كما يقول فى موضع آخر : « والمرأة لها إرادة لكن فى درجة أدنى » .

ومن هذا ترى أن مشكلة المرأة ومنزلتها من الرجل والمجتمع ، مشكلة عريقة فى القدم عراقة وجود الإنسان بنوعيه ، وأن للمفكرين فى كل العصور آراءهم فيها وفى الحلول التى يرونها لها ، وأن للطبيعة أيضا فيها رأيها الخاص الذى يتفق وطبائع الأشياء ، وإن من الخطأ ، وعدم فهم الواقع ودراسة تاريخ الفكر ، الزعم بأن الشريعة الإسلامية تقف فى هذه المشكلة موقف العداء للمرأة . وإنه من الخير للرجل والمرأة على السواء أن يعرف كل منزلته التى أرادها له الله وطبيعة الأمور ثم أن يحسن القيام بالواجب الذى نيط به ، وبالدور الذى جعلت له الحياة القيام به ذلك أدنى إلى الحق بلا ريب ، وفيه تحقيق للصالح العام .

* * *

ذلك ، وكل حديث له خاتمته ونتيجته ، وأحب أن أشير فى هذه الخاتمة أو النتيجة إلى أنه قد وضح لنا أن هذه المشاكل التى نحس بها إحساسا شديدا هذه الأيام ، مشكلة الفقر والعمل والبطالة ، ومشكلة المرأة ومنزلتها فى المجتمع ، قد أحسها الناس جميعا منذ وجود العالم واشتد التنافس فى الحياة . وقد حاول

المفكرون ، والمصلحون الاجتماعيون ، منذ زمن سحيق ، وضع حلول لهذه المشاكل حلول تقرب كثيراً أو قليلا من عقليات الأزمان والبيئات التى كانوا يعيشون فيها ولم يكن المفكرون المسلمون بدعاً فى هذه الناحية ، فقد تناولها كثير منهم بالبحث والدرس ، محاولين حلها على نحو به يصلح المجتمع والحياة ، ومن هؤلاء ابن سينا الفيلسوف الإسلامى الأشهر الذى يستعد العالم الإسلامى هذه الأيام للاحتفال بعيده الألفى .

ولعل هذا مما يجعل البعض يحسن الظن بالفلسفة ، فيرى أنها لا تطلب إلا الحق والخير العام ، وقد تصيب من هذا كثيراً أو قليلا .

كما نرجو أن يكون هذا من شأنه أيضاً أن يجعلنا نثق بحضارتنا وقوميتنا وتفكيرنا الإسلامى ، فلا نجرى دائما وراء الغرب نستجديه فى كل شئوننا ، تاركين وراءنا ثروة كبيرة كلها بدائع وكنوز ، وقد أفاد منها الغربيون أنفسهم كثيرا ؟

يسرع ليصل

وقف الأحنف بن قيس ومحمد بن الأشعث بباب معاوية ، فأذن للأحنف ، ثم أذن لابن الأشعث ، فأسرع الثانى فى مشيته حتى تقدم الأحنف ، ودخل قبله ، فلما رآه معاوية غمه ذلك وأحنقه . فالتفت إلى الأحنف وقال له :

« والله إنى ما أذنت له قبلك وأنا أريد أن تدخل قبله ، وإنّا كما نلى أموركم كذلك نلى آدابكم ، ولا يزيد متزيد فى خطوه إلا النقص يجده من نفسه » .

وفى الأمثال من أدمن قرع الباب يوشك أن يفتح له وقال :

أخلق بذى الصبر أن يحظى بحاجته ومدمن القرع للأبواب أن يلجا

ونظر رجل إلى الحسن بن عبد الحميد يزاحم الناس على باب محمد بن سليمان ، فقال له : مثلك يرضى بهذا ؟ فقال :

أهين لهم نفسى لأكرمهم بها ومن يكرم النفس التى لا يهينها

الفقه السياسي عند المسلمين

الحق الدائم للأمة ، أولياء الأمر ، مركز الحاكم

لحضرة الدكتور محمود فياض
أستاذ التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

عرفت أيها القارىء الكريم ، أن أمتنا أمة مكلفة مسئولة ، وأن لها السيادة المطلقة على أرضها ، وأبنائها ، ومقدراتها ، وليس لأمة غيرها ، ولا لفرد منها . أى سلطان عليها ، لأن تنفيذ التكاليف منوط بها ، فهى المهيمنة على وسائل الحفاظ على الشرع وتنفيذ أحكامه ، ومراقبة منفذيها ، فهى بذلك تملك سلطة التشريع فيما تركه التشريع لها من أمور تجد ، أو أمور تتغير وتختلف حسب الزمان والمكان والظروف والملابسات ، ثم هى تملك هذه السلطة بحكم نيابتها عن المشرع سبحانه ، وكل ما يعرفه علماء الأصول باسم التشريع الحاجى ، أو الضرورى ، هو موضع السلطة التشريعية للأمة ، تقدر الظروف وتشرع لها بوساطة علمائها بما لا يختلف مع القواعد الكلية للإسلام ، وللأمة حق التوكيل والإنابة عنها من ترتضيه لتنفيذ تكاليفها ، ولها حق الرقابة عليه : تعين حاكمها ، وتمنحه الطاعة والسلطان ، وتنفذ أوامره ، ما اعترف بحقها والتزم الحدود المرسومة له ، وتمنعه الطاعة ، وتحرمه السلطان ، وتسلب أوامره القوة ، إذا تنكر لها ، أو خرج عما عين له ، ولها أن تنصحه إذا مال مع الهوى ، وتقومه إذا اعوج ، وتعزله إذا لج فى عتوه ونفوره من سلطاتها . وهى التى تقدر مصلحتها فى التولية والعزل ؛ ثم هى أمة حية قائمة ، وحقوقها ثابتة لها دائمة ، ما بقى تشريعها وما بقى فرد من أفرادها ، لا يرث عنها حقوقها إلا سيدها ومالكها يوم يرث الأرض ومن عليها ، وليس من حقها أن تتنازل عن سيادتها وسلطانها وحقوقها ، لأن سيدها الذى استخلفها لم يأذنها بالتنازل عما يملكه هو وحده ، وليس لأحد أن يدعى وراثتها ، إلا مدل بباطل ، أو مغتصب لا يرعى حدود الله.

هذا ، وتعلم أيها القارىء الكريم ، أن الإسلام هو دين الفطرة ، وهو نهاية الشوط فى التشريع السماوى لصالح البشرية ، وأنه جاء وقد اكتمل العقل البشرى ،

وارتقت الإنسانية إلى أرفع مما كانت عليه قبله فى الإدراك والتعقل ، وأنه جاء مصلحاً منظما . فعرض لشتى نواحى المجتمع البشرى ، وراعى كل احتياجاته ، واستعرض العادات والتقاليد ، وأشباه النظم التى وجدها ، فعدل منها ما عدله ، وهذب ما هذبه ، وألغى ما لا يتفق مع روحه وسمو مبادئه ، وابتكر ما ابتكره من نظم وتشريعات غير معهودة من قبله ، وكثيراً ما تكون الأمور التى هذبها ، أو ، شذبها ، الإسلام ، أو سلمها بحالها ، من الأمور الضرورية التى لا تستغنى عنها الإنسانية بحال من الأحوال فى أى زمان أو مكان .

ولقد وجد الإسلام قبائل العرب ـ كغيرها من شعوب الله ـ تخضع كل منها لزعيم من بينها له صفات خاصة ، تنفذ أمره ، وتتبع رأيه فى السلم والحرب ، وتعترف برياسته عليها وتعطيه حق تدبير أمرها مع جماعة من كبارها يشتورون معه ، ويتعاونون معه على ما فيه خير القبيلة ، وهذا تقليد إنسانى مرت به جميع الشعوب البشرية ، ولقد احترم الإسلام هذا التقليد الذى صاحب البشرية فى تطورها فى العصور المختلفة ، فجعل كبار القوم ـ وهم عادة أهل العلم والرأى والخبرة والشرف ـ جعلهم موضع احترام الجميع ، وجعل لهم حق الطاعة على الجميع ، كما وضعهم فى مقدمة الأمة فى تحمل المسئولية ، انظر معى إلى أى أسرة ، أو جماعة أو أمة !! فاننا لا نجد فى مكان صدارتها ، إلا بطل أو عالم أو خبير بالحياة سديد الرأى ، أو ثرى قدَّمه ماله وعصبيته . هؤلاء هم كبار القوم الذين يسمع لهم ، ويعمل الناس بارشادهم ، وهم الذين سماهم القرآن الكريم أولياء الأمر فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ثم فى قوله : « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ، ولو ردوه إلى الرسول ، وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم » وحول هاتين الآيتين الكريمتين ، اضطرب كلام الشراح سيما فى عصر الجمود ، والعصر الحديث ، فى تفسير أولى الأمر ، تبعاً لشدة أو ضعف ضغط السياسة التى لم تدع شيئا إلا أفسدته ، حتى تطاولت إلى أقدس المقدسات وهو الدين . . ! فقال قوم : هم الحكام . وقال قوم آخرون : هم العلماء ، وقال غيرهم : هم أهل المكانة والصدارة من الزعماء والعلماء وأهل الرأى والخبرة ، ويخلصنا من هذا الاضطراب الذى أملته ظروف خاصة . إذا نحن علمنا أن العنصر الأخلاقى عنصر أساسى فى الشريعة الإسلامية التى تأخذ

المسلمين بأفانين من التربية والتأديب لتخرج منهم أمة وسطا . وخير أمة أخرجت للناس ، ولتصنع منهم نمطا إنسانيا عاليا تعتز به البشرية ، وهذا العنصر هو أهم ما تميزت به شريعة الإسلام عن مختلف الشرائع السماوية والوضعية ، والإسلام يسمح بتقبل التقاليد الإنسانية التى لا تتنافى مع مبادئه ، وقد علمت أن طاعة كبار القوم من أهل المكانة والعلم والرأى والتجربة تقليد إنسانى ، وهو لا ينافى مقررات الإسلام ، وهؤلاء هم أهل الذكر « واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » ، وهم أولياء أمر قومهم ، ورواد مصالح أهلهم ، والإسلام يريد أن يربى الأمة على طاعة كبرائها المجربين فى غير معصية الله ، وكل فرد إذا وجـد فى نفسه القوة والكفاية أن يكون من هؤلاء ، حاكما كان أو محكوما ، وإذا كانت الآية الأولى عامة قررت قاعدة كلية ، وحمل أولوا الأمر فيها على الحكام ، فان الآية الأخرى تتحدث عن « أولى أمر » إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم لهم قدرة على الاستنباط ، واستتباع الناس ، ومعروف أنه لم يكن مع الرسول حاكم أو حكام يشاركونه فى حكم المسلمين ! فواضح إذاً أن هؤلاء لم يكونوا غير كبار المسلمين من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم وزعماء القبائل ، وأهل البصر والتجربة ، ممن يتبعهم الناس ، ويسمعون لهم ، وينقادون لرأيهم عادة أو عصبية .

وأولوا الأمر ـ هؤلاء ـ هم المعبر عنهم عند علماء الإسلام بـ(أهل الحل والعقد) وهم من ذكرنا صفاتهم .

وقد ذهب الى هذا الرأى جماعة من خيار السلف والخلف منهم الإمام الرازى ، والإمام التفتازانى (السعد) والإمام النووى والإمام الرملى والإمام الشيخ محمد عبده والأستاذ رشيد رضا والأستاذ شلتوت [1] .

ولما كان هؤلاء (أهل الحل والعقد) هم رءوس قومهم ، وطلاب صلاحهم ، وأهل رأيهم وخبرتهم ، ووجودهم ضرورى فى كل جماعة تبحث عن خيرها ، ولا غنى للجماعة عنهم وقد صقلهم الأيمان ، وحبب الإسلام إليهم التفانى والرغبة

(١) راجع تفسير الرازى لسورة النساء فى الآيتين ، ورأى السعد فى المقاصد جـ ٢ ص ٢٧٢ ، وشرح المنهاج للرملى جـ ٧ ص ١٢٠ ، وتفسير المنار جـ ٥ ص ١٨٠ — ٢٤٢ ، وفقه القرآن والسنة للشيخ شلتوت ص ١٧٤ .

فى صالح الإسلام والمسلمين ، وأصبح ذلك هدفهم الأول ، فإن الله قد أوجب طاعتهم على أفراد الأمة فى كل ما لا يضر الدين والدولة ، وما داموا أهلا لثقة المؤمنين .

وقد كانت هذه الطبقة من المسلمين فى عصر الرسول صلى الله عليه وسلم تكون ما يشبه المجلس الشورى للرسول عليه السلام ، وكان صلى الله عليه وسلم يستشيرهم فيما تستلزمه دنياهم ومصالحهم مما لا شرع فيه يلزمهم باتجاه معين ، وكثيرا ما رأينا القرآن الكريم يؤيد وجهة نظر بعض هؤلاء المستشارين فى غير مسألة ، استشارهم عليه السلام يوم الحديبية ، ويوم بدر ، ويوم الأحزاب ، وفى الحجاب ، وأمور الحرب والمعاهدات ، وأوضح مثل نقدمه لذلك استشارة الرسول لهم فيما يجب عمله مع أسرى بدر من المشركين ، وما نزل فى ذلك من قرآن كريم ، ونخلص مما قدمته الى أن كبار القوم من زعماء وعلماء وأهل خبرة فى نواحى الحياة المختلفة . هم أولياء الأمر ، وأهل الحل والعقد ، وهم لسان الأمة الناطق برغباتها والمعلن لسخطها أو رضاها ، أو هم وكلاء الأمة الدائمون ، يتألف منهم شبه (مجلس أعلى للأمة) يسهر على مصالحها ، ويوجه سياستها فى السلم والحرب . ويراقب حكامها ، ويرشح من يراه أهلا لقيادة المسلمين ورياستهم ، ويقدمه للأمة لتوكله بالبيعة ليصرف شئونها ، وهؤلاء هم المعنيون بقول الله تعالى : « وأمرهم شورى بينهم » وهم الذين أوجب الله على رسوله الكريم مشاورتهم « وشاورهم فى الأمر » وأول واجب عليهم هو ترشيح الحاكم وتزكيته ، وتقديمه للبيعة ، فإن رأته الأمة أهلا لثقتها منحته رضاها ، وبايعته ، وإذا ظهر فى المرشح عيب خفى عن الكبار يطعن فى أهليته ، فمن حق الأمة أن ترده إن شاءت ، والمسلمون جميعا أهل للاختيار بشرط الكفاية والصلاح والقدرة على استتباع الناس ، لا يختص الحكم الإسلامى ببيت خاص ، أو قبيلة خاصة أو شعب خاص ، فالمسلمون سواسية كأسنان المشط ، وأكرمهم عند الله أتقاهم ، ومن لم يتقدم به عمله ، لم يسرع به نسبه ، ولو جاءت الأعاجم بالعمل وجاء العرب بغير عمل . لكان العجم أحق بمحمد يوم القيامة كما يقول عمر فكل من توفرت فيه الكفاية أهل للحكم إذا ارتضته الأمة لقيادتها ، وله عليها حق الطاعة ما دام ملتزما لدستورها ، فإن تحلل منه ، فهى فى حل من طاعته .

ومن الملاحظ دائماً أن الحاكم الذى تختاره الأمة يكون عادة واحداً من أهل الحل والعقد ، وأيضاً فأن أهل الحل والعقد يرشحون دائماً فرداً منهم ، وإذن فهناك احتمال الاتفاق بين هؤلاء الكبار على استغلال الأمة ! ولهذا يحتاط الإسلام لما عساه يحدث من تآمرهم مع الحاكم ، وهو متهم على الأمة واستغلال نفوذهم ومكانتهم لمصالحهم الخاصة ، هم بشر غير معصومين ، وليس لدى الإسلام ما يضمن له أن يظل هؤلاء الكبار . كما كانوا فى عهد الرسالة . يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، والقلوب تتقلب ، والنفوس تتغير ، ونظرتها إلى الحياة تتطور ، وروح التدين قد يضعف أو يتلاشى . وعندئذ لا يزع الشخص قرآن ولا سلطان ، فهل توضع الأمة فى مثل هذا الظرف تحت رحمة هؤلاء الكبار ؟ لا . ما كان للإسلام أن يكبل الأمة بهذه القيود ويخضعها لفئة منها هم خدامها ، لأن الإسلام قد احترم الأمة ، وخلق لها بالتكليف شخصية معنوية دائمة . ومنحها السيادة على نفسها ومقدراتها ، ووكل اليها اختيار خدام مصالحها ، ولهذا يضع الإسلام الأمة فى أعلى القمة على رأس الحاكم ومجلس شوراه (أهل الحل والعقد) فهم جميعاً تحت رقابة الأمة ، وكل فرد من الأمة مسلط عليهم ، ومن حقه مراقبتهم ، بسلطة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، حتى لا تستعبد الأمة وتذل لفرد أو أفراد من أبنائها ، وحتى لا يكون هناك مجال لتسخيرها لمصالح الحاكمين ، إذا فسدت الضمائر وتواطئوا على استغلالها لصوالحهم الخاصة ، ولهذا وضع الحاكم ومستشارو تحت سيف مصلت على رقابهم هو سيف الرقابة الشعبية . وبهذا يتميز النظام الإسلامى عن غيره من النظم البشرية قديمها وحديثها .

إذن فمركز الحاكم مركز دقيق محفوف بالأشواك والأخطار ، هو خادم مسئول عن سيده أمام سيده وأمام خالقه مسئولية دنيوية وأخروية ، وهذا هو معنى قول عمر بن الخطاب للناس : « إن الله ابتلانى بكم وابتلاكم بى » « إذا كنت فى منزلة تسعنى . وتعجز عن الناس . فوالله ما تلك لى بمنزلة حتى أكون أسوة الناس » « إنى والله لست بملك فأستعبدكم . ولكنى عبد الله عرض على الأمانة ، فإن أنا أبيتها ورددتها عليكم واتبعتكم حتى تشبعوا فى بيوتكم وترووا . سعدت بكم ، وإن أنا حملتها واستتبعتكم إلى بيتى شقيت بكم » ولما أقسم عامل الرمادة ألا يذوق سمنا

ولا لحما ولا عسلا ولا لبنا ، وأراد بعض الناس صرفه عن قسمه قال : « كيف يعنيني شأن الرعية إذا لم يمسسني ما مسهم ؟ بئس الوالى أنا إذا شبعت وجاع الناس ! » ولما قال له الأحنف بن قيس : اتق الله فيما لا يغنى عنك يوم القيامة قيلا ولا قالا ، واجعل بينك وبين رعيتك من العدل والانصاف شيئاً » قال رجل : كيف تقول لأمير المؤمنين اتق الله . غضب عمر وقال : لا خير فيكم إذا لم تقولوها . ولا خير فينا إذا لم نسمعها منكم » !!

ويقول عن أموال المسلمين : « والله ما من أحد إلا وله فى هذا المال حق ، وما أنا فيه إلا كأحدكم ، ولكننا على منازلنا من كتاب الله . . » وكان يرى ان ظلم الحاكم مسقط لولايته ، وكان ينادى فى كل موسم حج « من ظلمه أمير فلا إمرة عليه دونى » وبهذه الروح قال لعمرو بن العاص : متى تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

وهذا المنهج وتلك المبادىء هما فى الواقع صدى لقوله تعالى لرسوله : « فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمصيطر » فمهمة الحاكم حسن الارشاد وتحقيق العدالة وقيادة المجتمع قيادة رشيدة إلى الخير والجمال ، والسلام والكمال ، وإذا كان من حتمه أن يكون عام السلطان لمسئوليته عن كل شيء ، فليس له أن يسيطر ويستعبد الناس ، لأنه واحد منهم . وهم الذين قدموه ، وله ما لهم وعليه حمل أثقل من أحمالهم ، ومنزلته منهم كمنزلة ولى اليتيم منه ومن ماله ، فليس لهذا على اليتيم سيادة ، وليس له أن يأكل من ماله إلا إذا كان فقيراً فليأكل بالمعروف ، لقاء حسن إرشاده وحسن رعايته ، وهكذا أحكم الإسلام وحدة الأمة ، وحقق بهذا التنظيم التعاون والتضامن ، الانسجام والتوافق والتجاوب بين الحاكم والمحكوم . وهذا هو سر حيوية الإسلام السياسية ، وسر قوة الحكم الإسلامى فى العصور الأولى . وسر صلاحية السياسة الإسلامية للتطبيق فى كل زمان ومكان ، وقدرتها على حل مشاكل العصر الحاضر .

وللكلام بقية ، فإلى العدد القادم إن شاء الله ، والله يهدينا إلى صراطه المستقيم .

دراسات فى القرآن

موسى الكليم

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود النواوى
المفتش بالأزهر

القصص فى القرآن باب واسع ، يحتل مكانا فسيحا ، وينال قسطا كبيراً ، ذلك أنه غرض جليل الفائدة ، غزير المادة ، عظيم الخطر ، بالغ الأثر ، سائغ العرض ، محبب إلى كل نفس من الغلام الناشى ، إلى الشيخ الفانى ، كل يجد فيه السلوى ، ويتخذ منه العظة العظمى . وفى قصص هذا الكتاب السماوى دقة تخير لما ينفع ، وأعظم تحر لما وقع ، فهو أصدق الحديث ، وأحسن القصص ، « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ، ولكن تصديق الذى بين يديه ، وتفصيل كل شىء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

ولو لم يكن فى هذا القصص إلا دلالته الحقة على صدق هذا النبى الأمى الذى نشأ يتيما فى مكة يجول بين شعابها الجاهلة ويدرج فى ربوعها الغافلة ، حيث لا معلم ولا موجه . ثم هو بعد يتحدى أهل الكتب السماوية ، ويحاج ذوى المعارف والثقافة فى مختلف النواحى فيبهرهم ويصرعهم ، فمن أين كان لذلك اليتيم ناشىء مكة أن يعرف أن الله كتب فى التوراة أن النفس بالنفس ، والعين بالعين إلى آخر القصاص ؛ أو يعرف أن الرجم فى التوراة ، ويتحدى أحبارهم لإثبات ذلك مثلا ؛ بل من أين هذا القصص الثابت الصادق الذى تحدى به أمم الأرض ورواتها ، ولا سيما أرباب الكتب المقدسة ، فما حاول أحد أن يكذبه ، وهم الأعداء الأشداء الذين أعيتهم الحيل فى صراع محمد والقضاء عليه ؟؟؟ أليس فى ذلك دلالة على صدقه فى دعوى الرسالة وأن هذا العلم من لدن الله ؛ وفى الكتاب الكريم : « أو لم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل ، إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » وفيه أيضا : « وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت

ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكنا كنا مرسلين ، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك » .

ردد الله سبحانه فى القرآن الكريم كثيراً من شئون بنى إسرائيل فى ماضيهم وحاضرهم ، وأنبأهم بدخائل نفوسهم ، وكشف لهم طائفة من عيوبهم ، وساق عدة من أخبار نبيه الكليم قبل الرسالة وبعد الرسالة ، يرددها فى ألوان مختلفة فى لغة الواثق المتثبت ، وجرأة العليم المتحقق ، وقد أحصيت لها خمسة وعشرين موضعا فى الكتاب الكريم ، بعض معانيها يتكرر مع بعض آخر ، وهو الأكثر الأغلب وبعضه ينفرد به موضع واحد ، كقصة بقرة بنى إسرائيل فى سورة البقرة ، وقتل النفس التى تدافعوا فيها أيضا ، وكقصة قتال الجبارين فى المائدة ، وكقصة قارون فى القصص ، وكقصة الخضر وموسى فى الكهف وهذا التكرار فى الكتاب من مزاياه الخطيرة . ودلائل إعجازه المشرقة المنيرة . فياليت شعرى أى كتاب سوى القرآن سلك هذا المسلك فلم يسخف ، وتطاول إلى ذلك الرقى فلم يهن ولم يضعف لقد كان جديراً أن يختلف أسلوبه ، أو تفتر بعض عباراته ، أو تجف خصوبته أو تخف بلاغته ، أو تمر حلاوته ، أو تملح عذوبته « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » .

على أن فيه من التشويق والاستطراف ما لا يخفى ، فهو يكمل فى بعض المناسبات ما لم يتم فى مناسبة أخرى .

ولعمر أبيهم لو كان الأمر كما يزعمون لسبق به خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من أهل اللسان ، وأصحاب الذوق ، وهم الذين كانوا يلتمسون عثرة جده بكل حيلة وبخاصة أنه تحداهم بالقرآن وألح فى التحدى حتى أصمهم وأعمى أبصارهم .

ذكر الله سبحانه موسى الكليم فى خمسة وعشرين موضعا من كتابه الكريم فى هذه السور : البقرة ، المائدة ، الأعراف ، يونس ، هود ، إبراهيم ، الإسراء ، الكهف ، طه ، المؤمنون ، الفرقان، الشعراء ، النمل ، القصص ، السجدة ، الأحزاب ،الصافات ، غافر ، الزخرف ، الدخان ، الاحقاف ، الذاريات ، القمر ، الصف ، النازعات .

أما سورة البقرة فقد تناولت الآيات الكريمة (٤٧ - ٩٣) توجيه الخطاب إلى بنى إسرائيل الذين كانوا يسلكون مع نبيه صلى الله عليه وسلم مسلك الجحود

ويعاملونه معاملة لا يصدر مثلها من مثلهم ، فذكرتهم نعم الله سبحانه وفصلت نواحى من ذلك الإنعام ، من ذلك تنبيه القوم بما كان لبعض أسلافهم من ماض سىء فيه مثلات وعظات ، تأبى على العاقل الموفق أن يتورط بعدها فى خروج على رسول عظيم ، أرسله الله يعلمهم ، وقامت عليه الدلائل فى كتبهم ، ثم هى تحمل موجب الإيمان به والتقدير له من قبل أن ذلك التاريخ التفصيلى البعيد مداه ، المندثرة آثاره من أقوى الدلائل على أنه وهو هذا الأمى المعروف رسول من عند الله . على أن بين الآيات الكريمة استطرادا ، فالآية ٤٩ تذكرهم بنعمة الله عليهم إذ أنقذهم من الكرب العظيم من فرعون وآله ، وكانوا يذيقونهم سوء العذاب ، يذبحون الذكور من أبنائهم ويستبقون الإناث ، ذلك أن الشعب الإسرائيلى كان فى مصر عنصرا أجنبيا بين القبط ، بدأ حياته فى مصر من عهد يوسف وإخوته ثم أخذ ينمو ويتزايد ، وهو شعب جبار عارم شديد الاثرة والاعتداد فأخذ القبط يستذلونهم بالأعمال الشاقة ، ولم يكن ذلك ليفل من شوكتهم ، فلما كان عهد فرعون ذلك المذكور فى القرآن أشار عليه القبط بأن يأمر القوابل بقطع دابر الذكور منهم بأن يذبحوهم وقت الولادة ، وهو بلاء عظيم حتما ، والمعنى مرو فى سور كثيرة مع بعض التفصيل فى أوائل سورة القصص آية (٤ ، ٥) وفى الآية ٥٠ تفصيل لبعض نواحى التنجية من آل فرعون مع طى ما كان من ولادة موسى وما جرى عليه إلى عهد الرسالة مما تكفلت به سورة القصص وطه والنمل كما ستراه إن شاء الله ، فالآية تنص على أن الله فرق بهم البحر فأنجاهم وأغرق آل فرعون بمرأى منهم ، والمعنى مفصل فى الآيات (٩٠ - ٩٣) من يونس والآيات (٧٧ - ٧٩) طه ، والآيات (٥٢ - ٦٦) الشعراء ، والآيات (٢٢ - ٣١) الدخان ، وفى شرح بعض القرآن ببعض متعه ومنفعة وإيمان .

وتعود آية ٥١ من سورة البقرة فتشير إلى مواعدة الله سبحانه عبده موسى بإيتاء التوراة بعد حادث النجاة فقد خلصوا من شواغل تلك المزعجات من فرعون وقومه وما كانوا ينالونهم به قبل موسى وبعده ، واستعدوا لتشريع من الله يسيرون على نهجه . فأمر الله سبحانه موسى أن يجىء إلى الجبل بعد أربعين ليلة ليأخذ التوراة « فيها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » .

« الحديث متصل »

عدىّ بن الرقاع

بين الوليد بن عبد الملك وبين هرون الرشيد

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان
الأستاذ بكلية اللغة العربية

عدى بن الرقاع العاملى ، أحد شعراء الإسلام ؛ وكان شاعرا مقدما عند بنى أمية ، مداحا لهم ، خاصا بالوليد بن عبد الملك ؛ أثيرا عنده ؛ وقد تعرض لجرير وناقضه فى مجلس الوليد ، ثم لم تتم بينهما مهاجاة ؛ وكانت مكانته عند الوليد ، مثار حسد له ، وغيرة منه ، عند غيره من الشعراء ، كجرير ، والفرزدق ، وكثيّر وغيرهم .

دخل جرير على الوليد مرة وعنده عدى ، فقال الوليد : أتعرف هذا ؟ قال : لا ، فمن هو ؟ قال : هذا ابن الرقاع . قال : فشر الثياب الرقاع ، فمن هو ؟ قال : من عاملة . قال : أمن التى قال الله تعالى فيها : « عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية » ؟ فقال الوليد : والله ليركبنّك ! لشاعرنا ومادحنا والراثى لأمواتنا تقول هذه المقالة ! يا غلام ، على بإكاف ولجام . فقام إليه عمر بن الوليد ، فسأله أن يعفيه فأعفاه ؛ وقال : والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلن . فلم يصرح جرير بهجاء عدى ، ولكنه عرض به تعريضا ، فى قصيدته التى مطلعها :

حى الهدملة من ذات المواعيس ؛ إذ يقول فيها :

إنى إذا الشاعر المغرور حربنى ... جار لقبر على مران مرموس[1]
قد كان أشوس آباء فورثنا ... شغبا على الناس فى أبنائه الشوس[2]
أقصر ، فإن نزارا لن يفاضلها ... فرع لئيم ، وأصل غير مغروس
وابن اللبون إذا ما لز فى قرن ... لم يستطع صولة البزل القناعيس
قد جربت عركتى فى كل معترك ... غلب الأسود ، فما بال الضغابيس[3]

---

(١) حربنى : أغضبنى . (٢) الشوس [بالتحريك] : التكبر والنظر بمؤخر العين .
(٣) الغلب جمع أغلب : وهو الغليظ الرقبة ، والضغابيس جمع ضغبوس : الضعيف .

وذكر كثير ، وعدى ، فى مجلس بعض خلفاء بنى أمية ؛ فامتروا فيهما أيهما أشعر ، وفى المجلس جرير ؛ فقال جرير : لقد قال كثير بيتاً ، هو أشهر وأعرف فى الناس من عدى بن الرقاع نفسه ! ثم أنشد قول كثير :

أأن زُم أجمال ، وفارق جيرة وصاح غراب البين ، أنت حزين ؟

فحلف الخليفة : لئن كان عدى بن الرقاع أعرف فى الناس من بيت كثير ، ليسر جن جريرا ، وليلجمنه ، وليركبن عدى بن الرقاع على ظهره ! فكتب إلى واليه بالمدينة : إذا فرغت من خطبتك فسل الناس : من الذى يقول :

أأن زم أجمال ، وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين

وعن نسب ابن الرقاع . فلما فرغ الوالى من خطبته ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إلى أن أسألكم من الذى يقول :

أأن زم أجمال الخ . قال : فابتدروا من كل وجه يقولون : كثير ، كثير . ثم قال : وأمرنى أن أسأل عن نسب ابن الرقاع ؛ فقالوا : لا ندرى ! حتى قام أعرابى من مؤخر المسجد فقال : هو من عاملة !.

ومن أعجب العجب ، أن يقول نوح بن جرير لأبيه : يا أبت ، من أنسب الشعراء ؟ فيقول له : أتعنى ما قلتُ ؟ فيقول : لا ، إنى لست أريد من شعرك ، إنما أريد من شعر غيرك . فيقول جرير : أنسب الشعراء ابن الرقاع فى قوله :

لولا الحياء وأن رأسى قد عسا فيه المشيب لزرت أم القاسم
وكأنها وسط النساء أعارها عينيه ، أحور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت فى عينه سنة ، وليس بنائم

ماكان يبالى أن لم يقل بعدها شيئاً ! !

وأن يقول جرير : سمعت عدى بن الرقاع ينشد :

تزجى أغن كأن إبرة روقه

فرحمته من هذا التشبيه فقلت : بأى شىء يشبهه ترى ! فلما قال : قلم أصاب من الدواة مدادها .

رحمت نفسى منه !

وأنشد عدى بن الرقاع الوليد بن عبد الملك قصيدته ، التى منها البيت السابق ، والتى أولها :

عرف الديار توهما فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها
إلا رواكد كلهن قد اصطلى حمراء أشعل أهلها إيقادها
كانت رواحل للقدور ، فعريت منهن ، واستلب الزمان رمادها

وعنده كثير ، وكان يبلغه عن عدى ، أنه يطعن على شعره ، ويقول : هذا شعر حجازى مقرور إذا أصابه قر الشام جمد وهلك . فلما انتهى عدى إلى قوله فيها :

وقصيدة قدبت أجمع بينها حتى أقوِّم ميلها وسنادها

قال كثير : لو كنت مطبوعا أو فصيحا أو عالما ، لم تأت فيها بميل ولا سناد ، فتحتاج إلى أن تقومها . ولما قال :

نظر المثقف فى كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

قال كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجود لها . ثم أنشد :

وعلمت ، حتى ما أسائل عالما عن علم واحدة لكى ازدادها

فقال كثير : كذبت ، ورب البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك ؛ وما كنت قط أحمق منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومن حضر ، وقطع بعدى بن الرقاع حتى ما نطق .

* * *

وروى ابن عبد ربه - فى نسق رائع ، وخبر طويل - عن الأصمعى قال : تصرفت بى الأسباب إلى باب الرشيد مؤملا للظفر ، وطاولتنى الغايات بما كدت به أن أصير إلى قلالة ؛ فلم نشعر أن خرج علينا خادم فى ليلة نثرت السعادة والتوفيق فيها الأرقَ بين أجفان الرشيد . فقال : هل بالحضرة أحد يحسن الشعر ؟ فقلت : الله أكبر ! رب قيد مَضيقَةٍ قد فكه التيسير للأنعام ! أنا صاحبك . فأخذ

بيدى ، فواجهت الرشيد فى البهو جالسا ، كأنما ركب البدر فوق أزراره جمالا ، والفضل بن يحيى إلى جانبه ؛ فوقف بى الخادم حيث يسمع تسليمى ، ثم قال : سلم ، فسلمت ، فرد ، ثم قال : تنح ليسكن قليلا إن وجد لروعته حسا ، فتمعدت حتى سكن جأشى قليلا ، ثم أقدمت فقلت : يا أمير المؤمنين ، إضاءة كرمك ، وبهاء مجدك ، مجيران لمن نظر إليهما من اعتراض أذية له . تسألنى فأجيب ، أم أبتدىء فأصيب ، بيمن أمير المؤمنين وفضله ؟ قال : فتبسم الفضل ، ثم قال : والله يا أمير المؤمنين لقد أقدم مبرزا محسنا فى استشهاده على براءته من الحيرة ، وأرجو أن يكون محسنا ؛ قال : أرجو . أدن ، فدنوت ، فقال : أشاعر أم راوية ؟ فقلت : راوية يا أمير المؤمنين ؛ قال : لمن ؟ قلت : لذى جد وهزل ، بعد أن يكون محسنا . قال : والله ما رأيت أدعى لعلم ، ولا أخبر بمحاسن بيان فتقته الأذهان منك ! ولئن صدرت حامدا أثرك ، لتعرفن الأفضال متوجها إليك سريعا . قلت : أنا على الميدان يا أمير المؤمنين .

وبعد اختبار دقيق وحوار ممتع لا يتطلبهما صميم الموضوع ، قال : أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توهما فاعتادها . فقال الفضل : يا أمير المؤمنين ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه ، لاستماع الكذب ؟ لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ؟ قال : ويحك ! إنه أدب ، وقلما يعتاض مثله ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللممتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية ، قال الفضل : قد ـ والله ـ يا أمير المؤمنين ، شاركتك فى الشوق ، وأعنتك على السوق : ثم التفت إلى الفضل وقال : هذا سيدى أمير المؤمنين قد أصغى إليك ، فمر ـ ويحك ـ فى عنان الانشاد ، فهى ليلة دهرك ، لا تنصرف إلا غانما . قال الرشيد : أما إذ قطعت على ، فأحلف لتشركنى فى الجزاء ، فما كان لى فى هذا شىء لم تقاسمنيه . قال الفضل : قد ـ والله ـ يا أمير المؤمنين ، وطنت نفسى على ذلك متقدما ، فلا تجعلنه وعيدا ؛ قال الرشيد : لا أجعله وعيدا . قال الأصمعى الآن ألبس رداء التيه على العرب كلها ، وأنا أرى الخليفة والوزير يتناظران فى المواهب لى ، فمررت فى سنن الانشاد ، حتى بلغت إلى قوله :

تزجى أغن كأن إبرة روقه　　قلم أصاب من الدواة مدادها

فاستوى جالساً ، ثم قال : أتحفظ فى هذا شيئاً ؟ قلت : نعم ، يا أمير المؤمنين ، كان الفرزدق – لما قال عدى : تزجى أغن كان ابرة روقه – قال لجرير : أى شيء تراه يناسب هذا تشبيها ؟ فقال جرير : قلم أصاب من الدواة مدادها ؛ فما رجع الجواب ، حتى قال عدى : قلم أصاب من الدواة مدادها ، فقال لجرير : ويحك لكأن سمعك مخبوء فى فؤاده ! فقال جرير أسكت شغلنى سبك عن جيد الكلام [1]. ثم قال الرشيد : مر فى إنشادك ، فمضيت حتى بلغت قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها　　من أمة إصلاحها ورشادها

قال الفضل : كذب ومابر ؛ قال الرشيد : ماذا صنع إذ سمع هذا ؟ قلت : ذكرت الرواة – يا أمير المؤمنين – أنه قال : لا حول ولا قوة إلا بالله ! قال : مر فى إنشادك ؛ فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

لم تأته الأسلاب إلا عنوة　　غصبا ، ويجمع للحروب عتادها

قال الرشيد : لقد وصفه بعزم وحزم ، لا يعرض بينهما وكل ولااستذلال ؛ قال : فماذا صنع ؟ قلت – يا أمير المؤمنين – ذكرت الرواة أنه قال : ما شاء الله الله ؛ قال : أحسبك وهمان . قلت : يا أمير المؤمنين أنت أولى بالهداية ، فليردنى أمير المؤمنين إلى الصواب . قال : إنما هذا عند قوله :

ولقد أراد الله إذ ولاكها　　من أمة إصلاحها ورشادها

ثم قال : والله ما قلت هذا عن سمع ، ولكننى أعلم أن الرجل لم يكن يخطىء فى مثل هذا . قال الأصمعى : وهو – والله – الصواب . ثم قال : مر فى إنشادك فمضيت حتى بلغت إلى قوله :

وعلمت ، حتى ما أسائل عالما　　عن حرف واحدة لكى أزدادها

قال : وكان من خبرهم ماذا ؟ قلت : ذكرت الرواة أن جريرا لما أنشد عدى هذا البيت قال : بلى والله وعشر مئين . . .

---

[1] رويت فى هذا رواية أخرى آنفا عن الأغانى ، وهى عندى أرجح مما هنا ، وإن صححوها بأن الممدوح شغل عن الشاعر بعد أن أنشد الشطر الأول فترة تسع سؤال الفرزدق وجواب جرير . والله أعلم .

قال الرشيد : والله إنه لنقى الكلام فى مدحه وفى تشبيبه ؛ قال الفضل : يا أمير المؤمنين ، لا يحسن عدى أن يقول :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم　　　وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

قال الرشيد : بلى ، قد أحسن . ثم التفت إلى فقال : ما حفظت له فى هذا الشعر شيئاً حين قال :

أطفأت نيران الحروب ، وأوقدت　　　نار قدحت براحتيك زنادها

قلت : ذكرت الرواة يا أمير المؤمنين ، أنه حك يميناً بشمال متمدحا بذلك ، ثم قال : الحمد لله على نعمة الإسلام .

* * *

وبعد أن استنشده لذى الرمة ، وللشماخ ، قال : أمسك . ثم قال : استغفر الله (ثلاثا) أخّر قليلا واجلس ، فقد أمتعت منشداً ، ووجدناك محسناً فى أدبك ، معبراً عن سرائر حفظك ؛ ثم التفت إلى الفضل فقال : لكلام هؤلاء ديباج الكلام الحسن ، وإنه يزيدك على القدم جدة وحسناً ؛ فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك الحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعته الاسماع ، لذ فى القلوب له رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! ثم قال : يعجبنى مثل قول مسلم فى أبيك وأخيك ، مخاطبا حليلته ، مفتخراً عليها بطول السرى فى اكتساب المغانم :

أجِدّك ، هل تدرين أنْ رب ليلة　　　كأن دجاها من قرونك ينشر
صبرت لها ، حتى تجلت بغرّة　　　كغرة يحيى حين يذكر جعفر

أفرأيت ! ما ألطف ما جعلهما معدنا لكمال الصفات ومحاسنها ، ثم التفت إلى وقال : أجد ملالة ، ولعل أبا العباس يكون لذلك أنشط ، وهو لنا ضيف فى ليلتنا هذه ، فأقم عنده ، مسامراً له ... ثم قال : يا غلام ، على بصالح الخادم ؛ فقال : يؤمر له بتعجيل ثلاثين ألف درهم فى ليلته هذه . قال الفضل : لولا أنه مجلس أمير المؤمنين ، ولا يأمر فيه أحد غيره ، لدعوت له بمثل ما أمر به أمير المؤمنين . فدعا له بتسعة وعشرين ألفاً يقبضها من غده . قال الأصمعى : فما صليت الظهر ، إلا وفى بيتى تسعة وخمسون ألف درهم !

أما بعد ، فقد سقت هذا الحديث الذى ليس لى فيه إلا الجمع ، لا أقصد من ورائه أن أترجم لعدى ، فما أكثر تراجم الرجال فى السوق ! ، وإنما قصدت إلى نشر ما حواه ، من رائع الأدب ، وبارع النقد ، وعناية خلفاء المسلمين بهما ؛ واتفاقهم فى ذلك على اختلاف مذاهبهم فى الدين والسياسة والاجتماع والثقافة ؛ وحذقهم للنقد دراية ورواية ؛ وبصرهم بسمات الجمال الفنى فى قديم الشعر وحديثه ، بصر الباحث الخبير الذواقة .

فهذا الوليد بن عبد الملك ، أوسع بنى مروان رقعة ملك ، وأوفاهم حظاً من الشعراء ، لا يصرفه تعريض جرير بابن الرقاع . ولا نقد كثير له فى مجلسه وانقطاع عدى وهزيمته ، عن إدنائه ، والدفاع عنه ، والاختصاص به ، لما يلمسه من قوة فنه ، فى مدحهم ، ورثاء موتاهم ، كما قال .

وهذا الرشيد ، خصم الوليد وقريعه ، وجبار بنى العباس ، لا تصرفه العداوة الطبيعية بين أمية وهاشم فى القديم والحديث ، ولا يصرفه وزيره الفضل بن يحي بلومه الذى لا يخلو من عنف ، عن سماع قصيدة عدى فى مدح خصمه الوليد ، ولا عن روايته هو نفسه ، لتلك الكلم النوابغ ، التى أرسلها الوليد عقب سماعه لكل بيت نادر ، وللحوادث التى اتصلت ببعض أبيات القصيدة ؛

يقول الرشيد للأصمعى : أسمعنى كلمة عدى بن الرقاع فى الوليد بن عبد الملك : عرف الديار توهما فاعتادها . فيقول الفضل : يا أمير المؤمنين ، ألبستنا ثوب السهر ليلتنا هذه لاستماع الكذب ؟! لم لا تأمره يسمعك ما قالت الشعراء فيك وفى آبائك ! فيقول الرشيد : ويحك ! إنه أدب ، وقلما يعتاض مثله ، ولأن أسمع من ثقف ، أحب إلى من أن تشافهنى به الرسوم ؛ وللممتدح بهذا الشعر حركات سترد عليك ، ولا تقدر أن تصدر من غير استحسان لها ، ثم تردها إليك الرواية !

ثم يعلل الرشيد مبلغ عنايته بالشعر القديم ، بهذا الحكم العادل القاطع : « لكلام هؤلاء « القدامى » ديباج الكلام الحسن ، وانه يزيدك على القدم جدة » .

ثم يقول عن شعر المحدثين : « فإذا جاء الكلام المزين بالبديع ، جاءك الحرير الصينى المذهب ، فإذا أمتعته الأسماع ، لذ فى القلوب له رونق صواب ، ولكن فى الأقل ! » .

أنظر إلى هذه الدقة ، وهذا النفاذ ، ثم أخبرنى : أليس كلام الملوك ، ملوك الكلام ؟!

في صحبة المكفوفين

لفضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر الشريف

حينما نستنبىء التاريخ نجد أنه قد ضم فى صفحاته كثيرين من كبار المكفوفين الذين كان لهم مكان ملحوظ ومركز ممتاز؛ ويستوى فى ذلك التاريخ البعيد والتاريخ القريب، فنحن نجد فى الأنبياء مكفوفين مثل إسحق ويعقوب وشعيب عليهم السلام. نعم قد وقع خلاف فى جواز العمى على الأنبياء، فمنعه بعضهم لأن مقام النبوة أشرف من ذلك، ولأنه لم يرد نص قطعى الدلالة بعمى إسحق وشعيب، ويقول البعض الآخر: فكيف بقول الله عن يعقوب: «وابيضت عيناه من الحزن»، وقوله عنه: «فارتد بصيرا»؟. إن هذا يفيد سبق العمى، ولا ينفع التأويل بأن قوله «ابيضت عيناه» كناية عن غلبة البكاء وامتلاء العين بالدموع.

ومن أشراف العرب وعظمائهم قبل الإسلام مكفوفون منهم عبد المطلب ابن هاشم والحكم بن العاص وزهرة بن كلاب وكلاب بن مرة ومطعم بن عدى، وغير هؤلاء.

ومن كبار الصحابة فى الإسلام مكفوفون، نذكر منهم أبا قحافة والد أبى بكر الصديق وكعب بن مالك الأنصارى وقتادة بن النعمان والبراء بن عازب وسعد ابن أبى وقاص وعبد الله بن الأرقم وعمرو بن أم مكتوم ومالك بن ربيعة ومخرمة ابن نوفل وعبد الله بن عباس؛ وتراجم هؤلاء مبسوطة فى مختلف المصادر القديمة والحديثة، وهى تفيض بالمآثر والمفاخر.

ومن كبار التابعين مكفوفون مثل عطاء بن أبى رباح وأبى هلال الراسبى وقتادة بن دعامة وأبى عبد الرحمن السلمى، وهؤلاء معارف فى تاريخ الإسلام وليسوا بنكرات!...

ومن كبار الأئمة والفقهاء والعلماء مكفوفون، وحسبك أن تتذكر هنا هذه

الأسماء الخالدة : الشاطبي ، الترمذى ، النيسابورى ، العكبرى ، الشنترى ، أبو زكريا البغدادى .

ومن عظماء شعراء العربية مكفوفون حسبنا منهم هنا علمان لا يخفيان على ناظر وهما أبو العلاء المعرى وبشار بن برد .

وفى التاريخ القريب نجد كثيرا من الأزهريين النابغين اللامعين كانوا مكفوفين مثل يوسف الدجوى وإبراهيم الإبيارى ومحمد المعداوى ومحمد حسنين البولاقى (والد المرحوم أحمد حسنين باشا) وأحمد الزين . ومن الأزهريين المعاصرين النابهين نجد مكفوفين ، فهذا هو الدكتور طه حسين باشا الذى لم يمنعه كف بصره عن الجمع بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية ، ولا عن تعلم اللغات القديمة والحديثة ولا عن الإنتاج الأدبى الهائل ، ولا عن مركز الوزارة نفسه . . .

وهذا هو الشيخ الصاوى شعلان يعد مثلا من أمثلة نبوغ المكفوفين ، فهو قد أتم دراسته الأزهرية ، ثم برع فى دراسته الجامعية ، ثم مهر عدة لغات ، وهو يجيد الشعر والنثر خطابة وكتابة ، وهذا أخونا الأستاذ محمد العلائى ، كان زميلا لنا فى الدراسة الأزهرية ، ثم التحق بكلية الآداب وهو مكفوف فأتم دراسته بها ، ثم سافر إلى انجلترا يتلقى العلم فى معاهدها ، ولا يزال هنا يتابع خطواته الموفقة فى سبيل الحصول على درجاته العلمية الفائقة .

ولم نقصد حين ذكرنا كل هذه الأسماء بعد أن نظمناها ، وقد كانت مبثوثة متفرقة فى شتى المصادر ، أن نقول إن هؤلاء جميعاً ولدوا مكفوفين ، أو أصابهم كف البصر منذ الصغر ، فقد اختلفت أحوالهم من غير شك ، فبعضهم ولد أعمى ، وبعضهم كف بصره صغيراً ، وبعضهم أصابه العمى كبيراً ، ولكنهم على أية حال يعدون فى ثبت المكفوفين .

* * *

وكف البصر كما نريد أن نؤكد فى الأذهان ليس إلا نقصاً حسياً فى ناحية من نواحى الجسم ، ومن الممكن تعويض هذا النقص بالمثل أو بأكثر منه ، لأن الخالق سبحانه إذا سلب عبداً نعمة عوضه عنها مثلها أو خيراً منها ، ومن هنا نرى الكفيف

لا يعوقه كف بصره عن القيام بواجبه فى حياته ، لأنه يكون عادة حاد اللمس ، والسمع والنطق والفهم ، ومن حدة لمسه أنه يميز بين الأشياء المتشابهة والأدوات المتماثلة بلمسها ، ولو أغمض البصير عينيه وأراد ذلك لما استطاع ، ومن حدة سمعه أنه يسمع الهمس البعيد والنجوى الخفية ، ومن حدة نطقه أنه يكون جهير الصوت يسمع الجم الغفير ، ولذلك يجلجل صوته إذا خطب أو وعظ ، ويتمرع الأسماع بنبراته ، ومن هنا قال ابراهيم بن هانىء : « من تمام آلة القصص أن يكون القاص أعمى ، ويكون شيخاً بعيد مدى الصوت » ، ومن حدة فهمه أنك ترى المكفوف أسرع إلى الإدراك وأعجل فى التحصيل وأدق فى التمييز العقلى من مثله البصير ، كما أنه مما يوضح ذلك أننا نرى كثيرين من المكفوفين يبرعون فى الخياطة والموسيقى ولعب الشطرنج والخطابة وغير ذلك من دقائق الأعمال ، كما قد يمر بنا تبيانه فى مستقبل الكلام .

ولقد قال صلاح الدين بن أيبك الصفدى : « قل أن وجد أعمى بليداً ، ولا يرى أعمى إلا وهو ذكى (ثم ذكر أسماء عميان عظماء ثم قال :) والسبب الذى أراه فى ذلك أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه ، ولا يعود متشعباً بما يراه ، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكر ، فيقع على ما شرد من حافظته ، وفى المثل : أحفظ من العميان ؛ أورده الميدانى فى أمثاله » .

ولا يحسبن أحد أن إدراك ذلك مما يغيب عن المكفوفين أنفسهم ، بل لعلهم أسبق من سواهم فى الوقوف عليه والتنويه به ؛ قال رجل للقاسم بن محمد الضرير : لقد سلبت أحسن وجهك ، فقال : صدقت ، غير أنى منعت النظر إلى ما يلهى . وعوضت الفكرة فيما يجدى . وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنه ، بعد أن كف بصره :

إن يأخذ الله من عينى نورهما ... فنى لسانى وسمعى منهما نور
قلبى ذكى ، وعقلى غير ذى دخل ... وفى فمى صارم كالسيف مأمور

وقال الخريمى الضرير :

فإن عينى خبا نورها ... فكم قبلها نور عين خبا
فلم يعم قلبى ، ولكنما ... أرى نور عينى لقلبى سعى

وما أبرعه من تعبير ، وما أدقه من معنى ، حيث قال إن نور عينه قد سعى من باصرته إلى بصيرته فكان ذلك من الله خير تعويض ! . . . وقال أبو على الأعمى :

لئن كان يهدينى الغلام لوجهتى ويقتادنى فى السير إذ أنا راكب
فقد يستضىء القوم بى فى أمورهم ويخبو ضياء العين والرأى ثاقب

وقال عز الدين أحمد بن عبد الدائم :

إن يذهب الله من عينى نورهما فإن قلبى بصير ما به ضرر
أرى بقلبى دنيــاى وآخرتى والقلب يدرك ما لا يدرك البصر

ومما يزكى هـذه البصيرة فى الأعمى ما جاء على لسان النبوة فى قصة الأبرص والأقرع والأعمى ، وهى فى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن ثلاثة فى بنى إسرائيل - أبرص وأقرع وأعمى - فأراد الله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكا ، فأتى الأبرص فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : لون حسن وجلد حسن ، ويذهب عنى الذى قد قذرنى الناس . فمسحه فذهب عنه قذره ، وأعطى لونا حسنا وجلداً حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الإبل ؛ فأعطى ناقة عشراء . فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأقرع فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : شعر حسن ويذهب عنى هذا الذى قد قذرنى الناس . قال : فمسحه فذهب عنه ، وأعطى شعراً حسنا . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : البقر ؛ فأعطى بقرة حاملا فقال : بارك الله لك فيها . قال : فأتى الأعمى ، فقال : أى شىء أحب إليك ؟ قال : أن يرد الله إلى بصرى فأبصر به الناس . قال : فمسحه فرد الله إليه بصره . قال : فأى المال أحب إليك ؟ قال : الغنم ؛ فأعطى شاة والداً ، فأنتج هذان وولّد هذا ، فكان لهذا واد من الإبل ، ولهذا واد من البقر ، ولهذا واد من الغنم ، قال : ثم إنه أتى الأبرص فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين قد انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أتبلغ عليه فى سفرى . فقال : الحقوق كثيرة . فقال (الملك) له : كأنى أعرفك ، ألم تكن أبرص يقذرك الناس

فقيراً فأعطاك الله ؟ فقال : إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت .

قال : وأتى الأقرع فى صورته ، فقال له مثل ما قال لهذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا ، فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت . قال : وأتى الأعمى فى صورته وهيئته فقال : رجل مسكين وابن سبيل انقطعت بى الجبال فى سفرى ، فلا بلاغ لى اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذى رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها فى سفرى . فقال : قد كنت أعمى فرد الله إلى بصرى ، فخذ ما شئت ودع ما شئت ، فوالله لا أجهدك اليوم شيئا أخذته لله . فقال : أمسك مالك فإنما ابتليتم فقد رضى عنك ، وسخط على صاحبيك !...

أرأيت كيف أجدى المعروف فى المكفوف ، وقد شكر أنعم الله حين جاءته وكيف استحق على لسان النبوة أن يكون صاحب الحكمة بين قرينيه ، والفائز بالخير بينما خسره الآخران ؟... أليس فى ذلك إيحاء من طرف دقيق خفى بأن المكفوف يستحق التكريم لأنه لا يضيع عنده المعروف ؟...

* * *

والمكفوف من الناحية الشرعية لا يتأخر كثيراً عن البصير ، ولا يوجد بينهما من الفروق إلا ما يقتضيه هذا النقص الحسى ، فالأعمى من ناحية الشرع يلى النكاح ، ويكاتب ، ويؤم الناس فى الصلاة ، ويجتهد فى الأوقات والأوانى ، ويبيع ويشترى ، ويحل له الصيد بالكلب والرمى ، ويجوز ذبحه إذا فعله وإن كره ، ويصح أن يكون وصيا ، وتصح منه المساقاة ، وتجب عليه الجمعة إذا وجد قائدا ، ويلزمه الحج إذا وجد مع الزاد والراحلة قائدا .

واختلف القدماء فى رؤية الأعمى للمنامات ، فقال بعضهم : يرى . وقال بعضهم : لا يرى . والذى يقتضيه المقام هو التفصيل الموافق لما أثبتته التجربة والعلوم الحديثة ، وخاصة علم النفس ، وهو أن الأعمى إن كان قد طرأ عليه العمى بعد إبصار ، وبعد تمييزه للأشياء ، فإنه يستطيع أن يرى منامات وإلا فلا ، وليس عدم الرؤية للأكمه بمانعة من أن يحلم أحلاما سمعية أو كلامية ، لأنه وإن فقد البصر يسمع ويتكلم .

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

قد تقدمت الصناعة فى ظل الحضارة الغربية المادية ، غير أن العبقرية المحمدية التى لا نظير لها لم تغفل مسائل العمل والصناعة ورأس المال ، وقد حرم الإسلام الربا وبهذا هاجم بعنف الرأسمالية . كما أنه فرض بمقتضى قانون الزكاة ضريبة على الأغنياء يؤدونها لمصلحة الفقراء . وقد كانت الأرض على عهد محمد صلى الله عليه وسلم أعظم مورد للعمال ، وكانت الأرض فى ظل الإسلام — كما تبين — ملكا للأمة . وأما الصناعة القليلة التى كانت قائمة قبل بداية عصر العلم فقد كان يتولى أمرها إما الفقراء بأنفسهم وإما العبيد خدمة لسادتهم الأوتوقراطيين الطغاة . وكان الذين يتولون أى شأن من شئون التجارة أو الصناعة ـ قبل مجىء الإسلام ـ ينظر إليهم نظرة احتقار من قبل الأرستقراطيين ، وأما العبيد الذين كانوا يمثلون حينئذ الطبقة العاملة فقد كان سادتهم الرأسماليون يعاملونهم معاملة العبيد ، وقد مارس النبى بنفسه التجارة قبل البعث بالرغم من أنه سليل أنبل أسرة عرفتها العرب ، وكان محمد باعتباره النبى الصادق المعترف به ، سيد الجزيرة العربية والعالم الإسلامى قاطبة ومع ذلك فقد كان يخيط ثوبه ويخصف نعله ، وأجرأ خطوة اتخذها نحو الاشتراكية الصناعية تتمثل فى أنه رفع منزلة العبيد إلى مستوى الأحرار ، وجعل الرقيق أنصاره ورفاقه ، وأمّرهم على الجيوش وغيرها وصاروا فى كثير من الأحيان أعضاء فى الأسرة التى كانت تعاملهم قبل الإسلام معاملة الأنعام ، كما أضحى العبيد شركاء لسادتهم فيما يملكون . والواقع أن الخطوات التى اتخذها محمد لتحسين أحوال العمال على عهده لم يتجاوزها أحد فى التاريخ الاقتصادى للعالم ، فعمال القرن العشرين الذين يعدون العمود الفقرى للتقدم والرخاء الذى تتمتع به أوربا الماركسيه . . . وعمال المستعمرات البريطانية وعمال التعدين والمناجم فى الترنسفال . . . يعاملون أسوأ مما كان يعامل أولئك الذين كانوا يعرفون بالرقيق فى ظل الفترة الاشتراكية من الحضارة الإسلامية . والحق أن نظرة محمد صلى الله عليه وسلم إلى الاشتراكية كانت أسمى وأنبل ، وأن الأسلوب الذى اتخذه ليثبتها فى النفوس لتكون عملية أيسر

من الأسلوب الذى لجأ إليه زعماء الاشتراكية فى الوقت الحاضر . على أن مفتاح الاشتراكية المحمدية هو التقدم الروحى والأدبى للشعب ، فاشتراكيته كانت أخلاقية فى حين أن الاشتراكية الحديثة مادية . والاشتراكيون يطالبون اليوم بأن تنقل ملكية الأراضى ورءوس الأموال إلى الدولة فوراً معتقدين وقد تملكهم الحماس أنه من الميسور تحقيق هدفهم ، وأنهم عندما ينجحون فسينتج عن ذلك تحسين مستوى حياة الشعب ، والواقع أنهم مخطئون فى زعمهم فهم لا يدركون أن خصومهم تؤيدهم قوة عسكرية أشد كما تبين من مسلك الحكومة المسماة بحكومة الأحرار إزاء عمال السكك الحديدية المضربين ، وحتى إذا نجح الاشتراكيون عن طريق اللجوء إلى العنف وإثارة العواطف كما فعلوا فى فرنسا منذ حين فلن يكون فى وسعهم تحسين حال الشعب أو السير قدما بقضية الاشتراكية طالما لم يَسم رجال الدولة من الناحية الخلقية ، فما لم تتألف الدولة من رجال يحترمون حقوق سيادة الأفراد وما لم تكن عواطف الانسجام المتبادل والأخوة بين الأفراد هى الأساس للاشتراكية الحقة فلن يتحقق قسط حلم الاشتراكيين المحدثين . وإذا حول زمام السلطة على الأراضى ورءوس الأموال إلى المجتمع أو الدولة المؤلفة من أفراد يعتقدون فى الحقوق والمزايا الخاصة والذين ليس فى وسعهم القضاء على أفكار العنصر والطبقة فستصير أحوال الشعب حينئذ أشد سوءاً مما هى عليه فى الوقت الحاضر . وإذن ففكرة تحويل الأرصدة ورأس المال إلى الدولة لا تكفل وحدها صبغ إدارة الدولة بالصبغة الاشتراكية ، أو ليست جميع الأراضى فى الهند ملكا لحكومة الهند ؟ أو ليست أسلاك البرق والمسرة وبعض خطوط السكك الحديدية ملكا للدولة ؟ أو ليست دولة الهند تستخدم عدداً كبيراً من العمال فى أعمال الرى ومصانعه حيث يجرى ذلك على أسس تجاريه ؟ أو لم تكن معظم الصناعة ورأس المال فى يد الدولة إبان نظام الحكم التركى العتيق ؟ بيد أن ملكية الأرض والملكية الصناعية وملكية الرأسمالية فى تركيا لم تجد شيئاً فى خلق نوع من الدولة الاشتراكية وحتى لم تخفف حدة أشد النظم الأوتوقراطية فى هذه الدولات . ذلك لأن الاشتراكية الحقة ولأن الضرورى فى الاشتراكية ليس تأميم Nationalisation الأراضى والأموال فحسب بل تأميم الدولة ذاتها أيضاً . غير أن ذلك يتطلب

عبقرية نبي بحيث تكون مرنة وقوية كعبقرية محمد عليه الصلاة والسلام حتى يتسنى لها أن تطبق المثل العليا تطبيقا عمليا . وهناك كثير من المصلحين الذين يظلون يعظون الناس طول حياتهم إلا أنهم يعجزون عن إغراء فرد واحد فى العمل وفقا لما يقولون . ولقد سمعنا فى جيلنا هذا عظات وخطبا ألقاها ملوك وأشخاص باركوا السلام وتغنوا باستمراره ومع ذلك لازلنا نرى الدم الإنسانى يراق كأنه الماء على أيدى محبى السلام ودعاته . وقد دأبت الأمم على أن تغلق أعينها عن مسارح المذابح التى يقوم على قربانها الضعفاء من الأطفال والنساء ، ثم تظن أنها أنقذت شرفها بما أبدته من عدم اكتراث يدل على الجبن ، ويرى فريق من هذه الأمم أفراداً عاجزين قد سلبوا فى رابعة النهار بأيدى قراصنة أشداء قساة ، ومع ذلك يدير هذا الفريق من الناس وجوههم معللين أنفسهم بأنه لم يكن لهم يد فى هذا الاثم .

وأوربا اليوم مليئة بالأمم التى إما ترتكب بنفسها الجريمة أو تشارك غيرها فيها . ومثل هذه الأمم التى لا تحترم حقوق الآخرين ولا تحترم التزاماتها ووعودها لا يمكن أن ينتظر منها العمل على تقدم المثل العليا النبيلة كإقرار السلام العالمى أو دعم الاشتراكية التى تنشر المساواة فى العالم ، وأنا على يقين من أن حديث الاشتراكية الذى يردده أهل أوربا ليس إلا أسطورة لا جدوى من ورائها كأسطورة السلام . فالميول المادية التى تموج فى العصر الحاضر تروّج فى أذهانهم الأهواء التى تعد مناقضة لفكرة الاشتراكية على نحو ما تناقض السلام ، وأوربا التى تسعى إلى الترف وتميل إلى عدم الاعتراف بالألوهية لن يكون فى وسعها نشر السلام والاشتراكية ، إذ أن كلا منهما يتطلب أساساً وقوة روحية ، وهما مما تفتقر إليه أوربا ، وما معظم الصحائف الذهبية لتاريخ هذا العالم إلا أسفار للنصر الأدبى الذى ظفرت به آسيا ، أما أوربا فقد اخترعت أدوات حديثة عبقرية غايتها هلاك الإنسان ، فى حين أن آسيا أنجبت تلك الأرواح الخالدة التى أنقذت الجنس الانسانى بأسره . وقد كان الغزو الأوربى لآسيا قائما على أسنة الرماح ، أما سلطان آسيا على أوربا فقد تم بفضل تلك العقول الكبيرة التى أحدثت ثورة فى الأخلاق Ethice ورفعت مستوى المثل الإنسانية حتى بلغت مرتبة الكمال

(يتبع)

العظمة والخلود

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم على أبو الخشب

المدرس بكلية الشريعة

حب العظمة نزوع إنسانى قديم ، جبل عليه ابن آدم منذ أحس بحاجته إلى نضال العيش ، وسجال الكسب ، وعراك المادة ، والميل إلى الغلب ، والرغبة فى السيطرة ، والطموح للتملك والاقتناء . . . وقد صحب هذا كله إعجاب المعجبين بالتفوق ، وتصفيقهم للسابق ، وإكبارهم المبرز ، وتعظيمهم للمتقدم . . . وما زال هذا المعنى يتدرج مع الزمن ، وينمو على الأيام ، حتى ازداد الإقبال عليه ، والطمع فيه ، وود الناس أن يكون تطلع الأنظار إليهم دائماً ، وحديث الأفواه عنهم غير منقطع . وهنالك فكروا فى أن تقترن العظمة بالخلود ، فرغبوا فى امتداد حبل الحياة ، وتراخى أجل الموت الذى يدركونه من غير شك ، ويشاهدونه متكرراً متجدداً . . . وقد نشأت عن ذلك خرافات كثيرة ، وترهات متنوعة ، لا يتسع المجال لسردها ، ولا لطول الحديث عنها ، إلا أن عقيدة البعث التى جاء بها الإسلام كانت قضاء على ذلك كله ، وتهذيباً للخيال المحلق فيها ، وإرضاء للنهم فى البقاء وصار المسلم يطمئن الاطمئنان الصحيح إلى الموت ، لأنه يعلم أنه حياة من طراز آخر ، وخلود على مثال لم تألفه البشرية ، وأكثر القرآن الكريم من حديث البعث والثواب والعقاب ، والمجازاة على الأعمال ، وتركز الإيمان فى النفوس على أساس أنه « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . وجاء فى وصف الآخرة ما يفيد أنها دار البقاء والقرار . وأن الدنيا دار الفناء والفرار ، وأكثر الشعراء من جريان ذلك على ألسنتهم ، ودورانه فى ثنايا قصائدهم . . إلا أن العقول قد تضاربت فى حقيقة العظمة ، واختلفت فى بيان معناها ، ويظهر أن تنوّع البيئة والزمان والمكان ، كان من عوامل تباين وجهات النظر فى ذلك . . حتى كان فى اللصوصية عظمة ، وفى الكبرياء عظمة ، وفى العدوان على الضعفاء ، واغتيال الأبرياء ، والتطاول على الشرفاء عظمة ، كأن الألباب صدئت ، والحجا ضل

وميزان الأشياء أصابه خلل ، لأن الرذيلة لا تكون فضيلة ، والنور لا يكون ظلمة ، إلا حين تنتكس القلوب ، وتلتوى الأفئدة ، وتتحول الأحوال ... وحين أطل فجر الإسلام على المسلمين وكانت رؤوسهم لا تزال ـ على جاهليتها ـ متأثرة ببعض دواعى « العظمة الكاذبة » مما كانوا يزعمونه من أسبابها ، ويظنونه يجعلهم من أربابها جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم آخذاً بتلابيب آخر يشكوه إليه ، لأنه يكاثره بماله ، ويفاخره بنسبه ، ويتطاول عليه بماضيه فى الكفر ، وسوابقه فى الجاهلية ، وقد ظن أنه حين يرفع أمره للرسول الكريم ، سيقضى له ، وينصره عليه ، ولم يدر بخلده أن الدين الذى سوى بين الناس فى التقدير ، ووفق بينهم فى الاعتبار ، لم يجعل لعربى فضلا على عجمى إلا بالتقوى ، ولم يجعل خيارهم فى الجاهلية خياراً فى الإسلام إذا لم يضموا إلى أحسابهم الأولى ، وميزاتهم السالفة « الفقه فى الدين » . وهو بالطبع لا يقصد أن يكون الإنسان عالماً وكفى .. ولكنه يقصد أن يكون العلم سبيلا إلى العمل ، ووسيلة إلى التنافس فى الخير ، والتسابق إلى المجد ، وفهم الذين اعتنقوا شريعته صلى الله عليه وسلم أن العظمة فى الطاعة ، والفخر فى الامتثال « والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملا » . وكلما أحسوا من أنفسهم أنهم يلتزمون الجادة ، ويسيرون على صراط ربهم المستقيم ، ازدادوا زهواً وخيلاء ، وتناسوا ما فى الدنيا من زخرف ، وما فى أهلها من مظاهر ، وما يحيط بها من فتنة وقالوا ما كان يقول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا هم إن العيش عيش الآخرة » .

وفكرة خلود الخلق فى الدنيا بما قدموه من أعمال ، وما قاموا به من جهود ، وما بذلوه من معروف ، وما ادخروه عنده سبحانه من طاعة .. فكرة لم ينكرها الدين ، لأن يوم القيامة وإن كان ظرفا للجزاء ، ومجالا للثواب .. إلا أن تردد اسم الموت ، وخطوره بالبال ، وجريانه على اللسان ، الى جانب كونه نوعا من الجزاء العاجل ، يغرى بالخير ، ويدفع الى العمل الصالح ، ويحبب فى صرف الجوارح لله الذى خلق السموات والأرض .

وكما تكون العظمة فى العمل للآخرة تكون كذلك فى العمل للدنيا ، غير أن عمل الدنيا العظمة فيه زائلة ، والحديث عنه ينتهى بنهايتها ، ويزول بزوالها ، ولذلك يرشدنا جل جلاله ، الى العمل الذى ينفع ، والذخر الذى يدوم ، والشرف الذى

يبقى ، إذ يقول « ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا » . وربما مر بالخاطر أن ثواب الأعمال على قدر ما يحصل منها من فائدة فى الدنيا . أما أعمال الآخرة فأمور تعود على العامل وحده ، وأجدر بها ألا تكون من العظمة فى شىء . والصحيح أن العمل الصالح فى ذاته يعظم به الأجر ، ويزيد به القدر ، ويكثر به الذخر ، وأفضل الأعمال فى باب الطاعة ، ما كان أكثر عائدة على الناس ، لأن الأصل فى التكاليف أن يتهذب بها المكلف ليكون الى الملائكة أقرب ، وإلى الخير أشد ميلا .

وبعض الجاهلين يروق له الخلود مطلقا بصرف النظر عن نوعه من الخير أو الشر ، ولا يعنيه من العظمة ، إلا أن يكون حديثا معادا ، وذكرى منقولة ، متناسيا أن خلود الشر شر الخلود ، وترداد الذكر بالسوء من أخبث أنواع السوء ، فاللهم وفقهم لفهم الأشياء ، وارشدهم الى الصراط السوى ، وبصرهم بالحقائق ، وجنبهم مزالق الشيطان ، واهدهم فإنهم لا يعلمون ؟

من الشعر حكمة

قدم العلاء بن الحضرمى على النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال له : هل تروى من الشعر شيئاً ؟

قال : نعم !

قال : فأنشدنى ، فأنشده :

تحبب ذوى الأضغان تسب نفوسهم ... تحببك القربى فقد ترقع النعل
وإن حسدوا بالكفر فاعف تكرماً ... وإن غيبوا عنك الحديث فلا تسل
فإن الذى يؤذيك منه سماعه ... وإن الذى قالوا وراءك لم يقل

عجالات مع النفس :

انى صائم ..!

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

المدرس بالأزهر

هذا هو المضطرب الصاخب ، وذاك هو التكالب المريح ، والتطاحن الدائب ، فانزل إليه وساهم فيه ، وألق دلوك فى الدلاء ، وخذ فى العلائق ، وتعلق بالأسباب : أسباب التشادق الذى خدع الناس ؛ واصطنعه بعضهم ، وعاش منه وعليه وله ...

هكذا هجست وتلمظت النفس ... غير أنى وقفت وهى تراودنى وتطارحنى الهمهمة ، وكادت قناتى تلين حين أشارت إلى أناس يعدهم الناس من الأخيار ، ويحسبهم الغبي من الأتقياء .

وكادت قناتى مرة أخرى تهن ...

ثم عدت إلى النفس أتسمع حسيسها ولا أجيب ، وتغلى أهواؤها ولا تفور وجعلت أتصنع الوعى عنها والفهم ... وجعلت تؤزنى أزاً وتهزنى هزاً ، وأخيرا قلت لها بعد أن قالت لى :

أيتها النفس : أجملى شغفاً ، وهونى عليك . أيتها النفس : « إنى صائم »

— نعم ... أنت صائم ...

أعرف هذا من حرمانى . . تمسك عن الطعام والشراب ؟

وضحكت من نفسى وأثخنتها باللوم ، وأرهقتها من سخرياتى ، ودميت جوانبها ، كأنما أحارب عدوا يشهر سلاحه فى وجهى .

— أيتها النفس ، صومك عن الطعام والشراب بعض ما فى الصوم من تكليف أيتها النفس : لا حاجة لله فى هـذا اللون من الحرمان ، أن جريت فى ميدان خبَّ فيه غيرك ووضع .

أيتها النفس : لا تذكرى الأهواء وأنت صائمة ، ولا تجرى وراء الخدع وأنت صائمة ، ولا تخوضى فى حديث اللاهين وأنت صائمة ، ولا تمدى عيناً وأنت صائمة ، ولا تجهرى أو تخافتى بضغينة وأنت صائمة ... ولا ولا ..

وهنا شدهت النفس قائلة : قدْكَ قدْكَ :

ـ كنت أحسب الصوم ؟...

ولم أدعها تهجس بما عندها من باق وما فى قرارتها من قول ... بل رحت فى نشوة المنتصر أغرقها فى خضم من معانى الروح وصفاء القلب ، وأسوق إليها طرائف وطرف من طيب بالغ فى العظة والتذكير حتى إذا اطمأنت وأخذها صحو الاعتبار كسرت من شوكتها وألقت إلى السمع .

ـ أيتها النفس : نهارى نهار الناس وليلى ليلهم ، ولكن وراء الليل والنهار صوم تمرن عليه فى شهر لتذكره فى كل شهر ولتعمل به آناء الليل وأطراف النهار .

ذاك هو الصبر على المكاره والترفع والإبقاء على نعمة العقل وحسن الرضى وصحة الرأى ، وتوثيق العقيدة ، والتعلق بحب الله ورسوله ، وإفساح الصدر ، حتى يطرد منه ضيق الجاهلية ، ودعوة الحمق ، وغرور المدعين ، وصخب المبطلين .

ـ أيتها النفس أنى صائم .. وأنت ..؟

ـ إنى صائمة ..

ـ تصومين أيتها النفس ؟

ـ نعم أصوم النهار وأقوم الليل !

ـ يا عجبا ..!

ـ ولم العجب ..؟

ـ أعرف النفس أمارة بالمطامع ، همازة مشاءة إلى كل ما يردى ..

ـ تعرفنى ولكن ؟

ـ ولكن ماذا ..؟

ـ إنه الصوم ، وإنها فطرة طيبة ، إذا فُتّحت أبوابها غُلقت منافذ الشيطان وقطعت دابر الفتنة ، واطمأنت الروح من غاشيات قاسية قاصمة .

وصامت النفس أبد الحياة ، وحـرّمت على صاحبها مسالك الطغيان والجور وفى زحمة الانتصار على النفس ، تنفست وتلفت فإذا الحياة جميلة ، واذا طوب الصوم تلفنى ، ولا أجد فى حرمانه غير طلاوة الهدوء ، وسكينة الاطمئنان ، وراحة الأمل ، وبشرى السلامة من عقاب الله ، وفى ظل اللياذ بعفوه ورجاء مثوبته ، والطمع فى رحمته التى وسعت كل شىء .

أيتها النفس : « أنى صائم » .

أيها القلب : وأنت طول الدهر صائم ، فإلى مائدة الروح . إليها . إليها . .

وأما حاجات النفس ، فإلى أطواء الحرمان ، حتى نلقى الله الذى يتولى السرائر ، ويضع الموازين فى ملتقى لا ينفع فيه إلا سلامة القلب ، وصوم الدهر عن زيوف زَخْرفتها أنامل الخدع ، ورقشتها ريشة لوّن فى طلائها ، فتانُ الأبالسة ، ومُفتن الشياطين .

☆ ☆ ☆

أيتها النفس . . هل تلاقينا . . ؟

أكبر الظن بل عين اليقين أنى واياك لمختلفان . .

أيتها النفس هذا حداء الصائم فى بيداء الحياة ، ولعلك تذكرين غنوة الصحراوى الذى صحب ناقته إلى هدف يحبه ، وسمع حنين الناقة إلى ما خلفته ، فراح يشكو وهى تشكو . . . وراح يحن وهى تحن ، وكل يغنى على ليلاه . .

هوى ناقتى خلفى وقدامى الهوى وإنى وإياها لمختلفان

أيتها النفس هنيئا لى ولك صوم شهر ومران دهر . . .

هنيئا مريئا غير هاجسات مخامرة أيتها النفس « إنى صائم » ؟

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار
المدرس بكلية اللغة العربية

أمّا بعد ، وأمّا بعد ، وبعد .

تورد (أما بعد) فى معرض الانتقال من موضوع إلى موضوع . قال الزّجاج (١) : « إذا كان الرجل فى حديث فأراد أن يأتى بغيره قال : أما بعد . ويذكرها علماء (٢) البديع فى الكلام على الاقتضاب ، وهو الانتقال من حديث إلى حديث لا يلائمه . والاقتضاب مذهب الجاهليين ومن يليهم : لا يتأنقون فى الحديث ، ولا يتكلفون مراعاة التناسب فيه . ويذكر البديعيون : أن الاقتضاب فى (أما بعد) يدنو من مقام التخلص ، فى أنه يشوبه شىء من المناسبة .

واشتهر إيرادها فى الخطب بعد حمد الله والثناء عليه ، والصلاة والسلام على صاحب الرسالة ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ، وكذا فى صدور المصنفات والرسائل . قال ابن حجر : « ولا (٣) تختصّ (أما بعد) بالخطب ، بل تقال أيضاً فى صدور الرسائل والمصنفات » .

وقد وردت (أما بعد) فى خطب الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ ورسائله. وعقد البخارى فى أبواب الجمعة من صحيحه باباً أورد فيه ستة أحاديث فيها أما بعد . وفى فتح البارى : أن هذا اللفظ ورد فى أحاديث أخر ، وأن الحافظ عبد القادر الرهاوىّ تتبع طرق الأحاديث التى وقع فيها (أما بعد) . ومن هذه الأحاديث ما روى عن المسور بن مخْرمة : كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا خطب خطبة قال : أما بعد . قال ابن حجر : « وظاهره المواظبة على ذلك » وقال ابن (٤)

(١) أنظر فتح البارى ، فى أبواب الجمعة

(٣) فتح البارى فى أبواب الجمعة

(٢) أنظر التلخيص وشروحه فى آخر البديع

(٤) أنظر طبقات الشافعية ج ١ ص ١٠٨

السبكى فى الطبقات : « ولو ذهبت أسند ما وقع من الأحاديث والآثار فى (أما بعد) لطال الفصل وخرج إلى الملال ، ودخل به السامع فى الكلال » .

وقد أخذ العلماء من هـذا استحباب (أما بعد) فى الخطب والرسائل . قال الزين بن المنير : « ينبغى للخطباء أن يستعملوها تأسياً واتباعا » ، وقال النووى فى شرح مسلم فى أبواب الجمعة فى الكتابة على حديث فيه هـذا اللفظ : « فيه استحباب (أما بعد) فى خطب الوعظ والجمعة والعيد وغيرها ، وكذا فى خطب الكتب المصنفة . وقد عقد البخارى بابا فى استحبابه ، وذكر فيه جملة من الأحاديث »

وإذا كان التمارىء لا يخالجه شك بعد هـذا الحديث فى رفع (أما بعد) إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، فقد يدور بخلده هذا السؤال : هل قيلت قبله ، وهل يحيط العلم بأول من قالها ؟

ولا يكاد الباحث يرى من يسند أوليتها إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكأن مما لا ريب فيه أنهـا قيلت قبله ، ولم أقف على نص وردت فيه قبل العهد الإسلامى .

وللعلماء جولات واسعة فى أول من قالها ، حتى ليسندها بعضهم [1] إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام ، ففى بعض الحديث : لمـا جاء ملك الموت إلى يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ قال يعقوب فى جملة كلامه : أما بعد ، فإنا أهل بيت موكل بنا البلاء . وظاهر أن هذه الحكاية إن صحت ، حكاية لمـا قاله يعقوب وترجمة لمعناه بالأسلوب العربى ، ولا يلزم أن يكون فى لغته ما يقابل (أما بعد) . وقد قيل إن (أما بعد) هو فصل الخطاب الذى أوتيه داود عليه الصلاة والسلام ، وإنه أول من نطق بها . قال ذلك بعض المفسرين أو كثير منهم ، قال النووى : « وقال المحققون : فصل الخطاب : الفصل بين الحق والباطل » وابن الأثير فى المثل السائر لا يرى ما يراه النووى ، فهو يقول : [2] « والذى أجمع عليه المحققون من علماء البيان أنه ـ يريد فصل الخطاب ـ أما بعد ؛ لأن المتكلم يفتتح كلامه فى كل أمر

(١) العينى فى شرح البخارى فى أبواب الجمعة .

(٢) أنظر النوع الثالث والعشرين .

ذى شأن بذكر الله وتحميده ، فإذا أراد أن يخرج إلى الغرض المسوق له فصل بينه وبين ذكر الله تعالى بقوله : (أما بعد) » وقد يكون ابن الأثير لا يعنى فصل الخطاب الذى أوتيه داود عليه الصلاة والسلام .

ويرى بعضهم أن أول من قالها يعرب بن قحطان ، وبعضهم أنه قُسّ ابن ساعدة . وبعضهم أنه سحبان وائل ويوردون له :

لقد علم الحىّ اليمانون أننى إذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وسحبان هذا من وائل القبيلة القيسيّة ، وقد أورده ابن حجر فى الإصابة ، وابن عساكر فى تاريخ دمشق غير مذكور اسم أبيه . ونسبه صاحب بلوغ الأرب فقال : هو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلى وائل باهلة . وأيا ماكان الأمر فلم أر أحداً جعل أباه وائلا ، وإنما يضاف إلى وائل ، فيقال سحبان وائل لا سحبان بن وائل ، ومن ذلك البيتان المشهوران :

أتانا ولم يعدله سحبان وائل بيانا وعلماً بالذى هو قائل
فما زال عنه اللقم حتى كأنه من العِىّ لما أن تكلمّ باقل

وقد أردت بهذا أن يتنبه لخطأ توارد عليه الكتّاب فى (أما بعد) ، فهم يقولون : سحبان بن وائل . ترى هذا فى طبقات الشافعيّة وفتح البارى وشرح العينى للبخارى وغيرها . وفى الإصابة أن المعروف من أمر سحبان أنه جاهلى ، ونقل عن ابن عساكر أنه عمّر حتى وفد على معاوية رضى الله عنه ، فإذا صح هذا وصح أنه قال البيت السابق قبل الإسلام برّد فى يدنا نصّ بها قبل أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام . على أن فى عزو هذا البيت إلى سحبان بعض الشىء ، فإن سحبان مضرّى ؛ إذ ينتسب إلى قيس عيلان بن مُضر ، فما باله يفخر بالخطبة فى الحىّ اليمانين ، والخطيب إنما يفخر فى العادة بالخطبة فى نادى قومه .

ووردت صيغة أخرى حيث تورد (أما بعد) هى : « وأما بعد » بزيادة الواو . ومن هذا قول [1] الشاعر :

---

(١) أنظر البيان للجاحظ ١٠٥/٣ طبعة مطبعة الفتوح الأدبية

وإن جئت الأمير فقل : سلام عليـك ، ورحمة الله الرحيم
وأما بعـد ذاك فلى غريم من الأعراب ، قبـّح من غريم !

وقول صاحب المفتاح : « وأما بعد فإن خلاصة الأصلين » .

واشتهرت بعد صيغة أخرى أضحت هى المتداولة فى الخطب والرسائل والقصص ، وهى (وبعد) . وقد صارت هـذه الصيغة أجرى على الألسنة وألوط بالأفئدة .

وقد جرى فى شأن هذه الصيغة الأخيرة حديث بين الباحثين ، وأنكرها بعض الفضلاء .

وفى الحق أن هذه الصيغة لم ترد فى المأثور من الكلام القديم . وأقدم ما وقفت عليه فى ذلك قول [1] الجاحظ : « وبعد فهل قتل ذؤاب الأسدى عتيبة بن الحارث ابن شهاب إلا وسط الليل الأعظم حين تبعوهم فلحقوهم » . ومما ينبغى أن يتنبه عليه فى هذا الموطن أن الجاحظ أتى بهذه الصيغة فى معرض الفذلكة للكلام السابق وإجمال ما أسلف من تفصيل . فقد كان يتحدث قبل عن قتال العرب بالليل ، ويردّ فرية من زعم أن العرب لا تعرف هذا الضرب من القتال ، ثم أورد هذا الحديث . وكذلك ورد هذا اللفظ أيضاً فى كلام ابن جنى . ففى [2] الخصائص : « وبعد فقد صحّ ووضح أن الشريعة إنما جاءت من عند الله تعالى » ، وفيها أيضا [3] : « وبعد فإذا عرف التوكيد لم وقع فى الكلام ، نحو نفسه وعينه وأجمع وكله وكلهم وكليهما وما أشبه ذلك عرفت سعة المجاز فى هذا الكلام » ، ويقول [4] أيضا فيها : « وبعد فهذا مذهب الشعراء : أن يظهروا فى هـذا ونحوه شكـّا وتخالجا ليروا قوة الشبه واستحكام الشبهة » ، والقارىء لكلام ابن جنى يرى أنه استعملها أيضا فى الفذلكة

---

(١) البيان ٣/ ٩

(٢) ١٥١/١ وهو الجزء المطبوع

(٣) الجزء الثانى (لم يطبع بعد) فى « باب المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة »

(٤) الجزء الثانى « باب إقرار الألفاظ على أوضاعها الأول »

كما استعملها الجاحظ . وقد يرى الباحث أن هـذا ليس ببعيد من الغرض الأصلى للصيغة الأصلية (أما بعد) وهو الانتقال من موضوع إلى آخر ، فى الفذلكة الانتقال من التفصيل إلى الإجمال ، وبينهما بعض التغاير والاختلاف ، فكأن المنتقل من أحدهما إلى الآخر منتقل من موضوع إلى موضوع ومن حديث إلى حديث .

ويبدو أن العلماء كانوا يرون فى هـذه الصيغة الحادثة أنها صورة للأصل : « أما بعد » وهم لهذا كانوا لا ينكرونها . ويقول ابن حجر فى الكلام على (أما بعد) « وقد كثر استعمال المصنفين لها بلفظ (وبعد) » بل يرى بعضهم أن لها حكم (أما بعد) فى الاستحباب ؛ إذ كانت فرعا عنها ، ويثبت للفرع حكم الأصل . وقد ألف الشيخ أحمد بن موسى العدوى المالكى [1] رسالة لطيفة سماها : « عائدة الورد » فيما يتعلق بالكلام على (وبعد) » رتبها على سبع مقالات ، وجعل المقالة الخامسة فى حكم الإتيان بها ، ويقول فى هذا المبحث : « فيندب الإتيان بها ؛ قياسا على أصلها الذى كان يأتى به عليه الصلاة والسلام فى خطبه وكتبه وهو (أما بعد) ؛ كما هو الثابت فى صحيح الخبر عن الأئمة والأثر ؛ لأن ما ثبت للأصل ثبت لفرعه » . وقد يناقش هذا القياس ؛ فالاستحباب إنما عماده التأسى بالرسول عليه الصلاة والسلام وذلك لا يتحقق إلا باتباعه فى اللفظ الذى جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام بعينه ونصه ، فإذا جىء بلفظ آخر كان حرىً ألا يكون هذا اتباعا ، وإن كان بسبب مما جاء به ، وليس هناك ما يدعو إلى تجنب اللفظ الذى أتى به الرسول عليه الصلاة والسلام إلا الرغبة فى الاستخفاف .

والناظر فى الصيغة من جهة العربية يرى بعدها الفاء حيث لا موجب لها .

وهنا تشعبت آراء العلماء ، فيرى فريق أن هذا المقام لمّا ألف فيه (أما بعد) أضحت (أمّا) فيه عالقة بالنفس وإن سقطت فى الكلام ، فـ (أمّا) وإن لم توجد حِساً فهى موجودة وهما ، وعلى ذلك جاءت الفاء ، والوهم يترتب عليه آثار لسانية كثيرة ؛ ألا ترى إلى قول الشاعر :

(١) هذه الرسالة فى مجموعة فى دار الكتب الأزهرية . انظرها فى فهرس النحو .

بدالى أنى لست مدرك ما مضى ولا سابق شيئا إذا كان جائيا

حيث جر (سابق) على توهم الباء فى (مدرك) . ومن ذلك جمعهم مسيلا من السيل - على مسلان ، توهموا مسيلا فعيلا ككثيب ورغيف ، فجمعوه على فعلان ، وإنما مسيل مفعِل . وقالوا : تمسكن وتمندل وتمدرع على توهم إصالة الميم ، وهى - لا محالة - زائدة ، ما كان لها أن تثبت فى بناء الفعل . على أن هذا الرأى قد لقى نقداً وإنكاراً ، ويقول ابن عابدين[1] : « وأما توهم أمّا فلم يعتبره أحد من النحويين » وكأن ذلك لأن التوهم المذهب فيه السماع ، ولا يتوسع فيه ، ويقتصر به على ما ورد عن العرب .

ويرى بعضهم أن الكلام على تقدير أمّا فى الكلام . ويشترط الرضى لتقدير أما فى الكلام بعد الواو أن يكون ما بعد الفاء أمراً أو نهياً ، وما قبلها منصوباً به أو بمفسر به ، كما فى قوله تعالى : وربك فكبر . ويتكلف بعضهم تخريج ما هنا على مذهب الرضى فيقدر فى الكلام محذوفاً .

ويرى بعضهم أن الواو نائبة عن أما ، ومن ثم جاءت الفاء . وبها ألغز بعضهم فقال :

وما واو لها شرط يليه جواب قرنه بالفاء حتما ؟

فأجابه[2] بعضهم بقوله :

هى الواو التى قرنت ببعـــد وأما أصلها ، والأصل مهما

وأيا ما كان الأمر فقد يخرج القارىء من هذا البحث بصحة « وبعد » عربية وأنه ليس من الخطأ استعمالها . وللمصنفين سلف فى الجاحظ وابن جنى ، وهما من هما فى التحرى للعربية والعلم بها .

---

(١) الرسائل ١/٦٩ .

(٢) أنظر حاشية السجاعى على القطر فى الخطبة .

من نوادر المخطوطات

المجمع المؤسس للمعجم المفهرس

لفضيلة الاستاذ الشيخ أبو الوفا المراغى

مدير مكتبة الأزهر

من مفاخر علماء المسلمين السابقين إبان نهضتهم الفكرية أمانتهم العلمية التى يدهش لها المنصفون من علماء العصر ويقدرونها قدرها بين الفضائل العلمية ، وقد كانت هذه الأمانة تغلب فى نفوسهم كل عاطفة مهما اشتدت ، إذ كان الأب يتهم فى سبيلها ابنه إذا رأى منه ما لا يتفق وتلك الأمانة ، وقد جاء عن بعض علماء الحديث أنه كان يقول عن ابنه : « لا تثقوا بروايته » ومما يعد من مفاخرهم أيضاً وفاؤهم لشيوخهم وإجلالهم واعترافهم بالفضل عليهم . ومن مأثور الحكم : من علمنى حرفا صرت له عبداً .

وقد دفعت تلك الأمانة العلمية بعض العلماء ـ وبخاصة علماء الحديث ـ أنه يسجل أسماء شيوخه وما رواه عنهم فى أسفار خاصة تعرف بمعاجم الشيوخ ، يحدوهم إلى ذلك عاملان ، عامل الاعتراف بالفضل لشيوخهم ، وعامل الثقة فيما يروونه ، وكأنهم بذلك يقدمون البينات على دعاواهم العلمية .

وفى تاريخ العلوم الإسلامية شىء من هذه المعاجم أو الفهارس ، ومن أحسن ما عثرنا عليه فى ذلك : المجمع المؤسس للمعجم المفهرس للعلامة ابن حجر ، وهو مجلد ضخم دوّن فيه أسماء شيوخه الذين روى عنهم الحديث . وموضوعات هذه المرويات أو أجزاؤها ويقع فى ١٦٠ ورقة عدا ورقتين ملحقتين بآخره ، وعدا بعض طيارات فى وسطه (ورقات صغيرة ملحقة ببعض ورقاته) وقد ذكر أسماء شيوخه مرتبة على حروف المعجم وقسمهم على طبقات أشار إليها فى خطبته كما يأتى :

وهو بخط ابن حجر نفسه والمسودة الأولى له ، لذلك تكثر فيه الكتابة على الهامش تكملة أو تصحيحاً أو تهذيباً لما فى الصلب وهو عسر القراءة لعدم جودة

الخط وندرة النقط والإعجام فى أكثر كلماته كمنهاج عصره فى الخط ، وقد ابتدأ فى وضعه سنة ٨٠٦ هـ وفرغ منه سنة ٨٢٩ هـ .

وابن حجر هذا من أشهر علماء الحديث رواية ودراية فى عصره ، وله طائفة كبيرة من الكتب فى علوم الحديث ، وله الشرح المشهور على صحيح البخارى . «فتح البارى» وقد أجمعت التراجم على غزارة علمه وجلال قدره ، كما أجمعت على صلاحه وتقواه قال العلامة السخاوى فى ترجمته فى التبر المسبوك : « هو شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن أحمد الكنانى العسقلانى الأصل المصرى الشافعى ، حافظ العصر . علامة الدهر ، شيخ مشايخ الإسلام ، حامل لواء سنة خير الأنام ، قاضى القضاة ، أدقّ الحفاظ والرواة ، باشر القضاء بالديار المصرية استقلالا مدة تزيد على إحدى وعشرين سنة بأشهر تخللها ولاية جماعة . والتدريس بعدة أماكن فى التفسير والحديث والفقه والوعظ وخطب بجامعى عمرو والأزهر وغيرهما ، وأملى ما يذيف على ألف مجلس من حفظه ، وزادت تصانيفه على مائة وخمسين ، واشتهر ذكره ، وبعد صيته ، وارتحل له الأئمة وكثرت طلبته حتى كان رؤوس العلماء فى كل مذهب وبكل قطر من تلامذته ، وانتشرت جملة من تصانيفه فى حياته وتهادتها الملوك والأكابر ، كل ذلك مع تواضعه وحلمه وظرفه وصيامه وقيامه وورعه ومزيد أدبه مع المتقدمين والمتأخرين ومحبته أهل الفضل والتنويه بذكرهم وعدم اطراء نفسه وركونه إلى هضمها وبذله وكرمه وقد شهد له القدماء بالحفظ والمعرفة وسعة العلم فى فنون شتى وشهد له شيخه العراقى بأنه أعلم أصحاب الحديث .

ولد فى شعبان سنة ٧٧٣ هـ بمصر وتوفى سنة ٨٥٢ هـ بمصر أيضاً ودفن بالقرافة الصغرى فى مشهد لم ير مثله .

ومن خطبة الجمع المؤسس بعد الديباجة : أما بعد : فأنه كثيراً من سلف المحدثين اعتنوا بجمع أسامى شيوخهم وتدوين أخبار كبارهم وتغايرت مقاصدهم فى السير فرأيت أن أحذو حذوهم وأسير تلوهم لأتذكر عهدهم ، وأجدد لهم الرحمة بعدهم فجمعت أسامى شيوخى على المعجم مرتبا وقسمتهم على قسمين مهذبا فالأول من حملت عنه على طريق الرواية ، والثانى من قرأت عنه شيئاً على طريق الدراية

وأضفت إلى الثانى من أخذت عنه شيئاً فى الذاكرة من الأقران ونحوهم وقد قسمتهم من حيث العلو إلى خمس مراتب الأولى من حدثنا عن مثل التقى سليمان وأبى الحسن الموالى وأبى الغوث الدبوسى وعيسى المطعم والقاسم بن عساكر وأبى العباس ابن الشحنة ونحوهم وعلامتنا « ط » إشارة إلى أنهم الطبقة الأولى. الثانية من حدثنا عن أصحاب ابن عبد الدايم والنجيب وابن علان ونحوهم وعلامتهم « طس » اشارة إلى أنهم من الطبقة الوسطى. الرابعة من حدثنا عن أصحاب الفخر بن البخارى وابن القواس والأبرقوهى ونحوهم ممن كان يمكننا الأخذ عنهم. الخامسة من أشرت اليه ممن أخذت عنه فى المذاكرة أو شيئاً ما لغرض أو نوعا من العلم أو انشاء أو فائدة ومن ليس عندى عنه إلا الإجازة أو الشيء اليسير باسماع من أهل الطبقة الخامسة من غير استيعاب لهم .. .. .. وترك العلامة لهم علامة أخ.

وبآخر الكتاب:

.. آخر المجمع المؤسس للمعجم المفهرس علقه أحمد بن على بن حجر الشافعى عفى الله عنه واتفق الفراغ منه فى يوم الخميس سادس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وثمانمائة بالقاهرة سوى ما ألحق فيه بعد ذلك وكان الابتداء فى كتابة مسودته سنة ست وثمانمائة. ثم جمعت الفهرست منه وزدت فيه أسانيد كتب كثيرة بالأجازة لتكمل الفائدة وكان فى شعبان سنة اثنين وثلاثين وثمانمائة ولله الحمد على ما من وأفضل.

تكلف

لى صديق يرى حقوقى عليه نافلات، وحقه الدهر فرضا
لو قطعت البلاد طولا إليه ثم من بعد طولها سرت عرضا
لرأى ما فعلت غير كثير واشتهى أن يزيد فى العرض عرضا

وقال صالح بن عبد القدوس فى صديق السوء:

تجنب صديق السوء واصرم حباله وإن لم تجد عنه محيصا، فداره
ومن يطلب المعروف من غير أهله يجده وراء البحر، أو فى قراره
ولله فى عرض السموات جنة ولكنها محفوفة بالمكاره

رمضان بين الماضي والحاضر

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

شهد ماضى رمضان نهاراً عامراً بالإيمان والإحسان ، وليلا زاخراً بالذكر والقرآن .

ويشهد حاضره نهاراً مفتونا بشهوة البطون ، وليلا صاخبا بالخلاعة والمجون

شهد ماضيه عُبَّاداً فى الأسحار يتلون قرآن الفجر وقد أمسكوا عن شهوات الدنيا وسجدوا لربهم فى المحاريب خاشعين متضرعين يبكون من خشية الله ، ويرجون أن يتقبل الله ، حتى إذا صلوا الفجر راحوا يشهدون رزق ربهم ويجاهدون فى سبيل العيش بعد أن أشبعوا الروح من زاد الآخرة .

ويشهد حاضره فى مصر الإسلامية ألوانا متنافرة : عبَّاداً وأشباه عباد وأنصاف عباد ولا عباد ، بل تشهد أسماره سكارى عجت بهم مجالس السمر العابث بين الغيد والكاس ، لا يصيخون لمؤذن الصباح بل لمؤذن الصبوح ، ولا يرعشهم قرآن بل ترقصهم الألحان ، حتى إذا امتدت فى الأفق خيوط الفجر امتد النوم إلى جفونهم فاستلذوا المخادع ، واطمأنوا فى المضاجع حتى الأصيل ، ليستقبلوا ليلة أخرى حمراء وهكذا ينقضى شهر العبادات والطيبات وهم فى لهو صارخ واستهتار بالدين والأخلاق .

لم يشهد ماضيه فى الضحى مطاعم ولا مقاهى مفتحة الأبواب ، يختلف اليها أولئك الذين فقدوا الحياء وقد راحوا يلتهمون الطعام ويستعذبون الشراب .

أما حاضره فيشهد فى كل شبر صوراً مختلفة الأشكال من المخازى فى مصر الإسلامية ، فالمطاعم والمقاهى فى ضحى رمضان غاصة بالطاعمين الشاربين الذين لا يستحون من الله ولا من الناس .

ومكاتب الوزارات والمصانع والمجتمعات العامة والسيارات كل هاتيك النواحى يشهد فيها رمضان أفواجا من المسلمين يأكلون ويشربون ولا يتوارون عن العيون .

والمنازل يشهد فيها رمضان أوانس وسيدات خفن أن يضعضع الصوم قوتهن أو يذهب نضارتهن فأفطرن صونا للجمال أن يذبل .

ويل لهؤلاء وأولئك يوم ينادى الله « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » .

شهد ماضيه فى الأصائل قصور الأغنياء ودور العظماء يهرع اليها المحتاجون والأرامل والمساكين واليتامى حتى إذا امتلأت بهم الساحات شعت عليهم بسمات المحسنين فأنستهم قسوة الحرمان ، وامتدت إليهم الأيدى بالطعام فأنستهم مرارة الجوع وانطلقت حناجرهم بصادق الدعاء يشق الفضاء إلى السماء .

ويشهد حاضره فى الأصائل قصور الأغنياء ساكنة كأنها المقابر لا تسمع حولها دعاء محسن ، ولا دعوة بائس ، ولا تمتد يد محجبة من وراء الستائر بلقمة من العيش ترد جوعة صائم ، أو تحقق أمنية حالم ، وحسب البائس أن تثير رائحة الشواء أمعاءه ، وتسيل جفاف لعابه ، ليعود إلى بنيه الجياع ، أو زوجته المنطوية على نفسها ، بالدمع بين جفنيه ، والحسرة والحرمان بين جنبيه .

لم يشهد رمضان فى الماضى المرأة المسلمة إلا راعية فى بيتها تقوم على شئونها وترعى حقوق زوجها وبنيها ، وتضحى براحتها فى سبيل هناءة أسرتها

ويشهد اليوم رمضان المرأة المسلمة وقد تنكرت لبيتها ، وأنكرت زوجها وأبناءها ، وافتتنت بزينتها عن غيرها ، وجرها شيطان الهوى إلى التنكر لكل ماله صلة بالدين والأخلاق ، وليتها نسيت أنوثتها وعواطفها ، وخافت وعيد ربها ، وذكرت قول محمد صلوات الله عليه : « نظرت إلى النار فإذا أكثر أهلها النساء » فما ينجيها يومئذ من عذاب الله جمال ولا مال ولا جاه .

لقد شهد رمضان فى الماضى نفوسا هذبها الإسلام وربطت بينها أخلاق الإسلام بوشائج من الأخوة وأسباب من التراحم والتواد والتعاطف فهى قلوب

لا تعرف الشحناء ولا تثيرها البغضاء فى رمضان لغير شىء ، ويشهد رمضان الآن منذ الصباح الباكر فى مصر صورا من المعارك لا تنقطع بين الصائمين ، ومشاحنات لا ينطفىء لها أوار حتى كأن الصوم قد كهرب الناس فأجسامهم لا تطيق المساس ، فكم نرى فى الأسواق بائعا يثور ومشتريا يفور وفى الوزارات كم نرى رئيسا يرغى ويزبد ومرؤوسا يحنق ويعربد فلم صام هؤلاء وأولئك ، وليس لله حاجة فى أن يدعوا الطعام والشراب ؟ إن الصوم الذى لم يهذب النفوس يعذب المجتمع ، فليفطر هؤلاء وليرحموا المجتمع إذا ضعفوا عن جهاد أنفسهم .

ولكم شهد رمضان فى الماضى ساعة الأفطار مساجد تموج بالأغنياء والفقراء جلسوا جنبا الى جنب ينتظرون الإفطار ليعلنوا أنهم سواء فى طاعة الله ، سواء أمام أوامر الله ، سواء فى الوقوف بين يدى الله ، أمسكوا معا وأفطروا معا وسيصلون معا ثم ينصرف كل الى ما يسر الله له من طعام راضيا شاكرا ، ويشهد رمضان الآن مساجد الله ساعة الأفطار وقد خلت إلا من فقير أو غريب ، أما صوام الأغنياء فإنهم يستقبلون الموائد عند دوى المدافع ليتخموا بطونهم بلذائذ الطعام ثم يأخذهم الدوار العنيف لكثرة ما قذفوا فى معداتهم من أطعمة يثور تفاعلها حتى ينهك المعدة فتكسل ويمتد كسلها الى الجسم فلا ينهض الى صلاة إلا بعد ساعات طوال .

وأما عن ليالى رمضان فى الماضى فكم كانت تزدهر فيها قصور العظماء بالأضواء وتفتح أبوابها لكل وافد يسمع آيات الله يرتلها الفقهاء ، وكم كانت تعج القاهرة بالأفواج المتلاحقة من الطرق الصوفية يرددون ذكر الله وهم فى طريقهم الى بيت من بيوت الله تفيض قلوبهم بحب الله وتدوى أصداء أصواتهم فتهتز قلوب الناس إنهم كانوا يعتقدون أن ليالى رمضان أعياد لأنها تجمعهم فى عبادة الله .

ويشهد حاضره قصور العظماء تضج بالحفلات العابثة فهى ليست بالقصور وإنما هى مذابح تنحر فيها الفضائل وتسفك فيها الأخلاق وتذبح فيها النخوة وتموت الكرامة وقد يجر كل ذلك الى فقدان الشرف وهو أعز ما يملك الإنسان .

إن ماضى رمضان قد شهد ألوانا من العبادة والبر ، وإن حاضره ليشهد صورا من الفجور والشر ، فهل أوشكت القارعة يوم يكون الناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش .

أيها الصائمون . أذكروا أن محمدا صلوات الله عليه كان يصوم فى جو الصحراء اللافح ، فلا تتأثر أحاسيسه بحرارة جوها فيثور ويغضب بشىء أو بغير شىء ، وأنه كان يفطر على تمرات لا تقيم صلبا ولكن القناعة كانت تشبعه ، فهل لكم فى رسول الله أسوة حسنة تأتسون بها .

إن مصر التى تفخر بماضيها وتذكر مجدها خليق بها أن تنزع الى الدين وتعود لتجدد ما بلى من أخلاق ، فإن المجد المنشود لن نصل إليه إلا إذا أضأنا سبيله بأخلاقنا ، وإن نفوسنا المظلمة وأخلاقنا المظلمة لن نصل بهما الى عزة نريدها أو آمال نبتغيها .

إن آلاف المحرومين تغلى صدورهم ، وتتصاعد زفراتهم إلى السماء تشكو إلى الله بخلكم ، فاتقوا شكاياتهم فليس بينها وبين الله حجاب .

لكأنى بالساعة وقد قامت ونصبت الموازين فرحتم تنقبون بين أعمالكم عن صومكم فلم تجدوه ، لأن ربكم لم يتقبل عمل المتبرم الساخط ، أفهل حسبتم أن ربكم فى حاجة إلى عبادتكم ؟ إن الإنس والجن لو صاموا الدهر كله ما زاد ذلك من جلال الله شيئاً ، وأن الإنس والجن لو كفروا بالله وبرسالات الرسل جميعاً واتخذوا آلاف الأرباب ما نقص ذلك من عزة الله شيئاً .

حساب الله عسير فاتقوا الله .

ذكاء

قال الشيبانى خرج أبو العباس أمير المؤمنين بالانبار فأمعن فى نزهته وانتبذ من أصحابه ، فوافى خباء لأعرابى فقال له الأعرابى : ممن الرجل ؟ قال من كنانة ؛ قال من أى كنانة ؟ قال من أبغض كنانته إلى كنانته .

قال : فأنت إذن من قريش . — قال : نعم .

قال : فمن أى قريش ؟ — قال : من ابغض قريش إلى قريش .

قال : فأنت إذن من ولد عبد المطلب — قال : نعم

قال : فمن أى ولد عبد المطلب أنت ؟

قال : من أبغض ولد عبد المطلب إلى ولد عبد المطلب

قال : فأنت إذن أمير المؤمنين ، السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فاستحسن ما رأى منه وأمر له بجائزة .

الحيـــــاة الاخرى

عن سيد أمير علي*

للأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ فى الآداب

[يا أيتها النفس المطمئنة . ارجعى إلى ربك راضية]
[مرضية . فادخلى فى عبـــادى . وادخلى جنتى .]

تحدثنا فى المقال السابق عن فكرة الوجود الثانى عند قدماء المصريين واليهود والزردشتيين ، ثم عن عقيدة اليهود فى المسيح المنتظر . ونتحدث اليوم عن عقيدة الحياة الأخرى فى المسيحية والإسلام .

اجتازت أقوال المسيح عدة أطوار من التغيير والتبديل ، حتى إنه ليصعب علينا اليوم ـ كل الصعوبة ـ أن نميز صحيحها من غثها . ولكننا إن أخذناها كما هى ، وبحثناها كما بحثنا غيرها من الوثائق الدينية [دون أن نتجاهل روحها الحقة ، ودون أن نحاول إيجاد معان مستترة كما يفعل المتعصبون] رأينا فيها نظرية عن نظام جديد ، هى « مملكة السماء » ، تبدو واضحة خلال هـذه الأقوال ، وضوحاً يجعلها متميزة عن غيرها من النظريات : ظهر المسيح ، وصارت مملكة الله قاب قوسين أو أدنى ، وهى مملكة ستحل محل المجتمع والحكومة غير الكاملين ، بل والمليئين بالشرور . وكانت كلماته أحياناً ، تجعل تلامذته يرون أن « المعلم » الجديد سيولد ليقود الجائع والفقير إلى المجد والسعادة ، وأن الفقراء والجوعى فحسب ، سيكونون هم السعداء ، وأن العذاب سيحل بالأغنياء والمتخمين . وكانت مملكة الله تفهم فى بعض الأحيان على أنها تعنى تحقيق الرؤى أو الأحلام الوحيية[1]

. The Spirit of Islam : Sayed Ameer Aly (*)

(١) خاصة ما أوحى للقديس يوحنا فى جزيرة باطوس .

فيما يختص بظهور المسيح . وقد تكون مملكة الله - فى فهم ثالث - هى حكم الأرواح ويكون الخلاص المقترب ، مجرد خلاص روحى من أغلال هذا الوجود الأرضى .

وحالت قسوة الفئة الحاكمة . وحالتها العقلية ، وقوة الرومان ، دون إحداث تغيير اجتماعى ، فتلاشت جميع الآمال فى تحسين « الحالة الراهنة » ، وتملكت القلوب آمال ورغبات فى مستقبل أكثر سعادة . واعتقد القوم أن « بعث » الإنسانية أصبح قريباً[1] : فيظهر المسيح نفسه من بين ثنايا السحاب ، يأتزر برداء آلهى ، ويجلس على عرش تحف به الملائكة ويحيطه أتباعه المخلصون . وإذ ذاك ينشر الموتى من القبور ، ويجلس المسيح فى مجلس القضاء ، ينفذ الملائكة أحكامه . أما الأبرار ففى جنات أعدت لهم منذ بدء الخليقة ؛ وأما الأشرار فإلى نار خالدة معدة للشيطان وأتباعه[2] ، حيث يعلو النواح ويشتد اصطكاك الأسنان . و « المختارون » ، وهم قليلون[3] . يقيمون فى دار ساطعة الضياء ، تمد لهم ولائم حافلة ، يرأسها أب الجنس الاسرائيلى ، ويحضرها البطارقة والأنبياء[4] ، بل ويوجد فيها المسيح ذاته[5] .

ويتضح من كلمات السيد [المسيح] أن « النظام » الجديد وعودة يسوع الثانية ، والنشور ، إنما هى أمور قريبة الحدوث ، فطالما أكد لسامعيه اقتراب مملكة الله ، وعبث الاهتمام بحاجات هذه الحياة وشواغلها .

وكانت كلمات المسيح تمس شغاف قلوب المريدين ، فإذا بهم جميعاً ينظرون إلى المستقبل فى شوق بالغ ، لم ير التاريخ قط ما يفوقه ، منتظرين أن تتحقق [تحققا حرفيا] هذه النبوءات .

« وإذا كان الجيل الأول من المسيحيين ذوى عقيدة قوية ثابتة ، فذلك لأنهم ظنوا العالم يقترب من نهايته ، وأن «رؤى» المسيح العظيمة ، قريبة الحدوث[6] » . ثم صارت الكنيسة المسيحية منظمة ، وانتشر أتباعها يذيعون آراءها ، آخذين

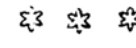
(١) ليس ثمت شك فى أن المسيح نفسه كان يؤمن بالبعث الجسمانى وفى الثواب والعقاب البدنيين فى الحياة الأخرى ، فطالما تحدث عن المبرورين فى مملكته ، يأكلون ويشربون على مائدته .

(٢) متى ٢٥ / ٤١ . (٣) لوقا ١٣ / ٢٣ . (٤) متى ٨ / ٢ ؛ لوقا ١٣ / ٢٨ ، ٢٢ / ٣٠ .

(٥) متى ٢٦ / ٢٩ . (٦) رينان : حياة المسيح ص ٢٨٧ .

بالنظام الإغريقى أو الرومانى ، حاملين لواء دينهم إلى آفاق كانت مجهولة ، حيث يعيش البرابرة ، الذين تركوا — بالكاد — غاباتهم ، ورأوا فى المسيح ومريم صورة أخرى لآلهتهم التى كانوا يعبدونها .

ظل العالم المسيحى يهزه الشوق ، وتحرقه الرغبة ، كلما ناء بحدثان الزمان - إلى ظهور [المسيح] ، وأخذت فكرة « حكم الله » بمرور الزمان وتطور التفكير إما صورة روحية ، أو عفت آثارها من بعض العقول ، أو ركبتها الزيادات ، فأخذت تستق صفات جديدة من بيئات المؤمنين الجدد ، فوجدت فى المسيحية آثار كلدانية ومجوسية زردشتية وأفلوطينية ، غيرت جميعها من المعتقدات القديمة وصبغتها صبغة جديدة .



كانت ثمت فكرة فى المسيحية ، شجع رجال الدين على انتشارها ، وهى أن محمداً صلى الله عليه وسلم ينكر وجود أرواح للنساء ، ولكن هذه الفكرة اندثرت ، وإنها لفكرة خبيثة ابتدعت لخلق روح الكراهية ضد الإسلام . ولا زال المسيحيون يؤمنون بأن النبى العربى وعد أتباعه المؤمنين بجنة حسية بها الحور ، وبها ملذات تتفاوت درجاتها ، ولكن هذا الفهم إنما تأتى عن الجهل والمغالطة .

ولكن من الضرورى - نظرا للبيئة التى نزل فيها القرآن - استعمال أساليب تتفق وعقل سكان الصحراء ، فكان هذا الوصف الذى يسترعى انتباههم ، ولكنه كان صورة جانبية ، يتلوها الجوهر ، وهو عبادة الله فى خشوع وحب ولسنا نستطيع أن نقول إن الأوصاف الواردة للجنة والنار كانت حسية ، ولسنا نستطيع القول إن محمداً صلى الله عليه وسلم أو أحدا من أتباعة - حتى أبعدهم فى فهم القرآن فهما حرفيا - كان يقول إنها مبنية على الحواس ، لا العقل أو الروح .

والنظرية الرئيسية السائدة فى الإسلام - فيما يختص بالحياة الثانية - إنما تنبنى على اعتقاد أنه على كل كائن بشرى - فى حالة الوجود الآخر - أن يقدم حسابا عن أعماله فى الأرض ، وأن سعادة الفرد أو شقاءه ، آنذاك ، إنما تترتب على الطريقة التى أدى بها هذا الفرد حقوق خالقة .

اما رحمته ونعمته [تعالى] فليس لهما حدود ، يضفيهما على خلقه . هذا هو المحور الذى تدور حوله نظرية الحياة الثانية فى الإسلام ، بل وهذه هى النقطة العقيدية الوحيدة التى على المسلم أن يؤمن بها ويقبلها ، أما ما عدا ذلك من عناصر أضيفت إليها وأخذت من تقاليد الأجناس والشعوب فما هى إلا مجرد زيادات ، وإن نحن تركنا جانباً مسألة الموضوعية الموجودة فى جميع النظريات عن الثواب والعقاب المستقبلين ، أو بقول أدق نظريات حياة ما بعد الموت ، فعلينا أن نذكر جيداً أن هذه النظريات أمدت « معلمى » العالم الأخلاقيين بأقوى سلاح يؤثرون به فى سلوك الأفراد والشعوب : فالفضيلة ـ لذاتها ـ يمكن أن تقبلها عقول النخبة الممتازة ، أما المتوسطون وغير المتعلمين فلا بد من أن نقرن الفضيلة لهم بالثواب والعقاب .

ولنر الآن طبيعة هذا الثواب والعقاب ، على ان نتذكر أنه يندر أن نتمكن من أن ننقل فكرة عن لذة روحية أو ألم روحى إلى أفهام غالبية البشر دون أن نلبس تعابيرنا رداء حسياً ، أو أن نقدم فى وصف هذه اللذة أو ذلك الألم موضوعات حسية . وطالما استعملت الفلسفة التعبيرات المجردة ، دون أى رداء محسوس ، وقد كان لهذه التعبيرات والأفهام [الفلسفية] يوم ازدهرت فيه ، ثم ماتت دون أن يشعر بها أحد خارج دائرة العلماء الحالمين الذين كانوا يعيشون ، فى غموض غير محدود ، داخل أفكارهم .

أما محمد (صلى الله عليه وسلم) فقد كان ينقل الدين ، لا للعقول الراجحة الممتازة من المفكرين المثاليين الذين تصادف وجودهم ، فحسب ، وإنما للعالم المتسع حوله ، المؤتزر بالمادية بكافة أنواعها ، وكان عليه أن يخاطب الناس على قدر عقولهم . فالعربى الجائع ، ماذا عنده أجمل وأحلى ، أو أكثر توافقاً مع تفكيره عن الجنة ، أكثر من أنهار تجرى فيها المياه ويجرى اللبن والعسل ، وهل يود أن يرى إلا الفاكهة والخضرة الدائمة والخصب المثمر ؟ إنه لا يستطيع أن يتصور نعمة لا تصحبها هذه الملذات المستمدة من الحواس .

هذا هو رأى جماعة من المسلمين يرى ـ كما يرى السنائى والغزالى ـ أنه وراء السعادة المادية ، المصورة فى محسوسات كالأشجار والأنهار والدور الجميلة والحور

العين ، يوجد معنى أعمق ، وأن لذة اللذات إنما توجد فى رؤى النفس المبرورة فى حضرة الحق حين يرفع الحجاب بين الرب والعبد ، وتتجلى الذات على العقل بعد أن يتخلص من شوائب الجسد وأدران الدنيا . وهم فى هذا يتمثلون بكلمات القرآن والحديث ، روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال ما معناه ـ إن أحب الناس إلى الله هو من يرى وجهه تعالى صباح مساء ، فيشعر بسعادة تفوق كل مسرات البدن ، كما تفوق مياه المحيط نقطة العرق . وحدث أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال فيما يرويه عن ربه : أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ثم قال اقرأوا إن شئتم « فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون »[١] . وثمت حديث آخر صرح فيه النبى صلى الله عليه وسلم : أن الإرادة الطيبة تتمتع بقرب الله ، وهى التى عناها القرآن بقوله : « والله يدعو إلى دار السلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، للذين أحسنوا الحسنى وزيادة »[٢] .

أما التعبيرات الصريحة فى القرآن ، فإن هذه الجماعة من المفكرين تفسرها على ضوء الآية الكريمة من الكتاب الحكيم : « هو الذى أنزل عليك الكتاب ، منه آيات محكمات [واضحات للفهم] ، هن أم الكتاب ، وأخر متشابهات »[٣] .

وتوجد فرقة تنظر إلى مسرات الآخرة وعذابها نظرة موضوعية إطلاقا ، فهى ترى أنه لما كان الألم العقلى [المعنوى] الشديد أكثر عذابا من الألم الجسدى ، فكذلك يكون السرور العقلى [المعنوى] ذا طبيعة أعلى ودرجة أسمى من أى لذة جدية . ومن هنا « ترجع » [إذا استعملنا اللفظ القرآنى] الروح الفردية بعد الموت البدنى إلى الروح الكلية ، فإن جميع المسرات والآلام التى صورها النبى [الموحى اليه] فى صور حية مثيرة ، ليتمكن العوام من فهم حقيقتها ، لن تكون إلا عقلية وموضوعية . وتتضمن هذه الفرقة بعض كبار الفلاسفة والمتصوفة المسلمين .

وفرقة أخرى ، وربما كانت الأكثر عدداً ، تعتقد فى حرفية الألفاظ القرآنية .

---

(١) السجدة ٣٢ / ٧١ .

(٢) سورة يونس ١٠/ ٢٥ - ٦ (٣) سورة آل عمران ٣/ ٧ .

تدرج القرآن بالإنسان من المعانى الحسية إلى المعانى الروحية ، مسايراً قدرة معتنق الدين الجدد على التخلص من حياتهم المادية ، وبالتالى قدرتهم على فهم الحياة الروحية . إن سعادة الأبرار إنما تكون فى السلام الدائم والإرادة الخيرة فى حضرة الحق : « إن المتقين فى جنات وعيون . أدخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين . لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين [1] » .

إنما أردنا ههنا أن ندلل على فساد النظرية التى تقول بأن صور القرآن عن الحياة الأخرى كانت كلها حسية ، وحسبنا دليلا هذه الآية من القرآن الكريم ، لنرى عمق الروحية فى الإسلام ، ونقاء الآمال وطهر الاتجاهات التى تنبنى عليها قوانين الحياة .

« يا أيتها النفس المطمئنة . إرجعى إلى ربك راضية مرضية . فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى [2] » .

الموصلى

كان محمد بن دانيال بن يوسف الطبيب صاحب نثر رقيق وشعر طريف وكان يعتمد على النكات فى شعره فيجىء مروحا للنفوس . من شعره :

أصبحت أفقر من يروح ويغتدى ... ما فى يدى من فاقة الأيدى
فى منزل لم يحو غيرى قاعدا ... فاذا رقدت رقدت غير ممدد
لم يبق فيه سوى رسوم حصيرة ... ومخدة كانت لأم المهتدى
ملق على طراحة فى حشوها ... قمل كمثل السمسم المتبدد
والفأر يركض كالخيول تسابقت ... من كل جرداء الاديم وأجرد

---

(١) سورة الحجر ١٥/٤٥ - ٤٨ (٢) سورة الفجر ٨٩/١٧ - ٣٠ .

موقف الاسلام من الفقراء

لفضيلة الاستاذ سيد شريف
المدرس بمعهد القاهرة

دعا الإسلام الى المبادىء الإنسانية القوية التى تهدف الى خلق أمة قوية متماسكة تشيع بين أفرادها أسمى المبادئ الخلقية التى تتمثل فيما تفيض به نفوسهم ، من محبة خالصة ، وود صادق ، وتعاون حق ، وأخوة أكيدة ، حتى غدا المجتمع الإسلامى الأول ، مجتمعا مثاليا ليس فيه ثائر آلمه الجوع ، وأمضه الحرمان ، أو مظلوم أحزنه الإغضاء ، وكاد يودى به النسيان ، أو ظالم أمن فى سربه ، وقد أدمت سياطه الظهور ، وغلت أوزاره الأعناق ، أو غنى طغى ، وبغى لأنه وجد من يمالئه طمعا فى ماله ، وركونا الى جاهه ، ورهبة من سلطانه وذلك لأن الدستور الاسلامى سوى بينهم ، وكفل لهم حقوقهم فى حدود واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

ورسم لأفراد مجتمعه ، السبيل الواضح الى الحياة الكريمة ، حياة العاملين المناضلين ، وكره منهم نوازع المذلة والمهانة ، وندد بمن يستمرئون الكسل ، ويستطيبون المسألة ، ويستسيغون الاستجداء ، ورعاية لهذه الأغراض النبيلة ، لم يفرض للفقراء حقوقا على القادرين وأرباب الثروات ، إلا بعد أن دعاهم الى الجد والمثابرة على السعى ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى فيمن يستحقون منهم المساعدة الإجتماعية « للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسئلون الناس إلحافا ، وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم » .

وقد دعا الرسول فى قوة وحزم ، الى الدأب على العمل فى صدق وإخلاص ، فعن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أقبلت لأسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدته يقول « من يصبر ، يصبره الله ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، قلت فما أنا بسائلك اليوم » وفيما رواه الزبير ابن العوام عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لأن يأخذ أحدكم حبلا فيذهب

فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فيكف بها وجهه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا أبا بكر ما فتح رجل باب مسألة يريد بها كثرة إلا زاده الله بها قلة » .

ولقد اتبع الفقراء الأولون السياسة التى رسمها الدين ، وأخلصوا فى تنفيذها ، وأخذوا أنفسهم على القصد والاعتدال . والقناعة عملا بتوجيه الرسول وامتثالا لإرشاده . وقد أصبحت هذه الصفات عقيدة لهم ، يدينون بها ، ويؤمنون بالإخلاص لها ، ولذلك غدا كل منهم خارجا عن سلطان بطنه فلا يشتهى ما لا يجد ، ولا يكثر إذا وجد ، يدل على صدق ما نقول صنيع عبادة بن الصامت حينما أهديت له هدية ، وإن فى الدار إثنى عشر رجلا من أهل بيته . فقال عبادة اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهو أحوج بها منا . فقال الوليد بن عبادة . فأخذتها فكلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهو أحوج منا إليها حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

وحينما يعجز الفقراء عن السعى والجد لكسب قوتهم ، لم يتركهم دستور الدساتير هملا يتضورون جوعا ، ويعيثون فى الأرض فساداً ، بل وضع لهم نظاما قويما دعمه بأقوى الأسس وأثبتها ، إذ فرض لهم على الأغنياء فيهم حقوقا تفى بحاجاتهم ومطالب وجودهم ، وتفسح لهم فى مجتمعهم مكانا لايحسون فيه فوارق تتشكى لها النفس . ويتبرم بها الحس .

ولقد عنى بهذه الحقوق أكمل عناية ، وفى غير نص من نصوصه ، ولم يفرق بين المسلم وغيره تمديسا للتسامح الذى ينهض أكثر من دليل على أنه من مميزات هذا الدستور . ورصد للوفاء بشئون الفقراء ، يستوى منهم من عجز عن العمل ، ومن عدت عليهم عوادى الأيام ، وحلت بهم صروف الزمن ، ومن ضاقت مواردهم على أن ترتفع حياتهم إلى المستوى الإنسانى الذى يليق بهم . رصد لهم بابا موفور الدخل ، هو باب المساعدات الاجتماعية . ولما طبعت نفوس السلف على الخير ، وحب البذل ، والسبق إلى السخاء ، استوى عندهم أن تمتد أيديهم بما أوجبه الدين . وجعله لزاما عليهم . يطالبون بأدائه . وما يفعلونه تطوعا يبتغون به إلى الله التقرب والزلفى . مدفوعين إليه بضمير يقظ وحس مرهف .

وقد حذروا بمسارعتهم للبذل أن يحيق بهم ما حاق بثعلبة بن حاطب ، وقد وعد أن يتصدق ، ثم نكص على عقبه بعد أن غلبه الشح ، وتمكن منه الضن ، نخاس بعهد قطعه على نفسه أمام رسول الله قال فيه : « فوالذى بعثك بالحق إن آتانى الله سبحانه مالا لأعطين كل ذى حق حقه » . ولما ثاب إلى رشده ، بكى ندما وحثا التراب على رأسه ، وفيه يقول تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن . ولنكونن من الصالحين . من فضله بخلوا به وتولو وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه ، وبما كانوا يكذبون . ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب » .

وكان قمينا بالمسلمين أن يستجيبوا فى صدق إلى هذا النداء الإلهى الحكيم . إذ أحسوا من قائدهم الأمين وزعيمهم الملهم ، محمد بن عبد الله ، عملا يسبق القول ، ودعوة إلى البر ، تقفو جودا كالريح المرسلة . يصدر عن قلب رحيم ، أحب الفقراء ، ونهض بهم ، وحباهم بفضل من عطفه ، ولفت الأنظار إلى احترامهم . ورعاية أقدارهم حينما قربهم إليه ، وأدناهم منه ، وبالغ فى صلتهم ، وسوى بينهم ، وبين من اعتقد أنه عريق الأصل . طيب الأرومة .

روى أنه كان عنده أول ما اشتد به المرض سبعة دنانير خاف أن يقبضه الله وما تزال باقية عنده فأمر أهله أن يتصدقوا بها ، ولكن اشتغالهم بتمريضه والقيام على خدمته ، وإطراد المرض فى شدته أنساهم تنفيذ أمره . فلما أفاق يوم لأحد الذى سبق وفاته من إغمائه سألهم ما فعلوا بها ، فأجابته عائشة أنها ما تزال عندها . فطلب إليها أن تحضرها ، ووضعها فى كفه ثم قال : ما ظن محمد بربه لو لقى الله وعنده هذه ، ثم تصدق بها جميعا على فقراء المسلمين .

وكذلك كان المسلمون يقتدون بالرسول فى حياته وبعد مماته . يدل لذلك ما روى أنه كان فى المدينة فى زمن النبى شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصارى ، ولم يكن فى المدينة شاب أغنى منه ، فمر بالنبى ، والنبى يتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يحمى عليها فى نار جهنم . فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

فغشى على الشاب ، فلما أفاق دخل على النبي فقال : بأبي أنت وأمي هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة ، فقال له النبي نعم يامالك ، قال والذى بعثك بالحق ليمسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهما ، فتصدق بما له ، وفعل عمر يدل على تنفيذ المسلمين لهذه السياسة بعد رسول الله ، إذ رأى شيخا ضريراً يسأل على باب فلما علم أنه يهودى ، قال له ما ألجأك إلى ما أرى قال : اسأل الجزية ، والحاجة ، والسن ، فأخذ عمر بيده ، وذهب به إلى منزله فأعطاه ما يكفيه ساعتها ، وأرسل إلى خازن بيت المال يقول : أنظر هذا وضرباءه ، فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شيبته ، ثم نخذله عند الهرم .

هذا هو موقف الاسلام من الفقراء ، السواد الغالب فى الأمم والشعوب ، لم يتركهم نهباً لذوى الأغراض وأرباب الشهوات . بل حفظ لهم حقوقهم الانسانية كاملة .

أما الآن — وقد تبدل الحال غير الحال ، وغدت الأنانية والأثرة شرعة الأقوياء ، وسمة ذوى السلطان — فقد استشرى الفساد ، وشاعت أسباب الفرقة والاختلاف ، ولا أدل على ذلك مما نشاهده من تباعد بين الطبقات ، أفقد الأغنياء ثقة الفقراء لأنهم تخلوا عما يوجبه دينهم من التعاون والتراحم ، وعاشوا فى أبراج عاجية ، يحيون حياة أبطال الأقاصيص ، من ترف وبذخ ، ومجون وسرف ، ينثرون الذهب على موائد الميسر ، وفى ميادين السباق وأماكن اللهو .

أما مواسم البر ، ودواعى الخير ، فليس لهم إليها من سبيل مما جعل الفقراء ينقمون عليهم ، ويتربصون بهم الدوائر ، ويترقبون الفرصة المواتية لأن ينتزعوا منهم حقهم فى الحياة ، ويتطلعون إلى المبادىء الهدامة ، علهم يحصلون فى حماها على حقهم المغتصب ، ونصيبهم المسلوب ، وكرامتهم المهدرة ، وإنسانيتهم الممتهنة ، بعد أن أيأستهم الوعود الخلابة ، والأساليب المعسولة ، وعبارات الكذب والملق .

ولا علاج لهذه الحالة ، إلا إذا أحس الأغنياء ، وأرباب الثراء ، أن فى أموالهم حقا معلوما للسائل والمحروم ، وان عيونا تنبعث منها نظرات متقدة ، كأنها شواظ من نار ، ترنو إلى ما فى أيديهم من أموال ذاخرة ، وما تصل إليهم من أرباح دافقة وترقب فى عناية بالغة مصادرها ، كيف جمعت وإلى أين ذهبت ، وقد تيقظ الوعى القومى ، فأصبحت الشعوب لا ترضى بغير التناسب والتناسق بين الطبقات ، والتعاطف والتعاون ، ليجد الجائع الطعام ، والعارى الكساء ، والمريض الدواء ، والجاهل العرفان ، وإذ ذاك ترفرف على الجميع ألوية الحب والسلام ؟

مذهب الصرفة

ابن حزم

لفضيلة الأستاذ الشيخ على محمد حسن العمارى

مبعوث الأزهر فى السودان

أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى الأندلسى ، أصله من فارس جده الثامن أول من أسلم من أسرته ، وكان مولى ليزيد بن أبى سفيان ، ولذلك كان ابن حزم يميل إلى الأمويين ، ويتشيع لهم .

عاش ابن حزم بين سنتى ٣٨٤ ، ٤٥٦ هـ ، ونشأ فى قرطبة ، فى بيت رياسة ، وقد لابس جزءاً من هـذه الرياسة حقبة من دهره ، ثم انصرف فى وقت مبكر إلى الدراسة والتحصيل ، ودفعته همة عالية ، وذكاء متقد إلى التعمق فى كثير من العلوم ، فكان ثانى اثنين ـ فى الدولة الإسلامية ـ بلغا الذروة فى التأليف ، ثانيهما ابن جرير الطبرى .

ووجد ابن حزم عداء شديداً من أهل الأندلس ، ويرجع ذلك إلى أسباب ، أحدها ما عبر عنه بقوله :

هنالك تدرى أن للعبد غصة وأن فساد العلم آفته القرب

فزامر الحى لا يطرب ، والفاضل ـ فى كل مكان ـ مبغض إلى أهل بلده ، وابن حزم يقول :

تقر لى العراق ومن يليها وأهل الأرض إلا أهل دارى

وثانيها : أن ابن حزم كان معتداً بنفسه إلى أبعد حدود الاعتداد ، فدفعه ذلك إلى مأزقين خطرين ، فقد كان ينال من الأئمة المتقدمين ، لم يتسلم من لسانه أحد ، ويصور ذلك قول ابن العريف : كان لسان ابن حزم وسيف الحجاج توأمين ، كما كان يقول ما يجىء على لسانه دون رفق أو التواء ، لا يعرف التعريض ولا التلطف فى الخطاب ، بل يصك معارضه صك الجندل ـ كما يقول ياقوت ـ

كل ذلك إلى تشيعه لبنى أمية ، وانحرافه عمن عداهم ، بغض فيه رؤساءه ، وكثر أعداءه ، وأساء إلى سمعته .

ولابن حزم تآليف كثيرة ـ كما أسلفنا ـ ولعل أهمها كتابه (الفصل فى الملل والنحل) وهو كتاب لا ينكر فضله إلا جاحد أو مكابر ، وفيه تكلم عن إعجاز القرآن ، وعليه معتمدنا فى هذا البحث .

آراؤه فى القرآن :

القرآن المعجز هو المكتوب المتلو ، وإعجازه باق إلى يوم القيامة ، وكله معجز قليله وكثيره ، والمعجز منه نظمه ، وما فيه من الإخبار بالغيوب ، وليس هذا الأخير ـ وحده ـ معجزاً ـ كما روى عن بعضهم ، وبرهان ذلك قول الله تعالى ، فأتوا بسورة من مثله ، فنص على أنهم لا يأتون بمثل سورة من سوره ، وأكثر سوره ليس فيها إخبار بغيب ، ووجه إعجازه أن الله رفع القوة عن العرب ، وحال بين العباد وبين أن يأتوا بمثله .

ويظهر أن ابن حزم يطرد هذه الحيلولة فى كل الآيات ، فهو يرى أن من أبهر الآيات وأعظمها قول النبى لليهود الذين كانوا معه فى وقته ولعلهم كانوا الوفا أن يتمنوا الموت ان كانوا صادقين فى تكذيبهم نبوته ، وأعلمهم أنهم لا يستطيعون ذلك أصلا فعجزوا عن تمنى الموت ، وحيل بينهم وبين النطق بذلك . وهذه قصة منصوصة فى سورة الجمعه ، وقد كان أسهل الأمور عليهم أن يكذبوا بأن يتمنوا الموت لو استطاعوا ، وهم يسمعونه يقول (فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم) .

ولم يرو عن أحد أنه قبل التحدى ، وعارض القرآن معارضة صحيحة ، ولم يتكلف أحد معارضته إلا افتضح وسقط . قال ابن خرم وقد تعاطى بعضهم ذلك يوما فى كلام جرى بينى وبينه فقلت له : اتق الله على نفسك ، فان الله قد منحك من البيان والبلاغة نعمة سبقت بها ، ووالله لئن تعرضت لهذا الباب باشارة ليسلبنك الله هذه النعمة ، وليجعلنك فضيحة وشهرة ومسخرة وضحكة كما فعل بمن رام هذا من قبلك ، فقال لى : صدقت والله ، واظهر الندم .

رده على مذهب البيانيين :

يقول أكثر أهل العربيـة ـ ومنهم الجاحظ ـ بالإعجاز البيانى فى القرآن ،

ولكن ابن حزم يعتبر هذا رأى طائفة ، ويعتبر القول بالصرفة رأى طوائف ، وقد عنى أولا بالرد على القائلين بأن القرآن فى أعلى درج البلاغة فقال : وقد ظن قوم أن عجز العرب ومن تلاهم من سائر البلغاء عن معارضة القرآن إنما هو لكون القرآن فى أعلى طبقات البلاغة ، وهذا خطأ شديد ، ولو كان كذلك ـ وقد أبى الله عز وجل أن يكون ـ لما كان حينئذ معجزة ، لأن هذه صفة كل باسق فى طبقته ، والشيء الذى هو كذلك ، وان كان سبق فى وقت ما فلا يؤمن أن يأتى فى غد ما يقاربه بل ما يفوقه .

وأيضاً فلو كان إعجاز القرآن لأنه فى أعلى درجة البلاغة ، لكان بمنزلة كلام الحسن وسهل بن هرون ، والجاحظ ، وشعر امرىء القيس ، ومعاذ الله من هذا ، لأن كل ما يسبق فى طبقته لم يؤمن أن يأتى من يماثله ضرورة ، فلا بد لهم من هذه الخطة أو من المصير إلى قولنا إن الله تعالى منع من معارضته فقط .

الاعتراض على الصرفة والإجابة عنه :

يسوق ابن حزم اعتراض الفريق الآخر القائل بأن الأمر لو كان كما يقول أصحاب الصرفة لوجب أن يكون القرآن أغث ما يمكن أن يكون من الكلام فكانت تكون الحجة أبلغ ، ثم يرد قائلا : فهذا هو الكلام الغث حقاً لوجوه :

(أحدها) أنه قول بلا برهان ؛ لأنه يعكس عليه قوله بنفسه ، فيقال له : بل لو كان إعجازه لكونه فى أعلى درج البلاغة لكان لا حجة فيه ، لأن هذا يكون فى كل ما كان فى أعلى طبقة ، وأما آيات الأنبياء فخارجة عن المعهود .

(ثانيها) أنه لا يسأل الله تعالى عما يفعل ، ولا يقال له : لم عجزت بهذا النظم دون غيره ، ولم أرسلت هذا الرسول دون غيره ولم قلبت عصا موسى حية دون أن تقلبها أسداً ؟ وكل هذا حمق ممن جاء به لم يوجبه قط عقل ، وحسب الآية أن تكون خارجة عن المعهود فقط .

(ثالثها) أنهم حين طردوا سؤالهم ربهم بهذا السؤال الفاسد لزمهم أن يقولوا هلا كان هذا الإعجاز فى كلام بجميع اللغات ، فيستوى فى معرفة إعجازه العرب والعجم ؛ لأن العجم لا يعرفون إعجاز القرآن إلا بأخبار العرب فقط .

القرآن وكلام البشر :

يرى ابن حزم أن القرآن ليس من نوع كلام المخلوقين ، لا من أعلاه ، ولا من أدناه ، ولا من أوسطه ، وبرهان ذلك :

١ — أن إنساناً لو أدخل فى رسالة له أو خطبة ، أو تأليف أو موعظة حروف الهجاء المقطعة لكان خارجاً عن البلاغة المعهودة جملة بلا شك ، كما أن الأقسام التى فى أوائل السور لا عهد بها ، وليس هذا من نوع بلاغة الناس المعهودة .

٢ — نجد فى القرآن إدخال معنى بين معنيين ، ليس بينهما كقوله تعالى : « تلك الجنة التى نورث من عبادنا من كان تقيا ، وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، رب السموات والأرض وما بينهما فاعبده واصطبر لعبادته هل تعلم له سميا ، ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا » . وليس هذا من بلاغة الناس فى ورد ولا صدر ، ومثل هذا فى القرآن كثير .

٣ — ما روى عن أنيس أخى أبى ذر الغفارى رضى الله عنهما حين سمع القرآن فقال : لقد وضعت هذا الكلام على ألسنة البلغاء وألسنة الشعراء فلم أجده يوافق ذلك ، أو كلاما هذا معناه .

ويتعرض ابن حزم ـ هنا ـ لأمور تتصل بالاعجاز ويطيل فيها ، وغرضه أن تكون بعض حججه على رأيه ، فهو يتعرض للمقدار المعجز من القرآن ، ويناقش قول الأشعرية مناقشة عنيفة ، ويخلص منها إلى أن القرآن لا يمكن أن يكون معجزاً بأنه فى أعلى درج البلاغة ، فالأشعرية يقولون : إن المعجز إنما هو مقدار أقل سورة منه ، وهو إنا أعطيناك الكوثر فصاعدا ، فيرد ابن حزم بقول الله تعالى : على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولا يختلف اثنان فى أن كل شىء من القرآن قرآن ، فكل شىء من القرآن معجز ، وهذا هو الحق الذى عليه سائر أهل الإسلام ، ويقلب المسألة على جميع وجوهها ثم يخلص إلى أنه ما دام القليل والكثير معجزاً فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بأن صرف الله العرب عن المعارضة ، ولأن بعض الآيات وردت على لسان المخلوقين ، ولا يقال حينئذ إنها معجزة ، فلما صارت

من أدب الإسلام

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود محمد المدنى

قدمت أسماء بنت زيد الأنصارية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت يا رسول الله « إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فآمنا بك واتبعناك ، ونحن معاشر النساء مقصورات مخدورات ، قواعد بيوت ، ومواضع شهوات الرجال ، وحاملات أولادهم ، وأن الرجال فضلوا علينا بالجماعات وشهود الجنائز ، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم ، وربينا لهم أولادهم ، أفنشاركهم فى الأجر يا رسول الله فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال « هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالا عن دينها من هـذه . قالوا بلى يا رسول الله ـ فقال انصرفى يا أسماء واعلمى بأنك من النساء ، إن حسن تبعل إحداكن لزوجها وطلبها لمرضاته واتباعها لموافقته ، يعدل كل ما ذكرت للرجال » .

من كلام الله أصبحت معجزة ، وأن كل كلمة قائمة المعنى يعلم إذا تليت أنها من القرآن فإنها معجزة لا يقدر أحد على المجىء بمثلها أبداً ، وأنها متى ذكرت فى خبر على أنها ليست قرآناً فهى غير معجزة .

حرصت فى هذا البحث على أن ألخص آراء بن حزم بكل دقة ، ولم أتعرض للرد عليها ، بل تركت ذلك إلى أوانه حين أفصل ردود السلف على القائلين بهذا المذهب ، على أنى أطلت النظر فى كلام ابن حزم لأرى هل تعرض لشبهة قديمة يذكرها العلماء فى الرد على مذهب الصرفة ، وهى أنه لو كان الأمر كذلك لكان تعجب العرب ـ حين عجزوا ـ من عجزهم لا من بلاغة القرآن ، فلم أهتد إلى شىء فى كتابه يصرح أو يلمح إلى هذه الشبهة .

وكما نلاحظ أن ابن حزم وإن جعل القرآن نوعا على حدة ، وليس من نوع كلام المخلوقين ـ إلا أنه يفهم من ضربه المثل بالماشى فى الطريق ـ أن القرآن كان مقدوراً للعرب ، وأنهم كانوا يستطيعون أن يجيئوا بمثله لولا أن الله حال بينهم وبين المعارضة ، وبهذا ـ عنده ـ يكون الاعجاز .

هذه القصة ترينا الصورة الحقيقية التى يهدف إليها الإسلام فى تربية المرأة وتقويم خلقها ، وتهذيب نفسها ، ومدى صلاحيتها لبناء مجدها ، وتربية أمة قوية فى أخلاقها وفى تكوينها والاشراف على أولادها ، لتخرج للمجتمع رجالا صالحين لأن يبنوا مملكة ، ويعلوا شأن أمتهم .

جيلا سداه الخلق ، ولحمته النظام ، واحترام حقوق الغير ، والعمل لخير المجموع .

هذا هو الدستور الصحيح الذى إن تمسكت به المرأة وسارت على هديه وانتظمت فى سلكه ، وعملت بقواعده ، رقت وسمت ، ونالت المكانة السامية ، والمنزلة الرفيعة وحق لأمتها أن تفخر بين الأمم بما تقدم هـذه الأم لأبنائها من مثل عليا ، وما تبعثه فى نفوس أبنائها من عزة وكرامة ، وسمو واعتزاز ، فالمرأة التى تهز المهد بيمينها هى الحقيقة بأن تحرك العروش بشمالها .

أما تلك التى تنسى واجباتها ، وتهمل مملكتها ، وتخرج إلى الطرقات لتبعث فى الناس الفتنة ، وتثير فيهم مكامن الشهوة بما تبديه من زينة وما تظهره من خلاعة ومجون ، فهى حرية بكل احتقار ، خليقة بكل ما يصيبها من ثلم شرفها والاعتداء على كرامتها ، ووصفها بأبذأ أنواع النعوت ، لا يقام لها شأن ، ولا يلتفت إليها إلا كما يلتفت الحيوان إلى أليفته حينما تلح عليه الشهوة أو تثيره عوامل الاغراء ، لا يقام لرأيها وزن ، ولا يعبأ بمشورتها .

وقديما قسم العلماء والفلاسفة المرأة إلى ثلاث صنوف :

فالصنف الأول منهن هى التى تعيش فى حدود أنوثتها الكاملة ، ومقوماتها السامية ، وردة ناضجة تشم ، لا شوكة تؤذى وتجرح ، وقلبا ينبض بالحيوية لا عقلا يتفلسف ، وشعرا يوحى ويلهم .

والصنف الثانى ـ هى التى تلتزم حدود الأنونة فى سماحتها وعفتها ورقتها لها قوة العابدات لا عقل المربيات تعيش للرجل أمة تخضع ومتاعا يستغل .

والصنف الثالث ـ هى التى تعيش الآن فى عصرنا الحاضر تتمرد على أنوثتها وتخرج عن حدود طبعها ، وتثور على حقها ، وتطالب بما للرجال من حقوق قبل إدراكها لمطالب المجتمع قبلها ، تتعلم لتجادل وتطلب التحرر لتتحلل من قيود

الفضيلة وتسعى فى الأرض لتبث الفتنة أينما حلت وحيثما ارتحلت وما درت أن الثعالب تترقبها وأن الذئاب تنتظرها وأنها تذبح الفضيلة فى ثورتها .

فعليها إذا أرادت أن تكون المرأة الكاملة فى المدينة الفاضلة أن ترحم أمتها وتعنى بأسرتها وتثوب إلى رشدها وتأخذ لها العبرة من الماضى والحاضر لتبنى المستقبل على أسس الدين الصحيحة وأخلاقه الرشيدة ففيها كل السعادة لها وللأجيال المقبلة ، وكفاها هـذا الدستور السليم الذى أرسله رب العالمين إلى خير الهادين والمرشدين فى قوله « وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو اخوانهن أو بنى اخوانهن أو بنى أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولى الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون » .

هذا هو النظام الكونى الصحيح الذى وصفه الله تعالى للمجتمع للسير على هديه وينتظم تحت لوائه وهو المجتمع المثالى الذى ارتضاه رب العزة والجلال لمخلوقاته .

أما تلك النظم المائعة التى نضعها نحن لأنفسنا والتى لا تختلف فى شىء عن نظم الغاب فهو عبث صبيانى لا يبنى لأمة مجداً ولا يرفع لها شأنا ، ولا يعلى لها قدراً بل على العكس من ذلك يهدم بنيانها ويقوض دعائمها وفى النهاية تتردى فى هوة سحيقة وتعود إلى همجيتها الأولى .

فالى القادة والزعماء أهيب بهم ألا يجاملوا أحداً على حساب دينهم وليقولوا بصوت الحق والعدل والانصاف للمرأة قولة الطهر والبراءة « وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى » .

عند ذلك تستقيم الأمور وتصلح الأحوال ويعرف كل واجبه فيؤديه على خير الوجوه ويعود للأمة الإسلامية مجدها وعزها ومكانتها وسؤددها وتجتث عوامل الشر والفساد ونقضى على هذه الفوضى التى نئن منها جميعا ويرضى عنا الله والناس أجمعين .

والله ولى الهداية والتوفيق ؟

بسم الله الرحمن الرحيم

الدروس الدينية

فى قصر رأس التين

ألقى صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن وكيل الجامع الأزهر حديثين دينيين من أحاديث شهر رمضان المعظم بعد صلاة العشاء، الأول يوم الجمعة ٤ رمضان، والثانى يوم الجمعة ١٨ رمضان، فى قصر رأس التين العامر.

وقد استمع الى حديثى فضيلته كبار رجال القصر الملكى العامر وكثيرون من العلماء الفضلاء وأهل الرأى.

وقد ختم فضيلته الحديث الأول بهذا الدعاء:

« نسألك اللهم وأنت العلى القدير أن تحفظ حضرة صاحب الجلالة الملك فاروقا الأول أعزه الله. وأن تكتب له السلامة لخير الدين والأمة والوطن.

« اللهم أنك تعلم أنه قد بذل من جاهه وقوة نفسه وعزمه ولم يدخر فى ذلك وسعا فى سبيل مجد مصر ورفعة شأنها وفى سبيل مجد العروبة والإسلام.

« اللهم أنك تعلم أنه انفق الكثير من ماله فى سبيل الخير العام وواسى الفقراء واحسن الى الضعفاء وذوى الحاجات بماله وقوله وفعله وعمل لمصلحتهم ولخيرهم ورفاهتهم وكل ذلك فى سبيلك وابتغاء مرضاتك.

« اللهم امنحه الرضا واملأ قلبه حكمة ورحمة ونورا من نورك الأسنى واجعل فيه ومنه الخير لعز الإسلام ومجد الإسلام إنك على كل شىء قدير.

« كما نسألك اللهم ان توفق حكومة جلالته إلى ما فيه خير الأمة وصلاحها وفلاحها وأن تمدها فى هذا السبيل بعونك وقوتك وأن تمنحها فى أعمالها الرشد والسداد والسلام عليكم ورحمة الله ».

وتنشر فيما يلى نص هذين الحديثين:

الدرس الأول :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم (٢٦١) الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم . ولا خوف عليهم . ولاهم يحزنون (٢٦٢) قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم (٢٦٣) يأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ، ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلداً ، لا يقدرون على شىء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين (٢٦٤) » .

فى الآيات السابقة ذكر الله مثلين فى حياة الأمم وموتها : مثل الأمة التى فقدت حياتها كأمة ، لتهاونها فى شئونها ، وخور عزيمة أبنائها أمام عدوها مع كثرتهم . ومثل الأمة التى كادت تستكين لعدوها وتخضع لسلطانه ، وتفقد حياتها كأمة ، لولا ما كان من فريق من أبنائها ذوى القوة والجلد والصبر ، قادوها فى معترك الحياة إلى الدفاع عن كيانها ، والاستهانة بالشدائد فى سبيل حياتها ، حتى غلبوا عدوهم وظفروا بأمنهم وسلامتهم ، وكتب الله لهم الملك والحياة .

وفى معرض ذكر هذين المثلين أمر الله المؤمنين بالجهاد فى سبيل الله لإعلاء كلمة الله . وذكرهم بما كان من أمر هاتين الأمتين ليعتبروا ، ودعاهم إلى بذل المال فى هذا السبيل ، وسمى ما دعاهم إليه قرضا حسنا لله ، مع أنه غنى عن العالمين ، فقال : « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » . وأتى بهذا الأسلوب الرائع القوى ليهز قلوب المؤمنين هزاً ، ويملأ نفوسهم روعة وجلالا ويملك عليهم شعورهم ووجدانهم ، حتى أنه ليسهل على المؤمن عند سماعه هذا أن ينزل عن كل ماله حبا فى الله وابتغاء مرضاته . فكيف وقد وعده بالجزاء عليه أضعافا كثيرة ، ووعده الحق .

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه لما نزلت هذه الآية قال أبو الدحداح: يا رسول الله: أوَ أن الله يريد منا القرض؟ قال: نعم يا أبا الدحداح. قال: يدكُ قبلُ. فناوله يده. قال: فإنى قد أقرضت ربى حائطى: حائطا فيه ستمائة نخلة. ثم جاء يمشى حتى أتى الحائط، وأم الدحداح فيه فى عيالها، فناداها: ياأم الدحداح. قالت: لبيك. قال: اخرجى قد أقرضت ربى حائطا فيه ستمائة نخلة. وقال زيد ابن أسلم: إن هذا الحائط كان أحسن الأرضين اللتين يملكهما أبو الدحداح.

هذا ما جاء فى الآيات السابقة. وبعد أن حذر الله المؤمنين من التوانى فى الإنفاق فى سبيل الله بقوله: « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ » ذكر هنا تفصيل ما سبق إجماله، وبين فى الآيات ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن فيما ينفقه فى سبيل الله حتى يحظى برضاء الله، وينالَ عليه جزاءه فى الدنيا والآخرة، فقال « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سُنبلة مائة حبة » أى أن ما ينفقه هؤلاء فى سبيل الخير العام للمؤمنين لإعلاء كلمة الله ورفعة شأن الأمة الإسلامية ينميه الله تعالى ويضاعفه حتى يكون خيره كأبرك حب فى أخصب أرض نما حتى جاءت غلته مضاعَفة إلى سبعمائة ضعف، وأنهم بعملهم هذا سيجزون الجزاء الأوفى فى الدنيا والآخرة، بما يكون لهم من الذكر الحسن بين مواطنيهم، وما يكون لهم بين أفراد الأمة من التمتع بحمايتها ورعايتها، بما لها من المكانة ورفعة الشأن بين الأمم، وما ينالون من الثواب العظيم الذى يضاعفه الله تعالى لهم إلى سبعمائة ضعف أو يزيد. « والله يضاعف لمن يشاء » فيزيد من الأجر إلى ما لا يقدر. « والله واسع عليم » لا ينحصر فضله، ولا يحد عطاؤه، وهو أعلم بمن يستحق المزيد من فضله من أهل الإخلاص وعمل الخير الدائم.

وإنما قلنا إن الإنفاق فى سبيل الله هو الإنفاق فى سبيل الخير العام للمؤمنين، لأن سبيل الله هو دينه وطريقه الذى يوصل إلى الخير العام. وقد جهز عثمان بن عفان جيش العسرة فى غزوة تبوك بألف بعير وألف دينار. وتصدق عبد الرحمن ابن عوف بنصف ماله أربعةِ آلافِ دينار. ونزل الكتاب بأن ما أنفقاه هو فى سبيل الله يضاعف الله عليه الأجر. وأنفق أبو بكر ماله فى مصالح المؤمنين لإعلاء

كلمة الله ، وكان ما أنفق فى سبيل الله . وهكذا كان ذوو اليسار من المؤمنين ينفقون أموالهم فى خير الأمة وهم يعلمون أنهم إنما يفعلون ذلك فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

وعلى هذا فالإنفاق على نشر العلم ، وإنشاء المستشفيات والمصحات والملاجىء ، وتسهيل سبل العيش على الفقراء ، وإعداد الجيوش ، وكل ما فيه خير للمسلمين ، هو إنفاق فى سبيل الله ، يضاعف الله عليه الأجر ، ويجزى عليه خير الجزاء .

والحكومات وإن كانت تقوم بهذا ولكن موازينها عادة لا تكفى ، فيكون من حق الله على الموسرين أن يتموا هذا النقص ، ليسعدوا وتسعد أمتهم ، ويكون لهم من الله الجزاء العظيم .

لما عظم الله أمر الإنفاق فى سبيل الله ، وكانت هناك أمور تعرض للنفوس فتكدر صنائع المعروف ، نبه الله المؤمنين إلى أنه ينبغى أن تكون نفقاتهم فى سبيل الخير بعيدة عن هذه المكدرات ، خالصة لوجه الله تعالى ، حتى يكون لهم عند الله عظيم الأجر ونعم العطاء ، فقال تعالى « الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

والمن : هو ذكر ما ينغّص المعروف ، بأن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ، يظهر به تفضله عليه . والأذى : هو أن يتطاول المحسن على من أحسن إليه بسبب هذا الإحسان .

والمعنى أن الذين يبذلون أموالهم فى سبيل الخير العام لأمتهم ، أو لذوى الحاجة من أبنائها ولا يلحقون بهذا العمل ما يكدره من المن على من أحسنوا إليهم بإظهار تفضلهم عليهم ، أو بإيذائهم بالتطاول عليهم بسبب ما بذلوه لهم من الإحسان - سيكون لهم عند الله أجر عظيم ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتفزعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق فى سبيل الله .

وقول الله تعالى « قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى » تأكيد لما تضمنته الآية السابقة من النهى عن المن والأذى .

أى كلام جميل تقبله القلوب ولا تنكره يرد به السائل من غير عطاء ، وإغضاء عما يحصل منه من الإلحاف فى المسألة ، أو ستر لحاله بعدم التشهير به - خير له

من صدقة يتبعها سوء التمول أو سوء المقابلة ، أو غيرهما من كل ما فيه إساءة أو إيذاء له . « والله غنى حليم » أى غنى عن هذه الصدقات التى تجلب الأذى للفقراء ، لأنه طيب لا يقبل إلا الطيبات . وحليم لا يعجل العقوبة على من يمن ويؤذى بصدقته .

وهذه الآية تقرر مبدأ عاما فى الشريعة ، وهو أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح ، وأن الخير لا يكون طريقا إلى الشر . وفيها إعلام من الله تعالى لنا بأنه يجب أن نطهر أعمالنا فى الخير من الشوائب التى تنغص على الفقراء ، بل من حقهم علينا أن نترفق بهم ، وأن الصدقة عليهم إذا لم تكن إلا مع المن والأذى فلنتركها ، ولا أقل من أن نجبر قلوبهم بكلمة المعروف .

وقال الأستاذ الإمام : القول المعروف يتوجه تارة إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا هاجم البلد عدو ، وأرادوا جمع المال للاستعانة على دفعه ، فمن لم يكن له مال ، يمكنه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث على العمل ، وينشط العامل ، ويبعث عزيمة الباذل ، وهذا خير من الذى يساعد الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانه ، وبيان التقصير فيه ، أو تشكيك الناس فى فائدته . فإن كونك مع الأمة بقلبك ولسانك خير من أن ترضخ ببعض المال مع قول السوء وفعل الأذى .

بعد أن بين الله فى الآيتين السابقتين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى صدقاتهم على الفقراء أو فى سبيل المصلحة العامة للمؤمنين ، وهو أن تصدر خالية من المن والأذى ، أقبل عليهم ونهاهم عن ذلك نهياً صريحاً فقال : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى » أى أن من يتصدق ويتبع صدقته بالمن والأذى فإن صدقته تقع على وجه لا ثواب فيه ، فيحبطها الله ويجعلها كأنها لم تكن .

أو المعنى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى لأن المن والأذى يهدم الغرض المقصود من الصدقة ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين ، وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، أو تخفيف حاجات الأمة ودفع الضرر عنها إذا كانت

الصدقة قد أنفقت فى مصلحة عامة . ولا مراء فى أن كل عمل لا يؤدى إلى الفائدة المقصودة منه يكون كأنه لم يكن . وهنا قد أتبعت الصدقة بما يحبطها ويمنع من الغرض المقصود منها ، بل هو ضدها ونقيضها .

وقد شبه الله أصحاب المن والأذى فى الآية بالمرائى وهو الذى ينفق ماله حباً فى الظهور أمام الناس بمظهر فعل الخير ليمدحوه ويرضوا عنه ، وقلبه منصرف عن الله ، ومتعلق بالناس الذين يرائيهم ، فقال « كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر » .

والإنسان وإن كان مفطوراً على حب المدح وكراهة الذم ، وحب الجاه والسلطان ، ولكن الجاه والمدح والثناء لا يكون محموداً عند الله تعالى إلا إذا كان من طريق الكمال النفسى ، والإخلاص لله فى العمل ، لا من طريق مراءاة الناس مع عدم الشعور بعظمة الله وسلطانه . فالذى ينفق ماله ليكسب حب الناس ومودتهم وتعلقهم به ، وليكون له بينهم جاه وسلطان ، ليتوسل بذلك إلى التمكن من قلوبهم ، والسيطرة على نفوسهم ، ليصلح الفاسد ، ويقوم المعوج ، ويهديهم إلى طريق الخير - هو لا شك من القادة الأخيار ، الذين يستحقون أعظم الحمد والثناء فى الدنيا ، وأحسن الجزاء عند الله فى الآخرة .

وأصحاب المن والأذى هم كالمرائى فى أحط صفاته ، وهو أنه مراء لا يؤمن بالله ولا يؤمن باليوم الآخر ؛ فعمله مجرد من صفات الخير ، لا إيمان بالله ، ولا إيمان باليوم الآخر ، ولا هو يعمل العمل لذات الخير ، كالعمل الذى يعمله غير المؤمنين لذات الخير غير مرائين فيه ، وإنما هو يعمل للهوى النفسى ، وشهوة المدح والجاه ، وما مثله إلا كمثل الصفوان ، وهو الحجر الأملس ، إذا كان عليه تراب ، يظنه الرائى صالحاً للإنبات ، ولكن لا يلبث هذا التراب حتى ينزل عليه وابل ، أى مطر غزير ، يمحوه فيعود ذلك الحجر أملس لا يصلح لتقبل البذور ، ولا الإنبات . فهو كما قال الله تعالى « فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا » .

والمانون المؤذون والمراءون هم سواء فى أنهم كالحجر الأملس عليه تراب هو عملهم الذى يرى كأنه نافع فينزل عليه الماء ، وهو مثل المن والأذى والمراءاة فيمحو هذا التراب ويغسله غسلا « لا يقدرون على شيء مما كسبوا » . أى لا ينتفعون بشيء مما عملوا يوم القيامة ، لأنه لا ثواب إلا مع الإخلاص ، ولا إخلاص مع المن والأذى والرياء ، بل هم فى الدنيا يكونون موضع سخط الناس وغضبهم عندما ينكشف حالهم ، وتظهر سوءاتهم . « والله لا يهدى القوم الكافرين » الذين خلت قلوبهم من نور الهداية ، فجحدوا نعمة الله عليهم ، ولم يقابلوها بالشكران بأن ينفقوا مما أنعم عليهم ، كما أراد الله ، من غير من ولا أذى ، ولا مراءاة ، ليكونوا فى عداد العاملين المخلصين .

الدرس الثانى :

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

« وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ ، وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ ، فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ ، فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦) » .

بين الله فى الآيات السابقة ما دعا اليه المؤمنين من الإنفاق فى سبيل الله ، وأنهم إذا أنفقوا فى سبيل الله فإن الله تعالى يضاعف لهم الأجر أضعافا مضاعفة إلى سبعمائة ضعف ، ونهاهم عن أن يُتبعوا صدقاتهم بالمن على من أنفقوا عليهم ، أو إيذائهم ، بأن يسيئوا اليهم بأى نوع من أنواع الإساءة : وبين لهم أن المن والأذى يبطل الصدقة ، كما تبطلها المراءاة ، وأنهم هم والمرائى سواء ، فى أنهم كالحجر الأملس الذى عليه تراب ، يظنه الناس أنه تراب فيه نفع وصالح للإنبات ، ولكن هذا التراب لا يلبث حتى ينزل عليه مطر غزير ، فيذهبَ به ويغسل الحجر فيعود أملسَ ، لا يصلح لتقبل البذر والإنبات ؛ وأن هذا التراب هو مثل ما يقومون به من الصدقات ، وذلك المطر هو مثل المن والأذى والرياء ؛ يذهب بما عملوا ، ويجعله كأن لم يكن .

ثم أعقب الله هذا المثل بمثل المنفقين المخلصين الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله ، للمقابلة ، وظهور الفرق بين هؤلاء وأولئك ، فقال : « ومثل الذين

ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة ... » إلى آخر الآية .

والمعنى أن أهل البر والإحسان ، الذين ينفقون أموالهم طلبا لمرضاة الله ، وهم متثبتون من أنفسهم أن عملهم خالص لله ، هؤلاء مثلهم كمثل جنة فى أرض مستوية ، جيدة التربة ، عظيمة الخصب ، إن أصابها مطر غزير آتت ثمرتها مثلى ما كان يعهد منها ، وإن أصابها طل ، وهو الندى أو المطر الخفيف ، فإنه يكفيها فى أن تثمر وتأتى بالخير ، لحسن موقعها ، وجودة تربتها ، وقوة إنباتها .

والوجه فى هذا التمثيل أن هؤلاء المنفقين الصادقين هم كالجنة النامية ، الجيدة الخصب ، فكما أنها إن أصابها الوابل ضاعفت الثمرة ، وإن خف المطر آتت أُكُلها على كل حال ، كذلك هؤلاء المخلصون فى صدقاتهم ، إن وسّع الله عليهم أغدقوا الخير ووسّعوا ، وإن أصابهم خير قليل أنفقوا بما يتسع إليه حالهم ؛ وهم فى صفاء نفوسهم وإخلاص قلوبهم لا ينضب معينهم ، ولا يخيب قاصدهم ، كهذه الجنة أُكُلها دائم ، ولا يخشى عليها التلف .

وقد ختم الله الآية بقوله « والله بما تعملون بصير » ليذكرنا بأنه يعلم كل أمورنا لا يخفى عليه شىء من أعمالنا ، وسيجازى كل عامل بما عمل . وفى هذا تحذير أيضاً لأهل الرياء الذين يغشّون الناس بظواهرهم ، وتحذير لأهل المن والأذى بأن الله بصير بعملهم الذى لا خير فيه .

وقوله تعالى « أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب ... إلى آخر الآية » مثل آخر ضربه الله للمرائين وأهل المن والأذى . والاستفهام فى الآية للإنكار ، والإعصار هو الريح العاصفة التى تستدير فوق الأرض ثم تنعكس إلى السماء حاملة غباراً ، فتكون كهيئة العمود ، وهى المسماة بالزوبعة . والمراد بالنار : السموم الشديد الحر الذى يحرق النبات والشجر .

والمعنى : أيود الإنسان أن تكون له هذه الجنة ، وهى جنة فى غاية الحسن شجرها الكرم والنخل ، اللذان هما أجمل الشجر وأنفعه ، وفيها أنهار تجرى

من تحتها تزيدها حسناً ، وله فيها من كل الثمرات ، وقد لحقته الشيخوخة وطعن فى السن ، وذريته صغار لا يقدرون على العمل ، ثم لم يلبث حتى أصابها إعصار فيه سموم محرقة أتت عليها فأحرقتها ، فصار فى محنة ملأت نفسه غماً وهماً وحسرة بما ضاع من الثمرة التى لم يكن له ولذريته معاش سواها ، وأصبح فى أشد الحاجة إلى النفقة .

والاستفهام الإنكارى فى الآية يعطى معنى النفى ، أى لا يوجد عاقل يود أن يكون صاحب هذه الجنة ، ويصيبه ما أصاب صاحبها من التجرد من منافعها ، فى وقت هو أشد ما يكون حاجة إليها .

والمقصود من هذا المثل بيان حال المرائين وأصحاب المن والأذى ، الذين قرنوا صدقاتهم بما يبطلها ويذهب بثوابها ، وذلك أنهم يجيئون فى الآخرة وهم فى أشد الحاجة إلى ثواب ما عملوا فلا يجدونه ، وفى غاية العجز عن اكتساب ما ينفعهم ، فيصيبهم من الغم والحسرة والحيرة ما لا يعلمه إلى الله . فمثلهم مثل ذلك الشيخ الكبير الذى احترقت جنته فى حال حاجته إليها ، وضرورته إلى ثمرها ، وضعفه عن عمارتها ، وفى حال صغر أولاده وعجزهم عن إحيائها والقيام عليها .

وبعد أن بين الله للمؤمنين ما ينبغى أن تكون عليه صدقاتهم ، وذلك بأن تكون خالصة لله لا يشوبها منٌّ ولا أذى ولا رياء ، وضرب لهم الأمثال ليعتبروا ، أعقب هذا بقوله « لعلكم تتفكرون » أى أن الله تعالى قد بين لكم حقائق الأمور وما فيها من خير وشر بالأدلة الواضحة البينة ، وضرب لكم الأمثال لتتفكروا فى عاقبة أولئك الذين حادوا عن الطريق السوى ، فتضعوا نفقاتكم فى مواضعها التى يرضاها الله .

هـــذا ما ينبغى أن يكون عليه المؤمنون من الصفات وقت البذل ، وهى الإخلاص لله فى أداء الصدقة ، وأن يتثبتوا من أنفسهم أن عملهم خالص لله

أما المال المنفق فقد وصفه الله فى قوله : « يأيها الذين آمنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من الارض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه ، واعلموا أن الله غنى حميد ، (٢٦٧) » . والطيب : هو الجيد الذى تستطيبه النفس . والخبيث : هو الردىء الذى تكرهه .

وهذا التفسير هو الذى يتفق مع ما نقل عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والجمهور من أئمة التفسير ، كما فى تفسير الطبرى والقرطبى . أما ما نقل عن ابن زيد بن أسلم من أن المراد بالطيب الحلال ، وبالخبيث الحرام ، فلا يظهر وجهه ، لأنه لا يتفق مع نظم الآية فى قوله « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ولا مع ما ورد من الآيات الأخرى ، مثل قوله تعالى « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » ، وقوله : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » ، لأن المعنى حينئذ : ويحل لهم الحلال ، ويحرم عليهم الحرام ، وهو من تحصيل الحاصل ، ولا يتفق مع ما ذكره المفسرون فى سبب نزول الآية ، وهو أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من ردىء التمر .

فقد روى أن بعضهم كان يعزل الردىء من التمر ، حتى إذا جاء صاحب الصدقة أعطاه له فيما عليه من الصدقة ، فنزلت الآية . ومع هذا فالخطاب للمؤمنين ، والأصل فى أموال المؤمنين أن تكون حلالا ، وهم إنما خوطبوا بالإنفاق مما فى أيديهم .

وقد بين الله فى الآية صفة المال المبذول فى الصدقه ، وهو أن يكون من طيب ما نكسب بعملنا ، ككسب العمال والتجار والصناع ونحوهم ، ومن طيب ما تخرجه الأرض لنا من الزروع والثمار والمعادن والركاز وغير ذلك مما تحويه الأرض .

وقد نهانا الله تعالى فى الآية عن أن نعمد الى الردىء من أموالنا فنبذله فى الصدقة .

أما المال المتوسط بين الجودة والرداءة ، فالآية لا تمنع من بذله ، ولكن بذل الجيد أفضل ، لأن الصدقة قربة الى الله ، وخير ما يتقرب به الى الله أجود الأموال وأفضلها ، هذا إذا كان بعض المال جيدا وبعضه رديئا فقصد الى الردىء فأخرجه فى الصدقة وأبقى الجيد لنفسه ، أما إذا كان كل ماله دون الجيد أو كان الحاضر منه كذلك فتصدق منه كان عمله محمودا عند الله تعالى لأنه أنفق مما أعطاه الله من فضله ولم يبخل .

وفى قوله تعالى : « ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه » ما يشعر بالتقريع والتوبيخ لمن يتصدقون من رديء أموالهم . أى كيف تعمدون الى الرديء من أموالكم تتصدقون به وأنتم لا ترضون مثله لأنفسكم فى معاملاتكم إلا إذا أغضيتم النظر عما فيه من العيب تساهلا منكم !

ثم قال تعالى : « واعلموا أن الله غنى حميد » أى دعوا هذا المال الخبيث الذى لا خير فيه فالله غنى عن صدقاتكم وعن غيرها ، وإنما دعاكم الى بذل الصدقة من طيب أموالكم ليغنى به عائلكم ، ويقوىّ به ضعيفكم ، ويجزل لكم به فى الآخرة مثوبتكم ؛ فهى لخيركم ومصلحتكم ، لا من أجل حاجته إليكم . وهو المحمود الواجب شكره على ما هداكم إليه من الخير ، وعلى ما تفضل وأنعم به عليكم .

ولما رغّب الله المؤمنين فى أن تكون صدقاتهم على الفقراء وفى سبيل الخير العام من خير ما يملكون ، ونهاهم عن التصدق بالخبيث ، لفتهم الى ما يعرض للنفوس من الوساوس التى تُخَيِّل لها أن الانفاق يفضى الى ضياع المال وسوء الحال ، وأن الخير فى إمساكه ليكون عدة المستقبل عند الحاجة إليه ، فقال : « الشيطان يعدكم الفقر ، ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا ، والله واسع عليم (٢٦٨) » .

والمعنى أن الشيطان يعدكم الفقر ، أى يخوفكم منه ويخيل إليكم أن الإنفاق فى سبيل الخير يذهب بالمال فلا تجدونه وقت حاجتكم إليه ، ومع هذا هو يأمركم بالفحشاء ، وهى المعاصى ، ويغريكم بالإنفاق فيها . أو المعنى أنه يخوفكم من الفقر ويأمركم بالفحشاء أى البخل ، أى ويغريكم بالبخل إغراء الآمر المأمور . والفاحش عند العرب البخيل ، كما فى قول طرفة :

أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد

ويقابل وسوسة الشيطان بالخوف من الفقر والإغراء بالبخل ، وعدالله لنا بأن الإنفاق فى سبيل الله ومواساة الفقراء ، كل بحسب مقدرته وسعة حاله مع الابتعاد عما يذهب بثمرة الصدقة من المن والأذى والرياء ، سيكون منه الخير العام لنا فى الدنيا والآخرة . ففى الآخرة غفران الذنوب وتكفير الخطايا ،

وفى الدنيا ما يخلفه الله علينا من فضله ، وهو واسع الفضل ، يحقق ما وعدنا به ، وهو عليم بما ننفق ، يحصيه ويجزى عليه .

وقد جاء فى الكتاب الكريم « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه ، وهو خير الرازقين » وفى صحيحى البخارى ومسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » . أى أذهبْ ماله إلى حيث لا خير فيه . فالله تعالى وعد المتصدقين بأنه يخلف عليهم ما تصدقوا به ، ولكن ما يخلفه الله ليس ضروريا أن يكون من نوع ما أنفقوا ، بل قد يكون من الأمور المعنوية التى يحبها الإنسان ويراها خيراً من كثير من المال وذلك كالذكر الحسن الذى يحصل لأهل البر والاحسان بين مواطنيهم ، أو حب الناس لهم ، وتعلق القلوب بهم ، وكأن يرزقهم الله ذرية نافعة لخير الدين والدنيا ، ونحو ذلك من الأمور المعنوية التى يحبها الناس وليست بمال .

وقد يكون مايخلفه الله من الأمور المادية ، وذلك بأن يسهّل الله المنفقين طرق الرزق ، ويبصّرهم بالعمل الذى يُدرُّ عليهم المال الذى يخلف الله به ما أنفقوا أو يزيد ، أو يرزقهم بما لا يكون فى الحسبان مما ليس لهم فيه كسب ، كالمال الذى يجىء من طريق الميراث أو الهبات أو الوصايا أو غير ذلك .

ويدخل فى عداد البر والإحسان الذى يخلفه الله على المنفقين ، ما ينبغى أن يقوم به أصحاب الشركات وكبار الملاك من البر والإحسان نحو عمالهم الذين يعملون لهم ، بما يدفع حاجة هؤلاء العمال ويصلح شئونهم المعاشية والصحية والاجتماعية لأن إنفاقهم فى هذا السبيل هو من باب الانفاق فى الخير العام للأمة ؛ لأن العمال جزء منها ، والأمة كل يتكون من عدة أجزاء إذا صلَحت صلَحت الأمة كلها . فلينفقوا ، وليبَروا عمالهم ؛ فإنهم إن فعلوا ذلك حق لهم ما وعدهم الله به من فضله عليهم ، والله ذو الفضل العظيم .

وفضل الله عليهم قد يكون من طريق الإرشاد والهداية إلى أقوم الطرق وأصلحها للإنتاج والنجاح فى العمل ؛ وقد يكون من طريق ربط الأسباب الظاهرة بمسبباتها ، وهو النظام الذى سنه الله فى هذه الحياة . وذلك لأن إصلاح

شأن العمال والإحسان إليهم يغبطهم ويحبب إليهم الملاك ، فينشطون إلى العمل بنفس قوية ، رائدها الإخلاص ، والإنسان عبد الإحسان ، فيكثر الإنتاج ، وتزيد الثروة بما لا يقاس معه المال الذى أنفق فى سبيل البر والإحسان إلى العمال .

وهذا فضل الله الذى يخلف ما أنفقوه . والله واسع الفضل ، عظيم الخير .

هـذا وعد الله ، وذاك إغواء الشيطان « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلا » .

قوتان تلمان بالنفس عند نزوعها إلى عمل الخير : وسوسة الشيطان وهى قوة الشر التى تخوِّف من الفقر وتأمر بالفحشاء ، وإلهامات الرحمن وهى قوة الخير التى تدعو إلى الإنفاق فى سبيل الله ، حيث يكون فضل الله ومغفرته .

وفى صحيح الترمذى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر ، وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير ، وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان » ثم قرأ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » واللمة هى الهمة والخطرة التى تقع فى القلب ، فما كان منها من خطرات الخير فهو من الإلهامات الإلهية ، وما كان منها من خطرات الشر فهو من الوساوس الشيطانية .

فيأيها المؤمنون : إذا ألمت بكم قوة الخير فاحمدوا الله عليها ، وإذا ألمت بكم قوة الشر فاستعيذوا بالله من الشيطان ، وتحصنوا بحمى الله منه ، وأقدموا على فعل الخير ، وعودوا أنفسكم عليه ، حتى لا تُلِمَّ بقلوبكم خطرات الشيطان ولا وساوسه وهواجسه .

وأنتم أيها الباخلون : راجعوا أنفسكم ، وحاسبوها ، وانظروا أين تضعون ثقتكم ، أفى وعد الله تعالى أم فى وساوس الشيطان ، وأى الأمرين تسكن إليه نفوسكم وتطمئن إليه قلوبكم : وعد الله لكم بالخير أو إيعاد الشيطان لكم بالشر وقد ظهر الحق ووضح الطريق .

وقد أرشدنا الله تعالى بقوله « يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً ، وما يذكر إلا أولو الألباب (٢٦٩) » إلى أن ما يقع فى قلوبنا من الوساوس والهواجس الشيطانية ، والإلهامات الإلهية ، ويشتبه الأمر فيه علينا ، إنما يتميز بالحكمة التى يوفقنا الله للحصول عليها . والحكمة هى العلم الذى تعظم منفعته ، وتَجِلُّ فائدته ، وهو العلم الذى يكشف حقائق الأشياء ، ويفرق بين الحق والباطل ، وبين النافع والضار ، ويميز الإلهامات الإلهية من الوساوس الشيطانية ، ومن يؤت هذا العلم النافع الذى تَجِلُّ فائدته فقد أوتى خيراً كثيراً ، « وما يذكر إلا أولو الألباب » الذين فتح الله قلوبهم للتقوى ، وأعدهم لقبول الهداية .

ليس من هنا نبدأ

ليس من هنا نبدأ ، لأننا بدأنا فعلا من حيث يجب أن نبدأ ، وقد قطعنا مرحلة من الطريق التى يجب أن تسلك . فإن استعرض الباحث ما كنا عليه من حياتنا الاجتماعيـة والعلمية والعملية ، رأى رَأْى العين صدق ما نقول ، واستطاع أن يقدر ما قطعناه من الطريق فى كل وجهة من وجهات الحياة الأدبية والمادية .

فقد أدركنا أن أساس الحياة العلم والعمل فاندفعنا فى سبيلهما بقدر ما تستطيعه وسائلنا المادية والمعنوية ، فإن كنا لا نزال متأخرين عن الأمم التى تعتبر مُثُلا عليا فيهما ، فما ذلك إلا لأننا بدأنا بعدها ببضعة قرون ، فإن دأبنا وضاعفنا جهودنا فلا شك فى أننا مدركوها وسائرون إلى جانبها وربما سبقناها ولا حرج على فضل الله .

فيجب علينا أن ندرك هذه الحقيقة ، وأن ندرأ عنا شيطان العجلة فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهراً أبقى .

نعم أن الغيرة الوطنية تشتد فى بعض النفوس فتحتقر جهود الأمة التى تبذلها لتلحق بالقافلة ، فتشدد وطأتها فى النعى على بطئها وترددها ، وفى التشهير بتؤدتها وتواكلها ، وهذه النزعة الحماسية من تلك النفوس تضر أكثر مما تنفع ، فهى تغذو مادة اليأس فى قلوب الضعفاء ، وتزيد من عديد الجامدين على القديم منهم ، ولو تأمل هؤلاء المتحمسون منا لرأوا أن الأمة بجملتها استقامت فى طريق الذين سبقوها . وترسمت خطاهم ، وتشبعت بفكرة اللحاق بهم ، وهى نزعة إذا سلمت من المثبطات أدت بأهلها إلى اللحاق بمن سبقوها ، لأنها تسلك طريقا عبَّدها من تقدمها فكفيت مؤونة التعبيد والتمهيد ، وهما من أشد القواطع للسالكين ، فتقطع فى الزمن القصير ، ما كان يضطرها للصبر الطويل ، وبذل الجهد الجهيد . وفى ضرب المثل بالأمة اليابانية مقنع .

فقد كانت هى والصينيون على مدنية عريقة فى القدم ، ولكنها كانت مدنية صناعة دقيقة وتفكير عميق ، ليس لقوتى البخار والكهرباء فيها من نصيب . فتنبه

اليابانيون لذلك منذ نحو مائة سنة ، فاستخدموهما فلم تمض عليهم بضع عشرات من السنين حتى ارتقوا إلى مصاف الأمم الأوربية ، واحتذت حذوها الأمة الصينية ، فبلغت مكانة فيها . ونحن بعد فترة قصيرة من الزمن نستكمل فيها تعميم التعليم ، ويكثر بين ظهر انينا المتعلمون الذين لا يجدون عملا ، فيضطرون بحكم الضرورة الحيوية للبحث عن عمل يحصلون من القيام به ما يسد حاجتهم المعيشية ، وكلما اشتد بهم الضيق تشددوا فى تركيز قواهم العقلية فى ابتكار ما يوصل إلى كسب القوت من عمل يثيب الناس القائم به ، فتتفتح أمامهم ضروب الحاجات المعيشية والصناعية ، فيضطروا للاشتغال بها ، ولكنهم بسبب تفوقهم فى القوة الفكرية يعملون عقولهم فى التجديد والابتكار فيصلون بها إلى درجات رفيعة مما يرقى ذوق المجموع ويجمل مظهره ، ومنهم من يتوصل إلى اختراع أداة يصل من ورائها إلى أبعد حدود الثروة ، ويكون قدوة لغيره فى إدمان التفكير فى خدمة المدنية . وبازدياد عديد المفكرين من هذا القبيل تزداد قيمة الأعمال الحرة والعاملين فيها ، ويتمنى الذين يجرون وراء الوظائف الديوانية لو أتيح لهم أن يكونوا من قبيل هؤلاء الأحرار النافعين .

على هذا الوجه بدأت الحال فى أوربا ، وقد بلغت اليوم أوجها الأعلى ، فمن هؤلاء الرجال من لو بذلت له الحكومة مالا جما ليشغل وظيفة فى إحدى مصالحها ، بل لو عرضت عليه وزارة من وزاراتها لأبى ذلك عليها ، لثقته بأنه يعمل عملا أشرف من عمله فى وزارة وأنفع منه للأمة .

على هذا الوجه ترتقى الأمم ، وتبلغ أقصى الغايات فى المدنية ، وليس بلوغ هذه الغايات بوقف على جنس من أجناس البشر ، ولا على قبيل منهم ، فجميعهم سواء فى الوصول إلى هذه الدرجة العليا من الحياة ، وقد وصل معظمهم اليها فى مدى وجودهم . فالذين يقولون بوقف هذه الغايات على بعض الأجناس دون البعض الآخر واهمون .

فمن الذى يصدق الآن أن الأوروبيين الذين تضرب بعظمة مدنيتهم الأمثال ، كانوا قبل بضع مئات من السنين فى حالة من الانحطاط يصعب تصديقها الآن . فقد كانوا يبنون بيوتهم بالحلفاء ويلطخونها بالطين ، ولا يجعلون لها مداخن

يتسرب منها الدخان . وكانوا يرمون فضلات النباتات واللحوم التى يتغذون بها أمام الدور فيتراكم عليها الذباب ، وتتصاعد منها الروائح الكريهة . وكانوا يضطهدون النساء ويضعون على أفواههن الاقفال ليمنعوهن من الثرثرة والقيل والقال . وكان رجال الدين عندهم يضطهدون من يظهر منهم ميل إلى الفلسفة أو العلم ، ومن كان يثابر على الاشتغال بشىء من ذلك ، وفيها ما ينافى ما عندهم من كروية الأرض وصغر حجمها بالنسبة لغيرها من الكواكب ، يلقونه فى النار بحجة أنه مناهض للكتب الدينية ، فأحرقوا على هذا الوجه أكثر من ثلاثمائة الف عالم ومتعلم بهذه الحجة ، حين ثبت لهم أنهم يدأبون على ماهم عليه ، لمنافاته للدين فيما يزعمون .

أما الصنائع والفنون فكانوا منها فى الحضيض . قلنا فمن يصدق أن هذا كان ماضى أوروبا قبل بضعة قرون ، وهو يراها اليوم صاحبة الزعامة العلمية ، ورافعة علم المدنية فى جميع الآفاق ؟

فالأمم تنحط وترقى ولا علاقة لذلك بجنس أو لون أو مناخ . أليس العرب الذين كانت تضرب بجاهليتهم وأميتهم الأمثال هم الذين أحيوا موات العلم بعد دخولهم فى الإسلام ، ورفعوا علم المدنية ، وآخوا بين الدين والعلم مؤاخاة لاانفصام لعراها بفضل هذا القرآن ؟

محمد فريد وجدى

وصف حصان

ما مقرف يختال فى أشطانه ... ملآن من صلف به وتلهوق

تغرى العيون به ويفلق شاعر ... فى نعته عفواً وليس بمفلق

قد سالت الأوضاح سيل قرارة ... فيه فمفترق عليه وملتقى

صافى الأديم كأنما ألبسته ... من سندس ثوباً ومن إستبرق

مسرد شطر مثل ما اسود الدجى ... مبيض شطر كابيضاض المهرق

فكأن فارسه يصرف إذ غدا ... فى متنه ابن الصباح الأبلق

أمليسه أمليسده لو علقت ... من صهوتيه العين لم تتعلق

التفسير

بقية تفسير سورة الفاتحة

لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الجليل الشيخ حامد محيسن
عضو جماعة كبار العلماء

قد انتهينا فيما سبق من التفسير إلى قوله تعالى « إياك نعبد » فلنبدأ فى الكلام على بقية السورة فنقول : إلى هنا قد تم بالآيات السابقة إذعان العبد بأن أولاه وآخرته إنما هما لله ، وأنه تعالى المنفرد باستحقاق الحمد والتقدير لأنه وحده الممد للعبد بالوجود والمتعهد له بالتربية والمفيض عليه فى كل أطواره .

واسع رحمته والمجازى له على عمله يوم الجزاء على الخير خيراً وعلى الشر شراً ، فهو المهيمن عليه وهو مالك أمره فى حياتيه . هنا وقد تم ذلك ، أدرك العبد ألا مناص من الله تعالى إلا إليه فهو المرجع وإليه المصير .

وهنا وقد ملكت نفسه موجة من هذا الشعور كان لابد أن يسائله خاطره إذا كان ذلك شأن الله فى رحمته وعظمته وملكه لكل شىء فهل هناك فى الوجود من يستحق أن يعبد ويقدس وأن يعظم ويكبر سوى من ذلك شأنه . ويكون جوابه هذا السؤال حتما أنه تعالى وحده دون سواه هو المستحق لأن يفرد بالألوهية ويختص بالعبادة ويصور ما اقتنعت به نفسه من الحق المبين وما امتلأ به قلبه من نور اليقين بقوله « إياك نعبد » مما يفيد فى الأساليب العربية اختصاصه بالعبادة أى ياربا‌ه يامن تولانى برعايته وغمرنى برحمته يامسبغا على نعمه وناشراً حولى رحمته يا مالك شأنى كله فى أولاى وآخرتى إن لك وحدك التقديس وإن لك وحدك العبادة والتنزيه فلا إجلال إلا لك ولا تعظيم لسواك .

ولما دفع العبد إلى الإقرار بوجوب إفراد ربه بالعبادة ما ذكره له تعالى

من عظيم النعم وواسع الرحمة ، وما أيقن به مما سيقام يوم الجزاء من موازين العدل التى لا يضيع معها على العبد أوله مثقال ذرة من خير أو شر .

هنا وقد دفعه ذكر ذلك إلى القيام بواجب المنعم الرحيم والمجازى العادل وجد أن ما يقوم به من عبادة مهما أخلص فيها وأطال فليس موفيا حق الله عليه فلم يبق أمامه من سبيل يسلكه للوفاء بحق ربه أو المقاربة من الوفاء إلا أن يسأله تعالى المعونة حتى يوفى أو يدانى الوفاء وإذ ذاك يقول « وإياك نستعين » .

أى لا أطلب إلا منك المعونة فأنت القدير على كل شىء والعليم بباطن الأمور وظاهرها لا تخفى عليك طوية ، ولا تتوارى عنك نية فإمدادك أنت هو الإمداد ومعونتك هى المعونة .

وهنا يدور بنفس العبد حين يملك نفسه هذا الشعور ويستغرق فى ذكر عظمة الله ورحمته ـ سؤال ـ إذا كنت لا تسأل غيره اعونة ففيم تسأله المعونة أفى شأن دنياك وشخصك أم فى شأن آخرتك وربك ، وهنا يكون الجواب ببيان ما يسأل العبد ربه فيه وأن أحب شىء إليه إنما هو هدايته إلى الطريق الذى يوصله إلى أسمى غاياته وأعظم مقاصده فيقول « إهدنا الصراط المستقيم » .

أى اهدنا ربنا إلى ما يوصلنا إليك ، ودلنا على ما تحل به ساحة رضوانك ، وذلك هو الطريق المستقيم المفضى بنا فى اختصار إلى ساحتك وجنبنا معوج الطرق مما يبطىء بالسائر عن الغاية ومما قد يضل بالسائر عن المقصد .

وهنا إذ يشتد قرب العبد من ربه ، فيزداد احتياطه فيما يؤدى به إلى الغاية من واضح الطرق وقيمها ، تراه يزداد فى التحرى والاحتياط لذلك لم يكتف العبد بسؤال ربه الهداية إلى الطريق الموصوف بالاستقامة ، بل زاد فى بيانه فقال : « صراط الذين أنعمت عليهم » وإنما اختار فى البيان أن يضيف الطريق إلى المنعم عليهم لمعنيين : أولهما هو إبراز نفسية المحب المخلص ، وأنه يكون شديد الاحتياط دقيق التحرى عن الطريق الموصل إلى ساحة الرضا فى ثقة تملأ نفسه ، وتفعم قلبه ، ولا يجد فى مثل هذا المقام ما يملأ نفسه ثقة ويفعم قلبه طمأنة إلا أن يبين الطريق بأنه الطريق الذى وصل بالسير عليه من قبله من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين ، كما فصّل ذلك فى غير تلك الآية . وثانيهما : أن من خواطر المؤمل فى نعيم ربه أن يكون تمامه فى رفقة من الناس صالحين وصحب منهم محسنين .

ولما كان قد يتسرب إلى عموم النفس لفظ المنعم عليهم للكافرين والمؤمنين والعاصين والطائعين ، فقد زاد فى تحديد المراد بوصف المنعم عليهم بأنهم « غير المغضوب عليهم » مبالغة فى التحديد وزيادة فى البيان حرصاً على من يتم بهم ومعهم استمتاعه بنعيم ذى الجلال ورضاه .

كما أنه زيادة فى التنصيص على تمييزهم عن غيرهم ممن غضب الله عليهم وممن ضلوا سبيل الرشاد ليكون فى ذلك إيماء إلى شدة حرصه على تجنب سبيل الضالين وإشارة إلى شدة الاحتياط لوضع الحواجز القوية لحفظ نفسه عن أن يفد عليها خواطر غير مرادة ـ وإن خرجت بعد ذلك ـ طريدة التأمل كما هو شأن أساليب القرآن فى أنها لا تدع احتمالا غير مراد يمر بالنفس ، كما أنها لا تترك معنى مراداً دون أن تمسكه فى النفس .

ذلك أن نعم الله منها ما قد تشمل الكافر والمؤمن . والعاصى والمطيع ، فقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » قد لا يمنع لأول سماعه أن يتسرب إلى الذهن شموله وعمومه ، فلدفع هذا الخاطر من أول الأمر جىء بذلك التحديد للمراد من المنعم عليهم ، وأنهم الفائزون بنعمة الرضا بما آمنوا واتقوا ، والمثابون بحسن الجزاء بما صبروا وأحسنوا . فليس المراد مطلق منعم عليه ، بل المراد من نعموا برضا الله وحسن جزائه .

ولما كانت المقابلة بين المنعم عليهم والمغضوب عليهم أوضح منها بين المنعم عليهم والضالين ، فقد قدم الأول على الثانى فى الذكر ، وإنما جمع بينهما لأن العبد كما قلنا آنفاً كلما اشتد قربه من ربه ، قويت حيطته لطريق فوزه وسلامته ، واشتد بغضه لمن لم ينالوا بالطاعة والتقرب رضا ربهم ، فكان عن ذلك المبالغة فى بيان كل من يتعرب من ربه أن يجنبه طريقهم باستقصاء عناوين الطوائف الذين حادوا عن الجادة ولم يهتدوا سواء السبيل .

ومن هذا تدرك ما اشتملت عليه سورة الفاتحة من تصوير الفطر السليمة فى تدرجها فى الاتصال بربها وترقيها فى ما تطلبه إليه وفق قربها منه وقوة علاقتها به .

فإن الفطر إذا سلمت وحاطها من الشئون ما يعود عليها بالصقل والاستنارة ترى أنها أول ما تشعر به هو ما تحسه من نعمة وما يحوطها من رحمة يبعثها نحو الثناء على الله وحمده لما تدركه من حياطتها بصانعه منذ تكوينها من الطين إلى أن بلغت مبلغ التفكير والاستنتاج وترتيب المعلومات فهى إذ تدرك نشأتها وتنقلاتها فى حياطة ربها وفى صيانة من رحمته تنبعث إلى اختصاصه بالحمد والثناء فإذا اتسع أفقها فى التفكير وانبعثت إلى الخلوص من حيرتها فى أن هذا العالم علويه وسفليه وما احتواه من أنواع وأجناس من ناطق وغير ناطق كيف يكون ذلك النظام البديع والملك المتقن إنما هو لتلك الأيام المعدودة التى تنتهى بموت الناس وفنائهم . هذه الحيرة وذلك التردد يبعث النفوس إلى الحكم بأن وراء تلك الحياة حياة أسمى من تلك الحياة وفيها يتفاوت الناس وفق تفاوتهم فيما أتوا فى حياتهم من سىء أو حسن ومن خير أو شر . ذلك هو يوم الدين يوم الجزاء العادل يوم إقامة الموازين . فإذا بلغت الفطرة ذلك وأن هناك حياة أسمى من تلك الحياة فيها المقارنة العادلة بين أفراد البشر التجأت الى التقرب من خالقها حتى تؤدى واجب النعم فى الدنيا وتحظى بالجزاء الحسن فى الآخرة ، فيعلن فى خضوع أنها تعبده وتقدسه ولا تعبد غيره ولا تقدس سواه وإذ تحس الفطرة بواجب العبودية وأنه عظيم قد لا نستطيع له أداء أضطرت إلى سؤال معونته تعالى فإذا عبدت وسألت المعونة اشتدت حيطتها فسألته تعالى الهداية إلى أوثق طريق يؤدى للغاية طريق الذين أنعم عليهم من النبين والصديقين والصالحين . وبهذا تكون سورة الفاتحة قد أجمل فيها كل ما جاء مفصلا فى الكتب السابقة وفى القرآن فإنها لم تعدُ شرح ما لله من نعم توجب حمده وبيان وعد ووعيد يوجب اتقاءه وخوفه كما يوجب الرغبة فيه والسعى فى سبيل رضاه ورسم طريق لما يؤدّى به واجب العبودية وما توفى به مظاهر التقديس مبينة طريق الحق الذى سلكه الفائزون وسار عليه المحسنون .

نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين . آمين ؟

بهاء الدين السبكى

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغى
مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

نختم بهذا المقال تراجم السبكيين المصريين الذين شغلت بهم مناصب القضاء حقبة طويلة من الزمن وطلبتهم مناصب الفتيا والقضاء المصرية والشامية فأثبتوا كفاءة ممتازة وكان عندهم معين صاف من العلم يرده الظامئون المتعطشون للإفادة الطالبون لحكم الدين فيما يعرض لهم من حوادث الزمن وما هم فى حاجة اليه من حكم الشريعة الغراء .

وهذا بهاء الدين رابع الثلاثة السبكيين وإسمه محمد بن عبد البر بن يحيى بن على ابن تمام بن يوسف بن موسى بن تمام بن حامد السبكى المكنى بأبى البقاء كانت ولادته سنة سبع وسبعمائة من الهجرة وتمذهب بمذهب الشافعى كعلماء أسرته وأظهر شيخ له نال العلم منه هو ابن عم أبيه تقى الدين السبكى الذى لازمه ملازمة طويلة فى أيام صباه حتى تخرج عليه . ومن شيوخه الآخرين الحجار والدبوسى وعبد الله بن على الصنهاجى والمزى والبرزالى والجزرى وعلاء الدين القونوى والقطب السنباطى ، وقد مهر فى اللغة العربية والفقه والتفسير وأصول الفقه وعلم الكلام . ولما ثبتت قدمه وتم نضجه العلمى واستولى على زمام العلوم الشرعية وعرف بين أهلها وذويها بالنبوغ واعترف له أقرانه بالتفوق وكمال التحصيل تصدر - على عادة الشيوخ - للتدريس والافتاء فكان ينبوعا عذبا ينهل منه كل من أراد من طلاب العلم والمعرفة . وقال صاحب الدرر الكامنة « وذكر لى الشيخ شمس الدين ابن القطان أنه كان ممن أخذ عنه وأنه كان يضجع إذا توجه عليه البحث وغالب من لقيناه كان يبالغ فى وصفه بالتحقيق والحذق » وكانت له رحلات فى سبيل العلم وخدمة المصلحة العامة فقد دخل الشام مع الشيخ تقى الدين سنة تسع وثلاثين وسبعمائة وناب عنه فى قضاء الشام ثم تولى قضاء طرابلس ثم عاد إلى القاهرة وتولى فيها مناصب جليلة فى القضاء فقد ناب عن القاضى عز الدين بن جماعة فى منصبه ثم أضيف اليه قضاء العسكر والنظر فى الأوقاف ثم خلف عز الدين فى وظيفته سنة ست وستين وسبعمائة وظل يباشر شئون منصبه بما عرف عنه

من دربة وحذق وكياسة مع احاطة بشئون الحياة الاجتماعية والدينية ثم فوض اليه بعد ذلك قضاء الشام وظل قاضياً بدمشق إلى حين وفاته وقد اعترف له بالفضل العلماء الأفاضل من أهل زمانه فكان الاسنوى يقدمه ويفضله على أهل عصره وكان العماد الحسبانى يشهد أنه يحفظ الروضة وكان هو يقول عن نفسه أعرف عشرين علماً لم يسألنى عنها بالقاهرة أحد .

وقد أثنى عليه الذهبى ووصفه بأوصاف المبرزين فى العلم الحاذقين لدقائق المسائل الغائصين فى بحار العلوم والمعارف ، وقال عنه ابن حبيب : شيخ الإسلام وبهاؤه ومصباح أفق الحكم وضياؤه وشمس الشريعة وبدرها وحبر العلوم وبحرها كان إماماً فى المذهب طرازا لرداء المذهب رأساً لذوى الرياسة والرتب حجة فى التفسير واللغة والنحو والأدب ثقة فى الأصول والفروع قدوة لأرباب السجود والركوع مشهور فى البلاد والأمصار سالك طريق من سلف من سالفة الأنصار . درس وأفاد وهدى بفتاويه إلى سبيل الرشاد .

وهذه شهادة من ثقة تدل دلالة لاريب فيها على أن مترجمنا قد حاز الأوصاف التى تليق بالأئمة العلماء العاملين الذين يزكون عن علمهم ويطهرون أنفسهم ويسخون بما وهبهم الله تعالى من تفقه فى الدين فهم يجودون بما حوته قلوبهم من معارف وإرشاد لكل من قرع بابهم وطلب منهم النوال من أحكام شرعية وتوجيهات دينية ، وإن تنقله بين الشام ومصر وتعدد وظائفه فى القضاء لدليل واضح على صلاحيته لأعباء الحياة ومشاركته لمجتمعه مشاركة البصير المستنير ، وذلك شأن العلماء الذين يشعرون من قرارة نفوسهم بأن واجبهم فى الحياة التوجيه والارشاد والاندماج فى المجتمعات وتولى الشئون التى لاتستقيم أمور الأمة إلا بها .

وقد اختلفت كتب التراجم فى ذكر مصنفات له فيقول صاحب شذرات الذهب فى اخبار من ذهب طبعة مكتبة القدسى فى الجزء السادس صحيفة أربع وخمسين ومائتين ما نصه « ومع سعة علمه لم يصنف شيئاً » ويقول صاحب الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة مطبعة دائرة المعارف العثمانية ببلدة حيدر آباد بالهند فى الجزء الثالث صحيفة تسعين وأربعمائة وما بعدها ما نصه « ولم يظهر له من التصانيف شىء مع أنه كتب على الروضة وعلى مختصر ابن الحاجب الأصلى ، وعلى المطلب لابن الرفعة » .

توفى رحمه الله بدمشق فى جمادى الأولى سنة ٧٧٧هـ ودفن بسفح قاسيون بتربة السبكيين.

المسلم والقرآن

للدكتور محمد يوسف موسى

بهذا العدد تختم المجلة عامها الحاضر ، وبهذه الكلمة أوشك أن أختم فترة - إن لم أقل عهداً - من فترات حياتى العلمية ، فليكن الحديث فيها على بعض واجبات المسلم بالنسبة للقرآن ، ولا عجب : فنحن فى الشهر « الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان » .

تحتفل مصر ، مثلها فى هذا مثل كل بلد إسلامى ، بهذا الشهر المبارك بكلمات تنشر فى الصحف وأحاديث تذاع بالراديو ، وإن كان الكثير من هذه الكلمات والأحاديث من المعاد المكرور الذى لا يكشف عن جديد ، ولذا نراها فقدت لذة الجديد وأصبح تأثيرها جد قليل .

على أن لرمضان وهو الشهر الذى اتصلت فيه السماء والأرض بنزول القرآن ، وهو الشهر الذى فرق الله فيه بين الحق والباطل وأذل فيه الشرك وأهله فى غزوة بدر الكبرى ، من الجلالة والكرامة والمنزلة ما يوجب أن يكون احتفالنا به على نحو آخر غير ما ألفنا كل عام .

أريد أن أقول بأن رمضان وهو موسم خير وبركات يجب أن تتجدد فيه العزائم وتنعقد الإرادات على أن نكون خيراً مما نحن ، وعلى أن ننهض فيه لحياة عزيزة خير من الحياة التى نحياها الآن ؛ وهذا ما لا يكون إلا بعد أن نفهم القرآن حق الفهم ، وأن نتعرف ما جاء به من « هدى وبينات » ، وأن نلجأ إليه فنتخذ فيه مثال المسلم الكامل الذى يعرف مكانه فى الحياة ومركزه فى قيادة العالم .

١ — لقد آن « للمسلم » منذ زمن طويل أن يظفر بتفسير للقرآن يستغنى به عن التفاسير التى ورثها عن القرون الوسطى والتى أصبحت لا تلائم روح العصر الذى نعيش فيه ، هذه التفاسير « المذهبية » والمليئة مع هذا بما لا يتفق مع الحق من الإسرائيليات وغير الإسرائيليات . نريد تفسيرا وسطا بين الإطناب والإيجاز

تتجلى فيه روح القرآن العظيم ، عقيدة وتشريعاً وأخلاقا وتقاليد طيبة ، فى التمسك به عز الدنيا والآخرة ، تفسيراً يعرف منه المسلم أمور دينه ودنياه فى سهولة ويسر ، تفسيراً صالحا للنقل إلى كل لغات العالم الحيـة ليعرف غير المسلم ما هو القرآن وما هو الإسلام الذى يقوم على هذا القرآن .

مثل هذا التفسير أصبح ضرورة لازمة وفرضا على الأزهر ورجاله ، بل فرض عين على القادر منا بما وهب الله له من العقل النافذ والأسلوب الممتع العربى المبين ، ومكن له من قلوب الناس . متى ، إذاً ، نرى من يعكف على هذا المهم الجليل يقف عليـه وقته وجهده ، ويخرجه للعالم أثراً يبقى على الزمن ؟ مثل هذا العمل الجليل يكون خيراً للإسلام والأزهر ولمن يقوم به من الاصطلاح بأكثر المناصب فى الأزهر ، ولعل الله يفتح له قلب من تعنيه بهذا الحديث لى هذه الناحية فيقبل عليه مصحوبا دائما بعون الله وتأييده ، وبخاصة وما ظهر له حتى الآن من دروس أو محاضرات فى التفسير يجعلنا نثق بأنه المرجى المأمول لهذا العمل الكبير .

والقرآن فيه ، مع هذا ، « هدى » فيما يختصم العـالم اليوم بسببه من مشاكل السياسة والحكم والاقتصاد . إن فيه المذاهب المثلى فى كل هذه النواحى الحيوية ، وفيه ـ بصفة خاصة فى المشاكل الاقتصادية ـ المذهب الذى يحقق العدالة الاجتماعية كاملة بين أبناء الوطن الواحد . وكل ما علينـا ، لنعرف هذا المذهب ، أن نقرأ القرآن لهذا الغرض ، وأن نتدبره حين نقرؤه ، وأن نضم للآية ما يتصل بها من حديث الرسول ، ثم نضم لهذا أو ذاك شواهد من التاريخ الإسلامى الصحيح فيها إيضاح وتطبيق لأصول هذا المذهب الذى يدعو إليه .

إنه ليس من الكرامة ولا من العقل فى شىء أن نولى وجوهنا شطر الغرب نلتمس لديه مانحتاج من نظم سياسية أومالية ، ولدينا القرآن لم نستخرج منه بعض ما يذخر به من كنوز !

سنجد إن درسنا القرآن هذه الدراسة ، أنه حين أباح الملكية الخاصة قد قيدها بقيود لا تبيح أن يكون منا من يملك الآلاف ومن لا يملك قوت يومه بانتظام ؛ وأن للفقراء فى الأموال التى تحت أيدى الأغنياء حقوقاً أخرى غير الزكاة المعلومة المفروضة ؛ وأن الإسلام حرص على أن يكون المجتمع الإسلامى كله متماسكا

متضامناً ، لافرق بين المسلم وغير المسلم ، بحيث يجد كل من أعضائه العون حين الحاجة له من صغر أو زمانة أو كارثة حلت به مع الفقر ، وهذا مايسمى فى عرف الاقتصاديين المحدثين « بالضمان الاجتماعى » .

متى نعود للقرآن نتفهمه ونتخذه لنا مثالا ؟ متى يارب متى ؟ ومتى يصرف الشباب فى البلاد الإسلامية وجهه عن هـذه الحياة التى يحياها ، ويولى وجهه نحو القرآن يتخذه إماما ؟

٢ — يرى شاعر الإسلام الدكتور « محمد إقبال » ، ورأيه الحق ، أن هذا الجيل ليس حياً قائماً بنفسه ويفكر بعقله ، بل إن حياته عارية من الغرب فصار ظلا لأوربا ، وهو فى ذلك يقول(*) :

« إن الشباب المثقف فارغ الأكواب ظمآن الشفتين ؛ مصقول الوجه ، مظلم الروح ؟ مستنير العقل ، كليل البصر ؛ ضعيف اليقين ، كثير اليأس هؤلاء الشبان أشباه الرجال ولا رجال ، ينكرون نفوسهم ويؤمنون بغيرهم ، ويبنى الأجانب من ترابهم الإسلامى كنائس وأدياراً . شباب ناعم رخو كالحرير ، يموت الأمل فى مهده فى صدورهم ، ولا يستطيعون أن يفكروا فى الحرية . إن المدرسة قد نزعت منهم العاطفة الدينية ، وأصبحوا خبر كان ، أجهل النـاس لنفوسهم وأبعدهم من شخصياتهم ، شغفتهم الحضارة الغربية ، فيمدون كفهم إلى الأجانب ليتصدقوا عليهم بخبز شعير ، ويبيعون أرواحهم فى ذلك .

« عقول وقحة ، وقلوب قاسية ، وعيون لا تعف عن المحارم ، وقلوب لاتذوب بالقوارع . كل ما عندهم من علم وفن ودين وسياسة وعقل وقلب يطوف حول المـاديات . قلوبهم لا تتلقى الخواطر ، وأفـكارهم لا تساوى شيئاً ، حياتهم جامدة واقفة متعطلة » .

٣ — هذا هو وصف شباب الجيل الحاضر فى رأى إقبال ، ويحسن بجانبه أن نذكر رأيه فى المسلم كما يجب أن يكون :

(*) هذه النقول وما يجىء بعدها عن الرسالة اللطيفة القيمة التى أصدرها هذه الأيام ضيف مصر الأستاذ الكبير أبو الحسن على الحسنى الندوى واسمها : « شاعر الاسلام الدكتور محمد إقبال » وهى رسالة يجب على كل مسلم استيعابها وتدبرها .

« المسلم المثالى هو - فى رأيه - الذى يمتاز بين أهل الشك والظن بإيمانه ويقينه ، وبين أهل الجبن والخوف بشجاعته وقوته الروحية ، وبين عباد الرجال والأموال والأصنام والملوك بتوحيده الخالص ، وبين عباد الأوطان والألوان والشعوب بآفاقيته وإنسانيته ، وبين عباد الشهوات والأهواء والمنافع بتجرده من الشهوات وتمرده على موازين المجتمع الزائفة وقيم الأشياء الحقيرة .

« وبين أهل الأثرة والأنانية بزهده وإيثاره وكبر نفسه ، ويعيش برسالته ولرسالته ؛ ذلك المسلم الحق الذى مهما اختلفت الأوضاع وتطورت الحياة لا يزال الحقيقة الثابتة التى لا تتغير ولا تتحول .

« هذا المسلم - فى رأى إقبال - لم يخلق ليندفع مع التيار ، بل خلق ليوجه العالم ويملى عليه إرادته لأنه صاحب الرسالة وصاحب العلم اليقين ؛ فليس مقامه مقام التقليد والاتباع ، بل مقام الإمامة والقيادة ، وإذا تنكر له الزمان وعصاه المجتمع لم يكن له أن يستسلم ويخضع ويضع أوزاره ويسالم الدهر ، بل عليه أن يثور عليه وينازله حتى يقضى الله فى أمره ؛ وبذلك يرد الأمر إلى نصابه ، ويقيم سالفة الدهر الغشوم ، ويقيم العوج ويصلح الفاسد . وفى هذا يقول « إقبال » ، متمثلا : « سألنى ربى : هل ناسبك هذا العصر وانسجم مع عقيدتك ورسالتك ؟ قلت : لا ، يا ربى ! قال : فحطمه ولا تبالى ! » .

وأخيرا ، يرى « محمد إقبال » أن الخضوع والاستكانة للأحوال القاسرة والأوضاع القاهرة ، والاعتذار بالقضاء والقدر ، من شأن الضعفاء الأقزام . وفى هذا يقول فى بعض شعره : « المسلم الضعيف يعتذر دائما بالقضاء والقدر ، أما المؤمن القوى بنفسه فهو قضاء الله الغالب وقدره الذى لا يرد » . كما يقول : « إذا أحسن المرء تربية شخصه ، وعرف قيمة نفسه ، لم يقع فى العالم إلا ما يرضاه ويحبه » .

وبعد : هذه الصورة للمسلم المثالى فى رأى إقبال ، مع بيان مكان هذا المسلم فى العالم ، ليس لنا فيه من فضل إلا فضل الناقل لبعض ما يستحسن ؛ لعل فى ذلك ما يفتح العيون النائمة ، ويسمع الآذان الصم ، ويهز القلوب التى جمدت مع الدهر لتخشع لذكر الله وما نزل من الحق . ولعل فى ذلك أيضا ما يلفت شبابنا عن الحياة الهزيلة الماجنة التى يحياها ، إلى الحياة الجادة الكريمة التى نرجوها له ، وبالله التوفيق »؟

مذهب الامام مالك
فى الأندلس والمغرب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الجواد رمضان

فتحت الأندلس والخلافة الإسلامية فى دمشق ؛ وإمام أهل الشام عبد الرحمن الأوزاعى ؛ يتفقهون على مذهبه ، ويتعبدون على فروعه ؛ وإنما جند الأندلس شعبه من أهل الشام ، فكان طبيعيا أن يحملوا مذهبهم إلى مهجرهم الجديد ؛ فأقام الأندلسيون على مذهب الأوزاعى ، طيلة عهد الولاة ، وصدرا من عهد بنى أمية ؛ ثم تحولوا عنه إلى مذهب الإمام مالك ، فى عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ، (١٨٠ — ٢٠٦ ﻫ) .

ولعل مرد ذلك التحول ، إلى ما حكاه العلامة ابن خلدون ، من أن رحلة الأندلسيين كانت - غالبا - إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ، ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق فى طريقهم ؛ فاقتصروا على الأخذ من علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم ، مالك بن أنس . وإلى أن البداوة كانت غالبة على أهل الأندلس فى أول أمرهم ، ولم يكونوا يعانون الحضارة التى لأهل العراق ؛ فكانوا إلى أهل الحجاز أميل ، لمشاكلتهم لهم فى البداوة ، فلما تحضروا ، قاسوا الأمور بأشباهها ، وجروا فى التشريع مع العمران .

وقال ابن حزم : مذهبان انتشرا فى بدء أمرهما ، بالرآسة والسلطان : مذهب أبى حنيفة ، فإنه لما ولى القضاء أبو يوسف ، كانت القضاة من قبله فى الدولة الإسلامية : من أقصى المشرق ، إلى أقصى عمل افريقية ، فكان لا يولى إلا أصحابه والمنتسبين لمذهبه .

ومذهب مالك عندنا بالأندلس ؛ فإن يحيى بن يحيى الليثى صاحب الإمام مالك [١] كان مكينا عند السلطان ، مقبول القول فى القضاة ، وكان لا يلى قاض

---

(١) توفى سنة ٢٣٤ ﻫ .

فى أقطار الأندلس ، إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ؛ والناس سراع الى الدنيا ؛ فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ؛ على أن يحي لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ؛ وكان ذلك زائدا فى جلاله عندهم ، وداعيا إلى قبول رأيه لديهم .

وكان القضاة مأمورين بالحكم بمذهب مالك ، لا يجوز لهم أن يقضوا بغيره ، وإن خالف رأيهم واجتهادهم .

فمنذر بن سعيد البلوطى (٢٢٣ — ٣٣٥) قاضى الجماعة « قاضى القضاة » لعبد الرحمن الناصر « ٣٠٠ — ٣٥٠ » كان ظاهرياً ، يحتج لمذهب داود ويأخذ به فى نفسه ، فإذا جلس للقضاء ، قضى بمذهب مالك وأصحابه ، لأمر الخليفة بذلك ، وقد كانت هذه المسألة موضع نزاع بين فقهاء الأندلس ، انشعبوا فيه إلى فرق ثلاثة ، إحداها تصحح التولية والشرط ؛ والثانية تبطلهما ؛ والثالثة تصحح التولية ، وتلغى الشرط ، قياساً على أحد الأقوال فى الشرط الفاسد إذا اقترن بالبيع .

* * *

ولما قامت دولة المرابطين بالمغرب (٤٤٨ — ٥٤١) وضم عاهلهم يوسف ابن تاشفين جزيرة الأندلس إلى ملكه (٤٨٥) اشتد إيثاره لأهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته ، عهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة فى جليل ولا حقير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ؛ فبلغ الفقهاء فى عهده ، أعظم مما بلغوه فى الصدر الأول من فتح الأندلس ؛ ولم تزل أمور المسلمين راجعة إليهم ، وشريعتهم موقوفة عليهم ، طيلة حكمه ؛ فانصرفت إليهم وجوه الناس ، واتسعت مكاسبهم ، وكثرت أموالهم ، حتى قال فيهم الشاعر الجيَّانى أبو جعفر بن البنى :

أهل الرياء لبستمونا موسكم   كالذئب أدلج فى الظلام العاتم
فملكتمو الدنيا بمذهب مالك   وقسمتم الأموال بابن القاسم
وركبتمو شهب الدواب بأشهب   وبأصبغ صبغت لكم فى العالم

يعرض بالقاضى ابن حمدين قاضى قرطبة للمرابطين ، ثم يصرح بهجائه بعد ذلك فيقول :

أدجال ، أوان الخروج ويا شمس لوحى من المغرب
يريد ابن حمدين أن يعتفى وجدواه أنأى من الكوكب
إذا سئل العرف حك استه ليثبت دعواه فى تغلب !

وكان ابن حمدين ينتسب إلى تغلب . ولا تخفى قوة البيت الأخير ؛ وهو من قول جرير للأخطل :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى حك استه وتمثل الأمثالا

* * *

ولم يكن يحظى عند أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلا من عَلِمَ عِلمَ فروع مذهب مالك ، فنفقت فى ذلك الزمن كتب المذهب أو عمل بمقتضاها ، ونبذ ما سواها ، حتى نسى النظر فى كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بغض الفقهاء إليه علم الكلام ، فكان يصدر المنشورات إلى مختلف البلدان ، بمنع الخوض فى شىء منه ، وتوعد من يملك شيئاً من كتبه بالوعيد الشديد ؛ ولما دخلت كتب أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى بلاد المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد ، من سفك الدم ، واستئصال المال ، لمن وجد عنده شىء منها !

* * *

ولما قامت دولة الموحدين ، على أنقاض دولة المرابطين ؛ وتولى من عواهلها أبو يوسف يعقوب بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥) وكان من الصالحين المتبتلين ، خامرته فكرة محو مذهب مالك من بلاد المغرب جملة ، كما خامرت أباه وجده من قبل ؛ فقد أخبر الحافظ بن الجد : قال : لما دخلت على أمير المؤمنين أبى يعقوب أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى يا أبا بكر ، أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة ، التى أحدثت فى دين الله ! أرأيت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ؛ فى أى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؛ فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لى ، وقطع كلامى : يا أبا بكر ، ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ، أو هذا ، وأشار إلى سنن أبى داود وكان عين يمينه ، أو السيف .

فأمر أبو يوسف هذا ، جماعة من علماء الحديث بجمع أحاديث المصنفات العشرة : الصحيحين ، والترمذى ، والموطأ ، وسنن أبى داود ، وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسندا بن أبى شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى ؛ فى الصلاة ومايتعلق بها ، على نحو الأحاديث التى جمعها ، داعيتهم محمد بن تومرت فى الطهارة ؛ فلما جمعوها ورفعوها إليه ، كان يمليها على الناس بنفسه ، ويأخذهم بحفظها ، ويسنى عليه الجوائز من الكسا والأموال .

ثم تقدم بإحراق كتب المذهب ، بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن القرآن الكريم ، فكان يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، وتطلق فيها النار ، فى مختلف البلاد ؛ فكان مما أحرق : مدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس ، ونوادر ابن أبى زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وغير ذلك كثير . وكان تهديده المروع كافياً فى صرف وجوه الفقهاء عن البحث فى الفروع إلى طلب علم الحديث ، الذى كفل طلابه ، وقربهم ؛ ولما نمى إليه حسد الموحدين لهؤلاء الطلاب ، جبههم بقوله : يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل ، فمن نابه منكم أمر ، فزع إلى قبيلته ، وهؤلاء — يعنى الطلبة — لا قبيل لهم إلا أنا ، فمهما نابهم أمر . فأنا ملجؤهم ، وإلى فزعهم ، وإلى ينتسبون .

فعظم ذلك من أمرهم ، وحمل الموحدين على المبالغة فى برهم وإكرامهم .

* * *

وكان صلاح أبى يوسف هذا صلاح المؤمن المستنير المتثبت ، الذى لا تهفو به العاطفة ، ولا يميل به الهوى ، عن جادة الاعتدال ؛ روى أنه حينما حج ، اجتمع فى حجر الكعبة بالشيخ الصالح أبى العباس أحمد بن مطرف المرى ، فقال له : يا أبا العباس ، إشهد لى بين يدى الله عز وجل ، أنى لا أقول بالعصمة (يعنى عصمة محمد بن تومرت) وكان الموحدون على أنه الإمام المهدى المعصوم .

وقال بعض علماء جيان : لما رجع أمير المؤمنين أبو يوسف من وقعة الأرك التى أوقع فيها بالأذفنش ، قدمنى أهل جيان لتكليمه ، فرفعت إليه ، فسألنى عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ماجرت به عادته ، فلما فرغت من جوابه ، سألنى كيف حالى فى نفسى ، فتشكرت له ، ودعوت بطول بقائه ؛ ثم

قال لى : ما قرأت من العلم ؟ قلت : قرأت تواليف الإمام (يعنى ابن تومرت) فنظر إلى نظرة المغضب وقال : ما هكذا يقول الطالب ! إنما حكمك ان تقول : قرأت كتاب الله ، وقرأت شيئا من السنة ، ثم بعد هذا قل ما شئت ! .

وكتب قبل خروجه إلى بعض غزواته ، إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين وحملهم إليه ، فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة ، كان يقدمهم بين يديه كلما سار ، فإذا نظر إليهم ، قال لمن حوله : هؤلاء الجند ، لا أولئك (ويشير إلى الجيش) وكأنه فى هذا متأثر بما حكى عن قتيبة بن مسلم وإلى خراسان ، حين لقى الترك ، وكان فى جيشه أبو عبد الله محمد بن واسع ، فجعل يكثر السؤال عنه ، فيخبر أنه فى ناحية من الجيش ، متكئا على سية قوسه ، رافعا أصبعه إلى السماء ، ينضنض بها ؛ فيقول : لأصبعه تلك ، أحب إلى من عشرة آلاف سيف ! .

ولعل الغلطة التى يقف فيها التاريخ عاتبا ، بل غاضبا ، تلك المحنة التى امتحن بها فى أيامه ، الفيلسوف الإسلامى العظيم أبو الوليد بن رشد ؛ فقد ذكر المؤرخون : أن أبا الوليد كان يشرح كتاب الحيوان لأرسطاليس ، فقال عند ذكر الزرافة ، وكيف تتولد ، وبأى أرض تنشأ : وقد رأيتها عند ملك البربر ؛ ونمى ذلك إلى أبى يوسف ، فاضطغنها عليه ، إلى أن سعى به عنده بعض مناوئيه من أهل قرطبة ، ورفع إلى أبى يوسف ملخصات بخط ابن رشد ، يقول فيها حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة ، بعد كلام تقدم : فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة . فاستدعاه ، بعد ان جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة ؛ فلما حضر أبو الوليد رحمه الله ، قال له ، بعد أن نبذ إليه بالأوراق : أخطك هذا ؟ فأنكر ، فقال أبو يوسف : لعن الله كاتب هذا الخط ، وأمر الحاضرين بلعنه ، ثم أمر بإخراجه على حال سيئة ، وإبعاده ، وإبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم ، وتقدم إلى الناس بترك هذه العلوم جملة ، وبإحراق كتب الفلسفة كلها ، إلا ما كان من الطب والحساب ، وما يتوصل به من علم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ، وأخذ سمت القبلة . ولكنه لما رجع إلى مراكش ، نزع عن ذلك كله ، وجنح إلى تعلم الفلسفة ، واستدعى أبا الوليد إلى مراكش ، للإحسان إليه والعفو عنه ، فحضر أبو الوليد رحمه الله إلى مراكش ، فمرض بها مرضه الذى مات منه سنة ٥٩٤ ، ومات أبو يوسف أمير المؤمنين بعده بيسير .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد على النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

عبدان – عَبّادان

يتردد ذكر هذا الاسم فى هذه الأيام على صفحات صحف الأخبار وغيرها فى الحديث عن نفط (بترول) إيران .

ففى مقال « البترول فى إيران » المنشور فى مجلة الكتاب (جزء يونيه ١٩٥١) : « وبإيران أكبر معمل لتكرير البترول فى العالم ، يكرر يوميا نصف مليون برميل من الزيت الخام ، ويقع هذا المعمل فى عبدان على الخليج الفارسى » وفى « مصرى » يوم ٥ يونية سنة ١٩٥١ : « ونفى السيد فاطمى الأنباء المغرضة التى أذيعت عن وجود اضطرابات فى منطقة عبدان وخوزستان » .

وقد درج الناس على كتابة هذا الاسم بالصورة الأولى « عبدان » . وهذا خطأ فى الرسم ، صوابه : عَبّادان .

وعَبّادان مدينة قديمة تقع فى رأس الخليج الفارسى ، وتنسب إلى عباد ابن الحصين الحبطى من قواد الحجاج . وقد ألحق بكلمة « عباد » المقطع « ان » ليدل به على النسبة ، فعبادان معناها فى هذا الاصطلاح : عبادى أو عبادية . ويقول ياقوت فى معجم البلدان فى الكلام على هذه المدينة : « وأما إلحاق الألف والنون

أما بعد ، فاذا جرت عوادٍ بالسعد والنحس ، على مذهب الإمام مالك ، فطغى سلطانه حينا على العناية بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ وضعف شأنه حينا ، حتى كاد يمحى امحاء ؛ وعلى أبى الوليد بن رشد وفلسفته ، فسما مكانه وسمت ، عند أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ؛ وهبط وهبطت إلى الحضيض ، عند ولده أبى يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن . أقول : لئن جرت هذه العوادى بالسعد والنحس ، كما جرت على كثير من عظماء العالم ورجال التاريخ ، لقد محت أيدى الزمن فضول الإسراف ، فاعتدل الغالى ، وارتفع الهابط ؛ وبقى مذهب مالك حيا ، وبقيت فلسفة ابن رشد حية ، لأن الحق والعلم لا يموتات ؟

فهو لغة مستعملة فى البصرة ونواحيها : أنهم إذا سموا موضعا أو نسبوه إلى رجل يزيدون فى آخره ألفاً ونونا ؛ كقولهم فى قرية عندهم منسوبة إلى زياد بن أبيه : زيادان ، وأخرى إلى عبدالله : عبد اللاهان ، وأخرى إلى بلال بن أبى بردة : بلالان » .

لست أفيك حقك .

يكثر هذا الاستعمال فى هـذا العصر . فيقال : أنا عاجز عن شكرك على ما أسلفت من يد ، ولن أفيك — مهما اجتهدت — حقك .

وقد وقع هذا فى نثر الكتاب ، وشعر الشعراء .

فنى مقال فى مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول سنة ١٣٧٠) فى الحديث عن القصصى الانكليزى العبقرى ، برناردشو : « ولسنا نستطيع أن نفى الرسالة الشوئية حقها من التفصيل دون أن نذكر شيئاً عن المسرح الإنجليزى الذى اتجه به شو اتجاها واقعيا » .

وفى ديوان لشاعر معاصر ذى خطر وشأن :

فلست أفيـك بعض المدح شعرا ولست أفيـك بعض المدح نثرا

وفيه : فاعذر فلست بمن تفيه قصيدة .

وفيه أيضاً : يا دسوقى لا يفيك مديحى .

وهذا الاستعمال لا تقره اللغة ، ولا هو يجرى على مناهجها . وإنما ينبغى أن يقال : لست أوفيك حقك ، وأفيك حقك ، من أوفى ووفى . وفى اللسان : « أوفى الرجل حقه ، ووفاه إياه بمعنى أكمله له ، وأعطاه إياه وافيا . وفى التنزيل العزيز : « ووجد الله عنده فوفاه حسابه » . ويقال: أوفيته حقه ، ووفيته أجره » وفى المصباح : « وقال الفارابى أيضا : أوفيته حقه ، ووفيتـه إياه ، بالتثقيل » فأما وفى فإنما يأتى لازما ، يقال : وفى بالعهد ، فهو وفى من قوم أوفياء ، على أن أوفى قد يأتى لازما كوفى ، وقد جمع الشاعر بينهما فقال :

أما ابن طوق فقد أوفى بذمتـه كما وفى بقلاص النجم حاديهـــا

الرسالة الشوئية ، الشُّوِّية

وقع البحث فى النسبة إلى شو ، وهو الكاتب الانجليزى « برناردشو » الذى طبق ذكره الآفاق بما أبدع من قصص سارت مسير الشمس فى الشرق والغرب .

و « شو » هذا اللفظ يلحق بما وضع فى العربية على حرفين ثانيهما حرف علة ؛

كلو ، وفى ، ولا . وتوجب قواعد النحو أن تزاد أمثال هـذه الكلمات الثنائية عند النسب حرفا لتحور ثلاثية ، فيلحقها علم الإفاضة بعـد اكتمالها . ومن الجلى أنه لا ينسب إلى هذه الحروف إلا بعد أن تجعل أعلاما على أنفسها أو على غيرها فإذا أكثر إنسان من لفظ لو صح أن ينسب إلى هـذا اللفظ ، وترى أن (لو) فى هذا الموطن علم على لفظها . وقد يسمى من يغلب عليه لو لوّا . ولو أريد إعرابها بعد التسمية فلا بد من ردها ثلاثية أيضاً .

وتثليث هذه الثنائيات بتضعيف الحرف الثانى ، فيقال : لو ، وفى . ومن شواهد ما نحن فيه قول الشاعر :

ألام على لو ، ولو كنت عالماً بأذناب لو لم تفتنى أوائله

وعلى هذا إذا نسب إلى لو قيل : لوى .

وعلى مثالها إذا نسب إلى (شو) قيل : شوى

ويرى بعضهم بدلا من تضعيف الحرف الثانى أن يزاد همزة ، أيا كان الحرف . فيقال فى النسب إلى لو على هذا : لوئى

وعلى غرار هذا يقال فى النسب إلى (شو) : شوئى .

وعلى هذا النهج جرى كاتب مقال « فجيعة الشرق فى مهاتما الغرب » المنشور فى مجلة الأزهر (جزء ربيع الأول ١٣٧٠) إذ يقول : « وقبل أن نخوض فى جوانب الرسالة الشوئية المتشعبة ، نحب أن نلم على عجل بنشأة الأديب التى كان لهـا أثر عميق فى توجيهه » .

وقد كان الوجه الأخير فى النسب موضع إنكار . ذلك أنك لا تكاد تجد فى كتب الصرف غير الوصية بتضعيف الحرف . ولكننا نرى فى شرح الرضى للشافية ٢/٦٠ : « ولوى ، ولوئى ، فيمن يكثر لفظة لو » وكتب الفضلاء المحققون للكتاب : « بعض النسخ سقطت كلمة (لوئى) ، والصواب ثبوتها . وأراد الشارح بذلك الإشارة إلى ما حكى عن بعض العرب : من أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة همزة على الإطلاق ، فيقول : لائى ، وكيئى ، ولوئى ، وما أشبه ذلك »

وهذا الكلام مأخوذ من كلام الرضى [1] ، وقد أحببت أن أسوقه لما فيه من تجلية البحث : « وإذا كان ثانى الثنائى حرف علة وجب تضعيفه إذا أعربته ، سواء جعلته علما للفظ أو لغيره ؛ نحو لوّ ، وفىّ ، ولا ، وهو ، وهى . تقول :

---

(١) ٢ / ١٤١

هـذا لو ، وفى ، ولاء ؛ زدت على ألف لا ألفاً آخر ، وجعلته همزة تشبيها برداء وكساء . وإنما وجب التضعيف لأنك لو أعربت بلا زيادة حرف آخر لسقطت [1] حرف العلة للتنوين ، فيبقى المعرب على حرف واحد ، ولا يجوز . . . . وحكى عن بعض العرب أنه يجعل الزيادة المجتلبة بعد حرف العلة الثانية همزة بكل حال ؛ نحو لوء ، وفىء ، ولاء ، والأول ـ أى التضعيف ـ أولى ؛ لكون المزيد غير أجنبى » .

هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء

يجرى هذا الأسلوب كثيراً فى معرض تقرير التماثل بين شيئين واستوائهما . وفيه تكرار سواء مقروناً بباء الجر . والمعروف فى اللغة إفراد سواء . وبحسب المتكلم فى إفادة غرضه أن يقول : هذا الكتاب لهذا الكتاب سواءً . ويقال : الكتاب سواء ، والرجلان سواء فى العلم .

وقد وقع السؤال عن هذا الأسلوب « سواء بسواء » ، وهل ورد فى المأثور عن العرب . والباحث لا يرى المعاجم اللغوية عرضت له . غير أنه جاء فى حديث الربا قوله صلى الله عليه وسلم : الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مِثلا بمثل ، سواء بسواء ، يداً بيد . وقد جاء هذا الحديث فى مسلم وأبو داود ، بل قيل إنه فى الستة ما عدا البخارى . وإذا جاء الحديث بلفظ واحد مع تعدد رواته وطرقه ، قوى الظن أنه لفظ الرسول عليه الصلاة والسلام ، وضعف احتمال الرواية بالمعنى فيه .

ونرجع إلى الحديث . فالمراد أن يباع المثل بمثله ، والسواء بسوائه . فالباء فى (بسواء) حرف جر أصلى ، هى باء المعاوضة والمبادلة . وهل يأتى هذا فى مثالنا : هذا الكتاب كهذا الكتاب سواء بسواء ؟ وفى الحق أنه لا يظهر هنا معنى المعاوضة كما يظهر فى الحديث . وهذا يقودنا إلى القول بأن الأسلوب الجارى على الألسنة احتذى به الحديث فى غير دقة وسداد .

وقد خطر بالذهن أن الباء فى (بسواء) فى الاستعمال الشائع زائدة دخلت على سواء ، و هو توكيد لفظى ، كما تدخل على التوكيد المعنوى فى قولك : جاء زيد بنفسه ، وبعينه .

وهذا التخريج لا بأس به ، وإن كان يضعفه أن زيادة الباء يقتصر فيها على مواردها المسموعة ، وليس هذا الموطن منها . والله يتولانا بالهداية إلى الصواب .

(١) يجرى الرضى على تأنيث الحرف لتأوله بالكلمة ، ولذلك يؤنث الفعل له .

ضيق الصـــدر

والازمات النفسية

لفضيلة الأستاذ الشيخ على رفاعى
مفتش الوعظ

إن ضيق الصدر ومايحدثه من ويلات ، وأزمات النفس وماتسببه من كوارث ونفاد الصبر وما ينتج عنـه من بلاء وعناء . كل أولئك من الأمراض الخطيرة ، التى كثيراً ما تؤدى بأصحابها إلى سوء المصير - وتجعل حياتهم جحيما لا يطاق . ولمـا كان لكل داء دواء ، ولكل علة طريق يفضى إلى الشفاء ، والإنسان إن لم يعالج مرض جسمه هلك ، والنفس كالجسم إن مرضت تحتاج إلى علاج ، وعلاجها بدواء يناسبها . وتركها بدون علاج يذبل زهرتها ويطفىء نورها - لمـا كان الأمر كذلك . وجب علينا أن نبحث متلمسين طريق الخـلاص من مرض ضيق الصدر وما يسـببه للنفس من كآبة وحزن ونحن إذا تعرفنـا على عـلة الداء . أصبح من اليسير القضاء عليـه قبل أن يستفحل ، ولقد قضى الحكيم العليم . أن تكون الحياة ميدانا صاخباً بالهموم والأحزان . حافلا بالرزايا والنوائب . مائجاً بالآلام والأسقام ، تصطرع فيه النكبات . وتتزاحم على أهله النـازلات . والإنسان بين ذلك فى جهد وتعب . ومشقة ونصب . خلقه الخالق العظيم وأراد به ذلك ، وفى هذا يقول جل جلاله « لقد خلقنا الإنسان فى كبد » سبحانك ربى علمت بحكمتك الأزلية فقضيت ولا راد لقضائك . فلا يزال الإنسان فى شدائد . فمن ظلمة الرحم ومضيقه إلى اصطراع فى الحياة وجهاد مرير ، ثم يعقب ذلك النازلة الكبرى - الموت الذى يضع حداً فاصلا بين معتركين . معترك الحياة الدنيا - والدار الآخرة - وللإنسان فى هذه الحياة الدنيا آمال يرجو تحقيقها يحـدوه الرجاء . ويتملكه القلق . لأمل ينشده ويخشى الحرمان منه . أو لشر يحذره ويخاف وقوعه . . وقد يضيق صدره . ويخيِّم الحزن على قلبـه . وتطير نفسه شعاعاً لمحبوب فات نواله ؛ أو ضر نزل به . وقد يحدث ما نابه أو ما يتوهم أن يصيبه أزمة نفسية يغدوا بها كئيباً كاسف البال

يئوساً موزع النفس ، فتراه ميتاً فى صورة الأحياء . حياته شقاء . وعيشه عناء . موته راحة له من الآلام . ولقد أدرك هذا المعنى وصوره أكمل تصوير من قال :

ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء
إنما الميت من يعيش كئيباً كاسفاً باله قليل الرجاء

فالاستسلام لضيق الصدر والأزمات النفسية داء خطر يوهن النفس ويضعف القلب ، ويقنط من زوال الخطب . فيشتد الكرب . ويدوم الكمد ويستمر النكد . فيجىء الغد كالأمس فى غمه وبلائه ، ويلازم النفس التشاءم والتطير . وينقطع الرجاء ، ويستعصى الخلاص ـ وهذه جميعاً بلايا لا تجلب خيراً ولا تدفع شرا ولا ترد فائتا . ولا تحقق أملا . وفى ذلك سوء الحال . وشر المآل وفى الحكم المروية ـ من قل صبره ، وعظم عليه أمره . وضاق عن حمل ما نزل به صدره فقد تبين كفره . فلا يؤمن على من كان الجزع من شأنه أن يذهب بإيمانه .

ويقول بعض العلماء : من كثر جزعه كثرت زلته ، وعظمت علته وبعد أمله وحبط عمله ، وكفى مرض ضيق الصدر قبحا أن الانتحار أثر من آثاره . وسيئة من سيئاته ـ وهو بعد ليس من صفات العقلاء فى شىء . فالمصاب به عقله مختل وقلبه معتل ، ونفسه مريضة فلا يليق بالإنسان الذى جعل خليفة فى الأرض . وخلق لعمارتها وصلاحها أن يستسلم لهذا المرض الذى يقضى على الهناءة ، وينغص الحياة ويهدم القوى ويحطم الأعصاب ويذيب الحيوية والنشاط ، ولنا فى الأنبياء عليهم السلام أسوة وقدوة ـ فهذا موسى عليه السلام ، لم يستسلم لضيق صدره ، حيث لا ينطلق لسانه كما يريد ـ فطلب من ربه الذى أرسله . أن يعينه بأخيه هارون لأنه أفصح منه لسانا . فلا تختل دعوته ولا تضعف حجته . وفى ذلك شرح لصدره وتيسير لأمره) قال رب اشرح صدرى ويسرلى أمرى واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى واجعل لى وزيراً من أهلى هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى :) وفى آية أخرى قال الله سبحانه (وإذ نادى ربك موسى أن إئت القوم الظالمين ، قوم فرعون ألا يتقون . قال رب إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى فأرسل إلى هارون) .

ومن شرح الله صدره بالإسلام ، سهل عليه علاج نفسه من هذا المرض الخطير

وسعد بالشفاعة ـ وعليه فقط أن يبحث عن الطبيب الحاذق ـ ويستعمل ما يصفه من الدواء فسيجد السلامة منه . وطبيبه فى هـذا إرشادات الإسلام ، فمن هديه الدعوة إلى الصبر والرضا بالقضاء والقدر ، وإحياء الرجاء فى السلامة ، والحياة الصحيحة بالعمل على ذلك . وكل ذلك من شعب الإيمان .

ولقد حضّ القرآن الكريم على الصبر فى أكثر من سبعين موضعاً . وأضاف أكثر الدرجات والحسنات إليه ، وجعلها ثمرة له وطلب منا الاستعانة على كل أمورنا ، وما ينزل بنا بالصبر والصلاة قال الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة ، إن الله مع الصابرين » .

فاستعن بالصبر . وعالج أمرك بالروية والحكمة . وحذار أن ينفد صبرك ، أو تعيا حيلتك . فالرجل كل الرجل هو الذى يتخذ من الهزيمة فى أمر من الأمور مطية للانتصار فى محاولة مقبلة . والعاقل الأريب هو الذى ينتفع بأخطاء قد تقع منه فيتجنبها ويسير على نهج سوى . ولا يستسلم لليأس فإنه قتال للنفس ، مثبط للهمم ، جالب للهموم والأحزان .

وعلى من ضاق صدره لأمر من الأمور ، أن يتذكر أن أيامه فى هذه الدنيا معدودة وأنفاسه محدودة . وأنه فى هـذه الحياة ضيف ولا بد من الرحيل . فإذا أيقن بهذا ، فلماذا يكدر عيشه بضيق الصدر ، وينغص أيامه القصيرة بالأحزان والكآبة . إن كان ذلك للمال فهو إلى زوال ، وإن كان لسعة الرزق فقد تكفل به الكبير المتعال ـ وعلى كل حال فالدنيا إما نقمة نازلة ، وإما نعمة زائلة : أولها عناء ، وآخرها فناء . حلالها حساب ـ وحرامها عقاب . ومن صح فيها أمن ، ومن مرض فيها ندم . ومن استغنى فيها فتن . ومن افتقر فيها حزن . ومن ساعاها فاتته ، ومن تعد عنها أتته . ومن نظر إليها أعمته . ومن نظر بها بصرته : ويرحم الله القائل :

تمتع من الأيام إن كنت حازماً فإنك منها بين ناه وآمر
إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

أيها المكتئب الحزين تمثل قول الحسن البصرى رحمه الله :

الدنيا كلها غمّ فما كان منها من سرور فهو ربح .

دراسات في التصوف

الأمـير المتصوف

لحضرة الأستاذ عمر طلعت زهران

أستاذ فى الأدب

يا من ترفع للدنيـا وزينتها ليس الترفع رفع الطين بالطين
إذا أردت شريف النـاس كلهم فانظر إلى ملك فى زى مسكين

أبو العتاهية

كان يقوم فى بلخ بخراسان ، فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، قصر عال منيف ، يملؤه الخدم ، ويروح أمامه الحراس ، ويجيئون ، يقيم به أمير من نسل الملوك ، هو أدهم بن منصور بن يزيد العجلى ، من العرب ، من بنى عجل ، أو من تميم (١) ، كريم الحسب ، عريض الثراء .

حزم الأمير أدهم رأيه على أن يؤدى لله بعض حقه بحج بيته الحرام ، فأعد العدة ، وسار ركبه ، يضم زوجه وخدمه نحو الأرض المقدسة الطاهرة ، فبلغها . وكانت الزوج حاملا فى شهورها الأخيرة ، وكأنما أراد الله لها أن تضع مولودها فى أرضه المباركة ، فوضعت غلاما ، واستخفها الفرح — بالغلام وبالميلاد فى الأرض التى حملت على ثراها الرسول — فجعلت تطوف به فى المسجد ، وتقول للناس : ادعوا لابنى أن يجعله الله رجلا من الصالحين (٢) .

وعلت وجوه الناس ابتسامة حلوة ، إذ هاجت فيهم عاطفة الأبوة ، فدعوا الله بقلوب خالصة خالية ، أن يحقق حلم الأم ، وكأنما كانت أبواب السماء مفتحة ، فاستجاب الله لدعاء الداعين .

وعاد الحجيج - كل إلى بلده ، وعاد أصحابنا إلى بلخ ، وشب الرضيع غلاماً ،

---

(١) البستانى ٢١١/١ ، الحلية ٢٧٣/٧ . (٢) قارن الحلية ٢٧١/٧ .

ففتى يرتع فى ثراء أبيه العريض ، ويحيا الحياة التى كان يحياها أترابه ، لهو وفراغ ، فإذا أضجره الفراغ بحث عن اللهو .

وكان أبوه قد حبب إليه الصيد ، فخرج يوما يصطاد ، وسار بين يديه نحو من عشرين شاكرى[1] ، فأثار أرنباً أو ثعلباً ، فتبعه بجواده ، وهو فى نشوة السعادة بفتوة الشباب وفراغ الحياة . وسار به جواده يتبع الحيوان المسكين ، حتى بعد عن رفاقه ، فإذا به يسمع صوتاً يهتف به : « ليس لذا خلقت ، ولا بذا أمرت » . فتوقف متلفتاً يبحث عن هذا المتحدث فلم يجد بجانبه إنسانا ، فظن الأمر وهما ، ولكن جواده يريد أن يسير ، فإذا بالصوت يخرج من قربوس سرجه : « يا ابراهيم ما لذا خلقت ولا بذا أمرت »[2] .

وآن لدعاء الصالحين ، أن يستجيب له الله ، حين وقف الفتى المترف ، المدثر بالحرير والدمقس ، فصاح فى نفسه : « أنبهت ، أنبهت ! جاءنى نذير من رب العالمين . والله ما عصيت الله بعد يومى ذا ما عصمنى ربى » . وألقى الشاب المرفه المترف ثيابه الغالية ، ونزل عن فرسه المطهم ، واستبدل كل هذا بجبة من صوف لراع من رعاة أبيه ، ثم أخذ يضرب فى بلاد الله .

وقد تختلف الرواية قليلا ، ولكن أساسها يبقى واحداً ، وهو أن الشاب الموسر الغنى المترف المرفه ، ترك الدنيا فجاءة ، ونزع عنه أسبابها .

أو قد تختلف الرواية كثيراً . فتجعل الشاب جالساً فى قصره ، يتفكر ويتأمل ، فيسمع ذات ليلة جلبة صاخبة فوق سطح القصر ، فلما ذهب الحراس يستطلعون الخبر ، فاجأوا قوما يدعون أنهم يبحثون عن إبلهم الضالة ، فاقتيد هؤلاء المقتحمين للقصر إلى الأمير ، ولما سألهم : « هل حدث أن تفقد امرؤ إبله فوق سطوح المنازل » ، أجابوا : « نحن لا نعمل إلا اقتداء بك أنت الذى تسعى إلى الاتحاد بالله ، بيناً أنت جالس على عرشك ، فهل لرجل فى مثل هذا المقام يستطيع أن يقترب من الله » ، فكان من هذا أن هرب الأمير من القصر ، ولم يره أحد منذ ذلك الوقت[3].

---

(١) الحلية ٧/ ٣٧١ . (٢) الحلية ٧/ ٣٦٧ ، الرسالة ٩ .

(٣) العقيدة والشريعة فى الاسلام . الترجمة العربية ص ١٤٣ .

ذكر هذه الرواية جلال الدين الرومى ، ومنها نستطيع أن نتبين أمرين ، أما أولهما فهو أن فكرة التصوف - أو الزهد - كانت موجودة قبلا فى نفس إبراهيم ، وأما الثانى فهو اعتقاد فريق من المتصوفة بأن سمو المكانة يبعد المرء عن الله ، وهى فكرة نستطيع بها أن نفهم تواضعهم وزهدهم فى كل شىء، عدا الله ، بل ونستطيع بها أن نعلل سلوك الملامتية وأن نعذرهم .

هجر إبراهيم إذن قصره ، وكل ما يربطه بالعالم ، حتى زوجه وأولاده ، ويرى جولد تسيهر [١] . أن قصة ابراهيم بن أدهم تشبه فى سماتها البارزة سيرة « بوذا » . بدأ جوتامو بوذا حياته بهجره لعائلته ، والأسطورة المعروفة الشائعة عنه هى أن أميراً أقلقه منظر المرض والشيخوخة والموت ، فقرر أن يبحث عن الخلاص من آلام الحياة ، فترك فى ظلام إحدى الليالى قصره الملكى الباذخ ، وعائلته الحبيبة ، ليبدأ حياته جواب آفاق فقيراً ، حياة راهب سائل . وقد تبدو هذه القصة خيالية ولكننا نرى فيها أعمق المعانى ، تتناول مباشرة وبصراحة مأساة الحياة [٢] .

وإن كان بوذا وإبراهيم قد تركا الثراء إلى الفقر ، والعز إلى الزهد ، فثمت كثيرون غيرهما فعلا نفس الأمر ، وتاريخ التصوف الإسلامى يروى الكثير عن أمثال إبراهيم بن أدهم ، وإن لم تكن لهؤلاء مثل شهرته : روى الكتانى قال : « كان بمكة فتى عليه أطمار رثة ، وكان لا يداخلنا ولا يجالسنا ، فوقعت محبته فى قلبى ، ففتح لى بمائتى درهم من وجه حلال ، فحملتها إليه ، ووضعتها على طرف سجادته ، وقلت له إنه فتح لى ذلك من وجه حلال تصرفه فى بعض أمورك . فنظر شزرا ، ثم كشف عما هو مستور عنى ، وقال : « اشتريت هذه الجلسة مع الله تعالى على الفراغ بسبعين ألف دينار ، غير الضياع والمستغلات ، تريد أن تخدعنى عنها بهذه . وقام وبددها » [٣] .

ومثل هذا الزاهد العابد العارف كثيرون ، تركوا جميعاً الدنيا ونزعوا اليد من الأسباب ، وأرادوا الله .

* * *

---

(١) المرجع السابق .

(٢) Great Age of world History, V. Stanka, 1946. P. 9

(٣) الرسالة ١٦٤ .

المتصوفة فريقان : فريق آثر الإقامة فلم يسافر إلا لغرض ، ومن هؤلاء الجنيد وسهل بن عبد الله والبسطامى ، وفريق آثر السفر ، فكان على ذلك إلى أن خرج من الدنيا ومن هؤلاء أبى عبد الله المغربى وإبراهيم ابن أدهم .

آثر ابن أدهم التنقل والسفر ، فهو كصوفى يرى أن العالم كله وطنه ، والناس كلهم إخوانه . لا يفرقهم عنه وطن ولا دين ، حتى ليقال إنه أخذ المعرفة عن راهب مسيحى اسمه أبو سمعان (١) .

ترك إبراهيم خراسان ، يرتدى فروا ليس تحته قميص ، ولا يلبس خفين ولا عمامة ، إذا كان الوقت شتاء ، أو يرتدى - صيفا - شقتين ، بأربعة دراهم ، يتزر بواحدة ويرتدى الأخرى ، وسار أرض تضعه ، وأرض ترفعه حتى جاء العراق ، ومنها إلى مكة ، ثم البادية وبها لقى سفيان الثورى والفضيل بن عياض(٢). وما لبث أن قصد بلاد الشام والثغور ، فتنقل فى ربوعها ، جاعلا منها مركزه الرئيسى ، الذى يرجع إليه دائما بعد سفره الكثير . وهو لم يأت الشام لجهاد أو رباط ، وإنما ليشبع من خبز حلال . (٣)

ومات إبراهيم بالشام عام ١٦١ أو ١٦٢ للهجرة ، فى خلافة المهدى العباسى . قال أبو نعيم : « إنه مات فى صائفة السفر بالبطن » ، وهذا قول مردود ، كما سنرى بعد . أما المشهور فى موته فهو أنه مات وهو يغزو فى إحدى الجزر ببلاد الروم - كما يقول البستانى ، وإن كان الأرجح ، فيما أرى ، هو ما رواه فرج - مولى إبراهيم - من أنه مات فى الجزيرة أثناء الغزو ، فحمل إلى صور ودفن بها فى موضع يقال له « مدفلة » ، وعرف أهل صور قدره ، فصاروا يذكرونه فى تشبيب أشعارهم ، ولا يرثون ميتا إلا بدأوا بذكره . وقال القاسم بن عبد السلام إنه رأى قبره بصور (٤) .

هذا هو إبراهيم بن أدهم ، الذى عد واحد من أربعة كانوا أهل الورع فى زمانه حتى إنه وأصحابه كانوا يمنعون أنفسهم أربعا : لذة الماء والحمامات والحذاء ، ولا يجعلون فى الملح أبزارا . (٥)

وإلى العدد التالى لنكمل حديثنا عنه . [يتبع]

(١) الحلية ٨ / ٢٨ . (٢) خراسانى من مرو ، وقيل ولد بسمرقند ، ومات بمكة سنة ١٨٧ هـ كان يقطع الطريق ثم تاب . (٣) الحلية ٧/٣٦٣ . (٤) الحلية ٨/٩ . (٥) الحلية ٧/٣٩٤

من طرائف القرآن الحكيم

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغنى عوض الراجحى

مبعوث الأزهر بكلية الشريعة الاسلامية فى بغداد

نقتصر فى مقالنا هذا على سبع مفارقات تتعلق بتشابه النظم فى قصص القرآن الكريم حيث يكون المعنى واحد أو كالواحد يذكر فى أكثر من موضع بعبارات تختلف تقديماً وتأخيراً وذكراً وحذفا ونحو ذلك نكشف عن السر فى ذلك تفصيلا بعد ما عرف إجمالا من أن ذلك مردود إلى التفن والتنويع ومناسبة المقامات المختلفة لمقتضيات أحوالها المختلفة .

المفارقة الأولى . . فى قوله تعالى فى سورة الأعراف فى قصة صالح : فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى . . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة شعيب . . فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات . ربى . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة نوح . . ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى . . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة هود : ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى : فقد كانت الرسالة فى قصة صالح على لفظ المفرد وفى قصة غيره على لفظ الجمع فهل من سر لذلك . ؟ والجواب أن المؤدى فى النهاية واحد لأن الرسالة بالنظر إلى وحدتها فى حد ذاتها يصح أفرادها وبالنظر إلى ما تشتمل عليه من الأوامر والنواهى والإرشادات الكثيرة يصح جمعها لكن الأفراد بقصة صالح أوفق لأنه لم يحك عنه فى القصة كثير من ذلك بل دار كلامه على الناقة والحث على إكرامها . . والجمع بقصص المذكورين من نوح وهو وشعيب أوفق فقد ذكر فى قصصهم كثير من الجدل والأوامر والنواهى سيما شعيب الذى كان مرسلا إلى أهل مدين وأصحاب الأيكة الأمر الذى يقتضى تعدد التبليغ وتكثر

الإرشادات وفى « ملاك التأويل » ما يعطى أن العرب فى كلامها تضع الأكثر فى مقابلة الأكثر وبجواره والأقل فى مقابلة الأقل وبجواره فحيث كان فى قصة شعيب كثير من أوامره ونواهيه المتعلقة بالعبادة والموازين والمكاييل وقع التعبير بالرسالات جمعا . . وحيث كان فى قول قوم نوح له « إنا لنراك فى ضلال مبين » كثرة وشمول حيث أرادوا أنه ضال فى كل ما يأتى ويذر ضلالا بيناً كان الرد عليهم بالرسالات جمعا فى قوله ليس بى ضلالة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى » وكذلك كان الحال فى قصة هود حيث قال قومه له « إنا لنراك فى سفاهة » والسفاهة مصدر سفه بالضم أرادوا أنها صارت له ملكة فى كل ما يأتى ويذر فكان فى ذلك شمول فناسب الجمع فى الرسالة فى رده عليهم « ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالات ربى . . وحيث لم يذكر فى قصة صالح شيء من ذلك اللهم إلا الناقة وكفر قومه به جاء لفظ الرسالة مفردا .

المفارقة الثانية : فى قوله تعالى فى سورة هود فى قصة نوح أرأيتم أن كنت على بينة من ربى وآتانى رحمة من عنده مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة صالح أرأيتم أن كنت على بينة من ربى وآتانى منه رحمة . مع قوله تعالى فى السورة نفسها فى قصة شعيب . أرأيتم أن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا .

فالآيات الثلاثة فى حكاية أقوال هؤلاء الأنبياء الثلاثة لأقوامهم لكن المفعول الثانى لفعل الإيتاء فى قصة نوح وقع تاليا للفعل ومفعوله الأول لا فاصل بينهما وفى قصتى هود وشعيب وقع المفعول الثانى رحمة فى الأولى ورزقا فى الثانية مفصولا بينه وبين المفعول الأول وفعله بالجار والمجرور وهو قوله « منه » فهل من سر لذلك . ؟ ؟ والجواب أنه حيث تقدم فى قصة نوح فى نفس السورة أفعال اقتضت مفعولين لا فاصل بينهما بمثل هذا الجار والمجرور وذلك فى قولهم له : « ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك ابتعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى ، كان من الحسن انباع المتأخر بالمتقدم فى الطريقة فلما كان التقدير فى قولهم هذا نراك بشراً مثلنا . نراك متبوع الأراذل كان رده على نفس هذه الطريقة . . آتانى رحمة من عنده بعدم الفصل بين المفعولين بجار ومجرور . . وحيث تقدم فى قصة صالح

---

(١) مخطوط

فى نفس السورة قول قومه فى كفرهم « قد كنت فينا مرجوا قبل هذا » فوقع الجار والمجرور بين اسم كان وخبرها كان من الحسن اتباع المتأخر بالمتقدم فى الطريقة بوقوع مثل هذا الفاصل بين المفعولين فقيل « وآتانى منه رحمة » وقريب من ذلك الواقع فى قصة شعيب فأن ما فى حكاية كلامه من تقديم الجار والمجرور على المفعول الذى هو الرزق شبيه بما سبقه فى نفس القصة والسورة من قول قومه له « أو أن نفعل فى أموالنا مانشاء » ، بتقديم الجار والمجرور على المفعول . .

وفى « ملاك التأويل » ما يعطى فى سر هذا المفارقة جوابا آخر مؤداه أن قوم نوح ألقوا الشبه والكفريات على الأصل دون تقعر والتواء فى الكلام فقد اتهموه بالمثلية فى البشرية واتباع الأراذل وكاشفوه بظنهم كذبه وكذب اتباعه وقوم صالح تقعروا فى الكلام وأسقطوا صالحا عن رتبة الرجاء فى حاله فوقعت حكاية قول كل رسول على طريقة حكاية كفر قومه فكانت فى قصة نوح على الأصل من تقديم المفعول وتأخير المتعلق به فقيل : وآتانى رحمة من عنده ، وكانت فى قصة صالح على خلاف الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثانى « وآتانى منه رحمة » وقريب منه ما فى قصة شعيب فقد كان قومه متقعرين ملتوين خارجين عن الأصل فى قولهم له « أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد » فكان فى جوابه خروج عن الأصل بتقديم الجار والمجرور على المفعول الثانى فى قوله ورزقنى منه رزقا حسنا .

أما التعبير بالرزق فى قصة شعيب بدلا من الرحمة فى قصتى هود وصالح فلمناسبة الأموال والمكاييل والموازين المذكورة فى قصته فإن لفظ الوزن بجوار ذلك أشكل وأوفق .

أما كون هذا الجار والمجرور فى قصتى صالح وشعيب بلفظ « منه » وفى قصة نوح بلفظ من عنده فالمعنى ، وإن كان واحدا إلا أن زيادة العندية تفيد زيادة التمكين فى المعنى وذلك أوفق بقصة نوح لما فيها فى هذه السورة خاصة من الاطناب والزيادة فى بيان جداله مع قومه الذين كانوا كما نطق القرآن عنهم أظلم وأطغى . .

المفارقة الثالثة : فى قوله تعالى فى سورة الصافات فى قصة ابراهيم من قول ابنه له « ستجدنى ان شاء الله من الصابرين » مع قوله تعالى فى سورة القصص

فى قصة موسى من قول صهره له « ستجدنى إن شاء الله من الصالحين » وواضح أن الأولى من قول الذبيح حين أخبره والده بعزمه على ذبحه تنفيذاً لوحى الله فكان له معوانا على طاعة الله بامتثاله وقوله له يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين أى على آلام الذبح فالصبر بهذا الموضع أوقع وأن الثانية من قول شعيب لموسى حين المعاقدة بينهما على زواج الثانى بابنة الأول على أن يأجره ثمانى حجج فإن أتم عشراً فمن عنده فقال له وما أريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين أى فى المعاملة لا ظالما ولا طامعاً فالصلاح بهذا الموضع أوقع . .

المفارقة الرابعة : فى سورة الشعراء فى سائر قصص السورة[1] يقول كل رسول لقومه « فاتقوا الله وأطيعون » هكذا تكون آية برأسها إلا أنها فى قصة كل من نوح وهود وصالح ذكرت مرتين وفى قصة لوط وشعيب ذكرت مرة واحدة . . والسر فى ذلك ـ والله أعلم ـ أنها فى قصة شعيب وقع الإغناء عن ذكرها مرة ثانية بما ذكر من قوله لقومه « واتقوا الذى خلقكم والجبلة الأولين ووقع الإغناء عنها فى قصة لوط بما ذكر من قوله لهم « إنى لعملكم من القالين » فهو بغض لعملهم مستلزم لارادته أن يطيعوه بتقوى الله والاقلاع عما هم فيه . ثم لا يبعد أن يكون ذلك لأن شعيباً ولوطاً ذكر عنهما خاصة فى السورة الاشتغال بالنهى عن معصية معينة هى اتيان الذكور والتلاعب بالمقاييس فكان ذلك اشتغالا بتحصيل طاعة وتقوى فى أمر معين أغنى عن الاشتغال بتحصيل طاعة وتقوى عامة مرة ثانية[2].

المفارقة الخامسة : فى قوله تعالى فى سورة الشعراء قصة ابراهيم « فأنهم عدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين والذى هو يطعمنى ويسقين وإذا مرضت فهو يشفين والذى يميتنى ثم يحيين » مع قوله تعالى فى سورة النجم « وأن إلى ربك المنتهى وأنه هو أضحك وأنه هو أمات وأحيا وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأن عليه النشأة الأخرى وأنه هو أغنى وأقنى وأنه هو رب الشعرى » الكلام ها هنا فى ذكر الضمير « هو » قبل بعض الأفعال المسندة إلى الله دون بعض فى كل من الآيتين هل من سر لهذه التفرقة ؟ والجواب أن هـذا الضمير ذكر قبل الأفعال التى يتوهم أنها من فعل العبد ومن شأنها أن يلتبس الأمر فيها أما الأفعال

---

(١) ما عدا قصص موسى وابراهيم فلهما نمط خاص (٢) راجع السورة الكريمة

التى من شأنها أن لا يقع فى أنها محض فعل الله اشتباه فيستغنى بوضوح خلوصها لله عن الاتيان بهـذا الضمير وعلى ذلك فقد جاء قبل الاغناء والاقناء والاضحاك والابكاء والاطعام (١) والهداية وكونه ربا للشعرى ولم يجىء قبل كونه عليه النشأة الأخرى وكونه خلق الزوجين الذكر والأنثى مع ما حصلت به تقوية هذا الأخير من سابق قوله تعالى فى سورة النجم « هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم » لكن ما يستحكم فيه السؤال فعل الإحياء والإماتة وتقدم الضمير عليهما فى سورة النجم دون ذلك فى سورة الشعراء وهما شىء واحد ولعل ذلك ـ والله أعلم ـ لأن الأصل عدم وقوع اللبس فى أنهما من محض فعل الله لكن قد يعرض هذا اللبس ويحلو التلبيس فى هذا للنادر من المعاندين الذين يركبون رؤوسهم كالنمروذ حين حاجه ابراهيم فقال له « ربي الذى يحي ويميت قال أنا أحيي وأميت » وإذا كان ذلك كذلك فقد جاء الكلام على الأصل من عدم الالتباس وبالتالى حذف الضمير فى سورة الشعراء السابقة على سورة النجم فى ترتيب التلاوة لأنها كالأصل لها فكان ذلك من وقوع الأصل فى الأصل مع مراعاة أن عدم اللبس فيما يختص بشخص المتكلم أبرز وأظهر فيتبعه حذف الضمير وهذا هو الواقع فى سورة الشعراء لأنها فى حديث ابراهيم عن نفسه بينما كان المقابل لذلك كله هو الواقع فى سورة النجم . .

المفارقة السادسة : فى قوله تعالى فى سورة هود والذاريات فى قصة ابراهيم « أوجس منهم خيفة » مع قوله تعالى فى سورة طه قصة موسى « أوجس فى نفسه خيفة موسى » فقد زادت الثانية على الأولى قوله فى نفسه وذلك لأن موسى استشعر هذه الخيفة وهو فى موقف التحدى بمعجزة العصا على ملأ من الناس بعد أن ألقى السحرة حبالهم وعصيهم وخيل اليه من سحرهم أنها تسعى فكان يبالغ فى إخفاء هذه الخيفة عن الناس وما صرح بها لأحد أما ابراهيم فما كان يبالغ فى إخفاء هذه الخيفة عن ضيفه المكرمين بل أنه أعلنها بعد أن توجسها بقوله إنا منكم وجلون فقالوا له لا توجل إنا نبشرك بغلام علم .

المفارقة السابعة : فى قوله تعالى فى سورة ابراهيم الآيات ٩ ، ١٠ ، ١١ قصص قوم نوح وعاد وثمود .

(١) قوله ويسقين معطوف على قوله يطعمنى فهما واحد (٢) سورة البقرة

(٢) الرهبانية والديرية والتصوف

للأستاذ عبد المنعم محمد الشيخ

تناولنا فى بحثنا السابق بعض نواحى هذا الموضوع ، فنحن قد تحدثنا عن أصل اشتقاق كلمات « الرهبانية والديرية والتصوف » ، كما عرضنا أيضا لماهية هذه النظم التعبدية والظروف التى نشأت فيها .

والآن ، وفى هذا البحث ، نتابع عرضنا لهذا الموضوع ، متناولين تطور هذه النظم التعبدية ، مع تحقيق ما جرينا عليه فى بحثنا السالف وهو عقد المقارنة بينهما كلما لاح لنا وجه ملائم لهذه المقارنة .

إن أول من نادى بحياة الرهبانية هما القديسان « پول Paul وأنطون ٢٥١ - ٣٥٦ م » ويعتبر الأخير المؤسس الأول للرهبانية ، فى بلدة « قمن العروس » بمديرية بنى سويف ، كما يعد القديس « باخوم » المؤسس الأول للديرية فى مصر العليا .

ولقد انتشرت الرهبانية والديرية بادئ الأمر فى مصر ، ثم انتقلت إلى فلسطين وسوريا ثم الشرق جميعه ثم الغرب .

ولقد نشأت الرهبانية أولا ثم الديرية ثانياً ، وتعد الديرية فى الواقع تشذيب وتهذيب لحياة الرهبانية القاسية ، وقد تم ذلك على يد القديس « باخوم » المتوفى عام ٣٤٩ م ، إذ أدرك قسوة التعاليم الرهبانية ، التى لا تحسب لإنسانية الإنسان حساباً ، والتى تكلفه فوق طاقته البشرية ، فبنى هذا القديس ديراً بجزيرة « تابينا Tabenna » بالنيل ، حيث أسس طريقة تبنى فى جوهرها على النظام والطاعة والعمل اليدوى والرياضة البدنية ، وبذلك أزال هذا القديس لأول مرة وحشة حياة التنسك الانفرادية ، ثم انتقلت الرهبانية والديرية بعد ذلك إلى الولايات

الرومانية الشرقية على يد أخت القديس « باسيلى » عام ٣٥٨ م ثم أسس « باسيلى Basil » هـذا مستعمرة من الديريين فى « كابدوكيا Cappadocia » وسرعان ما انتشرت تعاليمه فى سوريا وفلسطين واليونان فى العصور الوسطى ، ولدقة هذه التعاليم وشدة تنظيمها ، أطلق عليها اسم « القاعدة الباسيلية » ويعد « باسيلى » من الرجال النادرين الذين استطاعوا النهوض بالناحية العلمية من الحياة الديرية ، فكانت تعاليمه لا ترمى إلى مساعدة الذات فحسب ، بل إلى مساعدة الفقير والضعيف أيضاً ، وإلى تنمية حاسة الشعور بالواجب .

والواقع أن حياة التقشف الشديدة وحرمان النفس ملذات الحيـاة ، تجعل الإنسان غـير صالح للنفع العام ، وقد كانت تعاليم « باسيلى » تجمع بين الناحيتين التعبدية الدينية والعملية فى الحياة . وتتلخص الحياة داخل الدير الباسيلى فى الصناعة والزراعة وإنشاء الحدائق وصنع الملابس من الجلود وأعمال النجارة وقطع الأحجار والبناء والقراءة وحفظ المخطوطات ، كما أنه لم يسمح للديرى بتملك الأشياء وحيازتها ، فيما عدا ملابسه وحذائه ، وغير ذلك مشاع للجميع ، أى أنهم كانوا يمارسون نوعا من الاشتراكية داخـل الدير ، وحتم على الديرى ، أن تكون ملابسه بسيطة ، تشف عن فقر نظيف ، كما حرم عليه الفحش فى القول والعمل . وبالاختصار فالحيـاة داخل الدير تتسم بالفقر والنظافة والتواضع والعفة والطاعة والتعاون والتجلد ، مع القيام ببعض الأعمال كالغزل والفلاحة والتعلم واستيعاب المخطوطات والصلاة والصوم والتبشير . ومع ذلك كله فيجب أن نقرر هنا أنه بالرغم من أن الرهبانية والديرية قامتا لتحاربا فحش القرن الرابع ، إلا أنهما مع ذلك لم تخلوا من الشرور ، فهذا النوع من الحياة يعتبر على أية حال « أنانية غير أنانية » إذ أن غرضها الأسمى هـو أن يسمو الديرى بنفسه إلى ذروة الكمال ، عن طريق التـأمل ، وتنمية عاطفة حب الله فى نفسه شخصـياً بغض النظر عن الآخرين . كما أن هذه الحياة تعد ضرباً من ضروب الانحلال الاجتماعى ، ونتج من شدة تعصب الديريين أن إضطهدوا كل وثنى ، ونحن نعـلم أن نشوء حركة الرهبـانية والديرية ، كان يتمشى مع النضال الأخير بين الوثنية المحتضرة والمسيحية المتحفزة ، ونعلم كذلك أن النتاج الأدبى والفنى والفلسفى والعلمى كان كله من نتـائج الوثنية ،

وثمرة تفكير العقل الإنسانى حتى تلك العصور ، فراح جماعة الرهبان والديريين المتعصبين يدمرون ويحرقون كل ما يمت للوثنية بسبب من معابد وتماثيل ومخطوطات ومكاتب [1] ، بل زادوا على ذلك وحرموا على الناس قراءة الأدب القديم ، وأغلظوا فى معاملة الفلاسفة والمعلمين . وكل ذلك يعد ، دون ريب ، مسبة وعاراً فى تاريخ هذه الحركة .

شقت الرهبانية والديرية بعد ذلك طريقها من اليونان الشرقى إلى الغرب اللاتينى ، وقد تم ذلك على أيدى أربعة هم : القديس « كسيان Cassian ٣٦٠ - ٤٣٥م » والقديس « مارتن Martin ٣١٦ - ٣٩٧ م » والقديس « قيصر Caesar توفى عام ٥٤٢ م » والقديس « بندكت Benedict ٤٨٠ - ٥٤٣م » ويهمنا من أمر هؤلاء جميعاً القديس « بندكت » حيث حظيت حركة الرهبانية والديرية على يديه وللمرة الأولى فى تاريخها بتعضيد البابوية ، ومن بين أحجار معبد « أبولو Apollo » الوثنى بمدينة « منت كاسينو » الإيطالية ، انبعثت التعاليم البندكتية ، ولقد أدرك « بندكت عيوب الرهبانية والديرية الشرقية ، وعدم صلاحيتها للحياة فى أوربا ، فأخرج نظاما معدلا جديداً عرف باسم « المذهب البندكتى » طابعه الطاعة والعمل وإنكار الذات والصلاة والنظام ، جملة فضائل وضعت بحيث لا تترك ممارستها مجالا للرذائل . أخذت دولة الأوثان تتضاءل بعد ذلك على أيدى بعثات التبشير المسيحية رويداً رويداً ، ويضيق بنا المقام عن تتبع هذه الحركة تفصيلا ، ويهمنا أن نعرف النتائج التى تمخضت عنها حركة الرهبانية والديرية : فقد علمت هذه الحركة رجال الكنيسة حب الإحسان والعفاف وكثيراً من الفضائل الأخرى ، أما تأثيرها على الحياة الاجتماعية فكان واسعاً بعيد المدى ، ففى الزراعة ، أصلحوا كثيراً من الأراضى البور ، التى قاموا فيها بتجارب زراعية . وفى الصناعة ، صنعوا بأيديهم كثيراً من الأدوات التى احتاجوا إليها ، وعرفوا الغزل وصناعة الملابس وقطع الأحجار والبناء ورعى الماشية وطهى الطعام وصبغ الملابس ودبغ الجلود وغير ذلك . وفى التعليم ، حفظوا ما هنالك من مخطوطات

---

(١) أحرقت حينذاك مكتبة الأسكندرية الثانية .

وأنشئت المدارس التعليمية « اسكولات » ومن مزايا هذه الحركة أيضاً تعويد النظام والطاعة بغير إكراه ، كما عملت على نشر المسيحية فى الأقاليم الوثنية ، وأعطت المرأة فى تلك العصور فرصا كانت محرومة منها ، لأن الأديرة النسائية كانت تدار بواسطة إدارة نسائية .

بقى من موضوعنا هذا ، أن نعرض لتطور التصوف ، مكتفين بتتبعه أثناء القرنين الأولين من السيطرة الإسلامية ، ففى القرن الثانى لم يكن للمتصوفة رابطة منظمة تجمعهم ، أو مكان معلوم يزاولون فيه طقوسهم الدينية ، بل كان همهم هو الانصراف عن الدنيا تقرباً من الله تعالى ، ولم تنشأ عندهم بعد فى هذا الدور نظرية الاتحاد أو الحلول والصوفية فى هذا الدور إسلامية محضه ، لم تدخلها العناصر الثورية الهدامة ، وكانت غايتهم من التصوف الاتصال لا الخلاص Slavation .

وفى القرن الثالث ، دخلت فى التصوف العناصر غير الإسلامية ، وأشهرها فكرة الاتحاد ، ولهذا التغير فى معتقدات المتصوفة عوامله : فالمتصوفة كانوا على الدوام ، ينظرون إلى الإسلام كمصدر للسلطة ، وأنهم اقتبسوا نظام الأقطاب عن الشيعة ، وتأثروا بمذهب الاسماعيلية ، وأخذوا مذهب الحلول منهم ، ثم أن الاسلام يعتبر من أصول الصوفية الأولى إن لم يكن من أولها ، وبالإضافة إلى ذلك فإن التصوف قد تأثر دون شك بالعناصر الأجنبية فأخذت الصوفية عن النصرانية نظرية « الحب الآلهى » ، كما قيل إن لباس الصوف من أصل يونانى وأن نذور الصمت وحلقات الذكر يمكن إرجاعها إلى مصدر نصرانى ، وتأثر التصوف كذلك بالأفلوطونية الجديدة عن طريق الترجمة والنقل والاختلاط مع رهبان النصارى فى الرها وحران ، كذلك تأثرت الصوفية بالمعرفة Gnosis or Gnosticism ، ويمكننا أن نلمح هذا الأثر فى أقوال الصوفية أنفسهم ، فلقد قال الكرخى « التصوف معرفة الحقائق الآلهية » ثم أن الرأى القائل بأن الكون سائر على نظام النور والظلام ، واعتقاد الرفاعية فى « الحجب السبعة آلاف » كليهما مأخوذ عن نظرية المعرفة . كذلك تأثر التصوف بالبوذية ، فما استعمال المسابح فى الصلوات وتشييد المقامات إلا مقتبسات عن البوذية كما أن « نظرية الفناء » هى أيضاً من تعاليم البوذية .

ويحسن فى ختام موضوعنا هذا أن نورد شيئاً عن نظام التكايا فى التصوف ،

تاريخ الرجال . . .

لفضيلة الأستاذ الشيخ ابراهيم أبو الخشب
المدرس بكلية الشريعة

قد يضيق الرجل منا ذرعا بصديقه فيقطعه إلى غير صلة ، ويفارقه إلى غير لقاء ، متناسياً ما يوجبه دينه عليه ، من النهى عن هجران المرء لأخيه فوق الثلاث ، أو متغافلا ما يلحقه من لوم اللائمين ، وزراية الناقدين ، لأن الصداقة والعداوة من الأمور التى ترجع إلى المزاج والذوق ، والإحساس والعاطفة ، وأصعب محاولة يحاولها الإنسان التغلب عليها ، والإرغام لها ، وعدم النظر إلى ما يلائمها ، لأن كبت رغباتها ، ومحاربتها فى شهواتها ، قتل للروح ، وموت للوجدان ، وهيهات أن تكون للحى حياة بعدها ، أو يشعر من نفسه بالطموح بدونها .

لما لذلك من الشبه بنظام الديرية فى المسيحية . يقول « المقريزى » إن الخانقاه قد دخلت الإسلام إبان القرن ٥ هـ (١١ م) ويقال إن « أبا سعيد بن أبى الخير » هو مؤسس التكايا . وفى هذه الأمكنة يجتمع الشيوخ ومريدوهم ، الذين يمرون بدور الارتضاع ثم العظام ، وتضم هذه التكية رجالا من مختلف الأعمار والمقدرة ولهم قاعة عامة للصلاة تسمى « بيت الجماعة » ومن يرد الانضمام لهذه الزمرة ، فعليه أن يتخلى عن أمواله وممتلكاته للجماعة ، ويخضع لنظامها من تكرار الذكر والصلاة ، ومن أهم هذه الفرق التى نشأت على نظام التكايا : الرفاعية والبكطاشية والتمادرية وغيرها ، والمهم هو أن الناس أصبحوا لا يفرقون بين الشعوذة والدين والعلم ، وانشطر علم الشريعة إلى نوعين : نوع اختص به الفقهاء وأهل الافتاء ، والعبادات ، ونوع اختص به الصوفية من مجاهدة ومحاسبة والكلام فى المواجد والأذواق وكيفية الترقى وشرح الاصطلاحات التى تدور بينهم [1] ، وألف بعضهم فى الورع والمحاسبة كالقشيرى والسهروردى ، ولما جاء الغزالى دون النوعين فى كتابه المشهور « إحياء علوم الدين » فكتب فى الورع والاقتداء وآداب الصوفية وسننها وشرح اصطلاحاتها ، ومن هنا صار التصوف علماً ،

---

(١) مقدمة بن خلدون ص ٩١ .

ولهذا يحسب العقلاء الحساب للصداقة ، ويوصون بعـدم التهافت عليها ، والإسفاف فيها ، ويقولون إن صديقك عرضك ، فتخيره ممن يسمون بشرفك ، ويرفعون قدرك ، ويعلون منزلتك ، ويعزون جانبك ، وينصحون لك ، ويدلونك على مواطن الخير ، ومواضع النبل ، ومدارج الـكمال .

وهنالك صديق لا يستطيع المستطيعون خلقه ، وليس فى إمكانهم التخلى عنه ، ولا التخلص منه ، والهجران له ، وربما كانت المضاضة فى مرافقته ، والتنغيص فى مصاحبته ، والألم فى زمالته ، وكم ود الناس لو يهجرونه إلى غير لقاء .

ومع ذلك فهم يغطون فى نومهم ، ويسبحون فى خيالهم ، ويغرقون فى أحلامهم ويتيهون فى صحراء أوسع من وادى التيه . ولا يعلمون أنه « التاريخ » لا يرحم صاحبه ، ولا يحابى رصيفه ، ولا يفضى لمن يستهتر به ، ويتهاون فيه ، وأن حياة الأمم والجماعات ، قد ينطلى عليها الرياء ، ويروح فيها الـكذب ، وينفق فى ساحتها سوق النفاق ، أما حياة الأفراد فلا يغتفر لديهـا التمويه ، ولا يصح فيها المداجاة ، ولا يحسن أن تقوم على الباطل ، لأن الفرد هو الذى يكتب صفحاته ، وينقش سطوره ، ويملى على الزمن حوادثه ووقائعه ، وهو مسئول ـ لا محالة ـ أمام الله « يوم ينظر المرء ما قدمت يداه » .

بخلاف الشعوب حين تسف ، والدول حين تنزلق ، والأجيال حين تنحدر ، والفرق بين المعنيين واضح التباين ، ظاهر المنافاة ، ولذلك يتناسى الناس الذلة التى يشترك فيها الجماعة ، لأن الذى يحمل وزرها شخصية معنوية ، ولا ينسون الذلة التى تقع من الفرد ، مع صرف النظر عما يترتب على هذه وهذه من الإضرار والإفساد ، والأذى والتنـكيل ، والإيلام والـكيد ، وفوات الفرصة ، وضياع المصلحة .

ولذلك يعنى المربون بالواحد ، أكثر من عنايتهم بالبيئة ، ويهتمون به أولا وبالذات ، كنواة ضرورية ، وحجر أساسى ، ونرى الشارع الحـكيم ، فى توجيهه الواجب ، وإلزامه بالتـكاليف ، يصيح فى آذان المـكلفين واحدا واحدا « ولا تزر وازرة وزر أخرى ... كل امرئ بمـا كسب رهين ... لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ... ولا يحيق المـكر السيىء إلا بأهله » .

وما ذلك إلا لأن الأمل المعلق على الشخص بذاته أعظم من الأمل المعلق عليه دائرا فى بنى جنسه .

والرجل هو الذى يصنع تاريخ نفسه من غير شك، ويملأ صفحاته بما يحدث من أحداث، أو يأتى من وقائع، أو يفكر فيه من خير أو شر «فأما من أوتى كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه إنى ظننت أنى ملاق حسابيه، فهو فى عيشة راضية، فى جنة عالية، قطوفها دانية، كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخاليه... وأما من أوتى كتابه بشماله فيقول ياليتنى لم أوت كتابيه، ولم أدر ماحسابيه» ولذلك يرشده النبى صلى الله عليه وسلم أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب «ومن نوقش الحساب هلك»، ويعلمه أن يتعظ بالماضى، حتى لا يلدغ من جحر مرتين، وأن ينظر إلى ما ينكره من سواه فلا يقارفه، والدين النصيحة.

وأن يشاور فى أموره، ومن شاور الرجال شاركها فى عقولها، بل إنه جعل هذه الشورى من صميم الإسلام.

وأصل ذلك كله أن يكون له ضمير يحذره، وعقل يناصره، وعزم يؤازره.. وهذه ليست من السهولة بحيث تتأتى لكل مرتاد، وتنقاد لكل طالب، وبخاصة الأول منها لأنه نتيجة التربية من البيت إلى المدرسة إلى البيئة.. ولذلك تختلف «الضمائر» إلى بارزة وخافية، ومريضة وصحيحة، والويل لمن يموت فيه «ذلك الحارس»، أو يغفل عنه ذلك المراقب.. وكما أن الجسم يقوى بالغذاء، ويصح بتجنبه لمعاول الهدم والهلاك، فكذلك الضمير غذاؤه التقوى، ينمو بها، ويشب عليها، ويزيد تمكناً وسلامة، ومنعة وصلابة، بحيث يحارب نوازع الشر، ونوازع الطغيان... ولا يزال هكذا صحيحاً، كلما دامت مراقبته.. ولذلك كان من سننه سبحانه الابتلاء، لا ليعرف من الناس مالم يكن يعرف، ويطلع على ما كان خافياً «تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا» ولكن ليحفز المسلم بهذا إلى أن يرجع بنفسه إلى «ضميره» ليرى هل تغافل عن إيمانه فتزعزع، او سها عن بنيانه فتهدم... والمصائب فى لغة الشرع تسمى المحن، لأن صاحبها يمتحن بها، فإذا جازها بنجاح، وتخطاها بجلد، وانتقل منها بفوز، كان من أبطال «التاريخ» أما إذا انكشف بها عن ضعف، وظهر منها عن خور، وانتقلت به إلى سقوط، كان أشبه بالحيوان الأعجم، لا تاريخ له إلا فى حياة البهائم... فلينظر الإنسان إلى أن الله كرّمه، وليعتبر بغيره من الناس، وليحاسب نفسه، وليكن له ضمير المؤمنين، وعقل المفكرين، فإنه هو الذى يبنى مجده ؟

الإسلام والاشتراكية

لحضرة الأستاذ سعيد زايد

لا سبيل إلى إحراز السلام والاشتراكية عن طريق أسنة الرماح بل يمكن ذلك بفضل تقدم الطبيعة الإنسانية . ولم تنجح أوربا حتى الآن فى نبذ النفوذ الأخلاقى الذى بسطته آسيا ولكن لابد لتسترد آسيا سلطانها من ميلاد محمد ثان ، والظروف التى تكتنف العالم تتطلب ظهور عبقرية قوية تربط بين القوى المادية والروحية ولعل هذه العبقرية تولد فى أي حين فالتاريخ يصطنع أمثالها . وأوربا تبذل قصارى جهدها لتجعل آسيا باقية تحت سيطرتها الدائمة ، ثم إن أوربا وقد خشيت التقدم العجيب البارز الذى أحرزته جزيرة صغرى كاليابان تتردد اليوم فى السماح لأية دولة أو أمة أسيوية فى تنمية مواردها المادية وزيادة قواتها البرية والبحرية التى بفضلها صارت لأوربا اليد العليا على آسيا ، وأوربا لا تدع لآسيا متنفسا تتمكن فيه من إصلاح حالها لأنها تعلم أنه لن يمضى وقت طويل على اندماج آسيا من الناحيتين المادية والروحية حتى تقف أمام أوربا وجها لوجه . وإن المسلك العنيف الذى اتخذته بعض الدول الأوربية إزاء تركيا وإيران والصين عندما أبدت هذه البلاد علائم النهوض وحاولت أن تطبق الديمقراطية لدليل واضح على أن أوربا لن ترغب طوعا فى السماح لأية دولة أسيوية بأن تقوى نفسها ويكون منها اليابان الثانية سواء فى آسيا أو إفريقيا . فلقد قلب الدهر لمراكش ظهر المجن ، وسيفعل كذلك بإيران ، وطرابلس على أبواب نضال ومصر فى وضع سيء .

ولم تتمض مضاجع هذه البلدان الإسلامية كلها إلا لأن أوربا لا يسعها أن تنظر إلى قيام حركة إسلامية جامعة ولهذا فقد عقدت العزم على أن تقتلها فى مهدها . ولا شك أن أوربا تتمتع بأعظم قسط ممكن من قوتها المادية غير

أن الطبيعة الإنسانية حتى ولو كانت طبيعة الأوربيين تنطوى على شىء إلهى ، ومن شأن نهض الميثاق الإنسانى الأدبى على أيدى الأوربيين أن يكون له صدى فيهم ويثير كثيرا من الذين سينحازون إلى جانب الأسيويين ومساعدتهم على إقامة السلام والاشتراكية العالمية عن طريق القوة الروحية . وقد اقتنع الأسيويون بأن الدبلوماسية الأوربية الحاضرة هى وحدها القوة التى يعتمد عليها . لا ريب فى أن مستقبل المسلمين إذا قيس إلى ماضيهم القريب ليس مزدهرا غير أن آسيا فى وسعها أن تنجب رجالا مثل بوذا والمسيح ومثل محمد عليه الصلاة والسلام ، ولا شك أن إنجاب مثل هؤلاء الذين لا يوجد فى أوربا نظير لهم ميزة عظمى وميراث لآسيا . وقد أثار الهجوم الذى شنه رجال السياسة الأوربيين على آسيا اشمئزاز المستنيرين من أهل آسيا على الحضارة الأوربية . ولا سبيل إلى التحدث فى مثل هذه الظروف عن الاشتراكية فالأوربيون الذين يتوقون حقا إلى اشتراكية عالمية ينبغى لهم أولا أن يوجهوا نشاطهم إلى المساواة فى حقوق الإنسانية ، ولن يمكن أن تتاح للاشتراكية فرصة للنجاح ما لم يأخذ العالم بنصيحة الشاعر الأمريكى العظيم لويل . . .

وينبغى أن تتألف الجمعية التى تستظل بهيئة تستلهم العبقرية الاشتراكية لحماية حقوق الإنسانية من كل معتد أوربياً كان أو أسيوياً أو إمريكياً أو إفريقياً ، ويجب أن تقوم فى كل قطر مجتمعات مهمتها تغذية الأخوه المتبادلة وتقويتها . فبهذا وبهذا وحده تنجح الاشتراكية ، والأمة الإسلامية خاصة أهل لتحمل رسالة الاشتراكية ، وبالرغم من أن المسلمين قد أصابهم ضعف مثل سائر اهل آسيا فإنهم ينطوون على الروح الذى يعد لازماً لتقدم الاشتراكية ، وقد بينت الكوارث الأخيرة التى أنزلتها أطماع أوربا بالعالم الإسلامى مظهرين من مظاهر الصحة التى يتمع بها المسلمون .

أولها أنه لا تزال توجد نقطة يتجمع فيها العالم الإسلامى أو مركز تتلاقى فيه أقطار دائرتهم ، وقد كان أول أثر تركته الوحشية التى أنزلتها إيطاليا بطرابلس

فى أنفس المسلمين هو أنهم توجهوا إلى أحكم الحاكمين الذى تسعد الأمة الإسلامية خليفته فى الأرض والذى يجب أن يكون تمجيد اسمه وصفاته جل شأنه هو الغاية من حياة كل مسلم .

والمظهر الثانى من مظاهر الصحة التى يتمتع بها المسلمون هو ذلك التعاطف الذى يشعر به المسلمون نحو إخوانهم فى الدين من أهل طرابلس وإيران ، وهذا يدل على العواطف الحية القائمة على المودة والأخوة بين الأفراد والتى تعد الأساس الحقيقى للاشتراكية لم تمت فى نفوس المسلمين .

ولو أن هاتين الظاهرتين أشتد ساعدهما وأصبحتا حقائق واقعة لكان نصر المسلمين أمراً محققاً . فكون الجماعات ذات هدف مشترك فى الحياة وكونها مرتبطة بعرى مشتركة من الأخوة فضائل اشتراكية ذات قيمة عظمى ، ولو أن ثقتنا بالله قويت ولو أن شعورنا بالجامعة الإسلامية تأصلت جذوره فى قلوب ثلثمائة مليون من الأنفس التى تسكن بقاعا مختلفة فى الكرة الأرضية لوجدت الحضارة من ذلك كله دافعاً عظيما ولمضت قضية الاشتراكية فى خطوات واسعة إلى الأمام . وينبغى للمسلمين أن يعملوا على تحقيق فكرة الرصيد القوى أو يحيوا نظام بيت المال القديم ليتسنى بهذا المشروع الدفاع عن الإسلام والممتلكات الإسلامية المستقلة التى يجب أن يرى كل مسلم أن من واجبه المساهمة بنصيب من دخله فى سبيلها ، وكان ينبغى أن تكون كل قطرة دم أراقها الإيطاليون فى طرابلس أو الروس فى إيران رابطاً يوحد بين قلب المسلم والمسلم فى أنحاء العالم ، ويظن كثير من الأوربيين ـ على ما يبدو ـ أنه من المتعذر تحقيق النظام الدستورى فى ظل الإسلام غير أن الذين على علم بروح الديموقراطيــة والاشتراكية المتأصلة فى الإسلام يعجبون من جهل الأوربيين بالاسلام ، ثم إن كثيراً من الكتاب الأوربيين يتخذون من الاضطرابات التى وقعت فى تركيا وإيران أمثلة على أن النظم الدستورية غريبة على الإسلام . إلا أن هؤلاء المفكرين ينسون كم من السنين مرت بها بلادهم المحترمة وهى تعانى الفوضى وإراقة الدماء قبل أن تنجح فى إقامة النظم الدستورية الناقصة التى تسود معظم البلدان الغربية .

من رسائل الازهر فى الريف :

درس عملى فى الزكاة

لحضرة الاستاذ ابراهيم على شعوط
المدرس بكلية اللغة العربية

فى ليلة من ليالى الصيف عام ١٢٦٥ ه شمل القرية هدوءها المألوف ، ولفها الليل بثوب أبيض شفاف ، صنعه القمر من فضته المعهودة حينما ينتصف شهره العربى . ونام شباب الريف فى أحضان الطبيعة الجميلة ، واتخذوا من أجران القمح وسائد وحشايا ؛ وحين استسلم كل من الفتيان والفتيات الى حلمه الجميل ، روعتهم صيحة المذعورين ، واستغاثات الحراس . فهب النوام يهرولون على غير هدى ، وصارت كل جماعة تضرب الى ناحية باحثة عن مصدر الفزع . ثم اتضح أن هناك حريقا اندلعت ناره فى قمح أحد الأغنياء المعروفين فى القرية .

وراح الذين كشفوا هذا الخبر من شباب القرية الفقراء يرجعون الى ديارهم ؛ وكلما صادفهم مذعور من أمثالهم يجرى الى مصدر الصياح ردوه بقولهم : إرجع يا أخى ، وخفف عن نفسك . إن هذا الحريق ، وتلك النار فى قمح فلان . فيرد عليه قائلا : زادها الله اشتعالا ، واستفحالا ؛ ياليتها اشتعلت فى بيته ، أو فى جسمه هو وأمثاله من الأغنياء الأشحاء . إنه لم يك من المصلين ، ولم يك يطعم المسكين ؛ وليس فى ماله حق معلوم للسائل والمحروم ما فرج كربة عن مكروب ، ولا واسى فقيرا ، ولا عطف على بائس .

ارجعوا يا قوم إرجعوا ؛ فإنه انتقام من الله ، ودرس للعصاة . إنه يضن على الفقير والمسكين بنصيبه ؛ فكان جميع ماله طعمة للنار ، وعرضة للبوار .

وراح الفلاح الساذج يرسل من زفرات قلبه أنات مكبوتة ممزوجة بروح من التدين ، والرجوع الى الله إعترافا بأن ما آمن به حق من آيات الله وشريعة رسوله

وكنت أسمع ذلك وأنا فى طريقى الى النار المشبوبة ، التى عقد دخانها سحبا كثيفة فى سماء القرية فبدا عليها روح الانتقام من السماء ، وآيات الغضب من رب السماء .

وحملت نفسى إلى مكان الحريق لأرى : هل ترك حقيقة يأكل تراث الغنى كله أم إن هناك من تطوع بإخماده والقضاء عليه من شباب القرية العامل الكادح ، الذى يعتمد عليه فى مثل هذه الملمات ؟

وليس للأغنياء ، ولا أشباه الأغنياء عمل فى هذه الحالات إلا الأمر والتوجيه للفئة الفقيرة العاملة الكادحة التى تعتبر بحق عدة القرية ؛ بل عدة الريف المصرى جمعية فى أمثال هذه النوازل ، وتلك الملمات ، بل عدة الوطن كله فى حماية الأرواح والأموال ، والسهر على مرافقه ، وكرامته من عدوان مفاجىء ، أو استغلال مبيت .

ورحت إلى مكان الحريق ، فلمست ظاهرة تفسر مقدار ما انطوت عليه قلوب الفقراء من حقد وكراهية للأغنياء البخلاء : رأيت فرق الشباب التى وقفت نفسها لمحاصرة النيران قد اتفقوا فيما بينهم عملياً على أن يحرسوا أموال الكرماء والفقراء ، ويمنعوا النار أن تقربها ؛ على أن يكون ذلك على حساب صاحب القمح الذى تأججت فيه النار . وطريقة الريف فى إطفاء الحرائق هى حصار يضرب على النار بإخلاء ما حولها وإبعاد المواد التى تمدها بالاشتعال ؛ فلما هم هؤلاء بنقل كميات كبيرة لم تصل إليها النار من القمح وعزلوها عن مكان اللهب ، جاء جماعة آخرون لينقذوا ما يمكن إنقاذه من أفواه السعير ليضيفوها إلى السليم المعزول ؛ وكانوا يتعمدون أن ينقلوا الشرر بهذه العملية إلى الناجى من القمح ، فلا تلبث أن تلتهب الجذوة المنقولة فيما نجا من مال فينطلق الصياح من هذا الجانب : يا قومنا أدركوا النار . فى أسلوب ساخر لاذع ، له مغزى يفهمه الأغنياء والفقراء .

وهكذا لم تدع النار لصاحب القمح شيئاً ، وعاد الفتيان وفى أفواههم عبارات التشفى ، وفى قلوبهم راحة لما حدث ، وتسبيح بحمد الله بعباراتهم الريفية البريئة وهى قولهم : « ياما أنت يا ربى كريم » .

عاد الناس إلى مضاجعهم وقد خمدت النيران التى روعتهم ، لتشتعل من جديد فى نفسى لوجود تلك الروح بين الأغنياء والفقراء . فأردت أن أعرف من هؤلاء العمال والأجراء الأسباب التى جعلتهم يضمرون فى قلوبهم هذه المعانى لهذا الصنف من الأغنياء . وجمعنى مجلس بعدد كبير منهم أنسوا بى ، وارتاحوا إلى حديثى ؛ فكانت الزفرات والأنات تترجم إلى هذه الجمل ، وتلك الكلمات : إن الغنى الكريم نفديه

بالروح ، وننصب من أنفسنا حراساً على ماله .ونتمنى له البركات التى تضاعف تراثه ، وتحفظ أبناءه من كل مكروه . ولماذا يضن الغنى بحق الفقير فى ماله وهو الذى قام على هذا المال فنماه ورعاه ، وتعهده حتى تضاعف واتخذ سبيله إلى جيب الغنى وخزائنه؟ ألسنا نحن الذين وضعوا مجهودهم تحت تصرف الأغنياء والوجهاء فهم فى ساعة الكوارث وعند الملمات يأمروننا فنطيع ، ويتسلطون علينا باسم الإنسانية فنلبى ؟ نحمل موتاهم على أعناقنا إلى مقرها الأخير فى حمارة القيظ ، وزمهرير البرد . ونبكى على هؤلاء السادة - أو نتباكى - حتى نعلن أننا وهم فى الكارثة سواء . ونصطف على أبواب السرادقات الأنيقة الفخمة فى ولائمهم . وعزائمهم لربط المطايا ، وإعداد الركائب للوافدين والمعزين. ثم نحن الذين نصب الماء على أيدى الآكلين للطعام الشهى وليس لنا منه نصيب . ونلقى بأنفسنا فى النار إذا أصاب مالهم مكروه لنحفظ عليهم المال والجاه رجاء أن ينالنا منه حظ قليل . وهكذا طال بذلنا للجهد ، ودفعنا للعرق والدم فى كل مناسبة تلبية لنداء الغنى الذى يستحثنا فيه باسم الإنسانية والإسلام . ولكن الأغنياء لم يقيموا لنا وزنا ، ولم يعترفوا لنا بوجود : فخلقوا فى قلوبنا البغض، حتى صرنا نتمنى زوال النعمة التى فى أيديهم ، فلا ندفع السوء الذى يحيق بهم . فكيف نطالب بعد ذلك بإخماد النار التى تشتعل فى مالهم ، ودفع الغرق الذى يجتاح محاصيلهم ، وهم بحقنا يبخلون وبكلمات الشكر يضنون ؟

وراجعت ما سمعت على ما علمت ورأيت فى قرى مصر ، فوجدت الحق معهم ؛ وأدركتنى الحسرة على انتشار تلك الروح بين جماعات المسلمين . وتساءلت عن العلاج ، والتمسته فى النظم الاجتماعية الحديثة كلها فلم أجد لذلك من علاج إلا ما شرعه القرآن الكريم ، وما التزمه المسلمون الأول حين كانوا قادة ، ضربوا للناس المثل العليا فى الأخوة بين بنى الإنسان ، فى مشارق الأرض ومغاربها .

ليس من علاج إذاً إلا أن يخرج الغنى زكاة ماله فتؤخذ منه لترد على الفقير والمسكين ، فتقرب المسافات الشاسعة بين الطائفتين ؛ فى الريف نجد الخير كامنا فى القلوب ؛ ولكن بعثه يحتاج إلى توجيه وتحريض ، وقليل جداً أن يوجد هناك العناد والتبجح ؛ وإن وجد فلا يوجد معه الإصرار . أو الاستمرار ، وهم أطوع الناس فى مواسم الخير للتأثر بالارشاد ، وتلمس ما ينجيهم من عذاب الآخرة ، ويرفع

درجاتهم عند الله، إذا لمسوا الاخلاص فى التوجيه، وأدركوا الرغبة الحقة فى العمل على رضا مولاهم.

كانت هذه الدعوة فى أول يوم من شهر رمضان المعظم عام ١٣٦٥ هـ، فلما تحدثنا إلى الناس فى الزكاة وسمعوا قول الله تعالى (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) ومرت على أسماعهم العظات فى الآيات (وفى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم) و (كلا بل لا تكرمون اليتيم ولا تحضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلا لما وتحبون المال حبا جما) و (أرأيت الذى يكذب بالدين فذلك الذى يدع اليتيم ولا يحض على طعام المسكين) . وجدت القوم كأنهم يسمعون كلاما ما سمعوه، وأعجبوا به إعجابا تقليديا مجاملة للخطيب والواعظ.

فلما رأيت منهم ذلك قلت لهم : هذا هو الكلام فى الزكاة، وأما العمل فسنبدأ به من اليوم : ومن حسن الحظ أنكم فى موسم حصاد زرعكم ؛ والله تعالى يقول : (وآتوا حقه يوم حصاده) فماذا أنتم صانعون ؟ خبرونى بربكم عن الطريق الذى تريدون أن ترسموه لأنفسكم فى العبادة لتكونوا مؤمنين .

يجب أن نحدد موقفنا مع الله ؛ فأما أن نكون مسلمين حقا فنؤمن بما جاء به رسول الله جميعه ؛ وإما أن نخرج أنفسنا من عداد المسلمين، فنرفض كل تلك التعاليم جملة، ونكون بذلك صرحاء مع ربنا غير منافقين ولا خداعين. وأنا أعلن لكم هنا فى مسجد القرية وفى بيت الله، أنكم إن لم تخرجوا زكاتكم فلا حاجة لله فى صلاتكم، ولا صيامكم، وأنكم حين تشهدون بأن لا إله إلا الله دون أن تطيعوه فأنكم كاذبون. والخطوات العملية يا قوم أن تأتوا جميعاً لتتسلموا منى زكاتى وزكاة أقاربى ثم بعد ذلك نريد أن نعلن عن أنفسنا أننا مسلمون كما أراد الله منا الإسلام . فلما رأى الناس الجد فى التنفيذ، وصدق النية فى الوصول إلى الهدف المقصود، أسقط فى أيديهم، ووجدوا أن دعوة الحق إن قام أصحابها بتطبيقها على أنفسهم أولا انهارت المقاومة، وضعف المبطلون. كان عجبا أن يكون شباب التمرية من الموسرين أسرع الناس إلى الجهاد فى سبيل هذه الدعوة، فانتشروا فى التمرية جباة يتحملون الأذى فى سبيل الله. وضرب الحصار حول المتخلفين، وأقيم للحساب سوق فى المسجد يعرض فيه أمر المدعين الذين قالوا : إننا أخرجنا حق الله من زمن بعيد.

ومن أجل هذا كان الخير كل الخير أن تجمع الزكاة فى مخزن عام ، ويحصى الفقراء والمساكين فى القرية وخاصة المتعففين الذين لم يسألوا الناس فحسبوهم أغنياء.

قدر لأهل هذه القرية أن يجمعوا خمسين أردبا من القمح فى المخزن العام ونادى منادى الخير فى جنبات القرية : من يرى نفسه أهلا للزكاة فليحضر فى فجر يوم الجمعة أمام مخزن الزكاة ، وكان المحتاجون من الأسر التى أخنى عليها الدهر ، ومنعها كبرياؤها من أن تقف على باب مخلوق ، قد عرفوا أنهم إن حضروا أمام المخزن العام ، فأنه لا فضل لكائن من كان على هؤلاء الأفراد ، وليست هنا يد سفلى ولا يد عليا أمام الحق المقرر فى القرآن .

فتسلل المستحقون والمستحقات ، وخرجوا من كهوفهم مع الليل ليستقبلوا النهار هناك عند المخزن المحبوب . فلما امتد ضياء الفجر فى الأفق الشرقى ، وانتشرت أنواره لمع الندى على الوجوه الشاحبة ، والمناكب العارية ، والهياكل المتداعية كأنما خرجت من القبور أشباح موتى قد نساهم أهلوهم من الدعوات والرحمات .

وتسلم كل منهم حقه بالقسطاس ، وحصل على ما يكفيه بقية العام حتى يأتى الحصاد التالى .

ونما فى القرية روح جديد من الود الخالص ، والتعاون التام بين الغنى والفقير ، ووجد الحب فى كل قلب ، ووضح للبلاد المجاورة رخاء القرية ونعيمها ، فلم يعد يسمع الناس بتلك الحوادث التى تتسبب عن الفقر ، ومد الأمان والأمن رواقه فى قلوب القوم ، فعاهدوا أنفسهم على المواظبة فى إخراج الزكاة وأن يعلموا أبناءهم الخير الذى حصلوا عليه من آداء هذا الفرض كما شرع الله .

هذه قصة الدرس العملى فى الزكاة ، قد واظب عليه أهل هذه القرية المباركة إلى الآن ؛ فإن شئت أن تسأل عن القرية فأقول لك أنها [حصة الغنيمى مركز قلين فؤادية] وإن شئت أن تعرف صاحب هذه الدعوة بين أهله فى الريف ؛ فاقول لك : إنه كاتب هذه السطور .

المعتمد بن عباد

لفضيلة الاستاذ محمد خليفة

المدرس بالأزهر

ملك غنت حوله دنيا الجمال فشدا معها ، وكان وتراً من أوتارها سحرته الترانيم فرجعها ألحانا عذابا هى وحى النعيم والهام الجمال .

ولد المعتمد بين أعطاف النعمة ، وعاش بين أحضان أبيه المعتضد ملك أشبيلية يجالس الشعراء ، وينادم الأدباء ، ويركض بين أفياء اللهو ، ويغفو بين رنين المزاهر ويصحو على قراع الكؤوس ، ويمجن ما شاء له شبابه الغض ، حتى توج ملكا بعد أبيه ، فراح ينعم فى ظلال ملكه الوارف ، وابتسمت له الحياة وزها له ضحاها فلم يدع أمنية للشباب الدافق إلا عانقها ، ولا حلما من أحلام الهوى والشباب إلا نادمه . تدار عليه الراح فى مجلس رقت حواشيه ورقصت جوانبه ، فيرى ساقيه غلاما تسيل رقته ويفيض إشراقه فتهز الخمر شاعريته فيهتف :

لله ساق مهفهف غنج قد قام يسقى فجاء بالعجب
أهدى لنا من لطيف حكمته فى جامد الماء ذائب الذهب

وتمتد مجالس خمره تحت ضوء القمر فتزهو أعطافه وعواطفه ، وتتراقص حوله أفنان الرياض ، وتتلألأ النجوم ، فيلهمه كل ذلك صورة شعرية ساحرة إذ يقول :

ولقد شربت الراح يسطع نورها والليل قد مد الظلام رداء
حتى تبدى البدر فى جوزائه ملكا تناهى بهجة وبهاء
وترى الكواكب كالمواكب حوله رفعت ثرياها عليه لواء

وهكذا كانت حياة المعتمد كلها شعر فهو يصدر ويصور ، ويفتن فى الاصدار والتصوير عن قريحة شاعرة ، فهو لا يجالس غير الشعراء ، ولا يستوزر إلا المبرز منهم ، ولا ينادم إلا عباقرة الأدباء ، فابن زيدون وابن عمار من وزرائه ، وابن حمدين وابن عبد الصمد وابن اللبانه من ندمائه ، وقصوره أندية يختلف إليها كل

من صفت قريحته ورق شعره ، ورحلاته للصيد ولغير الصيد ، لا يصحبه فيها غير شاعر ولو كان من أصحاب الحرف ، خرج يوما للصيد ومعه حاشية من الشعراء فانطلق بجواده فى وسط مزرعة تين فضرب شجرة برمحه فعلقت به تينة فالتفت وراءه فإذا ابن حاج الصباغ ، فقال له أجز : كأنها فوق العصا

فقال ابن حاج : هامة زنجىّ عصى

وكان يختبر بنفسه الشعراء قبل أن يستصفيهم ، وقد حدث ابن حمديس الصقلى أنه دخل عليه فى مجلسه فأمر بطاق ففتح فإذا بكير زجاج تلوح النار من بابيه وواقدهما يفتحهما تارة ويسدهما أخرى ، ثم أدام سد أحدهما ، فقال المعتمد لابن حمديس أجز :

أنظرهما فى الظلام قد نجما

فقال ابن حمديس : كما رنا فى الدجنة الأسد

فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقها

فقال ابن حمديس : فعل امرىء فى جفونه رمد

فقال المعتمد : فابتزه الدهر نور واحدة

فقال ابن حمديس : وهل نجا من صروفه أحد

فأمر له المعتمد بجائزه ، وأضافه إلى حاشيته بعد أن امتحن قدرته على ارتجال الشعر ، وقد بلغ من تقديره للشعر وأهله أنه ركب النهر ومعه ابن عمار وزيره ، فنظر إلى صفحة الماء وقد جعدها النسيم ، فبدت لعينيه كأنها درع محكمة السرد فقال لابن عمار أجز :

صنع الريح من الماء زرد

ففكر ابن عمار وطال تفكيره فبهت جارية غسالة فقالت « أى درع لقتال لو جمد » فأعجب المعتمد بها وبسرعة خاطرها وتزوج بها وتلك هى اعتماد الشاعرة التى أنجبت له أولاده ، والتى اشتهرت بالرميكية ، وكان لها أثر فى اضطغان قلب المعتمد على ابن عمار الذى هجاها بعد فقال فيها :

تخيرتها من نبات الهجان رميكيـــة ما تساوى عقالا
فجاءت بكل قصير العــذار لئيم النجارين عمــا وخالا

ولم تطق اعتماد صبرا على هذا الهجاء ، فأوغرت صدر المعتمد وأغرته بقتل ابن عمار ، ففتك به .

فحياة المعتمد الأولى حياة كلها لهو صارخ وخمر وسمر .

أما حياته الثانية فكلها شقاء وبكاء ، بدأت منذ رأى المعتمد أن العزة الإسلامية تأبى عليه أن يدفع الجزية المفروضة عليه وعلى ملوك الأندلس جميعاً لملك الفرنجة ، فلما جاءه الجباة نكل بهم ومد يده يستنجد بيوسف بن تاشفين ملك المغرب فتقدم يوسف بجيشه الجرار وصد عدوان ملك الفرنجة على أشبيلية ، وعاد إلى المغرب ولكن فى النفس لهفة وبين الجوانح حسرات على الأندلس على نعيمها وماءها وجمالها الذى يقول فيه ابن خفاجة .

يا أهل أندلس لله دركمو ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا فى دياركمو ولو تخيرت هذا كنت أختار
لاتحسبوا بعد ذا أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

وعز على يوسف أن يملك الأندلس ملوك لا يستطيعون حمايتها أو رد المغير عليها ، ومن ثم فلم يكد ينتمض ملك الفرنجة على أشبيلية ثانية حتى عاد يوسف لصده فانتصر عليه ، ثم أعلن خلع ملوك الأندلس جميعاً ، وما كان للمعتمد أن يذعن لهذا الخلع ، ويترك عرشه لبرابرة الصحراء ينعمون به ، بل وقف يحارب أطماع يوسف ويطارد أحلامه ، وقام على أبواب أشبيلية يصول فوق فرسه ويهتف :

أن يسلب القوم العدا ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
أجلى تأخر لم يكن بهواى ذلى والخضوع
ما سرت قط إلى القتا ل وكان من أملى الرجوع

واشتد أوار الحرب ، وحصر بأشبيلية وطال حصاره حتى ألقى كثير من جنوده بأنفسهم إلى النهر فراراً من حصار يوسف ، وأخيراً أسر المعتمد ونفى إلى أغمات ، إلى صحراء المغرب ، ووقف ابن اللبانة شاعره فى حشد من الناس على ضفتى الوادى يبكون ملكهم الأسير ، وقد خرج مكبلا بالقيود حيث هتفت شاعرية ابن اللبانة الباكية تقول :

تبكى السماء بمزن رائح غاد ... على البهاليل من أبناء عباد
على الجبال التى هدت قواعدها ... وكانت الأرض فيهم ذات أوتاد
وكعبة كانت الآمال تخدمها ... فاليوم لا عاكف فيها ولا باد
ألق السلاح وخل المشرفى فقد ... أصبحت فى لهوات الضيغم العادى

ومخرت بهم السفن بين نواح الأندلسيين وبكائهم إلى المغرب ، إلى الصحراء إلى قرية ليس فيها شيء من سحر الجمال الذى كان ينعم به فى الأندلس تحت حراسة جند لا يرحمون ملكا تنكرت له الأيام ، وازورت عنه آمال الليالى ، وراحت بناته يغزلن للناس ، ويخدمن ليأكلن .

وكم آلمته ذكريات الماضى وأمره ونهيه وقيوده التى رست فيها الناس فقال :

قد كان لثعبان قيدك فى الورى ... فغدا عليك القيد كالثعبان
قلبى إلى الرحمن يشكو بثه ... ما خاب من يشكو إلى الرحمن

وأنه ليتفجع وقد طبقت أنباء أسره الآفاق ، وأنى له الفكاك من ذلك القيد الذى لاينى عن عضه حتى ورمت فيه رجلاه ويذكر مع هذا سيفه وفتوحاته فيقول :

قد ضاق صدر المعالى إذ نعيت لها ... وقيل إن عليك القيد قد ضاقا
أنى غلبت وكنت الدهر ذا غلب ... للغالبين وللسباق سباقا

وهكذا لا يفتأ المعتمد فى منفاه يبكى ثقل القيود ويندب عز البنود وأنى يجدى البكاء أو ينفع التوجع إنه ينظر الى الطليق من الطير فيتمنى لو أصبح طليقا من قيوده ينعم بما ينعم به الناس ويمرح كما يمرح الطير .

ويرى قمرية تنوح على هديلها فوق الفن فتذكر من فقدهم فى الأندلس من أبنائه وأصحابه فثار الأسى فى نفسه فجاوب القمرية نوحها ورجع صداها فقال :

بكت أن رأت إلفين ضمهما وكر ... مساء وقد أخنى على ألفها الدهر
وناحت فباحت واستراحت بسرها ... وما نطقت حرفا يبوح به سر
بكت واحدا لم يشجها غير فقده ... وأبكى لآلاف عديدهم كثر

وهكذا كانت حياة المعتمد الثانية دموعا وبكاء وزفرات وأنات ، يصدرها شعرا داميا يذيب الأكباد ، حتى أسلم روحه لا بين صليل السيوف بل بين صليل القيود ، ودفن فى أغمات وبقيت مأساته تهيج الخواطر وتثير المشاعر ، ولم يعدم وفيا من شعرائه المخلصين يتسلل فى يوم عيد فيقف على قبره يرثيه ويبكيه ويناديه .

أعلام الأزهر

السيد على الدرويش المصرى

المتوفى سنة (١٢٧٠ هـ - ١٨٥٣ م)

لفضيلة الأستاذ محمد كامل الفقى

المدرس بكلية اللغة العربية

نشأته وحياته :

هو السيد على الدرويش بن حسن بن ابراهيم الأنكورى .

ولد ونشأ بالقاهرة فى غرة شهر المحرم سنة **١٢١١** هـ ، ولما شب ألحق بالأزهر ، فتلقى علومه على جلة من شيوخه ، وكان منذ صباه ميالا إلى الأدب وفنونه ، فأقبل على كتبه يغذى ملكته بقراءتها ، وقلب فى كتب اللغة فعرف أسرارها ، وكان هواه إلى الهندسة والحساب أيضا فأجال فيهما نظره ، ثم أنه تفرغ للكتابة وقرض الشعر ، وحرر الرسائل ، واشتهر بصناعة المواليا والموشحات حتى أصبح شاعر المرحوم عباس الأول .

وكان غنيا بماله وعقاره عن التكسب بشعره ، معروفا بميله إلى اللهو والطرب ، غزير المدح لمن يحبه ، لاذع الهجاء لمن يبغضه ، ولعله امتاز بهذين عن الشعراء الأزهريين الذين لم يكونوا فى ذلك مسرفين ، كما كان حاضر البديهة ، وكانت وفاته فى السابع والعشرين من ذى القعدة سنة سبعين ومائتين وألف من الهجرة .

شعره :

عصر الدرويش عصر صناعة وزخرف ، وكلف بالبديع ، على تفاوت الشعراء فى ذلك ، ولو أن الدرويش اقتصر فى شعره على الـ‍ـظ الذى تناوله المعاصرون له من الصناعة والمحسنات لكان من أجودهم شعرا ، إلا أنه أغرق فى البديع ، وكلف بالزخرف .

فمن جناسه الذى يستعمله فى شعره قوله :

أيام أفراح هى الحسن صدق اليمين بأنها يمن

فالجناس بين اليمين واليمن وهو متكلف إلا أنه غير موغل فى الثقل .

ومن الطباق الذى يستعمله فى شعره قوله :

بيت جديد قديم المجد عن سلف بسعد أنجالهم قد شرف السكن

فقد طابق بين (جديد) و (قديم) ، وقوله :

فكم قالت لها الأخرى هلمى وكم قالت لها الدنيا تأنى

فقد طابق بين الأخرى والدنيا ، ومن أنواع البديع التى يستعملها فى شعره مراعاة النظير كقوله :

لهم جامع من غير باب ، فكم عوت عليهم من المحراب فى الصبح جرذان
إذا سجدت حيطانه فهى ركع وتسمع تسبيح الحصا منه سقفان

وقد جمع سقف على سقفان والصحيح سقف وسقوف ، ومما أولع به من التورية فى شعره قوله فى مليح اسمه رضوان .

قد أكثر البعض فى إنكاره سفها يوم القيامة جنات ونيرانا
فأبطل الله فى الدنيا أدلتهم لما أراهم من الجنات رضوانا

فيحتمل أن يكون أراد (رضوان) خازن الجنة ، أو المليح المسمى « رضوان » ، أو الرضوان مصدر كالرضا من رضى ورضوان من الله أكبر .

وهو يغرى بالبديع أيضاً فى الموشحات و (أدوار) الغناء فتراه يلتزم الجناس فيها ، ويستعمل التورية ما استطاع ، كقوله .

بالفاتك الفتان ناسى ، ناسى ، أهواه
وخده النعمان كاسى ، كاسى ، آه ، واه

فقد أوقع الجناس بين ناسى اسم فاعل من نسى و (ناسى) بمعنى أهلى ، وأوقعه بين كاسى اسم فاعل من كسا ، و (كاسى) التى هى إناء الخمر مضافة إلى ياء المتكلم ، كما أوقعه بين أهواه ، فعلا بمعنى أحبه ، وآه وواه اسمى فعل بمعنى أتألم ، وفى ذلك من التكلف والتشدد ما فيه .

ولوعه بالتاريخ الشعرى :

وهو مفتون بالتاريخ الشعرى ، وما زال يستعمله فى شعره حتى عرف به ، ومهر فيه ، « حتى ما كانت تمر به حادثة إلا أرخها عفو الساعة » (١)

(١) أعيان البيان للسندوبى ص ٤٦ .

فمن ذلك ما قاله يؤرخ به إنشاء قنطرة .

إنشاء ممدوح الملا   من عدله الدنيا ملا
أعنى الوزير محمدا   رب المحامد والولا
لقبوله قد أرخوا   إنشاء قنطرة العلا

ومما قاله يمدح به المرحوم محمدا عليا ويؤرخ لامتحان المدارس .

أيجهد فى سوى العلم المعانى   ومعنى الأنس إدراك المعانى ؟
كفانى أن رب العلم باق   على الدنيا وهل باق كفانى ؟

فهذه أبيات حشد الشاعر فيها ما قدر عليه من أنواع البديع المشدود ، وأنواع الصنعة المتكلفة المستكرهة حتى لكأنها مقصده الأول ، وغرضه الأسمى ، فجاءت لجة مقفرة من جمال الشعر .

ومن شعره الذى فيه شيء من الطرافة وحسن السبك ما قاله من قصيدة يعتذر بها للشيخ البديرى .

بدر صفا بعد تكدير النوى فيه   وجاد لى بعد أن زالت نوافيه
فروح الروح واغنم نور بهجتها   بمفرد قد سما عمن يحاكيه

وقال مضمناً :

وغادة غار منى زوجها فعسى   يريد قتلى وفى أحشائه ضرم
يا زوجها كف عن قتلى مسامحة   بينى وبينك لو أنصفتنى رحم

وقال يتغزل فى قصيدة طويلة :

تعالى من أعار الغض ليناً   وأحرم من خباه العازلينا
يهنا العاشقون بطيب عيش   فما أحلى عذاب العاشقينا
سعدنا بالتواصل بعد هجر   وقد كنا بجفوته شقينا
فقل للصابرين على هواه   دعوا العذال فيما يفترونا
فإنا فى هواك عبيد رق   على حب وما كنا سبينا

وهذه أبيات تمثل غزل العلماء الجاف ، ولكن الدرويش لا يخلو أحياناً من شعر مقبول ، ونظم على طرف من الجمال والحسن ، ويظفر بذلك كلما تحرر من قيود التكلف ، وآثر السهولة والتطلق .

ومن ذلك قوله :

ألا محب يلاقيني أطارحه هوى حبيب منيع الدار نازحه
رأيت في الغصن شيئاً من رشاقته فكدت من فرط أشواقي أصافحه

ومن شعره العذب قوله :

لقد كان لي قلب تضمن لؤلؤاً من الشعر مسبوك النظام أنيقا
فلما حللتم فيه حاولت نقله فأخرجته من ناظرى عقيقا

* * *

وقد جمع تلميذه مصطفى سلامة النجاري شعره ونثره في كتاب سماه « الأشعار بحميد الأشعار » وطبعه على مطبعة الحجر سنة ١٢٨٤ هـ . ورتب الديوان على ثلاثة أبواب الأول في الصناعات مرتبة على السنين ، والثاني في غير المصنع مرتباً على حروف الهجاء ، والثالث في النثر والأدوار .

أما نثره فهو صورة من شعره في التكلف والتعسف ، يلتزم فيه السجع حسن أو ساء ، « ولولا ما كانت تجره إليه الأسجاع من الحشو والخروج ، لعد من كتاب الطبقة الأولى في منشىء ذلك العهد » [١] .

وقد تضمن نثره الباب الثالث من « الأشعار بحميد الأشعار » وله مقامات ورسائل فيها روعة ورصانة .

ومن مؤلفاته كتاب الدرج والدرك ، وهو كتاب وضعه في مدح من اشتهر في أيامه بكريم الصفات وجميل المزايا ، وذم ذوى الدنايا والمثالب ، على ماهداه ميله وأوحى إليه عقله . جعل الدرج للمدوحين ، والدرك للمذمومين . روى تلميذه مصطفى النجاري أن هذا الكتاب استعاره منه صديقه حافظ بك مصطفى ولم يرده .

وله كتاب آخر اسمه « تاريخ محاسن الميل لصور الخيل » ، وهو كتاب وضعه تلبية لرغبة الخديو عباس الأول ، ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وله رحلة لم تطبع ولم يتيسر الاطلاع عليها . وله سفينة الآداب ، استعارها منه صديقه علي أغا الترجمان ولم يردها .

---

(١) أعيان البيان للسندوبي ص ٤٧ .

مجالات فى الأدب :

كبرياء القلم

لفضيلة الأستاذ كامل محمد عجلان

مدرس بالأزهر

الأقلام معادن منها الحر الخالص للصدق ، ومنها العبد الذى يسخر ويصرف فى شئون من يملك نواصيه ، ويقيد أقدامه ، ويذلله كما تذلل الدابة ، ويرسله إرسال السائمة ، وربما جلب حتفه بلعاب شباته وَجَوْرِ زيوفه أو اندفاعات نزقاته .

والقلم حرفة وهواية ، وهو مع ذلك رسالة تقوم على المواهب ، وتنبع من أعماق النفس الصافية ، وعالم الروح المنطوى على متابه ، لا ندرى من أمرها إلا الآثار التى تدل . . والمبدعات التى تشهد . ولله فى خلق الأقلام شئون ، وما يعزب عنه القلم الضال ، ولا صريف اليراع المهتدى . والأقلام منها التقى والفاجر ، ومنها الضاحك والباكى . ومنها القوى والضعيف ومنها الغنى والفقير ، ومنها المترفع والمسف ، ومنها المتعالى والمتطامن .

* * *

ولن تقلب آثار القرائح على اختلاف ألوانها وأزمانها وأوطانها ، إلا وجدت نتاج الأقلام مقسما كما وزع الله المواهب على النفوس ، وكما أعطى الحظوظ .

وكل قلم ميسر لما براه الله له ، فلا عتاب ولا ملامة .

والأقلام الحرة تجوع فى سبيل فنها وإبداع نتاجها ، ولا تأكل بتسخير لعابها وتوزيعه على مطالب اللهى وشهوة النفس التى تلعب بها الأهواء ، وتتراقص بنوازعها الأغراض المسفة والمتع الزائلة ، واللهفة على الشهرة المجلوبة .

وناشىء الأقلام من أبنائنا يجد القدوة بين يديه ممن يشرفون على تفتيل غضارته الإنشائية . وما ينبغى لنا أن نمكن للعدوى السيئة من التفشى فى صفوف

الطلاب ، ولكن والأسف يقطر زفرات ويكاد ـ لولا الحياء ـ يسيل عبرات . . . كثيراً ما نجد فى حصب ما ينشر ، ومسف ما يكتب ونازل ما يحبّر صحفا لا حظ لأقلامها من صدق الفكرة ولا سمو الغرض ولا الإمعان وراء الابداع الفنى والصوغ البيانى .

وإنما هو احتطاب للألفاظ وسوق للكلمات و (نسويد) لوجوه الصحائف بما يبرأ منه «الأدب الرفيع» والدين الصادق ، ومرد هذا شهوة الشهرة وقلة المراقبة للنتاج . ونحن فى حاجة إلى أقلام لها كبرياؤها . حتى ترتفع بناشئتنا التى تعثرت فى كدر (المجلات) المتهافتة ، وأخص منها التى تنتسب إلى (الدين) ، وتستغل عواطف القراء ، ثم تطلق من مسايلها أساليب منهارة ، ومواد عفنة ، وتعابير هزيلة مكررة تذهب بنشاط المتقى ، وتعفى على قوته ، وتخدر الفتى ، فإذا عينه تدور من فرط الاجهاد بغير طائل وراء طحالب التعبير .

ولا أنكر أن أمثال هذه (المجلات) تولد فى أحضان الفقر وتنمو فى ظل الحاجة وتدرج على أكف تمدها لوجه الله لا تريد من نتاجها سمواً ولا من أسلوبها علواً ولا من عرضها تفننا .

ومن المؤسف — ونحن فى بلد اسلامى — أننا لا نجد من معارض الصحافة ولا حقول المؤلفات الشعبية الدينية إلا ما يخجل جبين الفن البلاغى ويسىء إلى الدين الذى يحبب إلى أهله القوة والمتانة ولا يرضى لهم الترهل والمخرقة والضعف .

وسبب ذلك ، أن الأقلام التى تصطنع الكتابة الدينية ، أغلبها فى أيد فاشلة ونفوس تتجر باسم الدين ولا تراه رسالة سامية يجب أن تنزه عن الرياء والاحتراف السوقى . والقلم الدينى فى حاجة إلى كبرياء وفى حاجة إلى أن يدلف إلى أعتاب الخلود ويلوذ بمراقى التجديد . ولا يكون ذلك إلا إذا غربلت مسفات المجلات وحيل بين الأقلام المتملقة واليراعات المتاجرة ، وبين التمويه باسم الدين والعيش على حسابه . وحسبى من الدعوة إلى القوة والتجديد ، أننى أرضى كبرياء قلم ما أهويته لريبة ولا حملته نحو حقول السفساف من الأدب ، ولا زيوف الطغام من الأحلاس الذين يعيشون كلا على الدين . وما ربك بغافل عما يسطر المسفون ، وتعالى الذى علم بالقلم ، وكرم من يصون كبرياءه .

مناهج التفسير

حاجة المسلمين إلى تفسير أوضح

لفضيلة الشيخ عبد المنعم النمر

دفعني للكتابة في هذا الوضوع حرج أشعر به دائماً حين يسألني أحد المتعلمين تعليما مدنياً عن تفسير للقرآن يستطيع أن يقف منه على بعض أسرار الكتاب الكريم ومعانيه . فأستعرض أمامي التفاسير التي ورثناها عن العلماء السابقين لأختار له تفسيراً واضحاً يشبع غلته ويرضى نزعته ويقرب إليه المعنى دون أن يمله أو يتعبه أو يصده عن متابعة القراءة فلا أجد وينتابني حرج وخجل ! ! أي التفاسير أدفعه إليه .

إن التفاسير التي أمامنا قد وضعها في عصور قديمة علماء فطاحل دارسون ومستوعبون لكل العلوم الشرعية والعربية وغيرها فجعلوا تفاسيرهم معرضاً لعلومهم التي يعرفونها ، وكلما وجدوا كلمة أو جملة تتصل بأية ناحية من نواحي العلوم التي يعرفونها استطردوا إليها ولو كانت الآية لا تحتاج في فهمها إلى هذا الاستطراد ، وكلما وجدوا آية في القرآن تتصل من قريب أو من بعيد بموضوع من موضوعات الخلاف في التوحيد أو النحو أو البلاغة أو الفقه خاضوا بهذه الآية غمار الخلاف وتكلموا عن أصل الموضوع والخلاف الطارئ عليه وحجج الفريق الآخر والرد عليها حتى لتشعر وأنت تخوض هذا الخضم معهم أنك بعدت عن الشاطىء كثيراً شاطىء القرآن وأصبحت في جو جديد جو الفقه أو التوحيد أو النحو أو ما شئت من العلوم .

وتجد لكل تفسير من التفاسير التي بأيدينا ميزة يتميز بها عن غيره ، وهذه الميزة التي يظهر بها التفسير راجعة إلى ما يمتاز به المفسر نفسه ، فإن كان المفسر تغلب عليه علوم اللغة ، وجدت تفسيره غاصاً بأبحاث لغوية ، وإن كان متبحراً في علوم البلاغة ، وجدت لهذا أثره البارز في تفسيره ، وإن كان فقيها وجدت

للفقه أثره الملموس الغالب على كل ما عداه فى تفسيره ، وإن كان عالما كونياً فلكياً انتهز فرصة الآيات التى تتكلم عن الكون وأفاض إفاضة لا يفهمها إلا أمثاله من العلماء الكونيين ، وبعض المفسرين يلجأ إلى نقل الاسرائيليات ويفسر بها كتاب الله وهى مدسوسة من علماء بنى اسرائيل تلقاها علماؤنا بحسن نية وفسروا بها كتاب الله ونسبوها غالباً إلى ابن عباس أو غيره من أجلة العلماء ، وبعضهم يحرص على نقل أحاديث كثيرة مختلفة فى القوة والضعف يريد أن يفسر الآية بها ، وأنت أمام هذه التفاسير كلها لا تظفر بتفسير حقيقى للقرآن تطمئن إليه نفسك وينشرح له صدرك ، وكما قيل تظفر من كتب التفسير بكل شىء إلا التفسير ، هذا فوق أن بعض هذه التفاسير يقرر أشياء بعيدة عن روح الإسلام وعن أصوله كما فى قصة الغرانيق وقصة زينب بنت جحش مما اعتمد عليه المستشرقون فى مهاجمتهم للاسلام .

وتجد لهم أحيانا تفسيرات تافهة بعيدة كل البعد عن هدف القرآن وعظمته ، فتجد بعضهم مثلا يذكر عن قوله تعالى « وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن » أن من هذه الكلمات التى ابتلى بها ابراهيم قص الظفر وحلق العانة والختان ونتف الإبط ، مما ننزه القرآن عن التعرض لمثله فى هـذا المقام ، بل نكبر الكتاب العاديين عن الخوض فيه .

وإذا كان كل كتاب من كتب التفسير ينفرد بالإفاضة فى ناحيـة من نواحى العلوم الخارجة عن لب التفسير مع عدم إغفاله العلوم الأخرى. فأننى لا أغالى إذا قلت إنها تكاد تكون خالية من البحث عن أهداف القرآن وأغراضه والروح العامة التى تشتاق إليها النفوس الظامئة ، اللهم إلا بعض إشارات وعبارات يمكن الاعتماد عليها فى الفهم العام لمعانى القرآن .

* * *

وإننا لا نزال حتى الآن مغرمين بالسير على منوال السابقين من المفسرين ، فالأبحاث اللفظية والبلاغية والفقهية والكلامية ، هى شغلنا الشاغل كلما تعرضنا لتفسير القرآن ، والمفسر العظيم هو الذى يستطيع أن يحشد فى مقاله أو تفسيره ما قاله السابقون فى كتبهم من الأبحاث البعيدة عن روح القرآن ، أما أنه يتحرر

قليلا من التقيد بهذه الأبحاث ، ويرمى إلى الكشف عن لب الآية ، ويربط بينها وبين الحياة وتياراتها دون أن يلقى بالا إلى المنشور ، فذلك المفسر فى نظر الكثير لا يعرف شيئاً عن التفسير .

ودراستنا فى الأزهر الآن متيدة كذلك بقيود السابقين ، ونظرتهم إلى دراسة القرآن ، فشغلنا الشاغل فى درس التفسير هو النحو والبلاغة والفقه وعلم الكلام ؛ فإذا ما انتهينا من التحدث عن هذه العلوم كنا قد انتهينا من فهم الآية ودراستها ، ولذلك تجد درس التفسير كأى درس من الدروس الأخرى ، لا يفترق كثيراً عن دروس الكيمياء والطبيعة فى جفافه وخلوه من الروح والعظة والهداية .

ولقد درجت على أن أسمى هذه الأبحاث التى أضطر إليها فى درس التفسير « تلبكا » فى تفسير القرآن « كتلبك » المعدة تماما ، إذ أنها تحول بيننا وبين هداية القرآن والاتعاظ به ، فتجد المفسرين مثلا حينما يتعرضون لتفسير قوله تعالى : « وفى خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون » يهتمون كل الاهتمام بإعراب الآية من حيث عطف وفى خلقكم ثم عطف وما يبث ، والخلاف فى ذلك «وآيات» معربة بالرفع أو النصب الخ ، ويذكرون كلاما لا يفهمه كثير من العلماء !! ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الآية الثانية ، وهكذا دون أن يدلوا على مكان العظة والعبرة والعظمة فى خلق الناس وبث الدواب ، ودون أن يكشفوا عن آيات الله فى خلقه مما تخشع له القلوب ، وتخر له الجباه . وهكذا لا تجد ما يشفى غلتك أو يشبع نهمك فى فهم معانى القرآن ، بينما تجد أبحاثا تجلب الصداع وتصد عن الاطلاع .

ولم نجد من المحدثين من يسد هذا النقص بتفسير تام للقرآن ، يستطيع المتعلمون فى غير الأزهر أن يقرءوه ويفهموه ويجدوا فيه ضالتهم ، ويستطيع الأزهريون وغير الأزهريين أن يشموا منه رائحة الهداية فى القرآن وناحية العظة فيه .

وقد ترك لنا الإمام المغفور له الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا عليه رحمة الله نموذجاً طيبا فى تفسير القرآن ، وإن كان لم يتم إلا أنه على كل حال فتح جديد فى عالم التفسير ، يجد فيه المثقفون ضالتهم وغايتهم ، ويستطيع من يريد أن يخدم كتاب الله أن ينهج هذا المنهج الصالح ، ولقد قام المغفور له الإمام المراغى بدروس فى التفسير نهج فيها نهج إمامه وأستاذه الشيخ محمد عبده ، فكانت هى الأخرى على قلتها فتحاً جديداً فى الكشف عن معانى القرآن وتقريبها لأذهان الناس

ومنذ سنوات عدة قام ثلاثة من كبار العلماء أصحاب الفضيلة الشيخ محمود شلتوت والشيخ عبدالوهاب خلاف والأستاذ عبد الوهاب حمودة بإلقاء محاضرات فى تفسير القرآن بدار الحكمة بمعاونة الحاج يعقوب بك عبد الوهاب وقد لقيت هذه المحاضرات نجاحا كبيراً واحتشد لها المثقفون على اختلاف ثقافاتهم حيث وجدوا فيها الغذاء الذى ينشدونه من القرآن الكريم لعقولهم وأرواحهم . ولم نجد حضرات المفسرين فى هذا يترسمون خطى المفسرين السابقين من العناية بالأبحاث اللفظية بل إنهم عنوا بالمعنى ، بالروح ، بالهدف ، بالعظة والعبرة . فكشفوا بذلك عن عظمة القرآن وعن سر خلوده .

وهذا النجاح والاقبال حتى من كبار علماء الأزهر على هذه المحاضرات ترينا إلى أى حد نحن محتاجون إلى تفسير كهذا التفسير الذى قرأناه فى المنار وسمعناه فى المحاضرات .

إننا نقرأ كثيراً أن الواجب يقضى بوضع تفسير للقرآن يترجم إلى اللغات ليعرف الأجانب منه عظمة القرآن وتشريعاته ومبادئه : وإننى أقول إن المسلمين العرب لفى أشد الحاجة إلى أن يقرءوا بالعربية تفسيراً يفهمون منه معانى القرآن ويقفون منه على عظمته وعظمة تشريعاته ومبادئه حتى إذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا .

وإننا فى الأزهر لفى أشد الحاجة كذلك إلى توجيه طيب فى كيفية دراسة التفسير بحيث نجعله درساللهداية والعلم ، نفهم فيه القرآن بدل أن نردد فيه ما نعرفه من علوم النحو والبلاغة والفقه . إذ أننا بهذا التوجيه السديد الجديد نفتح فتحاً جديداً فى عالم التفسير ونربى جيلا جديداً من العلماء يقوم علمه على اللب لا على القشور .

وإن فى الأزهر وخارج الأزهر من العلماء الأفذاذ من يستطيعونه لو تضامنوا وصح منهم العزم ـ أن يخدموا القرآن ويخدموا المسلمين ويخدموا أنفسهم ويخلدوا ذكرهم إذا وضعوا تفسيراً للقرآن يتم ما بدأه الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه السيد رشيد رضا ، ويحقق للنفوس الظامئة المتلهفة رغبتها فى التزود من كتاب الله والارتواء من معينه العذب الفرات .

فهل يفعلون ؟ ! إنا منتظرون ؟

المسلمون والتصوير

للأستاذ أحمد محمد عيسى

ليسانس فى التاريخ - ودبلوم فى الآثار - وأمين مكتبة جامعة فؤاد الأول

عرضنا فيما سبق للكلام عن اليهودية والتصوير ، وذكرنا بعض ماجاء فى التوراة من آيات تتعلق بهذا الموضوع ، وتكلمنا عن أسباب منع التصوير فى الشريعة الموسوية ، ودوافع ذلك المنع ، واحتمال تأثر المسلمين بتلك الأفكار . وننتقل بعد هذا إلى الكلام عما يأتى :

المسيحية والتصوير :

جاءت المسيحية ، ولقيت أول ماوجدت ألواناً من الاضطهاد من أتباع الديانة اليهودية من جانب ، ومن الدوله الرومانية الوثنية من جانب آخر . وعاشت المسيحية فى جحيم الاضطهاد سنوات ، ورأى المؤمنون بها أن رجال اليهود المكابرين وحكام الرومان الظالمين ، لن يغفروا لهم ثباتهم على تلك العقيدة . ولن يدعوا فرصة تمر دون تعذيبهم والقضاء عليهم ، غير أن إيمان المسيحيين الأول كان أقوى من مكر اليهود وبطش الحكام ، وقد هداهم إيمانهم إلى الهرب بعقيدتهم إلى المغاور والكهوف والسراديب ، حيث جعلوا منها أماكن للصلاة والعبادة ، كما اتخذوا لأنفسهم رموزاً خاصة يفهمون وحدهم مدلولاتها : فكان رسم السمكة يرمز ليسوع المسيح المخلص « ابن الله » ، وكانت الحمامة ترمز للروح القدس ، وكان رسم الراعى الذى يحمل الشاة الشاردة فوق منكبيه ، يرمز للمسيح الذى بعث ليخلص الناس وهكذا .

ومضت قرون وحل القرن الرابع الميلادى ، وخرجت الأفكار المسيحية من باطن الأرض إلى ظاهرها ، حين اعترف بها الأباطرة ديناً رسمياً للدولة الرومانية . ومن ثم انتشرت المسيحية فى كل مكان من بلاد الإمبراطورية الضخمة ، ورأى القائمون على أمر الدعوة المسيحية أن خير الوسائل التى تكفل للدين الجديد الثبات والاستقرار ، اتباع كثير من الأساليب والنظم التى خلقتها الإمبراطورية الوثنية دون أن يخشوا شيئاً من زيغ أو خروج على الدين . والذى حدث أن الكنيسة

أفادت كثيراً من ذلك الاقتباس الذى لم يحمل فى طياته أى خطر بالنسبة إليها . غير أن الفن المسيحى أو الفنون التى نشأت لخدمة الكنيسة وأغراضها قد اختلفت بطبيعة الحال عن الفن الرومانى الوثنى ، حيث كانت أقرب إلى البساطة ، وأطوع لرغبات رجال الدين المسيحيين ، وإن كنا لا نستطيع أن نتجاهل ما أفاده الفن المسيحى مما عاصره ، وما كان قبله من الفنون .

ولما كانت المسيحية قد استعانت منذ ظهورها بالصور لنشر العقيدة ونقلها عن طريق الرسوم الرمزية من مكان إلى آخر ، فقد ظلت على إيمانها بالفن ولزومه لشرح العقيدة ، واستخدامه فى تقريب معانى الإنجيل إلى أذهان الناس وأفهامهم ، وتوضيح الأحداث المسيحية الكبرى ، وحياة الرسل والقديسين باللوحات المصورة والتماثيل . وجدير بالذكر أنه لم يقم - حتى القرن الثامن الميلادى - أى اعتراض أو خوف من رجعة الوثنية أو نكسة المسيحية .

ولقائل أن يقول إن الاعتراض على الصور أو الخوف منها قد ظهر فى القرن الثامن الميلادى بدليل قيام حركة تحطيم الصور الدينية فى الامبراطورية الرومانية الشرقية .

والجواب على هذا أن تلك الحركة لا علاقة لها برجال الدين المسيحيين بل قام بها ودعا إليها الامبراطور نفسه لدوافع سياسية واقتصادية كان لها ما يبررها فى نظر الامبراطور حينذاك . مع أن تلك الحركة كانت قاصرة على اتباع الكنيسة الشرقية أو الكنيسة الأرثوذكسية . بينما ظلت الحال على ما هى عليه فى سائر أجزاء العالم المسيحى . وقد تخلف عن خدمة فن التصوير للمسيحية تراث ضخم رائع ليس الكلام عنه من موضوع هذا المقال .

الفرس والتصوير :

يرجع ماضى الفرس الفنى إلى ما يزيد على ثلاثين قرنا قبل الميلاد ، كما تدلنا على ذلك نتائج الحفريات التى قام بها الأثريون الغربيون هناك . وإذن فليس من السهل على شعب يرجع تراثه الفنى إلى ذلك الماضى السحيق ، أن يتحول عن طبيعته الفنية ، ولا أن يغمض عيونه عما يراه ماثلا أمامه فى كل مكان من روائع ما أنتجه الأمجاد السابقون .

ولم تحل الأفكار الدينية التى سادت إيران فى عصورها التاريخية — دون مزاولة الفرس للفنون فى شتى أشكالها ، فالزردشتية كانت تأمر الناس بعمل الخير اقتداء باله الخير ومساعدة له على أن يهزم بفضل أعوانه - اله الشر . ويفهم من هذا أن تقيد الاله فى أعماله وأفعاله ، أمر تحض عليه الزردشتية ، والاقتداء به فيما يبتغى ويريد ، كمال مطلوب . والخلاصة أن الزردشتية لا تخاف تقليد الاله بل نرى أن هذا مما تنزع إليه كل نفس طيبة ، لأن الغرض الأول من ذلك هو الوصول للكمال لا المكابرة والعناد .

أما « المانوية » فقد استعانت على أداء رسالتها بالتصوير ، ذلك أن مانى نفسه — صاحب تلك العقيدة — كان مصورا ماهرا ، وقد زين كتبه التى نشرها بين أتباعه بالصور والرسوم وتقبل الفرس ذلك الجهد الفنى قبولا حسناً وإن لم يؤمن الكثيرون منهم بآراء مانى الدينية .

ثم جاء الإسلام إلى بلاد فارس فآمن به الفرس وتناولوا أصوله وأحكامه بعقولهم لا بقلوبهم فحسب . ويبدو أنهم كانوا أكثر تأملا للنصوص وأعمق فهما للحقيقة القائلة : « ان الدين صالح لكل زمان ومكان » . وعلى قدر ما كان الفتح العربى لبلاد فارس انقلابا من حيث نظام الحكم وأشخاص الحاكمين وطبيعة الدين ، كان إيمان الناس بالإسلام استجابة لنداء العقل ، لا خضوعا لقوة السيف ولا رهبة من بطش الحاكم . على أن الفرس احتفظوا بطابعهم المعيشى القديم ، ورعوا فنونهم بإخلاص حر متوارث ، وزاولوا تلك الفنون فى ظل الحكم الإسلامى بنفس التذوق الذى كانوا يزاولونها به قبل أن يحل الإسلام بينهم ،

وفى ذلك العصر الإسلامى رسم الفرس بعض المواقف من حياة الرسول وأحداث التاريخ ، كما شرحوا كتب العلوم بالصور النباتية والحيوانية ، وزينوا الأثاث والأوانى ، ونقشوا البسط والثياب ، واتخذوا من الخزف والمعدن تحفا على صورة الطيور والأناسى ، دون أن يخطر بأذهانهم عمد لمخالفة الدين أو رغبة فى الخروج على تعاليمه . ولكن الفرس تحركوا فى إيمان عميق ، بأن الإسلام لا يكره الصور ولا يخشاها ، وأن تلك الرسوم لا تستطيع — مهما بلغت من روعة الفن — أن تميل بالنفوس عن جلال الوحدانية وسموها .

دراسات فى القرآن

لفضيلة الاستاذ الشيخ محمود النواوى

تردد الحديث عن كليم الله موسى فى خمسة وعشرين سورة من القرآن ،سردتها جميعاً ثم بدأت أذكر مواضع الآيات من تلك السور مفسراً لها .

ونتحدث اليوم عما تفيده الآيات (٦٠) فما بعدها من سورة ، البقرة تذكر آية (٦٠) من سورة البقرة أن موسى طلب السقيا لقومه ومعناه أنهم عطشوا فى الصحراء ولا ماء . فسأل الله أن يسقيهم فأكرمهم الله بأن أخرج لهم الماء من الحجر . كما أكرمهم من قبل فجعل لهم طريقاً فى البحر يبسا .

قال الله سبحانه لموسى منبها له ولهم على ما وضع من أسرار فى هذه العصا التى أنقذته من سحر فرعون فلقفت ما كانوا يأفكون ، وضربت البحر فانفرق فكان كل فرق كالطود العظيم ، قال له أضرب بعصاك الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشر عينا ، بعدد الاسباط الذى قسمهم موسى قسمة القائد الحكيم . وعلم كل أناس مشربهم بلا بغى ولا اعتداء .

بعد هذا تورد الآية (٦١) صورة من تمرد القوم فى شأن الطعام بعد أن ذكرت ما قبلها صورة من حفاوة الله بهم فى أمر الشراب ، فهؤلاء القوم قد أنعم الله سبحانه عليهم فى الصحراء المحرقة المجدبة ، فظلل عليهم الغمام وقاية ، وأنزل عليهم المن والسلوى طعاما شهيا ، وغذاء قويا مع ذلك الشراب من الحجر ، فكفروا نعمة الله وقالوا لن نصبر على طعام واحد ، وسألوه عنتا وشقاء شيئاً مما تنبته الأرض لا ما تنزل السماء ، فالتمسوا لأنفسهم الشقاء ، وطلبوا الأدنى بدلا من الأعلى .

فتحداهم الله سبحانه كما يقول ـ الأستاذ محمد عبيد ـ أن ينزلوا إلى محاربة سكان الأرض الموعودة ، ولكنهم امتنعوا جبنا كما هو شأنهم .

وفى آيتى (٦٣ ، ٦٤) أن الله سبحانه أخذ عليهم العهد والميثاق بعد أن رفع فوقهم جبل الطور تخويفا لهم حتى يقبلوا التوراة . قالوا إن نبي الله موسى طلب من قومه لما رجع من مناجاة ربه ، ومعه التوراة ، أن يعملوا بها ، فأبوا إلا أن يروا الله ويكلمهم كما كلم موسى فأخذتهم الصاعقة كما ذكر فى آية سابقة ثم بعثهم الله . ثم عادوا إلى خلافهم فأمر الله سبحانه جبريل أن ينقل الجبل فيجعله فوق رءوسهم . عند ذلك خافوا وعاهدوا موسى على العمل والطاعة . ثم خالفوا بعد ذلك . ولولا فضل الله عليهم ورحمته لـكانوا من الهالـكين .

وذكرت آية (١٧١) من سورة الأعراف أن الله سبحانه نتق الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم « خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون » ففى سورة الأعراف بعض تفصيل للرفع كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم وفى سورة البقرة بيان أنهم نقضوا العهد .

وأما آية (٥٦) مما هنا (البقرة) فهى تحدثنا أن جماعة من بنى إسرائيل اعتدوا فى السبت فمسخهم الله قردة وتذكر أن يهود الإسلام علموا ذلك وأن الله سبحانه جعل تلك العقوبة نـكالا وعبرة لمن فى زمنهم ومن بعـدهم وموعظة للمتقين ، والحادث مفصل بأكثر مما هنا فى سورة الأعراف (١٦٣ - ١٦٦) ففيها أن ذلك كان بالقرية التى كانت حاضرة البحر قريبة منه وأنهم اعتدوا لأن الله سبحانه ابتلاهم فجعل الحيتان تظهر لهم يوم يسبتون ، ولا تأتيهم يوم لا يسبتون وأن طائفة كانت تنهاهم وأخرى كانت تلوم التى تنهاهم لأن الله سيهلـكهم أو يعذبهم عذابا شديدا وأن الله أنجى الناهية وعذب الظالمة وسكت القرآن عن اللائمة فاختلف الناس فيها وأن الله أيضا قال لهم وللمعتدين ، كونوا قردة خاسئين هذا ما فى الـكتاب الـكريم فإما تعيين القرية بأكثر من أنها قريبة من البحر فهى موضع ابتلاء بالحيتان . وأما الـكلام فى أن الطائفة الناهية هلـكت أو نجت فلا ثبوت له ومن عجب النظر وفضوله محاولة التأويل فى أمر المسخ بأنه مجاز عن الخسة أو غيرها كما ينقل الشيخ رشيد رحمه الله فى التفسير .

والآيات من (٦٧ - ٧١) من سورة البقرة تقص علينا من أنباء بنى إسرائيل ما يصور بعض تنطعهم وإحفائهم فى السؤال ، وهى متصلة بما بعدها (٧٢ - ٧٣) مترتبة عليهما ، متأخر مدلولها فى الزمن عنهما ، ولكن ذلك مسالك الذكر الحكيم للتشويق حتى يستقر فى النفس ما بعده ، ويقع منها موقع الماء من ذى الغلة .

تذكر أن موسى (ص) ينقل إلى قومه عن الله سبحانه أنه يأمرهم أن يذبحوا بقرة ، وأن ذلك لغرابته عندهم يجعل موسى عندهم كالمستهزئ بهم ، فلا علاقة فى عقولهم بين قتل نفس يراد معرفة قاتلها ، وبقرة يؤمرون بذبحها ، والاستهزاء من صفات الجاهلين ، فاستعاذ موسى بالله أن يكون من الجاهلين .

فطلبوا من موسى أولا أن يعين لهم صفتها ، ما هى ، ففهم أن ذلك سؤال عن سنها فسأل ربه فأجاب بأنها لا فارض « مسنة » ولا بكر « صغيرة » . ولكنها عوان « نصف » بين ذلك . ثم سألوه ثانيا عن لونها فقال إنها صفراء شديدة الصفرة تسر الناظرين بهذا اللون المحبوب . وطلبوا ثالثا زيادة التمييز فى الصفة أسائمة هى أم عاملة . واعتذروا عن هذا الإسفاف بأن البقر تشابه وأن لهم أملا فى الاهتداء فقال لهم إن الله سبحانه يطلبها غير عاملة فهى ليست ذلولا تقلب الأرض للزراعة . ولا تسقى الأرض المهيأة لها ويريدها مسلمة ليس فيها لون يخالف لونها فقالوا الآن جئت بالبيان الحق فذبحوها وما كادوا يفعلون . ولو أنهم ذبحوا بقرة لكفتهم أيا كانوا ، ولكنهم شددوا فشدد عليهم ، وبهذه القصة سميت السورة الكريمة « سورة البقرة » ذلك فيما أفهم لأنها لم تذكر فى غيرها وفى « ٧٢ و ٧٣ » أنهم قتلوا نفسهم فاختلفوا فى القاتل وتدافعوا كل يدفع عن نفسه ويتهم غيره ولكن الله مبين للحق فلذلك قال اضربوا القتيل ببعض تلك البقرة وقوله « كذلك يحب الله الموتى » صريح فى أن الله أحياه أو كالصريح فيه ، فلا عبرة بتعسف الشيخ رشيد وتعقيده فى آيات الكتاب . والله الموفق للصواب .

فى صحبة المكفوفين

بقلم فضيلة الأستاذ أحمد الشرباصى

المدرس بالأزهر الشريف

يخطىء بعض الناس حين يظن أن القرآن الكريم قد شوه صورة العمى وقبح منظر الأعمى ، لأنه أكثر من ذكر العمى والأعمى فى مواطن الذم والسوء ؛ وهذا ظن قد يساعده الشكل والمظهر ، ولكن الأمر يتبدل حين النظر الدقيق والبحث العميق ؛ وقد تتبعت الآيات الكريمة التى وردت فيها مادة « العمى » ثم بحثتها ، فلاحت لى فيها سمة غالبة ، هذه السمة هى أن القرآن لا يريد بمادة « العمى » فى أكثر استعمالاته كف البصر وزوال الرؤية من العين ، ولكنه يريد بها ضلال العقل وسفه التفكير وخطل الرأى ، ولنستعرض الآن طائفة من تلك الآيات لنتبين فيها ذلك .

يقول الحق تبارك وتعالى فى سورة البقرة واصفا شأن المنافقين : « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » وهؤلاء المنافقون مبصرون حسا ، ولكن القرآن أراد أن بهم عمى عن الحق وضلالا عن الهدى ، فما أراد القرآن العمى الحسى ، بل أراد العمى المعنوى ، وهو شر ما يعاب به الإنسان . ويقول فى سورة الأنعام : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها وما أنا عليكم بحفيظ » . ويقول فى سورة يونس : « أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون » والمراد به أيضا الضالون السفهاء الذين لا يستجيبون . ويقول فى سورة الإسراء : ومن كان فى هذه أعمى فهو فى الآخرة أعمى وأضل سبيلا » ، والمراد الأعمى عن الحجة المنصرف عن الدليل ولو كان له بصر زرقاء اليمامة . وفى سورة الحج يقول : « فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور » ، والآية لا تحتاج إلى تعليق ، فهى فى الباب أوضح ما يكون . ويقول فى سورة النمل : « وما أنت بهادى العمى عن ضلالتهم » والمقصود مفهوم . ويقول فى سورة فصلت : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » فالمقصود بالعمى هنا هو الضلال لا فقدان البصر ولذلك قوبل بالهدى .

وفى نفس السورة يقول عن القرآن : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى » أى لا يفهمونه ولا يتأثرون به لبلادتهم وظلمة قلوبهم وعقولهم . وفى سورة محمد يقول عن المجرمين من الكافرين والمعاندين : « أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » أى أضلهم عن الإيمان فلا يهتدون إلى سبيل الرشاد ، ولذلك عقب الآية السابقة بقوله : « أفلا يتدبرون القرآن أم على القلوب أقفالها » .

ويقول فى سورة فاطر : « وما يستوى الأعمى والبصير ، ولا الظلمات ولا النور ، ولا الظل ولا الحرور ، وما يستوى الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من فى القبور » . قال المفسرون : هذه أمثال ضربها الله فى حق المؤمنين والكفار ، فقوله : الأعمى والبصير أى العالم والجاهل ؛ ولا الظلمات ولا النور أى الكفر والإيمان ؛ ولا الظل ولا الحرور أى الجنة والنار ؛ وما يستوى الأحياء ولا الأموات أى المؤمنون والكافرون ! . . .

من هذا نرى أن أغلب الاستعمالات التى وردت فى القرآن الكريم لمادة « العمى » أريد بها عمى القلب والعقل والروح ، لا عمى البصر .

فإذا أراد القرآن استعمال مادة « العمى » بمعناها اللغوى الأول وهو كف البصر ، لم يستعملها على وجه الذم والتقبيح ، بل يذكرها فى مواطن الرحمة أو التخفيف ، فهو مثلا يقول : « عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذّكّر فتنفعه الذكرى » فيذكر المكفوف هنا باللفظ الصريح ، لا ليتندر عليه ولا ليسخر منه ولا ليستهزئ به ، وإنما لكى يذكر رسوله صلوات الله وسلامه عليه بأن هذا « الأعمى » كان فى حاجة إلى الرحمة والإقبال ، لا إلى الإعراض أو الإهمال ،

والقرآن الكريم يقول فى آية أخرى : « ليس على الأعمى حرج » فيذكر أيضاً كلمة « الأعمى » بمعناها الأصلى وهو كف البصر ، ولكن فى أى موطن ؟ . ليس فى موطن الذم والقدح والتجريح ، بل فى موطن الرحمة والتخفيف ! .. وإذن فالقرآن لا يسخر من الأعمى كما يظن الجهال ، ولا يذكره ذاما أو ناقدا ؛ وإذن فاستشهاد الكثيرين بالآيات التى تتضمن مادة « العمى » فى الحملة على المكفوفين أو السخرية بهم ، استشهاد يدل على عمى فى العقل وبلادة فى الشعور . وقد التفت إلى هذا المعنى بعض العباقرة وذكروه فى كلامهم ، فقال إبراهيم التيمى

« كفى بالمرء حسرة أن يفسح الله له فى بصره فى الدنيا ، وله جار أعمى ، فيأتى يوم القيامة أعمى ، وجاره بصيرا » . وقال معاوية بن أبى سفيان لعبد الله بن عباس : ما بالكم تصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ (وكان ابن عباس قد كف بصره فى آخر حياته) فألقمه ابن عباس حجرا حين أجابه قائلا : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية !. وسمعت عفيرة بنت الوليد البصرية العابدة رجلا يقول : ما أشد العمى على من كان بصيرا . فقالت : يا عبد الله ، عمى القلب أشد من عمى العين فى الدنيا ، والله لوددت أن الله وهب لى كنه محبته ولم يبق منى جارحة إلا أخذها !... وقال رجل للقاسم بن محمد : لقد سُلبتَ أحسن وجهك . قال : صَدقت غير أنى مُنعت النظر إلى ما يلهى ، وعُوضت الفكرة فى العمل فيما يجدى !...

والقاعدة التى نريد تثبيتها فى الأذهان ولو بالإلحاح فى الإعادة والتكرار هى أن كف البصر ليس بعيب موجب للاحتقار ، وليس بنقص يعوق صاحبه عن السبق والتبريز فى الحياة إذا هيئت له الوسائل والأسباب ، وكل ما يقال فيه هو أنه نقص جسمى لا يلام عليه صاحبه ولا يعاب ، وأحيانا يهش له صاحبه ويفرح به ، إذ يريحه من سيئات وييسر له حسنات ، ولعل أبا العلاء المعرى أشار إلى ذلك من طرف خفى حين قال : « أنا أحمد الله على العمى ، كما يحمده غيرى على البصر » .

وكفيف البصر إذا أوتى الموهبة وواتته الظروف قد يعلو غيره من المبصرين وقد يسودهم فى مواقف يقام لها كل ميزان ؛ ومن أمثلة ذلك أن أبا العلاء المعرى الضرير دخل ذات يوم على المرتضى بلا قائد ، فعثر فى طريقه برجل ، وتعجل الرجل فقال ، من هذا الكلب ؟ . فأراد أبو العلاء أن يرد عليه سبه بأقذع منه ، ولكن فى أسلوب مطوى ومن طريق غير مباشر ، وفى الوقت نفسه يبين له أن هذا الضرير المشتوم أفضل فى علمه وحفظه من البصير الشاتم ، فأجابه أبو العلاء معرضاً به : الكلب يا هذا هو من لا يعرف للكلب سبعين اسما ، ومعنى هذا أن المعرى يعرف للكلب سبعين اسما ، وإلا لحق عليه باعترافه هو أنه كلب ، وهذه عبقرية لغوية مدهشة ، ومعناه أيضاً أن أبا العلاء يدرك أن شاتمه لا يعرف هذه السبعين فهو إذن الكلب ! . . ولما شاهد المرتضى ذلك قرب أبا العلاء وأدناه واختبره فوجده عالماً ، مشبعاً بالفطنة والذكاء ، فأقبل عليه وهو ضرير إقبالا شديدا بعد أن ترك المبصرين وراءه ظهرياً ! . . .

فكرتا العالمية والقومية
فى نظر الاسلام

لفضيلة الأستاذ محمود فياض
مدرس التاريخ الاسلامى بكلية أصول الدين

لقد أظهر البحث المقارن فى علمى « السياسة والدستور » . أن الإسلام هو أول نظام عالمى سليم عرفته الإنسانية حتى اليوم ، وأن ما ظهر من فكر « عالمية » بعد سنة ٥٧٠ من ميلاد المسيح ، إنما استمد من النظم الإسلامية ، أليس الإسلام قد ألغى الفروق بين الأفراد فى الأمة ، ومتعهم بالحرية والأخوة والمساواة ؟ أوليس قد ألغى الحواجز والامتياز بين الشعوب ، وجعل الشعب فى الأمة الإنسانية فرداً . ومن مقتضيات الأخوة والقرابة ، المحبة والمودة ، وحسن المعاملة ، وضمان السلامة للجميع ، وتيسير الخير للجميع ، والتعاون فى سبيل صالحهم العام ، وهذا هو معنى التعارف الذى جعله الله حكمة من حكم إيجاده البشرية « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » فالتعارف والسلام هما أساس العلاقات بين الناس أفراداً كانوا أو شعوباً ، وكما يتفاوت الأفراد فى النشاط والكسب ، والقدرة على العمل ومبلغ النبل فى القصد من العمل ، كذلك تتفاوت الشعوب فى ذلك ، وهذا هو موضع تقدير الشرف ، ودرجة التكريم للفرد أو للشعب ، وفق القاعدة الكلية « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » أى أبعدكم عن الشرك الدينى والاجتماعى ، وأتقاكم للمضار والمفاسد ، وأكثركم دفعاً لها عن الأفراد والشعوب .

ونظراً لهذه النظرة الإسلامية إلى البشرية كان الإسلام ديناً عاماً للبشرية كلها ، لا خاصاً بشعب من شعوب الإنسانية ، واتجه فى دعوته إلى البشرية كلها . لا إلى الشعب العربى الذى بعث فيه رسول الإسلام محمد صلوات الله عليه ، ولهذا فهو ينادى البشرية فى القرآن الكريم بـ « يا أيها الناس » « يا بنى آدم » وغالباً ما تجد الحديث الذى يعقب هذا النداء فى القرآن الكريم شأناً عاماً للإنسانية ، لا خاصاً

بتنظيمات يعمل بها الذين آمنوا . . وهذا أيضاً هو مغزى عموم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » .

قرر الإسلام هذا المعنى منذ ١٣٨٣ عاما (أى منذ بعث محمد رسولا إلى الناس كافة ، وهذا المعنى هو ما تحاول البشرية أن تصل إليه اليوم وعبثا تحاول كما حاولت فيما مضى ! !

حقيقة كانت المدنية اليونانية من عوامل إزالة الفوارق بين الشعوب . لأنها كانت خلاصة مدنيات لشعوب مختلفة ، وساعدت على قيام دويلات فى حوض البحر الأبيض المتوسط فى الشرق والغرب ، فجاز أن توصف بأنها كانت نواة لنظام عالمى يجمع أكثر من أبناء شعب واحد فى دائرة حضارة واحدة ، ولكنك إذا عرفت أن « أرسطو » . عندما تحدث عن الرقيق عرفه « بأن كل من كان غير يونانى فهو رقيق لليونانى . لأن اليونانى لا يمكن أن يسترق ولا يحل أن يستعبد وكل غير يونانى يجب أن يكون عبداً لليونانى ، أو من شأنه ذلك ، لأن عبوديته لليونانى تهذبه وترقيه ، وتنمى مواهبه » ! ! وإذن فالمدنية اليونانية كانت مدنية استعمارية ، تحتم الفروق بين البشر ، ولا تعترف بحقوق الإنسان لغير اليونانى ، ودعوى « ارسطو » هذه هى أساس النظريات الاستعمارية التى أخذت ألوانا مختلفة فى العصور الحديثة (استعمار . حماية انتداب . وصاية . مساعدة الخ) .

وحقيقة أيضاً أن الامبراطورية الرومانية القديمة كانت عاملا قضى على الحواجز السياسية بين الشعوب ، بتعميمها حق المواطنية الرومانية لأبناء الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ابتغاء الامتزاج فى نظام عالمى واحد ، يقوم على التقليل من حدة الفوارق الجنسية والسياسية بين الشعوب سيما بعد أن انتشرت المسيحية فيها وحاول الدين ورجال السياسة جمع العالم كله فى دائرة روحية واحدة تظلها راية سياسية واحدة .

هذا . ولما جاء الإسلام باتجاهه إلى الإنسانية ، ودعى إلى وحدتها على أساس الأخوة والمحبة ، ورسم للبشرية منهجا دينيا واجتماعيا وسياسيا ، يخلصها من قيود

الذل والعبودية ، ويحققلها السلام ، ويضمن لها السعادة ، وكان بذلك أول تشريع أكرم الإنسانيـة ، وكان صاحب فضل ظاهر ، وأثر باهر ، فى رقيها وسعادتها وتوجيهها نحو المثل العليا ، بقى أن يقول لى القارىء الكريم ، إذا كان الإسلام قد دعى إلى العالمية فما موقفه من القومية أو (الوطنية المحلية) ؟ وأبادر فأقول لك : إن الإسلام فى دعوته إلى العالمية لم يغفل القومية ولم يدع إلى إهدار الوطنية وهو هنا على عكس الشيوعية تماما ، وذلك أن الإسلام يدعو إلى العالميـة وفق منهج خاص يقول : إن بنى الإنسان إخوة وذوو أرحام ، وهم أحرار متساوون فى الحقوق والالتزامات ، ليس لفرد ولا لشعب أن يستعبـد فرداً أو شعبا ، ثم يدعوهم إلى إقامة العلاقات بينهم - فردية وجماعية - على المحبـة والمودة والسلام ، والبعد عن الظلم والطغيان ، كما يدعوهم إلى التضامن الجماعى فى سبيل خير الجميع ، ولضمان تحقق ذلك كله يدعو البشرية إلى عبادة إله واحد هو خالقها ، والاحتكام إلى دستور واحد (القرآن) من صنع الخالق لا من صنع البشر .

ولم تقتلع الشعوب من عاداتها وتقاليدها ، إذا لم تتناقض مع مبادىء الإسلام الكلية ، بل نجده يقر العرف (وهو مجموعة العادات والتقاليد للشعب) ، ويحكمه فى كثير من الجزئيات ، ما دام متفقاً مع قواعد الإسلام الكلية ، حتى قال الفقهاء : المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً ، والإسلام إذ يصبح موجهاً للإنسانية ، ويصبح دستوره دستورها ، يصبح لدى الناس قوميتان ، قومية عالمية إنسانية تساوى عندئذ القومية الإسلامية ، وقومية خاصة هى الوطنية المحلية لكل شعب من الشعوب ، وفى إبان العصور الإمبراطورية الإسلامية .

عرف الشرقيون بصفة عامة فى العصور الإسلامية المختلفة حتى قبيل انهيار الخلافة العثمانية باسم المسلمين ، وعرفت بلادهم ببلاد المسلمين أو دار الإسلام ، وعرف المسلمون بلاد غيرهم بدار الحرب أو بلاد الكفار ، وتحدث الأوروبيون عن الشرقيين باسم المسلمين أو المحمديين ، وألغيت الحدود بين بلاد المسلمين ، وأصبحت أرض الإسلام موطناً عاما للمسلمين ، ومع هذا كان لكل شعب خصائصه

ومميزاته ، وعاداته وتقاليده وعرفه ، وطرق معيشته ، وأسلوبه الخاص فى الحياة ، وكان لكل إقليم حكومته ونظامه واقتصاده ، والإسلام من وراء ذلك كله مرشد وموجه ودستور عام ، وهذا غير ما دعت إليه العالمية اليونانية ، والرومانية والشيوعية ، فهى تصر إصراراً على إلغاء القوميات ، وتوجب انمياعها فى القومية اليونانية أو الرومانية أو الروسية مثلا .

وألفت النظر إلى أن الإسلام عندما دعى إلى العالمية لم يحتم أن تكون للمسلمين فى شتى البقاع حكومة واحدة ، ولم يحتم أن تكون للإنسانية حكومة واحدة ، كما أنه لم يمنع قيام مثل هذه الحكومة لو كان فيها تحقيق الخير والسلام لبنى الإنسان ! فهو يرى ذلك شأنا من شئون البشرية تقدره حسب مصلحتها ، فإذا رأى المسلمون أو البشرية أن سعادتها وسلامتها وتحقيق رخائها والعدالة فيها تحققه حكومة عالمية مركزية واحدة ، فمن حقها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها فى حكومة عالمية اتحادية تشرف على حكومات شتى لقوميات وشعوب شتى ، تتفق هذه الحكومات فيما بينها على طاعة الحكومة الاتحادية (كحكومة الخلافة فى العصور الأولى) فلها إنشاء هذه الحكومة ، وإذا رأت مصلحتها فى حكومات مركزية مستقلة لكل شعب من شعوبها فلها ذلك ، لا يحتم الإسلام شكلا ولا لونا من الأشكال السياسية ولا يمنعه ، ويترك ذلك لتقدير الانسانية ، ولكن الأمر الذى يحتمه الاسلام هو أن يكون الحكم وفق الدستور الاسلامى ، وان تكون الأخوة والحرية والمساواة والتعاون والسلام هى أسس العلاقات بين الأفراد والجماعات والشعوب والحكومات ، وهذا من أهم مميزات العالمية الاسلامية عن غيرها ، عالميتنا لا تلغى القومية ولا تدعو إلى التسلط والطغيان الاستعمارى واستعباد الشعوب ، لأنها تقوم على دين مثالى يقرر الحرية والأخوة والمساواة للأفراد وللشعوب ، ويوجب المحبة والتعاون على خير الجميع ، ويأمر أن تكون العدالة والسلام والبر والاحسان هى الروابط بين الأفراد والشعوب ، عالمية الاسلام هى سبيل السلام ، ولن تتحقق للإنسانية أحلامها وسعادتها إلا بها ؟

« جهاد الهوى .. »

لفضيلة الأستاذ على محمد حسن العمارى

المدرس بالأزهر

النفس الإنسانية مطبوعة ، على ضرائب من اللؤم ، ومتهيئة ـ دائما ـ لتقبل ما يوحى به الهوى ، وكل تشريع سماوى أو أرضى يجعل من أول أهدافه تطهير النفس من أهوائها ، وتنظيفها من نزعات الشر فيها ، وإذا كان فى بعض التشاريع الوضعية ما يساعد النفوس على اتجاهاتها الصغيرة ، فما نشك أن هذه تشاريع فاسدة مفسدة ، فإن المجتمع الصالح لا يتكون إلا بأفراد صالحين ، والفرد لا يكون صالحا حتى يكون العدل والانصاف ، وحب الخير للآخرين ، والرغبة فى إنهاض أمته ، ومساعداتها على الحياة الكريمة ، حتى تكون كل هذه أولى أهدافه ، وأسمى أغراضه .

وإذا سألتنى عن أمة يشيع فيها الفساد ، ويحالفها التأخر والانتكاس ، وتتقطع أواصر المحبة والإخلاص بين بنيها بعضهم مع بعض ، وبين شعبها وحكومتها ، وبين رؤسائها ومرءوسيها ، إذا سألتنى عن السر فى كل هذه المساوىء ، لم أتردد مطلقا أن أقول لك : أن هذه الأمة يسود فيها الحكم بالهوى ، والميل مع الأغراض الشخصية ، والخضوع للنوازع الدنيا فى نفوسها ، وبذلك تندفع هذه الأمة إلى التأخر ، فالفناء ، بمقدار ما تسود فيها أهواؤها ، وتتحكم فى بنيها شهوات نفوسهم ، ومنذ أربعة عشر قرنا أنذرنا الصادق المصدوق بهذا الذى نئن من تفشيه بيننا ، فقد ورد أن امرأة من بنى مخزوم سرقت ، وهم النبى صلى الله عليه وسلم أن يقيم عليها الحد ، ولكن قريشا أهمهم أمرها ، وخافوا أن تقطع يدها ، وهى كريمة قومها ، وسيدة من سيدات قريش العظيمات ، فقالوا من يكلم رسول الله فيها ، فقال قائل : ومن يجترىء عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ، فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أتشفع فى حد من حدود الله عز وجل ، ثم قام فخطب الناس ، ثم قال : إنما هلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم

الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

إن هذه قصة يسيرة صغيرة ، ولكن دلالتها عظيمة الشأن ، كبيرة الخطر ، فالمخزومية سرقت شيئاً قد يؤثر فى حياة فرد ، فكيف يكون الحال لو أن الأيدى القذرة امتدت إلى ما يؤثر فى حياة الأمة ، ثم ترك الشريف لشرفه ، فإذا كان ضعيفاً وسرق ما لعله فى حاجة إليه رحبت به القيود والسجون ، لا شك أن مثل هذا السلوك خطير جداً على حياة الأمم ، لأنه يولد الأحقاد والضغائن فى النفوس ، ولأنه يسهل لمن يستطيع أن يعرض أمته لأخطر الشرور والأحداث .

والراصد لأحوالنا الاجتماعية ، يحزنه أشد الحزن ما يجده فيها من تغلب الأهواء ، وسيطرتها على كل شأن من الشئون ، وليس الحكم بالهوى ، فيما يخالف القانون ، هو المظهر الوحيد لسيطرة الهوى وسلطانه ، بل هناك فى صغائر الأمور وكبارها أهواء مطاعة ، وشهوات متبعة ، وربما بدا لبعض السذج أن اتباع الهوى فى بعض الأمور له ما يبرره ، ولكن ذلك وسوسة الشيطان ، وخداع النفوس ، نأخذ مثلا الامتحانات ـ ونحن فى موسمها ـ فنرى بعض القائمين على أمرها يخضعون فى كثير من الأحايين لأهوائهم ، فلهذا قريبه ، ولذلك ابن صديقه ، والثالث مُوصًى على طالب أو تلميذ ، ولا بأس عندهم أن ينال واحد من هؤلاء أكثر من حقه ، ولكن لو كنا ننظر إلى الأمور نظرة جادة لرأينا أن الامتحان قضاء ، وأنه كما لا يجوز للقاضى أن يخضع لهوى نفسه ، فكذلك لا يحق للمدرس أن يتعدى العدل والحق ، فكل محاباة لضعيف إنما هى ظلم لقوى ، وليس أضر على الناشىء من أن يشعر أنه يصعد على يد غيره ، فإن ذلك يعوده الاستهانة بالعمل ، والفسق فى الحياة ، وكان يقال : إذا رأيتم خَلة شر رائعة من رجل فاحذروه ، وإن كان عند الناس رجل صدق ، فإن لها عنده أخوات ، وإذا رأيتم خلة غير رائعة من رجل فلا تقطعوا عنه أياسكم ، وإن كان عند الناس رجل سوء ، فإن لها عنده أخوات .

فإذا انتقلنا إلى مسلك الرجل مع أبنائه ، أو الأخ مع أخوته ، أو الصديق مع أصدقائه ، رأينا الهوى متغلبا فى كثير من الأحايين ، ووجدنا الأمر كما يقول الشاعر :

فلست براد عيب ذى الود كله ... ولا بعض ما فيه إذا كنت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة ... كما أن عين السخط تبدى المساويا

ولقد حدثوا أن رجلا ممن يأكلون العيش بأخلاقهم ، كان يسير مع بعض الأمراء على نهر يمر ببلدة من البلدان فقال الأمير ما أنفع هذا النهر لأهل هذا المصر فقال صاحبه : اجل أيها الأمير ، والله أنهم يستعذبون ماءه ، وتفيض مياههم إليه ويتعلم صبيانهم فيه العوم ، وتأتيهم تجارتهم وطعامهم فيه ، فلما إن كان بعد ذلك ساير هنا هذا الرجل أمير آخر ، وكان عدواً للأمير الأول ، فقال : ما أضر هذا النهر بأهل هذا المصر ؛ فقال صاحبه وهو الذى امتدح النهر بالأمس - أجل أيها الأمير ، تنز منه دورهم ، ويغرق فيه صبيانهم !

وليس الهوى الذى يدفع النفس إلى الغواية والشر ، بأقل خطرا من هذا الهوى الذى يدفعها إلى أن تجانب العدل والانصاف حين تحكم ، أو حين تعامل الآخرين فإن الهوى لا يأتى بخير أبدا ، وهو غلاب ، فالإنسان فى حاجة ماسة إلى إرادة قوية تعصمه من الزلل ، وتحول بينه وبين الخضوع لما تمليه عليه نفسه الأمارة بالسوء ، ولذلك يقول البوصيرى :

والنفس كالطفل أن تهمله شب على ... حب الرضاع . وإن تفطمه ينفطم
فاحذر هواها ، وحاذر أن توليه ... أن الهوى ما تولى يصم أو يصم

ويقول العارفون من الأولين : جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم ، ما أشد فطام الكبير ، بل كانوا يقولون قاتلوا أهواءكم أشد مما تقاتلون عدوكم وقيل لعمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه : أى الجهاد أفضل ؟ قال : جهادك هواك .

وجماع ذلك كله قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وقد رجع من بعض غزواته : رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، يريد مجاهدة النفس وشهواتها فإن الشجاع الباسل قد يتغلب على أقرانه ، ولكنه يضعف أمام رغبات نفسه ، وقد يرد الخميس العرمرم ، ولكنه لا يستطيع أن يرد هوى من أهواء نفسه ، ومن الصريح فى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : ليس الشديد بالصرعة وإنما الشديد الذى يملك نفسه عند الغضب .

في القصة المصرية

للأستاذ أحمد عباس صالح

فن القصة :

تحتل القصة مركز الصدارة الآن فى الآداب العالمية ، فهى ضرب من الفن يمتاز عن الفنون الأخرى بالشمول . إذ بينما تختنق المسرحية فى « المنظر » أو « الحوار » نجد أن الحركة وامتداد الحوادث وتغير الامكنة لا تتوقف فى القصة بل تمضى مضيا طبيعيا يطابق واقع الحياة . وعلى العكس يقف فن التصوير والنحت عاجزاً فى حيزه الضيق .

وفى الشعر لا تكاد القصيدة تفى بأغراضها الفنية إلا فى مجال محدود حيث العناية باللفظ والموسيقى والقافية تقف بالمرصاد لتمنع القصيدة عن المضى فى متابعة الحياة متابعة واقعية .

ومع أن الرواية قديمة قدم الانسان ذاته ، إلا أن الشكل الفنى المصطلح عليه الآن ، من حيث الوحدة والتتابع والحبكة الخ . . لم يظهر إلا فى القرن الثامن عشر . وعلى هذا ففن القصة الحديث مبتوت الصلة بالأساطير والحكايات والملاحم والسير والرحلات التى عرفت قبل هذا التاريخ . كما أن الفرق كبير بين المسرحية (Play) وبين الرواية (Novel) فالأولى يشترط فيها أن تمثل على المسرح [1] ويكون « الحوار » فيها عصب الموضوع بينما الثانية لا تمثل على المسرح ولا تتقيد بالحوار ، وتستطيع أن تتنقل حيث تشاء ولها أن تطيل الوقوف عند حادثة ما أو أن تكتفى بالعرض السريع .

ولقد ظلت الرواية (Novel) تتطور فى الشكل (Form) على أيدى كبار كتابها حتى أخذت شكلها الذى نعرفه الآن .

---

(١) كتبت كثير من المسرحيات فى العصر الحديث للقراءة فقط .

وللحرية التى تتمتع بها فى الأداء ظهرت طرق متعددة لكتابتها فهناك اليوميات والخطابات والاعترافات الخ . . ولكنها جميعا محتم عليها أن تكون ذات وحدة .

وقد انقسم هذا الفن بعد فترة من التطور إلى ثلاثة أقسام : الأول وهو القصة الطويلة (Novel) وميدانها فسيح ، إذ تستطيع أن تعرض لحياة شخص ما منذ نشأته مثل قصة (أوليفر تويست) للكاتب الانجليزى تشارلز ديكنز أو لحياة جيل من الناس مثل رواية (الحرب والسلم) للكاتب الروسى تولستوى .

والثانى وهو القصة القصيرة (Short story) وقد بدأت فى شكل حكايات قصيرة (Tales) على يدى بوكاشيو الإيطالى ، ثم تلقاها إدجار آلن بو الأمريكى ونزل بها ميدان الصحافة ، ومن ثم انتشرت، فى أوربا وفى ربوع العالم .

وتختلف الأقصوصة عن القصة فى أنها غالبا تعنى بحادثة واحدة أو جانب واحد وتدور حول فكرة واحدة ، وتمتاز بالتركيز والعرض السريع . وهى التى تطلع علينا بها الصحف اليومية والأسبوعية من حين لآخر .

والنوع الثالث وهو أحدث هذه الأنواع جميعا إذ يقف بين القصة والأقصوصة ويسمى (Novelet) وهو أطول من الأقصوصة وأقصر من القصة ، ابتدعها الكاتب الروسى تشيكوف ، وتبعه الكاتب الانجليزى المعاصر سومرست موم وأصبحت شائعة الآن فى الآداب جميعا .

وتمتاز بأنها لا تمر مروراً سريعاً على الحياة التى تعرضها ، مثلما تفعل الأقصوصة كما أنها لا تطنب اطناب القصة الطويلة ، والواقع أنها نبعت من القصة القصيرة ، ففيها تجد الخط (Line) الواحد الذى قلما يتسع ، ونجد هذا واضحا فى قصة (رجل مجهول) [1] لتشيكوف ، ثم أنها تتبع جانبا معينا من حياة شخص ما ولا تتعدى إلى حياة الآخرين إلا بإيجاز .

---

(١) ترجمت هذه القصة إلى اللغة العربية دار الكتاب المصرى .

فهرس

المجلد الثانى والعشرين

(لسنة ١٣٧٠ هـ — ١٩٥١ م)